موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

تفسير القران الكريم

من سورة المؤمنون
حتى
سورة الشعراء

info@nabulsi.com www.nabulsi.com

التفسير المطول - سورة المؤمنون 023 - الدرس (1-8): تفسير الآيات 1 – 7
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-08-05

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة المؤمنون.

تسمية سورة المؤمنون:

سورة المؤمنون على الحكاية، قد يقول أحدكم: لماذا لا نقول: سورة المؤمنين على أنها مضاف إليه ؟ المؤمنون اسمٌ علمٌ على هذه السورة، فتبقى مرفوعة بالواو، فسورة المؤمنون على الحكاية، إذاً مع الدرس الأول من سورة المؤمنون.

بسم الله الرحمن الرحيم

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

فضل سورة المؤمنون:

يقول عليه الصلاة والسلام:

((أُنْزِلَ عَلَيّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنّ دَخَلَ الْجَنّة، ثُمّ قَرَأَ:(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)حَتّى خَتَمَ عَشْرَ آيَاتٍ))

(الترمذي عن عمر)

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11))

(سورة المؤمنون)

هذه هي الآيات العشر التي من أقامَهُن دخل الجنة.

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ

تحقُّق فلاح المؤمنين:

فقد: حرف تحقيق، إذا جاءت قبل الفعل الماضي، وتأتي قد حرف تقليل إذا جاءت قبل الفعل المضارع، تقول: قد نجح فلان لتحقيق الوقوع، وتقول: قد ينجح فلانٌ لاحتمال الوقوع، بين تحقق الوقوع، وبين احتمال الوقوع مسافةٌ كبيرة، فقد إذا جاءت قبل الفعل الماضي تُعْرَب حرف تحقيق، وإذا جاءت قبل الفعل المضارع تعرب حرف تقليل، فهنا:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

الفلاح تحقق، أما أي فلاح آخر ينجزه الإنسان في الدنيا ربما لا يكون محققاً، لو اشترى بيتاً فخماً، وبالغ في تزيينه، قد تعاجله المنية قبل أن ينتهي، فهذا النجاح ليس محققاً، وقد ينال المرء شهادةً عالية، وقد تعاجله المنية قبل أن يستفيد منها، وقد يقبض الإنسان مبلغاً كبيراً، وقد تعاجله المنية قبل أن ينفقه، فأيُّ نجاحٍ على وجه الأرض ليس محققاً أكيداً، لكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

ورود فعل أفْلَحَ في القرآن في ثلاث آياتٍ حصرا:

ولو تتبّعت فعل أفلح في القرآن الكريم لوجدت أن هناك ثلاث آيات فقط:

الأولى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

(سورة الشمس)

الثانية:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

(سورة الأعلى)

الثالثة:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

الفلاح هو تحقيق المراد:

وفلح الأرض أي شقّها، والفلاح هو النجاح، لو أن إنساناً خطط لمستقبله، أراد أن يكون طبيباً فاجتهد في الشهادة الثانوية حتى حقق مجموعاً يتيح له أن يدخل كلية الطب، ودخل إلى كلية الطب، وتخرّج طبيباً، ثمّ تخصص، ونال أعلى شهادةٍ في العالم، وعاد إلى بلده، وافتتح عيادةً، وذاع صيته، وحقق دخلاً كبيراً، فاشترى بيتاً، وتزوج، واشترى مركبةً، وكان دخله فوق حاجته، نقول: هذا الطالب أفلح في دنياه، أي رسم خطة، وهذه الخطة تحققت، فالفلاح هو النجاح، والفلاح هو الـفوز، والفلاح هو التفوّق، والفلاح هو تحقيق الهدف، والفلاح هو تحقيق المراد، الله سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

أي الذين حققوا الهدف من خلقهم هم المؤمنون، هناك من يتفوّق في الدنيا ؛ هناك أصحاب الأموال الطائلة، هناك أصحاب المراتب العليّة، هناك أصحاب الشهادات الرفيعة، هؤلاء حققوا أهدافهم في الدنيا، لكنّ الحياة الدنيا إذا قيست إلى الحياة الآخرة ليست بشيء، فالنجاح في الدنيا لا يعني النجاح الذي يرتضيه الله سبحانه وتعالى لعباده، لأن النجاح الذي أراده الله سبحانه وتعالى لعباده هو النجاح الأبدي:

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

(سورة الحديد)

النجاح الدنيوي لا قيمة له:

وما الحياة الدنيا إلا كمخيطٍ غُمس في مياه البحر، فلينظر أحدنا بما يرجع، إذا كانت الآخرة بحراً محيطاً كبيراً، الحياة الدنيا نقطة ماءٍ يحملها مخيطٌ دقيق، فالفلاح في الدنيا لا يُعَدُّ عند الله فلاحاً، قد يعد عند الناس فلاحاً، هذا له مال طائل، وذاك له مرتبةٌ عالية، وآخر له دخلٌ كبير، ومنهم من له أولادٌ نجباء، وهذا له زوجةٌ تروق له، أو قوةٌ في الأرض يخافها معظم الناس، هذه نجاحات الدنيا، ولكن الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، إذاً النجاح الدنيوي لا قيمة له، يقول الإمام علي كرّمَ الله وجهه: "الغنى والفقر بعد العرض على الله ".

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

لكن الفلاح الذي أراده الله سبحانه وتعالى، وينتظره من عباده هو الفلاح الذي يمتدُّ أثره إلى الدار الآخرة، لا الذي ينتهي في الدنيا: " إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه ".
فهل يسمّى الذكي في الدنيا فالحاً عند الله ؟ لا.. قد يكون فالحاً عند الناس، هل يسمى القوي في الدنيا فالحاً عند الله ؟ لا.. قد يكون فالحاً عند الناس، هل يسمى الوسيم في الدنيا فالحاً عند الله ؟ قد يكون فالحاً عند الناس، ولكنّ الفلاح كلّ الفلاح، والنجاح كُلّ النجاح، والفوز كل الفوز أن تنال فلاحاً يمتدُّ إلى الدار الآخرة، أن يكون النجاح متصلاً إلى الحياة الأبدية، فهذا الذي ينقطع في الدنيا لا قيمة له، قال عليه الصلاة والسلام:

((الدنيا دار بلاءٍ وانقطاع))

(ورد في الأثر)

والعبرة التي يغفل عنها معظم الناس، أنّ كل شيءٍ يجمعه الإنسان في الدنيا بدأ من أموال، إلى بيوت، إلى متنزهات، إلى مركبات، إلى مكانة، إلى جاه، إلى قوة، هذا كلُّه يغادره الإنسان وهو خِلْوٌ من كل شيء، يقول سيدنا عمر رضي الله عنه:

((كفى بالموت واعظاً))

(الجامع الصغير عن عمار بسند ضعيف)

مقياس الله في الفلاح:

فالمشكلة الكُبرى أن يتطابق مقياس الفلاح عندك مع مقياس الفلاح عند الله عزّ وجل، إذا كان لك مقياس للفلاح، ولله سبحانه وتعالى مقياس آخر فهذه هي الخسارة، لا بدّ من تطابق مقياس الفلاح الذي تعتقده مع مقياس الفلاح الذي أراده الله سبحانه وتعالى، الله سبحانه وتعالى جعل الإيمان هو الفلاحُ الذي يريده لعباده، فربنا عزّ وجل مثلاً يقول:

1 - العدل وعدم الظلم:

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الأنعام)

إذا ظلم إنسانٌ زوجته، ظلم جيرانه، أكل حقوق الآخرين، اعتدى عليهم، اعتدى على أعراضهم، استطاع أن يستغلّهم، أن يحتال عليهم، هذا لا يسمّى ذكيًا، وما فعله لا يسمى ذكاءً ولا تفوقاً، إنه غباءٌ بعينه، ربنا عزّ وجل قال:

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الأنعام)

إذا بعت شيئاً أخفيت عيبه هل أنت ذكيّ ؟ لا.. أنت ظالم، ظلمت المشتري بإخفاء العيب، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الأنعام)

ويقول:

2 – الإيمان وعدم الكفر:

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

هذا الذي أدار ظهره للدين، وجحد نعمة الله عزّ وجل، ولم يلتفت إلى الله عزّ وجل، والتفت إلى الدنيا فحقق نجاحاً كبيراً، هذا عند الله ليس بفالح.

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

3 – التقوى:

من الآيات الأخرى التي تشير إلى نوع الفلاح قوله تعالى:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة البقرة)

أي استنيروا بنور الله عزّ وجل، اقتبسوا من الله نوراً يريكم الخير خيراً والشر شراً، والحق حقاً والباطل باطلاً لعلكم تفلحون.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة: 35)

4 – العبادة وفعلُ الخير:

(وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة الحج:آية " 77 ")

5 – ذِكْرُ آلاء الله:

(فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة الأعراف)

إذا ذكرت آلاء الله، آيات اللهِ الدالة على عظمته ؛ من شمسٍ وقمرٍ، ونجومٍ، وليلٍ ونهارٍ، وسحابٍ ومطرٍ، وبحرٍ وجوٍ، وسمكٍ وطيرٍ، وطعامٍ وشرابٍ، هذه آلاء الله عزّ وجل، وما أكثرها من آيات وآلاء بينات.

(فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة الأعراف)

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة البقرة)

ومن ذكر الآلاء والوقوف عندها تقوى الله.

فأن تتقي الله، وأن تجاهد نفسك وهواك، وأن تبتغي إليه الوسيلة، ومن الوسيلة طلب العلم، وحضور مجلس علم تستمع إلى تفسير كتاب الله عزّ وجل، وتنظر في ملكوت السماوات والأرض، وتجاهد نفسك وهواك، وتلازم أهل الحق، وتنفق من مالك في سبيل الله هذه كلها وسيلة.

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة البقرة)

وجاء الفلاح في آية أخرى تحدثنا عن فئة ارتقت، وسمت حتى صار بينها وبين الله صلة لا حدود لها، إنها حزب الله،

6 – التزام جماعة المؤمنين الصادقين:

(أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة المجادلة)

هل أنت من حزب الله ؟ هل أنت من المؤمنين الصادقين، الطائعين، المخلصين، القانتين، الصائمين، الصادقين ؟

(إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب)

فلذلك الظلم ليس فلاحاً، والكفر ليس فلاحاً:

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الأنعام)

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

أما تقوى الله فهي الفلاح، وابتغاء الوسيلة هي الفلاح، ومجاهدة النفس والهوى هي الفلاح، وذكر آلاء الله هي الفلاح، هذه طرق الفلاح، والفلاح كل الفلاح أن تكون مؤمناً:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

قَدْ أَفْلَحَ:

عودة إلى حرف عمله عظيم، وشأنه كبير، يعطينا معنى التحقيق، أيُّ نجاحٍ تحققه في الدنيا ربما لا يكون محققاً في النهاية، قد تبيع، وتشتري، وفي لحظة تخسر منك كل الربح، فلذلك يقول المختصُّون: " هذا ربحٌ ليس محققاً "، لم يتحقق الربح بعد، حتى يكون الرصيد فيه زيادةٌ عن رأس المال، في حالة الديون والبضاعة التالفة، والزبائن الذين لا يدفعون. فهذا ربح غير محقق، لذلك ربنا عزّ وجل وصف الفلاح الذي يحققه المؤمنون بأنه فلاحٌ محققٌ:

بعض الرزق من الفلاح:

والشيء بالشيء يذكر، فحرف التحقيق والفلاح ذكراني بحديث شريف، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

1 - العقل واللبّ:

((قد أفلح من رُزِقَ لُباً))

(الجامع الصغير عن قرة بن هبيرة بسند ضعيف)

هذا الذي رزق عقلاً يعينه على معرفة الحق من الباطل، والخير من الشر، وطريق الصلاح من طريق الشقاء، هذا الذي رزق لباً قد أفلح، هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((قد أفلح من رُزِقَ لُباً))

(الجامع الصغير عن قرة بن هبيرة بسند ضعيف)

لأن الله سبحانه وتعالى أعطى المُلك لمن لا يحبُّه، وأعطى المال لمن لا يحبه، وأما الذين يحبهم فأعطاهم العلم والحكمة.. "وما استذل الله عبداً إلا حظر عليه العلم والأدب ".

لذلك يقول عليه الصلاة والسلام يقول:

((قد أفلح من رُزِقَ لُباً))

(الجامع الصغير عن قرة بن هبيرة بسند ضعيف)

إذا رزقت عقلاً راجحاً وحكمة عالية فقد حققت كل النجاح، لأن هذا العقل يهديك من خيرٍ إلى خير، ومن مرتبةٍ إلى مرتبة، ومن حالٍ إلى حال، والنبي عليه الصلاة السلام حينما أسلم سيدنا خالد عليه رضوان الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((عجبت لك يا خالد))

أي لماذا تأخرت ؟

((عجبت لك يا خالد، أرى لك فكراً))

(ورد في الأثر)

إذاً العقل شرطٌ أساسي لمعرفة الله عزّ وجل، لهذا يقول عليه الصلاة والسلام:

((أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً))

(ورد في الأثر)

((من لا دين له لا عقل له، ومن لا عقل له لا دين له))

(ورد في الأثر)

والنبي عليه الصلاة والسلام رأى في الطريق مجنوناً فقال لأصحابه: " من هذا ؟ قالوا: هو مجنون، قال:

((لا هذا مبتلى، المجنون من يعصي الله))

(ورد في الأثر)

الذي يعصي الله هو المجنون لأن الآخرة لم يرها، وكان في غفلةٍ عنها، ويقول عليه الصلاة والسلام في موضوع الفلاح:

2 - الإسلام:

((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ))

(صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص)

3 – الكفاف:

ألا تحب أن تكون من المفلحين ؟ يقول عليه الصلاة والسلام:

((إن الله إذا أحب عبدا جعل رزقه كفافاً))

(الجامع الصغير عن علي بسند ضعيف)

إذا امتن الله عزّ وجل على أحدنا بالصحة، وبراحة بالٍ، وبأهلٍ صالحين، ورزقٍ كفافٍ يكفيه فقط دون أن يزيد عليه، فقد أحبّه الله سبحانه وتعالى، وقد أحبّه النبي عليه الصلاة والسلام، قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله إذا أحب عبدا جعل رزقه كفافاً))

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها هماً))

((من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر))

و:

((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ))

4 - الرضا والقناعة:

رضي بهذه الزوجة، وبهذا البيت، وبهذا العمل، وبهذا الدخل، وبهؤلاء الأولاد، وبهذه السُكنى، وبهذه الصحة، وبهذا القِوام، وبهذا الشكل رضي به، هذا الذي رضي بما قسمه الله له عاش حياةً سعيدة.

5 - رؤية الحق وإصابته:

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ، وَجَعَلَ قَلْبَهُ سَلِيمًا، وَلِسَانَهُ صَادِقًا، وَنَفْسَهُ مُطْمَئِنَّةً، وَخَلِيقَتَهُ مُسْتَقِيمَةً، وَجَعَلَ أُذُنَهُ مُسْتَمِعَةً، وَعَيْنَهُ نَاظِرَةً، فَأَمَّا الأُذُنُ فَقِمِعٌ، وَالْعَيْنُ بِمُقِرَّةٍ لِمَا يُوعَى الْقَلْبُ، وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ جَعَلَ قَلْبَهُ وَاعِيًا))

(مسند أحمد عن أبي ذر)

هذا هو الفلاح، هذا الذي له عينٌ ترى الحق، ترى آيات الله وتعتبر..

((أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً))

فهذا الذي جعل عينه ناظرةً للحق، وجعل أذنه مستمعة للحق، وجعل خليقته مستقيمةً لا زيغ فيها، ولا انحراف، ولا اعوجاج، ولا ختل، ولا مخادعة، ولا ازدواجية، ولا نفاق، ولا تذبذب، وجعل نفسه مطمئنةً بطاعة الله عزّ وجل:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28))

(سورة الفجر)

إن الله سبحانه وتعالى يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.

قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، هذا القلب وعاء أفرغه من كل شيء سوى الله عزّ وجل، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(مَا جَعَلَ اللّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)

(سورة الأحزاب: آية " 4 ")

6 - السلامة من الأمراض القلبية:

إما أن يمتلئ هذا القلب حباً لله، أو أن يمتلئ حباً للدنيا، لذلك قد أفلح من أخلص قلبه للإيمان، وجعل قلبه سليماً من كل مرض ؛ من الكبر، من العجب، من الاستعلاء، من الغيبة، من النميمة، من حب الذات، هذه كلها أمراض مهلكة.

((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ، وَجَعَلَ قَلْبَهُ سَلِيمًا، وَلِسَانَهُ صَادِقًا، وَنَفْسَهُ مُطْمَئِنَّةً، وَخَلِيقَتَهُ مُسْتَقِيمَةً، وَجَعَلَ أُذُنَهُ مُسْتَمِعَةً، وَعَيْنَهُ نَاظِرَةً، فَأَمَّا الأُذُنُ فَقَمِعٌ، وَالْعَيْنُ بِمُقِرَّةٍ لِمَا يُوعَى الْقَلْبُ، وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ جَعَلَ قَلْبَهُ وَاعِيًا))

وفيما ترويه بعض الأحاديث القدسية أن الله سبحانه وتعالى حينما خلق الجنة قال لها:

((تكلمي فتكلمت فقالت: قد أفلح المؤمنون))

(الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف)

وفي حديثٍ آخر قالت:

((قد سعِد من دخلني))

(ورد في الأثر)

فهذه الآيات العشر التي بين أيدينا، والنبي عليه الصلاة والسلام وهو الصادق المصدوق يقول:

((أُنْزِلَ عَلَيَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ ثُمَّ قَرَأَ:(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)حَتَّى خَتَمَ عَشْرَ آيَاتٍ))

لدينا قاعدة في المنطق، أن الصفة قيدٌ، أي لو قلت: إنسان، هذه الكلمة تشمل خمسة آلاف مليون إنسان، أليس كذلك ؟ إذا وصفت هذا الإنسان بأنه إنسان عربي، هذه الدائرة التي كانت تتسع لخمسة آلاف مليون ضاقت حتى أصبحت تشمل مئة مليون، أليس كذلك ؟ فإذا قلت: إنسان عربي مسلم ضاقت إلى تسعين مليونًا، فإذا قلت: إنسان عربي مسلم مثقّف، ضاقت إلى عشرين مليونًا، فإذا قلت: إنسان عربي مسلم مثقف طبيب، خمسمئة ألف، إنسان عربي مسلم مثقف طبيب.. طبيب قلب.. يمكن ألف، جراح قلب يمكن واحد، كلّما أضفت صفةً ضاقت الدائرة فالصفة قيد، إذا قال أحدهم: أنا مؤمن، والحمد لله أنا فالح، يقول: انتظر.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

صفات المفلحين:

1 - الإيمان:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

فرضاً خمسة آلاف مليون..

2 - الخشوع في الصلاة:

(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

ضاقت الدائرة.

3 - الإعراض عن اللهو:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

ضاقت..

4 - أداء الزكاة وحفظ الفرج وأداء الأمانة الحفاظ على الصلاة:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9))

(سورة المؤمنون)

كلما أضيفت صفةٌ ضاقت الدائرة، فلذلك الفلاح الذي عناه الله سبحانه وتعالى ليس لمن يَدّعي الإيمان، وليس لمن يتوهَّم أنه مؤمن، ولكن لمن انطبقت عليه كل هذه الشروط، إذاً:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

الفلاح دنيوي وأخروي:

قال بعضهم: الفلاح في الدنيا البقاء، أن يكون عمره مديداً، والغنى، والعِز، وقال بعضهم: أما الفلاح في الآخرة فهو بقاءٌ بلا فناء، وغنىً بلا فقر، وعزٌ بلا ذل، وعلمٌ بلا جهل، وهذا ينطبق على أهل الآخرة، لذلك كان عليه الصلاة والسلام كلّما وقعت عينه على بيتٍ جميل أو على شيءٍ من حُطام الدنيا، أو على بستانٍ جميل، أو على شيءٍ يروق للناس كان يدعو، ويقول:

((اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة))

(متفق عليه عن أنس)

لأن هذا موقّت، هذا لا بدّ من أن يذهب، سيدنا عمر رضي الله عنه أمسك تفّاحة شهية، فقال: << أكلتها ذهبت أطعمتها بقيت >>.

فكل شيء تستهلكه يذهب، أما إذا أنفقته يبقى، والسعداء الذين قدّموا أموالهم أمامهم إلى الآخرة، فإذا وافتهم المنيّة رأوا لهم مقاماً عند الله رفيعاً، شيءٌ آخر:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

مَن هم المؤمنون ؟

من هم المؤمنون ؟ ما هو الإيمان ؟ قال:

وكلٌ يَدّعي وصلاً بليلى وليلى لا تُقِرُ لهم بذاكا

***

قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني))

(الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال)

لو سألت ألف مليون مسلم الآن: هل أنت مؤمن ؟ يقول لك: نعم، والحمد لله أنا مؤمن، وقد يكون غارقاً في المعاصي، فهل ادعاء الإنسان أنه مؤمن يجعله مؤمناً ؟ إذا قلت: إنّك تحمل دكتوراه، وأنت لا تقرأ ولا تكتب، فهذا الكلام هل يجعلك تحمل هذه الشهادة ؟ هذا ادعاء، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني))

(الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال)

كلنا يتمنى أن يكون مؤمناً، ولكن الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلي، لك أن تلبس ثوباً أبيض، وتضع مصحفاً في جيبك، وسواكاً في الجيب الثاني، أن تضع على دكانك التجاري آية قرآنية..

(إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا)

(سورة الفتح)

أو الحاج فلان، هذا تحلٍّ، أن تضع على مركبتك مصحفاً تحت المرآة، فهل معنى ذلك أنت مؤمن ؟ لا..

((ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني))

(الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال)

إذا كان الإنسان لا يقرأ ولا يكتب، وارتدى ثوباً أبيضَ، ووضع نظّارات، ووضع سماعة بأذنه، وأحضر دفتراً أبيض ليكتب، فهل أصبح طبيباً ؟ وآخر معه بورد، وبالمظهر نفسه، شتّان بين هذا وذاك، فالنبي عليه الصلاة والسلام، يقول:

((ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وأقرّ به اللسان وصدّقه العمل))

نريد عملاً يؤكِّد إيمانك، نريد قلباً مفعماً بالإيمان، ولساناً يلْهَجُ بذكر الله عزّ وجل، ومصداقاً في العمل..

" ترك دانقٍ من حرام خيرٌ من ثمانين حجةً بعد الإسلام ".

نريد مصداقاً في العمل، المؤمن صادق، المؤمن لا يكذب، المؤمن لا يخون، المؤمن لا يزني. الله عزّ وجل قال:

(وَلَا يَزْنُونَ)

(سورة الفرقان: من الآية " 68")

ومن الزنى زنى النظر، ومن الزنى زنى السمع، وزنى اليد، فالإيمان ما وقر في القلب، وأقر به اللسان، وصدّقه العمل.

من تعريفاتٍ النبي عليه الصلاة والسلام للإيمان:

والنبي عليه الصلاة والسلام أعطى تعريفاتٍ عدةً للإيمان:

الإِيمَانُ:

((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ))

إذا كان الإنسانُ أمام شخصين هل يفعل عملاً قبيحاً، أم يستحي؟ فإذا آمنت بالملائكة ؛ ملك اليمين وملك الشمال استحييت منهما، وأنت إذا صلّيت تقول: السلام عليكم ورحمة الله، تسلم عليهما ؟ تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأن تؤمن بالقدر خيره وشره، إذا كنت مؤمناً بالكتاب فلماذا آثرت الغني كزوج لابنتك عن الشاب الفقير الذي هو أكثر إيماناً ؟ إذاً أنت لا تؤمن بالكتاب،

ربنا عزّ وجل قال:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

(سورة البقرة: آية " 221 ")

فإذا قرأت القرآن وقلت: صدق الله العظيم، ولم تؤثر المؤمن في تزويج ابنتك فأنت لست مصدقاً بهذا الكتاب، فأن تؤمن بالله أنه معك سميعٌ بصيرٌ، مجيبٌ قويٌ، غنيٌ، عادلٌ، أن تؤمن بأسمائه الحسنى، وصفاته الفُضْلى، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، والإيمان معرفةٌ بالقلب وقولٌ باللسان وعملٌ بالأركان، والإيمان بضعٌ وسبعون شعبة أعلاها قول: لا إله إلا الله.. و ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

لا إله إلا الله نهاية العلم.

قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

وأدناها،

الإِيمَانُ:

((إماطة الأذى عن الطريق))

(البخاري)

فالذي يزيح عن طريق المسلمين الأذى، حتى ولو كانت شوكة، أو قطعة زجاج، هذا نوع من الإيمان، هو يرجو مرضاة الله عزّ وجل بهذا الأذى الذي أماطه عن طريق المسلمين..

الإِيمَانُ:

((بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ))

(صحيح البخاري: عن أبي هريرة)

((إذا لم تستح فاصنع ما شئت))

(صحيح البخاري: عن أبي هريرة)

ويقول عليه الصلاة والسلام:

الإيمَانُ:

((قَيّدَ الْفَتْك، ولا يَفتِكُ مُؤْمِنٌ))

(سنن أبي داود: عن أبي هريرة)

من كان فيه ذرّة إيمان لا يفتك بأخيه الإنسان ظلماً وعدواناً وتشفياً ؟ ولا يفتك بحيوان ولا بنملة ؟ لا والله.

(قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

(سورة النمل)

((فالإيمَانُ قَيّدَ الْفَتْكِ ولا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ))

المؤمن لا يتجنى على إنسان، ولا يفتري على إنسان، ولا يسبب أذى لأحد، ولا يعتدي على ماله ولا على سمعته عن قصد وتصميم وهو مؤمن كذبٌ والله.

((الإيمَانُ قَيّدَ الْفَتْكِ، ولا يَفتِكُ مُؤْمِنٌ))

والإيمان

كما قال عليه الصلاة والسلام:

((عفيفٌ عن المحارم، عفيفٌ عن المطامع))

(ورد في الأثر)

فالذي يطمع فيما ليس له فإنه ليس مؤمناً، والذي لا يعُفُّ عن أعراض الناس ولا عن أموالهم ليس مؤمناً.

والإيمان:

كما قال عليه الصلاة والسلام:

((نصفان نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ))

فالواحد منا لا يظن نفسه مؤمناً، هذه تعاريف الإيمان كما عرّفها النبي العدنان:

((الإيمان نصفٌ صبرٌ، ونصفٌ شكرٌ))

((الإيمان عفيفٌ عن المحارم، عفيفٌ عن المطامع))

(ورد في الأثر)

والإيمان:

((الإيمان الصبر والسماحة))

((الإِيمَانُ قَيَّدَ الْفَتْكَ، لا يَفْتِكِ مُؤْمِنٌ))

وفي الحديث:

((الإيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنَ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ))

(صحيح مسلم عن أبي هريرة)

والإيمان:

((الإِيمَانُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَلْبِ، وَقَوْلٌ بِاللِّسَانِ، وَعَمَلٌ بِالأَرْكَانِ))

(سنن أبي ماجة عن علي بن أبي طالب)

((الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ...))

(مسند أحمد)

((وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب، وأقره اللسان، وصدقه العمل))

فإذا قال ربنا عزّ وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

أي هؤلاء الذين تنطبق عليهم تعاريف النبي عليه الصلاة والسلام:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

منزلة الصلاة في الكتاب والسنة:

1 - الصلاة نور:

الصلاة كما قال عليه الصلاة والسلام:

((... وَالصَّلاةُ نُورٌ...))

(سنن النسائي عن أبي مالك الأشعري)

إذا اتصلت بالله اتصالاً صحيحاً قذف الله في قلبك النور، فرأيت به الخير خيراً والشرَ شراً، رأيت به الحق حقاً والباطل باطلاً.. لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((اتَّقوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ، ثُمَّ قَرَأَ:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)))

(سنن الترمذي عن أبي سعيد الخدري)

2 - الصلاة ذِكْرٌ:

والصلاة كما قال الله عزّ وجل: ذكرٌ لله..

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه)

فإذا وقفت بين يديه، وقد نسيت أن تذكره جاءتك الخواطر من كل حدبٍ وصوب، وطاحت بك الخطرات، فأين هو الذكر ؟

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه)

والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق)

3- الصلاة قُربٌ:

الصلاة قرب من الله عزّ وجل:

((أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ))

(صحيح مسلم ن أبي هريرة)

4- الصلاة طهورٌ:

والصلاة طهور، وكما قال تعالى:

(إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر)

5- الصلاة خشوعٌ:

والصلاة خشوع:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

(سورة المؤمنون)

6- الصلاة وعيٌ:

والصلاة وعيٌ:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء: آية " 43 ")

فهذا الذي لا يعلم ما يقال في الصلاة كأنه سكران، في حكم السكران تماماً، ما دام الله سبحانه وتعالى قال - وهذه الآية طبعاً منسوخة-:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى)

لماذا ؟

(حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

7- الصلاة مناجاة:

فهذا الذي لا يعلم ما يقول هو في حكم السكران تماماً، والصلاة مناجاةٌ، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لو يعلم المصلي من يناجي ما التفت))

(ورد في الأثر)

أي ما التفت عن صلاته، والصلاة عقلٌ.

8- الصلاة عقلٌ:

يقول عليه الصلاة والسلام:

((ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها))

(ورد في الأثر)

الذي عقلته من صلاتك هي الصلاة، وما سواها لا قيمة لها.

9- الصلاة عُروجٌ:

والصلاة كما قال عليه الصلاة والسلام عروجٌ:

((الصلاة معراج المؤمن))

(ورد في الأثر)

فالصلاة لها تسعة تعريفات..

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه)

والصلاة نورٌ، والصلاة طهورٌ، والصلاة وعيٌ:

(حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء: آية " 43 ")

والصلاة خشوعٌ، والصلاة قربٌ:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق)

والصلاة مناجاةٌ، والصلاة عقلٌ، والصلاة عروجٌ، إذاً:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

أهمية الخشوع في الصلاة:

لابد من الخشوع في الصلاة، تصور أنك تقابل إنساناً يقع في قمة المجتمع، المجتمع مثل الهرم تماماً، آخر حجر في الهرم، أو أعلى حجر هو قمة هذا الهرم، لو أنك تقابل إنساناً يقع في قمة هذا الهرم الاجتماعي، كيف تقابله ؟ هل تعبث أمامه بسبحةٍ ؟ هل تقرأ أمامه صحيفة يومية ؟ هل تتمطى أمامه ؟ هل تتثاءب ؟ لا والله، هل تفكر في غير موضوع المقابلة؟ راقب نفسك لو قابلت موظفاً مهماً، وأنت في حضرته هل تفكر في موضوع آخر غير موضوع المقابلة ؟ إذا كنت بحضرة إنسانٍ ذي شأنٍ تقف هذا الموقف الخاشع، فكيف إذا وقفت بين يدي الله عزّ وجل ؟ الخشوع السكينة والوقار من لوازم الوقوف بين يدي العزيز الجبار..

النبي عليه الصلاة والسلام رأى أعرابياً يعبث بلحيته في الصلاة فقال عليه الصلاة والسلام:

((لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه))

(ورد في الأثر)

فالعلماء قالوا: " الخشوع محله القلب، ومظهره في الجوارح ".

فلو خشع قلب الإنسان لخشعت جوارحه، فهذا الذي ينظر في أثناء الصلاة إلى الأعلى، أو إلى لوحات جميلة، وثريات فخمة، وستائر مزركشة زين بها جدران المسجد وسقفه، ما هذه الصلاة ؟

((لو خشع قلبه لخشعت جوارحه))

فربنا عزّ وجل لم يطلق الفلاح في الصلاة بل قال:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

حكم الخشوع في الصلاة:

أي أن الخشوع ليس من فضائل الصلاة، لا.. بل من فرائض الصلاة، ليس من فضائلها، بل من فرائضها، فلو اختل الخشوع اختلّت الصلاة، يوجد أشخاص يعدون دراهمهم في أثناء الصلاة، ولكن ليس في بلادنا، بل في بلاد أخرى، أو ينظر إلى الساعة، يغيّر من وضع هندامه في أثناء الصلاة، هذا كلّه يتنافى مع الخشوع.

عدّ أبو حنيفة رضي الله عنه أن أكثر من ثلاث حركات تفسد الصلاة، لأن هذه الحركات تتناقض مع الخشوع:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3))

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين: اجتناب اللغو:

ما هو اللغو ؟

اللغو في أجمل تعاريفه: كل ما سوى الله لغو، فأنت أمام عمل ينتهي أثره بالموت فهو لغو، أو يمتد أثره بعد الموت فهو حق، فكن مع الحق دائماً ؛ في حديثك، في مزاحك، في حركتك، في غضبك، في رضاك، في لهوك، في عملك، في تفكيرك، في نشاطك، كن مع الحق دائماً، كن مع عملٍ إذا فعلته امتد أثره إلى الآخرة، أما هذا الذي يفعل عملاً ينقطع عند الدنيا هذا لهو، كل ما سوى الله باطل:

ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطلُ وكـل نـعيمٍ لا مـحالة زائلُ

***

قائل هذا البيت شاعر مخضرم اسمه لبيد، فقال عليه الصلاة والسلام: أصدق بيتٍ قاله لبيد:

((ألا كل شيٍ ما خلا الله باطلُ))

(البخاري عن أبي هريرة)

فقط ولم يكمل اللهم صل عليه، لأن الشطر الثاني غير صحيح، وكل نعيمٍ لا محالة زائلُ، نعيم أهل الجنة لا يزول، هذا كلام شعر فيه حق، وفيه باطل، ولكن أول شطر صحيح: ألا كل شيٍ ما خلا الله باطلُ

تحذير النبي عليه الصلاة والسلام من اللغو:

في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام:

((طوبى من شغله عيبه عن عيوب الناس))

(الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف)

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))

(الترمذي، ابن ماجه عن أبي هريرة)

((إن الله كره لكم قيل وقال وإضاعة المال))

(متفق عليه عن المغيرة بن شعبة)

فهذا لغو لأنه موضوع سخيف:

((إن الله يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها))

(الجامع الصغير عن الحسين بن علي)

هذا لغو، هناك لغو بالأقوال، ولغو بالأعمال، ولغو بالنشاطات، والمؤمن يستهلك وقته، وجهده، وذكاءه، وعمله، وعضلاته في سبيل مرضاة الله عزّ وجل، لذلك:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ(4))

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين: إنفاق المال:

ينفقون من أموالهم، من أجل تطهيرها ليتوصلوا إلى تطهير نفوسهم بهذا الإنفاق، أي أن هناك طهارتان: طهارة المال، وطهارة النفس، والمال الذي يزكّى عنه هو مالٌ طاهر يحفظه الله سبحانه وتعالى:

((وما تلف مالٌ في برٍ أو بحرٍ إلا بحبس الزكاة))

(الجامع الصغير عن عمر)

((من أدى زكاة ماله ذهب عنه شرُّه))

(الترغيب والترهيب عن جابر بسند حسن)

أي شر المال.

والمال قد يطغي، والعلماء يقولون: " أي مالٌ دفعت زكاته فليس بكنز مهما كان كبيراً، وأي مبلغ مهما كان قليلاً إذا امتنع صاحبه عن دفع زكاته فهو كنز، ولا يحق لك أن تصف إنساناً يؤدِّي زكاة ماله بالشُّح "، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((برئ من الشُح من أدّى زكاة ماله))

(الجامع الصغير عن خالد بن زيد بن حارثة)

انتهى الأمر، فهؤلاء المؤمنون فضلاً عن أنهم قد أفلحوا لأنهم مؤمنون.

دفعوا من أموالهم زكاة تقربوا بها إلى ربهم فأقبلوا عليه فزكت نفوسهم، سميت الزكاةُ زكاةً لأنها تزكو بالنفس، فالمؤمن نفسه طاهرة وبريئة، صافية، وعنده تواضع، وعنده إخلاص، وعنده صدق وأمانة، صفات سامية عددها جعفر رضي الله عنه عندما وقف بين يدي النجاشي مدافعاً عن دينه:

((كنا قوم أهل جاهلية ؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه))

(أحمد في المسند عن أم سلمة)

إذاً هذه الصفات العالية تأتي من الاتصال بالله عزّ وجل:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)

(سورة المؤمنون)

ينفقون من أموالهم ليطهروا أنفسهم بالإقبال على الله عزّ وجل، والحقيقة الإنسان كله كلام بكلام حتى ينفق من ماله، فإذا أنفق من ماله الذي اكتسبه بعرق جبينه عندئذٍ يرقى عند الله عزّ وجل، لأن الإنفاق يؤكِّد الإيمان، سميت الصدقةُ صدقةً لأنها مصداق صاحبها، لأنها دليل صدق صاحبها في طلب مرضاة الله عزّ وجل: أي " من شاء صام ومن شاء صلّى"، هكذا قال سيدنا عمر، الصلاة سهلة لا تكلف شيئاً.. من شاء صام، فإنه وفّر طعاماً، ومن شاء صلى لكنها الاستقامة، وربنا عزّ وجل عندما قال:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة آل عمران)

من هم المتقون ؟

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ)

(سورة آل عمران: آية " 134 ")

لماذا بدأ الله سبحانه وتعالى حينما وصف المتقين بأنهم ينفقون في السرّاء والضرّاء ؟ لأن الإنفاق وحده هو الذي يؤكِّدُ صدق إيمانهم:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5))

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين: حفظ الفروج:

سبحان الله ! ال بعض العلماء ولا سيما في تفسير القرطبي: " إن الله سبحانه وتعالى ربط فلاح الإنسان بحفظه لفرجه ".

هذه قضية أساسية:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

وربنا عزّ وجل في آية أخرى بيّن لنا طريق حفظ الفرج، فقال الله عزّ وجل:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

قد يمتنع الإنسان أحياناً عن السرقة لأسباب يعلمها الله سبحانه وتعالى، قد يقول: هناك قوانين شديدة جداً تعاقب السارق، أحياناً قد تتفق أحكام الدين مع أحكام القانون، فهذا الذي لا يسرق لا تدري لمَ لمْ يسرق ؟ أخوفاً من الله عزّ وجل ؟ أم خوفاً من عقابٍ شديد ؟ الله أعلم، لكن الذي يغضُّ بصره عن محارم الله هذا بدافع خوف الله قطعاً لأن القوانين الأرضية لا تُحَظِّر إطلاق البصر، لذلك:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

(سورة المؤمنون: آية " 5 ")

وطريق حفظ الفرج غض البصر.. " ومعظم النار من مستصغر الشررِ".

وجوب الابتعاد عن أسباب الزنا ومقدماته: وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى

الأخطار الكُبرى أولها شرارة، فلذلك غض البصر طريق حفظ الفرج:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

يقول السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام:

((ليس الشريف الذي يهرب من الخطيئة، ولكن الشريف هو الذي يهرب من أسبابها))

من أسبابها، فالزنى له طريق، ربنا عزّ وجل قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

(سورة الإسراء: آية " 32 ")

فمعنى هذا أن الزنى يجب أن تُبقي بينك وبين الزنى هامش أمان كبيرًا، إطلاق البصر كأنك دخلت في هذا الهامش الخطر، صحبة الأراذل دخلت في هذا الهامش الخطر، الحديث عن النساء دخلت في هذا الهامش الخطر، مصاحبة أهل الدنيا ممن لا يتورعون عن الزنى دخلت في هذا الهامش الخطر، قراءة قصةٍ ماجنة دخلت في هذا الهامش الخطر، ربنا عزّ وجل قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

(سورة الإسراء: آية " 32 ")

لم يقل: ولا تزنوا، بل قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

(سورة الإسراء: آية " 32 ")

والله سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

أول جزاءٍ كريمٍ من الله عزّ وجل لمن يغضُّ بصره زواجٌ موفق، وأول عقابٍ أليمٍ لمن يطلق بصره، زواجٌ شقي، وليس في الزواج حلٌ وسط، إما أن تكون في جنة، وإما أن تكون في النار:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7))

(سورة المؤمنون)

أدب القرآن في الكنايات: فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ

بعضهم يقول: لا حياء في الدين، والله الذي لا إله إلا هو إنّ الدين كله حياء، والله سبحانه وتعالى يعلمنا الحياء، هل هناك من قولٍ ألطف وأجمل من هذه الكناية ؟

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

دخل في هذه الآية مئات الانحرافات الأخلاقية:

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

(سورة المؤمنون)

الزواج هو الطريق النظيفة لشهوة الجنس:

أي إلا على أزواجهم، الآن لا يوجد:

(وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ)

ولا أحد يفكر فيها إطلاقاً:

(إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

ليس مُلاماً لا من الحق، ولا من الخلق، من الأعراس نسمع أصوات السيّارات تصم الآذان، الجماعة غير مستحيين، لأن هذا وَفق الشرع، أما إذا كان هناك شيء خلاف الشرع تجدها من غير صوت.

(إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(11))

(سورة المؤمنون)

وسوف نتابع تفسير هذه الآيات إن شاء الله تعالى في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المؤمنون 023 - الدرس (2-8): تفسير الآيات 1 – 11
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-08-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثاني من سورة المؤمنون.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11))

(سورة المؤمنون)

إعادة وتذكير:

في الدرس الماضي أيها الإخوة تحدثنا كيف أن الفلاح في أن تكون مؤمناً، وكيف أن هذا الفلاح محقق، بينما كل فلاحٍ في الدنيا، بل كل نجاحٍ فيها قد يكون محققاً في الدنيا أو لا يكون، والذي يؤكِّد هذا التحقق كلمة قد في مطلع هذه السورة:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

وبينت لكم في الدرس الماضي كيف أن هناك موانع للفلاح، فالظلْم مناقضٌ للفلاح، لقوله تعالى:

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الأنعام)

إذا رأيت إنساناً استطاع أن يأخذ ما ليس له بذكاءٍ، أو بحيلةٍ، أو بقوةٍ، أو بطريقةٍ من الطرق، وهو يظن نفسه بهذا ناجحاً، أو ذكياً، أو فالحاً، فالله سبحانه وتعالى يردُّ عليه:

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

(سورة الأنعام)

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

بينت لكم في الدرس الماضي موانع الفلاح، وبينت لكم فيه أيضاً عوامل الفلاح:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة البقرة)

(فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة الأعراف)

(وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة)

ثم بينت لكم كيف أن الفلاح هو ما قاله الله عزّ وجل في هذه الآية، وفي آيتين أخريين:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

(سورة الأعلى)

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

(سورة الشمس)

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

وحينما تنطبق مقاييس الفلاح عند الإنسان مع مقاييس الفلاح عند الله ينجح الإنسان في تحقيق مهمته، فكل إنسان له مقاييس للفلاح ؛ أهل المال يظنون الفلاح بجمع المال، وأهل القوة يظنون الفلاح بتسلُّم مراكز القوة، وأهل العلم الظاهري يظنون الفلاح بنيل أعلى الدرجات العلمية في الدنيا، فإذا انطبقت مقاييس الفلاح عندك مع مقاييس الفلاح في كتاب الله فأنت مؤمنٌ مهتدٍ ورب الكعبة، أما إذا اختلفت المقاييس فهذا هو الضلال بعينه.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((قد أفلح من رزق لباً))

(الجامع الصغير عن قرة بن هبيرة بسند ضعيف)

((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَخْلَصَ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ))

(مسند أحمد عن أبي ذر)

((قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللَّهُ بِمَا آتَاهُ))

(من مسند أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص)

هذه بعض الأحاديث النبوية التي تتحدث عن الفلاح، وهؤلاء المؤمنون، فقد بينت لكم في الدرس الماضي كيف أن الصفة قيد، وكيف أن الفلاح لا ينطبق على المؤمنين فقط، ينطبق على المؤمنين وهذه صفاتهم صفة صفة، فكلما أضفت صفة ضاقت الدائرة، وقد ضربت لكم المثل، أنك إذا قلت: إنسان هذه الكلمة تشمل خمسة آلاف مليون، إذا قلت: إنسان مسلم تضيق الدائرة حتى تشمل ألف مليون، فإذا قلت إنسان مسلم عربي ضاقت الدائرة حتى شملت مئة مليون، فإذا قلت: إنسان عربي مسلم مثقف ضاقت الدائرة حتى شملت المليون مثلاً، فإذا قلت: إنسان مسلم عربي مثقف طبيب قد تشمل الدائرة مئتي ألف،

فإذا قلت: طبيب قلب.. كلما أضفت صفة ضاقت الدائرة.. فمن أجل أن تحقق الفلاح يجب أن تكون مؤمناً، وأن تنطبق عليك كل هذه الصفات التي وردت في هذه السورة:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

من هم المؤمنون ؟

(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

(سورة المؤمنون)

منزلة الصلاة وأهميتها في الإسلام:

قال عليه الصلاة والسلام:

((لا خير في دينٍ لا صلاة فيه))

لأن أساس السمو الاتصال بالله عزّ وجل، فأي دينٍ لا اتصال فيه إلى الله عزّ وجل فهذا الدين لا خير فيه، والذي يعتنق ديناً، ولا يصلي كأنه لم يعتنق ديناً، لذلك رأيُ علماء الفقه في تارك الصلاة أنه إذا تركها إنكاراً لحقها فقد كفر، ومن تركها تهاوناً فقد فسق..

((لا خير في دينٍ لا صلاة فيه))

(الجامع الصغير بلفظ: لا خير في دين ليس فيه ركوع، وإسناده ضعيف)

1 – الصلاة عماد الدين:

و:

((الصلاة عماد الدين))

(الجامع الصغير عن عمر، وإسناده ضعيف)

والعماد يشبه العمود الكبير وسط الخيمة، فإذا أزيح عن مكانه تداعت الخيمة..

((من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين))

فهؤلاء المؤمنون أفلحوا لأنهم في صلاتهم خاشعون، والصلاة كما بينت في الدرس الماضي الصلاة مناجاة، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

2 – الصلاة مناجاة:

((لو يعلم المصلي من يناجي ما التفت))

(ورد في الأثر)

3 – الصلاة قربٌ:

والصلاة قرب، لقول الله عزّ وجل:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق)

4 – الصلاة ذِكرٌ:

والصلاة ذكر لقول الله عزّ وجل:

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه)

5 – الصلاة عقلٌ:

والصلاة عقلٌ، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها))

6 – الصلاة وعيٌ:

والصلاة وعيٌ، لقول الله عزّ وجل:

(لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء: آية " 43 ")

7 – الصلاة خشوع:

والصلاة خشوعٌ، لقول الله عزّ وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

(سورة المؤمنون)

8 – الصلاة عروج:

والصلاة عروجٌ إلى الله عزّ وجل، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((الصلاة معراج المؤمن))

(ورد في الأثر)

و:

((الصلاة عماد الدين وعصام اليقين))

(ورد في الأثر)

((ولا خير في دين لا صلاة فيه))

(الجامع الصغير بلفظ: لا خير في دين ليس فيه ركوع، وإسناده ضعيف)

((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر))

(الترمذي، ابن ماجه عن بريدة)

وأساس الدين اتصالٌ بالخالق وإحسانٌ إلى المخلوق،

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)

(سورة مريم)

9 - الصلاة نور:

الصلاة كما قال عليه الصلاة والسلام:

((... وَالصَّلَاةُ نُورٌ...))

(سنن النسائي عن أبي مالك الأشعري)

هذا هو الدين وجوهره، اتصالٌ بالخالق، وإحسانٌ إلى المخلوق، والعلماء قالوا: الخشوع في الصلاة ليس من فضائلها، ولكن من فرائضها، من فرائض الصلاة أن تكون خاشعاً، ومكان الخشوع هو القلب، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه))

(ورد في الأثر)

من صفات المؤمنين: الخشوع في الصلاة:

ومظهر الخشوع الأعضاء، فمن وقف في الصلاة، وأكثرَ التلفُّت يمنةً ويسرة، وعبث بثوبه، أو بأصابعه، أو بأدواته، فهذا لم يخشع، لأن النبي عليه الصلاة والسلام رأى رجلاً يعبث بشعر لحيته في أثناء الصلاة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لو خشع قلبه لخشعت جوارحه))

(ورد في الأثر)

والخشوع حينما تقف بين يدي عظيم تعرف ما الخشوع، إنك إذا دخلت على إنسانٍ ذي شأنٍ عند الناس ؛ وربما لا يكون ذا شأنٍ عند الله، إذا دخلت عليه ترى نفسك تقف أمامه بأدبٍ، وخشوعٍ، وسكينةٍ،

ووقارٍ، ولا تلتفت إلى شيءٍ آخر، فكيف إذا وقفت بين يدي ملك الملوك، جاء في بعض الأحاديث القدسية:

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد عصوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك، وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم))

(ورد في الأثر)

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

(سورة المؤمنون)

إذا كنت مؤمناً فقد نلت كل شيء، فيا رب ماذا فَقَدَ من وجدك، وماذا وجد من فقدك، وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان الله عليك فمن معك ؟.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

الفلاح بمقياس الناس:

بمقياس الناس، إذا اشترى الإنسان أرضاً، ثم شق أمامها الشارع، فارتفع سعرها أربعين ضعفاً، هذا في نظر الناس قد أفلح، وإذا كانت للإنسان تجارةٌ رائجة جداً، هذا في نظر الناس قد أفلح، وإذا تسلّم منصباً رفيعاً فهو في نظر الناس قد أفلح، وإذا رزق زوجة ممتازةً في نظر الناس قد أفلح، وأما في نظر الواحد الديّان:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

الفلاح بمقياس الشرع:

فهل أنت مؤمن ؟ وليس في مقياس السماء فلاحٌ إلا أن تكون مؤمناً، وأن تصلي خاشعاً، وأن تزكي نفسك لأنه:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس)

أردت أن أعيد على أسماعكم، ما ذكرته في الدرس الماضي كي تأتي الآيات في انسجامٍ تام، لأن هذا الآيات كالعِقد الثمين، كالسلسلة الثمينة آخذٌ بعضها برقاب بعض، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3))

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين: الإعراض عن اللغو:

قال بعض العلماء: اللغو هو الشيء المباح الذي لا جدوى منه في الآخرة، فهذا مقياس دقيق جداً، فاللغو ليس من الحرام، لأن الحرام له آيات خاصة أخرى تحرمه:

(إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ)

(سورة البقرة: آية " 173 ")

(إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة المائدة: آية " 90 ")

المحرمات لها موضوع آخر.

(قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ)

(سورة الأنعام: آية " 151 ")

هنا اللغو، المباحات التي لا تتصل بالآخرة، لا يستمر أثرها إلى الآخرة، هذه لغو، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلا اللَّهَ بَاطِلٌ))

(صحيح البخاري عن أبي هريرة)

فربما ضاق أحدكم ذرعاً بهذا التفسير، ساعة لك وساعة لربك، كما يقول عامة الناس، الحقيقة كل شيءٍ ما خلا الله باطل، لكن هذا الشيء الذي يرضي الله منوّع جداً، فإذا جلست مع زوجتك تبتغي أن تؤنسها، وأن تدلها على الله، فهذا العمل متصل بالآخرة، وإذا انطلقت إلى عملك لتكسب قوت يومك لتطعم صغارك، فهذا العمل له علاقة بالآخر،

((وفي بُضْعِ أحدكُم صدقة))

(مسلم عن أبي ذر)

فهناك أعمال كثيرة، إذا ذهبت لتشتري طعامًا يعينك على طاعة الله فهو ليس من اللغو.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3))

(سورة المؤمنون)

الأعمال المباحة التي لا جدوى منها، يعني لو قصة مترجمة عن

(الإيادة لهيموروس)

إذا قرأتها، وقرأت تاريخ الإغريق قبل آلاف السنين، ربما أضيف إلى معلوماتك شيءٌ لم تكن تعرفه من قبل، ولكن ما أثر هذه القصة في علاقتك بالله، أو في علاقتك بالناس، أو في مكانتك عند الله ؟ هناك أعمال مباحة ليست ذات شأن، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها))

(الجامع الصغير عن الحسين بن علي)

قد تجلس مع أسرتك، ويطرقون بحثاً لا جدوى منه، من تزوج ؟ ولمَ تزوج ؟ لماذا طلق ؟ ولماذا لم يطلق ؟ ماذا قدم لها من مهر ؟ ولماذا نشب خلافٌ بينهما ؟ وأين أسكنها ؟ وكيف أثث البيت ؟ هذا كلامٌ لا جدوى منه، لو أنك تطرقت إلى بعض الصفات المذمومة لكـان هذا غيبة، فحتى لو لم تنطق بالغيبة، وأمضيت السهرة في قيل وقال، وفي معلومات سخيفةٍ لا تقدم ولا تؤخِّر فهذا لغو، والمؤمن يترفع عن اللغو، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

(سنن الترمذي عن أبي هريرة)

فاللغو الأعمال المباحة، فلو أن هناك غيبة أو نميمة أو فحش أو استخفاف بالآخرين، أو سباب أو إيذاء أو تعريض أو سخرية، وقعت في الحرام، قالت له: قصيرة، إن صفية قصيرةٌ يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ))

(سنن أبي داود عن عائشة)

ما قلت: قصيرة، ولا طويلة، ولا أي شيء من هذا القبيل، إنما قلت زيد تزوج فلانة، وكان قد خطبها عمرو قبله، كلامٌ لا طائل منه، ولا جدوى منه، هذا في موضوع الزواج والطلاق، وفي موضوع الأعمال، عمر اشترى، وعلي باع، وطلحة ربح، وهمام خسر، وفلان هو وأخوه في حربٍ، وفي خصومةٍ شديدة، وعمير سافر، وخالد قدم من السفر.

هذا لغو القول، وهناك لغو الفعل، أفعال لا جدوى منها، فالإنسان أحياناً يبالغ بالعناية بحاجاته الخاصّة مبالغة ليس لها رصيد في الآخرة إطلاقاً، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3))

(سورة المؤمنون)

من تفسيرات اللغو: كل ما سوى الله:

بعض المفسرين يقول: اللغو كل ما سوى الله، وبعضهم يقول: المباحات التي لها علاقةٌ بالآخرة ليست من اللغو، فكل واحد منا له عمل، هذا العمل أساسي، لأن منه يكسب قوت يومه، وكسب الرزق ضروريٌ لاستمرار الحياة، وقد قال سيدنا أبو ذر رضي الله عنه: **" حبّذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي ".**

يقرأ المهندس كتباً هندسية ليكون متفوقاً في عمله، لأنه مؤمن، والمؤمن الأضواء عليه مسلّطة، فإذا كان في عمله خلل أو تقصير، ومعلوماته ناقصة، تطاول الناس على دينه، فإذا تفوّق عليهم باطلاعه

على أحدث المقالات في إنشاء العمارات، فهذا ليس من اللغو، والطبيب إذا طالع كتباً جديدة، ومقالاتٍ حديثة في اختصاصه ليبدو مؤمناً متفوقاً على أقرانه، نظر الناس إلى دينه نظرةً سامية، ونظرة إكبارٍ وإعجاب، فمطالعته لهذه الكتب لها مساسٌ بالآخرة بطريقةٍ مركبة لا بطريقةٍ بسيطة، وإذا اشترى الإنسان ثياباً، واعتنى بهندامه، لئلا ينظر الناس إليه شزراً، فالوقت الذي تمضيه في شراء الثياب، وفي العناية بمظهرك الخارجي، من دون إسرافٍ، من دون كبر، من دون تبذير، هذا الوقت أيضاً ليس من اللغو، فالإنسان كما قال عليه الصلاة والسلام:

((اعمل لآخرتك، وأصلح دنياك))

(ورد في الأثر)

كان عليه الصلاة والسلام كأنه شامة بين الناس، قال:

((فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ، وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ))

(من مسند أحمد عن أبي الدرداء)

إذا أصلح بيته، وجعل غرفة للفتيات، وغرفة للشباب، فهذا من السنة، النبي الكريم قال:

((فرقوا بينهما في المضاجع))

(أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده)

هذا ليس من اللغو، إذا اعتنى أحدنا في ببيته، وجعله مريحاً لأهله، هذا ليس من اللغو، وليس من العمل العابث، فالمؤمن لا يعيش على هامش الحياة، كما يتصور الناس، ولا هو ساذج يرضيه كل شيء، المؤمن ذواق، وذوقه رفيع، وأموره منضبطة، وبيته مرتب، ومحله التجاري مرتب، أما هذا الذي يصلي، وعند الناس مؤمن، ومحله فوضوي، والغبار، والحاجات متداخلة، والفئران ترعى في الدكان، هذا ليس من الدين في شيء، يجب أن تكون نظيفاً، مرتباً منضبطاً، ربنا عزّ وجل وصف أهل الدنيا قال:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)

(سورة الكهف)

فإذا اعتنى الإنسان بحياته عناية طبّق فيها الشرع ليس هذا من اللغو، لكن اللغو هو العمل الذي لا يمتُّ إلى دنيا، ولا يمتُّ إلى دين، هناك شيءٌ من الدنيا يتصل بالدين، فمن أجل أن تكسب ودّ زوجتك وودّ أولادك لا بدّ أن تنفق عليهم، والإنفاق يحتاج إلى كسب للمال، ولا بدّ من وقتٍ تصرفه في كسب المال، هذا الوقت بهذه النية العالية كأنه عبادة، حينما تكسب المال من أجل أن تكفي زوجتك وأولادك، وأن تجعلهم يعتزُّون بك، وأن يرونك إنساناً تكرمهم، هذا الكسب للمال ليس من اللغو، فكما يقول عليه الصلاة وسلام:

((ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه إلا أن يتزود منهما معاً، فإن الأولى مطية للثانية))

(ورد في الأثر)

حتى هذا الذي يعتني بجسمه من أجل أن يبقى نشيطاً قوياً هذا الوقت الذي يبذله ليس من اللغو، أي أن كل شيء يتصل بدنيا مشروعة، هذه الدنيا تهيِّئ للآخرة ليس من اللغو، أما العمل المباح الذي لا طائل منه، والذي لا يتصل بالآخرة بطريقةٍ من الطرق هذا لغوٌ يجب الإعراض عنه.

فأحياناً لقاؤك مع الناس فيه لغو، يوجد أشخاص لا يستمعون إليك، ولا يعبؤون لتوجيهاتك، ولا يقيمون لك وزناً، وإذا زرتهم لا بدّ أن يغلقوا الحديث بكلامٍ سخيفٍ تافه، ولا يسمحون لأحدٍ أن يتكلّم معهم، فما الجدوى من زيارتهم ؟ لا جدوى منها، أعرض عن هذه الزيارة، أما إذا زرت إنساناً يُصْغي إليك، ويستمعُ إليك، ويقدِّر دينك وعلمك، هذا إذا زرته، وعدته مريضاً، و زرته مهدئاً بعد أن جاء من السفر، أو إذا أقدم على عمل، هذه الزيارة ربما تركت فيه أثراً كبيراً، وهذا ليس من اللغو، المؤمن دائماً له هدفٌ كبير، وهدفه الكبير أن يقرب الناس إلى الله عزّ وجل، لو أن لك جاراً في عملك أصابه مرضٌ فزرته في المستشفى، أو في بيته، وأخذت له هدية، ثمن هذه الهدية ليس من اللغو، لأنك بهذه الهدية قرّبت قلبه إليك، ومهّدت له أن يلقي لك أذناً مصغية يستمع بها إلى الحق، فالمؤمن له أهداف بعيدة جداً، قد يذهب مع صديق له يمضي معه ساعات طويلة في السوق يشتري له بعض الحاجات، وهو في غنى عن هذه الحاجات، ولا وقت عنده ليضيعه، لكنه إذا فعل هذا ألف قلب صديقه فجعله يميل إليه، هذا ليس من اللغو، ولكن اللغوَ العمل الذي لا يتصل بالآخرة، أو لا يتصل بدنيا تكون عوناً على الآخرة، هذا هو التعريف الدقيق للغو: فكل عملٍ لا يتصل بالآخرة، ولا يتصل بدنيا ليس لها علاقةٌ بالآخرة.. أو لو أنه اتصل بدنيا لها علاقةٌ بالآخرة لا يعد هذا العمل لغواً، هذا له عند الله عزّ وجل أجرٌ على قدر صلته بالآخرة، أو على قدر صلته بدنيا لها صلةٌ بالآخرة.

فالإنسان قد يجلس مع أولاده، أو مع زوجته، أو مع جيرانه، يبحث شأن العمارة مع جيرانه، وبعد أن يبحثوا الموضوعات المطروحة في جدول الأعمال فإنه يذكرهم بآيةٍ قرآنية أو بحديثٍ شريف، فكأن هذه الجلسة المباركة لفَتَتْهم إلى الله عزّ وجل، فإن جُلوسه معهم ليس لغواً، المؤمن إيجابي، ليس سلبياً، ليس انطوائياً، ليس انعزالياً، ليس منعزلاً عن الناس، طبيعة المؤمن طبيعة إيجابية، طبيعة منفتحة، طبيعة ودودة.

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

(سورة المؤمنون)

عندنا لغو في الأقوال، وعندنا لغو في الأفعال، وعندنا لغو في الأعمال، فالمؤمن له هدف واضح، فأي شيءٍ من قولٍ أو فعلٍ يتصل بهدفه البعيد فهو يفعله بنيةٍ عالية، بنية أن يرضي الله عزّ وجل:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين: الإنفاق:

قد يقول بعضكم: لمَ لم يقل الله عزّ وجل: والذين هم للزكاة منفقون ؟ بل قال: فاعلون، أجاب بعض العلماء: لأنك إذا طلبت من إنسان أن يشرب الدواء فقال لك: إني سأشربه، أو قال: إني فاعلٌ ذلك، كلمة فاعلٌ ذلك أشدُّ توكيداً من قوله: إني سأشربه، فالزكاة هنا إنفاق بعض المال الذي أوجبه الله عزّ وجل، وفي آياتٍ أخرى:

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (24) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (25))

(سورة المعارج)

هذا نصاب الزكاة، وفي آية ثانية:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

(سورة الذاريات)

استنبط النبي عليه الصلاة والسلام من هذه الآية قوله:

((إِنَّ فِي الْمَالِ حَقًّا سِوَى الزَّكَاةِ))

(من سنن الترمذي عن فاطمة بنت قيس)

أي أن الزكاة أن تدفع جزءاً من مالك تعبيراً عن صدق إيمانك، لأن الزكاة تسمى في آيات أخرى الصدقات:

(إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ)

(سورة التوبة: آية " 60 ")

وسميت الصدقةُ صدقةً لأنها تعبر عن صدق صاحبها، فالزكاة إنفاق، والإنفاق يؤكِّد الإيمان، الإيمان تصديق وإقبال، وهذا شيء خفي، لكن العمل الصالح يؤكد هذا الشيء الخفي، وهو الإيمان، فكأن الزكاة والإنفاق هما المظهر العملي للإيمان، الإيمان له مظهر قلبي هو التصديق، ومظهر شعوري هو الإقبال، وله مظهر عملي هو العمل الصالح، والالتزام بشرع الله عزّ وجل، لذلك هؤلاء المؤمنون هم للزكاة فاعلون.. والله سبحانه وتعالى يقول:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة التوبة)

عندما يدفع الإنسان من ماله الحلال الذي كسبه بعرق جبينه، وكدِّ يمينه، ينفق هذه الألف ليرة، هذه الخمسمئة ليرة، وكان بالإمكان أن ينفقها على نفسه، وعلى أولاده، وعلى طعامه وشرابه، حينما ينفق هذا المال يبتغي بها إرضاء الله عزّ وجل فإن الله يتجلّى عليه، لذلك لا يوجد مؤمن يدفع زكاة ماله إلا ويشعر برحمة الله تنصبُّ على قلبه، هذا الشعور صعب أن ينقل للآخرين، وكل من دفع زكاة ماله يشعر بالسكينة، يشعر بالرحمة، وكأن الله سبحانه وتعالى تجلى على قلبه وغمره برحمةٍ لم يذق أحلى من طعمها:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)

لا يسمى المؤمن فالحاً إلا إذا كان في الصلاة خاشعاً، وإلا إذا كان عن اللغو معرضاً، سبحان الله اللغو يذهب وقار المؤمن، الموضوعات السخيفة، الموضوعات التي لا طائل منها، الاهتمامات الفرعية الجزئية، الانغماس في ضلالات، ومتاهات، وترُّهات الحياة، هذا من شأنه أن يضعف مكانة المؤمن عند الله عزّ وجل،

((فالمؤمن يحب معالي الأمور ويكره سفسافها))

(الجامع الصغير عن الحسين بن علي)

يقول: يا أخي، الشطرنج لا بأس به، لا هذا يتنافى مع مكانة المؤمن، تتابع عملاً فنياً في مواقف غير صحيحة، في مواقف غير مشرفة، وأنت مؤمن، ثم تقوم إلى الصلاة بعد ذلك، تشعر أنك مقطوع عن الله عزّ وجل، تجلس مع النساء، كل الحديث عن اللباس، وعن الأناقة، وأنت جالس معهن مستأنس، ولو كنّ من محارمك، هذا لغو، قم فاقرأ قرآناً أو حدثهن عن الله عزّ وجل، أو اتركهن يخوضن في هذه الأحاديث السخيفة التي فيها ذكر للدنيا وشهواتها وانحرافاته وحدهن..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5))

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين: حفظ الفروج:

قلت لكم من قبل: إن ربنا سبحانه وتعالى لحكمةٍ بالغة جعل بعض الأحكام الشرعية متوافقاً مع بعض النظم الوضعية، فأي تشريع أرضي يحرم السرقة، والسارق يعاقب، في بلاد تقطع يده، في بلاد يسجن، لكن السارق في أي مكان في العالم يحاسب إذا ضبط، هناك أشياء لا يوجد شرع أرضي يحاسب عليها، موضوع إطلاق البصر، فأن تنظر إلى امرأةٍ في الطريق متبرجة، ليس في قوانين الأرض كلها قانونٌ واحدٌ يحرّم عليك ذلك، أي أن هذه مما انفرد بها الدين، يقول عليه الصلاة والسلام:

((من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله))

(ورد في الأثر)

((ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعةٍ من مخلط))

(ورد في الأثر)

الطبيب أحياناً تأتيه امرأةٌ مريضة، الطبيب المؤمن يغض بصره إلا عن المكان الذي يعالجه، لأنه موقن بأن الله..

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر)

أحياناً العين تخون صاحبها، وتختلس نظرةً من مكانٍ لا يحقُّ للطبيب أن يراه، هناك أطباء ورعون يضعون قماشاً أبيض فوق المريضة لئلا يقع بصرهم على شيءٍ لا يحل لهم، إنسان بمحله التجاري قد تأتيه امرأةٌ لتشتري، فهناك من يغضُّ بصره عنها، وهناك من يتأمل محاسنها، بالمركبة العامة أحياناً تركب إلى جانبه امرأة، فإما أن يختلس النظر إليها، وإما أن يعرض عنها، فهذه أشياء مما ينفرد بها الدين، هذا يؤكِّد محبتك لله عزّ وجل وإخلاصك له.

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

(سورة المؤمنون)

توجد آيات أخرى، ربنا عزّ وجل قال فيها:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

وكأن الله سبحانه وتعالى رسم لنا طريق حفظ الفرج، إنه غض البصر، قال عليه الصلاة والسلام:

((من ملأ عينيه من الحرام ملأهما الله من جمر جهنم))

(ورد في الأثر)

وفي الحديث:

((النظرة سهمٌ مسموم من سهام إبليس، فمن تركها في سبيلي أذقته حلاوةً في قلبه إلى يوم يلقاني))

(الترغيب والترهيب عن ابن مسعود)

من ترك هذه النظرة في سبيل الله أذاقه الله حلاوةً في قلبه إلى يوم يلقاه، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول لك:

((اصرف بصرك))

(مسلم عن جرير)

و:

((يا علي، لا تتبع النظرة النظْرة، فإنّ لك الأولى، وليست لك الآخرة))

(أبو داود والترمذي عن بريدة)

على الدرج انتظر حتى تصعده المرأة إلى الدرج، على المصعد تريث، ودعها وحدها، ولا تخلو بامرأة، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يَخْلُوَنّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ فَإِنّ الشّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا))

(من مسند أحمد عن ابن عمر)

وكل الأحداث الخطيرة التي تؤدّي إلى الطلاق وإلى خراب البيوت أساسها النظرة، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

فحفظ الفرج إذاً طريقه غض البصر، هنا:

(وَالّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

كيف يحفظ فرجه ؟ بغض بصره، إذا غض بصره الله عزّ وجل يحفظه، لكن إذا الإنسان أطلق بصره في الحرام ربما قاده هذا البصر إلى الزنى، ربما انتهى به إلى الزنى، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزّنَى لا)

(سورة الإسراء: آية " 32 ")

لم يقل: ولا تزنوا، بل قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزّنَى)

(سورة الإسراء: آية " 32 ")

فهذه الشهوة كأنها صخرةٌ متمكنة في قمة جبل بإمكانك أن تدفعها نحو الوادي أو لا تدفعها، ولكنك إذا دفعتها فلا بدّ أن تستقر في أعماق الوادي، فالشهوة إذا أطلقت من عقالها، إذا تفلّتت من صاحبها قادته إلى الهلاك، وقد تقوده إلى الجريمة، وقد تقوده إلى تطليق زوجته، وله منها سبعة أولاد من أجل هذه النظرة.

(وَالّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

والحقيقة أن الرجل عنده نقطتا ضعف، موضوع النساء وموضوع المال، والمؤمن محصّن ضد هاتين النقطتين، يكون شخصية علمية كبيرة يؤتى من النساء، يشترى بالمرأة فيبيع دينه، وعرضه، ووطنه وأمته بامرأةٍ، وقد يبيع دينه، ووطنه، وأمته بدرهمٍ ودينار ؛ ولكن المؤمن محصنٌ من جهة النساء بغض البصر، ومن جهة المال بالعفّة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الإيمان عفيفٌ عن المطامع، عفيفٌ عن المحارم))

(ورد في الأثر)

(وَالّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ)

(سورة المؤمنون)

لأن الله عزّ وجل لم يَدَعْ شهوة أودعها فينا إلا جعل لها قناةً مشروعةً نظيفة، شهوة النساء لها طريق الزواج، شهوة المال لها طريق الكسب، شهوة العلو في الأرض لها طريق العلم:

(يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

(سورة المجادلة)

أتحب أن تكون متفوّقاً ؟ أتحب أن تبلغ درجاتٍ علية في المجتمع ؟ تعلّم:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر: آية " 9 ")

وقال سبحانه:

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

(سورة طه)

فشهوة النساء قناتها الزواج، وشهوة المال قناتها الكسب المشروع، وشهوة العلو في الأرض قناتها العلم الشرعي، لذلك سُئل الإمام الشافعي من قِبَل شاعر قال:

يدٌ بخمس مئين عسجدٍ وديت ما بالها قطعت في ربع دينارِ

****

بخمس مئين أي بخمس مئات من الدنانير، وُدِيَتْ أي كانت ديتها، ما بالها قطعت في ربع دينار، لو أن يداً سرقت ربع دينار لقطعت، ولو أن يداً قطعت بحادث ديتها خمسمئةٍ دينار ذهبي، والدينار الذهبي يبلغ ستة آلاف ليرة، فهو مبلغ ضخم جداً، ما بالها قطعت في ربع دينار، فقال الإمام الشافعي:

عزُّ الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

****

لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت.

إذاً:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ)

المباح للرجل من النساء: الزوجة ومِلك اليمين:

مباح له أن ينظر إلى امرأته بأيّة نية، ولو بشهوة، لأن هذا مباح له.

(أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ)

وهذه مضى وقتها، ففي أثناء حروب الفتوحات الإسلامية كان ثمة أحكام دقيقة جداً لملك اليمين، فيما بعد أُسيء فهمها، وأسيء تطبيقها، وأصبحت مأخذاً على المسلمين، وليس على الإسلام، فيما بعد في

عصور التخلّف، عصور الانحطاط أصبح ملك اليمين منحرفاً عن القصد الذي أراده الله عزّ وجل، وعن الطريقة التي أقرّها الشرع، فصارت مأخذاً على المسلمين، لكن الآن ليس هناك ملك اليمين إطلاقاً:

(إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

(سورة المؤمنون)

الإنسان غير مُلام، فالزواج مشروع، والزواج فيه افتخار، والدليل هو: عندما يتزوج الإنسان يوم العرس، من السنة المطهرة أن يكون هناك إعلان وإشهار لهذا النكاح، الآن يشهرونه بهذه الأبواق التي يطلقونها في أثناء سيرهم، وكانوا قديماً يشهرونه بالطبول، والنبي علّم بعض الأنصار كيف يهزجون:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم ولولا الحبة الخضراء لما جئنا بواديكم

***

ومن السنة إخفاء الخِطبة وإشهار النكاح:

(فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)

الإنسان يجلس مع أهله في بيته مطمئناً ناعم البال، لكن لو لمحت شاباً يكلم فتاة في الطريق، وإنسان أصدر صوتاً خفيفاً لاضطربا، لأن عملهما غير مشروع، ولأنه خارج النظام الاجتماعي، خارج الشرع الشريف، خارج الطريق المشروع، خارج القواعد الصحيحة:

(إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7))

(سورة المؤمنون)

شهوة خارج المشروع اعتداء على حدود الله:

هذا الذي ينظر إلى امرأةٍ لا تحل له يعتدي عليها، ويعتدي على نفسه، معتدٍ مطلق الاعتداء، يعتدي على نفسه، فهو يحرمها من الإقبال على الله عزّ وجل، ويعتدي على هذه المرأة ربما أغواها، وربما منّاها، وربما جعلها تعيش في أحلام وهو لا ينوي الزواج منها، هذا عدوان، أكثر الناس في أحوالهم، في أعمالهم، إذا كان هناك امرأة فيبالغون في التلطف لها، ويسمعونها كلمات معسولة، هذا ليس من الإيمان في شيء، هذه ليست امرأتك، لطفك الزائد، ونعومتك، ومزاحك اللطيف اجعله لزوجتك، وليس لامرأة جالسة بجانبك في الدائرة، كل ما عندك من ذكاء ومن لطف هذا ادخره لزوجتك، هنا القناة مسموحة، إنسان يمزح، ويتلاطف زيادة مع امرأةٍ لا تحل له، هذا نوع من الإغواء صار هذا عدواناً، تعتدي على عواطفها، تعتدي على مشاعرها، تجعلها تتمنى أن تكون زوجاً لها، وأنت متزوج تجعلها

تبالغ في زينتها، هذا كله عدوان، تعتدي على نفسك، وتعتدي عليها في الوقت نفسه، لذلك المؤمن لا يعتدي، فهو يحل له أن يكون مع امرأته لطيفاً، قال عليه الصلاة والسلام:

((أكرموا النساء، فوالله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً))

(ورد في الأثر)

فمن الملاحظ أن الإنسان المنحرف المقصر لطيف جداً مع أي امرأة لا تحل له، أما مع زوجته فهو فظ، ليس هذا من الدين في شيء، قال عليه الصلاة والسلام:

((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي))

(من سنن الترمذي: عن عائشة)

((وكان إذا دخل بيته بسّاماً ضحاكاً))

ولا يحل لامرأةٍ أيضاً أن تلين القول لرجلٍ لا يحل لها:

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا)

(سورة الأحزاب)

أشياء دقيقة جداً قد تنتهي بخراب البيوت، قد تنتهي بالطلاق، قد تنتهي بتشريد الأولاد من أجل كلمةٍ لطيفةٍ قالـها الرجل لامرأةٍ لا تحل له، إذا كنت مأموراً بغض البصر فأنت بالامتناع عن كل كلامٍ لطيف مع امرأةٍ لا تحل لك من باب أولى، إذا كنت مأموراً أن تغض بصرك عن محارم الله، لذلك المزاح اللطيف مع النساء في أماكن عامة، في دوائر مثلاً، في مناسبة، في زيارات، هذا ليس من أخلاق المؤمن، يفعل هذا حتى لا يُقال عنه صلب، أرضِ الله عزّ وجل، أرضِ الله، ولا تعبأ بكلام الناس، هكذا الشرع.

تحضر امرأة إلى البيت، وتكون زوجته خارج البيت، يقول لها: تفضلي يا أختي، استحياء منها، هذا عمل غير إسلامي، حتى ولو جاءت من مكان بعيد، ما دام لا يوجد امرأة في البيت فلا يحق لك أن تقول لها: تفضلي، لأنه:

((لا يَخْلُوَنّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ فَإِنّ الشّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا))

(من مسند أحمد عن ابن عمر)

هذه قضايا دقيقة جداً، فالإنسان من أين يؤتى ؟ فمعظم المسلمين لا يشربون الخمر، ولا يلعبون القِمار، ولا يزنون، ولا يسرقون، ولكن المأخذ الذي يأخذهم منه الشيطان النساء، لذلك:

((مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرّ عَلَى الرّجَالِ مِنَ النّسَاءِ))

(صحيح البخاري عن أسامة بن زيد)

النساء كما قال عليه الصلاة والسلام:

((حبائل الشيطان))

فليس للإنسان حق أن يتساهل في سلام، أو بنظرة، أو بابتسامة، بكلام، بتعليق، بكلمة، هذا كله قد يأتي إلى ما هو أكبر منه، وقد ينتهي بالزنى، وقد ينتهي بالطلاق، وقد ينتهي بقطيعةٍ مع الله عزّ وجل، الآية دقيقة جداً:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7))

(سورة المؤمنون)

أترون معي كيف أن الدين كلّه حياء ؟ هل من كلامٍ أرق من هذا الكلام ؟ هذا الكلام هل يخدش حياء إنسان ؟ هل يخدش حياء طفل ؟

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

يدخل وراء ذلك كل أنواع الانحرافات، الزنى وغير الزنى، والزنى المثلي، كل أنواع الانحرافات التي تسمعون عنها وتقرؤون عنها، كل هذا دخل في هذه الآية:

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

هذه القناة مشروعة، هذا الطريق مشروع، وما سوى هذا الطريق كله ممنوع:

(فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

هذا معتدٍ، يعتدي على نفسه بحرمانها من الاتصال بالله عزّ وجل، ويعتدي على هذه الفتاة التي هي أخته في الإنسانية بإغوائها:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

من صفات المؤمنين: حفظ الأمانة:

الأمانة موضوع دقيق جداً، يقول الله عزّ وجل:

(عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب)

هذه الأمانة كما يسميها علماء التوحيد أمانة التكليف، أنت على هذه الدنيا إنسان لك هويّة معينة، أودع الله فيك الشهوة، ومنحك حرية الاختيار، وفوق هذا وذاك سخّر لك ما في السماوات والأرض، ومنحك

العقل، وأنزل على أنبيائه الشرع، فالشرع، والعقل، والكون، وحرية الاختيار، والشهوة هذه كلُّها مقومات التكليف، أودع نفسك أمانةً بين يديك كي تزكيها:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسّاهَا (10))

(سورة الشمس)

هذه أرقى أنواع الأمانات، وهي التي عناها الله بقوله:

(عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب)

وهناك أمانة التبليغ، هذه الأمانة حملها الرسل والأنبياء، فبَلّغوا رسالات الله:

(الّذِينَ يُبَلّغُونَ رِسَالَاتِ اللّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلّا اللّهَ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا)

(سورة الأحزاب)

حينما تنقل للناس الحق دون تزييفٍ، ولا تعديلٍ، ولا تطويرٍ، ولا تغييرٍ، ولا إضافةٍ، ولا حذفٍ فأنت قد بلّغت الأمانة، وأنت عندما تقف على باب النبي عليه الصلاة والسلام تقول: أشهد أنك بلغت الأمانة وأدّيت الرسالة، ونصحت الأمة، وكشفت الغُمة، وجاهدت في الله حق الجهاد.. هذه أمانة التبليغ.

هناك أمانة الأداء، أيْ الأمانة التي أوكلت للعلماء، وقد أخذ الله عليهم العهد ليبيّنونّه للناس ولا يكتمونه، أن تبيّن الحق للناس دون أن تكتمه هذه أيضاً أمانة الأداء.

وهناك أمانة الواجب، كلٌ منا له عمل يقوم به ؛ فالنجار، والخيّاط، والمدرس، والطبيب، والصيدلي، كل هؤلاء لهم أعمال، فإما أن يؤدي هذا العمل أداءً صحيحاً ليس فيه تقصيرٌ ولا خلل ولا غش، وإما أن يقصّر، أو يخل أو يغش، عندئذٍ يكون قد خان الأمانة.

فأمانة التكليف، وأمانة التبليغ، وأمانة الأداء، وأمانة الواجب، وهناك أمانة المجالس، قال عليه الصلاة والسلام:

((الْمَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ))

(من سنن أبي داود عن جابر بن عبد الله)

فحتى إذا حدّثك أخوك حديثاً، ثم سمع وقع خطواتٍ فالتفت فهذا الحديث بالأمانة، لو لم يقل لك: احفظ هذا الحديث، ولا تنقله عني، مادام قد التفت لوقع خطواتٍ فالحديث بالأمانة، هذا أمانة المجلس، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيّتِهِ))

(من صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر)

فالزوجة راعية في بيت زوجها، والخادم راعٍ في مال سيده، والرجل راعٍ في أولاده، والموظف، والطبيب، والمدرس، والمعلم، وأصحاب الصناعات، وأصحاب الأعمال، كلهم عليهم أن يرعوا الأمانة:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

(سورة المؤمنون)

فهؤلاء المؤمنون يصفهم الله عزّ وجل بأنهم:

(لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

فيجب أن ترعى أمانة التكليف، ويجب أن ترعى أمانة الأداء، ويجب أن ترعى أمانة العمل، العمل أمانة، أصحاب المصالح، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا الدِّينُ النَّصِيحَةُ))

(من مسند أحمد عن تميم الداري)

فالكذب، والتدليس، والغُش، وتبديل النوعية، والكذب في اسم البضاعة، وفي منشئها ومصدرها، وفي نوعها، والتلاعب بثمنها، وبعددها، ونوعها، هذا كله خيانة لأمانة العمل، والطبيب إذا أراد أن يبتز المريض، والصيدلي إذا محا تاريخ انتهاء الدواء، فإنه خان الأمانة، والمحامي إذا كان مقتنعاً بأن الدعوى خاسرة كلياً، ثم يقبل أن يتوكل بها ليبتز من أموال الموكل، وكل مصلحة من المهن الراقية أو غير الراقية ممكن أن يكـون فيها أداء للأمانة، أو خيانة للأمانة، فربنا عزّ وجل يقول:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

وأمانة المجالس، والأمانة أي الوديعة التي تودع عندك، هذه أداؤها من الأمانة، فالأمانة واسعة جداً، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

(من مسند أحمد عن أنس)

كل إنسان يخون أمانة التكليف، أو أمانة التبليغ، أو أمانة الأداء، أو أمانة الواجب، أو أمانة المجلس، أو أمانة الأسرة..

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتّر على عياله))

خان الأمانة، هذه ربطت نفسها معه فأكل، ولم يطعمها، ولبس، ولم يلبسها، خان الأمانة، كل من خان هذه الأمانة فلا إيمان له، بنص قول رسول الله صلى الله عليه وسلم..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

((لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

(من مسند أحمد عن أنس)

فلو عاهدت، من علامات النفاق نقض العهد، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ))

(من صحيح البخاري)

اتفقت معه على أمرٍ فلابدّ من إنفاذه، فلتحفظوا الحديث:

((لا إيمَانَ لِمَنْ لا أمَانَةَ لَهُ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

(من مسند أحمد عن أنس)

(وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9))

(سورة المؤمنون)

لعظم شأن الصلاة بدأ الآيات بالصلاة:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

وأنهاها بالصلاة، لكن هنا الحفاظ على نوعية الصلاة، على الاتصال بالله، على الخشوع لله، أما هنا الحفاظ على أوقات الصلاة، وعلى ركعاتها، وسُننها، وفرائضها، هنا:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

من صفات المؤمنين: الحفاظ على الصلاة:

أما هنا:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

(سورة المؤمنون)

يحافظون على فرائضها، وسُننها، وعلى خشوعها، وعلى أدائها في أوقاتها، ولكن يضيف بعض العلماء إلى هذه المُحافظة انهم باستقامتهم على أمر الله يحافظون على الاتصال بالله عزّ وجل، من خرق استقامته مع الله عزّ وجل أخلّ بصلاته، تصبح صلاته جوفاء شكلية لا جدوى منها:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11))

(سورة المؤمنون)

جزاء من اتصف بصفات المؤمنين: وراثة الجنة:

من انطبقت عليه هذه الآيات استحق دخول الجنة بنص هذه الآية..

في صلاتهم خاشعون، عن اللغو معرضون، للزكاة فاعلون، لفروجهم حافظون، لأماناتهم وعهدهم راعون، على صلواتهم يحافظون:

(أولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11))

(سورة المؤمنون)

ونرجو الله سبحانه وتعالى أن نتابع تفسير هذه الآيات في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المؤمنون 023 - الدرس (3-8): تفسير الآيات 12 – 22
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-08-26

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم... مع الدرس الثالث من سورة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14))

(سورة المؤمنون)

وتأتي الآيات بعد هذه الآية متلاحقةً تبيّن بعض ما في الكون من دلائل، ومن عِبَر.

سؤال: ما علاقة ذكر الآيات الكونية بعد آيات وصف المؤمنين المفلحين ؟

الجواب: التفكّر في الكون طريق من طرق الإيمان:

السؤال الآن: ما العلاقة بين هذه الآيات الكونية، وبين قوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (11) وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12))

(سورة المؤمنون)

أي أنّ أيها الإنسان إذا أردت أن تكون مؤمناً متحلياً بصفات المؤمنين، وارثاً لفردوس رب العالمين، فتعرّف إلى الله من هذا الطريق طريق الكون، كأن الله سبحانه وتعالى بيّن الهدف، ورسم الطريق، الهدف أن تكون مؤمناً خاشعاً في صلاتك، معرضاً عن اللغو، فاعلاً للزكاة، حافظاً لفرجك، راعٍ لأمانتك، إذا كنت كذلك ورثت جنة الفردوس، أما الطريق فانظر إلى آيات الله..

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

وقال عزوجل:

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: آية " 101 ")

وقال سبحانه:

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس)

وقال:

(فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ)

(سورة الطارق)

وقال:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

(سورة المرسلات)

إنّ الله سبحانه وتعالى يبيّن لنا أن طريق الإيمان بالله عزّ وجل أن تتأمل في هذه الأقوال، وأن تقف عند كل آية مستجلياً وجه العظمة فيها، فكلما ارتقت معرفتك خشع قلبك:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: آية " 28 ")

وهذه (إنما)أداة قصر، بمعنى أن العلماء وحدهم، وليس أحد سواهم يخشون الله عزّ وجل، فإذا أردت أن تكون في صلاتك خاشعاً فتأمّل في ملكوت السماوات والأرض، الإنسان أحياناً يمرُّ على آيات الله مروراً سطحياً، ربنا عزّ وجل وصف الكفار فقال:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ)

(سورة محمد)

الإنسان يشرب كأساً من الماء، هل أعمل فكره في هذا الماء ؟ ما مصدر هذا الماء ؟ كيف كان مِلحاً أجاجاً فصار عذباً فراتاً ؟ هل عرف أن الشمس، والقمر، والسماء، والأرض، والبحار، والهواء، والسحب، والغيوم، وطبقات الأرض كلها ساهمت في هذا الكأس من الماء ؟ قد يأكل طعاماً، قد يأكل فاكهةً، قد ينظر إلى ابنه الصغير، قد ينظر إلى جبل شامخ، قد يمتّع عينيه ببحر صاخب، قد يرى جبلاً أخضر، قد يرى وادياً جميلاً، قد يشمُّ رائحةً عطرة، قد يرى زهرةً فوّاحة، هذا الذي يمرُّ على آيات الله مرور المتمتع، مرور المستغل، مرور التاجر، من دون أن يقف عند خالق هذه الآية، وعند عظمته، وعند أمره، هذا إنسان شأنه كشأن البهائم، لذلك نعى ربنا عزّ وجل على هؤلاء الذين يمرُّون على الآيات في السماوات والأرض وهم عنها غافلون، فربنا عزّ وجل أيقظنا بهذه الآيات، أي أنّك أيها

الإنسان لا تُفلح إلا إذا كنت مؤمناً خاشعاً في صلاتك، معرضاً عن اللغو، فاعلاً للزكاة، حافظاً لفرجك، راعٍ لأمانتك، حافظاً لصلواتك، من أجل أن تكون مؤمناً هل فكّرت في هذه الآيات ؟..

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ)

(سورة المؤمنون)

آية من آيات الله الكونية: خَلْقُ الإنسان:

الإنسان أيْ مطلق الإنسان، وبعض العلماء يقولون: إنه الإنسان الأوّل سيدنا آدم، لأن الله سبحانه وتعالى خلقه من طين.

معنى السلالة:

المعنى الأول:

والسلالة هي الخليط.

(سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ)

أي أخلاطٍ من أنواع الطين جمّعها الله سبحانه وتعالى، ونفخ فيها من روحه فكانت سيدنا آدم، هذا تفسير.

المعنى الثاني:

تفسير آخر، السلالة بمعنى السلسلة، من طين، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مضغة، مراحل مر بها خلق الإنسان، فإما أن تكون السلالة الأخلاط، وإما أن تكون السلالة السلاسل، على كلٍ الإنسان الأول خُلِقَ من طين، ولكن مشيئة الله سبحانه وتعالى شاءت أن تجعل تكاثر ذُريّته عن طريق التوالد، عن طريق النطفة، وعن طريق البويضة، وعن طريق الرحم، وعن طريق الجنين كما تعلمون من تفصيلاتٍ مررت عليها في درسٍ سابق..

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ)

لهذا في آياتٍ أخرى يقول الله سبحانه وتعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة: آية " 21 ")

أي لا يستحقُ العبادة إلا الخالق، غير الخالق لا يستحق العبادة.

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا)

(سورة الإسراء: آية " 23 ")

الخالق وحده هو الذي يستحق أن تعبده، والعبادة أن تطيعه طاعة طوعيّة مبنية على معرفةٍ يقينية، منتهية بسعادة أبدية..

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ)

بعض الشعراء قال:

نسي الطين ساعة أنه طينٌ حقيـر فصـال فيها وعَرْبَد

وكسا الخَزّ جسمه فتباهـى وحوى المال كيسه فتمرّد

***

إنّ الإنسان أحياناً يعلو، وينسى أنه من طينٍ من صلصال، ينسى أنه من ماءٍ مهين خرج من عورةٍ، ودخل إلى عورةٍ، ثم خرج من عورة، وسمي الماء مهيناً لأن الإنسان يستحيي به..

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13))

(سورة المؤمنون)

ربنا عزّ وجل لم يقل: ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم خلقناه نطفة.. لا ؟؟ أي ثم جعلناه، شاءت مشيئتنا أن يكون توالده وتكاثره في ذريته عن طريق التوالد وعن طريق النطفة.

(ثُمَّ جَعَلْنَاهُ)

نظام التوالد أساسه النطفة:

جعلنا نظام التوالد، ونظام التكاثر على أساس النطفة، وهذه النُطَفْ المعلومات حولها كثيرةٌ جداً، فهذه النطف تُصنَّع في الخصيتين، والخصيتان تحتاجان إلى حرارةٍ دون حرارة الجسم لذا هما خارج الجسم، والذي خصيتاه داخل جسمه هذا لا ينجب، لأن حرارة الجسم لا تساعد على تخليق النُطَفْ، وقال لي بعض الأطباء: إن النُطَفْ يجري تخليقها وتصنيعها في ثماني عشر مرحلة، وقد تستغرق أياماً كثيرةً تزيد عن العشرين يوماً حتى تصبح جاهزة، وفي اللقاء الواحد يُفْرِزُ الإنسان أكثر من ثلاثمئة مليون حوين منوي، وهذه الحوينات تنتقل من عُنِق الرحم إلى القنوات إلى أن تلتقي بالبويضة، والذي حيّر الأطباء هذا الحوين الضعيف الذي خلقه الله من رأسٍ مدبب، وعنقٍ مُحلزن، وذيلٍ مُتَعَرّج، الذيل من أجل أن يتحرك، والرأس المدبب من أن أجل أن يخترق، ولكن كيف يخترق البويضة ؟

اكتشف العلماء مؤخراً أنّ في رأس كلّ حوين منوي مادةً نبيلةً هذه المادة النبيلة تشبه خلط العين الزجاجي المائي، هذه المادة النبيلة تذيب جدار البويضة، فإذا ارتطم هذا الحيوان.. الحوين المنوي.. بجدار البويضة ذاب جدارها فإذا دخل إليها أُغْلِقَ الباب وانتهى الأمر، فحوين منوي واحد من ثلاثمئة مليون حوين يلقّح البويضة، أما كيف تختار البويضة أقوى هذه الحوينات فهذا لا يعلمه إلا الله، تختار البويضة أقوى هذه الحوينات من بين ثلاثمئة مليون حوين، على كلٍ..

(ثُمّ جَعَلْنَاهُ نُطفَةً فِي قَرَارِ مَكِينِ)

(سورة المؤمنون)

الرحم قرار مكين:

الرحم قرار مكين، معنى قرار مكين أنّك إذا أخذت خطاً متوسطاً للمرأة طولاً وخطاً متوسطاً عرضاً يتعامدان عند الرحم، فالرحم يشكِل الوسط الهندسي تماماً للمرأة، شيءٌ آخر الرحم في بدايات الحمل يحافظ على النطفة، لذلك جعله الله في قرارٍ مكين.

انظر إلى حكمة الله عزّ وجل كيف أن الله سبحانه وتعالى جعل الدماغ محفوظاً في الجمجمة، والجمجمة عُلَبَةٌ عظميّة فيها مفاصل ثابتة، هذه المفاصل تمتصُ الصدمات، لو نظرت إلى جمجمة ترى أن هناك خطوطاً منكسرة تفصل بين أجزائها، هذه الخطوط هي المفاصل الثابتة، لكن فيها بعض الفراغات البينية، فإذا ارتطم الطفل بالأرض، وسمعت دويّ رأسه إلى مكانٍ بعيد فاطمئن إنه في سلامة، لأن هذه الفراغات البينية تراصّت فامتصّت الصدمة، إذاً الدماغ شيء خطير جداً في الجمجمة، ولا يقل عنه خطراً النخاع الشوكي في سلسلة، والعين مهمة جداً في محجر، والقلب هو المضخة الأساسية في القفص الصدري، ومعامل الدم، وهي أخطر ما عند الإنسان داخل العِظام، والجنين داخل عظم الحوض.

(ثُمّ جَعَلْنَاهُ نُطفَةً فِي قَرَارِ مَكِينِ)

قرار مكين، الرحم محاطٌ بجدرانٍ عظميةٍ من كل الجهات في مراحله الأولى، عظام الحوض في المرأة تحيط بالرحم من كل جانب، فهو في قرارٍ مكين، الشيء الآخر النطفة تعلق على جدار الرحم بعد أن تلقّح البويضة بشكلٍ مكين، فالبويضة الملقحة مستقرةٌ على جدار الرحم بشكلٍ مكين، والرحم في مكانٍ مكين ومحاطٍ بجُدُرٍ من العظام، وهناك أربطةٌ تربط الرحم من كل الجهات بحيث لا يتأثّر بحركة الأم، هذا معنى قوله تعالى:

(ثُمّ جَعَلْنَاهُ نُطفَةً فِي قَرَارِ مَكِينِ (13) ثُمّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً)

مراحل تطور الجنين:

1 - تحوّل النطفة إلى علقة:

هذه النطفة ينشأ لها في الجدار الخارجي استطالات تُعِينُ على أن تلتصق بجدار الرحم، وجدار الرحم يغذّي هذه الاستطالات، ويرحّب بها كي تعلق هذه البويضة الملقّحة، فعندئذٍ تسمى علقة، لا لأنها قطعة دم جامدة، بل لأنها تعلق على جدار الرحم بمجموعة وسائل بعضها من الرحم، وبعضها من العلقة نفسها..

(ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ)

(سورة المؤمنون: آية " 14 ")

2 - تحوّل العلقة إلى مضغة:

عندئذٍ تكبر هذه العلقة، ويتوضّح بعض معالم الجنين، يبدو رأسه وجذعه فقط، يبدو في رأسه عينان، يبدو في جذعه القلب، هذه المضغة قطعة من اللحم فيها ملامح أولية لتخليق هذا الجنين، على كلٍ ذكرت هذا مفصلاً في دروسٍ سابقة، واليوم أذكره موجزاً كي يُتاح لنا التفصيل في آيات أخرى.

(فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً)

(سورة المؤمنون: آية " 14 ")

3 - نشأة العظام:

ثم تنشأ العظام، وبعدها تُكسى هذه العظام باللحم، تنشأ العضلات، على كلٍ نقطة الحوين المنوي مع البويضة لا تُرى بالعين المجردة، لا تُرى إلا تحت المجهر، وفي بعض الكتب صور لهذه الحوينات والبويضات، الذي لا تراه بعينك بعد تسعة أشهر ترى طفلاً كامل الخلق، فيه رأسٌ، وجذعٌ، وأطراف، فيه أعصابٌ وشرايين، فيه عضلاتٌ وعظام، فيه سمعٌ وبصر، فيه فمٌ وأنف، فيه شعر، فيه جِلد، فيه مريء ورغامى، ولسان المزمار، ومعدة، وأمعاء، وكبد، وبنكرياس، وطحال، وصفراء، وكظر، وكليتان، وحـالب، ومثانة، وجهاز إفراز، تكوين يأخذ بالألباب، بعدئذٍ هذا الطفل يبتسم، بعدئذٍ يضحك، بعدئذٍ يأكل، يبحث عن الطعام، يلتقم ثدي أمه، الطريق سالك، ثم يستجيب للضوء، يستجيب للصوت، بعدئذٍ يتكلّم، يحاول أن يمشي، بعدئذٍ إذا جاءت أمّه يُقْبِلُ عليها، وما زال الإنسان يرقى في مدارج المعرفة إلى أن يصبح إنساناً سوياً، من طوّره من حالٍ إلى حال ؟ الله سبحانه وتعالى..

(ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آَخَرَ)

(سورة المؤمنون: آية " 14 ")

4 ـ نشأة الجنين خَلقا متميزا كاملا:

هذه الآية دقيقة جداً، ربما كان أي جنين لأي حيوان مشابهاً لجنين الإنسان، فكل حيوان يتكاثر عن طريق الولادة ؛ له نطفة، وله بويضة، وهناك تلقيح، وتصبح هذه البويضة المُلَقّحة علقة، فمضغة، فعظام، فعضلات كالإنسان، ولكن هذا الإنسان، تبارك الخلاق..

(ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آَخَرَ)

هذا الإنسان مُكَرّم، كرّمه الله سبحانه وتعالى، أعطاه عقلاً، أعطاه نطقاً، أعطاه شهوةً، أعطاه أمانةً، أعطاه كوناً، أعطاه اختياراً، الإنسان خَلْق آخر، لا مجال أن تقيم موازنة بين جنين حيوان، وبين جنين إنسان، هذا الإنسان قد يُصبح عبقرياً، قد يصبح في مستقبل أيامه مصلحاً اجتماعياً، عالماً جليلاً، مخترعاً، قائداً مُحَنّكاً، ضابطاً كبيراً، قد يكون صانعاً ماهراً، قد يكون طبيباً حاذقاً، هذا إنسان آخر، هذا مكرم.

(الرّحْمَنُ (1) عَلّمَ الْقُرْآَنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

هذا الإنسان خلق لمهمة عالية جداً..

((خلقت السماوات والأرض من أجلك، وخلقتك من أجلي، فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عمّا افترضته عليك..))

(ورد في الأثر)

(ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آَخَرَ)

معاني الآية:

المعنى الأول:

هذا مخلوق آخر، هذا حُمِّل الأمانة، هذا مكلّف لمعرفة الله عزّ وجل، هذا مكلف أن يزكِّي نفسه، هذا الإنسان مخيّر، هذا الإنسان خُلِقَ ليكون أول المخلوقات، هذا الكون كله مسخرٌ من أجله، هذا خلق آخر.

(ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آَخَرَ)

جنين الدابة يكبر ويكبر، وبعد ذلك تحدث الولادة لكن يبقى دابة، أما هنا إنسان مكرّم مُبَجّل، إنسان يتكلم، يفكِّر، فهناك فرقٌ نوعي بين الإنسان وبين الحيوان، فرقٌ نوعي، فحياة الحيوان لمْ ترتق، حياة القرود مثلاً، فهل القرود أنشأت مساكن فخمة ؟ عملت تدفئة مركزية ؟ أو قادت طائرة ؟ أو اخترعتها ؟ اخترعت سيارة مثلاً، أو أجهزة نقل ؟ أجهزة إعلام ؟ تعلمت درساً ؟ دَرّست ؟ ألّفت ؟ الحيوان هو الحيوان لا يتغير، أما الإنسان يرقى، فالذي يقول: إن الإنسان مَرّ بمرحلة القرود هذا إنسان يُحَقِّرُ بني جنسه، الإنسان إنسان والحيوان حيوان.

(ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آَخَرَ)

هذا معنى من معاني هذه الآية.

المعنى الثاني:

هناك صفات أُخرى، تجد الطفل الصغير إذا أراد أن يلعب يمتطي عصاه، وكأنه فارسُها، الطفلة الصغيرة إذا أرادت أن تلعب تأخذ وسادةً، فتجعلها بنتها، وتربط عليها، وتسكتها، وتلقمها صدرها، معنى ذلك أن ثمة فروقًا نوعية بين الذكور والإناث، هذه تُعنى بهندامها، بشكلها، هذه مطواعة، هذا الطفل الصغير يحاول إثبات شخصيته بوسائل عديدة، فكأن هناك فرقاً نوعياً بين الذكور والإناث، ربما لا ترى فرقاً ظاهراً في بُنية الطفل أو الطفلة، ولكن في البُنى النفسية والنواحي الاجتماعية فرقٌ شاسعٌ بينهما، هذا معنى آخر.

المعنى الثالث: لو توقّعت أن يكون الجنين ذكرًا أو أنثى، أي أن بالعُرَى الملوّنة، بالمورثات، يوجد ثلاثة وعشرون زوجًا، الزوج الأخير إما على شكل: (X)إكس، أو على شكل واي (y)، فإذا كان على شكل (y)فهو ذكر، أو على شكل (X)فهو أنثى، فهناك بعض الحالات التي ترى تحت المجهر، وعن طريق أجهزة بالغة التعقيد، يتحدد بها نوع الجنين، ثم يتغير هذا النوع بعد فترة من الزمن..

(ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آَخَرَ)

حدثني أخ فقال: إن طبيباً من أكبر أطباء الأمراض النسائية في بلاد متقدمة مادياً - يجب أن نقول متقدمة مادياً، أما من حيث الأخلاق والنواحي الأخرى فهي متخلفة جداً - فهذا الطبيب أراد أن يجري تجربة فشقّ بطن زوجته، وعرف نـوع الجنين، وحين الولادة كان الجنين خلقاً آخر.

(ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آَخَرَ)

فإما أن الإنسان له مكانة عند الرحمن، فهو خلقٌ آخر من بنية أُخرى، وإما أن هناك صفات نفسية اجتماعية، هذه لا تُرى بالعين يوجد خلق آخر، وإما أنه لو توصّلت إلى معرفة نوع الجنين، وربما كانت

الولادة خلقاً آخر..

(ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

معنى: فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ

بعضهم يقف عند هذه الآية وقفة، كم مِن خالق في الأرض حتى يقول الله عزّ وجل:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

القضية بسيطة جداً، الخلق بمعناه الدقيق ليس أن تصنع شيئاً من لا شيء، بل أن تصنع شيئاً من شيء، والدليل:

(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ)

(سورة المائدة: آية " 110 ")

ربنا خاطب سيدنا عيسى:

(وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي)

(سورة المائدة: آية " 110 ")

الخَلْق بمعناه اللغوي:

إذاً الخَلْق بمعناه اللغوي: أن تأخذ نسبًا معينة من بعض المواد تصنع منها شيئاً، هذا الخلق بهذا المعنى الدقيق، الإنسان أيضاً يساهم فيه، كأن يقول لك: الإبداع مثلاً، فأي آلة صنعها الإنسان لو وازنتها مع خلق الله عزّ وجل، فهل يوجد إنسان موديل سبعة وثمانين، موديل ستين، موديل سبعة وخمسين ؟ لم أسمع بهذه أبداً، وهل طرأ عليه تعديلات أو تحسينات، أو هذا درجة رفيعة مثلاً، أو هذا درجة أولى ؟

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

ما من مخلوقٍ إلا حينما خُلِقْ كان قمة في الإتقان.

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل: آية " 88 ")

يمتطي مركبة تكون أحدث مركبة، وأحدث شكل، توقف فجأةً لسبب تافه جداً.. بسبب قشة وقفت.. هل يوجد إنسان وقف، وجمد بأرضه ؟ وصار به عطل ؟ يظل الإنسان ماشياً، حتى ولو كان جائعاً في المركبة ساعة لم تنتبه لها يحترق المحرك، ساعة الحرارة، يدير حديثاً ممتعاً مع صديقيك، حصل في المحرك خطأ، فارتفعت الحرارة فاحترق المحرق، فلو كانت هناك ساعة صوتية لنبهتك، أما إذا كان

السائق ضعيف السمع يحترق المحرق، أما الجوع يا ترى ما هذا الجوع ؟ ساعة مرئية، أم ساعة صوتية ؟ جهاز دقيق جداً، يقول لك: أنا جائع سأموت من جوعي.

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

لا موازنة بين خلق الله وصنع الإنسان:

لو أردت أن تجري موازنة، فلابدّ من طرح سؤال: مَن منا اشترى سيارة، ثم وجد سيارة أخرى ذات قياس صغير قد ولدتها ؟ باع الصغيرة، وأبقى على الكبيرة، أو أعطى الثانية لابنه، هذه لم نسمعها في حياتنا، بينما حصانك أو بقرتك تتوالد.

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

فالمجال واسع جداً لو أردت أن تعمل موازنة بين خلق الله عزّ وجل الكامل وبين بعض المصنوعات البشرية تجد مسافات كبيرة جداً.

وبعضهم يقول: سمي الإنسان خالقاً من باب المُشاكلة، وبعضهم يقول: الخلق بمعنى صنع شيءٍ من شيء، أما ربنا عزّ وجل خالق وبارئ، الخالق البارئ المصور، على كلٍ الآية لا تزيد عن أن تلفت النظر إلى صنع الإنسان، صنع الإنسان يتكامل لأن الإنسان بالأساس ضعيف خبرته تأتي من التجربة، والدليل: إذا اطلعت على صورة سيارة عام 1912 مثلاً، انظر، وأجْرِ موازنة، تجد فيها حركة واحدة أول فقط، الإضاءة فوانيس، يشعل عود الثقاب يملأ الزيت، ثم يشعل الضوء، هكذا كانت السيارة سابقاً، لها صوت يملأ الدنيا ضجيجاً، سرعتها قليلة جداً، حَدّثني رجل أن القطار الأول صنع ببريطانيا عينوا له موظّفاً يمشي أمامه لينبّه الناس لكي لا يدهسهم، الآن سرعته ثلاثمئة وستين كيلو مترًا في الساعة الواحدة..

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

(سورة المؤمنون)

هذا خَلْقُ اللهِ:

اسأل من يرعى الغنم، ربما تجاوز عدد أغنامه المئات، وقد توالدت، فكيف تعرف (السخلة) أمها ؟ والله شيء صعب، كل سخلة تتجه نحو أمها أو بالعكس:

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

فالغنم اجتماعي بطبعه، والكلاب دائماً متفرقة، فهل يمكنك أن ترعى كلاباً، وتسوقها معاً ؟

لا تقدر أن ترعاها، لأن كل واحد في جهة، لكن الغنم مذلل، لو كان الغنم بأخلاق الضباع، أو بأخلاق الذئاب لما استفدنا منها، الإنسان يقفز من أفعى أو من عقرب، أما الجمل وزنه ثمانمئة كيلو، وتجد طفلاً يقوده، من الذي ذلله ؟

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

تمضي كل حياتك، كل الحياة تمضي، ولا تمضي الموازنة بين خلق الله، وبين صنع الإنسان:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

ومعنى تبارك الخير الكثير، فروث الغنمة أحسن أنواع السماد.. أغلى أنواع السماد روث الغنم والبقر.. تفلح فداناً من الأرض بقرة، روثها كافٍ ليكون سماداً لهذا الفدان، فالصوف نستفيد منه، والجلد نستفيد منه، والأمعاء نستفيد منها، والعضلات لحم، والدهن مواد دسمة، والعظام لها فوائد، والحليب سبحان الله:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

(سورة المؤمنون)

الإنسان يخلق هدفاً، يصنع شيئاً له لهدف واحد، أما ربنا عزّ وجل كل شيء ينتجه الحيوان فيه خير، فالآن مشكلة التلوث في العالم هي أكبر مشكلة، فهذه المعامل لها فضلات كيميائية، ولها دخان، ولكن خلق الله عزّ وجل فضلاته مفيدة، روث البقر، وروث الدجاج كله مواد مهمة جداً في حياتنا، فالناتج هو أنه لا يوجد شيء يلوث البيئة، أو يزعج الحياة.

عندنا سؤال دقيق: هذا الخلق العظيم، خلق مذهل، وبعد هذا يموت الإنسان ؟!! فمثلاً: إذا عمّر إنسان بناء خلال عشرين سنة ؛ وضع الأساسات، وحفر، وبعد هذا طلع إلى أول طابق والثاني، وبَلّط، ودهن، ووضع الحمّامات والمطابخ، وعمل مدخلاً فخماً، وبعدما انتهت سكنها خمس سنوات، وبعد هذا أحضر آلات وهدمها، فإنك تقول: إن هذا الإنسان جن، لماذا هدمها ؟ فالموت هدم للإنسان، فالإنسان خُلِقْ بأبدع صورة فلماذا الموت ؟ حتى الإنسان لا يتساءل لماذا الموت ؟ قال تعالى:

(ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16))

(سورة المؤمنون)

الموت مصير كلّ المخلوق:

هذا موت موقّت، وبعد هذا هناك حياة أبدية، فالإنسان خُلق لكي يحيا حياةً أبدية، أما الحياة دون آخرة صعب تفسيرها، الحياة الدنيا وحدها دون موت دون آخرة فيها خلل، لأن خلق عظيم والعمر قصير،

الآن ترى الإنسان حتى يتمكّن أن يكسب يصل إلى الثلاثينات، والأعمار بين الخمسين والستين، فيقدر ما يعيش حياة معقولة بقدر ما يُعِدُّ لها، فلا يوجد تناسب، فربنا عزّ وجل قال:

(ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ)

(سورة المؤمنون)

هذه مشيئة الله:**" كل مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت ".**

الليل مهما طـال فلا بدّ من طـلوع الفجر

و العمر مهما طـال فلابدّ من نزول القبر

***

الأنبياء يموتون، والأغنياء يموتون، والفقراء يموتون، والذين يعتنون بصحتهم العناية الفائقة يموتون، والذين لا يعتنون يموتون، والذين يغامرون يموتون، والذين لا يغامرون يموتون، الموت حق، فلما كشف سيدنا الصديق رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن وافاه الأجل قال: **" طبت حياً وميتاً يا رسول الله، أما الموتة التي كتبها الله عليك فقد ذقتها ".**

لا يوجد غيرها، فإذا المؤمن اجتهد في الحياة الدنيا حتى استحق مرضاة الله عزّ وجل يوجد له موتة واحدة فقط، وبعدها في جنّات الفردوس إلى أبدِ الآبدين:

(ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (16))

(سورة المؤمنون)

ثم بعد الموت البعثُ والحساب:

لولا البعثُ بعد الموت لما كان للحياة من معنى، لأن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وابتلاهم، فوزّع الحظوظ في الدنيا توزيع ابتلاء، وسيوزّع الحظوظ في الآخرة توزيع جزاء، لذلك من لوازم الإيمان بالله أن تؤمن بأسمائه كلِّها، ومن أسمائه الحق، وهذا الاسم لا يتحقق إلا يوم القيامة، لأنه ليجزي كل نفسٍ بما كسبت:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ)

(سورة المؤمنون)

معنى: سَبْعَ طرَائِقَ

طبقات الجوّ سبع:

بينت لكم في درسٍ سابق كيف أن السماوات التي فوق الأرض سبع سماوات، إما سبع بالعد الصحيح، وإما سبع كثرة، والعرب تذكر سبعة، وأضعاف السبعة للكثرة، سبع سماوات أي سماوات كثيرة، سبعون التكثير بالمئات، والسبعة للعشرات، فعلى كلٍ فهناك مجموعة طبقات فوق الأرض، من طبقة الهواء الأولى، إلى طبقة المواد الكبريتية، إلى طبقة الأوزون، إلى طبقة التأيُّن، طبقات ذكرتها في درسٍ سابق أو في خطبةٍ سابقة، وكيف أن الطبقة الأولى يزيد سمكها على ثمانية عشر كيلو مترًا، فيها الرياح، والسحب، والأمطار، والثلوج، والبَرَد.

والطبقة الثانية فيها مواد كبريتية تلقِح الأمطار، وعن طريقها يصبح الغيم مطراً، وبعدها توجد طبقة الأوزون، وبعدها توجد طبقة بحيث أن كل جسم من السماء إذا وقع على الأرض يتشهَّب في هذه الطبقة، وبعدها توجد طبقة السحب القطبية، إلى ما هنالك من معلوماتٍ دقيقة يختصُ بها بعض علماء الفلك، على كلٍ ربنا عزّ وجل جعل السماء فوقنا طبقاتٍ، وكل طبقةٍ لها وظيفة، وهذه الوظائف جمعت في قوله تعالى:

(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً)

(سورة الأنبياء: آية " 32 ")

السماء سقف حافظ محفوظ:

أي حافظاً للأرض من كل جسمٍ خارجيٍ عنها ومن كل أشعةٍ قاتلة، فالأشعة القاتلة تمتصُها طبقة الأوزون، والأجسام الكوكبية في السماء إذا وقعت على الأرض فإن الطبقة التي تزيد حرارتها عن ألف وخمسمئة درجة كفيلةٌ أن تجعلها متشهّبة، وأن تجعلها رماداً لا يُرى ولو تحت عدسة الميكروسكوب:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ)

أي أن الله سبحانه وتعالى في السماء إلهٌ وفي الأرض إلهٌ، إذا كان قد خلق السماوات فهو إلهٌ في الأرض، إذا كان هو الذي خلق المجرّات والسُحب، والنجوم، والشموس، والأقمار، هو نفسه في الأرض إله:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

(سورة الزخرف)

كل هذه السماوات العُلا:

(وَمَا كُنّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِين)

(سورة المؤمنون)

معنى: وَمَا كُنّا عَنِ الخَلْقِ غافِلِينَ

المعنى الأول:

بعضهم يقول: إن الملائكة تعبر هذه السماوات السبع لترفع إلى الله سبحانه وتعالى أعمال الإنسان:

(وَمَا كُنّا عَنِ الْخَلْقِ غافِلِين)

المعنى الثاني:

وبعضهم يقول: إن الله سبحانه وتعالى ما كان غافلاً عن السماوات، خلقها فأبدعها وجعلها محكمة، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إنّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)

(سورة فاطر)

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

معنى: بِقَدَرٍ:

المعنى الأول:

قال العلماء: بقدر أي بنسب ثابتة ؛ تركيب الماء أي الهدرجين، والأوكسجين، ذرتين لذرة، فإن هذا التركيب مُعْجِز، هذا التركيب مؤلّف من عنصر مشتعل وعنصر يساعد على الاشتعال، وبه تُطفئ النار، لذلك تعديل طفيف في بنية الماء تصبح المياه كُلُّها لهيباً، لذلك:

(وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)

(سورة الطور)

من بعض تفسيراتها أن البحار تصبح نيراناً يوم القيامة، فهذا الماء ذرتين من الهيدروجين، وذرة من الأوكسجين، عنصر مشتعل، وعنصر يعين على الاشتعال، ويوجد معه مواد أخرى، وهي مواد منحلة من الصخور تناسب طبيعة الإنسان، والماء المُقطّر لا ينفع الإنسان وحده ما لم يخلط بمياه الآبار، لذلك وحدات التقطير التي على سواحل البحار يُضاف إلى مائها ماء بعض الآبار كي يكون صالحاً للشرب.
بِقَدَر أي نسب المواد، يقول لك: بالعشرة آلاف ذرة من الفلور بالماء من أجل وقاية الأسنان، يوجد فلور، يوجد كالسيوم، يوجد مغنزيوم، هناك مجموعة معادن في الماء، فهذا الماء بقدر أي إنه بنسب مقدّرة.

المعنى الثاني:

أي بحجم مناسب، الآن في السودان يوجد فيضانات هذا حجم أكبر مما يجب، فأطاح بآلاف المساكن، ومليون إنسان بلا مأوى، وقتلى بالألوف، لأن الماء بحكمة بالغة لا يعلمها إلا الله، فالماء له حد مفيد جداً، يوجد حد آخر يصبح الماء مدمّراً:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

(سورة المؤمنون: آية " 18 ")

يقول علماء الجيولوجيا: إن في عصور مطيرة بقيت حبال من السماء تهطل عشرة آلاف سنة بشكلٍ مستمر حتى تشكّلت البحار.
قال ربنا عزّ وجل:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

(سورة الحجر: آية " 21 ")

يهطل في هذه البلد مئتا ميليمتر، وفي هذه مئة وخمسون، وفي تلك خمسون، هذه خط المطر خارج الجفاف، هذه المنطقة ألف ميليمتر، هذه خمسمئة، هنا جبال خضراء، وهنا ساحل، كل منطقة لها كمية أمطار مناسبة:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ)

بُنْيَةُ الماء، وعناصره، وبعض المعادن المنحلة فيه بقدر، وحجمه بقدر، ووقته بقدر، لو نزل الماء في غير أوانه لكان مؤذياً، ولم نستفد منه، وكان نزوله عبثاً، فأصبح معنى كلمة بقدر لها ثلاثة معانٍ: بنسبه، وكميته، ووقته:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ)

(سورة المؤمنون)

تيسير اللهِ تعالى لخَلْقه الانتفاعَ بالماء:

من الذي جعل في الأرض طبقةً كتيمة، وبعدها طبقة نفوذة، وبعدها طبقة كتيمة، وبعدها تربة الأرض؟ من الذي جعل هذا ؟ لو لم تكن تلك الطبقة الكتيمة في الأسفل لغار الماء:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

(سورة الملك)

إنه الله سبحانه وتعالى.

لو اطلع رجلٌ على ما يدرسه الإخوة الجيولوجيون لوجد أن بنية الأرض شيءٌ يأخذ بالألباب، فجزيرة فيها نبع ماء كأرواد مثلاً، هذا يقتضي أن يكون هناك تمديدات تحت سطح البحر إلى جبال طرطوس، لا يمكن إلا أن تكون هكذا بحسب مبدأ الأواني المستطرقة، نبع في جزيرة منبسطة تحتاج إلى خزّان في مكان مرتفع في الطرف الثاني من اليابسة، ولابدّ من تمديدات تحت سطح البحر، في بعض البلاد توجد أربعة آلاف جزيرة، أو خمسة آلاف، أو عشرين ألف جزيرة، كل جزيرة لها نبعها الذي يكفي أهلها.

هناك شيء آخر: بعض الجبال فيها حيوانات مثل الوعول تعيش في رؤوس الجبال، ربنا عزّ وجل جعل لها ينابيع، هناك ينابيع في قمم الجبال، وليس هناك من تفسيرٍ لهذه الينابيع إلا أن تكون خزّاناتها في جبالٍ أخرى أكثر ارتفاعاً، إذا وُجِدَ نبع في قمة جبل معنى هذا أن خزانه في جبل آخر أعلى منه، هذه كلها آيات دالّة على عظمة الله عزّ وجل:

(فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ)

(سورة المؤمنون: آية " 18 ")

فهذا نبع الفيجة ربنا عزّ وجل جعله لهذا البلد الطيب، لا يوجد بلد في العالم فيها ماء كهذا الماء، على مدار السنة ستة عشر مترًا مكعبًا في الثانية الواحدة، ترتفع إلى عشرين، وتنزل إلى خمسة في أيام الجفاف، على كلٍ يوجد عطاء مستمر، فأين هذا المستودع ؟ أين هذا الخزان ؟ ربنا عزّ وجل قال:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

(سورة الحجر)

وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ

فمن الذي خزنه ؟ أنت عليك أن تفتح الصنبور، وتملأ كأس الماء، لكن هل تعلم من الذي خزّنه لك طوال العام ؟ كيف كان بخاراً، فأصبح سحاباً، فساقه الله إلى بلادنا، فجعله مطراً أو ثلجاً، ثم غار في أعماق الأرض، فتجمّع في هذا الحوض ؟ الحوض بالمعلومات الأولية مساحته إلى حمص، ومن نصف

لبنان إلى سيف البادية، هذه المعلومات الأولية، هناك معلومات أوسع بكثير، من جعل هذا الخزان من الماء ؟

(فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

قدرة الله في الذهاب بالماء:

فإذا كان للإنسان نبع ماء، أو عنده محرك يخرج الماء، فإن هذا من فضل الله عزّ وجل، لذلك ممنوع أن يحفر آبارًا ارتوازية إلا الخبراء، فلو ثقبوا أرض مجمع للماء يغور الماء كله في طبقات عميقة في الأرض، وينتهي الماء كُلِّياً، ربنا عزّ وجل مصمم هذا الحوض المائي تحته طبقة كتيمة، ثم طبقة مجوّفة، بعده طبقة كتيمة، وبعدها طبقة نفوذة، وبعدها التربة، هذا تصميم إلهي، أي غلط بهذا الينبوع يغور الماء:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (18) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ)

(سورة المؤمنون)

لولا هذا الماء لما كانت الجنّات، ترى أرض صحراوية في داخلها مزرعة كلها أشجار، وكلها أثمار، وكلها أزهار، السبب هناك محرك ماء، هذا الماء هو الذي جعل من هذه الأرض القاحلة جنةً على وجه الأرض، كذلك الماء من السماء، لا يوجد مكان فيه خَضَار إلا وفيه ماء نبع، أو نهر، أو أمطار:

(فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 19 ")

إخراج النبات بالماء:

هذه لكم أي خصيصى لكم، من أجلكم، إكراماً لكم، فالإنسان عندما يأكل فواكه، أو ثمار، أو خضراوات، أو محاصيل، عندما يشرب كأساً من الماء فإن هذا مخلوق لنا خصيصى، لهذا النبي الكريم كان أحمدَ الخلق، إذا أكل قال:

((بسم الله))

وإذا انتهى قال:

((الحمد لله الذي أطعمني فأشبعني وسقاني فأرواني))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

هكذا كان يدعو عليه الصلاة والسلام.

(فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ)

يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ

كل هذه الفواكه تُسْقَى بماءٍ واحد..

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)

(سورة الرعد: آية " 4 ")

هذا خوخ دُب، هذا أبو ريحة، هناك فرق كبير جداً بينهما، ونفضل بعضها على بعضٍ في الأكل، هذا كرز هنا فجل، هنا فستق حلبي وهنا فستق عبيد، هنا خس، أي أن كل شيء بسعر، وكل شيء بطعم، وكل شيء بلون، وكل شيء له وظيفة، فهناك أنواع منوّعة من النبات، وكلها تسقى بماءٍ واحد:

(فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ)

هذا النخل.. ستة آلاف عام تعيش النخلة.. هناك نخلٌ من قبل ميلاد سيدنا المسيح، من عهد الفراعنة، زارني شخص وقال لي: إن هذا التمر من المدينة، وهناك تمرات كانت على عهد النبي عليه الصلاة والسلام، فقلت له: يوجد تمر من قبل ستة آلاف سنة، هذا النخيل يُعَمِّر، والزيتون يعمر، هناك زيتون من عهد سيدنا عمر:

(فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ)

(سورة المؤمنون: آية " 19 ")

كل أنواع الفواكه:

(وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (19) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ)

(سورة المؤمنون)

زيت الزيتون:

هذه الزيتون:

(تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ)

(سورة المؤمنون: آية " 20 ")

فإن أرقى المواد الدسمة هو الزيت البلدي:

(تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ)

وَصِبْغٍ للآكِلِينَ

الصبغ هو الإدام، إما أن تأكل الزيتون، فهو إدامٌ من أعلى درجة لك مع الخبز، وإما أن تعصر الزيتون فتستخدمه زيتاً، وهو مادةٌ دسمة من أرقى أنواع المواد الدسمة، فربنا عزّ وجل جعل من الزيتون آية دالّة على عظمته، لباب الدراق هو ماء سكري، أما الزيتون يوجد فيه زيت، مواد دسمة، الزيت دهن نباتي:

(تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ)

الصبِغ كما قال بعض العلماء: هو الإدام المائع. قال عليه الصلاة والسلام:

((نِعمَ الإدام الخل))

(أبو داود عن جابر)

فالإدام المائع يقال له: صبغ..

(وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ)

الزيتون غذاء من الدرجة الأولى، وحينما كنا طلاباً في المرحلة الثانوية علّمونا أن في قطرنا - والحمد لله - ثلاثة عشر مليون شجرة زيتون، هذا الرقم في الستينات، أما الآن أعتقد أكثر بكثير، سورية تُعَد الدولة الثالثة في العالم في إنتاج زيت الزيتون، فهذه الآية دالة على عظمة الله عزّ وجل:

(وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ)

(سورة المؤمنون)

كأن الله سبحانه وتعالى أشار إلى أن هذه الشجرة قد وجُدت في طور سيناء أي في الجبل الذي كلّم الله به موسى في فلسطين، وسيناء صفة محببة في الجبل أن يكون مكسواً بالأشجار:

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا)

(سورة المؤمنون: آية " 21 ")

في الأنعام عبرة:

هذا الحليب، تأكل بوظة في الصيف من الحليب، تأكل في الشتاء من الحليب، وتأكل الجبن صباحاً من الحليب، تأكل لبناً من الحليب، لبناً رائباً ومصفى، سمن بلدي من أجود أنواع السمون، قشطة، شمندوراً، زبدة كلها من الحليب، ربنا عزّ وجل قال:

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا)

من أعاجيب الغدة الثديية عند البقرة:

والغدة الثديية يدور فيها أربعمئة لتر دم من أجل تصنيع لتر واحد من الحليب، وحتى هذه الساعة لا يعلم العلماء ماذا يجري في خلية البقرة، فالخلايا الثديية في البقرة كالقُبة يجري حول شرياناتٌ دقيقةٌ جداً فيها دماء، فهذه الخلية تأخذ من الدم حاجتها، وتصنِّعها، وتلقي بقطرةٍ من الحليب في جوف هذه القُبة، هذه الخلية أعلم من علماء الأرض كلها، يمر الدم من فوق فتأخذ من الدم حاجتها ؛ البروتين، والسكر، والفيتامينات، والمواد المعدنية، تأخذه من الدم وتصنعه حليباً سائغاً:

(مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصًا سَائغاً لِلشّاربين)

تقطر قطرة من داخل القبة تتجمع في ثدي البقرة، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

(وَإِنّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا)

هذه الغنمة نفسها، والبقرة نفسها:

(مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ)

(سورة المؤمنون: آية " 21 ")

آخر أيامها تذبح فتباع لحماً، وجلدها يصير أحذية، وأشياء كثيرة من أحشائها نستفيد منها، والغنمة كذلك، والماعز، والإبل:

(وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)

هذه:

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

(سورة المؤمنون)

(وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

(سورة المؤمنون)

الناقة سفينة الصحراء:

تمتطيها في البر، وتركب السفن في البحر، فربنا عزّ وجل حمل الإنسان في البر وحمله في البحر، حتى لا يقول أحد: يا أخي نحن لا يوجد عندنا طائرات نفّاثة حديثة جداً، قال له:

(وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل)

القرآن مُعْجِز يُغَطِّي كل الأزمان والأمكنة:

(وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ)

(سورة المؤمنون)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المؤمنون 023 - الدرس (4-8): تفسير الآيتان 23 – 33
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-08-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الرابع من سورة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

(سورة المؤمنون)

إرسال الرسل من رحمة الله بعباده:

ربنا سبحانه وتعالى رحمةً بعباده، وإكراماً لهم أرسل إليهم الأنبياء والرسل، كما لو أنّ أباً أعطى ابنه حرية الاختيار، ومع ذلك نصحه، وبيّن له، ووجّهه، فالله سبحانه وتعالى إذا أعطانا حرية الاختيار، لقول الله عزّ وجل:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ)

(سورة الكهف: آية " 29 ")

وقال:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان)

وقال:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 148 ")

مع أن الله سبحانه وتعالى أودع فينا حرية الاختيار، لكنه منّ علينا بأن بعث فينا نبياً رسولاً يعلمنا الكتاب، والحكمة، ويزكينا، ويعلمُنا ما لم نكن نعلم، فالأنبياء وما جاؤوا به من كتبٍ سماوية إنما هم رحمةٌ مهداة للبشرية، لذلك:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ)

(سورة المؤمنون: آية " 23 ")

فربنا عزّ وجل عرض علينا الأمانة، وحملها الإنسان، بينما السماوات والأرض أشفقن من حملها، فلما حملها الإنسانُ سخر له ما في السماوات والأرض تسخير تعريفٍ، وتسخير إكرام، فالسماوات والأرض من جهةٍ تتعرّف بها إلى الله سبحانه وتعالى لأنها تجَسِّد أسماءه الحُسنى، وصفاته الفُضلى، ومن جهةٍ

هي إكرامٌ كبيرٌ لهذا الإنسان، فالإنسان حينما حمل الأمانة سخر الله له ما في السماوات والأرض تسخير تعريفٍ، وتسخير تكريم، لذلك رد الفعل يجب أن يكون هو الإيمان والشكر، تسخير التعريف يجب أن تؤمن به، وتسخير التكريم يجب أن تشكره، فلذلك يقول سبحانه وتعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: آية " 147 ")

لماذا إن شكرتم وآمنتم ؟ لأن الله سبحانه وتعالى سخَّر لنا ما في السماوات وما في الأرض تسخير تعريفٍ من أجل أن نؤمن، وتسخير تكريمٍ من أجل أن نشكُر، وبعد أن سخَّر لنا ما في السماوات والأرض منحنا العقل، العقل قوةٌ إدراكيةٌ كبيرة ز

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

ما قيمة السماوات والأرض دون هذا العقل ؟ لا نعرف الله إلا من خلاله، وما قيمة هذا العقل دون السماوات والأرض ؟ إذاً وتفضّل علينا أيضاً بأن منحنا تلك الجوهرة الثمينة التي هي العقل، ولولاها لما ارتقينا إلى الله، سخّر لنا السماوات والأرض، ومنحنا قوةً إدراكيةً هي نعمة العقل، وأودع فينا الشهوات من أجل أن نرقى بها إلى ربِّ الأرض والسماوات.

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ)

(سورة آل عمران: آية " 14 ")

هذه الشهوات نرقى بها إلى الله على حدّيها، على حدِّ الشكر وعلى حدِ الصبر، فمن غضّ بصره عن محارم الله، وقد أودع الله فيه حب النساء ارتقى صابراً، ومن سلك الطريق التي رسمها الله عزّ وجل الشرعية ارتقى إلى الله شاكراً، من كَسِبَ المال الحلال فتنعّم به في الدنيا ارتقى، هذا الإنسان بسبب حبه للمال ارتقى إلى الله شاكراً، ومن ترك المال الحرام، وهو في أمسّ الحاجة إليه ارتقى إلى الله صابراً، إذاً منحنا الكون، ومنحنا العقل، ومنحنا الشهوات، كلُّ هذا من أجل أن نرقى به، وتفضّل علينا بأن أرسل إلينا الأنبياء والمرسلين، وأنزل معهم الكتاب بالحق، إذاً الكون، والعقل، والشهوة، وحرية الاختيار، لولا أن الإنسان مخيّر لما ارتقى إلى الله عزّ وجل، لو أنّه مُكْرَه لا يرتقي إلى الله، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، إنما خيرهم، إذاً مقومات التكليف، المقومات تسخير الكون، ومنحة العقل، وإيداع الشهوة، والتخيير، والرُسل والأنبياء، والشرع، هذه الكتب التي أنزلها على أنبيائه ورسله، لذلك ربنا عزّ وجل في هذه الآية يَذْكُر لنا بعضاً من مِنَنه على عباده:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا)

والله هو المرسِل، ومن لوازم الحكيم أن أفعاله كلّها حكيمة، وهذا الذي أرسله صفوة الخلق، لأن الله عزّ وجل قال:

(إنّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ)

(سورة آل عمران)

وصفوة الصفوة سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم، هؤلاء الأنبياء مُصْطَفَوْن، أخيار، عبادٌ مكرمون، مُثل عُليا، نماذج بشرية كاملة، فكأن هؤلاء الأنبياء قد حققوا الهدف الذي من أجله خُلِق الإنسان، خُلِقَ الإنسان ليعرف الواحد الديّان، خُلق الإنسان ليتّصف بالأخلاق الحِسَان، فإذا اكتفى بالطعام والشراب فهو ما ارتقى عن مستوى الحيوان، إذا كانت حياة الإنسان طعاماً وشراباً، وعملاً ورفاهيةً، ومُتعاً رخيصة فإن هذه الحياة على غناها، وعلى تنوعها، وعلى ما تحتاج إليه من أموالٍ طائلة فإنها لا ترتقي فوق مستوى الحيوان أبداً، لن يكون الإنسان إنساناً إلا إذا كان قد عرف الله عزّ وجل، واصطبغ بالكمالات الإلهية حتى ينعَم بقرب الله عزّ وجل:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ)

نوح عليه السلام أولُ رسلِ اللهِ:

سيدنا نوح أوّل الرسل الذين هم من أولي العزم، الأنبياء كثيرون، والرسل أقل منهم، وأولي العزم بعض الرسل، وهذا أول رسولٍ من رسل الله عزّ وجل الذين وصفوا بأنهم من أولي العزم..

(فَقَالَ يَا قَوْمِ)

(سورة المؤمنون: آية " 23 ")

والرسول معه رسالة، وهذه الرسالة موجّهة إلى أمته، وإلى قومه، وإلى كل من عاصره..

(فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ)

دعوة الأنبياء: التوحيد في عبادة الله:

علماء التوحيد قالوا: لا تسمّى عبادة الله عبادةً إلا إذا كانت عبادةً قاصرةً على الله عزّ وجل، فمن عبد الله، وعبد غيره لا يسمى عابداً لله، يسمى مشركًا، فمن لوازم العبادة ألاّ تعبد إلا الله، والدليل في سورة الفاتحة قوله تعالى:

(إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة)

لم يقل الله عزّ وجل: نعبد إياك، بل قال:

(إِيّاكَ نَعْبُدُ)

ومعنى:

(إِيّاكَ نَعْبُدُ)

حينما يتقدم المفعول به على الفعل فهذا من أجل القصر، والقصر يعني أن تَقْصُرَ شيئاً على شيء:

(فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ)

والعبادة في أدقّ مفاهيمها التوجُّه إلى الله بعد طاعته، تطيعه وتتوجّه إليه، ولن تطيعه إلا إذا عرفته، ولن تعرفه إلا إذا فكّرت في ملكوت السماوات والأرض، إذا فكّرت في آياته الدالة على عظمته تعرفه، فإذا عرفته تطيعه، فإذا أطعته توجّهت إليه، فإذا توجّهت إليه سعدت بقربه في الدنيا والآخرة:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

عِلّة الخلق أن تعبد الحق:

(وَاعْبُدْ رَبّكَ حَتّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

(سورة الحجر)

فلذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنون: آية " 32 ")

لا إله إلا الله لا مسيّرَ بحقٍ إلا الله، لا معبودَ بحقٍ إلا الله، هذا الذي خلق السماوات والأرض، هذا الذي يُربّي مخلوقاته بأن يمدهم بكل ما يحتاجونه، رب العالمين، هذا الذي يسيّر كل شيء هو الإله، فلا بدّ أن تؤمن بالإله خالقاً، ولا بدّ أن تؤمن به مربياً، ولا بدّ أن تؤمن به مسيراً، إذا آمنت به خالقاً، وآمنت به مربياً، وآمنت به مسيراً، فلا بدّ أن تعبده، أمرك كله معه.

أنت كموظف في دائرة إذا أيقنت أن الحل والربط، والمنع، والسماح، والموافقة، والرفض، وكلها مجمّعة بيد إنسانٍ واحد، عندئذٍ لا تتجه إلى غيره، لا تُرضي غيره، لا تكسب ود غيره، تجعل علاقتك كلها مع هذا الإنسان، وهذا في المنطق الاجتماعي اليومي، فإذا أيقنت أنه لا إله إلا الله، إذا أيقنت أنه إليه يرجع الأمر كله، إذا أيقنت أن الله خالق كل شيء، وهو على كل شيءٍ وكيل، إذا أيقنت أنه بيده ملكوت السماوات والأرض، إذا أيقنت أنه:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر)

إذا أيقنت أنه لا حركة، ولا سكنة، ولا رفع، ولا خفض، ولا عزّ، ولا ذُلّ إلا بيد الله عزّ وجل، جمعت كل طاقاتك، وتوجهت بها إلى الله وحده، علاقتك مع الله عزّ وجل، أمر جسدك، وأمر أسرتك، وأمر عملك، وأمر تجارتك، وأمر دراستك، وأمر معملك، وأمر جيرانك كلها بيد الله عزّ وجل، فعَلامَ التشتُت؟ علامَ التبعثر ؟ ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

تعذِّب نفسك عندما ترى أن أمرك بغير يد الله، وأن هذا الإنسان لا يحبك، يكيد لك، يتمنَّى زوالك، وأمرك بيده، فإن هذا شيءٌ لا يحتمل، فسيدنا عليّ كرم الله وجهه يقول: **<< والله واللهِ، مرتين، لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين، ونقل بحرين زاخرين إلى أرض الصعيد بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون عليّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين >>.**

هذا الإمام الكريم سُئل: ما هو الذل ؟ فقال: **<< أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يردُّه >>.**

لما يتوهَّم الإنسان أن أمره، ورزقه، ورفعته بيد فلان، وأن زيداً من الناس بإمكانه أن يوقع به الأذى، وأن عمراً بإمكانه أن ينفعه، هذا هو الشرك، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إِنّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوّفُ عَلَى أُمّتِي الإِشْرَاكُ باللّهِ، أَمَا إِنّي لَسْتُ أَقُولُ: يَعْبُدُونَ شَمْسًا، وَلا قَمَرًا، وَلا وَثَنًا، وَلَكِنْ أَعْمَالا لِغَيْرِ اللّهِ، وَشَهْوَةً خَفِيّةً))

(سنن ابن ماجة عن شداد بن أوس)

أن اعبدوا الله، يجب أن تعرفوه أولاً، فإذا عرفتموه أطعتموه، وإذا أطعتموه توجّهتم إليه، وإذا توجهتم إليه سعدتم بقربه في الدنيا والآخرة..

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ)

(سورة الذاريات)

علّة الخلق أن تعبده، فإذا عبدته فقد فعلت كل شيء، وإن لم تَعْبُده لم تفعل شيئاً، وخسرت الدنيا والآخرة، وخسرت نفسك، لذلك ربنا عزّ وجل في آيات أخرى يُلَخِّص دعوى الأنبياء جميعاً، في آيات أخرى يلخِّص الله سبحانه وتعالى رسالات الأنبياء جميعاً إذ يقول:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

في سوَرٍ أخرى يجعل الله سبحانه وتعالى هذه الآية ترد على لسان جميع الأنبياء والمرسلين:

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنون: آية " 32 ")

أن تعرف أنه لا إله إلا الله هذه هي العقيدة، وأن تعبده هذا هو العمل، ولا بدّ من عقيدةٍ وعمل، لا بدّ أن تعرفه، ولا بدّ أن تطيعه.

(أن اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

إذا عرفت اللهَ فكيف تعصيه وتطيع غيرَه ؟!!

إذا كان الله هو الذي لا إله إلا هو ولا إله سواه، فكيف تطيع غيره، وتعصيه ؟ كيف تتقي غضبه ؟ كيف تتقي عذابه؟ كيف تتقي ناره ؟ قال أحد العلماء: قرأت أربعمئة ألف حديث **"، بعض كتب الحديث فيها ستمئة ألف "**، لكن بعض العلماء كالإمام الإشبيلي رحمه الله تعالى قال: **"قرأت أربعمئة ألف حديث، وقرأت حديثاً واحداً فوجدت أنه يغني عن كل هذه الأحاديث "**، حديث واحد، هذا الحديث:

((اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر مُقامك فيها))

(ورد في الأثر)

إذا الحياة ستون أو سبعون سنة، والآخرة للأبد، فيجب أن تعمل للآخرة أضعاف أضعافَ ما تعمل للدنيا..

((.. واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واتقي النار بقدر صبرك عليها))

(ورد في الأثر)

حاجة العبد إلى الله في كل حياته:

أنت محتاج لله عزّ وجل في ضربات قلبك، في الدَسّام، في الشرايين، في الأوردة، في العضلات، بأن تكون شرايين الدماغ كلها سالكة، لأنّ نقطة دمٍ إذا تجمدت في شريان أصيب المكان بالشلل، في مكان آخر أصيب بالعمى، مكان غيره أصيب بالجنون أو بالصمم، فنحن بحاجةٍ إلى الله عزّ وجل في كل ثانية، يد من تدخل إلى الدماغ ؟ فتح الدماغ عملية معقدة جداً، والقلب كذلك، والرئتين مثلها، المعدة، الأمعاء أجهزة الإنسان معقدة جداً، فربنا عزّ وجل كل هذه الأجهزة بيده.

أضرب مثالاً: توقف فجائي في الكليتين، هبوط مفاجئ في وظيفة الكليتين، معنى ذلك أن الإنسان يتسمم دمه، ولابدّ من غسلهما كل أسبوع مرتين، ومع الغسيل يبقى في الدم رواسب من السموم تجعل الحياة كالجحيم، فالإنسان بحاجة إلى الله عزّ وجل، وهو معكم أينما كنتم:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

(سورة المؤمنون)

أشخاصٌ كثيرون ناموا أصحِّاء ثم استيقظوا مرضى، نام سليمًا معافى، فاستيقظ فاقد البصر.

(أَفَلَا تَتَّقُونَ)

كيف تعصونه، وتتقون غضبه ؟ كيف تتقون عذابه ؟ كيف تتقون المصائب ؟

((ما من عثرةٍ، ولا اختلاج عرقٍ، ولا خدش عودٍ إلا بما قدّمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر))

(الجامع الصغير عن البراء بسند فيه ضعف)

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 24 ")

عادة الكفار ردّ دعوةِ الأنبياء لكونه بشرًا:

دائماً الذين كفروا يصدُّون عن سبيل الله، ويبغونها عوجاً، يصدون الناس عن سماع الحق.

(فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

هذا إنسان عادي مثلكم، ولكنه يحب الزعامة.

(يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آَبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)

(سورة المؤمنون)

لو أن الله سبحانه وتعالى أنزل مكان هذا النبي الكريم ملكاً، وأمرهم بغض البصر ماذا يقولون له ؟ يقولون: أنت ملك، نحن عندنا شهوة، نحن بشر، أنت ملك ونحن بشر، لا.. لا بدّ أن يكون النبي من بني البشر ليكون هو بذاته حجة على قومه، الله سبحانه وتعالى أودع في نفس النبي عليه الصلاة والسلام من الشهوات ما أودع في كل إنسان، لماذا هذا ضبطها، وارتقى بها إلى الله ؟ ولماذا فلان انساق معها فألقته في الهاوية ؟ هو الاختيار، فلذلك لا يمكن أن يكون الرسول ملكاً، ولو أنه ملك لاحتجَّ الناس بأن هذه الدعوة دعوة مثالية غير واقعية، لأن الذي يدعو بها ملك ليس فيه هذه الشهوات التي أودعت في الإنسان.

(مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آَبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)

هذا شيء افتراء، هذا شيء مختلق، هل يعدُّ العدم السابق دليلاً على العدم الطارئ ؟ هذه حجة واهية، وهذه حجة فيها مفارقة، وفيها أغلوطة.

(مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آَبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (24)إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ)

(سورة المؤمنون)

اتهام الكفار للأنبياء بالجنون:

كان النبيُّ عليه الصلاة و السلام في الطريق يمشي مع أصحابه الكرام فمر مجنون

أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يلقِن أصحابه درساً بليغاً، فقال: **من هذا ؟..** متجاهلاً.. فقالوا: هو **مجنون** ؟ قال:

((لا، هذا مصاب، المجنون من عصى الله))

لذلك:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم)

إذا أنت عرفت الله عزّ وجل، واستقمت على أمره، ونفّذت أوامره بحذافيرها، ووجدت بعض الأشخاص الذين حولك من أقربائك، من جيرانك، من زملائك يسخروا منك، اقرأ هذه الآية:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (2) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (3) وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (4) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَيِّيكُمُ الْمَفْتُونُ (6))

(سورة القلم: 2 – 6)

" ابن آدم أطع ربك تسمّ عاقلاً ".. " كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى به جهلاً أن يعصيه ".

أطع أمرنا نرفع لأجلك حُجبنا   فإنا منحنا بالرضا من أحبنـا
ولُذ بحمانا، واحتم بجنابنا   لـنحميك مما فيه أشـرار خلقنا
وعن ذكرنا لا يشغلنّك شاغلٌ   وأخلص لنا تلقَ المسرة والـهنا

***

(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ)

(سورة المؤمنون)

أي أنه مجنون بنظر المجانين، أما بنظر العقلاء هو أعقل العقلاء، يقول عليه الصلاة والسلام:

((من لا عقل له لا دين له، ومن لا دين له لا عقل له))

وعندما أسلم سيدنا خالد رضي الله عنه قال عليه الصلاة والسلام:

((عجبت لك يا خالد أرى لك فكراً))

أنت مفَكِّر، أنت ذكي، كيف لم يهدك ذكاؤك إلى الإيمان، لماذا أنت متأخر في الإيمان ؟ هناك لوازم فمن علامات العقل الراجح الإيمان وطاعة الله عزّ وجل، ومن علامات الحمق الزيغ، والضلال، والمعصية، قلت البارحة لإنسان: إذا رأيت إنساناً له عملٌ طيّب فأغلب الظن أن اعتقاده بالله جيد، وإذا رأيت إنساناً زائغ العقيدة فأغلب الظن أن له عملا سيّئًا:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1)فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

(سورة الماعون)

هو نفسه:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

التلازم بين صحة الاعتقاد وصحة السلوك:

هناك تلازم بين صحّة العقيدة وبين صحة العمل، عقيدةٌ سليمة عملٌ صالح، عقيدةٌ زائغة عملٌ سيئ:

(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ)

أي به جنون، وقال بعض المفسرين: دخل فيه جِنِّي، إما أنه به جنون، أي مصدر جَنَّة، أو به جِنّة أي جِنِّي مفرد جنة..

(إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ)

فغداً سيموت، وسوف ترتاحون منه، يموت وتنحل المشكلة، أي تربصوا موته، انتظروا موته حتى حين..

(قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ)

(سورة المؤمنون)

استعانة الأنبياء بالله تعالى لنصرتهم:

هؤلاء كذبوني يا رب، هؤلاء سخروا مني، هؤلاء ردُّوا دعوتي، هؤلاء لم يستجيبوا لي، لم يؤمنوا بي، أعرضوا عن دعوتي، انصرني عليهم، بين لهم صدق دعوتي يا رب:

(قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (26) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا)

أي أنت بأعين الله، أنت مُراقب من قبل الله عزّ وجل..

(اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا)

أمْرُ الله تعالى نوحًا بصنع السفينة:

الوحي هنا الأمر، الله سبحانه وتعالى أمر هذا النبي الكريم أن يصنع سفينةً، أمره أن يصنعها والله سبحانه وتعالى رقيبٌ عليه، أحياناً الإنسان يصدر أمراً، ولكن لا يوجد عنده إمكانية أن يتابعه، يصدر أمراً بمنع زراعة هذه المادة بالمنطقة الفلانية وزير الزراعة، ولكن يحتاج هذا الوزير إلى جهاز يتابع هذا الأمر، فإذا هذا الجهاز قصّر في المتابعة قد يخالف هذا الأمر، ولا يُطاع،

لكن الله سبحانه وتعالى مع كل مخلوق:

(سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

(سورة الحج)

(فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه)

فإذا أمر أمراً فهو يراقب هذا الإنسان..

(فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا)

(سورة المؤمنون: آية " 27 ")

أمر الهلاك، هلاك هؤلاء القوم..

(وَفَارَ التَّنُّورُ)

(سورة المؤمنون: آية " 27 ")

من علامات بدء هلاك الكفار من قوم نوح: فوران التنور:

كانت علامة بدء الهلاك أنّ التنور الذي هو موقد الخبز يفور بالماء، ينبع من قعره الماء، فيفور من التنور..

(فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا)

(سورة المؤمنون: آية " 27 ")

أي في السفينة..

(مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)

من مبادئ الحفاظ على النوع والنسل:

أي من كل حيوانٍ أليفٍ تحتاجه، بعضهم فهم هذه الآية فهماً مغلوطاً فجمع الحيوان فقال: إن هذه السفينة يجب أن يكون طولها عشرة كيلو مترات، وهذا شيء مستحيل، فالقصة غير صحيحة، فربنا عزّ وجل لم يقل: من كُلِّ زوجين اثنين.

(مِنْ كُلٍّ)

(سورة المؤمنون: آية " 27 ")

مقطوعة عن الإضافة..

(مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)

(سورة المؤمنون: آية " 27 ")

أي من كل حيوان أنتم بحاجةٍ إليه اسلكْ فيها زوجين اثنين.

(وَأَهْلَكَ)

(سورة المؤمنون: آية " 27 ")

هناك آية أخرى تقول في سورة هود، سيدنا نوح ركب في السفينة قال: أهله ومن كان معه من المؤمنين، هنا أهله فقط، هذه إشارةٌ إلى أن المؤمنين هم أهله، حينما اكتفى ربنا عزّ وجل في هذه الآية بكلمة وأهلك، أي أهلك هم المؤمنون، والمؤمنون هم أهلك، وفي بعض الأحاديث الشريفة:

((أهل القرآن هم أهل الله وخاصته))

(الجامع الصغير عن علي بسند صحيح)

(فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 27 ")

مغزى الآية: بيان سبيل النجاة وسبيل الهلاك:

معنى هذه الآية: أن الإنسان الذي أعرض عن الله إعراضاً كلياً، ورفض الحق، رفض هذه الدعوة، رفض هذه الرسالة، وأكَبَّ على الدنيا فإن هذا اختار الهلاك، عندئذٍ سبق عليه القول، كالطالب الذي لم يقدم امتحاناً.. رفض تقديم الامتحان.. ففي أثناء إعلان النتائج يُذكر أسماء الناجحين، أما الذين سبق عليهم القول بأن لم يتقدموا إلى الامتحان إطلاقاً هؤلاء لم ينجحوا، طبعاً لم ينجحوا، لأنهم رفضوا تقديم الامتحان كلياً، فهؤلاء الذين سينْجون هم أهل سيدنا نوح ؛ أقرباؤه، والمؤمنون:

(إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

(سورة المؤمنون: آية " 27 ")

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ)

(سورة الرعد: آية " 11 ")

الإهلاك بعد الإنذار وإقامة الحجة:

لأن ربنا رحيم، وربنا حليم، فحينما يأمر الله عزّ وجل بإهلاك قومٍ فمعنى ذلك أنه قد نبّههم، وذكّرهم ما فيه الكفاية، فلا خير من تذكيرهم:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

المؤمن الله يتلطّف فيه، كل غلطة صغيرة وراءها عقاب صغير:

((إذا أحب الله عبداً عجّل له بالعقوبة))

(ورد في الأثر)

((إذا أحب الله عبداً عاتبه في منامه))

(الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف)

((إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه يأمره وينهاه))

(الجامع الصغير عن أم سلمة بسند ضعيف)

أما المؤمن فيحِسُّ أنه قد أذنب، فيأتي العِتابُ سريعاً، بل إن بعض المؤمنين دون أن تأتيهم العقوبة يشعرون أنهم مقصرون، مؤمنٌ أذنب، وهو ينتظر عقاب الله عزّ وجل، وعقاب الله لم يأتِ، وهو بانتظاره، إلى أن صلى، وناجى ربه وقال: **" يا رب، لقد أذنبت، لقد عصيتك فلم تعاقبني، فوقع في قلبه أن يا عبدي لقد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذّة مناجاتي؟"**

فبعض المؤمنين يختلف عليه حاله مع الله عزّ وجل، كان مُقْبِلاً فشعر بالجفوة، شعر بالحجاب، كأن حجاباً بينه وبين الله، هذا الحجاب وحده عقوبة، الابن الصالح لو أن أباه نظر إليه نظرةً غاضبة فإن هذه النظرة تجعله يبكي، ولكن الوقح إلى أن يضربه، أما الذي رُبِّي تربية عالية ربما كان إعراضُ الأب عنه كافيًا لأن يوقِعَه في شقاءٍ كبير:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

(سورة المؤمنون)

الظلم سببٌ للهلاك:

كالطبيب فَتَحَ البطن فرأى أن المرض الخبيث منتشر في كل أنحاء البطن، يقول لك: لا يوجد أمل، ولا تخاطبني في هذا الموضوع، أحياناً يكون مرض الموات.. الغرغرين.. وصل إلى الركبة، يقول الطبيب: لا يوجد علاج والموت حتم..

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

أو لابدّ من بتر الساقين.. صاحب معمل حلويات دخل إلى المعمل، ولم تعجبه طريقة عجن العجينة، فأمسك قطعة العجين المعدة للمعمول، ووضعها على الأرض، وعركها بقدميه، بحذائه ليعَلِّم بعض الموظفين كيف يتم عرك هذا العجين تجبراً وتكبراً، فقال بعضهم: يا سيدي إنك تعرك هذا العجين بقدميك، فقال: الناس يأكلون من تحت قدمي.. لم يمض عليه شهران حتى بُتِرَت رجلاه من فوق ركبتيه، وهو الآن في لندن:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

إذا ارتكب الرجلُ جريمة، وحكم عليه بالإعدام، وصدِّق القرار، وسيق إلى المشنقة، فسواءٌ بكاؤه، أو رجاؤه، أو توسُّله، فقد انتهى الأمر، لأن الحكم صدق والآن التنفيذ، فالإنسان لا يحوج نفسه أن يصل إلى طريق مسدود، طريق اللاعودة، فاجعل مع الله طرقاً مفتوحة، اجعل لله واعظاً من نفسك، يوجد إنسان ينسى، وينغمس بالشهوات، والمحرّمات، فيأتيه مرض عُضال يجعله يصيح من شدة الآلام..

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

الإنسان الآن في أمان:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)

(سورة الأنفال: آية " 33 ")

ما دامت محبتك في نفوسهم فالله لن يعذبهم، وما دامت سنتك قائمةً في حياتهم فلن يُعَذّبوا، أما عندما يهجر الإنسان هذا الدين، ويدير ظهره للقرآن، ويلتفت للدنيا ليأكل من مالها حلالها أو حرامها، وليؤذي عباد الله، وليبني مجده على أنقاض الناس، وليبني غِناه على فقرهم، عندئذٍ تأتيه ساعة لا ينفع فيها الندم:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

يا لطيف، عندما يقرر ربنا عزّ وجل إهلاك إنسان، تزلزل من تحته الأرض، ربنا يمهل، يُرخي الحبل، فإذا جاء الأجل، واستحق العقاب شدّ من تحت أرجله البساط، أنا أقول: إن الناس الفسقة والفجّار يتوهّمون أنه لا رقيب عليهم، ولكنهم مربوطون بحبلٍ متين، فإذا آن الأوان شُدّ الحبل فوقعوا ضحية أعمالهم الخسيسة، فالإنسان لا يسترسل في المعصية، لا يسترسل في الفجور، لا يعتدي على أموال الناس ولا على أعراضهم، لا يتكلّم كلمة كبيرة، لا يسخر من شرع الله، لا يسخر من دين الله، عندئذٍ يأتيه العلاج المُر:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

انتهى الأمر، ربنا عزّ وجل يرسل الأنبياء، والرسل، والدعاة، ويحذر وينذر، ويسوق بعض المصائب:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: آية " 37 ")

الشيب نذير، سن الأربعين نذير، موت الأقارب نذير، سن الستين نذير، المصائب نذير، القرآن نذير، النبي الكريم نذير:

(وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: آية " 37 ")

فأنا أريد من هذه الآية أن الإنسان لا يوصل علاقته بالله إلى درجة أن يُقال لمن يرجو ربّه به:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

ربنا عزّ وجل ضربته شديدة:

(إنّ بَطْشَ رَبّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

الإنسان دائماً ينتبه إلى قلبه، إذا شعر أنه أصيب بالذباب الطائر، وهو مرض يصيب عينه.. نقطة سوداء تمشي في أثناء النظر.. تراه يهتم، ويذهب، فوراً إلى الطبيب لحرصه على بصره، يجب أن تكون النفس أغلى عليك من أي شيءٍ آخر فاحرص عليها، فالنفس فيها انحراف، فيها علو، فيها أثرة، فيها حب للذات، فلا تجعلها تصل لهذا الموقف الصعب:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الّذِينَ ظَلَمُوا إِنّهُمْ مُغْرَقُونَ)

يروَى مِن القصص، ولا ندري مبلغ صحتها أنّ امرأة جاءت إلى سيدنا نوح وقالت له: يا نوح متى الطوفان ؟ قال لها سيدنا نوح: حينما يكون الطوفان سأبعث إليكِ بخبر، يبدو أن هذا النبي نسيها، وهو في السفينة، والسفينة تمخر عباب الأمواج، وقد هلك كل الناس دون استثناء، ولم ينج إلا هذا النبي وقومه، تذكر هذه المرأة، وتألم لنسيانه إياها ألماً شديداً، فلما استوت السفينة على الجودي، واستقر كلُّ شيء جاءته هذه المرأة العجوز، وقالت له: يا نوح متى الطوفان ؟ إن الله لا ينسى، أنت كن مع الله ولا تبالي.. **" كن مع الله ترَ الله معك ".**

(فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي نَجّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ)

(سورة المؤمنون)

قانون: وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ:

وهذه النجاة أيها الإخوة ليست خاصة بأناسٍ دون آخرين، إنها عامة لكل المؤمنين، لقول الله عزّ وجل:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

عندما دخل سيدنا يونس إلى بطن الحوت:

(فَنَادَى فِي الظّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنّي كُنْتُ مِنَ الظّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجّيْنَاهُ مِنَ الْغَمّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء)

في كل زمانٍ ومكان، وفي كل عصرٍ ومصر، الله سبحانه وتعالى يتفضّل، وينجي المؤمنين من كل كَربٍ عظيم:

(فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي نَجّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ (28) وَقُلْ رَبّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (29))

(سورة المؤمنون)

وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ

إذا دخل الإنسان بيته، ووجده مريحا، زوجته في البيت، وأولاده، والصحة جيدة، ويوجد طعام ليأكله، والبيت دافئ في الشتاء، وعنده ثمن وقود، وثيابه يستر بها عورته، فإن هذه نعم كبيرة جداً، نعمة الصحة، ونعمة الأمن، ونعمة الاستقرار، ونعمة الطعام، ونعمة الشراب، ونعمة الماء البارد، بعض العلماء قال في تفسير قوله تعالى:

(ثُمّ لَتُسْأَلُنّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النّعِيمِ)

(سورة التكاثر)

قال: **" الماء البارد من النعيم ".**

الذي عنده برّاد فشرب كأس ماء بارد في هذا الصيف هذا من النعيم الذي سوف يسأل عنه يوم القيامة، أشكرنا هذه النعمة؟

(إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنّا لَمُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون)

الحياة كلها ابتلاء، جوهر الحياة في الابتلاء، سيدنا نوح والذين آمنوا معه ابتلوا، فآمنوا، واستقاموا، فنجوا، والذين عاصروه من الكفار ابتلوا، فكفروا، وأعرضوا، وكذبوا، فخسروا الدنيا والآخرة:

(وَإِنْ كُنّا لَمُبْتَلِينَ (30) ثُمّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آَخَرِينَ (31) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتّقُونَ (32))

(سورة المؤمنون)

فحوى دعوة الأنبياء:

الدعوة واحدة، هذه فحوى دعوات الأنبياء جميعهم:

(أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتّقُونَ)

الذي يلفت النظر أن هذه القصة الثانية لم يُذكر فيها اسم القوم، ولا اسم النبي الذي أُرسل إليهم، وقد يستنبط من هذا أن الأسماء لا قيمة لها، بل إن العبرة المغزى، فهناك قومٌ جاؤوا بعد هذا النبي الكريم، وأرسل الله لهم رسولاً فكذبوه:

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الّذِينَ كَفَرُوا وَكَذّبُوا بِلِقَاءِ الْآَخِرَةِ)

(سورة المؤمنون: آية " 33 ")

دققوا جيداً:

(وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة المؤمنون: آية " 33 ")

ورود الترف في ثمانية مواضع في القرآن:

أحصيت كلمة أترفناهم في القرآن الكريم فوجدتها أتت حصراً في ثمانية مواضع، سبحان الله، المترفون في المواضع السبعة كُفّار، فالإنسان لا يتباهى بالترف، ويظنه مكرماً عند الله، الشيء المكرّم أن تكون مقتصداً، وأن تكون متواضعاً، وأن تحفظ هذا المال، فتأخذ منه حاجتك، وتنفق الباقي في سبيل الله، في سبيل نصرة الضعيف، وعون المحتاج، وإطعام الجائع، وإكساء العاري، وتأمين حاجات الناس، فالمترف في ثماني آياتٍ حصراً، في القرآن الكريم كلها تربط بين الترف وبين الكفر، فلا أحد يفتخر بالترف إنه من صفات الكفّار.

المؤمن وسطٌ بين الإسراف والبخل:

أما المؤمن ليس مترفاً بل ينفق باعتدال:

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا)

(سورة الإسراء)

كما أن الله سبحانه وتعالى ذم الشُحَّ والبُخل فقال:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة التغابن)

وقال عليه الصلاة والسلام:

((ليس منا من وسّع الله عليه ثم قتّر على عياله))

وفي الوقت نفسه ذم الإسراف فقال:

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا)

(سورة الإسراء: آية " 27 ")

لا تحاول إظهار ما عندك للناس من أجل أن تستعلي عليهم، فتقول: أخي هذا عقد نكاح كلفني مليون ونصف، مليون ونصف يزوّج مئة شاب..

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ)

(سورة المؤمنون)

ملحوظة هامة:

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أولاً كفروا بالله بمعنى أنهم كذّبوا، وأعرضوا، من معاني الكفر الدقيقة التكذيب والإعراض، التكذيب باللسان، والإعراض بالقلب.

(وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآَخِرَةِ)

من لوازم الكافر أنه يُكَذِّب بالآخرة، لو آمن بها لانضبط سلوكه، ومن لوازم المؤمن أنه يؤمن بالآخرة.

(وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

ما دام قد كفر بالآخرة بقيت الدنيا هي كلُّ شيء، لا شيء إلا الدنيا، لذلك يُقْبِلُ عليها إقبال النَهم.

(مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ)

استنكار الكفار بشرية الأنبياء:

طبعاً هم وجدوا أن النبي رجل كالرجال ؛ له عينان، له أذنان، له يدان، يأكل ويشرب، وعندهم أن الحياة طعامٌ وشراب، وأن الإنسان حيوان يتكلّم، ويأكل، ويشرب، فما دام هذا النبي يأكل ويشرب إذاً هو إنسان، وغَفَلوا عن أن هناك حياةً نفسية عالية جداً، حياة عقلية، إذا واحد التقى مع أعلى طبيب في العالم، التقى مع أعلم علماء الأرض، التقى مع أعظم إنسان في الأرض، يراه يأكل ويشرب كغيره من الناس، لكن عنده معلومات وعنده آفاق فكرية، وعنده مشاعر نفسية فوق التصور، فمن ظنّ أن الإنسان يسمّى إنساناً لأنه يأكل ويشرب، فقد كان في ضلالٍ مبين، فهؤلاء ظنوا أن هذا النبي بشرٌ مثلنا..

(يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ)

لذلك قالوا:

محمدٌ بشرٌ وليس كالبشر بل هو ياقوتة والناس كالحجر

***

إذا كنت تريد أن تميز المؤمن عن البشر فهو مثل الجوهرة، وغير المؤمن مثل الحجر، والجوهر أساسه حجر، والحجر حجر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المؤمنون 023 - الدرس (5-8): تفسير الآيات 27 – 61
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-09-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الخامس من سورة المؤمنون، من الآيات التي وردت في الدرس الماضي قوله تعالى:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

(سورة المؤمنون)

نصيحة للمؤمنين:

قلت وقتها: لا ينبغي للرجل أن يوصل علاقته مع الله عزّ وجل إلى هذه الآية..

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

قد يصيب أحد الأعضاء مواتٌ، وعندها لا بدّ من بتر العضو، فمهما كان الرجاء شديداً، ومهما كان التوسُّل حميماً، ومهما كان الاستعطاف بليغاً لا بدّ من بتر العضو، ليس هذا من قبيل القسوة ولكن من قبيل الحكمة، وانظر إلى وليّ طفلٍ يرجو الطبيب ألا يبتر الساقين معاً، يقول له: لا بُدّ من بترهما، فإذا تأخرت فلا بدّ من أن تُبترا من مكانٍ أعلى..

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

المؤمن مذنبٌ توّاب، ما دام الإنسان سريع التوبة فهو في بحبوحة، فإذا أصرّ على ذنبه، واستحكمت به شهوته، وأصرّ على المعصية وصل مع الله عزّ وجل إلى هذه الآية..

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

ربنا سبحانه وتعالى يُمهل، ولا يُهمل، يُرخي الحبل، يعطي فسحة، يعطي فرصة، أما أن يظن هذا العبد أن يترك سدى.

(أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)

(سورة المؤمنون: آية " 115 ")

فهذا من باب المستحيل، لذلك الآية التي تقول:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

قد يكون العلاج حتميًا:

هذه الآية تَدُلُّ على أن العلاج أحياناً يكون حتمياً، وعندئذٍ لا ينفع التوسُّل، ولا الرجاء، ولا الدعاء، ولا الاستعطاف، لأن هذا الذي حصل لا بدّ أن يحصل، ولو لم يحصل لكان نقصاً في حكمة الله سبحانه وتعالى.

ورودُ القصة للعبرة لا لمجرد الحدَثِ:

وبالطبع ليست العبرة أن نقرأ هذه القصة، ولكن العبرة أن نستخلص منها دروساً تفيدنا في تعاملنا مع الله سبحانه وتعالى، ربنا سبحانه وتعالى عفوٌ غفور:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الحجر)

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر)

العبرة أن نستنبط درساً بليغاً من خلال هذه القصة، أما إذا أصرّ الإنسان على المعصية وركب رأسه، واستحكمت به شهوته، ولم يبالِ بأوامر الله، ولا بوعده، ولا بوعيده عندئذٍ تنطبق عليه هذه الآية:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

وبعد قصة نوح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام يقول الله سبحانه وتعالى:

(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آَخَرِينَ)

(سورة المؤمنون)

وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ

أي جاءت من بعده أمة أخرى..

(فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً)

(سورة المؤمنون: آية " 32 ")

ربنا سبحانه وتعالى لحرصه ورحمته..

(وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ)

(سورة فاطر)

أي لا بدّ من الرسول، لا بدّ من النبي، لا بدّ من العالِم، لا بدّ من الداعية، لا بدّ ممن يحذّر، لا بدّ ممن ينذر..

(فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 32 ")

ومعنى منهم أي من أنفسهم، أولاً من جنس البشر كي يألفوه، في نفسه ما في نفوسهم، أودع الله فيه الشهوات التي أودعها فيهم، ورغّبَهُ فيما رغّبهم فيه، أي من بُنيتهم، من طبيعتهم، من طريقتهم، من قومهم، من قبيلتهم، من شيعتهم..

(فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنون: آية " 32 ")

الدعوة إلى التوحيد:

هذا هو الدين، يُضْغَطُ الدين كله في هذه الكلمات:

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

لا إله إلا الله كلمة التوحيد، لا مسيّر لهذا الكون إلا الله، إذاً لا معبود بحقٍ إلا الله.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة)

فكانت دعوة هذا الرسول الذي أُرسل إلى هؤلاء الذين جاؤوا بعد سيدنا نوح..

(أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ)

(سورة المؤمنون)

فما دام الله لا إله إلا هو، والأمر كله له، وما دام المصير إليه، والحياة مؤقتة، والإنسان سينقلب إلى الله عزّ وجل، ويتّقي العذاب والمسؤولية والشقاء الأبدي ؟.

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة المؤمنون)

بيّنت لكم في الدرس الماضي أن الترف ورد في القرآن الكريم في ثمانية مواضع حصراً، وأن المترفين دائماً همُ الكفار، وقرَنَ ربنا سبحانه وتعالى في هذه الآية، وفي سبع آيات أخرى قرَن الترف بالكفر، وهذا دليل..

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

لذلك أن تأكل، وتشرب بشكلٍ معقول، هذا شيءٌ مقبول، أما أن يكون الهدف هو الترف والإسراف والتبذير، والاستعلاء والتفاخر والعلو في الأرض، فهذا كله من صفات الكافرين، هم كفروا بالله،

وكفروا باليوم الآخر، ومن لوازم الإيمان بالله أن تؤمن باليوم الآخر، ومن لوازم الكفر بالله أن تُنكر اليوم الآخر، وهذا هو الدليل:

(وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

النبي عليه الصلاة والسلام كان يَدْعو ويقول:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

(ورد في الأثر)

أي يكفيه، هذا الرزق الذي تمناه النبي عليه الصلاة والسلام لأحبابه..

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

عنده ما يكفيه، وليس عنده ما يطغيه، والنبي عليه الصلاة والسلام يبين أحياناً أن من الغنى ما يُطغي، فقال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرٌّ ؟ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ؟ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(سنن الترمذي عن أبي هريرة)

(مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ)

(سورة المؤمنون)

الرسل بشر تجري عليهم خصائص البشر:

يؤكِّد ربنا سبحانه وتعالى أن هذا الرسول بشر، ومن خصائص البشر أنه يأكل الطعام، فالإنسان مفتقرٌ إلى الطعام، ووجوده متوقفٌ على الطعام، إذاً ليس الإنسان ذا وجودٍ ذاتي، وجوده مفتقرٌ إلى شيءٍ آخر، لكن الله سبحانه وتعالى أحدٌ صمد، ومعنى صمد أي ذاتي الوجود، لا يفتقر وجوده إلى شيءٍ آخر، أنت مفتقرٌ إلى تنفُّس الهواء، مفتقرٌ إلى شرب الماء، مفتقرٌ إلى تناول الطعام، ومن حكم الصيام أن الإنسان يعرف حجمه، ويعرف عبوديته لله عزّ وجل، فكل إمكاناته، وكل ذكائه، وكل حيويّته، وكل نشاطه، وكل طاقاته إنما تَذْبُلُ في أول أيام الصيام، ويرى أنه يتوقف نشاطه على كأس ماء أو على لقمةٍ من طعام، فلذلك من علامات الإنسان أنه يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، مفتقرٌ إلى الطعام، ومفتقرٌ إلى كسب الطعام، الطعام يحتاج إلى عمل، أنت مفتقرٌ مرتين ؛ مرةً إلى أن تأكل، ومرةً إلى أن تعمل من أجل أن تشتري هذا الطعام، وهل بعد هذه العبودية من عبودية ؟ وهل بعد هذا الافتقار من افتقار ؟ لذلك عندما وصف ربنا عزّ وجل سيدنا عيسى ونفى عنه أن يكون إلهاً قال: يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق:

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا)

(سورة الفرقان)

ما دام الإنسان يأكل الطعام فهو عبدٌ لله، ويمشي في الأسواق فهو عبدٌ أيضاً لرزقه، فهو عبدٌ مرتين، مفتقرٌ إلى الطعام ومفتقرٌ إلى كسب ثمن الطعام، فحينما رأى هؤلاء الكفار أن هذا النبي الكريم يدعوهم إلى الله عزّ وجل رأوه يأكل كما يأكلون، ورأوه يشرب كما يشربون، فظنّوا أن تناوله للطعام وشربه للماء مما يقلل من شأنه، قال: لا..

((اللهم إني بشر، أرضى كما يرضى البشر، وأغضب كما يغضب البشر))

(الجامع الصغير عن أنس بسند صحيح)

سيدنا سعد قال: **<< ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس قال: ما صلّيت صلاةً فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، وما سرت في جنازة فحدّثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها، ولا سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس >>.**

(وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

طاعة الرسول طاعة لله:

الحقيقة أنّك إذا أطعت النبي عليه الصلاة والسلام، فإن هذه الطاعة هي عين طاعة الله، طاعة رسول الله هي عين طاعة الله، لذلك قال الله عزّ وجل:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

(سورة التوبة: آية " 62 ")

إرضاء رسول الله هو عين إرضاء الله، وإرضاء الله هو عين إرضاء رسول الله، ولا فرقَ بينهما لأن هذا باب الله.

سيدنا الصديق رضي الله عنه ألقى خطبة الولاية فقال: **<< لقد ولِّيتُ عليكم ولست بخيركم إن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوّموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم >>.** فالطاعة إذاً إنما هي طاعة لله عزّ وجل..

(وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

والدعاة إلى الله لا يُطاعون، بل يُطاع الله في كلامهم، إذا جاءك بأمر من الله عزّ وجل، قال لك: يا أخي هذه آية، وقد أجمع العلماء على هذا المعنى بتفسيرها، فعليك أن تأخذ بها، فأنت من تطيع إذاً ؟

تطيع الله عزّ وجل، هذا مبلغ، ولا يقبل من إنسان أن تطيعه إلا إذا نقل لك آيةً كريمة، أو حديثاً شريفاً صحيحاً، لأن أصلْيّ التشريع القرآن والسنة..

(أَيَعِدُكُمْ أَنّكُمْ إِذَا مِتّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنّكُمْ مُخْرَجُونَ)

(سورة المؤمنون)

استهزاء الكفار بالبعث:

يستهزئون بهذا الوعد العظيم من أن الله سبحانه وتعالى جعل الدنيا دار عمل وجعل الآخرة دار جزاء، جعل الدنيا دار تكليف وجعل الآخرة دار تشريف، كأنهم يستهزئون..

(أَيَعِدُكُمْ أَنّكُمْ إِذَا مِتّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً أَنّكُمْ مُخْرَجُونَ)

فهل يستقيم الفكر، أو هل تستقيم العقيدة على أن الدنيا هي كل شيء ؟ إن الدنيا قصيرة فيها الغني، وفيها الفقير، فما ذنب الفقير ؟ فيها القوي، وفيها الضعيف، فما ذنب الضعيف ؟ ولد ضعيفاً، فيها الصحيح، وفيها المريض، فيها الوسيم، وفيها الدميم، فيها الحظوظ متفاوتة، والأمد قصير، فلولا الإيمان باليوم الآخر لما كان لهذه الحياة من معنى، تُصبح الدنيا سخيفة المعنى، أما أن يكون هناك حياةٌ أبدية يتحدد فيها مصير الإنسان بحسب طاعته لله في الدنيا عندئذٍ تستقيم الأمور، وتأتي العقيدة متوافقة مع العقل والمنطق..

(هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ)

(سورة المؤمنون)

هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ

هيهات اسم فعل بمعنى بَعُدَ، هذا الذي توعدون لن يقع، ما أبعد من أن يقع، ما أبعده من المنطق، هكذا يدعون..

(هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ)

وهيهات الثانية توكيد للأولى..

(إِنْ هِيَ إِلّا حَيَاتُنَا الدّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

(سورة المؤمنون)

عقيدة الكفار: لا حياة إلا في الدنيا:

وهذه عقيدة الكُفّار.

(إنْ هِيَ إلّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا)

لا يوجد إلا هذه الدنيا، الدنيا هي كل شـيء، والمال هو كل شيء، هكذا الكافر، سواءٌ عليه أصَرّح بهذا، أم لم يُصَرِّح، من هنا ينطلق، ينطلق من أن الدنيا هي كل شيء، ولا شيء في الآخرة، لذلك يَصُبُّ كل جهده على الدنيا وهو بهذا يغامر ويقامر، لأن شيئاً إذا حدث ضيّع عليه كل أهدافه، وكل طموحاته، وكل ما يتمنّاه، لذلك قالوا: **" الدنيا تغرُّ وتضرُّ وتمر، وإن أسعد الناس بها أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها ".**

(إنْ هِيَ إلّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا)

يا أيها الإخوة الأكارم... إذا اعتقدَ أحدُنا أن الدنيا هي كل شيء، لو لم يقل هذا بلسانه، إذا انطلق من تصوُّرات مُفادها أن الدنيا هي كل شيء ولا شيء في الآخرة، وأنّ الحياة الدنيا تنتهي بالموت، والموت نهاية كل حي، فهذه العقيدةُ فاسدةٌ وهي عقيدةٌ تدعو إلى الهلاك ؛ الدنيا دار تكليف وأما التشريف في الآخرة، إذا اعتقدت أن هناك حياةً أبديةً لا تنقضي، وأن مكانك في هذه الحياة الأبدية متوقفٌ على طريقة طاعتك لله عزّ وجل عندئذٍ تُصْبِحُ إنساناً آخر..

(إنْ هِيَ إلّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ)

رميُ الكفار أنبياءَ الله بالكذب:

أما هذا النبي الكريم الذي يدعوهم إلى الصراط المستقيم..

(إنْ هُوَ إلّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً)

(سورة المؤمنون: آية " 38 ")

هذا كذّاب..

(وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ)

(سورة المؤمنون: آية " 38 ")

فالكفّار دائماً يكذِّبون الحق، ويبغونها عوجا، يصدون عن سبيل الله، ويبغونها عوجا..

(إنْ هُوَ إلّا رَجُلٌ بِهِ جِنّةٌ فَتَرَبّصُوا بِهِ حَتّى حِينٍ (25) قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذّبُونِ (26))

(سورة المؤمنون)

دعاء بالنصر على الأعداء:

يا رب، لقد كذّبوني فانصرني أنت، بيّن لهم الحق، بين لهم كذِب دعواهم، فقال الله عزّ وجل:

(قَالَ عَمّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنّ نَادِمِينَ)

(سورة المؤمنون)

الحقيقة أن البطولة هو الذي يضحك في الآخر، الكفّار يَهزؤون من أهل الدين..

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110))

(سورة المؤمنون)

البطولة من يضحك في آخر المطاف:

إذاً هناك من الكفار من يستهزئ بالمؤمنين، والبطولة من يضحك آخر الشوط، لأنّ ربنا عزّ وجل وصف المؤمنين فقال:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

رفض طالب مجتهد أن يذهب إلى نزهة حفاظاً على مستوى اجتهاده، ورفاقه الكُسالى يهزؤون منه، ويسخرون حينما ينجح بتفوق، وحينما يرسب هؤلاء، ويبكون الدمع دماً، عندئذٍ هذا المتفوّق يضحك من زملائه الكُسالى، فالبطولة من يضحك آخر، لا من يضحك أولاً..

(قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ)

بينَ الوعد والوعيد:

وربنا قال عزّ وجل في آيات كثيرة:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة القصص)

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

(سورة الزخرف)

(وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة آل عمران)

(فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)

(سورة غافر: آية " 77 ")

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة المؤمنون)

ليست العبرة بالأسماء:

هذه القصة من خصائصها أن الله سبحانه وتعالى لم يُسَمِّ هؤلاء القوم، و لم يُسَمِّ من هو هذا النبي الكريم الذي بعثه الله إليهم، وقد استنبط بعض العلماء أنهم قوم عاد الذين جاؤوا بعد قوم نوح، على كلٍ ليست العبرة بالأسماء، ولكن العبرة بالحقائق، وعدم التسمية فيه إشارةٌ إلى أن الاسم ليس مهماً في هذا الموضوع، المهم هذه القصة المهم أن تستنبط منها عبرةً تعتبر منها..

(ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آَخَرِينَ * مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

لكل أمةٍ أجل ولكلٍ منا أجل، لذلك يُروى أن الإمام مالك إمام دار الهجرة رأى في المنام ملك الموت، فقال: **" يا مَلَك الموت كم بقي لي من حياتي ؟ فما كان من ملك الموت إلا أن أشار له بهذا أي خمسة، فلما استيقظ هذا الإمام الجليل احتار، أهي خمسة أعوام يا رب ؟ أم هي خمسة أشهر ؟ أم هي خمسة أسابيع ؟ أم هي خمسة أيام ؟ أم هي خمس ساعات ؟** توجّه إمام دار الهجرة إلى العلاّمة ابن سيرين وكان من المُخْتَصّين بتأويل الأحلام فقال: **يا إمام رأيت البارحة كذا وكذا فما تفسير هذه الرؤيا ؟ فقال: إن ملك الموت يقول لك: إن هذا السؤال من خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله.**

(مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (43) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى)

(سورة المؤمنون)

أي متتابعة واحداً بعد واحد..

(كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضاً وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

(سورة المؤمنون: آيه " 44 ")

يا الله هذه من أبلغ الصور، ربنا سبحانه وتعالى هو القاهر، هو القاهر فوق عباده، فالعباد إذا كفروا، وجحدوا، وفسقوا، وفجروا، وتحدوا، واستطالوا، قال ربنا سبحانه وتعالى:

(فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ)

(سورة المؤمنون: آية " 41 ")

عذاب الله كُن فيكون:

وهناك آيات أخرى:

(مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ)

(سورة يس)

صيحة واحدة، ومعنى واحدة، إذا شاهدت حشرةً لا تزيد على نملة.. حشرة صغيرة، فكم ضربة تحتاج منك حتى تميتها ؟ هل تقول: لقد قاتلتها ؟ لا.. لا.. تقول: لقد قتلتها، إن هي إلا دوسةٌ واحدة، فربنا عزّ وجل يقول:

(صَيْحَةً وَاحِدَةً)

فهؤلاء الذين تكبّروا، وعلوا، وتمادوا، واستعلوا..

(إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً)

(سورة يس: آية " 29 ")

فربنا عزّ وجل عبّر عن قهره لهؤلاء الفُجّار الكفار بصورةٍ رائعة قال:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

(سورة المؤمنون)

وَجَعَلْنَاهم أَحَادِيثَ

يكون الإنسان أحياناً له شأن له مكانة، صاحب متجر كبير، ماليته كبيرة، سيارته فارهة، بيته واسع، نزهته دائمة، مصيفه جميل، مقر إقامته رفيع، مكتبه أنيق، فجأةً يتوقّف قلبه، ويصبح نعيًا على الجدران، أين هو ؟ إنه تحت التراب..

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

كل إنسان الآن موجود له كيانه، له شخصيته، له مهابته، له تصرفاته، له أملاكه، له أمره، له نهيه، وفي ثانية واحدة يصبح حديثاً، لو بقي في فمه سن من الذهب لأخذوه متذرعين أن الحي أولى به، ساعته تُؤخذ، مفاتيحه، قلمه، قداحته، خزانته الخاصة، سيارته على الباب، كلها ملك الآخرين..

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ)

صار أحاديث، فربنا عزّ وجل عبّر عن قهره للعباد العتاة الظالمين بقوله:

(وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْداً لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

المؤمن بعد أن يموت يُصبح حديثاً، حديثاً عطراً، يتحَدّث الناس عن ورعه، وعن حبه للناس، وعن استقامته، وعن فعله للخيرات، وعن عواطفه الجيّاشة، وعن رقّة قلبه، يصبح حديثاً عطراً ألا تتعطر كل مجالسنا عندما يذكر فيها أصحاب رسول الله ؟ لقد ماتوا، وصاروا أحاديث، وشتان بين أن يكونوا أحاديث تشمَئِزُّ منها القلوب، وأحاديث تطرب لها الروح والنفس..

أحد الصالحين كان يدعو ويقول: **" يا رب لا تجعلني عبرةً لأحدٍ من الناس في خلقك "**.. لا تجعلني قصة يتعظ الناس بها..

" يا ربِّ لا تجعلني عبرة لأحد من الناس في خلقك، يا رب لا تجعلني أتزيّن للناس بشيءٍ يشينني عندك، يا ربِّ أعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعد بما علمتني مني، يا ربِّ أعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحداً سواك".

هذا الإخلاص، من ذاق طعم الإخلاص ذاب شوقاً لله وحباً له..

(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ)

(سورة المؤمنون)

موسى مع فرعون المستكبر:

السُلطان المبين الآيات المعجزات التي أيّد الله بها سيدنا موسى وأخاه هارون، ليؤكِّد لفرعون أنه رسولٌ من رب العالمين.

(إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)

(سورة المؤمنون: آية " 46 ")

لم يذكر قوم فرعون، الملأ هم الأشخاص المقربون منه لماذا ؟ هؤلاء المقربون متبُعون دائماً، وكل إنسان له مكانة في المجتمع له اسمٌ إذا أخطأ فعليه إثمان، وإذا أحسن فله أجران، هذا حساب القُدوة، الأب مثلاً إذا أخطأ فإنه يحاسب مرتين على خطئه، وعلى خطأ ابنه الذي اقتدى به، فإذا أحسن فله أجران، على إحسانه وعلى إحسان ابنه الذي اقتدى به، والمعلم كذلك، وكل إنسان له مكانة اجتماعية يحاسب مرتين..

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (30) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً (31) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (32))

(سورة الأحزاب)

فالذي له مكانة كالأب في البيت، وكل إنسان له مكانة على مجموعة أشخاص: **" إن أحسن فله أجران، وإن أساء فعليه وزران، وزره ووزر من عمل بعمله "**.

سيدنا عمر كان إذا أراد إنفاذ أمرٍ جمع أهله وخاصته وقال: **" إني قد أمرت الناس بكذا ونهيتهم عن كذا، والناس كالطير إن رأوكم وقعتم وقعوا، وَيْمُ الله لا أوتين بواحدٍ وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني"**، فصارت القرابة من عمر مصيبة.

القدوة يحاسب مرتين، يُكافأ مرتين، يعاقب مرتين:

((مَنْ سَنّ فِي الإِسْلامِ سُنّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنّ فِي الإِسْلامِ سُنّةً سَيّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))

(مسند أحمد عن المنذر بن جرير عن أبيه)

قال تعالى:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا)

(النساء: الآية 85)

(كِفْلٌ) نَصِيبٌ.

(إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ)

(سورة المؤمنون)

لماذا يقول عليه الصلاة والسلام:

((... وَلا يَدْخُلُ الْجَنّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبّةٍ مِنْ كِبْرٍ...))

(مسند أحمد عن ابن مسعود)

لماذا ؟ أيعقل أن يحرم الإنسان الجنة لأن في قلبه مثقال حبةٍ من كبر ؟! نعم، لأن مثقال حبةٍ من كبر يتناقض مع العبودية لله، فمن كان في قلبه كبر فهو ليس عبداً لله، لذلك هؤلاء:

(فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً عَالِينَ)

عالون في الأرض، لذلك قال فرعون:

(يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص: آية " 38 ")

كلام فيه بعض التحفظ.

ثم قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

فربنا عزّ وجل قال:

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)

(سورة النازعات)

ولكن لماذا ربنا عزّ وجل بدأ بالآخرة ؟ لمَ لمْ يقل: فأخذه الله نكال الأولى والآخرة ؟ بل قال:

(نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)

لأن قوله الثاني أشد إثماً.

(فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى)

(سورة النازعات)

أما قبل هذا قال:

(يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص: آية " 38 ")

كلمة فيها تحفُّظ بعض الشيء، فربنا عزّ وجل قال:

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)

(سورة النازعات)

بدأ بالأهم، وثنّى بالأقل أهمية:

(فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا)

(سورة المؤمنون: آية " 47 ")

سيدنا موسى وهارون..

(وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ)

إنكار على نغَم واحدٍ: أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ

أيعقل هذا ؟ نحن مالكي الأمر، بيدنا زمام الأمر، هؤلاء القوم الذين هم قوم موسى وهارون لنا عابدون، أيعقل أن نؤمن لهما ؟ لبشرين مثلهما ؟

(فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ)

(سورة المؤمنون)

كما تعلمون كيف تبع فرعون سيدنا موسى:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (62))

(سورة الشعراء)

ثم تبعهم فرعون في اليم فأغرقه الله عزّ وجل:

(وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (49) وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آَيَةً وَآَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (50))

(سورة المؤمنون)

عودة عيسى عليه السلام إلى الأرض:

يؤكِّد العلماء أن سيدنا عيسى لابُدّ له من عودةٍ في آخر الزمان، وأن عودته من أشراط الساعة لقول الله عزّ وجل:

(وَإِنّهُ لَعِلْمٌ لِلسّاعَةِ)

(سورة المؤمنون)

(لَمْ يَكُنِ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكّينَ حَتّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيّنَةُ (1) رَسُولٌ مِنَ اللّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهّرَةً (2) فِيهَا كُتُبٌ قَيّمَةٌ (3) وَمَا تَفَرّقَ الّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيّنَةُ (4))

(سورة البينة)

أي الرسول، فهذه الآية، وآياتٌ أخرى كثيرة تؤكِّد أن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام له عودةٌ:

(وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلّا لَيُؤْمِنَنّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا)

(سورة النساء)

(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمّهُ آيَةً)

(سورة المؤمنون: آية " 50 ")

ولادة عيسى عليه السلام آية من آيات الله:

الإنسان يولد من أبٍ وأم، هذا هو الوضع الطبيعي، عندنا أربع حالات تُعد إعجازاً، كأن يأتي الإنسان من دون أبٍ ولا أم، كما خلق سيدنا آدم، لا أم ولا أب، أو أن يأتي من دون أم كما جاءت سيدتنا حواء، أو أن يخلق من دون أب كما جاء سيدنا عيسى، أو أن يكون أبٌ وأم وهما عقيمان، فهذه الآية تشير إلى أن السبب وحده غير كافٍ لإحداث النتيجة، في علم التوحيد السبب حالةٌ ترافق النتيجة، وليست هي أصلاً في حدوثها، لأن الذي يخلق النتيجة هو الله سبحانه وتعالى، هو الله الخالق، فلذلك أحياناً تُعَطّل الأسباب، وأحياناً تلغى، إذا كان هناك أبٌ وأم لا ينجبان فالأسباب مُعَطّلة، وإذا جاء إنسان من دون أبٍ وأم فالسبب مُلغى، إما أن تعطل، وإما أن تُلغى، فربنا عزّ وجل قال:

(وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ)

(سورة المؤمنون: آية " 50 ")

ربو ذات قرار ومعين

الربوة مكان مرتفع، ذات قرار مرتفعة وفي الأعلى منبسطة، وهناك نبع ماءٍ عذب..

(قَرَارٍ وَمَعِينٍ)

والمفسِّرون في تعيين هذه الربوة على مذاهب شتَّى، بعضهم قالوا: في دمشق.. وبعضهم قالوا: على جبل الجودي ذلك الجبل الذي هبطت عليه سفينة نوحٍ بعد الطوفان.

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

(سورة المؤمنون: آية " 51 ")

(كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً)

لذلك يقول العبد:

((يا ربِ، يا رب، ومأكله حرام، ومشربه حرام، وغُذِّي بالحرام، فأنَّى يُستجاب له ؟))

(الترمذي عن أبي هريرة)

((يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة))

(الترغيب والترهيب عن ابن عباس)

إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المُرسلين:

شيءٌ آخر ؛ عندنا قاعدة، أن الله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فإذا كان هناك خطابٌ إلى هؤلاء الرُسل الكرام في أن يأكلوا من الطيبات وليعملوا صالحاً، فإن هذا الخطاب موجَّهٌ أيضاً بالتبعية إلى كل المؤمنين، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المُرسلين))

(الترمذي عن أبي هريرة)

تماماً بتمام.

إنّ الطبيب حينما يأمر ممرضاً أن يُعَقِّم إبرة لابدّ من أن يعقمها كما يعقمها أعلى طبيب، لأن الشروط واحدة:

((إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين))

(الترمذي عن أبي هريرة)

(وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ)

(سورة المؤمنون)

هذه أمتكم أمة واحدة:

هنا الأمة بمعنى المِلّة، كلمة أمة في القرآن الكريم لها معانٍ عديدة، أما معنى هذه الكلمة في هذه الآية فهو المِلة والمَذْهَب:

(وَإِنَّ هَذِهِ)

هذه الشريعة:

(أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً)

يعني كل الشرائع، وكل الكُتب السماوية مُفادها واحد، وفحواها واحدة..

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

الشرع واحد، والإله واحد، وهذا التعامل رائع جداً ؛ أن تعلم أن لك رباً واحداً بيده كل شيء، عندئذٍ ينتهي الشِرْك والنفاق، ينتهي الخوف والتملق، ينتهي الكذب والخوف، ينتهي الوجل والقَلَق، هذه أمراض وبيلة، أمراض مدَمِّرة، القلق والنفاق والكذب والوجل أمراض أسبابها الشِرْك.

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

(فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

(سورة المؤمنون)

تفرّقُ الناس أحزابا شتى:

هذه الشرائع كانت واحدة، أصولها واحدة، مبادئها واحدة، جاء أقوام الأنبياء فتفرّقوا، واختلفوا، وناصب بعضهم بعضاً العِداء، فأصبحوا فرقاً، وأحزاباً، ومِللاً، ونِحلاً متباغضين، متباعدين، متنافسين، متبارزين، ومن هنا تضعف الأمة، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا)

(سورة آل عمران: آية " 103 ")

فإذا كان المؤمنون جميعاً متفقين على أصول الإسلام، واختلفوا في الفروع فإن هذا الخلاف لا يقدِّم ولا يؤَخِّر، يجب أن تتفق مع أخيك في الأصول، ولو اختلف معك في الفروع، وهذه الفروع اختلافها رحمةٌ واسعة، واتفاقها حجةٌ قاطعة.

بعض الأئمة يرى أن الزكاة يجب أن تدفع نقداً، وبعضهم يرى أن الزكاة يجب أن تدفع عيناً، فالإمام الذي عاش في الريف، ورأى حاجة الريفيّ إلى القمح أجاز أن تدفع الزكاة عيناً، أما الذي عاش في المدينة ورأى قيمة المال المتداول، رأى أن تدفع نقداً، فهذا ليس خلاف، هذا خلاف غنى، خلاف تنوّع، خلاف وسْعَة، خلاف يُسر، خلاف رحمة: **" اختلاف أمتي رحمة ".**

هذا لا يُسَمَّى خلافا، بل إنه يسمى اختلافًا، الخلاف غير الاختلاف: **" اتفاق الأئمة حجة قاطعة ".**

سبحان الله ! الأصول واحدة، أما عندما تمتدُّ الأيام والشهور يصبح هذا الدين فرقاً، وأحزاباً، ومللاً، ونِحلاً، وكل حزبٍ لما لديهم فرحون..

كلٌ يدعي وصلاً بليلى وليلى لا تقرٌ لهم بذاكا

***

(فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (53) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ(54))

(سورة المؤمنون)

خطورة الاختلاف الخصومة:

ذرهم غارقين في شهواتهم، وجهلهم، وعصيانهم، وخصوماتهم، وأفقهم الضيق..

(فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ (54) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ(56))

(سورة المؤمنون)

إنه الاستدراج ليس غير:

فأكبر خطأ أن يتوهَّم الإنسان أن الله سبحانه وتعالى إذا أمدَّهُ بالمال فهو عنده مقرّب، لا.. هذا المال ليس من الخيرات، يكون خيراً إذا أنفقته في طاعة الله، إذا زوّجك الله امرأةً تروق لك أهي خير ؟ لا.. إذا حملتها على طاعة الله فهي خير، إذا كنت عالياً في الأرض هل هو خير ؟ لا.. إذا استخدمت هذا العلو في نصرة الضعيف فهذا هو الخير..

(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ (56))

(سورة المؤمنون)

هذه ليست هي الخيرات، ليس الخير أن تكون غنياً، ولا أن تكون قوياً، ولا أن تكون ذكياً، ولا أن تكون جميلاً، ولا أن تكون غارقاً في الملذّات، الخير أن تعرف ربَّ الأرضِ والسماوات..

(إنّ الّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبّهِمْ مُشْفِقُونَ)

رأس الحكمة مخافة الله:

من خشيتهم ربهم خائفون من الله.. و **" رأس الحكمة مخافة الله "**.. والذي لا يخاف إنسانٌ في تفكيره نقص، في تفكيره ضعف، كالطفل الصغير الرضيع إن وضعته في الحقول، ومرّ إلى جانبه ثعبانٌ كبير طوله بضعة أمتار، فإن هذا الطفل الرضيع لا يخاف منه أبداً، بل ربما وضع يده عليه يداعبه، لأنه لا إدراك له، أما الكبير إذا رآه ينتفض منه خوفاً، وترتعد فرائصه، يتناسب الخوف مع الإدراك، قد يدخل إنسان مهندس إلى بناءٍ فيرى فيه شقاً في جسرٍ أساسي، فيعلم أن لابدّ من أن يقع هذا البناء لأن الأساسات تتحرّك، وأن هذا الخط في الجسر الأساسي مؤشرٌ على تحركها، قد يأتي إنسان يعمل في طلاء الجدران يقول لك: هذا الشق أنا ألغيه بالمعجون، فالخوف يتناسب مع العلم، كلما ازداد علمك ازداد خوفك، قد يأتي إنسان جاهل يأكل الفاكهة دون غسيل ويقول لك: سمِّ بالله، يقول لك الطبيب: لا هذه كلها جراثيم وفيروسات لابدّ من غسيلها، الخوف يتناسب مع العلم، فالذي لا يخاف هو الجاهل.

(إِنّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: آية " 28 ")

" رأس الحكمة مخافة الله ".. والأنبياء العظام، وأصحاب النبي الكرام كانوا أشد خوفاً من ألا تقبل حسناتهم من خوفنا من أن نعاقب على سيّئاتنا، ما قولكم ؟ كلما ارتفعت مرتبتك زاد خوفك.

هذه الآية فيها مفارقة رائعة جداً:

(أَيَحْسَبُونَ أَنّمَا نُمِدّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ (56))

هذا استدراج وليس مسارعة في الخيرات..

(إنّ الّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبّهِمْ مُشْفِقُونَ)

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين المفلحين: خشية الله في السر والعلن:

هؤلاء يخافون الله لأنهم عرفوه، ومتى عرفوه خافوه، فإن لم يخافوه فهذا دليلٌ قطعيٌ على أنهم لم يعرفوه..

(إنّ الّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58))

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين المفلحين: الإيمان بالآيات الكونية والقرآنية:

آيات الله الكونية الدالة على عظمته، وآيات القرآن الدالة على تشريعه:

(وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59))

من صفات المؤمنين المفلحين: عدمُ الإشراك بالله:

هذه الصفة الثالثة، لا يشركون لا شركًا خفيًا، ولا شركًا ظاهرًا، لا يقولُ: إن هناك مع الله إلهاً، ولا يعتقدُ بغير الله، لا يرجو غير الله، ولا يخافُ من غير الله..

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ)

(سورة المؤمنون: آية " 60 ")

من صفات المؤمنين المفلحين: الإنفاق مع الخوف:

ينفق المال وهو خائف، يعاون وهو خائف، يفعل الخير وهو خائف، لماذا هم وجلون ؟

(أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)

(سورة المؤمنون)

يخافون ألا يكونوا بهذا العمل مخلصين، يخافون أن تكون في نيّتهم بعض الشوائب، يخافون من قلة الإخلاص، يخافون من زيغ العمل، وهم يعملون الصالحات يخافون..

(وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ)

(سورة المؤمنون)

هناك رجعةٌ إلى الله عزّ وجل:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

يخافون هذا الموقف الفظيع، والموقف العظيم..

(أُولَئِكَ)

(سورة المؤمنون: آية " 61 ")

من هم ؟

(الّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالّذِينَ هُمْ بِرَبّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) وَالّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنّهُمْ إِلَى رَبّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61))

(سورة المؤمنون)

من صفات المؤمنين المفلحين: المسارعة في الخيرات:

ما هو الخير إذاً ؟ أن تكون ذا مالٍ وبنين ؟ أن تكون عالياً في الأرض؟ لا والله ؛ أن تكون مشفقاً من عذاب الله، وأن تكون مؤمناً بآيات الله، وأن تكون غير مشرك، وأن تؤتي وأنت تؤتي خائف ألا يقبل عملك عندئذٍ تكون مسارعاً في الخيرات..

(أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ(62))

(سورة المؤمنون)

هذه الآية تحتاج إلى تفصيلٍ في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المؤمنون 023 - الدرس (6-8): تفسير الآيات 62 – 72
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-09-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السادس من سورة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ (56) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (57) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (58) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (59) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (60) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (61))

(سورة المؤمنون)

حقيقة الخيرات:

ليست الخيرات أن تحوز المال في الدنيا، وأن تحوز البنين، ولكن الخير أن تستقيم على أمر الله، وأن تتقرب إليه كي تنال سعادة الدنيا والآخرة، هذا تكلمنا عنه في الدرس الماضي، واليوم يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة المؤمنون: آية " 62 ")

التكليف مع رفع الحرج:

ربنا سبحانه وتعالى لم يكلفنا تكليفاً فيه حَرَجٌ، فلم يكلفنا أن نعتقد مثلاً ما لا دليلَ عليه، لقد نصب الأدلة الكافية على وجوده، ونصب الأدلة الكافية على ربوبيّته، ونصب الأدلة الكافية على ألوهيّته، وجعل الكون كله تعبيراً عن أسمائه الحُسنى وصفاته الفُضلى، على كل شيءٍ أمرنا أن نعتقده ألف دليلٍ ودليل، ألف ألف دليل، ألفُ ألفُ ألفِ دليل، فلو أن الله سبحانه وتعالى كلّفنا أن نعتقد ما لا دليل عليه لوقعنا في حرج، لو أن في دينه تناقضاً لوقعنا في حرج، لو أن في قرآنه خللاً لوقعنا في حرج، ولكن هذا القرآن الذي أنزله الله على النبي عليه الصلاة والسلام لا اختلاف فيه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه..

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

أنواع التكليف:

1 - التكليف الاعتقادي:

نحن كُلفنا أن نعتقد بوجود الله، وبربوبيّته، وبألوهيّته، وبأسمائه الحُسنى وصفاته الفُضلى، والكون كله يؤكِّد هذه الحقيقة، لذلك إذا أمرنا أن نؤمن به فما أكثر الآيات الدالّة عليه، إذا أمرنا أن نؤمن بعظمته فالكون كله ينطق بعظمته، إذا أمرنا أن نؤمن برسوله فالنبي عليه الصلاة والسلام صفوةُ خلقه، لو أمرنا أن نؤمن برسوله ولم يكن هذا النبي الكريم في المستوى المطلوب لوقعنا في حَرَج، لكن هذا رسولي وهو قِمّة البشر، في الكمال والعلم، والعصمة والتبليغ، فربنا سبحانه وتعالى قال:

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلّا وُسْعَهَا)

2 - التكليف التعبدي:

أما تكليف العبادات فجعل الصلاة لا تزيد عن ركعات، فلو أن الصلاة عشرين ركعة في كل وقت لكان في هذا التكليف حَرَجاً علينا، الصلاة أربع ركعات، أو ركعتان، أو ثلاث، هذا هو الفرض، ولك أن تقرأ في كل ركعة ما تيسّر من كتاب الله، فلذلك ليس هناك تكليفٌ حرجيٌ في العبادات، والصوم ثلاثون يوماً في السنة، أياماً معدودات، فلو كان الصوم ستين يوماً لكان عبئاً على الجسم، فربنا سبحانه وتعالى هو الخالق، وهو يعلم الأيام المعدودة التي تناسب الصيام، لم يكن في أمره تكليفٌ حرجي، ولا في الزكاة لم يقل: أعطوا كل أموالكم، ولا أعطوا نصف أموالكم، ولا ربع أموالكم، واحد في الأربعين، اثنان ونصف في المئة، شيء مقبول ضمن الوسع، وكذلك الحج قال:

(وَلِلّهِ عَلَى النّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)

(سورة آل عمران: آية " 97 ")

فمن لم يستطع فلا حج عليه، إذاً عندما قال ربنا عزّ وجل:

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلّا وُسْعَهَا)

ليس في تكليف الاعتقاد، ولا في تكليف العبادات، ولا في تكليف المعاملات ما يُحْرِج، فربنا عزّ وجل قال:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

(سورة الشورى: آية " 40 ")

(فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ)

(سورة البقرة: آية " 194 ")

هذا التكليف يَسَع الخلق كلهم..

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

(سورة الشورى: آية " 40 ")

3 - التكليف في المعاملات:

فحتى في المعاملات، حتى في البيع، وفي الشراء لم يكلفنا تكليفاً حرجاً، التكليف من وسع الإنسان، لذلك الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة يقول:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة: آية " 286 ")

هذه الأوامر وتلك النواهي بإمكان كل إنسانٍ في كل زمانٍ ومكانٍ أن يطبّقها في بحبوحة، ويقول الناس: والله هذا شيءٌ صعب، هذا كلام خلاف كلام الله عزّ وجل، ما كان الله عزّ وجل ليكلفنا بما هو شاق، أحياناً الصلاة غير شاقة، ولكنها تُصْبِحُ في بعض الحالات شاقة كما هي على المريض، فربنا سبحانه وتعالى رفع الحرج.

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)

(سورة النور: آية " 61 ")

لك أن تصلِّي قاعداً، لك تصلي مستلقياً، لك أن تصلي بالإيماء، إذا كان الماء يؤذيك فلك أن تتيمم، إذا كان غُسل الجنابة يؤذيك فلك أن تتوضأ، الأمر كلما ضاق اتسع، هذه قاعدة في أصول الفقه، كلما ضاق الأمر اتسع، فلذلك:

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

فأحياناً الأب يتعنت في تزويج ابنته، الشرع دقيق جداً، تستطيع هذه الفتاة أن ترفع أمرها إلى القاضي، والقاضي يسأل الأب: لماذا لا تزوّجها ؟ فإما أن يقتنع القاضي وينضم إلى الأب، وإما ألا يقتنع فيزوّجها هو مباشرةً، لا يوجد حرج إطلاقاً، الأمر كلما ضاق اتسع..

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

4 – التكليف الأخلاقي والسلوكي:

هذه التكاليف التي كُلفنا بها من اعتقاديات إلى عبادات، إلى معاملات، إلى أخلاقيات كلها في وسع الإنسان أن يفعلها، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان التكليف مشقة، ولكان عدم التطبيق مبرراً، أما هذا الذي

يقول: أنا أين أذهب بعيني في الطريق ؟ نقول: أنت لا تعرف، بإمكانك أن تَغُضّ بصرك، من غض بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوة في قلبه إلى يوم يلقاه، من أين آكل إذا امتنعت عن أكل مال الحرام؟ نقول له: أنت لا تعرف..

((ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

(الجامع الصغير عن ابن عمر بسند فيه مقال)

إياك أن تظن أن في الإسلام حِرْماناً، أبداً.. فأية شهوةٍ أودعها الله في الإنسان جعل لها قناةً نظيفة يمكن أن تُفَرّغُ من خلالها، فالزواج مُفَتَّحَةٌ أبوابه، الشهوة التي أودعها الله في الرجال يمكن أن تنصرف في الزواج، وليس هناك قناةٌ أخرى، حب المال يمكن أن يكون من طريقٍ مشروع، حب العلوّ في الأرض، يمكن أن يكون عن طريق العَطاء، إذا أعطيت المجتمع رفعك المجتمع فوقَ الأكُف، إذاً:

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

فهذه الآية أتمنى عليكم إذا خطر على بالكم خاطر من أن أوامر الدين شاقة، هذه الآية ترد هذه الأكذوبة، وهذه الفِرْيَة، أوامر الدين ليست شاقة، إن أوامر الدين ليست تقييداً لحرية المؤمن أو الإنسان إنما هي ضمانٌ لسلامته.

إنّك إذا كنت في حقلٍ ورأيت لوحة كُتب عليها: احذر حقل ألغام، هل تظن أن هذه اللوحة وضعت لتَحُدّ من حريتك؟ لا.. من أجل أن تضمن بها سلامتك.. أقرب من هذا.. إذا وقفت أمام عمودٍ كهربائي كتب عليه: خطر الموت تَوَتُّر عالٍ، هل تحس بنقمةٍ على من وضع هذه اللوحة ؟ أم تشكره من أعماق نفسك؟ إن هذه اللوحة ليست تقيداً لحريتك، إنما هي ضمانٌ لسلامتك، لذلك:

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

في أمر الزواج، في أمر الطلاق، في أمر البيع، في أمر الشراء، في العبادات، في المعاملات، في الاعتقاديّات، في الأخلاقيات، أيٌ أمرٍ من أوامر الدين هو من عند الخبير، من عند الصانع.

إذا اقتنيت آلةً معقدة، ورأيت مع الآلة نشرةً فيها تعليمات دقيقة لطريقة التشغيل، وطريقة الصيانة، وهناك شخصٌ قال لك: هذه التعليمات صعب تنفيذها، لا تعبأ بها، افعل كذا وكذا، أنت بالفطرة تعتقد أن الصانع وحده هو الذي بإمكانه أن يعطيك التعليمات، لأنه خبير..

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

(سورة الملك)

الصانع وحده، فهذا المخلوق الذي هو الإنسان، من خلقه ؟

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

(سورة الملك)

لذلك:

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة المؤمنون: آية " 62 ")

لا حجة لإنسان بصعوبة التكاليف:

من هنا تأتي المُشْكلة، المشكلة أن الإنسان عليه الحُجّة، لو أن أوامر الله عزّ وجل لم تكن في وسع الإنسان لفتح الإنسان فمه على مصراعيه إن صح التعبير وقال: هذا التكليف يا رب فوق طاقتي، لا..

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

فلما يَحْتَج الإنسان أمام نفسه بحُجّة واهية فيقول: هذه التكاليف صعبة، هذه الأوامر شاقة، هذه الأوامر لا أقوى على تنفيذها، ولا أستطيع تطبيقها، هذا كلام الشيطان.

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِي إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة آل عمران)

(وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

(سورة المؤمنون)

مراقبة كاملة شاملة: وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ

الكتاب بعضهم قال: القرآن، وبعضهم قال: اللّوح المحفوظ، وأوجه التفسيرات كتاب الأعمال.

فلو كنت موظفًا تتحرك، وتأتي متأخراً أو باكراً، وترتكب المخالفات، تعمل أعمالاً طيبة، وأنت في مقابلةٍ للمدير العام طلب إضبارتك، فإذا بهذه الإضبارة كلُّ شيء، كل المكافآت، وكل العقوبات وكل التقصيرات، وكل الأعمال الطيبة، هذه الإضبارة فيها كل شيء، فإذا كان في وسع الإنسان أن يتّخذ لمن عنده من الموظفين إضبارةٌ فيها كل شيء، فما قولك بالواحد الديان؟..

(وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ)

كل حركاتك، وكل سكناتك، كل التجاوزات، كل المخالفات، كل التقصيرات، كل الأعمال الطيبة، الأعمال السيئة، الأعمال التي لا ترضي الله كلها مسجلة، بعضهم قال: مسجلة مع صورتها، لقوله تعالى:

(كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

(سورة المطففين)

فيه الرَقْمُ، أي فيه الصورة، وبعضهم قال: صفحات هذا الكتاب مرقمة لا يمكن أن تنتزع. على كلٍ ليكن في علمكم أن كلاً منا له عند الله كتاب،

أعماله كلُّها منذ سن التكليف وحتى يحين الحين، مسجلةٌ عليه واحدةً واحدة..

(وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ)

هذا الكتاب ليس كتاباً مقروءاً، بل إنه أبلغ من المقروء، كتاب مسموع، أحياناً يضعون في السيارة عدّاداً يشير إلى شيء من الأشياء، فإذا نظرت إليه عرفت، وإذا لم تنظر إليه وقد أشار إلى الخطر وقعت الكارثة، الآن العدادات أبلغ من ذلك فهي ناطقة تقول لك: انتبه الوقود سينتهي، انتبه الشيء الفلاني فيه خلل، فالكتاب الناطق أبلغ من الكتاب المقروء أبلغ بكثير، الإنسان أحياناً يقول: هذا الشيء يَكَاد ينطق لشدة الوضوح وشدة البلاغة يكاد هذا الكتاب ينطق لشدة البلاغة، فربنا عزّ وجل قال:

(وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ)

شيءٍ فعلوه دون تَحَيُّز، دون محاباة، دون تجنٍّ، دون جحود بالحق، أحياناً الإنسان يُكتب شهادته في المخفر على خلاف الحق لمصلحة أحد الطرفين، أحياناً يكون الطرف الأول غائب، الطرف الثاني يُمْلي الحادث كما يريد، فهذه الشهادة كتاب، لكنه مخالفٌ للحق، لم يكن الأمر كذلك، لكن هذا الكتاب الذي هو عند الله عزّ وجل ينطق بالحق، لا يوجد فيه زيادة، لا يوجد فيه نقص، لا يوجد محاباة، لا يوجد جحود، لا يوجد فيه مبالغة، لا يوجد فيه تقليل، الإنسان قد يحابي نفسه، فإذا طُلب منه شهادة، يخفف المسؤولية عن نفسه، يوجه الإفادة توجيهاً ليتحلل من المسؤولية، فإذا طُلب منه شهادة عن خصمه يُبالغ في تحميله المسؤولية، فهذه الشهادة مخالفة للحق ؛ لكن الله سبحانه وتعالى كتابه الذي ينطق بالحق هو بالحق دون زيادةٍ أو تزوير..

(وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

لا يظلم مثقال ذرة

لأن الكتاب ينطق بالحق إذاً..

(وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

من أين يأتي الظلم ؟ بعضهم قال: **" الكتاب هو القرآن الكريم "** و..

(يَنْطِقُ بِالْحَقِّ)

بمعنى أن النبي عليه الصلاة والسلام يتلوه على مسامع الناس، فكأن هذا الكتاب ينطق، ينطق به النبي الكريم، وهذا معنى آخر، على كلٍ..

(وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ)

(سورة المؤمنون: آية " 62 ")

هناك تناسب بين المعنى الأول والمعنى الثاني، إنه كتابُ الأعمال الذي ينطق بالحق..

(وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ)

إذا كان الله سبحانه وتعالى ينفي الظلم عن تصرُّفاته، فهل يُعقل أن تسمعنا قصة مفادها أن فيها ظلماً شديداً ؟ إذا كان الله عزّ وجل ينفي الظلم أتثبته أنت ؟ أتثبته بخلاف الواقع ؟..

(بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا)

(سورة المؤمنون: آية " 63 ")

دعوى مشقة التكاليف من عمى القلب:

لماذا هم كذلك ؟ لماذا هم لا يفعلون ما يؤمرون ؟ لماذا هم يدّعون أن هذه التكاليف فوق طاقتهم، لماذا ؟ لماذا يقصرون ؟ لماذا ينحرفون ؟ لماذا يخالفون ؟ لأن قلوبهم في غمرة، أي هم في تيهٍ وعمى، في تيه شهواتهم، إنهم مقبورون في شهواتهم، إنهم غارقون في متاعبهم، إن شهواتهم هي حجبٌ كثيفة بينهم وبين الحقيقة، لذلك:

(بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا)

ما هذا ؟ من هذا، هذا اسم إشارة، إلى أي شيء يشير ؟ قال: إلى قوله تعالى:

(إِنّ الّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبّهِمْ مُشْفِقُونَ)

(سورة المؤمنون)

هؤلاء قلوبهم في غمرةٍ من أن يكونوا مُشفقين..

(وَالّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبّهِمْ يُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون)

قلوب هؤلاء في غمرةٍ من أن يؤمنوا بآيات الله..

(وَالّذِينَ هُمْ بِرَبّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ)

(سورة المؤمنون)

في غمرةٍ من هذا..

(وَالّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنّهُمْ إِلَى رَبّهِمْ رَاجِعُونَ)

(سورة المؤمنون)

قلوبهم في غمرةٍ من هذا، وبعضهم قال: قلوبهم في غمرةٍ من أن يعتقدوا أن كل الأوامر الإلهية في وسع الإنسان، وصف المؤمنين، ووصف الشرع الحكيم لا ينطبق على هؤلاء لأنهم غارقون في شهواتهم، محجوبون بميولهم، بعيدون عن الحقيقة لأنهم حجبوا أنفسهم عنها..

(بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا)

أحياناً تلتقي مع إنسان، تراه غارقاً في شهوته ؛ لا يسمع ولا يبصر ولا يعي، على قلبه وَقْرٌ،

على قلبه خَتْمٌ، وفي أذنه وَقْرٌ، وعلى عَيْنَيْهِ غِشاوة، فكأنه لا يرى ولا يسمع ولا يعقل:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا)

(سورة الأعراف: آية " 179 ")

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج)

(بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا)

مادام غارقاً في شهوته إذاً لا بدّ أن ينحرف، لأن منطق الشهوة يدعو إلى أن تُرَوّيها بحلالٍ أو حرام، إذا الإنسان تشبّث بشهوةٍ ما يسعى إلى إروائها من أي طريق، فلذلك أنَّى لهذا الضال أن يستقيم ؟ ما كان له أن يستقيم..

(وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ)

(سورة المؤمنون)

العلاقة بين مجاوزة الحدود والابتعاد عن الحق:

أي أن لهم أعمالٌ خسيسة، أعمالٌ دنيئة، فهذا الذي لا يعبأ بالدين..

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2))

(سورة الماعون)

(لاإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

فتأكّد من سماعك مقولة الإنسان، قالها لك منكرة هذا الدين العظيم أو منكر فريضته أو الصلاة، أو الصيام، أو الاستقامة..

(وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ)

لا بدّ أن يعتدي على أعراض الناس، لابدّ أن يعتدي على أموالهم، لا بدّ أن يأخذ ما ليس له، لا بدّ أن يطغى، لا بدّ أن يبغي، لا بدّ أن يَشْتَط، لا بدّ أن يتجاوز..

يعملونها لأنهم في عمى، يعملونها لأنهم في صمم، يعملونها لأن الشهوة هي دَيْدَنُهُم، وقد استحوذت عليهم، إنهم غارقون فيها..

(وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ)

آية بليغة. أي..

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْداً إِذَا صَلَّى (10))

(سورة العلق)

أرأيت ؟؟ هذا الذي ينهى عبداً إذا صلى، أنظر إلى أعماله، أنظر خلله، أنظر إلى قذارته، إلى دناءته، انظر إلى ميوله المُنْحَطّة، انظر إلى أنانيته.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (9) عَبْداً إِذَا صَلَّى (10))

(سورة العلق)

الآن..

(أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى)

انظر إلى أمانته، انظر إلى شجاعته، انظر إلى استقامته، انظر إلى ورعه، انظر إلى عفافه، هكذا، فلذلك:

(بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ)

نتيجة قطعية وحتمية أن الذي يبتعد عن الحق لا بدّ أن يتجاوز الحدود، ولا بدّ أن يقع في الحرام، ولا بدّ أن يأخذ ما ليس له، فأحياناً إذا الإنسان انغمس بشهوته، يعتدي على حقوق مُقَدَّسة، ولا يبالي بها، ثم يقول الله عزّ وجل:

(حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ)

(سورة المؤمنون: آية " 64 ")

المترف إنسان بعيد عن الحق:

هؤلاء المترفون كما قلت في درسٍ سابق في ثمانية مواضع على سبيل القصر والحصر جاء المترف كافراً..

(كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة المؤمنون: آية " 33 ")

فالمترف دائماً إنسان بعيد عن الحق، جعل الدنيا أكبر همِّه، ومبلغ علمه، جعل الدنيا كل حياته، جعل آماله كلها في الدنيا، لم يرض غير الدنيا، لم يعبأ بما بعد الموت، فلذلك:

(حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ)

(سورة المؤمنون)

ولات ساعة استغاثة:

جأر أي تضرّع بصوت مرتفع: يا رب..

(حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ)

كما في الدرس الماضي:

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)

(سورة المؤمنون)

أحياناً يَصْدُرُ أمرٌ من الله عزّ وجل بإيقاع العقاب بالإنسان، يأخذه بالعذاب، عذاب في جسده، عذاب في ماله، عذاب في أهله، عذاب قصم يُنْهيه عن آخره..

(حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ)

أي يضرعون إلى الله بصوتٍ مرتفع..

(لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ)

(سورة المؤمنون)

هذه الاستغاثة جاءت بعد فوات الأوان، تماماً لو أن إنساناً قتل إنساناً، وسيق إلى المحاكمة، وحُكِمَ عليه بعد محاكمةٍ طويلةٍ دقيقةٍ عادلةٍ، حُكم عليه بالموت لأن هناك أدلةً قطعية على ارتكابه للجريمة، وصدق الحكم، وسيق إلى تنفيذه، فلو أنه استغاث بهم، هل تجزيه هذه الاستغاثة ؟ لو أنه توسّل إليهم، لو أنه رجاهم، لو أنه قبّل أقدامهم، لو أنه بكى، لو أنه ضحك، هذه بعد فوات الأوان، فَكِّر قبل أن تقدم على هذه الجريمة، فكر قبلها، فالأمور دقيقة، فالإنسان يكون في بحبوحة أما إذا كان غافلاً والأمر يجري وهو يعصي الله عزّ وجل، فجأةً يصدر أمر إلهي بإيقافه عند حده، بعدئذٍ الأمر وقع، فالذي أرجوه، والذي قلته لكم في درسٍ سابق: ألا تصل علاقتكم مع الله إلى هذا المستوى، إلى طريقٍ مسدود، ألا تصل علاقتك مع الله أن تدعوه فلا يستجيب لك، الإنسان أحياناً يطغى، يتجاوز الحدود، يأخذ ما ليس له، يُطَلِّقُ ظلماً، يعتدي على أموال الناس، على أعراضهم، وهو قصد على ذلك، عندئذٍ يأتي العقاب الأليم.

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

عندئذٍ لا ينفع الدعاء، ولا ينفع الرجاء، ولا التوسّل، ولا أن تجأر..

(حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (64) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ(65))

(سورة المؤمنون)

جاء هذا بعد فوات الأوان، هذا لا يُجْدي، فعلت ما فعلت، ولم تفكر فيما فعلت، استمعوا يقول الله عزّ وجل:

(قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 66 ")

العاقل يتعظ قبل فوات الأوان:

وأنتم في الدنيا، وأنتم في بحبوحة، وأنتم في شبابكم، وفي أحوالكم الطّيّبة ؛ لكم بيوت، ولكم زوجات، ولكم أولاد، وفي أكمل حالات صحّتكم، أعضاؤكم سليمة، حواسُّكم سليمة، صحتكم جيدة، دخلكم وفير، مركزكم قوي..

(قَدْ كَانَتْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

لقد كانت آياتي تُتلى عليكم صباحاً مساء، آيات القرآن الكريم تُتلى عليكم، ألم تحضروا تعزية ؟ ألم تسمعوا كلام الله؟ ألم تحضروا احتفالاً بُدِئ بكلام الله ؟ ألم تجلسوا في مجلس علمٍ سمعتم فيه تفسير كلام الله ؟ ألم تحضروا خطبة فُسِّر فيها بعض آيات الله ؟

(قَدْ كَانَتْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

وأنتم في رخاء، وأنتم في نشاط، وأنتم في قوة، وأنتم في صحة، وأنتم في مال، وهناك قول آخر:

(قَدْ كَانَتْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

هذه الشمس آية أما قرأت عنها ؟ أما سمعت عنها ؟ أن حجمها يتسع إلى مليون وثلاثمئة ألف أرض ؟ أن حرارتها في سطحها ستة آلاف درجة ؟ وفي نواتها عشرين مليون درجة ؟ وأنها تَتَّقِدُ منذ خمسة آلاف مليون سنة ؟ من أعطاها هذه الطاقة ؟ وأنها تَبْعُد عن الأرض مئةً وخمسين مليون كيلو متر؟ وأن نجماً يتّسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما؟ وأن هذه العين فيها مئة وثلاثين مليون عُصَيَّة ومخروط ؟ وأن في الإنسان مئة وخمسين كيلو مترًا أوردةً وشرايين ؟ وأن قلبه يضخ ثلاثمئة ألف متر مكعب من الدم في عمره المديد ؟ ما تملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم..

(أَلَمْ تَكُنْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 105 ")

ألم تسمعوا هذه الآيات ؟ ألم تقرأ عن القمر، عن الشمس، عن الأرض، عن الجبال، عن الأنهار، عن البحار ؟ نهر الأمازون ثلاثمئة ألف متر مكعب في الثانية، أين خزّاناته ؟ هذه الآيات في الجبال، والصحارى، والسهول، والوديان، والأغوار، والبحار، مليون نوع من السمك في البحار، مئة ألف نوع من الطيور، ثلاثة آلاف وخمسمئة نوع من القمح، أنواع المحاصيل، أنواع الفواكه، أنواع الخُضراوات، أنواع الحيوانات، في الإنسان أجهزة معقدة جداً..

(أَلَمْ تَكُنْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 105 ")

ألم تسمعوها، ألم تستعظموا، ألم تلفت نظركم هذه الآيات، ألم تتأثروا، ألم تقولوا: الله عظيم يجب أن نطيعه أبداً ؟ فإما أن تفسِّرها بالقرآن:

(قَدْ كَانَتْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

وإما أن تُفَسِّرها بآيات الكون، على كلٍ هذه كلها آيات:

(تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

تسمعونها صباح مساء، تُتلى على مسامعكم، ما أكثر ما حضرتم بعض المحاضرات ذُكِرَت فيها بعض آيات الله، البترول آية، من أودع هذه الطاقة الهائلة في باطن الأرض ؟ الهواء آية، الماء آية، الكهرباء آية:

(أَلَمْ تَكُنْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

(سورة المؤمنون)

(قَدْ كَانَتْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ)

(سورة المؤمنون)

الشهوة والشبهة مانعان من سماع الحق:

تتراجع إلى شهوتك، تتراجع إلى عاداتك، إلى تقاليدك، إلى مصلحتك، إلى الدنيا، تَخْلُدُ إلى الأرض، هذه الآيات تكفي أن تعرف الله عزّ وجل، هذه الآيات تكفي أن تستقيم على أمره، لكن هذا الإنسان يرجع إلى شهوته، يرجع إلى عاداته السقيمة، يرجع إلى تقاليده المَقِيتة، يرجع إلى المادّة، يرجع إلى مصالحه:

(فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (66) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ)

(سورة المؤمنون)

الاستكبار حجاب عن الحق:

أنتم فوق ذلك ؟ أنتم أكبر من أن تؤمنوا ؟ أنتم أكبر من أن تُصَلّوا ؟ يمشي في جنازة، ويقف أمام المسجد، فيقف، ويدخن، فأنت أكبر من الصلاة ؟ من أنت ؟ أنت أكبر من أن تُصَلِّي ؟ أن تخلع حذاءك وتتوضّأ وتصلي في المسجد، من أنت ؟

(مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ)

(سورة المؤمنون)

هنا سامراً حال، أي تمضون أوقاتكم في السمر، تسهرون إلى ساعاتٍ مُتَأَخِّرة في الغيبة والنميمة، وفي كلامٍ فارغ، وفي الحديث عن زيدٍ وعُبيد، وفي القيل والقال، تسمرون في أحاديث لا تُرضي الله عزّ وجل، تسمرون في أحاديث لا معنى لها، لا غاية منها، لا فائدة منها، لا جدوى منها:

(مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ)

في جلساتكم، في سهراتكم، في ندواتكم، في أُمْسِياتكم، في حفلاتكم، في مطاعمكم، في متنزهاتكم، في هذه الأماكن، الحديث عن الله معدوم، بل إنّ الحديث عن الدنيا، عن الشهوات، عن النساء، عن الألبسة، عن الأسعار، عن أشياء لا تُقدِّمُ ولا تُؤخِّر:

(سَامِراً تَهْجُرُونَ)

لذلك كان عليه الصلاة والسلام يُصلِّي العشاء في ثلث الليل الأول، فأحياناً كان يؤخِّرها عن وقتها إلى ثلث الليل الأول، وكان يكره النوم قبلها والسمر بعدها، يكره النوم قبلها لئلا تضيع عليه في أفضل أوقاتها أو في كلِّ أوقاتها، ويكره السَمَر بعدها، يختم هذا النهار بصلاةٍ جيّدة يجب أن ينام عليها، وكان عليه الصلاة والسلام يكره الحديث بعد صلاة العشاء، وكان من العلماء الأجلاّء من يكره الحديثَ بعد صلاة العشاء، إلا أن العلماء أجازوا أن تَسْمُرَ في إصلاح ذات البين، أو في تعلُّم العلم، أو في الأمر بالمعروف أو في النهي عن المنكر، أو أردت أن تدعو إلى الله، أردت أن توضِّح بعض آيات الله، فإن هذا مباحٌ فيما بعد العشاء بشرط أن يكون الحديثُ محصوراً في ذكر الله عزّ وجل، أما الحديث الفارغ عن الطعام والشراب، وعن أحوال الناس، وعن أحوال البيع والشراء، وعن أسعار الحاجيّات، أن يكون هذا بعد العشاء فإن أغلب الظن أن الإنسان يقع في بعض الإثم، لذلك اختم يومك بصلاة العشاء، ولا تتحدث بعدها بشيء إلا إذا كان في طاعة الله عزّ وجل..

(مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِراً تَهْجُرُونَ (67) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ)

(سورة المؤمنون)

القول هو: القرآن الكريم في أوجه التفسيرات.. القرآن..

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ)

دعوة إلى تدبُّر القرآن:

هذا الكلام كلام إله، إلهٌ عظيم، لماذا لا تؤمن به ؟ إذا قال لك:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

(سورة النور: آية " 30 ")

فهذه الآية أنت غير مهتم بها ؟ إذا قال لك:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة: آية " 276 ")

هذا الكلام ألا تؤمن به ؟ إن الله يُدَمِّر هذا المال كله إذا كان فيه ربا؟ يوجد أشخاص يقرؤوا القرآن ويقولون لك: تباركنا، يقبِّل المصحف من أطرافه الستة ويخالفه، لذلك:

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ)

(سورة المؤمنون)

أي لماذا لا يدققون فيما يقرؤون ؟ لماذا لا يتدبَّرون هذا القرآن ؟ لماذا لا يقفون عند حلاله وعند حرامه؟ عند أمره ونهيه ؟ عند وعده ووعيده ؟ لماذا لا يتعظون بأمثاله وقصصه ؟ لماذا لا يصدقون أخباره ؟ لماذا لا يخافون مما سيكون فيما أخبر به القرآن الكريم ؟

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ)

(سورة المؤمنون)

ليس لظالم استثناء من العقوبة:

فهل معهم استثناء من العذاب ؟ أحياناً يقول أحدهم: يا أخي أنا معي استثناء خطي، أنا مستثنى من العقوبة، هل معك استثناء من الله بأنك لن تعذب ؟ يوجد عندك وثيقة خطِّية تضعها في الكفن وفي القبر؟ معه استثناء يا ربي..

(أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ)

أي هل معهم استثناء ؟ أو أن هذا القرآن (أم بمعنى بل، من معانيها للتسوية، أما في بعض معاني هذه الآية أم بمعنى بل).

بل جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين، جاءهم من الله نور، جاءهم منهج، جاءهم دستور، جاءهم نظام، جاءتهم أحكام فيها حلالٌ وحرام، فيها أمرٌ ونهي، هذا المعنى الثاني..

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 69 ")

لماذا أنكرتم رسلكم ورميتموهم بالجنون ؟

كُلُّ هذا الكمال، كل هذه الأمانة، كل هذه العِفّة، كل هذه الاستقامة، كل هذا الصدق، كل هذه المكارم، كل هذا الفضل لم تعرفوه بعد ؟ أخذتم عليه شيئاً ؟ هل جرَّبتم عليه كذباً قط ؟ هل جرَّبتم عليه خيانةً قط؟ ومع ذلك لا تعبؤون به، لا تستجيبون له..

(أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ)

لماذا هذا الإنكار ؟

(أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ)

(سورة المؤمنون: آية " 70 ")

هذا مجنون، فأين الدليل على أنه مجنون ؟ إذا لم يعجبك إنسان تقول عنه: مجنون.. يكون القائل هو المجنون..

النبي عليه الصلاة والسلام رأى مجنوناً فأراد أن يُعَلِّمَ أصحابه قال:

((من هذا ؟ قالوا: هو مجنون، قال: لا هذا مُبْتَلى، المجنون من عصى الله))

فإذا التقى إنسان برجل متديّن يقول لك: هذا مجنون لم ير شيئاً، لا يفهم شيئاً، سجن نفسه في البيت، توجد في الحياة مباهج فيها مقاصف، فيها حفلات، فيها أشياء جميلة، هذا مجنون لا يفهم شيئاً، وسوف نعلم من هو المجنون؟

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

(سورة القلم)

أنت لست مجنوناً.. لا..

(فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (5) بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ (6)ُ)

(سورة القلم)

(فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ)

(سورة الذاريات)

(أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ)

(سورة المؤمنون: آية " 70 ")

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

أي أن المؤمن في رحمةٍ كبيرة لكنَّها عُمِّيَت على معظم الناس، يتهمونه بالجنون وهم المجانين..

(بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (70) وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ َ)

(سورة المؤمنون)

كل إنسان يريد ديناً على قدر شهواته، فيقول لك: أخي لا هذه لا يمكن أن تكون حراماً، لا هذا تزمُّت، من أين جئت بها؟ حتى ولو كانت آية قرآنية يقول لك: لا.. هذا مبالغة، الدين يُسر، الدين مَرِن، يقول: إنه مرنٌ حتى يلغي الدين كله..

(وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ)

الحق حق والباطل باطل:

الحق حق، والباطل باطل، إذا شرع الله للناس ديناً يتوافق مع أهوائهم وشهواتهم تصبح السماوات والأرض فاسدة، وهم معها.

مثلاً: إذا قلنا: هذه المدرسة سنراعي فيها رغبات الطلاب، فالدوام حُر، متى تستيقظ تذهب إلى المدرسة، هذا استيقظ، وذهب إلى المدرسة الظهر، هذا سيسافر فيقول لك: لا أريد الآن أن أداوم، إذا تركنا الأمر للطلاب على حسب حريتهم ـالدوام كيفي ـ وكذلك لا يوجد امتحان، لأن الامتحان يسبب إرهاقاً للأعصاب، تقضي سنة فتنجح إلى صف أعلى منه، فهل من المعقول أن هذه المدرسة تحقق أهدافها؟ الدوام حر، والدراسة حرة، ولا توجد امتحانات، ولا مذاكرات، ولا عقاب، ولا ثواب، ولكن كل شيء فيها حسب راحتك، فهل هذه مدرسة ؟

هناك دوام، إذا غبت أسبوعين تُفصَل، توجد مذاكرات، ويوجد امتحان، ويوجد منهج مقرر، وتوجد قاعة محاضرات، ويوجد فحص شفهي، وفحص عملي، وفحص كتابي، هذه هي المدرسة.

فإذا كنت تحب أن تكون الأرض كما يحب الناس ـ فهذا أكبر مثل أوروبا وأمريكا، لا يوجد عندهم دين ولا مبادئ، بل يوجد عندهم عقل فقط، فالعقل أوصلهم إلى عشرين مليون لوطي في أمريكا، ومعهم بطاقات رسمية يفتخرون بها ـمرض الإيدز آخر رقم قرأته ثمانية ملايين إنسان يحمل هذا المرض في أمريكا وحدها، هذا مثل واضح، فهذا الشرق والغرب الذين تركوا الدين كلياً، واتبعوا أهواءهم ماذا حلّ بهم ؟ تفكّك اجتماعي، انهيار الحياة الاجتماعية، أسرة منهارة، أطول زواج لمدة سنتين فقط، لأن الزوجة لها صديق، وتَمِل من زوجها بعد سنتين، تريد غيره..

(وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنّ)

الحق حق، هذا حرام وهذا حلال..

(بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ)

(سورة المؤمنون)

أتيناهم بكتابٍ يرفع من ذكرهم، يرفع شأنهم، يجعلهم مُكَرّمين..

(بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ)

أي بكتابٍ فيما لو طبّقوه لرفعَ الله لهم ذكرهم، وجعلهم في عباده الصالحين..

(فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (71) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً)

(سورة المؤمنون)

لا أسألكم عليه أجرا:

الدعوة إلى الله دون مقابل مادي، الدخول إلى المساجد مجاناً، سبحان الله الدعوة إلى الله مبذولة بلا مقابل، لا يوجد أي رسم، ولا يوجد أي دفع، ولا أي شيء، بل لوجه الله تعالى..

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21))

(سورة يس)

فعلامة الهداية أن هذا الذي يدعوك لا يَسْألك شيئاً لا معنوياً ولا مادي..

(أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

(سورة المؤمنون)

أحياناً يَخْدُم إنسان إنساناً، يقول له: لم تعطني أجراً ـ لو خدمه لوجه الله لأعطاه الله أضعافاً كثيرة ـ يوجد إنسان لا شيء عند الله له لأن كل خدماته قبض ثمنها الباهظ، يوجد إنسان يخدم لوجه الله عزّ وجل، **فهذا الذي خَدَمَ لوجه الله له عند الله ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر،** أما هذا الذي لا يتحرك إلا بالأجر أخذ شيئاً زهيداً قليلاً..

(فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

(سورة المؤمنون)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المؤمنون 023 - الدرس (7-8): تفسير الآيات 73 – 91
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-09-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس السـابع من سورة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضـي إلى قوله تعالى:

(وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة المؤمنون)

استقامة دعوة الأنبياء:

النبي عليه الصلاة والسلام فحوى دعوته أنَّه يدعو أمَّتَه، ويدعو الناس جميعاً إلى صراطٍ، والصراط هو الطريق، وهذا الصراط مستقيم، ومعنى مستقيم أي لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً، ليس فيه خلل، ليس فيه تناقض، ليس فيه غموض.

((تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها))

(أحمد عن جابر)

هذا الصراط هو الطريق، وهذا الصراط مستقيم، وأقصر طريقٍ بين نقطتين هو الطريق المستقيم، مستقيمٌ إلى ماذا ؟ أو طريقٌ إلى ماذا ؟ الطريق ينتهي بغاية..

(وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ)

أي إلى طريقٍ، هذا الطريق أين ينتهي ؟ العلماء قالوا: ينتهي إلى الجنة، إنَّك يا محمد تدعو قومك إلى سلوك طريقٍ ينتهي بهم إلى الجنة حيث السعادة الأبدية..

(وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة المؤمنون)

إذاً الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

(سورة هود: آية " 112 ")

الاستقامة أن تسير في طريق الله عزّ وجل، الطريقُ التي تفضي إلى الجنة هي الصراط المستقيم، ولا تنسى أيها الأخُ الكريم، أنَّك تقرأ الفاتحة في اليوم أكثر من خمسين مرة، وفي الفاتحة تقول:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ*صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

(سورة الفاتحة)

فكأن الله سبحانه وتعالى يَعْجَبُ من هؤلاء المعرضين كيف يكذبون النبي، وهو يدعوهم إلى صراطٍ مستقيم ؟ كيف يقفون في سبيل هذه الدعوة سداً منيعاً، وهو يدعوهم إلى صراطٍ مستقيم ؟ كيف يكيدون له، وهو يدعوهم إلى صراطٍ مستقيم ؟.

(وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

لذلك لا ينبغي للواحد منا الآن أن يُسَلِّم نفسه هكذا:

((ابن عمر، دينك دِينك ؛ إنه لحمك ودمك، خُذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

خُذ عن الذين استقاموا لأن الذين استقاموا هم في الطريق الموصلة إلى الله عزّ وجل، ولأنها طريقٌ مستقيمة إذاً هي أقصر طريق.

يوجد طريق طويل، قد يفعل الإنسان المعاصي فيأتي العلاج الربانِيّ قاسياً بعدها يتوب، يُخطئ ويتوب، ينحرف، ويأتي العلاج، ثم يتوب، هذا طريق طويل، طريق المعالجة، وطريق المصائب، وطريق الدَفْع، طريقٌ طويل وشاق، لكن الله سبحانه وتعالى يدعونا إلى صراطٍ مستقيم.

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ)

(سورة هود: آية " 112 ")

يجب أن تستقيم، إما أن نقول: يجب أن تسلك طريق الإيمان المستقيمة التي توصل إلى الله عزّ وجل، أو أن تستقيم على أمر الله، إذا استقمت على أمر الله فأنت على صراطٍ مستقيم، على كلِ الإنسان في أحواله الشخصية في علاقته مع ربه، يجب أن يستقيم على أمره، وفي علاقته بأسرته يجب أن يستقيم على أمر ربه، وفي علاقته بزبائنه، وفي علاقته بجيرانه، وفي علاقته بأقربائه، وفي علاقته فيمن حوله يجب أن يستقيم على أمر الله، فإذا استقام على أمر الله، أوصلَه هذا الطريق إلى سعادة الدنيا والآخرة، هذا معنى الصراط، والصراط الطريق، والمستقيم هو أقصر طريقٍ يحقق الهدف، الطريق يُفْضي إلى الجنة، فيا محمد إنّك تدعوهم إلى الجنة، تدعوهم إلى تحقيق الهدف من خَلْقِهِم، لماذا خلقهم الله عزّ وجل؟ خلقهم ليسعدهم سعادةً أبدية، إذاً النبي عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى صراطٍ مستقيم.

(وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (73) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ(74))

(سورة المؤمنون)

إنّ الدين مجموعة تكليفات ؛ تكليفات اعتقاديّة، وتكليفات تَعَبُّدِيّة، وتكليفات في المُعاملات، والتكليف لا بدّ أن ينتهي إلى الحساب، ويوم القيامة هو يوم الحساب، فإذا رفض الإنسان الآخرة فهو في حلٍ من كل هذه التكليفات، لذلك:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)

(سورة المؤمنون: آية " 75 ")

الإيمان باليوم الآخر من أهم أركان الإيمان:

طبعاً أركان الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره من الله تعالى، لكن ربما كان أبرز شيءٍ في الإيمان بعد الإيمان بالله أن تؤمن بالآخرة، فالذي يُسْقِطُ من حسابه اليوم الآخر فهو ليس مؤمناً إطلاقاً، لأنه إذا أسقط من حسابه المسؤولية والجزاء فهو سيتصرّف على هواه، وَفْقَ هوى نفسه، وفق شهواته، وفق نزواته، لذلك حجر الزاوية ومركز الثقل في الإيمان أن تؤمن باليوم الآخر، إذا آمنت باليوم الآخر معنى ذلك أنك سوف تحاسب، إذاً هذه تجوز وهذه لا تجوز، هذه يمكن أن تفعلها، وهذا الشيءُ لا يمكن أن تفعله، ما دام في حياتنا مباح وحرام وواجب، وفرض ومكروه، كراهة تنزيهية، وكراهة تحريمية، ومستحب، وسنة مؤكّدة، وسنة غير مؤكدة، معنى ذلك إنك ترجو ثواب الله عزّ وجل، ترجو رضاه وتخشى عذابه، فعندما الإنسان يلغي من حياته الإيمان بالآخرة انتهى إيمانه كلياً، فربنا عزّ وجل في إيجازٍ بليغ قال:

(وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)

لم يحدثنا عن عدم إيمانهم بالملائكة، ولا عن عدم إيمانهم بالرُسُل، لما يلغي الإنسان الآخرة من حياته يلغي إيمانه، لا بدّ للمؤمن أن يقف بين يدي الله عزّ وجل ليحاسبه على كل شيء، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ وَضَعَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ ؟))

(من سنن الدارمي عن معاذ بن جبل)

الفرق الدقيق بين المؤمن وبين غير المؤمن، أن المؤمن في كل حركةٍ وسكنةٍ يَضَعُ في حسابه أنه سوف يقف بين يدي الله عزّ وجل ليسأله عن هذا التصرف: لمَ فعلت كذا ؟ لمَ طلقتها ؟ هل كنت محقاً في هذا التطليق أم كنت ظالماً ؟ لِمَ غششت زيداً ؟ لمَ خدعت عُبَيداً ؟ لم احتلت على فلان ؟ لم أخذت هذا المال وهو ليس لك ؟ لم اعتديت على أعراض الناس ؟ هذه هي الآخرة، سؤال دقيق، لذلك الإنسان البطل هو الذي يُعِدُّ جواباً لكلّ سؤالٍ، قبل أن تقول هذه الكلمة هل تذكرُ أنه سوف تُسْأل عنها يوم القيامة ؟ قبل أن تُلقي هذه النظرة، قبل أن تبتسم هذه الابتسامة الساخرة، قبل أن تتكلم بهذا اللسان عن زيدٍ أو عبيد، قبل أن تنقل هذا الخبر لفلان، قبل أن تأخذ هذا المال، قبل أن تُنْفِق هذا المال، قبل أن تُعَنِّف فلاناً، قبل أن تلوم فلاناً هل أعددت جواباً لكل هذه التصرفات لله عزّ وجل ؟ الإنسان أحياناً يهيّئ جواباً لإنسان القضية سهلة، الإنسان علمه محدود، فربما هيّأت له جواباً مع وثيقتك، معك حسن سلوك من

المختار؟ وقد تكون سيّئَ السلوك، أما البطولة فأنّ تهيّئ الجواب لله عزّ وجل، لله الـواحد الديّان، الذي يعلم السرّ وأخفى، لذلك:

(وَإِنّ الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ)

(سورة المؤمنون)

عن الصراط لناكبون

تَنَكّب الصراط أي انحرف عنه، ومال عنه، وخرج منه، فدائماً قبل أن تناقش الإنسان انظر إلى استقامته، هل هو مستقيم ؟ هو أهلٌ أن تناقشه، فإذا كان منحرفاً ؛ ماله حرام، مأكله حرام، مشرَبه حرام، غُذّي بالحرام، هذا إنسان تَنَكّب الصراط المستقيم، لم يرض أن يكون على الصراط المستقيم، لأنه قطع أمله من الدار الآخرة، لأن الدار الآخرة أسقطها من حسابه.

(وَإِنّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (73) وَإِنّ الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ(74))

(سورة المؤمنون)

أي منحرفون، طبعاً هذا الكلام في كسب المال، في إنفاق المال، في علاقته بالنساء، فهناك علاقات منضبطة لا يرى إلا المحارم اللواتي سمح الله أن ينظر إليّهن، هناك إنسان مرن جداً، عنده بحبوحة في حياته، فهذا مُتَنَكِّب للصراط، لماذا تنكب الصراط ؟ لأن إيمانه بالآخرة غير صحيح.

هؤلاء الذين تنكبوا الصراط ولم يستقيموا على أمره في كل علاقاتهم لا بدّ أن يعالجهم، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

(سورة المؤمنون)

(وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ)

الإصابة بالضر نوعٌ من المعالجة:

معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى أصابهم بضُرٍ، لماذا أصابهم بالضُر ؟ معالجةً لهم، ولكن هذا الضُر لم يؤثِر فيهم، لم يستنبطوا منه حقيقة أساسية، لذلك قالوا: **من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظةً فمصيبته في نفسه أكبر**، فربنا عزّ وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

(سورة النساء)

فالله عزّ وجل ليس له أن يُعَذِّب إنساناً إلا بسببٍ وجيه، بحكمةٍ بالغة، فأنت إذا أصابك ما تكره اسأل هذا السؤال: ما يفعل الله بهذا العذاب إن كنت مؤمناً وشاكراً ؟ لا بدّ أن هناك تقصيراً في الإيمان، أو تقصيراً في شكر الواحد الدَيّان، فربنا عزّ وجل يُصيب بعض الخلق بالضُر، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((ما من عثرةٍ، ولا اختلاج عرقٍ، ولا خدش عودٍ إلا بما قدّمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر))

(الجامع الصغير عن البراء بسند فيه مقال)

إذاً هذا الضُر ساقه الله لحكمة بالغةٍ بالغة..

(وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ)

لو أن الله عزّ وجل أزال عنهم هذا الضُر، رفع عنهم هذا البلاء، وجاءهم الرخاء، وجاءتهم البحبوحة، وشعروا بالأمن، ماذا يفعلون ؟ يزدادون طغياناً، هم طاغون في الشدة والرخاء، في المَنع والعطاء، في البحبوحة والضيق، في إقبال الدنيا وفي إدبارها، إذاً هم بعيدون عن أن يفهموا عن الله عزّ وجل تصرفاته، بعيدون عن أن يفقهوا حكمته، هم يظنون أن هذا هو الدهر، فيقولون: **قلّب له الدهر ظهر المِجَنّ..** فما هو الدهر ؟ يقول أخي: القدر سخر منه.. ما هو القدر ؟ يعزو هذه المصائب، وهذه المحن، وهذه البلايا ساعة إلى الدهر، وقد يَسُبّ الدهر، وساعة إلى الحظ، ويقول: لا حَظّ لي، أما أن يعزوها إلى أن الله سبحانه وتعالى، على أنه هو الذي خلق هذه المصيبة لحكمةٍ بالغةٍ بالغة، وكأن الله عزّ وجل يُريدنا أن نعرف تلك الحكمة من هذه المصيبة..

(وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)

هذا الذي يَبغي ويطغى في الرخاء والشدة هذا لا جدوى منه، ولا رجاء منه، ومَيؤوسٌ من صلاحه، لهذا قال ربنا عزّ وجل:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: آية " 44 ")

متى.. متى تأتيهم الدنيا على أوسع مصارع أبوابها.. متى ؟

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام: آية " 44 ")

فأنت بين خيارين ؛ إما أن تكون مؤمناً فتفهم على الله عزّ وجل أن كل شيءٍ يسوقه لك مما يزعجك إنما هناك حكمةٌ بالغةٌ وراءه يجب أن تعرفها، يجب أن تعرف السبب كي تتلافى هذا التقصير، وإما أن تكون كالرعاع والدهماء وسوقة الناس، يُفَسِّر المصيبة تفسيراتٍ مضحكة، ساعة يقول: أخي لا أحدَ مرتاح، وساعةً يقول: لا يوجد لي حظ، وساعة يقول: الدهر ضِدّي، هذا كلامٌ لا معنى له، والبطولة أن

تعرف أن الله عزّ وجل حينما ساق هذه المصيبة إنما ساقها لحكمةٍ بالغةٍ لو عرفت هذه الحكمة لابتعدت عن السبب فزالت المصيبة.

مثل بسيط: حينما ينحرف إنسان عن طريق الحق، حينما يَتَنَكّب الصراط المستقيم يُقَيّضُ الله له مصيبة، هذه المصيبة مهما حاول ردها لا يستطيع، لأنها من فعل الواحد القهّار، مهما بذل محاولاتٍ كي يزيحها لا يستطيع، يُزيحها في حالةٍ واحدة، إذا عاد إلى الله، ورجع إليه، واصطلح معه، كان منحرفاً، فجاءت هذه المصيبة، فإذا استقام على أمر الله أُزيحت هذه المصيبة. لذلك..

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد: آية " 11 ")

القضية واضحة كالشمس، غَيّرْ حتى يغير الله عزّ وجل.

(لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد: آية " 11 ")

(وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(16)لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن)

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

(سورة المائدة: آية " 66 ")

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعراف: آية " 96 ")

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: آية " 97 ")

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)

(سورة النور: آية " 55 ")

آيات واضحة كالشمس، اقرأها، تدبّرها، سعادتك بيدك، وشقاؤك بيدك، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يخافنّ العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه))

(ورد في الأثر)

هذه حالة مرَضية مستعصية، ربنا عزّ وجل يصف هؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، هؤلاء الذين أسقطوا من حسابهم اليوم الآخر بأنهم تنكّبوا الصراط، خرجوا منه، اعتدى على أعراض الناس، أكل أموالهم بغير الحق، فعل ما لا يجوز، ربنا عزّ وجل رحمةً به يسوق له من الشدائد، ساق له الشدة فبقي منحرفاً، رفعها عنه فبقي منحرفاً، معناها لا يوجد إحساسً إطلاقاً.

أحياناً يضع الطبيب السماعة على الصدر فلا يسمع صوتاً إطلاقاً، يضع يده على النبض لا يوجد حركة، يضع المصباح في قُزحية العين فلا تضيق، يضع المرآة على فم الإنسان لعل بخار الماء ينطلق، فيقول لك: مات عظّم الله أجره، ربنا عزّ وجل يبعث للإنسان مصيبة لعله يبكي، يتأثر، يفكر، يقول: ربنا رحيم، ربنا عادل، لا يزال في البغي والطغيان، والانحراف، والانغماس في الشهوات، يبعث له الرخاء فيقول لك: إنما أوتيته على علمٍ عندي، كقارون، إن بعث له الرخاء والبحبوحة والمال، والأولاد، والزوجة، يقول لك: أنا خططت لحياتي، من أنت ؟ خطط لحياته، وهذا جهده الآن قطف ثماره، وإن بعث له مصيبة يقول: يا أخي الحياة صعبة، حظي سيّئ، يفسِّر المصيبة بالحظ، والرخاء بالجُهد، هذا ميت، لا يفهم على الله عزّ وجل..

(وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (75) وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (76))

(سورة المؤمنون)

حكمة العذاب من أجل استكانة الناس:

هذه الآية دقيقة جداً، كل أنواع العذاب الذي يسوقه الله للناس في الدنيا من أجل أن يستكينوا لربّهم، أن يخضعوا له، ومن أجل أن يتضرّعوا، وأنا أقول لكم هذا الكلام: ما منا واحدٌ إلا وقد تأتيه الأشياء على غير ما يريد، فإذا جاءته الأمور على غير ما يريد في صحته، في زواجه، في أولاده، في بيته، في علاقاته، في دخله، في من حوله، إذا جاءته الأمور على غير ما يريد فليراجع نفسه، إيَّاك أن تراجع الله عزّ وجل إنه عادلٌ، إنه رحيمٌ، إنه غنيٌ عن تعذيبك، راجع نفسك، انظر..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى)

هل هناك آيةٌ أوضح من هذه الآية ؟ هذا كلام الله يا إخوان..

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

(سورة الشورى)

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا)

(سورة الكهف)

أحياناً يقول لك: ثلاثون مليونًا تشرّدوا بالفيضانات، وقد ذكر ربنا عزّ وجل هذه الحالات في القرآن الكريم:

(وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا)

(سورة المؤمنون: آية " 76 ")

استكان أي خضع، لم يستكين:

(لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ)

(سورة المؤمنون)

والتضرُّع أن تدعو الله عزّ وجل، أن تستغفره، أن تسبّحَهُ، أن توحّده، أن تكبّره، أن تعترف بذنبك، أن تمرّغ جبهتك في أعتابه، أن تعاهده على التوبة، أن تراجع نفسك..

(فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ)

فالإنسان المُعْرِض الغافل الذي أسقط الدار الآخرة من حسابه، من هنا إلى يوم الله، أسقطها من حسابه نهائياً، باني كل حياته على الدنيا، هذا المال حرام حلال، مال فيه شبهة يقول لك: لا بأس به، لا تدقق، هذه المرأة لك حق أن تنظر إليها ؟ أو تصافحها ؟ أو تقعد معها ؟ يقول لك: أنا عقلي مفتوح ومرن. عندما يتساهل الإنسان في أمور كسب المال، وإنفاقه، وعلاقته بالمحرمات، عندئذٍ يتركه ربنا عزّ وجل، ولكن إلى حين، أحياناً تكون السنبلة تميل مع الرياح، أما الشجرة الكبيرة تأتيها عاصفةٌ فتقتلعها من جذورها..

(حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ)

(سورة المؤمنون: آية " 77 ")

باب الموت:

هذا عذاب الموت، هنا القَصْم حينما يُنهي الله سبحانه وتعالى حياة هذا الإنسان:

(حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)

نعوذ بالله من هذه الحالة، الإنسان يأكل، ويشرب، وينام، ويستمتع، ويذهب، ويسهر، ويتنزّه، ويعود، ويمزح، ويُزعج زيداً، ويتكلّم على عمرو، ويكسب المال الحرام، ويحسب لكل شيء حسابه إلا ساعة الموت:

(حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)

لم تكن في حسبانه، أن تنتهي دنياه، أن تنتهي حياته ويساق إلى القبر، هذه حالة خطيرة جداً، لذلك المؤمن أحد أسباب سعادته أن هذه الساعة التي لابدّ من أن تأتي قد أعدّ لها، وأدخلها في حسابه اليومي، لذلك كان أحد الصالحين قد اشترى قبراً في حياته، يضطجع فيه بالأسبوع مرة يوم الخميس، ويتلو قوله تعالى:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

(سورة المؤمنون: آية " 100 ")

فيقول لنفسه: قومي لقد أرجعناكِ، فالإنسان عندما يستيقظ صباحاً يجب أن يعرف أن الله عزّ وجل سمح له أن يعيش يوماً جديداً: **" ما من يومٍ ينشقُّ فجره إلا وينادي أن أيها الإنسان أنا خلقٌ جديد وعلى عملك شهيد فتزوّد مني فإني لا أعود".**

(حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَاباً ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ)

إذاً ربنا عزّ وجل في مجموعة هذه الآيات يبيّن لنا أن طريق الإيمان هو طريقٌ إلى الواحد الديّان، طريقٌ إلى الجنة، وهو طريقٌ مستقيم، فإذا طبّقت أحكام الشرع فأنت على هذا الطريق المستقيم، إذا طبّقت أحكام الشرع في زواجك، في بيعك وشرائك، في كل حركاتك وسكناتك، في عباداتك، في معاملاتك، فأنت على الصراط المستقيم، وهذا الصراط المستقيم لابدّ أن يُفْضي بك إلى الله عزّ وجل، وإلى الجنة..

الآن: الآيات تأتي ولها علاقةٌ وشيجة بالآيات السابقة:

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

(سورة المؤمنون)

من عجيب خَلق الله: السمع والبصر والأفئدة:

لماذا شَقّ الله لك السمع ؟ أمن أجل أن تسمع الغناء ؟ لا والله، بل من أجل أن تسمع الحق، فالإنسان ممكن أن يجلس في مجلس علم ويسمع الحق..

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ)

وشَقّ لك البصر من أجل أن ترى آيات الله، انظر إلى الشمس والقمر، انظر إلى السحاب والجبال، انظر إلى البحار والسهول، انظر إلى الأشجار والثمار، انظر إلى الأطيار والأسماك، انظر إلى ابنك كيف خلقهُ الله عزّ وجل، وأحسن تكوينه، انظر إلى أسرتك وحاجياتك من حولك ؟ من خلقها ؟ فربنا عزّ وجل يقول: لقد شققت لكم السمع والأبصار فاسمعوا الحق، أو انظروا في آياتي:

(وَالْأَفْئِدَةَ)

والأفئدة هنا بمعنى العقول، ندرك بها المدركات، يوجد عندنا محسوسات، ويوجد عندنا مدركات، بالحواس ندرك المحسوسات، وبالعقل ندرك المفاهيم:

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

لماذا خُلِقت ؟ خلقت من أجل أن تعرفه، والمعرفة أصل العلم، قال: وما أصل العلم ؟ قال: هل عرفت الرب؟ أصل الدين معرفته كما قال الإمام عليٌّ كرم الله وجهه: **" أصل الدين معرفته.**

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)

خلق لكم السمع والأبصار والأفئدة من أجل أن تعرفوه، إذاً لابدّ أن يأتي بكم إلى الدنيا، وأن يُسَخِّرَ لكم ما في السماوات والأرض تسخير تكريمٍ وتعريف، وأن يودع فيكم الشهوات لترقوا بها إلى رب الأرض والسماوات، وأن يَهَبَكُم العقل كقوةٍ إدراكيةٍ تميّزون به الخير من الشر، إذاً:

(وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ)

(سورة المؤمنون: آية " 79 ")

رحلة من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة:

شق لكم السمع والأبصار، وأودع فيكم العقول، وذرأكم في الأرض أي خلقكم فيها:

(وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة المؤمنون)

جئنا إلى الدنيا بالحياة، ونذهب منها بالموت، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ)

(سورة المؤمنون: آية " 80 ")

وكيف يكون الحياة والموت ؟

(وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

(سورة المؤمنون: آية " 80 ")

معنى اختلاف الليل والنهار:

الزمن، هذا اليوم يأتي بعد هذا الليل، والليل بعد النهار، مضى أسبوع وأسبوعان، شهر وشهران، سنة وسنتان، عقد وعقدان، أربعون، خمسون، ستون، سبعون، عظّم الله أجركم، لابدّ من الموت مهما طالت الأيام:

(وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

الأمور تسير..، والإنسان بضعة أيام كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه.

(وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ)

معنى اختلاف: أن يأتي النهار بعد الليل، وأن يأتي الليل بعد النهار:

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ)

(سورة هود: آية " 88 ")

خالفه إلى كذا أي ذهب إلى هذا المكان، فالليل جاء، والنهار جاء بعده وهكذا، دورة الأرض حول نفسها، دورتها حول الشمس ينشأ عنها الزمن، مع مُضِيّ الزمن تنتهي الحياة، ويأتي الموت، إذاً يوجد

عندنا علاقة في هذه الآيات، ربنا عزّ وجل خلقنا لنعرفه، شق لنا السمع والأبصار، أودع فينا العقول، جاء بنا إلى الدنيا، جعل الأيام يتلو بَعْضُها بعضاً، امتدّ بنا الزمن، انتهى العمر، جاء الموت ثم جاء الحساب، هذه حقائق كبرى في الدين:

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ (78) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (79) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (80) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ)

(سورة المؤمنون)

إنكار البعث طريق إلى فساد السلوك:

هؤلاء الذين أسقطوا من حسابهم اليوم الآخر، وتنكّبوا عن الصراط، ولم تؤثِّر بهم المصائب، ولم تؤثِّر بهم العطاءات، هؤلاء ماذا قالوا ؟

(قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)

(سورة المؤمنون)

هذا كلام فارغ، هذا الذي يقوله الأنبياء: أساطير الأولين، هذه غيبيّات ونحن واقعيّون، نحن نعيش هذه الحياة، الواقع ملموس، وعلينا أن نعيش واقعنا، علينا أن نتفاعل مع الواقع، نحن نريد الواقع، الواقع ما بعد الموت غير معروف، العلم متعلِّق بالواقع، هذه غيبيّات، هذه ما وراء الطبيعة، هكذا يقول المعرضون:

(بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (81) قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (82) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ(83))

هذه تقاليد قديمة، وبعض الأفكار الشائعة عند الضعاف، الإنسان من ضعفه توهّم إلهاً خلقه، ركن إليه، هذا شعور طبيعي عند الضعيف، أما الإنسان إذا سيطر على الطبيعة هو في غنى عن هذه الأفكار، وعن هذه المشاعر، وعن تلك المعتقدات، هكذا يقول أعداء الدين، ربنا عزّ وجل قال:

(قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

(سورة المؤمنون)

الكون لله خلقا وتصرفا ومصيرًا:

لمن ؟ أي من يملكها مُلكاً حقيقياً ؟ الملك الحقيقي ألاّ يكون للمملوك وجودٌ بعيدٌ عن مالِكِهِ، ألاّ يستقل المملوك بوجودٍ عن مالكه، الإنسان وجوده مستمد من وجود الله عزّ وجل، كن فيكون، زُل فيزول، فلو

قطع عنه الإمداد لحظة لانتهى وجوده، ما هي الروح ؟

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة الإسراء)

يكون الإنسان ملء السمع والبصر، شخصية مهمة جداً، يفقد حياته صار جثة هامدة، ملقى على الأرض، ما الذي فقده ؟ فالإنسان وجوده مستمدٌ من وجود الله، فالإنسان مملوك وليس مالكاً، المالك هو الله عزّ وجل..

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران: آية " 26 ")

ومعنى مالك: يعني مَلَك مُلْك تصرف، ومُلك مصير، ومُلك خلق، أي إنه خلق ويملك التصرُّف الكامل ويملك المصير:

(قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا)

(سورة المؤمنون: آية " 84 ")

الأرض من يديرها ؟ الآية الكريمة:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا)

(سورة فاطر: آية " 41 ")

لو أنها خرجت عن مدارها لهُدِّم ما عليها، من يجعلها في مدارها الصحيح وعلى خطها المستقيم ؟

(قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ)

(سورة المؤمنون)

هذا الجواب البديهي، جواب الفطرة، لا يوجد إلا الله عزّ وجل هو المالك، هو الخالق:

(قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(سورة المؤمنون)

ما دام الله عزّ وجل هو الخالق، وهو المالك، بيده الملك، والتصرُّف، والمصير، فكيف تعصيه ؟

(قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

(قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86))

(سورة المؤمنون)

المالك هو الرّب، لأن الرب هو المدبّر، المدبّر والمالك هذان المفهومان يلتقيان، والدليل:

(قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ)

(سورة المؤمنون)

لم يقل: الله، بل قال: لله قياساً على:

(قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا)

إذاً الله سبحانه وتعالى هو:

(رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)

(سورة المؤمنون)

والعرش العظيم هو الذي منه تصدر الأوامر في تصرفات الله عزّ وجل، وله بحثٌ طويل، يعني العرش العظيم كما قال الإمام مالك: **" الاستواء معلوم، والكيف مجهول ".**

(سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة المؤمنون)

كل شيء ملكوته بيد الله عزّ وجل، الملكوت غير المُلك، الملك مع السيطرة هو الملكوت، كل شيء من يسيطر عليه سيطرةً تامة تامة ؟ الله سبحانه وتعالى، الأرض والشمس بيده، السحاب والأمطار بيده، الرياح بيده، تأتي رياح مدمرة، أعاصير سرعتها أربعمئة أو خمسمئة كيلو متر تدمر كل شيء، الإعصار والفيضان بيد من ؟ ثلاثين مليون مشرّد، ساعة فيضان، ساعة إعصار، ساعة زلازل، ساعة براكين..

(قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة المؤمنون: آية " 88 ")

القلب، الرئتان، الشرايين، الأوردة، الدّسامات، الكليتين، الكبد، البنكرياس، النخامية، الدرقية، الكظر، بيد من ؟ خلل بسيط في بعض الغدد تنتهي حياةُ الإنسان، فربنا مالك الملك:

(قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ)

لا منجي ولا مجير إلا الله:

يخلِّصك من أي مخلوق، ولا يستطيع مخلوق أن يخلصك من الله.

لذلك سأل مرة أحد الولاة أحد التابعين قال له: جاءني كتاب من يزيد بن معاوية وفيه توجيه لا يرضي الله عزّ وجل، قال له التابعي الجليل كلمة: إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيداً لا يمنعك من الله.

(يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ)

إذا كنت معه نجّاك من كل أعدائك، فإذا لم تكن معه فليس في الأرض من ينجيك منه، لذلك قالوا: **" لا ملجأ منه إلا إليه".. " كن مع الله ترى الله معك ".. " إذا كان الله معك فمن عليك وإذا كان عليك فمن معك ؟ "** أما إذا كان عليك فمن معك ؟ ليس معك أحد:

(يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ)

هو ينقذك، معنى يجير، الجار في الجاهلية له حق كبير جداً، فكان إذا إنسان استجار بإنسان حماه وحفظه مما يحفظ به نفسه، فإذا الإنسان استجار بالله عزّ وجل، قطعاً الله سبحانه وتعالى يجيره، أما إذا ابتعد عن الله عزّ وجل، وانحرف لا يجيره من الله أحد:

(سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (89) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (90))

(سورة المؤمنون)

ما الذي يسحر الإنسان ؟ ما الذي يغريه ؟ ما الذي يصرفه عن الدين ؟ ما الذي يخلب لبه ؟ الدنيا.. و **" الدنيا جيفة طلابها كلابها "..** و **" الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له "**

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

(سورة المؤمنون)

(مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ)

نفي الشريك والولد عن الله سبحانه:

حينما خلق السماوات والأرض، لم يكن معه إله أعانه، أو شاركه، ولا اتخذ ولداً بعد أن خلق السماوات والأرض، ولو كان هذا كذلك:

(إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ)

يصبح هناك تنازع، وشقاق، ومخاصمة:

(وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْض سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة المؤمنون 023 - الدرس (8-8): تفسير الآيات 93 – 118
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-09-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثامن والأخير من سورة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94) وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (95) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96))

(سورة المؤمنون)

إنه مشهد يومٍ عظيم:

هذه الآيات وحتى نهاية السورة تري مشهداً لما سيحْصُل، وهذا من رحمة الله بنا، فمن تقريب هذه الفكرة أن بعض ملوك اليابان أرسل إلى بلاد الغرب طائفة من الطلاب ليحصلوا تعليمهم العالي، بعضهم انغمس في اللهو، وما لا علاقة له بالدراسة، ولم يحرز النجاح المطلوب، فلما عاد إلى بلده شكّل ملك اليابان محكمة، وحاكم هؤلاء الطلاب وأعدمهم ؛ فلو أنه أرسل وجبة أخرى، وأعلمهم مصيرهم إن لم يدرسوا الدراسة المطلوبة فهذا الإعلام المسبق سيكون رحمة بهم.

فنحن لو أطلعنا إنساناً يُدَخِّن أريناه صوراً دقيقة لآفات الدُخان، فلو فكّر وأحكم عقله في الموضوع لامتنع من تلقاء ذاته عن شرب الدُخان مثلاً.

الآن أمامنا مجموعة آيات تُمَثِّل مشهداً من مشاهد يوم القيامة، هذا المشهد يبين وضع المذنب المُقصِّر، وكيف أن النار تلفح وجهه، وكيف يقول وهو يتلقّى العذاب، وما هي أُمْنِيّاته، فهذه المشاهد لا بدّ أن يصل إليها كل كافر، فقد عرضها ربنا في وقتٍ مبكر، ونحن في الدنيا رحمة بنا، يقول الله سبحانه وتعالى يُعَلِّمُ النبي عليه الصلاة والسلام كيف يدعو ربّه:

(قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ)

(سورة المؤمنون)

هؤلاء الكُفّار يتوعّدهم الله سبحانه وتعالى بالهلاك، فيا رب إذا أريتني بأم عيني هلاك الكفار فلا تجعلني بينهم، لا تجعلني منهم، اجعلني بعيداً عنهم لئلا يُصيبني ما توعدتهم به..

(إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ)

الإنسان أحياناً بدافع من رغبته قد يكون له قريب، قد يكون له صديق منحرف، معتدٍ، مغتصب، لـه انحرافاته الخطيرة، ويزداد قوةً، ومَنَعَةً، وشأناً و.. و.. فالإنسان يقول: يا ربي ما تفسير هذه القصة، ألا تعاقبه ؟ اطمئن، فلا بدّ أن يعاقبه الله عزّ وجل ؛ إن عاجلاً أو آجلاً، فإيّاك أن تتسرع في طلب العقاب، فربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

هذه (ثم) للتراخي، للترتيب على التراخي، وفي آية ثانية:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل)

ربنا سبحانه وتعالى إما أن يبطش بالكافر مباشرةً بعد انحرافه، وإما أن يؤخِّرَهُ لحكمةٍ بالغة، فأنت أيها المؤمن لا تستعجل عقاب الله سبحانه وتعالى، فإما أن يأتي وتراه رأي العين، وإما أن لا يأتي، ولا بدّ أن يُنزل الله عقابه بالكافر، إن لكل سيئةٍ عقاباً، وإن لكل حسنةٍ ثواباً، فالإنسان أحياناً يرى شخصاً منحرفاً، معتدياً، ظالماً يُسْرِعُ الله سبحانه وتعالى، ويعاقبه عقاباً أليماً ويبطش به، هذه تُغَطِّيها تلك الآية:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة النمل)

وأحياناً أُخرى قد ينحرف الإنسان، وقد يطغى، وقد يبغي، وقد يأخذ ما ليس له، وقد يعتدي، وقد يغتصب، وقد يستعلي، وقد يتكبّر، والله سبحانه وتعالى يُرْخي له الحبل، ولكنه إذا أخذه لم يُفْلِتْهُ..

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

(سورة البروج)

فأنت أيها المؤمن لا ينبغي أن تتمنى، ولا أن تنتظر، ولا أن تترقب، ولا أن تستعجل، من صفات المؤمن أنه لا يستعجل ما أخّره الله، ولا يستبطئ ما عَجّله الله سبحانه وتعالى، أنت عبد.

أَعْظِمْ به مِن دعاءٍ !!!

فالله سبحانه وتعالى يُعَلِّمُ النبي عليه الصلاة والسلام، يعلمه أن يدعو بهذا الدعاء قال:

(قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (93) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (94))

(سورة المؤمنون)

أي يا رب إذا أردت أن تُنْزِل عقابك بهؤلاء المنحرفين لا تجعلني بينهم لئلا يُصيبَني ما يصيبهم، وطبعاً هذا تحصيل حاصل، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

(وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

قدرة الله لا يعتريها عجزٌ:

الوعد الإلهي كأنَّه واقع، ولكن كما يقولون قضية زمن..

(وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ)

الإنسان قائم بالله عزّ وجل، لو أن الله سبحانه وتعالى قَطَعَ عنه الإمداد لحظةً واحدة لأصبح جثةً هامدة، لو أنه جَمّدَ نقطةً من دمٍ في بعض شرايين دماغه لأصبح مشلولاً، في مكانٍ آخر لأصبح مجنوناً، في مكانٍ ثالث لفقد السمع، في مكان رابع لفقد البصر، في مكان خامس لفقد الذاكرة، فالإنسان ضعيف.

أخ كريم توفّي ـ رحمه الله تعالى ـ خرج من معمله إلى بيته لم يعرف أين بيته، بقي ساعة ونصف يجوب في سيارته أطراف المدينة إلى أن ذهب إلى بيت ابنه قال له: يا بني أين بيتي ؟ يوجد فقد ذاكرة كُلي، وفقد ذاكرة جُزئي، فالإنسان تحت ألطاف الله عزّ وجل، فأي جهاز، أو أي غدة، أو أي مكان في جسمك معرض لنمو عشـوائي ـ مرض خبيث ـ أو قصور مفاجئ في وظيفة الكليتين، أمامه متاعب لا حصر لها، فالإنسان وأعضاؤه بيد الله عزّ وجل، وكذا أهله، وأولاده، وماله كلُّ شيءٍ بيد الله عزّ وجل..

(وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (95) ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

من صفات المؤمن: مقابلة السيئة بالإحسان:

هذا حال المؤمن يُقابل السيّئة بالإحسان، يقابل الإساءة بالإحسان..

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)

(سورة المؤمنون: آية " 96 ")

في آية أخرى:

(فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت)

أحد الأصحاب الكرام تكلّم معه رجل بكلامٍ مُقْذع فقال ببساطةٍ وبهدوءٍ: يا أخي إن كنت مخطئاً غفر الله لي، وإن كنت أنت غفر الله لك.

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)

(سورة المؤمنون)

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (133) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنَ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ(134))

(سورة آل عمران)

يجب أن تَكْظُمُ غيظك، وأن تعفو عن الناس وأن تُحسن إليهم..

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)

نحن أعلم بما يصفون

هؤلاء المعارضون، هؤلاء المشكِّكون، هؤلاء الجاحدون الذي يصدُّون عن سبيل الله، يحيكون لك ما يحيكون، يدبِّرون ما يدبرون، يمكرون ما يمكرون هؤلاء نعلمهم نحن، أعلم بك منهم، كفاك طمأنينة أن الله يعلم ما يفعلون، أن الله محيطٌ بأفعالهم، محيطٌ بمكرهم، محيطٌ بكيدهم، يدُ الله فوق أيديهم.

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ)

بما يصفونك يا محمد، أنت رسول، ويصفونك بأنَّك لست برسول، معلمٌ مجنون، ساحرٌ، كاهنٌ، شاعرٌ..

(نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (96) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97))

(سورة المؤمنون)

معنى: همزات الشياطين:

الهَمْز بعضهم قال: الوسوسة، وبعضهم قال: ساعة الغضب التي يُصْبِحُ فيها الإنسان كالحيوان بدافعٍ من وساوس الشياطين.

(وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (98))

الاستعاذة بالله لتلافي وسوسة الشيطان:

ليس للإنسان من طريقةٍ يتلافى فيها وساوس الشياطين إلا أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هذه أجدى دواء للوساوس، كلّما نابك وسوسةٌ قل: أعوذ بالله من من الشيطان الرجيم، اقرأ المعوذتين..

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5))

(سورة الفلق)

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6))

(سورة الناس)

الاستعاذة بالله، طبعاً لا يكفي أن تقول بلسانك أعوذ بالله الأمر أعقد من ذلك، لا بدّ من أن تلتجئ إلى الله، لا بدّ أن تقبل عليه، لا بدّ من أن تحتمي بجنابه، لا بدّ من أن تستجير به، إذا فعلت ذلك أجارك الله، وأعاذك، وأنقذك، وأغاثك.

مِن مشاهد يوم القيامة:

سكرات الموت:

أما مشاهد يوم القيامة فقد بدأت الآن.

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ)

بعضهم قال: إن الإنسان إذا جاءه الموت لا بدّ أن يعرف مقامه في الآخرة، إما أن يرى مقامه في جنةٍ عرضها السماوات والأرض، وإما أن يرى مكانه في النار، في دركات النار، لذلك حينما يُشْرِفُ الإنسان على الموت يعرف مكانه في الآخرة، إما في جنةٍ يدوم نعيمها ؛ أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ)

(سورة المؤمنون: آية " 99 ")

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ)

(سورة الجمعة: آية " 8 ")

تفرون منه.. أي كأنّه يلحقكم.. فإنّه ملاقيكم، فالإنسان أحياناً يفاجأ، يكون متوقعاً أن يموت من هذا المرض، يعتني بصحته عناية بالغة، فإذا هو يفاجأ بأنه يموت بحادث، وهذا وقع كثيراً، فالإنسان لا يعرف كيف يموت، يا ترى يموت بمرض، بحادث، الله أعلم..

ولست أبالي، حين أُقتل مسلماً على   أي جنبٍ ألقى في الله مصرعي

***

من لم يمُت بالسيف مات بغيره   تنـوّعت الأسـباب والمـوت واحد

***

أجمل ساعةٍ في حياة المؤمن ساعة لقاء ربه:

حينما يكون الإنسان مع الله عزّ وجل فهو في سعادةٍ ما بعدها سعادة، النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الغزوات تفقّد أحد أصحابه، واسمه الربيع فقال: **أين الربيع،** فندب أحد أصحابه يبحث عنه في أرض المعركة، أحد أصحاب النبي الكريم، توجّه إلى أرض المعركة يبحث عن الربيع بين القتلى والجرحى، فإذا هو بين القتلى لكنه لم يمت بعد أي في النزع الأخير، فقال: **إن النبي عليه الصلاة والسلام يُقْرِئك السلام، وقد بعثني أبحث عنك، فهل أنت يا ربيع بين الأموات أم بين الأحياء ؟** فقال الربيع: **إنني من الأموات ولكن أقرئ رسول الله مني السلام وقل له: جزاك الله عنّا خير ما جزى نبياً عن أمته.**

هذه حاله، هو في أرض المعركة يلقى النَزْعَ الأخير وحاله من أسعد الحالات، فالإنسان ليكن عمله في الدنيا عملاً طيباً بحيث لو جاءه الموت، قال كما قال سيدنا بلالٌ رضي الله عنه، حينما قالت له ابنته: **وا كربتاه يا أبت** قال: **لا كرب على أبيك بعد اليوم غداً نلقى الأحبة ؛ محمداً وصحبه.**

أنا الذي أتصوره أن أجمل ساعةٍ من ساعات حياة المؤمن حينما يَلْقى الله عزّ وجل.. **بل الرفيق الأعلى..** ينبغي أن يكون هذا اليوم هو اليوم الموعود، هو اليوم المنتظر، لذلك قالوا: **الموت تحفةُ المؤمن..**

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ)

الموت هو اليقين:

قال ربنا عزّ وجل:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

(سورة الحجر)

اليقين هو الموت ولم يقل الله عزّ وجل: واعبد ربك حتى يأتيك الموت، قال:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

الموت سُمِّيَ يقيناً لتَيَقُّن وقوعه.. كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، الليل مهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر، والعمر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر..

لذلك البطل هو الذي يَعُدّ لهذه الساعة العُدّة، هو الذي يعمل الصالحات، هو الذي يستقيم على أمر الله، هو الذي يتعرّف إلى الله في الرّخاء، هو الذي يَحْضُر مجالس العلم ليتعرف إلى الله ويطبّق ما فيها من قواعد، من شرائع، من مواعظ، من حكم، من أوامر، من نواهٍ.

سمِّي الموت يقيناً لشيءٍ آخر، هو أن كل شيء سمعته في الدنيا يصبح عند الموت يقيناً، نقول الآن: في جنة، وفي نار، وفي حساب، في صراط، وفي عذاب، وفي ملائكة، وفي زبانية، وفي جهَنَّم، هذا الكلام كله من الغيبيات، عند الموت تصبح هذه الأخبار حقائق، سمي الموت يقيناً لتيقُّن وقوعه، وسمي الموت يقيناً لأن كل شيءٍ فيه يصبح يقيناً،

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

(سورة الإسراء)

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق)

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ)

(سورة المؤمنون)

ليتني أعود، ولاتَ ساعة مندَم:

لآن نَدم..

(أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ)

(سورة الزمر: آية " 56 ")

ليتني أعود إلى الدنيا فأستقيم على أمر الله، يا ليتني أعود إلى الدنيا فأعمل الصالحات، يا ليتني أعود إلى الدنيا فأتعلّم كتاب الله، يا ليتني أعود إلى الدنيا فأجعل بيتي إسلامياً كما أراد الله عزّ وجل، يا ليتني أعود إلى الدنيا لأحرر دخلي من الحرام، يا ليتني أعود إلى الدنيا لأنفق المال فيما يُرضي الله..

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

تركت أموالاً يا ربِّ، لعلي أعود إلى الدنيا فأنفقها في طاعتك، تركتها لأولادي، فأولادي صرفوها، وأنفقوها في معصية الله، فأغلب الظن أن الإنسان إذا ترك أموالاً طائلة، ولم يترك ذرية صالحة أغلب الظن أن هذه الأموال تُنْفَق على المعاصي، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يصف المؤمن، حينما يوضع في النعش بأن روحه ترفرف فوق النعش وتقول: **" يا أهلي يا ولدي، لا تلعبَن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم، والتبعةُ علي "..**

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ)

يقول بعضهم: إن الميّت يُخاطب الملائكة الذين قبضوا روحه، وكلمة رب اعتراضية، كما لو أن الأب أخذ ابنه ليضربه فالطفل ينادي أمه.. ينادي إنسان آخر يظن أنه سَيُخَلِّصه.. قال: أي يا رب، أرجعوني أيها الملائكة كما كنت في الدنيا..

(لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ)

لعلي أعمل صالحا فيما تركت

لعل هذا المال الذي تركته أنفقه في طاعة الله، لعل هذا البيت الذي تركته أُسكنه من يرضي الله عزّ وجل ـ فطبعاً في دخول كبيرة جداً من البيوت، لكن لا ترضي الله عزّ وجل، كل يوم ثلاثة آلاف ليرة، لو أجرته إلى مؤمن ـ دخول لا ترضي الله عزّ وجل، وتجارات لا ترضي الله، وحفلات لا ترضي الله، وسـهرات لا ترضي الله..

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا)

الجواب زجر وردع وخزي:

كلاّ أداة نفيٍ وردعٍ، هذا لن يحصل، هذا بعد فوات الأوان، هذا لن يكون..

(كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا)

ي أن هذه الكلمة التي قالها لا تُقَدِّمُ ولا تؤخِّر، ولا تنفع، ولا تُجدي، ولا تؤثِّر، وليس لها أي مفعول، إنها كلمة هو قائلها، إذا كان ساقوا مجرماً إلى الإعدام بعد أن صدر الحكم بإعدامه، وتصدّق الحكم، وهو مرتكب جريمة، إذا قال: خلصوني، سامحوني، اتركوني، نقول له: هذه كلمة لا تقدم ولا تؤخر، ولا تجدي، ولا تفعل شيئاً إنها كلمةٌ هو قائلها، فالإنسان لا ينبغي أن يُهْمِل أمر دينه في الدنيا حتى يأتي عليه يوم يتمنّى أن يرجع إلى الدنيا ويقال له:

(كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا)

هذه هي المشكلة، نحن الآن في الحياة الدنيا، ومادام القلب ينبض فالباب مفتوح، باب التوبة مفتوح، باب الرُقِي مفتوح، باب المغفرة مفتوح، باب الإصلاح مفتوح، كل شيءٍ مفتوح الآن، حتى إذا جاء الموت أُغلقت الأبواب، وخُتِمَت الأعمال، وجَفّت الصحف، ورفعت الأقلام، وانتهى كل شيء، وأصبح الإنسان رهينَ عمله..

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (38) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (39) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (40) عَنْ الْمُجْرِمِينَ (41))

(سورة المدثر)

(كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة المؤمنون)

حياة البرزخ:

هذا البرزخ..

(النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدّ الْعَذَابِ)

(سورة غافر)

من ستة آلاف عام، وفي كل عام ثلاثمئة وخمسة وستين يوما، وكل يوم مرتان، يُعْرضون على النار..

(وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدّ الْعَذَابِ)

هذا هو البرزخ، البرزخ إما أن يكون روضة من رياض الجنة، وإما أن يكون حفرةً من حُفَرِ النار، الإنسان بين الموت وبين يوم القيامة هناك مرحلةٌ تسَمَّى البرزخ، لكن بعضهم قال: يا ترى هو من ورائهم أم من أمامهم ؟ المفروض من أمامهم البرزخ، الآن مات وأمامه برزخ، قال بعضهم: كلمة من ورائهم تعني الإحاطة..

(وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلّ سَفِينَةٍ غَصْبًا)

(سورة الكهف)

أي محاطين، بعد أن يموت الإنسان لا يوجد حل آخر.

(وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ)

أي محيطٌ بهم برزخ إلى يوم يبعثون.

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

(سورة المؤمنون)

نسَبَ يومَ القيامة ولا خُلّة ولا سؤال:

أي أن هذه النفوس التي خلقها الله سبحانه وتعالى لحكمةٍ أرادها، جعل نظام الأسرة، جعل نظام الزوجين، هذا أبٌ، وهذه أم، وهؤلاء أولادهما، الأولاد يتزوجون، هذا صهر، وهذه صهر، وهذا ابن أخ، وهذا ابن أخت، وهذه عمة، وهذه خالة، هذه العلائق النسبيّة جعلها الله في الدنيا كي يكتسب الإنسان بها العمل الصالح، يكون الطفل صغيراً يحتاج إلى رعاية، إلى عناية، إلى توجيه، إلى تربية، فأن يكون للإنسان أب، وأم، وزوجة وأخ، وأخت، وعم، وخال، وعمة، وخالة، وابن أخ، وابن أخت، وابن خالة، وابن عمّة، هذه العلاقات النسبية جعلها الله في الدنيا كي نتواصل، كي نتراحم، كي نكسب الأعمال الصالحة، كي يُعين الابن أباه حينما يكبر، وكي يعين الأب ابنه حينما يكون صغيراً، لكن انتهى العمل بقي الجزاء، لذلك ليس في يوم القيامة جزاء، ليس هناك أنساب.

يبدو أن السيدة عائشة رضي الله عنها، سألت النبي عليه الصلاة والسلام قالت: **أيعرف بعضنا بعضاً يوم القيامة** ؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا يا أم المؤمنين، إن أحداً لا يعرف أحداً يوم القيامة..))

لكن فيما سوى هذه المواضع الثلاث ؛ على الصراط، وإذا الصحف نشرت، وعند الميزان، في هذه المواقف الثلاثة لهول الموقف لا يعرف أحدٌ أحداً يوم القيامة.. وفيما سوى ذلك ربما وقعت عين الأم على ابنها، تقول له: يا بني جعلت لك صدري سقاءً، وبطني وعاءً، وحجري وطاءً فهل من حسنةٍ يعود عليّ خيرها اليوم ؟ فيقول: يا أماه ليتني أستطيع ذلك، إنما أشكو مما أنت منه تشكين..

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ)

لا أنساب، ولا تساؤل، هنا التساؤل بمعنى السؤال، الإنسان أحياناً يسأل أباه أن يعطيه مالاً، والأب أحياناً يسأل ابنه أن يعطيه مالاً، والأخ يسأل أخاه بيتاً..

(فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (101) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ)

(سورة المؤمنون)

الناس يوم القيامة فريقان:

الفريق الأول: فمن ثقلت موازينه:

أعماله الطيبة كثيرة، له استقامته في الدنيا، له أعمال الخير، يدلُّ على الخير، يتصدّق بماله، يدل الضال في أرض الضلالة، يفرغ من دلوه في إناء المستسقي، يميط الأذى عن الطريق، يعود المريض، ينفق من ماله، يرد لهفة الملهوف، مثل هؤلاء الأشخاص موازينهم ثقيلة، دعا إلى الله، جعل الله هداية بعض الناس على يديه، هذه الدعوة تحتاج إلى وقتٍ، وإلى جهدٍ، وإلى صبرٍ، وإلى تَحَمُّلٍ، هذه الأعمال الطيبة تجعل موازينه ثقيلة:

(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

ي إنهم أفلحوا في الدنيا، وحققوا الهدف من خلقهم، وفازوا بها، وجعلوها جسراً إلى الآخرة:

(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 103 ")

الفريق الثاني: ومن خفت موازينه:

أكبر خسارةٍ أن تخسر نفسك.. رأس مالك نفسك، فإذا خسرتها خسرت كل شيء، وإذا ربحتها ربحت كل شيء، تربح نفسك إذا عرّفتها بربها، تربح نفسك إذا دللتها على الله عزّ وجل، إذا ألزمتها سبيل الاستقامة، إذا حملتها على فعل الخيرات، هكذا تربح نفسك، وإلا تخسرها:

(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ)

أعماله قليلة، كل وقته وجهده لمصالحه، لكسب المال، للتمتع بالدنيا، لتوسعة البيت، لتزيينه، للذهاب إلى النزهات، لإقامة الولائم، للانغماس في الملذّات، لا يعنى بأمر الله كثيراً، لا يهتم أكان في طاعةٍ أم في معصية ؟ أكان فيما يرضي الله أم فيما يبغضه ؟ لكن الذي يعنيه أنه يحقق رغبته، يلبّي شهوته، يُمتع نفسه، يقول لك: الدنيا لا يوجد فيها شيء، خذ منها قدر ما تستطيع، هكذا شعار بعض الناس، وكما قال الشاعر:

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي

****

متع نفسك، الآن أنت شاب ولك الدنيا بلذائذها، ولا تضيع مباهجها، وعندما تصل إلى الله يفرجها الله ـ يقولها ساخراً ـ بعض الناس هكذا يقولون..

(فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ(103))

(سورة المؤمنون)

الإنسان يخسر بيتا أحياناً، يخسر سيارة، أحياناً يخسر رأس ماله كله، أحياناً يخسر أولاده، هذه مصائب كثيرة، لكن رأس مالك أنت، فأنت رأس مالك فإذا خسرت نفسك أعدّ الله لك حياةً أبديةٍ فخسرت هذه الحياة الأبدية وكان المكان في عذابٍ أليم، هذه أكبر خسارة، لذلك:

((الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني))

(الترمذي، ابن ماجه عن شداد بن أوس)

(وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ)

مشهد عظيم: لفحة من عذاب جهنم:

تأتيه لفحة من لهيب النار:

(وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)

(سورة المؤمنون)

إذا نظرت إلى رأس غنم مشوي تراه مكَشِّراً، وأسنانه ظاهرة، حينما احترق جلده، انكمشت عضلات جلده فكَشّر عن أنيابه.

معنى: كالحون:

معنى كالح: حينما تأتيه لفحة النار ينكمش جلده فتظهر أسنانه بشكلٍ قبيح:

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ)

صورة من الخزي: عتاب الله للكافرين:

اسمعوا العتاب الإلهي:

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

(سورة المؤمنون: آية " 105 ")

آيات القرآن ألم تكن تتلى علينا ؟ بلى والله، تتلى علينا صباحاً ومساءً، القرآن أليس بين أيدينا ؟ ألا نسمعه صباح مساء ؟ ألم نسمع تفسيره ؟ ما موقفنا منه ؟

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

الآيات الكونية أليست ظاهرةً جلية ؟ هذه الشمس من أوقدها ؟ وهذا القمر من جعله في هذه المعارج والمواقع ؟ وهذه الأمطار من أرسلها ؟ وهذه الرياح من صرّفها ؟ وهذه البحار من أوجدها ؟ وتلك الجبال من أقامها ؟ وهذه الحيوانات من خلقها ؟ وهذا الطعام الذي تأكله من أعدّه لك ؟

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ)

عندنا آيات كونية، ويوجد آيات قرآنية، فالآيات الكونية تتلو نفسها علينا صباح مساء، هذا كأس الماء هو آية من آيات الله، طفلك الذي أمامك آيةٌ من آيات الله، الفاكهة التي تأكلها آيةٌ من آيات الله، الهواء الذي تستنشقه آية من آيات الله، وآيات القرآن الكريم:

(أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ)

(سورة المؤمنون)

يقول لك: أخي هذا القرآن للأموات وليس للأحياء، يقرأ على الأموات، وفي مناسبات الموت، الآن دعنا في سرور، إذا ذكرت لهم آية أو حديثاً عن الآخرة تشاءموا، دعنا في سرور..

(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا)

(سورة المؤمنون: آية " 106 ")

الاعتراف سيد الأدلة: غلبتْ علينا شِقوتنا ومنا قوما ضالين:

الشِقْوَةَ أضيفت إليهم، فالشقوة هنا تعني الشهوة، سماها الله شقوة لأن الشهوة تؤدي إلى الشقوة: " ألا يا ربّ شهوة ساعةٍ أورثت حزناً طويلاً".. فلأن هذه الشهوة تؤدي إلى الشِقوة سماها الله شِقوة:

(غَلَبَتْ عَلَيْنَا)

إننا آثرنا شهواتنا على طاعة ربنا، نحن مخيّرون، اخترنا شهواتنا على طاعة ربنا، آثرنا حظوظ أنفسنا، آثرنا المُتَع الرخيصة يا رب، هكذا..

(غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ)

(سورة المؤمنون)

لم نبحث عن الحق، الحق كان جلياً، كان واضحاً ولكن تعامينا عنه، ما بحثنا عنه، لم نعبأ به، بحثنا عن الدنيا، عن الدرهم والدينار:

(وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107))

(سورة المؤمنون)

لا كلام ولا اعتذار:

إذا طلب منك طلباً لا يُعْقَل أن يحقق، لا تقول له: لا، بل تقول له: اخرج من هنا:

(قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ)

(سورة المؤمنون)

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ)

(سورة الأنبياء)

ما هذه أخرجنا منها ؟ كنتم في الدنيا وعمرتم فيها عمراً كافياً:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: آية " 37 ")

عمرت في الدنيا ثمانين عاماً، سبعين عاماً، ستين عاماً، بخريفها وصيفها وشتائها وربيعها، ستون مرة أكلت فواكه الصيف، وستون مرة أكلت فواكه الشتاء، ورأيت الرياح، والأمطار، والثلوج، والربيع،

والخريف، وجاءك أولاد، كبروا أولادك، وزوّجتهم، وجاء الأحفاد، عُمِّرت ما يكفي للتذكّر..

(وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر)

الله عزّ وجل أرسل الأنبياء، وأنزل القرآن الكريم، وسخّر العلماء، وأرسل بعض المصائب حتى يُذكِّرنا، وجعل الشيب، وجعل ضعف البصر، وضعف السمع، وضعف القوى، يقول لك: أنا لم أكن هكذا، كنت أنشط من ذلك، ربنا عزّ وجل بأسلوب لطيف قال لك: يا عبدي اللقاء قرُب فانتبه، هيئ نفسك:

(قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107))

احذر الطريق مسدود:

هذا كلام لا يُجْدي، تكلمنا من درسين سابقين: لا تصل إلى طريق مسدود يكون حائلاً بينك وبين الله، قل:

(أَخْرِجْنَا مِنْهَا)

(سورة المؤمنون: آية " 107 ")

وقل:

(رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

(سورة المؤمنون)

وقل:

(يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنعام: آية " 27 ")

وقل:

(يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنْ السَّاخِرِينَ)

(سورة الزمر: آية " 56 ")

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ)

(سورة الفرقان: آية " 27 ")

هذا الكلام لا يجدي:

(رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108))

(سورة المؤمنون)

يعني ابتعدوا، ولا تكلموني:

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110))

(سورة المؤمنون)

الجزاء من جنس العمل: فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ

أحياناً ينشأ الشاب في طاعة الله فيسخر منه إخوانه، أصدقاؤه، أقاربه، قد يسخر منه أبوه وإخوته في البيت، يقولون له: تَشَيَخ، لم يعد يفهم شيئاً، ابتعد عن سهراتنا، طمس قلبه، لم يعد يرى شيئاً:

(وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)

كنتم تظنون أنكم أنتم الأذكياء وهم الأغبياء، كنتم تظنون أنكم أنتم الرابحون وهم الخاسرون، كنتم تظنون أنكم أنتم الفائزون، وهم المخففون، كنتم تظنون أنكم أنتم الذين تعرفون كيف تكون الحياة وهم لا يعرفون:

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110))

كانت السُخْرِيَة عليهم قد أنستكم ذكر الله عزّ وجل، تمضون أوقاتكم في الحديث عنهم، يقول لك: محدود، وتقولون ورعهم غباء، وإحجامهم عن مباهج الدنيا ضيق أفق، وخوفهم من الله عزّ وجل حالة مرضية، واستقامتهم تشدد..

(وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ)

وهذا يحصل، المؤمن دائماً أهل الكفر والضلال والبغي والعدوان يسخرون منه، لذلك في بعض الأحاديث:

((اطلعت على أهل الجنة فرأيت عامة أهلها من البُلْه))

(الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف)

والحديث غريب، لكن بعضهم وجهه توجيهاً رائعاً، أي هؤلاء الذين أحجموا عن المال الحرام خوفاً من الله عزّ وجل هم في نظر الناس بُلْه، الذين أحجموا عن المال الحرام خوفاً من الواحد الديّان يتهمهم الناس بأنهم بُله، إنهم بُلَهٌ في نظر البُلْه:

(وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111))

(سورة المؤمنون)

هؤلاء الذين انغمسوا في ملذات الدنيا إلى قمة رؤوسهم كانوا خاسرين، هؤلاء الذين أقبلوا على الدِرهم والدينار، وعبدوا شهواتهم من دون الله هم الخاسرون، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

(سورة المطففين)

(قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ)

(سورة المؤمنون)

سؤال: كَم لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سنين:

ربنا عزّ وجل يسأل، هذا سؤال دقيق جداً، لو فرضنا سمعت واحداً دخل إلى بيت لكي يسرق، ثم فوجئ بصاحب البيت، فنشبت معركة بينهما فقتل صاحب البيت، فأُخذ للمحاكمة، وحكم عليه بالإعدام، أنت تقول: يا ترى ما هو المبلغ الذي سرقه ؟ يقول لك، والله إنه خمسون ليرة، فهل من المعقول أن يضحي بحياته كلها من أجل خمسين ليرة ؟ ما أغباه، ومهما كان المبلغ كبيراً فإنه خاسر، هذه الآخرة الأبدية، هذه الحياة السرمدية، هذه السعادة الكبرى، هذه الجنّة التي عرضها السماوات والأرض، ضيعتموها من أجل أيامٍ معدوداتٍ في الدنيا:

(قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ)

الجواب: يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يومٍ

اسمعوا هذا الجواب، عاش ثلاثًا وثمانين سنة:

(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ)

(سورة المؤمنون: آية " 113 ")

تَمُرُّ الدنيا على الإنسان يوم القيامة وكأنها يومٌ، كل واحد له عمر، تقول له: يا أخي كم هو عمرك ؟ يقول: ثلاثة وأربعين، كيف مضوا ؟ يجيبك: والله البارحة كنت طالباً صغيراً، الذي في الأربعين من العمر يقول لك: البارحة كنت صغيراً، والذي في الثلاثين يقول القول نفسه، والذي في الخمسين كذلك، في الدنيا تمضي الأيام سريعاً كلمح البصر، أما في الآخرة كل العُمُر يمضي، وكأنّه يومٌ أو بعض يوم:

(قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ)

(سورة المؤمنون)

اسأل الملائكة الذين وكِلوا بعَدِّ الأيام، يأتي الجواب:

(قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً)

(سورة المؤمنون: آية " 114 ")

اعقلوها جيدًا: ما لبثتم إلا قليلا

هذه إن حرف نفي، أي ما لبثتم إلا قليلاً، أي أذهبتم طيباتكم في الحياة الدنيا، أي ضَحَّيتم بهذه الآخرة العظيمة من أجل أيامٍ معدودةٍ:

(قالَ إنْ لَبِثْتُمْ إلّا قلِيلاً لَوْ أنّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

لو أنكم تعلمون حقيقة الدنيا لما استهلكتم الوقت في تُرُّهات الأباطيل، ولا في سفاسف الأمور، لو كنتم تعلمون حقيقة الدنيا، والله الذي لا إله إلا هو، حتى المؤمن إذا واجه الموت فإنه سيندم على ساعةٍ مضت لم يذكر الله فيها، أثمن شيءٍ هو الوقت، هذا الوقت رأس مالك.

ما مضى فات والمؤَمّل غيب ولك الساعة التي أنت فيها

***

لذلك احرصوا على الوقت، استهلكوا الوقت فيما يرضي الله عزّ وجل:

((اغتنم خمساً قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك، وغناك قبل فقرك))

(الجامع الصغير عن ابن عباس بسند صحيح)

هذه الخمس اغتنمها قبل الخمس.

(قالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أوْ بَعْضَ يَوْمٍ فاسْألِ الْعَادّينَ (113) قالَ إنْ لَبِثْتُمْ إلّا قلِيلاً لَوْ أنّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(114))

الآن السؤال:

(أفَحَسِبْتُمْ أنّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

(سورة المؤمنون: آية " 115 ")

أفَحَسِبْتُمْ أنّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا

يعني هكذا الدنيا فيها قوي وفيها ضعيف، هذا القوي أكل مال الضعيف وانتهى الأمر ؟ لا يوجد شيء بعد هذا ؟ لا يوجد حساب ؟ لا يوجد جزاء ؟ لا توجد محاكمة ؟ لا يوجد ثواب ؟ لا يوجد عقاب ؟ لا يوجد يوم آخر ؟ هكذا تنتهي الحياة بالموت ولا شيء بعد الموت ؟ هكذا تظنون؟

(أفَحَسِبْتُمْ أنّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً)

فيكم القوي ولا يُحاسب ؟ وفيكم الضعيف ولا يُعطى حقه من القوي؟ فيكم الغني الذي يبدد أمواله على شهواته ؟ وفيكم الفقير الذي يبحث عن طعامٍ فلا يجده وهكذا ينتهي الأمر ؟

أحد أسباب الإيمان باليوم الآخر أن اسم الحق لا يتحقق إلا بعد الموت تحقُّقاً كاملاً:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ)

(سورة المؤمنون)

تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا:

تعالى عن أن يخلق الخلق عبثاً.

تعالى عن أن يخلقنا بلا حساب.

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة)

لا توجد مسؤولية ؟ وعدتها إن سجلت لك هذا البيت باسمك ألا تطلقها، فلما سجلته طلّقتها، وليس هناك إلهٌ يحاسب؟

إذا جـار الأمـيـرُ و حـاجـباه   وقاضي الأرض أسرفَ بالـقضاءِ

فـويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ لقاضــي   لقاضي الأرض من قاضي السماءِ

* * *

(قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (112) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ (113) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (114) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (115) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ)

(سورة المؤمنون)

تعالى عن أن يخلق الخلق عبثاً، لابدّ من حساب، لابدّ من جزاء، لابدّ من دينونة، لابدّ أن يقف الناس جميعاً ليحاسبوا عن أعمالهم:

(لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (116) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ)

(سورة المؤمنون)

معنى: لا برهان له به:

هذه (لا برهان له به) سمّاها علماء البلاغة قيدا توضيحيا، وليس قيداً احترازياً، أي لا يمكن أن يكون هناك برهانٌ لإلهٍ آخر، لكن ومن يدعو مع الله إلهاً آخر فإنه من شأن هذه الدعوى الباطلة أنه لا برهان عليه:

(فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

(سورة المؤمنون: آية " 117 ")

أحياناً تحاول أن تفهم حل قضية يقال لك: هذا الموضوع عند فلان، وليس في إمكان أحدٍ أن يَحُلَّه إلا هو، فهذا الموضوع الحساب عند الله وحده:

(وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

يعني سوف يأتي الناس رب العالمين ؛ وسوف يحاسبهم على أعمالهم كلِها ؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، أي:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26))

(سورة الغاشية)

(إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)

(سورة المؤمنون)

الكافر لا يُفْلِح مهما قدم وأخر، مهما علا، مهما طغى وبغى، فإنه لا يفلح:

(وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)

(سورة المؤمنون)

اقتران المغفرة بالرحمة:

يعلِّمنا ربنا سبحانه وتعالى كيف ندعوه:

(وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ)

المغفرة للسيئات، والرحمة في التجلِّيات:

(وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (01-23): تفسير الآيات 1 – 5

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-09-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة النور.

مكانة سورة النور:

يجب أن تعلموا أن لهذه السورة مكانة كبيرة في القرآن الكريم، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يخصها بعناية فائقة، وسيدنا عمر رضي الله عنه كتب إلى أهل الكوفة: **<< عَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّورِ>>.**

[سنن سعيد بن منصور، وذكره البيهقي مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن مجاهد]

تفسير كلمة (سورة) ودلالاتها:

أما كلمة (سورة) فهي مؤنث كلمة سور، والسور هو الحائط، وكأن السورة مجموعة من آيات كريمة تحوم حول موضوع واحد، فسور القرآن وحدات ذات موضوع واحد، وحدات معنوية، فيبدو أن هذه السورة في مجملها تتحدث عن موضوع دقيق هو موضوع التستر والعفاف، لأن المرأة نصف المجتمع، هي نصفه، ولكن من نوع خاص، هذا النصف متفجر فيما لو اضطربت علاقتها مع الرجل، أو تفلتت من الدين، فإن لم تكن وَفق التشريع الإلهي لانفجرت، وفجرت المجتمع، لذلك ربما كان أساس فساد المجتمع فساد المرأة، وربما سبّب فساد المرأة فساد مجتمع بأكمله، فهي نصف المجتمع، ولكنه النصف المتفجر لو تفلت أو لم ينضبط، لو خرج عن النطاق الصحيح لكان كارثة شاملة مدمرة، لذلك جعل ربنا عز وجل هذه السورة في مجملها تحوم حول موضوع واحد، ألا وهو علاقة الرجل بالمرأة.

حكمة خلق شهوة المرأة:

في أصل الخلق خلقت المرأة على ما هي عليه ليرقى بها الرجل إلى رب السماوات والأرض، خلقت امرأة وأودع الله في الرجل حبّها، هذا الحب هو ما يعبر عنه بالشهوة، والشهوة هي الطريق التي توصلنا إلى الله عز وجل.

نحن نرقى بالشهوات إلى رب الأرض والسماوات، لو لم يكن في قلب الإنسان هذا النازع، وهذا الميل، فما قيمة الاستقامة ؟ لا قيمة لها، لو أن الإنسان لا يحب، ولا يكره، ولا يغضب، ولا يبغض، ولا يتمنى، ولا يرجو، لو كان الإنسان كقطعة من خشب كيف يرقى إلى الله، قطعة الخشب كيف ترقى إلى الله، لكن الله سبحانه وتعالى ركّب في الإنسان شهوات من أجل أن يرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، ولولا هذه الشهوات لما ارتقى إلى الله و الله سبحانه وتعالى يقول:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)

[سورة آل عمران: الآية14]

هذا التزيين من أجل أن تكف عن الحرام، وأن تسير في طريق الحلال، إن كففت عن الحرام ارتقيت إلى الله، وإن أخذت الحلال ارتقيت إلى الله.

إذاً الشهوة سلّمٌ إلى الله، يجب أن توقن حق اليقين أن هذه الشهوات طريقنا إلى الله، إنك إذا واجهت امرأة متهتكة، وغضضت بصرك عنها خوفا من الله، وطمعا في رضوانه، إنك بهذا ترقى، فإذا تفضل الله عليك، وأكرمك بزوجة صالحة إذا نظرتَ إليها سرتك، وإذا غبت عنها حفظتك، وإذا أمرتها أطاعتك، ارتقيت إلى الله من نوع آخر، في الحالة الأولى ارتقيت إليه صابرا، وفي الحالة الثانية ارتقيت إليه شاكرا.

دعوة صريحة على تعلّم سورة النور وتعليمها للنساء:

إذاً هذه السورة ألح عليكم، وأتمنى عليكم أن تعلموها نساءكم، إما تعلموها نساءكم أو ادعوهن إلى أن يحضرن هذه الدروس التي تتعلق بالمرأة، إنها نصف المجتمع، إذا صلحت صلح المجتمع، وإذا فسدت فسد المجتمع، لأن العلاقة بين المرأة والرجل علاقة إيجابية في ظل التشريع، ومدمرة في ظل التفلت، كعلاقة البنزين مع السيارة، علاقة إيجابية، لولا هذا الوقود لما تحركت السيارة، إنها تتحرك بهذا الوقود، لكن بشرط أن يكون هذا الوقود في مستودعه، وأن يسير في الأنابيب المحكمة إلى المحرك، إلى الموزع، إلى غرف الانفجار، إنه ينفجر، ولكن يولد حركة تنقلك من مكان إلى مكان، فأصبح هذا الوقود السائل نعمة عظمى تقلك من مكان إلى مكان، فإذا خرج هذا الوقود من مستودعه، وخرج من أنابيبه، وصب فوق السيارة، وجاءته شرارة أحرقها، إذا هو قوة مدمرة، إما أن يكون البنزين أو هذا الوقود السائل قوة محركة، وإما أن يكون قوة مدمرة، هذه هي الشهوة تماما، إما أن تكون قوة محركة إلى الله عز وجل ترقى بها، أو أن تكون قوة مدمرة تُذْهِب حياتك سدى، لذلك فإن الموضوع خطير جدا، في القرآن الكريم آيات كثيرة جدا تتحدث عن النساء، وعن انضباطهن، وعمّا يحل لهن، وما يحرّم

عليهن، وفي موضوع إبداء زينتهن، هذه كلها موضوعات يجب أن نأخذ بها، وذلك يعني أنه إذا أردت لإيمانك السلامة، ولحياتك الاستقرار، ولمعادك السعادة فعليك أن تأخذ بما في هذه السورة من أحكام تفصيلية، وعليكم أيها الإخوة أن تتعلموها، وتعلموها نساءكم.

يا أيها الإخوة المؤمنون، هذه السورة تعلموها، وعلموها نساءكم، ربما أؤخر الخوض في تفاصيل الآيات، وفي الأحكام الشرعية المتعلقة بآيات هذه السورة إلى درس قادم، وفي هذا الدرس سألقي عليها شعاعا كاشفا، وبعض التعليقات حول مجمل موضوعها.

محور السورة: العفاف والستر:

هذه السورة كما قلت قبل قليل سماها الله سورة، لأنها مجموعة آيات تتمحور حول محور واحد، ألا وهو العفاف، والتستر، يعني أن الإنسان حينما يتفلت من شأن العفاف، والتستر، حينما يتفلت من القيود أو من الحدود، وهذه الكلمة أريد أن أقف عندها، فربما رأى بعضهم أحكام الدين في شأن غض البصر، وعدم الاختلاط، وهذا المكان لا يجوز، وهذا المكان يجوز، ربما توهم بعضهم أن الأخذ بهذه الأوامر نوع من تقييد الحرية، لا والله، إنه ضمان للسلامة، إن أوامر الدين في شأن العلاقة بالنساء ليست من قبيل الحد من الحرية، بل هي من قبيل ضمان السلامة، إنك إذا ركبت شاحنة، ولها وزن كبير يزيد عن خمسة أطنان، ووصلت إلى جسر كتب عليه: الحمولة القصوى ثلاثة أطنان، وليس في الطريق شخص يراقبك، وليس في الطريق أحد آخر يحاسبك، فهل من مصلحتك أن تعبر هذا الجسر بهذه الشاحنة ذات الوزن الذي يفوق طاقة هذا الجسر، هل تخشى أن تخالَف ؟ لا، الموضوع متعلق بك وحدك، الموضوع متعلق بك وحدك، هل تقول: هل يراني من أحد ؟ هل هناك إنسان يحاسبني ؟ يا ترى هل أكتب مخالفة؟ لا الموضوع أعمق من ذلك، إنك إذا دنوت من الجسر، وقطعته، وهو ذو حمولة قليلة ربما انهارت السيارة، ووقعت في النهر، فعندما يفهم الإنسان أحكام الدين هذا الفهم، وبأنها ليست للحد من الحرية، إنما هي ضمان للسلامة، ليست أحكام الشرع تضييقا على حياتك، إنما هي صون لسعادتك، لذلك هذا الذي يطيع الله عز وجل لا يضل، و لا يشقى:

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة: الآية 38]

وقال تعالى:

(قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه: 123]

يا أيها الإخوة الأكارم: هذه السورة تعلموها وعلموها نساءكم:

(سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

[سورة النور: الآية 1]

سورةٌ أنزلناها:

حينما يقول سبحانه:

(سُورَةَ)

أي مجموعة أحكام متكاملة متعلقة في شأن النساء، والإنسان فيه شهوة للنساء، وفيه شهوة للمال، وفيه شهوة للعلو في الأرض، فشهوة المال مضبوطة بأحكام السرقة، وأحكام الكسب المشروع، وأحكام الربا، وما إلى ذلك من أحكام تفصيلية، وأكثركم يعرفها، وأما شهوة المرأة فمضبوطة بأحكام الزواج، والزواج أمر متعلق بالمرأة، وحينما ينهاك عن شئ متعلق بالمرأة معنى ذلك أن الأمر خطير، فربنا عز وجل لم يأمرنا بشيء متعلق باللباس، لك أن ترتدي أي لون تشاء، لم يأمرنا بشيء متعلق بالأثاث، لم يأمرنا بشيء متعلق بالبيوت، لماذا ؟ لأن هذه مباحات لا شأن لها بإقبال النفس على ربها، لكن لو فرضنا محطة وقود، وهنالك مكان لإعلان ما، فمن الممكن أن يكتب في هذا الإعلان مئات الموضوعات، قد تطلب من الناس أن يلزموا الدور، قد تطلب منهم أن يكونوا هادئين، قد تطلب منهم ألاّ يلقوا الورقة على أرض المحطة، هذه الأوامر كلها جيدة ونافعة، ولكن أمرا مثل: ممنوع التدخين، هذا أمر مصيري، لأنك إذا دخنت في محطة الوقود ربما احترقت بأكملها، ودمرت، فهذا مثل للتقريب، ففي آية محكمة يأمرك أن تغض بصرك، معنى ذلك أن في إطلاق البصر خطورة كبيرة، وهلاكا للإنسان، حينما جعل لك هذه القواعد إذا أخذت بها سعدت في الدنيا والآخرة:

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى)

[سورة طه: 123]

معنى: فَرَضْنَاهَا

معنى:

(فَرَضْنَاهَا)

أيْ أوجبنا العمل بأحكامها، التعريف الدقيق للفرض: إيجاب العمل بالأحكام، والأوامر الإلهية على مستويات: بعضها فرض، وبعضها واجب، وبعضها سنة مؤكدة، وبعضها سنة غير مؤكدة، وبعضها مستحب، وبعضها مباح، وهناك مكروه كراهة تنزيهية، ومكروه كراهة تحريمية، وهناك الحرام.

وربنا عز وجل فوق ذلك جعل حدوداً، فربنا أمرَ ونهى، لكن في علم القانون التشريع لا يكفي، بل لا بد له من مؤيد قانوني، لو فرضنا أننا أصدرنا قانوناً للسير، يُلزم السائق الجانب الأيمن، فيجب ألا يتجاوز في المنعطفات، ثمة مجموعة كبيرة جدا من التعليمات، فيجب أن يقود مركبة، وهو يحمل إجازة سياقة، إلخ، فهذا القانون ما قيمته لو لم يكن هناك عقوبات، فمن يخالف هذه المادة تسحب إجازته، ومن يخالف هذه المادة يلقى الحجز على مركبته، ويودع في السجن، هذه تسمى في القوانين المؤيدات القانونية، ولولاها لما كان لهذا القانون معنى، والدين جاء لينظم حياتنا، لينظم هذه الشهوات التي أودعها الله فينا، فأمرك بالزواج، أمرك بغض البصر، ونهاك عن الزنى، نهاك عن الاختلاط، فلولا هذه التنظيمات، وهذه الأوامر، والنواهي فإن المؤيدات القانونية لا قيمة لها، لذلك فالزاني يجلد، وإذا كان محصناً يرجم، والسارق تقطع يده.

حفظُ الكليات الخمس:

بحث علماء الأصول في أن الشرع الحنيف يهدف إلى خمسة أشياء: إلى حفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ المال، وحفظ العرض، وحفظ الدين.

1 – حفظ النفس:

يهدف إلى حفظ النفس، فمن قتل نفسا فجزاؤه القتل:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

[سورة البقرة: 179]

فحفظ النفس أمر إلهي، والمؤيد القانوني لها أن القاتل يقتل، والقتل أنفى للقتل.

2 – حفظ العقل:

والشرع الحنيف جاء ليحفظ العقل، فمن عطل عقله بشرب الخمر فلا بد أن يقام عليه حد الخمر.

أنت مأمور أن تحفظ نفسك، فالمنتحر جزاؤه إلى جهنم، والذي يقتل نفسا بغير نفس إلى النار أيضا، وحد القتل القتلُ، فحفظ العقل يكون بألاّ تفعل شيئا يعطل هذا العقل، ولاشيءَ يذهب العقل كشرب الخمر، لذلك جاء حد شرب الخمر.

3 – حفظ المال:

وحفظ المال هدف ثالث من أهداف الشرع الحنيف، وهذا الآخر له مؤيد قانوني، فمن أخذ ما ليس له قطعت يده:

يد بخمس مئين عسجد وُديــت ما بالـها قطعت في ربع دينار

قال عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

***

لما كانت أمينة كانت ثمينـة، فلما خانت هانت، فأول شيء حفظ النفس، ثم حفظ الدين، ثم حفظ العقل، ثم حفظ المال.

4 – حفظ العرض:

فمن يزنِ يجلد إذا كان غير محصن، ومن يزنِ يرجم إذا كان محصنا.

5 – حفظ الدِّين:

وأما حفظ الدين، فإنّ الله سبحانه وتعالى أمرنا أن نتعرف إليه، وأن نتعرف إلى شرعه، ومن أراد أن يصرف الناس عن الدين، وأن يطفئ نور الله عز وجل فله في الشرع حد:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[سورة المائدة: 33]

لهم جزاء عند الله عز وجل، فخمسة أشياء، حفظ النفس، والدين، والعقل، والمال، والعرض، وكل هذه الأشياء إذا تجاوزها الإنسان فهناك حد رادع مانع.

فهذه السورة في مجملها تتعلق بموضوع المرأة، بموضوع العرض، وهما شيئان خطيران.

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا

يعني أوجبنا العمل بأحكامها، نقول مثلا للإنسان: إن شربَ الماء فرض لبقاء حياتك، ومعنى فرض أي ضرورة، ولابد من شرب الماء، لكن شراء باقة زهر للبيت ليس فرضاً، هناك أنواع منوعة من الفواكه، والثمار يمكن أن تعيش من دونها، لكن الخبز، والهواء، والماء، و القوت، هذه كلها فرائض

لاستمرار حياتك، وأما حياة النفس فهناك فرائض لها: فالصلاة فرض، بمعنى أنك إذا لم تصلِّ أهلكت نفسك، والصيام فرض، والحج فرض، والزكاة فرض، وكذلك كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب.

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

وأما معنى:

(سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

أي مع هذه الآيات آيات الأحكام التشريعية، هناك في هذه السورة آيات تبين عظمة الله عز وجل وأسماءَه الحسنى، وصفاته الفضلى.

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

الأحكام في القرآن الكريم موجّهة للذكور شاملة للإناث:

أولا: جميع الأحكام في القرآن الكريم يكتفى بأن توجه إلى الذكور، وهي تشمل النساء أيضاً، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

[سورة البقرة: الآية 264]

فهذا النهي يا ترى للذين آمنوا ؟ هم فقط المنهيون عن أن يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى ؟ وهل المؤمنات غير منهيات ؟ لا، إنهن منهيات بحكم التغليب، جميع النساء مأمورات أن يكففن عن المنّ بصدقاتهن، إذاً لماذا ؟ لو أن الله قال: الزاني فاجلدوه مائة جلدة، ألا يشمل النساء ؟ قال: بعضهم يتوهم أن المرأة التي زُنِيَ بها ليست مسؤولة عن ذلك، ولذلك للتأكيد بأن هذا الحكم يشمل المرأة والرجل معاً ذكر الله عز وجل:

الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ

الحكمة مِن تقديم الزانية على الزاني:

الآن لدينا سؤال: هنا ذُكِرَت الزانية قبل الزاني، وفي آيات أخرى ذُكِر السارق قبل السارقة، لماذا بدأ الله بالزانية، وبدأ هناك بالسارق ؟ قال بعض العلماء: لأن المرأة أقدر على الزنا من الرجل، هي التي تغريه في البداية، هي التي تدعوه، والرجل أقدر على السرقة من المرأة، لذلك في هذه الآية قُدِّمت المرأة، وفي آية السرقة قُدِّم الرجل.

الفرق بين النكاح والزنى:

الحقيقة أن الزنى هو لقاء غير مشروع، بينما الزواج فهو لقاء مشروع، والفرق بينهما أن المرأة إذا خطبتها، وتزوجتها، وعقدت عليها القران، وأنجبت منها أولادا كالثمار اليانعة، ففي الأسرة أطفال كالزهور، هؤلاء الأطفال يكبرون، والفتيات يكبرن، وترى في هذه الأسرة السعادة، والأنس والراحة، ويكبر الرجل ليجد زوجته أمامه، طبعا زوجته كانت شابة، لكن هذه المرحلة تخطاها، الآن أم لأولاد، تتمتع بالحكمة، والرحمة، والمحبة، وجد أولاده أمامه، بينما الزنى ينتهي إلى الفضيحة.
لي صديق حدثني فقال: طُرِقَ بابي الساعة الرابعة صباحاً، ففتحت الباب فلم أجد أحداً فنظرت إلى أسفل فإذا كيس فيه شيء يتحرك، فتحته فوجدت فيه طفلاً وُلِدَ حديثاً، طبعاً أخذه إلى مستشفى، أو إلى مصح، على كلٍ وقفت عند هذه القصة فقلت: سبحان الله، لمّا ينجب الإنسان في ظل الزواج، يبقى طوال تسعة الأشهر ينتظر هذا المولود، ويعد له مهداً، ويعد له حاجاته، وألبسته، وهناك تفاؤل، وهناك بِشْرٌ، وهناك سعادة، وهناك ترقب، وهناك انتظار، فإذا وضعت المرأة وليدها عمت الفرحة، وصارت التهاني، والحفلات، والضيافات، والمباركات، وقدمت الهدايا، سبحانك يا رب هذا في الطريق المشروع، فإذا كانت هذه الولادة من الزنا وُضِعَ المولود في كيس، ونُبذ أمام الباب، وقُرِع الجرس، وولى صاحبه هاربا، وهذا الطريق غير المشروع.
حينما يخطب الإنسان امرأة تطلق أبواق السيارات يوم العرس أصواتها، فالعمل المشروع يرضاه الله عز وجل، ويرضاه الناس، ويرضى الناس عنك، لكن إذا كان هناك لقاء طريق غير مشروع، ينخلع من يقوم به قلبه لأية خطوة تقع خلف ظهره، أليس كذلك ؟

ليس في الإسلام حرمان، ولكن فيه تنظيم، كل شهوة أودعها الله في الإنسان جعل لها قناة نظيفة تمر من خلالها، تحب المرأة، هذا شيء جميل، تزوج، لا أحد يعترض عليك، لا أحد ينتقدك، تبقى في عزتك، وكرامتك، تبقى في نقائك، تبقى في صفائك، تحب المال فاعمل في طريق مشروع، تحب أن تعلو في الأرض قدِّم للناس شيئاً صالحًا يرفعوك على أكفهم، فشهوة المرأة تُقْضَى بالزواج، وشهوة المال تقضى بالعمل، وشهوة العلو بالأرض تقضى بالعطاء، والأنبياء صلوات الله عليهم أعطوا، ولم يأخذوا، لكن الله سبحانه وتعالى رفع ذكرهم في كل مكان، وفي كل زمان.

(الزّانِيَةُ وَالزّانِي)

إذًا: الزنى هو هذا اللقاء غير المشروع، والزواج هو اللقاء المشروع، وأنت تجعل العلاقة مشروعة بكلمة الإيجاب والقبول، وتقرير المهر، وشاهدي عدل، حتى يصبح هذا الزواج أو هذا اللقاء مشروعا، فإذا لم يكن هناك إيجاب وقبول، ولم يكن هناك مهر، فهذا اللقاء غير مشروع، وهو زنى، وبين الزواج والزنى كما بين السماء والأرض، بين النكاح والسفاح كما بين السماء والأرض.

فَاجْلِدُوا كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ

الرأفة ربما أدت إلى تعطيل الحد، وهذا الحد إذا عُطِّل استشرى الفساد في الأرض، وعم الهلاك، إن بني إسرائيل كانت فتنتهم في النساء، فاتقوا الله، واتقوا النساء، فما الذي أهلك بني إسرائيل ؟ فتنة المرأة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الخَمْرُ جِمَاعُ الإِثمِ، وَالنِّسَاءُ حَبَائِلُ الشّيْطانِ، وَحُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلّ خَطِيئَةٍ))

[مسند الشهاب عن عائشة، والترغيب والترهيب عن حذيفة]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((إنّ إِبْلِيسَ طلاّعٌ رَصّادٌ، وَمَا هُوَ بِشَيْءٍ مِنْ فُخُوخِهِ بِأَوْثَقَ بِصَيْدِهِ فِي الأَتْقِيَاءِ مِنَ النِّسَاءِ))

[كشف الخفاء، وقال رواه الديلمي عن معاذ، وانظر الفردوس بمأثور الخطاب]

وجوب اتخاذ هامش أمان بين العبد والزنا:

المرأة فخ، فالذي عنده إرادة قوية للانضباط وَفق ما أمر الله به فهو في حصن حصين.

القول الشهير: **الإنسان الشريف يجب أن يهرب لا من الخطيئة، بل من أسبابها،** قال ربنا عز وجل:

(وَلاَ تَقْرَبُوا الزّنَى إِنّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)

[سورة الإسراء: الآية 32]

أمرنا بغض البصر، أمرنا بالابتعاد عن كل رفيق سوء، فربما أغراك بالمعصية، فإذا ابتعدت عن أماكن الشبهات، وعن الأماكن الموبوءة بالنساء الفاسقات، حيث إن النبي عليه الصلاة والسلام وصف نساء آخرِ الزمان بأنهن كاسيات عاريات، قد تكون إحداهن تلبس أغلى الثياب، وقيمته بالآلاف، لكن هذه الثياب لمْ تلبسْها هذه المرأة كي تتستر، بل لتبرز ما بها من مفاتن، إذاً كاسيات عاريات، مائلات مميلات، على رؤوسهن كأسنمة البخت، فالعنوهن، لأنهن ملعونات، فيجب على الإنسان ألاّ يتبجح، ويقول: يجب علي أن أكون لطيفاً، وأكون مرناً...لا، ففي هذا المكان منطقة خطرة، فكأنها بارود، ونار، فلا يجب أن نقول: علينا ألا نبعدهم عن بعضهم، فالقضية تنتهي بانفجار، فإذا أراد الإنسان لدينه أن يسلم فعليه أن يبتعد عن أماكن الشبهات، عن كل مؤلفات رخيصة، عن كل أصحاب منحرفين، عن كل أماكن فيها نساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات.

وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ

لذلك قالوا: ربما لا تصلح المرأة أن تكون قاضية، وربما لا تستطيع بحكم عاطفتها، وحكم رحمتها التي أودعها الله فيها من أجل تربية أولادها أن تصدر أمراً بالرجم أو بالجلد على إنسان زانٍ، وطبيعتها الأنثوية، وقلبها الكبير، ورحمتها الجياشة لا تمكنها من إصدار أمر بهذا الموضوع.

وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

الشيء الذي لا يحتمل أن يلقى الإنسان في ساحة البلدة عقب صلاة الجمعة ليجلد مائة جلدة، إن كان غير محصن، أو ليرجم إن كان محصناً، هذا شيء صعب، لذلك هذه عقوبة رادعة.

حدَثَ هذا حين عطِلَتْ حدود الله:

وقد تسأل الآن: الإحصاء الأخير، أو قبل الأخير إحصاء من 5-10 سنوات: في كل 30 ثانية في أمريكا ترتكب جريمة قتل، أو سرقة، أو اغتصاب، هذه الجرائم التي وصلت إلى دوائر الشرطة، أما التي لم تصل فحدث ولا حرج، لعدم وجود عقوبات رادعة، فاعتبر الإنسان نفسه حراً، له أن يلتقي مع من يشاء، هي رضيت، وأنت رضيت، ولكن أين الحق العام ؟ الحق العام خطير جدا، فعندما عطلنا الحق العام انتشر مرض الإيدز.

الآن هناك في أمريكا ثمانية عشر مليوناً يحملون هذا المرض، والذعر من هذا المرض يفوق حدود الخيال، كل ذلك بسبب الانحراف، لذلك من نعمة الله علينا أن هذا المرض قلما ينتشر في بلاد المسلمين

بسبب الانضباط، فإن لم تحدث حالات غير شرعية فلا ينتقل هذا المرض، أما العلاقات الشرعية كالزواج فلم يثبت فيها جميعا حالة مرضية، إلا أن يكون أحد الزوجين زانياً من قبل، وقد أصيب بهذا المرض قبل الزواج، أما إن لم يكن هناك زنى من قبل فإن العلاقة الزوجية لا يمكن أن تحدث مرضاً من الأمراض التي تسمى الأمراضَ الجنسية.

التلقيح: وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

هذا أمر ضروري.

هل تعلمون ما هو التلقيح ؟ عندما يلقح الإنسان ضد مرض يقوى على مقاومته، فعندما تتجمع أعداد هائلة من الناس - عشرة آلاف إلى عشرين ألفًا - على إنسان يجلد، ويرون بأم أعينهم هذا الهول، وهذا الألم، وهذا التحقير الذي يصيب هذا الزاني حينئذ ينشأ تلقيح، وتطعيم عند كل المؤمنين، لكن حينما يقام الحد فقلما يحدث الزنى، إنه شيء خطير جداً، فلذلك هنالك عقوبات يجب أن تتم أمام مرأى الجمهور كي يتعظ بها الناس، فمثلاً شنق المجرم في السجن لا قيمة له، بل يجب أن يشنق في ساحة عامة كي يتعظ الناس، هذا مصير القاتل، هذا المجرم انتهى به الأمر إلى أن يشنق، كذلك الزاني انتهى به الأمر إلى أن يجلد على قارعة الطريق.

وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

الطائفة قالوا: ثلاث فما فوق، وفي السنة يجلد هذا الزاني بعد صلاة الجمعة في ساحة عامة من ساحات البلدة.

(الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة النور]

معنى الآية:

المعنى الأول:

أن الزاني لا يطيب له إلا الزانية، طبيعته خبيثة، فهو يبحث عن زانية، والزانية تبحث عن زان، هذا يشاكل هذا، وهذا يشاكل ذاك، قال تعالى:

(الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

[سورة النور: 26]

الإنسان المستقيم الطاهر العفيف يبحث عن طاهرة عفيفة، والإنسان الفاسق الزاني يبحث عن فاسقة، طبعا هذا الكلام ساقه العلماء لمن أقيم عليه الحد، ولم يتب من ذنبه، أما مِن تاب تَاب الله عليه، فَعَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ: قَالَ اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

((يَا ابْنَ آدَمَ، إِنّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السّمَاءِ، ثُمّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ، آدَمَ إِنّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[الترمذي واللفظ له، أحمد عن أبي ذر الدارمي]

وقال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعًا)

[سورة الزمر: 53]

هذا الكلام مسوق لمن أصر على الزنى، ولم يتب.

(الزّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاّ زَانِيَةً)

المعنى الثاني:

لكن بعضهم قال: إنك إذا علمت أن هذه المرأة زانية، أو أنه أقيم عليها الحد، ولم تتب لا يجوز أن يتزوجها مؤمن، مستحيل، هذا حكم شرعي، لا يجوز.

المعنى الثالث:

وبعضهم قال: هو المؤمن لا يستطيب هذه الزانية.

المعنى الرابع:

وبعضهم قال: لا، هذا حكم شرعي، الزواج لا ينعقد فهو باطل، إذا عقد زواج رجل غير زانٍ على امرأة زانية لم تتب فالزواج باطل، ليس هذا من جنس هذه، هذا من طينة، وهذه من طينة أخرى، فالزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، فالمشرك الذي لم يعبأ بالدار الآخرة، لم يعبأ بالتوحيد، ادعى مع الله آلهة كثيرة، هو يرضي زيدا وعبيدا، يرى حياته بيد فلان، ورزقه بيد فلان، ومصيره بيد فلان فهذا مشرك، فهذا يسهل عليه الزنى، لأنه غير منضبط بأمر الله عز وجل:

(الزّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

ما أبعد حياة الإيمان عن الزنى، طريق طويل، المقدمات كلها عنده ممنوعة، فالاختلاط ممنوع، وكذلك إطلاق البصر، والمشي بمكان موبوء، وأن يصحب أناساً فاسقين، وأن يقرأ أدبا رخيصا، كل هذه المقدمات هي في الأساس محرمة عليه لذلك:

(وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

قال ربنا عز وجل:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا* وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سلاَمًا)

[سورة الفرقان: 63]

إلى آخر الآيات، حتى يقول:

(وَلاَ يَزْنُونَ)

هنا دقة بالغة في الآية، ربنا عز وجل لم ينهَهُم عن الزنى، بل نفى عنهم الزنى، طبعا أن تنهى ابنك على أن يضرب أخاه معنى ذلك أنه من عادته أن يضرب أخاه، النهي فيه احتمال تصوري، إذا نهيت ابنك عن التأخر معنى ذلك أنه قد يتأخر، أما إذا نفيت عنه هذه الحالة فهذه أشد أنواع النهي، أن تنفي وقوع الحالة إطلاقا، فربنا عز وجل قال:

(وَلاَ يَزْنُونَ)

يعني ليس من شأنهم أن يزنوا.

(الزَّانِي لاَ يَنْكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

خطورة القذف في الأعراض:

الآن يقول عليه الصلاة والسلام:

((... وَإِنَّ قَذْفَ مُحْصَنَةٍ لَيَهْدِمُ عَمَلَ مَائَةِ سَنَةٍ))

[الحاكم في المستدرك عن حذيفة، والبزار في مسنده، والطبراني في الكبير]

ما أكثر الناس الذين يلغطون بالأعراض، ما أكثر الناس الذين يتحدثون، يهرفون بما لا يعرفون، فَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فَقَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا، وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ، وَقَالَتْ بِيَدِهَا هَكَذَا، كَأَنَّهَا تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ الآن))

[الترمذي، أبو داود، أحمد]

حينما قال ربنا عز وجل:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

(سورة النور)

معنى المحصنة:

ما معنى محصنة ؟ أيْ هذه محصنة من الزنى، لها زوج، لها قيم، هذه الحاجة ملبّاة، هذه محصنة من أن تزني، لأسباب كثيرة، إما لأنها مؤمنة، أو لأن لها زوجًا، هذا الذي يرميها، وكأنه رماها بحجر في مقتل من مقاتلها، كأنه رماها بسهم، كأنه أطلق عليها رصاصة.

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ

سبحانك يا رب، في كل أمور العلاقات المالية يكفي شاهدان ؛ في القرض، في البيع، في الشراء، لكن لخطورة أمر الزنى، ولخطورة أمر فساد سمعة المرأة و، لخطورة أمر العلاقة بها، ولخطورة سمعة الإنسان، هذا الذي يرمي امرأة محصنة بالزنى لا يقبل منه ذلك إلا بأربعة شهود رأوا هذه الحالة رأي العين، إذا جاء بأربعة شهود، وقد شاهدوا الزنى ربما كان هذا مستحيلا، ربما كان هذا شرطا تعجيزيا، لأنّ الله عز وجل يحب أن ندرأ الحدود بالشبهات، فأن يأتي بأربعة شهود رأوا حالة الزنى رأي العين بتفاصيلها عندئذ لك أن تقول: هذه زانية، أما أن يتكلم الناس عنها، ويقولون: إن أخلاقها غير نظيفة، هذا رمي، إنك رميتها بالزنى، هذا الذي يتكلم من دون دليل، من دون أربعة شهود، يرمي امرأة محصنة، لكن سبحانك يا رب، المرأة العفيفة المسلمة لو أن جهة افترت عليها، ورمتها بالزنى، وهي منه بريئة فلها بالسيدة عائشة رضي الله عنها، وهي زوج النبي عليه الصلاة والسلام، لها بها أسوة حسنة، وما حادثة الإفك إلا من أجل أن تكون السيدة عائشة كما يقال: كبش فداء من أجل المؤمنات إلى آخر الزمان، لهن بهذه المرأة العظيمة زوج النبي عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً)

تروي الكتب ـ والله أعلم ـ أن مغسّلة كانت تغسّل امرأة، وهي تغسلها قالت في نفسها: كم من مرة زنت هذه المرأة ؟ هكذا تروي القصة، فإذا بيدها تلتصق بجسد الميت، وليس من قوة تنزعها عنها، طال الأمر، مضت ساعة، وساعتان، واليد ملتصقة، فاحتار الناس ماذا يفعلون، أيقطعون يد المغسّلة ؟ الحي أفضل، أيقطعون جزءًا من لحم الميتة ؟ فيه تشويه للميت، وقعوا في حيرة، وأخذٍ وردٍ، وسؤال وجواب،

ولغط الناس بهذا الموضوع، والأمر في عهد الإمام مالك، حتى قيل: لا يفتى ومالك في المدينة، عرضت هذه القضية عليه فقال: اجلدوا المغسّلة ثمانين جلدة، ومع الضربة الثمانين فكّت يدها، لأنها اتهمتها بالزنى في نفسها.

فما قولك وأنت ساكت، وفمك مطبَق، إذا حدثت نفسك أن هذه زانية ؟ لقد وقعت في جريمة رمي المحصنات الغافلات، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((... وَإِنّ قَذْفَ مُحْصَنَةٍ لَيَهْدِمُ عَمَلَ مِائَةِ سَنَةٍ))

[الحاكم في المستدرك عن حذيفة، والبزار في مسنده، والطبراني في الكبير]

فعلى الإنسان أن يكون دقيقاً، ولا يتسرع، ولا ينقل روايات غير صحيحة غير مؤكدة، فربنا عز وجل علمنا ألاّ تقبل هذه التهمة إلا مع أربعة شهود رأوا حالة الزنى رأي العين، وهذا مستحيل تقريبا، إذاً فالأفضل أن تصمت.

(وَالّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً)

وهذا الإنسان يفقد حقه المدني.

فقدان القاذف بالزنا لحقوقه المدنية:

(وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا)

فلا حق له أن يشهد في قضاء، أو شهادة، أو بيع، أو شراء، أو زواج، لأنه رمى محصنة، فلو ذهب ليأخذ لا حكم عليه (براءة من السوابق العدلية يكتب على تلك الوثيقة: إنه محكوم بقذف المحصنات، فشهادته غير مقبولة، ويجب ألا يتوظف، ولا يتحرك، ولا يعقد بيعًا ولا شراءً.

(وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

سبحانك يا رب ما أرحمك:

(إِلّا الّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النور)

التوبة تَجُبُّ ما قبلها

(إِلاّ الّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

هذا استثناء:

(إِلاّ الّذِينَ تَابُوا)

ربنا عز وجل في جميع الأحكام، وفي جميع الوعيد الذي يتوعد به عباده العصاة هناك منفذ، هناك فرج، هناك استثناء:

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة الشعراء: الآيات 225-227)

وقال تعالى:

(وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ)

(سورة ص: الآية 24)

عندنا استثناء دائم، فالذين تابوا مستثنون من الفسق، ومستثنون من عدم قبول الشهادة، أي عندما يتوب الإنسان يستعيد حقه المدني، وحقه أن يكون شاهدا عدلا.

(إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

الضبط والعدالة من صفات المسلم الأساسية:

هناك نقطة ضرورية، وهي أن الإنسان المسلم يتصف بصفتين أساسيتين ؛ العدل والضبط، العدل هي العدالة، والضبط صفة عقلية، والعدالة صفة نفسية، من يرم امرأة محصنة ظلما وزورا يفقد العدالة، ومع فقدِ العدالة يفقد حقه في إدلاء الشهادة، بالمناسبة النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((مَنْ عَامَلَ النَّاسَ فَلَمْ يَظْلِمْهُمْ، وَحَدَّثَهُمْ فَلَمْ يَكْذِبْهُمْ، وَوَعَدَهُمْ فَلَمْ يُخْلِفْهُمْ فَهُوَ مِمَّنْ كَمُلَتْ مُرُوءَتُهُ، وَظَهَرَتْ عَدَالَتُهُ، وَوَجَبَتْ أُخُوَّتُهُ، وَحَرُمَتْ غِيبَتُهُ))

[القضاعي في مسند الشهاب عن علي]

أعمالٌ تُسقِط العدالة وتجرحها:

العدالة إما أن تلغى، وإما أن تسقط، وإما أن تجرح، من يرم امرأة محصنة تسقط عدالته، من يكذب تسقط عدالته، من يظلم تسقط عدالته، من يخلف وعده تسقط عدالته، هذا عن سقوط العدالة، فماذا عن جرحها ؟ من أكل لقمة من حرام جرحت عدالته، من طفف في الميزان بمقدار تمرة جرحت عدالته، من تنزه في الطرقات جرحت عدالته، من كان حديثه عن النساء جرحت عدالته، من صحب الأراذل جرحت عدالته، من بال في الطريق جرحت عدالته، من قاد برذونا فأخاف به الأطفال جرحت عدالته، من أطلق لفرسه العنان، أي أسرع، جرحت عدالته، من علا صياحه في البيت جرحت عدالته، من لعب النرد جرحت عدالته، ومن لعب الشطرنج جرحت عدالته، فهو يضيع وقته سدى، العلماء ذكروا ثلاثة

وثلاثين بنداً تجرح العدالة، من أكل في الطريق، من مشى حافيا، من بال في الطريق، فجرح العدالة شيء، وسقوط العدالة شيء آخر، إن قذف المرأة المحصنة مما يسقط العدالة.
هذه الآيات دقيقة جدا، إن شاء الله تعالى لنا عودة إليها في الدرس القادم من أجل أن نقف على أحكامها التفصيلية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (02-23): تفسير الآيتان 1 – 2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-10-07

بسم الله الرحمن الرحيم

سبب تسمية سورة النور:

أيها الإخوة المؤمنون مع الدرس الثاني من سورة النور، أولا: لماذا سميت هذه السورة سورة النور ؟ بعضهم يقول: لأن ما فيها من أحكام تشريعية، وما فيها من آداب خلقية، وما فيها من أصول أسرية تعدُّ بمثابة النور الذي يلقى على حياة المجتمع، فمجتمع بلا آداب، و بلا حدود، و بلا أحكام، وبلا معاملات وفق الحق والكمال هو مجتمع في ظلام:

(اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

[سورة البقرة: الآية 257]

يخرجهم من الظلمات إلى النور بهذه الأحكام التشريعية، بالأحكام المتعلقة بالنساء، بأحكام الزواج، بأحكام الطلاق، بأحكام حسن المعاملة، بآداب المجتمع، بالآداب التي يجب أن تكون بين أفراد الأسرة، فلذلك سميت هذه السورة سورة النور لأن أحكامها التشريعية، وآدابها الخلقية بمثابة النور الذي يضيء جنبات حياتنا الاجتماعية.

محور سورة النور: الأسرة والقيم الأخلاقية:

الشيء الآخر، هذه السورة تتجه إلى الأسرة، والأسرة هي نواة المجتمع، فالمجتمع قائم على خلايا، الأسرة هي اللبنة الأولى في المجتمع، لذلك أكثر أحكام هذه السورة تتجه إلى الأسرة، وإلى حفظ الأنساب، إلى الآداب، وإلى التعفف، إلى عقوبة الانحراف الخلقي، وإلى عقوبة الخيانة الزوجية، كأن هذه السورة تتجه إلى الأسرة، والأسرة هي اللبنة الأولى في بناء المجتمع.
أمر آخر ؛ هذه السورة بأكملها تتجه إلى ترسيخ القيم الخلقية في المجتمع، فالمجتمع دون قيم خلقية مجتمع حيواني، مجتمع بهيمي، تتحكم فيه الغرائز، والانفعالات السفلية، تتحكم فيه النزوات، مجتمع دون قيم خلقية هو مجتمع كالبهائم، لذلك تتجه عناية هذه السورة إلى الأسرة تارة، وإلى القيم الخلقية التي ينبغي أن تسود المجتمع تارة أخرى.
وهذا مثل نضربه للتوضيح: لو أن بيتا فخما بني على أحدث طراز، وأثِث بأفخر الأثاث، وجهز بكل التجهيزات، فيه كل الأدوات والآلات، لكن لا يوجد في هذا البيت نوافذ، وليس فيه إضاءة، فما قيمة

جمال بنائه، وما قيمة جمال أثاثه، وكيف يهتدي الإنسان إلى مداخله ومخارجه، وإلى استعمال أدواته، واقتناء أجهزته، كل ما فيه من ميزات لا تعرف إلا بالنور، لذلك خلق الله سبحانه وتعالى السماوات والأرض، وأنزل الكتاب:

(اَلْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

وقال عز وجل:

(اَلْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

[سورة الكهف: الآية1]

فكأن الله سبحانه وتعالى بما أنزل علينا من تشريعات، وبما أنزل علينا من كتب، بما بعثه فينا من أنبياء، ورسل، والله سبحانه وتعالى نور السماوات والأرض، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى في هذه السورة:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

فالنور هو الحقيقة التي تصح بها حياتنا، وهو من عند الله، وليست هناك جهة غير الله يمكن أن تأخذ منها الحقيقة، الحقيقة وحدها من الله عز وجل، لأن الله نور السماوات والأرض، فلذلك سميت هذه السورة سورة النور لأن فيها إضاءة لحياتنا.

في حياتنا شيء مباح، وشيء ممنوع، وآخر حرام، أمرنا الله بغض البصر، وبحفظ الفرج، أمرنا بعدم الاختلاط، وأمرنا بالزواج، نهانا عن الزنى، جعل للزنى حدا رادعا، وحدا قاسيا، فهذه التشريعات لحياتنا الاجتماعية بمثابة النور الذي يضيء جنبات هذه الحياة لذلك سميت هذه السورة سورة النور، تتجه إلى الأسرة أولا، وإلى ترسيخ القيم الخلقية ثانيا، وهذا النور الذي سميت به هذه السورة مضاف إلى ذات الله عز وجل:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

كل مشكلة وراءها معصية:

فما من مشكلةٍ تقع في المجتمع إلا وراءها معصية، وما من معصية إلا وراءها جهل، فالإنسان إذا آمن بالله عز وجل أخرجه من الظلمات إلى النور، وقد وُصِفَ هذا القرآن مرات عديدة بأنه نور يمشي المؤمن بهداه، قال تعالى:

(إِنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

[سورة الإسراء: الآية 9]

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((وَالصّلَاةُ نُورٌ))

[مسلم ابن ماجه، أحمد، الدارمي]

إنك إذا اتصلت بالله عز وجل قذف الله في قلبك النور، فرأيت فيه الخير خيرا، والشر شرا، فكلمة هذه السورة ؛ سورة النور فيها من الضياء، وفيها من النور ما يكشف به كل ملابسات الحياة التي نحياها. شيء آخر ؛ لو أن مجموعة من القوارير فيها مواد مختلفة، ولا تَعْرِفُ هذه المواد، بعضها نافع، وبعضها ضار، بعضها عديم الجدوى، وبعضها سامٌّ، بعضها شديد السمية، بعضها ثمين، وبعضها رخيص، قوارير متشابهة، فيها مواد مختلفة، فأنت إذا ألقيت عليها نورا كشافا عرفت بهذا النور كل عنصر مما يتألف، وثمنَه، واستعماله، وفوائده، ومضاره، أو أنه ألصق على كل قارورة لوحة صغيرة تقول لك: هذا العنصر كذا وكذا، وفوائده كذا وكذا، واستعماله كذا وكذا، فالكتابة التي يمكن أن تكون على هذه القارورة كشاف، فعندما يقول ربنا عز وجل: هذا حرام، وهذا حلال، وهذا نافع، وهذا ضار:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

(سورة النور الآية 30)

هذه الآية نور، والأحكام الشرعية نور تهتدي به، فحينما تغض بصرك عن محارم الله يلقي الله في قلبك حلاوة حتى تلقاه، حينما تغض بصرك عن محارم الله يخلق الله مودة بينك وبين أهل بيتك، حينما تغض بصرك عن محارم الله تشعر بالطهر، تشعر بالسمو، تشعر بالقدسية، إذاً هذا الأمر الإلهي بمثابة النور الذي ملأ حياتك ضياء، وبهجة، وسرورا، وسكينة، وملأها اطمئنانا، وسعادة، فأيُّ حكم إلهي إذا طبقته كان بمثابة النور في الظلام، هذا النور يبدد الظلام، يذهب الترهات، يذهب الأباطيل، لهذا قال الله عز وجل، وهاأنا أعيد الآية على مسامعكم مرة ثانية:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة: الآية 257)

فإذا قرأت هذه السورة، وطبقت ما فيها خرجت من الظلمات إلى النور، وإذا كان هناك اختلاط، وكان هناك تجاوز لأحكام هذه السورة نشأت الخلافات الزوجية، وانتهت بالطلاق، وانتهت بضياع الأولاد، وتشريدهم، واختلاط الأنساب، وقد تنشأ معها الجريمة إذا رافقها عدوان، فلذلك إذا طبقت أحكام هذه السورة كان النور الذي يشع من ثنياتها يبدد الظلام الذي يعيش فيه معظم الناس، فبالنور تظهر قيمة البيت الفخم المؤثث بأثاث غال، والمجهز بأجهزة متنوعة، ولكن بلا نور ما قيمة هذا البيت ؟ قوارير فيها مواد مختلفة من دون لصائق ما قيمة هذه المواد ؟ لا تعرفها ولا تعرف كيف تستعملها، أو تتجنب مضارها، وكيف تعرف فوائدها، لذلك يعني تسمية هذه السورة، أو كما يقولون: اسم على مسمى، سورة

النور، إنك إذا قرأتها، وتمعنت فيها، ووقفت عند أحكامها، وطبقتها شع النور في حياتك، شع النور في بيتك، ولا تنسوا أن سيدنا عمر رضي الله عنه قال: **<< عَلِّمُوا نِسَاءَكُمْ سُورَةَ النُّورِ >>.**

[سنن سعيد بن منصور، وذكره البيهقي مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن مجاهد]

وسوف ترون كيف أن فيها من التشريعات، وفيها من الآداب ما لو طبق لأصبح بيت المسلم جنة على الأرض، لو طبقت هذه الأحكام لأصبحت بيوت المسلمين جنات على وجه الأرض.

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةٌ

كما قلنا في الدرس الماضي: إن هذه السورة، هذه الآية الوحيدة التي فيها كلمة سورة:

(سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آَيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

(سورة النور)

سورة النور سورة تربوية:

في هذه السورة موضوعات متنوعة، ولكن يجمعها محور واحد، هو نظام الأسرة، الآداب الاجتماعية المتعلقة بالنساء، القيم الخلقية المتعلقة بعلاقة الرجل بالمرأة، الحدود المانعة، والحدود الرادعة، هذا كله يفهم من كلمة سورة، وأن هذه الآيات العديدة التي تشملها سورة النور بمجملها تتمحور حول محور واحد، ألا وهو علاقة الرجل بالمرأة، وثانيا النظام الاجتماعي الذي ينبغي أن يكون سائدا في البيت. هذه السورة يمكن أن تكون من نوع التربية، التربية تعني التوجيهات المستمرة لنقل الإنسان من طور إلى طور، فيها توجيهات إلهية تنقل المسلم من طور إلى طور، هذا الكلام كله ينضوي تحت كلمة:

(سُورَةٌ)

أَنْزَلْنَاهَا

أما:

(أَنْزَلْنَاهَا)

فالإنزال يتم من شيء مرتفع إلى شيء منخفض، فهذه التشريعات ليس مصدرها بني البشر، ولكن مصدرها إله البشر، هذه التشريعات أنزلت من السماء، والإنسان لا يتقبل تشريعا إلا إذا كان من عند خالق الأرض والسماوات، لأن الخالق هو المشرع، فمثلاً إذا صنع معمل آلة، فأيّة جهة مؤهلة أن

تصدر تعليمات تشغيلها ؟ إنها الجهة الصانعة، هذا في عالم الصناعة، الجهة التي صنعت هذه الآلة وحدها مؤهلة أن تصدر نشرة فيها بيان طريقة استعمالها، وطريقة صيانتها، وطريقة أن يكون مردودها جيدا، فالصانع هو المشرع، ولأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق، وهو العليم الخبير، والحكيم العليم، وهو اللطيف الخبير، وهو القدير، وهو الغني، وهو السميع، وهو البصير، هو وحده سبحانه وتعالى يمكن أن يشرع لنا ما يمس علاقاتنا الاجتماعية، هذا معنى أنزلناها:

(سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا)

وهذا يعني أن تطبيق هذه الأحكام ليس من قبيل الزيادة، ولا من قبيل التجمل، ليس من قبيل أنّ لك أن تأخذه، ولك ألاّ تأخذه، ليس هذا هو الموضوع.

ليس للعبد خيار أمام أحكام الله: وَفَرَضْنَاهَا

يعني أنه إن لم يطبق ما فيها من أحكام انقلبت حياة الإنسان إلى جحيم، دمر البيت، وفسد، طلقت الزوجة، وتشرد الأولاد، وهذا يحدث يوميا، ما من طلاق جرى، تعسفيًا كان أو غير تعسفي، ما من فراق بين زوجين، ما من أولاد قد شردوا إلا بسبب مخالفة لأحكام هذه السورة.

لذلك:

(وَفَرَضْنَاهَا)

هذا يعني أن الإنسان ليس له خيار، لأنّ الله تعالى يقول:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب:الآية 36)

أنت ليس لك خيار، عندما يُنزّل ربنا عز وجل في قرآنه الكريم حكما تشريعيا، أمرا، نهيا، فليس للمؤمن خيار، الخيار قد انتهى، أنت تختار أن تأكل هذا الطعام، أو ذاك الطعام، أنت هنا مخير، أنت تختار أن تسكن في هذا الحي، أو في ذاك الحي، أن تقترن بهذه المرأة، أو بتلك، ولكن فيما أنزله الله من أحكام تشريعية ليس لك خيار، لقول الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب:الآية 36)

يعني أن الله عز وجل أمرنا بغض البصر، فلا يجوز أن نقول: هذا ممكن، وهذا ليس ممكناً، أو أن الزمان صعب، والوقت معقد، الفساد عمّ، والطريق مليء بالنساء الكاسيات العاريات، هذا الكلام مرفوض، لأن ربنا عز وجل قال:

(لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا)

(سورة البقرة:الآية 285)

ولا يمكن أن يكون الأمر الإلهي إلا في إمكان كل أن إنسان يطبقه، فلذلك:

(أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا)

لنفترض أنكَ قلت: تتوقف حياتي على شرب الماء، فشرب الماء فرض، تتوقف حياتي على تنفس الهواء، فتنفس الهواء فرض، تتوقف سعادتي في الدنيا، والآخرة على تطبيق هذه الأحكام، فهذه الأحكام هي فرض من قِبَل الله عز وجل، لذلك:

(سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا)

الأوامر التي سوف تأتي في هذه السورة لا مجال للحل الوسط فيها، فلما يقول بعض الصناع: لا يوجد في الآلة حل وسط، إما أن تكون وفق ما صممت، وإما أن تتوقف عن العمل، كذلك الإنسان ؛ إما أن يطبق هذا التشريع بكل ما فيه، بجمله وتفصيلاته، أو أن تصبح حياته منكدة، حياة فيها الشقاء، وفيها الهلاك.

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ

فيها أحكام تشريعية، وفيها آيات تعرّف بذات الله سبحانه وتعالى، وفيها آيات تشريعية، وآيات كونية، فالآيات التشريعية فَرَضْنَاهَا، والآيات الكونية بيّناها، فإذا عرفت الخالق طبقت أمره، لذلك يجب أن تعرف الآمر قبل أن تعرف الأمر، هكذا قال أصحاب النبي العدنان، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن عَمْرٍو قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَقْرَأُ الْقُرْآنَ فَلا أَجِدُ قَلْبِي يَعْقِلُ عَلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنّ قَلْبَكَ حُشِيَ الإِيمَانَ وَإِنّ الإِيمَانَ يُعْطَى الْعَبْدَ قَبْلَ الْقُرْآنِ))

[أحمد]

فإذا تعلمت الشرع قبل أن تعرف الله عز وجل فإنك لن تطبقه، بل تحتال عليه، أما إذا عرفت الله أولا من خلال هذه الآيات الكونية، إذا عرفته خشعت له، فإذا خشعت له بحثت عن أمره، وطبقته بحذافيره، وطبقته بإخلاص ودقة، لذلك معرفة الله سبحانه وتعالى هي البداية.

هذا يؤكده الإمام الغزالي رضي الله عنه إذ يقول: "العلم بالله، وبأمر الله، وبخلق الله"، فالعلم بالله أن تعرف الله سبحانه وتعالى، وأن تعرف أسماءَه الحسنى، وصفاته الفضلى، أن تعرف لماذا خلقك ؟ ولماذا أوجدك ؟ أن تعرف الغاية التي من أجلها أنت موجود على وجه الأرض، أن تعرف أن الله سبحانه وتعالى حسيب لَمْ يخلق الإنسان سدى، لم يخلقه عبثا قال عز وجل:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ)

(سورة المؤمنون:الآية 115)

وقال:

(أَيَحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

(سورة القيامة:الآية 36)

فهذا الذي يعصي الله بالتأكيد لا يعرفه، قد يعرف أمره ونهيه، وقد يتبحر في أمره ونهيه، وقد ينال في ذلك أعلى الشهادات، هذا عالم بأمر الله، وليس عالماً بالله، لأنّ علامة العالم بالله أنه يخشاه، لقول مَسْرُوقٍ:

<< كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ >>.

[سنن الدارمي، والطبراني في الأوسط مرفوعا إلى النبي عليه الصلاة والسلام بلفظ: كفى...أعجب برأيه]

وعلامة الذي يعرف أمر الله أنه يعرفه إذا سألته عن قضية في المواريث، في أحكام التجويد، في أحكام الطلاق، في أحكام البيوع، هذه موضوعات كلها تحتاج إلى دراسة، وإلى حفظ، وإلى تذكر، وإلى أداء امتحان، وتحفظ، وتؤلف فيها كتب كثيرة جدا، ولكنك إذا عرفت الله أطعته، وإذا عرفت هذه الأحكام حفظتها، ولا يغنيك هذا عن معرفة الله، فإذا عرفت الله فتعلم بعدها كل شيء، لأن كل شئ بعد معرفة الله كالصفر أمام الواحد، معرفة الله وحدها هي الأساس، فإذا عرفت بعض الأحكام التفصيلية فهذا صفر أمام الواحد، صاروا 10، إذا علمت أحكام المواريث 10 أحكام البيوع 100 صاروا، أحكام النكاح 1000 صاروا، إذا عرفت أصول الفقه 10000 صاروا، إذا عرفت هذه الأشياء الإسلامية الدقيقة فهو علم أضيف إلى ذخيرتك، فإذا عرفت كل هذه العلوم، ولم تعرف الله عز وجل فهذه كلها أصفار، لا يوجد فيها واحد، لأن أصل الدين معرفته كما يقول الإمام علي كرم الله وجهه (أصل الدين معرفته)، وفي الأثر يقول تعالى:

((ابْنَ آدَمَ اطْلُبْنِي تَجِدْنِي، فَإِذَا وَجَدْتَنِي وَجَدْتَ كُلّ شَيْءٍ، وَإِنْ فُتُّكَ فَاتَكَ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ كُلّ شَيْءٍ))

[تفسير القرطبي]

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

ولأن التدين عند الإنسان بالفطرة أحيانا تأتي الشهوات، وتأتي الدنيا، وما فيها من متاعب تطمس هذه الفطرة، فهذه الآيات للتذكرة، فكل إنسان يعرف الله عز وجل بالفطرة، فإذا انطمست هذه الفطرة احتاج إلى مذكِّرات، لو أن الإنسان كان صافيا، كان بعيدا عن كل مشكلة، بعيدا عن كل قضية، عن كل همّ، عن كل إغراء، وعن كل ضغط، لو ابتعد عن وُحُول الحياة، تستيقظ فيه الفطرة، فطرته تدعوه إلى الإيمان بالله عز وجل، وإلى طاعته، فهذه النفس لا تسعد إلا إذا أَوَت إلى الله، قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه:الآية 124)

وقال سبحانه:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل:الآية 97)

فلذلك لا يسعد الإنسان إلا بالله عز وجل:

(لَعَلّكُمْ تَذَكّرُونَ)

لأن الفطرة طيبة،

(فِطْرَةَ اللّهِ الّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم:الآية 30)

فالإنسان فطرته سامية، لذلك إذا تحدث الأجانب عن بعض الانحرافات الخلقية يقولون: إن هذه الانحرافات تسبب شعورا بالكآبة، فعلا ! لماذا ؟ لأن هذا الشعور بالكآبة هو تحرك الضمير، تحرك الفطرة العالية، الحق حق، والباطل باطل، في كل مكان، وفي كل زمان.

(الزّانِيَةُ وَالزّانِي فَاجْلِدُوا كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة النور)

حكمة إيداع الشهوة في الإنسان:

طبعا ربنا سبحانه وتعالى حينما أودع فينا هذه الشهوة أودعها لحكمة بالغة، وهذه الشهوة لا يمكن أن توصف بأنها شريرة ولا خيّرة، إنها حيادية، قوة دافعة تدفعك إلى شيء ما، سبحانه وتعالى أودع في نفس كل إنسان حب النساء، والعكس بالعكس.

(زُيّنَ لِلنّاس حُبُّ الشّهَوَاتِ مِنَ النّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذّهَبِ وَالْفِضّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدّنْيَا)

(سورة آل عمران:الآية 14)

فهذه الشهوة إنما أودعها الله في الإنسان ليرقى بها إلى الله، كيف ترقى قطعة الخشب إلى الله، فهي لا تحب، ولا تكره، ولا تغضب، لكن الإنسان بما فيه من شهوات إذا ضبطها ارتقى إلى الله عز وجل، إذا مرّت امرأة سافرة، وغضضت بصرك عنها فعلت هذا من أجل من ؟ من أجل الواحد الديان، فلأن هذا الأمر تميل نفسك إليه، وإرادتك ألزمتك أن تغض البصر عنها، من هنا ارتقيت إلى الله شاكرا، فالشهوة في الأصل لا يمكن أن تسمى شريرة، الله سبحانه وتعالى أودع فينا هذه الشهوة من أجل أن تنشأ

الأسرة، فإذا وجدت سيارة قد تدهورت في قاع الوادي هل تقول: يا أخي هذا المعمل هو الذي فعل هذا الحادث ؟ لا ! المعمل صنع هذه السيارة من أجل أن تركبها، وتنتقل بها من مكان إلى آخر، أما هذا السائق الذي قادها مخمورا، ونزل بها في الوادي فهو الذي أساء، فهل توصف هذه السيارة بأنها شريرة، إن صانعها قد صنعها من أجل أن تكون في خدمتك، كذلك الشهوات إنما أودعها الله في الإنسان لترقى به، لا لتهلكه، فإذا أساء استخدامها يهلك نفسه.

مثلٌ من واقع الناس:

شئ بسيط جدا، 3 مساحيق بيضاء، سكر، وملح، ومنظف، فإذا وضعت السكر في الشاي فهذا عمل خير، تشرب الشاي، وتحمد الله عليه، وإذا وضعت الملح في الطبخ تأكل الطعام، وتحمد الله عليه، وإذا غسلت الصحون بهذا المسحوق تحمد الله على هذه النعمة نعمة الصابون، فإذا وضعت هذا المسحوق التنظيفي في الطبخة ألقيتها في سلة المهملات، وإذا وضعت الملح في الشاي لفظت هذا الشاي، ما هو الشر ؟ حينما تسيء استخدام هذه المواد، الشر هو إساءة الاستخدام، المواد كلها خيرة، فحينما تتزوج، وتنجب الأولاد، ويكبر الأولاد، وترى أن هذه الأسرة أصبحت عشاً إسلامياً فيه السعادة، والسرور، والطمأنينة والوفاء، والمحبة، والأنس تشعر أن الحياة الزوجية فيها أنس، وربنا عز وجل كر أنّ من آياته الشمس والقمر، ومن آياته الليل والنهار، آياته كثيرة جدا:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

(سورة الروم:الآية 21)

فربنا سبحانه وتعالى حينما أودع في الإنسان هذه الشهوة من أجل أن تنشأ الأسرة، وهي اللبنة الأولى في المجتمع، لا من أجل الزنى، ولا من أجل السفاح، أو من أجل دور اللهو، ولا من أجل الأفلام الساقطة، هذا كله خلاف الأصول، وهذه كلها قنوات قذرة، وهناك قناة نظيفة واحدة، هي قناة الزواج. فهذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان جعل لها قناة نظيفة طاهرة خيرة مسعدة تأنس بها، وما سوى هذه القناة فالقنوات كلها قذرة.

(الزّانِيَةُ وَالزّانِي فَاجْلِدُوا كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ)

لابد لكل تشريع من مؤيّد عقابي ردعي:

تحدثت في الدرس الماضي عن أن التشريع لا قيمة له إلا إذا دعم بمؤيد، أي بعقاب، فالإنسان من طبيعته التفلت، وحينما يعرف أنه إذا زنى فلابد أن يلقى في ساحة عامة، وأن يجلد على مرأى من

الناس مائة جلدة، فإنه يعد للمليون قبل أن يزني، وفي الحديث:

((إنّ اللهَ لَيَزَعُ بالسُّلطانِ مَا لاَ يَزَعُ بالْقُرْآنِ))

أي ليمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد، وهذا هو الواقع.

[تفسير ابن كثير(60/3)]

فلو أن ربنا سبحانه وتعالى قال: الزاني فاجلدوه مئة جلدة لشمل هذا الحكم الزانية على طريقة القرآن الكريم في كل الآيات، ولكن هنا لئلا يتوهم بعضهم أن الزاني هو وحده المعاقب، بينما الزانية لم يكن دورها إيجابيا، فإن الزانية جرمها في الزنى لا يقل عن جرم الزاني، لذلك فإن ربنا سبحانه وتعالى لو قال من باب التأكيد: الزاني فاجلدوه مئة جلدة، لانطبق هذا الحكم على الزانية، ولكن لئلا نقع في التباس، لئلا يفهم من هذا الحكم أن المرأة إذا زنت فلا شيء عليها فإنه سبحانه وتعالى يقول:

(الزّانِيَةُ وَالزّانِي فَاجْلِدُوا كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ)

لكن هناك آية في سورة النساء قال الله فيها:

تنبيه مهمّ: هذا حد للزنا منسوخٌ:

(وَاللاّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِنّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنّ فِي الْبُيُوتِ حَتّى يَتَوَفّاهُنّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنّ سَبِيلاً)

(سورة النساء:الآية 15)

هذه الآية في سورة النساء كان مضمونها أن المرأة إذا زنت يجب أن تحبس في البيت حتى يتوفاها الله، ويجب أن تؤذى بالكلام، هذا الحكم نسخ بهذه الآية، لماذا نسخ ؟ لأن ربنا عز وجل حكيم، الأشياء التي كانت مستحكمة في الجاهلية كالخمر، والزنى جاء تحريمها تدريجيا، لأن النقلة المفاجئة قد تسبب صعقاً، وهذا تعليم لنا، الزنى كان متفشيا في الحياة الجاهلية، بل إن الزانية كانت تضع على بيتها علامة تفتخر بها، بل إن الرجال كانوا يشتركون في امرأة واحدة زواجا، فكان هناك فوضى في العلاقات الزوجية، لذلك فإنه سبحانه وتعالى بدأ بهذا التعذير، أن تحبس المرأة الزانية في البيت حتى يتوفاها الموت، فلما نزلت هذه الآية نسخت تلك الآية، وهذا النسخ معناه التدريج في التشريع، كيف ؟ إن الله سبحانه وتعالى قال:

(وَلاَ تَقْرَبُوا الصّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى)

(سورة النساء:الآية 43)

ثم جاء التحريم القطعي، كيف كان التدريج في تحريم الخمر، كذلك كان التدريج في حد الزنى،

من تعزير بمثابة حبس في البيت حتى الموت، إلى الجلد مائة جلدة، على كل هذا حد الزاني الحر، لأن للزنى إذا اقترفه العبد حكم آخر، وحد الزاني الحر البالغ البكر أيْ غير المحصن، غير المتزوج حده وحد الزانية الحرة البالغة البكر مائة جلدة، فلو فرضنا أننا أردنا أن نبحث عن أسباب مخففة لهذا الزاني الحر، البالغ، العاقل، البكر، لو أردنا أن نبحث له عن بعض المخففات لوجدناه بدافع الشهوة، بدافع الحرمان، بدافع الضغط، لذلك حده مائة جلدة، لكن هذا الزاني المحصن الذي أكرمه الله بزوجة فما عذره ؟ ليس له عذر، ضغط الشهوة لا أصل له، فهذا الشيء محقق عنده، ولكنه الفساد في الأرض، ولكنه إفساد العلاقات الزوجية، ولكنه تضييع للأنساب، وانتهاك الحرمات، ولكنه العدوان على زوج هذه المرأة، العدوان على زوجها، والعدوان عليها بأن جعلها زانية، والعدوان على أولادها بالتشريد، والعدوان على نفسه بجريمة الزنا، إن هذا الزاني المحصن ثبت في السنة أن حده الرجم حتى الموت، وبعضهم يستنبط من قوله تعالى:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا)

(سورة المائدة:الآية 33)

حتى الموت.

أحكام فرعية متعلقة بحد الزنى:

لكن هناك بعض الأحكام الفرعية المتعلقة بالزنى.

1 – مسألة الجمع بين الجلد والرجم:

أولا: هناك خلاف حول الجمع بين الجلد والرجم، والجمهور على أنه لا يجمع، فبعض الفقهاء رأوا أن الزاني المحصن يجلد، ويرجم، بينما جمهور العلماء يرى أنه يرجم فقط من دون جلد.

2 – مسألة الجمع بين الجلد والتغريب:

وهناك خلاف حول تغريب الزاني غير المحصن مع جلده، والتغريب أن ينفى من مدينته، هذا الموضوع أيضا خلافي.

3 – مسألة حد الزاني المملوك:

وهناك خلاف حول حد الزاني غير الحر.

هذه ثلاثة موضوعات خلافية تترك لكتب الفقه، ولبعض الموسوعات الفقهية، ما هو حد الزاني غير الحر ؟ وهل يغرب الزاني غير المحصن مع الجلد ؟ وحول الجمع بين الجلد والرجم حتى الموت، وقد ثبت هذا بالسنة المطهرة.

(فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)

الحكمة من تقديم الزانية في الذِّكر:

لماذا قدمت الزانية ؟ قال القرطبي في تفسيره: **" قيل: لأن الزنى في النساء أعر، هو لأجل الحبل أضر، وقيل لأن الشهوة في المرأة أكثر، وعليها أغلب فصدّرها تغليظا لتردع شهوتها، وإن كان قد ركب فيها حياء، ولكنها إذا زنت ذهب الحياء كله، وأيضا فإن العار بالنساء ألحق، إذ موضوعهن الحجب والصيانة، فقدم ذكرهن تغليظا، واهتماما ".**

[القرطبي في تفسيره]

لذلك بدأ ربنا سبحانه وتعالى بالزانية لأنها الأصل في جريمة الزنى.

الحكم شامل لعموم الزنا:

شيء آخر:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي)

هذه الألف واللام هذه أل الجنس، أيْ: أيّة زانية، وأيّ زان كائنا من كان إذا زنا في ديار المسلمين يجب أن يجلد إذا كان غير محصن، ويجب أن يرجم إذا كان محصنا، هذه إشارة دقيقة، الآن الدول قوانينها نافذة على أرضها في حق كل إنسان يطأ أرضها، سواء أكان من جنسيتها، أم من غير جنسيتها، فلو فرضنا أن إنساناً غير مسلم زنى فيجب أن يقام عليه الحد، ما دامت واقعة الزنى تمت في ديار الإسلام، هذه إشارة دقيقة جدا، فكل من يسكن مع المسلمين يجب أن يلزم حدودهم، ويجب أن يطيع تشريعهم، ويجب أن يدفع ثمن المخالفة، الآن أي إنسان ولو كان غير مسلم إذا سرق تقطع يده، ما دامت هذه السرقة تمت في بلاد المسلمين، لذلك الزانية والزاني، أيْ جنس الزاني، وجنس الزانية، كائنا من كان، مسلما أو غير مسلم، فاجلدوهما، فهذه الألف واللام تسمى في علم النحو ألف الجنس، تقول: الحديد، أيْ جنس الحديد، النحاس، قلْ: نحاس، لا، النحاس أيْ جنس النحاس على وجه الأرض، وخصائصه كذا وكذا.

إقامة الحدود من اختصاص السلطان:

شيء آخر ؛ كلمة:

(فاجْلِدُوا)

لم يقل الله: فاجلد، قال:

(فاجْلِدُوا)

لماذا كان وجه الخطاب إلى المجموع ؟ لأنّ كل خطاب موجه إلى مجموع المسلمين معناه أن أولي الأمر الذين أنيط بهم الأمر عليهم أن يطبقوه نيابة عن المسلمين، مادام المسلمون قد ارتضوا زيدا أو عبيدا ليدير شؤونهم، فهذا الإنسان موكل بتطبيق حد الزنى، لذلك هذا الحد لا يجوز أن يطبق من آحاد المسلمين، هذا الحد يطبق من قبل أولي الأمر فقط، فلا يجوز أن يقول شخص: إذا شاهدت شخصاً يزني فسأجلده !! من أنت ؟ أنت من آحاد المسلمين، هذا الحد لا يطبق إلا من قبل أولي الأمر، وحتى تريح نفسك فالحدود منوطة كلها بأولي الأمر وحدهم، فالإنسان يفكر إذا ظن بأنه مسلم يجب أن يقيم حد الله ما دام مسلماً، هذا الكلام مرفوض.

(الزّانِيَةُ وَ الزّانِي فاجْلِدُوا كُلّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ)

حتى إن الله حينما يقول:

(وَأَنْكِحِوُا الأيَامَى مِنْكُمْ وَالصّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

(سورة النور:الآية 32)

كلمة:

(وَأَنْكِحِوُا)

تعني على أولي الأمر أن ييسروا سبل الزواج، هذا أمر موجه إلى الأمة، وبالتالي إلى من يلي أمور الأمة، فتيسير الزواج للشباب هذا العمل من أوائل أعمال أولي الأمر.

أأنتم أرحمُ أم الله ؟

(وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ)

فلعل هذه الرأفة رأفة مزيفة، أأنتم أرحم أم الله ؟ هو الخالق، هو الرحمن الرحيم، هو الذي يعلم كل شيء، هو الخبير بنفوس عباده، لذلك هذه الرأفة لا معنى لها، هي رأفة ساذجة، قال تعالى:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ)

(سورة البقرة:الآية 179)

فحياة المجتمع تقوم على إقامة الحدود، فإذا أقيم حد السرقة، وحد الزنى، عاش الناس في بحبوحة، وفي أمن، وسلام، وطمأنينة.

هناك إشارة في سورة الإسراء متعلقة بالزنى، يقول الله عز وجل:

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً (31) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (32) وَلَا تَقْتُلُوا النّفْسَ الّتِي حَرّمَ اللّهُ إِلّا بِالْحَقّ)

(سورة الإسراء:الآيات 31-33)

الحكمة من ورود النهي عن الزنا بين آيتي النهي عن قتل النفس:

هنا سؤال، لماذا جاء النهي عن الزنى بين آيتي النهي عن القتل ؟

(وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ)

(وَلاَ تَقْتُلُوا النّفْسَ الّتِي حَرّمَ اللّهُ)

ثم جاء النهي بينهما عن الزنى، فقد استنبط بعض العلماء أن الزنى بمثابة القتل، ولكنه قتل معنوي، فالمرأة إذا زنت تكون وكأنها قُتِلت، وكأنها انهارت، وفقدت مكانتها، وكذلك الرجل، فلذلك لشدة العناية بهذه الفضيلة ؛ فضيلة العفاف جاءت جريمة الزنى بين جريمتي القتل، وكأنه قتل معنوي، إذا كان القتل المادي إزهاقَ الروح، فالقتل المعنوي تضييع النفس، واضمحلالها، وذهاب كرامتها، وشأنها، وعزتها. هذا شيء.

أسلوب التهييج: إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ

والشيء الآخر:

(إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)

فهذه الآية هي أسلوب التهييج، أقول له: إذا كنت رجلاً فافعل ذلك، إذا كنت مؤمنا حقا فأقم الحد،

(وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)

لأنّ من لوازم المؤمن أن يبتعد عن الزنى، ومن لوازم المؤمن أن يقيم هذا الحد

حد الزنا عقوبة للزاني وردع للباقي:

(وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

لماذا قال العلماء: المشاهدون ؟ في الحقيقة أن الإنسان يتلقى أحيانا ضرباً، فإذا تلقى هذا الضرب وحده من الضارب فالألم مادي فقط، ولكن إذا تلقى هذا الضرب أمام ملأ من الناس يعتقد أن الألم يتضاعف آلاف، بل ملايين الأضعاف فعندنا ضرب، وعندنا إهانة، فربنا عز وجل لا يقصد ضرباً مؤلماً إلى درجة أنه يؤذي، ولكن أن يوضع الإنسان في ساحة عامة، وأن يجلد على ملإٍ من الناس، فلان أعوذ بالله، يا لطيف، فلان يجلد، أين شأنه ؟ أين كرامته ؟ أين عزته ؟ فهذا عقاب رادع، عقاب مخيف.

(وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

وهناك شيء آخر، فهؤلاء المشاهدون حينما يرون الرجل قد ألقي على الأرض، وقد انهالت عليه السياط، وقد شعر بالألم والهوان معا صار المشاهدون يحسبون ألف حساب لجريمة الزنى قبل أن يقدموا عليها، وكأن هذا الحد إذا أقيم على ملإٍ من الناس كان بمثابة التطعيم ضد مرض الزنى، فكما أنّ الإنسان يتلقى بعض المصول فيحصن من بعض الأمراض، كذلك إذا رأى منظر جلد الزاني، فلربما كان هذا الجلد تلقيحا له ضد مرض، أو جريمة الزنى.

(وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

من ثلاثة إلى ألف.

إذًا:

(إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ)

أسلوب تهييج، إذا كنت كذا فافعل كذا، فهو مؤمن قطعا، المخاطب مؤمن، ولكن هنا يستثير الله حماسته، ونخوته، وقواعد إيمانه، فلعله يبتعد، أو ينطلق إلى إقامة حد الله عز وجل.

(وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

وإن شاء الله في الدرس القادم نتابع تفسير قوله تعالى:

(الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة النور:الآية 3)

هذا ما يحدث في الغرب فاتّعِظوا:

هناك بعض الأشياء الطريفة في أمريكا، حيث ترتكب في كل 30 ثانية جريمة قتل، أو اغتصاب، أو سرقة.

أعطاني أخ كريم بعض الكلمات مقتطفة من جريدة الثورة تفيد أن نتائج دراسة أجراها معهد لاستطلاع الرأي في هامبورغ، أن امرأة ألمانية غربية من كل اثنتين تقريبا تخون زوجها، أيْ خمسين بالمئة، امرأة من كل اثنتين تخون زوجها، وأن واحدة من كل عشرة تقريبا لها عشيق منتظم، وأن النساء

المتزوجات يخن أزواجهن، وهناك تفصيلات أخرى، على كل يعني حينما يطلق للإنسان العنان، وحينما لا تقام حدود الله عز وجل يصبح المجتمع كله فوضى، فكما جاء النبي إلى قومه في الجاهلية، والحياة فيها فوضى، إذاً تعود الحياة أحيانا إلى نوع من الفوضى لا ينقذها منها إلا إقامة حدود الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (03-23): تفسير الآيات 3 – 5
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-10-14

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة النور، في الدرس الماضي تم بفضل الله عز وجل شرح بعض المعاني من الآية الكريمة:

(الزّانِيَةُ وَالزّانِي فاجْلِدُوا كُلّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة النور: الآية 2)

وآية اليوم:

(الزّانِي لَا يَنْكِحُ إلّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إلّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة النور)

الحكمة من ورود الزاني قبل الزانية في هذه الآية:

الشيء الذي يلفت النظر أن الله سبحانه وتعالى بدأ في هذه الآية:

(وَالزّانِيَةُ وَالزّانِي)

بدأ بالزانية، وفي الآية الثانية:

(الزّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاّ زانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً)

بدأ بالزاني.

قال بعض العلماء: إن الزانية في الآية الأولى قدمت على الزاني لأنها الأصل في عملية الزنى، فهي التي أظهرت مفاتنها، وهي التي قالت له: هيت لك، وهي التي كانت السبب في الزنى، ولكن جاء الزاني في الآية الثانية مقدما على الزانية لأن الرجل في عقد النكاح هو الأصل، وهو الذي يطلب، إذا حملنا كلمة ينكح بمعنى عقد الزواج، ففي القرآن الكريم وردت كلمة النكاح بمعنى عقد الزواج، وقد ذكر بعض العلماء أن كلمة النكاح تعني عملية اللقاء، فلذلك الزاني هنا قدم على الزانية لأنه إذا كان النكاح هو عقد الزواج فالرجل فهو الأصل، فهو الذي يطلب، لذلك قدم الزاني على الزانية.

شيء آخر:

(الزّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إلاّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

الكلام البلاغي خبرٌ وإنشاء:

من أجل أن يكون التفسير واضحا فلابد من وقفة بلاغية، فالكلام عند علماء البلاغة خبر وإنشاء.

1 – الإنشاء:

الإنشاء هو الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والترجي، والحض، والنداء، هذه الأساليب تسمى أساليب الإنشاء، لأن هذا الكلام لا يحتمل الكذب أو الصدق، مثلا لو أنك سألت إنساناً: كم الساعة ؟ هل له أن يقول لك أنت كاذب ؟ لا يمكن أن يقال للسائل: كاذب، ولا للمستفهم، ولا للذي يأمر، ولا للذي ينهى.

2 – الخبر:

أما إذا قلت: أنا عندي مئة ألف ليرة فهذا خبر، والخبر يحتمل الصدق والكذب، فربنا عز وجل أحيانا يأتي بالكلام على صيغة الخبر، وهو يريد النهي.

هذا المعنى دقيق يوضح بمثل منتزع من حياتنا اليومية: لو أن أبا قال لابنه لا تأت بعد الساعة العاشرة، إنه ينهاه عن أن يأتي بعد هذه الساعة المتأخرة، فهذا نهي، ولكن النهي يفيد أنه بإمكان هذا الولد أن يأتي قبل الساعة العاشرة، أو بعد الساعة العاشرة، والنهي يحتمل تصور وجود المنهي.

إذا قال المدير لموظفيه: لا تتأخروا، معنى ذلك أن التأخر واقع منهم، إنه من الممكن أن يتأخروا، فنهاهم عن التأخر، فالنهي من لوازمه أنه يفيد احتمال وقوع المنهي، فإذا قلت لإنسان: لا تأكل كثيرا، معنى ذلك أن من عادته أن يأكل كثيرا، فهذا الأب الذي قال لابنه: لا تأتِ بعد الساعة العاشرة، فهو ينهاه أن يأتي بعد هذه الساعة، لأن احتمال مجيئه بعد هذه الساعة قائم، أما إذا قال الأب لابنه: أنا ليس عندي أحد يأتي بعد الساعة العاشرة، فهذا الكلام خبر، ولكن هذا الكلام الخبري صيغ على طريقة تفيد النهي، ولكن لا يلزم من هذا الكلام أن هناك احتمال أن يأتي هذا الابن متأخراً، فربنا عز وجل أحيانا يسوق النهي على شكل خبر، مثلا قوله عليه الصلاة والسلام:

((لا تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ عَلَى عَمَّتِهَا ولا عَلَى خَالَتِهَا))

[البخاري، مسلم عن أبي هريرة، والترمذي عن ابن عباس]

فهذا خبر يفيد النهي، وقوله صلى الله عليه وسلم:

((لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمُ امْرَأَةً))

[البخاري، الترمذي، النسائي]

وهذا خبر يفيد النهي أيضًا.

أهمية معرفة الخبر والإنشاء في فهم آيات الله:

وهذا الموضوع ؛ أن تعرف أن الكلام خبر وإنشاء مهم جدا في فهم آيات الله، الإنشاء هو الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني، والترجي، والحض، هذه كلها أساليب الإنشاء، وما عداها فهي أساليب الخبر، فربنا عز وجل قال:

(الزّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاّ زَانِيَة)

هذا خبر.

أمّا قول عز وجل:

(ولاَ تَقْرَبُوا الزّنَا)

(سورة الإسراء: الآية 32)

فهذا إنشاء، لأنه بطريق النهي. فقوله:

(الزّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاّ زَانِيَة)

خبر، لكنه حُمِل على الإنشاء، لأنه يفيد المبالغة، فإذا أردت أن تنهى فنفيت على أسلوب الخبر، فهذا أبلغ في النفي، فإذا قلت لابنك: ليس عندي ولد يأتي بعد الساعة العاشرة، فهذا خبر محمولٌ على النهي، وهو أبلغ في النهي، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(الزّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاّ زَانِيَة أوْ مُشْرِكَة)

يتضمن حكمًا دقيقًا جدا، وهو أن المتعاطِفَيْن لا بد من علاقة بينهما، فالإنسان يقول مثلا: اشتريت بيتاً وأرضاً، ولا يقول: اشتريت بيتاً وملعقةً، فلا تناسبَ بينهما، لابد من التناسب بين المتعاطِفَيْن، اشتريت بيتاً ودكاناً، دكاناً ومركبةً، مركبةً وبيتاً، أما إنه يمكنك القول: اشتريت ملعقة مثلا وكأساً، اشتريت قميصاً وسروالاً، فلابد من التناسب بين المتعاطِفَيْن، فربنا سبحانه وتعالى قرن بين الزنى وبين الشرك، فجعله كالزنى، وقبح الزنى، فجعله كالشرك، من هنا جاء التعاطف:

(الزّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاّ زَانِيَة أوْ مُشْرِكَة وَالزّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إلاّ زَانٍ أوْ مُشْرِكٌ وَحُرّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِين)

تفسير الآية ومعانيها:

فهذه الآية لها عدة معان، وقد اختلف العلماء في تفسيرها.

التفسير الأول: خبرٌ للمبالغة:

بعضهم قال: هذا نهي جاء على شكل الخبر للمبالغة، وكأن الله سبحانه وتعالى ينهانا أن نعقد زواجا بين زانٍ وبين عفيفة، أو بين زانية وعفيف، وبين رجل مؤمن عفيف وبين زانية، أو مَن هي أسوأ حالاً منها، وهي المشركة، ونهانا أن نعقد زواجا بين امرأة مسلمة عفيفة، وبين زان، أو من هو أقبح حالا منه، وهو المشرك، فالمعنى الأول المستفاد من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى ينهانا على أن نعقد زواجا بين مسلم عفيف، وبين زانية مشركة، فهذا الزواج باطل، لذلك هذا موضوع خلافي بين الفقهاء، والحديث فيه يطول، ويرجع إليه من شاء ذلك إلى كتب الفقه، بل إلى كتب الفروع، هذا هو المعنى الأول.

يؤكد هذا المعنى قراءة وردت على لسان بعض الصحابة: **الزّانِي لاَ يَنكِحْ:** بجزم ينكحْ، فإذا كانت على الجزم جاءت (لا) ناهية، بمعنى النهي، لكن قراءة حفص عن عاصم:

(الزّانِي لاَ يَنْكِحُ إلاّ زَانِيَةَ أَوْ مُشْرِكَةَ وَالزّانِيَةُ لاَ يَنْكِحُهَا إلاّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)

التفسير الأول: خبرٌ للتقبيح:

عندنا معنى آخر لهذه الآية، وهو أنها خبر، كما قلت قبل قليل، ولكن يفيد التقبيح، أيْ ليس من المستحسن، وليس من اللياقة أن ينكح الزاني عفيفة، وليس من المعقول أن تنكح الزانية عفيفاً، فهذا خبر ساقه الله عز وجل على سبيل تقبيح هذا الفعل، لا على سبيل التحريم.

المعنى الأول خبر ساقه الله عز وجل على سبيل التحريم، والمعنى الثاني خبر ساقه الله عز وجل على سبيل التقبيح، أيْ يقبح أن يتزوج المرأة الزانية رجل عفيف، هذا الشاب طاهر، حياته نظيفة نقية، ليس في حياته زنى، الزانية امرأة خسيسة، امرأة قذرة، امرأة حادت عن الطريق الصحيح، فكيف تستقيم الحياة بين رجل عفيف، وبين امرأة زانية ؟ وكيف ينسجمان ؟ شيء قبيح بالإنسان أن يقترن بزانية، وهو العفيف، أو بالعكس، فقبيح بالمرأة العفيفة أن يقترن بها إنسان زان، فالمعنى الثاني حمل لا على التحريم، بل على التقبيح، أيْ ليس من المعقول ذلك.

الحقيقة أن الحياة الواقعية فيها أمثلة كثيرة، الشيء الثابت أنه قد يتزوج الزاني امرأة عفيفة، وقد تتزوج الزانية شابا عفيفا.

التفسير الثالث: على معنى (ينبغي):

هذا التحريم محمول بالمعنى الثالث على أنه " **ينبغي**"، فمثلا ربنا سبحانه وتعالى قال:

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

[النور: من الآية 26]

فإذا فهمت هذه الآية على أن هذا الشيء واقع مائة بالمائة فقد تفاجأ بامرأة طاهرة زوجها غير طاهر وقد تفاجأ بإنسان طيب وله زوجة غير طيبة، الواقع على عكس ذلك، فلما قال ربنا عز وجل:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

معنى ذلك: أي أنتم يا عبادي احرصوا على أن يكون الطيبون للطيبات، أو ينبغي أن يكون الطيبون للطيبات، فإذا جاء الخبر مخالفا للواقع فهو محمول على كلمة ينبغي.

ولو أنك قلت للناس: قال الله تعالى:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

فهذه قاعدة ثابتة لا تخطئ، فقد تُفاجأ بامرأة مسلمة مصلية صائمة ورعة، لها زوج يشرب الخمر، هل نقول: إنّ القرآن باطل ؟ لا ! القرآن حينما قال:

(لِلطَّيِّبَاتِ)

أراد أن يوجهنا إلى أن نزوج فتياتنا الطيبات رجالاً طيبين، ويوجهنا أيضا إلى أن نزوج شبابنا الطيبين فتيات طيبات، هذا توجيه أخلاقي اجتماعي، لذلك حينما تأتي الآيات ذات الطابع الخبري مخالفة للواقع، فهذه آيات اسمها آيات متشابهة مشكلة، فالعلماء لهم في توجيهها هذا التوجيه الرائع، أيْ ينبغي يا عبادي أن يكون الطيبون للطيبات.

مثلا: قال الله تعالى في البيت الحرام:

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

(سورة آل عمران: من الآية 97)

أي هذا البيت الحرام لا يمكن أن تقع فيه مشكلة، فلما وقعت مشكلة قبل سنوات شكك بعضهم في كتاب الله، هذه الآية معناها: يا عبادي اجعلوا هذا البيت آمنا، هذا خبر ساقه الله بمعنى ينبغي، أيْ ينبغي أن يكون آمنا، واجعلوه آمنا، هذا فهم دقيق لقوله تعالى:

(وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا)

وقوله سبحانه:

(وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)

وقوله:

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾

المعنى الثالث: خبر ساقه الله عز وجل ليقبح هذا الزواج، الذي فيه تناقض بين الزوج وبين الزوجة، الزوجة في واد، والزوج في واد آخر، من هنا استنبط علماء الفقه موضوع الكفاءة، فلا يتم الزواج، ولا ينجح، ولا يستقر إلا إذا كان هناك كفاءة بين الزوجين، فلا ينبغي للزوج البعيد عن الدين أن يقترن بزوجة صاحبة دين، لأنه هو بعيد عن هذه الأجواء، بعيد عن جو القرآن، عن جو الصلاة، عن جو الصوم، عن أجواء الطهر، عن أجواء الفهم، عن أجواء العقيدة، عن أجواء الصلة بالله عز وجل، فإذا قامت لتصلي ينهرها، ويوبخها، ويسخر منها، حينما يسخر منها تنزعج منه، وتنكمش، فلا ينجح الزواج إلا إذا كان هناك انسجام، وتوافق بين الزوجين على المستوى الديني، وعلى المستوى الاجتماعي، وعلى المستوى الاقتصادي، وعلى المستوى الثقافي، فكلما كان هناك تقارب بين الزوجين على مختلف الأصعدة - إن صح التعبير - ينجح الزواج، فهذا المعنى الثالث لقوله:

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾

أي لا يليق بالعفيف أن ينكح زانية، كما لا يليق بالعفيفة أن ينكحها زان.

أول معنى على التحريم خبر جرى مجرى التحريم، والمعنى الثاني خبر جرى مجرى التقبيح، وخبر يعد كالخبر الحقيقي، تقول أحيانا: الشيخ لا يصبو، ليس من عادة الشيخ أن يصبو، أي أن يحب، والسلطان لا يكذب، ليس من عادة السلطان أن يكذب، فهذا خبر جاء محض خبر، من عادة الزاني أنه لا يطرب إلا للزانية، ومن عادة الزانية أنها لا ترضى إلا بالزاني، هنا جاء الخبر على معناه الحقيقي، فالمعنى الثاني جاء الخبر على معنى التقبيح، وفي المعنى الثالث جاء الخبر ليخبرنا أنه في الأعم الأغلب الزاني لا ترتاح نفسه إلاّ للزانية، لا ينسجم إلا مع الزانية، والزانية لا تقبل إلا بالزاني.

هذه المعاني المنوعة في هذه الآية تفيد التحريم أحيانا، وتفيد التقبيح أحيانا، وتفيد تقرير عادة في المجتمع أحيانا أخرى، وتفيد الإخبار بشكله الطبيعي.

وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

الإيمان مرتبة علمية:

أي الزنى محرم على المؤمنين، فالإيمان كما قال الحسن البصري:

((لَيس الإيمانُ بالتمنِّي، ولا بالتحلِّي، ولكن ما وَقَرَ في القلبِ، وصدّقه العملُ))

[مصنف أبي شيبة، والبيهقي في شعب الإيمان]

بنية المؤمن بنية عالية الإيمان، مرتبة علمية، ما اتخذ الله وليا جاهلا، لو اتخذه لعلّمه، فالمؤمن مستقيم على أمر الله، وكفاك بالاستقامة علما، فَعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهلا أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ))

[شعب الإيمان للبيهقي، حلية الأولياء]

فالإيمان مرتبة علمية لا يمكن لإنسان مستقيم إلا أن يكون على شيء من العلم، عرف أن له رباً، عرف أن هذا يجوز، وهذا لا يجوز، هذا حق، وهذا باطل، هذا خير، وهذا شر، هذا سأحاسب عليه، وهذا لا أحاسب عليه، هذا مباح، هذا فرض، هذا حرام، هذه سنة مؤكدة، غير مؤكدة، مستحب، مكروه كراهة تنزيهية، كراهة تحريمية، فهذا المستقيم على أمر الله على جانب من العلم قطعا، فالإيمان مرتبة علمية، أو لقب علمي، وفي الوقت نفسه مرتبة أخلاقية، فإذا قلت: مؤمن أخلاقي أيْ مؤمن صادق، مؤمن مستقيم، مؤمن منصف، مؤمن لطيف، فالإيمان مرتبة أخلاقية، ومرتبة جمالية، المؤمن له أذواق، وله سعادة، لا يعرفها إلا من ذاقها، لأن ربنا عز وجل يتجلى على قلبه تجليات الرحمة، فقلبه مفعم برحمات الله عز وجل، لذلك فهذه الآية تفيد أنه لا ينبغي أن يقترن الزاني إلا بالزانية، أما أن يتزوج الزاني العفيفة، أو أن تتزوج العفيفة بالزاني، فهذا من بعض المعاني محرم، ومن بعض المعاني غير مقبول ذوقا، ومن بعض المعاني لا يقع في العادة.

آية القذف: حِكمتُها وأحكامها:

الآن عندنا آية سماها العلماء آية القذف، كيف لو أنك أمسكت بحجر كبير، وقذفت به إنسانا على رأسه، فأرديته قتيلا، فالذي يتهم امرأة عفيفة مسلمة بالزنى كأنه رماها بحجر، فهشم رأسها، لأن المرأة أثمن ما تملكه سمعتها، وعرضها، فإذا رميتها بالزنى فكأنك رميتها بحجر أصاب منها مقتلاً، لذلك لو أن الشرع تساهل في أمر القذف لصارت أعراض الناس كالكلأ، ترعاه البهائم، فكل إنسان متهم في عرضه، وكل امرأة متهمة، فالإنسان يشك أحيانا أن هناك حالات لو أن الإنسان افترى على امرأة مسلمة عفيفة، واتهمها بالزنى، وتناقل الناس هذا الخبر حتى وصل إلى ذويها، وكان في أهلها أناس منفعلون، لهم انفعال شديد، ربما أقدموا على قتلها، وهي بريئة، فدرءاً لهذه الفتن، ودرءاً لهذه السمعة السيئة، ودرءاً لهذا التشكيك في أعراض الناس، ودرءاً لهذا الخراب في البيوت، ودرءاً لهذا الإرجاف في المدينة، درءا لهذا كله شرع الله سبحانه وتعالى حد القذف، فقال تعالى:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

(سورة النور)

معنى الرمي:

الرمي في أصل اللغة القذف بشيء صلب، فربنا عز وجل حكيم في كلامه، فلم يقل: والذين يرمون المحصنات بالزنى، لأن سياق الآيات عن الزنى:

(الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (3) وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ)

تعريف المحصنَة:

المحصنات صفة مشتقة من الإحصان، والإحصان هو المنع، والمحصَن بالفتح هي المرأة أو الرجل الذي يمتنع عن الزنى لعفته، ولعلمه، ولشرفه، ولعقله.

1 – الإحصان بالعفاف:

قال العلماء: الإحصان بأربعة أشياء: الإحصان بالعفاف، فالعفة إحصان.

2 – الإحصان بالإسلام:

هناك إحصان بالإسلام، فالمسلم محصن.

3 – الإحصان بالحرية:

هناك إحصان بالحرية.

4 – الإحصان بالتزويج:

وهناك إحصان بالتزويج، فالمتزوج محصن، والمسلم محصن، والعفيف محصن.

معنى الإحصان في الآية:

لكن هنا الإحصان يغلب عليه معنى العفة من أن يزني، فربنا سبحانه وتعالى قال:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ)

الرمي فعل مادي، فالكلمة قد تكون غير مادية، لكن ربنا عز وجل جسد الحادثة بشكل مادي، وكأن هذا الذي يرمي المرأة العفيفة الطاهرة قد أمسك بحجر كبير، ورماها به، فهشم رأسها، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ قذفَ مُحْصَنَةً يَهْدِمُ عَمَلَ ثَمَانِينَ سَنَةٍ))

[الفردوس بمأثور الخطاب عن أبي هريرة]

صور القذف:

والآية تنص على أن الذي يرمي امرأة، الرامي رجل، والمرمي امرأة، لكن العلماء قالوا: هذه الآية تتسع لأربع صور:

1 – الصورة الأولى: رميُ الرجلِ المرأة:

2 – الصورة الثانية: رميُ المرأةِ الرجلَ:

3 – الصورة الثالثة: رميُ الرجلِ الرجلَ:

4 – الصورة الرابعة: رميُ المرأةِ المرأة:

قد يرمي رجل امرأة بالزنى، وقد ترمي امرأة رجلا بالزنى، وقد يرمي رجل رجلا بالزنى، وقد ترمي امرأةٌ امرأةً بالزنى، فكل هذه الحالات تنطبق عليها هذه الآية، فلو أن امرأة اتهمت رجلا بالزنى لأقيم عليها الحد، وجلدت ثمانين جلدة، ولو أن امرأة اتهمت امرأة أخرى بالزنى لجلدت ثمانين جلدة، ولو أن رجلاً اتهم آخر بالزنى لجلد ثمانين جلدة، فموضوع القذف يشمل كل الحالات: امرأة رجل، رجل امرأة، امرأة امْرأة، رَجل رجل، لكن لو أن إنسانا فاجرا من عادته أن يزني، وهو لا يتورع عن الزنى، بل لا يتورع أن يخفي ذلك عن الناس، ورميتَه بالزنى فلا حد عليك، لأن الفاجر كما قال الحسن:

((ثلاثة لا غيبة لهم ؛ صاحبُ هوى، والفاسقُ المعلنُ، والإمام الجائر))

[فيض القدير، والتاريخ الكبير للبخاري]

هذه ملاحظة.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ)

أيْ هؤلاء النسوة الطاهرات العفيفات المسلمات المؤمنات المحصنات، هؤلاء الذين يرمون هؤلاء النسوة عليهم حد خطير.

متى يجب حدُّ القذفِ ؟

(ثُمّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ)

متى يستوجب حد القذف ؟ أن يقذف الرجل امرأة، ويعجز على أن يأتي بأربعة شهداء.

أولاً: ربنا سبحانه وتعالى يقول:

الحكمةُ مِن شهادة الرجل دون المرأة في الحدود:

(بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ)

وما قال: بأربع شهداء، لو قال بأربع شهداء لقبلت شهادة المرأة في الزنى، لكنه في الحدود، في حد الزنى، في حد السرقة، في حد الخمر، في الحدود، لا تقبل شهادة امرأة في المعاملات العادية:

(فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشّهَدَاءِ)

[سورة البقرة: الآية 282]

لأن هذا الحد خطير قد يكون هناك رجم، قد يكون هناك جلد، فيه فضيحة، فيه تشهير، لابد من أن يكون أولاً أربعة شهود، في بعض الحالات يكفي شاهد واحد، هذا موضوع الشهادة موضوع طويل، في الفقه حالات بالتعامل يكفي شاهد واحد، وفي حالات لابد من شاهدين، لكن في حالة الحدود لابد من أربعة شهداء، وأن يكونوا حصراً من الرجال، الآن من قذف ذمية - غير مسلمة - بالزنى، ولها ولد مسلم يقام عليه حد القذف مراعاة لابنها المسلم، لأن هذا الذي يرمي ذمية بالزنى سبب العار لابنها، ومن قذف ذمية لها زوج مسلم يقام عليه الحد مراعاة لزوجها، فهناك دقة بالغة في الأحكام الشرعية.

(وَالّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ)

الشروط الواجب توفرها في الشهود:

البلوغ والعقل والاختيار والعدالة والعلم بالتحريم

من هنا يبدو أن الإنسان الذي يرمي يجب أن يكون بالغاً، ولا بد أن يكون عاقلا، فلو أن مجنونا قذف امرأة لم يُقَمْ عليه الحد، ولا بد من أن يكون مختاراً، لو أكره على أن يقول كذا وكذا لم يُقَمْ عليه الحد، ولا بد أن يكون عالما بالتحريم، يجب أن يكون بالغا، عاقلا، مختارا، عالما بالتحريم حتى يُعَدّ موضعا لإقامة الحد، فالآيات الكريمة تكون موجزة، لكن الفقهاء بمقارنة هذه الآيات مع آيات أخرى متعلقة

بشروط التكليف استنبطوا هذه القواعد، قال العلماء: من يقذف صبيا، ويتهمه بالانحراف الأخلاقي أقيم عليه حد القذف، لأن هذا الصبي له أهل، وسمعة، فلمجرد أنك رأيته خرج من بيت قد يكون بيت أخته، فمن أجل أن يكون الإنسان دقيقاً جداً لا يستطيع أن يشيع خبر الزنى، أو الانحراف إلا إذا كان متأكدا من أربعة شهود، وألا يقام عليه حد القذف.

وفي الدرس قبل الماضي ذكرت لكم كيف أن امرأة كانت تغسل امرأةً ميتا، وفجأة التصقت يدها في جسد، حيث استحال أن تنزع هذه اليد عن هذا الجسد، وحار أهل الميت ؛ أيقطعون جزءاً من لحمه، أم يقطعون يد الغاسلة، وقالوا كما هو معروف: لا يفتى ومالك في المدينة، عرضوا على الإمام مالك هذه الواقعة فقال: **هذه الغاسلة اتهمت المرأة الميت بالزنى، ولذلك اجلدوها ثمانين جلدة**، ويروى أنه مع الضربة الثمانين نزعت يدها من جسد الميت، فالإمام الغزالي في الإحياء يقول: **" هناك غيبة القلب"**، فالإنسان لو لم ينطق بلسانه فهناك حالات إذا حدثته نفسه بكذا باطلا، وظلما فلابد أن يعاقب، لأنه من أحسن الظن بأخيه فكأنما أحسن الظن بربه، ومن حق المسلم على المسلم أن يصون دمه، وماله، وألاّ يقع فيه بغير بينة، فهؤلاء الشهود يجب أن يكونوا من أهل الشهادة، وتعلمون أن رواية الحديث علمتنا علماً دقيقاً، هو أنه لا يصح لإنسان أن يروي الحديث الشريف ما لم يكن عدلا، وثقة، الثقة والعدل، العدل والأهلية، العدالة صفة نفسية، تعني أنه لا يكذب، والدقة، والثقة، والضبط صفة عقلية، فمن أجل أن تروي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلابد أن تتأكد من أن هذا الإنسان يتمتع بالعدالة، وبالضبط.

اختلاف الأئمة في شرط العدالة:

أما موضوع الشهادة بين الناس في أحوال الناس ومعايشهم فقال العلماء: **" يكفي أن يكون هؤلاء من أهل الشهادة"**، ومن هم أهل الشهادة ؟ بعضهم قال: هم أهل العدالة، أيْ إنسان لا يكذب، إنسان ما جُرّب عليه كذب قط، ما جربت عليه خيانة، ما جرب عليه انحراف، هؤلاء أهل الشهادة، ولكن أن يكون الشهود من أهل العدالة، أو لا يكونون، فهذا موضوع خلافي بين الإمام أبي حنيفة والإمام الشافعي، فإذا جئت بأربعة شهود شهدوا أن هذه المرأة زانية، فهؤلاء الشهود ينبغي عند الإمام الشافعي أن يكونوا من أهل العدالة، مستقيمين، لكن الإمام أبا حنيفة لم يشترط أن يكون من أهل العدالة، لأنه يصعب ذلك، فلو فرضنا أننا نريد أن نحاسب الناس حساباً دقيقاً جداً لتعطلت الشهادة في العالم الإسلامي، هذا رأي الإمام أبي حنيفة رحمه الله.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً)

لاحظوا حدّ جريمة الزنى، غير المحصن يجلد مئة جلدة، وجريمة القذف يجلد القاذف ثمانين جلدة، فهناك فرق بسيط جدا بين حد الزنى وحد القذف، لأنكم تحسبونه هينا، وهو عند الله عظيم.

ما يترتب على القذف:

1 - سقوط شهادة الشهود:

(وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا)

هذا عقاب آخر، الحقيقة حد القذف ثلاثة أنواع ؛ أول نوع: الجلد علِى مرأى من الناس في ساحة عامة بين جمع غفير من المؤمنين، والحد الثاني:

(وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا)

هي الآن تقريبا مثل شهادة السوابق - لا حكم عليه - محكوم بقذف امرأة محصنة، فشهادته غير مقبولة، وفَقَدَ حقه، وفَقَدَ اعتباره، ومكانته، هذا محدود بحد القذف، ويكتب على صحيفته: **" محدود بحد القذف، شهادته غير مقبولة"**.

2 - دَمغُهم بالفسق:

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

وهؤلاء دمغوا بالفسق، فلو أنك قلت: عنه إنه فاسق فلا شيء عليك، ويجب أن يشيع بين الناس أنهم فاسقون، ويجب أن ترفض شهادتهم، ويجب أن يقام عليهم الحد.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُم ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

لقد دمغ ربنا عز وجل هؤلاء بالفسق والفجور، وأنك إذا قلت عنهم أنهم فاسقون فلا شيء عليك، فالله سبحانه وتعالى بيّن أنهم فاسقون، قولا واحدا.

هل ينصرف الاستثناء إلى الأقسام الثلاثة ؟

(إِلاّ الّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

هذه الآية فيها دقة بلاغية، وهي أن الاستثناء هل ينصرف إلى الأقسام الثلاثة، فإذا قذف الإنسانُ امرأة محصنة، ثم تاب هل يعفى من إقامة الحد ؟

الجواب:

لا **!** لماذا ؟ لأن الحقوق في المجتمع الإسلامي نوعان حق الأفراد، وحق الله عز وجل فلو أن المقذوف عفا، وقال: أنا عفوت عنك، لقد قذفت زوجتي، والزوجة عفت فهل عفو الزوجة يمنع إقامة الحد ؟

الجواب:

لا **!** هذا حق الله عز وجل، وليس حق المقذوفة، فلو أن المقذوفة ماتت قبل أن يقام على المقذوف الحد هل يعفى من الحد ؟ لا **!** في النظام الغربي جريمة الزنى لا يمكن أن تحرك بها قضية في القضاء إلا بطلب من الزوج، أو من المزني بها، فلو أن الزوج أسقط حقه في المرافعة، ولو أن المرأة أسقطت حقها لم تحرك دعوى ضد الزاني أبدا، أما في الإسلام فهناك حق الله عز وجل، فعفو المقذوفة لا يعفي القاذف من حد القذف.

إذًا:

(إلاّ الّذِينَ تَابُوا)

هذا الاستثناء لا ينسحب إلى القسم الأول.

(فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (4) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا)

لو أنهم تابوا فلابد أن يقع عليهم الجلد.

لكن القسمين الثاني والثالث ربما صلح أن ينسحب عليهم الاستثناء:

(إلاّ الّذِينَ تَابُوا)

متى تُقبَل شهادة القاذف بعد توبته ؟

هؤلاء إذا تابوا يمكن أن تقبلوا لهم الشهادة، لكن متى ؟ أوجه رأي قاله بعض العلماء:

1 – الاعتراف بافتراء التهمة:

إن الذي يقذف امرأة محصنة لا يستعيد اعتباره الإسلامي في المجتمع إلا بعد أن يعترف بأنه كاذب بهذه التهمة، الذين قال أمامهم جميعا يجب أن يعترف أنه كان كاذبا في هذا الموضوع، إذا قال القاذف: إنه كان كاذبا، وإن هذه المرأة التي اتهمها بالزنى هي امرأة بريئة عفيفة حَصان.

2 – مُضيّ عام لإثبات صلاحه:

ويجب أن يمضي عليه عام حتى يثبت صلاحه، بعدئذ تقبل شهادته، ولا تقبل شهادة القاذف إلا بعد أمرين ؛ أن يعترف بأنه كاذب، وأن يصرح بأن هذه المرأة التي اتهمها بالزنى امرأة عفيفة، وأن يمضي عام بأكمله يثبت للناس صلاحه، عندئذ يسترد حقه في الإدلاء بالشهادة تطبيقا لهذه الآية:

(إلاّ الّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا)

وقد حمل بعض العلماء أن يقول للناس: إنه كاذب، وإن هذه المرأة شريفة وعفيفة من قوله تعالى:

(وَأَصْلَحُوا)

(إِلّا الّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النور)

أما أن ينسحب الاستثناء على الآية القسم الأخير:

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

فهذا قول ثابت، فالاستثناء إما أن ينسحب على آخر جزء، وإما أن ينسحب على كل الأجزاء، فانسحابه على آخر جزء قطعي، فحينما يتوب الإنسان، ويصلح لم يعد فاسقا، لكن هل تقبل شهادته ؟ تقبل بعد الإصلاح، بعد أن يعترف بكذبه، ويعترف بطهارة هذه المرأة، وبعد أن يمضي عام يثبت صلاحه، أما الجلد فلا يتعلق بهذا الاستثناء أبدا لو تاب.

لو أنه تاب إلى الله توبة نصوحا فلا بد أن يقوم عليه حد الجلد، أو حد القذف، لأن هذا حق الله عز وجل، كل العلماء انقسموا حول هذه الآية قسمين: بعضهم غلّب حق الله على حق العبد المقذوف، وبعضهم غلّب حق المقذوف على حق الله، لكن الذين غلبوا حق الله على حق العبد المقذوف كانوا أقرب إلى الحقيقة، لأن الله سبحانه وتعالى ولي الذين آمنوا، فهذا المقذوف عفا أم لم يعف فلابد أن يقام عليه الحد، فالإنسان دقيق، فالناس أحيانا في سهراتهم ونزهاتهم ولقاءاتهم يتحدثون عن فلانة، وعن فلانة، فلو كان الإنسان يحاسب حساباً دقيقاً وفق هذه الآية يجب أن يجلد معظم الناس، كيف تخوض في أعراض النساء، كيف تتهم فلانة أنها زانية، كيف تشير بإصبعيك، كيف تنفض ثوبك وتقول: لا أدري، هذا قذف أساسا، القذف ليس باللسان فقط، باللسان، وبالحركة، وبالعبارة.

جلد الشهود عند عدم استكمال الأربعة:

لو أن هذا القاذف تمكن أن يحضر ثلاثة شهود على أن هذه المرأة زانية يقام عليه الحد، ويجلد الشهود على أنهم قاذفون أيضا، فيجب أن يكونوا أربعة، فإذا كانوا ثلاثة يُجلدون كلهم، فهذا كان شاهداً، فلما لم

يستكمل النصاب أصبح قاذفا، ويقام عليه حد الجلد صونا لحق المرأة العفيفة. ثلاثة شهود جاؤوا ليدلوا بشهادتهم، إذاً يبطحون على الأرض، ويجلدون، لأن الرابع لم يأت معهم. أما كلمة:

(فَاجْلِدُوهُمْ)

إقامة الحدود منوطة بالسلطان حصرًا:

فكما قلنا في الدرس الماضي هذا خطاب موجه إلى عامة المسلمين، ممثلين في أولي الأمر، فليس على آحاد المسلمين أن يقيموا هذا حد الجلد، هذا الحد من اختصاص أولي الأمر، وليس من اختصاص آحاد المسلمين أن يمسك السياط، ويضرب زانيا أو قاذفا، بأنك تريد أن تقيم حد الجلد، أو حد القذف، هذا كلام مرفوض، لا يقيم حد القذف إلا أولو الأمر لقوله تعالى:

(فَاجْلِدُوهُم ثَمَانِينَ جَلْدَةً)

كما قلت قبل قليل: لو أن أولي الأمر وصل إلى علمهم أن فلانًا يقذف فلانة، ويتهمها بالزنى فعليهم أن يقيموا الحد، سواء أطلب المقذوف ذلك أم لم يطلب، الذي يهمنا من هذه الآية أن المجتمع الإسلامي يجب أن يكون نظيفاً، بل يجب أن تكون الثقة شائعة فيه، فلو سمحنا للناس أن يتهم بعضهم بعضا من دون قيد أو شرط لأصبح الشك هو الأصل، نحن عندنا قاعدة أساسية: الإنسان بريء ما لم يتهم، فالأصل أن الإنسان بريء، والأصل أن الإنسان عفيف، وأن الإنسان طاهر، وأنه مستقيم، فإذا أردت أن تتهمه فيجب أن تقيم على ذلك الدليل القطعي، وإلا فهناك عقاب وبيل، فهذه الآية تردع الناس عن أن يلغطوا في أعراض المسلمين والمسلمات وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

[أخرجه الترمذي، ابن ماجه]

لكن ثمة حالات سوف نراها في الدرس القادم، فاجأ زوجته فإذا هي في موضع الزنى، فهل عليه أنْ يُحضر أربعة شهداء ؟! هذا مستحيل، لذلك عندنا آية اسمها آية الملاعنة، هذه نشرحها إن شاء الله تعالى في الدرس القادم.

(وَالّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللّهِ إِنّهُ لَمِنَ الصّادِقِينَ (6) وَالْخَامِسَةُ أَنّ لَعْنَةَ اللّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللّهِ إِنّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنّ غَضَبَ اللّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصّادِقِينَ (9))

[سورة النور: 6-9]

تحريم رواية أخبار اللقاءات وقصص الخلاعة:

بقيت نقطة واحدة، وهي أن الإسلام من خلال هذه الآية حرم قذف المحصنات توصلا إلى تحريم رواية أخبار اللقاءات، والزنى، وما شاكل ذلك، هذه الأخبار من شأنها إذا شاعت بين الناس أن تشجع الناس على الزنى، فرواية الأخبار في البلاد الأجنبية هذه الموضوعات تطرق في وسائل الإعلام، في الصحف، في المجلات كثيرا، إلى أن يظن الإنسان أن هذا شيْء مألوف، ليس من آداب المسلم ترويجُ قصة إذا كان بالحارة، وسمع بقضية زنى، بقضية لا أخلاقية، ولو كان بشكل صحيح، بشكل غير مبالغ به، هذا يلفت نظر الشاب، أحيانا يدخل في روعه أن الناس هكذا، أن هذا الشيء مباح، فلئلا تكون هذه القصص منتشرة ورائجة في المجتمع الإسلامي جُعل حد القذف، غير أنه صونًا للأعراض وللأنساب، ودفعا للشك، والريب، وصونًا للدماء من أن تهدر ظلماً، عندنا شيء ثانٍ ؛ هذا الموضوع لا ينبغي أن يروج بين الناس، العلاقات الزوجية، موضوع فلان وفلانة، فلان دخل بيتا، كان في خلوة مع فلانة، فمثل هذه الكلمات من شأنها أن تثير العواطف، وقد روى الإمام أحمد في مسنده عَن أُسَامَةَ بْن زَيْدٍ أَنّ قَالَ:

((كَسَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قُبْطِيّةً كَثِيفَةً كَانَتْ مِمّا أَهْدَاهَا دِحْيَةُ الْكَلْبِيُّ، فَكَسَوْتُهَا امْرَأَتِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: مَا لَكَ لَمْ تَلْبَسْ الْقُبْطِيّةَ ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَوْتُهَا امْرَأَتِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: مُرْهَا فَلْتَجْعَلْ تَحْتَهَا غِلَالَةً، إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا))

[أحمد، الطبراني في المعجم الكبير، البيهقي في السنن الكبرى]

فأيُّ كلمة أخرى غير هذه قد تثير الإنسان !!!

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7))

(سورة المؤمنون: الآيات 3-7)

فهذه الآية من فوائدها أنها تنهى عن الخوض في هذه الموضوعات كليا، وإذا خاض الإنسان فيها ظلما فلابد من حد القذف الذي يقترب من حد الزنى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (04-23): تفسير الآيات 6 – 10، آيات الملاعنة - قصة الإفك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-10-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة النور، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (6) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (7) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (10))

(سورة النور)

أحكام الملاعنة بين الزوجين:

أيها الإخوة المؤمنون، هذه الآية هي آية اللعان، أو آية الملاعنة، وهذه الآية كما ورد في آخرها:

(وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ)

لو أن امرأً شاهد امرأته تزني، وليس له أربعة شهود يشهدون على هذه الواقعة، فما حل هذه المشكلة، إن تكلم في حق زوجته يحد بنص الآية السابقة:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلاَ تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)

ففي نص هذه الآية هذا الذي يرى واقعة الزنى في بيته، وليس له أربعة شهود يشهدون على هذه الواقعة، واتهم زوجته بالزنى، فبنص الآية السابقة لابد أن يُجلد ثمانين جلدة، لذلك جاءت آيات الملاعنة فيما بين الزوجين رحمةً من الله عز وجل، وفضلا، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ)

أدب القرآن في اختيار الكلمات:

الكلام فيه أدب رفيع:

(يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ)

ولم يقل: بالزنى، ومفهوم من سياق الآيات أن الحديث عن الزنى، لذلك الكلام الذي يفهم إن لم تذكره، الأولى ألاّ تذكره، هذا من البلاغة، ومن الأدب في وقت واحد، من البلاغة أن الألفاظ التي تخدش الحياء يجب ألاّ تذكر، ومن البلاغة أن الشيء الذي يفهم من دون أن يذكر يجب ألاّ يذكر، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ)

بالمناسبة لك أن تقول: زوجي وزوجتي، وكلاهما صحيح، ولك أن تقول: امرأة عروس ورجل عروس، كلاهما صحيح، وتطلق في اللغة على الذكر والأنثى في وقت واحد، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ)

بمعنى زوجاتهم.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءَ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ)

دخل بيته فجأة، فإذا رجل مع زوجته في وضع مشين، ماذا يفعل ؟ هل يقول لهما: انتظرا حتى آتي بالشهود، هذا مستحيل، لذلك لمثل هذه الحالة الصعبة، ولمثل هذه الواقعة العظيمة شرع ربنا سبحانه آيات الملاعنة، ففيها أشياء دقيقة جدا.

معنى الشهادة:

هنا كلمة الشهادة في آيات الملاعنة،

المعنى الأول:

الشهادة تعني الخبر الصادق، أنت شاهدت شيئا، ونقلت هذه المشاهدة إلى قاض، أو إلى جهة، فهذه الشهادة تعني الخبر الصادق، لكن علماء التفسير استنبطوا من قوله تعالى:

(إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (1) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)

(سورة المنافقون: الآيات 1-2)

فربنا سبحانه وتعالى سمى شهادتهم يمينا، فالشهادة لها ثلاثة معانٍ: المعنى الأول الخبر القاطع المبني على مشاهدة.

المعنى الثاني:

اليمين.

المعنى الثالث:

البينة والدليل، فتأتي الشهادة في القرآن الكريم، وفي هذه الآية بالذات معنى الخبر القاطع، وبمعنى اليمين، وبمعنى البينة، أي الدليل، لهذا يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاّ أَنْفُسُهُمْ)

الاستثناء وأنواعُه:

فهذه (إلاّ) أداة استثناء، تقول مثلا: حضر الطلاب إلا خالدا، فخالد طالب، فإذا كان المستثنى بـ (إلاّ) من جنس المستثنى منه فالاستثناء متصل، القضية سهلة جدا، وإذا كان المستثنى بـ (إلاّ) ليس من جنس منه المستثنى فالاستثناء منقطع، تقول: حضر الطلاب إلا المدرّس، فالمدرّس ليس طالبا، لهذا قال الله عز وجل:

(فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلاّ إِبْلِيسَ)

[الحجر: 29-30]

فليس معنى هذا أن إبليس من الملائكة، هذا استثناء منقطع، فالذين قالوا: إن هذا الاستثناء استثناء متصل جعلوا الزوج أحد الشهود، أو شاهدا يغني عن أربعة شهود، فيجب حينئذٍ أن تنطبق عليه أحكام الشهادة، ويجب أن يكون شاهدا تصح شهادته في نظر الفقهاء.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلاّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)

صيغة شهادة اللعان بين الزوجين:

أيْ يشهد، ويقول: أشهد بالله أنني صادق فيما أرمي به زوجتي، ويسكت، ثم يقول: أشهد بالله أني صادق فيما أرمي به زوجتي، ويسكت، ثم يقول: أشهد بالله إني صادق فيما أرمي به زوجتي و، يسكت، ثم يقول: أشهد بالله أني صادق فيما أرمي به زوجتي، فهذه الشهادات الأربع خبر قاطع مع يمين، فكأن هذه الشهادة تحملت معنى اليمين والخبر القاطع، لذلك فربنا سبحانه وتعالى من رحمته بهذا الزوج الذي

رأى حادثة لا يحتملها أنْ قال له: أنت تشهد، وشهادتك تنوب عن أربعة شهود، ولا بد أن يشهد شهادة خامسة، ما هي هذه الشهادة الخامسة ؟

قال الله عز وجل:

(وَالْخَامِسَةُ)

أيْ والشهادة الخامسة:

(أَنّ لَعْنَةَ اللّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

ويقول: أشهد بالله أن لعنة الله علي إن كنت من الكاذبين، وبهذه الشهادات الخمس يثبت الزنى على زوجته، وتمنع عنه حد القذف.

(وَالّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً)

بهذه الشهادات الأربع، والشهادة الخامسة يستطيع الزوج أن ينجو من حد القذف، لأن الآية السابقة تحتم على القاذف حد القذف إن لم يأت بأربعة شهداء، هو الآن شاهد واحد، لكنه زوج، قال العلماء: إنه لا يعقل أن يشهد الزوج أمام القاضي على زوجته بالزنى، وهي بريئة، لأنه إذا شهد بذلك جلب العار لبيته، وجلب الدنس لفراشه، وألحق بنسبه ما ليس منه، لذلك ليس من مصلحة الزوج أصلا أن يتهم زوجته بالزنى أمام ملأٍ من المسلمين، ولو لم يكن رآها فعلا لما أقدم على فضحها، لذلك فشهادة الزوج ليست كشهادة أحد من الناس، شهادته أربع شهادات بالله، بشرط أن يقول: أشهد بالله أني لمن الصادقين، مرة، وثانية، وثالثة، ورابعة، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين.

موقف الزوجة بعد ملاعنة الزوج لها:

ما موقف الزوجة ؟ حينما يشهد الزوج هذه الشهادات الأربع، ويشهد الشهادة الخامسة فقد أوجب عليها حد الرجم، لأنها محصنة، ودرأ عن نفسه حد القذف، لأن شهادته كما قال الله عز وجل:

(فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللّهِ)

لكن الله سبحانه وتعالى رحمة بالمرأة أعطاها شيئا تنجو به إن كان زوجُها كاذبا، وليكن احتمال كذبه واحد بالمئة.

(وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللّهِ إِنّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8))

أما إذا قالت: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين، مرة، وأشهد بالله إنه لمن الكاذبين، وثانية، وأشهد بالله إنه لمن الكاذبين، وثالثة، وأشهد بالله إنه لمن الكاذبين، ورابعة فعليها أن تنطق بالشهادة الخامسة، لكن الشهادة الخامسة تجعلها من أهل النار، وشهادة الرجل الخامسة تجعله من أهل النار.

(وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9))

لذلك قال العلماء: على القاضي إذا وصلت المرأة إلى الشهادة الخامسة أن يقول لها: يا امرأة عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، وفضح الدنيا أهون من فضح الآخرة، فالقاضي مكلف أن يذكّر الزوج قبل أن يشهد الشهادة الخامسة ؛ أن أيها الرجل عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، عذاب الدنيا حده القذف، فإذا نطق بالشهادة الخامسة، وكانت بريئة استوجب النار، إنها قضية في منتهى الدقة والخطورة.

(وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (8) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (9))

لطائف ودقائق واستنباطات من آيات اللعان:

الآن في هذه الآيات ؛ آيات اللعان لطائف ودقائق واستنباطات:

اللطيفة الأولى: الفرق بين اللعنة في حق الزوج والغضب في حق المرأة:

فمن هذه الدقائق أو اللطائف أن الله سبحانه وتعالى قال:

(وَالْخَامِسَةُ)

المتعلقة بالزوج:

(أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

(وَالْخَامِسَةَ)

المتعلقة بالمرأة:

(أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

فهل هناك فرق بين لعنة الله، وبين غضبه ؟ العلماء وقفوا موقفين، فبعضهم قال: لعنة الله أشد من غضبه، لأنه رماها بالزنى، وقد تكون بريئة، وبعضهم قال: غضب الله أشد من لعنته، لأنها هي الأصل في الزنى، فلو لم تزن لما جرّت زوجها إلى هذه المشكلة، على كلٍ اللعن هو الإبعاد، فإذا قال الإنسان لإنسان: لعنة الله عليك، أي أن الله سبحانه وتعالى أبعده عن ذاته المقدسة، وأبعده عن ذاته العظيمة، لذلك في الآخرة أشد عقاب يعاقب به أهل النار:

(كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين: الآية 15)

ابتعدوا، والذي يملك حاسة مرهفة يجد أن في الإبعاد أشد أنواع العذاب، وأشد أنواع العقاب، على كلٍ ربما بررنا، أو سوّغنا - إن صح التعبير - للمرأة أن تشهد أربع شهادات بالله، إنه لمن الكاذبين، إنقاذا لسمعتها من العار والشر، وربما كانت لعنة الله أشد وقعا من غضب الله، على كلٍ فإنّ غضبه، ولعنته شيئان مخيفان، نعوذ بالله منهما، والمعنى الدقيق للّعن: الطرد من رحمة الله، والمعنى الدقيق للغضب هو: السخط، والعلماء بين أن يكون اللعن أشد من الغضب، وبين أن يكون الغضب أشد من اللعن، على خلاف فيما بينهم.

اللطيفة الثانية: اللعان يكون بين مسلمين حرين:

الذين عدوا هذه الشهادات أخضعوها لأحكام الشهود، أي ينبغي أن تنطبق على الزوج الملاعن أحكام أهل الشهود، فالإنسان أحيانا يفقد حقه في الإدلاء بالشهادة، فمثل هذا الزوج الذي فَقَدَ حقه أن يشهد فشهادته مرفوضة، ولعنه مرفوض، والمرأة كذلك ما دام هذه بإمكانها أن تشهد أربع شهادات بالله، إنه لمن الكاذبين، إذاً هي شاهدة تنطبق عليها أحكام الشهود، والشاهد يجب أن يكون مسلما، عدلا، ثقة، لذلك استنبط العلماء أن اللعان لا يجري إلا بين زوجين مسلمين، حُرّيْن لا رقيقين، فلا يجري بين حر ورقيق، ولا بين رقيق وحر، كما لا يجري بين زوجين غير مسلمين، ولا بين زوجين كافرين، لأننا طبقنا عليهما أحكام الشهود العدول.

الحقيقة أنّ هناك علاقة دقيقة بين آيات القذف، وآيات اللعان.

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ)

فرق كبير بين أن يتهم الإنسان امرأة أجنبية بالزنى، فهذا يجب أن يأتي بأربعة شهداء، وإلا يجلد، ويقام عليه حد القذف، وربما لا يتأثر بيته، ولا تتأثر مكانته، ولا سمعته من قذف هذه المرأة الأجنبية المحصنة، لذلك حد القذف يقام عليه إن لم يأت بالشهداء الأربعة، فلو جاء بشهود ثلاثة - لك أن تقول في جمع شاهد: شهداء وشهود، فإن لم يأتوا بالشهداء، الشهداء جمع شاهد، والشهيد أيضا جمعه شهداء، فالشهداء جمع لشاهد ولشهيد، وهنا الحديث عن الشهداء جمع شاهد بالضبط، لكن الإنسان عندما يرمي زوجته بالزنى، فهذا ليس من مصلحته إذا كان كاذبا بهذا الرمي، لأن هذا الرمي سيسبب له العار، سيسبب له الشك في ولده ؛ أهو منه، أم من غيره ؟ سيسبب له سمعة سيئة، سيسبب له انهياراً اجتماعياً، لذلك قال العلماء: إنه لا يقدم على رمي الزوجة بالزنا إلا أن تكون هذه الواقعة صحيحة، لهذا رحمه الله عز وجل، وخفف عنه، وقال: أنت أيها الزوج لك حكم مستقل، شهادتك تعادل أربع شهادات يدلي بها

شهود عدول، هذه هي العلاقة بين آيات القذف، وبين آيات اللعان؛ وكأن الله سبحانه وتعالى في آخر هذه الآية:

(وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ)

أيْ لولا أن الله رحمكم بآيات اللعان لكان في الأمر حرج شديد، فتصور حالة زوج رأى رأي العين زوجته تزني، والشرع لا يسمح له بسماع هذه الدعوى إلا بأربعة شهود، والشهود كيف يأتون، إن ذهب ليحضرهم قد يُتلافى الأمر، فلا يجد حلاً، لذلك النبي الكريم حينما عرضت عليه قضية قبل نزول هذه الآية استرجع الله سبحانه وتعالى وقال: لعلّ الله يحدث في هذا الأمر أمرا، لعله يحدث أمرا.

سبب نزول آية الملاعنة:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

((إِنَّ أَوَّلَ لِعَانٍ كَانَ فِي الْإِسْلَامِ أَنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّةَ قَذَفَ شَرِيكَ بْنَ السَّحْمَاءِ بِامْرَأَتِهِ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ بِذَلِكَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرْبَعَةَ شُهَدَاءَ وَإِلَّا فَحَدٌّ فِي ظَهْرِكَ، يُرَدِّدُ ذَلِكَ عَلَيْهِ مِرَارًا، فَقَالَ لَهُ هِلَالٌ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْلَمُ أَنِّي صَادِقٌ، وَلَيُنْزِلَنَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْكَ مَا يُبَرِّئُ ظَهْرِي مِنْ الْجَلْدِ، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ آيَةُ اللِّعَانِ،

(وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ)

إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، فَدَعَا هِلَالًا، فَشَهِدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنْ الصَّادِقِينَ، وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنْ الْكَاذِبِينَ، ثُمَّ دُعِيَتْ الْمَرْأَةُ فَشَهِدَتْ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ، إِنَّهُ لَمِنْ الْكَاذِبِينَ، فَلَمَّا أَنْ كَانَ فِي الرَّابِعَةِ أَوْ الْخَامِسَةِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَقِّفُوهَا، فَإِنَّهَا مُوجِبَةٌ، فَتَلَكَّأَتْ حَتَّى مَا شَكَكْنَا أَنَّهَا سَتَعْتَرِفُ، ثُمَّ قَالَتْ: لَا أَفْضَحُ قَوْمِي سَائِرَ الْيَوْمِ، فَمَضَتْ عَلَى الْيَمِينِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: انْظُرُوهَا فَإِنْ جَاءَتْ بِهِ أَبْيَضَ سَبِطًا قَضِيءَ الْعَيْنَيْنِ فَهُوَ لِهِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ، وَإِنْ جَاءَتْ بِهِ آدَمَ جَعْدًا رَبْعًا حَمْشَ السَّاقَيْنِ فَهُوَ لِشَرِيكِ بْنِ السَّحْمَاءِ، فَجَاءَتْ بِهِ آدَمَ جَعْدًا رَبْعًا حَمْشَ السَّاقَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْلَا مَا سَبَقَ فِيهَا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ لَكَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ))

قَالَ الشَّيْخُ: **" وَالْقَضِيءُ طَوِيلُ شَعْرِ الْعَيْنَيْنِ لَيْسَ بِمَفْتُوحِ الْعَيْنِ، وَلَا جَاحِظِهِمَا، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ "**

[البخاري عن ابن عباس، مسلم، الترمذي عن أنس، والنسائي عن ابن عباس]

شروط حد القاذف:

شيء آخر، المرأة التي يحق لها أن تشهد أربع شهادات بالله يجب أن تكون من النوع التي إذا قذفت بالزنى أقيم على قاذفها الحد، فكما تعلمون من الدرس الماضي من اتهم امرأة زانية بالزنا لا يقام عليه الحد، إذاً امرأة فاجرة تزني على قارعة الطريق تزني من دون تخف، تفصح عن زناها، تقول: كنت مع فلان وفلان، فهذه امرأة فاجرة، هذه امرأة لا يحد قاذفها.

متعّلق الصدق والكذب في الملاعنة:

تكلمنا في الدرس الماضي أنه لا يحد قاذف المرأة إلا إذا كانت المرأة بريئة من الزنى، محصنة، والإحصان كما قلنا هو الإسلام، والزواج، والعفة، وما شاكل ذلك، لذلك هذه الآيات آيات الملاعنة لا تجري إلا إذا كانت الزوجة من النوع التي إذا قذفت أقيم على قاذفها الحد، عندئذ لها أن تشهد أربع شهادات بالله، إنه لمن الكاذبين، كذلك الزوج لا يحق له أن يشهد أربع شهادات، على أنه من الصادقين إلا إذا كان من النوع الذي يحق له أن يشهد، وكما تكلمنا في دروس سابقة الشهادة على أنواع، هناك نوع يكتفى فيه بالشاهد، أن يكون مسلما، عدلا، وفي شهادات أخر يجب أن يكون الشاهد عدلا، وثقة، العدالة والضبط في رواية الأحاديث لابد أن يكون الشاهد مسلما، عدلا، ثقة، لكن في الإدلاء ببعض الوقائع أمام القاضي يكفي أن يكون الشاهد مسلما، والإسلام هو انصياع لأوامر الله سبحانه وتعالى.
العلماء الآن على خلاف في أن آيات اللعان لا تحتاج إلى متعلق الصدق والكذب، ففي هذه الحادثة يكون هذا الزوج قد رأى زوجته في حالة الزنى، فله أن يقول في المحكمة أمام القاضي: أشهد بالله إني لصادق فيما رميتها به، لا يحتاج الزوج إلى أن يذكر بالتفصيل ماذا جرى أمام القاضي، رأفة بحاله، ورعاية لحق هؤلاء المستمعين، وتوفيرا عليه من إبداء تفصيلات قد تحرجه في ذكرها أمام القاضي، لذلك أجاز العلماء أن يكون متعلق الصدق أو الكذب في هذه الآيات يمكن أن لا تذكر، فيكفي أن يقول: أشهد بالله إني لصادق فيما رميت به زوجتي، وينتهي الأمر.

مَن يبدأ أولاً بالملاعنة الزوج أم الزوجة ؟

والعلماء أيضا على خلاف، هل يجوز أن تبدأ الزوجة بالإدلاء بشهاداتها الأربع ؟ فجمهور الفقهاء على أنه يجب أن يكون الترتيب كما ورد في القرآن الكريم، أن يبدأ الزوج بالإدلاء بهذه الشهادات الأربع، ثم يشهد الشهادة الخامسة، وبعدها يأتي دور الزوجة.

حينما يشهد هذه الشهادات الأربع مع الشهادة الخامسة نجا من حد القذف الوارد في الآية السابقة، التي توجب عليه حد القذف، فلمجرد أنه شهد أربع شهادات، وفق هذه الآية نجا من حد القذف، وأوجب على زوجته حد الرجم، لكن هذه الزوجة إن شهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، فتنجو بهذه الشهادة الخامسة مع الأربع السابقة من حد إقامة الحد عليها، وهو حد الرجم، والمشكلة أنه قد يكون هناك حمل، لذلك أجاز بعض العلماء أن يشهد الزوج أنه صادق فيما رمى به امرأته، وأن هذا الولد الذي في بطنها ليس منه، وبهذا ينفي عنه نسبتُه إليه، وكذلك المرأة تستطيع أن تنفي عن نفسها أن يكون هذا الولد من هذا الرجل، وكلا الطرفين متاح لهما أن ينفيا، مع إثبات صدقهما، والولد حينئذٍ ليس تابعًا لهما.

هيئة المتلاعنين في أثناء الشهادة:

من السُنة أن يحلف، أو أن يشهد الزوج، وهو واقف، والمرأة قاعدة، ثم تنعكس الآية، فتقف المرأة لتدلي بشهاداتها الأربع، والخامسة، وهي واقفة، والزوج جالس، والقاضي عليه إن وصل الزوج إلى الشهادة الرابعة أن يخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، عذاب الدنيا حد القذف، وعذاب الآخرة النار، وعلى القاضي أيضا إن وصلت المرأة إلى الشهادة الخامسة أن يذكرها بأن فضح الدنيا أهون من فضح الآخرة، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، ويراعى أن يشهد هذه الواقعة جمهور من المسلمين كما ورد في كتب الفقه.

معنى: وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابُ

الحقيقة أن كلمة:

(وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابُ)

فهمها بعض الناس أنه العذاب في اليوم الآخر، وليس هذا بصحيح، العذاب هنا هو عذاب الحد الذي يجب أن يقام عليها، ألا وهو الرجم، لقوله تعالى:

(وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

فالعذاب هنا في هذه الآية هو حد الرجم.

هل يُحدُّ الزوج القاف الممتنِع عن الملاعنة ؟

الآن لو أن الزوج - وهذه مشكلة - اتهم زوجته بالزنى، وامتنع أن يلاعنها، ولم يأتِ بالشهود كما جاء في آية القذف فماذا عليه ؟ العلماء قالوا: عليه حد القذف، وهو ثمانون جلدة، إذا امتنع الزوج على أن يشهد أربع شهادات بالله، وعن أن يشهد الشهادة الخامسة التي توجب له النار، شيء آخر، إذا امتنعت الزوجة عن أن تدلي بأربع شهادات، أنه كاذب، وعن أن تشهد الشهادة الخامسة التي توجب لها النار وجب عليها حد الرجم، فلا يوجد حل قضية دقيقة جدا، إما أن تلاعن، وإما أن يقام على الزوج حد القذف، وإما أن تلاعن الزوجة، وإما أن يقام عليها حد الرجم.

شيء آخر، هذه الآيات المتعلقة بالملاعنة فيها أحكام صريحة، وواضحة في شأن الملاعنة، في مقدمتها أن شهادة الزوج كافية بدل أربعة شهود عدول يصدقون ما ادعى به.

وأن الزوجة تستطيع بالإدلاء بأربع شهادات بالله، إنه لمن الكاذبين، ومع الشهادة الخامسة أن تمنع عنها حد الرجم.

نتائج الملاعنة:

وتأتي السنة المطهرة لتبين أن هذه الملاعنة ينتج عنها أشياء ثلاثة:

النتيجة الأولى: نفي الولد عن الرجل وإلحاقه بالمرأة:

الشيء الأول نفي الولد.

النتيجة الثانية: نفي الولد عن الرجل وإلحاقه بالمرأة:

والشيء الثاني: الفرقة بين المتلاعنين، فبعد التلاعن يحكم القاضي بالفرقة بين الزوجين، لماذا ؟ لنأخذ اتهام الزوج زوجته بالزنى لو أنه صادق في هذا الاتهام ماذا فعل ؟ فضحها، ونشر سمعتها السيئة بين الناس، وجعلها في موطن ازدراء، واحتقار من المجتمع الإسلامي، هذا إذا كان صادقا، فإذا كان كاذبا فالجرم أكبر، لذلك ينشأ من ملاعنة الزوج، أو ينشأ من اتهام الزوج زوجته بالزنى، ثم الملاعنة ينشأ جرح في نفس الزوجة لا يدمل، أو لا يضمد، أما المرأة فالتي تزني في بيت زوجها، والتي تلحق العار، والشنار بزوجها، إنها فعلت شيئا لا يغتفر، لقد لطخت سمعته، ولوثت فراشه، وألحقت به ما ليس له، فإن كانت صادقة في اعترافها بهذا الذنب فجريمتها كبيرة، وإن كانت كاذبة فجريمتها أكبر، لذلك فإن

النبي الكريم رأى أن كلا الزوجين جرح الآخر جرحا لا يندمل، لهذا حكم بالفرقة بين المتلاعنين، لذلك لمجرد أن يلاعن الزوج زوجته يحكم القاضي بالتفريق بينهما، لأن هذين الزوجين ليسا أهلا أن تقوم بينهما حياة سوية صحيحة.

النتيجة الثالثة: التحريم المؤبد بينهما:

لكن المشكلة أن هذا التفريق على التأبيد، ولا يوجد طريق أبدا إلى أن تعود هذه الزوجة لهذا الزوج، ولا أن يعود هذا الزوج لهذه الزوجة، فأحكام ثلاثة تؤخذ من آيات الملاعنة: نفي الولد عن الزوج، والفرقة بين المتلاعنين، والتحريم المؤبد بينهما.

لكن العلماء يقولون: إن الزوج أولى به إذا رأى زوجته تزني في بيته الأولى به أن يطلقها، وألا يلاعنها، إذا طلقها ستر حالها فلعلها تتوب، إن احتمل أن يجعلها تتوب على يديه، وصلحت توبتها فهذا يحتاج إلى بطولة، وإذا لم يحتمل فعليه أن يطلقها سترا لحالها، أما إذا لاعنها فقد فضحها، ونشر سمعتها السيئة في المجتمع الإسلامي، وانتهت حياتها.

الملاعنة رحمة بالزوج:

الشيء الذي يلفت النظر هو أن الله سبحانه وتعالى في آخر آيات الملاعنة يقول:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ)

وكأن الله سبحانه وتعالى تفضل على هذه الأمة الإسلامية بهذا الحكم رحمة بالزوج، ورحمة بالزوجة التي يجب أن ترجم، فإذا نطقت بهذه الشهادات يدرأ عنها العذاب، إذا رحمة بالزوجين معا كانت هذه الآيات ؛ آيات الملاعنة.

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ)

ولكن الشيء الذي يلفت النظر أكثر من هذا أن الله تعالى قال:

(وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ)

في كل الآيات، آيات الفواصل تواب رحيم، إلا في هذه الآية

(وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ)

إذْ ليس من الحكمة أن تفضح زوجتك، لذلك فتح باب التوبة حتى للمتلاعنين الذين اقترف أحدهما جريمة الزنا، وحينما يتلاعن الزوجان فلابد أن يكون أحدهما كاذبا، وهذا الكاذب الذي ستر حاله بهذا الكذب باب التوبة مفتوح أمامه، ولكن يحتاج إلى جهد كبير.

هذه الآيات، آيات الملاعنة مع آيات القذف، مع حد الزنا تنظم المجتمع الإسلامي، فقضية أن تخون المرأة زوجها قضية خطيرة، إما أن تنتهي بالفضيحة، وإما أن تنتهي بالفراق الأبدي من هذا الزوج، فإذا كان زوجا محسنا خيرا طيبا سخيا فإن على الزوجة أن تعد لآلاف آلاف الملايين قبل أن تفكر بأن تخون هذا الزوج، إنها تفقده، وتفقد سمعتها في وقت واحد.

حادثة الإفك: تفاصيلها في الكتاب والسنة:

تفاصيل الإفك في القرآن الكريم:

بقي علينا آيات الإفك، وقبل أن نبدأ الحديث عن حديث الإفك الذي ورد في سورة النور في قوله تعالى:

(إِنّ الّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالّذِي تَوَلّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (12) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13) وَلَوْلَا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14) إِذْ تَلَقّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيّناً وَهُوَ عِنْدَ اللّهِ عَظِيمٌ (15) وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (16))

(سورة النور: الآيات 11-16)

تفاصيل الإفك في السنة: رواية أم المؤمنين عائشة الطاهرة للإفك:

قبل الحديث عن هذه الآيات سأقرأ على أسماعكم حديث الإفك كما ورد في الصحاح، عن السيدة عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم طبعا هذا الكلام على لسان السيدة عائشة رضي الله عنها فيما رواه البيهقي والإمام أحمد والبخاري ومسلم، طبعا حديث رواه أئمة الحديث على خلاف دقيق في الروايات لكن هذه بعض الروايات، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا زَوْجِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَتْ:

((كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ - أقرع بينهن أي أجرى القرعة، والقرعة معروفة، والقرعة أمر إسلامي، فإذا حصل خلاف بين أولادك، تنافسوا على

شيء، تنافسوا على الذهاب معك إلى جهة فعليك بالقرعة، والنبي عليه الصلاة والسلام سنه لنا، فَأَيَّتُهُنّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ - يعني نزلت آيات الحجاب، فصار على السيدة عائشة أن تستر وجهها - فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ - الهودج شبه غرفة صغيرة جدا توضع على الناقة - وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ، وَقَفَلَ، وَدَنَوْنَا مِنْ الْمَدِينَةِ - أيْ في طريق العودة - آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ - معنى آذن أيْ كلف النبي صلى الله عليه وسلم أحدا من المسلمين أن يعلم كل من في هذه الغزوة أن يستعدوا للرحيل، آذن أيْ أعلم - فَقُمْتُ حَينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي - لاحظوا العبارة اللطيفة - أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ أَظْفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ - هذا عقد ظفار، نوع من أنواع الأحجار الكريمة - فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي، فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ فَأَقْبَلَ الَّذِينَ يَرْحَلُونَ لِي - جاء رهط ليحملوا هذا الهودج، ويضعوه على الناقة، ويسيروا بالسيدة عائشة - فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي - رحلوه جعلوه كالرحل، و ما شعروا أنه فارغ - الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ - هنا سؤال: لِمَ لمْ يشعروا أنه خفيف وفارغ ؟ الجواب: وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَثْقُلْنَ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ - لم يكنّ سمينات جداً، يبدو أنها كانت نحيلة قليلة الوزن، فلما حملوا هودجها ظنوها به، فحملوا هذا الهودج، ووضعوه على الناقة وساروا - وَإِنَّمَا يَأْكُلْنَ الْعُلْقَةَ مِنْ الطَّعَامِ - يعني ما تقيم به أودها، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه - فَلَمْ يَسْتَنْكِرْ الْقَوْمُ حِينَ رَفَعُوهُ ثِقَلَ الْهَوْدَجِ، فَاحْتَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الْجَمَلَ، وَسَارُوا فَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَمَا اسْتَمَرَّ الْجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنْزِلَهُمْ، وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ - مكان نزولي أي المكان الذي كنت أجلس فيه - فَأَمَمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَنِي، فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ فَنِمْتُ - طفلة صغيرة - وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ فَأَدْلَجَ - دخل في عتمة الليل - فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَأَتَانِي، وَكَانَ يَرَانِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ، معنى استرجع قال: إنا لله، وإنا إليه راجعون، وحوقل قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وسبحل قال: سبحان الله، دمعز قال: أدام الله عزك، هلل قال: لا إله إلا الله، كبر قال: الله أكبر - فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي - غطيت وجهي بعدما نزلت آية الحجاب - فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَ وَاللَّهِ مَا كَلَّمَنِي كَلِمَةً، وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الْجَيْشَ بَعْدَمَا نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ، فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ. هذه هي القصة كلها - وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى الْإِفْكَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيِّ ابْنَ سَلُولَ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا - شكت مرضا ألم بها - وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ لَا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ

ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي - الذي دعاني إلى الشك - أَنِّي لَا أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي - تغير، فقد كان ألطف بكثير - إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُسَلِّمُ- هذه المرة إذا دخل يسلم، ولكن بحالة أقل لطفا من ذي قبل - ثُمَّ يَقُولُ: كَيْفَ تِيكُمْ ؟ ثُمّ يَنْصَرِفُ، فَذَاكَ الَّذِي يَرِيبُنِي، وَلَا أَشْعُرُ بِالشّرِّ، حَتَّى خَرَجْتُ بَعْدَمَا نَقِهْتُ فَخَرَجَتْ مَعِي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ الْمَنَاصِعِ، وَهُوَ مُتَبَرَّزُنَا، وَكُنّا لَا نَخْرُجُ إِلَّا لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الْكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا، وَأَمْرُنَا أَمْرُ الْعَرَبِ الْأُوَلِ فِي التَّبَرُّزِ قِبَلَ الْغَائِطِ، فَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالْكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَهَا عِنْدَ بُيُوتِنَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ، وَهِيَ ابْنَةُ أَبِي رُهْمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، وَأُمُّهَا بِنْتُ صَخْرِ بْنِ عَامِرٍ خَالَةُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وَابْنُهَا مِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي، وَقَدْ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا، فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا، قَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ، أَوَلَمْ تَسْمَعِي مَا ؟ قَالَتْ: قُلْتُ: وَمَا قَالَ ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الْإِفْكِ، فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي وَدَخَلَ عَلَيّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعْنِي سَلَّمَ، ثُمّ قَالَ: كَيْفَ تِيكُمْ ؟ فَقُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيّ ؟ قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الْخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجِئْتُ أَبَوَيّ فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهْ، مَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللَّهِ لَقَلَّمَا كَانَتْ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، وَلَهَا ضَرَائِرُ إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللَّهِ ! أَوَ لَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا ؟ قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، حَتَّى أَصْبَحْتُ أَبْكِي.

وقد سأل النبي عليه الصلاة والسلام سأل أصحابه، وشاورهم في الأمر - فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلِيّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حِينَ اسْتَلْبَثَ الْوَحْيُ يَسْتَأْمِرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ وَبِالَّذِي، يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ مِنْ الْوُدِّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَهْلَكَ، وَلَا نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَمْ يُضَيِّقْ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَإِنْ تَسْأَلْ الْجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيرَةَ، فَقَالَ: أَيْ بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ ؟ قَالَتْ بَرِيرَةُ: لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، إِنْ رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَعْذَرَ يَوْمَئِذٍ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيِّ ابْنِ سَلُولَ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي - والصحابة طبعا وقفوا مواقف مشرفة من هذه الخطبة، فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ

اللّهِ، أَنَا أَعْذِرُكَ مِنْهُ، إِنْ كَانَ مِنْ الْأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ الْخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَزْرَجِ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنْ احْتَمَلَتْهُ الْحَمِيَّةُ، فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللّهِ، لَا تَقْتُلُهُ، وَلَا تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ، فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللّهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنْ الْمُنَافِقِينَ، فَتَثَاوَرَ الْحَيَّانِ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِمٌ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ، قَالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ لَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، وَلَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، قَالَتْ: فَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا لَا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، وَلَا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ، يَظُنَّانِ أَنَّ الْبُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، قَالَتْ: فَبَيْنَمَا هُمَا جَالِسَانِ عِنْدِي، وَأَنَا أَبْكِي فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَأَذِنْتُ لَهَا فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَلَّمَ، ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللّهَ، وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ تَابَ إِلَى اللّهِ تَابَ اللّهُ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا قَالَ، قَالَ: وَاللّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: فَقُلْتُ وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنْ الْقُرْآنِ: إِنِّي وَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ، وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنْ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللّهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللّهِ مَا أَجِدُ لَكُمْ مَثَلًا إِلَّا قَوْلَ أَبِي يُوسُفَ قَالَ:

(فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ)

قَالَتْ: ثُمَّ تَحَوَّلْتُ فَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، قَالَتْ: وَأَنَا حِينَئِذٍ أَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللّهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللّهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللّهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى - ما كانت تصدق ذلك - وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللّهُ فِيَّ بِأَمْرٍ يُتْلَى، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللّهُ بِهَا - كل ظنها أن النبي يرى رؤيا، قَالَتْ: فَوَ اللّهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ - رام يعني ترك مجلسه - وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنْ الْبُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الْجُمَانِ مِنْ الْعَرَقِ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ - يوم من أيام الشتاء - مِنْ ثِقَلِ الْقَوْلِ الَّذِي يُنْزَلُ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَلَمَّا سُرِّيَ

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُرِّيَ عَنْهُ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلُ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا: يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ بَرَّأَكِ، فَقَالَتْ أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: لَا وَاللَّهِ لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسِبُوهُ ...)

الْعَشْرَ الْآيَاتِ كُلَّهَا، فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللَّهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

(وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللَّهِ، إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا، قَالَتْ عَائِشَةُ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُ زَيْنَبَ ابْنَةَ جَحْشٍ عَنْ أَمْرِي، فَقَالَ: يَا زَيْنَبُ، مَاذَا عَلِمْتِ أَوْ رَأَيْتِ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي، مَا عَلِمْتُ إِلَّا خَيْرًا، قَالَتْ: وَهِيَ الَّتِي كَانَتْ تُسَامِينِي مِنْ أَزْوَاجِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَصَمَهَا اللَّهُ بِالْوَرَعِ، وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ تُحَارِبُ لَهَا، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْإِفْكِ))

[البخاري، مسلم، النسائي، أحمد]

هذا الحديث في قصة الإفك، وبفضل الله تعالى وكرمه سوف نبدأ في الدرس القادم بتفسير آيات الإفك، وأردت أن تكون القصة من كتب الحديث الصحيح كما روتها السيدة عائشة أساسا لتفسير آيات الإفك، وهذه الآيات لها مساس في حياتنا جميعا، فحينما تتلى آيات في كتاب الله عن قصة ما، فليست القصة هي المقصودة، بل المقصود الأحكام التي يجب أن تستنبط من هذه الآيات في تعاملنا مع بعضنا البعض، فعلى كلّ واحد منا أن يضع هذه القصة نبراسا له في علاقته مع إخوانه المؤمنين.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (05-23): تفسير الآيات 11 – 15، آيات الإفك
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 28-10-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة النور، مرّ معنا في الدرس الماضي حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، الذي أوردته كتب الحديث عن قصة الإفك، وها هي الآيات التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على نبيه الكريم يبرئ فيها السيدة عائشة رضي الله عنها مما اتهمت به، فكل متهم بريء له بهذه السيدة العظيمة أسوة حسنة، إن الذي برأها سيبرّئه، والحياة تضج، وتطفح بمشكلات ؛ من نوع أن تلصق بإنسان ما تهمة هو منها بريء، وهذا الذي يحدث له حكمة بالغة، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إنّ الّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالّذِي تَوَلّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة النور)

بين الإفك والغيبة والنميمة:

الإفك هو الكذب، بل هو أشد أنواع الكذب، الإفك أن تختلق شيئا لا أصل له، أن تقلب الحق باطلا، والباطل حقا، أن تختلق شيئا لا أصل له، وهو الذي يسميه العلماء استنباطا من هذا الحديث الإفكَ، فالذي يغتاب فإنه يقول ما هو واقع، ومع ذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ)

(سورة الحجرات: الآية 12)

فالغيبة محرمة تحريماً قطعيا بنص القرآن الكريم، ولا اجتهاد في مورد النص، بمعنى أن الإنسان يقوم باجتهادات، فيقول: إن هذا الكلام مفيد، تجريح فلان مفيد، الحديث بالسوء عن فلان مفيد، لا اجتهاد في مورد النص، فإذا جاء نص قرآني قطعي يحرم الغيبة فلا يستطيع إنسان كائناً من كان أن يبيحها لنفسه، لكن علماء الفقه أجازوا الغيبة في حالات قصوى، حالات لها شروط معقدة، فإذا سئلت عن إنسان في موضوع زواج، أو موضوع شراكة فعليك أن تبين الحقيقة، ولو كانت مُرّة، فربنا عز وجل قال:

(وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا)

إنّ نقل خبر الغيبة من إنسان إلى إنسان هو النميمة نفسها، فَعَنْ حُذَيْفَةَ قال سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ))

[أخرجه البخاري، مسلم، الترمذي، أبو داود، النسائي، أحمد]

القتات هو النمام، تحدث فلان عن فلان بسوء، فجاء فلان، ونقل الخبر لمن تحدث عنه، فهذه هي النميمة، وربنا سبحانه وتعالى نهى أيضا بنص القرآن الكريم، والنبي عليه الصلاة والسلام بين أنه لا يدخل الجنة قتات، فالغيبة حديث واقع، لكنه يسيء إلى صاحبه، والنميمة نقل هذا الحديث لصاحبه، لكن الإفك اختلاق موضوع لا أصل له إطلاقا، موضوع مختلق بقضه، وقضيضه، جملة، وتفصيلا، ليس له مستند واقعي، هذا هو الإفك، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ

والعصبة جماعة تعصب بعضهم لبعض، ما هي العصبية ؟ أن تنحاز انحيازاً أعمى لجهة، على حدِّ قول ذاك الشاعر ؛ دريد بن الصمة:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

***

فالذي ينحاز مع فلان انحيازًا أعمى من دون تبصر، على الحق، أو على الباطل فهذا تعصب، فعَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ))

[أبو داود واللفظ له، والنسائي، وابن ماجه]

ليس منا أبدا، فالنبي عليه الصلاة والسلام ينفي عن هذا الذي ينحاز انحيازًا أعمى من دون تبصر، على الحق، أو على الباطل، بشيء واقعي، أو شيء غير واقعي، بما هو خير، أو بما هو شر أن يكون من أمته، أن تنحاز انحيازًا أعمى إلى جهة ما، فهذا هو التعصب الذي يرفضه النبي عليه الصلاة والسلام، ففي حديث يبدو لإنسان غير متعمق أنه يدعو إلى التعصب، فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا ؟ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ))

[أخرجه البخاري واللفظ له، ومسلم، وأحمد، وكلاهما عن جابر]

أيْ أن توقفه عند حده، أن تقف ضده، هذا نصر له، إنك إذا وقفت في وجه أخ، أو صديق، أو جار، أو ابن قريب، وقفت في وجهه حينما يطغى، فأنت بهذا تعمل لمصلحته، تسعى لرده إلى الله ورسوله، تسعى لإيقافه عند حده، تسعى لتوبته،

((انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيْفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا ؟ قَالَ: تَأْخُذُ فَوْقَ يَدَيْهِ))

لذلك هذا الذي يتعصب لابنه إذا تشاجر مع ابن الجيران، على الحق، أو على الباطل، هذا الذي يتعصب لأخيه، لشريكه يجب أن تكون مع الحق، لا مع إنسان.

يروى أن أبا حنيفة النعمان رضي الله عنه دخل على المنصور، وكان عند المنصور قاض يكرهه، ويضمر له العداوة، فأراد هذا القاضي أن يوقع بين أبي حنيفة وبين الخليفة المنصور، فقال على مسمع من المنصور: يا أبا حنيفة إذا أمرني الخليفة بقتل امرئ أأقتله، أم أتريث ؟ فلعله مظلوم ؟ إن قال له: اقتله: أغضب الله سبحانه وتعالى، وإن قال له: لا تقتله، ولا تأخذ بأمره أغضب المنصور، فهما أمران أحلاهما مرّ، فما كان من أبي حنيفة النعمان، وقد كان ذكيا إلا أن قال: **يا هذا ! الخليفة على الحق أم على الباطل ؟** فقال: مع الحق، قال: **أنت كن مع الحق.**

انتهى الأمر، فيجب على المؤمن أن يكون مع الحق، وليس مع أخيه، أو جاره، أو شريكه، بل مع الحق، ومن صفات المؤمن أنه لا تأخذه في الله لومة لائم، وفي الحديث عَنْ جَابِرٍ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ سَرَقَتْ فَأُتِيَ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَاذَتْ بِأُمِّ سَلَمَةَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُ يَدَهَا فَقُطِعَتْ يَدُهَا))

[أخرجه البخاري (3288) عن عائشة، ومسلم(1689) عن جابر، واللفظ له]

فربنا عز وجل قال:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ)

أيْ جماعة انحاز بعضهم إلى بعض من دون تبصر، من دون دليل، من دون بينة، من دون برهان، الانحياز الأعمى هو التعصب بعينه.

كل شيء وقع بإرادة الله: لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ

(إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ)

هذه نقطة دقيقة جدا، فكل شيء وقع أراده الله، وما دام أراده الله فلابد أن ينطوي على الخير، وما دام الله سبحانه وتعالى أراد هذا الشيء فإرادته متعلقة بالحكمة، والحكمة متعلقة بالخير المطلق، معنى ذلك أن الإنسان أحيانا يفعل شيئا بضغط ما، أو برغبة ما، أو بإغراء ما، أو لمصلحة، أو بغفلة منه، فأفعال الإنسان ليست كلها متعلقة بالحكمة، بعضها بالحكمة، وبعضها بالضرورة، وبعضها بالغفلة، وبعضها بالضغط، وبعضها بالإغراء، لكن أفعال الله سبحانه وتعالى غير ذلك، فهي متعلقة حتما بالحكمة، ولا شيء غير الحكمة، فكل شيء وقع أراده الله، وما دام قد أراده الله فهذا الشيء لابد أن يتعلق بالخير، هذا

الحديث الذي ارتجت به المدينة، والذي أصاب المؤمنين بهزة عاطفية، والذي نشر القيل والقال، وجعل الناس يلغطون، ويتحدثون عن زوجة نبيهم عليه الصلاة والسلام، وما أصاب السيدة عائشة من هم، وغم، وما بكت بكاءً مراً حتى كاد الدم يخرج من عينيها، وكيف أن النبي عليه الصلاة والسلام بقي شهرا يعتصر قلبه أسى، هذا الحديث، وهذا اللغط، وهذه المشكلة، وهذه القضية، وهذا الإرجاف في المدينة.

(لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)

إسقاط على واقعنا اليومي:

نحن الآن يجب أن نقيس على هذا الحديث، إنه أحيانا تقع مشكلة في البيت، هذه المشكلة ما دامت وقعت فقد أرادها الله، وما دام الله أرادها فلابد أن يكون فيها الخير، قد تعرف من زوجتك ما لم تعرفه من قبل، قد تعرف من هذه المشكلة وفاءها لك، فتزداد حبا لها، قد تعرف منها عفتها، قد تعرف منها طهرها، أنت كنت قبل هذا في غفلة عن هذه المعاني، قد تعرف الصديق من العدو، قد يفرز الناس في هذه المشكلة، فالإنسان في علاقاته الاجتماعية، في بيته، مع أقربائه، مع إخوانه، مع أخواته، مع جيرانه، مع أصدقائه، مع من يحب، مع من يكره، تنشأ مشكلة قد تبنى على غلط، تبنى على إشاعة، تبنى على تهمة، تبنى على بهتان، تبنى على إفك، فهذا المشكلة وقعت، وما دامت قد وقعت فقد أرادها الله، وما دام الله أرادها ففيها الخير، وهكذا يقول الله عز وجل:

(إِنّ الّذِينَ جَاوُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ)

لأنّ الخير دائما يكون كامنا في الشر، يبدو لك شراً، فقد تقع مصيبة، أو قد تقع كارثة، قد يقع طلاق، أو يقع زواج، قد تنفجر قضية في بيت من البيوت، هذا الموضوع في ظاهره شر، لكنه في النهاية يعود بالخير على الجميع، لأن فعل الله كله خير، قال سبحانه:

(قُلِ اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

(سورة آل عمران: الآية 26)

وحده، لم يقل: بيدك الخير والشر.

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنّكَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

فأنا أعوذ بالله من كلمة أنا عند كلمة:

(لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ)

مِنْ خالصِ التوحيد الخالص: الاستسلامُ لقضاء الله وقدره:

هذه الكلمة نستنبط منها أشياء كثيرة، في حياتنا قد نخاف، فالخوف خير، وقد تشح السماء، وشح السماء خير، قد يأتي وباء، والوباء خير، قد تأتي قضية، قد نعاني من مأساة، إن جميع المصائب في ضوء هذه الآية تؤدي إلى الخير، لذلك فهمه عميق، المؤمن متفائل تفاؤلاً حقيقياً، مبنيًا على التوحيد، مبنيًا على أدلة من كتاب الله.

(لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

لذلك لابن عطاء الله السكندري مجموعة من الحكم تتعلق بالخير والشر، كل هذه الحكم مستنبطة من قوله تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة: الآية 216)

لذلك فإنّ قمة التوحيد أن تستسلم لله الواحد الديان: يا رب ؛ أنا مستسلم لقضائك، راض بحكمك، ماض فيّ أمرك:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضابُ

***

إنّ النبي عليه الصلاة والسلام في الطائف ذاق القهر، وصل إليها من مكة ماشيا على قدميه، وبين مكة والطائف قرابة مئة ميل، قطعها مشيًا على قدميه، فلما وصلها وقف منه أهل الطائف موقفا من أسوأ المواقف، استهزؤوا به، وبدعوته، وبرسالته، واستخفوا به، ردوه شر رد، أغروا به سفهاءهم، فألجؤوه إلى بستان، فقال:

((يا رب، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي، فجاءه جبريل فقال: يا محمد ؛ أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين، فقال: لا يا أخي، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون))

[رواه الطبراني]

اعتذر لهم صلى الله عليه وسلم، وظهر بذلك معدنه النبيل، وظهر صبره، وظهرت حكمته، ورحمته، ولولا هذا الحادث لما انكشف النبي عليه الصلاة والسلام على حقيقته، هذه حقيقة النبوة، رحمة ما بعدها رحمة، حكمة ما بعدها حكمة، حنان ما بعده حنان، لطف ما بعده لطف، فاعتذر لهم بقوله:

((فإنهم لا يعلمون))

لذلك:

لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ

هذه الآية تعلمنا الكثير، تعلمنا أن كل شيء يقع في حياتنا ما دام قد وقع فهو خير، ولابد أن يطلعك الله عز وجل على جانب الخير فيه، ولا بد أن يطلعك الله سبحانه وتعالى على جانب الخير من كل مأساة، قد يكون مرض الابن سببا لهداية الأب، مَنْ أدراك ؟ قد يكون إفلاس تاجر سببا لهدايته، قد يكون فقد الحرية سببا للصلح مع الله عز وجل، قد يكون هذا المرض هو الهادي إلى الله، فهذا المرض في الدنيا تنزعج منه، ولكن ينكشف في الحقيقة يوم القيامة على أنه هو السبيل الوحيد للعودة إلى الله عز وجل، لذلك عندما يطوف المؤمن في الجنة يقول:

(اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الزمر: الآيات 74-75)

وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

لهذا قال الإمام علي رضي الله عنه: **<< وَاللَّهِ لَوْ كُشِفَ الْغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا >>.**

[أبو نعيم في حلية الأولياء]

فيقينه برحمة الله وحكمته، وعظمته قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء فالإمام ابن عطاء الله السكندري في حكمه العطائية الشهيرة يفصل بعضا من المعاني التي وردت في الآية الكريمة:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[البقرة: من الآية 216]

يقول الإمام السكندري: **" مَن ظنّ انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره، وربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك ".**

أعطاك الدنيا فابتعدت عن الهدى، فهذا في الحقيقة منع، وربما منعك فأعطاك، منعك من الدنيا فاقتربت من الله عز وجل، فكان هذا المنع عين العطاء، وقد يكون العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان، إن الله ليحمي صفيه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام، وكما يحمي أحدكم غنمه من مراتع الهلكة، ومتى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع عين العطاء، فعندما يُثبت لك الطبيب أن هذه الأكلة تسبب التهاباً في الأمعاء أو المعدة، وهذا المريض معه بوادر التهاب في المعدة، وإن هذا الطعام فيه مواد ثقيلة، فيه مواد حريفة، وفيه مواد مخرشة، وهناك حالة مرضية ابتدائية في المعدة، فإذا

أقنعك الطبيب أن هذا الطعام يؤذي المعدة، ويسبب التهاباً بدرجة عالية، فأنت حينما تفهم حكمة المنع ينقلب المنع عين العطاء، وإنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه، الذي يؤلم في المنع أنك لا تعرف الحكمة، فلو عرفت الحكمة لم يعد المنع مؤلما، فالذي بإمكانه أن يأكل ما لذ، وطاب إذا نصحه الطبيب بترك هذه الأكلة لم تؤلمه هذه النصيحة، بل يتلقاها بالقبول الحسن، ومتى أوحش من خلقه، فليفتح لك باب الأنس، ربما لا يدرك الناس أحياناً، ولا يعرفون قيمتك فيتهجمون عليك، ويجحدون فضلك، ويتنكرون لك، ويبتعدون عنك، ويلغطون في حقك، هذا من حكمة الله سبحانه وتعالى، ومتى أوحشك من خلقه فليفتح لك باب الأنس به، وربما وجدت في الفاقات ما لا تجده في الصوم والصلاة، فقد ترفع المصيبة الإنسان عشرات الدرجات، حيث إن الصلاة نفسها لا يمكن أن تفعل فعلها في هذا الإنسان لذلك:

(إِنّ الّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)

موقف المؤمنين من الإفك: حُسنُ الظن بزوجات النبي عليه الصلاة والسلام:

هناك مؤمنون كثيرون أحسنوا الظن بنبيهم، وأحسنوا الظن بزوجاته الطاهرات، منهم أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه الذي قال لزوجته: **هل تسمعين ما يلغط الناس ؟** قالت: نعم **!** قال: **بالله عليك أتخونين أنت لو كنت مكان السيدة عائشة من رسول الله ؟** قالت: لا، والله **!** قال: **واللهِ لا أفعل ما اتهم به صفوان، وصفوان أفضل مني، وعائشة أفضل منك.**

هذا المعدن الطيب ظهر، سيدنا أبو أيوب الأنصاري وكثيرون من الصحابة الكرام أحسنوا الظن بالنبي عليه الصلاة والسلام، وأحسنوا الظن بأخيهم صفوان، وأحسنوا الظن بالسيدة عائشة فكان هذا الحديث بمثابة المحك الذي أظهرهم على حقيقتهم، وأظهر نبلهم، وأظهر حسن ظنهم بالنبي عليه الصلاة والسلام، وأظهر اعترافهم بالجميل، وأنهم يعرفون الحقيقة، فهذا من أبواب الخير، وهو من الخير أيضا الذي ظهر من حديث الإفك ؛ أن هؤلاء الذين امتنعوا عن مساعدة من روجوا هذا الحديث فعاتبهم الله عز وجل عتابا رقيقا، فبين أن هؤلاء من أولي الفضل، ولا ينبغي لأولي الفضل أن يمنعوا فضلهم عن المسيئين، فكان حكماً شرعياً رائعاً، فإذا فعلت خيرا فاصنع المعروف مع أهله، ومع غير أهله، فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت أهله، فإذا فعلت الخير فلا ينبغي أن تنتظر من هذا الخير شكرانا، ولا اعترافا، ولا مديحا، ولا ثناء، هكذا قال ربنا سبحانه وتعالى:

(إِنّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً)

(سورة الإنسان: الآية 9)

السيدة عائشة رضي الله عنها ظهر لها أن أخواتها أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنوا الظن بها، فلما سأل النبي عليه الصلاة والسلام زوجته زينب رضي الله عنها: **ما تقولين أنت في عائشة ؟ فقالت: واللهِ لا أعلم عنها إلا خيرا**، حتى الضرة التي يسميها الناس مُرّة أحسنت الظن بأختها السيدة عائشة.

ظهور بشرية النبي عليه الصلاة والسلام:

شيء آخر مهم جدا، إلى أن نزلت آيات تبرئة السيدة عائشة بين حديث الإفك، وبين التبرئة شهر كامل، والنبي عليه الصلاة والسلام بشر لا يعرف الحقيقة، سأل بعض أصحابه، سأل بريرة الجارية التي لها علاقة بالسيدة عائشة، وهو لا يدري ماذا يصنع، فظهرت بشريته صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

[الكهف: من الآية 110]

هكذا أمره الله عز وجل أن يقول:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأعراف: الآية 188)

أنا مثلكم، لا أعلم، لكن الله سبحانه وتعالى هو الذي يعلم، وهناك فرق كبير بين الخلق والخالق

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)

(سورة طه: الآية 7)

من أساليب المنافقين: الأسلوب الالتفافي:

إنّ النبي عليه الصلاة والسلام وقف موقف الحليم، موقف المتبصر، هو يعلم طهارة زوجته، يعلمها قطعا، ولكن كيف يقنع الناس بهذا ؟ كيف يقول لهم: ليس للخبر أصل من الصحة ؟ قال على المنبر:

((أناس يؤذونني في أهلي، والله ما علمت عنهم إلا خيرا))

ومع ذلك انتشر اللغط في أنحاء المدينة، لكن الله سبحانه وتعالى وضع حدا فاصلا لهذا اللغط، إذاً هذا الذي وقع خير، ظهرت براءتها، وعفتها، وطهارتها، وظهرت براءة هذا الصحابي الجليل الذي كان كله حياء حينما لمح أم المؤمنين ابتعد عنها، وأناخ لها الناقة، وأركبها، وأوصلها إلى مكان مستقرها، فماذا فعل هذا الصحابي الجليل ؟ وظهرت عداوة المنافقين، وظهر خبثهم، وظهر لؤمهم، وظهر حقدهم، بل إن المنافقين حينما عجزوا أن يواجهوا الحق التفوا عليه بهذا الحديث الباطل، إن الذي يتحدث إنسان

عظيم حديثا مغلوطا فيه اتهام، وبهتان عن إنه بهذا يعبر عن عجزه عن مواجهة الحجة بالحجة، حينما عجزوا عن رد هذا الحق الناصع لجؤوا إلى أسلوب التفافي، وهو الحديث في السيدة عائشة رضي الله عنها، لذلك:

(إِنّ الّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)

حادثة الإفك امتحان وفرزٌ:

ثمة قصة تُروَى ؛ أن رجلاً كان يبيع زعتراً برياً، وينادي عليه، فسمع آخر ما أعظم برّي، فذابت روحه في محبة الله، وغيره سمع انظر ترَ برّي، وثالث سمع زعتر بري، فأحياناً كلمة واحدة يفهمها كل واحد على هواه، على ما في نفسه، فالحادث أحيانا البريء يبرئ، والعفيف يظن العفاف، والمستقيم يظن الاستقامة، والخبيث يظن الخبث، واللئيم يظن اللؤم، فكأن هذا الحديث فحص من كان مع النبي عليه الصلاة والسلام، فالمنافقون سقطوا، والمؤمنون نجحوا في الامتحان، تجد مثلا في الصف خمسين طالباً كلهم يلبسون لباساً موحداً، ويجلسون جلسة نظامية، من هو المتفوق ؟ من الكسول ؟ من الذي يملك محاكمة قوية ؟ الله أعلم، من الذي يملك ذاكرة قوية ؟ من الذي سينجح ؟ تأتي مذاكرة واحدة، يطرح سؤال، توزع الأوراق..... واحد من عشرين، 3 من عشرين، 0 من عشرين، عشرين من عشرين، اختلف الأمر، فهذا الامتحان، وفي الامتحان يكرم المرء أو يهان، فهذا حديث الإفك امتحان لقول الله عز وجل:

(مَا كَانَ اللّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطّيّبِ)

(سورة آل عمران: من الآية 179)

وهذا الامتحان في كل زمان ومكان، المؤمنون كلهم مؤمنون، حادث واحد يفرزهم إلى مؤمنين من الدرجة الأولى، مؤمنين من الدرجة الثانية، أقل إيمانا، منافقين، كفار، في معركة الخندق قال ربنا عز وجل:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب: الآية 11)

المنافقون قالوا: هذا الدين خلط، أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، غير قادر على أن يبول، ويعدكم محمد، هكذا يقولون أن تفتح عليكم بلاد قيصر وكسرى، ظهر نفاقه وظهر كفره وظهر شكه بالدعوة.

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدّلُوا تَبْدِيلًا)

(سورة الأحزاب: الآية 23)

لذلك:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ)

التحذير من مشاركة العاصي في معصيته:

تروى قصة لها هدف رمزي ؛ أن حريقاً كبيراً شب في مكان ما، وأنه لو اجتمع ألف إنسان ليس في إمكانهم أن يطفئوه، تأتي الضفدعة فتملأ فمها ماء محاولة إطفاء هذا الحريق، ويأتي حيوان آخر فينفخ فيه ليزيد إضرامه، لا هذا أطفأه، ولا ذاك أشعله، ولكن هذا ظهر خيره، وهذا ظهر شره، هذه مواقف، وقع حدث أنت لم تسهم في فعله، بل أثنيت، لذلك عَنْ عَدِيِّ بْنِ عَدِيٍّ عَنِ الْعُرْسِ ابْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا، وَقَالَ مَرَّةً: أَنْكَرَهَا كَانَ كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا))

[أبو داود بإسناد حسن]

لو وقعت معصية أمامك، وأنكرتها كنت كمن لو غبت عنها، إذا قال لك رجل في آخرِ الدنيا: فعل فلان كذا وكذا، وأخذ ما ليس له، وقلت: هنيئًا له إنه ذكي، فأنت شاركت بالإثم، أنت في الشام، وهو في كندا، سمعت عن قصة مفتعلة، فيها إثم، وفيها معصية، فأنت لم تفعل شيئا إلا أن أثنيت على عمله، فثناؤك على عمله جعلك تشركه في الإثم، فإذا رأيت معصية بأم عينك فأنكرتها كنت كمن غاب عنها، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((الذَّنْبُ شُؤْمٌ عَلَى فَاعِلِهِ ؛ إِنْ عَيَّرَهُ ابْتُلِيَ بِهِ، وَإِنِ اغْتَابَهُ أَثِمَ، وَإِنْ رَضِيَ بِهِ شَارَكَهُ))

[فيض القدير]

فإذا كان لك صاحب اقترف ذنباً، فإذا رضيته شاركته في الإثم، فإن ذكرته فقد اغتبته، فانتبه، إن عيرته ابتليت به، وإن رضيته شاركته في الإثم، وإن ذكرته فقد اغتبته، فإذا كان لك صديق مؤمن وقع في خطيئة، وقع في ذنب فأنت بين أن تكون مغتابا، وبين أن تكون شامتا، وبين أن تكون راضيا، فإن كنت راضيا فأنت شريكه، وإن كنت شامتا فلابد أن تقع فيه، وإن كنت ذاكرا لهذا الذنب فقد اغتبته، لذلك فالذنب شؤم على غير صاحبه، هذا الحديث ؛ حديث الإفك يتكرر، ولا يخلو مجتمع، ولا مدينة، ولا قرية، ولا مجتمع، ولا فئة دينية، ولا جماعة دينية من قيلٍ وقال، وأخذ ورد، وفلان فعل، وفلان لم يفعل، فلان كيف فعل هذا ؟ فهذا الحديث هناك من يصدق، وهناك من يكذب، هناك من يحسن الظن،

وهناك من يسيء الظن، هناك من ينجح، وهناك من يرسب، هناك من يرقى، وهناك من يسفل بهذا الحديث، لذلك الحديث تمحيص **" المصائب محك الرجال ".**

(إِنّ الّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنْ الْإِثْمِ وَالّذِي تَوَلّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

يا لطيف، هذا الذي روّج هذا الحديث، ليس له برهان، وليس هناك شهود، وليس هناك دليل، إنما هو ظن، فهذا الذي روج هذا الموضوع، ونقله من إنسان إلى إنسان، ومن جهة إلى جهة، ومن فئة إلى فئة، هل سمعتم ما فعلت فلانة ؟ هل سمعتم ؟ أوصلكم هذا النبأ ؟ بالله عليكم، ألم تسمعوا به، فاسمعوا.

عبد الله بن سلول هو: الّذِي تَوَلّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ

لذلك تأتي بعض الروايات لتبين أن الذي تولى كبر هذا الحديث هو عبد الله بن أبي سلول، رئيس المنافقين، فحينما سمع أن الصحابي صفوان بن المعطل السلمي جاء بالسيدة عائشة على بعيره قال كلمته الشهيرة: لم تنج منه، ولم ينج منها، فروج هذا الخبر، لذلك:

(وَالّذِي تَوَلّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

وإذا كان العظيم يقول عن العذاب: إنه عظيم، فما أعظم هذا العذاب **!.**

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)

(سورة النور)

دعوة إلى حسن الظن وإنكار التهمة عن المسلم:

هذه الآية دقيقة جدا في معانيها فـ (لَوْلاَ) هنا بمعنى هلاّ، وهو حرف حض، لولا أخذت هذا الموضوع فدرسته، أيْ هلاّ درسته، أي ادرسْه، فهلاّ أداة حض.

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ)

سمعتم حديث الإفك، سمعتم ملابساته، ما قاله عبد الله بن أبي سلول.

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)

معنى: ظَنّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا

المعنى الأول: هل تفعل هذا أيها الصحابي ؟

أنت أيها الصحابي هل تفعل هذا ؟ لا والله، فصفوان أفضل منك، فإن كنت أنت لا تفعل هذا فهو لا يفعل، وأنتِ أيتها الصحابية هل تخونين النبي، لو أنك زوجته ؟ لا والله، لا أخونه، إذاً السيدة عائشة أفضل منك، فإن كنت أنت لا تفعلين وزوجك لا يفعل أفيعقل أن يفعل صفوان هذا وعائشة الزوج الطاهرة هذا؟.

فربنا عز وجل يحضنا على أننا إذا سمعنا مثل هذه الأحاديث أن نظن بأنفسنا خيرا، فإذا كنت أنت لا تفعله فصفوان لا يفعله ؟ هذا قياس رائع جدا، إذا كنت أنت على تواضعك، وعلى إيمانك المتواضع لا تفعل فهل يفعله صفوان ؟ وفي بعض الروايات تروي، وهي روايات باطلة، وغير صحيحة، والنبي عليه الصلاة والسلام منها بريء، أنه كان يسير في طريق فرأى بابا مواربا، أي مفتوحا، ورأى خلفه امرأة تغتسل، هي السيدة زينب، فقال: سبحان الله فوقعت في نفسه، نقول نحن للمؤمن العادي الذي جاء آخر الزمان ولا يبلغ إيمانه مثقال ذرة من آخر صحابي جليل: يا أيها الأخ الكريم ؛ أتفعل أنت هذا إذا رأيت بابا مفتوحا، أتنظر إليه أم تغض البصر ؟ إن كنت أنت لا تفعل فهذا النبي أعظم، وأسمى من أن يفعل هذا، وهذه قصة مختلقة، لذلك:

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا)

فإذا كنتم أنتم لا تفعلون هذا فأجروا المحاكمة بأنفسكم، إذا كنتم أنتم فوق هذا، أيعقل أن يفعلها صفوان، أو أن تفعلها السيدة عائشة ؟

(وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)

المعنى الثاني: قيسوا ذلك على أنفسكم

الشيء الثاني ؛ الوقفة عند:

(بِأَنْفُسِهِمْ)

أيْ عليكم أن تقيسوا على أنفسكم، هل تفعل أنت هذا ؟ لا والله، لا أفعله، فهو أعظم منك، الذي تتهمه هو أعظم منك، هذا قياس رائع، المعنى الثاني أن هذا الذي تتحدث عنه هو أخوك، وأخوك هو عين ذاتك، إن تحدثت عنه فكأنما تتحدث عن نفسك، كيف ؟ عندما يتحدث الإنسان عن ابنه بالسوء فكأنه

يتحدث عن نفسه بالسوء، لأن هذه تربيته، كيف ؟ فإذا تحدثت الأم عن ابنتها بالسوء فكأنما تتحدث عن نفسها، كذلك المؤمنون وحدة متماسكة، فعن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى منه عُضْو تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))

[البخاري(5656)، مسلم(2586)]

إذا تحدثت عن أخيك فهو أخوك، فكأنما تتحدث عن نفسك، وفي آية مشابهة لهذه الآية يقول تعالى:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة البقرة: من الآية 188)

لم يقل الله تعالى: ولا تأكلوا أموال إخوانكم، بل قال:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ)

لأنّ هذا المال الذي هو مال أخيك هو في الحقيقة مالك يجب أن تحافظ عليه وكأنه مالك، فلتدع أن تأخذه من باب أولى.

في القرآن الكريم لفتات رائعة جدا، فالمعنى الثاني أن المؤمن إذا تحدث عن أخيه المؤمن بالسوء فكأنما يتحدث عن نفسه، لذلك قالوا: من أساء الظن بأخيه فكأنما أساء الظن بربه، وكأنك تطعن في هذا الدين، هذا أخوك صائم، مصل، مستقيم، فإذا تحدثت عنه بالسوء فالحديث عن الدين بالسوء، إذا كان هذا شأن المسلم فاقرأ على الدنيا السلام، لذلك الحديث عن المؤمنين حديث خطير، وإن الله يدافع عن الذين آمنوا:

((مَن آذَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))

[البخاري، وأحمد بلفظ: من أذل لي وليا فقد استحل محاربتي]

فلا تجعل همك تجريح الناس، فتضعضع ثقتهم بالدين، وثقتهم بأهل الحق، لا تجعل همك تتبع عورات الآخرين، ومن تتبع عورات الآخرين فضحه الله في عقر داره.

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)

الإفك يعني شيئاً مختلقاً من دون دليل، من دون برهان، فعوّد نفسك أن تكون علمياً، لا تقبل قصة من دون دليل، من قال هذه القصة ؟ ممّن سمعتها ؟ هل سمعتها من إنسان موثوق ؟

قاعدة جليلة: إن كنت ناقلا فالصحة، وإن كنت مدّعيًا فالدليل:

عندنا قاعدة ؛ هذه القاعدة لو طبقها المسلمون لسعدوا وأسعدوا، إن كنت ناقلا فالصحة، وإن كنت مدّعيًا فالدليل، إذا نقلت خبرا توخى الصحة، من قال لك هذا الخبر ؟ هل سمعه هو بأذنه ؟ لا سمعه من

إنسان، وهذا الإنسان ممن سمعه ؟ من إنسان آخر، وفي النهاية فكرة، أو خاطر خطر لفلان، نقله إلى أخيه على أنه وقع من إنسان، فصار الخبر قطعياً، وهو خبر موهوم، لذلك إذا كنت ناقلا فالصحة، وإذا كنت مدّعيًا فالدليل، إن جئت بشيء جديد أين الدليل ؟ لابد من دليل عقلي، ولابد من دليل نقلي، ولابد من دليل واقعي، إذا أردت أن تقول: أنا رأيي كذا، وكذا فلا بأس، لكن ما لدليل ؟ لا نقبل من دون دليل، ولا نرفض من دون دليل، لا نقبل قصة من دون صحة، ومن دون التأكد من صحة راويها لذلك:

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (12) لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ(13))

(سورة النور)

هل هناك شهداء أربعة رأوا بأم أعينهم هذه الخيانة.

فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ

والكذاب يقام عليه حد القذف، لذلك أقام النبي عليه الصلاة والسلام الحد على ثلاثة من المنافقين، الذين ثبت أنهم روجوا هذا الخبر، ونقلوه بين الناس ليشفوا به غليل صدورهم، وحقدهم، وقد وقعوا في شر أعمالهم، وقد أقام عليهم النبي عليه الصلاة والسلام حد القذف بعد أن أنزل الله براءة أهله الأطهار.

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(سورة النور)

وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ

عملية كبيرة، فأنت حين تنقل هذا الخبر تشكك بهذا النبي العظيم، أهكذا زوجته ؟ أنت حينما تروج لهذا الخبر تشكك بهذا الدين، وتشكك بالوحي كله، لذلك فهذا الذي جاءت به هذه العصبة إفك مبين، وعمل كبير، وبهتان عظيم، ولولا رحمة الله عز وجل بأنه جعل حد القذف حدا لمن يتجاوز حرمة الآخرين لأهلك الله سبحانه وتعالى كل من روج هذا الخبر، لكن ربنا عز وجل يمهل، ولا يأخذ بالذنب الواحد.

(وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

هذا الحديث، هذا اللغو، فالإنسان قبل أن يروج قصة، قبل أن ينقلها، قبل أن يتسلى بها، قبل أن يملأ فراغه بها، قبل أن يترنم بالحديث عنها ليحسب حساب العذاب الأليم، الذي توعد الله به كل معتد أثيم.

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

(سورة النور)

وجوب التأكد من الأخبار قبل نقلها: وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ

التلقي يجب أن يكون بالقلب، تلقيت هذا الخبر فتريث، ادرسه، وازن، حلل، قِس، اسأل، تحقق:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات: الآية 6)

تأكد يا أخي، واسأل، وأعظِمْ بذاك الحديث المروي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[أخرجه مسلم، أبو داود]

كفى بالمرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع، أيْ يكفيك إثما، ويكفيك كذبا أن تنقل للناس كل ما سمعته، لأن هذا الذي سمعته يحتاج إلى تمحيص، وإلى تحقيق، وإلى تنسيق، وإلى حذف، ويحتاج إلى مقص تقص منه كل كذب، أما الذي يسمع، ويروي ما يسمع دون تمحيص فهذا إنسان عند النبي عليه الصلاة والسلام كذاب، وآثم.

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ)

سمعت الخبر، فكأن اللسان مثل مرآة عاكسة، تلقيته لا بأذنك، الأذن لها طريق إلى الدماغ، الأذن لها طريق إلى القلب، تلقيت الخبر بأذنك، فتريث، وادرسه، حلله، اسأل عن الأدلة، اسأل عن البراهين، اسأل عن المخبر فقد يكون إنساناً سيئاً، قد يكون فاسقاً، قد يكون له غرض بهذا الخبر، فقد يأتي الإنسانَ أحياناً هاتفٌ، ويكون قد خطب فتاة، فيأتيه هاتف، يصبح الزواج على كف عفريت، من أجل كلمة قالها فلان مجهول على الهاتف، فهذا الخبر تلقاه بالأذن، وتريث، أما هذا الذي يتلقى الخبر باللسان، وكأن اللسان مرآة عاكسة، فلمجرد أنه وقع على لسانه نطق به، عبارة رائعة جدا، تلقى هؤلاء المنافقون الخبر بالألسنة، ونطقوا به مباشرة.

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

(سورة النور)

قال سيدنا الصديق: **" أيُّ أرض تقلّني، وأيّ سماء تظلّني إذا قلت في القرآن برأيي ".**

[مصنف ابن أبي شيبة بلفظ: إن قلت ما لا أعلم، وانظر تفسير ابن كثير]

فلا تشهد إلا على مثل الشمس في كبد السماء، إذا كان الشيء كالشمس واضحا فاشهد عليه.

(وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

عظيم جدا أن تقول عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئا يخدش مكانته، أن تقول عن أهله الطاهرات شيئا يخدش سمعتهن.

حادثة الإفك ظاهرها شر، وباطنها خيرٌ:

إذا هذا الحديث ؛ حديث الإفك كما رأيتم فيه خير مبطن، في ظاهره شر أربك المؤمنين، وسبب متاعب لأناس كثيرين، وسبب آلاماً لا حدود لها للسيدة عائشة رضي الله عنها، وسبب إحراجا كبيرا للنبي عليه الصلاة والسلام، لكنه في النهاية كشف المؤمنين على حقيقتهم، أظهر نبلهم، أظهر حسن ظنهم بنبيهم، وبأمهم الطاهرة، وأظهر المنافقين على حقيقتهم، فكان هذا الحديث كاشفا للمؤمنين، ممحصا لهم، وهذا الحديث يقع في كل وقت، وفي كل زمان، وفي كل مكان، والناس وفق بعض المشكلات التي تصيب بعضهم بعضا يفرزون إلى محسن، وإلى مسيء، إلى صادق، وإلى كاذب، إلى محب، وإلى مبغض، إلى مؤذٍ، وإلى مصلح، هؤلاء يفرزون إلى أصناف شتى بسبب ما يمتحن الله به عباده من حين لآخر.

إنّ المصائب محك الرجال، والعبرة ألا يكون هذا الحديث قصة، لا يعنينا شيء وقع، وانتهى، وأصحاب هذا الحديث كلهم تحت أطباق الثرى، لكن الذي يعنينا نحن ألا نقع في مشكلة نهى النبي عليه الصلاة والسلام عنها، أو لا نقع في انحراف توعد الله به صاحبه العذاب الأليم، فهذا الحديث يجب أن نستنبط منه مواقف مشرفة، يقفها المؤمن من أخيه المؤمن، أن نحسن الظن به، أن يحفظ عليه غيبته، أن يرد عنه كل تهمة باطلة، أن يظن أن هذا المؤمن الذي يتحدث الناس عنه هو مثله إن كان هو لا يفعل هذا فذاك من باب أولى.

إن شاء الله تعالى في الدرس القادم نتابع وقائع هذا الحديث.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (06-23): تفسير الآيات 16 – 22

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-11-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من سورة النور.

بدأنا في الدرس الماضي بالحديث عن موضوع الإفك، وقد جاءت آيات بينات تصف هذا الحديث، وتبرئ السيدة عائشة رضي الله عنها، وتضع للمؤمنين منهجا عليهم أن يطبقوه في قضايا اجتماعية مشابهة لحديث الإفك.

ورودُ القصة في القرآن للعبرة والاستنباط لا لذكر الأحداث:

بادئ ذي بدء القصة التي ترد في القرآن الكريم ليست مقصودة لذاتها، إنما المقصود أن يستنبط منها أحكام وآداب تكون منهجا للمؤمنين في تعاملهم مع مثل هذه الموضوعات ولم، ترد قصة في القرآن الكريم ما لم تكن قصة نموذجية تمثل نماذج بشرية متكررة، فليس المقصود هذا الحديث بقدر ما هو المقصود أن نستنبط منه الأحكام، والآداب، والمنهج الصحيح لتعاملنا مع بعضنا البعض فيما لو وقع مثل هذا الحديث.

البطولة في تفسير الحوادث والوقائع:

يقول الله سبحانه وتعالى:

(إِنّ الّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالّذِي تَوَلّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

الموضوع أن الإنسان قد يرى حادثة، أو أن الحادثة إذا وقعت يراها جميع الناس دون استثناء، ولكنهم يتفاوتون في تفسيرها، قد ترى أباً يضرب ابنه، الضرب وقع، والصورة رُسِمتْ على شبكية العين، ولكن الناس متفاوتون في تفسير هذا الضرب، فالأب الذي ينطوي على رحمة بالغة بأولاده يفسر هذا الضرب لمصلحة الأولاد، ويرى إنسان صغير السن في هذا الضرب ظلماً، وآخر بعيد عن معرفة الأب يرى في هذا الضرب قسوة، ورابع يرى في هذا الضرب تسرعا، وخامس يرى في هذا الضرب تشفيا، فالضرب يراه جميع الناس، ولكن الناس متفاوتون في تفسيره، فالبطولة في التفسير، لأن وقائع الأحداث جميعنا نتساوى في الإطلاع عليها، ولكن كلما ارتقى فهمُ الإنسان، وكلما اقترب من ربه مَلَكَ قدرة على

تفسير الوقائع، فربنا عز وجل قال:

(لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُم)

قال بعضهم: رُبَّ ضارة نافعة، والآية الكريمة التي يجب أن تكون أمامنا جميعا:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة: من الآية 216)

الاستسلام لقضاء الله وقدره مع الأخذ بالأسباب:

عندما يستسلم المؤمن لله عز وجل يستسلم إلى الله استسلاما كليا، ومع هذا الاستسلام فهو مُطبّق لأمره، مُنْتَهٍ عن نهيه، يلقي الله سبحانه وتعالى حينئذ في قلبه الأمن والطمأنينة، فأي شيء جاءه يقول: لابد أن يكون الخير كامنا فيه، فإما أن يرى الخير ظاهراً فيه، أو ألا يرى فيه خيراً ظاهراً، فلابد من خير كامن، وقد علمنا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فعَن ابْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ وَكَانَ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا))

[مسلم]

فتطبيقا لهذه المقدمة كُلّ واحد منّا في حياته، وفي زواجه، في عمله، وفي صحته عوارض، هناك أشياء مزعجة، وأشياء مسرة، أشياء مقبولة، وأشياء غير مقبولة، أشياء تدفع إلى الألم والحزن، وأشياء تدفع إلى الضيق، هذه الأشياء المحزنة أو المفرحة التي تدفع إلى الضيق أو إلى السرور، التوفيق في الزواج أو عدم التوفيق، نشأت مشكلة أو لم تنشأ، فاحت قضية، فاحت سمعة سيئة أنت منها بريء، والله يعلم أنك بريء، مثل هذه القضايا التي تتكرر، والتي تحدث في المجتمعات، بل في مجتمعات أهل الإيمان ينبغي أن تفسر في ضوء هذا الحديث، في ضوء حديث الإفك:

(لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)

فكل شيء قبل أن يقع افعل ما تشاء، تلافى وقوعه، وقد أعطاك الله عقلاً، لذلك فالقضاء والقدر نوعان، عندما كان سيدنا عمر رضي الله عنه في طريقه إلى الشام علم أن في الشام وباءً، مرضاً وبيلاً، فبعض أصحابه اقترح عليه أن يدخل الشام، ولا يبالي، فقضاء الله وقدره لا مفر منه، وبعض أصحابه اقترح عليه ألا يدخل الشام أخذاً بالأسباب، فامتنع سيدنا عمر بعدئذ عن دخول الشام، فقال بعضهم: يا أمير المؤمنين ؛ أتفر من قضاء الله ؟ فقال: **<< نعم، أفرّ من قضاء الله إلى قضاء الله >>**، ثم قال قولته

الشهيرة يخاطب هذا المعترض: **<< لو أن هناك واديين من المرعى، واد معشب وواد مجدب، فأنت إذا رعيت غنمك بالوادي المعشب رعيتها بقضاء الله وقدره، وإن رعيتها بالوادي المجدب رعيتها بقضاء الله وقدره >>**، فأنت ماذا تفعل ؟ تفر من قضاء الله إلى قضاء الله، فالإنسان قبل أن تقع الأمور عليه أن يأخذ بالأسباب.

فمثلا: إن كان هناك شبح مرض من باب أولى أن يتداوى الإنسان، ويأخذ بالأسباب، أو إن كانت هناك قضية في طريقها إليك فعليك أن تتلافاها، فقبل أن تقع الأشياء يجب أن نحكم العقل، ويجب أن نحكم الأسباب، ويجب أن نأخذ بها، لكن بعد أن تقع الأمور يجب أن نعتقد أن هذا الذي وقع هو بقضاء الله وقدره، وأن قضاء الله وقدره خير كله للعباد، لأن النبي عله الصلاة والسلام يقول:

((الإِيمَانُ بِالْقَدَرِ يُذْهِبُ الْهَمّ وَالْحُزْنَ))

[مسند الشهاب للقضاعي عن أبي هريرة]

محاولة تفادي الأمور قبل وقوعها: اعقلْ وتوكّلْ:

فاليوم هناك في الدرس شيء جديد، فالأشياء قبل أن تقع عليك أن تتلافاها، الأشياء المؤلمة المزعجة، فلو فرضنا أن إنساناً يسير مع امرأة في الطريق، وهو أعزب، فرآه صديق له فليقل: هذه أختي يا أخي، وقد قال النبي الكريم: هذه زوجتي، فالإنسان عليه أن يدفع عن نفسه كلام الآخرين، رحم الله عبدا جب المغيبة عن نفسه، فإذا كنت مسافراً، ووكلت قريباً لزوجتك قد يكون أخوها، ليتفقد أمور البيت، فإذا أعلمت الجيران أنك وكلت أخا زوجتك أن يؤمن لأهل بيتك الحوائج فهذا كلام ضروري جدا، لأنك نفيت عن نفسك ما قد يتبادر إلى أذهانهم من أن هذا العمل غير صحيح، فقبل أن تقع الأشياء يجب أن تأخذ بالأسباب، يجب ألا تفعل شيئا له تفسيران، يجب أن توضح للناس كل شيء، البيان يطرد الشيطان، في تعاملك المالي، في تعاملك مع النساء، في تعاملك الدقيق يجب أن توضح، لأن التوضيح والبيان يطردان الشيطان، ولكن إذا أخذت بكل الأسباب ووقعت مشكلة، الآن ليكن هذا الحديث ؛ حديث الإفك أسوة لك في حياتك، هذا قضاء الله وقدره، فلا مفر من قضاء الله وقدره إلا بالتوكل، والله سبحانه وتعالى يتولى الدفاع عن المؤمنين، لقول الله عز وجل:

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنْ الّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: من الآية 38)

فهذا يفيدنا في أن كل مشكلة تقع في محيط الأسرة قبل أن تقع عليك أن تتلافى وقوعها، انطلاقا حديثِ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قالَ: قالَ رَجُلٌ:

((يَا رَسُولَ اللّهِ، أَعْقِلُهَا ـ أي ناقته ـ وَأَتَوَكّلُ، أَوْ أُطْلِقُهَا، وَأَتَوَكّلُ ؟ قالَ: اعْقِلْهَا، وَتَوَكّلْ))

[الترمذي]

إذا وقعت الوقائع وجب الاستسلام:

انطلاقا من هذا التوجيه النبوي عليك أن تعقل، ثم تتوكل، عليك أن تأخذ بكل الأسباب، ثم تتوكل على رب الأرباب، هذا قبل أن تقع المشكلة، لكن إذا أخذت بكل الأسباب، ثم وقعت، فهذا من قضاء الله وقدره، لذلك يتولى ربنا سبحانه وتعالى الدفاع عنك، ويتولى تبرئة البريء، وإدانة المتهم،

(لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

فربنا عز وجل يعامل الناس بميزان دقيق جدا، حديث الإفك، تولى إنسان ترويج الإفك في المدينة،

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ)

أيْ أن يشاع هذا الحديث، أن ينتقل من بيت إلى بيت، أن يتفاقم الأمر، هذا الذي يفعل هذا له عذاب عظيم، إنسان آخر سمع، وصدق فهذا له عقاب معين، هذا سمع، ولم يصدق، هذا سمع، وكذّب، هذا سمع، وأحسن الظن بزوجة النبي عليه الصلاة والسلام، فكل موقف له حساب، الأطباء يقولون: ليس هناك مرض، بل هناك مريض، والحقيقة إذا كان في الأرض خمسة آلاف مليون إنسان فكل إنسان يقف موقفاً يوزن بميزان دقيق، ويحاسب عليه.

لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا

أما:

(وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (11) لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ (12))

هذه (لَوْلَا) حرف حض، بمعنى هلاّ، فيا أيها المؤمنون هلا إذا سمعتم هذا الحديث المفترى ظننتم بأنفسكم خيرا، قستم هذا على أنفسكم، إنكم لن تفعلوا هذا الذي يروج عن صفوان وعن السيدة عائشة، فإن كنتم لا تفعلون هذا فهما لا يفعلانه من باب أولى، هذا معنى، المعنى الثاني أن حسن الظن من صفات المؤمن، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((حُسْنُ الظَّنِّ مِنْ حُسْنِ الْعِبَادَةِ))

[أبو داود، أحمد]

وحين يكون ظنك بإخوانك المؤمنين دليلاً على أنك مؤمن، فأنت مؤمن، وتعرف من هو المؤمن، فحسن الظن بالمؤمنين دليل إيمانك، وسوء الظن بالمؤمنين دليل البعد عن الإيمان، لهذا قيل: **" من**

أساء الظن بأخيه فكأنما أساء الظن بربه"، أنت حينما تسيء الظن بأخيك المؤمن فكأنما تشكك بهذا الدين، وهذا الدين لم يستطع أن يرقى بهذا الإنسان إلى المستوى الأكمل، لذلك من أساء الظن بأخيه المؤمن فكأنما أساء الظن بربه.

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ)

لذلك قالوا: نحن نفهم الأشياء كما نحن عليها، أغلب الظن أن الصادق يصدق الناس والكاذب يكذبهم، ذو النية الخبيثة يظن بالناس الخبث، وذو النفس الطيبة يظن بالناس الطيب، الذي ينطلق من إخلاص يظن الإخلاص في جميع الناس، والذي ينطلق من خيانة يظن الخيانة في جميع الناس، فأنت في أغلب الأحوال تنطلق من واقع تعيشه، هذا الواقع ربما تسقطه على الآخرين، فهؤلاء الذين يشككون، ويروجون، ويسيئون إلى المؤمنين هم في الأصل فاسقون خبيثون، والله سبحانه وتعالى كشفهم للناس، وما حديث الإفك إلا محكٌّ محّص الله به المؤمنين، والله سبحانه وتعالى يقول:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران: من الآية 179)

تصور منخلاً فيه حبوب، فالاهتزازات التي يفعلها من يريد أن يمحص هذه الحبوب، ماذا تفعل هذه الاهتزازات ؟ الحبة الكبيرة تبقى، والصغيرة تسقط فكذلك فربنا عز وجل يُعرّض المؤمن لبعض الأحداث القاسية، وبعض الهزات، والمشكلات التي تفرز المؤمنين إلى مؤمنين صادقين، وإلى مؤمنين ضعاف، وإلى منافقين، وإلى كافرين، فهذه الأحداث التي تنزعج منها أنت ربما كانت فرزا نوعيا للناس في زمن ما.

الأصل في الدعاوى والتهم إقامة البينات:

يقول الله عز وجل:

(لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ)

ففي الأخبار العادية يكفي شاهد واحد، وفي العلاقات المالية لابد من شاهدين، فإن كان أحد الشاهدين امرأة فلابد من امرأتين وشاهد، أما في قضايا العرض، وقضايا القذف، فلا بد من أربعة شهداء، وموضوع العرض في التعريف الدقيق هو موطن المدح والذم من الإنسان، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ذُبُّوا عَنْ أَعْرَاضِكُمْ بِأَمْوَالِكُمْ))

[الفردوس بمأثور الخطاب بزيادة: " تعطون الشاعر ومَن تخافون لسانه "، وانظر كشف الخفاء]

دافعوا عن أعراضكم بأموالكم، والعرض أثمن ما يملكه الإنسان، فربنا سبحانه وتعالى جعل القذف في هذا الموضوع يحتاج إلى أربعة شهود، والقضية تسبب تحطيم إنسان في مستواه الاجتماعي، أو رفعه.

رحمة الله بعباده وفضله عليهم:

(فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (13) وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (14))

ربنا عز وجل رحيم، ومن رحمته أنه فتح باب التوبة، وأنه جعل لمن تجاوز الحدود حدا يقام عليه، هذا الحد الذي يقام عليه هو كفارة له، فكفارة الزنا الرجم للمحصن، والجلد لغير المحصن، فإذا وقع الإنسان في الزنى ورجم، أو، جلد وتاب من ذنبه توفاه الله عز وجل، وليس عليه شيء.

يقول وربنا عز وجل:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة النور)

ومن علامات الإيمان أن ترى فضل الله عليك دائما، فضل الله عليك إذ أوجدك، ولم تكن شيئا مذكورا، هذه نعمة الإيجاد، وفضل الله عليك إذ أمدك بما تحتاج من طعام، وشراب، وعطف، وحنان، فجعل لك أما وأبا يعطفان عليك، وخلق لك هذا الهواء، وهذا الماء، وهذا الطعام، والشراب، وهذه نعمة الإمداد، وفضل الله عليك ثالثة بنعمة الإرشاد، فنقلك من الظلمات إلى النور، وهداك إلى الطريق المستقيم، وشرح الله لك صدرك للإسلام لذلك:

(وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ)

وهذا يعني أنّ فضل الله علينا مستمر في الدنيا والآخرة، في الدنيا حيث التوجيه، والتعليم، والتربية، و، العناية، والعطاء، والمنع، والإكرام، والإيلام، والرفع، والخفض، والبسط، والقبض، هذه كلها أحوال من أجل أن ترقى بالإنسان، والآخرة جعل الله هذه الجنة لينعم بها المؤمنون، وليكون الجزاء على ما أحسنوا في الدنيا، وجعل النار عقابا لهؤلاء العتاة الظالمين.

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

(سورة النور: الآية 15)

ضرورة الانضباط في الأقوال:

فالإنسان أحيانا يتكلم، لو يعلم علم اليقين أن هذا الكلام سيحاسب عليه حسابا عسيرا، وأنه لا يكمل إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، ففي العالم الإسلامي موضوع الخمر،

موضوع الزنى، موضوع السرقة، هذه في الأعم الأغلب يبتعد عنها عامة الناس، لأنها كبائر، ولكن الذي يهلكهم هي الصغائر، هي الغيبة، والنميمة، والفحش، والمزاح، وقول الزور، وما شاكل ذلك، والأيمان الكاذبة، فهذا اللسان ربما أورد الإنسان النار، لذلك فلابد للسان الإنسان أن يستقيم، وقد ورد في الحديث عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قالَ:

((كُنْتُ مَعَ النّبيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي سَفَرٍ فَأَصْبَحْتُ يَوْمًا قَرِيبًا مِنْهُ، وَنَحْنُ نَسِيرُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنّةَ، وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النّارِ قَالَ: لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسّرَهُ اللّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللّهَ وَلا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصّلاةَ، وَتُؤْتِي الزّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ، ثُمّ قَالَ: أَلا أَدُلّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ ؟ الصّوْمُ جُنّةٌ، وَالصّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النّارَ، وَصَلاةُ الرّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللّيْلِ، قَالَ ثُمّ تَلا:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ)

حَتّى بَلَغَ:

(يَعْمَلُونَ)

ثُمّ قَالَ: أَلا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللّهِ، قَالَ: رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ، وَعَمُودُهُ الصّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ، ثُمّ قَالَ: أَلا أُخْبِرُكَ بِمِلاكِ ذَلِكَ كُلّهِ ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيّ اللّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: كُفّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيّ اللّهِ، وَإِنّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبّ النّاسَ فِي النّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ))

[أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وأحمد]

فمن علامة المؤمن الانضباط، ولاسيما في مجالسه الخاصة، فربما يذكر اسم شخص، والجميع يتكلم فيه بالحق أو بالباطل، من علامة الإيمان أن تقف، وأن تمنع الناس من متابعة هذه المعصية، من علامة الإيمان ألا تستجيب لرغبة جامحة في الحديث عن هذا الإنسان، طبعاً تكون أحيانا ثمة رغبة أن تشرّح فلانًا، أن تذكر عيب فلان، أن تذكر هذه القصة الطريفة المضحكة، ففي ذلك دوافع لهذا الحديث، هذه الدوافع ربما تهلك صاحبها، ولكن المؤمن وقاف عند أمر الله، فمن هو المؤمن ؟ الذي تجده عند الأمر والنهي، فإذا تطرق إلى سمعه حديث فيه غيبة ينبه، ويعظ، ويقف، فإن لم يستطع قام من ذاك المجلس.

(إِذْ تَلَقّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ)

نصيحة قيمة تُرجَى للمؤمنين: وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ

قال ربنا عز وجل:

(وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنّ السّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً)

(سورة الإسراء: الآية 36)

هذه نصيحة تزجى للمؤمنين في أي موقف تقفه ؛ موقف قوليّ، موقف عمليّ، موقف فيه عطاء، موقف فيه أخذ، موقف فيه وصل، موقف فيه قطع، لم وصلت فلانا ؟ لم قطعت فلانا ؟ لم أعطيت فلانا ؟ لم منعت فلانا ؟ لم بالغت في مودة فلان ؟ لم جفوت فلانًا ؟ يجب أن تملك جوابا لله عز وجل، عوّد نفسك على كل عمل، على كل حركة، وكل سكنة، على كل تصرف، في كل أحوالك تصور أنك واقف بين يدي الله عز وجل، والله عز وجل يسألك: لم فعلت هذا ؟ لم أعطيت فلانًا ؟ لم منعت فلانًا ؟ لم وصلت ؟ لم قطعت ؟ لم كنت بشوشا مع فلان ؟ قد ترى رئيس دائرة لطيفاً مؤنساً مع أحد الموظفين، ومتجهماً مع آخر، فهذا عليه حساب، والله الذي لا إله إلا هو لابد أن يحاسَب، لم كنت مع فلان كثير الود ؟ لم كنت مع فلان مجافيا ؟ الله يعلم ما السبب، هناك سبب طبعا، سبب جعله يمنح وده لهذا، ويمنع هذا الود عن الآخر لأسباب مادية يا ترى ؟ لا نعرف، هناك حساب، حتى الأب يحاسب، لم قبّلت هذا الابن، ولم تقبل هذا ؟ لم أعطيت هذا، وحرمت هذا ؟ لم منحت هذا الابن بيتا، ولم تمنح هذا ؟ لم فرقت بينهما ؟ أشهد غيري، كما قال النبي الكريم، فإني لا أشهد على جور، فالبطولة في كل حركاتك، وسكناتك أن تملك جوابا صحيحا لرب العزة، لم تزوجت فلانة ؟ لم طلقتها ؟ لم تزوجتها وأنت في نيتك أن تطلقها ؟ الله سبحانه وتعالى يعلم ذلك.

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

(سورة النور: الآيات 14-15)

وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ

الإنسان لا يتكلّم أحياناً بلسانه، بل يشير... فلانة الله أعلم... قد تكون هذه زوجة، فينقل إنسان هذه الصورة إلى زوجها فيطلقها، عنده أولاد يتشردون، أنت متأكد ماذا فعلت ؟ هل تدري أنك ساهمت في تحطيم أسرة ؟ فهناك افتراءات كثيرة، لذلك كما أن الكذب والبهتان خطير جدا فكذلك أن تأخذ بعض الأخبار من دون تحقق، هذا أيضا موقف تحاسب عليه، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات: الآية 6)

(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ)

(سورة النور)

موقف المؤمن الورع المستقيم: سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ

فالمؤمن الحق هكذا يفعل إذا سمع عن مؤمن صادق مستقيم ورع تقي نقي، إذا سمع قصة لا تليق به فيجب أن تقول: إنني لن أصدق هذه القصة، هذا بهتان عظيم، هذا افتراء، هذا إثم، عندنا حالة ؛ لك أخ كريم، وأنت واثق من صدقه، ومن استقامته، ومن ورعه، وطاعته، ومن عبادته، ومن، ومن... واثق تماما، جاءك خبر عنه لا يليق به، فأنت في ثلاث حالات ؛ إما أن تصدق، وإما أن تشكك، وإما أن ترفض، فإذا شككت لك أن تستوضح الأمر، هذا واجبك، وإذا كذبت، وكنت مرتاحا لهذا التكذيب فهذا عمل طيب، وأنت بهذه الحالة لست مضطرا لأن تُحقق، فإنسان عمّر مسجداً، ودفع ثلاثين مليوناً، وجدته يضع يده في جيب معطف ما تظن فيه ؟ أخذ عشر ليرات، تقول حتما: هذا معطفه، لا تشعر أن هناك تشويشاً، أو شكاً، أو أخذاً، أو رداً، فعندما تكون واثقاً من أخيك ثقة مطلقة، وكذبت هذا الخبر، وأنت مرتاح له فما عليك إلا أن تتحقق، وهذا الخبر لا يرقى إلى مستوى البحث، لكن هناك حالات ثانية ؛ مثلا لك أخ، معرفتك فيه عادية، فلما بلغك هذا الخبر عنه تسرب إلى نفسك الشك فيه، ففي هذه الحالة يجب عليك أن تتحقق من هذا الأمر، تسأل من هو قريب منه، تذهب إليه...يا أخي قيل عنك كذا وكذا، فما جوابك ؟ تأكد، فأنت في حالة الشك، حالة مزعجة، لا أنت في مودة معه، شككت فيه، ولا يوجد إمكان أن تكذب الخبر أو تصدقه، فمثل هذه الحالة التي تعتري صاحبها الشك لابد من التحقق، وإذا كان الشخص بعيداً عن الحق، وقالوا عنه: وقع معصية، فأنت وجدت هذه المعصية تتناسب مع بعده عن الدين، مع تكذيبه للدين.....

فالله عز وجل ينتظر من عبده المؤمن ألاّ يقع في الذنب مرتين، وقد قال سيدنا الشافعي: **" ما خدعني واحد مرتين "**، المؤمن كيس فطن حذر، وسيدنا عمر قال: **<< لست بالخبِّ، ولا الخب يخدعني >>.**

[نسبه ابن منظور في لسان العرب إلى ابن سيرين، انظر (اللسان مادة خبب)]

فإذا زلّ الإنسان، وتورط، وسمع قصة فيها تعريض بمؤمن، ثم بعد ذلك ثبت له أن هذا الإنسان بريء، لكن مرة ثانية يجب أن تتحقق، فالإنسان إذا وقعت معه المشكلة مرتين أو ثلاثًا فهذا دليل غبائه، ودليل بُعده، ودليل سوء طويته، لكن إذا زلت القدم مرة واحدة فلا ضير على الإنسان، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((لا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ))

[البخاري، مسلم]

(يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة النور)

(أبَدًا) لاستغراق المستقبل، الإنسان أحيانا ينعقد في نفسه عزم أكيد على ألا يعود لهذه المعصية أبدا، الإمام الغزالي رحمه الله يرى أن التوبة تحتاج إلى ثلاث مراحل ؛ مرحلة العلم، ومرحلة الندم، ومرحلة العزم، فالتوبة علم، وسلوك، فلولا أنك علمت أن هذه معصية ما تبت منها، فلابد من العلم، والإنسان عندما يحضر مجلس علم فالهدف أن تعرف أين أنت من الدين يا ترى ؟ أأنت مطبق أم غير مطبق ؟ هناك موضوعات كثيرة تطرح ؛ هل أنت مطبق لهذا الموضوع ؟ هل أنت غير مطبق له ؟ فالإنسان في مجلس العلم يقوّم نفسه، يعرف أين هو من الدين، فالقضية الفلانية ماذا قال الشرع فيها ؟ كذا وكذا، هل أنا مطبق لها ؟ فإذا لم يتلق الإنسان العلم يظن أنه جيد، وهو سيئ، وهذه أكبر مصيبة إنه جهل مركب، قال الخليل بن أحمد النحوي: **" الرجال أربعة ؛ رجل يدري ولا يدري أنه يدري فذاك غافل فنبهوه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذاك جاهل فعلموه، ورجل يدري ويدري أنه يدري فذاك عاقل فاتبعوه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذاك مائق فاحذروه ".**

[تذكرة الحفاظ، محمد بن الطاهر بن القيسراني (788/3)، والمدخل إلى سنن النسائي لأبي بكر البيهقي(828)]

إن الإنسان يعرف مقامه بالعلم، يعرف مرتبته، يعرف مكانته من الدين، والإنسان يتعود أن يواجه الحقيقة المرة، إذا كان عند الإنسان دائما رغبة مستمرة في أن يدافع عن نفسه، إذا كان مقيماً على المعاصي، متعلق بالنساء مثلا، يا أخي من قال إنها حرام، لا شيء فيها، فالإنسان بشكل عام يدافع عن نفسه، ويدافع عن واقعه، فإذا كان له مخالفات في كسب المال يقول: هذه فيها فتوى، وهذه أحلوها، أنت في وهم وغلط، دائما يبحث عن فتاوى، وعن توجيهات تغطي معاصيه، فالإنسان عنده رغبة أن يدافع عن واقعه السيئ والجيد، سيّان في ذلك، فعندما يحضر الإنسان مجلس علم فهناك أشياء واهية تزول عنه، يحسب أن دخله حلال، فإذا في دخله شبهة، يظن نفسه بهذا النشاط الاجتماعي يخدم مجتمعه، والنتيجة أن عنده مخالفات كبيرة جدا، هذه النشاطات قد يشوبها معاص لله عز وجل، فالإنسان يتعلم، ويعرف بالعلم مكانته من الدين، أما إذا لم يخطر بباله أن يحضر مجلس علم فكيف سيعرف نفسه على حق هو أم على باطل ؟ يظن أنه على حق، ويتوهم أنه على حق، ويحسب أنه على حق، وهو على خلاف ذلك، فربنا عز وجل قال:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

(سورة الكهف: الآيات 103-104)

هذا عيب كبير في الإنسان ؛ أن يتوهم أنه على حق، وهو على باطل، يظن أنه مستقيم، وهو غير مستقيم، أو أن إنساناً آخر يبحث عن الرُخَصْ، يسأل علماء كثيرين، هذا أحسن من هذا، سمح فيها هذا،

وما سمح فيها ذاك، هذا متزمت، هذا مرن، شيخ عصري، هذا يمكن أن يقبل بهذه، فَهَمُّه الأوحد أن يتقصى الرخص عند كل العلماء، فيخرج بدين عجيب، كله رخص، هذا الدين ليس فيه عزائم أبدا، هذه وجد لها فتوى، وهذه وجد لها رأياً في كتاب، وتلك قال فيها واحد: لا شيء فيها، وهذه أخذها فلان على ذمته، وتلك كانت أمانة في ذمة شخص، فإذا به لا دين عنده إطلاقاً، فالإنسان إذا حضر مجلس علم يعرف أين هو من الدين.

(وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (18) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19))

(سورة النور)

يا أيها الناس، احذروا فإنه وعيد شديد:

الحقيقة أن هذه الآية شديدة التحذير.

أولا: أن الله سبحانه وتعالى توعد بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، توعد من ؟ توعد الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا توعدهم على تمنياتهم فقط، إذا أنت تتمنى أن هذا المجتمع المؤمن تشيع الفاحشة فيه، كأن يُصبح فيه اختلاط، وتداخل في الأنساب، ولا يكون فيه انضباط أخلاقي، هذا الوضع فيه بعد عن المرونة، فيه تزمت، فهذا الذي يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا كالأجهزة التي تسبب الفساد الاجتماعي، أفلام منحطة، إذا تداولت يُصبح هناك زنى، وانتهاك لحرمات الله عز وجل، فإذا كانت هناك مجلات ساقطة تجدها في كل مكان، موجودة يمكن أن تسبب انهياراً خلقياً فالفاحشة في المجلات، وفي الصور، وفي بعض القصص، وفي بعض المسرحيات، وفي كل موقف فيه إغراء بالمعصية، فيه إغراء بالفساد، فهؤلاء الذين يتمنون أن تشيع هذه الموبقات في المجتمع المسلم، هؤلاء لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة، فهذا الذي إذا لم يجد في المجتمع انحرافاً خلقياً يقول: هذا المجتمع ضيق، مغلق، فيه تزمت، مجتمع لا يرى من مباهج الدنيا شيئا، هذا الإنسان بعيد عن الدين بعد الأرض عن السماء، هذا معنى، المعنى الثاني: إذا كنت ترتاح أن يتحدث الناس عن هذا المؤمن فيقولون: زوجته غير مستقيمة، فتشعر بالراحة، ويشفى قلبك، وتُحس أن هذا يجب أن يعرفه الناس، فالمؤمن الصادق لو كانت القصة حقيقية يجب أن يكتمها حرمة للدين، لا يخلو مجتمع من مزالق، وانحرافات، فهذا الذي تشفى نفسه إذا شاعت الفاحشة، شاعت الرذيلة، شاع الفساد، شاعت القصص المنحطة عن زيد وعبيد، هذا المجتمع الذي تتخلله الفواحش، والموبقات والإشاعات، والفضائح، هذا المجتمع إذا كان محبباً للإنسان، فهذا الإنسان له عذاب أليم في الدنيا والآخرة، إذا كان الإنسان يحب مجتمع الفضيلة، مجتمع الانضباط، مجتمع الأسرة، مجتمع عدم الاختلاط، مجتمع التستر، مجتمع الصون، مجتمع

العفاف، مجتمع النظافة، هذا الذي يحب هذا المجتمع مؤمن ورب الكعبة، هناك إنسان يكره مكاناً فيه معصية، ويؤثر عليه بيته، يؤثر عليه مكانا قصيّا يمنع الناس عن ارتكاب المخالفات أو المعاصي، هذه الآية دقيقة جدا، وكأن ربنا عز توجل يعلمنا نقيم أنفسنا من تمنياتنا ؛ يا أيها الإنسان ماذا تتمنى ؟ هذا الذي يتمنى أن تشيع الفاحشة ليس مؤمنا.

(إِنّ الّذِينَ يُحِبّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ)

لأن هناك فرقاً في المنطلقات، هذا المجتمع، أو هذه الدنيا مزرعة الآخرة، فإذا شاع فيها الفساد بعُد الناس عن الله عز وجل، متى يدفعون الثمن الباهظ ؟ عند الموت، فشخص قضى حياته كلها مع النساء فهناك تساهل، وتجاوز للحدود، هناك استمتاع بأعراض لا تحل له، وعدوان على أعراض أشخاص آخرين، هذا التجاوز، هذا التفسخ، هذا الانحطاط، إذا قضى الإنسان حياته في هذا، ثم اقترب أجله، ورأى أنه لا نصيب له في الحياة الآخرة، وأن مصيره إلى النار، عندئذ يصعق، قال ربنا عز وجل:

(فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

(سورة الطور: الآية 45)

فكأن ربنا عز وجل أراد أن تعرف نفسك من تمنياتك، أين تحب ؟ هل تحب مجتمعاً فيه عفة، فيه تستر، فيه صون للحرمات، وهذا الذي يسميه الفاسقون أحيانا: جلسة ناشفة، خالية من امرأة، طبعا هذا الذي يتمنى أن يكون في هذه السهرة نساء، إذا رفض واحد أن يستقبل صديقه إلا في غرفتين يعتبره هذا بعيدًا جدا عن اللباقة، أنا جئت إلى سهرة عائلية، لماذا وضعتنا في غرفة، والنساء في غرفة، الأفضل أن نكون مع بعضنا، فهذا الذي يحب مجتمع الفساد، مجتمع التحلل من القيم، هذا إنسان له عذاب أليم في الدنيا والآخرة، هذه الأسرة إن كانت نظيفة مطبقة لأمر الله عز وجل فلابد أن تسعد في الدنيا والآخرة، وهذه الأسرة التي تتحلل من أوامر الله عز وجل لابد أن تشقى في الدنيا والآخرة.

(إِنّ الّذِينَ يُحِبّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (19) وَلَوْلَا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنّ اللّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(20))

(سورة النور)

يا أيها الناس: وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ

لولا فضل الله عليكم ورحمته بأن جعل لهذه الانحرافات حدودا تحد، وجعل لهذه المعاصي توبة ترد بها المعاصي، لولا هذه الحدود، ولولا تلك التوبة، ولولا هذا العقاب، ولولا هذه الترتيبات لانتهى بكم المقام إلى النار.

(وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ)

بكم.

(أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

(سورة النور)

إيّاكم وخطوات الشيطان !!!

في الحقيقة هذه أخطر آية في سورة النور، فلو سألت إنسانًا وقع في كل المعاصي: ما هي أسباب هذا الانحدار الشديد ؟ يقول لك: أول خطوة لم يدعُ الشيطانُ أحدًا إلى الزنى، ولكن يدعوه إلى النظر، إلى هذا الجمال الذي خلقه الله عز وجل يقول: يا أخي ؛ إن الله جميل يحب الجمال، يدعوك إلى شيء في نظرك خطوة بسيطة جدا، يدعوك مثلا للذهاب إلى هذا المكان، إلى هذه السهرة، إلى قراءة هذه القصة، إلى مشاهدة هذا الفيلم، يدعوك بأول خطوة، لكن هذه الخطوات تجر أختها إلى أن يصل الإنسان إلى الحضيض، وهو لا يدري، لذلك ثمة شهوات لها قوة جذب، لذلك قال ربنا عز وجل فيها:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: الآية 187)

لابد أن تدع بينك وبين حدود الله هامش أمان، هذا الطريق الذي تسير فيه لا يرضى الله عنك، هذا الكتاب إذا قرأته لا يرضى الله عنك، هذا الصديق إذا صاحبته لا يرضى الله عنك، فهي أول خطوة أن تصاحب إنسانًا غافلاً، إنسانًا زانيًا، بعيدًا عن الله عز وجل، له حديث معين، له إغراء معين، فربنا عز وجل لحرصه علينا نهانا أن نتبع خطوات الشيطان، الشيطان يدعونا خطوة فخطوة إلى أن تقع الكارثة، كم من امرأة خانت زوجها بسبب أنها تبعت الشيطان خطوة واحدة، من خطوة إلى خطوة وقعت الخلوة، فحدثت الخيانة، وانتشرت الفضيحة، وأصبح الأولاد متشردين، مأساة كبيرة جدا انتهت بالطلاق، والتشريد، والسمعة السيئة، والفضيحة أسبابها أنها قبلت أن تخطو خطوة واحدة.

قال ربنا عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)

يكتشف الإنسان أن في بيته خيانة كبيرة، سببها أنه قال للجار: تفضل يا أبا فلان، ادخلي يا أم المؤمنين، هذا مثل أخيك، هي أول خطوة انتهت بالخيانة، فالإنسان عندما يكون جاهلاً يحفر قبره بيده، يهلكه تدبيره إذا كان جاهلاً، بل إن الجهل هو أعدى أعداء الإنسان، لماذا حياة المؤمن نظيفة، بيته نظيف، سمعته نظيفة، لأنه لا يوجد منافذ للشيطان، ولا يوجد اختلاط في حياته، هناك عنده أشياء

ممنوعة، مثلا جاء إنسان خطب ابنته، فله الحق في أن يراها مرة واحدة، أن يرى وجهها وكفيها، وانتهى الأمر، أما واللهِ خاطبها، والله جاء الخاطب دون عقد قران يسهر، الخطيب عند الخطيبة، ثمّ يأخذها في نزهة، وبعدها يختفي الخطيب، فإذا بالبنت حامل، هذا لا تتبعوا خطوات الشيطان، كل إنسان يقصر بهذا الموضوع يدفع الثمن غالياً جداً، يأتي على الذي يقصر ساعة يتمنى أنه يكون تحت الأقدام يتمنى أن يمزق إربا إربًا، ربنا عز وجل رحمة بنا قال:

(لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

هذه الآية مركز الثقل فيها هو:

(لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)

دائما، بطولتك تقضي أن تهرب من أسباب الخطيئة، إذا كانت السهرة مشكلة فاعتذر عنها، هذه النزهة فيها معصية فاعتذر عنها، هذا الصاحب ساحب فابتعد عنه، هذه القصة مغرية فابتعد عنها، هذه المشاهدة تفضي إلى الانحراف فارفضها، هي كلها خطوات الشيطان، إن أكبر المعاصي، وأكبر أنواع الانحلال الخلقي أساسه خطوة، وربنا عز وجل قال:

(وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى)

(سورة الإسراء: الآية 32)

لم يقل: ولا تزنوا، قال:

(وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى)

لكل معصية خطوات تسبقها

فالزنا قبله خطوات كثيرة جدا، والشيطان يقال عنه: إنه ذكي لا يأمر الإنسان أن يفعل الفاحشة، بل يأمره أن يفعل عملا صالحا، علِّمها القرآن، اهدها، وجهها، فيوجهها في خلوة، كان يوجهها فوقع بعد ذلك في الزنى، وهناك حالات تتم أساسها مخالفة للشرع،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ)

فكذلك الموضوع يمكن أن يأخذ منحى آخر، وليس كل المعاصي معلقة بالنساء، ثمة معاص مالية أيضا، يمشي معه بخطوة شارك فلانًا، لكن فلان له تجارة محرمة، أنت توجهه، وتنصحه، لكن شاركه الآن، لعل الله يهديه على يدك، لماذا أنت يائس من هداه، النتيجة أنه يشاركه فيعطيه أرباحاً طائلة، عنده ملهى، عنده مطعم فيه خمر، فيجد مبلغاً ضخماً يأتيه في السنة، فأصبح ماله كله حرامًا، ولم يعد عنده إمكانية أن يتخلى عن هذه الشركة، وقع، ولم يدرِ أنه وقع.

وكذلك النواحي المالية فيها إغراءات كثيرة، فإذا عرف أحدنا أن هذا العمل فيه شبهة، فيه حرام، فيه معصية، يريد أن يبتعد عنه، ويملك ألاّ يخطو أول خطوة، لكن إذا خطا أول خطوة أعتقد أنه لا يستطيع التوقف، مثل حجر مستقر في رأس جبل، فأنت بين حالين ؛ ما بين أن تدعه في هذا المكان المكين، أو أن تدفعه، فإذا دفعته لم يكن في إمكانك أن توقفه عند حد إلى أن يستقر في قعر الوادي، هذه الشهوة كهذه الصخرة تماما، إذا دفعتها من مكانها، وزحزحتها انطلقت، ولا تستقر إلا في قعر الوادي، كان الرجل في نظرة، فصارت ابتسامة، ثم أصبح في موعد معها، فلقاء، فكانت النتيجة الفاحشة، ومعها فضيحة، ومشكلة، نظرة، فابتسامة، فموعد، فلقاء،

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّبِعُوا)

هذا نهي إلهي، رب العالمين، وهو الخبير بالنفوس، ينهانا، وهو ربنا

(أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)

(سورة الملك: الآية 14)

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

(سورة الإسراء: الآية 17)

(وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر: الآية 14)

فمن هو الخبير بالإنسان ؟ إنه الله سبحانه وتعالى، فلا ينبغي أن تستمد توجيهاتك إلا من الله، لأن الجهة الصانعة وحدها هي المؤهلة أن توجه المخلوق.

(وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النور)

ثناء القرآن على أبي بكر الصديق

(وَلاَ يَأْتَلِ)

بمعنى لا يحلف

(أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

كان سيدنا الصديق يعطي مسطحا مالاً كلّ وقت، ومسطح هو المتَّهَم بترويج حديث الإفك، فلما علم سيدنا الصديق ذلك عاهد، أو حلف أن يمتنع عن إعطائه هذه المساعدة، فالله سبحانه وتعالى عاتبه فقال:

(أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

يروى أن سيدنا الصديق بكى بكاء كثيرا وقال: **<< بلى أحب أن يغفر الله لي >>.**

[القرطبي، والطبري، وابن كثير]

مسألة فقهية: ماذا يفعل من حلف على شيء ثم رأى غيره خير ؟

إذا حلف الإنسان يميناً ألاّ يفعل خيرا فعليه أن يحنث بهذا اليمين، وأن يفعل خيرا، أما أن يكفر عن يمينه، أو لا يكفر فهذا موضوع خلافي نعود إليه في بحوث الفقه، لكن إذا حلف الإنسان يميناً ألاّ يزور أخته، أو لا يفعل الخير، أو لو فرضنا أنه ضاع حذاؤه في المسجد فحلف يميناً ألاّ يأتِي إلى المسجد أبداً، ماذا نعمل ؟ لا يأتِي إلى المسجد ؟ لا، نقول: تعال إلى الدرس، وكفّر عن يمينك، فكل يمين مؤداة منعا للخير، فيجب أن تحنث بها، وبعضهم قال: الحنث بها هو التكفير عنها، وبعضهم قال: لابد أن تكفر عنها تعظيما لها.

(وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(وَلاَ يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

قاعدة أخلاقية جليلة: صِلْ مَن قطعك واعفُ عمّن ظلمك

هذا خلقٌ عالٍ جدا ؛ أن يعمل الإنسان خيراً، ولا يعلق أهمية أبدا على رد الفعل، إن كان فيه إساءة، أو فيه إحسان، فيه تقدير، أو عدم تقدير، شكر أو جحود، هذه ردود الفعل لا قيمة لها عند المخلص، فما دمت تفعل هذا الخير تقربا إلى الله عز وجل، وبدافع الإخلاص المحض فيجب ألا تأبه لكل رد فعل، طيب أو سيئ، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((اِصْنَعِ الْمَعْرُوفَ مَعَ أَهْلِهِ وَمَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ، فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ أَصَبْتَ أَهْلَهُ، وَإِنْ لَمْ تُصِبْ أَهْلَهُ فَأَنْتَ أَهْلُهُ))

[القضاعي في مسند الشهاب عن علي، وانظر كشف الخفاء، علل الدارقطني]

لا أعتقد أن هناك عملاً من حيث الإيلامُ والإيذاء من أن يقول إنسان عن ابنتك الطاهرة العفيفة: إنها زانية، ومع ذلك بدافعٍ من غيرته على ابنته ؛ زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم حلف سيدنا الصديق يمينا أن يقطع عن هذا الإنسان المرجف مساعداته، فعاتبه الله عز وجل، كيف فعاتبه الله ؟ قال ربنا عز وجل:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (33) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34))

(سورة فصلت: الآيات 33-34)

وقال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أَمَرَنِي رَبِّي بِتِسْعٍ ؛ خَشْيَةِ اللَّهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَكَلِمَةِ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدِ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَنْ أَصِلَ مَنْ قَطَعَنِي، وَأَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَنِي، وَأُعْطِيَ مَنْ حَرَمَنِي، وَأَنْ يَكُونَ صَمْتِي فِكْرًا، وَنُطْقِي ذِكْرًا، وَنَظَرِي عِبْرَةً))

[تفسير القرطبي]

أنت لا ترقى إلى مستوى الإيمان الصحيح ما لم تَصِل من قطعك، وتعف عمن ظلمك، وتعط من حرمك، وهذا سيدنا الصديق لأنه تألم من مسطح ألما شديدا لأنه روج قصة كاذبة عن ابنته الطاهرة العفيفة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما نوى، وعزم على أن يقطع عن هذا الإنسان المبطل مساعداته عاتبه الله عز وجل، وهذا درس لنا:

((اِصْنَعِ الْمَعْرُوفَ مَعَ أَهْلِهِ وَمَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ، فَإِنْ أَصَبْتَ أَهْلَهُ أَصَبْتَ أَهْلَهُ، وَإِنْ لَمْ تُصِبْ أَهْلَهُ فَأَنْتَ أَهْلُهُ))

[مسند الشهاب عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده]

أعتقد أن أناساً كثيرين لا يستطيعون أن يرقوا إلى هذا المستوى، فأنت إن فعلت خيراً لا تنتظر أبدا أن يكون هذا الإنسان محسناً أو مقدراً، لو أساء لك، لو جحد خيرك، لو تكلم عنك بما ليس فيك وجب أن تتابع العمل الصالح.

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (23) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (24) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (25))

(سورة النور: الآيات 23-25)

يا له مِن حديثٍ عظيمٍ !!!

هذه الآيات إن شاء الله نشرحها في الدرس القادم، ونتابع سورة النور، والحديث الأخير الذي أعددته لكم والمتعلق بهذا الموضوع، يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو الدرداء عنه:

((أَيُّمَا رَجُلٍ شَدَّ عَضُدَ امْرِئٍ مِنَ النَّاسِ فِي خُصُومَةٍ لَا عِلْمَ لَهُ بِهَا فَهُوَ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ عَنْهَا))

تدخل مع إنسان في خصومة، وأنت لا تعرف ما موضوع الخصومة، لكن معه على حق، أو على باطل:

((أيُمَا رَجُلٍ شَدّ عَضُدَ امْرِئٍ مِنَ النّاسِ فِي خُصُومَةٍ لاَ عِلْمَ لَهُ بهَا فَهُوَ فِي سَخَطِ اللّهِ حَتّى يَنْزِعَ عَنْهَا، وَأَيُمَا رَجُلٍ قَالَ بِشَفَاعَةٍ دُونَ حَدّ مِنْ حُدُودِ اللّهِ أَنْ يُقَامَ فَقَدْ عَانَدَ اللّهَ حَقًّا، وَأَقْدَمَ عَلَى سَخَطِهِ، وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللّهِ تَتَتَابَعُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))

فإذا كان الله عز وجل جعل للزنى حدّا فإذا أردت أن تمنع إقامة هذا الحد لسبب أو لآخر فأنت تعاند الله حقا، وتقدم على سخطه، وعليه فإن لعنة الله تتتابع إلى يوم القيامة.

والفقرة الثالثة والأخطر - دققوا في هذا الحديث -:

((وَأَيُمَا رَجُلٍ أَشَاعَ عَلَى رَجُلٍ مُسْلِمٍ كَلِمَةً هُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ يَرَى أَنْ يُشِينَهُ بهَا فِي الدّنْيَا كَانَ حَقًّا عَلَى اللّهِ تَعَالَى أَنْ يَرْمِيَهُ بهَا فِي النّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

تعرفه بريئاً وأردت أن تشيع عليه هذه التهمة وأن تروجها بين الناس من أجل أن تحطمه هذا العمل يكفي لدخول النار،

((وَأَيُمَا رَجُلٍ أَشَاعَ عَلَى رَجُلٍ مُسْلِمٍ كَلِمَةً هُوَ مِنْهَا بَرِيءٌ يَرَى أَنْ يُشِينَهُ بهَا فِي الدّنْيَا كَانَ حَقًّا عَلَى اللّهِ تَعَالَى أَنْ يَرْمِيَهُ بهَا فِي النّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[الحديث بكل أطرافه في تفسير القرطبي(206/12) عن أبي الدرداء]

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (07-23): تفسير الآيات 23 – 26 ، مغزى قصة الإفك والتعليق عليها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 11-11-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

وقفات تحليلية متأنية لحديث الإفك:

الوقفة الأولى: العبرة في القصة عبرها ودروسها لا أحداثها وتفاصيلها:

أيها الإخوة المؤمنون، لازلنا في سورة النور، ومع الدرس السابع من هذه السورة، ولابد من وقفة أخرى عند **" حديث الإفك "**، ففي هذا الحديث كما وصفه الله سبحانه وتعالى خير كثير، لأن أية قصة في القرآن الكريم كما قلت لكم في الدرس الماضي ليست مقصودة لذاتها، إنما المقصود أن يستنبط منها قواعد في الآداب العامة، وفي المعاملات، وهذا حديث الإفك خير، كما قال الله سبحانه وتعالى:

(لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

(سورة النور: الآية 11)

الوقفة الثانية: كان من الممكن أن لا يقع الإفك ولكن ...:

لو وقفنا وقفة عند هذا الحديث نجد أنه كان بأمر الله، فكان من الممكن ألا تكون القرعة من نصيب السيدة عائشة مع رسول الله في هذه الغزوة، وكان من الممكن ألا يكون لها حاجة إلى قضاء الحاجة، لو لم تذهب لقضاء الحاجة لما كانت كل هذه القصة، وكان من الممكن ألا ينقطع عقدها، وهي تقضي حاجتها، وكان من الممكن أن ينقطع عقدها، ولا تنتبه إليه، وكان من الممكن أن ينقطع عقدها، وتنتبه إليه، ولا تعود من أجله، وكان من الممكن إذا عادت أن ينتظرها النبي عليه الصلاة والسلام، وكان من الممكن إذا حُمِلَ الهودج أن يشعر من حَمَلَهُ أنه فارغ، لو ذهبت في هذا الطريق إلى الممكنات لوجدت أن هذا الحديث وقع بأمر الله، و نستنبط من هذا التحليل أن كل شيء وقع أراده الله، لذلك فلا تأسَ على ما فات، ولا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل، فكلمة لو تفتح عمل الشيطان، وقد أشار ربنا عز وجل في قصص كثيرة، وفي آيات كثيرة إلى ذلك:

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)

(سورة يوسف: الآية 21)

الوقفة الثالثة: إظهار كل إنسان على حقيقته:

فهذا الحديث وقع بهذا الشكل، لو تابعنا هذا التحليل، كان من الممكن ألا يأتي صفوان، وكان من الممكن أن يتفقدها النبي عليه الصلاة والسلام، فيأمر أصحابه أن يعودوا إلى الموقع ليأخذوها، إذاً هذا ترتيب إلهي، فيه حكمة ما بعدها حكمة، من أجل أن يظهر كل إنسان على حقيقته.

الوقفة الرابعة: بشرية النبي عليه الصلاة والسلام:

ربنا سبحانه وتعالى يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام، ويأمره أن يبلغنا أنه بشر، فعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ:

((كَانَتْ عِنْدَ أُمِّ سُلَيْمٍ يَتِيمَةٌ، وَهِيَ أُمُّ أَنَسٍ، فَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْيَتِيمَةَ فَقَالَ: آنْتِ هِيَهْ، لَقَدْ كَبِرْتِ، لا كَبِرَ سِنُّكِ، فَرَجَعَتِ الْيَتِيمَةُ إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ تَبْكِي، فَقَالَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ: مَا لَكِ يَا بُنَيَّةُ ؟ قَالَتِ الْجَارِيَةُ: دَعَا عَلَيَّ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لا يَكْبَرَ سِنِّي، فَالآنَ لا يَكْبَرُ سِنِّي أَبَدًا، أَوْ قَالَتْ: قَرْنِي، فَخَرَجَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ مُسْتَعْجِلَةً تَلُوثُ خِمَارَهَا حَتَّى لَقِيَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا لَكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ ؟ فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَدَعَوْتَ عَلَى يَتِيمَتِي ؟ قَالَ: وَمَا ذَاكِ يَا أُمَّ سُلَيْمٍ، قَالَتْ: زَعَمَتْ أَنَّكَ دَعَوْتَ أَنْ لا يَكْبَرَ سِنُّهَا، وَلا يَكْبَرَ قَرْنُهَا، قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: يَا أُمَّ سُلَيْمٍ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ شَرْطِي عَلَى رَبِّي أَنِّي اشْتَرَطْتُ عَلَى رَبِّي فَقُلْتُ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ، وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ، فَأَيُّمَا أَحَدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ مِنْ أُمَّتِي بِدَعْوَةٍ لَيْسَ لَهَا بِأَهْلٍ أَنْ يَجْعَلَهَا لَهُ طَهُورًا وَزَكَاةً وَقُرْبَةً يُقَرِّبُهُ بِهَا مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أخرجه مسلم]

لئلا يعبده الناس من دون الله، لئلا يقال: إنه ابن الله، هو رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله، فربنا سبحانه وتعالى في هذا الحديث أراد أن يعلمنا أنه بشر، كما أراد أن نرى بأعيننا أنه بشر، نبي كريم عنده زوجة طاهرة عفيفة مؤمنة قانتة لله عز وجل، والناس يتحدثون أنها زنت، ماذا يفعل ؟ كيف له أن ينفي هذا ؟ ليس في إمكانه أن يثبته، ولا في إمكانه أن ينفيه، ولقد تأخر الوحي، لو أن الوحي جاء بعد يوم أو يومين لما كانت ثمة مشكلة، لكن الوحي تأخر شهرا بكامله، من أجل أن يظهر كل إنسان على حقيقته، فمن كان في قلبه مرض، من كان يبطن العداوة، من كان يتمنى أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ظهر على حقيقته جليا، ومن كان مؤمنا يحسن الظن بنبيه، وبأهل بيته قاس الأمور على نفسه، فقال: **يا أم أيوب لو أنك مكان عائشة أتفعلين ما يقال عنها ؟** قالت: لا، والله لا أخون رسول الله، وقال: **أما أنا فوالله لا أخون النبي في أهله، وصفوان أفضل مني،**

وعائشة أفضل منك، هؤلاء المؤمنون الصادقون، هؤلاء الذين يحبون نبيهم، ويحسنون الظن به، هؤلاء الذين ينزهون نبيهم، وأهل بيته عن كل دنس، هؤلاء قاسوا الأمور على أنفسهم، وأحسنوا الظن، فكأن هذا الحديث أبرز المخلصين الصادقين، وأبرز المنافقين والفاجرين، لذلك قال الله سبحانه وتعالى:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران: الآية 179)

لله أساليب كثيرة، فعل هذا يوم الخندق ؛ يوم أحدق الكفار والمشركون بالمدينة، ويوم خان اليهود عهدهم مع النبي على عادتهم، ويوم انكشف ظهر النبي عليه الصلاة والسلام، وأصبح الإسلام قاب قوسين أو أدنى من الانهيار، قال تعالى:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (12))

(سورة الأحزاب:الآيات 11-12)

أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، وأما المؤمنون الصادقون فقد وصفهم الله عز وجل بقوله:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

(سورة الأحزاب: الآية 23)

الوقفة الرابعة: في زمان ومكان امتحان للمسلم: إِنَّا كُنَّا مُبْتَلِينَ:

إن موضوع الخندق كان امتحاناً دقيقاً لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحديث الإفك امتحان آخر دقيق لهم، ونحن في كل زمان، وفي كل مكان لابد من امتحانات، سيسقط فيها من يسقط، وينجح فيها من ينجح، قد يكون هذا الامتحان كاشفا، وقد يكون دافعا، فهذه الامتحانات تتكرر، والتاريخ يعيد نفسه، وفي كل بيت هناك امتحان، قد يؤمن الرجل بالله عز وجل، ويتوب إليه، ويفعل الصالحات... يضيق رزقه، ويضيق، ويضيق، ماذا يفعل ؟ يعصي الله ؟ أيأكل مالا حراما ؟ إن هذا التضييق في الرزق امتحان من الله عز وجل، قد يعرض للإنسان موقف يخلو فيه بامرأة لا تحل له، ماذا يفعل ؟ أيغادر المكان ؟ أم يبقى ؟ امتحان، والله الذي لا إله إلا هو ما من مؤمن يقول: إني مؤمن إلا وهو معرض للامتحان عشرات، بل مئات المرات في اليوم، أو في الأسبوع، فقد يمتحن الإنسان بالمال ؛ بوفرته، وبفقده، يمتحن بالنساء بالحالتين، يمتحن بالقوة، يقوى فيطغى، أم ينصف ؟ يضعف فيزل، أم يصبر ؟ فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إنّا كُنّا مُبْتَلِينَ)

(سورة المؤمنون: الآية30)

ويقول:

(الّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

(سورة الملك: الآية 2)

فهذا الحديث:

(لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

لأن المؤمنين ظهروا على حقيقتهم، برزوا كالنجوم المتألقة في السماء، والمنافقون ظهروا كالوحول تحت الأقدام، ظهرت نيتهم، وظهر خبثهم، وظهر انحرافهم، وظهر سوء ظنهم، وظهر فرحهم بأن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فهذا الحديث كما قلنا حديث فيه خير كثير.

الوقفة الخامسة: لسان حال النبي عليه الصلاة والسلام: قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا

أشار العلماء إشارة دقيقة جدا، السيدة عائشة زوج النبي عليه الصلاة والسلام، وهو رسول الله، وسيد الخلق، وحبيب الحق حينما تحدث الناس عنها ما كان بإمكان النبي أن يبرئها، كأن الله عز وجل أراد أن يمتحنها، فلما نزلت براءتها بادرت إلى السجود لله عز وجل، وحمده، وحده، إذا كان الإنسان أحيانا يتعلق ببشرٍ مثله، وهذا الإنسان عبد، ربنا عز وجل يخاطبنا، يبلغنا، أو يبلغ النبي أن يبلغنا:

(قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا)

(سورة الأعراف: الآية 188)

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ)

(سورة الأعراف: من الآية 188)

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك لنا نفعا ولا ضرا، فَلأَنْ لا يملك لنفسه من باب أولى، وإذا كان الله سبحانه وتعالى يظهر أن النبي عليه الصلاة والسلام عبد لله، فحتى في حديث الإفك لم يملك النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الزوجة المخلصة العفيفة الطاهرة أن يبرئها حتى برأها الله عز وجل في قرآنه الكريم، وكانت السيدة الجليلة عائشة رضي الله عنها تقول: كنت أظن أن يرى النبي عليه الصلاة والسلام رؤيا تبرئني، فكنت أحقرَ من أن ينزّل فيّ قرآنًا، ولكن قرآنا يتلى إلى قوم القيامة نزل في تبرئة عائشة، فلماذا ؟.

الوقفة السادسة: أهداف المنافقين تتعدى الأشخاص:

قال بعض العلماء: إن المنافقين ما أرادوا في حديث الإفك أن ينالوا من السيدة عائشة بقدر ما أرادوا أن ينالوا من النبي عليه الصلاة والسلام، بل إنهم ما أرادوا أن ينالوا من النبي عليه الصلاة والسلام بقدر ما أرادوا أن ينالوا من هذه الدعوة الجديدة.

أحيانا حينما يتحدث الناس عن إنسان طاهر، عفيف، مخلص، صادق، حينما يلغطون بحديث يتعلق بحياته الشخصية، إنهم لم يتمكنوا أن يردوا دعوته، ولم يتمكنوا أن يقارعوه الحجة بالحجة، فعمدوا إلى ترويج قصص ملفقة عن حياته الخاصة، فلذلك لم يُرِدْ المنافقون، والذين أرجفوا في المدينة شخصَ السيدة عائشة، بل أرادوا شخص النبي عليه الصلاة والسلام، ولم يريدوا شخص النبي بل أرادوا هذه الدعوة التي جاءت نوراً للناس، لذلك تولى الله سبحانه وتعالى بقرآنه الكريم تبرئة هذه السيدة العفيفة الطاهرة، فَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

((أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السّلَاسِلِ فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ: أَيّ النّاسِ أَحَبّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ: عَائِشَةُ، فَقُلْتُ: مِنْ الرّجَالِ ؟ فَقَالَ: أَبُوهَا، قُلْتُ: ثُمّ مَنْ ؟ قَالَ: ثُمّ عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ، فَعَدّ رِجَالًا))

[أخرجه البخاري، ومسلم، الترمذي]

الوقفة السابعة: الحكمة من انقطاع الوحي في فترة الإفك:

حكمة أخرى من هذا الحديث كما نوهت بها قبل قليل هو أن انقطاع الوحي شهرا كاملا جعل هذه القضية تنضج، فهذا تكلم، والذي سمع تكلم، والذين سمع تكلم، هذا وقف موقفا محايدا، هذا وقف موقفا فيه حسن ظن، هذا وقف موقفا فيه إساءة ظن، هذا سمع وسكت، هذا سمع وأشاع، هذا سمع وروج، هذا سمع وفرح، هذا سمع وحزن، هذا الذي حزن له مقام، وهذا الذي فرح له درك في النار، وهذا الذي روج يحاسب على ترويجه، وهذا الذي سكت يشكر على سكوته، وهذا الذي تمنى كُتب عليه تمنيه، وكل إنسان من المؤمنين وقف موقفا دقيقا جدا سجل عليه:

(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

(سورة آل عمران: من الآية181)

أنت ماذا قلت ؟ كتب عليك، لماذا يخلع قلب الإنسان حينما يقال له: اكتب هذه الإفادة، وفيها أمر خطير، ثم وقِعْ، لماذا؟ لأن هذه الإفادة أصبحت وثيقة يدان بها.

لذلك يقول ربنا عز وجل:

(لَقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الّذِينَ قَالُوا إِنّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

هذا القول سجِّل عليهم، وسوف يعرض عليهم يوم القيامة، وسوف يحاسبون عليه حسابا عسيرا، فالإنسان عليه أن يضبط لسانه:

احفظ لسانك أيها الإنســـان لا يلدغنك إنه ثعبـــان

كم في المقابر من قتيل لسانــه كانت تهاب لقاءه الشجعان

***

إذا كنت أيها الإنسان تحفظ لسانك خوفا من بطش إنسان فما قولك إذا كان الواحد الديان سيحاسبك، أتَتَّهم الناس بالباطل؟

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنّ السّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا)

(سورة الإسراء: الآية 36)

وعن حذيفة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إِنّ قَذْفَ الْمُحْصَنَةِ لَيَهْدِمُ عَمَلَ مِئَةِ سَنَةٍ))

[الحاكم في المستدرك، والبزار في مسنده]

الوقفة الثامنة: انضباط المؤمن:

فأيها الإخوة الأكارم، أتمنى، وأتمنى من كل قلبي أن ينضبط المؤمن، ألاّ يخوض في أعراض الناس، ألاّ يخوض فيما ليس له به علم، ألا يهرف بما لا يعرف، ألا يتهم من دون دليل قطعي، هذا اللسان يحاسب الإنسان عليه، وفي الحديث عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنّةَ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

[أحمد في مسنده(13071)]

الوقفة التاسعة: نصرة الله للبريء:

شيء آخر، إذا كنت مع الله، وإذا كنت بريئا فأبشر، فإن الله سبحانه وتعالى لابد أن ينصرك، ولابد أن يظهر حقيقتك، ولو لغا الناس، ولو لاك الناس بعض الأحاديث بألسنتهم، ولم يبالوا بالحقيقة، فالنبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق، وحبيب الحق، وهذه زوجته الطاهرة المطهرة، ومع ذلك أرجف المنافقون في المدينة أقوالا لا أساس لها من الصحة، أرجفوا بهذه الأقوال، وشككوا الناس بها، ولغطوا بها، وعاش النبي عليه الصلاة والسلام، وعاشت زوجته، وعاش أبوها الصديق رضي الله عنه، وعاشت أمها شهرا من الحزن والألم، من البكاء المستمر، إلى أن تولى الله سبحانه وتعالى بقرآنه تبرئتها، إذا

أنت أيها المؤمن تستنبط من هذا الحديث أنك إذا كنت على حق فلا تخش إلا الله، وإذا كنت على حق فاطمئن إلى أن الله لابد أن يظهر الحق، لأنه هو الحق، الحق من أسمائه، فإذا كنت بريئا ومظلوما فأبشر، فلابد أن تظهر قضيتك على حقيقتها، ولابد أن تظهر براءتك، ويظهر طيبك، والله سبحانه وتعالى يتولى ذلك.

قال بعضهم: لِمَ لَمْ يعلن النبي للناس أن هذه الزوجة السيدة عائشة بريئة من هذه التهمة ؟ لقد كان النبي عليه الصلاة والسلام حكيما، كان حكيما إلى أقصى درجة، لأنه لو أعلن براءة زوجته فإنه طرف في القضية، إنها زوجته، إذاً لأُخِذَ كلامه من قبل أعداء الإسلام، من قبل المنافقين على أنه تغطية، وعلى أنه محاباة، وعلى أنه دفاع بغير حق، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام أظهر حكمته في أعلى مستوياتها، حينما امتنع هو على أن يدلي برأي في هذا الموضوع، وحينما أخذ موقفا معتدلا.

الوقفة العاشرة: الصبر والموقف المعتدل في أثناء الفتن والمحن:

كان إذا دخل على عائشة من قبل رضي الله عنها يقول: كيف عويش ؟ وكان اسما محببا لها، كان النبي عليه الصلاة والسلام زوجا مثاليا، وكان مما أثر عنه أنه إذا دخل بيته كان بساما ضحاكا، وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا تُكْرِهُوا الْبَنَاتِ فَإِنَّهُنَّ الْمُؤْنِسَاتُ الْغَالِيَاتُ))

[أحمد عن عقبة بن عامر]

وكان يقول:

((أَكْرِمُوهُنَّ فَوَاللَّهِ مَا أَكْرَمَهُنَّ إِلاَّ كَرِيمٌ، وَلاَ أَهَانَهُنَّ إِلاَّ لَئِيمٌ، يَغْلِبْنَ كُلَّ كَرِيمٍ، وَيَغْلِبُهُنَّ لَئِيمٌ))

[فيض القدير (496/3)]

وعن عائشة قالت قلت: يا رسول الله:

((كَيْفَ حُبُّكَ لِي ؟ قَالَ: كَعُقْدَةِ الْحَبْلِ، فَكُنْتُ أَقُولُ: كَيْفَ الْعُقْدَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَيَقُولُ: هِيَ عَلَى حَالِهَا))

[أبو نعيم في الحلية(44/2)]

أي لا تنفك فكانت من حين لآخر تسأله مطمئنة عن نفسها فتقول:

((كَيْفَ الْعُقْدَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَيَقُولُ: هِيَ عَلَى حَالِهَا))

كان النبي عليه الصلاة السلام إذا دخل بيته فكأنه واحد في هذا البيت، هذا المقام العظيم الذي كرمه الله به لم يكن يستخدمه في البيت، كان يركب الحسن والحسين على ظهره الشريف، فَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعَةٍ، وَعَلَى ظَهْرِهِ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَهُوَ يَقُولُ: نِعْمَ الْجَمَلُ جَمَلُكُمَا، وَنِعْمَ الْعِدْلَانِ أَنْتُمَا))

[الطبراني في المعجم الكبير]

وكان يتسابق مع السيدة عائشة، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا

((أَنَّهَا كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ قَالَتْ: فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ عَلَى رِجْلَيَّ، فَلَمَّا حَمَلْتُ اللَّحْمَ سَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي، فَقَالَ: هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ))

[أبو داود، النسائي، أحمد]

عودها الأنس، عودها اللطف، عودها التبسم، عودها الإيناس، لكنه حينما راج هذا الحديث أخذ موقفا آخر، دخل عليها فقال: **كيف تيكم** ؟ **كيف تيكم** ؟ هذا موقف آخر، فالذي أريد أن أقوله: إن النبي عليه الصلاة السلام ظهرت حكمته في أعلى مستوياتها، وظهر صبره، أحيانا يأتيك خبر فيهز كيانك، يأتيك خبر فتفقد توازنك، لكن النبي عليه الصلاة والسلام كالجبل الراسخ، كالطود الأشم، لم يتزلزل، ترك الأمر لله عز وجل، ووقف موقفا حليما.

الوقفة الحادية عشرة: حرمة سوء الظن بالمسلم:

شيء آخر، علمتنا هذه القصة أنه يحرم على المؤمنين سوء الظن بإخوانهم، لذلك جاء في بعض الأثر أنه من أساء الظن بأخيه فقد أساء الظن بربه، وشيء آخر في هذا الحديث حديث الإفك الذي قال الله عنه:

(لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

وهو أن من عُرف بالصلاح لا يُعْدَل بهذه المعرفة عنها إلى ظن السوء لخبر يلقيه إنسان، فمثله كمثل بناء شامخ، هذا البناء لا ينهار بكلمة، لا ينهار إلا بقنابل، بناء من الإسمنت المسلح متين، له أساس، بناء راسخ، سمعة المؤمن غالية على الله سبحانه وتعالى، بناؤه الراسخ لا يهتز بكلمة يقولها إنسان، لذلك فالله سبحانه وتعالى أدبنا في كتابه الكريم فقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات: الآية 6)

الوقفة الثانية عشرة: الأصل القاذف التكذيب الشرعي:

وحكم آخر يستنبط من هذا الحديث، أن القاذف الذي يلغط بأعراض المؤمنات أو بأعراض المؤمنين مكذبٌ شرعا ما لم يأت بالشهداء الأربعة، فأيّ قاذف يقذف امرأة أو رجلا فهو مكذب شرعا ما لم يأت بالشهود، وعلى أولي الأمر أن يقيموا عليه حد القذف، وهو ثمانون جلدة.

الوقفة الثالثة عشرة: الأصل ستر المؤمن وعدم هتك الأعراض:

شيء آخر يستنبط من هذه القصة وهو الحث على ستر المؤمن، وعدم هتك سره، فمن آداب الإيمان أنك لو رأيت شيئا لا يروق لك فلا ينبغي أن تشيع هذا الخبر، لأن إشاعة هذا الخبر تزلزل بعض الناس، وتضعف الثقة بالمؤمن، فكان من لوازم الإيمان أن تكتم هذا الخبر، وكنت قد حدثتكم بقصة: أن رجلا تزوج امرأة، وبعد أن مضى على دخوله بها خمسة أشهر كبر بطنها، وكانت على وشك الوضع، فما شك أبدا من أنها قد زلت قدمُها قبل أن يقترن بها، فجاءها بمولدّة وولدت، وأخذ هذا الوليد، ودخل إلى أحد المساجد القريبة من بيته بعد أن نوى الإمام صلاة الفجر، ووضع هذا الوليد في زاوية المسجد، وأتم مع الإمام، فلما سمع المصلون صراخ هذا الوليد تحلقوا حوله، فتقدم وكأنه لا علم له بالقصة، فقال: ما هذا، قالوا: تعال انظر، وليد صغير ! فقال: أعطوني إياه، أنا أكفله، فأخذه، ودفعه إلى أمه بعد أن تابت على يديه، وحفظ سرها، هذا الرجل يسكن إلى جوار المسجد، رأى خطيب المسجد في منامه رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا له: يا فلان بلغ جارك فلانًا أنه رفيقي في الجنة، فهذا عمل عظيم، إذا كان بالإمكان أن تستر، إذا كان بالإمكان أن يتوب هذا الإنسان على يديك، فليس القصد أن تفضحه، القصد أن تأخذ بيده، القصد أن تعينه على الشيطان، لا أن تعين الشيطان عليه، هذا هو القصد، وقد مر بنا في درس الأحد كيف أن سيدنا عمر حينما جاءه رجل وقال: يا أمير المؤمنين رأيت فلانا وفلانة خلف النخل يتعانقان، فخفقه بالدرة، وقال ما معناه: ماذا فعلت أنت بهذا الخبر، الإسلام لا يحب أن تشيع الفاحشة، لا يحب خبر السوء، لا يحب الفضيحة، أما إذا بلغ الإمام أن فلانا فعل كذا وكذا مما يوجب عليه الحد فلا عفا الله عنه إن عفا.

إذا بلغ الإمام الموكل بإقامة الحد حادثة زنى فلا عفا الله عنه إن عفا، ولكن إذا كان بإمكانك أن تدرأ الحدود بالشبهات، أن تستر، أن تصلح، أن تعين أخاك على الشيطان فافعل.

قال بعض أصحاب رسول الله: **من حدث بما أبصرت عيناه، أو بما سمعت أذناه فهو ممن يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وهؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا توعدهم الله بعذاب أليم في الدنيا والآخرة.**

الوقفة الثالثة عشرة: حرمة سوء الظن بالمسلم: من أشاع فاحشة فعليه النكال:

وهناك حكم آخر استنبط من هذه القصة، هو من أشاع فاحشة فعليه النكال، وإن كان صادقا، وقد سئل أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيدنا الحسن: **ما معنى إشاعة الفاحشة ؟ ما حدها ؟** فقال:

((هو الرجل يتكلم عنده في حق رجل فيشتهي ذلك، ولا ينكره))

يشتهي أن يشيع هذا الخير، وما أعرف معصية يعاقب عليها بالرغبة فقط مثل هذه المعصية،

(إِنّ الّذِينَ يُحِبّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ)

لم يقل الله عز وجل: إن الذين يشيعون الفاحشة، بل قال:

(إِنّ الّذِينَ يُحِبّونَ)

فالعقاب على محبتك على أن تشيع الفاحشة.

أيها الإخوة الأكارم، هذه بعض الاستنباطات التي وردت في كتاب الله تحت قوله تعالى:

(لاَ تَحْسَبُوهُ شَرّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ)

وقد يمتحننا الله سبحانه وتعالى بامتحان يمحص الله به المؤمنين من الفساق، والمؤمنين من المنافقين، والآية التي تلي هذه الآية هي قوله تعالى:

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطّيّبَاتُ لِلطّيّبِينَ وَالطّيّبُونَ لِلطّيّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرّءُونَ مِمّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

(سورة النور)

معاني الآية:

هذه الآيات لها معان متعددة:

المعنى الأول: الخبيث لا يألف إلا خبيثة

من أبرز معانيها: أن الإنسان الطيب الطاهر العفيف المستقيم على أمر الله، الذي عرف ربه، وسمت نفسه، هذا الإنسان لا يمكن أن يأتلف مع امرأة زانية، لا يمكن أن يتعايش معها، لا يمكن أن يحتملها، لا يمكن أن تكون امرأته، لأن الطيبين للطيبات، فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام أطيب الطيبين فالسيدة عائشة أطيب الطيبات.

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطّيّبَاتُ لِلطّيّبِينَ وَالطّيّبُونَ لِلطّيّبَاتِ)

فلو أن الله عز وجل قال:

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ)

فلمَ قال بعدها:

(وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ)

هذا من البلاغة، وهو حصر من جهتين، من باب التأكد أن الخبيث يشتهي خبيثة، وأن المتفلت من قواعد الأخلاق يشتهي المتفلتة، وأن المنحرف يشتهي المنحرفة، وأن الزاني يعجب بالزانية، وأن الطيب يحب الطيبة، وأن الورع يحب الورعة، وأن العفيف يحب العفيفة.

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ)

فإن أتيح لها أن تختار فلا تختار الخبيثة إلا خبيثا، وإن أتيح للخبيثين أن يختاروا فلا يختارون إلا خبيثة مثلهم، وإن الطيور على أشكالها تقع، وكل إناء ينضح بما فيه، فالخبيثون للخبيثات، والخبيثات للخبيثين، والطيبات للطيبين، الشاب المؤمن الطاهر لا يرضى، ولا يطمح إلا إلى زوجة طاهرة مستقيمة، تحب الله ورسوله، وتتقي الله في كل أمورها، تصلي، هذا الذي يغريه جمال الفتاة، وينسى أن في دينها رقة، هذا سوف يدفع الثمن باهظا، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ تَزَوّجَ امْرَأَةً لِعِزّهَا لَمْ يَزِدْهُ اللّهُ إلاّ ذُلاّ، وَمَنْ تَزَوّجَهَا لِمَالِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللّهُ إلاّ فقْرًا، وَمَنْ تَزَوّجَهَا لِحَسَبِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللّهُ إلاّ دَنَاءَةً، وَمَنْ تَزَوّجَ امْرَأَةً لَمْ يُرِدْ بِهَا إلاّ أَنْ يَغُضّ بَصَرَهُ، وَيُحَصّنَ فَرْجَهُ، أَوْ يَصِلَ رَحِمَهُ بَارَكَ اللّهُ فِيهَا، وَبَارَك لَهَا فِيهِ))

[الطبراني في الأوسط، والترهيب والترغيب عن أنس]

والله الذي لا إله إلا هو ما سمعت من شاب تزوج امرأة، وآثر دينها على أي شيء آخر إلا سعد بها، وما سمعت رجلا تزوج امرأة ضحى بالدين من أجل شيء آخر إلا شقي بها، فعليك بذات الدين تربت يداك، لذلك هذه الآية تفيد كيف أن يحب النبي عليه الصلاة والسلام السيدة عائشة، وهو أطيب الطيبين ؟ فلابد أن تكون أطيب الطيبات، أيعقل أن تأتلف نفس النبي مع امرأة غير مستقيمة ؟.

أيعقل أن تتعلق نفس النبي بامرأة ليست محبة لله عز وجل ؟ هذه الآية الأخيرة في هذا الحديث ؛ حديث الإفك هي الحقيقة المطلقة.

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطّيّبَاتُ لِلطّيّبِينَ وَالطّيّبُونَ لِلطّيّبَاتِ)

عندنا حكم شرعي آخر، هذه الآية لا تمنع أن تستمع إلى قصة مفادها أن هناك امرأة صالحة صائمة مصلية لها زوج سكير عربيد، هذه الآية ساقها الله على شكل خبر، لكن يفيد بها النهي، أيْ: يا عبادي ينبغي أن يكون الطيبون للطيبات، فإذا كانت عندك ابنة شريفة طاهرة عفيفة فلا تفرط فيها، لا تسلمها إلى إنسان لست متأكدا من دينه، ولا من خلقه، الزواج رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته، هذا توجيه.

إن كانت ابنتك طيبة فلا تفرط فيها، وكم في المجتمع من مآس سببها أن الأب استعجل زواج ابنته، فوقع في ندم شديد.

(الخَبيثَاتُ لِلْخَبيثِينَ وَالْخَبيثُونَ لِلْخَبيثاتِ وَالطّيّبَاتُ لِلطيّبينَ وَالطّيّبُونَ لِلطيّبَاتِ)

هذا حكم شرعي، بمعنى أنه يجب، فأولياء الأمور، أولياء الطيبات، أو أولياء الشباب لا ينبغي لعارض من الدنيا إذا جاءنا خاطب عنده بيت، والبيت الآن صعب توافره، أو عنده سيارة، أو عنده معمل، أو عنده محل تجاري، أو دخله كبير، أو أبوه غني، وهو لا يصلي، وهو ليس مستقيما، لا ينبغي أن تفرط بهذه الابنة.

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

[سورة البقرة: الآية 221]

المعنى الثاني: الكلمات الخبيثات لا ينطق بها إلا الخبيثون:

وثمة معنى آخر لهذه الآية ؛ الكلمات الخبيثات لا ينطق بها إلا الخبيثون، الكلمة الخبيثة، الكذب، المزاح الرخيص، الفحش، البذاءة، الغيبة، النميمة، الخبيثات أي الكلمات الخبيثات لا ينطق بها إلا الخبيثون، هناك انسجام نفس، كلها مياه آسنة، فإذا أخرجت منها الماء ماذا ترى ؟ إذا انحنيت على الحاوية لتأخذ ما فيها ماذا ترى فيها ؟ أترى الذهب والفضة ؟ أترى قطع الماس ؟ أترى فيها باقات الزهور ؟ ماذا ترى فيها ؟ ليس فيها إلا القمامة، والعلب الثمينة لا تنطوي إلا على الحلي الغالية، فالمعنى الثاني الذي جاء في بعض التفاسير بل في معظمها - والمعنى الأول هو أقوى المعاني إن النفوس الخبيثة لا تلتئم إلا مع مثيلاتها، وأن النفوس الطيبة لا تتوافق إلا مع مثيلاتها - لكن المعنى الثاني أن الكلمات الخبيثة ؛ هذا الذي ينطق بطرفة ماجنة أعتقد اعتقادا جازما أن له نفسا ماجنة، وأنه ينطوي على نفس خبيثة، المؤمن الحق لا يطرب لهذا المزاح، لا يضحك له، ينزعج منه، نفسه طاهرة، لذلك الكلمات الخبيثة لا ينطق بها إلا الخبيثون، فالكلمات الخبيثة مثل هذا الافتراء، مثل هذا الترويج، مثل هذه الأكاذيب، مثل هذه الضلالات، مثل كلمة الفحش، مثل الكذب، هذا كله كلمات خبيثة.

المعنى الثالث: الأعمال الخبيثة لا تصدر إلا نفوس خبيثة:

هناك تفسير آخر، الأفعال الخبيثة لا تصدر إلا عن نفوس خبيثة، أن تنظر إلى ما لا يحل لك فهذا فعل خبيث، أن تفعل شيئا فيه مقت لله عز وجل، هذا فعل خبيث لا يصدر إلا عن نفس خبيثة، فأصبحت هذه الآية تعني ثلاثة أشياء ؛ الشيء الأول: أن المرأة الخبيثة لا تتوافق إلا مع خبيث مثلها، شيطان

وشيطانة، والثاني: أن الكلمة الخبيثة لا ينطق بها إلا الخبيث، والثالث: أن الأفعال الخبيثة لا تصدر إلا عن الخبيث، وبالمقابل الكلمات الطيبة ؛ كلمات الطهر والعفاف ربنا عز وجل علمنا في كتابه كيف نكني عن بعض المعاني التي تخدش حياء الإنسان فقال:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[سورة المؤمنون: الآيات 5-7]

(فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ)

هذه كناية لطيفة جدا.

(أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً)

[سورة النساء: الآية43]

كيف يفهم هذه الكلمة طفل:

(أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً)

ربنا عز وجل علمنا الأدب، والدين كله أدب، هذا الذي يقول: لا حياء في الدين، هذه كلمة حق أريد بها باطل، يعني لا حياء أن تتعلم أمور دينك، أما أن تسمي الأشياء بأسمائها، وقد تخدش بها حياء الأطفال فهذا ليس من الدين في شيء، النبي عليه الصلاة والسلام كان أشد حياء من العذراء في خدرها، سألته مرة امرأة عن قضية نسائية فوجهها، فلما أرادت أن تستزيد، وكان في هذه الاستزادة إحراج له يروي أصحابه أن لونه تغير، فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ غُسْلِهَا مِنْ الْمَحِيضِ فَأَمَرَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ قَالَ:

((خُذِي فِرْصَةً مِنْ مَسْكٍ فَتَطَهَّرِي بِهَا، قَالَتْ: كَيْفَ أَتَطَهَّرُ ؟ قَالَ: تَطَهَّرِي بِهَا، قَالَتْ: كَيْفَ ؟ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ ! تَطَهَّرِي، فَاجْتَبَذْتُهَا إِلَيَّ فَقُلْتُ: تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ))

[البخاري، مسلم، النسائي]

وفي رواية أحمد عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: ذُكِرَتْ نِسَاءُ الْأَنْصَارِ فَأَثْنَتْ عَلَيْهِنَّ، وَقَالَتْ لَهُنَّ مَعْرُوفًا، وَقَالَتْ: لَمَّا نَزَلَتْ سُورَةُ النُّورِ عَمَدْنَ إِلَى حُجَزٍ أَوْ حُجُوزِ مَنَاطِقِهِنَّ فَشَقَقْنَهُ، ثُمَّ اتَّخَذْنَ مِنْهُ خُمُرًا، وَأَنَّهَا دَخَلَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي عَنْ الطُّهُورِ مِنْ الْمَحِيضِ فَقَالَ:

((نَعَمْ، لِتَأْخُذْ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَسِدْرَتَهَا فَلْتَطَهَّرْ، ثُمَّ لِتُحْسِنْ الطُّهُورَ، ثُمَّ تَصُبّ عَلَى رَأْسِهَا، ثُمَّ لِتُلْزِقْ بِشُؤُونِ رَأْسِهَا، ثُمَّ تَدْلُكْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ طُهُورٌ، ثُمَّ تَصُبّ عَلَيْهَا مِنْ الْمَاءِ، ثُمَّ تَأْخُذْ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَلْتَطَهَّرْ بِهَا، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَتَطَهَّرُ بِهَا ؟ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْنِي عَنْ ذَلِكَ،

فقالَتْ عَائِشَةُ: تَتْبَعُ بهَا أثَرَ الدّمِ، قالَ عَفّانُ: ثُمّ لِتَصُبّ عَلَى رَأسِهَا مِنْ الْمَاءِ، وَلْتُلْصِقْ شُؤُونَ رَأسِهَا فلْتَدْلُكْهُ، قالَ عَفّانُ: إلَى حُجَزٍ أوْ حُجُوزٍ))

[أحمد]

فمن علامات المؤمن أنه حيي، كثير الحياء.

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثاتِ وَالطّيّبَاتُ لِلطّيّبِينَ وَالطّيّبُونَ لِلطّيّبَاتِ)

فالكلمات الطيبات تشف عن نفوس طيبة، الاعتذار، الأدب، الصدق، الكلمات التي تعبر عن المودة هذه تدل على نفس طيبة كريمة موصولة بالله عز وجل، والكلمات الطيبات لا تصدر إلا عن نفوس طيبة، ولكن الذي يرجح المعنى الأول من أن النفوس الخبيثة لا تلتئم إلا بمثيلاتها.

نهاية هذه الآية:

(الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثاتِ وَالطّيّبَاتُ لِلطّيّبِينَ وَالطّيّبُونَ لِلطّيّبَاتِ أولَئِكَ مُبَرّؤُونَ مِمّا يَقُولُونَ)

أولَئِكَ مُبَرّؤُونَ مِمّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ

مما يقول المنافقون، مما يقول أهل الكفر، مما يرجفون به في المدينة.

(أولَئِكَ مُبَرّؤُونَ مِمّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ)

يغفر الله لهم، ويرزقهم رزقا كريما.

هذه الآية ينتهي بها حديث الإفك، وهذا الحديث كما قال الله عز وجل فيه خير كثير، وهذا الحديث يجب أن نستنبط منه استنباطات تعلمنا كيف نتعامل مع إخواننا المؤمنين الطاهرين الصادقين، وفي درس قادم إن شاء الله نبدأ بقوله تعالى:

(يَا أيّهَا الّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلّكُمْ تَذَكّرُونَ)

(سورة النور)

هنا الموانع الاحترازية، أو التدابير الاحترازية التي تقي من الزنى كعدم الخلوة وغير ذلك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (08-23): تفسير الآيات 27 – 29
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-11-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة النور، انتهى بفضل الله وعونه في الدرس الماضي تفسير حديث الإفك، والآن ننتقل إلى ما بعد هذه الآيات التي تتحدث عن حديث الإفك.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29))

(سورة النور)

علاقة هذه الآيات بما سبق: التدابير الاحترازية من الزنى:

هذه آيات هذا الدرس، الحقيقة بعد أن بين لنا سبحانه وتعالى موضوع الزنى، وكيف أنه شيء يقبح بالإنسان فعله، وكيف أن الزاني لا ينكح إلا زانية، وكيف أن الزاني عليه حد يقام تطهيرا للمجتمع من هذه الجريمة، وكيف أن الذي يقذف محصنة عليه جلد، وعليه إقامة حد ؛ هو حد القذف، وكيف أن حديث الإفك الذي تورط فيه بعض من كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، كيف كان عند الله عظيماً، وكيف أنّ الله جل وعلا برّأ السيدة عائشة من هذه التهمة التي ألصقت بها، هذه الآيات التي سبقت قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ)

قد يسأل سائل: ما علاقة هذا التوجيه بالآيات السابقة ؟ الإجابة عن هذا السؤال واضحة، وهي أن الله سبحانه وتعالى في الآيات التالية يبين لنا التدابير الاحترازية من الزنى، كيف تكلم المتكلمون، وكيف أرجف المنافقون، كيف استطاع بعض الناس أن ينالوا من عفة هذه السيدة الطاهرة ؛ السيدة عائشة ؟ فلو لم تكن هذه الخلوة التي كانت بين صفوان وبين عائشة ما كان لأحد أن ينطق بكلمة سوء في حق السيدة الطاهرة، لذلك من المنزلقات إلى الزنى، أو إلى أن يتهم الإنسان بالزنى، من المنزلقات الخطيرة الخلوة، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ، وَلَا تُسَافِرَنَّ امْرَأَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا مَحْرَمٌ، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا، وَخَرَجَتْ امْرَأَتِي حَاجَّةً، قَالَ: اذْهَبْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ))

[البخاري، مسلم، ابن ماجه، أحمد]

مخاطبة الله للمؤمنين على سبيل التخصيص والتشريف:

الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات التي هي موضوع هذا الدرس يبين التدابير الاحترازية التي تمنع من الزنى، أو تمنع من تهمة الزنى، من هذه التدابير أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

فإذا كنت مؤمنا حقا تشعر في أعماقك أنك معني بهذا الخطاب:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

وكأن الله سبحانه وتعالى لعلمه بأن هؤلاء الذين آمنوا يحرصون على تنفيذ أمر الله، ويستجيبون له، ويتأدبون بآداب الإسلام، لذلك وجه الله سبحانه وتعالى لأولئك المؤمنين في كل زمان ومكان هذا التوجيه، وهذا التوجيه ينضوي تحت باب الآداب العامة، هناك عبادات ؛ من صوم، وصلاة، وحج، وزكاة، وهناك معاملات ؛ بيع، وإرث، وزواج، وطلاق، وشركة، وقرض، وإيجار، وما شاكل ذلك، وهناك الأخلاق ؛ ومن الأخلاق الآداب، وهذه الآيات تتحدث عن آداب الاستئذان، لذلك مما يميز المسلم عن سواه أنه متأدب بآداب القرآن، وسوف تأتي تفصيلات هذه الآيات، والقصد منها أن نتأدب جميعا بآداب الاستئذان، لأن هذه الآداب من صفات المؤمنين الذين ينصاعون لأمر الله، ولتوجيهه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ

شيء آخر... هو أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا

] وكما قلت لكم من قبل هذه الكلمة:

(بُيُوتًا)

نكرة، وكيف عرفنا أنها نكرة ؟ من التنوين، والتنوين علامة التنكير، تقول مثلا: البيت، فهي معرفة، أما بيت فنكرة، نهر بردى معرفة، أما نهر فنكرة، فكلمة:

(بُيُوتًا)

جاءت نكرة، وشيء آخر.. جاءت في سياق النهي، وإذا جاءت النكرة في سياق النهي أصبحت شاملة، فهذه الآية تشمل أيّ بيت، فأيّ بيت لابد أن تدخله بعد استئذان.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا)

أيّ بيت.

(لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا)

قد يقول قائل: هذا بيت أخي، هذا بيت أختي، هذا بيت بنتي، هذا بيت عمي، هذا بيت والدي.

(لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا)

لأن الكلمة جاءت نكرة، وجاءت في معرض النهي فالكلمة تفيد الشمول.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا)

معنى الاستئناس:

المعنى الأول: العلم:

معنى الاستئناس هنا العلم، كقوله تعالى:

(فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا)

(سورة النساء: الآية6)

أيْ فإن علمتم منهم رشدا، حتى تستأنسوا أيْ حتى تعلموا أن أصحاب هذا البيت راغبون فيكم أو غير راغبين، لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تعلموا أن أصحاب هذا البيت راغبون في دخولكم هذا البيت، أو أنتم أناس غير مرغوب فيكم، هذا معنى حتى تستأنسوا، فيجب أن تأخذوا موافقة بالدخول، أو يجب أن تتلقوا رفضا وتوجيها بعدم الدخول، وهذا هو الاستئذان.

المعنى الثاني: الاستئذان:

(حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا)

أيضا بمعنى حتى تستأذنوا، السلام عليكم أنا فلان، أأدخل ؟ هذا هو الاستئذان، ولماذا عبر ربنا سبحانه وتعالى وهو الحكيم العليم عن الاستئذان بالاستئناس ؟ لأن الاستئذان من ثمراته الاستئناس، فإذا طرقت الباب فقيل لك: من الطارق ؟ قلت: فلان، قيل لك: أهلا وسهلا، تفضل، ترتاح نفسك، أنت تستأنس إن سمح لك بالدخول، لذلك جاءت كلمة استئناس مكان استئذان ليفيد معنيين في الوقت نفسه، يفيد معنى طلب الدخول، أعلمتهم من أنت، وانتظرت أن تأخذ موافقتهم، فإذا أخذت موافقتهم على الدخول تشعر بالأنس، ترى أنك إنسان مرغوب فيه، هذا المعنى الأول، والثاني معنى الإعلام، وطلب الإذن، ومعنى الاستئناس.

المعنى الثالث: ذكر اسم المستأذِن:

حينما تزمع أن تدخل بيتا فلابد أن تعلم الناس من أنت، فلو أنك فاجأتهم لأخذتهم، أو لأشعرتهم بالوحشة، لذلك المعنى الثالث للاستئذان أن تعلن عن اسمك، من آداب الاستئذان أن تقول: أنا فلان، من الطارق ؟ فلان، إذا أول معنى تعلمهم، تطلب أن يعلموك، ما إذا كانوا موافقين على دخولك، أو غير موافقين، هذا أول معنى، فإذا وافقوا على دخولك فهذا يمنحك الأنس والطمأنينة، هذا المعنى الثاني، والمعنى الثالث يجب أن تعلمهم من أنت، أنا فلان، فإذا طرق الباب ليلا، وفي وقت متأخر، وفي ساعة متأخرة، وفي مكان موحش، أو في بيت متطرف، أو في ظرف عصيب، أو في وقت شديد، أوفي حالات خاصة،في مكان وزمان معينين يجب أن تقول من أنت، أنا فلان.

قد يقول قائل: أنا، من الطارق ؟ أنا، من أنت ؟ قد يخشون أن يفتحوا لك الباب فلابد أن يستمعوا إلى صوتك، وإلى هويتك، وإلى قرابتك، هذا هو المعنى الثالث.

المعنى الرابع: استئناس أهل البيت:

فإذا أعلمتهم من أنت أدخلت الأنس على قلوبهم، أعلمتهم من أنت فاستأنسوا، ووافقوا لك على الدخول فاستأنست.

هذه أربعة معان جمعتها كلمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا)

أعلمتهم من أنت فرحبوا بك، فاستأنست، وأعلموك بالموافقة، فرحبوا بك فاستأنست، أعلمتهم، وأعلموك، وآنستهم، وآنسوك، أربعة معان مستفادة من كلمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا)

المؤمن ظله خفيف، المؤمن لا يفزع الناس، لا يخيفهم، لا يخجلهم، لا يربكهم، لا يوقعهم في شك، في حيرة، لذلك قيل: البيان يطرد الشيطان.

أثر عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا طرق بابا حمد الله، وسبحه، وكبره، إذاً هذا معنى خامس، إنك إذا حمدت الله، وسبحته، وكبرته، قلت: سبحان الله، الله أكبر، الحمد لله، لا حول ولا قوة إلا بالله، فهذه الكلمات الطيبة التي فيها ذكر لله عز وجل ربما تبث الأنس في نفوس الناس، إذاً تعلمهم فيستأنسون، ويأذنون، لك فتستأنس، وحري بك أن تُذَكِّرهم بالله عز وجل، فإن ذكر الله عز وجل يطمئن القلوب، فإذا التقيت بإنسان لا تعرفه، فقام فصلى أمامك تطمئن له، إذا قال: سبحان الله تطمئن له، إذا قال: الحمد لله تطمئن له، إذا قال: الله أكبر تطمئن له، إذا شعرت أن هذا الذي أمامك، أو أن هذا الذي

يدخل عليك يعرف الله عز وجل عندئذ لا تخاف، لذلك روي: **" ابن آدم خف ثلاثا ؛ خفني، وخف نفسك، وخف من لا يخافني ".**

هذا الذي لا يخافك يجب أن تخاف منه، والمؤمن كما قال عليه الصلاة والسلام:

((المُؤْمِنُ كَيّسٌ فَطِنٌ حَذِرٌ))

[القضاعي في مسند الشهاب عن أنس]

وسيدنا عمر كان يقول: **<< لست بالخب، ولا الخب يخدعني >>.**

[نسبه في لسان العرب إلى ابن سيرين، انظر مادة خبب]

الحكمة من الاستئذان:

من الحكمة التي رآها بعض العلماء حول موضوع الاستئذان أن الذي يدخل البيت من غير استئذان ربما وقعت عينه على عورات البيت، على عورات أهله، أو على نقاط ضعفه، فإذا دخلت من دون استئذان قد يكون هذا الذي تدخل عليه جالسا مع زوجته، قد تكون الزوجة متبذلة في ثيابها، فكيف ترضى أن تدخل على بيت ليسوا مستعدين لاستقبالك، لذلك عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ:

((اطّلَعَ رَجُلٌ مِنْ جُحْرٍ فِي حُجَرِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَمَعَ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مِدْرًى يَحُكّ بِهِ رَأْسَهُ، فَقَالَ: لَوْ أَعْلَمُ أَنّكَ تَنْظُرُ لَطَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ إِنّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ))

[البخاري، الترمذي، وأحمد]

لئلا تقع عينك على قبيح، لئلا ترى عورات النساء، لئلا ترى ما لا يحل لك، لئلا ترى منظرا مزعجا جُعِلَ الاستئذان.

أحيانا تقول: أخي هذا البيت فيه شباب، وليس فيه نساء، لعل هؤلاء الشباب غرفهم غير منظمة، لعلهم يقومون بأعمال في البيت، أحدهم يطلي هذا البيت، وآخر يقوم بأعمال لا يحب أن تراه يفعلها، قد يأكل طعاما خشنا، قد يأكل طعاما لا يحب أن ترى ماذا يأكل، لا يحب أن ترى ماذا يلبس في البيت، ربما لا يملك ثيابا في البيت لائقة، لا يريد أن يستقبلك بها فإذا دخلت عليه من دون استئذان أحرجته، وأوقعته في الخجل.

موضوع الاستئذان من أجل ألا تنظر إلى عورات النساء في البيت، ومن أجل ألا تنظر إلى عورات البيت، البيت له عورات، الإنسان أحيانا ينظم غرفة الاستقبال، ولكنه لا ينظم غرفة الجلوس بشكل دائم لاستقبال الضيوف، المطبخ أحيانا غير منظم، وغير جاهز لاستقبال الضيوف، لذلك إنما جعل الاستئذان من أجل النظر. الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا)

الفرق بين حكم الاستئناس والاستئذان:

فرّق العلماء بين حكم الاستئناس أي الاستئذان، وبين حكم التسليم، فالاستئذان واجب، بينما إلقاء السلام مندوب، لكن رد السلام واجب، قال تعالى:

(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا)

(سورة النساء: الآية86)

فإن قال لك أحد: السلام عليكم فيجب عليك أن ترد عليه السلام، ولكن إلقاء السلام مندوب، بينما طلب الإذن واجب، فلا توجد قضية اختيارية، لا يحق لك أن تدخل البيت قبل أن تستأذن، وبعضهم قال: الاستئذان قبل السلام، لأن حكمة الاستئذان وردت في الترتيب الذكري قبل إلقاء السلام، وبعضهم قال: لا... تسلم، ثم تستأذن لحديثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((السَّلَامُ قَبْلَ الْكَلَامِ))

[الترمذي]

تسلم، وتسأل، تسلم، وتساوم، تسلم، وتستفهم.

وبعضهم قال كحلٍّ وسط: إن وقعت عينك على أحد في البيت فسلّم، واستأذن، وإن لم تقع فاستأذن وسلم، على كل لابد من الاستئذان، فهو واجب، ولابد من إلقاء السلام، فهو مندوب، وقال بعضهم، الاستئذان ليس مقيدًا بعدد، فما دام ورد الاستئذان في القرآن غير مقيد فهو مطلق، يعني السلام عليكم مرة واحدة.

السُّنَّةُ الاستئذان ثلاثا:

وبعضهم قال: الاستئذان ثلاث مرات، مرة تسمع أهل البيت، ومرة يتهيؤون لاستقبالك، ومرة يأذنون لك، المرة الأولى كأنه الآن قرع الجرس، أو قرع هذه التي يقرع بها الباب، كأنها نوع من الاستئذان، الأولى الإنسان يقرع ثلاث مرات، وبين المرة والمرة كما ورد عند الفقهاء مقدار صلاة أربع ركعات، لماذا ؟ لأن هذا الذي تطرق بابه ربما وقف يصلي الظهر فلن يقطع الصلاة من أجلك، فإذا طرقت كثيرا، وألححت في طرق الباب فقد شوشت عليه صلاته، لذلك من كمال الأدب أن تطرق الباب مرة، وأن تنتظر مقدار صلاة أربع ركعات، فقد يكون، الإنسان في الحمام، قد يكون في قضاء حاجة، قد يكون في مشكلة، قد يكون مكانه صعبًا، قد يكون على سقيفة البيت، يحتاج إلى من يضع له السلم، هذا الذي يطرق بعنف، وبتتابع هذا إنسان ليس متأدبا بآداب الإسلام، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ:

((كُنْتُ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ، إِذْ جَاءَ أَبُو مُوسَى كَأَنَّهُ مَذْعُورٌ، فَقَالَ: اسْتَأْذَنْتُ عَلَى عُمَرَ ثَلاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ، فَقَالَ: مَا مَنَعَكَ ؟ قُلْتُ: اسْتَأْذَنْتُ ثَلاثًا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلاثاً فَلَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فَلْيَرْجِعْ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَتُقِيمَنَّ عَلَيْهِ بِبَيِّنَةٍ، أَمِنْكُمْ أَحَدٌ سَمِعَهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: وَاللَّهِ لا يَقُومُ مَعَكَ إِلا أَصْغَرُ الْقَوْمِ، فَكُنْتُ أَصْغَرَ الْقَوْمِ فَقُمْتُ مَعَهُ فَأَخْبَرْتُ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَلِكَ))

[البخاري، مسلم، أبو داود، أحمد]

ثلاث مرات فقط، أما أربع، خمس، عشر، عشرون، هذا صار إقلاق راحة وإزعاجًا.... ثلاث مرات، ما دام أحد لم يجب فليس هناك إذن بالدخول، سواء كانوا في البيت أو خارج البيت، لكن قال العلماء: إن واجب الاستئذان مرة واحدة، لكن من حق الداخل أن يطرق الباب ثلاث مرات، الواجب مرة، فلو لم يؤذن له أن يذهب، لكن إن كان ملحا في الدخول، وإن كان يعلق آمالا على الدخول فله الحق أن يستأذن ثلاث مرات: أول مرة، والثانية، والثالثة، ومن أحكام الاستئذان ألا يقف طارق الباب أمام الباب، فلو أنهم فتحوا الباب ربما وقعت عينه على امرأة داخل البيت، من آداب الاستئذان أن تعطي ظهرك للباب، تطرق الباب، وتعطي ظهرك للباب، فلو فتح الباب، وأنت في جهة أخرى، وباتجاه مكان غير الباب فهذا من آداب الاستئذان، فتُعْرَفُ أنت المسلم المتأدب بآداب القرآن من غير المسلم المتأدب من طريقة طرق الباب... يطرق الباب، وعينه على مصراعي الباب، وكأنه ينتظر لينظر... هذا ليس متأدبا بآداب الإسلام، ولا تعنيه آداب القرآن، لكن المؤمن يدير ظهره للباب، ويطرق، والعلماء قالوا: الاستئذان واجب، ولو للأعمى، فإن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إِنَّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ))

هذا لا ينظر، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا جُعِلَ الاسْتِئْذَانُ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ))

لأن من أكبر المسوغات للاستئذان النظر، وليس معنى هذا أن النظر هو المسوغ الوحيد، هناك عورات سمعية... فإذا كان هناك شجار في البيت، ودخلت فجأة، وجدتهم يسبون بعضهم، وهم لا يريدون لإنسان أن يطلع على المشكلة، فأنت حين دخلت على البيت فجأة رأيت صياحا، وبكاء، وعويلا أضفت إلى مصيبتهم مصيبة، مصيبة المشكلة والصراع، ومصيبة الفضيحة، لذلك هناك عورات ترى بالعين، وهناك عورات تسمع بالأذن، ومن علا صياحه في البيت فسمعه من في الطريق فهذا مما يخدش عدالته.

حكم الاستئذان عام في الرجال والنساء:

شيء آخر ؛ هو أن حكم الاستئذان ليس خاصا بالرجال، الأحكام الشرعية في القرآن الكريم أكثرها موجه إلى الرجال، أما النساء فينطبق عليهن الحكم الشرعي بشكل طبيعي، لأن هذا اسمه في علم الأصول التغليب، فإذا قال ربنا عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا)

فكأنه يقول: يا أيتها المؤمنات لا تدخلن بيوتا غير بيوتكن، وربما كان دخول المرأة إلى بيت لا تعلم من فيه من دون استئذان أكثر خطرا عليها من دخول الرجل، فربما وقعت الواقعة من هذا الدخول المتعجل، لذلك الحكم الشرعي المتعلق بالاستئذان ينطبق على النساء والرجال معا، بل ربما كان انطباقه على النساء أشد من انطباقه على الرجال خشية أن يقع لهذه المرأة مكروه.

الاستئذان ضمان وسلامة:

(ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

وكما قلت اليوم في الخطبة: **العلاقة بين الطاعة ونتائجها علاقة علمية، بمعنى أنها علاقة سبب بنتيجة، والعلاقة بين المعصية وتبعاتها علاقة علمية**، بمعنى أنها علاقة سبب بنتيجة، فإذا فعلت هذا كنت في حرز حريز، وفي حصن حصين، لا يتمكن أحد أن ينال منك ما دمت تأدبت بآداب القرآن، لا يتمكن أحد أن ينال من هذه المرأة ما دامت لم تدخل هذا البيت إلا بعد أن استأنست، وعرفت من فيه، إذا هذه الآيات ليست تقييدا لحريتنا، بل هي ضمان لسلامتنا.

ما حكم دخول الإنسان إلى بيته ؟

أما كلمة:

(لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ)

فما حكم البيت ؟

الآن سؤال ثانٍ ما حكم الدخول إلى بيتك، هذا البيت الذي تسكنه، هناك ثلاثة احتمالات ؛ إما أن تسكنه مع أجانب، هناك بيوت مؤجرة غرفا غرفًا، فيوجد أجانب في هذا البيت، ربما كانت امرأة صاحب هذه الغرفة في المطبخ، ربما كانت أخت صاحب هذه الغرفة في الحمام، فالبيت الذي تسكنه إذا كان فيه أجانب حكمه حكم البيت الذي لا تسكنه، فيحتاج إلى استئذان، أما إذا كان في البيت محارم، هناك الأم،

أو الأخت، أو بيت الأخ، أو بيت الأخت، أو الأقارب هذا حكم آخر، فَعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمِّي ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي مَعَهَا فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا، فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي خَادِمُهَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا، أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً ؟قَالَ: لَا، قَالَ فَاسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا))

[مالك في الموطأ، والبيهقي في السنن الكبرى]

الحكم غريب، أمه، قال عليه الصلاة والسلام:

((نعم، فَقَالَ الرَّجُلُ: إِنِّي خَادِمُهَا، فقال عليه الصلاة والسلام: اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا ـ أيْ كلما دخلت، فلما رأى النبي عليه الصلاة والسلام دهشة هذا السائل قال: أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً ؟ وإن تكن أمك ـ أَتُحِبُّ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً ؟ قال: لا، قال فَاسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا))

حتى بيتك فيه والدتك، مثلا أختك في البيت، بيت أختك، بنت أخيك يجب أن تدخل مستأذنا لئلا تقع عينك على شيء لا يحل لك أن تنظر إليه، بعض الناس يتوهمون، وهذا سوف يأتي معنا بالتفصيل أن لك أن تنظر إلى المرأة التي حرمت عليك، حرم عليك زواجها ؛ كالأخت والأم، حتى هذه المحارم لابد من حدود في النظر إليهن، العلماء سموا ثياب الحشمة ؛ صدر مستور، والعضد مستور، والفخذ مستور، فيبدو الساق، والساعد، والرقبة فقط، أما هذا الذي ينظر إلى محارمه، وهن في أبهى زينة هذا مخالف لآداب الإسلام، وهذا يأتي معنا بالتفصيل في آيات أخرى، فصار في البيت ثلاثة احتمالات ؛ أن يكون فيه أجنبيات، وحرمة الدخول إلى هذا البيت وفيه أجنبيات أشد من حرمة الدخول على بيت فيه محارم، لماذا ؟ لأن الأجنبية ليس لك أن ترى منها شيئا، فهي كلها عورة، لكنك إذا دخلت بيتًا فيه بعض محارمك، ونظرت إلى وجهها، وجهها مباح بالأصل أن تراه، والحرمة أخف، لكنك إذا دخلت إلى بيت ليس فيه إلا زوجتك فهل أنت بحاجة إلى استئذان ؟ الجواب: نعم، ربما كانت عندها ضيفة، ربما كانت أختها عندها، وأختها لا يحل لك أن تنظر إليها، ربما كان عندها جارتها، فالاستئذان حتى في البيت ضروري.

حالة أخرى: أنت خرجت من البيت، ودخل في ساحة نفسها أن البيت فارغ، فإذا فتحت الباب من دون أن تشعر، وفاجأتها في المطبخ ربما صعقت، وظنت أن هناك رجلا أجنبيا دخل عليها، فأيضا الآداب الإسلامية تقتضي لو أنك تملك مفتاحا للبيت، وأردت أن تدخله أن تعلم أهلك أنني رجعت.

استثناءات الاستئذان:

هناك استثناءات.

من هذه الاستثناءات: لو أن حريقا شب في بيت المسلم فله أن يدخل هذا البيت لإطفاء الحريق من دون استئذان.

لو أن صراخا في البيت يستجير صاحبه من لصوص فلك أن تقتحم البيت من دون استئذان لتنقذ أهله من اللصوص.

هناك حالات استثنائية قاهرة يعطل فيها هذا الحكم الشرعي.

هناك شيء أخطر من دخول البيت من دون استئذان، لو أن إنساناً دخل بيتا من دون أن يعلم أحداً، ومن دون أن يستأذن، ومن دون أن يطرق الباب، وفاجأ أهل البيت، وهم في ساحته ماذا يفعلون ؟ يأخذون حذرهم، يدخلون إلى غرف، يضعون على رؤوسهم شيئا أما هذا الذي ينظر من ثقب الباب إلى أهل البيت فالأمر خطير فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنِ اطَّلَعَ فِي دَارِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَفَقَئُوا عَيْنَهُ فَقَدْ هَدَرَتْ عَيْنُهُ))

[أبو داود]

حُكمُ مَن يختلس النظر في عورات البيوت:

واختلف العلماء، بل اختلف الفقهاء في هذا الحكم، فهذا الذي ينظر إليك من دون أن تشعر يتلصص عليك في النظر، يسترق النظر إليك، وأنت غافل، فلو انتبهت، وفقأت عينه هل عليك شيء، أم لا شيء عليك ؟ الأرجح أنه عليك شيء لقوله تعالى:

(العَيْنُ بِالْعَيْنِ)

(سورة المائدة: الآية 45)

ولكن هذا الحديث الشريف حمل على المبالغة في الزجر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

حُكمُ البيوت غير المسكونة

الحكم الأول: عدم الدخول إلا بالإذن:

الآن:

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا)

طُرق بيت بابه مفتوح، لم يجب أحد، فليس لك أن تدخل، فلو دخلت إليه أوقعت نفسك في ورطة، أو أوقعت نفسك في شبهة، فلو ادعى عليك صاحب البيت أنه فقد مائة ألف لألصقت هذه التهمة بك، لذلك فإنّ الله سبحانه وتعالى من تتميم تأديبه لنا يحظر علينا دخول البيت حتى لو لم يكن فيه أحد، لكن دقة القرآن الكريم ليس لها حدود، وكلما فهمنا شيئا من إعجازه نتأكد أن هذا الكلام ليس كلام بشر، إنما كلام خالق البشر، لم يقل: فإن لم يكن بها أحد، بل قال:

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا)

فإذا سبق لظنك أن هذه البيت خالٍ من أهله فلا يحق لك أن تدخل، فلو دخلته ففوجئت أن فيه أشخاصا، وقلت لهم: معذرة، كنت أظن أن هذه الدار خالية، هذا عذر أقبح من ذنب، لأن الله سبحانه وتعالى نهاك أن تدخلها مسكونة أو غير مسكونة.

قال ربنا عز وجل:

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا)

أيْ إذا غلب على ظنكم أن ليس بها أحد، مع العلم أنه قد يكون بها أحد فالعبرة أن يغلب على ظنك أنه ليس بها أحد، فلا ينبغي أن تدخلها حتى يؤذن لكم، فكيف يؤذن لكم ؟ ليس بها أحد... يكون صاحبها قد أعطاك الإذن، أعطاك المفتاح، أعطاك تفويضاً، فإذا انتبه الجار، وقال لك: أين تدخل ؟ قلت: هذا المفتاح، وهذا تفويض بتوقيع صاحب البيت، فإذا أنت أردت أن تدخل فهذا يحدث، أعارك إنسان بيتًا في مصيف، وقال: خذ المفتاح، يقول: أريد ورقة، لا يكفي المفتاح، بل يجب أن يكون هناك إذن خطي، حتى إذا سألك الجيران إن كان معك إذن خطي أريتَه لهم، هذه آداب القرآن:

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ)

أي هل معك إذن مسبق ؟

الحكم الثاني: وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا

إنْ وجدت في البيت أحدًا، فالآية عجيبة، إذا دخلت البيت، وفيه إنسان غير مالكه، ومنعك من الدخول فمعه حق.

(وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا)

قد يكون البيت في مصيف، وصاحب البيت أعطاه لصديق له، وسمح لك أن تذهب إليه، ذهبت إليه، فإذا هو مشغول، حصل هناك خطأ في المواعيد، يقول لك الذي في البيت: لا تدخل، أنا هنا، فارجع أنت.

(وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا)

هذا حكم ثان للبيت غير المسكون، إن أردت دخوله فلابد من إذن واضح، وإن كان به إنسان لا يملكه، ومنعك من الدخول فله الحق في ذلك، وإذا غلب على ظنك أن هذا البيت ليس فيه أحد فليس لك أن تدخله، مع أنه خالٍ من السكان، هذه بعض الأحكام التي تؤخذ من قوله تعالى:

(فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ)

هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ

أطهر، أزكى لسمعتكم، أزكى لكرامتكم، أزكى لمكانتكم، أزكى لشخصيتكم.

(هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)

هذا تهديد، فإنّ الله سبحانه وتعالى يقول: أنا أعلم بما تعملون، أعلم الدوافع الخفية التي وراء أعمالكم، أعلم ما إذا كنتم توهمتم أن أحدا في البيت ليس موجودا، أو موجودا فهذا يعلمه الله عز وجل، أعلم نواياكم في دخول البيت، أعلم كل شيء، كل أعمالكم مكشوفة عند الله عز وجل، قال بعض العلماء: هذا تهديد من الله عز وجل، أي أيها العباد أنا عليم خبير بطوايا نفوسكم، بنواياكم، بما يعتلج في صدوركم، ومن قوله تعالى:

(وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا)

ماذا يفهم من هذا الحكم ؟ يفهم من هذه الآية أن عليك ألا تلح في الدخول، لأنّ الإلحاح ليس من صفات المؤمن، وفي الحديث:

((إبْتَغُوا الْحَوَائِجَ بِعِزَّةِ الأَنْفُس فَإِنّ الأُمُورَ تَجْرِي بِالْمَقَادِيرِ))

[المقدسي في الأحاديث المختارة عن عبد الله بن بسر]

لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه،

(وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُم)

أيْ أزكى لعملكم، لشخصيتكم، لمكانتكم، لكرامتكم، لشأنكم.

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ

ثم يقول الله سبحانه وتعالى:

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ)

المحلات التجارية لك أن تدخل من دون استئذان، لأن هذا المحل التجاري بالأساس مهمته استقبال الناس، فليس معقولاً...اسمح لي...أأدخل... صاحب المحل يريد أن يبيع ويشتري، والفندق مكان عام، الحمام في الماضي، المرافق العامة، الحوانيت التجارية، أحيانا مكان مثلا النادي الرياضي مفتوح الأبواب لكل الداخلين، فهذه النوادي، البيوت المعدة مثلا لاستقبال الأجانب للتأجير فرضا، الفنادق، الأماكن العامة، الحوانيت التجارية هذه كلها لك أن تدخلها من دون إذن، فطبيعة المحل يقتضي أن تدخله بلا إذن، لكن يقول الله عز وجل:

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ)

لكم في هذا البيت حاجة.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ

لكن:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

في هذا المحل نساء متبذلات، فربنا عز وجل... دخول فندق، دخول مكان عام، دخول النادي...فالإنسان مضطر، لكن هناك حالات وراء الدخول، الاستمتاع بما حرم الله في مكان فدخوله محرماً، ربنا عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

هناك أسواق تجارية، إذا كان الإنسان يمشي في هذه الأسواق بغية النظر للنساء فهذا إثم كبير، والله سبحانه وتعالى يتهدده في هذه الآية، أحيانا في هذا السوق محلل، يحتاج هذا الإنسان لتحليل دم، فمر في هذا السوق، ودخل إلى مكتب المحلل، هذا له حاجة، والله سبحانه وتعالى يعلم نيته، فكل إنسان يذهب إلى أماكن عامة فيها نساء كاسيات عاريات له هدف آخر غير الانتفاع بهذه الحوانيت فهو آثم.

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ)

غير معدة للسكن، هذه معدة للتجارة، للبيع، للشراء هذا مرفق عام، فيها متاع لكم

(وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

فالله سبحانه وتعالى يعلم علم اليقين ما تنطوي عليه أنفسكم من نوايا شريرة أو خيرة.

هذه الآيات الثلاث نوع من التدابير الاحترازية التي تمنع الخلوة، والخلوة باب الزنى، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((... لَا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ ثَالِثُهُمَا))

[أحمد]

وفي درس قادم نتحدث عن غض البصر الذي هو التدبير الثاني الذي يمنع الزنى... نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء...هذه السورة مهمة جدا، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن تنتقل من عقولنا إلى سلوكنا، أن تصبح هذه الآداب آدابا نعيشها لا آدابا نستمع إليها.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (09-23): تفسير الآية 30، غض البصر
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-11-25

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة النور، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

(سورة النور)

الحكم الثالث من أحكام الاستئذان: غضّ البصر:

مر بنا في الدرس الماضي آيات الاستئذان:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلّكُمْ تَذَكّرُونَ (27) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29) قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: الآيات 27-29)

أي إذا سمح لهم بالدخول بعد أن استأذنوا أو استأنسوا، أو سمح لهم بالدخول عليهم، وإذا دخلوا بيوتا غير بيوتهم أن يستأذنوا، وأن يسلموا فعليهم أن يغضوا أبصارهم، ففي البيوت نساء، وفي البيوت عورات، فهذا الداخل عليه أن يغض بصره، سواء أكان هذا البيت الذي دخلته بيتا غير مسكون، أو بيتا غير معد للسكن، كالحوانيت والفنادق، فغض البصر في المعنى السياقي من لوازم دخول البيوت، إن أردتم دخول البيوت فعليكم أن تستأذنوا كي تستأنسوا، وتسلموا، وأن تغضوا أبصاركم، ومن إعجاز القرآن الكريم في نظمه أن هذه الآية في سياق الآيات تضيف إلى أحكام الاستئذان حكما ثالثا ؛ وهو غض البصر في البيوت، فإذا نزعت من سياقها فهي حكم عام لكل مؤمن.

إذاً في سياق الآية إذا دخلتم إلى بيوت غير بيوتكم، إن استأذنتم، واستأنستم، وسلمتم، إذا دخلتم فعليكم أن تغضوا من أبصاركم.

قد تكون في غرفة الاستقبال إحدى النوافذ مفتوحة، فلو أن امرأة لا تدري أنك في هذه الغرفة، ومرت من أمام النافذة فعليك أن تغض البصر، هذه امرأة أجنبية، هذه امرأة صديقك، امرأة صاحب هذا البيت،

فمن آداب دخول البيوت غض الأبصار، وأما الحوانيت إذا كان فيها نساء فمن آداب دخولها غض الأبصار، ولو دخلت فندقاً فمن آداب الدخول غض البصر.

ففي سياق هذه الآيات تعني هذه الآية غض البصر، إضافة إلى السلام، والاستئذان، والاستئناس، ثم هي في الوقت نفسه حكم عام يشمل كل المؤمنين، ففي أسباب نزول هذه الآية أن رجلا في عهد النبي عليه الصلاة والسلام مر في طريق من طرقات المدينة فنظر إلى امرأة، ونظرت إليه، فوسوس إليهما الشيطان أنه ينظر أحدهما إلى الآخر لا شهوة، إنما ينظر أحدهما إلى الآخر إعجابا، وفي كل زمان هناك من يدعي ذلك، إن الله جميل يجب الجمال.. يقول لك: أخي أنا قلبي نظيف، لكني أنظر لأسبح الخالق...هذا كلام مرفوض، فهذا الرجل في عهد النبي عليه الصلاة والسلام مر في طريق من طرقات المدينة، فنظر إلى تلك المرأة، ونظرت إليه، فوسوس إليهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجابا به، فبينما الرجل يمشي إلى جنب حائط، وهو ينظر إليها إذ استقبله الحائط، فشق أنفه، فقال: **والله لا أغسل الدم حتى آتي الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبره أمري**، فأتاه فقص عليه قصته، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((هذه عقوبة ذنبك))

ونزل قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا

هذه القصة ترويها كتب التفسير سبباً لنزول هذه الآية، لكن صياغة هذه الآية صياغة دقيقة:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا)

يَغُضُّوا فعل مضارع فيه إخبار، فكيف نوفق بينه وبين قُلْ، قال علماء التفسير: إن هناك فعل أمر مقدر، قل للمؤمنين غضوا أبصاركم، والمؤمنون سرعان ما غضوا أبصارهم، فقل للمؤمنين غضوا أبصارهم يغضوا من أبصارهم، في هذه الصياغة استنباط دقيق جدا، هو أن المؤمن ما إن يستمع إلى أمر الله سبحانه وتعالى حتى يسارع في غض بصره، أو في تنفيذ أمر الله، ليس هناك وقت بين سماعه الأمر وبين تنفيذه، فمجرد أن يستمع المؤمن إلى أمر الله سبحانه وتعالى مباشرة ينفذ هذا الأمر، غضوا أبصاركم يغضون من أبصارهم، قال عزوجل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: من الآية36)

أي لا اجتهاد في مورد النص، وما دام الله سبحانه وتعالى أمر بهذا الأمر المحكم الواضح الصريح فلا اختيار، ولا اجتهاد، ولا تعلل، ولا اعتذار، ولا تعليق، ولا حذف، ولا أي شيء من هذا.

الأمر الإلـهيّ ينفّذ بشكل مستمر:

شيء آخر ؛ هو أن الأمر الإلهي لا ينفذ مرة واحدة، ولكنه ينفذ بشكل مستمر، مما يؤكد هذا أن هذا الأمر الإلهي جاء في صيغة المضارع، أي يغضوا من أبصارهم، إنهم دائمون على غض البصر، إنهم مستمرون في غض البصر، فغض البصر شيء مستمر في حياة المؤمن، بل إن من شأن المؤمن أن يغض بصره، الفعل المضارع يفيد الاستمرار، فالشأن الثابت من شؤون المؤمن أنه يغض بصره.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

معنى غض البصر:

الآن معنى غض البصر إطباق الجفن على الجفن لمنع الرؤية، ومعنى غض البصر أن يطرق الإنسان بصره نحو الأرض، أطرق بصره، أي حوّله إلى الأرض، أو أن يحوله إلى جهة أخرى، إما أن تحوله إلى الأرض، أو أن تحوله إلى جهة أخرى، أو أن تطبق الجفن على الجفن، وترتاح من هذا المنظر، فإذا كنت راكبا مركبة عامة، أو في مركبة خاصة، ولم تكن أنت الذي تقود هذه المركبة، فإذا بدت لك امرأة بإمكانك أن تطبق جفنك الأعلى، وتبتعد بنفسك عن هذا المنظر، فإذا كنت محتاجا إلى عينيك في قيادة مركبة، أو في السير عندئذ تنظر إلى الأرض، أو تحول بصرك من جهة إلى أخرى إن كانت المرأة على الرصيف الأيمن، فلك أن تحوله إلى الرصيف الأيسر، فغض البصر إما منع الرؤية، أي إطباق الجفن على الجفن، أو توجيه النظر إلى الأرض، أو توجيه النظر إلى جهة غير الجهة التي فيها المرأة، هذا من معاني غض البصر، طبعا غض البصر هذا المصطلح ورد في الشعر الجاهلي، يقول عنترة العبسي، وهو في الجاهلية:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وفي بيت آخر:

فغض الطرف إنك من نميــر   فلا كعبا بلغت ولا كـلابا

***

وغض البصر مما يزيد المرأة كمالا، فأحد الشعراء يصف امرأة فيقول:

و ما سعاد غداة البين إذا رحلوا إلا أغن غضيض الطرف مكحول

***

غضيض الطرف، أي أن يكون الطرف نحو الأسفل، هذا من لوازم الحياء.

إذاً غض البصر إطباق الجفن الأعلى على الجفن الأسفل، أو تحويل النظر من جهة إلى جهة، أو توجيه النظر إلى الأرض.

المعاني المستفادة من كلمة (مِنْ):

المعنى الأول: التبعيض:

لكن الشيء الذي يلفت النظر أن كلمة (مِنْ) تفيد التبعيض، فلم يقل الله عز وجل: قل للمؤمنين يغضوا أبصارهم، ويحفظوا فروجهم، ولم يقل: قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم، ويحفظوا من فروجهم، بل قال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

لماذا ؟ لأن (مِنْ) حرف جر أصلي يفيد التبعيض، أعطني مما عندك، أيْ أعطني بعض الذي عندك، أعطني من هذه القطع قطعة، فمن تفيد التبعيض، أي أن الله سبحانه وتعالى يقول: إن المؤمنين يغضون أبصارهم عن بعض المبصرات التي حرمها الله عز وجل، فلك أن تنظر إلى زوجتك، ولك أن تنظر إلى أختك، ولك أن تنظر إلى عمتك، ولك أن تنظر إلى خالتك، ولك أن تنظر إلى بنت أخيك، ولك أن تنظر إلى بنت أختك، ولك أن تنظر إلى أم زوجتك، ولك أن تنظر إلى الفروع مهما دنوا، وإلى الأصول مهما علوا، لكن الذي حرم عليك أن تنظر إلى امرأة أجنبية لا تحل لك.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

مِن هنا جاءت (من) للتبعيض، أي ليس كل النظر إلى النساء محرما، بل إلى صنف من نساء أجنبيات عنك، لا يحللن لك.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

فهذه (مِنْ) للتبعيض.

المعنى الثاني: غض البصر بملء العين عما أحل الله:

معنى آخر، أي أن المؤمنين يغضون بعض أبصارهم عن المبصرات التي أحلها الله لهم، فإذا أحلّ الله لك النظر إلى أمك، أو إلى أختك، أو إلى ابنتك، أو إلى زوجة ابنك، أو إلى عمتك، أو إلى خالتك، أو إلى أم زوجتك فلا ينبغي أن تنظر إلى هؤلاء النساء اللاتي يحل لك أن تنظر إليهن بملء العين، وأن تكرر النظر فهذه (مِنْ) للتبعيض، فعليك ألاّ تنظر إلى بعض النساء، وهن الأجنبيات اللواتي لا يحللن لك، أو إذا نظرت إلى اللواتي يحللن لك فلا ينبغي أن تنظر إليهن بملء النظر، بملء العين، ولا أن تديم النظر، ولا أن تكرر النظر، هذا المعنى الثاني المستفاد من كلمة (مِنْ).

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

المعنى الثالث: ابتداء الغاية:

المعنى الثالث المستفاد من كلمة (مِنْ) أنها هنا لابتداء الغاية، يؤكد هذا المعنى ما ورد في حديث صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ))

[البخاري مسلم واللفظ له، أبو داود]

هناك الاستماع، والنطق، وهناك اللمس، وهناك الحركة، وهناك الانتقال.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا)

أعينهم، وآذانهم، وأيديهم، وأرجلهم، أن يغضوا بدءا من أعينهم، وما تلا ذلك، فهذه ثلاثة معان مستفادة من كلمة (مِنْ) في هذه الآية.

منها: التبعيض، أي لك أن تنظر إلى بعض النساء، وعليك ألا تنظر إلى بعضهم الآخر، فالنساء اللواتي أحل الله لك أن تنظر إليهن هؤلاء المحارم لك أن تنظر إليهن، أما النساء الأجنبيات فلا يحل لك أن تنظر إليهن، هذا المعنى الأول.

والمعنى الثاني: إذا سمح لك أن تنظر إلى المرأة التي أحلها الله لك كالأم، والأخت، والعمة، والخالة، والبنت، وبنت الأخ، وبنت الأخت، وزوجة الابن، وأم الزوجة، إن سمح لك بالنظر إلى هؤلاء النسوة فلا ينبغي أن تنظر إليهن بملء العين، بل غض بصرك، فلا تنظر إليهن بملء العين، ولا تدم النظر، ولا تكرر النظر، هذا هو المعنى الثاني المستفاد من كلمة (مِنْ) في قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

والمعنى الثالث، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ))

[البخاري مسلم واللفظ له، أبو داود]

أي قل للمؤمنين أن يغضوا أعينهم، وألسنتهم، وآذانهم، وأيديهم، وأرجلهم عما لا يحل لهم، أي بدءا من العين، وما تلا ذلك.

المعنى الرابع: عدم اتباع النظرة بنظرة أخرى:

المعنى الرابع لـ (مِن) يؤكدها حديثُ بُرَيْدَةِ رَفَعَهُ قَالَ:

((يَا عَلِيُّ، لا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ لَكَ الأُولَى وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ))

[الترمذي، أبو داود، أحمد]

فهنا (مِنْ) للتبعيض، فإذا نظرت إلى امرأة أجنبية لا تحل لك فغض البصر، وغض البصر يكون في النظرة الثانية، لأن الأولى ليس لك إرادة في وقوعها.

هذه المعاني الأربعة المستفادة من كلمة (من) في قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

هذا الذي يؤكد المعنى الرابع من قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

الحكمة مِن مخاطبة الله للنبي مباشرة دون المؤمنين:

شيء آخر يستفاد من هذه الآية ؛ هو أن طريق الخطاب لم يقل الله عز وجل: يا أيها الذين آمنوا غضوا أبصاركم، بل خاطب النبي عليه الصلاة والسلام فقال له:

((قل يا محمد للمؤمنين يغضوا من أبصارهم))

طريقة الخطاب التوجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وأمره أن يخاطب المؤمنين، وأن يأمرهم بغض البصر، هذه الطريقة في الخطاب تشعر أن فعل النظر إلى النساء الأجنبيات فعل قبيح، أيْ قل له: ألا يفعل هذا، لأن هذا الفعل قبيح يقتضي أن توسط إنسانا ثالثا كي يأمره ألاّ يفعل كذا وكذا، فطريقة الخطاب هذه:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

تشعر أن إطلاق البصر إلى النساء اللواتي لا يحل النظر إليهن فعل قبيح ينبغي الابتعاد عنه، لكن الله سبحانه وتعالى رحمة بالخلق جعل النهي مشفوعا بـ (مِنْ)، ولكن حفظ الفرج لم يكن كذلك، لأنّ النظر أوسع، وهناك نساء يجب أن تنظر إليهن كالمحارم، وهناك حالات يمكن أن تنظر فيها إلى المرأة الأجنبية، كالطبيب، والقاضي، والمحقق، وبعض الحالات الأخرى، لذلك جاءت (مِنْ).

الأمر بحفظ الفرج كاملا: وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ

لكن الفرج لا يحتمل أن يقول الله عز وجل: ويحفظوا من فروجهم، ليس هناك حالات يمكن أن تكون مشروعة في موضوع الزنى، الزنى كله محرم، لذلك جاءت (مِنْ) قبل غض البصر، ولم تأت قبل حفظ الفرج.

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

كلية.

من المعاني والحِكم المستفادة من قوله: وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ:

المعنى الأول: حقيقة حفظ الفرج:

وأما المراد من حفظ الفرج فهو أن يتجنب الإنسان الزنى، وما هو أخف من الزنى، وما هو أخطر من الزنى، وما يشبه الزنى، هذا كله يجب أن يحفظ الإنسان فرجه منه:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6))

(سورة المؤمنون: الآيات5-6)

المعنى الثاني: الحكمة من الجمع بين غض البصر وحفظ الفرج:

لكن الجمع بين غض البصر وحفظ الفرج فيه حكمة بالغة، وهي أن طريق حفظ الفرج هو غض البصر، فمن أطلق عينيه في الحرام فأغلب الظن أنه لابد أن ينزلق في الزنى، يقول بعض العلماء: إن النظر إلى المحرم من أقوى الدواعي إلى فعله، لذلك هناك قاعدة تقول: ما حرم فعله حرم النظر إليه، وحرم استماعه، وحرمت قراءته، وحرم الحديث به، لأن النظر، والاستماع، والقراءة، والحديث من أقوى الدوافع إلى فعل هذا الشيء المحرم، لكن لئلا يكون هناك حرج على المؤمن فهناك فرق بين

النظرة الفجائية، وبين النظرة الآثمة، فنظرة الفجأة ليست داخلة في هذا التحريم، فعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي))

[مسلم، الترمذي]

فهذا الذي يدّعي أن هذه النظرة التي يديمها الرجل للمرأة الأجنبية إذا ظن أن هذه النظرة هي النظرة الأولى فقد وقع في غلط كبير، أو كان في تجاهل كبير، النظرة الأولى ينبغي ألا تدوم أكثر من معشار الثانية، بمجرد أن تنظر اصرف بصرك كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، أما من يدعي أن هذه النظرة المستديمة هي النظرة الأولى فهذا غلط كبير. يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

المعنى الثالث: الابتعاد عمّا هو أقلُّ مِن الزنا:

شيء آخر نعود إليه، وهو أنه من حفظ الفرج الابتعاد عن الزنى، وعما هو أقل من الزنى، وعما هو أخطر من الزنى، وعما هو مشابه للزنى، وفضلا عن ذلك فمن حفظ الفرج أيضا ستره، وعدم إظهاره لأي إنسان، فيحرم أن يرتدي الإنسان ثيابا رقيقة تشف عنه، ويحرم أن يرتدي ثيابا ضيقة تحد خطوطه، هذا كله من حفظ الفرج، فضلا عن أن يبتعد الإنسان عن الزنى، وعما هو أقلّ منه، وعما هو أخطر منه، وعما هو مشابه له، يجب أن يستر فرجه من أن ينظر إليه أحد، ويجب أن يرتدي ثيابا لا تشف ولا تصف، هذا من لوازم حفظ الفرج.

ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ

أما قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

فذلك أطهر لقلوبهم، وأنقى لدينهم، وأبعد عن الريبة، لكن كلمة (أزكى) اسم تفضيل يفيد أن هذا أزكى من هذا، وكأن المعصية شيء يوازن مع الطاعة، قال بعض العلماء: قد يتوهم الإنسان أنه إذا نظر إلى امرأة لا تحل له ربما حقق في هذا النظر نفعاً، استمتع بجمالها، أو استوفى لذة من هذه النظرة، إذا توهم متوهم أن في هذه النظرة استمتاعا، أو نفعا فإنه واهم إلى أبعد الحدود.

(ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

أيْ أزكى لنفوسهم من هذه اللذة التي يحققونها من النظر، ذلك أطهر لقلوبهم من هذه اللذة التي يحققونها بالنظر، ذلك أنفع لقلوبهم من هذه المنفعة التي يحققونها بالنظر، والخبير العليم علام الغيوب الخالق الرب الإله يقول لك: ذلك أزكى وأطهر، فهل نحن مصدقون كلام الله عز وجل ؟ هذا الذي يجد في النظرة لذة تفوق طاعة الله عز وجل، والذي يجد في النظرة متعة تفوق متعته بطاعة الله هو إنسان جاهل، لا يعرف الله أبدا. يقول الله عز وجل:

(ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

الأمر بغض البصر عن كل شيء محرم:

ويظن الإنسان أن في النظرة متعة ينبغي ألا تفوت، إن الذي حرمه الله عز وجل في قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

ليس المقصود ألا تنظر إلى المرأة الأجنبية فقط، هناك شيء آخر ؛ ألا تنظر إلى المرأة الأجنبية، وألا تنظر إلى عورات الرجال، ولا إلى الفخذ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْفَخِذُ عَوْرَةٌ))

[البخاري، والترمذي، أبو داود، أحمد]

لذلك هؤلاء الذين يرتادون أماكن تتكشف فيها الأرجل مما حرم الله عز وجل هؤلاء يخالفون هذه الآية، لا تنظر إلى فخذ أخيك حيا أو ميتا، فالفخذ عورة، فليس غض البصر عن المرأة فحسب، بل عن المرأة، وعن عورة الرّجل التي لا يحل لرجل آخر أن ينظر إليها، وإضافة إلى النساء الأجنبيات اللواتي لا يحللن للرجل، وإضافة إلى عورات الرجال التي لا ينبغي أن يراها الرجال أيضا، إضافة إلى هذا وذاك ينبغي أن يكون غض البصر عن المناظر الفاحشة، فأي منظر فاحش، أي عرض فاحش، أية صورة فاحشة، أي عمل فني فاحش، فهذا أيضا مما يدخل في نطاق هذه الآية الكريمة، فلا يحل للرجل أن ينظر إلى امرأة غير امرأته، أو إحدى محارمه، أما النظرة المفاجئة كما قلت قبل قليل فلا مؤاخذة عليها، وكلكم يعلم الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ))

[البخاري مسلم واللفظ له، أبو داود]

وقوله عليه الصلاة والسلام:

((من استمع إلى صوت قينة صب في أذنيه الآنك يوم القيامة))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال]

واليد تزني حينما تصافح، وحينما تضغط على يد المرأة هذا زنى، والذهاب إلى الأماكن الموبوءة، هذه الرجل تزني، فالزنى يشمل العين، والأذن، واللسان، واليد، والرجل، وفي النهاية إما أن يقع في الفاحشة الكبيرة، وإما ألاّ يقع، وفي الحديث الصحيح عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نَظَرِ الْفُجَاءَةِ فَأَمَرَنِي أَنْ أَصْرِفَ بَصَرِي))

[مسلم، الترمذي]

أعظمُ خُلُقٍ في المرأة الحياءُ:

ابنة سيدنا شعيب ما الذي جعلها تمتلئ إعجابا بسيدنا موسى:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

(سورة القصص: الآية 26)

لشدة حيائها عبرت عن رغبتها في سيدنا موسى بقولها:

(يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

فهم عليها أبوها بأن قلبها امتلأ إعجابا به، لأنه كان عفيفا، ومن صفات المؤمن عفته عن المطامع، وعفته عن المحارم، تروي الكتب أن سيدنا موسى حينما جاءته إحداهما تمشي على استحياء، فأطرق بصره في الأرض، فلما سارت أمامه كي تدله على الطريق، وكانت الرياح شديدة قال: سيري خلفي، ودليني على الطريق، رأت منه عفة ما بعدها عفة، شهامة ما بعدها شهامة، فلذلك يقال: إن الذي يعجب المرأة في الرجل عفته، وقوته، وأمانته.

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

(سورة القصص: الآية 26)

والذي يعجب الرجل في المرأة حياؤها، قال تعالى:

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)

(سورة القصص: من الآية 25)

ومن علامات آخر الزمان أن يرفع الحياء من وجوه النساء، وتذهب النخوة من رؤوس الرجال، فلا حياء في وجوه النساء، ولا نخوة في رؤوس الرجال.

شيء آخر، هو أنّ حياء المرأة نصف جمالها، والذي يعبر عنه بعض علماء النفس بالأنوثة، الذي يسهم إسهاما كبيرا في أنوثة المرأة حياؤها، فإذا رفع الحياء من وجوه النساء، وذهبت النخوة من رؤوس الرجال عندئذ فاقرأ على الناس السلام، فَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ))

[البخاري، أبو داود، ابن ماجه، أحمد]

إذا كان أغنياؤكم سمحاءَكم، وأمراؤكم خياركم، وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أغنياؤكم بخلاءكم، وأمراؤكم شراركم، وأمركم إلى نسائكم - هنا بيت القصيد - فبطن الأرض خير لكم من ظهرها.

إياكم والديوث، إياكم والسهام المسمومة:

وفي حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرَجِّلَةُ، وَالدَّيُّوثُ، وَثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: الْعَاقُّ لِوَالِدَيْهِ، وَالْمُدْمِنُ عَلَى الْخَمْرِ، وَالْمَنَّانُ بِمَا أَعْطَى))

[النسائي، أحمد]

الديوث هو الذي لا يغار على عرضه، أو يرضى الفاحشة في أهله، فهو بنص الحديث الشريف ديوث.

وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٍ، فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ أَثَابَهُ جَلَّ وَعَزَّ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَةُ فِي قَلْبِهِ))

[الحاكم في المستدرك]

لم يقل النبي عليه الصلاة والسلام: النظرة سهم من سهام إبليس، لأن السهم غير المسموم إذا أصاب جسدا أصاب موضعا بعينه، لكن السهم المسموم إذا أصاب جسدا سرى السم في كل الجسد، وهذا من أروع ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام في غض البصر، فالذي ينظر إلى المرأة الأجنبية التي لا تحل له فحياته كلها يصيبها التسمم، فلا هو في دراسته كما ينبغي، أصبح شارد الذهن، ولا هو في تجارته كما ينبغي، ولا هو في وظيفته كما ينبغي، ولا هو في بيته كما ينبغي، وكان أمره فرطا.

((النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٍ، فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ أَثَابَهُ جَلَّ وَعَزَّ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَةُ فِي قَلْبِهِ))

[الحاكم في المستدرك]

أي إذا صرفت بصرك عن امرأة لا تحل لك فلا يمكن أن يفسر هذا إلا أنك مخلص لله عز وجل، لو تركت السرقة فربما كان تركك للسرقة خوفا من قسوة القانون، أو خوفا من الفضيحة، أو خوفا أن يعرف الناس ذلك، ولكنك إذا غضضت بصرك عن محارم الله من دون أن يكون هذا العمل رياء أمام الناس فاعلم علم اليقين أن هذا الغض يؤكد إخلاصك لله عز وجل.

((النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٍ، فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ أَثَابَهُ جَلَّ وَعَزَّ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَةُ فِي قَلْبِهِ))

[الحاكم في المستدرك]

فلابد أن تشعر بلذة لا تعدلها لذة، وأن تشعر بحلاوة لا تعدلها حلاوة، إذا غضضت بصرك عن محارم الله، مخلصا بهذا الغض، وكأن الله سبحانه وتعالى جعلك تقبل عليه في كل يوم آلاف المرات، بعدد كل امرأة غضضت بصرك عنها، كلما غضضت بصرك عن امرأة لا تحل لك فهذه قربة إلى الله عز وجل.

روى الإمام أحمد في مسنده عَنْ أبِي أُمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَنْظُرُ إِلَى مَحَاسِنِ امْرَأَةٍ أَوَّلَ مَرَّةٍ، ثُمَّ يَغُضُّ بَصَرَهُ إِلا أَحْدَثَ اللَّهُ لَهُ عِبَادَةً يَجِدُ حَلاوَتَهَا))

[أحمد]

إياكم والاستنباطات السخيفة: كشف وجه المرأة:

لكن من الاستنباطات السخيفة التي سمعتها مرة: أن غض البصر يقتضي أن يكون الوجه سافرا، وإلا فلا معنى لغض البصر، هذا استنباط لم يقله أحد، والدليل على أن الوجه يجب أن يكون مستورا أحاديث كثيرة، وآيات سوف نصل إليها بعد قليل في سورة النور، ولكن من هذه النصوص أن السيدة عائشة في حديث الإفك رضي الله عنها قالت:

((وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطِّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الْحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَ وَاللَّهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ، وَلَا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ))

[البخاري، مسلم وغيرهما]

و عَنْ ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ قَالَ:

((جَاءَتْ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَالُ لَهَا: أُمُّ خَلَّادٍ، وَهِيَ مُنْتَقِبَةٌ تَسْأَلُ عَنْ ابْنِهَا، وَهُوَ مَقْتُولٌ، فَقَالَ لَهَا بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: جِئْتِ تَسْأَلِينَ عَنْ ابْنِكِ، وَأَنْتِ مُنْتَقِبَةٌ ؟! فَقَالَتْ: إِنْ أُرْزَأَ ابْنِي فَلَنْ أُرْزَأَ حَيَائِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ابْنُكِ لَهُ أَجْرُ شَهِيدَيْنِ، قَالَتْ: وَلِمَ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ قَتَلَهُ أَهْلُ الْكِتَابِ))

[أبو داود]

وعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ:

((مَدَّتْ امْرَأَةٌ مِنْ وَرَاءِ السِّتْرِ بِيَدِهَا كِتَابًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَبَضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ، وَقَالَ: مَا أَدْرِي أَيَدُ رَجُلٍ أَوْ يَدُ امْرَأَةٍ ؟ فَقَالَتْ: بَلْ امْرَأَةٌ، فَقَالَ: لَوْ كُنْتِ امْرَأَةً غَيَّرْتِ أَظْفَارَكِ بِالْحِنَّاءِ))

[أحمد، الطبراني في الأوسط]

لا يستنبط من آيات غض البصر أن الوجه يجب أن يبقى مكشوفا، وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((كَانَ الرُّكْبَانُ يَمُرُّونَ بِنَا، وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحْرِمَاتٌ، فَإِذَا حَاذَوْا بِنَا سَدَلَتْ إِحْدَانَا جِلْبَابَهَا مِنْ رَأْسِهَا عَلَى وَجْهِهَا، فَإِذَا جَاوَزُونَا كَشَفْنَاهُ))

[أبو داود، أحمد]

استثناءات النظر جواز النظر إلى المرأة الأجنبية:

لكن هناك استثنائات، ألم يقل الله عز وجل:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

هناك استثناءات، حيث إنه يجوز في بعض الحالات النظر إلى وجه المرأة الأجنبية:

الحالة الأولى: النظر من أجل النكاح:

فمن هذه الحالات حالة النكاح، فعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّهُ خَطَبَ امْرَأَةً فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((انْظُرْ إِلَيْهَا، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا))

[الترمذي، النسائي، ابن ماجه]

أي أن يوفق بينكما.

وفي حديث آخر في مسند الإمام أحمد عَنْ سَهْلِ بْنِ أبي حَثْمَةَ قَالَ: **رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ مَسْلَمَةَ يُطارِدُ امْرَأَةً بِبَصَرِهِ، فَقُلْتُ: تَنْظُرُ إِلَيْهَا وَأَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟!** فَقَالَ: **إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:**

((إِذَا أَلْقَى اللَّهُ عَزّ وَجَلّ فِي قَلْبِ امْرِئٍ خِطْبَةَ لامْرَأَةٍ فلا بَأسَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا))

[انظر سنن البيهقي]

وفي حديث ثالث عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا خَطَبَ أَحَدُكُمُ الْمَرْأَةَ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَا يَدْعُوهُ إِلَى نِكَاحِهَا فَلْيَفْعَلْ، قَالَ: فَخَطَبْتُ جَارِيَةً، فَكُنْتُ أَتَخَبَّأُ لَهَا حَتَّى رَأَيْتُ مِنْهَا مَا دَعَانِي إِلَى نِكَاحِهَا، وَتَزَوُّجِهَا فَتَزَوّجْتُهَا))

[أبو داود، أحمد]

فأن تنظر إلى امرأة أجنبية بنية أن تخطبها من أهلها فهذا شيء أباحه الشرع، هذا من استثناءات غض البصر.

الحالة الثانية: القاضي ومَن في حُكمِه للقضاء وردِّ الحقوق:

شيء آخر، المحقق، أو القاضي لا يدري ما إذا كانت هذه المرأة هي المعنية في هذه الدعوة، أو ليست كذلك، فله الحق أن ينظر إلى وجهها.

الحالة الثالثة: الطبيب للمعالجة:

والطبيب أيضا له الحق أن ينظر إلى وجه المرأة إذا كان يقتضي ذلك أن يعالجها.

هذه بعض الأحكام الشرعية المستنبطة من هذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

احذروا فـ: إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ

لكن قول الله عز وجل:

(إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

يعلم خائنة الأعين، فقد يفحص الطبيب امرأة، وينظر إلى موضع الألم، وهذا مباح له، فإذا اختلس نظرة إلى موقع آخر لا تشكو منه، فمن يعلم هذه النظرة الخائنة ؟ لا يعلمها إلا الله، لذلك جاء قوله تعالى:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

(سورة غافر: الآية 19)

وإذا نظر القاضي إلى وجه المرأة، ثم انتقل إلى مكان آخر لا يحل له فهذا مما يعلمه الله عز وجل، وكذلك المحقق، وكذلك من يباح له أن ينظر إلى النساء، لذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

(إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

معنى خبير أيْ يعلم علما دقيقا، يعلم حقيقة الأمر، هذه النظرة ماذا أردت بها ؟ هل تجاوزت الحد المفروض إلى حد لا يحل لك ؟

(إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

في غض البصر توخِّي حفظ الفرج، يعلم الإنسان علم اليقين أين هو من هذه الآية.

نصائح نبوية احترازا من الوقوع في الحرام:

نتابع تفسير هذه الآية.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَن بْن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إِلَى عَوْرَةِ الرَّجُلِ، ولا تَنْظُرُ الْمَرْأَةُ إِلَى عَوْرَةِ الْمَرْأَةِ، وَلا يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ، وَلا تُفْضِي الْمَرْأَةُ إِلَى الْمَرْأَةِ فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ))

[رواه مسلم، والترمذي]

وعَنْ عَلِيٍّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لا تُبْرِزْ فَخِذَكَ، ولا تَنْظُرَنَّ إِلَى فَخِذِ حَيٍّ وَلا مَيِّتٍ))

[رواه أبو داود، ابن ماجه]

وعَنْ أَبِي النَّضْرِ عَنْ زُرْعَةَ بْن عَبْدِ الرَّحْمَن بْن جَرْهَدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

((كَانَ جَرْهَدٌ هَذَا مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّةِ، قَالَ: جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَنَا وَفَخِذِي مُنْكَشِفَةٌ، فَقَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْفَخِذَ عَوْرَةٌ))

[البخاري، والترمذي، أبو داود، أحمد]

هذه كلها أحاديث صحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعَن ابْن عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِيَّاكُمْ وَالتَّعَرِّيَ، فَإِنَّ مَعَكُمْ مَنْ لا يُفَارِقُكُمْ إِلا عِنْدَ الْغَائِطِ، وَحِينَ يُفْضِي الرَّجُلُ إِلَى أَهْلِهِ، فَاسْتَحْيُوهُمْ وَأَكْرِمُوهُمْ))

[الترمذي]

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام استأجر أجيرا فرآه يغتسل عريانا، فقال عليه الصلاة والسلام:

((خذ أجارتك، لا حاجة لنا بك، فإني أراك لا تستحيي من الله))

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ، فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ، إِنَّمَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلا الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَن الْمُنْكَرِ))

[البخاري، مسلم]

فالذي له محل تجاري على قارعة الطريق في الطابق الأرضي، وأمامه الناس يذهبون ويروحون هذا الحديث من لوازم من يجلس على الطرقات:

((إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ))

أما هذا الذي يجلس على مقهى الرصيف لينظر إلى الناس فهذا بعيد جدا على أن يكون من أهل الإيمان، لأنه من تنزّه في الطرقات، من تحدث عن النساء فقد جرحت عدالته، لكنّ المضطر، كمَن له محل تجاري في شارع مزدحم فما آداب الجلوس في هذا المحل التجاري، قال النَّبيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((فَإِذَا أَبَيْتُمْ إلا الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطّرِيقَ حَقّهَا، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطّرِيقِ ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأذَى، وَرَدُّ السّلامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ))

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره الشهير: **" وقد قال كثير من السلف: إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد، وقد شدد كثير من أئمة الصوفية في ذلك، وحرمه طائفة من أهل العلم لما فيه من الافتتان، وشدد آخرون في ذلك كثيرا جدا ".**

[تفسير ابن كثير(283/3)]

هذا بالنسبة للنظر إلى الأمرد، أي إلى الشاب الذي لم تنبت لحيته بعد.

وعَنْ أَبِي رَيْحَانَةَ أَنّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي غَزْوَةٍ فَسَمِعَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ يَقُولُ:

((حُرّمَتِ النّارُ عَلَى عَيْنٍ سَهِرَتْ فِي سَبِيلِ اللّهِ، وَحُرّمَتِ النّارُ عَلَى عَيْنٍ دَمَعَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللّهِ، قَالَ: وَقَالَ الثّالِثَةَ ؟ فَنَسِيتُهَا، قَالَ أَبُو شُرَيْحٍ سَمِعْتُ مَنْ يَقُولُ ذَاكَ: حُرّمَتِ النّارُ عَلَى عَيْنٍ غَضّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللّهِ، أَوْ عَيْنٍ فُقِئَتْ فِي سَبِيلِ اللّهِ عَزّ وَجَلّ))

[النسائي]

بعض الحِكَم والأقوال في خطورة النظر إلى الحرام:

بعض الأقوال الحكيمة في هذا الموضوع:

كل المصائب مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشـرر

كم نظرة فعلت في قلب صاحبها فعل السهام بالقوس و لا وتــر

***

وفي الأثر:

((...ألاَ رُبَّ شَهْوَةِ سَاعَةٍ أَوْرَثَتْ حُزْنًا طويلاً....))

[مسند الشهاب، الزهد لابن المبارك]

وكنت إذا أرسلت طرفك رائـدا لقلبك يوما أتعبتك المناظـر

رأيت الذي لا كله أنت قادر عليـه ولا عن بعضـه أنت صابـر

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (10-23): تفسير الآية 31
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-12-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة النور، وفي الدرس الماضي تم شرح طرف مما تنطوي عليه الآية الكريمة:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

(سورة النور: الآية 30)

وآية اليوم هي قوله تعالى:

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إِلّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنّ عَلَى جُيُوبِهِنّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إِلّا لِبُعُولَتِهِنّ أَوْ آبَائِهِنّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنّ أَوْ أَبْنَائِهِنّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنّ أَوْ إِخْوَانِهِنّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنّ أَوْ نِسَائِهِنّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنّ أَوِ التّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرّجَالِ أَوِ الطّفْلِ الّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنّ وَتُوبُوا إِلَى اللّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة النور)

أصل الخطاب القرآني موجّه للذكور شامل للإناث:

جرت عادة القرآن الكريم على أن الأوامر توجه إلى جماعة الذكور:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا)

(سورة التحريم: من الآية8)

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ)

(سورة الحديد: من الآية28)

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللّهِ)

(سورة المنافقون: من الآية9)

لو تتبعت ما في القرآن الكريم من آيات لوجدت معظمها موجها إلى جماعة الذكور، فما حكم النساء ؟ قال علماء الأصول: النساء مشمولات بكل أمر موجه إلى جماعة الذكور على سبيل التغليب، أي إذا دخل إلى غرفة عشرون بنتا وصبيٌّ واحد تقول: دخل الطلاب، هذا أسلوب التغليب، فإذا كان الفاعل ذكورا وإناثا تستخدم صيغة الذكور في الفعل، فحينما يأمر الله سبحانه وتعالى الإنسان فخطابه وأمره ونهيه موجه إلى جماعة الذكور، هذا الأمر، وهذا النهي، وهذا الخطاب ينطبق على النساء بسبب

التغليب، أو ينطبق على النساء بسبب آخر، وهو القياس ما دامت المرأة مكلفة كالرجل فما ينطبق على الرجل ينطبق على المرأة، فهذا الكلام موجه خصيصا إلى الأخوات المؤمنات، أية آية في القرآن الكريم موجهة إلى جماعة الذكور هي موجهة بالقياس أو بالتغليب إلى جماعة النساء، فإذا قرأت المرأة المؤمنة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ)

فإنها معنية بالخطاب مئة بالمئة وفق علم الأصول، لأن ما يخاطب به الرجال ينسحب على النساء إما بالتغليب، وإما بالقياس، ولكن أحيانا بما أن المرأة قد خلقت بصفات خاصة لتؤدي وظيفة خاصة في المجتمع فللمرأة في القرآن الكريم أحكام خاصة، من هذا المنطلق كانت هذه الآية الكريمة، لأن للمرأة صفات خاصة تؤهلها لأداء وظيفتها في المجتمع، إذاً لها أحكام خاصة، ولكن هذا لا يمنع أن نفهم كما نص عليه القرآن الكريم أن المرأة مساوية للرجل تماما من حيث التكليف، ومن حيث التشريف، فالله سبحانه وتعالى أمرها بالإسلام، إذاً فعليها أن تعرف أركان الإسلام، وأمرها بالإيمان، فعليها أن تعرف أركان الإيمان، وأمرها بطاعة الله ورسوله فيما نص عليه القرآن، وفيما نص عليه النبي عليه الصلاة والسلام، وفيما استنبطه العلماء من النصوص الكلية، وفيما استنبطوه من أحكام فرعية من النصوص الكلية، ولكن هذه الآية التي نحن اليوم بصدد تفسيرها خاصة بالنساء، لأن الله سبحانه وتعالى شرفها - كما قلنا قبل قليل - بالإسلام، وساواها مع الرجل، وشرفها بالتكريم، ولكن جعل لها وظيفة خاصة ؛ جعلها زوجة، وجعلها مرغوباً بها، وجعلها تُخْطَب ولا تخطُب، وأمرها أن تقر في البيت حفاظا على أداء مهمتها، وصونا لما خصها الله به من أن يكون مبتذلا فقال تعالى:

(وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ)

(سورة الأحزاب: من الآية33)

من أحكام النظر إلى الأجنبي والأجنبيات:

لكن هذه الآية تشير إلى أحكام دقيقة متعلقة بالمرأة فقال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنّ)

فالحديث الذي كان في الأسبوع الماضي عن غض البصر، أي أن هناك أصنافا من النساء لك أن تنظر إليها، وهن المحارم، وهناك نساء أجنبيات أُمِرْتَ أن تغض البصر عنها، واللاتي أمرت أن تنظر إليهن يجب أن تنظر إليهن ببعض البصر، لا بكل البصر، لا أن تملأ عينيك من محارمك، بل انظر بعض الشيء إلى اللواتي أمرت أن تنظر إليهن، أو أبيح إليك أن تنظر إليهن.

معاني (مِنْ) في قوله تعالى: يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ

المعنى الأول: التبعيض:

(من) للتبعيض، لتبعيض الجهة المبصِرة، ولتبعيض الجهة المبصَرة، هذه الأحكام الدقيقة التي وردت في الدرس الماضي يمكن أن ترد اليوم أيضا بالتمام والكمال، فالمرأة في حياتها مجموعة من الرجال لها أن تنظر إليهم، كالزوج، والأب، والأخ، والابن، وابن الابن، وابن الأخت، وابن الأخ، هؤلاء الرجال لها أن تنظر إليهم، لذلك أمرت بغض بعض البصر.

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنّ)

المعنى الثاني: غض البصر بملء العين عما أحل الله:

شيء آخر ؛ هذا الرجل الذي أبيح للمرأة أن تنظر إليه لا ينبغي أن تنظر إليه مدققة بملء العين، مكررة مستمرة، بل يجب أن تغض البصر، طبعا الزوج له حالات خاصة في الآيتين، فقط الزوج، وما سوى الزوج يجب أن يكون كما قال العلماء النظر باعتدال، من دون أن يكون هناك استمرار، وتدقيق، ومعاودة، وإملاء العين من المبصر إليه.

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنّ)

المعنى الثالث: ابتداء الغاية:

والمعنى الثالث لـ(مِنْ) أن المرأة إذا منعت من أن تنظر إلى أجنبي، ونظرت إليه فجأة فالنظرة الأولى لها، والثانية عليها، فأول (مِنْ) يغض البصر عن الأجانب، و(مِنْ) الثانية لإطلاق بعض البصر إلى المحارم، و(مِنْ) الثالثة لو نظرت فجأة إلى رجل فلها الأولى، وليس لها الثانية، هكذا قال بعض الفقهاء.

وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنّ:

حكام من التبعيضية في الآية السابقة يمكن أن تنسحب بكاملها على الآية اللاحقة:

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنّ)

وكيف أن الله سبحانه وتعالى اعتبر إطلاق البصر، والتدقيق في المبصر فيه بعد عن الله عز وجل، وفيه غفلة، واتجاه نحو الشهوة المحرمة، كيف أن هذا الأمر لا يليق بالمؤمن، لذلك جاء الخطاب بطريقة الغائب:

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنّ)

لم يقل الله عز وجل: يا أيها الذين آمنوا غضوا أبصاركم، قال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

لأن في هذا العمل انحرافا عن الطريق المثالي الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمن، ولكن المرأة إضافة إلى أنها مأمورة بغض البصر، أو غض بعض البصر كما ورد في الآية، ومأمورة أيضا بحفظ الفرج ؛ أي بالبعد عن الزنى، وما شاكل الزنى من انحرافات هي أقل من الزنى، أو هي مشابهة للزنى، أو هي أخطر من الزنى، ومصداق ذلك قول الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ(6))

(سورة المؤمنون: الآيات5-6)

مِن أحكام العورة:

إضافة إلى غض بعض البصر، وإضافة إلى حفظ الفرج فهناك أحكام أخرى في هذه الآية، ولكن هناك توجيه آخر ؛ هو أن المرأة لا يجوز لها أن تنظر من المرأة ما بين السرة والركبة، لأن ما بين السرة والركبة عورة للمرأة على المرأة، فلا ينبغي أن تنظر المرأة لغير زوجها، أو لأحد محارمها، أو لامرأة فيما بين السرة والركبة، لأن هذا حد عورة المرأة على المرأة، ولها أن تنظر إلى زوجها كيفما تريد من دون قيد أو شرط، والمحارم لها أن تنظر إليهم بشكل معتدل من دون أن يكون ثمة تبذل، فأحيانا هنالك أسر قد يتجول الأخ في البيت بالثياب الداخلية، فلا ينبغي للمرأة المؤمنة أن تنظر إلى أخيها بهذا الشكل، لأن هذا شكل فيه تبذل مخالف للشرع، فعَنْ جَرْهَدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

((كَانَ جَرْهَدٌ هَذَا مِنْ أَصْحَابِ الصُّفَّةِ قَالَ جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَنَا وَفَخِذِي مُنْكَشِفَةٌ فَقَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْفَخِذَ عَوْرَةٌ))

[البخاري، والترمذي، أبو داود، أحمد]

حتى المحارم الذين سمح الشرع للمرأة أن تنظر إليهم يجب أن يكون النظر إليهم بوضع مقبول معتدل سليم، ليس فيه تبذل، وليس فيه تكشف، يضاف إلى ذلك أن عورة المرأة على المرأة ما بين السرة والركبة، إذاً الأمر بغض البصر يشمل هذه الجهات الثلاث.

مِنْ ضرورات نظر المرأة والرجل إلى العورة:

يضاف لى ذلك أن المرأة عند الضرورة لها أن تنظر إلى الرجل بفتوى بعض العلماء في حالات الإسعافات، وفي حالات المعالجة، قد تكون هذه الممرضة في ظرف عصيب، رجل في حالة خطرة، فأباح لها الشرع أن تنظر إليه لعلة التطبيب، أو في حالات قاهرة، كما أباح الشرع للرجل أن ينظر إلى المرأة لمجموعة من العلل، منها التطبيب، ومنها الخطبة، ومنها الشاهد، ومنها القاضي، فالقاضي أيضا له أن ينظر إلى وجه المرأة الأجنبية ليعرف هويتها، وكذلك الشاهد، وكذلك الطبيب، ويجوز للمرأة أن تنظر إلى الرجل إذا جاء لخطبتها، فينظر إليها، وتنظر إليه، فعن بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّهُ خَطَبَ امْرَأَةً فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((انْظُرْ إِلَيْهَا، فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَكُمَا))

[الترمذي، النسائي، ابن ماجه]

يضاف إلى غض البصر:

النهي عن إبداء المرأة زينتها:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

الزينة في اللغة ما يتزين به الإنسان من حلي، أو من خضاب، أو مساحيق، فهذه هي الزينة في اللغة.

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

هل يحرم النظر إلى الحلية في السوق ؟!

الآن عندنا سؤال، هل يحرم النظر إلى حلية في السوق ؟ سوار، حلقة، خاتم، هل يحرم عليك أن تنظر إلى سوار امرأة معروض في محل تجاري ؟ الجواب: لا، ليس حراما، فحينما وجه ربنا سبحانه وتعالى المرأة أن تغض بصرها عن الرجال، وألاّ تبدي زينتها المقصود بالزينة الحلي في مواضعها، السوار في المعصم، والعقد في الجيد، والخلخال في الساق، والقرط في الأذن، ولا يبدين هذه الحلي، وهي في مواضعها، فيحرم على المرأة أن تبدي للرجال الأجانب هذه الزينة، وهي في موضعها:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

وكأن القرآن الكريم أراد بالزينة مواقعها ؛ مواقع العقد الرقبة والجيد، فلا ينبغي للمرأة أن تظهر رقبتها وجيدها للأجنبي، مواقع الزينة المعصم فلا ينبغي للمرأة أن يبدو معصمها للأجانب، مواقع الزينة الأذن

وصفحة العنق فلا ينبغي للمرأة أن تبدي أذنها وصفحة عنقها للأجانب، مواقع الزينة الساق فلا ينبغي للمرأة المسلمة أن تبدي ساقها وما فيها من خلخال للأجانب.

أنواع الزينة في المرأة: الزينة الظاهرة والزينة الباطنة:

إذا:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

قال بعض العلماء: **الزينة زينتان ؛ زينة باطنة، وزينة ظاهرة، زينة مجلوبة، وزينة خلقية، المجلوبة والخلقية الباطنة، والظاهرة مما تعنيه كلمة الزينة.**

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

أبدى يبدي، بدا يبدو، أبدى يبدي، بدا ثلاثي، بدا القمر إذا ظهر، بدا الشيء إذا ظهر، لكن أبدى رباعي، فيه تعدية، لم يقل الله عز وجل: ولا يبدون، بل قال:

(وَلَا يُبْدِينَ)

أيْ باختيارها، بإمكانها أن تخفيه، وبإمكانها أن تظهره شيء تابع لإرادتها، يبدي ياء المضارع مضمومة، إذًا الفعل رباعي، ورباعي بدا أبدى فيه تعدية، أبديت الشيء، أو أخفيته، أبديته، وأخفيته.

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

إذًا: بإمكانها أن تستر جيدها، وصدرها، ومعصمها، وصفحة عنقها، وساقها، هذا بإمكانها ستره، فهي مأمورة ألا تبدي هذه الزينة، لأنه:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

تفسيرات العلماء لقوله تعالى: وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ

للعلماء في تفسير هذه الآية مذاهب شتى، ولنستمع إلى تفسيرات بعض العلماء لهذه الآية.

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

واضحة وضوح الشمس، المقصود مواقع الزينة، كأن هناك مضافاً محذوفاً، ولا يبدين مواقع الزينة، وكلمة يبدي فعل متعد، فالمرأة بإمكانها أن تبديه، وبإمكانها أن تخفيه، ولكن المشكلة في قوله تعالى:

(إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

قول ابن مسعود:

فعن ابن مسعود أنه قال: **<< إلا ما ظهر منها: الثياب >>.**

[تفسير الطبري]

أي أن هذه المرأة ترتدي ثيابا سوداء، فكل من مر في الطريق يراها بهذه الثياب، والتي قد تكون أنيقة، وقد تكون قد اختيرت بشكل جيد، فهذه الثياب ليس في إمكان المرأة أن تخفيه، إنها ترتديه، فابن مسعود يقول: لا خلخال، ولا قرط، ولا قلادة، إلا ما ظهر منه، أي الثياب، فهذه المرأة التي ترتدي ملاءة، أو جلباباً، أو معطفاً، هذا المعطف يبدو للمارة، ويظهر لا محالة، ويستحيل إخفاؤه، كيف تختفي إذا خرجت المرأة من بيتها لأمر هام، إنها ترتدي هذا المعطف، أو هذا الجلباب، أو هذا الرداء، فيبدو هذا الجلباب للناس، إلا ما ظهر منها، أي الثياب، وهذا قول ابن مسعود.

قول ابن كثير:

أما المفسر ابن كثير رحمه الله تعالى فيقول في تفسير هذه الآية: **" لا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه ".**

[تفسير ابن كثير]

هذا الذي لا يمكن إخفاؤه يسمح للمرأة أن تظهره للأجانب، فهذا الذي يقوله ابن كثير إلا ما ظهر منها أي كالرداء والثياب.

قول آخر لابن مسعود:

قال أبو إسحاق السبيعي عن أبي الأحوص عن عبد الله قال في قوله:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ)

<< الزينة القرط والدملج والخلخال والقلادة >>.

وفي رواية عنه بهذا الإسناد قال: **<< الزينة زينتان، فزينة لا يراها إلا الزوج، الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب، وهي الظاهر من الثياب.**

قول الزهري:

وقال الزهري: **" لا يبدين لهؤلاء الذين سمى الله ممن لا يحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة ".**

[تفسير ابن كثير]

أما الزينة التي يراها الأجانب في الطريق فهي الثياب.

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ)

(إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)

ويقول أحد العلماء: إذا كانت المرأة مأمورة بسدل الخمار من رأسها على جيبها لتستر صدرها فهي مأمورة ضمنا بستر ما بين الرأس والصدر وهما الوجه والرقبة، لأن الآية تقول:

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنّ عَلَى جُيُوبِهِنّ)

وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنّ عَلَى جُيُوبِهِنّ:

الجيب في اللغة فتحة القميص، والخمار غطاء الرأس، وضرب الخمار من على الرأس إلى جيب القميص، أي هذا القميص أسدل من أمام، فغطى الوجه والعنق، فيقول أحد العلماء: إذا كانت المرأة مأمورة بسدل الخمار من رأسها على جيبها لتستر صدرها فهي مأمورة ضمنا بستر ما بين الرأس والصدر، وهما الوجه والرقبة، فإن قلت لامرأة: أسدلي هذا الغطاء من رأسك إلى صدرك، فهذا الإسدال يعني ضمنا أن الوجه والرقبة مستوران بهذا الإسدال، وإنما لم يسدل هنا للعلم بأن سدل الخمار إلى العنق يغطي الوجه والرقبة.

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنّ)

لأن المرأة في الجاهلية كانت تضع الخمار على رأسها، وتلقيه على ظهرها، وتستقبل الناس فيرى الناس وجهها، ورقبتها، وصدرها، فجاء الأمر بإسدال الغطاء من رأسها لا على ظهرها، ولكن على صدرها، فإذا أسدل الخمار من على الرأس إلى الصدر فقد غطى الوجه، وغطى الرقبة، وهذا المفهوم يقال له في علم الأصول: مفهوم التضمن، أيْ من ضمن هذا الأمر يفهم أن المرأة يجب أن تستر وجهها ورقبتها.

وقال أحد العلماء أيضا: **" قد تضمن قوله تعالى:**

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنّ عَلَى جُيُوبِهِنّ)

أمرًا للنساء بتغطية وجوههن ورقابهن.

ويقول عالم آخر: **" إذا كانت المرأة مأمورة بستر ما عليها من الحلي أساور... خلخال.... قرط..... عقد....إذا كانت المرأة مأمورة يستر ما عليها من الحلي عن نظر الرجال الأجانب خشية أن يفتتنوا بها فلأن تؤمر بستر وجهها الذي هو مجمع محاسنها، وسبب الافتتان بها من باب أولى "**، فمنظر

المعصم، وعليه سوار هل هو أكثر فتنة أم الوجه، وما فيه من محاسن، العينين والخدين، والأنف، والرقبة، والفم، والجبين ؟ يا ترى منظر السوار على المعصم، أو منظر الخلخال في الساق، أو منظر العقد في الرقبة أكثر فتنة من الوجه ؟ إذا كانت المرأة مأمورة بستر ما عليها من الحلي عن نظر الرجال خشية أن يفتتنوا بها فلأن تؤمر بستر وجهها الذي هو مجمع محاسنها، وسبب الافتتان بها من باب أولى وأحرى، والآية جمعت ستر الزينتين، هناك زينة مجلوبة، وهناك زينة خلقية، فالزينة المجلوبة هذا السوار له أشكال، وله أنواع، وله قيم، وله أثمان، وهذا العقد، والخلخال، وهذا القرط، فالآية جمعت الزينتين الزينة المجلوبة، والزينة الخلقية، وهي الوجه، فقال تعالى:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)

فزينة الجلب والخلق أمرت المرأة أن تسترها عن الأجانب.

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ)

وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ

بعولتهن أي أزواجهن، وقد ورد في صحيح البخاري حديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:

((يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُوَلَ، لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ:(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا))

[البخاري]

جاء الإمام ابن حجر العسقلاني وشرح صحيح البخاري في كتاب ضخم جدا سماه فتح الباري في شرح صحيح البخاري، وقال في قولها:

((يَرْحَمُ اللَّهُ نِسَاءَ الْمُهَاجِرَاتِ الْأُوَلَ،:(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ) شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بِهَا)) " أي غطين وجوههن ".

[فتح الباري]

إذاً هذه النصوص في شرح هذه الآية توضح أن المرأة لا ينبغي لها أن تبدي زينتها للأجانب، وينبغي أن تضرب خمارها من رأسها على صدرها، مرورا بوجهها.

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ)

أما الزوج فله حكم خاص، فله أن يرى من زوجته ما يشاء، لأنها مباحة له في الأصل.

(وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ)

ولها أن تظهر أمام أبيها، لكن كما قلنا قبل قليل: لا ينبغي أن تظهر أمام أبيها إلا بثياب الخدمة، وهي التي تستر معظم الجسم، وتبقي ما لابد من إظهاره، كالساعد، والركبة، فما أسفل، وأسفل منها، والرقبة،

والوجه، والشعر، ولهذا الأب أن ينظر إلى ابنته، أما أن يراها بأبهى زينة، في ثياب فاضحة تكشف أكثر مما تخفي، فهذا أيضا ليس من الشرع في شيء، فإذا نظر الأب إلى ابنته الشابة لا ينبغي أن ينظر إليها، وهي في أبهى زينة، وقد تكشفت معظم أعضائها، هذا ليس من الأدب العام، ولو كانت ابنته، والأخ لأخته هكذا.

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا)

أما الزوج فبحث آخر.

(إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ)

فيحق لوالد الزوجة أن ينظر إلى زوجة ابنه.

ولكن في حاشية ابن عابدين، وهي أوسع كتاب في الفقه الحنفي يقول المؤلف: **" لا يجوز للرجل أن يخلو بزوجة ابنه الشابة، ولا بالأخت من الرضاعة لأن ذلك مظنة الفساد، ما دام الابن موجودا، فالأمر طبيعي، وهذه الزوجة زوجة الابن أحد محارم الرجل، وله أن ينظر إليها كما قلنا في الدرس السابق بعض النظر، أما الخلوة فمنهي عنها ".**

عند السادة الأحناف:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ)

أي والد الزوج.

(أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ)

أي ابن الزوج، فيحق لها أن تبدو أمامه.

ومع ذلك فلابد من الحيطة والحذر:

والجدير بالملاحظة بأن الخلوة بين شاب في ريعان الشباب، وبين زوجة أبيه، وقد تكون شابة أيضا يجب أن يحتاط لها، وبشكل أدق أي امرأة، ولو أنها من محارمك إذا نظرت إليها نظرة بشهوة فإن هذه النظرة محرمة، فإذا نظر الإنسان إلى إحدى محارمه اللاتي سمح الشرع له أن ينظر إليهن نظرة ريبة، أو نظرة شهوة فهذا الشيء محرم بشكل ثابت، لكن الأعم الأغلب أن معظم الناس أصحاب الفطرة السليمة الطاهرة لا ينظرون إلى محارمهم إلا نظرة بريئة، كأن ينظر الأخ إلى أخته، والابن إلى أمه، والأخت إلى أخيها، فالأصل في الحياة الاجتماعية أن هناك دماً مشتركاً، وأن هناك موانع للفتنة، ولكن لو كان هناك حالات شاذة، حالات مرضية، وإذا كان هناك نظرة بشهوة إلى إحدى المحارم تصبح هذه النظرة محرمة أيضا.

(أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ)

الأنواع الأساسية في العلاقات الاجتماعية:

هذه الآية صنفت بحسب الأنواع الأساسية في العلاقات الاجتماعية:

النوع الأول: المصاهرة:

هناك علاقة مصاهرة، وعلاقة المصاهرة يكون البعل، وأبو البعل، وابن البعل، أي الزوج، ووالد الزوج، وابن الزوج هؤلاء الرجال الثلاثة يجوز للمرأة أن تنظر إليهم بحكم الزواج، وبحكم المصاهرة.

النوع الثاني: النسب:

وهناك أصناف خمسة تنظر المرأة إليهم لا بحكم المصاهرة، بل بحكم النسب، وهم الأبناء، والآباء، والإخوة، الآباء أصولا، والأبناء فروعًا، والإخوة محاذاة، فالآباء تعني الآباء وآباء الآباء مهما علا النسب، الأب، والجد، وجد الجد، إلى آخره، والأبناء تعني الابن، وابن الابن، مهما دنا، فمهما علت الأصول، ودنت الفروع فللمرأة أن تنظر إليهم.

ولكن الآية أغفلت العم، والخال، لأن هناك استنباطات من بعض الآيات الكريمة حيث إن الله سبحانه وتعالى سمّى العم أبا في بعض الآيات، و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((... يَا عُمَرُ، أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ))

[مسلم، الترمذي]

والعمة كالوالد، فكانت السنة الشريفة المطهرة تفصيلا وبيانا لبعض الآيات، والقرآن الكريم إعجازه في إيجازه، من مكان آخر استنبط النبي عليه الصلاة والسلام أن العم والخال بمثابة الوالد فجاءت السنة، وأباحت للمرأة أن تظهر أمام عمها، وأمام خالها، فأصبح الرجال الذين يسمح للمرأة أن تبدو أمامهم خمسة لعلة النسب، وثلاثة لعلة المصاهرة، فالخمسة الذين يسمح للمرأة أن تبدو أمامهم لعلة النسب هم: الأب، والجد، وجد الجد في بحكم واحد، والابن، وابن الابن، وابن ابن الابن مهما دنوا بحكم واحد، والأخ، والعم، والخال فهؤلاء خمسة رجال بحكم النسب، وثلاثة رجال بحكم المصاهرة مجموعهم ثمانية، يقول الله عز وجل:

(وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ)

يا أيها النساء المسلمات احذروا كشف العورات أمام غير المسلمات والفاسقات:

لو أن الله سبحانه وتعالى قال: أو النساء لكان هناك إباحة للمرأة أن تبدو أمام كل النساء، ولكن إضافة النساء إليهن.

(أَوْ نِسَائِهِنّ)

معنى ذلك أن المرأة غير المسلمة لا يجوز أن تبدو المرأة المسلمة أمامها، لماذا ؟ لِئلا تصفها للرجال، لأنه لا يجوز أن تصف المرأة امرأة لزوجها، فإذا وصفتها فكأنه ينظر إليها، بل ربما كان الوصف فيه مبالغة، لذلك هؤلاء النساء اللواتي يجتمعن مع بعضهن، ثم ينصرفن إلى البيوت فتحدث كل امرأة زوجها عن فلانة، وطولها، ولونها، ورشاقتها، وحركاتها، وسكناتها، ومنطقها، وثقافتها، هذا لا يجوز، وهذا مخالف للسنة، مخالف لنص هذه الآية، لأن الله سبحانه وتعالى قال:

(أَوْ نِسَائِهِنّ)

فللمرأة أن تظهر أمام امرأة مسلمة، لماذا ؟ لأن هذه المرأة المسلمة بحسب أوامر الشرع لن تصفها لزوجها، لكن المرأة غير المسلمة ربما وصفتها إلى زوجها، وبالغت في الوصف، فكأن هذا الأجنبي يراها كما هي، هذا حكم المرأة.

رأي آخر في قوله تعالى: أَوْ نِسَائِهِنّ

وهناك رأي آخر حول هذه الآية، وهو رأي سديد.

(أَوْ نِسَائِهِنّ)

أي المرأة التي تثق بها، مسلمة كانت، أو غير مسلمة، فلو أن امرأة مسلمة فاسقة، من عادتها أن تصف النساء لزوجها، فهذه المسلمة الفاسقة المنحرفة لا يجوز للمرأة المسلمة أن تظهر أمامها خوفا من أن تصفها للرجال، هذا رأي آخر، ورأي جمهور العلماء.

(أَوْ نِسَائِهِنّ)

أي النساء المسلمات، وغير المسلمات لا يجوز للمرأة المسلمة أن تظهر أمامهن خشية أن يصفنَها للزوج، لكن بعض المسلمات يعرضن أنفسهن في الطريق ليراهن كل إنسان، وهذا الذي وقع المسلمون فيه اليوم، قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصّلَاةَ وَاتّبَعُوا الشّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّا)

(سورة مريم: الآية59)

الغَيُّ الذي يمكن أن يصيب المسلمين بسبب إضاعة الصلاة، واتباع الشهوات، وليست إضاعة الصلاة

تركها، بل إضاعة الصلاة تضييع الخشوع فيها، وتضييع الاستقامة قبلها، وتضييع إتمامها، وتضييع الخشية فيها، هذه الإضاعة.إذا:

(أَوْ نِسَائِهِنَّ)

العلة في ذلك ألا تصف المرأة غير المسلمة محاسن هذه المرأة المسلمة إلى غيرها، أو إلى الأجانب، فقد تجلس هذه المرأة غير المسلمة في ناد، أو في مكان عام، وتقول: فلانة جارتي شكلها كذا وكذا وكذا، وتتحدث فكأن كل هؤلاء الرجال قد رأوا هذه العلة.

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ:

(أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ)

إياكم أن تظنوا أن المرأة الحرة يجوز لها أن تبدو أمام عبدها، لأن هذا العبد فيه شهوة كما في الرجال الأحرار، ويشتهي هذه السيدة كما يشتهيها الأجنبي، لكن الآية هنا:

(أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ)

بمعنى الجارية التي عند المرأة المسلمة، هذه الجارية ليست مسلمة، لكن لأنها محبوسة في البيت، وليس لها علاقة مع الآخرين فللمرأة المسلمة أن تبدو أمامها، على كل ملك اليمين ليس الآن في حيز الوجود إطلاقا.

أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنْ الرِّجَالِ

التابعون غير أولي الإربة من الرجال كما فسرها بعض العلماء الشيخ الذي فنيت شهوته، أو الأبله، أو أي إنسان ليس له حاجة إطلاقا إلى النساء.

أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ

أي الطفل الذي لا يعرف الشهوة بعد، ولا يعرف محاسن المرأة، فالمرأة أمامه كأنها أمه بالضبط، فلا يعرف هذا الطفل الصغير من محاسنها شيئا، فللمرأة حينئذ أن تظهر أمامه، أما إذا بدأ يميز بين الجمال والقبح، وبين صفات النساء، ويميز بينها عندئذ لا ينبغي للمرأة أن تظهر أمامه

وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ

إذا مشت المرأة في الطريق فلا ينبغي أن تحدث لحركتها صوتا تلفت النظر به إليها، أو إلى بعض

مفاتنها، فالمرأة منهية أن تسير سيرا يلفت النظر.

(وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ)

لذلك كل فعل من أفعال المرأة له صوت يحرم أن تظهره للأجانب، فما قولكم إذا كان صوت أفعالها محرما أن يسمعه الأجانب لئلا يلتفتوا إليها، ما قولكم بصوتها، وصوت المرأة عورة شيء آخر، فما قولكم بالعطر إذا خرجت المرأة متعطرة، فقد خرجت زانية، ولا زالت الملائكة تلعنها حتى تعود، لذلك حمل الفقهاء على هذه الآية العطر، فالعطر يلفت النظر، وهنالك عطور ثمينة جدا، وأخرى غير ثمينة، ولكن كل أنواع العطور تلفت النظر، فالمرأة التي تتعطر في الطريق هذه لا تعرف الله أبدا، ولم تقرأ القرآن، ولم تعرف أحكام النساء في هذه السورة، فأي فعل من أفعالها له صوت يحرم أن تظهره للأجانب، فكيف بصوتها ؟ فكيف بالرائحة العطرة التي تخرج منها ؟ هذا كله محرم.

وهنالك آية أخرى تفيدنا الآن:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا)

(سورة الأحزاب: الآية32)

يا نساء المسلمات هذا مثلٌ لكن فاقتدوا:

حتى إذا اضطرت إلى مخاطبة الأجانب، بائع مثلا في الطريق، قاض، طبيب، يجب ألا تخضع بالقول، أن تقول الكلام الذي لابد منه، أن تتكلم الحد الأدنى، وقد علمنا ربنا سبحانه وتعالى في قصة شعيب عليه السلام كيف أن المرأتان ؛ بنات شعيب قالتا كلاما مختصرا مفيدا، قال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام:

(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنْ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا)

فكان جوابهما ؟

(قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

(سورة القصص: الآية23)

لماذا نحن واقفون هنا ؟ نحن ليس من أخلاقنا مزاحمة الرجال، واقفون هنا حتى يصدر الرعاء، أي الرعاة، ولماذا نحن نسقي الغنم ؟ لأن أبانا شيخ كبير، فثمة علة.

(قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

فلما جاءته إحداهما تمشي على استحياء ماذا قالت له ؟ هل أدارت معه حديثا لطيفا ؟ هل سألته عن

صحته، وعن أحواله ؟ ماذا قالت له ؟

(قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا)

(سورة القصص: من الآية25)

ولا كلمة، هذا هو الحد الأدنى، الآن تدخل المرأة إلى المحل فتسأله عن أهله، وعن صحته، وعن أحواله، وعن أولاده، وعن الطقس، وعن ... هذا كله كلام فيه خضوع بالقول:

(فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا)

الحد الأدنى يجب أن تقوله المرأة، إذاً أي صوت لفعل من أفعالها لا يجب أن يسمعه الأجانب، فكيف بصوتها ؟ فكيف بعطرها ؟

(وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ)

وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

وقد ختمت هذه الآية وكأن هذا الختام للآيتين معا:

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

يبدو أن موضوع غض البصر، وموضوع النساء يحتاج إلى جهد كبير، وانضباط كثير، ويحتاج إلى علم، لذلك فالإنسان المؤمن يتوب إلى الله دائما من كل هفوة، ومن كل نظرة، ومن كل تقصير بدر منه.

(وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

حينما تزل القدم، وحينما تخطف العين، وحينما ينظر من دون أن يشعر، أو حينما يطيل النظرة الأولى، هذه كلها ربما يحتاج الإنسان أن يتوب إلى الله كثيرا، فَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[الترمذي، ابن ماجه، أحمد]

فهذه آية اليوم:

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الْإِرْبَةِ مِنْ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (11-23): تفسير الآيات 31 – 33
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 09-12-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة النور، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إِلّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنّ عَلَى جُيُوبِهِنّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنّ إِلّا لِبُعُولَتِهِنّ أَوْ آبَائِهِنّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنّ أَوْ أَبْنَائِهِنّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنّ أَوْ إِخْوَانِهِنّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنّ أَوْ نِسَائِهِنّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنّ أَوِ التّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرّجَالِ أَوِ الطّفْلِ الّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنّ وَتُوبُوا إِلَى اللّهِ جَمِيعاً أَيّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ)

(سورة النور)

أيها الإخوة الأكارم، هذه الآية شُرحت بشكل أو بأخر في الدرس الماضي، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام له توجيهات، وتوجيهات النبي عليه الصلاة والسلام يجب أن نأخذ بها، لأن الله سبحانه وتعالى في نص القرآن الكريم، وفي آية محكمة، وبصيغة الأمر الذي يقتضي الوجوب يقول:

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: من الآية7)

من توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام:

إنّ القرآن والسنة هما مصدرا التشريع، فالسنة مصدر رئيس ثانٍ من مصادر التشريع، فالنبي صلى الله عليه وسلم له توجيهات في هذا الموضوع، هذه التوجيهات مستمدة من روح القرآن.

معاني (مِنْ) في قوله تعالى: يَغُضّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ

التوجيه الأول: النهي عن الخلوة بالأجنبية:

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الخلوة، نهى الرجل عن أن يخلو بامرأة أجنبية لا تحل له، وربما كانت هذه المرأة من قريباته، ولكنها ليست من محارمه، ففي حياة الرجل أربعة أصناف من النساء ؛ هناك زوجته، ولها حكم خاص، وهناك محارمه، وهناك قريباته، وهناك النساء الأجنبيات عنه،

فنهى النبي عليه الصلاة والسلام المسلم أن يخلو بامرأة أجنبية، أو قريبة ليست من محارمه، ففي حديث صحيح رواه الترمذي عَنْ جَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا تَلِجُوا عَلَى الْمُغِيبَاتِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ أَحَدِكُمْ مَجْرَى الدَّمِ، قُلْنَا: وَمِنْكَ ؟ قَالَ: وَمِنِّي، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمُ))

قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَلَكِنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمُ))

" يَعْنِي أَسْلَمُ أَنَا مِنْهُ، قَالَ سُفْيَانُ: وَالشَّيْطَانُ لَا يُسْلِمُ.

((وَلَا تَلِجُوا عَلَى الْمُغِيبَاتِ))

وَالْمُغِيبَةُ الْمَرْأَةُ الَّتِي يَكُونُ زَوْجُهَا غَائِبًا، وَالْمُغِيبَاتُ جَمَاعَةُ الْمُغِيبَةِ ".

[الترمذي، أحمد]

(لا) ناهية، و(تَلِجُوا) بمعنى تدخلوا، لا تدخلوا على امرأة غاب عنها زوجها، هذه هي المغيبة، فالدخول عليها خطر عليكم وعليها.

((لَا تَلِجُوا عَلَى الْمُغِيبَاتِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ أَحَدِكُمْ مَجْرَى الدَّمِ))

كم من خلوة أودت إلى خيانة، وكم من خيانة أودت إلى طلاق، وكم من طلاق أودى إلى تشريد أسرة... وهذه كلها أساسها الخلوة، فالنبي صلى الله عليه وسلم نهى المسلم أن يخلو بامرأة لا تحل له.

وفي حديث صحيح آخر رواه الإمام أحمد عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((... مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلا يَخْلُوَنَّ بِامْرَأَةٍ لَيْسَ مَعَهَا ذُو مَحْرَمٍ مِنْهَا، فَإِنَّ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ))

[أحمد]

فأحيانا يكون هذا المصعد يحقق الخلوة، لذلك فهناك أناس لا يرتاحون لوجود مصعد في بناء، لأنه إذا دخلت إليه امرأة ربما تحققت الخلوة، ومع ذلك فإنّ أي مكان تتحقق فيه الخلوة فهو مكان حرمه الشرع، هذا توجيه، هذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان شهوة فعالة، فالشريف هو الذي يأتمر بأوامر الشرع، أما هذا الذي يقول: أنا لا أتأثر، أو أنا أعرف نفسي، أو أنا في حصن حصين، فهذا كلام فارغ لا معنى له، هذا الذي يعتمد على نفسه، ويثق بها، وهو موقن أنها لا تزل، هذا إنسان لا يعرف طبيعة النفس، فالشريف هو الذي يهرب من أسباب الخطيئة، والنبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الخلوة، فقد تأتي أخت الزوجة إلى البيت من مكان بعيد، وليست أختها في البيت، فلا ينبغي للزوج أن يستقبل أخت زوجته، ويخلو بها في بيت واحد، هذا لا يجوز، هذا نظام عام، وهكذا أمر الشارع الحكيم، فأي مكان

جمعك بامرأة لا تحل لك، وليست من محارمك فهذا المكان يعد خلوة، فلا ينبغي أن يتواجد فيه المسلم.

أحيانا تكون على موعد مع صديق لك، فتأتيه في الوقت المناسب، يقال لك: تفضل، سيعود بعد قليل، فقل: لا، أنتظره خارجا، أو سأعود بعد قليل، لا تدخل على امرأة في بيت وحيد، قد تكون أنت من أشرف الخلق، ولكن قد يساء بك الظن، يقول الإمام علي كرم الله وجهه: **<< لا تضع نفسك موضع التهمة، ثم تلوم الناس إذا اتهموك>>.**

عَنْ عَلِيِّ بْن حُسَيْنٍ أَنَّ صَفِيَّةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا جَاءَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَزُورُهُ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فِي الْمَسْجِدِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقَامَ مَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ قَرِيبًا مِنْ بَابِ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِهِمَا رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ نَفَذَا، فَقَالَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عَلَى رِسْلِكُمَا، قَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ !!! وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا ذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنْ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا))

[البخاري، مسلم]

لو كان الإنسان شريفا إلى أبعد الحدود، لو أنه واثق في نفسه، المكان الذي يفسر تفسيرات لا تليق به لا ينبغي أن يكون فيه، فالنبي عليه الصلاة والسلام استنباطا من هذه الأحكام، واستنباطا من روح القرآن وجّهنا توجيهات لابد أن نأخذ بها، من هذه التوجيهات عدم الخلوة بامرأة ليست من ذوات المحارم، فلو اطلعتم على كتب الفروع ؛ فروع الفقه، ودقائقه، وتفصيلاته لوجدتم أن زوجة الابن الشابة كما ورد في حاشية ابن عابدين، وهو أوسع موسوعة في الفقه الحنفي أن زوجة الابن الشابة لا يجوز للرجل أن يخلو بها، أي لا يجوز للأب أن يخلو بها إلا في حضرة ابنه، وهي من إحدى محارمه، ولكن في غيبة ابنه اتقاء للشبهات، ونوازع النفس، أي حتى المحارم درجات ؛ الأم، والأخت، والبنت، ولكن بنت الزوجة، وابن الزوج، وزوجة الابن الشابة، هذه أيضا من المحارم، ولكن من درجة ثانية، هذه الدرجة الثانية ينبغي أن يحتاط الإنسان في التعامل معها.

التوجيه الثاني: النهي عن مسّ الرجل المرأة الأجنبية:

من توجيهات النبي عليه الصلاة والسلام المستوحاة من روح القرآن الكريم أنه نهى أن يمس الرجل امرأة بيده ليست من محارمه، فَعَنْ أُمَيْمَةَ بِنْتِ رُقَيْقَةَ أَنَّهَا قَالَتْ:

((أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نِسْوَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ نُبَايِعُهُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا نَسْرِقَ، وَلَا نَزْنِيَ، وَلَا نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا، وَلَا نَعْصِيكَ فِي

مَعْرُوفٍ، قَالَ: فِيمَا اسْتَطَعْتُنّ وَأَطَقْتُنّ، قَالَتْ: قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَرْحَمُ بِنَا، هَلُمّ نُبَايِعْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لا أُصَافِحُ النِّسَاءَ، إِنَّمَا قَوْلِي لِمِائَةِ امْرَأَةٍ كَقَوْلِي لامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، أَوْ مِثْلُ قَوْلِي لامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ))

[النسائي، ابن ماجه، أحمد، مالك]

طبعا أن تمس يد امرأة لا تحل لك هذا مدعاة للزنى، أو مدعاة للتأثر، أو مدعاة للإثارة، لذلك لو أن الموقف حرج:

((إِنِّي لا أُصَافِحُ النِّسَاءَ))

هذا حكم الشرع، والله أحق أن تخشاه، فقد يستحي الإنسان، قد يعترضه موقف حرج، لكن الله سبحانه وتعالى من خلال سنة النبي عليه الصلاة والسلام لا يرضى أن تصافح امرأة لا تحل لك، فإن واجهت امرأة من ذوات محارمك هذا شيء آخر، ولكن امرأة ليست من ذوات المحارم لا ينبغي أن تمسها أبدا، ولو من قبيل المصافحة، ولو أنها مدت يدها إليك، فليس من تطبيق الشرع أن تصافح امرأة أجنبية، أو ليست من ذوات محارمك، هذا توجيه آخر، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يمس الرجل امرأة بيده ليست من محارمه.

التوجيه الثالث: النهي عن سفر المرأة من دون محرَم:

الآن السفر، كما صرح به الفقهاء، السفر خلوة، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام نهى المرأة أن تسافر وحدها، أو أن تسافر مع رجل ليس من محارمها، فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تُسَافِرْ الْمَرْأَةُ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ، وَلَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا رَجُلٌ إِلَّا وَمَعَهَا مَحْرَمٌ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَخْرُجَ فِي جَيْشِ كَذَا وَكَذَا، وَامْرَأَتِي تُرِيدُ الْحَجّ، فَقَالَ: اخْرُجْ مَعَهَا))

[البخاري، مسلم]

فالسفر مطلق السفر، ومنه الحج، فلا يجوز للمرأة أن تحج، ولا أن تسافر إلا مع زوج، أو ذي محرم، لأن السفر خلوة، هذا هو التوجيه الثالث.

التوجيه الأول: هو النهي عن الخلوة.

والتوجيه الثاني: نهى أن تمس يد امرأة لا تحل لك.

والتوجيه الثالث: نهى عن سفر المرأة إلا مع زوج أو محرم.

التوجيه الرابع: النـهي عن الاختلاط بين الرجال والنساء:

فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الاختلاط بين الرجال والنساء، لِما فيه من الفساد، فساد ذات البين، وفساد الدين، فالنبي عليه الصلاة والسلام أعفى النساء من وجوب تأدية صلاة الجمعة، لماذا أعفاهن من ذلك ؟ كي لا يختلطن بالرجال، ولماذا أعفاهن من صلاة الجماعة مطلقا ؟ أيضا كي لا يختلطن بالرجال، ولماذا منعت النساء من زيارة القبور، وقد رآهن النبي فعَنِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ:

((خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا نِسْوَةٌ جُلُوسٌ قَالَ: مَا يُجْلِسُكُنَّ، قُلْنَ: نَنْتَظِرُ الْجِنَازَةَ، قَالَ: هَلْ تَغْسِلْنَ ؟ قُلْنَ: لا، قَالَ: هَلْ تَحْمِلْنَ ؟ قُلْنَ: لا، قَالَ: هَلْ تُدْلِينَ فِيمَنْ يُدْلِي ؟ قُلْنَ: لا، قَالَ: فَارْجِعْنَ مَأْزُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ))

[ابن ماجه]

لأن المرأة إذا ذهبت إلى المقبرة لتزور قبر زوجها، أو أخيها، أو ابنها، وكانت متبرجة، ولم تكن متحصنة بحجاب يمنع أن تظهر مفاتنها، وربما كان صوتها عورة، وبكاؤها عورة، ونشيجها عورة، وما إلى ذلك، لذلك انطلاقا من أن اختلاط الرجال بالنساء يسبب فساد ذات البين، وفساد الدين لم تجب عليها صلاة الجمعة، ولا صلاة الجماعة.

شيء آخر، إلى الآن في المسجد النبوي الشريف باب للنساء، هذا الباب الذي كتب عليه باب النساء هو قديم جدا، لذلك ورد أن سيدنا عمر نهى الرجال في عهده أن يدخلوا باب النساء لئلا يختلطوا بهن، وإلى اليوم في أثناء الحج والعمرة التي أكرمني الله بهما رأيت النساء في هذا المسجد النبوي الشريف في حيز مستقل عن حيز الرجال، تنفيذا لهذا التوجيه الكريم، فلو صلى النساء مع الرجال فرضاً في مسجد فقد وجّه النبي عليه الصلاة والسلام إلى أن خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها، بينما خير صفوف النساء آخرها وشرها أولها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا، وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا، وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا))

[مسلم، الترمذي، النسائي، ابن ماجه]

لأن أولها قد يقترب من صفوف الرجال، هذا توجيه آخر في النهي عن الاختلاط.

التوجيه الخامس: عدم ملء النساء وسط الطريق ومزاحمة الرجال:

والنبي عليه الصلاة والسلام له توجيه عندما رأى النساء يحققن الطريق، أي يملأن الطريق، فعَنْ حَمْزَةَ بْنِ أَبِي أُسَيْدٍ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ وَهُوَ خَارِجٌ مِنْ الْمَسْجِدِ فَاخْتَلَطَ الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ فِي الطَّرِيقِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلنِّسَاءِ:

((اسْتَأْخِرْنَ، فَإِنّهُ لَيْسَ لَكُنّ أنْ تَحْقُقْنَ الطّرِيقَ، عَلَيْكُنّ بِحَافَاتِ الطّرِيقِ، فَكَانَتْ الْمَرْأَةُ تَلْتَصِقُ بِالْجِدَارِ، حَتّى إِنّ ثَوْبَهَا لَيَتَعَلّقُ بِالْجِدَارِ مِنْ لُصُوقِهَا بِهِ))

[أبو داود، الطبراني في الكبير]

أي لا ينبغي للمرأة أن تزاحم الرجال، وكلكم يعلم كيف أنّ ابنتي سيدنا شعيب عليه السلام، وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كانتا واقفتين في زاوية، فسألهما موسى عليه السلام عن السبب، قال تعالى:

(وَلَمّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمّةً مِنْ النّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتّى يُصْدِرَ الرّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

[القصص: 23]

إنّ المرأة المسلمة الشريفة الطاهرة لا تزاحم الرجال، فإذا أرادت أن تصعد إلى مركبة مكتظة يجب أن تقف وقتا طويلا كي تنتظر مركبة لا تزاحم فيها الرجال، لأن ملاصقة أو ازدحام أو تداخل النساء والرجال هذا مما لا يرضى عنه الشرع.

هذه بعض التوجيهات التي وجهها النبي عليه الصلاة والسلام في شأن العلاقة بين النساء والرجال، و العلماء يقولون: إذا كان الإسلام لا يسمح بالاختلاط في العبادة كالصلاة فلو حاذت المرأة الرجال في الصلاة فالصلاة كلها فاسدة، لأن الإنسان قد ينشغل عن الصلاة بشيء آخر، فإن كان الإسلام قد نهى عن الاختلاط في العبادات فالأولى أن ينهى عن الاختلاط في غيرها، وهذا شيء بدهي جدا، إنه لم يرضَ بالاختلاط في العبادة فكيف في غير العبادة ؟!. والآية بعد هذه الآية:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

(سورة النور)

استنباطات من قوله: وَأَنْكِحُوا

الاستنباط الأول: توجيه الأمر بالتزويج على الذكور:

كلمة:

(أَنْكِحُوا)

بمعنى زوّجوا، وهذا الأمر الإلهي موجه إلى جماعة الذكور.

الاستنباط الثاني: توجيه الأمر بالتزويج إلى أولي الأمر:

بعض العلماء قال: هذا الأمر موجه إلى الأمة كلها.

(أنْكِحُوا الأيَامَى)

الاستنباط الثالث: توجيه الأمر بالتزويج وأولياء الحرائر والعبيد:

وبعضهم قال: هذا الأمر موجه إلى أولياء الأحرار والحرائر، وإلى سادة العبيد والإماء، إما فأن يوجه الأمر إلى الأمة بكاملها، فهذا يعني أنه موجه إلى من يمثلون هذه الأمة، وهم أولو الأمر، لذلك الحدود التي وجه الأمر بها إلى جماعة الذكور، أي إلى كل الأمة هي في الأساس موجهة إلى من يمثل الأمة، وهم أولو الأمر، لذلك إقامة الحدود ليست على آحاد المسلمين، ولذلك هذه الآية تحمل على الآيات السابقة من حيث إن الله سبحانه وتعالى يوجه الأمر إلى جماعة المؤمنين، أو إلى الأمة كلها، بل إلى أولي الأمر الذين يمثلون الأمة في تطبيق أحكام الشرع.

لذلك فـ:

(أنْكِحُوا)

أمر موجه إلى أولي الأمر أن يُنْكِحوا.

(الأيَامَى)

مَن هم الأيَامَى ؟

الأيّم مَن لا زوج له، ذكراً كان أم أنثى، عازباً كان أم متزوجا، أيْ أيّ رجل لا زوجة له، أو أية امرأة لا زوج لها، أيّ شاب أعزب لا زوجة له، أو أيّ رجل غائب، أو افترق عن زوجته لسبب أو آخر، فهو الآن لا زوجة له.

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

هذا أمر موجه إلى أولي الأمر، وقد فهم العلماء هذا الأمر أنه على أولي الأمر أن ييسروا سبل الزواج، فتأمين المساكن هو تنفيذ لهذا الأمر، وتأمين الحاجات الأساسية للمتزوجين هو تنفيذ لهذا الأمر:

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

الزواج سنة الله في خَلقِه:

(الْأَيَامَى)

جمع، مفرده أيّم، والأيّم من لا زوج له، ذكراً أم أنثى، عازباً أم متزوجًا، لأن الزواج سنة الله سبحانه وتعالى، وقد بلغ النبي مرة أن بعض أصحابه أزمعوا أن ينصرفوا عن الدنيا، فعَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ:

((جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ، وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[البخاري]

وفي رواية مسلم عَنْ أَنَس:

((أَنَّ نَفَرًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ عَمَلِهِ فِي السِّرِّ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللَّحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا ؟ لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[مسلم]

لأن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الزوجين الذكر والأنثى كان من نتائج هذا الخلق الزواج، قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الروم: الآية 21)

الأمر بالزواج للندب:

توجيه القرآن الكريم، وتوجيه النبي عليه الصلاة والسلام يدعونا جميعا إلى الزواج، فالزواج سنة من سنن النبي، لذلك جاء الأمر هنا:

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

ولكن العلماء حملوا هذا الأمر على الندب، فعندنا أمر يقتضي الوجوب، وعندنا أمر للندب، وعندنا أمر للإباحة، وعندنا أمر للتهديد.

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ)

هذا أمر للوجوب، أما:

(وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا)

[الكهف: من الآية 29]

فكلمة:

(فَلْيَكْفُرْ)

هذا أمر، ولام الأمر مضافة للفعل المضارع، فكأنه فعل أمر، فهل هذا الأمر للوجوب ؟ لا، ولكنه أمر تهديد، كأن تقول لمن يخالف توجيهاتك: افعل هذا إن شئت، افعل، وانتظر ما سيكون، هل تقول له: افعل من أجل أن يفعل ؟ بل كي لا يفعل، إنك تأمره على طريقة التهديد، فالأمر أحيانا يقتضي التهديد، وأحيانا يقتضي الإباحة، قال تعالى:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ)

(سورة البقرة: من الآية 187)

إذا لم يأكل الإنسان في ليلة رمضان فهو لم يخالف، ولأن هذا أمر إباحة، وعندنا أمر وجوب:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ)

(سورة البقرة: الآية 43)

وهذا أمر وجوب، وهناك ندب، هناك ظروف معقدة قد يكون الإنسان عازفًا عن الزواج، أو ليس بإمكانه الزواج، أو لديه مانع عن الزواج، فهذا أمر ندب في أصح أقوال العلماء.

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

فإذا وجهنا هذا الآية إلى أولي الأمر، كان المعنى أن ييسروا سبل الزواج، وإذا وجهت هذه الآية إلى أولياء الفتيات، وأولياء الفتيان، وإلى سادة العبيد والإماء، فهذا الأمر يعني على الأب أن يزوج ابنه إن كان قادرا على إعانته فليفعل، وعلى الأب ألاّ يرد خاطبا فيه صلاح في دينه وخلقه، ولذلك عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[الترمذي(1084)، ابن ماجه(1967)]

فالأمر أيضا موجه إلى أولياء الحرائر من الشباب والشابات، وإلى سادة العبيد.

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

وكلمة:

(مِنْكُمْ)

تعني أن هؤلاء موجهة إلى الأحرار، ومن كن في هذه المرتبة من النساء موجه أيضا إلى من كن في طور العبودية من العبيد والإماء.

تسلسل الآيات: حد الزنا – الملاعنة – حديث الإفك – الاستئذان – غض البصر – النكاح

الذي يلفت النظر أن الله سبحانه وتعالى بعد أن حدثنا عن الزنى في أول سورة النور، وبعد أن حدثنا عن أحكام عقوبة الزاني، وحد الزنى، وبعد أن حدثنا عن الملاعنة، وبعد أن حدثنا عن حديث الإفك، وبعد أن وجهنا إلى خطر الخلوة، وآداب الاستئذان، وغض البصر، وإظهار الزينة، بعد كل هذه الموضوعات يأمرنا الله سبحانه وتعالى أن ننكح الأيامى، فما العبرة المستفادة من أن تأتي هذه الآية في هذا الموضع ؟ قال العلماء: إنّ العبرة أن كل شيء نهى الله عنه له في الإسلام بديل، فالله سبحانه وتعالى حين نهى عن الربا أحل البيع، وحين نهى عن الخمر وشربها أحل عشرات بل مئات الأشربة التي سمح لنا بشربها، وحينما نهى عن السفاح سمح بالنكاح، وحين نهى عن أكل لحم الخنزير سمح بأكل لحم الأنعام، فأي شيء حرمه الله عز وجل له بديل طيب، وكل شيء حرمه الله في الإسلام له بدائل، وقد استنبط بعض العلماء من قوله تعالى:

(وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ)

(سورة البقرة: من الآية 35)

فالمنهي عنه محدود جدا، والمباح كثير جدا، وعدد الأشربة التي سمح للإنسان بشربها لا تعد ولا تحصى، ولكن الله نهى عن الخمر، لأنها تذهب العقل، فحينما نهانا عن الزنى، وقذف المحصنات، وحد الحدود، وأقام الموانع، ومنع الخلوة، هذه الموضوعات كلها انتهت بقوله تعالى:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

فالأمر موجه إلى أولي الأمر، لأنهم يمثلون الأمة، لأن الأمر جاء بصيغة جماعة الذكور.

حقّ على الله إعانةُ الناكح المريدَ للعفاف:

وشيء آخر ؛ من كانت الناحية المادية عقبة أمام تزويج ابنه أو ابنته فليس منا، والدليل أن الله سبحانه وتعالى تكفل لمن يطلب النكاح من أجل العفة أن يعينه، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثلاثة حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلّ عَوْنُهُمُ، الْمُكَاتَبُ الّذِي يُرِيدُ الأدَاءَ وَالنّاكِحُ الّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ وَالْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللّهِ))

[الترمذي، النسائي]

وقد تسمعون آلاف القصص حول هذا الموضوع، شاب ليس في يديه شيء، ولكنه آثر الزواج إحصانا لنفسه، نرى أن الله سبحانه وتعالى سهل له كل أمر، وذلل له كل المصاعب، وجعل كل شيء يهون أمامه، لذلك الدعاء الشريف:

((اللّهُمّ لاَ سَهْلَ إلاّ مَا جَعَلْتَهُ سَهْلاً))

[صحيح ابن حبان عن أنس]

ويقول الله سبحانه وتعالى:

(فَأَمّا مَنْ أَعْطَى وَاتّقَى (5) وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْيُسْرَى (7))

(سورة الليل: الآيات 5-7)

فالتيسير والتعسير لهما أسباب:

(فَأَمّا مَنْ أَعْطَى وَاتّقَى (5) وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْعُسْرَى (10))

(سورة الليل: الآيات 5-10)

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

والأيامى كما قلنا قبل قليل مَن لا زوج له، ذكراً أم أنثى، عازباً كان أم متزوجاً.

معنى الصلاح في قوله: وَالصّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ

الصالحين يعني أن هؤلاء يصلحون للنكاح، من حيث القدرة والسن، من حيث القدرة الجسدية، ومن حيث النضج الاجتماعي، ومن حيث التمكن الاقتصادي، ومن حيث صلاح الدين، أي أن يصلح سنه، ودخله، ودينه، لذلك الزواج كما قيل رقّ، فلينظر أحدكم أين يضع كريمته، لذلك لابد من صلاح الزوج والزوجة، وعلى أولياء الأمور أن يربّوا أولادهم وبناتهم تربية يصلحون معها للزواج، فقد تعلم البنت كل شيء إلا حقوق الزوج، وإلا إدارة البيت، فهذه الزوجة يمكن أن تكون متحذلقة، ولكنها ليست ربة بيت مثالية، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصّالِحِينَ)

قال العلماء: **" صلاح الدين، أو صلاح الأهلية، أي هل هذا الإنسان أهل للزواج "**، قد تسمع بإنسان تزوج في سن مبكرة، وهو غير ناضج، وغير متفقه في الدين، ويحلف بالطلاق لأتفه الأسباب، ويقع في الحرام، ويحتاج لمن يفتي له، ويدخل في دوامة لا نهاية لها، فهذا الشاب غير الناضج اجتماعيا، وغير

الناضج دينيا ليس أهلا لأن يقود امرأة، وأن تقود امرأة إلى جادة الصواب شيء يحتاج إلى الحنكة، والصبر، والتروي، فربنا سبحانه وتعالى أشار في هذه الكلمة إلى الصلاح والأهلية.

هل هذا الشاب أهل لأن يدير بيتاً ؟ هل هو أهل لأن تكون في حوزته امرأة ؟ هل يستطيع هذا الشاب أن يلبي حاجات هذه الزوجة ؟ هل هذا الشاب أهل لأن يؤسس أسرة ؟ هل يستطيع أن يقود أفرادها إلى شاطئ الأمان.

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

لم يقل: والصالحين والصالحات، هذا كما قلنا: مِن قبل التغليب، والتغليب أن يغلب حكم الذكور على حكم النساء، أي يجب أن يكون من عبادكم، أي من العبيد الذين فقدوا حريتهم نتيجة الفتوحات الإسلامية، وإمائكم أيضا، وهن النساء اللاتي يقعن أسيرات في الفتوحات الإسلامية.

الزواج حلّ لمشكلة الإعسار:

(إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

وكأن الزواج يحل مشكلة الإعسار، وكأن الله سبحانه وتعالى يوجهنا إلى أنه لا ينبغي أن يكون الفقر مانعاً من تزويج بناتنا لمن هم أهل لهذا الزواج، هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[الترمذي، ابن ماجه]

(إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

وكما ورد في بعض الأحاديث:

((مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً بِعِزِّهَا لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلاَّ ذُلاًّ، وَمَنْ تَزَوَّجَ الْمَرْأَةَ لِمَالِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلاَّ فَقْرًا، وَمَنْ تَزَوَّجَ الْمَرْأَةَ لِحَسَبِهَا لَمْ يَزِدْهُ اللَّهُ إِلاَّ دَنَاءَةً، وَمَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً لَمْ يَتَزَوَّجْهَا إِلاَّ لِيَغُضَّ بَصَرَهُ، أَوْ لِيُحَصِّنَ فَرْجَهُ، أَوْ يَصِلَ رَحِمَهُ بَارَكَ اللَّهُ لَهُ فِيهَا، وَبَارَكَ لَهَا فِيهِ))

[الطبراني في الأوسط عن أنس]

ويقول عليه الصلاة والسلام تنفيذا لهذه الآية:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

الحث على مساعدة الشباب في الزواج والشفاعة لهم فيه:

((مَنْ مَشَى فِي تَزْوِيج رَجُلٍ حَلاَلاً حَتَّى يَجْمَعَ بَيْنَهُمَا رَزَقَهُ اللَّهُ أَلْفَ امْرَأَةٍ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، كُلُّ امْرَأَةٍ فِي قَصْرٍ مِنْ دُرٍّ وَيَاقُوتٍ، وَكَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ خَطَاهَا أَوْ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا فِي ذَلِكَ عِبَادَةُ سَنَةٍ، قِيَامُ لَيْلِهَا، وَصِيَامُ نَهَارِهَا))

[(مسند الحارث/زوائد الهيثمي(317/1)]

قد يكون الإنسان مقصراً في حق نفسه، فيجب أن تسعى في تزويج شاب مؤمن بشابة مؤمنة، هذا السعي من أفضل الشفاعات، أن تشفع بين اثنين في نكاح، ولكن عامة الناس الجهلة يقولون كما تعلمون هذا القول الذي لا يليق بالمؤمن بالبعدِ عن الوساطة في الزواج، أما النبي عليه الصلاة والسلام فيقول:

((مَنْ مَشَى فِي تَزْوِيج رَجُلٍ حَلاَلاً حَتَّى يَجْمَعَ بَيْنَهُمَا رَزَقَهُ اللَّهُ أَلْفَ امْرَأَةٍ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، كُلُّ امْرَأَةٍ فِي قَصْرٍ مِنْ دُرٍّ وَيَاقُوتٍ، وَكَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ خَطَاهَا أَوْ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا فِي ذَلِكَ عِبَادَةُ سَنَةٍ، قِيَامُ لَيْلِهَا، وَصِيَامُ نَهَارِهَا))

وكأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية وعد المتزوج الفقير بالغنى:

(إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

بمعنى ألاّ يكون الفقر مانعاً لكم من تزويج فتياتكم أو شبابكم، ومعنى آخر: أيها المتزوج إذا كنت فقيرا لا تجد ما تتزوج به فلعل الله سبحانه وتعالى يغنيك، ثم يأتي قوله تعالى:

(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النور)

معاني: لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا

كلمة:

(لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا)

فسرها العلماء على وجهين:

المعنى الأول: لا يجدون الزوجة الصالحة:

إما أنه لم يجد الزوجة الصالحة.

المعنى الثاني: لا يجدون أسباب الزواج:

أو أنه لا يجد أسباب الزواج، فإن كان لا يجد أسباب الزواج، وهو الفقر ففي الحديث عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ))

[البخاري(1806)، مسلم(1400) وغيرهما]

فالذي لا يجد نكاحا، لا يملك المسكن، ولا يملك المال فهذا لا يجد أسباب النكاح، فعليه أن يستعفف حتى يغنيه الله من فضله، أي حتى يفتح الله عليه رزقا حسنا يمكنه من الزواج، وإذا فهمت معنى:

(وَلْيَسْتَعْفِفْ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا)

أي أنك لا تجد الزوجة المناسبة، وحسن اختيار الزوجة شيء مهم جدا، وقد ورد في بعض الأثر أن تزوجوا ولا تطلقوا، فكيف يأتي النص بالنهي عن الطلاق مع أن الله سبحانه وتعالى قال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ)

(سورة الطلاق: من الآية 1)

الزواج نعمة فاحذروا الطلاق !!!

إن القرآن الكريم أباح الطلاق فكيف يأتي هذا الأثر أن تزوجوا ولا تطلقوا، حمله بعضهم على أن الإنسان إذا تزوج عليه أن يبحث عن زوجة لا يحتاج معها إلى الطلاق، أي يجب أن يبحث بحثا جيدا، لذلك للأبناء على الآباء حقوقاً ؛ أولها حسن اختيار أمهم، فاختيار الزوجة شيء مهم جدا، قال عليه الصلاة والسلام:

((إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ، قَالُوا: وَمَا خَضْرَاءُ الدِّمَنِ ؟ قَالَ: الْمَرْأَةُ الْحَسْنَاءُ فِي الْمَنْبَتِ السُّوءِ))

[مسند الشهاب للقضاعي عن أبي سعيد الخدري]

فالذي يتسرع في اتخاذ قرار بشأن زواجه ربما عض أصابعه ندماً، وربما اضطر إلى الطلاق، واضطر إلى تشريد أسرة، فالبحث عن المرأة الصالحة يجب أن يكون بحثا مستفيضا، ودقيقا، واسأل، وتحقق، وابحث، وتأمل، ثم قل: وافقت، أم لم أوافق.

شيء آخر ؛ بعض السلف الصالح كانوا من الكمال حيث إن الزوجة الصالحة هي أثمن ما في الدنيا.

يروى أن رجلا لقي شريحا، فقال: **" يا شريح كيف حالك في بيتك ؟ قال: والله منذ عشرين عاما لم أجد ما يعكر صفائي، أو ينغص حياتي، فقال: وكيف ذلك يا شريح ؟ قال: خطبت امرأة من أسرة صالحة، فلما كان يوم الزواج - يوم الزفاف - وجدت صلاحا وكمالا، فركعت ركعتين شكراً لله على**

نعمة الزوجة الصالحة، فلما سلمت رأيت زوجتي تصلي بصلاتي، وتسلم بسلامي، وتشكر بشكري، فلما دنوت منها قالت: على رسلك يا أبا أمية، إنني امرأة غريبة، لا أعرف ما تحب، ولا أعرف ما تكره، فقل لي ما تحب حتى آتيه، وما تكره حتى أجتنبه، ويا أبا أمية، لقد كان لك من نساء قومك من هي كفء لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي، ولكن كنت لك زوجة على كتاب الله، وسنة رسوله، ليقضي الله أمرا كان مفعولا، فاتق الله فيّ، وامتثل قوله تعالى:

(إِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

قال: ثم قعدت، فألجأتني إلى الخطبة فقلت: أما بعد ؛ فقد قلت كلاماً إن تصدقي فيه، وتثبتي عليه يكن لك ذخراً وأجراً، وإن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وكذا، وأكره كذا وكذا، وما وجدت من حسنة فانشريها، وما وجدت من سيئة فاستريها)، وفي الأثر: **" إني أكره المرأة تخرج من بيتها تشتكي على زوجها".**

فالنبي الكريم يكرهها، حتى إنّ بعض الفقهاء يقول: لا ينبغي للمرأة التي أعسر زوجها أن تطالب بفسخ العقد بينها وبينه لعلة الإعسار، لأن الله يقول:

(إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

إن كان بدء الزواج من الفقر فلأن يستمر به من باب أولى، وقال: وما وجدت من حسنة فانشريها، وما وجدت من سيئة فاستريها، قالت: كيف نزور أهلي وأهلك ؟ قال نزورهم غبّا، مع انقطاع بين الحين والحين، كي لا يملونا، فقد قالوا: **"زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا "**، قالت: ومن من الجيران تحب حتى أسمح لهن بدخول بيتك ؟ ومن منهم لا تحب حتى لا أسمح لهن بدخول البيت، قال: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم غير ذلك، وقال شريح، ومضى علي عام عدت فيه إلى البيت، ووجدت أم زوجتي عندنا، فعلمت من ابنتها أنها في أهنأ حال، وقالت يا أبا أمية كيف وجدت زوجتك ؟ قال: والله هي خير زوجة، قالت يا أبا أمية: **ما أوتي الرجال شر من المرأة المدللة فوق الحدود، فأدب ما شئت أن تؤدب، وهذب ما شئت أن تهذب، ثم التفتت إلى ابنتها تأمرها بحسن السمع والطاعة ".**

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ))

[مسلم، ابن ماجه، أحمد]

مَن هي المرأة الصالحة ؟ هي التي إذا أمرتها أطاعتك، وإذا نظرت إليها سرتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك، فالأمر الإلهي:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

أما هؤلاء الذين لا يجدون أسباب الزواج ؛ من مسكن، أو مال، أو لا يجدون الزوجة المناسبة، فهؤلاء أمرهم الله سبحانه وتعالى بالاستعفاف، والاستعفاف هو المبالغة في طلب العفة، فعلى هؤلاء المبالغة في غض أبصارهم، وفي البعد عن أماكن الشبهات، وفي صحبة أهل الدنيا، والاستماع إلى ما يبث في نفوسهم من الرغبة في الزواج، فعليهم أن يستعففوا.

(وَلْيَسْتَعْفِفْ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا)

أي أسباب النكاح، أو المرأة المناسبة.

(حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

وفي درس قادم إن شاء الله تعالى تأتي الآية الكريمة:

(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآَتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آَتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النور)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (12-23): تفسير الآيتان 33 – 34
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-12-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة الأكارم، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النور)

معاني قوله: وَأَنْكِحُوا

هذه الآيات سبقتها آية كريمة، هي قوله تعالى:

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

وفعل:

(أَنكِحُوا)

فعل أمر، والأمر في القرآن على أنواع كما ذكرت في الدرس الماضي، هناك أمر يقتضي الوجوب، وهناك أمر مندوب، وهناك أمر إباحة، وهناك أمر تهديد، فما هو نوع هذا الأمر يا ترى ؟

ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا الأمر أمر ندب.

حُكْمُ الزواج وحالاتُه:

ولكن للفقهاء في أمر الزواج أحكام خمسة: فالزواج عند بعض الفقهاء واجب، ومستحب، ومباح، ومكروه، ومحرم.

هناك حالات يجب الزواج فيها، وفي حالات أخرى يكون الزواج مندوبا ومستحبا، وفي حالات أخرى مباحا تستوي دواعيه وموانعه، وفي حالة رابعة يكون الزواج مكروها، وفي حالة خامسة يكون الزواج محرما .

أردنا التفصيل في أحكام الزواج، لأن الآية الكريمة:

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

هذا أمر يقتضي الندب.

الحالة الأولى: الوجوب:

قال العلماء: **" يجب الزواج على من قدر عليه "** أي يملك من السكن، والإنفاق على الزوجة، فيجب الزواج على من قدر عليه، وتاقت نفسه إليه، وخشي العنت - أي الزنى - فهذا في حقه واجب، وهو مقدم على الحج، من كان معه مبلغ من المال يكفيه لأداء فريضة الحج أو للزواج، وتاقت نفسه للزواج، وخشي على نفسه العنت - أي الزنا - فالزواج في حقه واجب، ويرتقي الزواج من حكم الندب إلى حكم الوجوب إذا كان هناك قدرة عليه، وتوق إليه - شهوة له - وخوف من الزنى.

الحالة الأولى: الوجوب:

أما من تاقت نفسه إليه، ولم يقدر عليه، ولم يملك مسكنًا أو قدرة على الإنفاق فهذا ينطبق عليه قوله تعالى:

(وَلْيَسْتَعْفِفْ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

وفي الحديث عَنْ عَلْقَمَةَ قَالَ بَيْنَا أَنَا أَمْشِي مَعَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ))

[البخاري(1806)، مسلم(1400) وغيرهما]

هذه الحالة الأولى ؛ حالة الزواج الواجبة.

الحالة الثانية: الندب والاستحباب:

أما من تاقت نفسه إلى الزواج، وقدر عليه، ولكن لا يخشى الزنا، فهذا الزواج في حقه مندوب ومستحب، والعلماء يقولون: الزواج في الحالة الأولى أولى من التخلي للعبادة، لأنه لا رهبانية في الإسلام، فإن تاقت نفسه إليه، وقدر عليه، ولا يخشى الزنى، فهنا الزواج مندوب ومستحب، وكأن هذه الآية تشير إلى هذا المعنى، وهذا المعنى يسع معظم المسلمين، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما تؤتى عزائمه.

الحالة الثالثة: الإباحة:

وفي حالة ثالثة يكون الزواج مباحا، ومعنى كونه مباحا أي تستوي دواعيه وموانعه، فإن تاقت نفسه إليه، ولم يقدر عليه فلابد له أن يبحث عن حل لهذه المشكلة.

الحالة الرابعة: الكراهة:

أما الزواج المكروه فهو من أخل بحقوق الزوجة من دون أن يقع بها الضرر، فالزواج في حق هذا الإنسان مكروه، لأنه لو تزوج امرأة غنية، فلو قتر في الإنفاق عليها أكلت من مالها.

لو تزوج امرأة لا تشتهي الزواج أصلا، فلو قصر في حقها من النواحي الأخرى لا يخشى عليها الزنى، وهذا الزواج عند الفقهاء مكروه، لأن فيه إخلالاً بحق الزوجة، والزوجة لها حقان ؛ حق الإنفاق عليها، وحق في تلبية حاجتها من الزواج، فمن أخل بحقوق الزوجة، ولم يوقع بها الضرر فالزواج في حقه مكروه.

الحالة الخامسة: الإباحة:

أما الزواج المحرم ؛ فالذي يخل بحقوق الزوجة، ويوقع بها الضرر، فيحرمها من حاجتها الأساسية، ولا ينفق عليها، وربما ألجألها هذا الحرمان المادي وغير المادي إلى أن تزني، فهذا الزواج محرم، فإذاً قوله تعالى:

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ)

هذا أمر في مجمله محمول على الندب، وللفقهاء تفريعات متعلقة بشأن الزواج، كأن يكون الزواج واجبا، أو مندوبا، أو مباحا، أو مكروها، أو محرما.

الحكمة مِن ورود آيات النكاح بعد آيات الزنى:

شيء آخر ؛ من حكمة ورود هذه الآية عقب آيات الزنى، أن الله سبحانه وتعالى جعل لكل شيء نهى عنه بديلاً مباحاً، فإذا حرم الله الزنى، وحد الحدود فقد أباح الزواج، وندب إليه، وجعله واجباً في بعض الحالات، ومكروهاً في حالات أخرى.

إذًا:

(وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى)

لو كان الأمرُ موجهاً إلى الأزواج، أو الفتيان والفتيات لقال: وانكحوا، وفرق كبير بين انكَحُوا، وقوله:

(أنكِحُوا)

قوله: أنكِحُوا معنى هذا أن الخطاب موجه إلى أولياء الفتيات والفتيان، وهذه الآية التي تتعلق بحكم الزواج بين واجب، ومستحب، ومباح، ومكروه، ومحرم. وأما قوله تعالى:

حُكم المكاتبة ومعناها وشروطها:

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآَتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آَتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

فإن المعنى أن هؤلاء الذين يبتغون الكتاب، والكتاب أي المكاتبة، مثل العتاب والمعاتبة، الجهاد والمجاهدة، ما هي المكاتبة ؟ المكاتبة أن يقول السيد لعبده: جعلت عتقك مكتوباً على نفسي، أي واجباً على نفسي بمالٍ، هو كذا وكذا، تؤديه في نجوم، أي على أقساط، وهذا الكلام ينقلنا إلى موضوع دقيق، هو أن الله أمر المسلمين أن ينشروا الحق في الآفاق، فبادئ ذي بدء المسلمون بعد أن جعلهم الله سبحانه وتعالى أمة وسطا تنشر الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، أمرهم أن يبلغوا هذه الرسالة السماوية، فمرحلة أولى أنّ هؤلاء عليهم أن يدعو الأقوام المجاورة إلى الإسلام، فإن أسلموا قضي الأمر، وإن لم يسلموا فعليهم أن يدعوهم إلى الخيار، أن يدفعوا الجزية، ويبقوا على دينهم، لأنه لا إكراه في الدين، ولكن هذا المشرك، أو هذا الفاسق، أو هذا الإنسان غير المسلم لا يحق له أن ينشر الفساد في الأرض، فله أن يبقى على دينه، وأن يمارس شعائره من دون أن يفسد في الأرض، وهو معفى من الجهاد، لأن الجهاد يحتاج إلى عقيدة صحيحة، لذلك تؤخذ منه الجزية كبدل نقدي، فإن أبى هذا الكافر أن يسلم، وأبى أن يدفع الجزية يكون الآن القتال الذي شرع في الأصل لنشر الدعوة الإسلامية، هذا الذي يُقاتل ليس القصد أن يُقتل، ولكن القصد أن يهتدي، فإذا وقع أسيرا فقد حريته، وهذه الحرية يفقدها ليهتدي، يعني يكون مع مسلم من أولئك الذين ملأ الإسلام قلوبهم، ويعامله معاملة يميل قلبه بها، فإذا أسلم، واهتدى فهو أخ في الدين، عندما يسلم هذا العبد من خلال المعاملة فقط، ومن خلال الإحسان، والنبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نطعمهم مما نأكل، ونلبسهم مما نلبس، وألا نكلفهم ما لا يطيقون، عندها يرى هذا الإنسان معاملة المسلم الراقية، فلربما مال قلبه للإسلام، وأسلم، فإذا أسلم تأتي هذه الآية الكريمة:

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ)

فكأن الله سبحانه وتعالى يأمر هؤلاء السادة أن يعينوا هؤلاء على نيل حريتهم، وعلى الزواج الذي هو شرعة الله في الأرض.

(وَالّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ)

أي على السيد أن يتفق مع هذا العبد على المكاتبة، على أن يدفع العبد للسيد مبلغًا محددًا في مدة محددة، بعدها يملك حريته، ولكن الشرط الذي حدده الله في هذه الآية:

(إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا)

ما هو الخير المقصود في قوله: إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا

المعنى الأول: الأمانة:

فما هو الخير ؟ قالوا: الأمانة، الخير الذي يجب أن يعلم فيهم الأمانة.

المعنى الثاني: القدرة على كسب المال:

وقال بعضهم: الخير الذي يجب أن يعلم فيهم القدرة على كسب المال.

المعنى الثالث: الصلاح في الدِّين:

وقال البعض الآخر: هو الصلاح في الدين، فإن علمتم فيهم خيرا ؛ القدرة على كسب المال، والأمانة، والصلاح في الدين.

المعنى الرابع: المال والحرفة:

شيء آخر ؛ قال بعضهم: المال والحرفة، فإذا كان هذا العبد يتقن حرفة ما بإمكانه أن يكسب المال، فله أن يشتري بهذا المال حريته بعد أن صح إسلامه، وصحت أمانته، وصح صدقه، وأتقن حرفته، وكان قادرا على كسب الرزق.

المال، والحرفة، والوفاء، والصدق، والأمانة هذه شروط أخرى وضعها بعض العلماء لتفسير قوله تعالى:

(وَالّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا)

هذا العبد إذا فقد حريته، وأراد أن يستعيدها، وكان قد بلغ من الصلاح والإيمان مبلغا مقبولا فعلى سيده أن يسهل هذا الطلب له، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ)

أي اتفقوا معهم، اعقدوا معه عقدا يوضح فيه المبلغ، وطريقة أدائه من أجل أن يكون هذا العبد قادرا على ممارسة حقوقه الدينية، والحقوق التي شرعها الله له.

معاني: وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ

هذا القول يحمل معاني عدة.

المعنى الأول: الإعفاء من بعض المال:

أن تعفيه من بعض المال الذي اتفقت معه على أدائه، فلو اتفقت معه على أداء عشرة آلاف، ثم خفضت عليه هذا المبلغ، أو حططت من هذا المبلغ جزءا فهذا نوع من المساعدة.

(وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ)

المعنى الثاني: استثمار المال عنده:

إذا كان هذا العبد صاحب حرفة، ولا يملك المال الكافي لشراء حانوت، أو أدوات، وآلات، ويمكن أن تعطيه مالا تستثمره عن طريقه، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ)

المعنى الثالث: وجوب فكّ الرقاب من أموال الزكاة:

أنه تجب أن تفك الرقاب من أموال الزكاة، فأموال الزكاة من جملة المصارف التي شرعها الله لها أن تعتق العبيد، وأن تعين هذا العبد على نيل حريته بدفع مبلغ لسيده:

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا)

عدم جواز محاربة الكافر إذا دفع الجزية:

هذا الموضوع ينقلنا إلى أنه لا يجوز محاربة الكافر إلا إذا رفض أن يدفع الجزية، وهي البدل النقدي

مقابل إعفائه من الجهاد، أو رفض أن يسلم في الأصل، فأهل سمرقند ربما فتحت بلادهم حرباً من دون عرض الإسلام، أو عرض الجزية، فقد علم هؤلاء أن بلادهم فتحت بطريقة غير شرعية، ويروي التاريخ أنهم أرسلوا وفداً خفية إلى أمير المؤمنين سيدنا عمر بن عبد العزيز، وأطلعوه على حقيقة الأمر، فما كان منه إلا أن أرسل توجيهاً على قصاصة ورق صغيرة إلى قاضي سمرقند، يأمره أن يحكم بين أهالي سمرقند، وقائد الجيش الموكل بفتح هذه البلاد، وبعد محاكمة صغيرة أصدر قاضي المسلمين في سمرقند حكمه على الجيوش الإسلامية بأن تخرج من سمرقند، وتستعيد سمرقند ما كانت عليه من قبل، لأن هذا الفتح ليس صحيحا، ولابد من عرض الإسلام أولاً، ولابد من طلب الجزية ثانياً، فإذا أبوا هذا أو ذاك عندئذ يقاتلون، وبما أن هذا الجيش دخل سمرقند من دون عرض إسلام، أو عرض جزية كان دخوله إلى هذه البلاد غير شرعي، فما كان من القاضي إلا أن أمر قائد الجيش أن يخرج من سمرقند، فذهل هؤلاء، ولم يظنوا أن في الإسلام انضباطا إلى هذه الدرجة، ولم يظنوا أن في الإسلام رحمة إلى هذه الدرجة، ولم يظنوا أن في الإسلام عدلا إلى هذه الدرجة، فأسلموا جميعا، وانتهى الأمر، فهؤلاء:

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا)

شروط المكاتبة بين العبد وسيده:

هناك شرطان.

الشرط الأول: رغبة العبد في تحرير نفسه:

أن يكون العبد راغبا في تحرير نفسه.

الشرط الثاني: أهلية العبد لكسب المال:

أن يكون أهلا لكسب المال، أن يملك حرفة تعينه على كسب المال، أو أن يكون من الصدق، والأمانة، والوفاء الذي يمكنه أن يفي بهذا العقد المبرم بينه وبين سيده، وعلى كل هذه الموضوعات لا تعنينا كثيرا، لأنها ليست موجودة في هذه الأيام إطلاقا، وكأن الله سبحانه وتعالى في بعض الآيات ينبهنا إلى أن هذا الشيء في سبيل الانتهاء، فهو سبحانه وتعالى يقول:

(وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ)

[النساء: من الآية 92]

(أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ)

[المائدة: من الآية 89]

(فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (3) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ)

[المجادلة: 3-4]

أي فإن لم تجدوا رقبة تعتقونها، فلابد أن تأتي الأيام، وتنتهي هذه المشكلة.

حُكْمُ المكاتبة: الندب:

شيء آخر ؛ قال بعض العلماء: عندما قال الله تعالى:

(وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا)

على سبيل الوجوب، وجمهور العلماء على سبيل الندب، وبعض العلماء على سبيل الإباحة، يعني هذا السيد قد يجد أنه من المناسب أن يبقي هذا العبد لأسباب تمس صالح العبد نفسه.

مِن عادات الجاهلية: إكراه الفتيات على الزنى:

(وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

هذه الآية دقيقة جدا، فهي تنفي عادة جاهلية كانت سائدة قبل مجيء الإسلام، فكان لبعض الجاهليين إماء، وكانوا يكرهوهن على الزنى ليأخذوا منهن مالا كثيرا، وروى التاريخ عن رأس المنافقين عبد الله بن أبي سلول كان له ست جاريات، كان يكرههن على البغاء، أي على الزنا، من أجل أن يأخذ منهن أموالًا طائلة، فهذه عادة شنيعة قبيحة جاء الإسلام ليقضي عليها قضاء مبرما.

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُ)

والإكراه كما يقول عنه الفقهاء لا يسمى إكراها إلا إذا خاف الإنسان أن يفقد حياته كلها، أو يفقد أحد أعضائه، أو يفقد ماله كله، فحين يقول الفقهاء: **" الضرورات تبيح المحظورات "**، فالضرورات هي أن يغلب على ظنك أن هذا الذي يهددك يفعل ما يقول، وأنه يهددك بالموت، أو بفقد أحد الأعضاء، أو فقد المال كله، عندئذ فلا على الإنسان في هذه الحالة أن ينطق بكلمة الكفر، ولا شيء عليه إنقاذاً لحياته، أو إنقاذاً لأحد أعضائه، أو إنقاذاً لماله كله، فالإنسان أحياناً يتوسع في الإكراه، يقول: أكرهوني، استحييت، أحرجوني، ضيقوا علي، هذا كلام غير مقبول شرعاً، لا يقبل منك أن تفعل معصية بدافع الحياء، أو الخشية، أو الإحراج، أو خشية أن يقال عنك كذا وكذا، وخشية أن تتهم بكذا وكذا، كل هذا الكلام لا يرقى إلى مستوى الإكراه، فالإكراه الشرعي أن تخشى من يهددك، وهو يفعل ما يقول، بموتك، أو

بفقدان أحد أعضائك، أو فقد مالك كله، هذا هو الإكراه الذي تعنيه هذه الكلمة في قوله تعالى:

(وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ)

وفتياتكم يعني إماءكم، والبغاء هو الزنى، وهو عادة شنيعة جدا، فجاء الإسلام ليطهر الحياة الإسلامية من كل شذوذ، ومن كل انحراف، ومن كل عدوان.

معنى: إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا

هذه الآية إذا قرأها الإنسان وحده، وأراد أن يفهمها كما يبدو له ظن أن هذا الإكراه تزول حرمته إذا كان هؤلاء الفتيات لا يرغبن في التحصن، وهذا المعنى فاسد، الزنى زنى بأية حالة، ولكن هذا القيد كما قال علماء الأصول هو قيد وصفي، وليس قيدًا احترازيًا، فلو أن هؤلاء الفتيات لم يردن التحصن فهل يصبح هذا النهي لاغيا ؟ لا، هذا وصف، يعني من عادة الفتاة أنها تكره أن تكون بغيا، وتحب أن تكون زوجة، فهذا السيد الظالم الجائر الذي يكرهها على الزنا رغبة في أخذ الأموال وقع في إثم كبير مقابل أجر يسير، وهذه أكبر الخسارة ؛ أن تقع في إثم كبير من أجل مكسب يسير، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

معنى: لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

والعرض هو الشيء الزائل، الذي لا يدوم، والذي طريقه الزوال، والمال يأتي، ويذهب، وأي شيء في الدنيا يأتي، ويذهب، ولا يبقى، كل حال يزول، على حد قول لبيد بن ربيعة:

ألا كل شيء ماخلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائلُ

***

المعنى الأول: تصوير عادة جاهلية مستقبحة:

حينما يقع الإنسان في هذه الجريمة الكبيرة، ويسبب لهذه الفتاة، ولمن جاء من نسلها تعاسة أبدية لقاء أجر يسير، فهؤلاء الذين في بعض الأحيان يكون الإنسان منحرفا انحرافا شديدا، تسول له نفسه أن يتزوج امرأة، ثم يعرضها على من يدفع الثمن غاليا، وهذا الشيء يحصل في بعض البلدان المجاورة، يتزوج امرأة، وتكون في نيته أن يعرضها على أناس أغنياء ليأخذ منهم مالاً، وفيرا ويغش أهلها، يأتيهم خاطبا، وفي نيته أن يكرهها على البغاء ليأخذ منها مالاً وفيراً، وهذا العمل قبيح قد شنعه الله، فالفتاة من طبيعتها أنها تريد أن تستقر، تحب أن تكون زوجة، وأن تكون أما، فإذا أُكرهت ففي كل مجتمع أناس

يبتزون أموال الناس، فلذلك:

(وَمَنْ يُكْرِهُنّ فَإِنّ اللّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنّ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

أي هؤلاء الفتيات إن تبن إلى الله عز وجل، وكن مكرهات حقيقة، ولم يكن هناك ميل لهن فلعل الله سبحانه وتعالى أن يغفر لهن هذا العمل الذي أتينه به، وهن مكرهات.

المعنى: تصوير عادة جاهلية مستقبحة إلى أبعد الحدود، إنسان يحصل الكسب الوفير من خلال إجبار جارية من جواريه على الانحراف، فالكسب غزير، والإثم كبير، وهناك إشارة أن الفتاة تطمح أن تكون أما، لذلك مرة سألوا امرأة تكسب من عرض مفاتنها على الناس عن شعورها، فقالت: إن شعور المرأة التي تعرض مفاتنها على الناس هو شعور الخزي، والعار، وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتنها على الناس، لأن هذه العلاقة يجب أن تكون مقدسة، ويجب أن تكون بين الزوجين فقط، وفي غرف مغلقة، هذه هي الطبيعة البشرية، هذه هي طبيعة المرأة العفيفة، وهذه هي العفة.

المعنى الثاني: ردُّ ولي الأمر الخاطبَ المناسبَ لابنته:

بعض العلماء استفاد من هذه الآية أن الأب كلما جاء ابنته خاطب رده لعلة فيه، والفتاة تكبر سنها، والخطّاب يقلون شيئا فشيئا، وقد تبقى هذه البنت من دون زواج لعقدة في نفس الأب، أو لحرصه المرضي على نجاح الزواج، فربما كان تعنت الأب الشديد، ووضعه العراقيل، والبحث عن العيوب لدرجة غير مقبولة وطبيعية يفوت على ابنته الزواج، فإذا فاتها قطار الزواج، ولم تكن مؤمنة الإيمان الصحيح ربما تزل قدمها، فكأن الأب مسؤول عن ذلك، فهذا معنى آخر مستنبط من هذه الآية، فالأب المتعنت الذي يضع العراقيل أمام كل الخطاب، أين البيت، والدخل الثابت، والسيارة، وأين، وأين، ما من أحد في بداية الحياة، وهو في سن الزواج يستطيع أن يكون كوالد الفتاة، فهو في الخمسينات والستينات، وله دخل، وله بيت، فهل بالإمكان أن يشابه هذا الإنسان شابا في مقتبل العمر، فالتعنت الشديد، ووضع العراقيل، والشروط القاسية، والبحث عن عيوب الخاطب، والتعلل بأسباب واهية، ورفض هذا الخاطب، ربما فوت هذا على الفتاة قطار الزواج، وإن فاتها، ولم تكن مؤمنة ربما زلت قدمها، وكأن الأب أكرهها على الزنى، هذا الأب الذي يسمح لابنته أن تسافر دون محرم، ولتسكن في غرفة وحدها، والأنظار حولها، والعيون كثيرة، ربما حملها على شيء لا يرضى عنه الله، فالإكراه أن يقول السيد للجارية، أو أن يأمرها بالزنى، فهذا غير وارد الآن مطلقا، ليس في الحياة كلها شيء اسمه الجواري أو الإماء، وليس في الحياة كلها أب يأمر ابنته بالزنى، وهذا نادر، وأقل من نادر، ولكن إذا أردنا أن نستنبط من تلك الآية بعض العادات الاجتماعية التي شاعت بين الناس ؛ أن الأب المتعنت جدا

في تزويج ابنته كأنه يحمل فتاته على الزنى، والأب الذي يجبر ابنته على الزواج من رجل يكبرها سنا بكثير، وهي لا تريد هذا الزواج، يجبرها، ويزمجر، ويرعد، ويزبد، فإذا قبلت، ولم تكن مؤمنة كما ينبغي فربما زلت قدمها، وربما وقعت في الزنى، فلعل هذه الآية تعني شيئا كثيرا، هذا الذي يجبر ابنته على الزواج من رجل يحقق للأب مصالحه، متقدما في السن، والفرق بينه وبين ابنته كبير في السن، والطباع، والأمزجة، أو ربما أجبر الإنسان ابنته على الزواج من شخص فظ الطباع، فإذا حقق الأب بهذا الزواج مصالحه فإن هذه البنت إذا انصرفت عن هذا الزوج، وكرهته فربما زلت قدمها، وكان الإثم في عنق الأب، هذا معنى آخر من معنى الإكراه، فيستحيل أن ترى إنسانا يجبر ابنته على الزنى، ولكن من قبيل الواقع هؤلاء الذين يتعنتون في تزويج بناتهم، أو في إجبارهم على العمل في أماكن بعيدة، يقمن في بيوتهن وحدهن، هذا كله يسبب طمع الناس بها، وأن يغروها، وأن تزل قدمها، أو هذا الذي يبحث لابنته عن عمل في أماكن احتكاك مع الرجال، واختلاط بهم، ربما كان هذا العمل منزلقا لها إلى الزنى، فالاختلاط في الأصل مزلق خطير لكلا الجنسين ؛ الذكور والإناث.

نعيد الآيات مرة ثانية:

(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْراً وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (33) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (34))

(سورة النور)

لأن من طبيعة الفتاة أنها تحب التحصن، لأنها تريد أن تكون زوجة وأما:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (33) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ)

آيات الزنى، آيات الحدود، حديث الإفك، آداب الاستئذان، آداب الدخول، آيات غض البصر، آيات إبداء الزينة، هذه كلها آيات مبينات، وقد حمل بعض العلماء هذه الآية على القرآن كله:

(وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنْ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ)

كيف أن الله سبحانه وتعالى أهلك عادًا وثمود، وكيف أهلك أصحاب الحجر، وكيف أهلك قوم لوط:

(وَمَثَلًا مِنْ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ)

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى نبدأ بتفسير قوله تعالى:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنّهَا كَوْكَبٌ دُرّيّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيّةٍ وَلَا غَرْبِيّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللّهُ الْأَمْثَالَ لِلنّاسِ وَاللّهُ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة النور)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (13-23): تفسير الآية 35
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1988-12-23

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من سورة النور، وقد صلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة النور)

الحكمة مِن ورود هذه الآيات بعد آيات أحكام الزنى وفروعه:

أيها الإخوة المؤمنون، سورة النور بدأت بالحديث عن الزنى، والحدي عن حد الزاني، والحديث عن القذف، وبيان حد القذف، ثم آيات الملاعنة، ثم جاء حديث الإفك، وبعدها جاءت آيات الاستئذان، وآيات غض البصر، وآيات عدم إبداء الزينة، فكيف كانت هذه النقلة المفاجئة في قوله تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

بعضهم قال: إن الله سبحانه وتعالى عالج أغلب ما في الإنسان، عالج هذا الشيء ليرققه، وليطهره، وليرفعه إلى آفاق النور، عالج شهوة العين والفرج، عالج رغبة التجريح والتشهير، عالج نزعة الغضب والغيظ، عالج الفاحشة، عالجها أن تشيع في النفس، عالجها أن تشيع في الحياة، عالجها أن تشيع في القول، عالجها بتشديد حد الزنى، عالجها ببيان حد القذف، عالجها بعرض نموذج شنيع للإفك، والافتراء، ورمي المحصنات الغافلات، عالجها بالوسائل الوقائية ؛ من استئذان قبل الدخول، وغض للبصر، وإخفاء للزينة، ونهي عن مثيرات الفتنة، وموقظات الشهوة، وعالجها بالإحصان، ومنع البغاء، وتحرير الرقيق، هذه الشهوة ؛ الشهوة الجنسية التي أودعها الله في الإنسان ليرقى بها إلى رب الأرض والسماوات، هذه الشهوة إما أن يحكم توجيهها فتأخذ ثمارها، وإما أن يغفل الإنسان عن توجيهها فتدمر صاحبها، الشهوة التي أودعها الله في الإنسان تشبه تماما الوقود السائل، فلو وضع في مخزنه الصحيح، وانتقل في القنوات الصحيحة إلى غرف توزيع هذا الوقود، ثم إلى غرف الانفجار، وانفجر هذا السائل في المكان الصحيح ولد قدرة وحركة نافعتين، فإذا خرج هذا السائل عن مجراه الصحيح، وأصابته شرارة أشعل هذه المركبة، وأنهاها، وقضى عليها، لذلك فسورة النور تعالج علاقة الرجل بالمرأة،

العلاقة المحرمة، وحد الزنى، والحد الذي أوجده الله عز وجل ضمانا وصونا لطبيعة الإنسان من أن تتشوه، ومن أن تشقى، بعد أن عالج الله سبحانه وتعالى هذه الشهوة، وحد الحدود، ووضع التدابير الاحترازية، بعد أن فعل ذلك نقل الإنسان برفق إلى الله، إلى نور السماوات والأرض، إذا النقلة بين المعالجة العقابية، والمعالجة الوقائية لهذه الشهوة، التي حينما وضعت إنما وضعت لتكون أداة للإنسان لنقله إلى ملكوت السماوات والأرض، هذه الشهوة بالذات بعد أن تمت معالجتها بالتدابير العقابية وبالتدابير الاحترازية والوقائية، بعد هذا وذاك انتقلت الآيات إلى حديث آخر عن الله، نور السماوات والأرض.

اطمئنان النبي عليه الصلاة والسلام بعد براءة عائشة أم المؤمنين:

وقبل الحديث عن تفسير هذه الآية، وكيف أن الله سبحانه وتعالى نقلنا بلطف ورفق من موضوع اجتماعي إلى موضوع روحي، طمأن النبي عليه الصلاة والسلام بعد حديث الإفك، فكان النبي بإنزال براءة السيدة عائشة رضوان الله عليها قرير العين، وقد قرت عين السيدة عائشة نفسها بعد أن تولى الله سبحانه وتعالى تبرئتها في الكتاب الكريم، وقد اطمأنت نفس سيدنا أبي بكر بهذه التبرئة، واطمأن النبي، واطمأن الجميع، وبين الله سبحانه وتعالى أن على المؤمن أن يفعل الخير ابتغاء وجه الله، أن يصنع المعروف مع أهله، وغير أهله، فإن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت أهله.

اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

فالنور هو الضوء الذي يظهر بذاته، ويظهر غيره، وتعريف النور: هو الشيء الظاهر بذاته، والأشياء كلها التي أمامنا لا تظهر بذاتها، لا تظهر إلا إذا ألقي عليها ضوء، فإذا انعدم هذا الضوء لم تظهر بذاتها، لكن الضوء شيء يظهر بذاته، ويظهر غيره، هذا هو المعنى الذي يعرفه عامة الناس من كلمة النور، ما معنى دخول إشعاعات تنتج من مادة تسير بسرعة هائلة تزيد عن 300 كم في الثانية ؟ هذا المعنى يضاف ليشكل المعنى الحقيقي للنور، لكن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية يقول:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

فهو الذي أوجد السماوات والأرض، وهو الذي نوّر السماوات والأرض، أوجدها ونورها، الشيء الذي إذا ألقيت عليه نورا ماديا يبدو للبصر، لكن هذا الشيء ليس عين نور، لكن نور الله عز وجل هو الذي أظهر الكون، فهذا الشيء الذي ظهر بنور الله هو السماوات والأرض ظهرت بنوره، ونوّرها الله بنوره، هذا معنى.

عَن سَمِعَ ابْن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قَامَ مِنْ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ:

((اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، لَكَ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ...))

[البخاري، مسلم]

وقد سئل عليه الصلاة والسلام حينما كان في معراجه في السماء سئل: هل رأيت ربك فقال: أنى أراه، لقد رأيت نورا.

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

معنى: اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

لابد من حديث تفصيلي عن معنى قوله تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

معاني (مِنْ) في قوله تعالى: يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ

المعنى الأول:

السماوات والأرض في القرآن الكريم تعني الكون، والله سبحانه وتعالى نور السماوات والأرض، فبنوره ظهرت هذه السماوات والأرض، وبنوره نُوّرت هذه السماوات والأرض، ولكلمة نور معان دقيقة ؛ من هذه المعاني: يعني هذا الكون فيه شمس، وفيه قمر، وفيه شموس، وفيه أقمار، من صمم إضاءة السماوات والأرض ؟ كم من أموال تحتاج لنضيء الظلام، كم من الليرات ندفعها في الشهر لنضيء غرفتين أو ثلاث غرف ؟ هذه الأرض بما فيها، وما عليها كيف أنها بنور الشمس تنعم بالضوء العميم ؟ هذا معنى أن الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، ونوّرها بنور مادي.

معاني (مِنْ) في قوله تعالى: يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ

المعنى الثاني:

ومعنى آخر... ربنا عز وجل خلق السماوات والأرض:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)

(سورة الأنعام: من الآية 1)

وفي آية أخرى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا)

(سورة الكهف: الآية 1)

فكان الكتاب ينير لنا طريق الحياة، هذا الكتاب ينير لنا طريق المعرفة ؛ معرفة الله عز وجل، هذا الكتاب ينير لنا طريق المنهج الصحيح الذي نحتاجه في الحياة الدنيا كي نسعد بها، إذاً:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

خلق الكون، وخلق لك ما ينير لك حقيقة الكون، أحيانا قد تكون حقيقة الشيء مخالفة لظاهره، فالأفعى لها ملمس ناعم، ولها ألوان متناسقة، ولكن في فمها السم الزعاف، فإما أن تنظر إلى الأفعى رؤية ظاهرية، فتراها انسيابية الخطوط، ناعمة الملمس، ولكنك تعلم حقيقتها بأن في فمها السم القاتل، فالشيء في الحياة له صورة، وله حقيقة، قد تبدو لك صورة الشيء جميلة جدا، الذين يغرقون أنفسهم في الشهوات هؤلاء يمتعون حياتهم بمتع حسية، قد يعتقدون أن الشيء الذي يفعلونه شيء عظيم، وشيء ممتع، وشيء فيه بهجة، ولكنهم حين يعلمون حقيقة هذا الشيء، وكيف أن في هذا الشيء سما يسمم حياتهم كلها، لو علم الإنسان حقيقة الشيء لما شقي في الدنيا وفي الآخرة، الإنسان إذا افتقد إلى نور يريه الخير خيرا والشر شرا، يريه الحق حقا والباطل باطلا، الإنسان حينما يتحرك في الحياة ما الذي يحركه ؟ رؤية ، فإما أن يكون على نور، وإما أن يكون في ظلام، فالذي يتخذ قرارا أحمق مثلا لتطليق زوجته لسبب تافه، فهذا أعمى، لو أنه مستنير بنور الله عز وجل لما اتخذ هذا القرار، سيدنا يوسف عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حينما دعته امرأة ذات منصب وجمال قال: إني أخاف الله رب العالمين، وهناك آلاف وآلاف الأشخاص الذين تسنح لهم فرص كالفرصة التي عرضت لسيدنا يوسف، فلماذا هؤلاء يقبلون على الشهوة، وهذا النبي العظيم قال:

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

[يوسف: من الآية 23]

سؤال دقيق: لماذا تعرض على إنسان مبلغا حراما فيقول: معاذ الله، ولماذا يأخذه إنسان آخر ؟ لماذا تمشي في الطريق امرأة تلفت النظر ؟ لماذا ينظر إليها رجل ؟ ولماذا يغض البصر عنها رجل ؟ ما الذي جعل هذا ينظر، وهذا يغض الطرف ؟ ما الذي يجعل هذا يأكل مالاً حراماً، وهذا يمتنع عنه ؟ ما الذي جعل هذا يقبل على طاعة، وهذا يقبل على معصية ؟ هؤلاء الناس متفاوتون في مواقفهم، ومتفاوتون في سلوكهم، لماذا يقدم هذا، ويحجم ذاك ؟ لماذا يأخذ هذا، ويرفض ذاك ؟ لماذا يعطي هذا، ويمنع ذاك ؟ ما الذي يفسر هذه الظواهر ؟ يفسرها أن الإنسان المستنير ينظر بنور الله، فالمستنير يرى

أن معصية الله مهلكة في الدنيا والآخرة، لذلك أي موقف فيه معصية لله يقول:

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

فهو مستنير، والذي يقبل على المعصية أعمى:

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج: من الآية 46)

ما الذي يضبط حركة الأشخاص ؟

هذا الموضوع دقيق جدا، ما الذي يضبط حركة الأشخاص ؟ رؤية، من فمن يملك رؤية صحيحة يملك الموقف الصحيح، ويملك التصرف الصحيح، ويملك الموقف الأخلاقي، ويملك الحق، ويملك الإنصاف، ويملك السلوك، يملك السعادة، أساس كل هذا رؤية صحيحة، والذي يرتكب الخطأ، ويأكل المال الحرام، ويعتدي على أموال الناس، ويعتدي على أعراضهم، ويظن هذا ذكاء ما الذي حمله على أن يفعل هذا ؟ إنها رؤية منحرفة، أو عمى غلف بصيرته، أو ظلام يعيش فيه، فالقضية خطيرة جداً.

إمّا نورٌ أو ظلمات

حينما يقول الله عز وجل:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أي لا نور إلا نوره، فإما أن تكون مهتديا بهذا النور، وإما أنت في عمىً، قولاً واحداً، لا يوجد في الإسلام حل وسط، مصدر النور هو الله عز وجل، مصدر الحقيقة هو الله، مصدر المعرفة هو الله، المنهج الصحيح من عند الله، فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَالصَّلَاةُ نُورُ الْمُؤْمِنِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ))

[أبو داود، ابن ماجه، واللفظ له]

وإما أن يكون الإنسان منقطعا عن الله عز وجل، وبهذا الانقطاع هو في عمىً، لذلك آيات كثيرة تتحدث عن هذا الموضوع يقول تعالى:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

(سورة البقرة: من الآية 257)

فبعلاقاته مع زوجته في ظلمات، يقسو عليها، يحملها ما لا تطيق، أو يطلق لها العنان، أو يتجاوز حده معها، أو يسمح لها أن تتجاوز حدها معه، هذه العلاقة مع الزوجة علاقة أساسها انحراف الرؤية، أو الظلمة التي يعيشها المقطوع عن الله عز وجل، العلاقة بالأولاد، العلاقة بالجيران، العلاقة مع الناس، العلاقة مع من هم فوقك، العلاقة مع من هم دونك، كل علاقات الإنسان، وكل حركاته اليومية ما الذي يحكمها ؟ إما نور ساطع يقذف في القلب فيريه الخير خيرا والشر شرا، وإما ظلام يلفح هذه النفس فإذا هي تخبط خبط عشواء.

الله سبحانه مصدر النور:

لذلك:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هو المصدر، فإذا كنت على صلة به كنت على نور، تعرف ما ينبغي أن تفعل، وما لا ينبغي، ما يجوز أن تفعل، وما لا يجوز، ما هو صالح، وما هو طالح، ما هو خير، وما هو شر، ما هو حق، وما هو باطل، ما هو مستحسن، وما هو مستقبح، ما يليق، وما لا يليق، ما ينبغي، وما لا ينبغي، هذا كله أساسه النور.

لذلك:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)

كان في أثناء صلاته على شيء من النور، فلما ترك الصلاة أصبح في عمى:

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

ويقول ربنا سبحانه وتعالى:

(قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)

(سورة المائدة: من الآية 15)

تصور أنك تقود مركبة، والطريق ضيقة، وفيها منعطفات عديدة، وفيها انحدار شديد، ومكان هبوط حاد، وعلى جانبي الطريق وديان سحيقة، هل يمكن أن تسلم من دون ضوء شديد ينير لك الطريق ؟ هذا المثل المادي ؛ سائق المركبة إذا كان الطريق ضيقا، والظلام دامسا، والمنعطفات شديدة، والانحراف شديد، والصعود حاد، وعلى جانب الطريق وديان سحيقة، هل يعقل لهذا السائق أن ينجو من حادث مروع دون ضوء شديد ينير له الطريق ؟ هذا المثل المادي طبقه على الحياة، في علاقتك مع أهلك، في علاقتك مع جيرانك، في كسب المال، في إنفاق المال، أنت في موقف معرض فيه لشهوة ضاغطة، أنت

في موقف معرض فيه إغراء شديد، معرض فيه لضغط شديد، ماذا تفعل ؟ ما المواقف التي يجب أن تقفها ؟ تحتاج إلى نور، تحتاج إلى بصيرة، تحتاج إلى من يهديك السبيل، لذلك:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

آية ثالثة:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)

يعني الظلمات والنور تعادل خلق السماوات والأرض. لذلك:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

ويقول ربنا عز وجل:

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

(سورة النور: من الآية 40)

فحينما ينقطع الإنسان عن مصدر النور لا يمكن أن يكون مستنيرا، لابد أن يخطئ، ولابد أن يشقى، ولابد أن يهلك، ولابد أن تزل قدمه، وأن يعتدي، وأن يعتدَى عليه، هذه طبيعة الظلام، هذه طبيعة البعد عن الله عز وجل.

آية رابعة:

(هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا)

(سورة الأحزاب: الآية 43)

فيمكن أن نقول: إن الناس رجلان ؛ مستنير وأعمى، موصول مستنير، ومقطوع أعمى، المستنير يعرف ما ينبغي أن يفعل، إنه يسير على طريق عريضة، ونوره الوضّاء يكشف له جوانب الطريق، والمقطوع عن الله عز وجل في ظلام دامس، يخبط خبط عشواء.

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

(سورة النور: من الآية 40)

ويقول تعالى:

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة الزمر: الآية 22)

أنت مستنير بنور الله، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((... الصَّلَاةُ نُورٌ...))

[مسلم، الترمذي، أحمد عن أبي مالك الأشعري]

قال عزوجل:

(إنّ الصّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

[العنكبوت: من الآية 45]

لماذا تنهى عن الفحشاء والمنكر ؟ أنت إذا رأيت حشرة سامة مخيفة قاتلة، ورأيتها بعينيك عن طريق نور وضاء كشاف، هل يعقل أن تقترب منها ؟ ما الذي جعلك تبتعد عنها ؟ هو ذلك النور الذي جعلك ترى حقيقتها، فلذلك يقول عز وجل:

(أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبّكَ الْحَقّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنّمَا يَتَذَكّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ)

(سورة الرعد: الآية 19)

الحقيقة أن الإنسان حينما يكون حكيما في علاقاته، وفي حياته، فالحكمة مبعثها النور، وحينما يكون أحمق في علاقاته، وفي حياته، هذا الحمق، وهذا الضلال مبعثه الظلمة، فعَن ابْنِ عُمَرَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ خَطَبَ النّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكّةَ فَقَالَ:

((يَا أَيّهَا النّاسُ، إِنّ اللّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبّيّةَ الْجَاهِلِيّةِ، وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنّاسُ رَجُلَانِ: بَرّ تَقِيّ كَرِيمٌ عَلَى اللّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيّ هَيّنٌ عَلَى اللّهِ، وَالنّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، قَالَ اللّهُ: (يَا أَيّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)))

[الترمذي، واللفظ له، وأبو داود عن أبي هريرة]

البر التقي مستنير، والفاجر الشقي في عمى، وفي ظلام شديد.

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أي لا جهة في الكون يمكن أن تلقي لك نورا يريك الخير خيرا، والشر شرا إلا الله.

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

وهذا النور الذي تتحدث الآية عنه إنما هو النور الذي نقتبسه من الله عز وجل في أثناء الصلوات، لذلك:

((... الصّلَاةُ نُورٌ...))

[مسلم، الترمذي،أحمد عن أبي مالك الأشعري]

تفسير هذه الآية في ضوء المعطيات الحديثة: النظرية النِّسبية:

على كل ؛ هذه الآية إذا أردنا أن نفسرها في ضوء المعطيات الحديثة، وفي ضوء العلم الحديث في بعض النظريات الحديثة جداً في الفيزياء، إشارة إلى أن الطاقة يمكن أن تتحول إلى ضوء، وأن الضوء أساسه المادة، لذلك هذه المواد المشعة إذا استمرت في إشعاعها تنقص كتلتها، فالجسم إذا سار بسرعة

الضوء صار ضوءًا، والذي يعرفه الطلاب الذين يدرسون الفيزياء والكيمياء أن المادة مؤلفة من نواة، ومن كهارب، فإذا حطمت كانت إشعاع، وهذا الإشعاع يستهلك كتلة المادة، فالمادة يمكن أن تكون نورا، فهذا الكون العظيم هو من خلق الله عز وجل، هو من نور الله عز وجل.

لذلك:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هذه النظرية النسبية التي تقول: إن الزمن هو البعد الرابع للأشياء تعني أن الزمن له علاقة بالحركة، والحركة إذا زادت عن حد معين تجعل هذا الجسم نورا صرفا، لذلك يكون نور الكون كله مبعثه نور الله عز وجل، فهذه الآية يمكن أن تفسر في ضوء المعطيات العلمية الحديثة بشكل دقيق جدا على شيء مبسط، مصباح الزيت، هذا الزيت يصبح في النهاية نورا، فتيل الزيت يضيء، ويبدد الظلام على حساب هذه الكمية من الزيت، فإذا انتهى الزيت انتهى النور، كيف تحولت هذه الكمية من الزيت إلى نور ؟ إذا قلنا:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

العلم نورٌ:

أي أن الله سبحانه وتعالى هو موجد السماوات والأرض، وهو منور السماوات والأرض، لكن الآية في بعض معانيها تشير إلى أن العلم نور، أي أن الإنسان أحيانا حينما يجري عملية جراحية الطبيب يكون قد درس دراسة مفصلة كل مراحل العملية، كيف يخدر المريض، كيف يفتح البطن، كيف يغلق الشرايين، كيف يبدأ بشق المكان، كيف يستأصل المنطقة المرضية، فهذه المراحل الدقيقة التي يجريها الطبيب كيف عرفها ؟ عرفها بالعلم، فكأن العلم الذي تعلمه نور يكشف له طريقه في إجراء العملية، لذلك قالوا: العلم نور، فالإنسان العالم مستنير، هذه المعاني كلها بدءًا من المعاني المادية، إلى المعاني المجازية، إلى تلك المعاني الروحية كلها آيات دالة على ذاته، وعلى وحدانيته، وعلى أسمائه الحسنى، وعلى آياته الفضلى، فكأن الآيات الكونية والقرآنية بشكل أو بآخر نور أنزله الله في الإنسان، الإنسان لولا النور الإلهي كيف يهتدي، وكيف ينطلق في طريقه، وكيف يعرف الخير خيرا، والشر شرا.

يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)

(سورة الأنعام: الآية 122)

كان ميتا، والله الذي لا إله إلا هو هذا الذي لا يعرف الله عز وجل، ولا يتصل به هذا في حكم الميت، وفي هذا يقول بعض الشعراء:

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء

***

هذا الذي يمتلأ حيوية ونشاطا، ولكنه مقطوع عن الله عز وجل، هذا في حكم الميت، لذلك سيدنا علي يقول: **<< يا بني، العلم خير من المال، فإن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، مات خزان المال، وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة >>.**

[حلية الأولياء]

إذا العلم هو الذي يشيع في الحياة السعادة، بسبب أن العالم مستنير بنور الله، يفعل ما أمر الله، ويجتنب ما نهى عنه الله، وبذلك يقبل عليه فيسعد، فعلى كل مسلم أن يكون عالماً بأوامر الله، ونواهيه، بحكمته، بقرآنه، بتفسير كتابه، بأحكام شرعه، وهكذا.

(أوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)

(سورة الأنعام: من الآية 122)

وفي آية أخرى يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

(سورة الأنفال: من الآية 29)

والفرقان نور تفرقون به الخير من الشر، وفي آية أخيرة في الآيات التي تتبع هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ)

(سورة الحديد: من الآية 28)

أيْ في الدنيا، وكفل في الآخرة، يضمن لكم دنيا تسعدون بها، ويضمن لكم آخرة تسعدون بها إلى الأبد.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ)

فالذي يعرف الله عز وجل يعرفه عن طريق الاتصال به، ويعرفه من خلال شرعه، هذا له في كل مقام موقف، له في كل عرض موقف، له مع كل ضغط موقف، له مع كل إغراء موقف، له في علاقته موقف، هذا الموقف نابع من رؤيته الصحيحة التي تنور بها من قِبل الله عز وجل.

أحيانا يقولون: فلان نور الحي، أي كل من زاره، وعرض عليه مشكلة أشار عليه بالخير، ووجهه الوجهة الصحيحة، ودلّه على الطريق الصحيح، علمه الحكمة البالغة، فهذا الإنسان بوعيه، وإدراكه، واستنارة قلبه، واتزانه، واتصاله بالله عز وجل صار في هذا الحي نورا.

لذلك الأنبياء نوروا مجتمعاتهم بالحق، والفضيلة، والمنهج، والله سبحانه وتعالى منبع هذا النور.

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

موضوع النور الإلهي ربما يأتي في آيات كثيرة مقترنا بتقوى الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ)

(سورة البقرة: الآية 183)

علاقة التقوى بالنور:

الآن آيات التقوى لها علاقة وشيجة بآية النور، متى يتقي الإنسان ؟ متى يتقي الخطأ ؟ متى يتقي الشر؟ متى يتقي المعصية ؟ متى يتقي الموقف اللاأخلاقي ؟ متى يتقي ألا يأكل ما ليس له ؟ متى يتقي أن يعتدي على أعراض الناس ؟ متى يتقي ذلك ؟ إذا كان مستنيرا، لذلك أكثر آيات التقوى تقترن بآيات النور، فالصيام من أجل التقوى:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ)

(سورة البقرة: الآية 183)

الآن نحن بحاجة إلى بيان مراحل دقيقة لوصول الإنسان لهذا النور، الإنسان في الأساس كائن فيه شهوات، وفيه رغبات، وفيه مطامح، وفيه صراعات، وفيه دوافع، وفيه حوافز، الإنسان أعقد ما في الكون، أودع الله فيه شهوة جنسية، وفي الطريق نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، وظروف الزنى متاحة، والظروف متاحة لأي انحراف أخلاقي، ويوجد اختلاط، وأودع في نفسه حب المال، ويوجد أموال، يمكن أن تؤكل حراما، ويمكن أن تؤخذ عدوانا، يمكن أن تؤخذ اختلاسا، يمكن أن تؤخذ سرقة، يمكن أن تؤخذ غشا وخداعا، فأودع فيه حب المال وحب المرأة، والمرأة والمال متاحان للناس، فكيف يستطيع الإنسان أن يتقي الله ؟ كيف يستطيع أن يقاوم هذه الإغراءات ؟ وكيف يستطيع أن يستجيب لله خالق السماوات والأرض ؟

منهج الإنسان في اكتساب النور:

إنّ الأساس في اكتساب هذا النور أن ينهج الإنسان المنهج التالي:

السبيل الأول: التفكر في مخلوقا الله عزوجل:

أولا: لابد أن يفكر في خلق السماوات والأرض، لأنه إذا فكر في خلق السماوات والأرض، وتوصل

من خلال البحث الدقيق البحث الذاتي إلى أن لهذا الكون خالقا عظيما، ربنا عز وجل يأمرنا، ويقول:

(انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة يونس: الآية 101)

ويقول:

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس: الآية 24)

ويقول:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6))

(سورة الطارق: الآيات 5-6)

ويقول:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(20))

(سورة الغاشية: الآيات 17-20)

هذا النظر، وهذا التدقيق، وهذا التأمل، وهذا التفكر في خلق الإنسان، في أعضائه، في أجهزته، في يديه، في رجليه، في سمعه، في بصره، في أنفه، في دماغه، في معدته في أمعائه، لو فكر الإنسان في المريء، فقط لو أن الإنسان علق من رجليه، وأعطي كأسا من الماء، وشربه يصعد الماء نحو الأعلى بخلاف الجاذبية، كيف أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، كيف أنه سبحانه وتعالى زود المريء بعضلات دائرية، تنقبض تباعا، حيث تنقل الطعام والشراب إلى الأعلى، فيما لو كان الإنسان متجها نحو الأسفل، أليست هذه آية ؟ أليس هذا البلعوم الذي يعمل ثمانين عاما دون كلل أو ملل، ليلا ونهارا، يغلق الطريق بإحكام، يغلق المريء بإحكام في أثناء التنفس، هذا التفكر ينقله بالتدريج إلى قناعة تامة أكيدة قطيعة إلى أن لهذا الكون إلها عظيما، الإنسان يسأل هذا السؤال: هذا الإله العظيم الذي خلق الكون لماذا خلقه ؟ بعضهم يقول: خلقنا ليعذبنا، وهذا محض افتراء على الله عز وجل الله، وهو الذي يقول:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(سورة هود: من الآية 119)

السبيل الثاني: التقرب إلى الله بالطاعات:

الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليرحمه ويسعده، فالإنسان إذا توصل من خلال بحث دقيق ذاتي إلى أن لهذا الكون إلها عظيما، له أسماء حسنى، وصفات فضلى، فلابد أن يسأل هذا السؤال: لماذا خلقنا الله

عز وجل ؟ إذا عرفت من خلال التأمل، ومن خلال القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى خلقك ليسعدك، وما جاء بك إلى هذه الدنيا إلا لتستعد بدخول جنة عرضها السماوات والأرض، عندها تعرف طبيعة الحياة الدنيا، وتعرف أن لهذا الإله العظيم شرعاً لابد أن تطبقه، فإن طبقته شعرت بثقة عارمة أن الله راض عنك، فإن شعرت أن الله راض عنك أقبلت عليه، فإن أقبلت عليه ألقى في قلبك نورًا، فكان هذا النور فرقانًا لك بين الحق والباطل، والخير والشر، وهذا النور الذي وصفه النبي بقوله:

((... الصّلَاةُ نُورٌ...))

[مسلم، الترمذي،أحمد عن أبي مالك الأشعري]

الصّلَاةُ نُورٌ:

يأتيك في أثناء الصلاة، فكلما استقمت قبل الصلاة، وأحكمت علاقتك مع غيرك قبل الصلاة جاءت الصلاة عروجا للمؤمن، فالله سبحانه وتعالى جعل الصلاة قرباً، يقول تعالى:

(كَلّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

(سورة العلق: الآية 19)

وجعل الصلاة ذكرا:

(وَأَقِمْ الصّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه: من الآية 14)

وجعل الصلاة وعيا، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء: من الآية 43)

وجعل الصلاة مناجاة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إِنّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلّى يُنَاجِي رَبّهُ فَلَا يَتْفِلَنّ عَنْ يَمِينِهِ، وَلَكِنْ تَحْتَ قَدَمِهِ الْيُسْرَى))

[البخاري]

وجعل الصلاة عروجا، قال عليه الصلاة والسلام:

((الصّلَاةُ مِعْرَاجُ الْمُؤْمِنِ))

[شرح سنن ابن ماجه(313/1)]

الصلاة هي الفرض الإسلامي الذي لا يسقط، بخلاف حال الصيام، فقد يسقط عن المريض أو المسافر، والحج قد يسقط على من لا يستطيع، والزكاة تسقط على من لا يملك النصاب، ولكن الصلاة لا تسقط بحال، لذلك قالوا: الصيام من أجل الصلاة، والحج من أجل الصلاة، والزكاة من أجل الصلاة، والصلاة من أجل الصلاة، والصلاة من أجل أن يقذف الله في قلبك نورًا ترى به الخير خيرا، والشر شرا،

والصلاة من أجل أن يكون الله نور السماوات والأرض، أن يكون لك نور تهتدي بهديه، لأن الشيطان ينقل الإنسان من النور إلى الظلمات، لكن الرحمن سبحانه وتعالى ينقل الإنسان من الظلمات إلى النور.

حقيقة التقوى:

لذلك حينما يجلس الإنسان مع ربه جلسة، ويفكر في خلق السماوات والأرض تمتلئ نفسه عظمة لله عز وجل، وخشية له، وتوقيراً لجنابه، عندئذ تندفع إلى طاعته، وتطبيق أمره، والبعد عن نهيه، إذا أطعته، وطبقت أمره، وابتعدت عن نهيه أقبلت عليه، فإذا أقبلت عليه قذف الله في هذه النفس نورًا، وهذه حقيقة التقوى.

لذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

(سورة الحشر: من الآية 18)

أي أن التقوى مرتبة فوق الإيمان، بل إن الإيمان درجات:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[النساء: من الآية 136]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ)

والتقوى درجات، قال عزوجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

(سورة آل عمران: الآية 102)

هذه الآية التي جاءت في سورة النور هي القرآن كله، لأن القرآن كله نور، في هذا البيان بيان خلق السماوات والأرض، وتوجيه الإنسان إلى بعض الحقائق، بيان ما حل بالأقوام السابقة، بيان ما سيكون مما أنبأ به القرآن الكريم، رسم المنهج الدقيق في العلاقات الاجتماعية، أحكام البيوع، أحكام الزواج، أحكام الطلاق، أحكام الميراث، هذا القرآن كله نور، بمعنى أنه علم، وإذا أقبلت على الله عز وجل قذف الله في قلبك نورًا، النور الإلهي الذي تفرق به بين الخير والشر، لذلك كانت هذه الآية التي في سورة النور:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

فإما أن تكون على شيء من نور إلهي يهديك سواء السبيل، وإما أن يكون الإنسان ضالا مضل.

أيها الإخوة الأكارم، الإنسان عنده شرع، ونور في قلبه، لو فرضنا أن النور لم يكن متألقا كما يجب، فهناك حدود حدها الإسلام، حينما يدرس الإنسان الشريعة يعرف أن هذا حلال، وهذا حرام، هذا واجب

هذا فرض، هذا مندوب، هذا مستحب، هذا مكروه، فكل شيء في الأرض لابد أن ينطبق عليه حكم من الأحكام الشرعية، فالإنسان إذا أقبل على الله عز وجل نشأت عنده أذواق، وهذه الأذواق تتطابق مع أحكام الشرع، وما ينهى عنه الشرع يترفع المؤمن عنه، يترفع من باب أن الله عز وجل ألقى في قلبه النور، فرأى ما فيه من انحراف، وانحطاط، ترفع عنه، فأنت إما أن تنصاع للشرع، وتعرف أحكامه التفصيلية، وإما أن تقبل على الله عز وجل فيلقي في قلبك النور، هذا الشيء مجرب، فالإنسان أحيانا يبتعد عن شيء، ولم يبلغ علمه أن هذا الشيء محرم، ولكن من قبيل الذوق والنور الذي ألقاه الله في قلبه لذلك عَنْ أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((اتّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللّهِ ثُمّ قَرَأَ:

(إنّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسّمِين))

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أهْلِ العِلْمِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الآيَةِ:

(إنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسّمِينَ)

قَالَ:

(لِلْمُتَوَسّمِينَ)

[الترمذي(3127)]

نحن هذا الذي يلقيه الله في قلب الإنسان لابد أن يقابله شرع منضبط تمام الانضباط، الشيء الذي تحبه إذا كنت مستنيرا يؤكده الشرع، والشيء الذي تكرهه إذا كنت مستنيرا يؤكده الشرع، إذاً هناك شرع فيه تقنين لكل العلاقات، وكل الحالات، وهناك اتصال بالله عز وجل، هذا الاتصال إذا تكامل بالاتصال مع العلم بحقيقة الشرع كان الإنسان قد جمع المجد من طرفيه.

على كل، نحن نريد في هذه الآية أن يكون للإنسان صلة بالله عز وجل، هذه الصلة لا يعرفها إلا من ذاقها، بالاتصال بالله تكون في عين الله، أنت في حفظ الله، أنت في رعاية الله، وكأن الله سبحانه وتعالى ينور لك الطريق فترى به ملابسات هذه الطريق، ويمحو به وحشة الحياة.

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزّجَاجَةُ كَأَنّهَا كَوْكَبٌ دُرّيّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَا شَرْقِيّةٍ وَلَا غَرْبِيّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللّهُ الْأَمْثَالَ لِلنّاسِ وَاللّهُ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

[النور: 35]

مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ

عندنا مجموعة من الأسئلة:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ)

ما هي المشكاة ؟

ما هي المشكاة ؟ هي كوة في حائط، وبعضهم قال: هي كصدر المؤمن، كوة في حائط، كوة غير نافذة، النافذة نافذة، لكن المشكاة نافذة غير نافذة، يعني كوة، أيْ حفرة في حائط، وبعض علماء التفسير قالوا: هي صدر المؤمن.

(مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ)

فيها مصباح متألق، هذا المصباح في زجاجة، هذه الزجاجة كأنها كوكب دري.

وفي درس قادم إن شاء الله تعالى سوف نفصل في هذا التشبيه الرائع الذي مثل الله نوره، وهو في صدر المؤمن، كأنه كوكب دري، يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية، وماذا يعني ربنا سبحانه وتعالى بأن هذه الشجرة لا شرقية ولا غربية، هذا أيضا نتناوله في درس قادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (14-23): تفسير الآية 35
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-12-1988

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة النور، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة النور)

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

أيها الإخوة الأكارم.

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وقفنا عند هذا المقطع في الدرس الماضي، وكلمات الله عز وجل لا حدود لمعانيها:

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)

(سورة الكهف: الآية 109)

قال بعض العلماء: **" الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، إذا هو موجد السماوات والأرض، وهو منور السماوات والأرض، أوجد السماوات والأرض، ونصب الأدلة التي تشير إليه التي تدل عليه، ما من اسم من أسمائه الحسنى إلا وملايين الأدلة التي تدل عليه وتشير إليه "**، فالأدلة الكونية التي نصبها الله عز وجل لتكون تجسيدا لأسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى هي بمثابة النور، فهذه الأدلة نور، فالشمس والقمر آيتان، والليل والنهار آيتان، والكواكب آية، والأرض وما فيها من جبال، وسهول، وصحارى، ومن بحار، وأنهار، وينابيع، هذه كلها آيات، ما في الأرض من حيوانات، ونباتات، وما في البحر من أسماك، وما في الجو من أطيار، هذه كلها آيات دالة عليه، ناطقة بعظمته، مُسبّحة بحمده، إذا هذه الآيات نور.

من معاني: اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

المعنى الأول: الكونُ نورٌ:

فمن معاني:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

أن الله خلق السماوات والأرض، ثم نصب الأدلة الدالة على وجوده، وعلى أسمائه الحسنى، وعلى صفاته الفضلى، كيف أنك إذا رأيت في طريق ترابي آثار لعجلات السيارة تقول: لابد أنه مرت في هذه الطريق سيارة، وكيف أن هذه الخطوط التي تشاكل خطوط عجلات السيارة تؤكد بالدليل القاطع أنه قد مرت هنا سيارة، هذا دليل بمثابة نور، لو أن هناك من يتبع بأنه هل مرت من هنا سيارة، وقد رأى آثار العجلات، إذا الأدلة التي نصبها الله عز وجل في السماوات والأرض التي لا تعد ولا تحصى، والتي تشير كلها إلى جلاله، وتنطق بحمده، وتسبح بعظمته، هذه الأدلة التي نصبها الله عز وجل أحد فروع نور الله، الذي به نعرف الحق من الباطل، وبه نهتدي إليه، هذا أول معنى.

الأدلة نور: الله عز وجل رحمة بنا نصب هذه الأدلة هو لا نراه، ولكن آثاره تدل عليه، قال أعرابي: **"الماء يدل على الغدير، والبعرة تدل على البعير، والأقدام تدل على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدلان على الحكيم الخبير"**، إذا أنت أيها الإنسان أمام طائفة لا حدود لها من البراهين الساطعة، ومن الأدلة القاطعة، ومن الآيات البينة، لذلك يقول ربنا عز وجل:

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس: من الآية 101)

اليوم وفي خطبة الجمعة أشرت إلى هذا القانون الذي أودعه الله في الماء ؛ أنه إذا غرزت جسما في الماء، فإن هناك قوة تدفعه إلى الأعلى تكافئ وزن الماء الذي أزاحه هذا الجسم، ولولا هذا القانون لما سبحت سمكة في البحر، ولولاه لما رأيت مركبة تمخر عباب البحر، إذاً هذه الفلك، وهذه الأسماك كلها تجري بنعمة الله عز وجل أليس هذا دليلا ؟ من جعل في الماء هذه القوة الدافعة نحو الأعلى ؟.

المعنى الثاني: القرآن نور:

شيء آخر ؛ الكتاب الذي أنزله الله على عبده ورسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، بل الكتب التي أنزلها الله على رسله هي نور، لقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا)

(سورة النساء: الآية 174)

فهذا الكتاب الذي أنزله الله على النبي صلى الله عليه وسلم بمثابة النور.

المعنى الثالث: النبيُّ نورٌ:

معنى ثالث من معاني النور: النبي عليه الصلاة والسلام نور، لقوله تعالى:

(جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)

(سورة المائدة: من الآية 15)

فالنور في هذه الآية هو النبي عليه الصلاة والسلام.

فالأدلة التي نصبها الله في الكون نور، والقرآن الكريم الذي بين الله تعالى فيه كل شيء نور، والنبي عليه الصلاة والسلام، ومن خلال سنته المشرفة، والتي بين فيها كل شيء نور أيضا، كأن هذه الأشياء.. الكون وما فيه من آيات، والقرآن وما فيه من آيات، والنبي وما ترك من سنة، كأن هذه الجهات الثلاث نور أنزله الله عز وجل لنهتدي بهداه.

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

خلق الكون ونوره.. نوره بالأدلة، نوره بالأنبياء والرسل، نوره بالكتب.

المعنى الرابع: العقلُ نورٌ:

معنى آخر من معاني النور: العقل الذي أودعه الله في الإنسان نور، به تعرف أسباب الأشياء، به تعرف غايات الأشياء، الله سبحانه وتعالى كرم الإنسان بهذا الفكر، لذلك قالوا: الجماد شيء له حيز مادي، له طول، وارتفاع، وحجم، ووزن، بينما النبات فشيء له حيز مادي، وينمو، والحيوان شيء له حيز مادي، وينمو، ويتحرك، أما الإنسان فشيء له حيز مادي، وينمو، ويتحرك، ويفكر، فبماذا فضل الله سبحانه وتعالى الإنسان على ما سواه ؟ بهذا الفكر، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8))

(سورة الرحمن: الآيات 7-8)

ومن فَضْلِ الله على الإنسان أنه خلق على هذا الميزان ميزانا، وهو الشرع، خلق السماوات والأرض، ومنحك نعمة العقل، ومنحك الشرع الذي هو ميزان على ميزان العقل، فلو أعطيت طالبا مسألة في الرياضيات، وكلفته أن يحلها، وأعطيته الجواب الذي يجب أن يصل إليه، فإذا حل هذه المسألة، وانتهى إلى هذا الجواب فحله صحيح، فأصبح هذا الجواب ميزانا لحل الطالب، ما إذا كان صحيحا أو غير صحيح.

إذًا الكون نور، الكون بما فيه من أدلة ساطعة على أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى نور. والكتاب الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه فيه الأمر والنهي، وفيه الحلال والحرام، وفيه الآيات الدالة على عظمته، وفيه أخبار من كان قبلنا، وفيه نبأ ما بعدنا، وفيه الوعد والوعيد، وفيه البشارة والإنذار، هذا القرآن الكريم الذي فيه بيان كل شيء، وتفصيل كل شيء هو نور.

والنبي عليه الصلاة والسلام ببيانه وسنته وأقواله وأفعاله وإقراره وصفاته نور أيضا.

والعقل الذي أودعه الله في الإنسان هو أيضا نور.

فالله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، ونورها بالأدلة التكوينية، ونورها بالآيات القرآنية، ونورها ببعثة الأنبياء والرسل، ونورها بالعقل الذي هو أكبر نعمة أخذها الإنسان من رب الأكوان.

إذاً:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

تعني أنه خلقها، ونورها.

بشكل تفصيلي مبسط، كما لو أن مصنعا عالي المستوى ذا خبرة رفيعة، وقدرات فائقة أنتج جهازا معقدا غالي الثمن، عظيم النفع، معقد الصنعة، أرسل هذا الجهاز إلى جهة معينة، وأرسل معه كتيبا فيه طريقة التشغيل، وطريقة الصيانة، وطريقة التنظيف، وكيف تستعمله، فكأن هذا المصنع صنع الجهاز، ونورك بطريقة استعماله، فالله نور السماوات والأرض، خلق الكون، ونوره بالأدلة الكونية، بالآيات القرآنية، بالرسالات التي أرسلها على يد أنبيائه ورسله، وبالعقل الذي ميزك به على سائر المخلوقات.

الله سبحانه ظاهر لكل المخلوقات:

شيء آخر: حينما نعرف النور بأنه الشيء الظاهر بذاته، المُظْهِرُ لغيره إذًا فالله سبحانه وتعالى ظاهر لكل المخلوقات، لذلك لما سئل الإمام علي رضي الله عنه متى كان الله ؟ قال: ومتى لم يكن،

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

لذلك يقول سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الإسراء: من الآية 44)

إنْ: بمعنى ما من، لاستغراق أفراد النوع، وما من كلمة في اللغة تعبر عن أدق الأشياء، كشيء، لو أن ذرة من غبار اسمها شيء فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلّا يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: من الآية 44)

إذًا: كل شيء خلقه الله حتى الجمادات وحتى النباتات، وحتى كل المخلوقات تسبح بحمده، إلا هذا الإنسان الغافل، الذي كانت شهوته حجابا بينه وبين الله عز وجل. الله سبحانه وتعالى يقول:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْض مَثَلُ نُورهِ)

مَثَلُ نُورهِ

يقول علماء اللغة: ما دام هذا النور.

(مَثَلُ نُورهِ)

قد أضيف إلى ضمير يعود على الله عز وجل، إذًا هذا النور ليس النور الذي به قامت الأشياء، النور الذي قامت به الأشياء هو النور العام، ولكن النور الذي يسطع في قلوب المؤمنين هو النور الخاص، كل مخلوق أساسه من نور الله:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْض)

بمعنى موجدها، هذا النور العام... ولكن النور الخاص هو النور الذي يقذف في قلب المؤمن، والذي هو معني في هذه الآيات، ما الدليل ؟ أن الله سبحانه وتعالى قال:

(مَثَلُ نُورهِ)

فكأن هذا النور هو النور الخاص، وليس ذلك النور الذي تقوم به الأشياء.

(اللّهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة: من الآية 255)

لا قيام للأشياء إلا بالله، لكن هذا النور هو النور الخاص الذي يقذف في قلوب المؤمنين، والدليل قوله عز وجل:

(يَهْدِي اللّهُ لِنُورهِ مَنْ يَشَاءُ)

[النور: من الآية 35]

والآية الثانية:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلّا أَنْ يُتِمّ نُورَهُ)

(سورة التوبة: من الآية 32)

يريد الكفار بمعاكستهم الحق، وصدهم عن سبيل الله أن يطفئوا نور الله بأفواههم. والآية الثالثة:

(أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النّاس كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِج مِنْهَا)

(سورة الأنعام: من الآية 122)

فالآية الأولى:

(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ)

والثانية:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ)

والآية الثالثة:

(أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)

هذه الآيات الثلاث تؤكد أن النور المعني في هذه الآيات ليس النور الذي هو أصل الموجودات، بل هو النور الذي يقذف في قلوب المؤمنين، فيرون به طريق الخير من الشر.

سبل اكتساب النور:

السبيل الأول: تطبيق شرع الله تعالى:

شيء آخر: أكد العلماء أن الإنسان إذا طبق الشرع الحنيف قاده هذا التطبيق إلى نور الله، لذلك:

((مَنْ أَخْلَصَ لِلَّهِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا تَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ، وَأَجْرَاهُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِهِ))

[كشف الخفاء]

لذلك إذا طبقت أحكام الشرع، وطبقت أمر الله عز وجل، إذا ائتمرت بأمره، وانتهيت عما نهى عنه، إن هذا التطبيق وحده ينقلك إلى نور الله عز وجل، الذي هو موضوع هذه الآيات.

السبيل الثاني: الأعمال الصالحة:

شيء آخر ؛ إن الأعمال الصالحة التي يفعلها الإنسان في الدنيا أيضا تقوده إلى نور الله سبحانه وتعالى، قد تقول: هذا الإنسان له وجه منير، هذا النور الذي في وجهه أثر من عمله الطيب، كل من له عمل طيب ترى النور في وجهه، لذلك فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ، ثُمَّ قَرَأَ:(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)))

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ)

قالَ:

(لِلْمُتَوَسِّمِينَ)

[الترمذي]

وفي الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة التحريم: الآية 8)

نورهم: أعمالهم الطيبة التي فعلوها في الدنيا بمثابة النور يسعى بين أيديهم، إذاً الاستقامة على أمر الله تنقلك إلى نور الله، والأعمال الطيبة التي تفعلها في الدنيا تنقلك إلى نور الله، وكأن الاستقامة والعمل الصالح طريقان لأن يتنور قلبك بنور الله.

التشبيه القرآني: مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ

أيها الإخوة الأكارم، ننتقل إلى قوله تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ)

الآن نحن أمام تشبيه، أو أمام تمثيل، يقول ربنا عز وجل:

(وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

أحيانا تكون الفكرة مجردة، غير محسوسة، نشبهها لشيء محسوس تقريبا للأذهان، ربنا عز وجل شبه الكفار في إعراضهم عن الحق، وفي جمود عقولهم، وفي ضيق أُفُقِهم، كأنهم خشب مسندة، هذا تشبيه، وشبه الكفار تارة ثانية بأنهم كالأنعام.. كالبهائم، والله الذي لا إله إلا هو هذا الذي لا يعرف الله عز وجل، ولا يعرف لماذا خلقه، ولا لماذا أوجده، ولا يعرف مهمته، إن هو إلا كالأنعام، بل أضل سبيلا، لأنه مزود بالعقل،وكان كالأنعام:

(تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

(سورة الفرقان: الآية 44)

إذًا: هذا تشبيه، وفي تشبيه آخر قال عز وجل:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة: من الآية 5)

هذا تشبيه آخر، فالذي لا يعي ما في القرآن، ولا يعي أوامره، ولا نواهيه، ولا يعلم ما المقصود من هذه القصة، وما العبرة منها فهو بعيد عن فهم هذا القرآن.

لذلك قال:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

فلو تتبعنا الأمثال والتشبيهات التي وردت في كتاب الله لوجدناها لا تعد ولا تحصى، فهي كثيرة جدا، ومن هذه التشبيهات قوله:

تفسير: مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ

بعضهم قال: مثل نور الله في قلب المؤمن، ألم نَقُل قبل قليل: إن الاستقامة على أمر الله تقذف النور في القلب، وإن الأعمال الطيبة تقذف النور في القلب، نقول: فلان له قلب مستنير، يرى به الخير من الشر، والحق من الباطل، والصالح من الطالح، وما ينبغي، وما لا ينبغي، وما يجدي، وما لا يجدي، وما يجوز، وما لا يجوز، وما هو مستحسن، وما هو مستقبح، إن هذا النور الذي في قلب الإنسان هو الذي يكشف له عن حقيقة الأشياء، لذلك لماذا يقع الكافر في شر عمله ؟ لأنه أعمى، لماذا في ساعة حمق يطلق امرأته ؟ لأنه أعمى، لماذا يأكل مالا حراما فيدمر الله كل ماله ؟ لأنه أعمى، لماذا يأخذ ما ليس له فيتلف الله ماله ؟ لأنه أعمى، لأنه أعمى فعل هذا، ولو أنك مستنير بنور الله لكنت على الصراط مستقيم لذلك، موضوع الاستنارة بنور الله هي أدق آية في هذا الموضوع:

(أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا)

ولو كان في أوج شبابه، وفي أوج حيويته، وفي كامل طاقته فهو عند الله ميت،

ليس من مات فاستراح بميت　إنما الميت ميت الأحياء

***

(أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا)

(سورة الأنعام: من الآية 122)

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

(سورة البقرة: الآية 257)

يا أيها الإخوة الأكارم، قال الإمام الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي　فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأنبأني بأن العلم نـــور　ونور الله لا يهدى لعـــاص

***

إذا أردت هذا النور فالزم سبيل الاستقامة، ولا تحد عنها أبدا، إذا أردت هذا النور فاعمل الأعمال الطيبة، عندئذ يلقي الله في قلبك نورا.

سيدنا عثمان رضي الله عنه قال وهو على المنبر: **<< يدخل أحدكم علينا وأثر الزنى بين عينه ؟ فضج الصحابة الكرام، وقالوا: يا أمير المؤمنين، أوحيٌ بعد رسول الله ؟ فقال: لا، ولكنها فراسة صادقة >>** - لقلب مستنير -.

فالبطولة أن تقف الموقف الصحيح في كل ظرف معين، وهذا الموقف الصحيح لا يكون إلا إذا كان قلبك متصلا بالله عز وجل، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الصّلَاةُ نُورٌ))

[مسلم، الترمذي،أحمد عن أبي مالك الأشعري]

فمثل نور الله عز وجل في قلب المؤمن كمشكاة.

المشكاة: الكوة في الحائط، الكوة غير النافذة في البيوت القديمة، ففي أثناء بناء الجدار يتركون كوة في الجدار، نافذة غير نافذة، لها غلاف، هذه الكوة يوضع فيها المصباح لماذا ؟ لأن سطح الكوة منحن، ومطلي باللون الأبيض، فإن المصباح تتجمع أنواره، وتنعكس إلى الغرفة، فهذه الكوة حفرة في الحائط غير نافذة، هذا تعريف المشكاة.

كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ

لماذا يوضع المصباح في المشكاة ؟ قالوا: لأنه أجمع للضوء، ولأن المصباح وهو بالمشكاة أكثر إنارة منه في غيرها، لذلك أحدث إضاءة الآن وراء المصباح في سطح مقعر منحن يوضع المصباح في محرقه، لذلك يعكس إلى مسافات بعيدة، هذا معنى المشكاة.

(كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ)

أما المصباح فهو الفتيل المشتعل.

الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ

والزجاجة تمنع تأثير الرياح على المصباح، وتزيد من تألق الضوء، لذلك الزجاجة التي توضع أمام مصباح السيارات فيها علم كثيف، وفيها خبرات طويلة، وهناك زجاجات تجعل تألق المصابيح أكثر بكثير من غيرها، تختص بها بعض الشركات، فالمصباح هو الفتيل المشتعل، والمشكاة هي الكوة غير النافذة، والزجاجة هي التي حول المصباح لتحميه من آثار الرياح، ولتزيد من تألق الضوء، أما

الزجاجة فهي كما تعلمون الجسم الشفاف، فالمصباح في زجاجة أكثر منه إضاءة في غيرها، لذلك يكفي أن تضع فوق المطبوعات ورقا شفافا لاصقا، فإذا بالمطبوعات تتألق، ويزداد سعرها، ويكثر بيعها، لذلك يلصق الطبق الشفاف على المطبوعات، فالمصباح في زجاجة أكثر تألقا منه في غيرها، فربنا عز وجل بين أن نوره في قلب المؤمن كأن صدره مشكاة، وكأن نور الله هو المصباح، وكأن قلبه زجاجة، يوقد هذا المصباح من شجرة الزجاجة، كأنه كوكب دري، كوكب شديد اللمعان، كثير التألق.

يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ

يوقد من شجرة مباركة، هذه الشجرة المباركة وصفها الله عز وجل بأنها زيتونة، والزيتون كما جاء في بعض التفاسير شجرة تورق أوراقها من أسفلها إلى أعلاها، فيها إدام، وفيها دهن، وفيها دباغ، وهي وقود بحطبها وتفلها، وليس فيها شيء إلا وفيه منفعة، وهي معمرة، أوراقها سماد، تؤتي أكلها مرتين، والله تعالى سماها الشجرة المباركة، وفي القرآن الكريم:

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ)

[التين: 1]

وكلكم يعلم أن هذا الشجر يقدم المواد الدهنية النباتية من أعلى مستوى، فكأن الله سبحانه وتعالى يشير إلى أن هذا المصباح، الذي هو في مشكاة، وهذا المصباح الذي هو في زجاجة، وهذه الزجاجة التي كأنها كوكب دري، وهذا النور الذي يمد المصباح يوقد من شجرة مباركة، وكأن الدهن الذي يمد المصباح هو أعلى دهن في صفائه، وفي استعداده للاشتعال، بل إن من استعداده للاشتعال أنه يكاد يضيء، ولو لم تمسسه نار.

يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ

تعبير عن استعداده التام للاشتعال، وعن صفائه من الشوائب، الوقود مع الماء لا يشتعل، لوجود الشوائب فيه، الوقود مع مواد أخرى يطلق دخانا كثيفا، ولكن الوقود الصافي الذي ليس فيه شوائب يكاد يضيء، ولو لم تشعله، هذا تعبير عن هذا النور في صدر المؤمن أنه يوقد من شجرة مباركة، بعد قليل سنرى ما هي هذه الشجرة المباركة.

معنى: لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ

لكن هذه الشجرة المباركة لا شرقية، ولا غربية.

المعنى الأول: أنـها ليست من شجر الدنيا:

بعضهم قال: ليست من شجر الدنيا، لأن شجرة الدنيا لابد أن تكون شرقية أو غربية، تأخذ أشعة الشمس من المشرق، أو تأخذها من المغرب، فإذا قال الله عز وجل:

(لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ)

إذاً ليست من شجر الدنيا.

المعنى الثاني: أنـها تأخذ الشمس من كل جانب:

وبعضهم قال: الزيتونة إذا كانت بجانب الحائط تأخذ الشمس من جهة واحدة، فليس زيتها جيدا، وليس دهنها صافيا، أو هي من شجر الدنيا تأخذ الشمس من كل جانب، وهذه إشارة إلى أن الأشجار المعمرة لا تؤتي أكلها ناضجة شهية، ولا تكون ذات طعم طيب إلا إذا تلقت الشمس من كل جهة، فالأشجار المزروعة في حديقة مكتظة، وحولها أبنية أو جدران، هذه الأشجار لا تعطي ثمرا طيبا، إشارة إلى أن الأشجار إنما تتلقى طيب ثمارها من الشمس.

المعنى الثالث: إشارة إلى انقسام الدول إلى شرق وغرب:

ومعنى ثالث: وكأن هذه الآية فيها إشارة إلى أن الله لعلمه بالغيب بما سيكون في آخر الزمان، كيف أن هذه الدول، وهذه الشعوب تنقسم إلى شرق وغرب ؛ في تفكيرها، وفي قيمها، وفي نظمها، وفي مبادئها، وأن هذه الشجرة المباركة لا هي من الشرق، ولا من الغرب، بل هي من السماء، وليس الإسلام شرقيا، ولا غربيا، إنه علوي من رب السماوات والأرض، هذا معنى ثالث، أي هذه الشجرة لا تنتمي إلى أصل أرضي، لا تنتمي إلى فكر أرضي، لا تنتمي إلى جهة دون جهة، لا تنتمي إلى قيم من صنع البشر، لا تنتمي إلى مبادئ من صنع الإنسان، إنها من رب السموات والأرض، لا شرقية، ولا غربية، ولكنها علوية.

(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ)

هنا بيت الشاهد.

معنى: كَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ

أما قوله تعالى:

(يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ)

فقال علماء التفسير: **" ليس معنى نور على نور تعدد النور، ولكن كثافة النور"**، لذلك الله سبحانه وتعالى جعل الكون نوراً تستنير به لمعرفة الله، وجعل القرآن لك نوراً، فهو نور على نور، وجعل الأنبياء والرسل لك نوراً، وجعل العقل لك نوراً، وجعل الأحداث التي تقع في الدنيا نوراً، فيكافأ المحسن، ويعاقب المسيء، يعز المستقيم، ويذل المنحرف، يمنح الكريم الميزات، ويحرم البخيل من هذه الخيرات، الذي يفي بوعده يكرمه الله، والذي لا يفي يخزيه، فالأحداث في الدنيا تؤكد الحقائق التي جاء بها القرآن، لذلك معنى:

الكون نور، والقرآن نور، والأنبياء نور، والعقل نور، والأحداث نور.

معنى: هداية الله مَن يشاء إلى نوره:

(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ)

الحقيقة هذا موضوع دقيق جدا، فمن هذا الذي يشاء الله أن يهديه إلى النور ؟ هناك آيات كثيرة تؤكد ذلك، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت: الآية 69)

ثمن النور:

الثمن الأول: مجاهدة النفس والهوى:

هذا أول ثمن، فهل جاهدت نفسك وهواك ؟ هل عاكست نفسك ؟

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (41))

(سورة النازعات: الآية 40-41)

هل نهيتها من الهوى ؟ فَعَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَسْجِدِ وَهُوَ يَقُولُ بِيَدِهِ هَكَذَا - فَأَوْمَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِيَدِهِ إِلَى الْأَرْضِ - مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللَّهُ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ

بِرَبْوَةٍ، ثَلَاثًا أَلَا إِنّ عَمَلَ النّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ، وَالسّعِيدُ مَنْ وُقِيَ الْفِتَنَ، وَمَا مِنْ جَرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَيّ مِنْ جَرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ مَا كَظَمَهَا عَبْدٌ لِلّهِ إِلّا مَلَأَ اللّهُ جَوْفَهُ إِيمَانًا))

[رواه حمد]

فالذي يجاهد نفسه وهواه يدفع ثمن هذا النور، يهدي الله لنوره من يشاء هذا أول ثمن.

الثمن الثاني: الهداية إلى سبل السلام:

الثمن الثاني:

(يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السّلَامِ)

(سورة المائدة: الآية 16)

فهل تتبع ما يرضي الله، أم تتبع ما يسخطه ؟ والله الذي لا إله إلا هو إن الإنسان يعلم بفطرته ما إذا كان في سلوكه يرضي الله أو يسخطه، فمن أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه، وأرضى الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله سخط الله عليه، وأسخط الناس، فالذي يتبع رضوان الله عز وجل يهديه إلى هذا النور، وهذا ثمن ثان.

الثمن الثالث: الإيمان:

الثمن الثالث:

(وَأَنّا لَمّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنّا بِهِ)

(سورة الجن: الآية 13)

إذا لابد أن تسمع الهدى، وإن لم يكن لديك وقت لسماع الهدى فكيف تهتدي ؟ أن تقول: أريد أن أكون طبيباً، وليس لدي وقت للذهاب إلى الجامعة !! فلن تصبح طبيباً، ولا يمكن أن تكون طبيبا إلا إذا داومت في كلية الطب، ولا يمكن أن تكون مهتديا إلا إذا سمعت الحق، إذا لابد من حضور مجالس العلم، لأن طلب العلم فريضة، وأنى لك أن تعرف من دون أن تحضر.

(وَأَنّا لَمّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنّا بِهِ)

فالهدى لابد أن تستمع إليه، والهدى له مكان، فالمساجد أمكنة توضح فيها الحقائق، ويقال فيها الحق، فإذا كنت تريد أن تهتدي فلابد أن تحضر مجالس العلم، فمن ليس لديه وقت لحضور هذه المجالس أنى له أن يعرف الحقيقة.

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ)

(سورة يونس: الآية 9)

يقول تعالى:

(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ)

مشيئة الله تعالى:

أليست مشيئة الله موضحة في آيات كثيرة ؟ هذه الآيات توضح مشيئة الله، إذا أردت أن تهتدي فجاهد نفسك وهواك، إذا أردت أن تهتدي فاتبع ما يرضي الله، وبحسب الفطرة تعرف ما الذي يرضيه، وما الذي يسخطه، إذا أردت أن تهتدي فاحضر مجالس العلم، إذا أردت أن تهتدي فاعمل صالحا،

(وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة آل عمران: من الآية 101)

اعتصم بالله، وقال وهب بن منبه: قرأت في الكتاب الأول إن الله تعالى يقول:

((بعِزّتِي إنّهُ مَن اعْتَصَمَ بي فإنْ كَادَتْهُ السّمَاوَاتُ بمَنْ فِيهِنّ وَالأرْضُ مِمّنْ فِيهِنّ فَإنّي أجْعَلُ لَهُ مِنْ بيْنِ ذَلِكَ مَخْرَجًا، وَمَنْ لَمْ يَعْتَصِمْ بي فَإنّي أخْسِفُ بِهِ مِنْ تَحْتِ قدَمَيْهِ الأرْضَ فَأجْعَلُهُ فِي الْهَوَاءِ، فَأكِلُهُ إلَى نَفْسِهِ))

[ابن كثير، وفيض القدير]

هل تعتصم بزيد، أو عبيد، أو فلان، أو علان، أم تعتصم بالواحد الديان ؟

(وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا)

(سورة النور: من الآية 54)

((ابْنَ آدَمَ أطِعْ رَبّكَ تُسَمّ عَاقِلاً، وَيَهْدِكَ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَلاَ تَعْصِهِ فَتُسَمّى جَاهِلاً))

[مسند الحارث "زوائد الهيثمي" عن أبي هريرة وأبي سعيد، وانظر كشف الخفاء، وميزان الاعتدال]

كان عليه الصلاة والسلام مع أصحابه يوما فرأى مجنونا فقال: من هذا ؟ قالوا: هذا مجنون، قال: لا، هذا مبتلى، المجنون من عصى الله، فالثمن أن تطيعه:

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

(سورة النحل: الآية 15)

هل فكرت في الكون، فإن أحد أسباب الهداية أن تفكر في هذا الكون، فعندما يقول ربنا تعالى:

(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ)

ففي آيات كثيرة يبين ما هي هذه المشيئة.

موانع الهدى: الظلم – الفسق - الخيانة – الكذب – الإسراف - الاستكبار

وهناك موانع للهدى، فالله سبحانه وتعالى لا يهدي إلى نوره القوم الظالمين، ظالم زوجتك، ظالم لأخيك، ظالم لصانع عندك، ظالم لجيرانك، آكل ما ليس لك، فإن الله لا يهدي القوم الظالمين، هذه موانع الهدى.

(إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ)

(سورة المائدة: الآية 67)

الجاحدين المعرضين.

(إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

(سورة المنافقون: الآية 6)

من هو مقيم على معصية لا يهديه الله، قلبه أعمى لا ينور قلبه:

(وَأَنّ اللّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

(سورة يوسف: الآية 52)

كل أنواع الخيانة يمقتها الله عز وجل، ولا يهدي صاحبها، كل أنواع الخيانة دون استثناء، وقد قالوا: ترك السلام على الأعمى خيانة، إن رأيت أعمى تعرفه كفيف البصر، وتركت السلام عليه فهي خيانة له، بدءا من ترك السلام على الأعمى، وانتهاء بخيانة الأمة، هذا الذي ينقل أسرار الأمة إلى العدو، هذه خيانة عظمى، كل أنواع الخيانة:

(وَأَنّ اللّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)

وقال تعالى:

(إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفّارٌ)

(سورة الزمر: الآية 3)

الكذاب لا يهديه الله عز وجل، لأن المؤمن لا يكذب، يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الكذب والخيانة، إذا كذب لم يكن مؤمنا، انتهى الأمر، الكذب والخيانة يتناقضان مع الإيمان:

(إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفّارٌ)

(سورة الزمر: الآية 3)

المسرف لا يهديه الله عز وجل... في كل شيء.

(إِنّ الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآَيَاتِ اللّهِ لَا يَهْدِيهِمْ اللّهُ)

(سورة النحل: الآية 104)

هذه الآيات التي نصبها الله عز وجل دالة عليه لم لا تفكر بها؟؟. إذا لا تهتدي هذه موانع الهدى:

(وَمَا مَنَعَ النّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَى إِلّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَسُولًا)

(سورة الإسراء: الآية 94)

المستكبر لا يهتدي، يقول: من فلان، أنا أجلس في مجلسه، إذا كنت ترى أنك أعظم من الحق لن تهتدي، خذ الحكمة، ولا يضرك من أين مكان خرجت.. العبرة أن أهتدي بهذا الهدى.

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

(سورة القصص: الآية 57)

هذا الذي ليس موحدا، إنه يخاف غير الله، يخاف إن صلى أن يقال عنه: كذا وكذا، يخاف إن حضر مجلس علم أن يقال عنه: كذا وكذا، وقالوا:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعْ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا)

هؤلاء مشركون بالله عز وجل لو علموا أن لا إله إلا الله، ولا معز إلا الله، ولا مذل إلا الله، ولا معطي، ولا مانع، ولا رافع، ولا خافض، ولا قابض، ولا باسط إلا الله، ما قالوا هذا الكلام، لذلك عندما يقول ربنا عز وجل:

(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

هذا كله مثل من أمثال الله عز وجل.

بعض التفاسير تقول: إن الزيتونة المباركة هي النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا النور الذي في قلب المؤمن، إذا كان نور الله عز وجل هو المصباح، وإذا كان صدر المؤمن هو المشكاة، وإذا كان قلبه هي الزجاجة، هذا النور يوقد من شجرة مباركة هي النبي عليه الصلاة والسلام، يكاد زيتها، أي حججها الدامغة الدالة على عظمة الله عز وجل هو الزيت، كقوله تعالى:

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

(سورة التوبة: الآية103)

أي إذا صلى النبي عليه الصلاة والسلام على المؤمنين انتقل هذا النور من قلبه إلى قلوبهم، فكأن قلوبهم تضيء من نور رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي هو نور الله عز وجل، هذا تؤكده بعض الآيات الكريمة:

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)

(سورة الأحزاب: الآية 56)

(يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

الهدى بيد الله وحده:

هناك شيء دقيق في الهدى...الهدى ليس بيد أحد لقوله عز وجل:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص: الآية 56)

فإن الإنسان مخير، ويقول عز وجل:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة: الآية 272)

فالنبي ليس بإمكانه أن يهدي أحد، وليس مسؤولا عن عدم هداية أحد.

الأولى:

(إِنّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

أي ليس الأمر لك.

والثانية:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ)

لك أنت تقول الحق، وبذلك تنتهي مهمة العلماء في تبيين الحق، فعَنْ قَيْسِ بْنِ كَثِيرٍ قَالَ قَدِمَ رَجُلٌ مِنْ الْمَدِينَةِ عَلَى أَبِي الدّرْدَاءِ وَهُوَ بِدِمَشْقَ فَقَالَ: مَا أَقْدَمَكَ يَا أَخِي ؟ فَقَالَ: حَدِيثٌ بَلَغَنِي أَنّكَ تُحَدّثُهُ عَنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، قَالَ: أَمَا جِئْتَ لِحَاجَةٍ ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَمَا قَدِمْتَ لِتِجَارَةٍ ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: مَا جِئْتُ إِلّا فِي طَلَبِ هَذَا الْحَدِيثِ ؟ قَالَ: فَإِنّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنّةِ، وَإِنّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنّمَا وَرّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ))

[الترمذي(2682)]

تنتهي مهمتهم في تبيان الحق.

فإذًا:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

و:

(إِنّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ)

الهدى اختيار:

شيء ثان: الهدى اختيار، لقول الله عز وجل:

(إِنّا هَدَيْنَاهُ السّبِيلَ إِمّا شَاكِرًا وَإِمّا كَفُورًا)

(سورة الإنسان: الآية 3)

ولقوله عز وجل:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

(سورة البقرة: الآية 148)

ولقوله عز وجل:

(وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة البقرة: الآية 213)

ولقوله عز وجل:

(ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)

(سورة الأنعام: الآية 88)

الهدى وزيادة الهدى:

ولكن عندنا هدى، وهناك زيادة على الهدى، عندما يختار الإنسان أن يكون مع الله عز وجل يزيده الله هدى، يقول الله عز وجل:

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى)

(سورة مريم: من الآية 76)

(إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى)

(سورة الكهف: الآية 13)

(وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى)

(سورة محمد: الآية 17)

فالهدى المنطلق منك أيها الإنسان، والله سبحانه وتعالى بعدئذ يتولى الزيادة لذلك: **أهل ذكري أهل مودتي أهل شكري أهل زيادتي أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم ابتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب "**

شيولِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ

شيء آخر، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

(سورة الرعد: من الآية 7)

أيْ: فلان عند فلان دعه وشأنه، ما دام فلان يهديه إلى سواء السبيل، دعه، فإن:

(لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

أي الله عز وجل وزع الهداة في مشارق الأرض ومغاربها، وزّعهم في البلد الواحد، فهذا الإنسان أعجبته هذه الدعوة فأحبها، فلا تحاول أن تفكه عنها، حاول أن تأتي إلى المسجد بإنسان ضال، حاول أن تبث الإيمان في إنسان تائه...

(وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ)

هذا يهتدي على يد فلان، وهذا على يد فلان، هذا يعجبه فلان، ولا يعجبه فلان، فهناك طباع وأمزجة، وهناك رغبات وميول، لكن لابد أن يكون الهدى ضمن الدائرة التي شرعها الله عز وجل، وما سوى ذلك فضلال في ضلال، ولكن هذا الذي يطمع أن يهتدي الناس على يديه لابد من ثمن باهظ يدفعه، أن تهتدي شيء، وأن يهتدي الناس على يديك شيء آخر... وربنا عز وجل يقول:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

(سورة السجدة: الآية 24)

مِن ثمنِ الدعوة إلى الله:

الثمن الأول: الصبر في البلاء والامتحان:

هناك امتحانات، ولابد أن تصبر، فإن لم تصبر فلا تطمع في أن يكون الهدى على يديك، فالصبر أحد الأثمان الباهظة لكي تكون داعية إلى الله عز وجل.

الثمن الثاني: الطاعة التامة:

والطاعة التامة ثمن آخر، لقوله عز وجل:

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا)

(سورة البقرة: الآية 124)

الطاعة التامة في السراء والضراء، في المنشط والمكره، ثمن آخر لأن تكون داعية إلى الله عز وجل.

الثمن الثالث: العمل الصالح:

والعمل الصالح ثمن ثالث:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة فصلت: الآية 33)

لا تؤثر في أحد إلا إذا كان عملك صالحا يصدق دعوتك.

الثمن الرابع: عدم سؤال الأجر:

(يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ*اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

(سورة يس: الآية 21)

فعلامة الداعية الصادق أنه لا يسألك أجرا، لا ماديا، ولا معنويا، لا كبيرا، ولا صغيرا، لا يعلق أهمية إطلاقا إلا على رضوان الله عز وجل.

الثمن الخامس: العلم:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

(سورة يوسف: الآية 108)

ما اتخذ الله وليا جاهلا، لو اتخذه لعلمه، لابد أن تكون على بصيرة، لابد أن تكون الأمور واضحة تماما عندك، لأن زلة العالم كبيرة.

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي)

الثمن السادس: خشية الله وحده:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ)

(سورة الأحزاب: من الآية 39)

إذا كنت كذلك فأبشر، هذا الذي يطمع أن يكون هاديا للناس لابد أن يأتمر بأمر الله تماما، ولابد أن يصبر، ولابد أن يجاهد نفسه وهواه، ولابد أن يعمل صالحا، ولابد أن يترفع عن أي طلب مادي، ولابد أن يكون عالما، لأنه لا سبيل إلى تعليم الناس إلا إذا كان الذي يعلمهم عالما بكتاب الله وسنة رسوله، لأن فاقد الشيء لا يعطيه.

هذه بعض الأثمان التي يجب أن تدفعها كي تنقل الناس إلى نور الله سبحانه وتعالى، وهناك بشارة تتضح معالمها كلما تقدمت الأيام والسنون، يقول الله عز وجل:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)

(سورة الصف: الآية 9)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (15-23): تفسير الآية 36 ، عن المساجد وآدابها
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-01-06

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس عشر من سورة النور، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة النور: الآية 35)

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ

تعليق الجارّ والمجرور: فِي بُيُوتٍ:

في بيوت: جار ومجرور بم يعلق ؟ بعض العلماء يقول: هذا الجار والمجرور يعلق بالفعل يُسبح، يُسبح لله في هذه البيوت رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع.

وفي بعض المعاني: أن في بيوت متعلقة بفعل يُسبح، أي رجال يسبحون الله في هذه البيوت، وبالمناسبة كلمة رجل لا تعني في القرآن الكريم أنه ذكر، الرجل تعني في القرآن الكريم أنه بطل، لذلك سيدنا سعد رضي الله عنه قال: **<< ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس ؛ ما صليت صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها، ولا سمعت حديثًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حق من الله تعالى>>**، فثلاثة أنا فيهن رجل، أي بطل.

ليس من يقطع الطرق بطل وإنما من يتق الله البطل

***

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ

المعنى الأول:

فـ

(فِي بُيُوتٍ)

معناها أن رجالا مسبحون الله في بيوت أذن الله أن ترفع.

المعنى الثاني:

والمعنى الثاني: أن هذا المصباح:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ)

هذا المصباح يتألق في بيوت أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه.

علاقة الآية بما قبلها:

وقد يسأل سائل: ما علاقة هذه الآية:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

(سورة النور)

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

بالآية التي قبلها ؟

الجواب: أنّ الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض، ونوّر السماوات والأرض، نوّرها بالنبي العدنان، نوّرها بالقرآن، نورها بالعقل، نوّرها بالشرع، نوّرها بعلم النبي عليه الصلاة والسلام، ومن ينوب عن النبي في تلقين الناس العلم والقرآن الكريم، هذا كله أين تجده ؟

(فِي بُيُوتٍ)

معلومات دقيقة في الطب، هذه المعلومات أين تجدها ؟ في كلية الطب، هذا النور الإلهي ؛ أن تعرف الحق من الباطل، وأن تعرف الخير من الشر، وأن تعرف الأحكام الشرعية، أن تعرف ما يجوز وما لا يجوز، هذه المعارف أين موطنها ؟ أين تجدها ؟

(فِي بُيُوتٍ)

هذا النور الذي ذكره الله عز وجل، وذكر أنه يقذف في قلب المؤمن وذكر أنه:

(أوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاس)

(سورة الأنعام: الآية 122)

هذا النور تجده:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

بعضهم قال: العلاقة بين هذه الآية:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْض)

وبين آية:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

أنه كما أن المصباح يشرق بالنور في المشكاة كذلك قلب المؤمن يشرق بالنور في المسجد.

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

فضل المساجد وروادها:

على كلٍّ، البيوت المقصود بها المساجد.

(فِي بُيُوتٍ)

أي في المساجد، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا))

[رواه مسلم]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا رَأَيْتُمْ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ - يعني يأتيها بشكل دوري، وبشكل مستمر - فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ))

[الترمذي، أحمد]

يعمرها بأن يشيد بناءها، ويعمرها بأن يحضر مجالس العلم فيها، ويقول بعض العلماء: من جلس في مسجد فإنما يجالس ربه لماذا ؟ لأنه يستمع إلى كلامه، وإلى شرح كلامه، فما حقه أن يقول إلا خيرا، والحديث الذي تعرفونه جميعاً، عَنْ سَلْمَانَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَهُوَ زَائِرُ اللَّهِ، وحَقٌّ عَلَى الْمَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ الزَّائِرَ))

[مصنف ابن أبي شيبة، معجم الطبراني الكبير]

حديث آخر ؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً))

أما الحديث الذي تهتز له الأعماق فهو ما يلي:

((إِذَا مَشَى الْمُؤْمِنُ إِلَى الْمَسْجِدِ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي زَارَنِي، وَعَلَيَّ قِرَاهُ -القرى معناه الضيافة - وَلَنْ يَرْضَى اللَّهُ تَعَالَى لِوَلِيِّهِ بِقِرًى دُونَ الْجَنَّةِ))

[تفسير ابن كثير]

قد تدخل بيت أخ عزيز، فيقدم لك ما لذ، وطاب من الطعام، هذا الطعام تأكله مرة واحدة، قد يدعوك مرة ثانية، قد يدعوك مرة ثالثة، ولكن عطاء الله عز وجل لا يمكن أن يكون محدودا، فعطاء الله عز وجل ليس له نهاية ينتهي عندها:

((إِذَا مَشَى الْمُؤْمِنُ إِلَى الْمَسْجِدِ قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي زَارَنِي، وَعَلَيَّ قِرَاهُ، وَلَنْ يَرْضَى اللَّهُ تَعَالَى لِوَلِيِّهِ بِقِرًى دُونَ الْجَنَّةِ))

عُمّار المساجد ضيوف الله:

أنت كمؤمن، أنت كإنسان، لو أن أحداً طرق بابك، ودخل إلى بيتك يزورك ألا تحب أن تكرمه، ألا تشعر بحاجة ملحة أن تكرمه.

((قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي زَارَنِي، وَعَلَيَّ قِرَاهُ، وَلَنْ يَرْضَى اللَّهُ تَعَالَى لِوَلِيِّهِ بِقِرًى دُونَ الْجَنَّةِ))

عطاء الله عز وجل لا ينقطع، فالعطاء الذي لا ينقطع هو الجنة، أما الدنيا فهي عطاء ينقطع، إن الله يُعطي الدنيا لمن يحب، ولمن لا يحب، ولكن الجنة لا ينالها إلا من أحبه الله سبحانه وتعالى، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيُحِبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي فَلْيُحِبَّ أَصْحَابِي، وَمَنْ أَحَبَّ أَصْحَابِي فَلْيُحِبَّ الْقُرْآنَ، وَمَنْ أَحَبَّ الْقُرْآنَ فَلْيُحِبَّ الْمَسَاجِدَ))

[انظر لسان الميزان لابن حجر، وميزان الاعتدال عن أنس]

من لوازم حب الله عز وجل أن تحب النبي عليه الصلاة والسلام، لأن محبة النبي عليه الصلاة والسلام هي عين محبة الله عز وجل، ومحبة الله عز وجل من لوازمها محبة النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ أَحَبَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَلْيُحِبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي فَلْيُحِبَّ أَصْحَابِي))

هل يعقل أن تحب النبي عليه الصلاة والسلام، وتذكر هذا الصحابي أو ذاك بالسوء ؟ أيعقل ذلك ؟ إذاً أنت لا تحب النبي عليه الصلاة والسلام، لأنه:

((مَنْ أَحَبّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ فَلْيُحِبّنِي، وَمَنْ أَحَبّنِي فَلْيُحِبّ أَصْحَابي))

لأنه كان دستورهم، كان منهجهم، تخلقوا بأخلاقه، طبقوا أمره، وتركوا نهيه، انتهوا عما عنه نهى.

((وَمَنْ أَحَبّ أَصْحَابي فَلْيُحِبّ الْقُرْآنَ، وَمَنْ أَحَبّ الْقُرْآنَ فَلْيُحِبّ الْمَسَاجِدَ))

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

القرآن يُتلى في المساجد، القرآن يُعلم في المساجد، القرآن يُدرس في المساجد، القرآن يُفسر في المساجد، فالمكان الطبيعي لتلاوة القرآن، ولتعلمه، ولتدبره هو المسجد.

((وَمَنْ أَحَبّ الْقُرْآنَ فَلْيُحِبّ الْمَسَاجِدَ، فَإِنّهَا أَفْنِيَةُ اللّهِ))

هي بيوت الله، الأفنية جمع فناء، وهي الساحة، فإنها أفنية الله تعالى، وأبنيته، هذا بناء الله عز وجل، وهذا الفناء فناؤه، أذن الله في رفعها، وبارك فيها مباركة ميمونة، ميمون أهلها، محفوظة، محفوظ أهلها، هم في صلاتهم، في مجالسهم، في دروسهم، والله تعالى في حوائجهم، التحليل نتيجته جيدة جدا، أنت في المسجد، والله تعالى في حوائجك، هذه القضية حلت، وأنت في المسجد، هذه الحاجة قضيت، وأنت في المسجد، هذه المشكلة تلاشت، وأنت في المسجد، هذا المرض برئ منه ابنك، وأنت في المسجد، غادرت البيت، والحرارة أربعون، فعدت إلى البيت، وحرارة ابنك سبعة وثلاثون، هم في صلاتهم، والله عز وجل في حوائجهم لذلك:

((كُنْ لِي كَمَا أُرِيدُ أَكُنْ لَكَ كَمَا تُرِيدُ، كُن لِي كَمَا أُرِيدُ، وَلاَ تُعْلِمْنِي بِمَا يُصْلِحُكَ، أَنْتَ تُرِيدُ، وَأَنَا أُرِيدُ، فَإِذَا سَلّمْتَ لِي فِيمَا أُرِيدُ كَفَيْتُكَ مَا تُرِيدُ، وَإِنْ لَمْ تُسَلِّمْ لِي فِيمَا أُرِيدُ أَتْعَبْتُكَ فِيمَا تُرِيدُ ثُمّ لاَ يَكُونُ إِلاّ مَا أُرِيدُ))

[نوادر الأصول في أحاديث الرسول، الحكيم الترمذي]

أروع ما في هذا الحديث هم في صلاتهم، والله سبحانه وتعالى في حوائجهم، تعود إلى البيت، وقد تركت الزوجة متبرمة تعود وقد لين الله قلبها فإذا هي تستقبلك في بشاشة، تخرج من البيت، وابنك خارج عن أمرك تعود إلى البيت، وقد انصاع لأمرك، هم في صلاتهم، والله سبحانه وتعالى في حوائجهم، لذلك لا تتوانَ عن حضور مجالس العلم، ولا عن تأدية الصلوات في المساجد، فإنها بيوت الله، هم في مساجدهم تتمة الحديث، هم في مساجدهم، والله من ورائهم يدافع عنهم، حيكت في غيابك مؤامرة الله، فإن عز وجل خالق السماوات والأرض يدافع عنك، وأنت في المسجد، هم في مساجدهم، والله من ورائهم محيط، والله من ورائهم ينصرهم، والله من ورائهم يدافع عنهم.

((مَنْ أَحَبّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ فَلْيُحِبّنِي، وَمَنْ أَحَبّنِي فَلْيُحِبّ أَصْحَابي، وَمَنْ أَحَبّ أَصْحَابي فَلْيُحِبّ الْقُرْآنَ، وَمَنْ أَحَبّ الْقُرْآنَ فَلْيُحِبّ الْمَسَاجِدَ، فَإِنّهَا أَفْنِيَةُ اللّهِ وَأَبْنِيَةٌ أَذِنَ اللّهُ فِي رَفْعِهَا، وَبَارَكَ فِيهَا، مَيْمُونَةٌ،

مَيْمُونٌ أَهْلُهَا، مَحْفُوظَة، مَحْفُوظٌ أَهْلُهَا، هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ، وَاللَّهُ عَزّ وَجَلّ فِي حَوَائِجِهِمْ، هُمْ فِي مَسَاجِدِهِمْ، وَاللَّهُ عَزّ وَجَلّ مِنْ وَرَائِهِمْ يُدَافِعُ عَنْهُم))

ويقول بعض العلماء: **" المساجد مجالس الكرام"**، إن كان كريما تجده في المسجد، وإن كان غير ذلك تجده في المكان الفلاني، وفي المطعم الفلاني، وفي الفندق الفلاني، وفي الملهى الفلاني، لكن كرام الناس تجدهم في المسجد، وإن المساجد بيوت المتقين، ومن وصايا بعض الأصحاب الكرام: **<< عليك بالمساجد فالزمها، فإنه قد بلغني أنها كانت مجالس الأنبياء >>.**

[هو من قول أبي صادق الأزدي ناصحا به شعيب بن حباب، انظر تفسير القرطبي]

وقد ورد في بعض الأحاديث الشريفة:

((كُونُوا فِي الدُّنْيَا أَضْيَافاً، وَاتَّخِذُوا الْمَسَاجِدَ بُيُوتاً، وَعَوِّدُوا قُلُوبَكُمْ الرِّقَّة، وَأَكْثِرُوا التَّفَكُّرَ وَالْبُكَاءَ))

[مسند الشهاب للقضاعي، وحلية الأولياء لأبي نعيم، عن الحكم بن عمير، وانظر كشف الخفاء]

فهذه البيوت التي وردت في هذه الآية الكريمة هي المساجد، وقد ورد في بعض الأحاديث القدسية يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((أَوْحَى اللَّهُ إِلَيّ يَا أَخَا الْمُنْذِرِينَ، يَا أَخَا الْمُرْسَلِينَ، أَنْذِرْ قَوْمَكَ أَلاّ يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ بُيُوتِي إِلاّ بِقُلُوبٍ سَلِيمَةٍ، وَأَلْسُنٍ صَادِقَةٍ، وَأَيْدٍ نَقِيّةٍ، وَفُرُوج طَاهِرَةٍ، وَأَلاّ يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ بُيُوتِي وَلِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِي عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ظُلاَمَة، إِنِّي أَلْعَنُهُ مَا دَامَ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيّ حَتّى يَرُدّ تِلْكَ الظُّلاَمَة إِلَى أَهْلِهَا، فَأَكُونُ سَمْعَهُ الّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الّذِي يُبْصِرُ بِهِ، مِنْ أَوْلِيَائِي، وَأَصْفِيَائِي، وَيَكُونُ جَارِي مَعَ النّبِيّينَ، وَالصِّدّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصّالِحِينَ))

[تفسير القرطبي عن حذيفة]

تظلم الناس، وتدخل المسجد، تأكل حقهم، وتدخل المسجد، تكذب عليهم، وتدخل المسجد، تحتال عليهم، وتدخل المسجد، تقصر في واجباتك، وتدخل المسجد:

((أَوْحَى اللَّهُ إِلَيّ يَا أَخَا الْمُنْذِرِينَ، يَا أَخَا الْمُرْسَلِينَ، أَنْذِرْ قَوْمَكَ أَلاّ يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ بُيُوتِي إِلاّ بِقُلُوبٍ سَلِيمَةٍ، وَأَلْسُنٍ صَادِقَةٍ، وَأَيْدٍ نَقِيّةٍ، وَفُرُوج طَاهِرَةٍ، وَأَلاّ يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ بُيُوتِي وَلِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِي عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ظُلاَمَة، إِنِّي أَلْعَنُهُ مَا دَامَ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيّ حَتّى يَرُدّ تِلْكَ الظُّلاَمَة إِلَى أَهْلِهَا، فَأَكُونُ سَمْعَهُ الّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الّذِي يُبْصِرُ بِهِ، مِنْ أَوْلِيَائِي، وَأَصْفِيَائِي، وَيَكُونُ جَارِي مَعَ النّبِيّينَ، وَالصِّدّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصّالِحِينَ))

لعلك رأيته يصلي في المسجد، قال: هل تعرفه ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أعرفه، قال: **هل سافرت معه ؟** قال: لا، قال: **هل جاورته ؟** قال: لا، قال: **هل حككته بالدرهم والدينار ؟** قال: لا، قال: **لعلك رأيته في المسجد يصلي، إنك لا تعرفه**، لذلك هذا الذي يأكل أموال الناس بالباطل، وهذا الذي يعتدي على الناس، وهذا الذي يظلمهم، وهذا الذي يغتابهم، وهذا الذي يتتبع عوراتهم، وهذا الذي يأخذ ما ليس له،

إذا دخل إلى المسجد فإن الله يلعنه، ومن بعض القصص التي تروى عن سيدنا موسى عليه وعلى سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام: أن السماء شحت فوقف موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام يدعو الله أن يغيث قومه، فأوحى الله له أن يا موسى إن فيكم عاصيا، وبعد أيام أمطرهم الله عز وجل من دون أن يخرج منهم هذا العاصي، فقال موسى: يا رب، من هذا الذي يعصيك حتى نطرده ؟ قال: عجبت لك يا موسى، سترته عاصيا، وأفضحه تائبا، لقد تاب بيني وبينه، سترته عاصيا وأفضحه تائبا.

((... إِنِّي أَلْعَنُهُ مَا دَامَ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيّ حَتّى يَرُدّ تِلْكَ الظّلاَمَةَ إِلَى أَهْلِهَا، فَأَكُونُ سَمْعَهُ الّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الّذِي يُبْصِرُ بِهِ، مِنْ أَوْلِيَائِي، وَأَصْفِيَائِي، وَيَكُونُ جَارِي مَعَ النّبِيّينَ، وَالصِّدّيقِينَ، وَالشّهَدَاءِ، وَالصّالِحِين))

من أحكام دخول المساجد

الحكم الأول: الدخول بالرجل اليمنى والخروج منه باليسرى:

والنبي عليه الصلاة والسلام علمنا أنا إذا دخلنا ندخله برجلنا اليمنى، وإذا خرجنا منه أن نخرج منه بالرجل اليسرى.

الحكم الثاني: الدعاء بما صح عن النبي عليه الصلاة والسلام:

وعلينا أن ندعو الله بهذا الدعاء.

وعَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ سَعِيدٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا حُمَيْدٍ وَأَبَا أُسَيْدٍ يَقُولانِ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلْيَقُلِ: اللّهُمّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ، وَإِذَا خَرَجَ فَلْيَقُلْ: اللّهُمّ إِنّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ))

[مسلم، النسائي، عن أبي حميد وأبي أسيد، وابن ماجه عن أبي هريرة]

لعل الله عز وجل يتجلى على قلوبنا في المسجد:

((اللّهُمّ افْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ))

فإذا خرجنا من المسجد ينبغي أن ندعو ونقول:

((اللّهُمّ إِنّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ))

في الدخول افتح لنا أبواب رحمتك، في التجلي، والنور، وإذا خرجنا للعمل في ميدان الحياة يا ربنا افتح لنا أبواب فضلك.

الحكم الثالث: صلاة ركعتي تحية المسجد قبل الجلوس:

وعَنْ أَبِي قَتَادَةَ السَّلَمِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمْ الْمَسْجِدَ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يَجْلِسَ))

[البخاري، مسلم]

وهما تحية المسجد.

معنى: أَذِنَ اللَّهُ

الله سبحانه وتعالى هو الذي يأذن، وهو الذي يعرف الصادق من الكاذب، وهو الذي يعرف من يبتغي رضوانه، ومن يبتغي الشهرة، وهو الذي يعرف من يبتغي الدنيا، ومن يبتغي الآخرة.

لذلك أذن الله، فإذا كان الله قد أذن يُلهم هذا الذي بيده الإذن فيأذن، وإذا لم يأذن الله عز وجل يُلهم هذا الذي بيده الإذن فلا يأذن.

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ)

والإذن كما قال بعض العلماء **" العلم والإعلام، آذنته أي أعلمته "**، والإذن التمكين من دون حظر، أذنت له أن يفعل، أي سمحت له من دون حظر، أو إذن مع أمر الله سبحانه وتعالى، أمرنا أن نرفع المساجد، أما رفعها فقال العلماء: رفعها بالبناء، ورفعها بالمكانة، رفعها بالمكان، ورفعها بالمكانة، فيجب أن تبنى، ويجب أن ترفع مكانتها، أي يجب أن تبنى، ويجب أن تعظم، معنى:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ)

إن الجهة الوحيدة التي تأذن هي الله سبحانه وتعالى، فإذا أذن الله فقد أذن لك، وإذا لم يأذن الله لم يؤذن لك، فصاحب الإذن هو الله عز وجل، والله خبير، بصير، سميع، عليم، عليم بذات الصدور، يعلم السر وأخفى، لا تخفى عليه خافية، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، هو صاحب الإذن.

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ)

الفاعل الله سبحانه وتعالى:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ)

معنى رفع المساجد:

ورفع البيوت بالبنيان، ورفعها بالمكانة، فقد ورد في صحيحي البخاري ومسلم أَنَّهُ سَمِعَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ يَقُولُ:

عِنْدَ قَوْلِ النَّاس فِيهِ حِينَ بَنَى مَسْجِدَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّكُمْ أَكْثَرْتُمْ وَإِنِّي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَنْ بَنَى مَسْجِدًا يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ))

[أخرجه البخاري ومسلم]

إذاً:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

أي أن تبنى.

يقول الحسن البصري: **معنى تُرفع، أي يعظم شأنها، وأن يرتفع ذكرها وقدرها، وأن تطهر من الأنجاس، والأقذار، وأن تطهر من كل ما فيه معصية، أو إثم، أو امتهان، وأن تصان عن الروائح الكريهة، فلا ينبغي أن يقام إلى جانب المسجد حِرف لها رائحة كريهة، ولا ينبغي أن يقام بجانب المسجد حرف تحتاج إلى تنظيف مستمر، وليس لها منظر مقبول، هذا من باب**

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

وكذلك يجب أن تصان المساجد عن الأقوال السيئة، وعن كلام السفهاء، فهذا من تعظيمها، وهذا من رفعها، ولم يقل الله عز وجل: في بيوت أذن الله أن تبنى، وإنما قال:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

وفرق بين أن تبنى، وبين أن ترفع لهذا، روى البخاري ومسلم عَن عَطَاءٍ أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَوْ بَصَلا فَلْيَعْتَزِلْنَا، أَوْ قَالَ: فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا، وَلْيَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ))

[رواه البخاري، مسلم]

هذا من باب تعظيم المسجد ورفعه وصونا له من أن يتأذى المسلمون في المسجد من رائحة هذا الطعام، طبعاً العلماء قاسوا عليها أن على المسلم أن يرتدي جوارب نظيفة قبل أن يأتي إلى المسجد لئلا يؤذي المسلمين برائحة جواربه، وهذا محمول على البصل والثوم، وسيدنا عمر رضي الله عنه رأى أمة مصابة بجذام تطوف بالبيت فقال: يا أمة الله اقعدي في بيتك، لا تؤذي المسلمين، فلما توفي عمر ودعيت إلى أن تأتي إلى المسجد قالت: والله لا أطيعه حياً، وأعصيه ميتاً، والله لا أفعل، وأمره نافذ حتى بعد وفاته، إذاً كل شيء يؤذي رواد المسجد إن كان رائحة، إن كان فعلا، إن كان تصرفا، إن كان كلاما، هذا كله من تعظيم المسجد، ومن الأمر برفعه، أي أن يكون علياً رفيعاً عن هذه الدنايا، هذا يدخل في باب تعظيم المسجد:

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

(سورة الحج:الآية 32)

هناك أعمال لها رائحة نتنة، وهناك أقوال لها رائحة نتنة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إِنّ الرّجُلَ لَيَكْذِبُ الْكَذْبَةَ فَيَتَبَاعَدُ عَنْهُ الْمَلَكُ مِنْ نَتَنِ رِيحِهِ))

[الطبراني في المعجم الصغير عن ابن عمر]

هناك أعمال لئيمة، وأعمال خسيسة، وأعمال قذرة، وتصرفات شائنة، وكل هذا السلوك له رائحة نتنة، ولكنها نتنة للذي يملك حسا، عَنْ بُرَيْدَةَ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَمّا صَلّى قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: مَنْ دَعَا إِلَى الْجَمَلِ الْأَحْمَرِ ؟ فَقَالَ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((لَا وَجَدْتَ إِنّمَا بُنِيَتْ الْمَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ))

[مسلم، ابن ماجه]

أحيانا قضية صغيرة جداً ؛ قلم ناشف ثمنه ليرة، أيحتاج أن نقطع الدرس لنقول: لمن هذا القلم، لا ينبغي أن يقطع الحديث عن الله عز وجل، وعن آياته بأشياء لا قيمة لها أمام ما يتلى من آيات الله، وما يقال من شروح لهذه الآيات.

وفيما رواه الإمام مسلم عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قال: **بَيْنَمَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ مَعَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إِذْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ فَقَامَ يَبُولُ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: مَهْ مَهْ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:**

((لا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ، فَتَرَكُوهُ حَتّى بَالَ، ثُمّ إِنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ: إِنّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ، وَلا الْقَذَرِ، إِنّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللّهِ عَزّ وَجَلّ، وَالصّلاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ))

[البخاري، ومسلم، واللفظ له]

وفيما رواه الإمام مسلم عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ قَالَ بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللّهُ، فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَا ثُكْلَ أُمّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيّ ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمّتُونَنِي، لَكِنّي سَكَتُّ، فَلَمّا صَلّى رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَبِأَبِي هُوَ وَأُمّي مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللّهِ مَا كَهَرَنِي، وَلا ضَرَبَنِي، وَلا شَتَمَنِي، قَالَ:

((إِنّ هَذِهِ الصّلاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النّاسِ، إِنّمَا هُوَ التّسْبِيحُ وَالتّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ))

[مسلم]

لذلك نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن البيع في المسجد، ونهى عن الابتياع والابتياع هو الشراء، فنهى عن البيع، وعن الشراء في المسجد، ونهى أيضا عن تناشد الأشعار، وسوف نأتي بعد قليل على حكم قراءة الشعر في المسجد، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((إذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَبِيعُ أَوْ يَبْتَاعُ فِي الْمَسْجِدِ فَقُولُوا لَا أَرْبَحَ اللَّهُ تِجَارَتَكَ وَإِذَا رَأَيْتُمْ مَنْ يَنْشُدُ فِيهِ ضَالَّةً فَقُولُوا لَا رَدَّ اللَّهُ عَلَيْكَ))

[الترمذي(1321)، الدارمي(1401)]

من آداب المساجد:

1 – عدم رفع الأصوات:

ويحمل على آداب المسجد عدم رفع الصوت فيه، فهذا الذي يتحدث بصوت مرتفع إنه لا يعظم شعائر الله عز وجل.

2 – إلقاء السلام:

وقد جمع بعضهم آداب المساجد في خمسة عشر أدباً ؛ منها إذا دخلت إلى المسجد، وليس فيه صلاة تؤدى، وليس فيه مجلس علم فيجب أن تلقي السلام.

3 – صلاة ركعتين تحية المسجد:

ومن آداب دخول المسجد أن تصلي فيه ركعتين قبل أن تقعد.

4 – حرمة البيع والشراء فيه:

ومن آداب المسجد ألا تشتري فيه، وألا تبيع فيه.

5 – عدم سلّ السلاح:

ومن آداب المسجد ألا تسل فيه سهما، ولا سيفا، أو مطلق السلاح.

6 – عدم نشد الضالّة:

ومن آداب المسجد ألا تطلب فيه ضالة - شيئا قد ضاع لك - وألا ترفع فيه صوتا إلا بالتكبير، وذكر الله عز وجل.

7 – عدم التكلم بأحاديث الناس:

ومن آداب المسجد ألا تتكلم بأحاديث الناس، ما يسمعه الناس، وما يقولونه، وما يتداولونه في بيوتهم، وفي الطرقات، وفي الحوانيت، هذا الكلام اليومي العادي لا ينبغي أن يقال في بيت من بيوت الله.

8 – الجلوس حيث ينتهي المجلس وعدم تخطي رقاب الناس:

ومن آداب المسجد أن تجلس حيث ينتهي بك المجلس فلا تتخطى رقاب الناس.

يروى أن الإمام مالك دعاه هارون الرشيد أن يأتي بيته، وكان الدعاء متلطفا، فما كان من هذا الإمام ؛ إمام دار الهجرة إلا أن بعث لهارون الرشيد برسالة شفوية قال له فيها: **" يا هارون ؛ العلم يؤتى ولا يأتي "** فلما بلغه هذا الجواب، قال: صدق نحن سنأتيه، فقيل له على لسان الإمام مالك: **" إذا أتيت المسجد فلا أسمح لك بتخطي رقاب الناس"**، فقال: صدق، فلما دخل المسجد وضعوا له كرسيا يجلس عليه، فقال الإمام مالك: **من تواضع لله رفعه، ومن تكبر وضعه، فقال: خذوا عني هذا، وجلس على الأرض**، هذا بيت الله، والله الذي يدعوك، والله الذي يكرمك، ولا فضل لأحد على أحد في هذا المسجد، هكذا الأدب النبوي.

إذاً من آداب دخول المسجد ألا تتخطى رقاب الناس، وألا يتنازع فيه المكان، وكان سيدنا علي يجلس إلى جانب النبي عليه الصلاة والسلام فدخل سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، فقام له علي كرّمَ الله وجهه من مجلسه، فما كان من النبي عليه الصلاة والسلام إلا أن قال:

((لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل))

أحيانا يكون الشاب في مقتبل عمره يجلس في مكان مريح، ويدخل أخ متقدم في السن، له مكانته في خدمة هذا المسجد، فإذا تزحزح له هذا الشاب، ووضعه مكانه فهذا عمل مما يرضي الله عز وجل، لأن إكرام الكبير من السنة النبوية المطهرة، فَعَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ: جَاءَ شَيْخٌ يُرِيدُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَبْطَأَ الْقَوْمُ عَنْهُ أَنْ يُوَسِّعُوا لَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا))

[الترمذي، أحمد]

رحمة الصغير، وإكرام الكبير من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا كان الشاب في مقتبل عمره، صغيرًا في السن، فتي الجسد، له جلد، على أن يجلس في مكان معين، وأعطى مكانه المريح لأخ كريم يكبره سنا، فهذا العمل والله عظيم، فَعَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ))

[الترمذي]

9 – عدم التضييق في الصفوف أو تأخير أحد عن صفه:

ولا يضيق على أحد في الصفوف، ولا أحد يتزحزح من الصف الأول إلى الصف الثاني، لذلك يتزاحمون في الصف الأول، لدرجة أنهم يتضايقون، ولا يستطيعون أن يركعوا، ويسجدوا، فهذا لا يجوز، إذا كان الصف مزدحماً لا بأس أن يتخلف أحدكم إلى الصف الذي بعده.

10– عدم المرور بين يدي المصلي:

وألا يمر بين يدي المصلي.

11– عدم البصق أمامه:

وألا يبصق، هذه غير واردة، والحمد لله، وألا يتنخم، ولا يتمخط فيه، وألا يفرقع أصابعه، فليس من الأدب فرقعة الأصابع في المسجد.

12 – عدم العبث بشيء:

ولا أن يعبث بشيء من جسده، يعبث بلحيته، إن كان له لحية، أو يعبث بذقنه، والذقن غير اللحية، أو يعبث بنظارته، وحمل عليه العلماء من يحمل سبحة في المسجد، ويعبث بها هذا مما يخل بآداب المسجد.

13– التنزه عن النجاسات:

وأن يتنزه عن النجاسات، وأن يأتي بثوب نظيف، وبجوربين نظيفين، وأن يأتي متعطرا.

14– إبعاد الصبية غير المميزين عن المسجد:

وأن نبعد عن المسجد الصبية الصغار دون الخامسة، الذين لا يفقهون ما يقال، هؤلاء عبء على المسجد.

لكن الصغار الذين يفهمون فأهلا بهم، ومرحبا، وهم كالكبار عند الله عز وجل، لكن طفلا عمره ثلاث

سنوات أرادت أمه أن ترتاح منه، فأمرت زوجها أن يذهب به إلى المسجد، فهذا الطفل الصغير يتضايق ساعة من الزمن، ولا يفهم فيها شيئا، وأن يبعد عنه الصبية الصغار، لكن الصبية الكبار الذين يفقهون ما يقال هؤلاء ريح الجنة، هؤلاء الشباب أمل الأمة، هؤلاء رجال المستقبل، هؤلاء الذين تنعقد عليهم الآمال، لذلك أهلاً بهم ومرحباً في بيوت الله، وعلى كل أخ من رواد هذا المسجد أن يكرم الصغار، أن يكرمهم بأن يسمح لهم بأن يصلوا إلى جنبه، فهناك عادات لا ترضي الله عز وجل ؛ أن المصلين، أو بعضهم يؤخرون الطفل إلى صف خلفي، فلا يجوز هذا، فلو وقف في الصف الأول يجب أن يبقى فيه، قد تراه صغيراً، لكنه عند الله عظيم، وما أدراك قد يكون لهذا الصغير أمل كبير.

سيدنا عمر بن عبد العزيز دخل عليه وفد من الحجازيين، يتقدمهم غلام لا يزيد سنه عن أحد عشر عاما، يبدو أنه انزعج، فقال: **اجلس أيها الغلام، وليقم من هو أكبر منك سنا، ليتكلم،** فقال هذا الغلام: أصلح الله الأمير، المرء بأصغريه ؛ قلبه ولسانه، فإذا وهب الله العبد لسانا لافظا، وقلبا حافظا فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر كما تقول أيها الأمير لكان في الأمة من هو أحق منك بهذا المجلس.

دخل غلام على عبد الملك بن مروان أيضا، فانزعج منه، فقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل علينا إلا دخل، حتى الصبية، فقال: أيها الأمير، إن دخولي عليك لم ينقص من قدرك، ولكنه شرفني أتت علينا سنة أذابت الشحم، وجاءتنا سنة أكلت اللحم، وجاءتنا سنة دقت العظم، وبيدكم فضول مال، فإن كانت لكم فتصدقوا بها علينا، وإن كانت لله فعلام تحبسونها عن عباده ؟ وإن كانت لنا فأعطونا إياها، فقال هذا الخليفة: **والله ما ترك هذا الغلام لواحدة فيما يقول عذرا.**

وقصة عبد الله بن الزبير مع سيدنا عمر عندما كان مع غلمان يلعبون، فمر بهم، فتفرقوا لهيبته إلا عبد الله بن الزبير بقي في مكانه، فقال عمر رضي الله عنه: **يا غلام، لمَ لمْ تهرب مع من هرب ؟ قال: أيها الأمير، لستَ ظالما فأخشى ظلمك، ولستُ مذنبا فأخشى عقابك، والطريق يسعني، ويسعك.**

فالصغار ريح الجنة، هناك إخوة كرام يكرمون الصغار، والله سبحانه وتعالى يرضى عن ذلك، فأكرموهم في المساجد، أكرموهم بقدر ما تستطيعون، فإذا جاؤوا إلى المسجد، ورأوا من يكرمهم أحبوا هذه البيوت.

15– عدم إقامة الحدود في المسجد:

ويُحرم أن تقام الحدود في المساجد، أن يجلد الزاني في المسجد، فلا يجوز، هذا بيت الله، هذا مكان الدعوة إلى الله، هذا مكان النور، لا أن تقام فيه الحدود، فلا يجوز أن تقام الحدود في المسجد.

16– استحباب كثرة ذكر الله:

ويستحب أن يكثر الإنسان من ذكر الله في المسجد، وألا يغفل عنه، فإذا فعل هذه الأشياء فقد أدى حق المسجد، وكان المسجد حرزا له، وحصنا من الشيطان.

17– عدم اتخاذ المساجد طرقا:

ومن علامات قيام الساعة أن تتخذ المساجد طُرقاً، مثلاً من باب البريد إلى النوفرة عبر الأموي أسرع، أن تتخذ المساجد طرقا فهذا امتهان للمسجد، أهو طريق ؟ ادخل إلى المسجد، وصلِّ فيه ركعتين، وتابع سيرك، فذلك مقبول، أما أن تجعله طريقا فهذا لا يجوز، وفيما روى الإمام البخاري عَنْ أَبِي مُوسَى عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا مَرَّ أَحَدُكُمْ فِي مَسْجِدِنَا أَوْ فِي سُوقِنَا وَمَعَهُ نَبْلٌ فَلْيُمْسِكْ عَلَى نِصَالِهَا فَلْيَقْبِضْ بِكَفِّهِ أَنْ يُصِيبَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا شَيْءٌ))

[البخاري، مسلم]

لو أن إنساناً يحمل قضيب حديد مثلا فيجب أن يجعله نحو الأسفل لئلا يؤذي به أحداً، أي يجب أن تأخذ احتياطاً بالغاً لئلا تؤذي إنساناً في المسجد، ومن شروط المساجد ألا يُسكَن تحتها، فأن نعمل بيتاً تحت المسجد نؤجره فقد يسكن هذا البيت أناس لا يعرفون الله، يرفعون الصوت بالغناء في أثناء مجالس العلم، وهذا يقع غالبا، لذلك لا يجوز ذلك، يجب أن تكون أرضه حرة، لا تحتها شيء، ولا فوقها، أي هذا المسجد لا يجوز أن يسكن إنسان تحته ولا، فوقه، وألا تجاوره حِرف تؤذي المصلين، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((خِصَالٌ لا تَنْبَغِي فِي الْمَسْجِدِ: لا يُتَّخَذُ طَرِيقًا، وَلا يُشْهَرُ فِيهِ سِلاحٌ، وَلا يُنْبَضُ فِيهِ بِقَوْسٍ، وَلا يُنْشَرُ فِيهِ نَبْلٌ، وَلا يُمَرُّ فِيهِ بِلَحْمٍ نِيءٍ، وَلا يُضْرَبُ فِيهِ حَدٌّ، وَلا يُقْتَصُّ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ، وَلا يُتَّخَذُ سُوقًا))

[ابن ماجه]

18– تجنيب المجانين:

وعَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((جَنِّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِينَكُمْ، وَشِرَاءَكُمْ وَبَيْعَكُمْ، وَخُصُومَاتِكُمْ، وَرَفْعَ أَصْوَاتِكُمْ، وَإِقَامَةَ حُدُودِكُمْ، وَسَلَّ سُيُوفِكُمْ، وَاتَّخِذُوا عَلَى أَبْوَابِهَا الْمَطَاهِرَ، وَجَمِّرُوهَا فِي الْجُمَعِ))

[ابن ماجه]

معنى جمروها في الجمع يعني عطروها بروائح عطرية يحبها المصلون، واجعلوا المرافق العامة بعيدة عن الحرم، لئلا تؤذي المسلمين ببعض الروائح، وقد ورد في الأثر أن الملائكة تعجب من الرجل يمر في المسجد، ولا يصلي فيه، هذا من العجب العجاب ؛ أن تمر بالمسجد، ولا تصلي فيه، وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يفتش المسجد بعد العشاء، فلا يترك فيه أحداً، يجب أن يكون هناك ضبط، وحزم في إدارة المساجد، لعل أحداً اختبأ فيه، وآذى المسجد، وفعل فيه ما لا يرضي الله، يجب أن يُتفقد المسجد بعد العشاء، وأن تُغلق أبوابه بإحكام، وهذا من فعل سيدنا عمر رضي الله عنه، وقد روى البخاري في صحيحه عَنِ السَّائِبِ بْنِ يَزِيدَ قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا فِي الْمَسْجِدِ فَحَصَبَنِي رَجُلٌ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَقَالَ: **<< اذْهَبْ فَأْتِنِي بِهَذَيْنِ فَجِئْتُهُ بِهِمَا قَالَ: مَنْ أَنْتُمَا أَوْ مِنْ أَيْنَ أَنْتُمَا قَالا: مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ قَالَ: لَوْ كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لأَوْجَعْتُكُمَا، تَرْفَعَانِ أَصْوَاتَكُمَا فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ >>.**

[رواه البخاري]

هذا ليس من آداب المساجد، وسيدنا عمر رضي الله عنه سمع صوت رجل عاليا في المسجد فقال لصاحب الصوت: **<<أتدري أين أنت ؟ أنت في بيت الله >>.**

وسيدنا خلف بن أيوب كان جالسا في مسجد رسول الله، فأتاه غلامه يسأله عن شيء، فقام معه، وخرج من المسجد، وأجابه خارج المسجد، فقيل له في ذلك، فقال: **<< والله ما تكلمت في المسجد بكلام الدنيا منذ كذا وكذا >>.**

وروى سعيد قال: حدثني أبي عن أبيه عن جده عن أبي هند رضي الله عنه، وهذا من أصحاب رسول الله قال: **حمل تميم الداري من الشام إلى المدينة قناديل وزيتا ومقطا- يعني حبالا - فلما انتهى إلى المدينة وافق ذلك ليلة الجمعة، فأمر غلاما له، فقام فمشط المقطة يعني ربط الحبال، وعلق القناديل عليها، وصب فيها الماء والزيت، وجعل فيها الفتيل، فلما غربت الشمس أمر غلامه فأسرجها - فأشعلها - فدخل عليه الصلاة والسلام إلى المسجد، فإذا هو بها تزدهر مضاءة، فقال من فعل هذا ؟ دققوا أيها الأخوة، قال: من فعل هذا ؟ قالوا: فعله تميم الداري يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام:**

((نورت الإسلام يا تميم نور الله عليك في الدنيا والآخرة، أما إنه لو كانت لي ابنة لزوجتكها))

من شدة فرحه به، وامتنانه له قال: **أما إنه لو كانت لي ابنة لزوجتكها** وكان صحابي اسمه نوفل بن الحارث واقفًا فقال: **يا رسول الله أنا لي ابنه اسمها المغيرة، فافعل بها ما أردت، فأنكحه إياها،** لأنه جاء بالحبال، وعلقها بالسقف، وجاء بالقناديل، ووضع فيها الفتيل، وصب فيها الماء والزيت، وأسرجها

بعد الغروب، فدخل عليه الصلاة والسلام فرأى المسجد يتلألأ بالأضواء، فقال: **من فعل هذا ؟ قالوا: تميم فقال: يا تميم.**

((نورت الإسلام نور الله عليك في الدنيا والآخرة))

فأي خدمة تقدمها للمسجد، أي عمل، أي مصباح تقدمه، أي جهاز تقدمه، نقول كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أكرمك الله كما أكرمت هذا المسجد))

وسيدنا عمر كان يجمر المساجد كل يوم جمعة، يعني يعطرها.

هذه بعض الأحكام المتعلقة في المساجد، وصلنا إلى قوله تعالى:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

في الدرس القادم إن شاء الله نتابع الحديث عن ذكر الله.

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

رفعت، ويذكر فيها، وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (16-23): تفسير الآيات 36 – 39
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-01-13

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس عشر من سورة النور، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (37) لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (38))

(سورة النور)

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ

أيها الإخوة الأكارم، في الدرس الماضي توضح لكم من قول الله عز وجل:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

معنى ترفع أي تبنى، وتعظم، وقد أوردت في الدرس الماضي أحاديث كثيرة عن فضل ارتياد المساجد، وعن آداب المسلم في المسجد، وهذا كله يغطيه قول الله عز وجل:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

ومعنى ترفع أي تبنى، وتعظم.

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

(سورة الحج: الآية32)

من معاني: فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ

المعنى الأول: البناء والتعظيم:

يضيف المفسرون إلى هذه الكلمة معنىً ثالثاً:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

أن تبنى، وأذن الله أن ترفع أن تعظم.

المعنى الثاني: رفع الحاجات إلى الله:

وأذن الله أن ترفع أي أن ترفع فيها الحاجات إلى رب الأرض والسماوات، فما من إنسان على وجه الأرض إلا وله حوائج كثيرة، قد يطرق باب زيد، أو عبيد، أو فلان، أو علان، الإنسان من طبعه الشح، والعلاقات بين الناس قائمة على المشاحة، لكن الإنسان إذا توجه إلى الله سبحانه وتعالى، توجه إليه في المسجد، وطلب منه حوائجه، هناك حوائج تعينه على أمر الآخرة، فلو طلب المؤمن من ربه وهو في المسجد أن يرزقه رزقا حلالا طيبا، فهذا طلب معقول، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر: الآية60)

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ لَمْ يَدْعُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ غَضِبَ عَلَيْهِ))

[ابن ماجه]

وفي رواية الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ لَمْ يَسْأَلْ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ))

[الترمذي]

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنّ اللّهَ يُحِبُ الْمُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ))

[القضاعي في مسنده]

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّى يَسْأَلَ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ))

[ابن حبان]

فالإنسان المؤمن له باب لا يغلق، وهو باب الله عز وجل، المؤمن شرفه القيام بالليل، وعزّه استغناؤه عن الناس، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أُطْلُبُوا الْحَوَائِجَ بِعِزّةِ الأَنْفُس فَإِنّ الأُمُورَ تَجْرِي بِالْمَقَادِير))

[فيض القدير]

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

هو سمح لك أن ترفع إليه حاجاتك في بيته، أنت في بيته، وإليه ترفع الحاجات، فما من شاب، وما من رجل، وما من شابة، وما من امرأة لها عند الله حاجة، وعليها أن ترفعها إلى الله عز وجل، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ))

[البخاري، مسلم، واللفظ له، الترمذي، أبو داود، النسائي]

ولفظ البخاري:

((يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ ؟))

إذاً ارفع إلى الله حاجاتك، لكن الله سبحانه وتعالى لا يسمع دعاء الداعي إلا بشروط، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

(سورة البقرة: الآية186)

في أكثر من عشر آيات في القرآن الكريم تأتي الصيغة على الشكل التالي:

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

(سورة البقرة: الآية219)

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ)

(سورة البقرة: الآية219)

(يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

(سورة البقرة: الآية189)

في أكثر من عشرة مواضع يأتي قوله تعالى على شكل يسألونك، فتأتي كلمة قل بين السؤال والجواب، إلا في آية واحدة في كتاب الله ليس لها مثيل:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

أي من دون وسيط.

(أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي)

الإنسان أحيانا يدعو الله عز وجل، وقلبه معلق بزيد أو عبيد، يدعو الله عز وجل وهو معتمد على فلان، يدعو الله عز وجل وهو متوكل على ماله، أو على جاهه، أو على أصدقائه، فلذلك ربنا عز وجل يقول:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي)

إذا دعوت الله حقا فالله سبحانه وتعالى يستجيب لك، وربنا عز وجل أعظم من أن تدعوه مخلصا فلا يستجيب لك، لذلك أي أخ كريم له حاجة ملحة له فليدع الله عز وجل مخلصا.

(أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي)

استجب لأمر الله أولا، وسوف تجد كيف أن الله يجيب دعاءك.

(فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

إلى الدعاء الصحيح.

آمن بالله أولاً، واستجب لأمره ثانياً، ثم ادعه ثالثاً، وسوف ترى كيف أن الدعاء يتحقق، وأن الله سبحانه وتعالى ما خلق لك هذه الحاجة إلا من أجل أن تدعوه، فإذا دعوته، واستجاب لك عرفت أن لك رباً لا ينساك، وأنه سميع الدعاء، وأنه قريب مجيب.

لذلك المعنى الثالث من معاني:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

أي أن ترفع فيها حاجات المصلين، اسجد لله عز وجل، واطلب من الله الهدى، اطلب من الله الرزق الحلال، اطلب من الله الذي ترجوه.

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ)

الإذن: العلم، ورفع الحظر، لكن الله عز وجل لم يقل: أمر الله أن ترفع، بل قال: أذن الله أن ترفع، وثمة فرق كبير بين أذن الله أن ترفع، وبين أمر الله أن ترفع، تقول: أمر الناس بدفع ما عليهم من تكاليف للخزينة، وقد أذن لهم أن يستوردوا، لمَ أذن لهم أن يستوردوا، ولمَ أمروا أن يدفعوا ما عليهم من تكاليف ؟ لأن الشيء الذي سمح لهم محبب إليهم، وهم راغبون فيه، فالله سبحانه وتعالى جعل كلمة أذن بمعنى أن هذا الذي ورد بعد الإذن شيء محبب للناس، لذلك أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه، أما أن يذكر فيها اسمه فيعني أن تذكر أسماؤه الحسنى أن يذكر فيها اسمه، اسمه الرحيم أن يذكر فيها، اسمه العليم، اسمه القدير، اسمه اللطيف، اسمه الغني، اسمه السميع، اسمه المجيب، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ))

[البخاري، مسلم]

وهذا لا يعني مَن عدّها، ولكن من تحقق بها، لا يكفي أن تؤمن بالله عز وجل خالقاً فإبليس قال:

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الحجر: الآية39)

إن إبليس يعتقد أن له ربا، لكنك لن تستكمل الإيمان حتى تؤمن بالله خالقاً، وبالله مربياً، وبالله مسيراً، وأن تؤمن بأسمائه الحسنى، وبصفاته الفضلى، فاسأل نفسك هذا السؤال: ماذا أعرف عن اسم الله الرحيم ؟ كيف تواجه خبر البلد الذي مات من العطش، وهذا البلد الذي مات من الجوع، وهذا الزلزال الذي ضرب البلاد الفلانية، وهذا البركان الذي دمر هذه المنطقة الفلانية ؟ هل عندك جواب ؟ وهل عندك

يقين برحمة الله عز وجل على الرغم من هذه الأخبار ؟ كيف توفق بين رحمة الله عز وجل، وما يجري بالحياة من مصائب ؟ يجب أن تقف موقفا واضحا، ويجب أن تتحقق من اسم الله الرحيم، ويجب أن تتحقق منه.

معنى: وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ

إذاً:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

المعنى الأول: معرفة الله تعالى:

ليس بيت الله من أجل أن تصلي فقط، من أجل أن تصلي، ومن أجل أن تعرف الله عز وجل، فكأن هذه الآية تشير إلى أن الوظيفة الأولى لبيوت الله ؛ أن تعلم الناس كل شيء عن الله عز وجل، وأن تعلم الناس شيئا كثيراً عن أسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى، فالقصد الأول التعليم، والقصد الأول التعريف، القصد الأول أن تذكر الله بأسمائه كلها، وأسماء الله كلها حسنى، وصفاته كلها فضلى، لذلك هناك إلحاد في الذات، وإلحاد في الأسماء، فمن أيقن بوجود الله، وشك في رحمته فهو ملحد بشكل أو بآخر، ملحد في بعض أسمائه، ولن تستكمل الإيمان إلا إذا عرفت الله بأسمائه الحسنى كلها. لذلك:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

المعنى الثاني: الصلاة:

يذكر فيها اسمه، وبعضهم قال: الصلاة، لقول الله عز وجل:

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه: الآية14)

ولقول الله عز وجل:

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ إِنّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت: الآية45)

أي ذكر الله أكبر ما في الصلاة، وربنا سبحانه وتعالى أشار إلى أن جوهر الصلاة، وسر الصلاة في ذكر الله عز وجل:

(وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(كَلّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

الصلاة قرب، ولو يعلم المصلي من يناجي ما التفت، والصلاة مناجاة.

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2))

(سورة المؤمنون: الآيات 1-2)

الصلاة خشوع، الصلاة ذكر، الصلاة قرب، الصلاة عروج إلى الله عز وجل، الصلاة معراج المؤمن.

الصلاة نور، فعَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((الطّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللّهِ وَالْحَمْدُ لِلّهِ تَمْلآنِ، أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصّلاةُ نُورٌ))

[مسلم(223)]

الصلاة راحة وسعادة، فعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ، قَالَ مِسْعَرٌ: أُرَاهُ مِنْ خُزَاعَةَ: لَيْتَنِي صَلّيْتُ فَاسْتَرَحْتُ فَكَأَنّهُمْ عَابُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: يَقُولُ:

((يَا بِلالُ أَقِمِ الصّلاةَ، أَرِحْنَا بِهَا))

[أبو داود]

الصلاة وعي، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

(سورة النساء: الآية43)

الصلاة عقل: ليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها.

لذلك يقول بعض المفسرين:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

أي يصلى فيها.

والأولى أن نجمع بين المعنيين، فإنما أنشأت بيوت الله عز وجل ليصلى فيها، أي ليتصل العباد بربهم، وليتعلموا شيئا عن ربهم، وأحكام دينهم، فهو اتصال وتعلم.

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوّ وَالْآصَالِ)

معنى: يُسَبّحُ لَهُ فِيهَا

وبعضهم يقول: كل تسبيح في القرآن صلاة، لأنك إذا سبحت الله فقد مجدته، ونزهته، فإذا وقفت في الصلاة قلت:

(الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (2) الرّحْمَنِ الرّحِيمِ (3) مَالِكِ يَوْمِ الدّينِ (4) إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ (5))

ثم تركع، فتقول: سبحان ربي العظيم، ثم تسجد، فتقول: سبحان ربي الأعلى، وهذا الذي ناجى ربه فقال: يا رب، حينما قال الله عز وجل:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى*فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى)

(سورة طه: الآيات 43-44)

قيل: يا رب، إذا كانت هذه رحمتك بمن قال: أنا ربكم الأعلى، فكيف رحمتك بمن قال: سبحان ربي الأعلى ؟ وإذا كانت هذه رحمتك بمن قال: ما أعلم لكم من إله غيري، فكيف رحمتك بمن قال: لا إله إلا الله ؟ لو يعلم المعرضون حبي لهم، وانتظاري إليهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقا إلي، يا داود هذه إرادتي بالمعرضين، فكيف إرادتي بالمقبلين، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، فلذلك بعضهم قال: كل تسبيح ورد في القرآن الكريم يعني الصلاة.

إذاً:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا)

أي يصلي له يسبح له فيها بالغدو والآصال، غدا أي خرج قبل الشمس، وراح عاد إلى بيته بعد الغروب، فالغدو هو الذهاب، والرواح هو المجيء، والمقصود أن هؤلاء الرجال الذين يذكرون الله عز وجل، ويذكرون أسماءه الحسنى، وصفاته الفضلى، ويتعلمون شيئا عن كمالاته، ويتعلمون أوامره، ويتصلون به في بيوت الله، هؤلاء يفعلون ذلك كل يوم، وكل صباح ومساء، بل إن بعض المفسرين قال: هذا ينطبق على الصلوات المفروضات، لأن الغدو يعني به صلاة الصبح، والآصال يعني صلاة الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، أو صلاة العصر وحدها، وقد كان قبل فرض الصلوات الخمس أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام يصلون قبل الشمس، وفي وقت العصر، على كل يسبح له فيها بالغدو والآصال أي يتصل هؤلاء الرجال صباحا ومساء، وكل يوم، وهذا يرجح أن تكون كلمة يسبح يعني يصلي، والقرينة بالغدو والآصال، لذلك ورد في بعض الأحاديث القدسية:

((ابن آدم، لا تعجز عن ركعتين قبل الشمس أكفك النهار كله))

[ورد في الأثر]

أنت في هذا النهار في حفظ الله، وفي توفيق الله، وفي رعاية الله، والله يدافع عنك، ويتولى شأنك كله، هم في مساجدهم، والله في حوائجهم، هم في صلاتهم، والله من ورائهم، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد، ولا تعلمني بما يصلحك، أنا أعلم، وأعرف ما يصلحك، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما

أريد، فعَنْ بُرَيْدَةَ الْأَسْلَمِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَشِّرْ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[الترمذي، أبو داود، ابن ماجه]

معنى كلمة رجال إذا وردت في القرآن:

وأما فاعل يسبح فهو رجال.

(يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ)

ومرة ثانية: كلمة رجال في القرآن الكريم لا تعني الذكران، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ذكرًا وأنثى، فكلمة رجل في القرآن الكريم لا تعني أنه ذكر، تعني أنه بطل، وهذا يؤكده قول سعد بن أبي وقاص: **<< ثلاثة أنا فيهن رجل ؛ وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس: ما صليت صلاة فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها - هذه بطولة - ولا سمعت حديثا من رسول الله إلا علمت أنه حق من الله تعالى، ولا سرت في جنازة فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها>>.**

إذاً: رجال أيْ أبطال، يؤكد هذا ما في سورة الأحزاب:

(مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)

[سورة الأحزاب: الآية23]

مقياس القرآن للرجولة:

يجب أن يكون الإنسان رجلاً كما أراد الله عز وجل، ويجب أن ترقى في المقاييس التي وضعها الله في القرآن، لا أن ترقى في المقاييس التي تواضع الناس عليها، فإن الناس يعظمون أصحاب الأموال، ويعظمون الأقوياء، ويعظمون أصحاب الدرجات العليا في العلم، ولو كانوا كفارا، هذه مقاييس تواضع الناس عليها، ولكنك إذا كنت بطلاً ترتفع في المقياس الذي وضعه الله في القرآن الكريم، قال:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام: الآية132]

المقياس الوحيد الذي ورد في القرآن الكريم، والذي أشار إلى مرجح وحيد يمكن أن يكون مقياساً بين الناس هو العلم، العلم بالله لقول الله عز وجل:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ)

[سورة الزمر: الآية9]

وقد قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالى **" حيثما وردت كلمة العلم في الكتاب والسنة فإنما تعني العلم بالله لأنك إذا عرفت الله عرفت كل شيء، وإذا فاتك فاتكَ كل شيء "...** رجال.... الحياة تمضي، وكل الذي تستمتع به في الدنيا يمضي، وينتهي عند الموت، ولكن الأعمال التي ترضي الله تسعدك إلى الأبد، فوازن بين كل أعمالك، فالعمل الذي يمتد أثره بعد الموت احرص عليه، والعمل الذي يمتد أثره بعد الموت هذا العمل الذي هو يسعدك إلى الأبد، وأي عمل مهما علا شأنه إذا كان ينتهي عند القبر فهذا العمل خسارة في خسارة، إلا أن يبتغى به وجه الله تعالى، لذلك يقول الله عز وجل:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

[سورة الكهف: الآيات 103-104]

قد تخطئ خطأً كبيراً عندما تنطلق في علاقاتك في حركتك اليومية من أفكار ليست صحيحة، والعلماء قالوا: العلاقات العلمية تعني أن تقوم علاقة بين شيئين مقطوع بصحتها يؤكدها الواقع، عليها دليل، فإذا أردت أن تنطلق في كل حركة من حركاتك اليومية من هذه المقولة، أو من هذه القاعدة، فإنك لابد أن تصل إلى السعادة في الدنيا والآخرة لو لم يكن هذه المقولة، أو هذه الفكرة، أو هذه القاعدة، لو لم تكن مطابقة للواقع، فهذا الجهل بعينه لو لم يكن عليها دليل، فهذا التقليل بعينه لو لم يكن مقطوعًا بصحتها فهو الشك، أو هو الظن، أو هو غلبة الظن، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(رِجَالٌ)

وربنا عز وجل إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك، فيجب أن تعلم، أو يجب أن تسعى لإرضاء الله عز وجل، إن كلمة رضي الله عنهم، ورضوا عنه لهي أعلى مرتبة ينالها مخلوق في الكون، رضي الله عنك، فرضي الله عن أصحاب رسول الله، هذه صيغة فعل ماض، يعني لقد رضي الله عنهم، وانتهى، لكن إذا قيل لإنسان رضي الله عنك هذه صيغة دعائية، أيْ أرجو الله أن يرضى عنك، أرجو الله أن تعمل عملا يرضيه، لذلك هؤلاء الصوفيون الذين لهم أوراد في الصباح يقولون: إلهي، أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، أنت ترضي من ؟ هناك من يرضي زوجته، فقد خاب وخسر إن أرضاها بمعصية الله، وهناك من يرضي من هو فوقه في العمل، خاب وخسر إن أرضاه في معصية الله، هذا الذي يرضي الناس في معصية الله.

قولاً واحداً، لا يعرف الله، ولا يعرف ما عنده من ثواب، ولا يعرف ما عنده من عقاب، ولا يعرف أن المصير إليه، ولا يعرف أنه راجع إليه، وما قال: الله أكبر حقيقة، ولو قالها بلسانه ألف مرة، قل: الله أكبر مليون مرة، فإذا أطعت إنساناً، وعصيت الخالق معنى ذلك أنك رأيت أن هذا الإنسان أكبر من الله عز وجل، وقد آثرت أن ترضيه، وأن تسخط الله عز وجل، فالتعامل مع هذه الكلمات التي يقولها

المسلمون كل يوم التعامل معها الآن أصبح تعاملا شكليًا، نسمع الأذان كل يوم ؛ الله أكبر، تصلي، وتقول: الله أكبر، فهل أنت في مستوى هذه الكلمة ؟ هل تعلم أنك إن قلتها مرة واحدة بشكل صحيح سعدت في الدنيا والآخرة، هل تعلم أنك إن قلتها مرة واحدة بشكل صحيح لا ينبغي لك أن تعصي الله أبدا، ولا ينبغي لك أن تطيع مخلوقا، وتعصي خالقا. هذا المقياس الإلهي:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)

[سورة النور]

رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ

التجارة عمل، والإنسان مكلف أن يعمل، ومكلف أن يكسب رزقه، وربما تقرب إلى الله بالعمل، وربما أنفق المال الذي حصله بالعمل في وجوه ترضي الله عز وجل، بل إن بعض الناس يقول: إن العمل عبادة، وفي هذا القول جانب كبير من الصحة، ولكن أن يكون العمل على حساب دينك، أو على حساب طاعة ربك، أو على حساب صلواتك، أو على حساب عباداتك، فهذا العمل خرج عن الحد المألوف، خرج عن دائرة القبول، خرج عن الوضع الصحيح، لذلك هؤلاء الرجال لا تلهيهم تجارة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إنّ أطْيَبَ الْكَسْبِ كَسْبُ التُّجّارِ الّذِينَ إذَا حَدّثُوا لَمْ يَكْذِبُوا، وَإذَا وَعَدُوا لَمْ يُخْلِفُوا، وَإذَا ائْتُمِنُوا لَمْ يَخُونُوا، وَإذَا اشْتَرَوْا لَمْ يَذُمّوا، وَإذَا بَاعُوا لَمْ يُطْرُوا، وَإذَا كَانَ عَلَيْهِمْ لَمْ يَمْطُلُوا، وَإذَا كَانَ لَهُمْ لَمْ يُعَسِّرُوا))

[البيهقي في شعب الإيمان عن معاذ]

والنبي عليه الصلاة والسلام رأى شابا يصلي نهارًا في المسجد فقال: من ينفق عليك ؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك، فالعمل مطلوب.

(وَقُلِ اعْمَلُوا)

[سورة التوبة: الآية105]

وكسب الرزق الحلال فرض بعد الفريضة، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، وَوَاضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ))

[ابن ماجه]

هناك حديث شريف آخر:

((طَلَبُ الْحَلَالِ فَرِيضَةٌ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ))

[سنن البيهقي الكبرى]

عليك أن تصلي، وعليك أن تطلب الحلال، عليك أن تبحث عن عمل، عليك أن تقدم شيئاً، عليك أن تكون يدك هي اليد العليا، ولكن أن نعمل، ولا نصلي فقد انحرف العمل عن الحدود التي رسمها الله له، نعمل على حساب ديننا، نكسب المال من شبهات، لسنا متأكدين من صحتها، ننفق المال في وجوه لا ترضي الله عز وجل.

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ)

قد يسأل سائل: ألا تعني التجارة البيع والشراء ؟ فلِمَ جاء البيع بعد التجارة ؟ قال العلماء:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

الذكر مستمر.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب: الآية41)

وهذا يؤكده قول الله عز وجل:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

(سورة المعارج: الآية23)

كيف دائمون ؟ وهو في محله، وهو وراء مكتبه، وهو يركب مركبته يذكر الله عز وجل، ودائما ذكر الله عز وجل ملء نفسه، ملء تفكيره، ملء مشاعره، ملء ساحة نفسه، فذكر الله عز وجل يجب أن يكون مستمرا، وكلما طالت فترة الذكر، وقلت فترة الغفلة ارتقى الإنسان في مراتب الدرجات العلى. لذلك الأنبياء صلوات الله عليهم تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم، لأن مرتبة النبوة اتصال دائم بالله، ومرتبة الصديقية أدنى من ذلك، أما أنتم، فيا أخي ساعة فساعة، المؤمن ساعة، فساعة، لكن كلما طالت فترات الذكر، وقلت فترات الغفلة ارتقى الإنسان في معارج القرب عند الله عز وجل، فهؤلاء الرجال لا تلهيهم تجارة، ويروى أن أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا وزن شيئاً، وسمع النداء ترك الشيء في الميزان، وذهب إلى المسجد، وكان صانعاً للسيوف على عهد النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا أنزل المطرقة على السيف، وأذن المؤذن ترك المطرقة على حالها، بل رماها خلف ظهره، وتوجه إلى المسجد، فقال بعضهم: هؤلاء ممن تعنيهم هذه الآية، لكن ثمة حالات أخرى، هذا الذي يفتح بطن إنسان، ويجري عملية، فإذا أذن المؤذن لا ينبغي له أن يدع العملية، وهذا البطن مفتوح، ربنا عز وجل جعل الإسلام دين يسر، هناك حالات إنسانية قاهرة، فعلى الإنسان أن يصلي ضمن الوقت المسموح به.

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ)

فنحن سؤالنا: لماذا قال الله عز وجل:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ)

مع أن البيع من التجارة ؟ فكما أن ذكر الله مستمر، والتسبيح في وقت محدود فكذلك التجارة هنا، وقد حدثني شخص قال: إن حساب الصندوق لا ينضبط إلا، وأنا في الصلاة، فأجد في الصلاة ماذا دفعنا، وماذا قبضنا، فهؤلاء على الرغم من أنهم يصلون فالتجارة تلهيهم عن الصلاة.

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ)

فيه احتمال للربح، لكن البيع الربح فيه محقق، فلو أن إنساناً يعمل موظفاً، وليس تاجراً، لكن يبيع الآن بيتًا، وترك الصلاة من أجل ذلك، فكل إنسان يبيع، وليس كل إنسان بتاجر.

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)

إن ذكر الله أعظم شيء، لقول الله عز وجل:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت: الآية45)

أيْ أكبر ما فيها.

معنى إقامة الصلاة:

وإقام الصلاة أن يذكر الله دائماً، في سره، وفي علنه، في سفره، وفي حضره، في بيته، وفي عمله، وإقام الصلاة تحتاج إلى إقامة، تقول: أقام البناء، أيْ أشاده، فالإقامة هنا لها معان عدة، من معانيها أن يجعل صلاته صحيحة، وأن يجعل صلاته مستقيمة إلى الله عز وجل، لا عوج بها، أو أن يجعل لهذه الصلاة تمهيداً من عمل صالح، أو استقامة على أمر الله، أو من بذل، أو من تضحية، فهؤلاء الرجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، قال بعضهم: الزكاة التي فرضها الله عليك، وبعضهم قال: لو أن هؤلاء الرجال لا مال لهم، فأين الزكاة ؟ قال بعضهم: إن الزكاة هنا أن تزكو نفوسهم من هذه الصلاة، يعني اتصالهم بالله ينتج عنه تزكية لنفوسهم.

معنى: يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ

هذا اليوم الذي لابد منه، هذا اليوم الذي ترتعد فيه الفرائص، هذا اليوم الذي لا ينفع الإنسان فيه شيء إلا عمله الصالح.

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

[الشعراء: 88-89]

السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: **يا رسول الله يوم القيامة أيعرف بعضنا بعضاً ؟** فقال عليه الصلاة والسلام:

((نعم، يا أم المؤمنين، يعرف الناس بعضهم بعضا إلا في ثلاثة مواضع، عند الحشر، وعند الميزان، وإذا الصحف نشرت، وفيما سوى ذلك فقد تبصر الأم ابنها يوم القيامة، تقول: يا بني جعلت لك حجري وطاء، وصدري سقاء، فهل من حسنة يعود علي خيرها اليوم ؟ فيقول هذا الابن: يا أماه ليتني أستطيع ذلك، إنما أشكو مما أنت منه تشكين))

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

يا قيس، إن لك قرين يدفن معك، وهو حي، وتدفن معه، وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ألا وهو عملك، هذا اليوم تتقلب فيه القلوب بين الخوف والرجاء، لو أنزل الله عز وجل على أنبيائه أنه معذب أحداً لظننت أنه أنا، هكذا قال سيدنا عمر.

(يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)

الأبصار قد تعمى بعد أن كانت مبصرة، أو قد ترى حينما يقدم لها كتابها، هل قدم كتابها بيمينها فتنتظر من طرف خفي، وأين سيقودونها، إلى الجنة أم إلى النار ؟ الأبصار تضطرب في هذا اليوم، تتقلب فيه القلوب والأبصار.

المعنى الأول:

قال بعضهم: تتقلب القلوب من الصدور إلى الحناجر.

(وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ)

(سورة الأحزاب: الآية10)

هذا تقلب.

المعنى الثاني:

وبعضهم قال: تتقلب فيه الأبصار من البصر إلى العمى.

المعنى الثالث:

وبعضهم قال: تتقلب فيه القلوب من الطمع إلى الخوف، ومن الخوف إلى الطمع، لا يدري أفائز أم خاسر ؟

المعنى الرابع:

وبعضهم قال: تتقلب فيه الأبصار بمعنى أنها تنتظر دورها، أتساق إلى الجنة، أم إلى النار ؟

المعنى الخامس:

وبعضهم قال: في هذا اليوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، أيْ أن الحقائق تبدو كما هي، فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد، كل ما كان يقال في الدنيا من باطل يزول، ويبقى الحق الصريح الذي جاء به الأنبياء يراه كل إنسان، ويوقن به كل مخلوق، فلذلك لابد أن تعرف الحقيقة، إن عرفتها قبل فوات الأوان فأنت بطل، أما بعد فوات الأوان فلابد أن نعرفها جميعا، ولكن يتفاوت الناس في وقت معرفتها، إذا عرفت إجابة السؤال قبل الامتحان فقد نجحت، أما إذا عرفت الإجابة بعد الامتحان فهذه المعرفة لا تنفعك:

(لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

(سورة النور)

معنى: لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ

الله سبحانه وتعالى يختار من أعمالك أفضلها فيجازيك عليها، فلو أن الطالب أجرى عشر مذاكرات، وأخذ في مذاكرة نقطتين من عشر، وفي أخرى خمسًا من عشر، وفي الثالثة سبعًا من عشر، وأخذ في إحدى هذه المذاكرات عشر نقاط من عشر تثبت هذه العلامة، ويعطى عليها مكافأة، هذا معنى قول الله سبحانه وتعالى:

(لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ)

أن يزيدهم من فضله، وأن يعطيهم فوق ما عملوا، فالإنسان يطعم اللقمة في سبيل الله، فيراها يوم القيامة كجبل أحد، المؤمن يعرق إذا جاءه ملك الموت، يعرق عرق الخجل بعد أن يعرف مقامه عند الله، يرى أن عمله كله لا يكفي لهذا العطاء، لأن هذا العمل الذي قدمه في الدنيا لا يعد ثمنا لهذا العطاء،

لذلك فالجنة ندخلها بفضل الله عز وجل، والذين يدخلون النار يدخلونها بعدل العطاء، بمحض الفضل والجزاء، وبمحض العدل.

(لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ)

بعضهم قال: يدخلون الجنة كجزاء لأعمالهم، وأما حينما يتجلى الله عز وجل على قلوبهم فهذه هي الزيادة، وهي رؤية وجه الله الكريم:

وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ

عطاء الله عز وجل ليس عطاء معاوضة، أنت ما قدمت شيئا، وما قدمت ثمناً حقيقياً لهذا العطاء، قدمت ثمناً رمزياً، استقمت على أمر الله، فعلت الصالحات بفضل الله أيضا، فاستحققت دخول الجنة إلى الأبد، فهل تظن أن هذه الجنة استحققتها بعملك فقط، فلو أنك استحققتها بعملك لكانت هذه الجنة عوضاً عن عملك، ولكان عملك مكافئاً للجنة، وهذا مستحيل.

(وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

ربنا عز وجل إذا أعطى أدهش، شيء آخر ربنا عز وجل بعد أن بين هؤلاء الرجال العظام الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والذين يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار، الطالب المجتهد دائما الامتحان في ذهنه، من أول يوم من العام الدراسي الامتحان في ذهنه، يسأل كيف يأتي السؤال، هل يأتي مسألة ؟ هل يأتي سؤالا نظريًا ؟ كيف أحفظ هذا الدرس ؟ كيف ألخصه ؟ كيف أتفوق فيه ؟ فهذا الامتحان ماثل في ذهن كل طالب مجتهد، لذلك هؤلاء الرجال العظام هكذا يقابل هؤلاء.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

(سورة النور)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ

هذا الكافر له عمل ظاهره حسن، وله عمل سيئ، لو أنه أخذ شيئا ليس له فهذا عمل سيئ، لو أنه ظلم الناس فهذا عمل سيئ، لو أنه قهرهم، لو أنه بنى مجده على أنقاضهم، لو أنه بنى غناه على فقرهم، لو أنه بنى حياته على موتهم، هذا عمل سيئ، أما لو عمل عملاً فيما يبدو صالحاً، وهو لا يبتغي به وجه الله عز وجل، بل يبتغي به الشهرة والسمعة، ويبتغي أن ينتزع إعجاب الناس، وأن يثنوا عليه، ويبتغي

الوجاهة بينهم، ويبتغي الربح الوفير، صدق في البيع والشراء حباً بالربح الوفير، يقول لك: هذا استثمار للمال بشكل صحيح، أنا أريد نجاحاً مستمراً لا نجاحاً مؤقتاً، لم ينطلق في صدقه، وفي استقامته، وفي عمله الطيب من حب الربح الوفير، ومن الجاه العريض من دون أن يعلق أهمية على إرضاء الله عز وجل، أو على طاعته، أو على عبادته، فهذا العمل فيما يبدو عمل طيب، وقد يتعامل المسلمون مع كفار أحيانا في دول بعيدة، فيجدون أطيب معامله ؛ أمانة، وصدق، واستقامة، وهم يعتقدون أن لا إله، أو يعتقدون بإله غير الله عز وجل، فكيف نفسر ذلك ؟ فالله سبحانه وتعالى فسر أعمال الكفار الصالحة، وفسر أعمالهم السيئة.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ)

إذا سافر الإنسان في الصيف يرى أمام مركبته من مسافة لا بأس بقعة كأنها بركة ماء، لها تفسير فيزيائي دقيق، وهو انعكاس ضوء الشمس، على كل ما منا أحد إلا رأى السراب.

(حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا)

فهذا الذي عمل عملاً في الدنيا فيما يبدو صالحاً، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنّ أَوّلَ النّاس يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتّى أُلْقِيَ فِي النّار، وَرَجُلٌ تَعَلّمَ الْعِلْمَ، وَعَلّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: تَعَلّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنّكَ تَعَلّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتّى أُلْقِيَ فِي النّار، وَرَجُلٌ وَسّعَ اللّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلّهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمّ أُلْقِيَ فِي النّار))

[مسلم، النسائي]

هذه النقطة دقيقة جداً، هناك أعمال عظيمة، هناك أعمال تجارية عظيمة تدر أرباحاً مذهلة، يقول لك: هذا مشروع عمره مئة سنة، وخبرات متراكمة، وإنجاز كبير، هناك أعمال صناعية رائعة، هناك أعمال عسكرية رائعة، يكتبها التاريخ، هذه الأعمال الكبيرة ذات الصدى الكبير لو لم يكن صاحبها قد ابتغى بها وجه الله عز وجل فهذا حاله يوم القيامة، عمل الإنسان شيئًا أثنى عليه الناس جميعا، وكان سعيداً بهذا الثناء، بل كان يبتغي هذا الثناء، بل كان يكفيه هذا الثناء، ولا يبتغي شيئاً آخر، هناك أعمال خيرية، وقد ذكر النبي الكريم لنا أن إنساناً يأتي يوم القيامة، وقد مات في ساحة الحرب في سبيل الله، يقول: أين

الشهداء في سبيلي ؟ يقوم الشهداء، يقول الله له: أنت كذبت، قاتلت ليقال عنك مقاتل أو شجاع، وقد قيل خذوه إلى النار، أين العلماء في سبيلي، يقوم العلماء، يقول: تعلمت العلم ليقال عنك عالم، وقد قيل، خذوه إلى النار، من تعلم العلم ليماري به السفهاء، أو ليجادل به العلماء، أو ليصرف وجوه الناس إليه فليتجهز إلى النار، وأندم الناس عالم دخل الناس بعلمه الجنة، ودخل هو بعلمه النار، وأندم الناس غني دخل هو بماله النار، ودخل ورثته بماله الجنة، ترك ذرية مؤمنين، فأنفقوا هذا المال في طاعته، وهو لم ينفقه في طاعة الله عز وجل، فلذلك هؤلاء الذين كفروا إذا عملوا أعمالاً فيما يبدو أنها جيدة، ولكن لا يبتغون فيها وجه الله، أرادوا السمعة، والجاه، والثناء المديح، أرادوا الشأن.

أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ

فهؤلاء الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة، الباء حرف جر، بقيعة، القيعة الأرض المنبسطة، والسراب ما يبدو، للمسافر أنه ماء يحسبه الظمآن ماء، فهذا الكافر إذا جاء يوم القيامة جاء ظمآن، ظمآن لعمل يدخله الجنة، ظمآن لعمل يقيه عذاب النار، هو ظمآن، وعمله كالسراب.

حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ

أعطاه جزاء عمله الذي أراده في الدنيا، أما عمله السيئ:

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

(سورة النور: الآية40)

أهمية الإخلاص وخطورة الرياء:

فلابد من الإخلاص.

لذلك ربنا عز وجل يقول:

(فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)

(سورة الزمر: الآية2)

اعبده، وكن في هذه العبادة مخلصاً، فإنّ درهمًا أنفق في إخلاص خير من ألف درهم أنفق في رياء.

والدعاء النبوي الشريف:

((اللهم طهر قلوبنا من النفاق وأعمالنا من الرياء وألسنتنا من الكذب وأعيننا من الخيانة))

هذا الدعاء يجب أن نحفظه، وأن ندعو به لأن هؤلاء الذين كفروا حالتهم تدعو إلى الشفقة يوم القيامة، أعمال عظيمة.

(فَاعْبُدْ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)

(سورة النساء: الآية104)

فلو تألم المؤمن في الدنيا لكان يرجو من الله الجنة، لكن الذي كفر يتألم في الدنيا، وسوف يصلى في الآخرة عذابا أليما.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (17-23): تفسير الآيات 37 – 43

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-01-20

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع عشر من سورة النور، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (39) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (40))

(سورة النور)

علاقة الآيات بما قبلْها:

قد يسأل سائل: ما العلاقة بين هذه الآيات التي تتحدث عن الكفار، وبين الآيات السابقة في قوله تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة النور: الآية35)

الحقيقة أن الله تعالى بعد أن بين نوره، وكيف يسري بالمؤمن، فيسعد به في الدنيا والآخرة بيّن لنا كيف أن الكافر محروم من هذا النور، وحينما يحرم الكافر من نور الله عز وجل فما هي النتائج الخطيرة المترتبة على هذا الحرمان ؟ فالمؤمن يمشي بنور الله، وينطق بتوفيق الله، وعقيدته صحيحة، وسلوكه منضبط، وحياته النفسية مفعمة بالسعادة، لأنه على نور من ربه، وشعوره أن الله راضٍ عنه، شعور نبيل، وشعور عظيم، لكن أهل الدنيا المنقطعين عن الله عز وجل ما حياتهم من دون هذا النور ؟ فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا)

مثّل نوره في الذين آمنوا

(كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ)

والذين كفروا هؤلاء أناس مقطوعون عن الله عز وجل، وقد حرموا من هذا النور، إذاً أعمالهم كسراب.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

لأنه في ظلمات بعضها فوق بعض، عمل عملاً لا جدوى منه، لو أنه اخترع قنبلة ذرية، فماذا فعل ؟ لم يفعل شيئاً، بل بالعكس، لقد أوقع مآسيَ في البشرية لا تنتهي إلى يوم القيامة، فهذه الإنجازات العلمية الضخمة التي استخدمت لإيقاع الأذى في بني البشر، الذين اخترعوها، والذين اكتشفوها، وقد حققوا سمعة عظيمة في عالم البشر، فهذه الأعمال العظيمة لو جاؤوا يوم القيامة ليجدوها أعمالاً عظيمة، فإذا هي سراب في سراب، ولذلك فلو أن الإنسان حصّل أعلى الدرجات العلمية، وكان ذكيا، ومتفوقا في عمله، ومن نوع متميز من بني البشر، إن لم يعرف ربه فهو في ظلمات، والدليل ظلماته التي يعيش فيها سوف تنعكس أعمالا لا جدوى منها، فقد تنفعه في الدنيا، وقد تدر عليه مرابح عظيمة، وتجعله متألقا في عالم الشهرة، ولكن إذا جاء ملك الموت، وعرض للحساب، فهذه الأعمال التي افتخر بها في الدنيا، والتي كان يتيه بها، ويمجده الناس يأتي يوم القيامة ليجدها سرابا يحسبه الظمآن ماءً.

إذاً حينما أعرض الكافر عن التفكر في السماوات والأرض فما عرف الله، وحينما لم يعرف الله عز وجل لم يقم لأمره قيمة، ولم يعبأ بطاعته، ولا باجتناب معاصيه، وبهذا الجهل، وهذا الانحراف وقع في ظلام، وحينما وقع في ظلام اتجه اتجاهات ليست صحيحة، وحينما جاء يوم القيامة، وكان يستنجد بهذه الإنجازات فرآها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، فالإنسان أحيانا يتساءل أن له إنجازات ضخمة على مستوى الصناعة، والتجارة، والزراعة، واكتشافات، وأسلحة ذات فعالية تفوق حد الوصف، وأسلحة جرثومية، وكيماوية، وقنابل ذرية، وقنابل انشطارية، أليس هذا إنجازاً ؟ نعم، ولكن هذا الإنجاز لو عرض على ميزان يوم القيامة كان كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، وحتى الأعمال التي تبدو للناس عظيمة، والتي يفعلها أهل الدنيا المنقطعون عن الله عز وجل، والتي هي بنظرهم عظيمة، فهذه الأعمال لو عرضت على المحك الصحيح الذي يسعد الناس، أو يشقيهم لكانت أعمالهم خسارة، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا)

(سورة الكهف: الآية104)

وحينما يرى الله عز وجل الإنسان قد أعرض عنه يذكره فلا يتذكر، وينبهه فلا ينتبه، ويسوق له الشدائد فلا يتعظ، وعندئذ يدعه وشأنه:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: الآية44)

كل شيء يعني التفوق والتقدم والإنجاز وبحبوحة العيش، والغنى، والقوة، وما شاكل ذلك..

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام: الآية44)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً

الحقيقة أنّ السراب يحسبه الظمآن ماء، فلِمَ قال ربنا سبحانه وتعالى:

(يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً)

لأن الظمآن يبحث عن الماء، فإذا لاح له في الأفق ما يشبه الماء سعى إليه، فإذا سعى إليه اكتشف الحقيقة المرة، وإن هذا الذي رآه ماءً إنما هو سراب.

(وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ)

فهذه الأعمال فعلتها يا فلان ليقال عنك كذا، وقد قيل، فخذوه إلى النار، وهذه الأعمال العظيمة فعلتها لتتألق في عالم الشهرة، وقد اشتهرت، وليمدحك الناس، وقد مدحوك، ولتجمع منها ثروةً طائلةً، وقد حصل.

ولذلك حينما يغفل الإنسان عن الله عز وجل تصبح أعماله تافهة لا جدوى منها في مقياس السماء، أما في مقياس الأرض فقد يثني عليه الناس، ويمدحونه، وقد يملأ أعينهم بهذا العمل العظيم، لكن في مقياس الدار الآخرة لا قيمة للعمل إلا إذا كان نافعاً للناس.

حَتَّى إِذَا جَاءَهُ

سعى إليه لشدة لهفته، وكذا الإنسان يوم القيامة يفتقر إلى العمل الصالح، والحقيقة أن الغنى غنى العمل الصالح، وأن الفقر فقر العمل الصالح، وأن العمل الصالح هو أثمن شيءٍ في الحياة الدنيا، وربنا سبحانه وتعالى قابل العمل الصالح مع الإيمان في أكثر من مئتي آية، فقال سبحانه:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

(سورة البقرة: من الآية82)

وقال:

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر: الآية10)

وقال:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: الآية132)

إذًا أنت في هذه الدنيا جيء بك كي تعمل عملاً صالحاً يصلح أن تسعد به إلى الأبد، فإذا جئت الدار الآخرة، وعرفت قيمة العمل الصالح، وبحثت عنه، فإذا كان صالحاً أسعدك، وإن لم يكن كذلك كان عملك هباء منثورا..

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

(سورة الفرقان: الآية23)

لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ

وكل عمل يدعي الإنسان أنه فعله ليرقى به عند الله، فليعلمْ أنّ الله سبحانه وتعالى عليم بذات الصدور.

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر: الآية14)

خبير بما نعمل، سميع بصير..

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

(سورة الإسراء: الآية17)

والله سبحانه وتعالى وحده يعرف حجم عملك، والإخلاص في العمل، والصدق في العمل، ومقدار التضحية، وما بذلت، وحجم ما بذلت، ولذلك فربنا سبحانه وتعالى هو الذي يحاسب الإنسان يوم القيامة.

(حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا)

فهذا العمل العظيم الذي اخترع القنبلة الذرية، وامتلأت شهرته في الخافقين، ومع ذلك لم يجده شيئا.

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ

فالله سبحانه وتعالى يصف نفسه بأنه سريع الحساب، لأن الحساب يحتاج إلى وقت، ولا يتذوق هذه الآية إلا من عمل في الحساب، فإنه يحتاج إلى وقت، وإلى جهد، وإلى ليالٍ يسهرها، وإلى صفحات يملؤها، لكن الله سبحانه وتعالى في لمح البصر يعطي كل ذي حق حقه.

والآية الثانية:

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

من الإعجاز العلمي في القرآن: إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا

يقول العلماء: **" إنه حتى عام 1900 لم يكن أحد يعرف أن في البحر أمواجاً داخلية "**، والمعروف أن في البحر أمواجاً سطحية على سطح البحر، ولكن كما يقول العلماء: البحارة الإسكندنافيون عرفوا لأول مرة، وهم يغوصون في أعماق البحر أن في البحر أمواجاً داخلية، ولما عرضت هذه الآية على بعض علماء البحار دهشوا، وصعقوا، كيف أن هذا الكتاب الذي جاء قبل 1400 عام يشير إلى الأمواج الداخلية في البحر، والحقيقة كيف أن الأمواج السطحية تدفع السابح إلى جهة أو لأخرى، والأمواج العميقة إلى جهة، أو إلى أخرى، والله سبحانه وتعالى بين في هذه الآية أن في البحار أمواجاً سطحية، وأمواجاً داخلية. قال تعالى:

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ)

هذه الظلمات التي يعيشها الكافر، تفكيره في ظلمات، وقيمته في ظلمات، وكلامه في ظلمات، وأعماله في ظلمات، يتخبط خبط عشواء، يؤذي، ولا ينفع، يفرق، ولا يجمع، يباعد، ولا يقرب، وهو لا يدري.

أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِيِّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ

البحر اللجي البحر العميق، أو هو البحر المفعم بالموج.

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِيِّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ)

هذا الموج يغشى البحر، لكن هذا الموج هو الموج الداخلي، والأمواج من شأنها أن تعكس الأشعة، فلو أن البحر هادئ لرأيت في بعض الحالات قاع البحر، أما إذا كان البحر متموجاً، فإن هذه الأمواج من شأنها أن تعكس الأشعة نحو الأعلى.

لذلك:

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِيِّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ)

مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ

هذا هو الموج الداخلي، و:

(مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ)

فهذا الإنسان إذا كان في قاع البحر فالأمواج الداخلية تعكس النور، والأمواج السطحية تعكس النور، والسحاب يحجب النور، فماذا بقي له من النور ؟ إن ظلمة قلبه، وإن ظلمة عقله، وأفعاله، وأقواله تشبه

قاع البحر، وكلمة البحر اللجي أي البحر العميق، ومعلوماتي أن في المحيط الهادي وادياً اسمه وادي مريانة، وهذا الوادي عمقه أكثر من اثني عشر ألف متر، والشيء الذي يلفت النظر أن الأسماك في قيعان البحار ليس لها عيون إطلاقا، والخالق العظيم خلقها لتعيش في قاع المحيطات، حيث الظلام دامس، فلماذا العين ؟ وما فائدتها ؟ ولذلك فالأسماك التي تعيش في قاع المحيطات لا عيون لها، تتعرف إلى المحيط الخارجي عن طريق السمع، لا عن طريق البصر، والشيء الذي يلفت النظر أيضا أن الإنسان كلما هبط في المحيط مسافة أكبر ازداد ضغط الماء عليه، فضغط الماء قد يحطم أكبر الغواصات، ولو أن غواصة اختل جهاز ارتفاعها - إذ في كل غواصة جهاز يُعّرف قبطانها ارتفاعها عن سطح البحر، أو بعدها عن سطح البحر - فلو اختل هذا الجهاز وهبطت أكثر من 200 متر فإن ضغط الماء يحطمها، وقد يسأل سائل: كيف تعيش هذه الأسماك على أعماقٍ كبيرة جداً في البحار، إذا كان ضغط الماء كافياً لتحطيم غواصة أُنشأت من الفولاذ، فكيف تعيش هذه الأسماك ؟ قال بعض العلماء: إن هذه الأسماك لها أجواف داخلية ممتلئة بمياه البحر، ولأن هذه الأجواف الداخلية الممتلئة بمياه البحر ينشأ فيها ضغط داخلي يكافئ الضغط الخارجي، فبهذا تعيش هذه الأسماك في قاع المحيطات، فهل هناك من تشبيه أروع لهذا الكافر البعيد عن الله الذي لا يصلي، والذي ما عرف الله عز وجل، والذي يعيش للذته، ولحظته، ولاقتناص المتعة، ولا قيمة للقيم عنده، فهذا الكافر في ظلمات بعضها فوق بعض.

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ)

ولذلك عندما حدثنا ربنا عز وجل عن سيدنا يونس قال:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ)

(سورة الأنبياء: الآية87)

ما هي الظلمات الثلاث ؟ قالوا: هي ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت، وهذا الكافر في ظلمات ثلاث ؛ فهو في قاع المحيط، فوقه موج يعكس الأشعة، وفوق الموج موج، وفوق الموج سحاب.

ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا

يقول ربنا سبحانه وتعالى في بعض الآيات الأخرى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة التحريم: الآية8)

العمل الطيّب نورٌ

من خلال هذه الآيات في هذه السورة يتضح أن العمل الطيب نور، وأن العمل السيئ ظلام، وأن هاتين الآيتين:

الآية الأولى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَالَهُ مِنْ نُورٍ)

بعض المفسرين يرون أن الآية الأولى تتعلق بأعمالهم الطيبة، لكنهم إذا جاؤوا يوم القيامة رأوها سراباً في سراب، وأن الآية الثانية تتعلق بأعمالهم السيئة، فأعمالهم الطيبة ما أرادوا بها وجه الله، بل أرادوا الدنيا، والشهرة، والسمعة، والمال الوفير، والثروات، فهذه الأعمال على أنها أعمال مدهشة لا قيمة لها يوم القيامة، الآن أعمالهم السيئة، وعدوانهم على الناس، وأخذهم ما ليس لهم، واستعبادهم للناس.

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ)

كيف أن المؤمن نوره يسعى بين يديه، ويوم القيامة يسعد بهذا النور إلى الأبد، والكافر بما عمل من أعمال سيئة خسيسة، وبما اعتدى على أعراض الناس، وعلى أموالهم يرى عمله.

(ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَالَهُ مِنْ نُورٍ)

فالنور واحد من عند الله عز وجل، فإما أن يكون لك قبس من هذا النور، فتكون مهتدياً، أو لا يكون لك من هذا النور قبس، وهذا هو الضلال بعينه، فالهدى لا يتعدد، وربنا عز وجل قال:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

(سورة الأنعام: الآية153)

الحق واحد، والهدى واحد، وأما الباطل فمتعدد، ومتنوع، والضلالات أنواع، والانحرافات أنواع، والنسب لها أنواع كثيرة، وكل نوع له نسب، فالخط المستقيم خط مستقيم، لكن الخط المنحرف عن هذا الخط فيه انحراف بدرجة، وانحراف بدرجتين، وبخمس درجات، وانحراف منوع، عندنا خط منكسر، وخط منحنٍ وخط متعرج، وخط ملتوٍ، والانحراف متنوع، ونسبي، ولكن الاستقامة واحدة، وذات مصدر واحد.

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَالَهُ مِنْ نُورٍ)

الآن نضطر إلى أن نشير إلى أن الذكاء وحده لا يكفي، فالذكاء وحده قد ينفع في الدنيا، ولكن ذكاء الإنسان إذا قاده إلى أن يكفر بالله عز وجل، أو إلى أن يستعلي على الناس، أو أن يأخذ ما ليس له، فهذا ليس بذكاء، لأنه سوف يلقى الواحد الديان، ويدفع الثمن باهظاً، فإذاً يمكن أن تدمغ كل إنسان بعيد، مشرك، كافر، بأنه غبي، لأن ذكاءه أفاده في دنياه فقط، ولكن في آخرته لم يفده ذكاؤه.

(وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَالَهُ مِنْ نُورٍ)

ثم يقول الله سبحانه وتعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يُسَبّحُ لَهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطّيْرُ صَافّاتٍ كُلّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

(سورة النور)

معنى: أَلَمْ تَرَ

فكلمة:

(أَلَمْ تَرَ)

ومثيلات هذه الآية تشير إلى أن هذه الآيات تحت سمع الإنسان وبصره، وهذه الآيات بين يديه، وبإمكانه أن يراها، وإذا لم ير هذه الآيات فقد خسر خسارة كبيرة

(وَكَأَيّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

(سورة يوسف: الآية105)

وربنا عز وجل يأمرنا أن ننظر..

(فَلْيَنْظُرْ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس: الآية24)

وقال سبحانه:

(فَلْيَنظُرْ الْإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ)

(سورة الطارق: الآية5)

وقال:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ*وَإِلَى السّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ)

(سورة الغاشية: الآيات 17-18)

فكلمة:

(أَلَمْ تَرَ)

تشير إلى أنك لم ترَ حتى الآن..

انظر تر:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يُسَبّحُ لَهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

من معاني التسبيح:

المعنى الأول: التسبيح لإتقان خلق الله:

ومن معاني التسبيح أنك إذا رأيت، أو إذا نظرت إلى أي شيء من مخلوقات الله تجده متقناً إتقاناً لا حدود له، فصغير المخلوقات، وكبيرها، وجليل المخلوقات، وحقيرها، وأي مخلوق ؛ نافعها، وضارها، لو نظرت إلى تشريح جسدك، وإلى بنية أجهزتك، وإلى تركيب حواسك لرأيت العجب العجاب ؛ فهذا الطير كأنه يسبح الله سبحانه وتعالى، وهذه السمكة لجمال خطوطها، ولدقة أجهزتها، ولعظمة بنيانها إذا تأملت فيها دفعك هذا التأمل إلى تسبيح الله سبحانه وتعالى، فهذا هو المعنى الأول..

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يُسَبّحُ لَهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

وانظر إلى الشجرة كيف نمت من حبة، وكيف صارت شجرة، فمن جعلها في هذا الشكل الجميل ؟ ومن جعلها تنمو بلا صوت، وتثمر، وتزهر، وتورق، وكيف أنك تستفيد من ورقها، ومن ثمرها، ومن زهرها، ومن خشبها، وكيف أنها تزين بستانك، انظر إلى الشجرة، وانظر إلى العين، والقلب، وإلى كل شيء، فهذا الشيء إذا تأملت فيه، ورأيت دقة بنيانه، وروعة صنعته وإتقانها، فإنك تقول: سبحان الله، فهذا هو المعنى الأول من قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يُسَبّحُ لَهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

المعنى الثاني: كل شيء يسبّح بحمد الله:

والمعنى الثاني: أن كل شيء خلقه الله سبحانه وتعالى يسبح بحمده، والذي يؤكد المعنى الثاني قول الله عز وجل في آية أخرى:

(مِنْ شَيْءٍ إِلّا يُسَبّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

(سورة الإسراء: الآية44)

إذاً الطير تسبح، والزهرة تسبح، والحجر يسبح، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكّةَ كَانَ يُسَلّمُ عَلَيّ، وَأُسَلّمُ عَلَيْهِ))

والعلم الحديث يقول: كل ذرة فيها حركة، وفيها كـهارب، وإلكترونات، ومدارات، فهذا الشيء الذي تراه جامداً يتحرك، ويدور بسرعة مذهلة، ونظام الذرة يشبه نظام المجرة، إذاً الجمادات، والنباتات، والحيوانات كلها تسبح الله سبحانه وتعالى، وهذا الإنسان الذي سخرت له جميع المخلوقات، والذي سخر الله له من في السماوات والأرض كيف يغفل عن الله عز وجل ؟ وكيف تسبح الطير في الأجواء، والأسماك في البحار، والرياحين والأزهار، والأحجار، وهو في غفلة عن الله عز وجل.

وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ

وقد قرأت مرة كلمة في كتيب عن الطيران، في مقدمة الكتاب يقول المؤلف: إن أعظم طائرة صنعت حتى الآن لا ترقى إلى مستوى الطائر، وأساس الطائرة خفة في الوزن، وأداء مرتفع جداً في الطاقة، لأن السيارة حين تتحرك تمشي على عجلات، فالوقود من شأنه أن يدفعها نحو الأمام، لكن الوقود في الطائرة من شأنه أن يرفعها كلها، فأن تدفع سيارة نحو الأمام تحتاج إلى جهد ولا شك، لكن أن تحمل سيارة، فهذا يحتاج إلى جهد كبير، فالطائر حين يطير ستا وثمانين ساعة بلا توقف، إذ هناك طائر اسمه " بلاك بول " يطير ستا وثمانين ساعة بلا توقف، وهناك طيور تهاجر من شمال الأرض إلى جنوبها، وتقطع مسافة تزيد على سبعة عشر ألف كيلو متر، وهناك طيور تهاجر مثلا من الشام إلى إفريقيا، وحينما تعود كيف تهتدي إلى أوكارها، وإلى أعشاشها، إذا انطلقت إلى إفريقيا، لو انحرفت درجة واحدة لجاءت في مصر، ولو أنها انحرفت درجتين لجاءت في ليبيا، فكيف تأتي إلى الشام ؟ وإلى الحي الفلاني، والبيت الفلاني ؟ الطيور التي تعشعش في البيوت في دمشق مثلا، وتهاجر في الشتاء، وتعود إلى أعشاشها في الصيف المقبل، كيف تهتدي إلى الطريق ؟ هذا من عظمة الله تعالى، وهذا الريش كيف أنه بدرجة من الخفة تفوق حد الخيال، فالطائر خفيف جداً، وريشه متماسك، وهذا الريش يتبدل، ففي عالم الطيران والطيور حقائق مذهلة، لا مجال لذكرها كلها الآن، لكن الله عز وجل يقول:

كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ

وهذا الطائر حين يعمل باستمرار إلى ماذا يحتاج ؟ يحتاج إلى تبريد، ولذلك حينما يتنفس الهواء، يصل إلى أظلاف أرجله، نحن إذا تنفسنا الهواء يبقى في الرئتين، ولكن الطائر حينما يتنفس، فهناك شُعَبْ هوائية متغلغلة في كل جسمه حتى نهاية أرجله من أجل التبريد، فبنية الطائر بنية عجيبة جداً، وربنا عز وجل يقول:

(وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ)

قال بعض العلماء " **الصلاة للإنسان، والتسبيح لغير الإنسان.**

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ)

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

لله ما في السماوات والأرض ملكًا وتصرفا ومصيراً:

فمالك المُلك هو الله سبحانه وتعالى، وكل شيء يظن الإنسان أنه يملكه، والحق أن الملك لله الواحد القهار..

(لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

(سورة غافر: الآية16)

في الدنيا، وفي الآخرة، فهذا السمع ملك الله عز وجل، والبصر، والكليتان ملك الله عز وجل، ففجأة تتوقف الكليتان عن العمل بلا سبب، وحتى الآن لا أحد يعلم ما السبب ؟ إنه توقف مفاجئ في وظيفة الكليتين، فهاتان الكليتان اللتان تصفيان لك الدم، وأنت مرتاح، وتعمل في متجرك، أو معملك، أو مكتبك، أو مدرستك، أو حقلك، أو بيتك من دون أن تشعر، ولا يعرف قيمة الكليتين إلا من ابتلي بغسيل الكليتين في المستشفيات ؛ يذهب إلى المستشفى، وينتظر الساعات الطويلة ليأتي الطبيب، ويضع هذه الإبر في شرايينه، ويبقى ساعتين أو أكثر، ويدفع المبالغ الطائلة، ويتحمل عبئاً، ووقتاً، وجهداً، والكلية الصناعية حجمها كبير، ولها صوت، ووظيفتها غير كافية، ويبقى هناك عشرون بالمائة من المواد السامة في الدم لا تستطيع الكلية الصناعية أن تصفيها.

فالكليتان ملك الله عز وجل، والعين، وكل شيء تظن أنك تملكه فهو ملك الله عز وجل..

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ)

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (44))

العلاقة بين الهواء والماء:

وقد تحدثنا من قبل عن الهواء والماء، ولكن هناك علاقة بينهما، وفي هذه العلاقة مصير الإنسان، فالهواء من شأنه أن يتحمل بخار الماء، وتحمُّل الهواء لبخار الماء بنسب متفاوتة، فهذه النسب تتعلق بحرارة الهواء، فمثلا لو أن مترا مكعبا من الهواء كانت حرارته 30 لتحمل 150غ من الماء، فإذا برد

الهواء تخلى عن بخار الماء الذي يحمله، وهذا مبدأ الأمطار، وأشعة الشمس مسلطة على مساحات شاسعة من الماء، وربنا عز وجل حينما جعل البحار نسبتها 71% من سطح الأرض، و29%يابسة، فهذه النسبة ليست عبثاً، فلولا أن مساحة البحار تعادل أربعة أخماس اليابسة لما أمكنت الحياة على اليابسة، فهذه المساحات الهائلة من البحار تأتيها الشمس، فتأخذ شيئا منها على شكل بخار ماء، وقد تسهم الرياح الساريات بنقل جزء من ماء البحر إلى الهواء.

وعلى كلٍ: فالهواء يتحمل بخار الماء، والهواء ساخن، وأشعة الشمس تسخن مياه البحر، فتتبخر، ويحملها الهواء، والهواء إذا سخن ارتفع نحو الأعلى، وكلما ارتفعنا 150 متراً تقل الحرارة درجة واحدة، فكلما ارتفع الهواء المحمل ببخار الماء نحو الأعلى برد، وإذا برد انعقدت السحب، فما السحب؟ إنها هواء مشبع ببخار الماء، برد الهواء، فتخلى عن جزء من بخار الماء، وهذا الجزء انعقد سحاباً، وبقي عالقاً في الهواء، فإذا برد أكثر فأكثر بلغ حد الندى، فيصبح السحاب قطرات من الماء، وهذا تبسيط جداً للأمطار، ولكن هناك نظريات أعقد، وأعقد من ذلك، وعلى كل فهذا الهواء يحمل بخار الماء، وكلما زادت درجة الحرارة ازدادت قدرته على تحمل بخار الماء، وكلما قلت هذه الدرجة تخلى عن الماء الزائد.

معنى: أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يُزْجِي سَحَابًا

يقول ربنا عز وجل يقول:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يُزْجِي سَحَابًا)

فمعنى يزجي أي يسوق السحاب، فيتشكل فوق البحار، فمن يسوقه إلى اليابسة ؟ إنه الله سبحانه وتعالى، وكيف يسوقه ؟ عن طريق الرياح، فالله سبحانه وتعالى يبعث رياحاً تسوق هذه السحب إلى الأراضي العطشى.

ثُمّ يُؤَلّفُ بَيْنَه

فبخار الماء العالق في الهواء لا تراه أنت، لكن لأوضاع متعددة، تتألف هذه الذرات فيما بينها، وتشكل السحب، وهذه السحب تحمل أطناناً من الماء، فالسحابة الواحدة التي طولها سبعة كيلو مترات، وارتفاعها أربعة أو خمسة كيلو مترات، هناك من يقدِّر أنها تحمل أربعين طناً من الماء، ماء يسير في الهواء، يسوقه الله حيث يشاء، فالله عز وجل يقول:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمّ يُؤَلّفُ بَيْنَهُ)

بخار الماء له حالات، حالة لا يرى بها، وهو عالق في الهواء، وحالة يكون سحاباً، وحالة يصبح ماءً، وهذا مبدأ الأمطار، فإذا قلنا: هبط في دمشق 30 ملم، أي 3 سم، فلو أن هذه الكمية عممت على القطر بحساب بسيط، هناك خمسة مليارات طن من الماء نزلت إلى القطر، وإذا سمعنا بالأخبار أنه بالمكان الفلاني نزل 30 ملم، فهذه مياه كثيرة جدا.

السحب الركامية: ثُمّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا

إنّ علماء الجغرافيا يعرفون السحب الركامية بأنها السحب الممطرة، ومياه الأمطار لا تنعقد إلا من السحب الركامية، قال ربنا عز وجل:

(وَيُنَزّلُ مِنْ السّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ)

فهذا الوصف غريب، لكن الذين ركبوا الطائرات اليوم يرون السحب، وكأنها جبال، والطائرات تطير على ارتفاع 40000 قدم، وهذه المسافة فوق السحاب، فلو أطل الراكب، ونظر إلى السحاب من نافذة الطائرة يرى السحاب وكأنه جبال، وبشكل دقيق فهذه الصورة عرفها الإنسان بعد أن ركب الطائرة.

فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ

الودق هو البرق، فهذه السحب بعضها مشحون بالكهرباء الموجبة، وبعضها بالكهرباء السالبة، فهناك سحابة واحدة بعضها مشحون سالبا، وبعضها مشحون موجبا، وهناك سحب متنوعة، بعضها مشحون شحنة سلبية، وبعضها مشحون شحنة إيجابية، إذا تلاقت هذه السحب يحدث ما يسمى بالانفراغ، هذا البرق هو من نتائج تلاقي السحب ذات الشحنات المتفاوتة، ويقولون: إن حرارته، أي البرق 40 ألف درجة..

وَيُنَزّلُ مِنْ السّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ

البرق: أولا: حينما تلتقي السحابتان ذات الشحنات المتباينة السلبية والإيجابية يحدث شرارة كهربائية، هذه الشرارة هي البرق، حرارتها 40 ألف، فدرجة هذه إذا أصابت شيئا أحرقته، وتسمى الصاعقة، فما هو الرعد ؟ حينما تُسيّر هذه الشرارة الهواء يتمدد، ويحدث وراءها فراغ، وحينما يعود الهواء ليملأ هذا الفراغ، فصوت ارتطام الهواء بعضه ببعض هو ما يسمى بالرعد، وأصوات الرعد كما تعرفون أصوات مخيفة..

حينما تنعقد حبة المطر، وإذا انعقدت في جو بارد تصبح حبة من البرد، وحبة البرد قد تصل إلى حجم البرتقالة، ولو لا لطف الله عز وجل في تمريرها من خلال طبقات الهواء الساخن فتذوب لكان البرد مصيبة من أكبر المصائب، ولكن الله عز وجل يلطف هذه الحبة من البرد حتى تغدو في حجم حبة الحمص، أو دون ذلك، وعلى قوله تعالى:

(وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ)

فربنا عز وجل عبّر عن عظم حجم الماء الذي ينزل من السماء بكلمة:

(مِنْ جِبَالٍ)

وعبر عن عظم الكمية بكلمة جبال، وعبر عن شكل السحب الركامية، وهي بعضها فوق بعض، والذي يراها راكب الطائرة، وكأنها جبال، فتشبيه السحب بالجبال من زاويتين، من زاوية حجم الماء الذي تحمله، ومن زاوية الشكل الذي يبدو للناظر فيه شيئا آخر، فنهر من أنهر العالم هو نهر الأمازون، غزارته تساوي 300 ألف متر مكعب في الثانية، وهذا النهر ليس له نبع إنما هو مياه الأمطار، تتجمع في بعض الوديان، فهذا نهر واحد من آثار مياه الأمطار، مع أن هذا النهر لا ينبع من الأرض، إنما تتجمع مياهه من السطوح التي تنحدر منها الوديان، إذاً فتشبيه ربنا عز وجل حجم الماء بقوله:

(مِنْ جِبَالٍ)

هذا تشبيه بليغ، حيث إن حجم الماء يشبه حجم الجبال، وإن شكل هذه السحب الركامية يشبه الجبال إلى حد بعيد..

فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ

(وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ)

فلو اطلعت على النشرة الجوية تقرأ دمشق 30 ملم، ودرعا 17، وحمص 50، وطرطوس 70، وهنا 3 ملم، وهناك 2 ملم، فتجد تفاوتاً، فربنا عز وجل يصيب به من يشاء، ويصرفه عن من يشاء، وقد نزل هذا الماء، وسماه غيثا، لأنه يغيث الأرض.

(يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ)

فهذا البرق من شدة اللمعان ربما يأخذ البصر، وهذه إشارة إلى أن الضوء المبهر من شأنه أن يؤذي الشبكية.

(يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ)

ومن النصائح الطبية ألاّ يديم الإنسان النظر إلى منبع ضوئي متألق، لأن هذا يسبب له تخرشا في الشبكية.

(يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (44))

وفي ختام هذا الدرس الذي أتمنى أن أكون من خلاله قد وضحت لكم كيف أن نور الله عز وجل إذا سرى في قلب المؤمن يجعل حياته سعيدة ؛ فهو نور في عقله، ونور في قلبه، ولسانه، وجنانه، وعمله، وبين يديه، ومن خلفه، ومن أمامه، ومن ورائه، وكيف أن الكافر إذا ابتعد عن الله عز وجل، وانقطع عنه تصبح حياته ظلمات بعضها فوق بعض، فأفكاره فيها ضلال، وأعماله فيها أذى، وكلامه فيه تفريق، وفيه جرح، فهو في ظلام، لأنه يخبط خبط عشواء، فربنا عز وجل وصف المؤمنين، وكيف أن الله يقذف النور في قلوبهم، ووصف الكفار، وكيف أن أعمالهم الصالحة كسراب، وأعمالهم السيئة كظلمات بعضها فوق بعض، وكيف أن هذا الكافر ينتهي به الأمر إلى الشقاء الأبدي، ثم وجّه نظرنا إلى بعض الآيات الكونية التي يمكن أن نرقى بها إلى الله عز وجل ؛ فوصف ربنا سبحانه وتعالى ظاهرة المطر بشكل دقيقٍ دقيق.

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يمكنني أن أضيف على تفسير هذه الآيات أشياء في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (18-23): تفسير الآيات 43 – 49
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-01-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثامن عشر من سورة النور، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (41) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (42) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43))

تعليق مهمّ: الإنسان مدعوّ إلى التفكر في خلق السماوات والأرض:

وهذه الآية تم شرحها في الدرس الماضي، ولكن إذا كان من تعليق عليها، فهو: أن الإنسان مدعو بنص هذه الآية إلى التفكر في خلق السماوات والأرض، لأن الله سبحانه وتعالى كرم الإنسان بالعقل، وهذا العقل الذي كرم به الإنسان لا ليستخدمه في شؤونه الدنيوية، ويأتي يوم القيامة مفلسا، بل عليه أن يستخدمه في التعرف إلى الله سبحانه وتعالى، وقد مر بنا في درس سابق أن الحيوانات المائية التي تعيش في قيعان البحار، ليس عندها أدوات بصر، لماذا ؟ لأن الضوء منعدم هناك، فإذا لم يكن هناك ضوء فما الحاجة إلى هذه العيون ؟ فحينما يخلق الله العين، فمعنى ذلك: أن لها وظيفة خطيرة، وحينما يخلق الله العقل، فمعنى ذلك أن له وظيفة خطيرة، فمن اعتمد على عقله في كسب رزقه، وفي حل مشكلاته، وفي تأمين حاجاته، ولم يستخدم عقله في التعرف إلى الله عز وجل فقد مسخ هذا العقل، واحتقره، وكيف لا، وقد كرم الله الإنسان بهذا العقل، ولذلك فالإنسان حينما ينظر إلى ملكوت السماوات والأرض، ولا يقف في نظراته متأملا، بل يمر عليها مر الغافلين، عندئذ سيندم أشد الندم، فربنا سبحانه وتعالى جعل بين أيدينا، ومن خلفنا، وعن أيماننا، وعن شمائلنا، وفي كل شيء آيات صارخة ذات دلالة قاطعة، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

السحاب:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا)

ما هو السحاب ؟ وما العلاقة بين الماء والهواء ؟ وكيف يحمل الهواء الماء ؟ وكيف يحمله بشروط دقيقة ؟ كيف أن كل درجة من درجات الحرارة تجعل الهواء يحمل عددا من الغرامات من بخار الماء ؟ من جعل ذلك ؟ ومن قال ذلك ؟ ومن قننه ؟ إذا ارتفعت الحرارة حمل المتر المكعب من الهواء ما يزيد عن مائة وثلاثين غراما من بخار الماء، حملها وأنت لا تراها، إذاً كلما ارتفعنا مائة وخمسين مترا تهبط الحرارة درجة، فإذا هبطت الحرارة في أعالي الجو، عاد الهواء ليتخلى عن بخار الماء الذي حمله على سطح البحر، فإذا تخلى عن حمله انعقد بخار الماء سحابا، وهذا الذي نراه في أعالي الجو هو بخار ماء منعقد كان على سطح الأرض محمولا بالهواء، فلما ارتفع الهواء إلى طبقات عليا انعقد بخار الماء سحابا، وربنا سبحانه وتعالى يرسل الرياح، والرياح وحدها آية دالة على عظمة الله سبحانه وتعالى، ففي خط الاستواء حيث الحرارة مرتفعة، وارتفاع الحرارة يعني تمدد الهواء، وتمدد الهواء يعني خلخلة الهواء، وفي القطبين حيث الحرارة منخفضة يثقل الهواء، أيْ ينكمش، وفي القطبين ضغط مرتفع، وعند خط الاستواء ضغط منخفض، ومن تباين الضغطين تنشأ حركة سطحية للهواء، تلك هي الرياح، ولو لا تباين درجات الحرارة بين القطب وخط الاستواء لما كانت الرياح، وهذا تفسير مبسط جداً للرياح، وهناك تفسيرات بالغة التعقيد، فالرياح الشمالية، والجنوبية، والبحرية، والجافة، والموسمية، هناك تفسيرات، ونظريات بالغة التعقيد لتفسيرها، لكن الرياح بشكل مبسط هي مكان حار، ذو ضغط منخفض، ومكان بارد، وذو ضغط مرتفع، ومن اختلاف ارتفاع الضغط وانخفاضه تنشأ التيارات السطحية التي تسوق السحاب إلى أرض عطشى مشتاقة للماء، فيأتي الماء غيثا يغيث عباد الله عز وجل، ألم تر أيها الإنسان ! تقول: البادية جاءها موسم طيب، فأنبتت الكلأ، وكثر الخير، وهذا من فعل من ؟ من فعل الله سبحانه وتعالى، الرزاق ذي القوة المتين.

(ثُمّ يُؤَلِّفُ بَيْنَه)

السحب كما قلت لكم في درس سابق قد تغطي مساحات شاسعة، فالسحابة الواحدة قد تحمل آلاف الأطنان من الماء، فلو أنه هطل على قطرنا ما يعادل ثلاثين ميليمترا من الماء، أي أن حجم الماء يزيد على خمسة مليارات طن، أي خمسة آلاف مليون طن من الماء نزل من السماء، وكان في البحر فمن ساق الماء ؟ قال سبحانه:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا)

هذه الغيوم الركامية التي يزيد ارتفاعها على سبعة كيلو مترات محملة بخيرات، لا يعلمها إلا الله.

(فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ)

الماء:

وهذه الغيمة بعضها مشحون بشحنة إيجابية، وبعضها مشحون بشحنة سلبية، وحينما تتصادم الغيمتان، أو أجزاء الغيمة الواحدة ينعقد البرق، وهو (الودق) في نص هذه الآية:

(فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ)

وقد ترتفع حرارة البرق إلى أربعة آلاف درجة، ولا تنسوا أن حرارة سطح الشمس ستة آلاف درجة، وهذه هي الصواعق التي تحرق الأخضر واليابس.

(فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ)

فإذا سار البرق في الهواء تمدد الهواء بفعل الحرارة المرتفعة، وبعد التمدد يعود الهواء البارد ليملأ هذا الفراغ، فيكون الرعد، والرعد في القرآن الكريم مذكور في آيات عديدة.

(فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ)

أي حجم المياه التي ينزلها الله سبحانه وتعالى يعادل حجم الجبال، بل إنك إذا ركبت الطائرة، وحلقت في أجواء السماء فوق الغيم ما وسعك إلا أن تسبح الله سبحانه وتعالى على هذا التشبيه الذي ما عرفه الإنسان إلا بعد ركوب الطائرة، إنه يطير فوق جبال من الغيوم، جبال ووديان، وأكمات، وتلال، بعضها فوق بعض.

(وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ)

هذا السحاب حينما يواجه جهة باردة ينعقد قطرات من الماء، فإذا كان هذا الانعقاد في جو بارد يزيد عن خمسين درجة تحت الصفر في أعالي الجو، وربما انعقد الماء برداً، وهذا البرد ينزل بفعل الجاذبية، ثم يواجه تيارات صاعدة تحمله نحو الأعلى، فكلما ارتفع نحو الأعلى زاد من حجمه، وكسته طبقة جديدة من الماء، وكلما هبط نحو الأسفل زاد من حجمه، حتى تصبح حبة البرد كحبة البرتقالة، وهذه الحبة لو نزلت على رؤوس الناس لقتلتهم، ولو نزلت على مدينة لأهلكتها، ولو نزلت على بستان لكسرت أغصان الأشجار، لكن الله لطيف فبفعل احتكاك هذه الحبات بالهواء، وبفعل الحرارة في طبقات الجو الدنيا، تصغر، وتصغر حتى تصبح كحبة الحمص.

(وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ)

قانون الأمطار:

ولذلك فهذه الأمطار لها قانون يعرفه علماء الجغرافيا، ولها قانون يعرفه علماء التوحيد، فعلماء الجغرافيا يحللون المطر بتبخر سطح البحر، وانعقاد البخار سحبا، ثم تحول السحب إلى قطرات ماء

تسقط بفعل الجاذبية، وهذا تفسير المطر عند علماء الجغرافيا، أما تفسير المطر عند علماء التوحيد فهو مستنبط من قوله تعالى:

(وَلَوْ أَنّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

(سورة الأعراف: الآية 96)

وقال سبحانه:

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (16) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

(سورة الجن: الآيات 16-17)

وقال عزوجل:

(وَلَوْ أَنّهُمْ أَقَامُوا التّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

(سورة المائدة: الآية 66)

وذلك: أن الله سبحانه وتعالى حينما يقنن الأرزاق يقننها تقنين تأديب، ولا يقننها تقنين عجز، فالإنسان إذا ضاقت عليه المسالك فعليه بمحاسبة نفسه، وعليه بمراجعتها، وأن يسأل نفسه هل هناك تقصير ؟ وهل هناك عدوان ؟ وهل هناك مخالفة ؟ ومعصية ؟ واستخفاف ؟ واستهتار ؟

((مَا مِنْ عَثْرَةٍ، وَلاَ اخْتِلاَجِ عِرْقٍ، ولا خَدْشِ عُودٍ إلاّ بِمَا قَدّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَمَا يَعْفُو اللّهُ أَكْثَرُ))

[رواه البيهقي في شعب الإيمان من قول أبي بن كعب]

قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

(سورة النساء: الآية 147)

وقال:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً)

(سورة النحل: الآية 97)

وقال:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (125))

(سورة طه: الآيات 124-125)

وقال:

(أَمْ حَسِبَ الّذِينَ اجْتَرَحُوا السّيّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية: الآية 21)

إذاً:

(فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ)

إذا أحب الله قوما أمطرهم ليلا، وأطلع عليهم الشمس نهارا، وربنا عز وجل أحيانا تصاب البلاد بسنوات جفاف متتابعة، إلى أن يقول الناس: لقد تصحر الجو، وشحت السماء، وانتقلت خطوط المطر، وتستمع إلى تفسيرات وتفسيرات ما أنزل الله بها من سلطان، وأحيانا يريد ربنا سبحانه وتعالى أن يعلم الناس أن ليست تفسيراتكم صحيحة، إنما هو تقنين التأديب، فلو أردت لأنزلت عليكم ماءً غدقا تفتنون فيه، والله سبحانه وتعالى أرانا من كرمه، ومن فضله في العام الماضي كيف أن الأراضي ارتوت بوفرة مياه الأمطار، وحينما يئس الناس في أول العام، وكدنا نظن أن هذا العام عام قحط وجدب أكرمنا الله سبحانه وتعالى بأمطار وفيرة، كانت سببا لإحياء الأمل، وتوقع الخير، إن شاء الله تعالى.

تعاقب الفصول: يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

توجيه كريم من الله الحكيم، أن هذه العين التي أكرمك الله بها إنه لمِمّا يؤذيها أن تنظر فيها إلى النور المبهر.

(يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (43) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (44))

ألم يَأن لنا أن نفكر في هذه الأرض، لماذا فيها ليل ونهار ؟ لأن الأرض تدور حول نفسها، ومحورها ليس موازيا لمستوى دورانها حول الشمس، ولو أن محورها كان موازيًا لمستوى دورانها حول الشمس لما كان هناك ليل ولا نهار، وعلى الرغم من الدوران تدور هكذا الشمس من هنا، هنا نهار سرمدي، وهنا ليل سرمدي، لا يكفي أن تدور حتى يكون الليل والنهار، لابد أن تدور على محور مخالف لمستوى دورانها حول الشمس، ولو أن هذا المحور متعامد مع مستوى الدوران، الشمس هنا، ومحور الأرض هكذا تدور حول نفسها، فما لذي يحصل ؟ تنعدم الفصول ؛ فلا صيف ولا شتاء، ولا ربيع ولا خريف، لأن أشعة الشمس تكون في مكان ثابت عمودية، وفي مكان آخر مائلة، وفي مكان ثالث شديدة الميل، ولو أن محور الأرض متعامد مع مستوى دورانها حول الشمس لما كانت الفصول، فمن الذي قرر أنه لا بد أن تدور الأرض حول محور مائل، ودرجة الميل هي ثلاث وعشرون ؟ فهذا تصميم من ؟ وصنع من ؟ فبميل محورها، ودورانها حول الشمس تتبدل الفصول ؛ من صيف، إلى شتاء، إلى ربيع، إلى خريف، فإذا كان محورها هكذا، والشمس من هنا جاءت أشعة الشمس العمودية على قسمها الجنوبي، فكان نصف الكرة الجنوبي صيفا، ونصفها الشمالي شتاء، فإذا انتقلت الأرض إلى هنا هكذا تكون أشعتها على قسمها الشمالي عمودية، فيكون الصيف، وعلى قسمها الجنوبي مائلة، فيكون الشتاء، فهذه

المناطق الأرضية يأتيها صيف، ويأتيها ربيع، ويأتيها خريف، ويأتيها شتاء بفضل هذا الميل، فمن جعل الليل لباسا، والنهار معاشا ؟ ومن جعل الليل باردا، والنهار حارا ؟ ومن جعل الليل مظلما، والنهار مشرقا ؟ ومن جعل الليل كي تسكن في بيتك، والنهار كي تسعى في رزقك ؟ من جعل هذا وذاك ؟ أليس الليل والنهار آيتين من آيات الله الدالة على عظمته ؟ يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ)

فمن جعل النهار في الصيف طويلا، وفي الشتاء قصيراً ؟ والشتاء ربيع المؤمن، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((الشِّتَاءُ رَبِيعُ الْمُؤْمِنِ))

[مسند أحمد، والبيهقي في السنن الكبرى]

فمن جعل الليل والنهار يختلفان في الطول والقصر ؟ وفي الضوء والظلام ؟ وفي الحر، والبرد، وفي وظيفة الكسب، ووظيفة السكنى ؟ إنه الله سبحانه وتعالى، فهذا العقل، أو هذا الفكر لا ينبغي له أن يكون مأسورا في كسب الرزق، بل ينبغي أن ينطلق إلى آفاق الكون، وإلى آيات الله الدالة على عظمته، وينبغي له أن يتفكر، وأن يتأمل، وأن يقلب، وأن يدقق، وأن يوازن، وأن يتحقق، وأن يتدبر.

(يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)

إنّ أشعة الشمس في الشتاء تدخل إلى أعماق الغرف، أليس هذا من حكمة الله ؟ وأشعة الشمس تكون في الشتاء مائلة، ومعنى ميلها: أنها تصل إلى جوف البيت، وفي الصيف تكون عمودية، ومعنى أنها عمودية: أنها لا تتجاوز بضع سنتيمترات من الغرفة، هذا من فضل الله عز وجل، ففي الفصل الذي أنت بحاجة إلى الشمس تأتيك إلى أعماق الغرفة، وفي الفصل الذي أنت بحاجة إلى الظل تقف على النافذة، ولا تقتحم عليك غرفتك، هذا من فضل الله عز وجل، والله

(يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ)

وهؤلاء الذين لا يفكرون ليسوا من أولي الأبصار..

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج: الآية 46)

وهؤلاء الذين لا يدققون فبماذا تفكرون ؟ أي شيء نفكر فيه ينتهي عند الموت، لكنك إذا فكرت في خلق السماوات والأرض فهذا التفكير ينقلك إلى تعظيم الله تعالى، وتعظيم الله سبحانه وتعالى يحملك على طاعته، وطاعته تحملك على الإقبال عليه، والإقبال عليه يسعدك في الدنيا والآخرة، لذلك:

(يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ)

مرة ثانية مصادر المعرفة كثيرة، لو تأملت في الكون لعرفت الله سبحانه وتعالى، ولو تلوت هذا الكتاب لعرفت الله سبحانه وتعالى، ولو نظرت في أحوال الناس لعرفته كذلك، فالكون قرآن صامت، والقرآن كون ناطق، وأفعال الله سبحانه وتعالى قرآن مطبق، ثم يقول الله سبحانه وتعالى متابعا الحديث عن الآيات الكونية، ولماذا الحديث عن الآيات الكونية بعد الحديث عن نور الله الذي يتمثل في قلب المؤمن كالزجاجة التي يضيء فيها مصباح وضاء، وبعد الحديث عن نور الله في قلب المؤمن ؟ ليبين الله لنا سبحانه وتعالى طريق اكتساب هذا النور، وطريق امتلاكه، إنه في التفكر في خلق السماوات والأرض، والله سبحانه وتعالى خلق كل دابة من ماء، والدابة كل مخلوق يدب على وجه الأرض، أي يسير عليه، وسيدنا هود يقول الله سبحانه وتعالى على لسانه:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود: الآيات 55-56)

فالدابة هنا أي مخلوق يدب على وجه الأرض..

(مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِه)

وقال سبحانه:

(وَمَا مِنْ دَابّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلّا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(سورة هود: الآية 6)

فالدواب جميعا، ونحن البشر مشمولون بهذه الآية، الدواب جميعاً على الله رزقها، والله سبحانه وتعالى آخذ بناصيتها، فلم الخوف إذاً ؟ ولم المعصية إذاً ؟ لمَ تعصي الخالق لترضي المخلوق، إذا كان رزقك على الله عز وجل، وإذا كانت كلمة الحق لا تقطع رزقا، ولا تقرب أجلا ؟ فسرُّ العزة هو التوحيد، سر عزتك أن تعرف أن أمرك بيد الله وحده.

(وَاللّهُ خَلَقَ كُلّ دَابّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللّهُ مَا يَشَاءُ إِنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

من الإعجاز العلمي في القرآن: وَاللّهُ خَلَقَ كُلّ دَابّةٍ مِنْ مَاءٍ

هذه الآية من إعجاز القرآن العلمي، فلم يكن حين نزل القرآن الكريم يعرف أن الإنسان مؤلف من 70% من وزنه ماء، فعِلمُ الخلية يؤكد أن الماء هو المكون الأساسي من مكونات الخلية، ولولا الماء لما كانت خلية، ولولا الخلية لما كان المخلوق، وإن كل كائن حي تعد الخلية أصغر وحدة وظيفية فيه، وكان العلماء يظنون أن الخلية هي أصغر وحدة بنائية، ثم اكتشفوا أن الخلية هي أصغر وحدة وظيفية،

ولها غشاء، ولها هيولى، ولها نواة، وعلى النواة مورثات، وهذه المورثات تحمل خمسة آلاف مليون معلومة، تسهم في تشكيل الإنسان، فالحوين المنوي خلية، والبويضة خلية، والخلية كما قلت قبل قليل أصغر وحدة وظيفية في الكائن الحي، والنبات له خلايا، ولو وضعنا ورقة نبات تحت مجهر لرأينا الخلايا أصغر وحدات وظيفية فيها، فالنبات مكون من خلايا، وكذلك الحيوان، والإنسان، والإنسان مكون من آلاف الملايين الملايين من الخلايا، فأول شيء يعد الماء أهم مكون للخلية، والكائن الحي مؤلف من مجموعة خلايا، وربنا سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ)

يعني أن الماء يسهم في بنية الخلية..

الماء ضروري لحدوث التفاعلات والتحولات في الكائنات الحية:

شيء آخر ؛ يقول علماء الأحياء: **" إن الماء ضروري لحدوث جميع التفاعلات والتحولات التي تتم داخل الكائنات الحية "**، فعملية الهضم تحتاج إلى ماء، وعملية الدوران، وعملية طرح الفضلات، وأي نشاط حيوي في الجسم البشري، وجسم الحيوان، وفي النبات يحتاج إلى ماء، فالماء وسيط، وما دام وسيطا في كل تفاعل أو تحول يتم في جسم النبات والحيوان والإنسان، فإن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ)

الماء ضروري لقيام كل عضو بوظيفته:

وشيء آخر ؛ إن الماء ضروري لقيام كل عضو بوظيفته، وأي عضو في جسم الإنسان لا يقوم بوظيفته إلا عن طريق الماء، فالماء إذا ضروري ؛ أن نشربه كي تتم عمليات الهضم، وتتم عمليات تصفية الدم، وطرح البول، فالإنسان يتألف من 70%من وزنه ماء، فإذا كان وزنه 70كغ فيه 50 كغ من الماء.

الماء ضروري لحياة الإنسان:

وشيء ثالث ؛ هو أن الإنسان بإمكانه أن يعيش دون طعام 60 يوماً، ولكنه ليس بإمكانه أن يعيش دون ماء أكثر من ثلاثة أيام، وقد تصل إلى ستة أيام على أبعد تقدير، إذا الماء مكون أساسي في الكائن الحي، وهذه السوائل نحن في أمس الحاجة إليها، الدم قوامه الماء، والسائل اللمفاوي قوامه الماء، والسائل النخاعي قوامه الماء، وماء العين قوامه الماء، وإفرازات الجسم كالبول، والعرق، والدموع

قوامها الماء، واللعاب قوامه الماء، والصفراء قوامها الماء، وحليب الأم قوامه الماء، والسوائل الموجودة في المفاصل قوامها الماء، والماء كما يقول علماء الطب سبب ليونة الجسم، وسبب رطوبته، ولو أن الإنسان خسر من مائه 20%فقط لواجه الموت، ففي بجسم الإنسان 70%من وزنه ماء، لو خسر من هذه 70% خمسها لواجه الموت، ولو بقيت أربعة أخماس الكمية في جسم الإنسان، والمواد الغذائية لا تنتقل إلى الدم إلا عن طريق الماء، وهذا الذي تأكله لماذا تحتسي معه الشراب، الشاي مثلا، ولماذا تشرب معه الماء ؟ لأن هذه المواد الغذائية لا يمكن أن تهضم إلا إذا حلت بالماء، فإذا حلت بالماء أصبحت سائلا تمر في الأمعاء الدقيقة، وتمتصها الزغابات المعوية، وتحيلها إلى الدم، وذلك عن طريق الماء.

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ)

والنبي عليه الصلاة والسلام في أثناء الهجرة واجه مع الصديق رضي الله عنه رجلا متجهم الوجه، قال: من أنتما ؟ أو قال: من أين أنتما: فقال عليه الصلاة والسلام:

((نَحْنُ مِنْ مَاءٍ))

[تفسير القرطبي(291/12)]

وهذه حقيقة، نحن من ماء، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام كشفت له الحقيقة ؛ أن قوام الكائن الحي هو الماء، ولذلك حيثما ترى الماء ترى المدن والقرى، وترى الحضارات، وأكبر حضارات الأرض نشأت حول ضفاف الأنهار، كحضارة النيل، وحضارة الرافدين، وما من مجمع سكاني كبير إلا والماء شريانه الحيوي، وما قيمة الشام إذا كانت دون نهر بردى، ونبع الفيجة ؟ وما قيمة هذه البلاد المبعثرة في شتى ربوع الأرض لولا ينابيع الماء، والأنهر التي أجراها الله في هذه البلاد ؟. لذلك:

فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ

وربنا سبحانه وتعالى جعل بعض الحيوانات تمشي على بطنها، كالحية، والثعبان، وتمشي مجازا، وإنما هي تزحف على بطنها، والأسماك، تضم إلى قائمة الحيوانات التي تمشي على بطنها، فلها زعانف، وتسبح بالماء، وكأنها تزحف على بطنها، والدود يمشي على بطنه..

الإنسان مكرّم: وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ

والإنسان مكرم فجعل الله يديه طليقتين، ومن طلاقة يديه، ومن إطلاقهما بنيت هذه الحضارة الإنسانية، والحيوان يمشي على أربع، وليس له إلا لسانه وفمه، ويبحث في الأرض بها، ولكن الإنسان يمشي على

رجلين، ويداه طليقتان، وبهما يبني، ويحيك ثوبه، ويصنع بابه، ويخصف نعله، ويزرع أرضه، ويبذرها، ويحصد محصوله، وينقله، وكل أعمال البشر تتم عن طريق اليدين، حتى إنهم يقولون: اليد العاملة، والعنصر البشري هو عنصر أساسي في كل مشروع، وفي كل عمل إنتاجي، واليد العاملة هي الشيء الأساسي في كل عمل..

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ)

وقد أضاف بعض العلماء الطير، وهو يمشي على رجلين، والنعام يمشي على رجلين.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَع

أي: أربع أرجل، هذه الدواب، والخيل، والبغال، والحمير، والأنعام ؛ من الجمال، والأغنام، والأبقار، كلها تمشي على أربع، وقد يقول قائل: هناك حشرات تمشي على ست أرجل، أو تمشي على ثماني أرجل، أو تمشي على أربع وأربعين رجلاً، لكن الشيء الذي يلفت النظر أن هذه الحشرات التي لها كل هذه الأرجل تستطيع أن تستقر على أربع منها فقط، وأما الباقي فلها وظائف أخرى، ولذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَع يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)

وقد قال بعض العارفين بالله: **والله يا رب، لو تشابهت ورقتا زيتون لما سميت الواسع**، وما من ورقتي زيتون على سطح الأرض متشابهتان، وما من إنسان يشبه إنسانا آخر ! وفي الأرض خمسة آلاف مليون من البشر، وكل إنسان له شكل لوجهه خاص، وطريقة في الحديث، وطريقة في التكلم والانفعال، وله نبرة خاصة، وله تركيب دم خاص، وله بصمة خاصة، وله موجة خاصة ! نعرف بها صوته، وله رائحة خاصة، وله تركيب حيوي خاص ! وهذا من تكريم الله للإنسان، لقول النبي صلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((خَلَقَ اللّهُ عَزّ وَجَلّ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ...))

[البخاري، مسلم]

يعني على صفاته، ومن صفاته سبحانه وتعالى أنه فرد لا شبيه له، وكذلك الإنسان جعل بشكل لا يشبه مخلوقا آخر، قال ابن حجر في الفتح: **" قيل: الضمير لله، وتمسك قائل ذلك بما ورد في بعض الإشارة على صورة الرحمن، والمراد بالصورة الصفة، والمعنى أن الله خلقه على صفته من العلم، والحياة، والسمع، والبصر، وغير ذلك، وإن كانت صفات الله تعالى لا يشبهها شيء ".**

[فتح الباري (3/11)]

(فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)

وهناك آيات كثيرة لو فكرنا فيها لذابت نفوسنا شوقا إلى الله عز وجل، المفصل، ولولا هذا المفصل كيف نأكل ؟ لابد أن نضع الصحن على الأرض، وأن نستلقي عليها، ونأكل بفمنا مباشرة ! فالمفصل آية من آيات الله الدالة على عظمته، فهذه الرسغ، وهذه الأصابع، وهذا الإبهام، وهذا الجلد المرن، وهذه العضلات، وهذه الأعصاب، وهذا الأنف فوق الفم، وهاتان العينان في المحجرين، وهذا الدماغ في الجمجمة، وهذا النخاع الشوكي في العمود الفقري، هذه المعامل معامل كريات الدم في نقي العظام.

يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ

لكن الذي يلفت النظر هو أن الإنسان يشبه الحيوان في بنيته، ولكن الله سبحانه وتعالى كرمه، فشتان بين الإنسان والحيوان، وقد نقف على قصاب، فنرى لهذا الخروف عضلات، وأوتاراً وأوردة، وشرايين، وقلباً، وعظاماً، وجهاز تنفس، وجهاز هضم، وجهاز إفراز، ورأساً، وعينين، وأذنين، ورأساً، وأسنانًا كما في الإنسان ! ولكن شتان بين الإنسان والحيوان، قال الخلاّق العليم:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)

(سورة الإسراء: الآية70)

شيء آخر:

(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (45) لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (46))

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ

وربنا سبحانه وتعالى نصب في الكون أدلة على وجوده، وأدلة على أسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى، وربوبيته، و ألوهيته، وعلمه، وخبرته، وقوته، ورحمته، ولطفه، وعطفه، وتربيته، ألا ينبغي لنا أن نقف عند هذه الآيات، وعند هذه الأدلة.

(لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ)

فالآيات هي العلامات التي تحمل على آيات القرآن، وقد تحمل على آيات الأكوان، ففي الأكوان آيات، وفي القرآن آيات، وآيات الأكوان كآيات القرآن دالة على الواحد الديان، فإذا أكرمك الله عز وجل فتفكر في الأكوان، واقرأ كتاب الله، تفكر في الكون، ودقق في آيات اللـه التي بين يديك، فهذه الآيات كـلها دالة على عظمة اللـه عز وجل.

وقد مر معنا أن عمير بن وهب حين أخذ العفو لصفوان من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **يا رسول الله إن صفوان هرب إلى جدة ليركب البحر أو ليلقي نفسه في البحر فأمنه صلى الله عليك إنه سيد قومه،** قال عليه الصلاة والسلام:

((هو آمن))

وعندها سأله عمير بن وهب رضي الله عنه يا رسول الله: **أعطني آية يعرف بها أنك أمّنْتُه فأعطاه النبي عليه الصلاة والسلام عمامته التي دخل بها مكة،** فقال:

((خذ هذه العمامة، وأعطها إياه))

فلما لحقه، وهو يهم بركوب البحر، قال: **يا صفوان هذه عمامة النبي لقد أمّنَكَ فإذا وقفت عند كلمة أعطني آية، يعرف منها أنه أمنه،** فالقرآن آيات معرفة الله وأساس الدين، وأصل الدين معرفته.

وعن عبد الله بن المسور أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: **يا رسول الله علمني من غرائب العلم قال:**

((مَا فَعَلْتَ فِي رَأسِ الْعِلْمِ فَتَطْلُبَ الْغَرَائِبَ ؟ قَالَ: وَمَا رَأسُ الْعِلْمِ ؟ قَالَ: هَلْ عَرَفْتَ الرَّبّ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ فَمَا صَنَعْتَ فِي حَقِّهِ ؟ قَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: عَرَفْتَ الْمَوْتَ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَا أَعْدَدْتَ لَهُ، قَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: انْطَلِقْ فَاحْكُمْ هَاهُنَا، ثُمّ تَعَالَ أُعَلِّمْكَ مِنْ غَرَائِبِ الْعِلْمِ))

[أبو نعيم في الحلية]

أيْ إذا عرفت الأمر قبل أن تعرف الآمر فلن تطبق الأمر، بل تحتال عليه، وتنتقص منه، وتستخف به، وهذا حال المسلمين الذين تعلموا أوامر الله، ولم يعرفوا الله عز وجل، ولذلك لابد أن نسلك كما سلك النبي عليه الصلاة والسلام في تعريف أصحابه بربهم، ثم جاء الشرع فبين لهم كيف يعبدونه، فأنت بالكون تعرفه، وبالشرع تعبده، أي بالكون تتعرف إلى عظمته، وأسمائه، وقدرته، ولطفه.

أليس هذا البَرَد الذي يصبح بحجم العدس أو حجم الحمص بردا يعبر عن لطف الله عز وجل ؟ وحينما يقتلع سن طفل من أسنانه اللبنية، أليس اقتلاع هذا السن دليلاً على لطف الله عز وجل ؟ لا ألم، ولا مخدر، ولا ضغط، ولا وخزة، ولا شيء من هذا القبيل فهناك آيات دالة على لطفه، وهناك آيات دالة على رحمته، وأخرى على حكمته، وأيضاً عـلى قوته، ثم على مغفرته.

وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

أيْ إذا شئت الهدى شاء الله لك الهدى، وإذا عزيت المشيئة إلى الله فهي المشيئة الجزائية المبنية على المشيئة الاختيارية، وإذا عزي الإضلال إلى الله عز وجل فهو الإضلال الجزائي، الذي يبنى على الضلال الاختياري.

(وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

والصراط المستقيم واحد، بينما الطرق الأخرى متعددة، فطوبى لمن كان على الصراط المستقيم، فالله سبحانه وتعالى يهديه إلى سواء السبيل.

وبعد هذا الحديث عن الآيات الكونية الدالة على عظمة الله سبحانه وتعالى ننتقل إلى حالة ثالثة ؛ هناك مؤمنون، وقد بين الله سبحانه وتعالى أثر نوره في قلوبهم، وهناك كافرون..

(أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)

(سورة النور: الآية40)

هناك مؤمنون مستنيرون، وهناك كفار في غياهب الظلمات.

هذه هي صفات المنافقين:

الصفة الأولى: مخالفة الظاهر للباطن:

ثم بين الله سبحانه وتعالى طريق معرفته من خلال الكون، والآن يأتينا أول مرة في سورة النور صنف ثالث، لا هم بالكفار الذين ينكرون حقائق الدين، ولاهم بالمؤمنين الصادقين الذين يتمثلون أوامر الدين، إنهم المنافقون، هؤلاء المنافقون يقولون: آمنا بالله وبالرسول، وتعبيره الملفوظ مؤمن يعترف بوجود الله، ويعترف بنبوة النبي عليه الصلاة والسلام، وأقواله مطابقة لأقوال المؤمنين، قال عزوجل:

ويؤكدون أنهم يطيعون الله عز وجل، أيْ أقوالهم طيبة.

(ثُمّ يَتَوَلّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ)

ومعنى يتولى يدير ظهره، ويتخلف، ولا يطيع، ولا يكون مع رسول الله، ولا يقف معه، ولا يأتمر بأمره، ولا ينتهي عما عنه نهى، فأقواله مخالفة لأفعاله، وهناك مسافة كبيرة بين أقواله وأفعاله، وهؤلاء هم المنافقون.

(وَيَقُولُونَ آمَنّا بِاللّهِ وَبِالرّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمّ يَتَوَلّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

صار الإيمان عملا، وصار الإيمان التزاما، و تطبيقا، ومواقف مطابقة لاعتقاد المسلم، فإذا انزاحت مواقفه عن معتقداته، وانزاحت أعماله عن أقواله، وقال شيئا، وعمل شيئا آخر دخل في صنف ثالث - نعوذ بالله أن نكون منهم - إنهم المنافقون، قال تعالى:

(إنّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْ النّار وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا)

(سورة النساء: الآية145)

الصفة الثانية: الإعراض عن حُكم الله تعالى:

فالمنافق لا يريد أن يكون الرسول حكما بينه وبين خصومه، وكأنه يظن أن النبي لن يحكم بالحق، وأنه سيحيف عليه، وهذا ظنهم بالنبي عليه الصلاة والسلام.

(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (48) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (49))

إذا كان الحق إلى جانبهم سارعوا إلى النبي ليحكم بينهم.

(أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمَ الظّالِمُونَ (50) إِنّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51))

هذه الآيات إن شاء الله تعالى سوف نقف عندها وقفة طويلة في الدرس القادم، إنها في وصف المنافقين من جهة، ووصف المؤمنين من جهة مقابلة، ولا سيما في علاقاتهم المالية والاجتماعية.

(وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللّهَ وَيَتّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (19-23): تفسير الآيات 47 – 54

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-02-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس التاسع عشر من سورة النور، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَيَقُولُونَ آَمَنّا بِاللّهِ وَبِالرّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمّ يَتَوَلّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

صفات المنافقين في القرآن الكريم:

الصفة الأولى: يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم:

ربنا سبحانه وتعالى بعد أن حدثنا عن المؤمنين، وكيف أن نور الله في قلوبهم، وبعد أن حدثنا عن الكفار، وكيف أنهم في ظلمات بعضها فوق بعض، انتقل بنا إلى صنف ثالث، ليس هو من المؤمنين، ولا هو من الكفار، إنهم المنافقون، فقوله تعالى:

(وَيَقُولُونَ)

أيْ هناك صنف ثالث لم ينور الله قلوبهم، ولم يجحدوا آيات ربهم، إنهم بين بينَ.

(مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ)

[النساء: من الآية 143]

هؤلاء ما صفاتهم ؟ وما مواقفهم ؟ وما أقوالهم ؟ فلماذا يصف لنا ربنا سبحانه وتعالى المنافقين ؟ الحقيقة هذا الوصف الدقيق كي لا نكون مثلهم، ومن تلبس بإحدى هذه الصفات فعليه أن يتخلى عنها، وأن يعالج نفسه منها، فالإنسان المستمع أحد رجلين ؛ إما أن تكون هذه الصفات، أو إحداها منطبقة عليه، فعليه أن يطهر نفسه منها، وأن يجتهد في طريق الإيمان، وإما ألا تكون منطبقة عليه، فليحذر أن تنطبق عليه، وليشكر ربه عز وجل الذي طهره من صفات أهل النفاق، هؤلاء المنافقون ما صفاتهم ؟ فما من المؤمنين مؤمن إلا ويخشى أن يكون منافقاً، وقد قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: **<< أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كُلّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنّهُ عَلَى إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ >>.**

[البخاري(بَاب خَوْفِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ)]

فعلامة المؤمن الصادق أنه يخشى النفاق على نفسه، وأخوف ما يخافه المؤمن أن يكون منافقاً، وأخوف ما يخافه المؤمن ألا يكون مخلصا، أو أن يرد عمله، أو أن يكون في المستوى غير المرضي عنه، ولذلك فربنا سبحانه وتعالى في مجموعة آيات آتية يصف لنا صفات المنافقين، هؤلاء المنافقون يقولون - ونعوذ بالله من قولهم -.

الصفة الثانية: ادِّعاء الإيمان بالله وطاعة الرسول:

(وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا)

الحقيقة: لك أن تقول ما تشاء، قل: أنا معي المبلغ الفلاني، أن تقول: معي هذا المبلغ شيء، وأن يكون معك هذا المبلغ شيء آخر، أن تقول: أنا أعمل كذا وكذا شيء، وأن تكون في هذا العمل حقيقة فشيء آخر، وأن تقول: أنا أملك كذا وكيت شيء، وأن تملك هذا الذي تدعيه شيء آخر، ولذلك فالإنسان له أن يقول ما يشاء، والله سبحانه وتعالى متكفل أن يحجمه، وأن يضعه في مكانه الصحيح، وأن يحيطه بظرف صعب ينكشف على حقيقته، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

(سورة العنكبوت: الآية2)

هؤلاء المنافقون قالوا:

(آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا)

وصرحوا علانية، وعلى مرأى من الناس، وملؤوا الناس ضجيجا، وقالوا: نحن مؤمنون بالله، وبالرسول، وأطعنا، فأن تقول شيئا لست في مستواه هذا نوع من النفاق، وأن تعطي نفسك حجما أكبر من حجمك الحقيقي فهذا نوع من النفاق، وهؤلاء المنافقون ادعوا أنهم آمنوا بالله وبالرسول، وأطاعوا النبي عليه الصلاة والسلام. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ:

((إِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلَاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي النَّارِ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنَّ فُلَانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلَّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلَاتِهَا وَإِنَّهَا تَصَدَّقُ بِالْأَثْوَارِ مِنْ الْأَقِطِ، وَلَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا، قَالَ: هِيَ فِي الْجَنَّةِ))

[أحمد]

هي تذكر هذا على حد قولها، وهي تدعي، وهي تزعم أنها تكثر من صلاتها، وصيامها، وصدقتها، فقال عليه الصلاة والسلام:

((هِيَ فِي النَّارِ))

فأن تقول: أنا مؤمن، وأنا إيماني كبير، وأنا إيماني، وعالٍ، وأطيع، وأفعل، هذا كلام بكلام، لا قيمة له إطلاقا عند الله، فأنت لك عند الله مرتبة، لا يرفعها ادعاؤك أنك مؤمن كبير، ولا يخفضها ذم الناس لك، هذه حقيقة يجب أن تكون ماثلة بين أيديكم، وكل منا له عند الله درجة.

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: الآية132)

ولا يرفع هذه الدرجة مدح المادحين، ولا يخفضها ذم الذامين، فهؤلاء المنافقون يزعمون، ويدعون، ويتبجحون، ويقررون، ويصرحون أنهم آمنوا بالله، وبالرسول، وبأنهم أطاعوا، ووضعوا عند المحك في ظرف صعب في الامتحان، فسيقت لهم الفتنة، أي الامتحان.

(ثُمّ يَتَوَلّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ)

الصفة الثالثة: التولي والإعراض:

يتولى أيْ: يعرض، يعرضون عن طاعة الله، و يعرضون عن طاعة الرسول، وعن العمل الصالح، ولا يطبقون، ولا ينضبطون، ولا يلتزمون.

ولذلك لا يقيّم الإنسانُ من أقواله، بل يقيّم من أفعاله، وقد يدعي ما يشاء، وقد يتزين للناس بما يحبون، ومن هنا جاء الدعاء الذي أثر عن بعض العلماء: **<< اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك، وأعوذ بك أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني، وأعوذ بك أن أقول قولا فيه رضاك ألتمس به أحداً سواك، وأعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك >>.**

[مصنف ابن أبي شيبة من قول مطرف بن الشخير]

العبرة بالقول الصحيح والعمل الصالح:

وأريد أن أقف عند هذه الآية في موضوع دقيق، قل عن نفسك ما شئت، ادع ما شئت، لك عند الله حجم حقيقي، وهذا الحجم الحقيقي مرتبط بعملك، لا بقولك.

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطّيّبُ وَالْعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[فاطر من الآية10]

يصعد إلى الله عز وجل يصعد وحده إلى الله عز وجل، ولكن الذي يرفعك عند الله عز وجل هو العمل الصالح..

(وَالْعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر: الآية10)

الكلم الطيب يصعد وحده، لكن الذي يرفعك إلى الله، ولكن الذي يعلي مقامك عند الله، والذي يجعلك في مقعد صدق عند مليك مقتدر، هو عملك، من هنا قال الله عز وجل:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (93))

(سورة الحجر: الآيات 92-93)

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر: الآيات 1-3)

والعمل الصالح اقترن بالإيمان بالله في أكثر من مائتي آية وقد قيل: الإيمان بلا عمل كالشجر بلا ثمر، وقيل: تعلموا ما شئتم، فوالله حتى تعملوا بما علمتم، فهؤلاء المنافقون يتبجحون، ويزعمون، ويقولون: إننا آمنا بالله، وبالرسول، وأطعنا، فإذا وضعوا على المحك، ووضعوا في التجربة، فإذا هم يتولون، ويعرضون، ويستنكفون، وتأتي أفعالهم مناقضة لأقوالهم، تأتي مواقفهم مباينة لادعاءاتهم، وكلامهم في واد، وأفعالهم في واد آخر.

ولهذا لما قال رجل عند سيدنا عمر: أنا أعرفه قال: **هل سافرت معه ؟** قال: لا، قال: **هل جاورته ؟** قال: لا، قال: **هل حككته بالدرهم والدينار ؟** قال: لا، قال: **أنت لا تعرفه، لعلك رأيته يصلي في المسجد، إنك لا تعرفه.**

(وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ)

يتولون

(مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ)

وحينما تولوا، وحينما اعرضوا، وعصوا، وقصروا، وتخلفوا، ولم يبذلوا، ولم يقدموا دمغهم ربنا سبحانه وتعالى بالوصف الثابت.

نفي القرآن الإيمانَ عن المنافقين:

(وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ)

هذا الذي يدعي، ولا يفعل يزعم، ولا يطبق، ويتبجح، ولا ينفذ، هذا ليس مؤمنا، فمن صفات المنافق أن له حجما كبيرا، فإذا دققت في حياته الخاصة، فحجمه في واد، وأفعاله اليومية في واد، وهذا الذي جاءت به هذه الآية لتحذرنا أن نكون من هؤلاء المنافقين، والحقيقة الإنسان لا يتبجح، ولا يتكلم بأكثر مما هو عليه، لأن هذا نوع من التبجح والفخر، وليست هاتان الصفتان من صفات المؤمنين، والآن مع ظاهرة في المنافقين خطيرة، قال سبحانه:

(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ)

فلو أن هذا المنافق دعي إلى رسول الله، ليكون حكماً في موضوع خلافي مع إنسان، إنه لا يريد.

سبب نزول هذه الآية:

وقد ورد في أسباب نزول هذه الآية ما قاله الطبري وغيره: إن رجلا من المنافقين اسمه بشر، كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة في أرض، فدعاه اليهودي إلى التحاكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان المنافق مبطلا، فأبى من ذلك، وقال: إن محمدا يحيف علينا، فلنحكّم كعب بن الأشرف، فنزلت الآية فيه، فهذا الذي يدعي أنه مؤمن، وفي الحقيقة هو منافق، وقعت له خصومة مع يهودي، وكان المنافق مبطلا، دعاه اليهودي إلى النبي عليه الصلاة والسلام ليحكم بينهما فأبى المنافق إلا أن يحتكم إلى كعب بن الأشرف لأنه يعلم أن النبي سيحق الحق بكلماته، وهو مبطل.

الصفة الرابعة من صفات المنافقين: عدم التحاكم إلى الشرع:

إذاً: المنافق إذا دعي إلى كتاب الله، وإذا دعي إلى الشرع، وإذا دعي إلى محكم مؤمن يقضي بالحق، فإنه يرفض، ويبحث عن شيء وضعي يضمن له اغتصابه، ويبحث عن شيء وضعي يغطي له عدوانه، ويقره على انحرافه، ولذلك إذا رفض الإنسان أن يلبي دعوة محكم يحكم بما أنزل الله عز وجل من كتاب، وبما جاء به النبي من سنة رفض هذا التحكيم، وهذا نوع من النفاق لأنه يعلم أن هذا الذي سوف يحكم بينه وبين خصمه سوف يحكم بما أنزل الله، وهو مبطل تضيع عليه هذه الأرض، وهذا المحل، وعندئذ يحتكم إلى جهات أخرى غير شرعية لتغطي له عدوانه، واغتصابه، وما هو عليه من انحراف.

(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

أي دعوا إلى تحكيم كتاب الله.

(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ)

أي دعوا إلى تحكيم ما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام ليحكم بينه.

(إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ)

هذه الآية دقيقة جداً.

فلو أننا في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، ودعي اثنان من المؤمنين، أو اثنان من المنافقين، أو منافق ومؤمن، أو مؤمن وذمي، وما شاكل ذلك، إذا دعي اثنان إلى النبي عليه الصلاة والسلام ليحكم

بينهما في حياته، ماذا قال الله عز وجل ؟ قال:

(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ)

أي حينما تدعى إلى رسول الله فحكم النبي عليه الصلاة والسلام هو حكم الله عينه، يستنبط من هذه الآية، إذا دعيت إلى النبي عليه الصلاة والسلام في حياته، فاستجابتك لتحكيم النبي وحكمه هي عين استجابتك لله.

وهناك آية أخرى تؤكد هذا المعنى حينما قال الله سبحانه:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

(سورة التوبة: الآية 62)

لم يقل الله عز وجل: والله ورسوله أحق أن يرضوهما، بل قال:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

فإرضاء رسول الله هو إرضاء الله عينه، وإرضاء الله عز وجل هو إرضاء رسول الله عينه، والنبي عليه الصلاة والسلام إذا أطعته فكأنما أطعت الله، وإذا أحببته فإن حبك له هو حبك لله عينه، وإذا تقربت إليه فتقربك إليه هو في الوقت نفسه تقرب إلى الله عز وجل، لكن العلماء يستنبطون من هذه الآية أحكاما كثيرة، وهذه الآية ليست خاصة بحياة رسول الله، إنها خاصة بحياته، وتشمل مرحلة ما بعد موته، إذا دعيت أنت وخصمك إلى أن يحكم بينكما وفق كتاب الله، فكأنما دعيت إلى الله ليحكم بينكما، وإذا دعيت إلى قاض، أو إلى محكم يحكم بكتاب الله وبسنة رسول الله فاستجابتك لهذه الدعوة كأنها استجابة للنبي عليه الصلاة والسلام، يقول الله عز وجل:

(وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ)

قد يكون الحكم آية في كتاب الله، وقد يكون الحكم حديثا عن رسول الله، فالذي يحكم المحكم الذي يقضي بين الناس، وإذا اعتمد في قضائه كتاب الله عز وجل وسنة رسوله فدعوتك إليه هي دعوة إلى الله ورسوله، واستجابتك لحكمه استجابة إلى حكم الله ورسوله، ولذلك قالوا: إن كل من يكون في منصب القضاء في المجتمع الإسلامي، ويحكم بين الناس بالكتاب والسنة، فإن الدعوة لحضور محكمته هي الدعوة لحضور محكمة الله ورسوله عينها، والذي يأبى حضورها فإنه يأبى حضور محكمة رسول الله، وعندئذ لا يستحق العقوبة فحسب، بل يستحق أن يحكم عليه لخصمه في حال غيابه، والآن القضاء يأخذ بهذا، يعني إذا دعيت لتحاكم أمام قاض يحكم بشرع الله وبسنة رسوله فلو أنك تخلفت عن هذه الدعوة فإن القاضي يصدر حكما غيابياً يقضي لخصمك عليك، لأن التخلف عن حضور حكم الله عز وجل وحكم رسوله هو تخلف عن حضور حكومة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والشرط أن يكون

الحكم بما أنزل الله عز وجل، وما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا يتضح في المحاكم الشرعية أكثر ما يتضح لأن المحاكم الشرعية تحكم بالشرع الإسلامي.

وشيء آخر ؛ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون:

(وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ)

الصفة الخامسة من صفات المنافقين: خضوعهم للحق إذا كان لصالحهم:

وأحياناً يكون أحد الخصمين محقاً، وهو منافق، ولذلك يحتكم إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وفي كل زمان يكون لإنسان منافق حق في قضية مع إنسان، فهذا الإنسان يصر على تحكيم العالم الفلاني، والشيخ الفلاني، لأنه يعلم علم اليقين أن هذا سيحكم له ـ شيء جميل ـ وإذا كان هذا سيحكم له أقر بحكمه، فإن لم يكن يحكم له كما يعتقد أعرض عن حكمه، إذاً هو يتبع هواه، ومن أضل ممن اتبع هواه إذا كان الحكم سيتحقق لمصلحة هذا الإنسان على يد حاكم يحكم بغير ما أنزل الله، فإنه يحتكم إليه، ويصر عليه، فإذا كان الحق الذي له عند خصمه يتحقق بأن يحتكم إلى عالم، أو إلى شيخ، أو إلى محكم يحكم بكتاب الله، وسنة رسوله عندئذ يسارع إليه، وهذه علامة النفاق، والآن الناس في خلافاتهم إذا كانت القضية تحل وفق الشرع، فلذلك يصرون على تحكيم الشريعة الإسلامية، أخي هذا حكم شرع الله عز وجل، وأنا لا يعنيني القضاء، أنا أصر على أن يكون فلان الفلاني هو الحكم، فإذا كان الشرع لا يغطيهم، بل إن بعض القوانين الوضعية تغطي أعمالهم، فيصرون على أن يحتكموا إلى القوانين الوضعية، وهذا التأرجح، وهذا التقلب من حكم شرعي إلى حكم غير شرعي، بحسب المصلحة، وبحسب ما يتراءى لهذا المنافق من قنص لهذا الشيء، هذا الموقف موقف المنافقين، وربنا سبحانه وتعالى يستفهم، وهذا الاستفهام من أجل التأكيد:

(أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ)

الصفة السادسة: كثرة الشك ومرض القلب:

فهؤلاء انتماؤهم إلى المسلمين انتماء شكلي، وإنهم قد انتموا إلى المسلمين لتحقيق مصالحهم، وهم في الأساس ليسوا مؤمنين أصلا، وكأن الله سبحانه وتعالى نفى عنهم الإيمان، وبين أن انتماءهم إلى المجتمع الإسلامي انتماء مصلحي، فالمنافق في الأصل ليس مؤمناً، ولكنه ينتمي إلى المجتمع المسلم بغية تحقيق مصالحه.

(أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

أحيانا يكون الإنسان على درجة عالية من الذكاء، ويرى أن مصالحه تتحقق في هذا المجتمع الإسلامي، فيتظاهر بالإيمان، ويقيم شعائر الإسلام، وله مظهر مقبول، لكنه إذا وقعت له خصومة مع بعض المسلمين فإنه يتأرجح بين القوانين الوضعية وبين الشريعة الإسلامية، أيهما تحقق مصالحه يحتكم إليها هذا الموقف، ويسمى الوصولي، إذاً يريد أن يصل إلى هذا الشيء بالحق أو بالباطل، فإذا كانت الشريعة الإسلامية تحقق له هذا الشيء احتكم إليها، وإن كانت القوانين الوضعية تحقق له هذا الشيء احتكم إليها، وهذا التأرجح من صفات المنافقين، والله سبحانه وتعالى يقول:

(أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ)

هؤلاء ليسوا مؤمنين، وإن انتماءهم إلى المجتمع الإسلامي انتماء شكلي ومصلحي، هم في واد، والمسلمون في واد.

(أَمْ ارْتَابُوا)

ارتابوا بأحقية هذا الدين، وأحقية هذا الشرع، وأحقية هذا القرآن، ارتابوا بحكم النبي العدنان، أيعقل أن يحيف عليهم النبي عليه الصلاة والسلام.

الصفة السابعة: خوفهم من ظلم القرآن إياهم:

(يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ)

أيعقل أن يكون في القرآن الكريم أحكام ظالمة ؟ أيعقل أن يصدر عن النبي عليه الصلاة والسلام أحكام جائرة ؟ أهذا يليق بالنبي، وهو المثل الأعلى ؟ أيليق بكتاب الله الذي أنزله الله سبحانه وتعالى على نبيه محمد ؟ أيعقل أن يكون هذا الكتاب غير منصف للناس ؟

الصفة السابعة: ظلمُهم لأنفسهم:

(أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ)

أي ظالمون لأنفسهم بعدم إيمانهم اليقيني، وظالمون للناس حينما غشوهم، فظن الناس أنهم مؤمنون، وظالمون لخصومهم الذين تعاملوا معهم على أنهم مؤمنون، وهم ليسوا كذلك، فقد ظلموا ثلاث مرات ؛ ظلموا أنفسهم مرة، وظلموا الطرف الثاني مرة، وظلموا المجتمع الإسلامي بانتمائهم الشكلي إليهم مرة ثالثة.

وشيء آخر ؛ ظلم نفسه بعدم إيمانه بهذا الدين الحنيف، وظلم نفسه حينما لم يوقن بأحقية الرسالة،

والنبوة، والقرآن الكريم، وظلم نفسه حينما ظن أن الله عز وجل يمكن أن يحيف عليه، فربنا عز وجل قال:

(بَلْ أوْلَئِكَ هُمْ الظّالِمُونَ)

مِن صفات المؤمنين:

أما المؤمنون فأين مواقفهم المثالية ؟..

(إنّمَا كَانَ قوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إذَا دُعُوا إلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأطَعْنَا وَأولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

السمع والطاعة في الاحتكام للشرع:

من علامة إيمان المؤمن: أنه إذا دعي إلى كتاب الله سارع عن طيب خاطر، سمعا وطاعة، يا رب حباً وكرامة، وإذا دعي إلى سنة رسول الله سارع إلى قبولها، أو إلى محكِّم يقيم شرع الله، وسنة رسوله سارع إلى قبول أحكامه، أو إلى قاض شرعي يحكم في قضية شرعية سارع إلى قبول أحكامه، لأنه:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إذَا قضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أمْرًا أنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: الآية 36)

هذا قضاء الله، وقضاء الله عز وجل بعد موت النبي عليه الصلاة والسلام هو ما في كتاب الله، وقضاء النبي ما في السنة المطهرة.

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إذَا قضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أمْرًا أنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيَرَةُ مِنْ أمْرِهِمْ)

وقال سبحانه:

(إنّمَا كَانَ قوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إذَا دُعُوا إلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأطَعْنَا وَأوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

اليهود قالوا: سمعنا وعصينا، وربما وقع بعض المسلمين في آخر الزمان في أمراض مشابهة لأمراض اليهود، وحينما يقولون: سمعنا وعصينا فالحق معروف، والحق مسموع، والحق مشاهد، فما بال المسلمين لا يطبقون.

مقياس الفوز في القرآن الكريم: الطاعة والخشية والتقوى:

الله سبحانه وتعالى يبين أن الفوز ليس بنيل هذه الأرض، ولا باغتصاب هذه الدكان، ولا بأخذ هذه

الأموال، فالفوز، والفلاح، والنجاح بطاعة الله ورسوله، ولذلك يقول:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

خالق الكون ذو العزة، والجلال يؤكد لنا أنه

(مَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

ويقول سبحانه:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَائِزُونَ)

بعضهم قال: هذه الآية من أجمع الآيات:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ)

يطيع الله في أوامره التي افترضها علينا، ويطيع رسوله في سنته التي جاء بها، ويخشى الله فيما سلف منه من أعمال، ويتقيه فيما بقي من أجله من أيام، يخشاه لما مضى، ويتقيه لما سيأتي، وأطاع الله في القرآن، وأطاع النبي في السنة المطهرة، فأولئك هم الفائزون، إذًا يجب أن تأخذ دينك من هذين الأصلين الكبيرين من أصول الدين ؛ كتاب الله، وسنة رسوله، وأن تخشى الله عما سلف منك من أعمال، وأن تتقي الله فيما بقي لك من أيام، وإذا فعلت هذا وذاك فقد كنت من الفائزين بنص هذه الآية الكريمة:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَائِزُونَ)

ومن لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيء من عمله.

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

معنى: لاَ تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ:

المعنى الأول: خطاب المؤمنين

طاعتكم طاعة معروفة.

المعنى الثاني: معيار الطاعة الصدق والإخلاص

وهناك معنى آخر لهذه الآية ؛ أن الطاعة لله معروفة طاعة صادقة قلباً وقالباً، والطاعة المعروفة عند المؤمنين طاعة حقيقة لا رياء فيها، ولا نفاق بها، طاعة معروفة ؛ انصياع لله ورسوله، وتطبيق أمثل لما جاء به القرآن، فهذه الآية تحتمل معنيين:

المعنى الأول: يخاطب الله المنافقين ؛ أن طاعتكم طاعة معروفة، أيْ كذبكم مكشوف، ولذلك قالوا: تستطيع أن تخدع الناس بعض الوقت، ولك أن تخدع بعض الناس كل الوقت، أما أن تخدع كل الناس طول الوقت فهذا مستحيل، والإنسان مكشوف أمام نفسه، فطاعة معروفة، هذه الطاعة الظاهرية التي تخفي معصية باطنية إنها عند الله مكشوفة.

(إنّ اللّهَ خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

أي مكايدكم راجعة عليكم، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

(سورة الإسراء: الآية17)

إنّ اللّهَ خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ:

فهذا العمل ماذا يكمن وراءه من نيات ؟ ماذا تبتغون منه ؟ ولماذا تفعلون هذا العمل ظاهرا ؟ ولماذا تفعلون عكسه سرا ؟ طبيعة أعمالكم، وما رافقها من نيات وأهداف، وما لابسها من ظروف إنها عند الله معروفة.

(لاَ تُقْسِمُوا طاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إنّ اللّهَ خَبيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

ثم يقول الله عز وجل:

(قُلْ أطِيعُوا اللّهَ وَأطِيعُوا الرّسُولَ فَإنْ تَوَلّوْا فَإنّمَا عَلَيْهِ مَا حُمّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمّلْتُمْ وَإنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرّسُولِ إلّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)

وجوب طاعة الله ورسوله:

أطيعوا الله بتنفيذ الأوامر في كتابه، وأطيعوا الرسول بما جاء به من السنة المطهرة، ولذلك إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين:

(قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

(سورة آل عمران: الآية31)

فطاعة النبي واجبة بنص القرآن الكريم:

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: الآية7)

على النبي التبليغ فقط:

إن تولّ الناس عن طاعة الله، وإن تولى الناس عن طاعة الرسول فإن عليه ما حمل، وعليكم ما حملتم، هو حمل هذه الرسالة، وقد بلغها للناس، وانتهى الأمر، فالمصاب عائد عليكم، وموقف النبي عليه الصلاة والسلام هنا:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة البقرة: الآية 272)

كما قال الله عز وجل:

(إِنّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنّ اللّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

(سورة القصص: الآية56)

وقال:

(فَذَكّرْ إِنّمَا أَنْتَ مُذَكّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22))

(سورة الغاشية: الآيات21-22)

وقال:

(وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

(سورة الأنعام: الآية107)

فربنا عز وجل طمأن النبي ؛ أنه حين يبلّغ هذه الرسالة تنتهي مهمته، وأنت حينما تقف عند حجرته الشريفة، تقول: أشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وكشفت الغمة، وجاهدت في الله حق الجهاد، فالنبي عليه ما حمل، حمل هذه الرسالة، وقد أداها خير أداء، وانتهى الأمر، وبقيت المشكلة على هؤلاء الذين حملوا هذه الرسالة، فلم يحملوها، كما قال الله عز وجل:

(مَثَلُ الّذِينَ حُمِّلُوا التّوْرَاةَ ثُمّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة: الآية5)

معنى: فَإِنْ تَوَلّوا فَإِنّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ

فأنتم مكلفون بمعرفة ما في هذا القرآن، ومعرفة ما جاء به النبي العدنان، فالنبي بلغكم كتاب الله، وبلغكم سنته المطهرة، وانتهى الأمر، ورفعت عنه المسؤولية، ونال رضاء الله عز وجل، أما أنتم فحينما تسمعون كلام الله، أو تسمعون سنة رسول الله، فأنتم مسؤولون عن هذا السماع، ماذا فعلتم ؟ لذلك فعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَا فَعَلَ بِهِ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ؟))

[الترمذي]

سمعت في الدرس الفلاني كذا وكذا، وفي اللقاء الفلاني كذا وكذا، وفي الخطبة الفلانية كذا وكذا، وقرأت في القرآن الآية الفلانية، وقرأت في كتاب الأحاديث الحديث الشريف التالي، فماذا فعلت ؟ وما موقفك من هذا الحديث هل قبلته ؟ وهل عظمته ؟ وهل طبقته ؟ وهل خالفته ؟ وهل اعتقدت أنه حديث لا يتناسب مع هذا الزمان ؟ لك موقف. ولذلك:

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَا فَعَلَ بِهِ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ ؟))

هذا معنى:

(فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ)

حمل هذه الرسالة، فبلغها أحسن تبليغ، وحملتم أنتم هذه الرسالة، ماذا فعلتم بها ؟ وماذا أخذتم ؟ وماذا تركتم ؟ لم تركتم هذا الذي جاءكم من عند رسول الله ؟

(وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا)

الهداية نتيجة للطاعة: وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا

هذه الآية دقيقة جداً، فلا يسمى الإنسان مهتديا إذا عرف الحق، وقرأ كتاباً، واطلع على مؤلفات، قرأ كتاباً في العقيدة فتنورت أفكاره، وعرف الحق، وحتى هذه اللحظة لا يسمى مهتديا، لا يسمى مهتديا إلا إذا عمل بما علم، أخذًا من هذه الآية:

(وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا)

لا يسمى الرجل مهتديا إلا إذا أطاع الله عز وجل.

وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ

وفي الحديث:

((فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ))

[البخاري، الترمذي، النسائي]

وما على النبي عليه الصلاة والسلام إلا البلاغ المبين، وحينما يبلغ الناس يبلغهم ما جاء عن الله عز وجل، وما أوحى الله إليه من شرح لهذا الكتاب، ثم تنتهي مهمته، وتبدأ مهمتنا نحن، فما دمنا على قيد الحياة محاسبين عما عملنا من كتاب الله وسنة رسوله.

وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى نبدأ بتفسير قوله تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ)

(سورة النور: الآية55)

هذه الآية تبث الطمأنينة في قلوب المؤمنين، فكل من آمن بالله عز وجل لابد أن يناله وعد الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (20-23): تفسير الآيات 55 – 57

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-02-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس العشرين من سورة النور، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (57))

تحقُّق وعدِ الله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ

أيها الإخوة المؤمنون.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ)

الوعد الإلهي محقق لا محالة، لأن الإنسان إذا وعد الإنسان لم يملك وجوده، فإذا كان موجودا لم يملك ما ينفذ به وعده، وللإنسان طاقات محدودة، وقدرات محدودة، وعلم محدود، وإمكانات محدودة، أو إذا توافر الوفاء وهذا إذا كان الإنسان على مستوى رفيع جداً، ولكن الله جل في علاه إذا وعد وعداً فإنه محقق لا محالة، لقوله تعالى:

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

(سورة التوبة: الآية 111)

تقولون بعد إقامة الصلاة: إنك لا تخلف الميعاد، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ)

(سورة الحج: الآية 47)

فوعد الله سبحانه وتعالى للمؤمن وعد قطعي محقق، ووعد الله عز وجل واقع لا محالة، ومن هنا قال الله عز وجل:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص: الآية 61)

وإذا وعدك الله عز وجل بالخير، وبالسلامة، والجنة، فإن هذا الشيء واقع لا محالة، ولذلك فالله سبحانه وتعالى يعبر عن تحقق وعده بالفعل الماضي، وقد وعَدَ سبحانه وتعالى العباد أن يرزقهم، وهو القائل في كتابه الكريم:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ)

(سورة الروم: الآية 40)

لأن وعد الله واقع لا محالة فهنيئا لمن وعده الله بالخير، والويل لمن متعه الله متاع الحياة الدنيا، وقد أوعده الله جهنم، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما دخل عليه عدي بن حاتم، وكان ملكاً فقال: **من الرجل ؟** قال: عدي بن حاتم، فرحب به النبي عليه الصلاة والسلام، وأخذه إلى بيته إكراما له، وفي البيت قال له:

((لعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم ! أي ما ترى من فقر المسلمين، وايم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه))

لأن الله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين أن يستخلفهم في الأرض، وأن يمكن لهم دينهم، قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وايم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالمرأة البابلية تحج هذا البيت على بعيرها لا تخاف))

لأن الله عز وجل.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

((ولعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، أو أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البابلية مفتحة للعرب))

ولقد عاش عدي بن حاتم حتى رأى القصور البابلية، وقد فتحها المسلمون، ولقد عاش عدي بن حاتم حتى رأى بعينه أن المرأة تحج البيت على بعيرها لا تخاف، ولقد عاش عدي بن حاتم حتى رأى بعينه كيف أن المال فاض فيهم، وقد ألقيت الغنائم أمام سيدنا عمر، حيث إن أحد المسلمين لا يرى أخاه من الطرف الثاني، ولا يرى رمحه الذي أمسكه، عندئذ شعر سيدنا عمر ـ هذا الخليفة العظيم ـ أن وعد الله حق، ولذلك حينما يعدك من هو فوقك برتبة واحدة فأنت مجند، وقد وعدك عريف بإجازة، هذا الوعد علاقته بهذه الرتبة، وقيمته من قيمة هذه الرتبة، فلو ارتفعت الرتبة إلى أن وصلت إلى أعلى رتبة، ولو ارتفع المقام إلى أن وصل إلى أعلى مقام، فإن الوعد الأخير يختلف عن الوعد الأول، الوعد قيمته من قيمة الذي يعد، فكيف إذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذي يعد ؟!

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ)

(سورة التوبة: الآية 111)

(وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ)

(سورةالحج: الآية 47)

ولذلك حينما قال الله عز وجل:

(وَعَدَ اللَّهُ)

(الله) عَلَمٌ على الذات، صاحب الأسماء الحسنى، وصاحب الصفات الفضلى.

إنّ سيدنا عمر رضي الله عنه عزل سيدنا خالد بن الوليد عن إمارة الجيش، وسيدنا خالد قلق، وخاف أن يكون هذا العزل مبنيا على خطأ ارتكبه، فلما أتى إلى المدينة قال: **يا أمير المؤمنين، لم عزلتني ؟** فقال سيدنا عمر: **والله إني لأحبك يا أبا سليمان**، فأعاد عليه السؤال، ولم عزلتني ؟ قال: **والله إني لأحبك**، فأعاد عليه السؤال مرة ثالثة، قال: لم عزلتني ؟ عندئذ قال له سيدنا عمر رضي الله عنه: **والله ما عزلتك يا ابن الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك، لكثرة ما أبليت في سبيل الله**، فسيدنا عمر موقن يقينا لا شك فيه أن الله وعد المؤمنين بالنصر، فهذا النصر لابد أن يتم على يد سيدنا خالد، أو على يد غيره، لكنه عزله لئلا يفتتن الناس به، ويظن أن النصر من عند خالد، إن النصر من عند الله، فكأن سيدنا عمر برؤية عميقة أصدر هذا الأمر لينقذ التوحيد، لأن الله عز وجل وعد المؤمنين بالنصر، فأي قائد يقود هذا الجيش لابد أن ينتصر، فلو بدل المسلمون وغيّروا فعندئذ يتخلى الله عنهم، وعندئذ لا تجديهم أية وسيلة يتخذونها للنصر..

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

(سورة آل عمران: الآية 126)

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران: الآية 160)

هذه الآية تثبت نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لأن الله سبحانه وتعالى وعد في كتابه الكريم المؤمنين بالنصر، وقد نصرهم، وأعزهم، واستخلفهم، ومكن لهم دينهم، وأبدلهم من بعد خوفهم أمنا، فهذا تنبؤ بالغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله، وها قد وقع هذا الغيب، إذًا هذا الكتاب من عند الله.

أنواع الغيب في القرآن: غيب الماضي – غيب الحاضر – غيب المستقبل:

وبالمناسبة، الغيب في القرآن على أنواع ثلاثة ؛ غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل، فهذا من غيب المستقبل، وعد الله المؤمنين بالنصر، وبالاستخلاف، وبالتمكين في الأرض، وقد نفذ وعد الله عز وجل، وأصبح رعاة الإبل قادة للأمم، وأصبح هؤلاء الأصحاب الذين كانوا مستضعفين في الأرض

قادة للأمم والشعوب، تنفيذاً لوعد الله عز وجل، وقد روى الإمام أحمد في مسنده عَنْ أُبَيِّ بْن كَعْبٍ قَالَ:
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((بَشِّرْ هَذِهِ الأمّة بالسَّنَاءِ وَالرِّفْعَةِ وَالنَّصْرِ وَالتَّمْكِينِ فِي الأرْض، فَمَنْ عَمِلَ عَمَلَ الآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الآخِرَةِ نَصِيبٌ))

[رواه الإمام أحمد]

وكأن هذه البشارة قد وقعت.

معاني وعد الله للمؤمنين: معنى عام ومعنى خاص:

شيء آخر، هو أن هذا الوعد الذي يشمل المؤمنين له معنيان ؛ له معنى عام، ومعنى خاص، له معنى كلي، ومعنى فردي، أو له معنى جماعي، ومعنى فردي، فإذا كان المؤمنون جميعا مؤهلين لنصر الله عز وجل، ولأن يكونوا خلفاءه في الأرض، ولأن يمكن الله لهم دينهم، وعندئذ يتحقق وعده الثابت الذي لن يخلفه أبدا، وبنص هذه الآية الكريمة إذا لم يكن مجموع المؤمنين في المستوى الذي يستحقون هذا التمكين، وإذا لم يكن مجموع المؤمنين في المستوى الذي يستحقون هذا الاستخلاف، عندئذ ينصرف هذا الوعد لآحاد المؤمنين، فأنت أيها المؤمن إذا أهلت نفسك، واستقمت على أمر ربك، ونزهت دخلك، ونزهت سلوكك، عن كل مخالفة أو معصية فلابد أن يعطيك الله شيئا استثنائيا خاصا بك، إذ تتحقق به هذه الآية، فإما أن يكون التنفيذ على مستوى جميع المؤمنين إذا كانوا مؤهلين، وإما أن يكون إنجاز هذا الوعد على مستوى آحاد المؤمنين إن لم يكن المجموع مؤهلا.

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وشيء آخر:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

كلمة آمنوا منكم يعني أن هناك إيمانًا يرقى إلى مستوى تحقيق وعد الله، وهناك إيمان آخر لا يرقى إلى هذا المستوى، ولذلك فهو مؤمن، لأن الله عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ)

(سورة الصف: الآية 2)

الله سبحانه وتعالى خاطبهم بالإيمان، وعاب عليهم أنهم يقولون ما لا يفعلون، فهؤلاء الذين يقولون ما لا يفعلون وصفهم الله عز وجل بأنهم مؤمنون، ومع ذلك فمستوى هذا الإيمان لا يؤهلهم لتحقيق وعد الله عز وجل، فمن هنا جاءت كلمة:

(مِنْكُمْ)

وهي للتبعيض.

أيها المؤمنون، إذا تحقق فيكم الإيمان الذي يؤهلكم لأن تكونوا خلفاءه في الأرض فإن وعده محقق، فإن لم تكونوا في المستوى المطلوب فإن هذه الآية لن تتحقق، وهذا شيء دقيق.

دائرة المؤمن تضيق بكثرة الأوصاف:

هناك مثل آخر يدعم هذا المعنى ؛ وهو أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة المؤمنون: الآية 1)

كلمة (مؤمنون) تشمل كل المؤمنين، لكن حينما وصف هؤلاء أنهم في صلاتهم خاشعون، ضاقت الدائرة، ولما زاد الله عز وجل، وقال:

(الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

(سورة المؤمنون: الآية 1)

ضاقت الدائرة أكثر..

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

(سورة المؤمنون: الآية 3)

ضاقت الدائرة..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)

(سورة المؤمنون: الآية 4)

ضاقت الدائرة..

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ)

(سورة المؤمنون: الآية 5)

ضاقت الدائرة، فكلما وصف أهل الإيمان بصفات جديدة تضيق دائرة الشمول، إذ ليس كل مؤمن تنطبق عليه هذه الآية، وليست كل جماعة مؤمنة تنطبق عليها هذه الآية، فلابد من مستوى معين من الإيمان حتى تتحقق هذه الآية، فهناك من يتساءل: ألسنا مؤمنين ؟ فيأتي الجواب: بلى، فلماذا لا تحقق هذه الآية ؟ الجواب: إنّ من الإيمان إيمانًا لا يرقى إلى هذا المستوى، ومن الإيمان إيمانًا لا يؤهل صاحبه أن ينطبق عليه هذا الوعد الإلهي الكريم، ولذلك فالوعد الإلهي الذي ينطبق على المؤمنين ينصرف إلى المؤمنين الذين في المستوى المطلوب.

ما هو الإيمان الذي يحتاجه المؤمن ؟

وقال بعض علماء التفسير **" إن الإيمان الذي يحتاجه المؤمن لتنطبق عليه هذه الآية، أو ليتحقق عليه وعد الله عز وجل، هو إيمان يستغرق نشاطه كله، وهو إيمان يشبه إيمان السابقين، وإيمان المقربين، وإيمان الذين باعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، وإيمان الذي دخل الإيمان في كل حجيرة من حجيراتهم، وفي كل خليـة من خلاياهم، والإيمان المطلوب هو أن تكون كل مشاعرك، وكل اتجاهاتك وكل طاقاتك، وكل قدراتك وكل نشاطاتك، وكل إمكاناتك في سبيل الحق، الإيمان المطلوب هو الذي يستغرق النشاط الإنساني كله، الإيمان الذي تتحقق به هذه الآية، أو يتحقق به وعد الله عز وجل هو إيمان من نوع رفيع جداً "**، فلذلك من أراد أن تناله هذه الآية، أو من أراد أن يتحقق وعد الله له في هذه الآية، فليرتفع بمستوى إيمانه، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ:

((لَوْ أَنَّ عِبَادِي أَطَاعُونِي لأَسْقَيْتُهُمْ الْمَطَرَ بِاللَّيْلِ، وَأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمْ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ، وَلَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ))

[أحمد]

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ اللَّهِ))

[أحمد عن أبي هريرة]

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا ؟ قَالَ: أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ))

[أحمد]

والله عز وجل يقول:

(لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ)

(سورة الفتح: الآية 4)

فالإيمان يزيد وينقص، فيبدو أن الإيمان إذا زاد، وزاد حتى بلغ الدرجة التي تؤهل صاحبه لكي يتحقق به وعد الله عز وجل، عندئذ يأتي وعد الله.

الإيمان والعمل الصالح مقترنان: آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

لو أن الله عز وجل قال: وعد الله الذين آمنوا، لكان ذلك لكل مؤمن، ولكن وعد الله الذين آمنوا منكم أيْ: آمنوا من بعضكم، والله سبحانه وتعالى يخاطب في هذه الآية المؤمنين، ويبدو أنه لا يصح الإيمان

إلا بالعمل، فالإيمان بلا عمل كالشجر بلا ثمر، ومن هنا عطف الله سبحانه وتعالى على كلمة

(آمَنُوا)

بقوله:

(وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

فلا يصح الإيمان إلا بالعمل الصالح، والعمل الصالح اقترن بالإيمان في أكثر من مئتي آية في كتاب الله.

(الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

وكأن الدين في مجمله عقيدة وعمل، إيمان وعمل، فكر وسلوك، نظر وتطبيق، هذا هو الدين.

مثلا: لو أردنا أن نعيّن سفيرا في بلد نقول: على طالب الاكتتاب في مسابقة هذه الوظيفة أن يحمل شهادة عليا، وهناك الآلاف يحملون شهادات عليا، في الآداب، وفي الحقوق، وفي العلوم، أصبح الشرط صعباً، إذ لا نجد في 100 ألف إنسان واحداً معه ثلاث شهادات عليا، فلو أضفنا إضافة ثانية، وقلنا: أن يتقن اللغة الإنكليزية والفرنسية والعربية، فكلما زادت الشروط ضاقت دائرة الشمول، فهذا استخلاف في الأرض، والله سبحانه وتعالى في الأساس يقول:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة: الآية 30)

وفي آية أخرى يخاطب بها أحد الأنبياء الكرام:

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعْ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

(سورة ص: الآية 26)

مِن صور ومعاني الاستخلاف: لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ

1 – النيابة في إقامة العدل:

والخليفة عليه أن يخلف الله في حكمه للبشر، فالاستخلاف شيء عظيم جداً:

أن تنوب عن خالق الكون في الحكم وفق مبادئ العدل والإنصاف، وما إلى ذلك.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ)

2 – تحقيق الشيء الثمين:

والاستخلاف ليس معناه بالضرورة أن تكون قادراً على أنْ تفعل ما تشاء، فليس هذا هو الاستخلاف، فأنت حينما تدير دائرة ليس معنى ذلك أنك تملك أن تنفذ أمرك على كل من حولك، بل لابد أن تحقق رسالة، فالاستخلاف من معانيه أن تحقق شيئا ثمينا، أيْ أن تسير بهذه الدائرة إلى الهدف المطلوب، وأن تسير بهذه المدرسة إلى أن تحقق أهدافها.

3 – العلم والحكمة والرحمة والعدل:

الاستخلاف لا يعني القوة وحدها، الاستخلاف هو العلم والحكمة والرحمة والعدل،، فلذلك إذا كان الإنسان مديرَ مدرسة، أو مدير مستشفى، أو كان يرأس عشرة أشخاص فهو مستخلف، فالأب مستخلف في بيته، وليس معنى ذلك أن الأب هو الآمر الناهي فقط، بل يجب أن يكون مع أمره ونهيه حكيما، حتى يكون مستخلفا، ويجب أن يكون مع أمره ونهيه رحيما عالما، حتى يصح استخلافه، وأن يأخذ بيد أفراد هذه الأسرة إلى بر الأمان، وبالسعادة في الدنيا والآخرة.

إذًا: ليست القوة وحدها تعني الاستخلاف، بل القوة، والرحمة، والعلم، وحمل الرسالة:

4 – الاستخلاف على مستوى البيت:

فالإنسان مستخلف في بيته على مستوى الأب، والله عز وجل سلمك قياد هذه المرأة، وهؤلاء الأولاد، فأنت إذا كنت كاملا، ودعوتهم إلى الفضيلة، وعلمتهم، وفقهتهم، وربيتهم التربية الجسمية، والعقلية، والخلقية، فأنت خليفة الله في هذا البيت، فمعنى الاستخلاف دقيق جداً، إذ ليس معنى الاستخلاف أن في الأسرة رجلاً قويًا ! لا، هذا الرجل القوي في الأسرة ليس مستخلفا، ولن يكون مستخلفا إلا إذا كان عالما، ورحيما، وحكيما، وإلا إذا رسم هدفا نبيلا، لن يكون مستخلفا إلا إذا أخذ بيد هذه الأسرة إلى بر الأمان، وإلى السعادة في الدنيا والآخرة، فالاستخلاف في جوهره أن تملك القوة لتحقيق رسالة!

في الحديث عَن ابْن عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ، فَالأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

[البخاري، مسلم]

والمرأة مستخلَفة في مال زوجها وفي أولادها، ولذلك في الحديث:

((اِنْصَرِفِي أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ، وَأَعْلِمِي مَنْ خَلْفَكِ مِنَ النِّسَاءِ أَنّ حُسْنَ تَبَعُّلِ إِحْدَاكُنّ لِزَوْجِهَا تَعْدِلُ ذَلِكَ كُلَّهُ))

[البيهقي في شعب الإيمان عَنْ أسمَاءَ بِنْتِ يزيد الأنصارية في حديث طويل]

5 – التعمير والإصلاح:

ومن معاني الاستخلاف التعمير والإصلاح، عمارة الأشياء المادية، وإصلاح النفوس، فيجب أن تعمر الأرض، وأن تزرع، وأن تبنى فيها الأبنية التي يحتاجها الإنسان، فهذه عمارة مادية، ومع التعمير المادي صلاح النفوس، ورقيها، وتربيتها.

6 – العدل والطمأنينة:

ومن معاني الاستخلاف في الأرض أنْ يقام العدل والطمأنينة وأن يرتفع الإنسان إلى مرتبة الإنسان، لا أن يهبط إلى مستوى الحيوان، فالاستخلاف مهمة كبرى ينيطها الله سبحانه وتعالى بالأنبياء والمرسلين في حياتهم، وبمن ينوب عنهم بعد مماتهم.

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

الأصل أن الله عز وجل حينما خاطب آدم، وقال للملائكة:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة: الآية 30)

هذا استخلاف، فيجب أن يقيم هذا الخليفة العدل، وأن يرحم الناس، وأن يحقق مصالحهم، سيدنا عمر حينما عيّن والياً قال له: **<< ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ فقال هذا الوالي: أقطع يده، فأجابه عمر: إذًا، فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسدّ جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإذا وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، وإن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملا التمست في المعصية أعمالا، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية >>.**

وأن تنتبه لوجودهم في البيت، وأن تنتبه إلى أخلاقهم، وأن تنتبه إلى تربيتهم، فالرعاية الكاملة من معاني الاستخلاف، فليس كل إنسان يملك أن ينفذ أمره على الآخر، وحتى على مستوى الأسرة يعد مستخلفا، فالأب القاسي ليس مستخلفاً، إذ يكون مستخلفا إذا كان رحيماً، وحكيماً، وعالماً، وسعى إلى إصلاح هذه الأسرة، وإلى نقلها من الشقاء إلى السعادة وهكذا..

كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

في كلمة:

(الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

يشيع معنى الاستمرار، وكأن هذا قانون إلهي كلما ارتفع الإنسان إلى المستوى المطلوب استخلفه الله عز وجل، وكلما ارتفع إيمان المؤمن إلى المستوى الذي يؤهله أن يكون خليفة الله في الأرض، استخلفه الله في الأرض كما استخلف الذين من قبله، وكأن هذه الآية تشير إلى أن هذه سنة ثابتة من سنن الله عز وجل.

وَلَيُمَكِّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمْ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ

وهو المنهج الإلهي الذي أنزله على النبي صلى الله عليه وسلم، قال تعالى:

(الّذِينَ إِنْ مَكّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصّلَاةَ وَآتَوْا الزّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

(سورة الحج: الآية 41)

فالأب في البيت أمره نافذ، وبإمكانه أن يأمر، وأن ينهى، وأن يجبر، وأن يسمح، وأن يمنع، وأن يغضب، وألا يغضب، فهو مستخلف كي يمكن دين الله في هذه الأسرة، فأتبع الله الاستخلاف بقوله تعالى:

(وَلَيُمَكِّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمْ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

فما قيمة عظمة الدين من دون أن يكون مطبقاً، وممكّناً، وثابتاً، ومستقراً ؟ ما قيمة هذا الدين ؟ وأنت إذا قرأت تعليمات دقيقة جدا لآلة، ما قيمة هذه التعليمات إن لم تمكّن من تنفيذها ؟ فلو أنك أمام آلة معقدة، ومعك تعليمات دقيقة جدا، وإذا طبقت هذه التعليمات أعطت هذه الآلة أفضل مردود، فما قيمة هذه التعليمات إذا جاءك من يمنعك أن تنفذه ؟ فلا بد أن تكون طليق اليد في تنفيذها، حتى تؤتي هذه التعليمات أكلها، ومن هنا جاء قول الله تعالى:

(كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمْ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ)

إذاً: كأن الاستخلاف أن يعطي الله القوة كي يمكّن الدين

(الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

وحينما يؤدي الإنسان ما أمره الله به في جو مريح، وحينما لا يخشى في الله لومة لائم، وحينما يرتفع الناس جميعا إلى المستوى المطلوب، وحينما يصلي جميع الناس لا يخاف المصلي، وحينما يؤدي جميع الناس ما عليهم من زكاة، فلا يخشى أن يؤدي الزكاة وحده، حينما يصوم جميع الناس رمضان، لا يخشى صائم رمضان وحده، فمعنى التمكين في الأرض أن يكون هذا الدين ثابتا راسخا مطبقا بكل تفاصيله.

وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا

يبدو أن الخوف لابد منه، لأن فيه امتحانًا، يمتحن الله سبحانه وتعالى المؤمن بأن يخيفه من عدوه، فإذا ثبت، وأصر على إيمانه، ولم تهزه هذه الفتن عندئذ يستحق التمكين، ولذل قيل لسيدنا الشافعي: أندعو الله بالتمكين أم بالابتلاء ؟ قال رضي الله عنه: **" لن تمكن قبل أن تبتلى "**، وهذا القول دقيق جداً.

ومن البلاء أن تخاف، قال الله عز وجل:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))

(سورة البقرة: الآيات 155-157)

سيدنا موسى..

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)

(سورة القصص: الآية 21)

أحيانا يبتلى الإنسان بأنه يخاف، فيمتحن الله بهذا الخوف إيمانه ؛ هل ينقص عن عقيدته ؟ وهل يرتد عن دينه ؟ هل يبتعد عن طاعته لله عز وجل ؟ وهل يسقط في هذا الدرب، أم يبقى ثابت الجأش، واضح الهدف، ثابت القدم ؟

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

أَطِعْ تُمَكَّن، واستقِمْ تُستَخْلَف:

بشكل أو بآخر، كأن هذا عقد بين الله سبحانه وتعالى خالق العباد، وبين العباد أنفسهم، فعلى الله سبحانه وتعالى أن يستخلف هؤلاء في الأرض، كما استخلف الذين من قبلهم، وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا.

أما على الفريق الثاني ؛ وهم العباد فعليهم أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئا، فلو أن الفريق الثاني أخلّ بما عليه، فالفريق الأول في حلٍّ من وعوده الثلاثة.

وشيء ثان: أن الله سبحانه وتعالى أضاف الدين إلى الناس.. فقال سبحانه:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)

(سورة المائدة: الآية 3)

وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ

إضافة الدين إلى الناس، كما قال بعض علماء التفسير هي إضافة تشريف، فربنا سبحانه وتعالى شرفنا بأن أضاف هذا الدين إلينا.

من شروط التمكين:

الشرط الأول: العبادة الصحيحة: يَعْبُدُونَنِي

الحقيقة أن تعبده هو ثمن الاستخلاف، وأن تعبده ثمن تمكين دينك في الأرض، وأن تعبده ثمن الطمأنينة التي تطمح إليها، من أجل أن تكون مستخلفا، وأن يكون دينك ثابتا، وأن تكون مطمئنا فلا بد أن تعبده، والعبادة أن تنصاع إليه في كل أوامره ونواهيه، فهذا الذي يطيع الله في كل شيء ؛ في علاقته بنفسه، وفي علاقته بربه، وبالإنسان، ومع غير الإنسان، هذا الانصياع التام لتنفيذ أوامر الله عز وجل هو العبادة، لكن هذه العبادة لا تصح إلا إذا سبقتها معرفة يقينية، ولذلك فمعرفة الله أولاً، اعرف الله، ثم اعبده، وما الدين في حقيقته إلا معرفة وعبادة.

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

(سورة المؤمنون: الآية 32)

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة الكهف: الآية 110)

ويأتي في القرآن في أماكن عديدة:

(أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ)

العبادة هي الطاعة، ومعرفة الله هي الإيمان.

الشرط الثاني: عدم الإشراك: لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا

لكن ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)

فكلمة شيء هي أنكر النكرات، فهي أي شيء مهما صغر، فإنه شيء، ومهما كبر فإنه شيء.

إذا:

(لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)

الشرك والعبادة الخالصة ضدّان لا يلتقيان:

ما الذي يتناقض مع العبادة ؟ الشرك، فمَن عبد غير الله فقد أشرك بالله ؟ ومن خاف من غير الله، ومن أرضى غير الله، ومن أحب غير الله، ومن مال إلى غير الله، ومن سعى إلى غير الله، ومن اطمأن إلى غير الله، ومن اتكل على غير الله، هذا كله شرك، فأي شرك مهما كان صغيرا ينقض العبادة، ولذلك كلما أمرنا ربنا عز وجل بالعبادة ينهانا عن الشرك، ليؤكد لنا أن الشرك مهما كان صغيرا فإنه ينقض العبادة قال عزوجل:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)

(النساء: من الآية36)

وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ

الذي يكفر، وينحرف عندئذ لا يستحق الاستخلاف والتمكين في الأرض، ولا شيئاً من هذا القبيل.

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

ثم قال تعالى:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

إنّ طاعة النبي عليه الصلاة والسلام هي طاعة الله عز وجل عينها، لقول الله عز وجل:

(وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: الآية 7)

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

أين الصيام ؟ وأين الحج ؟ قال بعض العلماء **" إقامة الصلاة أداء لحق الله، وإيتاء الزكاة أداء لحق العباد "**، فكأن الدين فيه شيئان أساسيان ؛ أداء لحق الله، وأداء لحق العباد،

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ)

وفي آية أخرى في سورة مريم:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)

(سورة مريم: الآية 31)

وكثيرا ما تأتي الصلاة مع الزكاة، وكأنها إشارة إلى أن الصلاة تمثل العبادات، وأن الزكاة تمثل المعاملات، وهناك حقوق لله عليك يجب أن تؤدى، وهناك حقوق للعباد عليك يجب أن تؤدى..

لَا تَحْسَبَنّ الّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ

هذه الآية لها علاقة وشيجة بالآية السابقة:

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمْ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)

فقد يأتي على المؤمن خاطر: كيف يستخلفني الله في الأرض، وعدوي قوي مكين ؟ وكيف يستخلفني الله في الأرض، وأنا لا قِبَل لي بعدوي ؟ حينما فتح المسلمون بلاد قيصر وكسرى، وهما قوتان كبيرتان في ذلك الوقت، وهما يشبهان إلى حد كبير القوتين الكبيرتين في العالم اليوم، فكيف بفئة قليلة مستضعفة في أرض الحجاز تستطيع أن تفتح هاتين الدولتين العظيمتين الراسختين القويتين ؟ وقد يأتي هذا الوعد مغايرا لما ألفه الناس، وربما لا يصدق الناس وعد الله عز وجل، قال رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((يا عدي بن حاتم، لعلك إنما يمنعك من دخول هذا الدين ما ترى من حاجتهم ؟ وايم الله ليوشكن المال أن يفيض فيهم، حتى لا يوجد من يأخذه، ولعله إنما يمنعك من دخول في هذا الدين أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم ؟ وايم الله، ليوشكن أن ترى القصور البابلية مفتحة للعرب المسلمين))

فربما لا يصدق الإنسان أن فئة مؤمنة لا تزيد على ألفين أو ثلاثة من المؤمنين الصادقين مع النبي عليه الصلاة والسلام، هذه الفئة سوف تكتسح الشرق والغرب، ولذلك طمأن ربنا عز وجل المؤمنين فقال:

(لَا تَحْسَبَنّ الّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ)

إنهم باقون بأمر الله، فلو أن مشيئة الله عز وجل شاءت أن يضعفوا لضعفوا.

(لَا تَحْسَبَنّ الّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمْ النّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

إن الأب قوي بحسب الأعراف الاجتماعية، وبيده السلطة، وبإمكانه أن يطلق زوجته، وبإمكانه أن يضرب أولاده ضربا قاسيا، وأن يرحمهم بإمكانه، وأن يعطي واحداً دون الآخر، وأن يعدل بينهم، فحينما يكون الأب مستخلفا، فهذا شيء، وحينما يكون الأب مبتلى، فهنا شيء آخر، فمن كان أبا، وآتاه الله قوة، ولم يحقق العدل بين أفراد أسرته، ولم ينتقل بأفراد الأسرة إلى السعادة في الدنيا والآخرة فليس مستخلفا، ولكنه مبتلى، أيْ ممتحن، فإذا أدى الامتحان على الوجه المطلوب صار مستخلفا، فالاستخلاف شيء، والابتلاء شيء آخر، وهذا المعنى يشبهه معنى آخر ؛ وهو أن المال ليس نعمة إلا إذا أنفقته في طاعة الله، بل هو ابتلاء، والزوجة قبل أن تقودها إلى الإيمان ابتلاء، فقد تبتلى بها، وقد تفتتن بها، أما إذا أخذت بيدها إلى الله عز وجل فعندها تصبح نعمة، فالقوة، والمال، والعلم، هذه الأشياء تكون تارة

نعمة، وتكون تارة ابتلاء، فالأب في بيته لا يسمى مستخلفا إلا إذا حقق رسالة الدين في أفراد أسرته، وعندئذ تنطبق عليه الآية الكريمة:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ)

من أجل أن يمكن الله بهم دينه، فإذا مكن الله بهم دينه كانت الطمأنينة محل الخوف، ففي هذه الآيات الاستخلاف يتسع، ويتسع فيشمل الأمة، ويضيق، ويضيق فيشمل الأسرة، وكل واحد منا مستخلف، فالمعلم في صفه مستخلف، وهؤلاء أطفال وضعهم الله بين يديك، فما معنى أنك مستخلف ؟ أيْ أن الله جعلك نائبا عنه في معاملتهم، هل تضربهم، أم ترحمهم ؟ إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي، فالإنسان مستخلف في عمله، أنت معلم جعلك الله خليفته على هؤلاء الصغار، وأنت طبيب جعلك الله خليفته على هؤلاء المرضى، وأنت موظف جعلك الله خليفته على هؤلاء المراجعين، فهل تنصف بينهم ؟ وهل ترحمهم، أم تضع العراقيل في وجوههم، فالاستخلاف شيء مخيف جدا، فكل إنسان في عمله مستخلف، أيْ ممتحن، فإذا كان يملك قوة في عمله كرئيس دائرة، عنده خمسة موظفين، وبإمكانه أن يؤذي واحداً منهم، وأن ينفع واحداً، فهو مبتلى إن لم يعدل بينهم، ومستخلف إن عدل بينهم، فصار الاستخلاف ليس معناه أن تكون قويا، بل أن تستخدم هذه القوة في إحقاق الحق، وفي تمكين دين الله، وفي إقامة الصلاة، وأداء الزكاة، وفي رفع الإنسان إلى المستوى الرفيع الذي خلق من أجله، هذا هو الاستخلاف، فلا يظن الإنسان نفسه معفى من الاستخلاف ؛ فالأب مستخلف، والابن مستخلف مع إخوته الصغار، فقد يموت الأب، ويُخلف خمسة أولاد، أحدهم كبير، فهذا الكبير مستخلف، فهل يأخذ المال كله له ؟ أم يعطي إخوته بالعدل والدقة ؟ وهل يقسو عليهم، أم يرحمهم ؟ فالأخ مستخلف، والموظف مستخلف، والطبيب مستخلف، والمحامي مستخلف مع موكليه، والمعلم مستخلف، والمهندس مستخلف، فهذا البناء هل أعطيته حقه ؟ وهل أنصفت ؟ فالقوة إن لم ترافقها الحكمة، والرحمة، والعدل تصبح بلاء، وليست استخلافاً..

التطبيق العملي لآية الاستخلاف:

وعلى كلٍّ، فهذه الآية لها تطبيق عملي، وهو أن تعرف ما لك، وما عليك، وأن تؤدي حق الله، وحق العباد، لتنجو من العذاب، فمثلا يقال: فلان مسؤول، فما معنى مسؤول ؟ هل يخفى على الإنسان معنى مسؤول ؟ الله سيحاسبك، وفلان مسؤول بهذه الجهة، وبهذه الدائرة، وبهذه المستشفى، فهذا الطبيب مسؤول عن التخدير، فإذا كلف واحداً أقلّ منه، ووقع حادث، فالله يُحاسبه، فكثير من حالات الوفاة تأتي من عدم استخدام القواعد الدقيقة في التخدير، فيموت المريض، وهذا المسؤول عن التخدير يحسب نفسه

موظفاً كبيراً بالتخدير، لا ! فالله سيحاسبك عن كل مريض، وهل أحسنت القيام بواجبه ؟ فكلمة مسؤول تعني أنك مسؤول على مستوى موقعك، أنت معلم ابتدائي مسؤول، لماذا ضربت هذا الطفل الصغير من دون تحقيق ؟ وهذا الطفل اشتكى لك، فضربت الاثنين معا، وأنت غاضب، وأنت مسؤول، فكلمة مسؤول مخيفة، وليست سهلة.

فلذلك الآية الكريمة اليوم:

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمُ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55) وَأَقِيمُوا الصّلَاةَ وَآتُوا الزّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرّسُولَ لَعَلّكُمْ تُرْحَمُونَ (56) لَا تَحْسَبَنّ الّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (57))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (21-23): تفسير الآيتان 58 – 59
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-02-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي والعشرين من سورة النور، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

دقة التشريع الإسلامي وتنوّعه:

أول شيء يلفت النظر أن في هذه الآية تشريعاً دقيقاً، وما من تشريع وضعي يصل إلى حركة الإنسان في بيته، فالإسلام نظام كامل، فيه أحكام السلم، وأحكام الحرب، وفيه نظام المعاهدات، وفيه أحكام دار الإسلام، وأحكام دار الأمان، ودار الحرب، ونظام كسب المال، وإنفاق المال، ونظام الأسرة، وعلاقات اجتماعية، وأنواع منوعة من الأوامر والنواهي، أما أن يصل هذا النظام الدقيق إلى أخص خصوصيات الإنسان، وأن يدخل هذا النظام الدقيق إلى بيته لينظم حركة الزوج، والزوجة، والأولاد بين غرف البيت، فهذا نظام من أدق الأنظمة، ومن أشدها شمولاً، وموافاةً لاحتياجات الإنسان، إنه شيء عجيب أن يصل الأمر إلى آداب استئذان الأولاد على آبائهم وأمهاتهم.

ولكن لا عجب، فهذه الآية حيث ختمت بقوله:

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

بكم، وبخصائصكم، وبما يصلحكم، ويرقى بكم، ويسمو، إنه حكيم في تشريعه، ولعكم تذكرون أن في هذه السورة موضوعات عديدة، من هذه الموضوعات أحكام الزنى، وكيف بدأت بقوله تعالى:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ)

(سورة النور: الآية2)

وكيف انتقلت هذه الآيات من موضوع الزنى إلى موضوع رمي المحصنات، ومن رمي المحصنات إلى إقامة الحد على الزنى، إلى حديث الإفك كتطبيق عملي، وإلى التدابير الاحترازية التي تمنع من الزنى، وإلى آداب الاستئذان، ومن آداب غض البصر، ومن أحكام إبداء الزينة، والآن ونحن في البيوت

فيما بين الزوج وزوجته، وفيما بين الأولاد، وآبائهم، وأمهاتهم تأتي أحكام دقيقة لتبين أن هذا التشريع من عند خالق الإنسان.

عموم الخطاب القرآني: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا)

(سورة النور: الآية58)

وأيٌّ آية يخاطب بها المؤمنون فالمؤمنات يخضعن لهذا الأمر على مبدأ التغليب الذي كثيرا ما يَرِد في كتاب الله، والله سبحانه وتعالى إذا خاطب الذكور فمما يعنيه هذا الخطاب الإناث، وهذا مبدأ معروف لدى علماء اللغة، فلو دخل أربعون طالبة وطالبًا واحد نقول: دخل الطلاب، على مبدأ التغليب ؛ تغليب الذكور على الإناث.

فالله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)

من آداب وأحكام الاستئذان:

فإذا كان على الرجل أن يأمر ابنه ألا يدخل عليه في بعض الأوقات فجأة من دون استئذان، فلأن تؤمر المرأة بهذا الأمر من باب أولى، لأن تكشف الرجل أخف من تكشف المرأة، ولذلك كانت المرأة معنية بهذه الآية، من مبدأ ثابت هو من باب أولى، كيف أن الله سبحانه وتعالى قال:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا)

(سورة الإسراء: الآية23)

فإن نهي الإنسان عن قول كلمة (أُفٍّ) لأمه أو أبيه، أو لهما معا نهي ثابت، فلأن ينتهي أن يوقع بهما الأذى من باب أولى، وقد يقول قائل: ليس في القرآن كله آية تنهى عن ضرب الآباء والأمهات ! نقول له: إذا كانت كلمة (أُفٍّ) قد نهى الله عنها، فما فوق (أُفٍّ) منهي عنها من باب أولى.

فإذا كان على الرجل، وهو في غرفة نومه أن يأمر أبناءه ألا يدخلوا عليه في أوقات مخصوصة إلا باستئذان واضح، فلأن ينطبق هذا الحكم على المرأة ومن باب أولى، لأن تكشف الرجل أخف من تكشف المرأة، لكن القرآن الكريم في بعض الآيات الأخرى يخاطب الذكور على وجه الخصوص، وحينما يخاطب الذكور على وجه الخصوص فهناك قرينة تؤكد ذلك، فالله سبحانه وتعالى يقول مثلا:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور: الآية30)

فهذه خاصة بالمؤمنين الذكور وحدهم..

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنّ)

(سورة النور: الآية30 - 31)

فهناك أمر خاص بالرجال، وهناك أمر خاص بالنساء، أما إذا لم يكن هناك قرينة تصرف الحكم ؛ والأمر والنهي إلى جنس معين، فكل الآيات القرآنية التي يخاطب بها الرجال يخاطب بها النساء من باب التضمين، فالمرأة مضمنة في هذا الخطاب.

وكما أنها مضمنة في أي خطاب:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا)

تربية غير البالغ:

لماذا قال ربنا سبحانه وتعالى:

(لِيَسْتَأْذِنْكُمْ)

بينما بعد آيات أخرى يقول:

(وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا)

لماذا أسند هذا الفعل إلى الأطفال في الآية الثانية، ولم يسند في هذه الآية إلى الأطفال؟

الجواب: أن الأطفال ذكوراً وإناثاً إذا كانوا دون سن البلوغ، أو دون سن الحلم ليسوا مخاطبين، وليسوا معنيين، وليسوا مكلفين، لكن الذين يخاطبون عنهم أولياؤهم ليربوهم هذه التربية، ففي قوله تعالى:

(لِيَسْتَأْذِنْكُمْ)

فأيُّ مرسوم تشريعي لا يمكن أن يتجه إلى الصغار دون السن المقبول، لكن الآباء مسؤولون عن أبنائهم، وربنا سبحانه وتعالى حينما أسند هذا الفعل إلى المؤمنين المخاطبين تبين أن الأطفال دون سن البلوغ ليسوا مكلفين، وليسوا مخاطبين، فهل معنى ذلك أن نعفيهم من العبادات ؟

أمْرُ غير البالغ بالصلاة والحكمة من ذلك:

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ))

[أبو داود]

والسبع والعشر دون سن البلوغ، فهل يعقل أن تدع هذا الطفل بلا صلاة، وبلا صيام إلى سن الثامنة عشرة، وبعد ذلك تأمره أمراً قطعياً ؟ إنه لن يفعل ذلك، فجميع الأوامر التي لا يكلف بها الصغار، على أولياء الأمور أن يكلفوهم بها كي يعتادوا عليها، وهذا مبدأ في الشرع، فالصلاة يحاسب عليها الإنسان إذا بلغ الحلم، ولكن قبل هذا التاريخ على الأب أن يأمر أولاده بالصلاة إذا بلغوا سبع سنين، وأن يضربهم عليها إذا بلغوا عشرا، وهكذا تأديب الله سبحانه وتعالى، وهاكَ بعضًا مِن سير السلف الصالح في هذا الموضوع..

فعن زين العابدين أنه كان يأمر الصبيان أن يصلوا الظهر والعصر جميعا، والمغرب والعشاء جميعا، أيْ لهم استثناءات، فقيل له: يصلون الصلاة في غير وقتها **!** فقال: هذا خير من أن يتناهوا عنها، فهذا الطفل الصغير سهل عليه الأمر نوعا ما كي يألف الصلاة، وإذا كان هناك ضيق فكلفه أن يصلي الفرض، وإذا كان هناك تكاسل فكلفه أن يجمع بين المغرب والعشاء، وبين الظهر والعصر من أجل أن ينشأ معتادا على الصلاة، ولذلك عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ))

[أبو داود(495)]

ولا تنسوا ذاك الأثر: **" لاعب ولدك سبعا وأدبه سبعا وراقبه سبعا ثم اترك حبله على غاربه ".**

فمن السنة الأولى إلى السابعة يجب أن تلاعبه، ويجب أن يحبك، وأن يألفك، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((مَنْ كَانَ لَهُ صَبِيٌّ فَلْيَتَصَابَ لَهُ))

[الفردوس بمأثور الخطاب عن معاوية]

وعن جابر رضي الله عنه قال:

((دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعَةٍ، وَعَلَى ظَهْرِهِ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَهُوَ يَقُولُ: نِعْمَ الْجَمَلُ جَمَلُكُمَا، وَنِعْمَ الْعِدْلاَنِ أَنْتُمَا))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير]

لاعب ولدك سبعا، وأدبه سبعا، فمن السابعة وحتى الرابعة عشرة يجب أن تؤدبه على كذبة، على أخذ ما ليس له، على خرق لبعض العادات، والتقاليد الإسلامية، ومن الرابعة عشرة وحتى الواحدة والعشرين راقبه، وبعدئذ اتخذه صديقا، وبعد ذلك اترك حبله على غاربه.

إنّ الأوامر التي يكلف بها الكبار الراشدون في المصطلح الحديث، أو البالغون في المصطلح الفقهي، هذه الأوامر يجب أن يؤمر بها الصغار، لا على أنهم مكلفون، ولا على أنهم معنيون بالخطاب في القرآن الكريم، لكن لأنهم يجب أن يتعودوا عليها، فهل يعقل أن تدع ابنك بلا صيام سنوات وسنوات، فإذا بلغ الخامسة عشرة من عمره تأمره بالصيام ؟ ربما لا يستطيع، وربما لا يصوم، فلابد أن تأمره بالصيام في سن مبكرة، ولابد أن تأمره أن يصوم نصف يوم، وبعدئذ يرتقي إلى اليوم الكامل، وبعدئذ يفطر، ويصوم إلى أن يصوم رمضان بأكمله.

لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ

معنى الحلم وسنه:

الطفل يبقى طفلا إلى أن يحتلم، والاحتلام معروف، وكأن ربنا سبحانه وتعالى جعل هذه علامة على بلوغه سن التكليف، فالاحتلام للذكر، والحيض للأنثى، فإذا احتلم الصبي، وحاضت الأنثى فقد بلغا سن الحلم، ولكن كل منطقة في الكرة الأرضية بحسب طبيعة الجو لها سن تقرر الوقت المناسب للبلوغ، فلو أن الأمر هكذا لضاع علينا من قبيل هاتين الإشارتين، فلابد من سن زمنية تحدد البلوغ والتكليف، وأكثر العلماء أجمعوا على أن سن الخامسة عشرة هي سن البلوغ، وسن التكليف، وبعض العلماء قال: السابعة عشرة للإناث، والثامنة عشرة للذكور، وعلى كل إما أن نعتبر الاحتلام للذكور، والحيض للإناث، أو أن نعتبر سن الخامسة عشرة كسن ثابتة للتكليف، أو أن نأخذ بقول بعض العلماء من أن سن السابعة عشرة للإناث، وسن الثامنة عشرة للذكور، هذان السنان هما الفيصلان في التفريق بين سن ما قبل التكليف، وسن ما بعد التكليف.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ)

طبعا هذا حكم خاص، وآيات الاستئذان التي وردت قبل عدة أسابيع حكم عام، والله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (27) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (28) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (29))

هذه الأحكام أحكام الاستئذان عامة لكل الناس البالغين، وهذه الآيات التي نحن بصددها أحكام خاصة، متعلقة بالصغار الذين لم يبلغوا الحلم، أو أن الآيات الأولى آيات الدخول إلى البيوت، والآيات الثانية آيات الآداب في التحرك ضمن البيت الواحد.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ)

أوقات الاستئذان:

فقبل صلاة الفجر، وبعد الظهيرة، وبعد صلاة العشاء هذه الأوقات الثلاثة سماها القرآن الكريم عورة لماذا ؟ لأن الإنسان في هذه الأوقات قد يضطر إلى تبديل ثيابه، أو قد يضطر إلى التخفيف منها، أو إلى أن يكون مع أهله، فإما أن يبدل ثيابه، وإما أن يتخفف منها، وإما أن يكون مع أهله، فأغلب الظن أن حفظ العورة يكون أقل انضباطا في هذه الأوقات منه في بقية الأوقات، ولذلك فهذا الوقت الذي يتخفف فيه المؤمنون من ملابسهم، أو يخلعونها ليرتدوا ثياب النوم، أو ليلتقوا مع أهليهم، هذه الأوقات الثلاثة سماها القرآن الكريم عورة، لأنه غالبا تنكشف فيها العورات، وغالبا ما يكون حفظ العورات في هذه الأوقات أقلّ انضباطا من حفظها في بقية الأوقات، فإذاً لهذه الأوقات الثلاثة أحكام خاصة..

سبب نزول الآية: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ

وقد قال القرطبي في تفسيره: **" يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غلاما من الأنصار يقال له مدلج إلى عمر بن الخطاب ظهيرة ليدعوه، فوجده نائما، وقد أغلق عليه الباب، فدق عليه الغلام الباب، فناداه، ودخل، فاستيقظ عمر، وجلس فانكشف منه شيء، فقال عمر: وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول إلينا في هذه الساعات إلا بإذن، ثم انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد هذه الآيات قد أنزلت فخر ساجدا لله تعالى".**

[تفسير القرطبي]

وهذه بعض من موافقات عمر، فقد كان يتمنى شيئا، فإذا بالوحي ينزل به، ويصدقه، حتى إن بعض مؤلفي السيرة كتب كتابا سماه: **" موافقات عمر"**، وهذا من موافقات عمر، وسيدنا ابن عباس رضي الله عنه يقول: **" إن الله حليم رحيم بالمؤمنين يحب الستر، وكان الناس ليس لبيوتهم ستور ولا حجال، فربما دخل الخادم أو الولد أو يتيمة الرجل، والرجل على أهله، فأمرهم الله بالاستئذان في تلك العورات فجاءهم الله بالستور والخير، فلم أر أحدا يعمل بذلك بعد ".**

[تفسير القرطبي]

وهذا من أدب الأولاد مع أوليائهم، ومع آبائهم.

إن هذا الأمر بالوجوبِ، وبعضهم قال: أمر بالندب، وبين الوجوب والندب درجة، أعلى من درجات الأمر، فالوجوب يأتي بعدها الندب، ولكن بعض العلماء المحدثين فصلوا متى يكون هذا الأمر واجبا، ومتى يكون هذا الأمر مندوبًا ؛ ففي العصور السابقة لم يكن للأبواب أقفال وأغلاق، فكان الباب يمكن أن يفتح من الداخل، ففي مثل هذه الحالة يعد أمر الاستئذان أمرا بالوجوب، أما إذا أغلق الباب بالقفل فعندئذ يصبح هذا الأمر أمراً بالندب، لأنه غالبا لو دخل الطفل من دون استئذان لن يستطيع أن يفتح الباب حتى يفتح له أبوه أو أمه، فهذا الأمر بين أن يكون أمرًا بالوجوب، وبين أن يكون أمرًا بالندب، فإن الله يحب الستر، ومن أسمائه، "السِّتِّير"، وفي الحديث عَنْ يَعْلَى:

((أنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ رَأَى رَجُلًا يَغْتَسِلُ بِالْبَرَازِ بِلَا إِزَارٍ، فَصَعَدَ الْمِنْبَرَ، فَحَمِدَ اللّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمّ قَالَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: إِنّ اللّهَ عَزّ وَجَلّ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسّتْرَ، فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ))

[أبو داود]

وفي رواية أحمد:

((فَلْيَتَوَارَ بِشَيْءٍ))

وحتى إن فطرة الإنسان تقتضي ذلك، وبعض الحيوانات لا تحب أن تلتقي ذكرانها مع إناثها على مرأى من الناس إلا الخنازير، لكن هناك حيوانات كثيرة تأبى أن يراها أحد، وهي مع أنثاها، فكيف بالإنسان المكرم الذي سخر الله له الكون من أجله ! إذًا هذا شيء ينسجم مع الفطرة.

وإن امرأة من بلاد الغرب، وهي في أشد حالات التبذل سألوها مرة عن عملها فقالت: إن لها عملاً ترتزق منه عن طريق عرض مفاتنها على الناس، فقالت مرة: إني أشعر بالخزي والعار، وأنا أقف أمام الناس، وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتنها على الناس، وإن الأمر يجب أن يبقى بين الزوجين، وفي غرف مغلقة، وهذه هي الفطرة، فالإنسان الراقي المؤمن الذي استيقظت فطرته، ولم تنطمس بفعل الشهوة يأبى إلا أن يكون مبالغا في الستر فيما بينه وبين أهله.

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمْ الّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ)

وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ

بعضهم قال: سمي سن الحلم حلما لأن الإنسان في هذه السن يغلب عليه الحلم، فإذا كان طائشا، أو أرعن، أو ذا حركة غير مقبولة ففي هذه السن يصبح أقرب إلى الحلم منه إلى الطيش.

(ثَلَاثَ مَرَّاتٍ)

أيْ في ثلاثة أوقات..

(مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ)

من استنباطات هذه الآية:

1 - ارتداء اللباس المحتشم أمام الأولاد في غير هذه الأوقات الثلاثة:

هناك معنى مخالف، أو يسميه بعض الناس المعنى العكسي ؛ إذا كان محرما أن يدخل عليك ابنك، وأنت في غرفتك الخاصة تتهيأ للنوم، أو تخلع ثيابك، أو تتخفف منها، فماذا ينبغي أن تكون حالتك مع أولادك في غير هذه الأوقات الثلاثة ؟ هذا استنباط، إذا ينبغي أن يكون الاحتشام، وارتداء الثياب الكاملة في البيت مظهرا يعبر عن الانضباط الخلقي، والانضباط الاجتماعي في هذا البيت.

إذاً ما دام الله عز وجل لا يرضيه أن يقوم الرجل في البيت أمام ابنه، وهو متخفف من ثيابه، أو يخلعها، أو يتهيأ للنوم، فمن باب أولى أن الأوقات الأخرى يجب أن يكون بلباس كامل لا يبدي شيئا من عورته، فما بال بعض الناس، وهم في بيوتهم، فلا المرأة تنضبط في لباسها أمام أولادها الكبار، ولا الرجل ينضبط في لباسه أمام بناته الصغيرات ! إن هذه الفوضى في ارتداء الثياب في البيت ليس من الدين في شيء، والنبي عليه الصلاة والسلام استأجر أجيرا، ورآه يغتسل عريانًا، فقال عليه الصلاة والسلام:

((خذ أجارتك لا حاجة لنا بك فإني أراك لا تستحي من الله))

2 - وجوب كون لباس البيت ساترًا للعورة:

فماذا يستنبط أيضا ؟ اللباس في البيت يجب أن يستر العورة، لئلا تنطلق أذهان الصغار إلى شعور مبكر، أو إلى تحسس معين، أو إلى وعي هم في غنى عنه، ولذلك فعلماء النفس يقولون: إن الصغار إذا اطلعوا على عورات الكبار في سن مبكرة، فربما خلف ذلك في نفوسهم بعض العقد، أو ربما سبب لهم

وعيا مبكرا في موضوعات لا ينبغي أن يعرفوها في ذاك الوقت، أو ربما سبب لهم انحرافا لأنهم لا يستطيعون أن يعبروا عن حاجاتهم في وقت مبكر، فحينما يأتي القرآن الكريم ليشرع لنا في علاقات الأبناء مع آبائهم في حركاتهم في المنزل، فالله عليم حكيم، عليم بالنفوس، حكيم بالتشريع.

ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ

معنى العورة:

ما تعريف العورة ؟ قال العلماء: **" العورة هي كل شيء لا مانع دونه"** استُنبط هذا المعنى من قوله تعالى:

(إِنّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ)

(سورة الأحزاب: الآية13)

أيْ بيوتنا مكشوفة، وليست محمية، وليست محصنة، فالعورة هي كل شيء لا مانع دونه، والعورة كل شيء غير محفوظ، وكل شيء يستره الإنسان، ويستحي من انكشافه، فهذه المعاني كلها توضح معنى العورة، فبحسب السياق حينما يتخفف الإنسان من ثيابه، قد يبدو منه ما لا ينبغي أن يبدو منه، فقد يرى ابنه منه ما لا يستحسن أن يراه منه، إذا هو في حالة عورة، فهن

(ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنّ)

إذاً لا يجوز في غير هذه الأوقات أن يتبذل الإنسان في ثيابه في الصيف، ولا في الشتاء.

اتخاذ الاحتياط اللازم لدرءِ كشفِ العورات:

وهناك شيء آخر: لو اضطر الإنسان لخلع ملابسه في غير هذه الأوقات، الساعة العاشرة مثلا، هل هو معفى من إغلاق الباب ؟ طبعا لا، لأن الله سبحانه وتعالى علل هذا الحكم الفقهي بعلة كشف العورات، لماذا العلة ؟ هذا التشريع معقول، فالله سبحانه وتعالى بين لك أسباب التشريع، والسبب انكشاف العورة.

إذاً لو اضطر الإنسان إلى أن يرتدي ملابسه، أو أن يخلعها في وقت غير هذه الأوقات فينطبق عليه حكم العورات في هذه الآية، إذاً من الأخلاق الإسلامية الرفيعة أن تغير ثيابك في غرفة نومك، وأن ترتج الباب قبل أن تبدأ بذلك، وكذلك الحمام، والغرف التي لها شأن خاص في البيت يجب أن يكون لها إرتاج حتى تنطبق هذه الآية بشكل دقيق.

والآن لو أن هذا الطفل الصغير دخل إلى غرفة أمه وأبيه في غير هذه الأوقات، وكان الأب متبذلا في ثيابه، فاللوم وحده على من ؟ على الأب، لأن الطفل الصغير في البيت مسموح له أن يطوف على أمه وأبيه في كل وقت، عدا هذه الأوقات الثلاثة، ففي هذه الأوقات لابد من الاستئذان، وفي غير هذه الأوقات يسمح له الطواف، وهذا الذي أرادته الآية الكريمة من الانضباط في الملبس فيما بين أفراد الأسرة الواحدة.

طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ

أما قوله تعالى:

(طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

بيوتنا عورة، فأنت أيها الأب لك الحق أن تفتح غرفة ابنك من دون استئذان في غير هذه الأوقات، وعندما تكون غرفة الابن معرضة كي تفتح في أي وقت فيما عدا هذه الأوقات، فإن هذا مما يدعو إلى انضباط الابن، فإذا دخلت عليه غرفته في غير هذه الأوقات، فلك الحق أن تدخل عليه أيضا من دون استئذان، كما أن له الحق أن يدخل عليك إذا كان صغيرا من دون استئذان، ولك الحق أن تدخل عليه غرفته من دون استئذان في غير هذه الأوقات، لقوله تعالى:

(طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

من استنباطات الآية:

1- جواز تخفيف المسلم ثيابه عند النوم:

شيء آخر ؛ استنبط العلماء من هذه الآية أنه يحق للمرء أن يتخفف من ثيابه عند النوم، وهو ليس مؤاخذا، ولا عاصيا لله عز وجل إذا ترك بعض ثيابه، ونام بثياب خفيفة، وهذا استنباط من هذه الآية.

2 – الأحكام الشرعية مبنية على المصلحة:

وشيء آخر ؛ أحكام الشرع مبنية على المصلحة، والإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول: **الله سبحانه وتعالى جعل أحكامه الشرعية معللة بمصالح خلقه، فأي حكم شرعي يعود الخير كله على مطبقه في الدنيا والآخرة "**، فإذا طبقت هذه الأوامر فلمصلحتك، ولصالحك، وكأن هذه الأوامر علاجات ربانية

لهذه النفوس التائهة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ)

فهذه آيات تشريعية، وهناك آيات كونية، وآيات في العقيدة، فهذه الآية من ضمن آيات الأحكام.

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

(وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

وجوب استئذان الطفل البالغ: وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا

هنا الفعل أضيف إلى هؤلاء الأطفال الذين بلغوا الحلم فأصبحوا مكلفين، ومخاطبين، ولم يقل الله عز وجل: وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوكم، بل فليستأذنوا، فنسب هذا الفعل إليهم.

(كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

1- أمر الآباء أبناءَهم بالاستئذان:

وبعض الاستنباطات المأخوذة من هذه الآيات كما أمرنا الله بهذه الأوامر، أمرنا أن نأمر بها أبناءنا، فلو أن الأبناء لم يؤمروا بها، واخترقوها فالمسؤولية وحدها تقع على الآباء، أما إذا أمروا بها، وخالفوها فالمسـؤولية تقع عليهم، ويجب أن ينالوا جزاء عملهم، فلا يعاقب الابن على مخالفته لهذه التعليمات إلا إذا بينت له، ووضحت، وفسرت، وأصبحت واضحة لديه، فإذا خالفها يستوجب العقاب، أما إذا لم يخالفها، ولم تتضح له، وفوجئ الأب بالابن وهو في غرفته، فهو المسؤول، وهو المقصر عن ذلك، والله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

(سورة التحريم: الآية6)

فهذه الآيات المتعلقة بالأهل تنضوي تحت هذه الآية:

(قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا)

وبعض العلماء قالوا: **" إذا بلغ الصغير عشر سنين كتبت له الحسنات ولا تكتب له السيئات حتى يحتلم "**، ومن فضل الله وكرمه أن الصغار إذا فعلوا الحسنات تكتب لهم، وقبل أن يبلغوا الحلم هم

معفَون من تسجيل السيئات، والآن هؤلاء الصغار لمجرد أن يبلغوا الحلم انطبقت عليهم آيات الكبار، والكبار لا ينبغي أن يدخلوا على أهليهم إلا باستئذان في كل مرة.

2- عدم جواز دخول الابن البالغ على أمه أو أبيه إلا بالاستئذان:

وهناك حكم آخر ؛ شاب في العشرين من عمره لا ينبغي أن يدخل على أمه وأبيه إلا باستئذان طوال النهار، وهكذا التوجيه النبوي والقرآني، وهناك حديث يوضح هذه القاعدة، فلو أن في بيت الإنسان أختًا كبيرة في السن، أو شابة وهو يرعاها، وينفق عليها فلا ينبغي أن يدخل عليها إلا باستئذان، ففي أوقات ثلاثة هذه للصغار، أما الكبار فحُكمهم:

(وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

وجوب غيرة المسلم على الأعراض:

ذكرت هذا في آيات الاستئذان، كيف أن أحد أصحاب رسول الله سأل النبي عليه الصلاة والسلام في الدخول على أمه، فعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ سَأَلَهُ رَجُلٌ فَقَالَ:

((يَا رَسُولَ اللّهِ، أَسْتَأْذِنُ عَلَى أُمّي ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، قَالَ الرّجُلُ: إِنّي مَعَهَا فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا، فَقَالَ الرّجُلُ: إِنّي خَادِمُهَا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: اسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا، أَتُحِبُ أَنْ تَرَاهَا عُرْيَانَةً ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَاسْتَأْذِنْ عَلَيْهَا))

[مالك في الموطأ]

ورجل آخر من أصحاب النبي سأله في الدخول على أخته قال: استأذن ؟ إذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا، لأنه تنطبق عليهم آيات الاستئذان التي مرت من قبل، ففي صحيح البخاري ومسلم حديث نبوي شريف يتصل بهذا الموضوع، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ عَنْ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنّهُ قَالَ:

((إِنّ اللّهَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرّمَ اللّهُ))

[البخاري، مسلم]

فالغيرة من صفات المؤمن والديوث لا يشم رائحة الجنة، فعَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ عُمَرَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((ثَلَاثَةٌ قَدْ حَرّمَ اللّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ الْجَنّةَ، مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَالْعَاقُ، وَالدّيُوثُ الّذِي يُقِرُ فِي أَهْلِهِ الْخُبْثَ))

[أحمد]

فهذا المتبذل، وهذا الذي لا يهتم بتغليق الأبواب، وهذا الذي لا ينزعج إذا رئي على وضع لا يرضي الله، هذا ليس من الإيمان في شيء.

قال تعالى:

(وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)

إذًا أصبحت هذه الآية معطلة إذا تجاوز الصغار سن البلوغ.

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (59) وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (60) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آَبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (61))

(سورة النور: الآيات 60-61)

هذه أيضا آيات دقيقة جدا إن شاء الله تعالى نشرحها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (22-23): تفسير الآيتان 60 – 61
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-02-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني والعشرين من سورة النور، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

وَالْقَوَاعِدُ مِنْ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا

معنى القواعد:

القَوَاعِدُ جمع قاعد، بالتذكير، والصفات التي تنفرد بها النساء لا تؤنث، تقول: امرأة طالق، وامرأة بكر، وامرأة ثيب، وامرأة قاعد، المرأة القاعد هي التي قعدت عن الزواج، أو قعدت عن المحيض، أو عن الولد، وهي المرأة التي يئست من الزواج، ولا مذهب للرجال بها، وهي الطاعنة في السن، والتي بلغت سنا لا مذهب لأحد إليها، هؤلاء هن القواعد، أما القاعدة في بيتها، فامرأة حامل في بطنها، حاملة على ظهرها، إذا أنثت صفة المرأة معنى ذلك أن الذكر والأنثى يشتركان في هذه الصفة، فإذا قلت: امرأة حامل أيْ في بطنها، أما إذا قلت: امرأة حاملة أي على ظهرها، وإذا قلت: امرأة قاعدة أي في بيتها، أما إذا قلت: امرأة قاعد أي قعدت عن المحيض، وعن الزواج، وعن الإنجاب، أي المرأة التي بلغت من الكبر عتيا، وبلغت سنا لا يطمح إليها أحد، فهذه المرأة لها حكم خاص.

(وَالْقَوَاعِدُ مِنْ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا)

وكأن الله سبحانه وتعالى فسّر من هن فقال:

من هي المرأة القاعد ؟

(وَالْقَوَاعِدُ مِنْ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ)

ماذا قال العلماء في تفسير هذه الآية ؟ قالوا: **" الصحيح أن هذه المرأة القاعد هي كالمرأة الشابة في التستر، فما يباح للشابة يباح للقاعد، وما لا يباح للشابة لا يباح للقاعد "**، هكذا ورد في تفسير

القرطبي الصحيح: أن المرأة القاعد كالشابة في التستر، لكنها سمح لها أن تضع الجلباب، ومعنى أن تضع أي أن تخلع الجلباب في بيتها، والجلباب هو الثوب الأخير الذي فوق الدرع وفوق الخمار، والجلباب كالعباءة تماما، فقال العلماء: **"هذا في بيتها فقط، فإذا خرجن إلى الطريق فينبغي لهن أن يلبسن هذه الثياب التي تغطي كل ثيابهن الأخرى "**، وكيف عرف العلماء ذلك ؟ بقوله تعالى:

(غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ)

ما معنى التبرُّج ؟

ما هو التبرج ؟ التبرج هو الظهور، وهو نقيضُ التستر، ومنه البارجة لأنها مرتفعة، ومنه برج القلعة، وهو أعلى مكان فيها، ومنه الأبراج، والبروج، قال تعالى:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)

[البروج: 1]

هذه النجوم المتألقة التي نراها في كل فصل، فمن قوله تعالى:

(غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ)

أي هؤلاء النسوة لا ينبغي لهن أن يتبرجن، وفي أدق ما قيل في هذه الآية ما ثبت من حديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ

((أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَانَ يَكْرَهُ عَشْرًا ؛ الصُّفْرَةَ، وَتَغْيِيرَ الشّيْبِ، وَجَرّ الإِزَارِ، وَخَاتَمَ الذّهَبِ، أَوْ قَالَ: حَلْقَةَ الذّهَبِ، وَالضّرْبَ بِالْكِعَابِ، وَالتّبَرُّجَ بِالزّينَةِ فِي غَيْرِ مَحِلِّهَا، وَالرُّقَى إِلا بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَالتّمَائِمَ، وَعَزْلَ الْمَاءِ، وَإِفْسَادَ الصّبِيّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُحَرِّمَهُ))

[أبو داود]

هذا مباح، ومطلوب، وواجب، أما الآية الكريمة:

(غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ)

أي غير ظاهرات للأجانب، وغير متعرضات لهم، وغير متبرجات بزينة، وأن يستعففن خير لهن، ولكن هذه المرأة القاعد المسنة، ولسبب ما إذا كانت في بيتها، ولظرف ما دخل عليها أجنبي، يعني البيوت متنوعة، قد يكون البيت غرفة واحدة، دخل رجل مثلا لإصلاح جدار، فلو دخل أجنبي إلى هذا البيت فيجب أن ترتدي هذه المرأة لباسها، وحجابها الكاملين، إلا أن العباءة ـ والتي هي الجلباب ـ وهو آخر ثوب تضعه المرأة على جسمها ربما سمح للمسنة ألا تضعه، وهي في بيتها إذا دخل أجنبي، أما أن تخرج إلى الطريق بشكل لا يرضي الله، فهذا من أنكر المنكرات، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنّ)

وهذه المرأة المتقدمة في السن هي قدوة، هذه المرأة التي أيس منها الرجال، وأيستْ من الزواج، إنها قدوة لبناتها، وحفيداتها.

(وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنّ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

استعفاف القواعد من النساء خير من وضع الثياب:

ربما كان هذا الثوب الأخير يسبب لها متاعب فمعها رخصة، أما أن تظهر الخلخال، والسوار، والقرط، والخضاب، وموطنها فهذا لا يجوز إطلاقا، لنص الآية الكريمة:

(غَيْرَ مُتَبَرّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنّ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

قال عطاء: **" هذا في بيوتهن فإذا خرجت فلا يحل لها وضع الجلباب ".**

[تفسير القرطبي]

وربما كان هناك حالات لا نعيشها نحن الآن، بيت مشترك بين أسر عديدة، أو بيت فيه غرفة واحدة، وربما كان هذا الحكم يناسب هذه الأحوال، قال عطاء: **" هذا في بيوتهن فإذا خرجت فلا يحل لها وضع الجلباب ".**

معنى وضع الثياب:

ومعنى وضع الجلباب أي خلعه، ومعنى في بيوتهن أي إذا دخل عليهن أجنبي، يعني هو الرخصة كلها، والذي هو محرم على الشابة محرم على المسنة، ولكن هذا الجلباب الأخير إذا كانت في بيتها، ودخل أجنبي ربما سمح لها الشرع أن تعفى من ارتدائه، والأولى أن ترتديه، لأنها قدوة لحفيداتها، ولبناتها في البيت، ومن التبرج كما يقول العلماء لبس ثوبين رقيقين يصفان حجم المرأة، أو حجم أعضائها، أو لون أعضائها، والثوب الذي يصف الحجم، أو يصف اللون فهذا ثوب محرم أشد أنواع التحريم، كيف ؟

يا أيتها المرأة المسلمة احذري أن تكوني من هذا الصنف !!!

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ، يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا))

[مسلم]

كيف فسر العلماء هذا الحديث ؟ أي إنهن يرتدين ثيابا، ولكنها ثياب فاضحة، تشف عما تحتها، رقيقة تصف حجم أعضاء المرأة، هذه الثياب وصفها النبي بأن صاحبتها ملعونة، وفي رواية أخرى:

((فَالْعَنُوهُنَّ فَإِنَّهُنَّ مَلْعُونَاتٌ))

[أحمد عن عبد الله بن عمرو]

هذا أمر مهم جدا، لذلك أن تقول امرأة: أنا امرأة شريفة، وترتدي ثيابا تظهر مفاتنها فهيب نص الحديث الشريف الصحيح ملعونة من قبل الله عز وجل، وهذه المرأة إذا ماتت على هذه الحال لن تدخل الجنة بنص هذا الحديث الشريف.

وتصفيف الشعر وفق أحدث الطرق المجلوبة من دول الغرب يجعل رأس المرأة كأسنمة البخت، فإذا كان هذا لزوجها فلا مانع، أما إذا كان هذا في الطريق فنعوذ بالله من هذه الفتنة.

((رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ، لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ، وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا))

ليس هذا من كلام المسلمات المستقيمات !!!

أما أن تقول هذه المرأة الكاسية العارية: غطاء الصلاة في حقيبتي، وأنا أصلي، والحمد لله، فهذا كلام مضحك، وأن تمشي المرأة في الطريق، فتفسد الشباب، وتثير الشهوات، وتجعل الناس البعيدين عن الله عز وجل يميلون إليها، وتدعي أنها تصلي، وتدعي أنها مؤمنة في قلبها، وتقول: الإيمان في القلب، نقول: لا، والله، الإيمان يجب أن يبدو ظاهرا.. **"الإيمان ما وقر في القلب وأقر به اللسان وصدقه العمل ".**

هذا العمل لا يعبر عن إيمان، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ، وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ، قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: الدِّينَ))

[البخاري، مسلم]

فكلما ازداد دينك طال ثوبك، وكلما ازداد دينك كان ثوبك سابغا، فمن أين أخذ النبي عليه الصلاة والسلام هذا التفسير؟ من قوله تعالى:

(وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)

(سورة الأعراف: الآية26)

أما حديث النبي الأول:

شرح قول النبي: نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ ...

((... نِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ، مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ، رُؤُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ))

فله تفسير آخر.

التفسير الأول:

التفسير الأول: أنهن يرتدين الثياب، لكن هذه الثياب لا تستر أعضاءهن، ثياب شفافة، ضيقة، فاضحة، تبرز أكثر مما تخفي، فهي كاسية عارية، وهذا من المتناقضات.

التفسير الثاني:

ومعنى آخر ؛ كاسيات من الثياب عاريات من الإيمان، وعلى كلٍ فالآية في مجملها على النحو التالي: أن هذه المرأة القاعد التي قعدت عن الحيض، عن الزواج، وعن إنجاب الولد، وقد بلغت من الكبر عتيا، و لا مطمع لأحد فيها، إذا كانت في بيتها، ودخل عليها أجنبي، لسبب أو لآخر فعليها أن تستتر منه كما تستتر الشابة تماما، إلا أن هذا الجلباب الأخير الذي إذا ارتدته ربما أرهقها، وهذا سمح لها الشرع أن تضعه، أما إذا تعففت، وارتدته فهذا أفضل بكثير، وهذا ملخص الآية، وهناك من يفهمها فهما آخر، لكن هذا الفهم هو الذي عليه أكثر المفسرين، ثم يقول الله عز وجل:

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آَبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

حُكم الأكل من بيوت الأقرباء والأصحاب:

يقول بعض العلماء: **" إن هذه الآيات نزلت في نفر من الصحابة حينما سمعوا قول الله عز وجل:**

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة النساء: الآية29)

فقالوا في أنفسهم: وهل من مال أحب للإنسان من طعامه ؟ فكيف نأكل عند إخواننا، أو كيف نأكل عند أقربائنا، ولعله أكل لأموال الناس بالباطل ؟ فامتنعوا عن أن يأكلوا في بيوت أقربائهم، فنزلت هذه الآية لتوضح الحكم الدقيق في هذا الموضوع "، ليس على الأعمى، يعني الأعمى إذا جلس ليأكل ربما طاشت يده، وربما جالت في القصعة جولة لا ترضي البصير، فهذا الأعمى ليس عليه حرج إذا جلس ليأكل، وقد تصل يده إلى منتصف الطبق، أو يقع من يده جزء من الطعام على ثوبه، ولم ينتبه له، فلا ينبغي لك أيها البصير أن تدقق مع هذا الذي امتحنه الله بكف بصره، فليس على الأعمى حرج..

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ

(وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ)

الأعرج ربما لا يستطيع أن يجلس كما تجلس بأدب، وقد يضطر إلى أن يمد رجله، فإذا جلس ربما مدد رجله لعاهة نزلت به، فليس على الأعرج حرج.

(وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)

المريض قد يكون مرضه مزعجاً، أو يدعو للاشمئزاز، فأنت أيها المؤمن إذا رأيت أخا في حالة دون الحالة السوية فلا ينبغي لك أن تشمئز منه، ولا أن تنفر منه، ولا أن تعبر عن تأففك، فهذا لا يليق بك، وأنت مؤمن، وهذا من عباد الله الصالحين، لكن الله قد ابتلاه، والمؤمن من آدابه أنه إذا رأى مبتلى أن يدعو،

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ رَأَى مُبْتَلًى فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلًا، لَمْ يُصِبْهُ ذَلِكَ الْبَلَاءُ))

[الترمذي]

ولا ينبغي لك أن تعبر عن اشمئزازك من هذا، فـ:

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)

والسبب في أن العرب في الجاهلية كانوا يستقذرون أن يؤاكلوا الأعمى، أو الأعرج، أو المريض، وهذا ليس من الأدب في شيء، بل هذا ترفع وكبر، وهذا تطاول على خلق الله عز وجل، فالله سبحانه وتعالى أراد أن يبين أن الأعمى ليس بيده هذا العمى..

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)

وما دامت هذه الآيات جاءت في سياق تناول الطعام فالحرج مرفوع عنهم إذا تناولوا الطعام، فربما جالت يد الأعمى إلى منتصف الطبق، وربما لم تكن مرتاحا لهذا الأعرج الذي يمد رجله، وهو يأكل، وربما لا تستطيب أن تأكل مع المريض، فهذا ليس عليه حرج، ومن أخلاق المؤمن أن يصبر، وألا يتأفف، لكن إذا نزعت هذه الآيات من سياقها، وقرأتها منفردة فربما أفادت حكما آخر، أن الأعمى، والأعرج، والمريض ليس عليهم جهاد، فإذا اعتذر الأعمى عن أن يكون مجاهدا، وكذلك المريض، وكذلك الأعرج، هو معذور، فهؤلاء الثلاثة معذورون عند الله عز وجل، فلا ينبغي أن تسيء الظن بهم، أو لا ينبغي أن تنظر إليهم نظرة لا تليق بهم.. لأنه:

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ)

ثم قال:

(وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ

دخلنا الآن في موضوع جديد، ومعنى:

(وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

أيْ أنتم، وأولادكم، وزوجاتكم.

حينما عدّد الله سبحانه وتعالى:

حكم الأقرباء:

(وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ)

الأخوال، والخالات، والأعمام، والعمات، والإخوان، والأخوات، والأمهات، والآباء، من القريب، والذي سقط من هذه الآية الابن..

لذلك قال العلماء: **" إن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال**

((أنت ومالك لأبيك))

فمعنى ذلك أن بيت الابن بمثابة بيت الأب، لكن النبي الكريم حينما قال لأحد السائلين عن موضوع المال وعلاقته بين الأب والابن قال:

((أنت ومالك لأبيك))

ولكنه قال للآباء:

((من أكل من مال ابنه فليأكل منه بمعروف))

أيْ يجب أن يأكل منه بالقدر الذي يبقي له شيئا يمسك رمقه، فهذا عليه زواج، وفتح بيت، وتأسيس أسرة، ودفع مهر، وتأمين أثاث البيت، فإذا قلت لابنك: هات كل راتبك، وأنا أبوك، نقول له: يقول عليه الصلاة والسلام: من أكل من مال ابنه فليأكل منه بمعروف، فإذا كان أبوك عاجزاً فلابد أن تقدم له جزءا من مالك، وليس لك في هذا منة، ولا فضل، لأن الله سبحانه وتعالى جعل وجودك في هذه الدنيا عن طريقه ـ فأنت ومالك لأبيك ـ ويجب ألا يفهم هذه الآية فهما لم يرده الله سبحانه وتعالى، أيْ أن تدخل بيت عمتك، وتفتح الثلاجة، وتأكل منها ما شئت من دون إذن، لا.

قال العلماء: **" هذا الطعام بإذن أو بدعوة أو بتوكيل إذا دعيت فلبيت الدعوة وليس هناك حرج أبدا، وإذا دعيت إلى وليمة فلبِّ دعوة من دعاك ووجب حقه عليك "**، وليس هناك حرج أن تأكل في بيت ابنك، أو بيت ابنتك، أو بيت أمك، أو بيت أبيك، أو بيت أختك، أو بيت أخيك، أو بيت عمتك، أو عمك، أو خالتك، أو خالك، فليس هناك حرج ما دمت مدعوا، وليس هناك حرج ما دمت موكلا، وليس هناك حرج ما دمت قد أذن لك، ففي حالات يؤذن لك أن تتفقد هذا البيت في غيبة أصحابه، فقد تشتهي أن تشرب كأساً من الشاي.

وقد قال العلماء: **" حينما تأكل من دون إذن شيئاً يسيرا جدا، تافهاً جدا يدخل السرور على قلب صاحب البيت "**، فإذا وكلك أحدهم في بيته في غيابه، وهذا البيت كلفك مشقة للذهاب إليه، وأنت قابع في هذا البيت، حضرت إبريقاً من الشاي مثلا، فهذا الشيء يسير جدا، وتافه، وصاحب البيت يسر إذا

فعلت ذلك، وهناك شرط دقيق جداً يجب أن يكون هذا الطعام مبذولا، وليس في حرز، أيْ ثلاجة مقفولة، ما دامت مقفولة، ولها مفتاح فهذا الطعام صار في حرز، وأما الشيء المبذول، واليسير، والتافه، والذي لا يغص صاحبه لو أكلت منه، فهذه الحالات التي سمح لها من دون إذن، ولكن الطعام الذي إذا أكلت منه أحدثت خللاً، فهذا يحتاج إلى دعوة، أو إلى إذن، أو إلى توكيل، وهكذا قول أكثر العلماء في تفسير هذه الآية..

(وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ)

هذا بيتك، أو بيت زوجتك، فزوجتك ميسورة الحال، واشترت طعاما، وأكلت منه، فهذا معفو عنه، أو بيت ابنك، أو أنت ما تزال عازباً، والبيت بيت أهلك، أو بيت الابن، أو بيت الزوجة، أو طعام الزوجة، كل هذه الأنواع انضوت في قول الله عز وجل:

(أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ)

فالأب والأم إذا زارهما ابنهما يشعران بغبطة لا حدود لها، ولو أنه تناول معهما طعام العشاء، هكذا طبيعة العلاقات الأسرية التي أودعها الله في قلب الآباء والأمهات، فمن يتحرج أن يأكل عند أبيه، أو عند أمه، فهو لا يعرف ما أودع الله في قلب الأب، والأم من محبة، وعطف، فليس عليكم جناح

(أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ)

وربما كان تناولك الطعام عند أمك وأبيك عملا صالحا، فالأم تمتلئ غبطة إذا أكل ابنها عندها، وقد تصنع له الطعام الذي يحبه، فإذا جاءها، وقال لها: إني تناولت الطعام مع زوجتي فربما تألمت، إنها صنعت لك هذا الطعام من أجل أن تأكله فيجب أن تأكله، وهذا الذي يريده الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات:

(وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ)

الأخ، الأخ النسبي.

(أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ)

الدليل:

(أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ)

ليس معنى هذا أنه إذا دعاك خالك لتناول طعام الغذاء، وأولاد خالك، وبنات خالك كلهم مجتمعات على المائدة تقول: هكذا يقول الله عز وجل، المحرم محرم، أيْ فيما لا يتعارض مع الآيات الأخرى، إذا وُجِدَ نساء أجنبيات فلا ينبغي لك أن تجلس معهن، وأن تأكل معهن، فلو جلست معهن لكانت هناك فتنة.. والخالة وبيت الخال إذا كان هناك اختلاط بين الشباب والشابات فهذا مما يتناقض مع الآيات الأخرى، ولا ينبغي لك أن تعد هذه الآية رخصة لهذه الدعوات والطعام المختلط..

ولكن لا ينبغي لك أن تحمل شيئا من هذا الطعام، كل واخرج، أما أن تقول: هذا السمن رفيع جيد، فهاتوا علبة نملأها، فهذا شيء مذكور في التفاسير، لا يجوز إطلاقا، كل كما تشتهي بإذن، وعندنا قاعدة: هناك إذن، أو دعوة، أو توكيل، وأحياناً يكون أخ عنده أخ آخر يعمل في طلاء البيوت، فأخوه يقول: تفضل وكل على حسابك، سمح لك أن تأكل بالمعروف، قال لك: استعمل الهاتف، فاتصلت بالسعودية، لقد خطر في باله مكالمة داخلية، وليست مكالمة خارجية، أخي استعمل الهاتف وتغدّ، فالإنسان يجب أن يتعامل بلطف، وظله خفيف، لا في غلظة، حتى ولو سمح لك باستعمال الهاتف، ولو سمح لك بتناول الطعام، كل الحد الأدنى، وكل شيئا من الطعام لا يتألم صاحبه.

زار ضيف شخصاً، فوضع له صحفة حلوى، أكل واحدة، ولكن هذا أكل نصفه، وصاحب البيت غائب، فالأول انحرج، أنا أكلت واحدة، أما هذا فأكل نصفه، فلما دخل قال: فلان يحبك أكثر مني، أنا أكلت واحدة فقط، أيْ بيّن له. فلذلك:

(أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ)

أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ

هؤلاء الخازنون، أيْ مخزن مواد غذائية، أو مخزن بضاعة معينة، أو في الحقول الزراعية المرابع، فهذا البستان لفلان، وضع إنساناً يعتني به، فالبستان فيه فواكه، فمسموح لهذا الوكيل أو الخازن أن يأكل، وهي مما.

(مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ)

تعني الوكيل أو الخازن في وقت واحد، لكن الوكيل والخازن إذا كان لهما أجر، فهناك حكم، وإذا كانا بلا أجر فهناك حكم آخر، أي بلا أجر مسموح لهما أن يأكلا بالمعروف، أما بأجر فلا يسمح لهما أن يأكلا شيئا، أما بلا أجر فهو فخدمة، كلفك أن ترعى هذا البستان، أو هذه الحديقة في غيابه، وهو مسافر، والبستان يحمل توتاً، والتوت استوى، وفي الأرض عدد قليل، فلا حرج لو أكلت بالمعروف، أما أكثر من ذلك فيدخل في حكم آخر، فكلمة:

(مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ)

بمعنى الخازن في المدينة، أو الوكيل في المزرعة.

(مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ)

لها ثلاث حالات. حالة أن يكون في أمانتك أو في عهدتك، وحالة أن تكون قريبا له، وحالة أن تكون صديقا له، فإما قرابة، أو صداقة، أو أمانة.

(مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ)

تعني الوكلاء أو الأجراء، الوكلاء في الحقول الزراعية والأجراء في المدن، وفي المخازن التموينية، ويجب أن يأكل اليسير القليل الذي لا يؤذي، وهذا ما ذكر في بعض التفاسير فعَنْ عَمْرِو بْنِ يَثْرِبِيِّ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((أَلا وَلا يَحِلُّ لامْرِئٍ مِنْ مَالِ أَخِيهِ شَيْءٌ إِلا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ غَنَمَ ابْنِ عَمِّي أَجْتَزِرُ مِنْهَا شَاةً))

[أحمد]

أَوْ صَدِيقِكُمْ

أي الأخ في الله، والصديق الذي صادقته، وقد سئل أحد العلماء: أيهما أحب إليك أخوك أم صديقك ؟ فقال: أخي إذا كان صديقي، أما هنا فقد جاء الصديق مفرداً، ويقصد به الجمع، أي أصدقاءكم، كأن تقول عدونا الفلاني، العدو جمع، أيْ أعداؤنا فالصديق، والعدو من أسماء الجموع.

(أو مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا)

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا

والعرب في الجاهلية كانوا يأنفون أن يأكلوا وحدهم، ومن العار الشديد أن تأكل وحدك.

ولذلك كان بعضهم يبيت طاويا ثلاثة أيام، إلى أن يجد من يؤاكله، وهذا حرج لا مبرر له.

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا)

إذا وُجِدَ ضيف عندك فأفضل، ولكن لا يوجد إنسان آخر يأكل معك، فهل تبقى بلا طعام ؟ ليس هذا من العدل في شيء، فإحضار الضيف حسن، ولكن لا يحرم الانفراد.

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا)

حُكم الاجتماع على ثمن الطعام:

وهنا عندنا حكم دقيق جدا، فأحيانا يذهب أناس إلى نزهة، ويشترون طعاما مشتركا، ويدفعون ثمنه بالتساوي، ولكن واحداً منهم أكول، والثاني غير أكول، يا ترى أكل مالاً حراماً ؟ لا، هنا جاء هذا الحكم، فما دام الدفع جاء بالتساوي، فهذا أكل اثني عشر قرصاً، وهذا أكل ثلاثة أقراص، وهذا ليس عدلاً، وهذا مما عفا الله عنه.

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا)

أي مشتركين في الطعام.

(أَوْ أَشْتَاتًا)

وأول حكم ؛ لك أن تأكل وحدك من دون أن تكون بخيلا، أما إذا غلقت الباب، وأرخيت الستر، وتناولت الطعام فهذا البخل بعينه، ولكن لا يوجد إنسان عندك في البيت هل تبقى بلا طعام ؟ فهذا الكلام غير وارد.

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا)

هذا مما جاء في كتب التفاسير، أما المعنى الثاني أنكم إذا أكلتم جميعا، وكان ثمن هذا الطعام مشتركا بينكم فليس عليكم جناح أن يكون هناك تفاوت في المطاعم، كل إنسان له رغبة، وله طبيعة خاصة في تناول الطعام، ولكن بالمقابل الإنسان يأكل حتى يشبع، والأكل محدود، ويأكل حتى يملأ معدته، والثاني جائع، فهذا ليس من اللباقة، والذوق في شيء، فالمؤمن كالنحلة يأكل طيبا، ويطعم طيبا، ويعرف ماذا يأكل، وماذا يدع، وليس معنى هذا أن مَن أكل لقمة زيادة أن تحسب عليه، ففي الأكل المشترك تستحيل الحسابات الدقيقة، كبرت اللقمة صغرها، مستحيل، فلابد أن يكون هناك تسامح، ولكن بالمقابل إنسان يأكل بلا وعي، والثاني جائع، فليس هذا من الدين في شيء..

(لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا)

معنى: بُيُوتًا

المعنى الأول: هي المساجد

أيْ إذا دخلتم المساجد، وهذا أول معنى.

المعنى الثاني: عموم البيوت:

لكن المطلق في القرآن على إطلاقه.

وبعضهم قال: البيوت هنا المساجد.

(فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

وهذا معنى دقيق جدا.

معنى: فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ

أيْ: إذا سلمت على أخيك فكأنك سلمت على نفسك، فأنت وأخوك إنسان واحد، كقوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة النساء: الآية29)

لم يقل: لا تأكلوا أموال إخوانكم بالباطل، بل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

(سورة النساء: الآية29)

لأنك إذا أكلت مال أخيك فكأنك أكلت مالك، وهنا:

(فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

فإذا دخلت إلى المسجد، فمن في المسجد ؟ إنهم إخوانك المؤمنون، فسلم عليهم، فإذا سلمت عليهم فكأنك تسلم على نفسك، إلا أن السلام في المسجد محظور في مجالس العلم، وفي إقامة الصلوات، وفي قراءة القرآن، فإذا دخلت المسجد، وليس فيه صلاة، ولا مجلس علم، ولا تلاوة قرآن، ولكن فيه أخ جالس تقول: السلام عليكم.

وتنفيذا لهذه الآية:

(فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ)

صيغة السلام:

هناك صيغة في السلام، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وإذا دخلت إلى بيت مسكون فقل: السلام عليكم، قبل أن تقول: أعندكم خبز زائد تعطوننا إيّاه، قل: السلام عليكم، إذ لا كلام قبل السلام، وإذا دخلت إلى بيت غير مسكون فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وإذا دخلت إلى بيتك غير المسكون، مثلاً اشتريت بيتًا، ولم تسكنه بعد، فقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وهذه هي السنة، فإذا دخلت إلى بيت غير مسكون، وهو بيتك فقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، دخلت إلى بيت مسكون فقل: السلام عليكم، وإذا دخلت إلى بيت مسكون غير بيتك فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، وإذا دخلت إلى مسجد فيه مجلس علم فابق ساكتا، أو فيه صلاة فاسكت، أو فيه تلاوة قرآن فاسكت، والمسجد الذي ليس فيه شيء من هذا القبيل، لكن فيه أخ لك فقل له: السلام عليكم..

(فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً)

السلام على أهل البيت يدفع أذى الشيطان:

فإذا دخلت بيتا تعلم علم اليقين أن صاحبه ينكر وجود الله عز وجل مثلا، فقل: السلام على من اتبع الهدى، وإذا كان فيه أنواع فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام عليكم، ما شاء الله لا قوة إلا بالله.. السلام على من اتبع الهدى.. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ))

[مسلم، أبو داود، النسائي، ابن ماجه، أحمد]

اليوم طول الليل مشاجرات، ومشاكل، فإذا جلس الرجل إلى الطعام، ولم يسم قال الشيطان لإخوانه: أصبنا العشاء، فإذا دخل، ولم يسلم، وجلس إلى الطعام، ولم يسلم، قال الشيطان لإخوانه:

((أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ))

وشيء آخر ؛ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا وَلَجَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَوْلَجِ وَخَيْرَ الْمَخْرَجِ، بِسْمِ اللَّهِ وَلَجْنَا، وَبِسْمِ اللَّهِ خَرَجْنَا، وَعَلَى اللَّهِ رَبِّنَا تَوَكَّلْنَا، ثُمَّ لِيُسَلِّمْ عَلَى أَهْلِهِ))

ولج بمعنى دخل.

[أبو داود(5096)]

وأحياناً يدخل الإنسان إلى البيت فيسمع خبراً سيئاً، فيتشاجر مع زوجته، ويقع في إشكال لا ينتهي في أشهر، فالإنسان إذا دخل بيته فليدعُ بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم:

((إِذَا وَلَجَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَوْلَجِ وَخَيْرَ الْمَخْرَجِ، بِسْمِ اللَّهِ وَلَجْنَا، وَبِسْمِ اللَّهِ خَرَجْنَا، وَعَلَى اللَّهِ رَبِّنَا تَوَكَّلْنَا، ثُمَّ لِيُسَلِّمْ عَلَى أَهْلِهِ))

هذا معنى قوله تعالى:

(فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا)

مطلقة، فالمسجد بيت، وبيت أقربائك بيت، وأهلك، وبيتك الفارغ، وبيتك المسكون، إذا دخلت إلى أي مكان فقل: السلام عليكم، بين أن تقول: السلام عليكم، أو السلام علينا، أو ما شاء الله لا

(فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

ُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة النور 024 - الدرس (23-23): تفسير الآيات 62 – 64
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 03-03-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث والعشرين، والأخير من دروس سورة النور، وقد صلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة النور)

الفائدة بالحصر بـ (إنما):

الحقيقة حينما تأتي كلمة

(إِنَّمَا)

وبعدها

(الْمُؤْمِنُونَ)

تعني تلك الكلمة أنها تصف كمال الإيمان، أيْ المؤمن الحق، والمؤمن الكامل، فكمال الإيمان يقتضي كذا وكذا، والإيمان درجات.

الإيمان درجات:

وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ))

[البخاري، مسلم، واللفظ له]

فهذا الذي يميط الأذى عن الطريق خوفا من أن تزل قدم مسلم، أو قدم إنسان كائن من كان، وهو عبد من عباد الله، وهذا العمل ينطلق من إيمان، ولكن هل يعني ذلك أن هذا الذي أماط الأذى عن الطريق صار مؤمنا كاملا ؟ لا من هنا جاءت كلمات القرآن الكريم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[النساء: من الآية 136]

ومن هنا جاءت آيات القرآن الكريم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران: الآية 102)

إذاً: فالإنسان على مستوى من الإيمان لا ينبغي أن يرضى به، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: قَالَ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ:

((لَوْ أَنَّ عِبَادِي أَطَاعُونِي لَأَسْقَيْتُهُمُ الْمَطَرَ بِاللَّيْلِ، وَأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشَّمْسَ بِالنَّهَارِ، وَلَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرَّعْدِ))

[أحمد]

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ اللَّهِ))

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا ؟ قَالَ: أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لَا إِلَهَ إِلا اللَّهُ))

[أحمد]

يجب أن تسعى لترفع مستوى إيمانك، وكلما ظننت أن هذا المستوى الذي أنت فيه جيد فهناك أجود، وكلما ظننت أنك وصلت إلى الهدف فأنت في غلط كبير، فالإيمان له بداية، ولكن ليس له نهاية، وما دام الإيمان معرفة الله عز وجل، فإنّ الله سبحانه وتعالى لا نهاية لكماله.

إذاً: لا نهاية للإيمان.

كلمة:

(إِنَّمَا)

تفيدنا أنه على المؤمن أن يرفع مستوى إيمانه دائما، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ))

ما الذي يرفع مستوى الإيمان ؟

1- العلم والعمل:

والسؤال الآن: ما الذي يرفع مستوى الإيمان ؟ الحقيقة هو العلم والعمل، ولذلك عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا أَتَى عَلَيِّ يَوْمٌ لَمْ أَزْدَدْ فِيهِ خَيْرًا يُقَرِّبُنِي إِلَى رَبِّي، فَلاَ بُورِكَ لِي فِي طُلُوعِ شَمْسِ ذَلِكَ الْيَوْمِ))

[الكامل في ضعفاء الرجال]

ويظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل، من هنا تأتي ضرورة حضور مجالس العلم، وقد يقول عامة الناس: ألا يكفيك حضور هذه المجالس ؟ أما زلت بحاجة إلى علم ؟ من قال لك: إن العلم ينتهي عند حد،

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا)

(سورة الإسراء: الآية 85)

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة: الآية 255)

فالعلم ليس له نهاية، وكلما تعلمت أكثر ارتفع مستوى إيمانك، فالذي يرفع مستوى الإيمان هو علم بكتاب الله، وعلم بسنة رسول الله، وعلم بشريعة الله، وعلم بأسماء الله الحسنى، وعلم بصفاته الفضلى، وعلم بحقيقة النبي عليه الصلاة والسلام، فهذا الذي يقنع بمستوى من الإيمان لا يحيد عنه، ولا يرجو غيره، هو ضعيف الهمة، لا يمكن أن يصل إلى ما يريد، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ)

يعني هؤلاء المؤمنون الصادقون هذه صفاتهم، فكأن الله سبحانه وتعالى بالمعنى الضمني يقول للمؤمنين: أنتم كذلك، وإن كنتم كذلك فاسعوا إلى مرتبة أخرى، وإن كنتم لستم كذلك فاسعوا إلى أن تكونوا كذلك.

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

آمنوا بالله خالقا، وآمنوا بالله مربيا، وآمنوا بالله مسيرا، ولن يصاب الإنسان بأزمة نفسية إلا بنقص في إيمانه، فإذا آمنت أن الله هو الخالق، وأن الله هو المربي يربي جسدك، ويربي نفسك، يربي جسدك بما يسوق له من مواد، ويربي نفسك بما يسوق لك من أحداث، فهو رب العالمين، والنبي عليه الصلاة والسلام في سلوكه اليومي كان مشرّعا، وقراءة سيرة رسول الله، والوقوف عند أحداث السيرة ليس شيئا من الترف العلمي، إنما هو شيء مصيري، وأساسي.

ففي الموقف الفلاني فعل النبي ذلك، وأنت يجب أن تفعل ذلك، لأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، وفي الموقف الفلاني فعل النبي ذلك، وفي زواجه كان زوجا ناجحا، وفي علاقته مع إخوانه كان أخاً وفياً، وفي علاقته مع من هم دونه كان أباً رحيماً، وفي علاقته مع المؤمنين كان صادقاً، فإذا درست سيرة النبي عليه الصلاة والسلام فلأنها سيرة تشريع، ولأن مواقفه قدوة يجب أن تقتدي بها.

ما معنى الأمر الجامع في قوله: وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ؟

ما هو الأمر الجامع ؟ أمر يعود نفعه على المسلمين، أو أمر يعود شره على المسلمين، أيْ أمر خطير، فالجهاد أمر خطير، والتعاون على البر والتقوى أمر خطير، ففي هذه الآية آداب رفيعة في علاقة المسلمين فيما بينهم، وفيمن يدلهم على الله عز وجل، فإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، فهذا الذي يذهب إذا كان مع النبي عليه الصلاة والسلام على أمر خطير، على أمر يمس المسلمين في حياتهم الدنيوية أو الأخروية، حيث يعود نفعه على المسلمين، أو يعود شره على المسلمين.

وجوب استئذان النبي:

كيف ينطلق هذا الإنسان من دون أن يستأذن النبي عليه الصلاة والسلام ؟ إنه ليس مؤمنا بالمستوى الذي أراده الله عز وجل، فإذا كنت مؤمناً كاملاً فعليك أن تستأذن النبي عليه الصلاة والسلام، فيمكن أن تنسحب هذه الآداب على كل مجتمع صغير مسلم، مثلاً على مستوى الأسرة، أيعقل أن ينطلق الابن إلى حيث يشاء من دون أن يستأذن أباه، أيعقل أن ينطلق الأخ الكريم، وهو في مجموعة في مكان دون أن يستأذن أميرهم، هذا الإذن يعني ارتباط الإنسان المسلم بأميره في الدنيا، أو أميره في الدين، فلابد من الإذن، أساسا القوانين الوضعية تطالب الموظف إذا أراد أن يسافر أن يستأذن جهته الرسمية، فلعل في هذا السفر خللاً في عمله، ولعل في هذا السفر خطراً على مستقبله، وإضعافا للمسلمين، فهذا الاستئذان علامة رقي، وعلامة نظام، والمؤمنون يسودهم نظام دقيق، فالفوضى لا يقرها الإسلام، وليست من الإسلام في شيء، ولو أنكم درستم سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا سيما في غزواته لرأيتم العجب العجاب، ولرأيتم كيف كان النبي عليه الصلاة والسلام ينظم الصفوف، وكيف كان يضع على كل مجموعة أميراً، وكيف كان يتصل بالأمراء، وكيف كان ينقل الأوامر، وكيف كان يستقبل المعلومات، هذا شيء من سمات الإسلام.

والفوضى ليست من الإسلام في شيء، فهناك أمير دنيوي، وهناك أمير في الدين، وعلى كل إذا كنت عضوا في جماعة بدءاً من الأسرة، وانتهاءً عضواً أو فرداً في أمة فلابد من علاقة تنظيمية بينك وبين أمير هذه الجماعة، وهذه العلاقة التنظيمية في عهد النبي عليه الصلاة والسلام جاءت على الشكل التالي، وفيما بعد النبي عليه الصلاة والسلام لابد من الذي ينوب عن النبي في إمارة الدنيا، أو في إمارة الآخرة أن تنسحب عليه هذه الآداب.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ)

وكمثل بسيط ؛ في مجموعة مؤمنة كهذه المجموعة، لو أن أخاً كريماً نوى أن يسافر، وأعلم أخاه الذي يدله على الله عز وجل أنه مسافر، فإذا غاب الأسابيع المتتالية لا يشعر هذا الذي يدله على الله أن فلاناً غاب، وأن فلاناً لا يحضر، أين هو يا ترى ؟ علم أنه في العمرة، أو هو في سفر ضروري، فهذا الإعلام جزء من آداب الجماعة، ولو أن المستوى هبط إلى مستوى الإعلام فهذا التزام بآداب الجماعة، وارتباط في مجموعة، ولعل الله سبحانه وتعالى يرحمنا بانضباطنا بهذه الآداب جميعا.

لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

فكلمة مؤمن كلمة واسعة جدا، قد تتسع، وتتسع حتى تشمل كل إنسان أقر بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، وقد تضيق، وتضيق حتى يصبح المؤمنون قلة، فينبغي أن نعلم نحن في أي مستوى يكون إيماننا، هل هو بالمستوى الذي يرضي الله عز وجل ؟ أم في المستوى الذي لا يرضيه؟ وليس كل من ادعى الإيمان يكون مؤمناً، والقضية ليست على مزاجك، ولكن القضية منضبطة بمصطلحات، أو بتعريفات، أو بصفات دقيقة للمؤمنين، وآيات أخرى تؤكد ذلك:

(قَالَتْ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلْ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ)

(سورة الحجرات: الآية 14)

2 – الانقياد لأوامر الله ورسوله:

فالإسلام مستوى، والإيمان مستوى، فالإسلام بمجرد أن تنقاد لأوامر الله عز وجل ؛ صغيرها وكبيرها فأنت مسلم، ولكن الإيمان تصديق لما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، وإقبال على الله عز وجل، فإذا ألغي الإقبال تراجع الإيمان، والإيمان مجموعة حقائق يجب أن تؤمن بها، فإذا آمنت بها، ولم تكن في مستواها فما الذي يحصل ؟ يتسرب السأم، والملل إلى النفوس، ولن تقطف ثمار الإيمان إلا إذا كنت في مستواها، ولذلك قلت قبل قليل: الإيمان يتجدد، فما الذي يرفع مستوى الإيمان ؟ العلم، ومتابعة دروسه، ومتابعة قراءة كتاب الله، وتدبّره، فهذا مما يرفع مستوى الإيمان بشكل مستمر.

3 – العمل الصالح:

وشيء آخر يرفع مستوى الإيمان ؛ إنه العمل الصالح، لقول الله عز وجل:

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر: الآية 10)

فالإنسان يحاسب نفسه حساباً دقيقاً، فأنا ماذا فعلت اليوم من عمل صالح يصلح للعرض على الله ؟ ولا تنسوا أن أبواب العمل الصالح لا تعد ولا تحصى، وكلكم يعلم أن تبسمك في وجه أخيك صدقة، وأن تميط الأذى عن الطريق هو لك صدقة، وأن تفرغ دلوك في دلو المستسقي هو لك صدقة، وأن ترشد الرجل الضال في أرض الضلال صدقة، وإنكم إن لم تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم، فالعمل الصالح يرفع مستوى إيمانك لماذا ؟ لأنه يرفع مستوى إقبالك، فإذا عاهدت نفسك ألا يمضي عليك يوم إلا وتزداد فيه علما، أو عملا فعندئذ يرقى مستوى إيمانك إلى المستوى الذي يسمح الله لك به دخول الجنة، فالإيمان مثلا كما قال عليه الصلاة والسلام عفيف عن المطامع، عفيف عن المحارم، هذا هو الإيمان، فهذا الذي يطمع فيما ليس له، أو يطمع فيما نهى الله عنه.. العفيف عن المطامع لا يطمع فيما نهى الله عنه.. وكذلك العفيف عن المحارم، أما الذي لا يجد في نفسه عفة عما حرمه الله أو عن شيء ليس له فهذا إيمانه ضعيف جدا ويحتاج إلى تجديد، وهكذا قال الحسن البصري رحمه الله: **" إن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني إنما الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العلم ".**

[مصنف ابن أبي شيبة]

فإذا كان العمل غير مصدق للقلب فالإيمان يحتاج إلى تجديد والإيمان كما قال عليه الصلاة والسلام يسعد صاحبه فإن لم تكن سعيدا في هذا الإيمان فالإيمان أخذ طابعا شكليا أو أخذ طابعاً أجوف... أيعقل أن تشقى والله معك، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يحزن قارئ القرآن، من أوتي القرآن ثم علم أن أحدا أوتي خيرا منه فقد حقر ما عظمه الله تعالى))

[ورد في الأثر]

فالقضية مصيرية، وخطيرة، فعلى الإنسان ألا يجامل نفسه، بل يتهم نفسه دائما.. فإذا جاملها يغرق معها، وإذا كان يوم الدين يرى نفسه مسبوقا، وحينما يرى نفسه مسبوقا، يتألم ألما لا حدود له.. كن سابقا، ولا تكن مسبوقا، ثم يقول الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام:

فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ

فالنبي معه صلاحية إعطاء الإذن، وأنت حينما تستأذن، وتأخذ إذناً بالخروج أو بالمغادرة عندئذ أنت في المستوى المطلوب، أما هذا الذي يدير ظهره ولا يلوي على شيء، ولا يستأذن أميره، ويفعل ما يشاء من دون استشارة، ومن دون مشاورة، واستئذان، وإعلام، وهو الحد الأدنى، فهذا لا ينتمي إلى المؤمنين الانتماء الذي يرضي الله عز وجل.

(فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ)

يروى أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه استأذن النبي مرة فقال له: **" اذهب فأنت لست بمنافق "** وكان النبي عليه الصلاة والسلام أراد أن يسمع الآخرين أن هؤلاء الذين يتسللون ويهربون من ساعات الشدة ليسوا بمؤمنين إنهم منافقون.

(فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

من إسقاطات هذه الآية

قبل أن ننتقل من هذه الآيات، وإن كانت للنبي عليه الصلاة والسلام، ولكن يمكن أن يتأدب بها المؤمنون مع أمرائهم الذين يدلونهم على الله عز وجل، أو أمرائهم الذين يتولون شؤونهم الدنيوية، وهكذا قال بعض العلماء.

ولو فرضنا أراد النبي عليه الصلاة والسلام أمراً، وأنت إذا غبت عنهم، غبت عن هذا الأمر، وأخفق هذا الأمر، ولم يتحقق فقد ساهمت في إيذاء المسلمين، وأحيانا غياب المؤمن يسبب إحراجاً كبيراً، ولو كُلف إنسان بعمل، ولم يقم به على الوجه المطلوب فهذا انتماء للدين ضعيف، وفي كل مكان يوجد جماعة مؤمنة، وفي كل مسجد خدمات لابد أن تؤدّى، وحاجات لابد أن تقضى، فإذا كلف إنسان بعمل في خدمة هذا المسجد فعدم تأدية هذه الخدمة، وعدم اهتمامه بها هذا دليل ضعف إيماني، أما حين يكلف بعمل، ويقوم به على الوجه الأكمل فهذا من علامات قوة إيمانه، إذا كنت في مجموعة فلابد من الاستئذان، ولابد من التشاور، والاستشارة، والإعلام على الحد الأدنى، ويقول الله سبحانه وتعالى:

(لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللّهُ الّذِينَ يَتَسَلّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة النور)

موقف المنافقين من الأدب مع النبي عليه الصلاة والسلام:

فهؤلاء الذين يقفون على باب النبي عليه الصلاة والسلام، ويصرخون بأعلى صوتهم: يا أبا القاسم اخرج إلينا، فالله سبحانه وتعالى أدبهم وقال:

(إِنّ الّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

(سورة الحجرات: الآية 4)

والنبي عليه الصلاة والسلام لا ينبغي أن يخاطب كواحد منا، إذ له مقام كبير، فربنا سبحانه وتعالى خاطب الأنبياء بأسمائهم جميعا قال:

(يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوّةٍ)

(سورة مريم: الآية 12)

قال:

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي)

(سورة الأعراف: الآية 144)

قال:

(قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ)

(سورة المائدة: الآية 116)

فربنا سبحانه وتعالى خاطب بعض الأنبياء بأسمائهم، ولكنه لم يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام أبدا باسمه، قال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

(سورة الأنفال: الآية 64)

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ)

(سورة المائدة: الآية 41)

فإذا كان الله سبحانه وتعالى خالق السماوات والأرض عرف للنبي مقامه أينبغي للمسلم أن يخاطب النبي في حياته أو بعد وفاته، ويقول: قال محمد بن عبد الله، قل: صلى الله عليه وسلم، لأنه:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

[الحج:32]

فلا ينبغي أن ينادى النبي كما ينادى رجل عادي، هذا مما يجرح نفسه الشريفة..

(قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)

(سورة الشورى: الآية 23)

قال: يا بني نحن إلى أدبك أحوج منا إلى علمك، والإنسان عندما يكون أديباً مع الذي يدله على الله عز وجل، فهذا الأدب يسبب التعاطف، وهذه المودة، وهذا العطاء فالإنسان يعيش بالقيم أكثر مما يعيش بالطعام والشراب، كما قال سيدنا عيسى عليه، وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام: (ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان)... فكلما رفع الإنسان مستوى كلامه مع أمه وأبيه، ومع من يربيه، ومع دليله إلى الله عز وجل، ومع نبيه عليه الصلاة والسلام، ارتقى إلى الله عز وجل بأدبه، والإنسان يرتقي بأدبه أضعاف ما ارتقاه بعلمه.

موقف المنافقين من الأدب مع النبي عليه الصلاة والسلام:

(لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا)

فالمنافقون في الأزمات الحادة، وفي أثناء الغزوات كانوا يتسللون ويهربون إلى بيوتهم، ولاسيما في غزوة الخندق التي بلغت فيها القلوب الحناجر، وابتلي المؤمنون، وزلزلوا زلزالا شديدا، فالمنافقون تسللوا لواذا، أيْ لاذوا بحائط، وتسللوا من خلفه، لاذوا بشجرة، وتسللوا من خلفها، أيْ هربوا من بيوتهم، وقالوا:

(يَقُولُونَ إِنّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ)

قد يعلم الله سبحانه وتعالى، ويرى هؤلاء الذين يتسللون، ويبتعدون، ويؤثرون حظوظ أنفسهم على طاعة ربهم، وحينما الإنسان يتعامل مع الله سبحانه وتعالى يحل جميع مشكلاته، فإذا تسللت هارباً فالله سبحانه وتعالى يعلم إذا بقيت ثابتا، الله سبحانه وتعالى يعلم إذا قدمت مالك.

(قَدْ يَعْلَمُ اللّهُ الّذِينَ يَتَسَلّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرْ الّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

مخالفة الرسول مصيرها إلى فتنة وعذاب:

ولقد سمعت قصة أن شابا متزوجاً حسب أمواله ليدفع عنها الزكاة، فبلغت الزكاة مبلغاً معيناً، وله زوجة بعيدة عن أجواء الإيمان أقنعته أن يمتنع عن دفع الزكاة، وما هي إلا أيام، وله سيارة فأصابها حادث، فقال: والله الذي لا إله إلا هو لو دفعت أجرة تصليح السيارة فهو مقدار الزكاة بالتمام والكمال.

فليحذر الذين يخالفون عن أمره، فالإنسان عندما يُخالف أمر الله عز وجل أو يخالف أمر رسول الله لماذا ؟ لأنه معصوم، ولأنه من عند الله، وما ينطق عن الهوى، فإذا خالف أمر النبي عليه الصلاة والسلام، أو إذا خالف سنة النبي عليه الصلاة والسلام بعد وفاته فكأنه خالف أمره في حياته، وإذا خالف أمر النبي فكأنما خالف أمر الله عز وجل، لقوله عز وجل.

(وَمَا آتَاكُمْ الرّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: الآية 7)

فربنا عز وجل يحذرنا:

(فَلْيَحْذَرْ الّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ)

مشكلة كبيرة، وربنا عز وجل عنده أدوية لمعالجة الأمراض النفسية لا تعد ولا تحصى، فهناك مصائب، وهناك أمراض، وهناك أحزان، فإذا كان رب العزة يقول:

(فَلْيَحْذَرْ الّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ)

أمر الله عز وجل، أو أمر النبي في حياته، أو سنته بعد مماته، فلو سألت عالماً، وقال لك: افعل كذا، وكذا لأن النبي هكذا قال، وهذا ليس توجيه العالم، إنما توجيه النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا خالفت

توجيه هذا العالم المأخوذ من توجيه النبي فقد خالفت شرع الله عز وجل... والإنسان في حركته اليومية، وفي تجارته، وفي بيعه، وشرائه يقع في شبهات، اسأل: مفتاح العلم السؤال..

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة النحل: الآية 43)

فاسأل به خبيراً، فحينما تسأل تستوضح، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ اسْتِخَارَتُهُ اللَّهَ، وَمِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ رِضَاهُ بِمَا قَضَاهُ اللَّهُ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ تَرْكُهُ اسْتِخَارَةَ اللَّهِ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ سَخَطُهُ بِمَا قَضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ))

[الترمذي]

(فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

حينما يخالف الإنسان أمر النبي عليه الصلاة والسلام في حياته، أو سنته الصحيحة بعد مماته، أو يخالف آية قرآنية، يجب أن ينتظر العقاب، لقول الله عز وجل:

(فَلْيَحْذَرْ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

وحينما يطمئن الإنسان على معصيته فهو في غباء ما بعده غباء، لأن الله سبحانه وتعالى لا يغفل عنه، وسيدنا عمر رضي الله عنه قال عجبت لثلاثة: **<< عجبت لمؤمّن والموت يطلبه، وعجبت لغافل وليس بمغفول عنه، وعجبت لضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط الله عنه أم راض >>.**

ثم يقول الله عز وجل في ختام هذه السورة:

(أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة النور)

لله ما في السماوات والأرض ملكًا وتصرفًا ومصيرًا:

(لِلَّهِ)

هذه اللام لام الملك، يعني ما في السماوات والأرض لله، لأنه خلقها، ولأنه يملكها، ولأنه يملك التصرف فيها، ولأن مصيرها إليه، أنت في الدنيا ربما لا تملك هذا البيت، وقد تملكه، ولا تنتفع به، وقد تملكه، وتنتفع به، وقد تنظم أرضه فيؤخذ منك، فليس لك مصيره، والإنسان في الدنيا ملكيته محدودة، يملك الرقبة، ولا يملك المنفعة، وقد يملك المنفعة، ولا يملك الرقبة، وقد يملك الرقبة والمنفعة، ولا يملك المصير، قال العلماء في قوله تعالى:

(أَلَا إِنّ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هو يملكها، ويتصرف فيها، وإليه مصيرها، فأنت علاقتك في النهاية مع الله عز وجل في كل صغيرة وكبيرة، فإذا عاملت الله وحده سعدت بهذه المعاملة، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ:

((مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمّاً وَاحِدًا هَمّ الْمَعَادِ كَفَاهُ اللّهُ هَمّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهِ هَلَكَ))

[ابن ماجه، مصنف ابن أبي شيبة]

فذاكرتك، وعقلك، وأهلك، وأولادك، وحرفتك، ودكانك، وأيّ شيء تعتز به هو ملك لله عز وجل، لقول الله عز وجل:

(قُلْ اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

(سورة آل عمران: الآية 26)

وفي بعض الآثار القدسية:

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعُوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم))

[حلية الأولياء، فيض القدير]

فهذه الآية:

(قُلْ اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

كل شيء يملكه الله فهو مالكه أبدا، فإذا تعاملت معه وحده سعدت بالدنيا والآخرة، وإذا تعاملت مع شركاء ليس لهم من الأمر شيء..

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف: الآية 26)

تعامل مع الإنسان، أرض هذا الإنسان على حساب طاعة الله عز وجل يسخط عنك هذا الإنسان، ويسخط الله معه، أرض الله عز وجل بسخط الناس يرض الله عنك، ويرض الناس، لا إله إلا الله هذا التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

(أَلَا إِنّ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

السماوات والأرض كلمة قرآنية يعبر بها عن الكون، فالكون كله سماوات وأرض.

(أَلَا إِنّ لِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وهناك آية أخرى:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى)

(سورة طه: الآية 6)

كله لله سبحانه ؛ ملكا، وتصرفا، ومصيرا، فما دام الشيء له، فماذا ينتج عن هذا الإيمان ؟

إحاطةُ الله بكل شيءٍ علمًا:

(قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ)

فأنت تحت سمعه وبصره، أنت صفحة منبسطة أمامه، مكشوف، يعلم سرك ونجواك، ويعلم ما تعلن، وما تُسر، وما تعلن، وما تخفي، ويعلم نيّاتك البعيدة، ووساوسك، وهواجسك، وصراعاتك، وكل شيء يخطر في بالك فهو في علم الله عز وجل، ولذلك فعلى الإنسان أن يستحي، وفي الأثر:

((عبدي طهرت منظر الخلق سنين))

فالإنسان بيته منظر الخَلق، وثيابه منظر الخَلق، ومركبته منظر الخَلق، ويمكن أن يدهن مدخل البيت، وأن يغير المفروشات، ويقول لك: أريد أشياء أحدث.. **" عبدي طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة "** ما هو منظر الله سبحانه وتعالى؟ هو القلب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنّ اللّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

فالقلب منظر الرب، ومن هنا قال سيدنا عمر رضي الله عنه فتعاهد قلبك..

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

(سورة الشعراء: الآيات 88-89)

فهناك غل، وحقد، وغش، وخداع، وتكبر، واستعلاء، وأثرة، وحب للذات، وهناك مسامحة، وعفو، وغيرية، وتواضع، وخوف من الله، فهذا القلب منظر الرب، والإنسان عليه أن يهتم بقلبه، لأنك إذا اهتممت بالظاهر ولم تهتم بالباطن فعملك لا يقدم، ولا يؤخر..

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا)

(سورة الفرقان: الآية 23)

وقد مر بنا من قبل حينما وصف الله أعمال الكفار الصالحة بأنها..

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ)

(سورة النور: الآية 39)

(قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ)

فأنت على أي شيء، عندما عقدت هذا الزواج هل تنوي أن تطلقها بعد أن تنتهي الدراسة.

(قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ)

وحينما عقدت هذه الشراكة هل تنوي أن تجعل شريكك خارج الشركة حينما يقوى مركزك، وتأخذ منه هذه الشركة، فهذه النيّات السيئة يعلمها الله عز وجل والله رب النيّات، ولذلك أخلص النية فإن الناقد بصير.

قال العلماء:

معنى: قَدْ يَعْلَمُ: أيْ قد علِم:

قد علم، لكن يعلم فعل مضارع والمضارع يفيد التجدد والاستمرار، أيْ كلما خطر في بالك شيء يعلمه، فإذا غيرت موقفك يعلمه، وإذا انتقلت من نية طيبة إلى نية سيئة فإنّه يعلمها، ومن نية سيئة إلى طيبة يعلمها، نويت الطلاق فيعلمه، وألغيت الطلاق فيعلمه، ونويت إنهاء هذه الشركة فيعلمه، ونويت الاستمرار بها فيعلم ذلك،

(قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ)

العلم مستمر.

إثبات البعث والحساب:

(وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا)

أيْ..

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

(سورة الإسراء: الآية 14)

وأحياناً إذا قبضوا على مجرم يأمرونه أن يمثل الجريمة، فلو نظرت إلى وجه مجرم يمثل الجريمة ترى له وجهاً مغبراً، مكفهراً، مسوداً، كظيماً، ويوم القيامة حينما يقف الإنسان بين يدي الله عز وجل، ويعرض له أعماله... لماذا فعلت هكذا ؟ ولماذا غششت الناس ؟ ولماذا بنيت مجدك على أنقاضهم ؟ ولماذا بنيت مالك على فقرهم ؟ ولماذا آذيتهم، ولماذا فعلت بهم ما فعلت ؟

(وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

فهذه الآيات التي انتهت هذه السورة بهذا التهديد، أيْ قد يعلم ما أنتم عليه.. فهذا تهديد، وفيها بشارة.

(قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ)

إن كنت على الحق فاطمئن، فالله سبحانه وتعالى يعلم من أنت، ويعلم ما أنت عليه، وإذا كنت على غير الحق فهذا تهديد، وهذه آية مبطّنة فيها تهديد، وفيها بشارة، من صلُحَت سريرته ففيها بشارة، ومن ساءت سريرته ففيها إنذار وتهديد..

(وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

كلمة قصيرة عن مناسبة الإسراء والمعراج:

الآية الأخيرة من سورة النور انتهت، ومع انتهاء هذه السورة أمضينا ثلاثةً وعشرين درساً، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع بها جميعاً، وأن تُترجم هذه السورة إلى سلوك وإلى آداب نعيشها، فإذا تُرجمت إلى سلوك، وإلى آداب نعيشها أقبلنا على الله عز وجل بوجه أبيض، وسعدنا بهذا الإقبال.

موضوع الإسراء والمعراج موضوع دقيق، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام مر في حياته بمراحل متنوعة، وبعض هذه المراحل فيه حزن، وفيه تكذيب، ووحشة، وعدوان، وكفر بدعوته، والنبي عليه الصلاة والسلام على الرغم من كل المصائب والمحن التي مر بها كان ثابت الجأش، ثابت القلب، محباً لله عز وجل، فماذا يعلمنا الإسراء والمعراج ؟ يعلمنا الثبات على المبدأ.

فالنبي الكريم ماتت زوجته خديجة مؤنسته في الداخل، ومات عمه أبو طالب، وذهب إلى الطائف، وتتالت المحن، بعضها مع بعض، ومع ذلك ما زاد على أن قال:

((اللهم إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، ولكن عافيتك أوسع لي))

[مصنف عبد الرزاق]

الشيء المهم أن الله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فكل مؤمن ربما سلكه الله سبحانه وتعالى في الطريق نفسه الذي سلكه النبي عليه الصلاة والسلام، وخط المؤمن البياني قد يهبط، وقد يهبط، وقد يصل إلى النهاية الصغرى، ثم يصعد، ويصعد، والمهم أن تبقى ثابت المبدأ، وما من قولة قالها النبي عليه الصلاة والسلام تعبر عن ثباته على مبدئه كقوله صلى الله عليه وسلم:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

فيجب على المؤمن أن يوطن نفسه ليكون محبا لله، طائعا له، مخبتا إليه في كل الأحوال، في السراء والضراء، والضيق والبحبوحة، وإقبال الدنيا وإدبارها، والصحة والمرض، والخوف والأمن، لأن النبي عليه الصلاة والسلام مر بمواقف عديدة جدا، لكن جاء الإسراء والمعراج، وكان مسحا لجراح الماضي، وتطمينا لقلب النبي، وإراءة لملكوت السماوات والأرض، وعرف النبي أنه سيد ولد آدم، وأنه سيد

الأنبياء والمرسلين، وأن الله رفعه إلى سدرة المنتهى حيث لا مقام بعده، وأن هذا كله ناله بمقام العبودية لله عز وجل، إذ يقول سبحانه:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)

(سورة الإسراء: الآية 1)

وكلما كنت عبداً لله كلما ارتفعت في نظر الله عز وجل، وكلما كنت عبداً لله كلما حققت الهدف من وجودك، والعبودية الخالصة انصياع لأوامر الله كلية، ورضاء بقضائه وقدره، واستسلام له، وميل إليه، ومحبة له.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (01-13): تفسير الآية 1
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 10-03-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الأول من سورة الفُرقان.

تكرار كلمة " تبارك " كثيراً في القرآن الكريم:

هذه السورة تبدأ بقوله تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3))

(سورة الفرقان)

كلمة تبارك تأتي كثيراً في القرآن الكريم:

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ (1))

(سورة الملك)

وقال أيضاً:

(وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(85))

(سورة الزخرف)

وقال:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

المعاني المتعددة لكلمة " تبارك:

وكلمة مبارك، وتباركنا، هذه نستخدمها نحن كثيراً في علاقاتنا الاجتماعيّة، فماذا تعني كلمة تبارك ؟ بعضهم قال: تبارك تعني تقدّس، وتقدّس وتبارك بمعنى واحد، كلمتان تُستعملان للتعظيم، وبعضهم قال: تبارك من البركة، والبركة الكثرة من كل خير، بيتٌ مبارك أيْ كثير الخير، إنسان مبارك أيْ كثير الخير، امرأة مباركة أيْ كثيرة العطاء لزوجها، شهرٌ مبارك، سنةٌ مباركة أيْ كثيرة الأمطار، فمعنى المبارك أي الكثير من كل خير، هذا المعنى الثاني.

وإذا قلنا تبارك بمعنى تعالى:

(تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

أي تعالى عن أن يشبهه شيء، تعالى عن أن يكون له شريكٌ في المُلك، تعالى أن يتصف بصفات المخلوق، تبارك وتعالى، أيضاً تبارك عطاؤه بمعنى زاد وكثُر.

هناك معنى جديد، تبارك العطاء أيْ زاد وكثر، وهناك معنىً آخر دام وثبت، هنا بيت القصيد، العطاء الذي ينقضي في وقتٍ ما ولو بعد مئة عام لا يُسَمَّى عطاء مبارك، مهما أوتيت من الدنيا فلا بدّ من تركها، كل مخلوقٍ يموت، ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت.

الليل مهما طال فلابدّ من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلابدّ من نزول القبر

* * *

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الشيرازي عن سهل بن سعد و البيهقي عن جابر]

البركة بالمعنى الدقيق هي العطاء المستمر الذي لا ينقطع:

إذاً البركة بالمعنى الدقيق هي العطاء المستمر الذي لا ينقطع، أيُّ عطاءٍ في الدنيا ينقطع عند الموت، أيُّ عطاءٍ تأخذه من بشر ينتهي عند الموت، ولكن عطاء الله سبحانه وتعالى من خصائصه أنه يستمرُ إلى أبدِ الآبدين، لذلك إذا قلنا: تبارك عطاء الله عزّ وجل أيْ أنّ هذا العطاء زاد وكثُر، ودامَ وثبت، إذاً أردت عطاءً لا ينقضي بالموت، إذا أردت عطاءً أبدياً سرمدياً فاطلب ما عند الله، أما إذا أردت الدنيا فالدنيا زائلة، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[من سنن الترمذي عن شداد بن أوس]

لذلك ضع هذا المقياس في كل عملٍ تقوم به، هذا العمل الذي أنا مَعْنيٌّ به، الذي أنا مُنهمكٌ فيه، الذي أضيّع وقتي من أجله، الذي أضيّع مالي من أجله، الذي أبدِّد شبابي من أجله، هل يستمرُ أثره إلى ما بعد الموت ؟ إذا كان كذلك فأنعِم بهذا العمل، وإن كان هذا العمل ينتهي مع الموت ولا أدري متى أموت، فهذا العمل نوعٌ من المقامرة، أو نوعٌ من المغامرة.

الذي أريده من قول الله عزّ وجل:

(تَبَارَكَ (54))

(سورة الأعراف)

أي زاد عطاؤه وكثر، ودام وثبت، لكن لا يقال: الله عزّ وجل مبارك بل يقال العطاء مبارك، يقال اليوم مبارك، العمر مبارك، الشهر مبارك، السنة مباركة، الزوجة مباركة، هذا العمل مبارك، هذه التضحية مباركة، هذا العلم مبارك، لا يقال لله: مبارك، بل نقول:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(14))

(سورة المؤمنين)

خَلْقُ السماوات والأرض نوعٌ من البركة التي بارك الله بها:

إنّ ما سوى الله يُقال له: مبارك، بينما الله سبحانه وتعالى تقول عنه:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ(78))

(سورة الرحمن)

لكن هذا العطاء الأبدي السرمدي كيف أتعرّف إليه ؟ هنا مشكلة كبيرة، أولاً الله سبحانه وتعالى كما ورد في بعض الأحاديث **" كان الله ولم يكن معه شيء "، وأراد الله أن يخلق خلقاً ليسعدهم، " فخلقت الخلق فعرّفتهم بي فبي عرفوني "**، أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق الخَلْق، إذاً هذا الوجود الذي أمامك إنما أُوجِد ليسعد أو ليُسعده الله عزّ وجل، إذاً تبارك الله الذي خلق الكون، هذه نعمة الإيجاد، لولا أن مشيئة الله شاءت أن نكون لما كنا لنكون.

لولا أن مشيئة الله عزّ وجل شاءت أن نكون نحن، وأن يكون بنو البشر، وأن يكون الإنس والجن، وأن تكون كل هذه المخلوقات، لولا أن الله شاء لنا أن نكون لمَا كان لنا أن نكون، إذاً لأننا موجودون فهذه نعمةٌ كبرى، هذه بركةٌ، وُجِدْنا لنتعرّف إليه، وجِدنا لنقترب منه، وجدنا لنعبده، وجدنا لنسعد بقربه، إذاً خَلْقُ السماوات والأرض نوعٌ من البركة التي بارك الله بها.

انظر إلى الكون لتعرف مدى قدرة الله، وأنه تبارك حقاً، ففي الكون حسبَ أحدث رقم قرأته مليون مَليون مجرّة، في كل مجرّة مليون مَليون كوكب أو نجم، لو أخذنا مجرّة متوسِّطة كدرب التبّانة فإن المجموعة الشمسيّة بكاملها نسبياً لا يزيد حجمها عن نقطة، لو تركنا المجموعة الشمسيّة وأخذنا الأرض التي نحن عليها، أين بركة الله فيها ؟ الله سبحانه وتعالى خلقها وبرّدها وهَيّأها للإنسان منذ أكثر من خمسة آلاف مليون عام، تقديراتٌ دقيقة مضى على خلق الأرض أو على إيجادها أكثر من خمسة آلاف مليون عام، وفي هذه الأعوام كلِّها كانت تتهيّأ لأن يسكنها الإنسان، مَرّت عليها العصور الجيولوجيّة، ومرّت عليها الأحقاب، العصور المَطيرة، النباتات العملاقة، الحيوانات العملاقة، تشكّل البر والبحر، تشكّل الغلاف الجوي.

الأرض بحجمها التي هي عليه متناسبة مع الإنسان وهي أثر من آثار كلمة تبارك:

البر، والبحر، والغلاف الجوي، والعصور المطيرة، والحيوانات العملاقة، والعصور الجيولوجيّة، وتكوّنتْ التربة بعد أن كان كل ما عليها صَخْرٌ متين قاسٍ، هذه التهيئة من قول الله تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي (1))

(سورة الفرقان)

أي تبارك الله، شيءٌ آخر: هذه الأرض بحجمها الذي هي عليه متناسبٌ مع الإنسان، لو أن هذا الحجم كان أصغر لقلّت جاذبيّة الأرض لِلإنسان، وأصبحت حركته خطرة، ولو أن حجم الأرض كان أكبر لازداد وزنه، ولزادت جاذبيته على الأرض فكانت الحياة على سطح الأرض حياةً مستحيلة، هناك بعض الكواكب لو أن الإنسان انتقل إليها لكان وزنه آلاف الأطنان.

ولمّا انتقل الإنسان إلى القمر صار وزنه السُدس، فالذي وزنه ستين كيلو وزنه على القمر عشرة كيلو، لذلك روّاد القمر كان معهم أثقال من أجل أن تسهل عليهم الحركة، وكُلُّ هذه الأثقال ليعود وزنهم إلى ما هم عليه وهم على سطح الأرض، إذاً حجم الأرض بعد أن هيّأ الله الأرض بعصورها المديدة، بهذه الخمسة آلاف مليون سنة على تقدير بعض العلماء، بعد أن مرّت عليها العصور الجيولوجيّة، والعصور المطيرة، والعصور التي تشكّل فيها البحر المالح، والعذب الفرات، وهذا الغلاف الجوي بعد أن أصبح الجو على الأرض مناسباً للإنسان، بعد هذه التُربة التي فُتِّتَت بفعل عوامل الماء والهواء والتعرية، أصبحت الأرض مؤهّلةً لكي يسكنها الإنسان، هذه كلها أثر مِن آثار قوله تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي (1))

(سورة الفرقان)

هذه الأرض بحجمها الذي يناسب الإنسان، بدورتها حول نفسها، بدورتها حول الشمس، بمحورها المائل، من دورتها حول نفسها تشكّل الليل والنهار، من دورتها حول الشمس تَشَكّلت الفصول، ومن ميل محورها تبدّلت الفصول من منطقةٍ إلى منطقة، فكل منطقةٍ على سطح الأرض يأتيها الشتاء والخريف والربيع والصيف، إذاً تبارك الله سبحانه وتعالى:

(تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

الدماغ آية كبرى من آيات الله كرمه الله به:

شيءٌ آخر: الله سبحانه وتعالى خَلَقَ الإنسان ـ تبارك الله خالق الإنسان ـ خلق الإنسان في أحسن تقويم، زوّده بجسمٍ غايةٍ في الدِقّة، ما من كائنٍ على وجه الأرض أعقد وأرقى منه، جملته العصبيّة تأخذ

بالألباب، فمئة وأربعون مليار خليّة سمراء في الدماغ لم تُعْرَف وظيفتها بعد، أربعة عَشَرَ مليار خليّة قشريّة في الدماغ وظيفتها التخيُّل، والمحاكمة، والتذكّر، والفهم، والإدراك، واليقين، النشاط الفكري يعجز عن فهم ذاته، الدماغ آيةٌ كبرى من آيات الله.

هذه الطائرة التي تطير في السماء تحمل ثلاثمئة وخمسين طناً، ثلاثمئة راكب بحاجاتهم تطير، هذا أثر من آثار الدماغ البشري، هذه الحواسب الإلكترونيّة التي يعجز الدماغ عن فهمها إنها أثر من آثار هذا الدماغ الذي وهبنا الله إيّاه، إن ما تعيشونه من مخترعاتٍ حديثة إنما هي من آثار هذه الجوهرة التي مَنَّ الله بها علينا.

إذاً لمّا خلق ربنا عزّ وجل الإنسان خلقه في أحسن تقويم، أعطاه فكر، بهذا الفكر طار في الهواء، بهذا الفكر وصل إلى القمر، بهذا الفكر نقل الصوت، بهذا الفكر نقل الصورة، بهذا الفكر غاص في أعماق المحيطات، بهذا الفكر صنع الأجهزة، بهذا الفكر أقام المجتمعات، بهذا الفكر رفع مستوى لِباسه، بهذا الفكر رفع مستوى منزله، بهذا الفكر سخّر كل ما في الطبيعة لمصلحته، إذاً الإنسان مكرّم بهذا الفكر الذي أعطاه الله إيّاه، فربنا عزّ وجل:

(تَبَارَكَ الَّذِي (1))

(سورة الفرقان)

الله سبحانه وتعالى خلق النفس وجعل لها قوانين:

أعطاك هذا الفكر، أعطاك هذه الأعصاب، بها يُنْقَل إليك كل ما في المحيط الخارجي ؛ من أصوات، من روائح، من أحاسيس، من حرارة، من برودة، أنت مع العالم الخارجي بحواسّك الخَمس، بأعصابك، بعينك، بسمعك، ببصرك، هذه الحواس الخمس تدخل تحت قول الله عزّ وجل:

(تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

شيءٌ آخر: هذا الإنسان الذي خلقه الله من خلايا لا يعلم عددها إلا الله، وكل خليّةٍ وحدةٌ وظيفيّة، بل إن هناك وحدةً بنائيّة أصغر من الخليّة، إنّ الخلية وحدة وظيفيّة، كل مجموعة من الخلايا تشكل نسيجاً، كل مجموعةٍ من الأنسجة تشكِل عضواً، كل مجموعة من الأعضاء تشكل جهازاً، كل مجموعةٍ من الأجهزة تشكِل هذا الكائن الفَذ الذي خلقه الله عزّ وجل ليُسْعِدَهُ، لذلك:

(تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

الله سبحانه وتعالى خلق النفس وجعل لها قوانين، خلق الإنسان ضعيفاً، خلق الإنسان عجولاً، خلق الإنسان في أحسن تقويم، خلقه عجولاً، وخلقه ضعيفاً، وخلقه هلوعاً إذاً هذه فطرته، فَطَرَهَ على حبِّ الكمال:

(وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمْ الرَّاشِدُونَ(7))

(سورة الحجرات)

من آثار بركة الله تعالى خلق السماوات والأرض وما عليها:

إذاً بنية النفس، طبيعة النفس، هذا من بركة الله عزّ وجل، بنية الجسد ؛ الجهاز العصبي مع الجهاز الدموي، مع الجهاز التَنفُّسي، مع الجهاز الهضمي، مع الجهاز البولي، مع الأجهزة والأعضاء، مع العضلات، مع الشرايين، مع الأوردة، مع العظام، مع الغُدَد الصُم، هذا الكائن المعقّد الذي تحار في بنيته العقول، منذ أن تعلّم الإنسان وحتى الآن ملايين الكتب التي تتحدّث عن الإنسان.

فقلب الإنسان اختصاص، وعين الإنسان اختصاص، وأذن الإنسان اختصاص، فلو درست ما قاله العلماء قبل خمسمئة عام، كتبٌ لا يعلم عددها إلا الله كلّها في العين، هذه في القلب، هذه في الكليتين، هذه في الجلد، هذه في العظام، هذه في العضلات، فإذا قال الله عزّ وجل:

(تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

فهذه من آثار بركته، خلق السماوات والأرض، خلق الأرض، حجم الأرض، دورة الأرض حول نفسها وحول الشمس، ما عليها من بحار، ما عليها من جبال، ما عليها من أنهار، من بحيرات، من سهول، من أغوار، من مرتفعات، ما عليها من تُرَب لحْقِيّة، ترب كلسيّة، ترب رمليّة، أنواع الترب، أنواع التضاريس، أنواع المُناخات هذا كلّه من خلق الله عزّ وجل.

حياة الإنسان من دون ذاكرة لا تُحتمل ولولاها لما كان للإنسان أن يتعلم:

الإنسان بُنيته الجسديّة، بنيته النفسية، بنيته العقليّة، هذا العقل الذي أكرم الله به الإنسان، مبدأ السببيّة، مبدأ الغائيّة، مبدأ عدم التناقض، الإدراك، الإحساس، التَخَيُّل، التذكّر، المحاكمة، هذه كلّها نشاطات رائعة جداً، لولا أن الله عزّ وجل بارك الإنسان، كيف تكون حاله ؟ تصوّر إنساناً بلا ذاكرة، لا يتعلّم شيئاً، فأي شيءٍ يتعلّمه ينساه لعدم وجود الذاكرة، أما الإنسان بالذاكرة فتنمو خبراته، وتوسّع مجالات خبراته، هذا خبرته في الأعمال الصناعيّة، هذا في الزراعة، هذا في التجارة، هذا في الطب، هذا في

الهندسة، هذا في القانون، هذا في التدريس، هذا في اللغة، هذا في الكيمياء، في الفيزياء، في الرياضيات، في الفَلَك، في الجيولوجية، اختصاصات كلها بفضل هذه الذاكرة، ولولا أن الله سبحانه وتعالى أودع فينا هذه الذاكرة لما كان للإنسان أن يتعلّم.

شيءٌ أعمق من ذلك إنّ محلِّك التجاري كلّه في ذاكرتك، بيتك كلّه في ذاكرتك، ادخل عند صيدلي وقل له: عندك الدواء الفلاني ؟ فأعْملَ بصره في الخزانة، ثم توجّه نحو الطبقة الثالثة على اليمين خلف الباب وقال: لدينا علبة واحدة، إنه متذكِّرها، معنى هذا أن الصيدليّة موجودة في ذاكرته، وأنت في بيتك تحتاج إلى شمعة، تعلم أن لها مكاناً، بالمكان الفلاني، في المطبخ، بالخزانة الفلانيّة، بالطبقة الثالثة على اليمين، فحياة الإنسان من دون ذاكرة لا تُحتمل، حياة الإنسان بلا إدراك، بلا محاكمة، بلا تفكّر، بلا تأثّر، بلا منعكسات هي حياة فارغة.

تسخير الكون للإنسان تسخير تكريم وتسخير تعريف:

المنعكسات من فضل الله عزّ وجل، فإذا أصاب يدَ الإنسان شيءٌ حار يبعدها قبل أن يفكِّر، قبل لمح البصر، هذا من بركة الله عزّ وجل، إذاً عندما قال ربنا عزّ وجل:

(تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

هذه تشمل الأكوان، تشمل الأرض، تشمل الإنسان، تشمل بنيته الجسميّة، بنيته العقليّة، بنيته النفسيّة، بنيته الروحيّة.

شيءٌ آخر: الله عزّ وجل حينما جعلك إنساناً مكرّماً، ما معنى مكرّماً ؟ أي أنه سخّر لك الكون، الكون كلّه مسخّرٌ لك، حقيقة رهيبة جداً، مَنْ أنا ؟ أنت المخلوق الأول، أنت الذي سخّر الله له الكون، ما هو ردُّ فعلك ؟ سخّر الله لك الكون تسخير تكريم، وسخّر الله لك الكون تسخير تعريف، ما هو ردُّ الفعل عندك ؟ هل عرفته، وهل شكرته ؟ يجب أن تعرفه كردّ فعل على تسخير الكون تسخير تعريف، ويجب أن تشكره كردِّ فعلٍ على تسخير الكون تسخير التكريم، لهذا قال الله عزّ وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ (147))

(سورة النساء)

إذاً:

(تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

الكون كلُه مسخر مِن أجل الإنسان:

الذي سخَّر لك الكون، وهذا الكون من عطائه، الكون بمجرّاته، بمذنّباته، بكازاراته، بكواكبه، بنجومه، بمجموعاته، بشُهبِهِ، بفضائه اللانهائي، يقول لك: هذه المجرّة تبعد عنّا ستة عشر ألف مليون سنة ضوئيّة، رقم فكِّر فيه، اضرب ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية هذا ما يقطعه الضوء، اضرب الناتج بستين في الدقيقة، ضرب ستين فالنتيجة تكون بساعة واحدة، ثم ضربُ أربعة وعشرين فالنتيجة باليوم، ثم ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين فالحاصل يكون بالسنة الواحدة، أي ثلاثمئة ألف ضرب ستين ضرب ستين ضرب أربعة وعشرين ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين هذا ما يقطعه الضوء في السنة، ضرب ستة عشر ألف مليون، المجرّة تبعد عنّا ستة عشر ألف مليون، أرقام فلكيّة:

(تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

الكون كلُه مِن أجلك، وجعل لك الأرض مهاداً، وفراشاً، ولباساً، ومعاشاً، جعل فيها معايش، جعل لك أنواع المعادن، أشباه المعادن، النباتات بأنواعها، نباتَ كل شيء، تحتاج إلى نباتٍ تستفيد من خشبه للأثاث، نباتٍ تستفيد من خشبه للنوافذ، نباتٍ تستفيد من خشبه للصناعة، نباتٍ تستفيد من خشبه للمتعة الجماليّة، نباتٍ تستفيد من خشبه للسقف، نباتٍ تستفيد من رائحته العطريّة، أكثر أنواع العطور تُسْتَخْرَج من النباتات، نبات تستخدمه دواء، نبات تستخدمه لتنظيف الأسنان، نباتٍ تستخدمه للتخليل بين الأسنان، نباتٍ تستخدمه لتنظيف الجسم، نباتٍ تستخدمه كوعاء، نباتٍ تستخدمه كحدود بينك وبين جارك، نباتٍ تستخدمه لتأكل منه، لتأكل جذره، أو جذعه، أو أوراقه، أو ثماره.

أي وقتٍ يمضي من دون أن تعرف الله وتشكره وبال عليك:

قوتٌ أساسي ينضج في يومٍ واحد، الحبوب طعام تتفكّه به ينضج على فترة معقولة في الصيف، يستمرّ بعضُ الفواكه إنتاجها شهرين أو ثلاثة، وأنواع منوّعة، ظاهرة النبات وحده تكفي ليذوب الإنسان محبّةً لله عزّ وجل، النبات وحدها، ومع النبات الحيوان.

كم حيوان خلقَ ربنا عزّ وجل ؟ هناك أسماك للزينة توضع في أحواض الأسماك، هذه خُلقت من أجلك، من أجل أن تُنْعِم النظر إليها ؛ سوداء، وصفراء، وخضراء، شفّافة وغير شفّافة، كبيرة وصغيرة تراها في حوض السمك بشكلٍ يأخذ بالألباب، هذه أسماك زينة مِن أجل أن تَنْعَم بها.

وهناك عصافير للزينة، وأسماك لتأكل من لحمها الطري، وفي الكون دواجن، وفيه أنعامٌ، وأبقارٌ، وأغنامٌ، وشياهٌ، وجِمال، وهناك وحوش لها فائدة مُرَكَّبة، وديدان، وبكتريات، وفيروسات، وما أكثر

أنواع الحيوانات بدءاً من المتحول الزُحاري وحتى الديناصور، أنواع لا يعلمها إلا الله عزّ وجل خُلِقت كلها من أجلك:

(تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

آية الحيوانات، آية الأطيار، آية الأسماك، آية النباتات، آية التضاريس، المناخ، الأمطار، الثلوج، الرياح، البحار، السهول، الأغوار، البحيرات، هذا كلُّه مِن خَلق الله عزّ وجل.

فربنا عزّ وجل سخَّر الكون تسخير تعريف فهل عرفته ؟ وسخَّر الكون تسخير تكريم فهل شكرته ؟ لابدَّ من أن تعرفه ولابدّ أن تشكره، فأي وقتٍ يمضي من دون أن تعرفه ومن دون أن تشكره وبال عليك وخسارة. وهل علمت أن الشكر عمل، اقرأ قوله تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(13))

(سورة سبأ)

بالعلم تعرف الله وبالعمل الصالح تشكره:

الشكر ليس قولاً فحسب، لذا من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((لا بورك لي بطلوع شمس يوم لم أزدد فيه علماً يقربني إلى الله))

[ورد في الأثر]

بالعلم تعرفه، بالعمل الصالح تشكره، الكون مسخَّر لك تسخير تعريف وتكريم، يجب أن تعرفه، أعْمِل هذا الفكر في هذا الكون، ويجب أن تشكره بالعمل.

شيءٌ آخر: ربنا عزّ وجل سَخَّر لك العَقل، هكذا سمعت أن كبار العباقرة الذين تركوا انعطافات خطيرة في الحياة الاجتماعية والفكرية والعلمية، هؤلاء الأفذاذ العباقرة ما استخدموا من أفكارهم ومن عقولهم إلا الجُزء اليسير، فما هذه الطاقة الفكريّة التي أودعها الله في الإنسان ؟ مسكين هذا الإنسان حينما لا يستخدم فكره في معرفة الله، مسكينٌ هذا الإنسان حينما يستخدم فكره الثمين في القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال، مسكين هذا الإنسان حينما يمسخ فكره فيستخدمه للإيقاع بين الناس، مسكين هذا الإنسان حينما يحتقر فكره فيجعله شيئاً تافهاً لا يُعملُه في الكون، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ(191))

(سورة آل عمران)

العقل والكون متكاملان فلا قيمة لأحدهما دون الآخر:

سخّر لك الكون تسخير تعريف وتسخير تكريم، وسخّر لك العقل وكرّمك به، الجماد شيءٌ يشغل حيّزاً ماديّاً ؛ صخرة، كرسي، جدار، حجر، أما النبات شيءٌ يشغل حيّزاً مادياً وينمو، أما الحيوان شيءٌ يشغل حيزاً مادياً وينمو ويتحرّك، أما الإنسان فأنت مشتركٌ مع الجماد في أنّك تشغل حيزاً مادياً، الإنسان له وزن، يحتاج لكرسي، فالكرسي له حجم، وتشترك مع النوع الثاني في أن الإنسان ينمو مع النبات، والإنسان يشغل حيّزاً مادياً فهو ينمو ويتحرّك ويفكِر، فإن لم تفكّر فلست بإنسان، أما إذا فكّر الإنسان تفكيراً سقيماً، فقد انتهى إلى حالٍ سقيم:

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (17))

(سورة عبس)

وقال:

(إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (18) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (19) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (20) ثُمَّ نَظَرَ (21) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (22) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (23) فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (24) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (25) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (26) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (27) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ(28))

(سورة المدثر)

إنّ الله عزّ وجل خلق الكون وسخّره لك تسخير تعريف وتكريم، وخلق العقل، والعقل والكون متكاملان، ما قيمة الكون بلا عقل ؟ وما قيمة العقل بلا كون، العقل بلا كون لا معنى له، والكون بلا عقل غير مُدْرَك، أنت بالعقل تتعرّف إلى الله عزّ وجل، لا يكفي العقل، فالعقل ميزان، لكن الله سبحانه وتعالى أنزل لك شرعاً كي تعبده به، بعقلك تُفكِّر في الكون فتعرفه، وبالشرع تطبّقه فتعبده، هو خلقك من أجل أن تعرفه، وأن تعبده، إذاً تحتاج إلى كون وعقل لتتعرّف بهما إليه، وخلق لك شرعاً تطبّقه فتعبده، إذا عرفته وعبدّته فقد حقّقت الهدف من وجودك، إذاً ربنا عزّ وجل تفضّل علينا بالشرع.

ربنا عزّ وجل تفضّل علينا بالشرع:

فبالشرع جعل لك الحلال والحرام، والمباح والواجب، والفرض والمكروه، أحكام الزواج، أحكام الطلاق، أحكام العدّة، أحكام المواريث، أحكام البيع، أحكام الشراء، أحكام الإيجار، أحكام الحوالة، أحكام الكفالة، أحوال السلم، أحوال الحرب، فهو شرع حنيف كامل:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا(3))

(سورة المائدة)

منهج دقيق، يتدَخّلُ في أدق التفصيلات، رأيتم في سورة النور التي فُسِّرت من قبل كيف أن فيها نظاماً دقيقاً لكل حركةٍ وسكنةٍ في البيت، كيف تنظر، كيف تنطق، كيف تسمع، كيف تزور صديقك، كيف تأكل، كيف تشرب، كيف تنام، كيف تتصل، كيف تنفصل، هذا كُلّه في شرع الله عزّ وجل، خلق الكون، وخلق العقل، وخلق الشرع.

هذا الذي ينبذ الشرع وراء ظهره، ولا يعبأ به، ويسير على هوى نفسه إنه ضالّ مُضل، إنه جاهل، إنه مخطئ، إنه يسير في طريقِ الهاوية، فالشرع كأنه سكّة وأنت القطار، فما دمت على هذه السكّة فأنت في سلام، أما إذا خرجت عن السكّة فلابدّ من التدهور، التدهور حتمي لأن الشرع نظامٌ دقيق رسمه الله عزّ وجل لهذا الإنسان، وكلّما تقدّم العلم اقترب من الدين.

وظيفة المرأة الأساسية تربية أطفالها لتقدم للمجتمع عناصر منتجة وفعالة:

هناك صيحاتٌ في دولٍ متقدّمة جداً في مقياس العصر إلى أن تعود المرأة إلى المنزل، إلى أن تختصّ بتربية أطفالها، المرأة مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيّبَ الأعراق، هذه الوظيفة المُقَدّسة هي أقدس وظيفةٍ تفعلها المرأة، أنها تقدّم للمجتمع عناصر طيّبة، عناصر قد رُبيت تربية عالية، عناصر منتجة، عناصر منضبطة، هذا كلّه بفضل الأم.

امرأةٌ شكت أمرها إلى النبي عليه الصلاة والسلام قالت له: **" يا رسول الله إن فلاناً تزوجني وأنا شابّة ذات أهلٍ ومال وجمال، فلمّا كبرت سني، ونثرت له بطني، وتفرّق أهلي، وذهب مالي قال لي: أنتِ عليّ كظهر أمي، ولي منه أولاد إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا ".** لاحظ توزيع الأدوار بين الزوجين قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى(1)وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى(2)وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(3))

(سورة الليل)

كيف أن هناك بوناً شاسعاً بين الليل والنهار من حيث أن هذا الليل مظلم والنهار مضيء، الليل بارد والنهار حار، النهار معاش والليل سكنٌ وثبات:

(وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(3))

(سورة الليل)

شهوة المال أودعها الله في الإنسان ليرقى بها إلى الله عزّ وجل:

الذكر له وظيفة، والأنثى لها وظيفة، شيءٌ آخر: ربنا عزّ وجل سخّر الكون، ووهبك العقل، وأنزل على النبي الشرع لتعبده، لو كان هناك عقل، وهناك شرع، وهناك كون ولكن لا توجد فيك شهوة، فأنت لا

تحبُّ النساء، لا تحبُّ المال، لا تحب شيئاً، كتلة لحم ودم مُلقاة على الطريق، لا تشتغل، لا تعمل، لا تنتج، إذاً ماذا تفعل ؟ لولا أن الله سبحانه وتعالى أودع فينا الشهوات، أودعها فينا لنرقى إليه، جعلك تحب المال كي تحَصِّلَهُ وكي تنفقه، إذا حصّلته ابتليت بالتحصيل، هل تأخذه من طريقٍ مشروع أم من طريق غير مشروع ؟ هل تحتال كي تأخذه بالكذب أم تأخذه بالصدق ؟ هل تأخذه بعملٍ شريف أم تأخذه بعملٍ وَضيع ؟ هل تأخذه بالحلال أم تأخذه بالحرام ؟ قال تعالى:

(وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا(20))

(سورة الفجر)

الله سبحانه وتعالى هو الذي أودع فينا حُبّ المال، وما من أحد إلا ويحبُّ المال، إلاّ أن بعض الأشخاص يظهرون هذه المحبّة وبعضهم يخفونها، لكن ربنا عزّ وجل أودع فينا حبّ المال كي نرقى إليه، لولا هذه الشهوة لا ترقى إليه، فلن ترقى بإنفاق المال لو لم تكن تحبُّ المال، لو لم تكن تحب المال فلن ترقى إلى الله بإنفاق المال، لو لم تكن تحب المال لا ترقى إلى الله بكسبه من طريقٍ مشروعٍ مُتْعِب، ولحكمةٍ بالغة جعل الله كسب المال بشكلٍ يرضى عنه متعباً، وجعل كسب المال بطريقةٍ يَغْضَبُ منها مريحة، إذاً فأنت ممتحن بكسب المال، ممتحن بإنفاق المال، إذاً هذه الشهوة أودعها الله في الإنسان ليرقى بها إلى الله عزّ وجل.

حريّة الاختيار منحها الله للإنسان ليجعل من عمله قيمة:

ما قيمة الشهوة، وما قيمة العقل، وما قيمة الشرع، وما قيمة الكون إذا لم تكن مختاراً ؟

ألقاه في اليمّ مكتوفاً وقال له إياك إياكَ أن تبـتـلّ بالـمـاءِ

* * *

منحك حريّة الاختيار:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ(148))

(سورة البقرة)

وقال:

(فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (29))

(سورة الكهف)

وقال:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (3))

(سورة الإنسان)

هذا الاختيار يجعل لعملك قيمة، لو أجبر الله عباده على الطاعة لأسقط الثواب، لو أجبرهم على المعصية لأسقط العقاب، إن الله أمر عباده تخييراً، ونهاهم تحذيراً، وكلّف يسيراً، ولم يكلِف عسيراً، وأعطى على القليل كثيراً.

حرية الاختيار ضرورية ليُثمّن عمل كل إنسان يوم القيامة:

إذاً اجعل في ذهنك أن الكون مسخّرٌ لك، وأن العقل من متمّمات هذا التسخير، وأن الشرع من أجل أن تعرفه، تعرف الله بعقلك كما تعرف الكون وتعبده بالشرع، وأن الشرع ميزان العقل، وأعطاك هذه الشهوات لترقى بها إلى ربِّ الأرض والسماوات، وأعطاك حريّة الاختيار كي يُثمّن عملك، كي يأخذ هذا العمل قيمة عالية، لولا هذا الاختيار لما كان هناك أجرٌ ولا ثواب، إذاً هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

تبارك في خلق السماوات والأرض، تبارك في خلق الأرض على ما هي عليه، وتبارك بخلق الإنسان، خَلَقَ الإنسان على أبدع نظام من حيث الجسم، والنفس، والروح، والعقل.

هذه بعض المعاني التي يمكن أن نتحدّث عنها حينما نقول:

(تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

أو:

(تَبَارَكَ الّذِي نَزّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

الله عزّ وجل خلق الإنسان بطريقةٍ يتعلّمُ بها:

شيءٌ آخر يتعلّق ببركة الله عزّ وجل أن الإنسان خُلق بطريقةٍ يتعلّمُ بها، لو خُلق الناس جميعاً على الأرض دفعةً واحدة، ولِدوا جميعاً وماتوا جميعاً، فكيف يتعلّمون ؟ من يعلِّم الآخر ؟ كيف يتعظون بالموت ؟ خُلِق الناس دفعاتٍ تترى، أجيالاً، حِقَباً، أعماراً، أجناساً، أشكالاً، موزّعين، الأب يعلِّم الابن، والأخ الأكبر يعلِّم الأخ الأصغر، والجيل السابق يعلِّم الجيل اللاحق، إذاً طبيعة خلق الإنسان بشكل تدريجي متفاوت، وهذه تعلِّمُهُ الشيء الكثير، توزيع الحظوظ في الأرض بين البشر هذه تعلِّم الشيء الكثير، تربية الله سبحانه وتعالى للناس تربية نفسية، مكافأة المحسن ومعاقبة المسيء، هذه تعلِّم الشيء الكثير.

إذاً طريقة حياتنا، طريقة مجيئنا، طريقة ذهابنا، طريقة توالدنا، طريقة تناسلنا، طريقة الزواج، أطوار التَقَدُّم في السن، هذه الأطوار التي يمرُّ بها الإنسان، لو أنه ينتهي أجله فجأةً من دون تمهيدات ؛ يشيب شعره، وينحني ظهره، ويضعف بصره، وتضعف قِواه، يقول الله عزّ وجل لعبده المسلم المتقدِّم في السن:

((عبدي كبرت سنُّك، وضعف بصرك، وانحنى ظهرك فاستحْي مني فأنا أستحيي منك))

[ورد في الأثر]

تنبيهات لطيفة جداً، ضعف البصر، مع شيب الشعر، مع ضعف القوّة، الإنسان يشعر بأعراض جديدة كلّما تقدّمت به السن، هذا تنبيه لطيف جداً من قِبَل الله عزّ وجل أن يا عبدي قد آن أوان المجيء إليّ، اقتربَ اللقاء، ماذا أعددت لهذا اللقاء ؟ ماذا هيّأت له ؟ هذا أيضاً من بركة الله عزّ وجل، فنحن مخلوقين بطريقة نستفيد منها.

ربنا عزّ وجل خلق الإنسان ضعيفاً كي يفتقر بضعفه فيسعد بافتقاره:

ربنا عزّ وجل خلق الإنسان ضعيفاً، لو خَلَقه قوياً لاستغنى بقوّته، فشقي باستغنائه، لكن خَلَقه ضعيفاً كي يفتقر بضعفه، فيسعد بافتقاره، خلقه هلوعاً:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ(22))

(سورة المعارج)

ثمّ المصائب، وهذا من بركة الله عزّ وجل، آلاف مؤلّفة بل معظم البشر يعودون إلى الله عزّ وجل بالتوبة، والإنابة، والاستسلام، والطاعة من خلال بعض المصائب، فهذه المصائب لو نعلم ما لها من فضلٍ علينا، شيء يصعب على الإنسان تصوّره، فهذا المرض سببُ الهداية، هذا الضيقُ سببُ الهداية، هذا الفقر، فكلمة تبارك تعني الخير الكثير الثابت الدائم المستقر، أي أنك إذا عرفت الله عزّ وجل أصابك الخير الثابت، خطُّك البياني في صعودٍ مستمر ولا يقف هذا الخط عن الصعود أبداً، وما الموت إلا نقطةٌ على هذا الخط ويبقى الخطُّ صاعداً إلى ما بعد الموت، هذا مِن فعل تبارك وأثر من آثاره:

(تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54))

(سورة الأعراف)

وقال:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

كلمة تبارك هي كثرة الخير واستمراره وثباته:

كلمة تبارك تعني كثرة الخير واستمراره وثباته، والكون كلُّه أثر من بركة الله عزّ وجل، الكون والمجرّات، الأرض حجمها، وبنيتها، ومحورها، وفصولها، ورياحها، وسحابها، وأمطارها، وحيواناتها، وخلق الإنسان، وبنيته الجسمية والنفسية، والعقلية والاجتماعيّة، وطريقة التعامل مع البشر، وتأديب الله للبشر، هذا كلُّه يدخل ضمن قوله تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1))

(سورة الفرقان)

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نتحدّث عن الفُرقان، وما الذي تعنيه هذه الكلمة في القرآن الكريم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (02-13): تفسير الآية 1
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-03-17

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني من سورة الفُرقان.

لمجرد أنك موجودٌ على وجه الأرض فهذه نعمة كبرى اسمها نعمة الإيجاد:

في الدرس الماضي تَمَّ الحديث عن قوله سبحانه وتعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

وقد تبيّن أن كلمة تبارك تعني كثُر الخير واستقر وثبت، وأن هذا الكون كله أثرٌ من أثار فضل الله عزّ وجل فهناك نعمة اسمها نعمة الإيجاد:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (1))

(سورة الإنسان)

كل واحدٍ منا لولا أن مشيئة الله شاءت أن يكون لما كان، شاءت مشيئة الله أن يكون وأن يسعد بمعرفة الله عزّ وجل، فلمجرد أنك موجودٌ على وجه الأرض فهذه نعمة كبرى اسمها نعمة الإيجاد، وجِدّتَ بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ولو أن الله سبحانه وتعالى أوجدنا فحسب ولم يهدنا إليه لكانت النعمة غير تامة، لذلك حينما قال الله عزّ وجل:

(وَلِيُتِمّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ (6))

(سورة المائدة)

نعمة الإيجاد و نعمة الإمداد:

قال العلماء: تمام النعمة الهُدى، إذاً أنعم علينا بنعمة الإيجاد، وأنعم علينا بنعمة الإرشاد، أرشدنا إليه، كيف أرشدنا إليه ؟ خلق الكون كله دالاً عليه، كيف أرشدنا إليه ؟ أودع فينا العقل، كيف أرشدنا إليه ؟ نزّل الكتاب على أنبيائه ورسله، كيف أرشدنا إليه ؟ بالتربية، منعنا أو أعطانا، ضيّق علينا أو أكرمنا، ابتلانا، إذاً العلماء يقولون: هناك نعمة الإيجاد وهناك نعمة الإمداد.

أمدّنا بالهواء، وفي طبقات الهواء طبقة اسمها طبقة الأوزون، تُعقد الآن مؤتمرات لأن البشر قلقون على هذه الطبقة، لقد تخلخلت، ومع تخلخلها يبدو أن الطقْسَ في الأرض سوف يتغيّر، إذاً هذه الطبقة

طبقة الأوزون من فضل الله عزّ وجل، الهواء من فضل الله، الماء، الأمطار انحبست قرابة شهرين، فلما جاءت هذه الأمطار استبشر الناس، فيجب أن يشعر الناس أن هذا من فضل الله عزّ وجل، أربعين ميليمتراً في المكان الفلاني، ستين في المكان الفلاني، ثمانين في المكان الفلاني، خلال أيام معدودة، لولا هذه الأمطار لكان الموسم تَعيساً، إذاً أنعم علينا بنعمة الإيجاد وأنعم علينا بنعمة الإمداد، أمدنا بالهواء وجعل الهواء متوازناً، أمدنا بالماء، أمدنا بالنبات، أمدنا بالحيوان، أمدنا بكل شيء:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا (34))

(سورة إبراهيم)

لذلك هذا الفضل الإلهي الذي نَتحدّثُ عنه اليوم هو فضله الثابت، لكنك إذا عرفت الله وتوجّهت إليه صار العطاءُ أبدياً سرمدياً، ولهذا خلقنا، إذاً:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

المعاني المتعددة لكلمة "فرقان":

لكن الحديث اليوم عن الفُرقان، فالبركة كثيرة، الكون كله من بركاته، إيجاد الكون من بركاته، إمدادنا بما نحتاج إليه من بركاته، وإرشادنا إليه من بركاته، ولكن البركة هنا متوجّهَةٌ إلى أن الله سبحانه وتعالى نزّل الفرقان على عبده، قال بعض العلماء: الفرقان هو كل الكتب المنزّلة على أنبياء الله ورسله، فتطلق كلمة الفُرقان على أيّ كتابٍ سماوي نزّله الله على أحد أنبيائه أو على أحد رُسله، وبعضهم يقول: الفرقان هو القرآن.

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

وسمي القرآنُ فرقاناً لأنه نَزَلَ متفرقاً، القرآن نزل مُنَجّمَاً في ثلاثة وعشرين عاماً، وبعضهم يقول: إن الفرقان سُمِّيَ فرقاناً لأن فيه تفرقةً بين الحق والباطل، أضرب على هذا مثلاً:

لو أنك دخلت إلى غرفة، وفي هذه الغرفة ألف قطعةٍ من معدنٍ أصفر، وقيل لك: إن من بين هذه القِطَع الألفِ مئة قطعةٍ من الذهب الخالص، ومئة قطعةٍ من ذهبٍ نسبته أقل، ومئة قطعةٍ أُخرى من ذهبٍ نسبته أقل، ومئة قطعةٍ من حديد مطليّ بالذهب، من نحاسٍ مطليّ بالذهب، ومئة قطعةٍ من نحاسٍ ملمع، ومئة قطعةٍ من معدن رخيص مصبوغٍ بلونٍ أصفر، وعليك أن تبقى في هذه الغرفة ساعة واحدة، ولك أن تأخذ من بين هذه القطع الألف مئة قطعة، فأنت تحتاج إلى ماذا ؟ تحتاج إلى مقياسٍ تعرف به الذهب الخالص.

كتاب الله عزّ وجل كأنه يفرّق لك بين الحق والباطل، بين الخير والشر، بين ما يجب أن تأخذه وما يجب أن تدعه، بين ما ينفعك وبين ما يضرك، بين ما هو مُجْدٍ لك وبين ما هو غير مجدٍ لك، فالفرقان سمي فرقاناً لأنه به تفرق بين الحق والباطل، تفرق بين الخير والشر، تفرق بين الحلال والحرام، تفرق بين ما ينفعك وما لا ينفعك.

القرآن الكريم فرقان تفرّق به بين الحق والباطل:

أيها الأخوة، الله سبحانه وتعالى يقول في القرآن الكريم:

(إنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (9))

(سورة الإسراء)

أيْ أنّك إذا قرأت القرآن تعرف كيف تعامل الناس، تعرف كيف تتصرّف، كيف تقف المواقف المشرّفة، تعرف كيف تأخذ شيئاً تطيب نفسك به، تعرف كيف تجتنب المُنكرات، إن القرآن الكريم فرقان تفرّق به بين الحق والباطل، إنه مقياس.

بعض علماء القرآن يقولون: **" القرآن كلام الله، وفضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه "**، النسبة نفسها، بين خالق الكون وبين مخلوقٍ صغير، وكذلك الفرق بين كلام الله عزّ وجل وبين كلام خلقه، فالقرآن كلام الله المنزّلُ على نبيّه المنقول بتواتره، هذا القرآن الكريم نقله الجمع الغفير العدول الضابطون عن جمعٍ غفير من عند النبي عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا، فمن تعاريف القرآن الكريم أنه كلام الله المنزّل على نبيّه المنقول بتواتره المُتَعَبَّدُ بتلاوته، إذا تلوت القرآن الكريم فأنت في عبادة، إذا تلوته حق تلاوته فأنت في عباده ومن حق تلاوته أن تُحسن قراءته، ومن حق تلاوته أن تتدبَّرَهُ، ومن حق تلاوته أن تطبِّقه، المتعبد بتلاوته المُتحدّى بنظمه:

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(88))

(سورة الإسراء)

المُتحدّى بنظمه، المُعْجِز بمضمونه، فالعلماء اكتشفوا أن الأرض فيها جاذبية، والجاذبية بشكلٍ أو بآخر هو ما يسمّى وزن الأشياء، فكل كل شيءٍ يندفع إلى الأرض، كل شيءٍ ينجذب إلى الأرض، قوة جذبه إلى الأرض هي وزنه، فهذه الجبال، وهذه الهضاب، وهذه البحار، بل وهذه الطبقات الهوائية كلها منجذبة إلى الأرض، ونحن على سطحها والأبنية وكل شيء منجذب إلى الأرض، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(أَلَمْ نَجْعَلْ الْأَرْضَ كِفَاتًا(25))

(سورة المرسلات)

القرآن الكريم قطعي الثبوت عن الله عزّ وجل:

كَفَتَ يَكْفِتُ كَفْتَاً، أي ضَمَّ يَضمُّ، وجذب يجذب، وجمع يجمع، فالأرض كفات تجذب كل شيءٍ عليها أحياءً وأمواتاً، الميّت ينجذب إليها، والحي وهو يمشي على سطحها منجذبٌ إليها، ولولا انجذابه إليها لما مشى على سطحها فطار في الهواء، وحالة انعدام الوزن معروفة، فلذلك آيات القرآن الكريم فيها إشاراتٌ دقيقة إلى أصول العِلم الحديث، فما من كشفٍ علمي إلا والقرآن الكريم أشار إليه قبل ألفٍ وأربعمئة عام تقريباً.

قطعي الثبوت، أيْ أنّ القرآن الكريم قطعي الثبوت عن الله عزّ وجل، فإذا كان قي القرآن وعدٌ، أو كان فيه وعيدٌ، أو كان فيه قاعدةٌ أو سنةٌ فهي قطعية الثبوت، مصداقيته مئة في المئة، فإذا تيقّنت مِن أنه قطعي الثبوت عن الله عزّ وجل، وفيه تحذيرٌ، أو فيه بشارةٌ، أو فيه إنذارٌ فينبغي أن تقف منه الموقف الذي يليقُ أن تقفه من خالق الكون:

(لا رَيْبَ فِيهِ (2))

(سورة البقرة)

لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

(يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ (9))

(سورة الإسراء)

طَبّق توجيهات القرآن الكريم في حياتك الزوجية، يهديك للطريقة المُثلى في معاملتك للزوجة، طبّق آيات القرآن الكريم في بيعك وشرائك يهديك إلى الطريقة المُثلى، طبق آيات القرآن الكريم في علاقاتك بالناس يهديك للتي هي أقوم، طبّق آيات القرآن الكريم في علاقتك بالله عزّ وجل تَرَ أن الصلة محكمةٌ بالله عزّ وجل، إذاً:

(يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ (9))

(سورة الإسراء)

القرآن الكريم لا يحزن قارئه لأن الأمر كله بيد الله:

لا يحزن قارئهُ، الأمر كله بيدِ الله:

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

لا يحزن قارئه، كيف تحزن والله سبحانه وتعالى صاحب الأسماء الحسنى وصاحب الصفات الفضلى، رحيمٌ، غفورٌ، غنيٌ، قويٌ، مجيدٌ، ودودٌ، عطوفٌ، كيف تحزن والأمر كله إليه ؟ ربنا سبحانه وتعالى طمأنك فقال:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ (123))

(سورة هود)

لا يحزن قارئه، وهو كما قال الإمام علي كرم الله وجهه:

" نورٌ لا يطفأ مصباحه، وسراج لا يخبو توقده، وبحر لا يدرك قعره، ومنهاجٌ لا يضل سالكه، وفرقانٌ لا يخمد برهانه، وتبيانٌ لا تهدم أركانه، وشفاءٌ لا تُخشى أسقامه، وعزٌ لا يهزم أنصاره، وحقٌ لا يخذل أعوانه، وهو معدن الإيمان، وينبوع العلم، ورياض العدل ".

" نور لا يطفأ مصباحه " فمن قرأ القرآن الكريم قذَفَ الله في قلبه النور، واللهِ الذي لا إله إلا هو، هذا الذي يقرأ كتاب الله عزّ وجل ويفهمه ويطبقه كأنه كوكبٌ دُرّيٌ يمشي على وجه الأرض.

" نورٌ لا يطفأ مصباحه وسراجٌ لا يخبو توقُده " فالإنسان أحياناً يكون قلبه بارد، فاتر، لو أنه قرأ القرآن الكريم يتَّقِدُ قلبه حباً لله عزّ وجل، يتَّقِدُ قلبه حباً للخير، يتقد قلبه عطفاً على الناس، يتقد قلبه شوقاً إلى الله عزّ وجل، هذا القلب بين أن يكون قلباً مُتَصَحِّرَاً بارداً جامداً، لا يتحرّك، لا ينبض بمحبة ؛ وبين أن يكون القلب متقداً بمحبة الله عزّ وجل، لو أنك قرأت القرآن الكريم لاتَّقَدَ قلبك محبةً لله عزّ وجل.

" وبحرٌ لا يدرك قعره " أي كلما تلوته كشف الله لك عن معانٍ لم تكن تعرفها من قبل، كلما زدته فكراً زادك معنى، لا يبلى على كثرة الترداد، لا يخلق على كثرة الترداد، كلما قرأته ازددتَ به معرفة بالله، كلما تلوته كُشِفت لك بعض أسراره، كلما تلوته كُشِفَ لك عن بعض الحِكَم من نظم هذه الآيات، فالكتاب الذي لا يملّ والكتاب الذي لا يُترك هو كلام الله عزّ وجل.

إذا عرفت القرآن عرفت المنهج الأمثل:

" ومنهاجٌ لا يضل سالكه " كما قال سيدنا عليٌ كرم الله وجهه، منهاج، خط مستقيم، قطارٌ يمشي على سكة في أمنٍ وطمأنينة، مركبةٌ تمشي على طريقٍ معبّد لا ترى فيه عوجاً ولا أمتاً، تمشي في طمأنينة، ولكن الذي يَدَعُ كلام الله عزّ وجل كأنه يمشي في طريقٍ وعرة، قد يفاجأ بحفرةٍ ما لها من قرار، قد يفاجأ بصخرةٍ لا يمكن أن يتجاوزها، قد يفاجأ بمخاطر، لكنك إذا سرت على هدي الكتاب الكريم لا تضل ولا تشقى.

" وفرقانٌ لا يخمد برهانه " كأنه مقياس، بعض العملات الدولية تكشف صحتها من زيفها بجهاز، تُدخل هذه العملة إلى الجهاز فيتألّق ضوءٌ بنفسجيُ اللون، فهي إذاً صحيحة، لو تألق ضوءٌ أبيض اللون

لكانت مزورة، فهذا القرآن الكريم بشكلٍ أو بآخر أي قضيةٍ عرضتها عليه ينبئك ما إذا كانت حقاً أو باطلاً، أية قضيةٍ في العلاقات الاجتماعية، في الصفات النفسية، في العلاقات المالية، في فهم ما مضى، في فهم ما سيكون، هذه القضايا العلمية والتاريخية والاجتماعية والنفسية، هذه كلها لو عرضتها عليه لكان المقياس صحيحاً.

" **فرقانٌ لا يخمد برهانه، وتبيانٌ لا تهدم أركانه** " ولا زلنا مع الإمام علي كرم الله وجهه في وصف القرآن الكريم..

" **وشفاءٌ لا تُخشى أسقامه** " من تعلم القرآن فظن أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حَقّرَ ما عظّمه الله، فأنت إذا عرفت القرآن عرفت المنهج الأمثل، الله سبحانه وتعالى يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ (1))

(سورة الأنعام)

وقال:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ (1))

(سورة الكهف)

الكون هو من خلق الله والكتاب منهاج الله عزّ وجل:

الكتاب في كفة والكون في كفّة، الكون هو من خلق الله والكتاب منهاج الله عزّ وجل، فأنت موجود، أنت جزءٌ من هذا الكون، فإذا عرفت المنهج فقد عرفت كل شيء، لهذا يقول عليه الصلاة والسلام:

((القرآن غنىً لا فقر بعده ولا غنىً دونه))

[رواه أبو يعلى عن أنس]

إذا عرفت القرآن عرفت كل شيء، لهذا جاء في القرآن الكريم قوله تعالى:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا (269))

(سورة البقرة)

إنّك إذا عرفت ما في هذا الكتاب من قواعد ثابتة لن تقع في غضب الله عزّ وجل ولن تستحق مع الله العقاب، تغدو حياتك في أمنٍ وسكينة، أما إذا وُضع هذا القرآن جانباً، وتحرك الإنسان وفق شهوته ومزاجه، فلا بدّ من أن يأخذ ما له وما ليس له، لابدّ من أن يقع في الحرام، لابدّ أن يقع في العدوان، لذلك يأتي علاج الله عزّ وجل فيوقفه عند حده.

القرآن الكريم فيه توجيهات أخلاقية:

السعيد من عرف القرآن في مُقتبل حياته فبنى علاقاته كلها وفق هذا المنهج الصحيح، وفرقانٌ لا يخمد برهانه وتبيانٌ لا تهدم أركانه، وشفاءٌ لا تخشى أسقامه، فربنا عزّ وجل قال:

(إنّ اللّهَ يُحِبُّ التّوّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهّرِينَ (222))

(سورة البقرة)

وقال أيضاً:

(يَا أيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قوْمٌ مِنْ قوْمٍ عَسَى أنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أنْ يَكُنّ خَيْرًا مِنْهُنّ وَلا تَلْمِزُوا أنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالألْقابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ(11))

(سورة الحجرات)

بعض الأدلة من القرآن الكريم على بعض التوجيهات الأخلاقية:

الله عزّ وجل في آيات كثيرة يقول:

(إنّ اللّهَ يُحِبُّ التّوّابِينَ(222))

(سورة البقرة)

وقال:

(إنّ اللّهَ لا يُحِبُّ كُلّ خَوّانٍ كَفُورٍ(38))

(سورة الحج)

وقال:

(وَأنّ اللّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ(52))

(سورة يوسف)

وقال:

(كَذَلِكَ حَقّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ عَلَى الّذِينَ فَسَقُوا أنّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(33))

(سورة يونس)

فيه توجيهات أخلاقية، فإذا طبّقت أحكام كتاب الله شفيت نفسك من كل مرض:

(وَيُحِبُّونَ أنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا (188))

(سورة آل عمران)

الإنسان أعقد آلةٍ في الكون:

ربنا عزّ وجل وصف لك مرضاً مستشرياً بين الناس:

(وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا (188))

(سورة آل عمران)

فهذه الأمراض، وهذه المُثُل البشرية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم لو قرأناها وعقلناها وتدبرناها لشُفيت نفوسنا من كل مرض.

" وعزٌّ لا يهزم أنصاره " إذا قرأت هذا الكتاب وتعَمّقتَ فيه وتلوته حق تلاوته رفع الله شأنك في الحياة، تصبح من أهل الله، أنت حاملٌ لكتاب الله.

" عزٌ لا يهزم أنصاره، وحقٌ لا يخذل أعوانه، وهو معدن الإيمان، وينبوع العلم، ورياض العدل " هذا الكتاب بشكلٍ أو بآخر كأنك اقتنيت آلةً بالغة التعقيد، غالية الثمن، عظيمة النَفْع، تشعر برغبةٍ ملحة كي تقتني كُتَيّبَاً تصدره الجهة الصانعة، فيه تعليمات التشغيل وطرق الصيانة، إنك حريصٌ حرصاً بالغاً على اقتناء هذا الكُتَيّب، حريصٌ حرصاً بالغاً على ترجمته، حريصٌ حرصاً بالغاً على فهمه، حريصٌ حرصاً بالغاً على تطبيقه، وتنفيذ تعليماته، وما هذا الحرص إلا نابعٌ من حرصك على هذه الآلة، ومن حرصك على أدائها أداءً جيداً، وأنت أعقد آلةٍ في الكون.

أنت أيها الإنسان تحتاج إلى تعليمات من الصانع، هذا القرآن فيه تعليمات الصانع، ما من جهةٍ في الأرض مخوّلةٍ أن تقدّم تعليمات التشغيل إلا الجهة الصانعة، لو أنك اشتريت آلة معقدة هل تنفّذ تعليمات إنسان جاهل ؟ لا تنفذ إلا تعليمات الصانع، وأنت أعقد آلةٍ في الكون.

أتحسب أنك جرمٌ صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

* * *

اتباع منهج الله يضمن سلامة الإنسان ومخالفته يسبب الخيبة والخسران:

أنت أيها الإنسان أعقد مخلوقٍ على وجه الأرض، وأدق مخلوق، وأكرم مخلوقٍ على الله عزّ وجل، ولكرامتك عليه جعل لك هذا الكتاب منهاجاً لك في الحياة، يقول لك: افعل ولا تفعل، هذه تجوز وهذه لا تجوز، هذه تنفع وهذه تضر، هذه تُجْدِي وهذه لا تُجدي، هذه تسعدك وهذه لا تسعدك، إذاً أنت تتعامل مع توجيهات الصانع، فإذا أخذت بها ضمنت سلامة هذه الآلة، وضمنت أن تؤدّي أعلى مردود، وإن لم تأخذ بها فقد وقعت الخيبة والخُسران.

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1))

(سورة الفرقان)

في القرآن معنىً دقيق جداً هو أن الله سبحانه وتعالى قال:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى(123))

(سورة طه)

إذا استسلمت لله عزّ وجل ورضيت بقضائه سعدت في الدنيا والآخرة:

وهذا هُدَى الله عزّ وجل، مثل بسيط: أحياناً ينشب بين الزوجين خلاف، أول كلمة يقولها الزوج: اذهبي إلى بيت أهلك، تذهب هذه الزوجة إلى بيت أهلها والمشكلة يسيرة وطفيفة، أطرافٌ أخرى يُسهمون بتكبير هذه المشكلة، ولو أن هذا الزوج قرأ كتاب الله عزّ وجل وقرأ توجيهات الله عزّ وجل:

(لا تُخْرِجُوهُنّ مِنْ بُيُوتِهِنّ وَلا يَخْرُجْنَ (1))

(سورة الطلاق)

إن أكبر مشكلةٍ تغدو صغيرةً إذا بقيت الزوجة في بيت زوجها، وإن أصغر مشكلةٍ تغدو كبيرةً إذا خرجت الزوجة من بيت زوجها، فهذا توجيهٌ إلهي للأزواج، من طبّقه سَعِد، ومن خالفه شقي، ربما انتهى الأمر إلى الطلاق، وكثيراً ما ينتهي الأمر إلى الطلاق ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ(216))

(سورة البقرة)

هذا توجيه إلهي، الشيء أحياناً قد لا يعجبك، قد لا يسعدك بينما قد يكون الخير كامناً فيه، فإذا استسلمت لله عزّ وجل ورضيت بأمره وقضائه سعدت في الدنيا والآخرة، الله سبحانه وتعالى يقول لك:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ (48))

(سورة الطور)

وهذا حكم الله عزّ وجل.

قراءة كتاب الله والإيمان به يبقي الإنسان متوازناً:

إذا كنت تقرأ كتاب الله عزّ وجل تبقى متوازناً، لا يختل التوازن، لا تنهار النفس، هذا التوازن شيءٌ مهمٌ جداً في الصحّة النفسية، إيمانك بكتاب الله عزّ وجل سببٌ في هذا التوازن، الشيء الذي يقلق الناس في الدنيا، الحُزن الذي يأكل قلوبهم إذا فاتهم شيءٌ منها، أو توقع المجهول، توقع المجهول الذي يبعث في النفس الخوف، الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(38))

(سورة البقرة)

فهم إذا اتَّبعوا منهجه فلا خوفٌ عليهم في الدنيا، ولا هم يحزنون عند فِراقِها، إذاً هذا من بركات القرآن الكريم.

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

أنت إذا تلوت كلام الله عزّ وجل لا تحزن، ربنا سبحانه وتعالى وجّهك فقال:

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنْ الْمُعَذَّبِينَ(213))

(سورة الشعراء)

وحدانية الله عز وجل توجيه إلهي في كتاب الله وهي أهم أسباب سعادة الإنسان:

أحد أكبر أسباب العذاب النفسي أن تدعوَ مع الله إلهاً آخر، فإذا وحّدتَ الله عزّ وجل فقد سعدت وهذا توجيهٌ إلهيٌ في كتاب الله عزّ وجل، أحياناً تكون دنياك متواضعة، ودنيا الفُجّار عريضة، فإذا كنت في غيبوبةٍ عن كلام الله عزّ وجل، إذا كنت بعيداً عن كلام الله، قد يأتي لقلبك اليأس فتقول: أنا مع استقامتي وعلى طاعتي لله وعلى طهارتي، وأعيشُ في ضيقٍ شديد، وفلان وعلاّن في بحبوحةٍ كبيرة، ومع أنّهم يعصون الله ليلاً ونهاراً !! إذا تلوت كلام الله عزّ وجل، حيث يقول الله عزّ وجل:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً(44))

(سورة الأنعام)

عندئذٍ ترضى، إذا تلوت قول الله عزّ وجل:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

ترضى، إذا تلوت قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ(21))

(سورة الجاثية)

ترضى، إذا تلوت قوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا(71))

(سورة الأحزاب)

ترضى، هذا هو الفوز العظيم، إذا تلوت قوله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا(9))

(سورة الشمس)

أنت في طريق تزكية النفس ترضى.

القرآن شفاء لما في النفوس من كل خوف ومرض:

هذا القرآن شفاء لما في النفوس، واللهِ الذي لا إله إلا هو، لا يقرأ هذا القرآن مؤمنٌ صادقٌ قراءةً كما أرادها الله عزّ وجل إلا شُفِيَت نفسه من كل مرض، ولا يساوره خوف، لماذا الخوف ؟

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً (97))

(سورة النحل)

لماذا الخوف ؟ وعدٌ من خالق الكون أن يحييك حياةً طيبة إذا طبّقت أمره، لماذا الخوف ؟ هل تخاف من عدوك ؟ يقول الله عزّ وجل على لسان سيدنا هود:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

هل تخاف من عدوك ؟ إذا تلوت قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا (38))

(سورة الحج)

القرآن الكريم يبعث في النفس الطمأنينة والثقة برضاء الله عزّ وجل:

ألا تطمئن إلى أن الله يدافع عنك ؟ هذه آيةٌ محكمة في كتاب الله، إذا تلوت قوله تعالى:

(إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ (110))

(سورة آل عمران)

إذا كنت حريصاً على تلقِي العلم والحكمة ألست من السعداء ؟ هذه كلُها تبعث في النفس الرضا، إذا تلوت قوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَانُ وُدًّا (96))

(سورة مريم)

ألا تطمح أن تشتري مودة الله عزّ وجل بطاعته ؟ ألا تطمح أن تكون ممن تَعنيهم هذه الآية، إذا تلوت قوله تعالى:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا (48))

(سورة الطور)

ألا تتمنى أن تكون ممن تنطبق عليهم هذه الآية ؟

من بركات القرآن الكريم أنه يحقق توازناً نفسياً:

القرآن شفاء لما في النفوس، يبعث في النفس الطمأنينة، والرضا، والثقة برضاء الله عزّ وجل، يحقق توازناً نفسياً بين الدين والدنيا، بين الدنيا والآخرة، هذا كلّه من بركات القرآن الكريم، لذلك قال الله تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

إذا فاتك شيءٌ من الدنيا وتلوت قوله تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ(60))

(سورة القصص)

ألا تحس أن الدنيا كلها لا قيمة لها، وأن رضوان الله عزّ وجل أثمن ما فيها ؟ هذا القرآن الكريم إذا قرأته، وتدبّرته، وعقلت ما فيه كنت أسعد الناس، يجب أن تقول إذا قرأت القرآن: أنا أسعد الناس، أنا أسعد الناس إلا أن يكون أحدٌ أتقى مني فهو أسعد مني، هكذا يجب أن تقول.

إذا حقق الإنسان العبودية لله فقد حقق أعلى مرتبةٍ ينالها إنسان:

قال تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1))

(سورة الفرقان)

مَن هو عبده ؟ النبي عليه الصلاة والسلام، وُصِفَ في أرقى مرتبةٍ ينالها إنسان، إما أن تكون عبداً لله قهراً، وإما أن تكون عبده طواعية، كلنا عبيدٌ لله قهراً، ولكن إذا عرفت حجمك الحقيقي، وعرفت ربك معرفةً تليق بك، إذا عرفته وعبدته ارتقيت إلى أرقى مرتبةٍ ينالها مخلوقٌ على وجه الأرض، لذلك فربنا عزّ وجل كرم النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ (1))

(سورة الفرقان)

معنى عَبْدِهِ أي الإنسان الذي ينساق إلى الله، يستسلم إلى الله بكل أفكاره، ومشاعره، وقوّته، وحركاته، وسكناته، هذا الذي يستسلم لأوامر الله في كل أنواعها، في كل حركاته وسكناته يحقق العبودية، وإذا حقق العبودية فقد حقق أعلى مرتبةٍ ينالها إنسان.

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1))

(سورة الفرقان)

إذا كنت عبداً لله فعبدُ الله حُر:

النبي عليه الصلاة والسلام أهلٌ لأن يُنَزّلَ عليه القرآن لذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ (105))

(سورة الإسراء)

(وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ)

أي مضمونه الحق،

(وَبِالْحَقِّ نَزَلَ)

أي نزل على إنسانٍ مؤهّلٍ أن ينزّل عليه القرآن، في الآية الأولى إشارةٌ إلى أحقِية القرآن، وفي الكلمة الثانية إشارةٌ إلى أحقية النبي العدنان:

(وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ (105))

(سورة الإسراء)

وإذا كنت عبدَ الله فعبدُ الله حُر، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم))

[صحيح البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ]

أنت عبدٌ لمن ؟ هناك من هو عبدٌ للدرهم والدينار، ومعنى أنه عبدٌ للدرهم والدينار أيْ أنَّه يعصي الله من أجل الدرهم والدينار، يضيّع من دينه الشيء الكثير من أجل الدِرهم والدينار، يخالف كلام الله من أجل الدرهم والدينار، يُضيع فرض الصلاة من أجل الدرهم والدينار، هذا عبدٌ للدرهم والدينار، وقال عليه الصلاة والسلام:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ))

[صحيح البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ]

من كان عبداً لله فهو في ظلّ الله ورعايته:

تعس عبد الدرهم والدينار، وتعس عبد البطن، وتعس عبد الفرج، وتعس عبد الخميصة، الخميصة أي الثياب، هذا الذي يجعل نفسه خادماً لشهواته كأنه جعل من شهوته إلهاً له فعبدها من دون الله، لكن المؤمن له صفة أخرى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى(40)فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى(41))

(سورة النازعات)

تعس عبد الدرهم والدينار، تعس عبد البطن، تعس عبد الفرج، تعس عبد الخميصة، المعنى المخالف وسعد من كان عبداً لله.

إما أن تكون عبداً لله وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم، شتان بين أن تكون عبداً لله:

اجعل لربك كـل عـزّك يستقر و يثبت

فإذا اعتززتَ بمن يموت فإن عزك ميت

* * *

أعْبُدْ الله، اعتزّ به، كن في طاعته، احرص على أن يجدك حيث أمرك، وعلى أن يفقدك حيث نهاك، إذاً أنت عبدٌ لله، ومتى كنت عبداً لله فأنت في ظل الله، وأنت في رعاية الله، وأنت في عين الله، تنطق بتوفيق الله، تمشي بهدى من الله عزّ وجل، الحديث القدسي:

((ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل صلاة ممن تواضع لعظمتي، وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأ عندي من نور الشمس على أن أجعل الجهالة له حلماً، والظلمة نوراً يدعوني فألبيه، ويسألني فأعطيه، ويقسم علي فأبره، أكلؤه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها))

[أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب]

وحديث آخر:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبّ إِلَيّ مِمّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرّبُ إِلَيّ بِالنّوَافِلِ حَتّى أُحِبّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنّهُ وَلَئِن اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنّهُ وَمَا تَرَدّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

[صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

هكذا يكون المؤمن.

هذه الآية مسوقة إلى عالم الإنس والجن لأنهما المكلفان بالرسالة:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1))

(سورة الفرقان)

مَنْ هم العالَمون ؟ العالَمون جمع عالَم، ولكن هذه الآية مسوقة إلى عالم الإنس والجن فقط، لأنهما الصِنفان من بين المخلوقات الذين كُلِفا بالرسالة، ليكون هذا الكتاب للإنس والجن نذيراً، لماذا هو نذير ؟

نذير تنبيه، فأنت إذا سرت في طريق، وفي الطريق أخطار، ألا ترى إلى هذه اللوحات قبل مئة متر أو مئتي متر من المُنعطف الخطر، من المنحدر الزَلِق، من الطريق الضيّق، من الطريق المتقاطع، يقول لك: تقاطع خطر، أليست هذه اللوحات إنذار من جهةٍ رحيمة لمن يمشي على هذه الطريق ؟ هذا مثل بين أيدينا، كذلك الإنسان حينما يتلو كلام الله:

(وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنّ الشّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ (53))

(سورة الإسراء)

قراءة القرآن الكريم دون العناية بتطبيقه نوع من الهجران:

حينما تنطق انطِق بالحق، لا تكن قاسياً، لو كنت قاسياً لدخل الشيطان بينك وبين أخيك، هذا توجيه ربّاني:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ (30))

(سورة النور)

توجيه رباني، من أجل أن تسعد في بيتك غُضّ بصرك عن محارم الله:

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ (188))

(سورة البقرة)

توجيه رباني في العلاقات المالية، فإذا طبّقت هذه التوجيهات قطفتَ ثمارها في الدنيا، أما أن نقرأ القرآن الكريم من دون أن نُعْنَى بتطبيقه فهذا نوع من الهجران، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((رُبَّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

وحديث آخر:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَن اسْتَحَلّ مَحَارِمَهُ))

[سنن الترمذي عَنْ صُهَيْبٍ]

من عصى اللهَ عزّ وجل فإما أن يكون كافراً فما أكفره أو جاهلاً فما أجهله:

قال تعالى:

(تَبَارَكَ الّذِي نَزّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الّذِي لَهُ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلّ شَيْءٍ فَقَدّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

قبل أن نصل لهذه الآية، فللإمام الغزالي رضي الله عنه قول دقيق جداً على كلمة نذير، ومن المناسب أن نتلوه عليكم في معرض هذه الآية، الإمام الغزالي يقول: " لو أن طبيباً حذّر مريضه من بعض الأكلات التي يحبها، وبين له الخطر الذي ينتظره إذا تناولها.. وأغلب الظن أننا نحن جميعاً نُحِب أكلةً ما، قابلت الطبيب قال لك: هذه الأكلة تسبب لك التهاباً في المعدة، ابتعد عنها، أغلب الظن أن جميع العقلاء ينصاعون لهذا التحذير من الطبيب، الآن سنجري موازنة بين تحذير الله عزّ وجل وبين تحذير الطبيب، في القرآن أوامر ونواهٍ، ووعدٌ ووعيد، فكيف نفسّر موقف الإنسان الذي يخالف أوامر الله عزّ وجل ونواهيه، ولا يعبأ بوعده ولا وعيده ؟ أيكون الطبيب أصدق عنده من الله ؟ فهل من المعقول أنّ طبيباً من بني البشر يقول لك هذه الأكلة التي تحبها تؤذي قلبك أو تؤذي معدتك وتصدقه، والله سبحانه وتعالى في هذا الكتاب القطعي الثبوت، الذي هو كلام الله قولاً واحداً يقول لك: لا تفعل هذا ثم تفعل وتخالف.

(وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ (188))

(سورة البقرة)

الطبيب يحذِّر فتنصاع لتحذيره، والرّب يحذر فلا تنصاع !! أيكون الطبيب أصدق عندك من الله، هكذا خاطب الغزالي نفسه: **" يا نفس أيكون الطبيب أصدق عندكِ من الله، إذاً فما أكفركِ "** يخاطب نفسه، أما إذا كان وعْد الطبيب أشد إيقاعاً في نفسك من وعْد الله، أو إذا كان وعيد الطبيب أشد إخافةً لك من وعيد الله فما أجهلكِ أيتها النفس، لما يعصي الإنسانُ اللهَ عزّ وجل فإما أن يكون كافراً فما أكفره أو جاهلاً ما أجهله، وليس هناك حلٌ ثالث، إما كافراً فما أكفره أو جاهلاً فما أجهله.

القرآن الكريم جعله الله دستوراً لنا ومنهجاً نسعد إذا طبّقناه ونشقى إذا تركناه:

ملخص هذا الدرس أن هذا القرآن الكريم جعله الله دستوراً لنا ومنهجاً نسعد إذا طبّقناه ونشقى إذا تركناه، ومن صفات أهل الدنيا، أو من صفات الذين تنكبوا طريق الحق أنهم اتخذوا هذا القرآن مهجوراً، هجران القرآن الكريم ليس فقط ألاّ تقرأه، قد تقرؤه ولكن إن لم يدخل في حياتك اليومية، إن لم تدخل آياته في علاقاتك الاجتماعية، إن لم تعظِّم هذه الأحكام التي جاء بها فأنت قد هجرته، وإذا هجرته فقد ضللت ضلالاً بعيداً، لذلك فعلى الإنسان في بيعه وشرائه ألاّ ينسى أن يطبق كلام الله عزّ وجل، وكذلك في علاقاته الاجتماعية، في بيته، مع زوجته، مع أولاده، مع من هم فوقه، مع من هم دونه:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ(34)وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا)

(سورة فصلت)

القرآن الكريم لا نسعد به إلا إذا طبّقناه تطبيقاً دقيقاً:

عندما يقول ربنا عزّ وجل في القرآن:

(وَعَاشِرُوهُنّ بِالْمَعْرُوفِ (19))

(سورة النساء)

أمر إلهي، وهذا الأمر يقتضي التطبيق والوجوب، فحينما تتحرّك في علاقاتك الشخصية والاجتماعية وفق المزاج ووفق الهوى، وتجعل هذا الكتاب مهجوراً من حيث التطبيق، فعندئذٍ يدفع الإنسان الثمن غالياً، فملخص هذا الدرس أن هذا الكتاب لا نسعد به إلا إذا طبّقناه تطبيقاً دقيقاً.

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ الّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(30)نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدّعُونَ(31)نُزُلا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ(32))

(سورة فصلت)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (03-13): تفسير الآية 2
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-03-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث من سورة الفُرقان.

أصل الدين معرفة الله عزّ وجل:

في الدرس الماضي شُرِحَتْ بعض المعاني التي تنطوي عليها كلمة الفرقان وهو القرآن الكريم، حيث وردت في الآية الأولى:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

الجملة التي ما بعد " الذي " هي جملة الصلة كما نعرف في قواعد اللغة، جاءت لتعرّفنا بالله سبحانه وتعالى، الإمام عليّ كرّم الله وجهه يقول: **" أصل الدين معرفته "**، أي أن أصل الدين معرفة الله عزّ وجل.

جاء رجلٌ إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

((يا رسول الله جئتك لتعلمني من غرائب العلم "، فقال عليه الصلاة والسلام: " وماذا صنعت في أصل العلم ؟ " قال: " وما أصل العلم ؟ "، قال: " هل عرفت الرب ".))

[تنبيه الغافلين عن عبد الله بن مسور الهاشمي]

فالقول الذي أُثِرَ عن سيدنا عليّ كرّم الله وجهه: **" أصل الدين معرفة الله، وأصل العبادة معرفة شرعه، وأصل صلاح الدنيا معرفة خلقه."**

العلم ما عُمِلَ به فإن لم يُعْمَل به كان الجهل أفضل منه:

الإنسان أحياناً عليه أن يسأل نفسه سؤالاً محرجاً: ماذا أعرف عن الله ؟ الإنسان قد يُعَمِّي على نفسه، قد يتوهَّم أنه يعرف الله وهو لا يعرفه.

لنضرب على ذلك بعض الأمثلة: لو أن رجلاً ركب طائرةً من عمّان إلى قبرص ومرّ فوق دمشق، فسُئل: هل تعرف الشام ؟ يقول لك: نعم أعرفها، لقد طارت طائرتي فوق دمشق. إنسان آخر هبطت طائرته في مطارها فسُئِل: هل تعرف الشام ؟ يقول: نعم نزلت في مطار دمشق، ومكثت فيه ساعة. إنسان زار من دمشق الجامع الأموي وسوق الحميديّة فسُئل: هل تعرف الشام ؟ يقول لك: نعم أعرفها.

إنسان عاش في الشام أربع سنواتٍ دراسيّة، كان طالباً في الجامعة، سُئل: هل تعرف الشام ؟ يقول لك: نعم أعرفها، إنسان عاش في الشام عشرين عاماً يقول لك: أعرف الشام، وإنسان ولِدَ في الشام، وعرف طِباع أهلها، وتقاليدهم، وعاداتهم، وأنماط أفراحهم وأتراحهم هذا سُئل: أتعرف الشام ؟ يقول لك: نعم أعرفها.

هل مستوى معرفة هؤلاء في مستوى واحد ؟ هذا الذي طارت طائرته فوق دمشق فقال: أعرف الشام، ماذا يعرف عنها ؟ رآها مدينة مترامية الأطراف، بعضها أبنيةٌ حديثة وبعضها أبنيةٌ قديمة، هذه ليست معرفةً كافية، وهذا الذي بقي في المطار ساعتين لم يعرفها معرفة كافية ولا شبه كافية، وهذا الذي زار الجامع الأموي فقط وسوق الحميديّة لم يعرفها معرفة كافية كذلك، فكلمة المعرفة هذه واسعة جداً. ما مِن مسلمٍ على وجه الأرض إلا ويقول لك: أنا أعرف الله، هو خالق الكون، يا ترى هل هذه المعرفة تكفي كي تستقيم على أمر الله ؟ هل هذه المعرفة تكفي لكي تخاف الله عزّ وجل ؟ هل هذه المعرفة تكفي كي تعمل صالحاً يرضاه عنك ؟ هل هذه المعرفة تكفي كي تُلْزِمَ نفسك بحضور مجالس العلم والتقلّب في معرفة الله عزّ وجل، فكلمة أعرف الله هذه كلمة يقولها كل إنسان، أما هذه المعرفة فلابدّ من أن ترقى، أكرر: لابدّ أن ترقى، لابدّ أن ترقى إلى أن تصل إلى الحدِّ الأدنى، الحد الأدنى الذي يكفي كي تستقيم على أمر الله، لأن العلم ما عُمِلَ به، فإن لم يُعْمَل به كان الجهل أفضل منه.

على الإنسان أن يعرف ما حجم معرفته بالله عز وجل:

الإنسان عليه أن يعرف جيداً ما حجم معرفته بالله عزّ وجل بادئ ذي بدء، فإنّ الإنسان الذي يعصي الله لا يعرفه قطعاً، لأنك لو عرفته لما عصيته، ولا تنظر إلى صِغَر الذنب ولكن انظر على من اجترأت، قد تعرف شيئاً من الدنيا، هناك في الدنيا أشياء إذا عرفتها استمتعت بها، هناك معرفةٌ مُمْتِعَة، هناك معرفةٌ نافعة، هناك معرفةٌ ممتعة ونافعة، هناك معرفةٌ ممتعة غير نافعة، هناك معرفةٌ نافعةٌ غير ممتعة، هناك معرفةٌ لا ممتعةٌ ولا نافعة، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ وَقَلْبٍ لا يَخْشَعُ وَدُعَاءٍ لا يُسْمَعُ وَنَفْسٍ لا تَشْبَعُ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلاءِ الأَرْبَعِ))

[من سنن النسائي عن أنس]

إذاً لو أردت أن توازن بين معرفة الأشياء ومعرفة الله عزّ وجل، فالمسافة التي بين خالق الكون وبين أحد مخلوقاته هي المسافة نفسها بين معرفة الله وبين معرفة خَلْقِهِ، فمن معارف البشر ما هو ممتع ولكنّه غير نافع، من معارف البشر ما هو نافعٌ ولكنّه غير ممتع، من معارف البشر ما هو ممتعٌ ونافع، من معارف البشر ما ليس بنافعٍ ولا مُمتع، ولكنّك إذا عرفت الله عزّ وجل تمتّعت بهذه المعرفة وانتفعت

بها، وعاقبة هذِهِ المعرفة لا تنتهي في الدنيا، وإنّما تسعدُ بها إلى الأبد، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((فَضْلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى كَلَامِ خَلْقِهِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[رواه الدارمي عن شهر بن حوشب]

معرفة الله تُقاس بمدى الاستفادة منها:

معرفة الله تُقاسُ بجدواها، بمدى الفائدة التي تُستَخلَصُ منها، لو أنّك في مكان في مدينة أوروبيّة، ومعك كتاب ضخم عن المواصلات في هذه المدينة، وعن نظام المواصلات تحت الأرض، وعن أسماء المحطّات، وعن مواعيد انطلاق القطارات، وأنت عليك أن تبقى في هذه المدينة يوماً واحداً، هل من الحكمة أن تبذل جهداً كبيراً لفهم هذا الكتاب وترجمته ؟ مع أنّك لن تبقى في باريس إلا يوماً واحداً، هل عليك أن تقرأ كل هذا الكتاب، وأن تفهم كل التفصيلات، وأن تعرف كل أنواع القطارات وكل ساعات الانطلاق ؟ من الغباء أن تقرأ هذا الكتاب لأن هذا الكتاب لن يجدي نفعاً، لن ينفعك إلا ما دمت في هذه المدينة، وأنت لن تبقى فيها أكثر من يومٍ واحد، إذاً دَع هذا الكتاب، فالمعرفة تُقاس بمدى الاستفادة منها، برقعة المكان الذي تستفيد منها.

لو قرأت شيئاً متعلِّقاً بصحّتك فأينما ذهبت تستفدْ من هذه الوصيّة الصحيّة، لو قرأت شيئاً متعلِّقاً بمستقبل دراستك فإنك كلّما طبّقت هذه الوصيّة استفدت منها حتى في الصفوف العُليا، أما إذا عرفت الله عزّ وجل فهذه المعرفة تنفعك بدءاً من حين معرفتك بالله وإلى الأبد، فالإنسان عليه ألاّ يضيّع وقته الثمين في معرفةٍ لا تُجدي ولا تُغني، عليه أن يختار من بين المعارف ما يستمرُّ معه في قبره.

لو قرأت تاريخ الإغريق، ولست مُخْتَصّاً في التاريخ، ولست مدرّساً، وهذا الموضوع لا يتصل بحياتك اليوميّة، فماذا تجني من معرفتك لهذا التاريخ ؟ لكن اقرأ كتاب الله، ففيه توجيهاتٌ دقيقة لكل حركةٍ وسكنةٍ من حركاتك وسكناتك.

المؤمن الحق يعلم علم اليقين أن سعادته في معرفته لله عزّ وجل:

الشيء الذي أريد أن أقوله هو: أنك إذا عرفت الله عزّ وجل استفدت من هذه المعرفة بدءاً من اللحظة التي تعرّفت بها إلى الله وإلى أبد الآبدين، لكنّ أي علمٍ آخر لو تعلّمته ففائدته مقصورةٌ على وقتٍ محدّد أو على مكانٍ محدّد، وما بعد هذا الوقت وهذا المكان فهذه المعرفة لا تنفع، فهذا العُمُر الثمين لا ينبغي أن يضيع في سفاسف الأمور، ولا في معارف ليس مردوها بمستوى بذلها.

شيءٌ آخر: المعرفة ليست هدفاً بذاتها إنما هي وسيلة، إذا عرفت الله عبدته وإذا عبدته سعدت بقربه،

فالقصد البعيد هو أن تسعد، ولا تنسوا أن لكل إنسانٍ في كل زمانٍ ومكانٍ مطلباً ثابتاً، أيُّ إنسان على وجه الأرض في أيّ زمان وفي أيّ مكان له مطلبٌ ثابت، هذا المطلب الثابت هو أن يَسْلَمَ وأن يَسْعَد، فإذا علمت علم اليقين أن سلامتك وسعادتك لا تكون إلا بمعرفة الله عزّ وجل، فإن معرفة الله تتوافق مع مَطْلَبَكَ الثابت في الحياة، أيُّ إنسان متعلِم وغير متعلِم، ذكي وغير ذكي، أيّ إنسان على وجه الأرض يبحث عن سلامته وعن سعادته، لكن المؤمن الحق يعلم علم اليقين أن سعادته في معرفته لله عزّ وجل.

فلذلك عندما قال ربنا عزّ وجل:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

معرفتك بالله لها حجم يجب أن تعرفه بالضبط كي تستقيم على أمر الله:

الآن عودٌ على بدء، اسأل نفسك هذا السؤال المحرج: ماذا أعرف عن الله ؟ تحدّث، اجلس مع أخيك المؤمن وحَدِّثه عن الله، بعد كَمْ من الدقائق تنتهي معرفتك ؟ بعد كم من الساعات ؟ بعد كم من الأسابيع تنتهي معرفتك، هناك حجمٌ لمعرفتك، معرفتك لها حجم فيجب أن تعرف هذا الحجم بالضبط، فإذا كان هذا الحجم غير كافٍ فلابدّ من أن تزيده، لأن معرفتك بالله عزّ وجل قد تكون بحجم صغير غير كافٍ كي تستقيم على أمره، إذاً لا بدّ من أن تنمو إلى أن تبلغ الحدّ الأدنى وهو أن تستقيم على أمر الله، قبل أن تستقيم لا يمكن أن تعرف الله، لأنه من عرفه عبده، إذا علمت أن الله بيده كل شيء، وأن مصيرك إليه، وأن عنده من السعادة ما لا سبيل إلى وصفها، وأنه قد أعدّ لك جنّةً فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأنه أعدّ لمن يعصيه ناراً وقودها الناس والحجارة، أيعقل أن تعرفه وأن تعصيه ؟ هذا مستحيل:

تعصي الإله وأنت تُظهر حبّه   هذا لعمري في المقال بديعُ

لو كان حبُّك صادقاً لأطعته   إنّ المحبّ لمن يحبّ يطيعُ

* *

لا يمكن أن تعرف الله إلا إذا أوصلتك هذه المعرفة إلى طاعته:

دائماً زِنْ معرفتك بالله عزّ وجل بمدى تطبيقك لأمره، ما دام هناك مخالفات، ما دام هناك معاصٍ، ما دام هناك تجاوزات، ما دام هناك تقصير فلا تقل: أنا أعرف الله عزّ وجل، لو عرفته لعبدته، لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت، أتعصيه من أجل آلافٍ من الليرات ؟! لو عرفته لعرفت

أن الله سبحانه وتعالى يعطيك أضعافاً مضاعفة فيما لو أطعته، أتعصيه خوفاً من غضب فلان ؟ لو عرفت أن غضب الله عزّ وجل لا يعدله غضبٌ في الكون لما اجترأت على معصيته.

فلهذا لا تُسَمِّ نفسك عارفاً بالله إلا إذا أوصلتك هذه المعرفة إلى طاعته، قبل أن توصلك إلى طاعته فهذه ليست معرفة كافية، فمثلاً: لو أن حاجباً يقف على باب قاعةٍ للتدريس، ودخل الأستاذ القدير أمام عين هذا الحاجب آلاف المرّات، هذا الحاجب معرفته بهذا الأستاذ محدودة لا تزيد عن أنه أستاذ في هذا القسم، وهو أستاذٌ محبوب وقدير، لكن هذا الطالب الذي يجلس وراء المقعد ويستمع إلى محاضرته، كلّما ألقى محاضرةً ارتفع مستوى معرفته بهذا الأستاذ، نعم كلّما ألقى محاضرةً ارتفع مستوى المعرفة، فإيّاك أن تكتفي بمعرفةٍ محدودةٍ عن الله عزّ وجل، إياك أن تكتفي وتقول: أنا أعرف الله، الله خالق الكون وكفى، هذه معرفةٌ ساذَجَة، هذه معرفةٌ عرفها إبليس:

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(39))

(سورة الحجر)

بماذا خاطبه ؟ إبليس بماذا خاطب ربّ العزّة ؟ بأنه رب، وخاطبه بأنه عزيز:

(وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(39))

(سورة الحجر)

معرفة الإنسان بالله شيء أساسي:

أهذه المعرفة كافية ؟ لا والله ليست كافية، فما من إنسان إلا وهو راضٍ عن عقله وراضٍ عن معرفته لله عزّ وجل، وقد يكون لا يعرف الله، وقد يكون واهماً، يكفي أن تُرضي إنساناً وتعصي الله فأنت لا تعرفه، يكفي أن تخاف من غضب إنسانٍ ولا تخاف من غضب الله عزّ وجل فأنت لا تعرفه، يكفي أن ترجو غير الله فأنت لا تعرفه، يكفي أن تخشى غير الله فأنت لا تعرفه، يكفي أن تسعى لغير الله فأنت لا تعرفه، فهذه المعرفة بالله شيءٌ أساسي، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1))

(سورة الفرقان)

مَنْ هو الذي نزّل الفرقان على عبده ؟ مَنْ هو ؟ يقول الله عن ذاته: تبارك الذي ؟ قال:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

معرفة الإنسان بالكون تزداد مع ازدياد وسائل المعرفة:

السماوات والأرض تعبيرٌ قرآنيٌ عن الكون، معرفة الإنسان بالكون تزداد مع ازدياد وسائل المعرفة، فقبل أن يُخْتَرَعَ المَرْصَد كانت معرفة الإنسان بالكون لا تتعدّى هذه النجوم التي رآها بعينه، ولكن بعد اختراع المراصد فمن عشرة آلاف نجمة يعدُّها الإنسان بعينيه في قبّة السماء في ليلةٍ ظلماء، إلى مليون مَليون مجرّة، وفي كل مجرّةٍ مليون مَليون كوكب، كم هو الفرق شاسعٌ بين المعرفة البدائية وبين المعرفة المتقدِّمة ! فلو قلت لكم: إن إحدى المجرّات التي اكْتُشِفَتْ حديثاً تبعدُ عن الأرض ستة عشر ملياراً أو ألف مليون سنة ضوئيّة، وأن الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمئة ألف كيلو متر، وفي الدقيقة ضرب ستين، وفي الساعة ضرب ستين، وفي اليوم ضرب ثلاثمئة وخمسة وستين، وفي ستة عشر ألف مليون سنة، كم تبعد عنّا هذه المجرّة ؟! إذا علمت أن المجموعة الشمسيّة بأكملِها لا يزيد قطرها عن ثلاث عشرةَ ساعةً ضوئيّة، هذا يعني أن الضوء يقطعها في ثلاث عشرةَ ساعة. إذا علمت أن الشمس تبعد عن الأرض ثماني دقائق ضوئيّة، وأنّ القمر يبعدُ ثانيةً ضوئيّةً واحدة، وإذا علمت أن هذه المجرّة تبعد عنّا ستّة عشرَ ألف مليون سنة، فما سِعة هذا الكون المُترامي الأطراف ؟

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(76))

(سورة الواقعة)

فعندما يقول ربنا:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

هل تعرف حجم السماوات والأرض ؟ هل تعرف المجرّات ؟ هل تعرف الكازارات ؟ هل تعرف المُذَنَّبات ؟ هل تعرف الكويْكِبَات ؟ هل تعرف المجموعات ؟ هل تعرف النجوم ؟ هل تعرف الكواكب ؟ هل تعرف حجم بعض النجوم هذه التي تبدو كالعناقيد، ما حجمها ؟ هذا النجم الذي في بُرج العقرب المتألِّق هل تعرف ما حجمه ؟ إنّه يسع الشمس والأرض مع المسافة بينهما:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ(38)وَمَا لَا تُبْصِرُونَ(39))

(سورة الحاقة)

بعض النجوم التي نراها صغيرة تتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما:

ماذا تبصر أنت بعينيك ؟ ترى نجماً صغيراً متألِّقاً، هذا النجم الصغير يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، فلمّا يقول ربنا:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

إنسان يملك بيتاً مساحته سبعين متر، وهناك بيت مئة وعشرة أمتار، كذلك هناك بيت مئتان وخمسون متراً، يملك إنسان أحياناً قصراً حوله حديقة مساحتها خمسة آلاف متر مربّع وفيه ثلاثمئة غرفة، هذا غير هذا، إنسان يملك كل أسواق المدينة، كم حجم أمواله ؟ فكيف بمَنْ يملك كل المدن في العالَم، كل الأراضي الزراعيّة، كل المعامل، كل الشركات الناجحة، كل الأسواق التجارية الضخمة، كل البيوت الرائعة:

(الّذِي لَهُ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

عظمة الخالق في خلق هذا الكون الواسع:

هذه المجرّات، هذه الكواكب، المجموعة الشمسيّة، ما دامت الشمس تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرّة، ولو أُلقِيَت فيها الأرض لتبخّرت في ثانيةٍ واحدة، ما حجم الشمس ؟ وهذه الشمس التي تتقِد منذ خمسة آلاف مليون سنة، ويقدِّر العلماء أنها لن تنطفئ قبل وقتٍ كمثل هذا الوقت، أي بعد خمسة آلاف مليون سنة، ربما انطفأت:

(إِذَا الشّمْسُ كُوّرَتْ(1)وَإِذَا النّجُومُ انكَدَرَتْ(2))

(سورة التكوير)

فكلمة السماوات والأرض هل تعرف حجمها ؟ هل تعرف أين ينتهي الكون ؟ لا أحد يعرف، فهذه المجرّة التي كنت قد حدثتكم عنها قبل قليل أنها تبعد عن الأرض ستّة عشر ألف مليون سنة ضوئيّة، هذه المجرّة كانت في هذا المكان قبل ستّة عشرَ ألف مليون سنة، والآن تحوّلت عنه، يوم كانت في هذا المكان أرسلت هذا الضوء، والآن وصلنا ضوءها، فقلنا: هناك مجرّة تبعد عنّا هذه المسافة، أما الآن، فأين هي ؟ لا يعلم أحدٌ إلا الله أين هي.

ربنا عز وجل أراد أن يعرفنا بذاته في هذه الآية:

عندما يقول ربنا:

(الّذِي لَهُ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

الإنسان يفرح إذا كان يملك ثلاثمئة دونم، اركب من دمشق إلى القامشلي يقول لك قائل: يا أخي تسعمئة كيلو متر، حوالي ألف كيلو متر مشينا، انظر إلى سوريا على كرة أرضيّة مجسّمة، إذا كتبوا عليها

سوريا بأصغر حرف تغطي كل المساحة، سوريا على كرة أرضيّة مجسّمة إذا أردنا أن نكتب عليها كلمة سوريا بالإنكليزي (Syria) يُغطُّون كل مساحتها بأصغر حرف، فأين القارّات الخمس ؟ ترى هذا الحجم الصغير على الكرة المُجسّمة وقد مشيت من دمشق إلى القامشلي تسعمئة كيلو متر، فيقول لك صاحبك: سرنا عشر ساعات، بل ثلاث عشرةُ ساعة، جسمنا قد تكسّر، هذه سوريا، وهناك الدول العربية بكاملها، والدول الإسلاميّة، وآسيا، وشرقي آسيا، والصين، وروسيا، ثم أوروبا، وأمريكا، وأقيانوسيا، وكذلك إفريقيا، كل هذه القارات والدول تُشكِّل عشرين بالمئة من سطح الأرض والباقي بحار، أربعة أخماس الكرة الأرضيّة بحار، وهذه الكرةُ لو أُلقيت في الشمس لتبخّرت في ثانيةٍ واحدة، والشمس أكبر منها بمليون وثلاثمئة ألف مرّة، وأنها تدخل مع الشمس ومع المسافة بينهما في قلب نجم في برج العقرب، فما معنى قول الله عزّ وجل:

(الّذِي لَهُ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

هل تعرف أين ينتهي الكون ؟!!

بعض الآيات القرآنية ودلائل أخرى على عظمة الخالق:

قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسّماوَاتُ مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ (67))

(سورة الزمر)

فربنا عزّ وجل في هذه الآية أراد أن يُعَرّفنا بذاته فقال:

(الّذِي لَهُ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

الأرض ؛ هل تعرف أنواع الصخور ؟ هل تعرف أنواع المعادن وخصائصها ؟ هل تعرف أشباه المعادن ؟ هل تعرف أنواع الغازات ؟ هل تعرف السوائل كلها ؟ هل تعرف أنواع الأسماك ؟ بعض العلماء يقول: هناك مليون نوع من السمك، ليس مليون سمكة ولكن مليون نوع، هل تعرف أنواع الطيور ؟ هل تعرف أنواع الديدان ؟ أنواع الزواحف، أنواع الثدييات، أنواع القوارض، هل تعرف أنواع الفيروسات ؟ فيروس واحد حيّر العالم ـ الإيدز ـ حيّر العالم، أرْبَكَ العالم، هل تعرف أنواع البكتريا ؟ هل تعرف الحيوانات البدائية وحيدة الخليّة ؟ هل تعرف أنواع الرَخَويات ؟ هل تعرف الحيوانات العملاقة ؟ الحوت كم طن وزنه ؟ بالأطنان الكثيرة، وزنه مئة وثلاثون طناً، رقم كبير جداً، تسعون برميل زيت يستخرج من كبده، كل برميل يزن مئتي كيلو، خمسين طن دهنٍ، خمسين طن لحمٍ،

ثلاثين طن عظام، وزن دماغه تسعمئة كيلو أيْ طن إلا قليلاً، ذات مرّة جرّ الحوتُ باخرةً ثلاثاً وأربعين ساعة بعكس اتجاهها، وهي تعمل محرّكاتها بأقصى درجة، ورُغم ذلك جرّها، وجْبته الغذائية المتواضعة وهو رضيع ثلاثمئة كيلو حليباً، في اليوم يحتاج إلى طن من الحليب، إذا أحب أن يأكل سندويشة يحتاج إلى أربعة أطنان من السمك يأكلها تحت الماء، وهناك أشياء أُخرى دقيقة جداً، يا ترى:

(الّذِي لَهُ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

ما فوق الأرض وما تحتها ينطق بعظمة خالق هذا الكون:

هذه بعض أنواع الحيتان وأنواع الأسماك، أمّا أنواع الأشجار ؛ فالعنب ثلاثمئة نوع بمركز البحوث عندنا في سوريا، التفاح ثلاثمئة وستون نوعاً، أنواع القمح ثلاثة آلاف وخمسمئة نوع، هذا القمح وحده، أنواع البقول، أنواع الحبوب، أنواع المحاصيل، أنواع الحشائش، نحن الآن في فصل الربيع، فانظر كم زهرة موجودة، كم نوع من أنواع الزهور موجود ! أنواع النباتات ؛ نباتات الزينة، نباتات شوكيّة، نباتات حدوديّة، نباتات للأخشاب، الأخشاب مئة نوع، خشب الزان، وخشب السنديان، وخشب الكَندي، وخشب الشوح، وأنواع منوّعة، والحور الرومي، والحور الشرقي، أنواع الأخشاب كم نوع ؟ أنواع الفواكه وأنواع الثمار، أنواع الخضراوات..

(الّذِي لَهُ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

أنواع الثروات المدفونة في باطن الأرض:

(لَهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثّرَى(6))

(سورة طه)

هل تعرف ماذا تحت الثرى ؟ البوتاس، الفوسفات، المنغنيز، هذه الثروات الهائلة، ماذا في الجو من كائنات ؟ طبقة أوزون تخلخلت قامت الدنيا ولم تقعُد، عُقِدَتْ مؤتمرات من أجلها، الطبقة كل سماكتها ميليمترات تحيط بالأرض، غاز الأوزون يمنع عنا الأشعة القاتلة، من كثرة إطلاق الأقمار الصناعيّة فهذه الطبقة تخلخلت، مع تخلخلها بدأت حالة الطقس في الأرض تتغيّر، وبدأ يصاب الناس في أوروبا بسرطان الجلد، فمن وضع هذه الطبقة لتحُول بين الإنسان وبين أشعّة الشمس القاتلة ؟ الله سبحانه وتعالى.

الخالق هو الذي يُمِدُّ المخلوقات بما يحتاجونه فهو المربي وهو المسير وإليه المصير:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

كلمة " له " دقيقة جداً، أي له خَلْقاً، وله تَصَرُّفاً، وله مصيراً، قد تملك الشيء ولا تملك أن تنتفع به، وقد تنتفع به ولا تملكه، وقد تملكه وتنتفع به ولكن ليس إليكَ مصيره، عندما يقول ربنا: له، أي هو الخالق، وهو المربي، وهو المسيّر وإليه المصير، أي أنها أوسع أنواع الملكيّة، خَلَق. أنت تقتني سيّارة لست صانعها لكنّك اشتريتها، قد تستأجرها أيْ تنتفع بها ولا تملكها، قد تمتلكها ولا تنتفع بها، قد تمتلكها وتنتفع بها ولكنها ليست لك في النهاية، تؤخَذ منك غصباً، لكن:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

أيْ هو الخالق، وهو الذي يُمِدُّ المخلوقات بما يحتاجونه، وهو المربي، وهو الذي يسيّر كل شيء للخير، هو المسيّر وإليه المصير، فإذا قال الله عزّ وجل:

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

من المعاني الأخرى: لو أردنا أن نتوسّع بكلمة المُلك، فكل شيء يُمَلّك، لو أردنا أن نتعرّف إلى جسدنا فقط، الإنسان عنده غدّة نخاميّة فهل معنى هذا أنه يملكها ؟ هل يملك أن يخفِّف نشاطها ؟ هل يملك أن يوقف نشاطها ؟ هل يملك أن يعدلها لو زاد نشاطها ؟ أعرفُ إنساناً توفي في مقتبل الحياة لسببٍ لا يُصدّق، الطحال كان يعمل أكثر مما يجب أن يعمل، يا تُرى هل أنا مالك طُحالي ؟ هل أقدر أن أعدِّل له عمله ؟ أخفِّف من عمله ؟ أزيد من عمله ؟ أوقِف نشاطه ؟ أمنع نشاطه ؟ لا أقدر، فهل أنت مالك الطحال ؟ مالك البنكرياس لديك ؟ لو اختلت وظيفته يصاب الإنسان بمرض السكّر، ما هو مرض السكّر ؟ هو عجز البنكرياس عن إفراز الأنسولين، الأنسولين يحرق السكّر، أفأنتَ مالك البنكرياس ؟ مالك الطحال ؟

جسم الإنسان ملك لله وحده والإنسان لا يملك أن يفعل شيئاً:

هل تملك الغدّة الدرقيّة ؟ هذه إذا زاد نشاطها يستهلك الإنسان كل طاقته، وإذا خفّ نشاطها يصبح خمولاً، أحياناً الإنسان يكون عصبي المزاج، لأن عنده إفرازاً في هذه الغدّة بدرجة مرتفعة جداً، أو يكون عنده خمول لأن إفرازها ضعيف، هل أنت تملكها ؟ هل تملك الكظرين ؟ لو أنّ هاتين الغدّتين

توقفتا عن العمل صار الإنسان جثّة هامدة، إنه حَي لكنه لا يغضب، ولا ينزعج، ولا يثور، ولا يعمل، ولا يجتهد، كسول، خمول، خنوع، هذه الكظرين.

هل تملك العين ؟ القزحيّة، الجسم البلوري، الخلط الزجاجي، الخلط المائي، الشبكيّة فيها مئة وثلاثون مليون عُصيّة، عشر طبقات يخرج منها عصب بصري، أربعمئة ألف عصب تتصالب بمؤخرة الجمجمة، وتصل إلى مركزي الرؤية، هناك مركز رؤية في الدماغ لو تعطّل لما رأيت شيئاً مع سلامة العين، هل تملك العين ؟

هل تملك الأذن ؟ تستمع إلى النغم، وإلى الضجيج، هذا صوت فلان وهذا صوت فلان آخر، هذا الصوت رفيع، هذا الصوت حاد، هذا الصوت رخيم، هذا الصوت مُزعج، هل تملك الأذن ؟

هل تملك حاسة الشم، تعرف عن طريقها الأطعمة والمأكولات والروائح، هل تملك هذا اللسان لو تعطّل ؟ ماذا تملك ؟

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

هل تملك الدماغ ؟ هل تملك أن تنمو هذه الخلايا نمواً طبيعياً ؟ هذا الذي تنمو فيه الخلايا نمواً غير طبيعي ماذا يفعل ؟ تنتهي حياته، مرض خبيث، هل بيدك سُلطة على نمو الخلايا ؟

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

كلّما عرفت الله عزّ وجل تتواضع وتعرف أنه لا يليق بك أن تعبد سواه:

نحن تحت ألطاف الله عزّ وجل، مليون مَليون مَليون عامل لبقائنا أحياء، فالخليّة لو نمت نمواً زائداً مشكلة، لو أن غدّة لا ترى بالعين قصّرت مشكلة، الكظر إنْ أوقفَ إفرازهُ مشكلة، زاد إفرازه مشكلة، فمن يصدِّق أن مرضاً خطيراً كارتفاع الضغط مثلاً يسبب له تسرُّعاً في القلب، يسبب له أزمات كثيرة جداً، أسبابها أن شريان الوريد الكلوي أضيق مما يجب، فالكلية تؤدّي وظيفتها فحينما تضعف فيها التروية يرتفع الضغط في الإنسان، مع ارتفاع الضغط يتعب القلب، مع تعب القلب تتصلّب الشرايين، قضيةٌ دارةٍ معقدّة جداً.

فعندما يستيقظ الإنسان صباحاً يقول: أصبحنا وأصبح الملك لله، أيْ أنّ الله عزّ وجل سمح لك أن تعيش يوماً جديداً بدءاً من الغدد الصمّاء ؛ النخاميّة، الدرقيّة، البنكرياس، الكظر، الطحال، الجهاز الهضمي، الزُغابات، الامتصاص، العظام، كلّه يعمل بانتظام، القلب، الدسّامات، الأوردة، الشرايين، الأعصاب كلّها تعمل بانتظام، عضلات، وجلد، وأعصاب، وعظام، وأجهزة، وحواس خمس كلّها عملها منتظم:

(الّذِي لَهُ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

إذاً فأنت لا تملك شيئاً:

(قُلْ اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ(36))

(سورة آل عمران)

فكلّما عرفت الله عزّ وجل تتواضع ويصغر حجمك، تفتقر إليه، لا ترى أنه يليق بك أن تعبد سواه:

(يَا أَيُّهَا النّاسُ اعْبُدُوا رَبّكُمْ الّذِي خَلَقَكُمْ وَالّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ(21))

(سورة البقرة)

الله عزّ وجل قدرته لا نهائيّة أنّى يكون له ولدٌ إذاً ؟!

شيءٌ آخر:

(الّذِي لَهُ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتّخِذْ وَلَدًا (2))

(سورة الفرقان)

الإنسان يتخذ ولداً، يقول لك: ليكون من بعدي، تركت مالاً كثيراً، وهو من أجل أن يرث هذا المال من بعدي، فمن الذي يبحث عن الولد ؟ الذي له أجل ينتهي عنده، من الذي يبحث عن ولد ؟ الضعيف، يقول لك: هذا جعلته لكبري، يكبر الإنسان، يضعف عن العمل، تزداد متاعبه، تزداد آلامه فيبقى في البيت، بحاجة إلى من يخدمه، فالولد تعبير عن الضعف وعن انتهاء الأجل، لكن هذا الخالق العظيم هل له نهاية ؟ لا نهاية له، هل أصابه تعبٌ أو إعياء ؟ لا، فالله عزّ وجل قدرته لا نهائيّة أنّى يكون له ولدٌ إذاً، وخلق كل شيءٍ ؟! لذلك:

(قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ(1)اللّهُ الصّمَدُ(2)لَمْ يَلِدْ)

(سورة الإخلاص)

لم يكن قبله إله عظيم جاء منه، وليس من إلهٍ سيأتي بعده:

(لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(3))

(سورة الإخلاص)

وليس معه إله بمستواه:

(قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ(1)اللّهُ الصّمَدُ(2)لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ(3)وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ(4))

(سورة الإخلاص)

الله هو الواحد الأحد ولا يشرك في ملكه أحداً:

لم يأتِ قبله أحد، ولن يأتيَ بعده أحد، وليس معه أحد، هو الواحد الأحد، فلذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ (2))

(سورة الفرقان)

عندما يكون لربنا عزّ وجل شريك فرضاً فأنت معذور أن تعبد الله أو أن تعبد هذا الشريك، إله ثانٍ، أما ربنا قال لك:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ(123))

(سورة هود)

ليس معه شيء ثانٍ لذلك:

(فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ(123))

(سورة هود)

أيٌّ مخلوق آخر لا قيمة له إطلاقاً، كن فيكون، زُل فيزول، مخلوق إلهٌ آخر لا وجود له، فالله هو الواحد الأحد، فعندما يطيع الإنسان إنساناً ويعصي الله كم هو جاهل ! كم هو أحمق ! كم هو غبي !

بعض الأدلة من القرآن الكريم على وحدانية الله:

قال تعالى:

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ (2))

(سورة الفرقان)

لا يشرك في ملكه أحداً:

(مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

لا أحدَ يتدخّل في أي شأن مع الله، وإذا أعطاك مَن يمنعك ؟ ثم مَن يعطيك إذا ما منعك ؟

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ(2))

(سورة فاطر)

الله عز وجل هو الذي قدر الإنسان هذا التقدير الحكيم:

قال تعالى:

(وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

خلق كل شيءٍ، الإنسان له طول معيّن، وله وزن معيّن، هناك حالات مرضيّة نادرة يزداد طول الإنسان بسببها مِن دون حدود، حالة خطيرة جداً قد تنتهي بالانتحار، شيءٌ لا يُحتمل، وقد يضعف النمو عن الحد المعقول، مَنْ قدّر الإنسان هذا التقدير الحكيم ؟ مَن جعله بهذا الوزن المناسب ؟ بهذا الطول المناسب ؟ مَن جعل له هذا الطرَف بهذا الطول المناسب ؟ يقضي كل حاجاته، يغتسل اغتسالاً كاملاً بهذه اليد، لو أنها أطول من ذلك، لو أنها أقصر من ذلك، لو أنها بلا مفصل، كيف يأكل ؟ وكيف يعمل ؟

(وَخَلَقَ كُلّ شَيْءٍ فقَدّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

هذه المفاصل من حدّدها ؟ من حدّد أماكنها ؟ من حدّد جهاتها ؟ هذا عضو إنسي والرُكبة عضو وَحشي، بالمكان المناسب مفصل، بالجهة المناسبة مفصل، هذا المفصل دائري، هناك مفصل على مئة وسبعين درجة تقريباً، مئة وسبعين درجة وليس مئة وثمانين درجة، هناك مِفصَلٌ دائري، مفصل كروي، مفصل أنسي، مفصل وحشي، من بنى هذا المفصل ؟ غضاريف مع مواد زيتيّة، لا توجد آلة إلاّ وتحتاج إلى زيت، تزييت داخلي دائم مدى الحياة.

هذا البصر له عتبة، لو أنك ترى كل شيء ما أمكنك أن تشرب كأس الماء، فكأس الماء هذِهِ فيها ملايين البكتريات، أنت تراه ماء صافياً، زلالاً، رائقاً، فمن جعل هذه الرؤية بهذا الحد ؟ لو تمكّنت أن ترى فوق هذه العتبة لرأيت وجه الإنسان كأنه أخاديد وكهوف، لكن ربنا عزّ وجل جعل للبصر عتبة معيّنة مناسبة، أما الصقر فهو يرى ثمانية أمثال الإنسان.

الحكمة من خلق كل شيء بنسب معينة:

قال تعالى:

(وَخَلَقَ كُلّ شَيْءٍ فقَدّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

بعضُ الحيوانات تسمع أربعة وعشرين ضعفاً عن الإنسان كالأرانب والقطط والكلاب، لها حس مرهف دقيق جداً، الكلب يشم مليون ضعف عن الإنسان، الكلاب البوليسيّة، فإذا إنسان مجرم أمسك شيئاً يتّبعه بين آلاف الأشخاص فيعرفه، مَن قدّر الشم بهذا الحد ؟ لو زاد أكثر لكانت مشكلة، يشم رائحة خمسين بيت حوله، إذا قلى الناس أكلة معيّنة ينزعج الإنسان منها، الشم معقول، السمع معقول، البصر معقول.

(فقَدّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

الأمعاء طولها معقول، لو كانت أقصر لكان الإنسان كل ساعة يضطر لِيَقضي حاجة، لكنّ طولها ثمانية أمتار، لو كان خمسة أمتار لكانت مشكلة، مترين مشكلة، لو كانت خمسين متراً لكان بحاجة إلى مستودع لأمعائِهِ.

(وَخَلَقَ كُلّ شَيْءٍ فقدّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

الله عزّ وجل باسط وقابض يجعل كل عضو ينمو إلى أن يبلغ حدّاً فيقف عنده:

حجم المثانة حجم معقول، الإنسان يبقى خمسَ ساعات أو ثماني ساعات ليقضي حاجة، لو لم تجد المثانة لكان هناك مشكلة، كل عشرين ثانية نقطتا بولٍ، مشكلة كبيرة جداً، لو أن المثانة ليس فيها عضلات لاحتاج إلى فترة طويلة ليفرّغ البول منها، وإذا لم تجد هناك عضلات لاحتاج إلى تنفيس هواء، ولاحتاج إلى أنبوبة لكي تُنفِّس الهواء ويصلح حاله.

(وَخَلَقَ كُلّ شَيْءٍ فقدّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

انظر إلى إفراغ البول، انظر إلى طول الأمعاء، انظر إلى المفاصل، عدد المفاصل، أنواع المفاصل، طول الأطراف، عتبة السمع، عتبة الرؤية، عتبة الشم، الأسنان حجمها، لو أن العظام تنمو بلا حدود لكانت مشكلة كبيرة جداً، فالله عزّ وجل باسط وقابض، تنمو العظام إلى أن تبلغ حدّاً تقف عنده، تنمو الأسنان إلى أن تبلغ حدّاً تقف عنده، تنمو الجُمجمة إلى أن تبلغ حداً تقف عنده، فمَن أوقف النمو في الوقت المناسب، وفي الحجم المناسب، وفي الزمان المناسب ؟

(وَخَلَقَ كُلّ شَيْءٍ فقدّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

ربنا عزّ وجل جعل الأوردة في السطح، والشرايين في الداخل، الشرايين في أعماق الجسم، لو كان الشريان في السطح لكانت أيّةُ آلة جرحت الإنسان يموت على الفور، لأن القلب يضخ الدم، والشريان يصرّف أكبر كميّة من الدم، فإلى أنْ يتّصلوا بالطبيب يكون المريض قد مات، أمّا الله فقد جعل الأوردة في الخارج والشرايين في الداخل، المكان الخطر الذي يمكن أن ينزف دمه كله من ضربة صغيرة قدّره الله فجعل الشريان داخلياً.

حكمة الله جعلت الشيء الذي يُزال باستمرار من دون أعصاب حس:

من قدّر الدماغ في الجمجمة ؟ من قدّر النخاع الشوكي داخل العمود الفقري ؟ مَنْ قدّر القلب في القفص

الصدري ؟ من قدّر أخطر معمل في الإنسان ـ معامل كريات الدم ـ بنقي العظام ؟ من قدّر الجنين في حوض المرأة:

(ثُمّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ(13))

(سورة المؤمنون)

قرار مكين، من قدّر هذه الأمكنة الدقيقة جداً ؟ الله سبحانه وتعالى، من جعل بين الدماغ وبين الجمجمة سائلاً، إذا جاءته ضربة يوزعها على كل السطح، لذلك فالطفل يقع على الأرض وتستمع إلى صوت جمجمته ولها دويٌ كدوي الآنية ومع ذلك يقف ضاحكاً، لأن الله جهّزه بجمجمة فيها مفاصل ثابتة، فعند الصدمة هذه المفاصل تتحمّل ضغطَ ميليمترٍ واحد فتمتصها، وجعل له سائلاً بين الدماغ وبين العظام فهذا السائل أيضاً يمتص الصدمة:

(وَخَلَقَ كُلّ شَيْءٍ فَقَدّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

مَنْ جعل الأظافر والأشعار بلا أعصاب حس ؟ والله هذه من آيات الله الكُبرى، لو أن الله جعل أعصابَ حسٍ في الأظافر لقلنا أين فُلان ؟ يقولون واللهِ ذهب لإجراء عمليّةِ قصّ أظافر بمشفى الشامي، عملية قص أظافر لأنه يحتاج إلى تخدير، عمليّة حلاقة في المستشفى، الله جعل الشيء الذي يُزال باستمرار من دون أعصاب حس.

الله عز وجل خلق كل شيء فأحسن تقديره:

مَنْ جعل أعصاب حس عالية المستوى في نِقْي العظام ؟ لو حدث كسر فالإنسان من شدّة ألمه يُبقي رجله على حالها، أربعة أخماس العلاج تحقّق، أربعةِ أخماس العلاج أن تبقي الكسر على حاله بفضل أعصاب الحس الحسّاسة جداً في نقي العظام:

(وَخَلَقَ كُلّ شَيْءٍ فَقَدّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

مَنْ جعل الشرايين مرنة ؟ القلب يضخُّ الضخّةَ فيمشي الدم عشرين سنتيمتراً، الشريان مثل المطّاط عندما يأتيه تدفق الدم من عند القلب يتمدّد، عندما يتمدد يكون قد مُط، وباعتباره مرناً سيرجع إلى حالته الأولى فيضغط، عندما يضغط يدفعُ الدم عشرةَ سنتيمترات أُخَر، فكل الشرايين تقوم بدور القلب، القلب يضغط ضغطة والشريان بهذا النبض يحرّك الدم في كل الأنحاء، تخرج الكريّة من القلب فترجع إلى القلب بعد ثماني عشرةَ ثانية، تسير في كل أنحاء الجسم، مَنْ قدّر المرونة في الشرايين ؟ يقول لك: فلان معه تصلّب شرايين، صارت مثل البربيش الجاف لم يعد مرناً.

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2) ﴾

(سورة الفرقان)

مَنْ الذي جعل المرأة ينتهي إنجابها في سنٍ معيَّنة ؟ أودع في مبيضها عدداً محدوداً من البويضات، فإذا انتهت دخلت في سنّ اليأس، بينما الرجل بإمكانه أن ينجب حتَّى في الثمانين، تصوّر امرأةً في الثمانين تنجب طفلاً، وتحتاج أن تُرضعه وأن تربّيه، هذا صعب، من قدّر هذا التقدير ؟ أليست حكمة الله عزّ وجل، من قدّر أن شعر رأس المرأة لا يسقط جميعه في أي حال من الأحوال ؟ أليس هذا من تقدير الله عزّ وجل ؟ الرجل قد يفقد شعر رأسه كله لكن المرأة ليست كذلك، هذا من تقدير الله عزّ وجل.

﴿ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2) ﴾

(سورة الفرقان)

الله خلق كل شيء بأحسن تقويم ليس في الإنسان فقط بل في الحيوان والنبات أيضاً:

طبعاً هذا فقط في الإنسان، انتقل للحيوان، انتقل للخروف مثلاً لو أن الله ركّب فيه طِباع الضبع مع لحم الخروف، كيف نربيه ؟ كيف نستخدمه ؟ كيف نذبحه ؟ كيف نستأنسه ؟ مستحيل:

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ (73) ﴾

(سورة يس)

إذاً الحيوانات مذلّلة، مَنْ جعل الصوف في هذا الحيوان لِنستفيد منه، والجلد، واللحم، والعظم، والشحم، والدهن، والحليبُ أنواع منوّعة منه.

﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2) ﴾

(سورة الفرقان)

انظرْ إلى الفاكهة، لو كانت المشمشة بحجم البطيخة كيف تأكلها ؟ المشمشة لأنها لينة جداً تؤكل بلقمة واحدة، لو كانت بحجم كبير، لو كان جلد المشمش للبطيخ، إنها لا تصل معك إلى البيت لأنك إنْ تحملها متراً صارت ماء أمامك، جلد البطيخ قاسٍ، هذا التقدير الدقيق، هذا الجلد متين وذاك قاسٍ، هذا يلمع وذاك فيه مادة شمعيّة، هذا له مادة عطريّة، هذا فيه مخمل، هذا فيه أشواك، من قدّر هذا التقدير ؟!!

إذا فكّر الإنسان في الكون عرف الله وعبده وإذا عبده سعِد بقربه:

مَنْ قدّر أن هذا الطعام الذي تأكله الحيوانات تحصده ستّ مرّات في العام ؟ أول مرّة، والثانية، والثالثة، والرابعة.. مَنْ قدّر هذا ؟ لماذا يفكِّر الإنسان ؟ الإنسان كائن مفكّر لو لم يفكر لصار حيواناً، قلنا في الدرس الماضي: إنّ الجماد شيء يشغل حيّزاً، أمّا النبات فهو يشغل حيزاً وينمو، وأما الحيوان

فهو يشغل حيّزاً وينمو ويتحرّك، أما الإنسان فهو يشغل حيّزاً وينمو ويتحرّك ويفكِّر، فإذا عطّل فكره فقد هبط إلى مستوى الحيوان:

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

هذا الإله العظيم أيُعْصَى ؟! هذا الإله العظيم أيُخالف أمره ؟ ألا يُبْتَغى فضله ؟ أيعصى أمره ؟! هذه معرفة الله عزّ وجل، إذا فكّرت في الكون عرفته، فإذا عرفته عبدته، فإذا عبدته سعدت بقربه، خُلِقْتَ كي تسعد بقرب الله عزّ وجل، فأنا ذكرتُ بعض الشواهد ولكن أتمنّى على كل أخ مِن أخواننا الكرام أن يفكِّر وَحده في خلق جسمه، بطعامه، بشرابه، بما حوله من كائنات، من نباتات، من حيوانات.

لماذا هناك خشب لا يتأثر بالمطر والبرد ؟ هذا خشب للنوافذ، وهناك خشب للأثاث، وخشب للصناعة، سبحانك يا رب، أنواع الخشب آية من آيات الله الكبرى الدالّة على عظمة الله عزّ وجل، هناك خشب مخصوص للآلات، فيه مرونة وفيه متانة في آنٍ واحد، فكّر بالأخشاب، فكِّر بالأسماك، بالأطيار، بالصحارى، بالبحار، بالسهول، بالفصول الأربعة، بدورة الأرض حول نفسها، حول الشمس، بمحورها المائل، بالليل، بالنهار، بالشمس، بالقمر، بالمجرّات، مليون مَليون مليون مَليون موضوع يوصلك إلى الله عزّ وجل.

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق:

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، لكن فكِّر يا أخي، لا تستخدم هذا الفكر في أشياء تافهة، بسفاسف الأمور، بالإيقاع بين الناس، في الاحتيال عليهم، أنت مكرّمٌ بهذا الفكر، فكِّر بمخلوقات الله كي تعرف الله عزّ وجل.

الذي أرجوه منكم أن يفكر كل واحد منكم كل يوم بكلِّ آية من آيات جسمه، فكِّر بهذه اليد، بهذه العين:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ(8))

(سورة البلد)

وقال:

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ(17)مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ(18)مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ(19)ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ(20))

(سورة عبس)

الولادة آية من آيات الله الدالّة على عظمته.

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (2))

(سورة الفرقان)

الله عز وجل غمر الإنسان بالنعم لأنه كله ملك لله وحده وعليه طاعته وعبادته:

خلقاً، وتربيةً، وتسييراً، ومصيراً، وأنت مِنْ خلقه، أنت ملكه، جسمك ملكه، حواسّك الخمس ملكه، عضلاتك ملكه، حركتك ملكه، تفكيرك ملكه، ذاكرتك ملكه، الغدد الصمّاء، كل شيء ملكه ألا تعبده ؟ أتعصي أمره ؟ ألا تحبُّه ؟ غَمَرَكَ بالنِّعم ألا تحبُّه ؟

(وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا (2))

(سورة الفرقان)

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نتابع:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا(3))

(سورة الفرقان)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (04-13): تفسير الآيات 3 - 8

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 31-03-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة الأكارم، مع الدرس الرابع من سورة الفُرقان.

لله ملك السموات والأرض ومع ذلك اتخذ الكفار من دونه آلهة يعبدونها:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (1) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا(2))

(سورة الفرقان)

ومع أن الله سبحانه وتعالى له ملك السماوات والأرض، ومع أن الله عزّ وجل ليس كمثله شيء:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4))

(سورة الإخلاص)

ومع أن مقادير السماوات والأرض كلها بيده، ومع كل ذلك..

(اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً (15))

(سورة الفرقان)

من دونه.

جاء الإسلام لينقذنا من الجهل والوهم ولينقلنا إلى أنوار المعرفة والعلم:

شَتَّانَ بين الخالق والمخلوق، شتانَ بين خالق الكون وبين مخلوقٍ ضعيف.

(واتَّخَذُوا (15))

(سورة الفرقان)

هؤلاء الكفار، هؤلاء المشركون:

(واتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً (15))

(سورة الفرقان)

والإله هو الذي ترجوه، هو الذي تخافه، هو الذي تطمعُ في نواله، هو الذي بيده أمرك، هؤلاء الكفار توهَّموا أن زيداً أو عبيداً أو أن هذا الصنَم أو ذاك الإله المزعوم الذي عبدوه من دون الله بيده أمرهم ؛ أمرُ حياتهم أو موتهم، أمرُ رزقهم، أمرُ صحّتهم، أمرُ أرضهم وخصوبتها، هذا التوهُّم سرابٌ وجاء

الإسلام لينقذنا من الجهل والوهم، ولينقلنا إلى أنوار المعرفة والعلم، فكم هم بعيدون عن الحقيقة، كم هم غافلون عنها حينما يتخذون من دون الله آلهةً.

الحقيقة أن الله عزّ وجل نفى عن هذه الآلهة صفاتٍ كثيرة، إن نفي الصفات يُعَرِّفُنا بالله عزّ وجل، هذه الآلهة ؛ يغوث، ويعوق، ونَسر، وكل إلهٍ يتخذه الإنسان ويعبده من دون الله يتوهَّم أن بيده رزقه، أن بيده حياته أو موته، أنه ينفعه أو يضره، إن كان الإله صنماً أو إن كان شخصاً لا فرق بينهما، المهم أن هذه الجهة تعبدها من دون الله، فقد عرفت عن خالق الكون الكثير والتفت إلى مخلوقٍ ضعيف، إن هذا الالتفات إلى هذا المخلوق هو الجهل بعينه، لماذا هو الجهل ؟

من ابتعد عن الشك والجهل والتقليد عرف الحقيقة وسُعد بها:

العلم هو أن تبحث عن علاقةٍ ثابتة بين شيئين مقطوع بصحتها يؤكِّدها الواقع وعليها دليل، إذا كانت كل أفكارك، وكل تصوُّراتك، وكل معتقداتك من هذا النوع ؛ علاقةٌ ثابتة بين شيئين مقطوعٌ بصحتها، عليها دليل يؤكدها الواقع، فهذه هي الحقيقة، وهذا هو العلم، أما إذا اعتقدت أشياء لا يؤكدها الواقع فهذا هو الجهل، إذا اعتقدت أشياء صحيحة ليس عليها دليل فهذا هو التقليد، إذا اعتقدت بأشياء ليس مقطوعاً بصحتها، فهذا هو الشك أو الوهم أو الظن، فإذا استطاع الإنسان أن يبتعد عن الشك، وعن الوهم، وعن الظن، وعن التقليد، وعن الجهل فقد عرف الحقيقة، ومتى عرف الحقيقة سَعِدَ بها في الدنيا والآخرة.

(واتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً (15))

(سورة الفرقان)

كيف تعبده وهو مخلوقٌ مثلك ؟ كيف تعبده وليس بيده أمرُ حياتك أو موتك ؟ كيف تعبده وليس إليه المصير ؟ كيف تعبده ولا يملك لك نفعاً ولا ضراً ؟ إذاً هذا هو الجهل، منتهى الجهل أن تتجه إلى جهةٍ لا تستطيع أن تفعل شيئاً فتعبدها من دون الله، ففي المثل الواقعي:

لو أن لك قضية عند شخصٍ مسؤولٍ في شركة أو في دائرة، وتوجهت إلى مستخدمٍ في هذه الدائرة، وجعلت ترجوه، وتتضعضع أمامه، وتثني عليه لعله يوافق لك على هذه القضية، فهذا جنون، من يفعل هذا فهو مجنون، يقول لك: هذه القضية ليست بيدي بل بيد فلان، فيجب أن تعرف أمرك بيد مَنْ، لأن مشكلة المشاكل هو الشرك، إذا وَحَّدتَ فقد سعدت، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، والتوحيد كفكرة سهل فهمها، سهل الحديث فيها، فما عليك إلا أن تعيش التوحيد، أن تعتقد اعتقاداً جازماً أنه:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ(2))

(سورة فاطر)

البطولة أن تعرف أن الله هو النافع وهو الضار وأن أمرك بيده وحده سبحانه:

أن تعتقد أن الله وحده هو النافع والضار، أن الله وحده بيده أمرك كلّه، أن تعتقد أن الله وحده بيده الخير والشر، ولا شيء بيد غيره، فهذه هي البطولة، فلذلك قال العلماء: نهاية العِلْمِ التوحيد.

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا (3))

(سورة الفرقان)

ربنا عزّ وجل قال:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ(21))

(سورة البقرة)

هذا الصنم أو أي إله مزعوم ليس بخالق، كيف تعبده من دون الله ؟ كيف تطيعه وتعصي الله ؟ كيف تعتقد أنه نافعٌ أو ضار ؟

(لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا (3))

(سورة الفرقان)

بل هو مخلوقٌ مثلك، ومعنى مخلوق أي مفتقرٌ في وجوده إلى الله عزّ وجل، هذا معنى مخلوق:

(اللّهُ لا إِلَهَ إلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ(255))

(سورة البقرة)

الحياة والقيام بالله عزّ وجل فالخالق وحده هو من يستحق العبادة:

حياة كل شيءٍ به، وقيام كل شيءٍ به، فالحياة والقيام بالله عزّ وجل، فهذا الذي تعبده مخلوقٌ مثلك، مفتقرٌ في وجوده إلى الله عزّ وجل، مفتقرٌ في قيامه إلى الله عزّ وجل، حركاته، سكناته، نبضات قلبه، وجيب رئتيه، حركة دماغه بيد الله عزّ وجل، في لحظةٍ واحدة يجعله الله جثة هامدة، في لحظةٍ واحدة يجعله الله مختل العقل، في لحظةٍ واحد يجعله الله مشلولاً، فكيف تعبده من دون الله.

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (3))

(سورة الفرقان)

فسحرة فرعون قالوا:

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا(72)إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى(73))

(سورة طه)

عرفوا أن الله عزّ وجل هو الإله الواحد الأحد، الفَرد الصمد، فهؤلاء الآلهة التي تُعْبَد من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخْلَقون، إذاً يجب أن تعبد الخالق، بل إن الخالق وحده يستحق العبادة.

(وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا (3))

(سورة الفرقان)

الذي يُعبد من دون الله مخلوق لا يملك أن يجلب النفع ولا أن يدفع الضُرّ:

هؤلاء الذين تعبدهم من دون الله هكذا يقول الله عزّ وجل، يُقرّعُ المشركين، يُقرّعُ الكافرين، هؤلاء الذين اتخذوا آلهة من دون الله يعبدونهم من دون الله:

(وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (3))

(سورة الفرقان)

ما معنى:

(وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا (3))

(سورة الفرقان)

أي لا يملكون دفع الضُرّ عنهم، ولا يملكون جلب النفع إليهم، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد بهذا التعبير أن يبيّن لنا: إذا كان هذا الذي تعبده من دون الله لا يملك أن يدفع الضر عن نفسه، ولا يملك أن يجلب النفع إليه، فلأن يكون عاجزاً عن دفع الضر عنك أو عن جلب النفع إليك فمن بابٍ أولى، إذا كان لا يستطيع أن يجلِبَ لنفسه النفع، ولا أن يدفع عن نفسه الضُر، أفيستطيع أن يملك النفع والضر لغيره ؟ إذاً هذا الذي يُعبد من دون الله مخلوقٌ لا يملك أن يجلب النفع ولا أن يدفع الضُرّ.

(وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3))

(سورة الفرقان)

الله عز وجل هو المحيي المميت:

الله هو المحيي المميت، إذا جاء الموت أو إذا سلب الله سبحانه وتعالى من هذا الجَسَدِ الروح، أصبح هذا الجسد جيفة، ويقولون دائماً إكرام الميت ترحيله، فقبل أيام كان هذا الإنسان مؤنساً، كان ملء السمع والبصر، كان يُشِيع في بيته الأنسَ والمودّة والمحبة، لمجرد أن توقف القلب أصبح جثةً هامدة، وأصبح وجوده موحشاً، وتمنّى أقرب الناس إليه لو يُعجّل بدفنه، إذاً ما الذي حصل ؟ ما هذا السر الذي جعله الله في الروح ؟ بالروح ترى، وتسمع، وتبصر، وتفكِّر، وتحاكم، وتعتقد، وترفض، وتتخيّل، وتتصور، وتذكر، وتمشي، وتقعد، وتتكلم، وتقنع، وقد تلقي طُرفة، أو تلقي فكرةً، تَهُشُّ وتَبُشُّ، وتغضب، وترضى، وتشعر بالسرور، وتشعر بالضيق، فإذا ذهبت الروح من هذا الجسد أصبح جثةً هامدة لا حراك بها، إذاً:

(وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3))

(سورة الفرقان)

هل تستطيع البشرية جَمْعَاء أن تصنع كأساً من الحليب من الحشيش ؟ هل تستطيع البشرية جمعاء أن تصنع بيضة ؟ هل تستطيع أن تَخْلُقَ ذبابة ؟ أن تخلق بعوضة ؟ هل تستطيع أن تخلق عيناً لمن فقد عينه؟

(لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا (3))

(سورة الفرقان)

الله عز وجل هو الخالق يخلق كل شيءٍ من لا شيء:

المعنى العكسي، يُسَمُّونَهُ المعنى المخالف في أصول الفقه، إذاً فالله سبحانه وتعالى هو الخالق يخلق كل شيءٍ من لا شيء، وهو الذي يملك أن يدفع عنك الضُر:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ(62))

(سورة النمل)

هو الذي يملك أن يدفع عنك المرض، وإذا مرضت فهو يشفيني، سيدنا إبراهيم قال لقومه:

(قالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ(75)أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الأَقْدَمُونَ(76)فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ(77)الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(79)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(80)وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ(81)وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ(82))

(سورة الشعراء)

الله وحده يستحق العبادة وهو من يستحق أن نفني عمرنا من أجله:

القضية مصيرية، اعرفْ مَن هو ربك حتى تجعل له كل جهدك، وله كل وقتك، وله كل طاقتك، وله كل تفكيرك، وله كل إمكاناتك، لأنه وحده يستحقُ العبادة، وهو وحده يستحقُ أن تفني كل عمرك من أجله، نعمْ هو وحده:

(هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ(56))

(سورة المدثر)

فالإنسان لا يليق به أن يقدّم إمكاناته لإنسان مثله، هذا الإنسان مخلوق ماذا يفعل معه ؟ ولكن يليق به أن يقدم كل حياته، وكل شبابه، وكل طاقاته لله خالقه ومربّيه، إذاً مِنْ المعنى المُخالف لهذه الآية أن الله سبحانه وتعالى يخلق كل شيءٍ مِنْ لا شيء، وبيده دفع الضُر عنك، وبيده جلب النفع إليك، ويملك

الموت والحياة والنشور، فلذلك لما يوضع الإنسان في قبره يقول الله عزّ وجل:

((عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت.))

إذاً هذا الذي مصيرك إليه، مآلك إليه، إيابُك إليه، هل تعاملتَ معه في الدنيا ؟ هل عرفته ؟ هل أطعته ؟ هل توخّيْتَ رضاه ؟ هل بحثت عما يرضيه ؟ هل اتبعت رضوانه ؟ هل اجتنبت ما يسخطه ؟ هل عرفت أمره فطبّقته ؟ هل عرفت نهيه فاجتنبته ؟ ماذا فعلت ؟

((قال أعرابي يا رسول الله: " جئتك لتعلمني من غرائب العلم "، فقال عليه الصلاة والسلام: " وماذا صنعت في أصل العلم ؟ " فقال هذا الأعرابي: "وما أصل العلم ؟ " قال: " هل عرفت الرب ؟ "، قال: " ما شاء الله "، قال: " فماذا صنعت في حقه ؟))

[تنبيه الغافلين عن عبد الله بن مسور الهاشمي]

الآيات القرآنية التي نقرأها لا ينبغي أن تمضي سريعاً بل علينا أن نفكر بها ملياً:

إذا كنت قد عرفت الله فماذا صنعتَ في حقه ؟ أي ماذا فعلت ؟ ماذا قدّمت ؟ ماذا منعتَ ؟ مَن وصلتَ ؟ مَن قطعتَ ؟ مَن أعطيتَ ؟ مَن منعتَ ؟ مَن عاديتَ ؟ مَن سالمتَ ؟ ما الموقف الذي وقفته انطلاقاً من هذه المعرفة ؟ إذا كنت قد عرفته فماذا فعلت في حقه ؟ قال: **" ما شاء الله "، قال: " هل عرفت الموت؟ "، قال: " ما شاء الله "، قال: " فماذا أعددت له ؟ ".**

فهو إذاً ما عرف الله عزّ وجل، ولا صنع في حقه شيئاً، ولا عرف الموت، ولا أعدّ له شيئاً، وجاء النبيَّ عليه الصلاة والسلام ليتعلّم منه من غرائب العلم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((اذهب فأحكِم ما هنالك ثم تعال لأعلمك من غرائب العلم))

[رواه ابن السني وأبو نعيم في كتاب الرياضة لهما، وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المسور مرسلا وهو ضعيف جدا]

هذا الوقت ثمين جداً، الإنسان كما قالت رابعة العدوية: **" الإنسان بضعة أيام كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه."**

فإلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول ؟

* * *

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في المقال بديـع

لـو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحـب لمن يحب يطيع

* * *

يقولون هناك كلمات الإنسانُ يسمعها أو يقرؤها ويتثاءب وينام، ولكن هناك كلمات يسمعها الإنسان أو يقرؤها فتبدأ عندها متاعبه، أيْ أنَّ هذه الكلمات تضعه أمام مسؤولياته، تضعه في حجمه الحقيقي، تُعرّفه بمهمته، تبيّن له لماذا هو هنا على وجه الأرض ؟ فهذه الآيات لا ينبغي أن تمضي سريعاً:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً (3))

(سورة الفرقان)

الشرك الخفي أن تعتمد على غير الله وترجوه وتحتمي به من كل شر:

أحياناً الإنسان إذا كان له قريب يشغل مركزاً مرموق، ثم هو يعتمد عليه، ويتمنّى رضاه، ويرجو منه الخير، ويحتمي به من كل شر، هذا نوعٌ من الشرك الخفي، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أخوف ما أخاف على أمتي الشرك الخفي))

[سنن ابن ماجة عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

الشرك الخفي أن تعتمد على غير الله، أن ترجو غير الله، أن تُرضي غير الله وأن تسعى لغير الله:

((أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلا قَمَرًا وَلا وَثَنًا وَلَكِنْ أَعْمَالا لِغَيْرِ اللَّهِ وَشَهْوَةً خَفِيَّةً))

[سنن ابن ماجة عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

لذلك أبرز ما في الدين التوحيد، ولا إله إلا الله كلمةُ التوحيد:

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل: وما حقها ؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

[الترغيب والترهيب عن زيد بن أرقم]

لو قلتها بحقها، فلا موجود بحقٍ إلا الله، لا معبودٍ بحق إلا الله، لا مسيّر بحقٍ إلا الله، قطعت كل علائق الخلق واتجهت إلى الخالق لأنه بيده الأمر كله.

سخف الكفار والوهم الذي تعلقوا به:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

كأن الله سبحانه وتعالى في هذه الآية يبيّن لنا سخف هؤلاء الكفار، ضيق أفقهم، جهلهم الفاضح، غرورهم، الوهم الذي تعلّقوا به:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا(3))

(سورة الفرقان)

إذاً اعْبد الله الذي يخلُق، والذي يملك أن يدفع عنك الضر، والذي يملك أن يجلب لك النفع، والذي يُحيي ويميت، ويبعثك من بعد الموت، هذا الذي عليك أن تعبده، وهذا الذي عليك أن تسعى لمعرفته.

أعظم وأجَلُّ عمل في الدنيا أن تبحث عن دليلٍ قطعي على أن هذا القرآن كلام الله:

مع ذلك:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا (4))

(سورة الفرقان)

أي القرآن:

(إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ (4))

(سورة الفرقان)

أيْ أنّ هذا القرآن من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك قالوا هو ذكيٌ وعبقري، وقد وضع هذا الكتاب ليجمع الناس حوله، والشيء المناسب ألاّ تقبل فكرةً إلا بالدليل، هذه فِرْيَة، هذا تخريف، ولكن السؤال الآن موجّه إلينا: هل آمنا بهذا الكتاب إيماناً قطعياً ؟ لأن هذا الإيمان الذي يعتريه الشك، والوهم، والإيمان غير المبني على التحقيق الذاتي، وغير المبني على دليل قطعي، هذا الإيمان لا يصمد أمام الشبهات، ولا أمام الضلالات، فلو أن أحداً قال لك: هل تملك دليلاً على أن هذا القرآن هو كتاب الله تعالى ؟ هذا سؤال، افرضْ نفسك أمام إنسان مُنْكِر، أمام إنسان لا يعرف الله عزّ وجل، ذكرتَ له آيةً فتحَدّاك وقال لك: وما الدليل على أن هذا القرآن كلام الله ؟

هذا سؤال، واللهِ الذي لا إله إلا هو ما من عملٍ أعظم ولا أجَلُّ من أن تبحث عن دليلٍ قطعي على أن هذا القرآن كلام الله، لأنك إذا عرفتَ أنّه كلام الله بالدليل القطعي عندئذٍ تنظر إلى آياته نظرةً أخرى، فالأمر يجب أن يُطاع، والنهي يجب أن يُترك، تحس أن هذا كلام الخالق، ولهذه الآيات مصداقيةٌ مئة في المئة، ولكن هذا الذي سمع أن الناس يقولون: هذا كلام الله فقال مثلهم، التقليد في العقيدة غير مقبول، سمع خطيب المسجد يقول: هذا القرآن كلام الله فقال مثله، هذا مرفوض، فهذا السؤال خطير:

هل تملك دليلاً على أن هذا الكلام الذي بين يديك كلام الله ؟ هل تستطيع أن تثبت للكفار ولأهل الفجور أن هذا الكلام كلام الله ؟ أما هذا الاعتقاد بأن هذا القرآن كلام الله من دون دليل، هذا الاعتقاد لا يصمُد أمام الإغراءات، ولا أمام الضغوط، ولا أمام الضلالات، ولا أمام ما يقوله الكفار، فقد سمعتم كيف أن بعض مَن ارتدوا عن دينهم أساؤوا لهذا الدين من خلال قصة خيالية قد أثارت العالم كله، فأنت ما موقفك ؟ هل هذا كلام الله ؟

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آَخَرُونَ (4))

(سورة الفرقان)

الإيمان بالقرآن يجب أن يكون تحقيقياً وتصديقياً وهذا موقف أهل الإيمان:

لو أن أحداً قال لك: هذا القرآن من تأليف محمد، وكان هذا الإنسان عبقرياً ذكياً جداً، استطاع بذكاءٍ بارع أن يؤلِّف هذا الكتاب وأن يجمع الناس حوله، وهو ليس من عند الله، بماذا تجيبه ؟ هذه وظيفة إذا كان الأمر يهمُّك جداً، لأنه أمر مصيري، أنت تبني كل حياتك على هذا الكتاب، فهل هو من عند الله حقاً ؟ ما الدليل ؟ أمّا لو عرفت أنه من عند الله حقاً تصبح إنساناً آخر، إذا قال لك القرآن:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ(30))

(سورة النور)

عندئذٍ لأن تُقطّع إرْباً إرْباً أهون عليك من أن تعصي الله، لأن هذا كلام الله، إذا قال الله عزّ وجل:

(وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنْ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ(278))

(سورة البقرة)

لا يمكن أن تأكل الربا ولا أن توكِلَهُ أحداً ولو قطّعوك إرْباً إرْباً، فالله يأمرك، أما إذا كان الإيمان بالقرآن غيرَ تحقيقي، ولا هو إيمان تصديقي، بل يا أخي هكذا الناس يقولون، هذا الموقف ليس موقف أهل الإيمان:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا(15))

(سورة الحجرات)

وقال:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا (4))

(سورة الفرقان)

الكفار ظلموا أنفسهم بادعاء أن هذا القرآن كلام البشر فشقوا في الدنيا والآخرة:

أنا أحثُّكم على أن تبحثوا عن الدليل القطعي على أن هذا القرآن كلام الله، لا يكفي هذا الشعور، يجب أن يرافق الشعور تحقيقٌ دقيقٌ بأن القرآن الكريم كلام الله عزّ وجل:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آَخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا(4))

(سورة الفرقان)

أيْ أنّهم ظلموا أنفسهم بهذا الإدِّعاء حينما قالوا: إنما هذا القرآن من كلام البشر، أعرَضوا عنه، ولم يأتمروا بأمره، ولم ينتهوا عما نهى عنه، فَشَقُوا في الدنيا، فظلموا أنفسهم، فلما جاء الموت وقامت

القيامة وجدوا أنفسهم في عذابٍ أبدي، إذاً هو نتيجة إعراضِهم عن كتاب الله، وتكذيبهم به، وادعائهم بأنه من صنع محمد عليه الصلاة والسلام، كان هذا الافتراء من أشد أنواع الظلم لأنفسهم، الإنسان خلق ليسعد إلى الأبد في جنةٍ أعدّها الفَرْد الصمد، فلما أعرض عن كلامه، ولم يعبأ به، واتخذه سخرياً، وجعله وراء ظهره، عندئذٍ شقي في الدنيا وشقي في الآخرة.

الإنسان لا يسعد إلا إذا عرف الحقيقة وعرف لكل شيءٍ حجمه:

حينما قال هؤلاء الكفار:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آَخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا(4))

(سورة الفرقان)

ظلموا أنفسهم..

(وَزُورًا (4))

(سورة الفرقان)

تكلموا غير الحقيقة، تكلموا كلاماً مُزَيَّفَاً، تكلموا بشيءٍ لا أصل له، ولا دليل عليه، تكلموا بشيءٍ ليس له أساس، وقفوا على أرضٍ رخوةٍ ليست صُلبة، فالإنسان متى يسعد ؟ إذا عرف الحقيقة، عرف لكل شيءٍ حجمه بالضبط.

(وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (5))

(سورة الفرقان)

أيْ أنّهم قالوا: هناك مَن أملى عليه هذه الأساطير، وهذه قصص قديمة كلُّها جاء بها من كُتُب أخرى، وأُمْلِيتْ عليه، فحفظها بكرةً وأصيلاً، وتلاها على الناس، فكانت ما يسمى بالقرآن، هذه دعوى الكفار، وملة الكفر واحدة، وفي كل زمانٍ ومكان ادّعاءات الكفار متشابهة، والله سبحانه وتعالى يردّ عليهم:

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6))

(سورة الفرقان)

أيْ أنّ هذا القرآن ليس مِن عند محمد وليس مُفترى، وليس أساطير الأولين، قل أنزله خالق الكون.

(الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ (6))

(سورة الفرقان)

بلاغة القرآن في الإيجاز:

لم يقل الله عزّ وجل: الذي يعلم السر والجَهر، لأن الذي يعلم السر من باب أولى أنه يعلم الجهر، والقرآن بلاغته في إيجازه.

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6))

(سورة الفرقان)

أنزله الذي يعلم السر أي أنك مكشوف أمام الله عزّ وجل، النوايا، الطموحات، الصراعات، ما تنوي أن تفعله بعد هذا العَقد، ما تنوي أن تفعله مع هذه المرأة بعد خمس سنوات، وبعد أن تنتهي دراستك في هذا البلد، نويت أن تطلِّقها بعد انتهاء الدراسة، هذا سرٌ تَكلمتَ به أنت، ولكن الله يعلمُهُ، عقدت عقد شراكةٍ مع إنسان، ونويتَ أن تجعله بعد فترةٍ خارج الشركة لأنك أقوى منه من حيث المال، وهذا المحل باسمك، هذا السر الذي أخفيته عن شريكك، وهذا السر الذي أخفيته عن زوجتك، كل ذلك يعلمه الله عزّ وجل، لذلك التعامل مع الله يحتاج إلى وضوح، تستطيع أن تخدع الناس كلهم لبعض الوقت، وتستطيع أن تخدع إنساناً لطول الوقت، أما أن تخدع نفسك، أما أن تخدع ربك فهذا من المستحيل:

(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ(9))

(سورة البقرة)

وقال:

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ (6))

(سورة الفرقان)

الكون كله أسرار فمن عرف الله عرف كل شيء:

الكون كله أسرار، قال بعض العلماء عن مدى ما حصّلوه من العلم: ما ابتلّتْ بعدُ أقدامنا ببحر المعرفة يعني مازالوا على الشاطئ، أسرار الكون، أسرار الخلية، أسرار المادة، أسرار الذرة، سر الحياة، سر النبات، ملايينُ الأسرار لا يعلمها إلا الله.

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (6))

(سورة الفرقان)

سر هذه النفس الإنسانية ما الذي يسعدها ؟ ما الذي يرضيها ؟ ما الذي يطمئِنُها ؟ ما الذي يجعلها متوازنة ؟ ما الذي يجعلها تنطلق إلى العمل ؟ هو الله عزّ وجل، فإذا عرفت الله فقد عرفت كل شيء.

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6))

(سورة الفرقان)

قال الله عزّ وجل:

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(14))

(سورة فاطر)

هو الخبير بهذه النفس، فإذا أمرك بأمرٍ فهو الخبير، وإذا نهاك عن شيءٍ فهو الخبير، وإذا وضع لك قانوناً فهو الخبير، لأنك إذا اشتريت آلةً لا تستطيع أن تطبّق التعليمات إلا بمساعدة الجهة الصانعة فقط، لأن الجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة المخوّلة أن تصدر تعليمات التشغيل والصيانة، ولو اتبعت جهةً أخرى لأفسدت الآلة ولعطّلتها، وأنت أعقد آلةٍ في الكون، إذا اتبعت الجهة الصانعة فقد سَعِدْتَ وأسعدت، أما إذا اتبعت جهاتٍ أخرى لا تقدِّم ولا تؤخِّر عندئذٍ ضللتَ وأضللت.

يجب أن نؤمن بالقرآن الكريم إيماناً تحقيقياً لنستطيع الدفاع عنه:

قال تعالى:

(قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (6))

(سورة الفرقان)

بمناسبة الحديث على أن القرآن الكريم كلام الله، وهذا يحتاج إلى دليل، فحبذا لو فكّر كل واحدٍ منكم في هذا الأسبوع ماذا يملك من أدلةٍ على أن هذا الكلام كلام الله ؟ السؤال دقيق، وعمل مهم جداً، قد تفاجأ إذا علمت أنّك لا تملك الدليل، وأن أحداً لو قال لك: هذا القرآن ليس كلام الله، إنه من عند محمد عليه الصلاة والسلام، أجِبْه، تَفضلَ وأجِبه، فحينما تؤمن بهذا الكتاب إيماناً تحقيقياً، وحينما يؤمن عقلك، وفكرك، ونفسك، ودمُك، ولحمك، بأن هذا الكلام كلام الله، تصبح إنساناً آخر، لذلك قال سيدنا عمر لابنه، أو قال النبي عليه الصلاة والسلام لسيدنا ابن عمر:

((ابن عمر دِينك دينك إنه لحمك ودمك خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

والنبي عليه الصلاة والسلام حينما دعا إلى الله عزّ وجل ظنوا أن له أهدافاً أخرى من هذه الدعوة، فطلبوا منه أن يجعلوه عليهم أميراً فرفض، طلبوا منه أن يزوّجوه أجمل فتياتهم فرفض، طلبوا منه أن يعطوه أموالاً طائلة فرفض، قال:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

[السيرة النبوية]

عندئذٍ قالوا: " يا محمد إنك تأكل، ولو كنت رسولاً لما أكلت، هذا الأكل من صفات البشر، ولابدّ من أن يكون الرسول ملاكاً في زعمهم ".

لا يمكن أن يكون النبي إلا من بني البشر لأنه قدوة ومثلٌ أعلى:

قال تعالى:

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ (7))

(سورة الفرقان)

يأكل، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ فَأَيُّمَا رَجُلٍ آذَيْتُهُ أَوْ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْهَا لَهُ زَكَاةً وَصَلَاةً))

[مسند أحمد عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

وقال أيضاً: وأنسى كما ينسى البشر.

قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ(110))

(سورة الكهف)

لو أنه كان ملكاً لقال الناس جميعاً: يا أخي هذا مَلَك، لو أمرهم: غضوا أبصاركم عن النساء، فيجيبوه: أنت مَلَك ونحن بشر، هذا الشيء فوق طاقتنا، لا يمكن أن يكون النبي إلا من بني البشر، لأنه قدوة ومثلٌ أعلى، قدوة حسنة، أسوة حسنة، قدوة صالحة، فلذلك لو أن الله عزّ وجل جعل النبي الكريم مَلَكاً لقال الناس جميعاً: هذا الشرع لا نستطيع أن نطبّقهُ لأن هذا الذي يدعونا مَلَك لا يحس بإحساسنا، ولا يشعر بمشاعرنا، وليس عنده الشهوات التي أودعها الله فينا، إنّه ملك، لكن لا:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ(110))

(سورة الكهف)

لهذه الآية التالية معنيين:

فهو من بني البشر، أودع الله فيه كل الشهوات، جعله يجوع، جعله يتعب، جعله يعطش، جعله يشعر بحاجة للنوم، ومع ذلك جاهد في سبيل الله حق الجهاد.

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (7))

(سورة الفرقان)

1 ـ المعنى الأول أن هذا النبي ما دام بين الناس في أسواقهم إذاً هو ليس نبياً:

طبعاً يأكل الطعام لأنهم ظنوا أن الرسول يجب أن يكون مَلَكاً، فبمجرد أنه أكل الطعام إذاً ليس رسولاً، أما يمشي في الأسواق، هم يعرفون الأكاسرة والقياصرة، جَبارة أهل الشرق والغرب كانوا قابعين في

بيوتهم، لا ينزلون إلى أسواق الناس، فهذا النبي ما دام بين الناس في أسواقهم إذاً هو ليس نبياً، هذا معنى.

2 ـ المعنى الثاني أنه مفتقر إلى الطعام والشراب وإلى كسب ثمنهما فكيف يكون نبياً:

المعنى الثاني: أن الإنسان مفتقرٌ إلى الطعام والشراب، ومفتقرٌ إلى كسب الطعام والشراب، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، أنت مفتقرٌ إلى شيئين، مفتقرٌ إلى الطعام والشراب، ومفتقرٌ إلى كسب ثمن الطعام والشراب، فأنت مضطرٌ إلى أن تدخل إلى السوق لتبيع وتشتري، لتبيع ما عندك وتشتري طعامك وشرابك، فالمشي في الأسواق من صفات البشر، والنبي عليه الصلاة والسلام إذا مشى في الأسواق، إضافةً إلى أنه بشر، يمشي في السوق ليؤمّن حاجاته، هو يعيش مع الناس في الأسواق يرى أحوالهم، يرى مشكلاتهم، كيف يهديهم إذا كان بعيداً عنهم ؟ كيف يعرف قضاياهم إذا كان في برجه العاجي ؟ كيف يستطيع أن يحل مشكلاتهم إذا كان هو في وادٍ وهم في واد ؟ إذاً ؛ أنْ يكون الرسول مع الناس في أسواقهم فهذا من صفات الأنبياء طبعاً، وفي آياتٍ أخرى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ (20))

(سورة الفرقان)

أكل الطعام والمشي في الأسواق من صفات الأنبياء جميعاً لأسبابٍ كثيرة:

ليس هذا من صفات النبي الكريم وحده، بل إن أكل الطعام والمشي في الأسواق من صفات الأنبياء جميعاً لأسبابٍ كثيرة، أولاً لأنهم بشر مفتقرون إلى تناول الطعام، وجودهم ليس ذاتياً، وثانياً مفتقرون إلى كسب ثمن الطعام والشراب، وثالثاً هم مع البشر، مع أحوالهم، مع مشكلاتهم، مع قضاياهم، كيف توجّه الإنسان إن لم تعش قضيّته، إن لم تعش بيئته، إن لم تعش مشكلته، وشيءٌ آخر هم مع البشر في أسواقهم ليعظوهم، ليوجّهوهم إلى الله عزّ وجل، فأنت أيها المؤمن إذا كنت في السوق لك مهمة، أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر وأن تُذكِّرَ الناس بالله عزّ وجل، لك دكان في سوق، أنت هنا من أجل أن تبيع وتشتري، وفضلاً عن ذلك من أجل أن تعين أخاك، من أجل أن ترشده، من أجل أن تأمر بالمعروف، من أجل أن تنهى عن المنكر.

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا(8))

(سورة الفرقان)

النبي الكريم يجب أن يكون قدوة لنا بما تعرض له من نقد واتهامات وأكاذيب:

إذا قيل عن النبي إنّه مسحور، إذا قيل عن النبي إنّه مجنون، فهل هو كذلك ؟ هذا درسٌ بليغٌ لنا، حتى النبيُّ الكريم سيّد الخلق وحبيب الحق، حتى النبي الكريم ذلك الإنسان الكامل ما سَلِمَ من النقد:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ(112))

(سورة الأنعام)

فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام اتُّهم بأنه مجنون، واتُّهم بأنه ساحر، واتهم بأنه مسحور، واتهم بأنه كاهن، واتهم بأنه يأتي بالأساطير تُملى عليه، فإذا انتقدك أحدٌ، فمن أنت ؟ لا شيء، من عرف نفسه فلا تضرّهُ مقالة الناس به، إذا كنت تعرف الهدف والطريق إليه، فامضِ إليه ولا تَلْوِ على شيء، هذا درس لنا، الإنسان لا يخلو من إنسان حسود، من عدو، من مفترٍ، من مضلل، من رجل يحب أن يوقِعَ بين الناس العداوة والبغضاء، من إنسان ملأ قلبه الحسد فتكلّم كلاماً من غير تدقيق، ألقى كلاماً على عواهنه، إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق وحبيب الحق وقال عنه هؤلاء هكذا فمن نحن ؟ اللهم صلِّ عليه كان قدوةً حسنة، تحمّل أذى قومه، وتحمّل تكذيبهم، وتحمل اتهامهم لهم بالسحر وبالجنون وبالشعر وبالكهانة، ومع ذلك بقي ثابت القلب، رابط الجأش، واضح الهدف، سائراً نحو هدفه بكل ثقةٍ وثبات.

يجب علينا أن نبني إيماننا على أسسٍ صحيحة و بحثٍ دقيق وأدلة قطعية:

أتمنى عليكم مرةً ثانية أن تفكروا في هذا الأسبوع في دليلٍ قطعي على أن هذا القرآن كلام الله، هناك أدلة كثيرة، هناك أدلة من حيث البيان، من حيث اللغة، هناك إعجاز تشريعي، هناك إعجاز علمي، هناك إعجاز تاريخي إخباري، هناك إعجاز غيبي، هناك إعجاز رياضي، هناك إعجاز عددي، هناك إعجاز تربوي، فكل إنسان بحسب معلوماته، بحسب إمكاناته، ليبحثْ عن دليل لهذا الكتاب، وربما كان موضوع الدرس القادم إن شاء الله تعالى بعض الأدلّة التي يمكن أن تكون قطعيةً على أن هذا القرآن كلام الله، لأن هذا الكلام الذي قاله الكفار كلامٌ باطل، فما البديل إذا كان الكفار يقولون:

(إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ (4))

(سورة الفرقان)

ما هو الدليل على أن القرآن كلام الله ؟ هذه هي المهمة التي على كلٍ منا أن يبحث فيها طيلة هذا الأسبوع.

ولأن رمضان شهر القرآن، فإذا كانت عندك آلة غالية جداً ومعها نشرة تتضمّن تعليمات وتنبيهات، أوامر وتحذيرات، كيف أنك حريصٌ حرصاً بالغاً على اقتناء هذه النشرة وعلى ترجمتها، وعلى فهمها، وعلى تطبيقها، فحرصك على فهم كلام الله يجب أن ينبع من حرصك على سلامتك، ومن حرصك على سعادتك، إذاً يجب أن تبني إيمانك على أسسٍ صحيحة، على بحثٍ دقيق، على دليلٍ قطعي، وعندئذٍ حينما تقرأ آيةً فيها أمر تبادر إلى التطبيق، حينما تقرأ آيةً فيها نهيٌ تبادر إلى التَرك، حينما تقرأ آية فيها بشارة تطمئن، حينما تقرأ آيةً فيها تحذير تقلق.

مهمةٌ كبرى أن تعرف أن هذا القرآن كلام الله:

أنت إذا قرأت كلام الله وخفت مع آية التحذير، واطمأننت مع آية البشارة، وابتعدت عن كل شيءٍ نهى الله عنه، وبادرت إلى كل شيءٍ أمر الله به، عندئذٍ تكون على يقينٍ من أن هذا القرآن كلام الله ؛ أما إذا لم تعبأ بأمره ونهيه، ولا بوعده ووعيده، ولا بما ينتظر المؤمن من جنةٍ، ولا بما ينتظر الكافر من نار، ولم تعبأ بأخباره عندئذٍ لا يرقى إيمانك بهذا الكتاب إلى المستوى المطلوب، فهذه مهمةٌ كبرى أن تعرف أن هذا القرآن كلام الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (13-05): تفسير الآيات 9 - 16
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 14-04-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الفرقان.

الله سبحانه وتعالى هو الخالق الذي يَخلُق ولا يُخلَق والذي بيده ملكوت كل شيء:

ربنا سبحانه وتعالى في هذه السورة بيّن عدداً من أركان الإيمان، وأركان الإيمان كما تعلمون: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وأنبيائه، والقدر خيره وشرّه من الله تعالى، فالآيات التي ذَكَرَتْ عن الآلهة التي اتُخِذَت مِن دون الله في تفصيلٍ أوصافَ هذه الآلهة فإنّه سبحانه بيّن في ثناياها ماذا تعني كلمة الربوبيّة والألوهيّة والخالق، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا(3))

سورة الفرقان)

إذاً مَنْ هو الله العظيم ؟ هو الخالق الذي يَخْلُق ولا يُخْلَق، وهو الربُّ المتصرّف الذي وكّل الخلق له مُلكاً وتصرُّفاً ومصيراً.

وشيء آخر: هو الإله الذي بيده ملكوت كل شيء:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا (3))

(سورة الفرقان)

لا مجالٌ للموازنة والمقارنة بين الخالق والمخلوق:

لا ينبغي أن تعبد غير الخالق، والدليل آية سورة البقرة:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(21))

(سورة البقرة)

فالخالق هو الذي يُعبَد، وهو الذي يستحقُّ وحده أن يُعْبَد، والربُّ هو المُمدّ لكل حاجات الإنسان، والمسيّر وهو المتصرّف، فربنا سبحانه وتعالى من خلال كلمة:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً (3))

(سورة الفرقان)

كلمة من دونه أي شتّان بين أن تعبد الخالق وبين أن تعبد المخلوق، شتّان بين أن تعبد مَن يسمعك وبين أن تعبد مَن لا يسمعك، شتّان بين أن تعبد من يستجيب لك وبين مَن لا يستجيب لك، فليس هناك مجالٌ للموازنة والمقارنة بين الخالق والمخلوق، فهذا الذي اتخذ عبداً مِن دون الله يعبده ويَتَّكِلُ عليه، ويحرص على رضاه، ويسعى إليه، هذا هو الذي ضلّ ضلالاً بعيداً.

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا(3))

(سورة الفرقان)

الترابط والتلازم بين الدين والعقل:

هذه الآلهة إذا كانت لا تملك لأنفسها دفع الضرّ عنها، ولا جلب النفع إليها، فهي من باب أوْلى أنها لن تستطيع أن تقدِّم للآخرين شيئاً، كما قيل:

((أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً))

[ورد في الأثر]

وقال أيضاً:

((يا ابن آدم أطع ربك تسمى عاقلاً، ولا تعص ربك فتسمى جاهلاً))

[داود بن المحبر عن أبي هريرة]

وقال:

((قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له))

[داود عن جابر بن عبد الله]

هناك ترابط وتلازم بين الدين والعقل، إنما الدين هو العقل، سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاءه سيدنا خالد مسلماً قال له: عجبت لك يا خالد أرى لك فكرًا.

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً (3))

(سورة الفرقان)

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إنّ أخْوَفَ مَا أتَخَوّفُ عَلَى أمّتِي الإشْرَاكُ باللّهِ أمَا إنّي لَسْتُ أقُولُ يَعْبُدُونَ شَمْسًا ولا قَمرًا ولا وَثَنًا ولَكِنْ أعْمَالا لِغَيْرِ اللّهِ وَشَهْوَةً خَفِيّة))

[سنن ابن ماجة عن شداد بن أوس]

الدين هو التوحيد و" لا إله إلا الله " هي كلمة التوحيد:

لو سألتني أن أضغط لك الدين كله في كلمة أقول لك: هو التوحيد، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، لو تصفّحت هذا القرآن كلّه من الدقّةِ إلى الدقّة، من الفاتحة إلى سورة الناس، ما رأيت قصّةً ولا آية إلا لتؤكِّد في النهاية أنه لا إله إلا الله، لذلك كلمة: " لا إله إلا الله " هي كلمة التوحيد، بهذه الكلمة تنجو، لا إله إلا الله حصني من دخلها أمن من عذابي.

((لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ لا يَسْبِقُهَا عَمَلٌ وَلا تَتْرُكُ ذَنْبًا))

[سنن ابن ماجة عن أم هانئ]

فالإسلام فيه معلومات كثيرة جداً، هذه المعلومات لو تتبعّتها وقرأتها بالكتاب، أو استمعت لها في مجلس علم أو من خلال خطبة، ينمو عندك ما يسمّى بالثقافة الإسلاميّة، ولكن الثقافة الإسلاميّة شيء، وأن تكون مهتدياً إلى الله شيءٌ آخر، أن تعرف الله شيء وأن تتصل به شيءٌ آخر، يجب أن يكون لك طريق إلى الله عزّ وجل:

(وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا(3))

(سورة الفرقان)

أيُّها الإنسان إلى أين المصير ؟ حينما يُوضَع المرء في قبره مَن ينفعه ؟ أتنفعه زوجته التي عصى ربه من أجلها ؟ حينما يُوضع تحت أطباق الثرى أينفعه ماله وقد خلّفه وراءَه ؟ حين يوضع تحت أطباق الثرى أينفعه ابنه ؟ وقد يقول ابنه يوم القيامة: يا رب لا أدخل النار حتى أُدْخِلَ أبي قبلي، فالقضيّة قضيّة مصيرية وقضية خطيرة، فأنا ألاحظ أن الإنسان ما لم يتعمّق في التوحيد فدينه ثقافة، ما دام يرجو غير الله، ويخشى غير الله، ويأمن لغير الله، ويعقد رجاءه على غير الله، ويطيع مخلوقاً ويعصي خالقاً، هذا إنسان بعيدٌ بعد المشرقين عن أن يكون مؤمناً إيماناً راقياً.

ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقع في القلب وصدّقه العمل:

شيءٌ آخر: إذاً ما الإيمان بالله ؟ كلمة الإيمان بالله سهل النطق بها وأنت تقول: أنا مؤمن، في غاية السهولة ولكن الإيمان له شروط:

الإيمان عفيفٌ عن المطامع، عفيفٌ عن المحارم، الإيمان إقرارٌ في القلب، ما أقرً به القلب وصدّقه العمل، هذا الإيمان، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقع في القلب وصدّقه العمل.

فالذي أتمنّى على الله عزّ وجل ألا يضيّع الإنسان وقته بشكل غير مُجْدٍ، فإما أنه مؤمن حقّاً وإما أنه يبحث عن أن يكون مؤمناً حقّاً والآن:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (4))

(سورة الفرقان)

فربنا سبحانه وتعالى في الآيتين الثانية والثالثة تحدّث عن الإيمان بالله، وهاهو في الآية الرابعة يتحدّث عن الإيمان بالكتاب.

الإنسان يقرأ القرآن، ما من مسلمٍ إلا ويقرأ القرآن في رمضان بشكل مكثّف، ولكن يا ترى هل يقرأ القرآن وهو يعلم علم اليقين أنّ هذا كلام الله ؟ فإذا علم أن هذا كلام الله فهل يعلم علم اليقين ما وراء أن يعصي هذا الكلام ؟ أو أن يقصّر فيه ؟ في تطبيق ما أمر أو في ترك ما نهى عنه وزجر ؟ وإن شاء الله تعالى في دروسٍ أخرى سوف نتحدّث عن البراهين التي تؤيّد بشكلٍ قطعي أن هذا الكلام كلام الله عزّ وجل.

بشريّة النبي محمد صلى الله عليه وسلّم حجبت الكفار عن حقيقته:

الآن الآيات تطرّقت إلى موضوعٍ ثالث وهو الإيمان بالرسول:

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (7))

(سورة الفرقان)

كأنّهم غفلوا عن حقيقته ونظروا إلى بشريّته، رأوه بشراً مثلهم ؛ يأكلون ويأكل، يشربون ويشرب، يغضبون ويغضب، ينسون وينسى، فبشريّته صلى الله عليه وسلّم حجبتهم عن حقيقته، رأوه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، وعهدهم بملوك الفُرس والروم أنهم لا يمشون في الأسواق، هذا يمشي بين الناس متواضعاً، يمشي مع المسكين، ومع الأرملة، ومع الضعيف.

عدي بن حاتم حينما جاء المدينة دخل على النبي عليه الصلاة والسلام، فقال النبي: " مَن الرجل ؟ "، فقال: " عدي بن حاتم "، فالنبي رحّب به، فلمّا علم أنه عدي وكان ابن ملكٍ من ملوك نجد أخذه إلى البيت، قال عدي: " في الطريق استوقفته امرأةٌ، فوقف معها طويلاً يكلِّمها في حاجتها، فقلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك ". ففرقٌ كبير بين الملك وبين النبي.

عندما دخل سيدنا عمر على النبي عليه الصلاة والسلام ورآه قد أثَّر الحصير على خدِّهِ الشريف بكى، فقال النبي: " يا عمر ما يبكيك ؟ " قال: " رسول الله ينام على الحصير وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير ؟! " قال: " يا عمر إنما هي نبوّةٌ وليست مُلكاً "، أنا لست مَلِكاً، أنا نبي.

فهم حينما رأوه بشراً مثلهم يأكل ويأكلون، يشرب ويشربون، وينام وينامون، ويتعب ويتعبون، ويغضب ويغضبون، قالوا:

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (7))

(سورة الفرقان)

الرسول الكريم ليس ملكاً و إنما بشر كباقي البشر:

بينما هم من قبل هذا عرضوا عليه أن يكون أميراً عليهم فرفض، عرضوا عليه أن يكون أغناهم فرفض، عرضوا عليه أن يزوّجوه أجمل فتياتهم فرفض، ساوموه شرْطَ أن يدع هذه الدعوة، وعندئذٍ قال النبي عليه الصلاة والسلام قولته الشهيرة:

((والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته))

[السيرة النبوية]

فلمّا يئسوا من أن يصرفوه عن هذه الدعوة بحثوا عن مطعنٍ في شخصه، رأوه بشراً يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق، عندئذٍ ردّ الله عليهم:

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (7))

(سورة الفرقان)

هم تصوّروا أن يكون الرسول مَلَك، وإذا كان ملكاً فالقضيّة مشكلةٌ كبيرة، عندئذٍ لن يستطيع أن يأمرهم بشيء، كلّما أمرهم بشيء قالوا: أنت مَلَك، أنت لست مِن جنسنا، ولست من طبيعتنا، ولا تُحِسُّ بما نُحِسْ، ولا تشعر بما نشعر، فأحياناً إنسان ميسور الحال يدعو فقيراً إلى الصبر، هذه الدعوة غير مقبولة من الغني، يقول لك: أنت لا تُحِسُّ بالجوع لأنه لا يستطيع أن ينصح الآخرين إلا من يعيش معهم، من يحيا مشكلتهم، من يمارس مأساتهم، أما لو كان مَلَكاً فليس فيه شهوة وليس فيه نوازع داخليّة أرضيّة لقالوا: أنت مَلَك، والخُلاصة أنّهم تصوّروا أن يكون النبيُّ مَلَكاً:

(لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ (7))

(سورة الفرقان)

ثم اقترحوا لو كان معه مَلَك:

(لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا (7))

(سورة الفرقان)

بطولة الإنسان في أخلاقه و علمه و قلبه الكبير:

اقترحوا أن يكون مع النبي الكريم مَلَك ينذر الناس، واقترحوا أيضاً:

(أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ (8))

(سورة الفرقان)

كأنهم تعوّدوا أن المَلِك لا يكون مَلِكاً إلا إذا كان في بذخٍ وترفٍ، وبيتٍ فخمٍ، وطعامٍ نفيسٍ، ولباسٍ مزخرفٍ مزيّن، هذا الذي جعله ملِكاً، أما أن تكون البطولة في أخلاقه، في علمه، في رحمته، في قلبه الكبير فما ألِفوا إنساناً يستحقُّ أن يكون نبياً إلا أن يكون كالملوك، مع أن البطولة يجب أن تكون في الأخلاق، وأن تكون في العلم، وأن تكون في القلب الكبير:

(أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ (8))

(سورة الفرقان)

ليس معه كَنز، وليس له بستان واسع عريض فيه أشجار وارفة، وفيه غدران، وفيه أزهار، يقضي فيها معظم وقته، كأنّهم يتمنّون أن يكون النبي كالملوك الذين يغرقون في النعيم، ويغرقون في البذخ والترف:

(وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (8))

(سورة الفرقان)

لحكمةٍ بالغة جعل الله سبحانه وتعالى النبي عليه الصلاة والسلام فقيراً:

غفلوا عن حقيقته صلّى الله عليه وسلّم، غفلوا عن قلبه الكبير، غفلوا عن علمه العظيم، غفلوا عن رحمته، غفلوا عن حكمته، غفلوا عن تواضعه، غفلوا عن شجاعته، غفلوا عن كَرَمِهِ، غفلوا عن أمانته، غفلوا عن صدقه، كل هذه الصفات غفلوا عنها، رأوه إنساناً فقيراً مثلهم، ولحكمةٍ بالغة فقد جعل الله سبحانه وتعالى النبي عليه الصلاة والسلام فقيراً:

قال له جبريل: **" يا محمّد أتحبُّ أن تكون نبيّاً ملِكاً أم نبياً عبداً ؟ "**، قال:

((بل نبيّاً عبداً أجوع يوماً فأذكره وأشبع يوماً فأشكره))

[ورد في الأثر]

والنبي عليه الصلاة والسلام دعا لأحبابه بالكفاف فقال:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

[خرجه مسلم من حديث أبي هريرة، وهو متفق عليه بلفظ "قوتا"]

من أدرك الإسلام والصحّة ما فاته شيء، إن الإنسان إذا كان إيمانُه سليماً وصحّته طيّبةً فقد نال المجد من طرفيه، خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها همّاً، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[سنن ابن ماجة عن عبد الله بن محصن عن أبيه]

فلذلك عندما اقترح هؤلاء على النبي أن يكون معه مَلك، أو أن يكون له كنز، وأموال طائلة، أو أن يكون له بيت فخم وبساتين غنّاء، ما عرفوا حقيقة النبي صلى الله عليه وسلّم..

وكيف يدركُ في الدنيا حقيقته قومٌ نيامٌ تسلوا عنه بالحُلُم

فمبلغ العلم فيه أنه بشرٌ وأنه خير خلق الله كلِّهم

* * *

الإسلام ليس معلومات جافّة بل حبّ و محبة:

إذا رأى أحدٌ النبي عليه الصلاة والسلام في المنام يبقى أشهراً وهو مغموس في السعادة، نتمنى لو أُتيح لنا أن نلتقي به صلّى الله عليه وسلّم فأصحابه الكرام سحرهم كماله، صبئوا، أحبُّوه حبّاً كما قال أبو سفيان:

"ما رأيت أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحاب محمدٍ محمّداً ".

الإسلام حب يا أخوان، الإسلام ليس معلومات جافّة، الإسلام قلب يخفق بالمحبّة، الإسلام جلد يقشعر إذا قُرئَت آيات الله، الإسلام دموع تنهمر من العينين، فمن لا يبكي، ولا يقشعرُ جلده، ولا يخفق قلبه بالمحبّة وهو مسلم فإسلامه قشور !! الإسلام محبّة:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ (165))

(سورة البقرة)

إن الله تعالى ليباهي الملائكة بالشاب التائب يقول: انظروا عبدي ترك شهوته من أجلي، فالإنسان يجب أن يسعى ليجعل قلبه حياً، هناك قلب ميّت، ميّت لا يتأثّر، يقرأ القرآن فلا يتأثّر، يصلي صلاة جوفاء، يصوم صيامَ جوعٍ وعطش، القلب ميّت، القلب يحيا بذكر الله، يحيا بالعمل الصالح، يحيا بالتضحية، يحيا بالإيثار، يحيا بالبَذل، يحيا بترك الشهوات، يحيا بالانضباط، هذا كلُّه يحيي القلب ؛ لكن إن لم يكن لديه إيثار، ولا انضباط، ولا استقامة فهو ميّت، هان الله عليهم فهانوا على الله، الله هيّن على الناس كثيراً يعصونَهُ بسهولة، لأيسر ضغط يعصونَهُ، لأيسر إغراء يعصونَهُ، هان الله عليهم فهانوا على الله، لأقل مشكلة يتركوا مجلس العلم، لأقل سبب يزهد بالقرآن الكريم، لسببٍ تافه بينما كان صائماً يُفْطِر، هان الله عليهم فهانوا على الله.

المقاييس التي اختلقها الكفار كانت حجاباً بينهم وبين هذا النبي الكريم فضلوا:

أنا أريد أن أقول: الإسلام محبّة، الإسلام قلبٌ يخفق بالمحبّة، الإسلام جلد يقشعر من خشية الله، الإسلام عين تدمع حبّاً بالله وشوقاً إليه.

فهذه الاقتراحات أن يكون معه مَلك، وأن يُلقى إليه كنز، وأن تكون له جنّة، هذه الاقتراحات سَدّت عليهم طريق معرفته صلى الله عليه وسلّم، فأنت تظن أن العالِم هو الذي يكون لون جسمه أبيض، ليس هناك علاقة بين البياض والعلم، تظن العالِم مَن كان له قامة طويلة، تظن العالِم مَن كان له رصيد ضخم؟ تظن العالِم من كان له بيتٌ فخم، التقيتُ بعالِم بيتُه متواضع جداً، قصير القامة، أسمر اللون لا يملك من الدنيا شيئاً، فأنت مقياسك غلط، هذا المقياس حجبك عن حقيقته، مقياسك مبني على الوهم، لا علاقة للعلم بالشكل، ولا باللون، ولا بالمال، ولا بالبيت، فأنت عندما جعلت العلم دليلُه البيتُ الفخم، دليلُه المال العريض، دليلُه الشكل الوسيم فهذه المقاييس أنت الذي اخترعتها، وهي حجاب بينك وبين هذا العالِم مثلاً.

فهم حينما ظنّوا أن النبي لن يكون نبياً إلا إذا كان له جنّة، بستان، كنز، بيت فخم، معه مَلك من طبيعة أخرى، عندئذٍ هذه المقاييس التي اختلقوها كانت حجاباً بينهم وبين هذا النبي الكريم، بل إنهم قالوا:

(وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (8))

(سورة الفرقان)

نسوا أن هذه نبوّة، وأن هذا وحيٌ من عند الله، نسوا كل هذا وظنّوه رجلاً مسحوراً، أي يتبع السحرة، أو يُسْحَر.

الله سبحانه وتعالى ما أراد الدنيا أن تكون ثواباً لأوليائه ولا عقاباً لأعدائه:

(انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا (9))

(سورة الفرقان)

كيف ضربوا لك الأمثال، هذه الاقتراحات، هذه المقاييس من عند أنفسهم لا أساس لها من الصحّة، هذه المقاييس جعلتهم في ضلال فَضَلّوا:

(فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9))

(سورة الفرقان)

إلى معرفتك، سبيلاً إلى معرفة حقيقتك النبويّة، فشيءٌ عظيمٌ جداً أن تعرف حقيقة النبي عليه الصلاة والسلام، شيء عظيم جداً أن تكون في المستوى الذي يليق بك كإنسان.

الله سبحانه وتعالى ما أراد الدنيا أن تكون ثواباً لأوليائه، وما أرادها كذلك، هي أحقر من ذلك، أحقر من أن تكون ثواباً لأوليائه، وأحقر من أن تكون عقاباً لأعدائه، ربّما رأيت وليّ الله فيها معذّباً، مُمْتَحَناً، مُبتلىً، وربّما رأيت الكافر الفاجر فيها مرتاحاً، لحقارتها عند الله عزّ وجل، ولضعف شأنها عند الله عزّ وجل، ولأنها هينة على الله عزّ وجل، ما أرادها الله أن تكون ثواباً لأوليائه، ولا عقاباً لأعدائه، لذلك:

((لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[سنن الترمذي عن سهل بن سعد]

قد ينظر ناظرٌ بعقله فيقول في نفسه: هو اللهُ أكرم محمّداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا، فإن قال أهانه فقد كذب، وإن قال أكرمه فلقد أهان غيره حيث أعطاه الدنيا:

(انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (9))

(سورة الفرقان)

هذه المقاييس كانت حجاباً بينهم وبينك، سدّت عليهم طريق معرفتك.

الله تعالى قادر أن يعطي النبي كل شيء لكن هذا الشيء ليس مقياساً للنبوة:

(تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا(10))

(سورة الفرقان)

ربنا عزّ وجل قادر، إن شاء، أن يحيط النبي ببيوتٍ، وقصورٍ، وجنّاتٍ، وبساتين، ومراكب ورياحين، هذا شيء على الله سهل جداً لكنّه ليس مقياساً للنبوّة، ولو فعل الله ذلك لما أنقص من ثواب النبي شيئاً يوم القيامة:

(تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا(10))

(سورة الفرقان)

قصوراً عالية:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11))

(سورة الفرقان)

كلّما ورد الإيمان بالله في القرآن الكريم يأتي معه الإيمان باليوم الآخر:

الحقيقة الآن دخلنا في البند الثالث، فقد ذكرنا الإيمان بالله، ثم الإيمان بالكتاب، ثمّ الإيمان بالنبيّ، والآن الإيمان باليوم الآخر، والشيء الذي يلفت النظر أنه كلّما ورد الإيمان بالله في القرآن الكريم يأتي معه الإيمان باليوم الآخر، لأن الإنسان حينما لا يؤمن بالساعة ولا باليوم الآخر، أيْ إذا كان لا يؤمن بالحساب، أيْ لا يؤمن بالجزاء، ولا يؤمن بالدينونة، ولا بالجزاء والحساب والعقاب فعندئذٍ سيتفلّت من

قوانين ربنا عزّ وجل، سيتفلّت من الشرع، فهناك تلازم، لماذا فلان مستقيم ؟ لأنه مؤمن أن لكل حسنةٍ ثواباً ولكل سيئةٍ عقاباً، هذا الإيمان يحمله على الاستقامة، أيْ أنّ هناك مسؤوليّة:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

لولا المسؤوليّة لما كان هناك استقامة، فالآن لماذا ينضبط الموظّف ؟ يكون هناك مديرٌ شديد جداً مثلاً يحاسب حساباً دقيقاً، ولقد وضع ضوابط، ومعايير، وأجهزة مراقبة دقيقة جداً عند الدخول والخروج، فإذا دخلَ موظف يُسجّل أي ساعة دخل إلى الدائرة، وكذلك إن خرج يسجل، التأخُّر صار عليه محاسبة، جهاز يضبط دوام الموظّفين، فإذا كان المدير العام شديداً جداً، وعنده أجهزة دقيقة جداً لضبط الدوام والإنجاز، فالإنسان يلتزم لأنه سوف يُحَاسَبْ.

وربنا عزّ وجل جعل يوم القيامة يوم الحساب، يوم الجزاء، يوم الدينونة، لذلك فالمؤمن إذا آمن بهذه الساعة لابدّ من أن ينضبط:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ (11))

(سورة الفرقان)

أدلة من القرآن الكريم على أن يوم القيامة حقٌ وله مقياس دقيق جداً:

التكذيبُ بالساعة تكذيبٌ بعدالة الله عزّ وجل، لأن الله سبحانه وتعالى من أسمائه الحق، ومعنى الحق سيتحقّق يوم القيامة:

(إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ(1)لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ(2)خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ(3))

(سورة الواقعة)

يوم القيامة له مقياس، مقياس عظيم، مقياس دقيق جداً:

(فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47))

(سورة الأنبياء)

مثقال حبّة من خردل:

(يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ(16))

(سورة لقمان)

وقال:

(وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(124))

(سورة النساء)

نواةُ التمرة لها رأسٌ مدبَّب، لو تحسّسته بلسانك شعرت به، هذا الرأس المدبَّب اسمه نقير:

(وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(124))

(سورة النساء)

نواة التمر فيها خيط بين فُرْضَتَيها هذا الخيط اسمه فتيل:

(وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلا(71))

(سورة الإسراء)

اسمه الفتيل، لا نُظلّم الفتيل ولا نُظلّم النقير.

على المؤمن أن يُعِدُّ ليوم الحساب عُدّته بأن يحاسب نفسه على كل حركة وسكنة:

(فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (47))

(سورة الأنبياء)

وقال:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7))

(سورة الزلزلة)

هذا يوم القيامة، يوم الساعة..

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ (11))

(سورة الفرقان)

فالإنسان البطل الذي يُعِدُّ لهذا اليوم عُدّته، الإنسان إذا أعمل فكره إعمالاً صحيحاً وتيقّن أنه لابدّ أن يقف بين يدي الله عزّ وجل عندئذٍ يحاسب نفسه على الأنفاس، على الخواطر، على النظرات، على الحركات، على السكنات، على البسمة، على العبوس، كلُه محاسبٌ عليه:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(92)عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ(93))

(سورة الحجر)

إذا صحّ إيمانك باليوم الآخر صحّ عملك:

موضوع الإيمان باليوم الآخر شيء مهم جداً، إذا صحّ إيمانك بيوم القيامة، أو باليوم الآخر صحّ عملك لأن هذا الوقوف لابدّ منه:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيه(19)إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيه(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ(22)قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ

الْخَالِيَةِ(24)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَه(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَه(26)يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَه(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَه(29))

(سورة الحاقة)

فالتلازم..

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11))

(سورة الفرقان)

يا تُرى هل السعير فقط على التكذيب بالساعة ؟ أعتقد أنّ التكذيب بالساعة سوف ينتج عنه تفلّت من النظام، سوف ينتج عنه عدوان، التكذيب بالساعة من لوازمه التفلّت من منهج الله عزّ وجل، التكذيب بالساعة من لوازمه العدوان على أموال الناس، وعلى أعراضهم، التكذيب بالساعة من لوازمه أن يقتنص المُكَذِّب اللذّة من أي طريقٍ كان، هذا التكذيب بالساعة.

من أعجب العجب أن يتلوَ الإنسان كلام الله ويعصيه:

لذلك:

(وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11))

(سورة الفرقان)

السعير ليس على التكذيب فقط بل على ما ينتج عن التكذيب من انحرافٍ وعدوان قال تعالى:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11))

(سورة الفرقان)

فهذا كلام الله سبحانه والحقيقة أنه من أعجب العجب كيف أن يتلوَ الإنسان كلام الله ويعصيه !! فهذا الكلام ليس له إلا حالتين: إما أنه صحيح حقاً، وإما أنه باطل، فإذا كان باطلاً فما الدليل ؟ وإذا كان صحيحاً وحقاً فكيف تعصي الله والقرآن يذكّر بأنه لابدّ من حساب دقيق ؟

ذات مرّةٍ خاطب الإمام الغزاليُّ نفسَه فقال لها: **" يا نفس لو أن طبيباً منعكِ أكلةً تحبينها ماذا تفعلين؟ طبعاً أغلب الظن أنّكِ تمتنعين عنها حرصاً على صحّتكِ، فكيف يعصي الإنسان ربّه ؟ هذا الذي يعصيه أيكون الطبيب أصدق عنده من الله، إذا كان كذلك فما أكفره، أيكون وعيد الطبيب أشدّ عنده من وعيد الله ؟!، إذاً ما أجهلك ".**

(إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12))

(سورة الفرقان)

فهذه جهنّم نفس أيضاً، والدليل:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(44))

(سورة الإسراء)

أيْ ما من شيءٍ في الكون إلا وهو نفسٌ تسبّح بارئها، إلا هذا الإنسان الغافل.

ما من شيءٍ في الكون إلا وهو نفْسٌ تسبّح بارئها:

الكون كلُّه مسخر لهذا الإنسان وهو يسبّح بحمد الله، فإذا جاء الإنسان الذي سُخِّر له الكون من أجله، وغفل عن ذكر الله، فجهنّم نفسها لا تحتمل أن ترى مخلوقاً قد خان الأمانة أوّلاً ونقض العهد، ثم أساء إلى الخَلَق ثانياً، لذلك حتى جهنّم لا تحتمل، لذلك لو فرضنا أباً اعتنى بابنه عناية فائقة، وهذا الابن فعل شيئاً سيئاً مع أبيه، هؤلاء الذين يأخذونه للمحاسبة في الطريق يغلظون له في القول، كيف تفعل هذا ؟ أين أخلاقك ؟ أين برُّك لأبيك ؟ لا يحتملون، فالغُرَبَاء لا يحتملون فعل هذا الابن العاقّ، فلذلك حتَّى جهنّم:

(إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (12))

(سورة الفرقان)

رأتهم هنا الموضوع يسوقنا إلى أن هذه الجمادات، هذه الكواكب، هذه النباتات، هذه الحيوانات كلُّها نفوس، أعرف حجراً بمكّة كان يُسلِّم عليّ.

النبي عليه الصلاة والسلام دخل بستاناً من بساتين الأنصار، فرأى جملاً فحنّ إليه، تقدّم منه النبي عليه الصلاة والسلام فرآه يبكي، مسح النبي عليه الصلاة والسلام دمعَهُ بيديه الكريمتين وقال: " مَن صاحب هذه الناقة ؟ " فقالوا: فلان الفلاني فتى من الأنصار يا رسول الله، قال: "ائتوني به "، فلمّا جاؤوا به قال:

((أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملّكك الله إياها ؟ فإنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه))

[مسلم عن عبد الله بن جعفر]

الحيوان نفس، والجماد نفس، كان النبي عليه الصلاة والسلام يخطب على جذع النخلة، فلمّا صنع له أصحابه منبراً حنّ الجذع إليه، فكان يقف على المنبر ويضع يده على الجذع إكراماً لهذا الجذع، فهذه الإشارات من النبي عليه الصلاة والسلام مؤدّاها أن الجمادات أنفس لكنّها لم تقبل الأمانة، بمعنى أن الله عزّ وجل حينما عرض:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا(72))

(سورة الأحزاب)

المخلوقات اكتفت أن تكون مسبّحةً لله من دون مسؤوليّة لذلك نَجَتْ:

إنّ هذه الأمانة، أمانة التكليف، عُرِضَت على الجمادات أيضاً:

(عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا(72))

(سورة الأحزاب)

المخلوقات اكتفت أن تكون مسبّحةً لله من دون مسؤوليّة، من دون امتحان، من دون شهوات، من دون حساب، من دون حرية اختيار لذلك نَجَتْ، أما الإنسان إذا صدق في حمل الأمانة يتفوّق على كل المخلوقات، فإن لم يصدق بحملها فكل مخلوقٍ أفضل منه:

(إِذَا رَأَتْهُمْ (12))

(سورة الفرقان)

جهنّم..

(مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12))

(سورة الفرقان)

ورد في بعض الآثار أنه يخرج لسان من جهنّم له عينان تشاهدان، وله لسان ينطق:

(سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12))

(سورة الفرقان)

الضيق والضغط من لوازم العذاب والاتساع والانفراج من لوازم النعيم:

تؤكِّدُ بعض التفاسير أن أهل النار وهم يتعذّبون في النار يشهقون، ويئنون، ويزفرون، فهذا الشهيق والزفير، وهذا التغيُّظ والأنين، والصوت والألم هي أصوات أهل النار، كما لو أن إنساناً ساقوه إلى مكان يعذّب فيه الناس، قبل أن يصل سمع أصوات المعذّبين فازداد خوفه:

(إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12) وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا(13)))

(سورة الفرقان)

هم مقيّدون مقرّنون، أو مقرّنون مع شياطينهم، هذا الشيطان الذي ساق الإنسان إلى النار، يأتي النار هو والشيطان الذي ساقه إليها، هذا معنى، أو هم مقيّدون لأن جهنّمَ على اتساعها تضيق بأهلها، وقد تضغط عليهم، والضيق والضغط من لوازم العذاب، والاتساع والانفراج من لوازم النعيم، لذلك القبر يتسع ويتسع حتّى يغدو مدّ العين، والقبر يضيق بالكافر حتى يَضْغَطَ عليه فتختلف أضلاعه، معنى الضيق من معاني العذاب، ومعنى الاتساع من معاني النعيم:

(وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13))

(سورة الفرقان)

قالوا: يا ويلنا لقد هلكنا، الواحد المقرّن يتعذّب عذاباً شديداً لأنه مجرم، فلأولِ ضربةٍ صرخ، طوِّلْ بالك، هذا أول شيء هناك أعداد من الضرب كثيرة جداً:

(دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14))

(سورة الفرقان)

السعير هو ما ينتج عن التكذيب بالساعة مِن تفلُّت وعدوان:

العمليّة طويلة جداً، أنت في أول الطريق، أنت في أول الأمر، هناك سلسلة طويلة جداً من التعذيب، فهذه الصور من الله عزّ وجل، هذا كلام رب العالمين، كلام واضح كالشمس، وعدٌ ووعيد، فإما أن تؤمن بأن هذا القرآن كلام الله فتنضبط وتدفع الثمن، وإما أن تواجه تحقيق هذا الوعيد، فالإنسان عليه ألاّ يأخذ الأمور أخذاً ساذجاً، حدِّد موقفك من هذا الكتاب، ما دام كتاب الله حقّاً، يقيناً، قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، فماذا تنتظر ؟ ما الذي يمنعك من أن تتوب إلى الله توبةً نصوحاً ؟ ما الذي يمنعك من أن تقلع عن هذه المعصية ؟ إذاً:

(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (11))

(سورة الفرقان)

والسعير لِما ينتج عن التكذيب بالساعة مِن تفلُّت وعدوان:

(إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (12))

(سورة الفرقان)

وصف دقيق لما يجري في جهنم من عذاب وآلام وشدة لا تطاق:

النار تحتار في أمر هؤلاء الناس، كيف خُنتم الأمانة ؟! كيف عصيتم ربَّكم ؟! وفي آيات أخرى توضِّح هنا المعنى:

(كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ(8)قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا)

(سورة المُلك)

حتَّى الخَزَنَة يعجبون من هذا الإنسان العاصي:

(وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13))

(سورة الفرقان)

أحياناً طبيب الأسنان يمس طرف السن فيصرخ المريض، فهناك أيضاً آلامُ إبرة البنج، وألم القلع، وسلسلة آلام أخرى أمامه، هذه:

(دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (13) لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (14))

(سورة الفرقان)

هذه الحال التي لا توصف من الشدّة، جهنّم إلى الأبد، آلامٌ لا تُطاق، ربنا عزّ وجل يقول:

(قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ (15))

(سورة الفرقان)

بعض الآيات من القرآن الكريم للموازنة بين الجنة والنار:

وازنوا بين أن يكون الإنسان في عذابٍ أليم، في حريقٍ دائم، في خزي وعار، في ألمٍ لا يُحتمل، في شيءٍ لا يمكن أن يُصبَر عليه:

(قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ (15))

(سورة الفرقان)

وبين أن يكون في جنة عرضها السماوات والأرض، معزّزاً مكرّماً، له ما تشتهي نفسه، وله فيها من كل الثمرات، وفوق ذلك سلامٌ من الله عزّ وجل، فالله عزّ وجل يلقي عليهم السلام:

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ(73))

(سورة الزمر)

إذاً الموازنة دقيقة جداً، فلذلك ربنا عزّ وجل في آيات أخرى يقول:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

وقال:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ(18))

(سورة السجدة)

وقال:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ(19))

(سورة الزمر)

وقال:

(قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15))

(سورة الفرقان)

جزاءً على أعمالهم في الدنيا، وهم في هذا النعيم إلى الأبد.

حياتنا مهما طالت لا تساوي شيئاً لأن الحياة الأبدية هي كل شيء:

ما هو الأبد يا أخوان ؟ ما هو الأبد ؟ تكلّمنا عن أقرب نجم للأرض ملتهب طبعاً، والعلماء يفرّقون بين الكوكب والنجم، الكوكب هو الجسم المنطفئ، الأرض كوكب، المريخ كوكب، المجموعة الشمسية كلُّها كواكب، أقرب نجم ملتهب للأرض بعده عنّا أربع سنوات ضوئيّة، وهي كلمة تقال، لكن معنى أربع سنوات ضوئيّة بالحساب الدقيق كما يلي: لو ركبنا مركبَةً إلى هذا النجم بسرعة السيارة نحتاج إلى خمسين مليون سنة لنصل إليه، هذا معنى أربع سنوات ضوئيّة في علم الفَلَك، ولو ركبنا مركبة بسرعة مركبة القمر أي أربعين ألف كيلو متر بالساعة نحتاج إلى مئة ألف عام، فهذا النجم بعده عنّا أربع سنوات ضوئيّة، أما نجم القطب يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية، ليس أربعة بل أربعة آلاف.

المرأة المُسَلْسلة مليون سنة ضوئيّة، مجرّة اكتُشِفَت حديثاً تبعد عنا ستة عشر ألف مليون سنة، الكون غير محدود، فما هو الأبد ؟ يا ترى مليون مَليون مليون مليُون مَليون، حياة الإنسان لو عاش على الأرض مليون سنة فهي تساوي صفراً بالنسبة للأبد، مثلاً أحياناً نقول والله فلان ما شاء الله صار عمره تسعة وثمانين عاماً، ما هذه التسعة والثمانين عاماً، هذه تعدل صفراً، والمئة سنة صفر، والمليون سنة صفر، والألف مليون سنة صفر أمام الأبد، أيُضحّى بالأبد كلِه هكذا ببساطة ؟ تمشي على هواك وتعصي الله، أتضحي بهذه الحياة الأبديّة ؟ ماذا يقول الكافر يوم القيامة ؟

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

ألم تكن حيّاً ؟ لا، هذه لم يسميها حياةً، حياته هي الحياةُ الأبدية.

على الإنسان ألا يضحي بالأبد من أجل شهوات طارئة:

موضوع الأبد يا أخوان شيء لا يتصوره إنسان، هذا تقريبٌ بسيط أسوقه لك، خذ كيساً من الطحين، وبلل أصبعك بريقك، واضغط ضغطاً خفيفاً وأحضر مكبّراً وعُدّ كم ذرّة ؟ ضغط خفيف بحيث يكون أقل ضغط وعُد كم ذرّة، إذا كانت كل ذرّة مليون سنة فهذا الكيس كم مليون سنة ؟ لو كان طحينًا كثيرًا ليس كيساً واحداً، بل مليون كيس طحين، أو إنتاج العالم كله من الدقيق، إذا كانت كل ذرّة مليون سنة فالدقيق الذي في العالم كم مليون سنة ؟! هذا الأبد يعني بلا نهاية:

(كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15))

(سورة الفرقان)

مصيره في الجنّة، ثمنها كم سنة من غض البصر، والاستقامة على أمر الله، أداء الصلوات، أداء الصوم، أداء الحج، إحسان للخلق، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كم سنة مهما طالت فإنّها تمضي، وبعدئذٍ:

(كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15))

(سورة الفرقان)

أيضحّى بهذا الأبد من أجل لُقَيْمَاتٍ من حرام ؟ من أجل نظراتٍ إلى النساء ؟ من أجل كلماتٍ نمزح بها فنقع في إثم المعصية ؟ نضحي بالأبد كله من أجل شهوات طارئة ؟

(كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15))

(سورة الفرقان)

والله كلمة مؤثِّرة جداً، وبالمقابل جهنّم كذلك جزاءً ومصيراً، كذلك للأبد.

الأبد إذا لم يعرفه الإنسان ما عرف الله عزّ وجل فالجنّة للأبد والنار للأبد:

كلمة أبد كلمة لو أن الإنسان فكر فيها، لو فرضنا أن رقم واحد بدمشق، وبين كل صفرين ميليمتر، وأصفار لحلب، تابعنا لأنقرة، ثم لموسكو، ثم للقطب، ثم تابعنا دورتنا حول المحيط الهادي، ثم لإفريقيا، لو أن رقم واحد بدمشق وأصفار حول الكرة الأرضيّة لما أحاط هذا الرقم بالأبد، هذا رقم كبير ولكنه محدود في النهاية، الأبد ليس له نهاية، هذا الأبد إذا لم يعرفه الإنسان فإنّه إذاً ما عرف الله عزّ وجل، فالجنّة للأبد، والنار للأبد:

(كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ (16))

(سورة الفرقان)

في الجنة أنت اطلب، اطلب وتَمَنّ، فلو خطر في بالك خاطرٌ فهو يتحقق من فوره وتحظى بما لذّ وطاب من نعيم مقيم، ويقولون: إن الإنسان عندما يموت يُكْشَفْ له شيءٌ من نعيم أهل الجنّة فيقول: لم أرَ شرّاً قط في حياتي، علماً بأن حياته كلها كانت متاعب، كل حياته كانت أحزاناً وهموماً، كل حياته مشكلات، كانت كلها أمراضاً، عندما يكشف ربنا عزّ وجل له عن شيء من نعيم أهل الجنّة يقول: لم أرَ شراً قط في حياتي، وحينما يكشف لأهل النار عن بعض ما فيها من عذاب يقول أحدهم: لم أرَ خيراً قط، وقد قضى كل عمره بالدنيا في النعيم والرفاه والعز والجاه، القضية ليست سهلة.

الله تعالى لا يخلف وعده لأن وعده واقع وقطعي:

(قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (15) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (16))

(سورة الفرقان)

هذا وعدٌ من الله عزّ وجل، واسأله ذلك الوعد فهو لا يخلف وعده، والدليل أنه واقع:

(رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ(194))

(سورة آل عمران)

فوعد الله اعتبرْه واقعاً، قطعياً، ربنا عزّ وجل:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا(87))

(سورة النساء)

وقال:

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ(111))

(سورة التوبة)

في الدرس القادم إن شاء الله تعالى نتابع هذه الآيات وهي قوله تعالى:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ(17))

(سورة الفرقان)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (06-13): تفسير الآيات 17 - 20
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 21-04-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من سورة الفرقان.

الله سبحانه وتعالى يحشر خلقه جميعاً يوم القيامة ويسألهم أمام الملأ:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا(18))

(سورة الفرقان)

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يجمع خلقه جميعاً في محشرٍ واحد، ويسألهم أمام الملأ، وفي هذا السؤال، وفي هذه المحاكمة فضيحة وأيُّ فضيحة، قد تُسألُ سؤالاً في مجتمع صغير فلا تملك الجواب الصحيح، فتشعر بالخجل، أما إذا جاء المذنب وسُئل أمام الأشهاد عن هذا الذنب فما موقفه يومَ القيامة ؟ فهؤلاء الذين عبدوا من دون الله، هؤلاء الذين قالوا: إن المسيح هو الله، أو هو ابن الله:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ (30))

(سورة التوبة)

الطاعة والمحبة لغير الله تعالى هي شرك ظاهر جليّ:

هؤلاء الذين اتخذوا الملائكة أرباباً مِن دون الله، هؤلاء الذين اتخذوا الجن، هؤلاء الذين عبدوا الأصنام، هؤلاء الذين عبدوا بعض البشر، أيْ أنّ كل إنسانٍ يتوجه بالطاعة لغير الله، وبالمحبة، والولاء، والإخلاص، والاعتماد، والتوكل على غير الله، هذا شركٌ ظاهرٌ جَلِيّ، فربنا سبحانه وتعالى يوم القيامة يجمع الخلائق كلها، ويوجّه إليهم السؤال التالي: يقول الله عزّ وجل:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ (17))

(سورة الفرقان)

أيْ الناس جميعاً ؛ أسودهم، وأبيضهم، عربيهم، وأعجميهم، يحشرهم جميعاً:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ (17))

(سورة الفرقان)

فسيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، هناك أناسٌ عبدوه من دون الله، فهو يُسأل يوم القيامة:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ(116)مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(117)إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(118))

(سورة المائدة)

كل الأشياء التي عبدت من دون الله سوف تُسأل يوم القيامة:

إذاً هذا الذي عُبِدَ مِن دون الله سوف يُسأل، وهذا الذي عَبَدَ من دون الله سوف يُسأل، سوف يسأل مَن عُبِد ومَن عَبَد في الحشر أمام الملأ جميعاً وأمام الخلق كلهم:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي (17))

(سورة الفرقان)

يا أيها الذين عُبِدُّتم من دون الله سواءٌ أكانوا أنبياء مكرّمين، ضل قومهم فعبدوهم مِن دون الله، سواءٌ أكانوا أشخاصاً عاديين، سواءٌ أكانوا ملائكة، أكانوا جِنّاً، سواءٌ عبدوا حجراً أم صنماً، كل الأشياء التي عبدت من دون الله سوف تُسأل هذا السؤال.

(أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي (17))

(سورة الفرقان)

أصل الاستفهام هو طلب العلم بالمجهول ولكن في اللغة العربية له أغراض كثيرة:

بالمناسبة هذا السؤال في القرآن الكريم، السؤال يأتي على شكل استفهام في آياتٍ كثيرةٍ لا تُعَدُّ ولا تحصى، ولكن ما كل سؤالٍ يستفاد منه العِلم بالمجهول، أصل الاستفهام طلب العلم بالمجهول، كأن تقول لإنسان: كم الساعة الآن ؟ كم ثمن هذا الحذاء ؟ كم ثمن هذه البزّة ؟ إذاً أصل الاستفهام طلب العلم بالمجهول، لكنّ الاستفهام في اللغة العربية وفي علم البلاغة يخرج عن هذا الغرض الأساسي إلى أغراض كثيرة، وفي القرآن الكريم بيانٌ دقيقٌ لبعض هذه الأغراض.

1 ـ يقصد بالاستفهام الأمر:

فربنا سبحانه وتعالى يأمرنا أحياناً عن طريق الاستفهام فيقول الله عزّ وجل:

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ(91))

(سورة المائدة)

أي ماذا تنتظرون بعد ؟ لِمَ لم تنتهوا حتى الآن ؟ انتهوا ؟ فهذا استفهام قُصِدَ به الأمر:

(فَهَلْ أَنْتُمْ مُنتَهُونَ(91))

(سورة المائدة)

2 ـ يقصد بالاستفهام النهي:

أحياناً يأتي الاستفهام ويُقصد به النهي، يقول الله عزّ وجل:

(أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ(13))

(سورة التوبة)

أي لا تخشوهم، أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟ استفهامٌ قُصِدَ به النهي أي لا تخشوهم.

3 ـ يقصد بالاستفهام التسوية:

أحياناً يقصد بالاستفهام التسوية لقول الله عزّ وجل:

(وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(10))

(سورة يس)

أي يستوي إنذارهم وعدم إنذارهم:

(وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ(10))

(سورة يس)

فعندنا استفهام يُقْصَدُ به الأمر، وعندنا استفهام يقصد به النهي، وعندنا استفهام يقصد به التسوية.

4 ـ يقصد بالاستفهام النفي:

أحياناً يقصد بالاستفهام النفيُ، لقول الله عزّ وجل:

(هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلا الإِحْسَانُ(60))

(سورة الرحمن)

أيْ ما جزاء الإحسان إلا الإحسان، هذا بند رابع في الاستفهام.

5 ـ يقصد بالاستفهام الإنكار:

أحياناً يأتي الاستفهام للإنكار، يسمى الاستفهام الإنكاري، كَقَوْلِ الله عزّ وجل:

(أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ(40))

(سورة الأنعام)

أيْ أنّ الله سبحانه وتعالى ينكر على هؤلاء أن يدعوا غير الله عزّ وجل، الاستفهام الإنكاري كثير الاستعمال في القرآن الكريم.

6 ـ يقصد بالاستفهام التشويق:

كذلك عندنا استفهام تشويق:

(هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ(10))

(سورة الصف)

هذا استفهام يقصدُ به التشويق.

7 ـ يقصد بالاستفهام الإيناس:

عندنا استفهام يقصد به الإيناس:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى(17))

(سورة طه)

ربنا سبحانه وتعالى أراد أن يؤنسَهُ فسأله سؤالاً، وأنت أحياناً قد تحب أن تؤنس ضيفك تسأله سؤالاً لطيفاً، هذا السؤال تقصد به الإيناس وليس الاستفهام.

8 ـ يقصد بالاستفهام التقرير:

قد يأتي الاستفهام بمعنى التقرير:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ(1))

(سورة الشرح)

أي لقد شرحنا لك صدرك، أمرٌ، ونهيٌ، وتسويةٌ، ونفيٌ، وإنكارٌ، وتشويقٌ، وإيناسٌ، وتقريرٌ.

9 ـ يقصد بالاستفهام التهويل:

قد يأتي الاستفهام بمعنى التهويل:

(الْحَاقَّةُ(1)مَا الْحَاقَّةُ(2)وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ(3))

(سورة الحاقة)

هذا استفهامٌ يقصد به التهويل والتعظيم.

10 ـ يقصد بالاستفهام الاستبعاد:

هناك استفهامٌ يقصد به الاستبعاد:

(أَنَّى لَهُمْ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ(13))

(سورة الدخان)

أنى له أن يفهم، أي ما أبعدَهُ عن أن يفهم، هذا استفهامٌ يقصد به الاستبعاد.

11 ـ يقصد بالاستفهام التعظيم:

قد يأتي استفهامٌ يقصد به التعظيم:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً(245))

(سورة البقرة)

وقال:

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ(255))

(سورة البقرة)

هذا استفهامٌ يقصد به التعظيم.

12 ـ يقصد بالاستفهام التعجب:

قد يأتي الاستفهام بمعنى التعجُّب:

(مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (7))

(سورة الفرقان)

وقد يأتي الاستفهام بمعانٍ كثيرة جداً ؛ كالتهكم، والوعيد، والاستنباط، والتنبيه، وغيرهم.

12 - يقصد بالاستفهام التوبيخ:

هذا الاستفهام استفهامٌ توبيخي، فهو توبيخ للكافرين الذين عبدوا غير الله:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي(17))

(سورة الفرقان)

من عبد شيئاً من دون الله سينطق عنه يوم القيامة:

هذا استفهامٌ توبيخي:

(هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (17))

(سورة الفرقان)

يا تُرى أنتم كنتم السبب في ضلالهم أم هم الذي ضلوا في الأساس ؟ فقال هؤلاء الذين عُبِدوا من دون الله، أنبياء أو أصنام، كل شيءٍ ينطق يوم القيامة والدليل:

(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ(21))

(سورة فصلت)

التسبيح في اللغة هو التنزيه والتمجيد وكلمة سبحانك فيها نفيٌ وإثبات:

أيُّ شيءٍ يوم القيامة ينطقُ بالحق، فحتَّى الحجارة التي عُبِدَت من دون الله تنطق يوم القيامة بالحق، فهذا السؤال عام لكل الشُرَكَاء، لكل الذين عُبِدوا مِن دون الله:

(قَالُوا سُبْحَانَكَ (18))

(سورة الفرقان)

أيْ ما أعظمك عن أن يُتَّخذ من دونك إله، ما أعظم شأنك يا رب، تنزّهت عن أن يكون معك شريك، فالتسبيح في اللغة هو التنزيه والتمجيد، التنزيه عما لا يليق بالله عزّ وجل، والتمجيد أي السَبْحُ بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، فكلمة سبحانك فيها نفيٌ وإثبات، فيها نفي كل صفةٍ لا تليق بالله عزّ وجل، وفيها إثباتٌ لكل كمالٍ عرّفنا الله سبحانه وتعالى من خلال كتابه الكريم، أي ذِكْرُ الله بأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى تسبيح، ونفي كل صفةٍ لا تليق به تسبيح:

(قَالُوا سُبْحَانَكَ (18))

(سورة الفرقان)

أيْ يا رب تنزّهت عن أن يكون لك شريك، هؤلاء الذين عبدونا مِن دونك نحن مفتقرون إليك:

(قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ (18))

(سورة الفرقان)

ليس كل عطاءٍ عطاءً ربما كان المنع عين العطاء وربما كان العطاء عَيْن المنع:

نحن الذين عُبِدْنَا من دونك لا يحق، لا يصح، ولا ينبغي أن نتخذ مِن دونك أولياء، فإذا كان هذا الذي تعبده من دون الله لا ينبغي بِحَقِهِ أن يُعْبَد، فكيف تعبده أنت ؟ كيف تعبد جهة لا تملك نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً ؟

(قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ (18))

(سورة الفرقان)

أيْ هؤلاء الذين عبدونا من دونك متّعتهم يا رب، متعتهم بالصحة، متعتهم بالغنى، متعتهم بطول العمر، قد تكون الدنيا استدراجاً، ليس كل عطاءٍ عطاءً ربما كان المنع عين العطاء، وربما كان العطاء عَيْنَ المنع، فإذا اختار لك الله عزّ وجل شيئاً معيناً وأنت راضٍ بمشيئته فهذا من نعم الله الكبرى عليك، أن تكون راضياً بمشيئة الله عزّ وجل، إذاً ربما كان المنع عين العطاء، ربما أعطاك فمنعك، وربما مَنَعَك فأعطاك.

(قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ(18))

(سورة الفرقان)

الذِكْر قال بعض المفسرين هو القرآن:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (9))

(سورة الحجر)

أغنى الأغنياء من أعطاه الله الرزق الكفاف وشغله بمعرفته وملأ قلبه بنوره:

أيْ أنّ هذا الكتابُ المنهج نسوا أن يقرؤوه، نسوا أن يفهموه، نسوا أن يتدبّروه، نسوا أن يعملوا به، متعتهم بالمال، والصحة، والجاه، والقوة، وطول العمر، وألفوا هذه الحياة، ألفوا نعيمها، انغمسوا في شهواتها، أعجبتهم، رضوا بها، اطمأنوا لها، وضربوا عُرْضَ الطريق بوعدك ووعيدك، وذِكرك وقرآنك، ولم يقرؤوه، ولم يعوا ما فيه، هذا تعليل هؤلاء الذين عُبدوا من دون الله، يا رب نحن ما أضللناهم، سبحانك أن ندّعي أننا معك شركاء، هذا لا يليق بنا، ولا يليق بأي جهةٍ أخرى غيرك يا رب:

(قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ(18))

(سورة الفرقان)

فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

[ورد في الأثر]

أيْ إذا أعطاك الله عزّ وجل الرزق الكفاف، وشغلك بمعرفته، وملأ قلبك بنوره وعرّفك بذاته، فأنت أغنى الأغنياء ؛ أما من أُعطي الدنيا وشغلته واستهلكته فمتى حسرته الكبرى ؟ عندما يأتيه الموت، يرى أن هذه الدنيا لا تقدِّم ولا تؤخِّر، ولا تنفع ولا تضر، ولكنها كانت عبئاً عليه، فالذكر هنا القرآن، وبعضهم قال: الذكر هو الشكر. يا رب كيف أشكرك ؟ فقال الله عزّ وجل:

((يا ابن آدم إنك إذا ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة]

أحد أنواع الشُكر أن تذكر الله فالمؤمن حياته كلها ذكر:

لمجرد أن تنسى الله عزّ وجل فهذا أحد أنواع الكفر، ولمجرد أن تذكره فهذا أحد أنواع الشُكر، تذكرني ولا تكفرني، إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا نسيتني كفرتني لذلك:

((من أكثر ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[أخرجه الطبراني في الصغير عن أبي هريرة]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيراً (41))

(سورة الأحزاب)

المؤمن حياته كلها ذكر، يذكر الله في بيته، في عمله، في الطريق إلى عمله، في خَلوته، في جلوته، في حِلِّه وترحاله، في سفره وحضره، في صحته ومرضه، في غناه وفقره، في قوته وضعفه، في شبابه وشيخوخته:

(الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ(191))

(سورة آل عمران)

إذاً كم حالة للذكر ؟ إما أن تكون واقفاً، وإما أن تكون مضطجعاً، وإما أن تكون نائماً أو قاعداً:

(قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ(191))

(سورة آل عمران)

أيْ يذكرون الله في كل حال، وهذا مصداق قول الله عزّ وجل:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ(23))

(سورة المعارج)

إذا خرج من بيته يدعو الله عزّ وجل:

((اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ))

[من سنن أبي داود عن أم سلمة]

إذا دخل بيته فله دعاء، وإذا أوى إلى فراشه فله دعاء، إذا خرج من بيت الخلاء فله دعاء:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته، و أبقى فيّ قوته، و أذهب عني أذاه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

الشكر بابٌ كبير من أبواب الإيمان:

كذلك إذا تمتّع الإنسان بسمعه، ببصره، بقوته، بحركاته، بأعضائه، بعقله، أو رأى إنساناً مختل العقل فعليه أن يدعو الله بالشكر والحمد والثناء:

((يا ابن آدم إنك إذا ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة]

جلست إلى المائدة تأكل من الطعام، فالله عزّ وجل سلّمَ لك الأجهزة كلها، هناك من يأخذ السيروم، أما أنت فإنّك تأكل هذا الطعام، تأكله وأنت جائع، وقد مَكّنَكَ الله من أن تأكل، وسمح لك أن تأكل، أعطاك ثمن الأكل، دخلت إلى بيتك، رأيت أهلك في صحةٍ طيبة، أولادك أمامك، إنّك إن ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني، وبالشكر تدوم النِعَم، والنبي الكريم عليه أتم الصلاة والتسليم وجّهَ بعض أصحابه فقال:

((يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه))

[رواه الطبراني عن أبي أمامة الباهلي]

فالشكر بابٌ كبير من أبواب الإيمان، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الإيمان نصفان نصفٌ صبرٌ ونصفٌ شكرٌ))

[موقوف عن الشعبي]

فالصبر نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر، فالصوم أصبح ربع الإيمان بكامله، وإذا مُتّعَ الإنسان بالصحة، والقوة، والمال، والجمال، والأهل، والأولاد، لدرجة أنه استمرأ هذه النعم ونسي بها الله عزّ وجل فهذه أصبحت نِقَماً وليست نِعَماً، إنها استدراج والله سبحانه وتعالى يمدُ أحياناً للكافرين مداً:

(فَلَمّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً (44))

(سورة الأنعام)

حجمك عند الله تعالى يوم القيامة بحجم عملك الصالح:

قال تعالى:

(حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18))

(سورة الفرقان)

البور، الأرض البور هي الأرض التي عُطِّلت عن الزراعة فهي لا تنتج، أرضٌ منتجة، وأرضٌ بور، والبور هو الشيء الفاسد، والبور هو الشيء الهالك، معنى الهلاك، ومعنى الفساد، ومعنى عدم الجدوى، هذه المعاني الثلاثة مأخوذة من كلمة بور:

(وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا(12))

(سورة الفتح)

أيْ أنك تأخذ ولا تعطي، تستمتع ولا تُمتِّع، تتلقى ولا تُلقي:

(وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا(12))

(سورة الفتح)

فأنت لك حجم عند الله عزّ وجل يوم القيامة، حجمك بحجم عملك الصالح، ماذا فعلت ؟ ماذا قدمت ؟ ماذا علّمت ؟ ماذا أنفقت ؟ من خدمت ؟ أعطاك الله جاهاً فماذا فعلتَ به؟ استعليت به على الناس أم وظّفته في خدمة الخلق ؟ أعطاك الله مالاً استمتعت به أم أنفقته ؟ أعطاك علماً كتمته أم نشرته ؟ أعطاك خبرةً حبستها أم بذلتها ؟ فحجمك عند الله بحجم عملك، بحجم عطائك، بحجم بذلك، لذلك فالأنبياء كانوا قمةً في العطاء، يا من جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، يا من قدّست الوجود كله، ورعيت قضية الإنسان، يا من هيَّأكَ تفوقك لتكون واحداً فوق الجميع فعشت واحداً بين الجميع، فالبطولة هي عندما تلقى الله عزّ وجل، ولا يبدو لك إلا عملك الصالح وما سوى ذلك يتلاشى وكأنه لم يكن.

(وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (18))

(سورة الفرقان)

سيدنا أبو الدرداء رضي الله عنه كان في حمص مرةً فخطب في أهلها وقال:

"هلموا إلى أخ لكم ناصح، وقال لهم: ما لكم لا تستحون ؟ تبنون ما لا تسكنون، وتجمعون ما لا تأكلون، وتأملون ما لا تدركون، إن من كان قبلكم بنو مشيداً، وجمعوا عبيداً، وأملوا بعيداً، فأصبح جمعهم بوراً، وأملهم غروراً، ومساكنهم قبوراً."

من عبد غير الله خسر في الدنيا والآخرة:

يقول الله عزّ وجل لهؤلاء الذين عُبدوا من دون الله، لهؤلاء الشركاء زوراً وبهتاناً:

(فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ (19))

(سورة الفرقان)

يخاطب الآن الذين عَبَدوا من دون الله، فقد خاطب أولاً المَعْبُودين:

(وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ (17))

(سورة الفرقان)

يا من عُبِدُتم من دون الله:

(أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي (17))

(سورة الفرقان)

استفهام توبيخ، والآن جاء الخطاب لمن عَبَدوهم من دون الله:

(فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ (19))

(سورة الفرقان)

ادّعيْتم أنهم آلهة، هؤلاء قد كذبوكم بدعواكم، ادعيتم أنهم ينفعونكم أو يضرونكم فقد كذبوكم بدعواكم:

(فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا (19))

(سورة الفرقان)

عدم استطاعة الإنسان أن يصرف عن نفسه العذاب يوم القيامة:

إن الإنسان في الدُنيا أحياناً بجاهه، بقوته، بحنكته، بذكائه، بخبثه، يستطيع أن يصرف عنه عذاباً، أو بلية، أو مشكلةً، وأن يلصقها بإنسان آخر، لكنْ يوم القيامة رَبُنا سبحانه وتعالى يبيّنُ فيقول:

(فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا (19))

(سورة الفرقان)

لا تستطيعون أن تصرفوا عن أنفسكم هذا العذاب، ولن تستطيعوا أن تنتصروا من الله عزّ وجل، فهو قد تخلى عنكم لأنكم في الدنيا ما عرفتموه:

(فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (19))

(سورة الفرقان)

وهذه الآية من السنن الثابتة في خلقه:

(وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (19))

(سورة الفرقان)

وإذا قال الكبير عن عذابه بأنه كبير فما أكبره، فإذا قال لك طفل: أنا معي مبلغ كبير، يخطر في بالك أن معه خمسَ ليرات أو عشراً، أمّا إذا قال لك إنسان معروفٌ بالغنى: أنا معي مبلغ كبير، فكلمة كبير بحسب حجم القائل، إذا قال الله عزّ وجل وهو أصدق القائلين:

(وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (19))

(سورة الفرقان)

هل بإمكان الإنسان أن يتصوّر ماذا يعني هذا العذاب الكبير ؟!!

للآية التالية معنيان:

1 ـ هي تسلية لقلب النبي عليه الصلاة والسلام وتخفيف من آلامه ومتاعبه:

يقول الله عزّ وجل:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا(20))

(سورة الفرقان)

يبدو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يُسَلِّيَ النبي عليه الصلاة والسلام، وأن يخفف عنه، لأن الدعوة لها أعباءٌ كثيرة، وأعباءٌ ثقيلة، ولولا هذه الأعباء ما ظهر مَعْدِنُ هذا النبي الكريم، ولو أنّ الدعوةَ طريقٌ محفوفٌ بالورود والرياحين، لما كان هناك أجرٌ عظيم لمن دعا إلى الله، ولكن الدعوة، وهذه سنة الله في الخلق، محفوفةٌ بالمخاطر وبالمتاعب، لا بدّ أن تواجه خصوماً، لا بدّ أن تواجه حُسّاداً، لا بدّ أن تواجه مُغرضين، لا بدّ أن تواجه معارضةً، ولكل داعيةٍ في رسول الله أسوةٌ حسنة، فالله سبحانه وتعالى أراد أن يُسَلِّيَ النبي عليه الصلاة والسلام ويطمئنه إلى أن هذا القول الذي ووجِهْتَ به من أنك لست بنبي، بدليل أنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، هذا القول قيل أيضاً لكل الأنبياء من قبلك فلا تتألم، لا تحزن، لا تقلق، لا تضجر، لا تغتم، هذا القول قيل لكل مَن سبقك من الأنبياء، لأن الله عزّ وجل قال في مطلع هذهِ السورة.

(وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (7))

(سورة الفرقان)

فجاء الجواب:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ (20))

(سورة الفرقان)

إذاً أول معنى من معاني هذه الآية أنها تسليةٌ لقلب النبي عليه الصلاة والسلام، وطمأنة له، وإيناسٌ له، وتخفيفٌ من آلامه ومتاعبه.

2 ـ أصلٌ في طلب الرزق وكسب المال لإنفاقه على حاجات الإنسان الأساسية:

المعنى الثاني أن هذه الآية أصلٌ في طلب الرزق وكسب المال، من أجل إنفاقه على حاجات الإنسان الأساسية، لأن الإنسان في طبيعته مفتقرٌ إلى الطعام والشراب، ومفتقرٌ مرةً ثانية إلى كسب ثمن الطعام

والشراب، أنت مفتقرٌ إلى الطعام، ومفتقرٌ إلى العمل، إذاً حقك في أن تأكل حقٌ مقدّس، وحقك في أن تعمل حقٌ مقدس، لذلك إذا افتقر الإنسان ولم يجد له طعاماً فله حقٌ في بيت مال المسلمين، لأن هذه حاجة أساسية، لا يمكن أن تقفَ على قدميك من دون طعامٍ وشراب، وربما كان شهر الصيام لَفْتَ نظرٍ لطيفٍ إلينا لإشعارنا بضعفنا وعبوديتنا وحاجتنا إلى الطعام والشراب، فهذه سنة الله في الخلق:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ(20))

(سورة الفرقان)

يأكلون الطعام، افتقار إلى الطعام والشراب، ويمشون في الأسواق، افتقار إلى كسب ثمن الطعام والشراب، شيء آخر ؛ لذلك أحلّ الله البيع وحرّم الربا، أحلّ التجارة، وتسعة أعشار الرزق في التجارة:

((إن أطيب الكسب كسب التجار ؛ الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا كان لهم لم يعسروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا))

[الجامع الصغير عن معاذ بسند ضعيف]

مكانة التجار في الإسلام:

سبعُ صفات من صفات التُجّار الصادقين المؤمنين، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام ليقول:

((التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ))

[من سنن الترمذي عن أبي سعيد]

لماذا ؟ وهو لم يجاهد، ولم يقاتل، ولم يدعُ إلى الله، ولم يعلِّم، ولكنه أظهر للناس الإسلام بعمله، دعا إلى الله بعمله، والدعوة إلى الله بالعمل أبلغ بكثير من الدعوة إليه بالقول، لأن الناس يتعلّمون بعيونهم كما يتعلمون بآذانهم، ولأن لغة العمل أبلغ من لغة القول، فربنا سبحانه وتعالى جعل هذه الآية أصلاً في أن التجارة، والصناعة، والزراعة، والحِرَف، والمِهَن، والخدمات، والمهن الفكرية كلها معايش، أي وسائل لكسب الرزق، وهي مشروعة.

النبي عليه الصلاة والسلام لما رأى شابّاً يصلي في المسجد سأله:

((مَن يطعمك ؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك))

[ورد في الأثر]

الحياة عمل، والشيء المعروف عن سيدنا عمر لما رأى إنساناً يقرأ القرآن في المسجد قال:

" إنما أنزل هذا القرآن لِيُعْمَلَ به أفتخذت قراءته عملاً ؟!"

الصحابة الكرام كانوا رهباناً في الليل فرساناً في النهار، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما أمسك يد سيدنا عبد الله بن مسعود رآها خشنة مِن أثر العمل، فقال عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه اليد يحبها الله ورسوله))

[ورد في الأثر]

وربنا عزّ وجل قال:

(وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ(105))

(سورة التوبة)

من يدّعي أن على الإنسان ألا يعمل هو إنسان ضلّ عن الطريق الصحيح:

إذاً هذه الآية:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (20))

(سورة الفرقان)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي))

[صحيح البخاري عن ابن عمر]

ويقول الله عزّ وجل:

(فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالا طَيِّبًا(69))

(سورة الأنفال)

بعضهم يعتذر عن السعي لكسب الرزق متذرّعاً بحال أصحاب الصفّة، أصحاب الصفّة فئة من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كانوا فقراء، وكانوا يجلسون في زاوية المسجد، وسُمِّيَت الزاوية حتى الآن الصفّة، بعد مقام النبي عليه الصلاة والسّلام، بعد أن يزار النبي ويتجه الزائر إلى جهة الجنوب، ويتجه نحو الغرب، هناك منصة مرتفعة في الحرم النبوي هذه اسمها الصُفّة، كان أصحاب النبي عليهم رضوان الله الفقراء يقبعون بها، وكان النبي إذا جاءته الصدقة بعث بها إليهم، وإذا جاءته الهدية أكلها معهم، لكنهم كانوا يعملون، كانوا يؤدُّون خدماتٍ للمسجد، كما جاء في صحيح البخاري، كانوا يسوقون الماء للمسجد النبوي الشريف، وكان يحتطبون له، أي يقدِّمون أكثر الحاجات لهذا المسجد، فهذا أيضاً عمل، فهذا الذي يدّعي أن الإنسان عليه أن يقبع في بيته ولا يعمل، هذا إنسان ضل عن الطريق الصحيح ضلالاً بعيداً.

الله عزّ وجل طالبنا بالأسباب لأنها سنة الله وسنة رسوله:

قال بعض المفسرين: " الأسباب والوسائط ؛ الأسباب كسب الرزق، من خلال الصناعة، والتجارة، والزراعة، والعمل اليدوي، والمهن، والحرف، والخدمات العالية، فقد قيل:

" الأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله، وهو الحق المبين، والطريق المستقيم الذي انعقد عليه إجماع المسلمين ".

فهذا الذي له عمل يجب أن يفتخر، بل إن سيدنا عمر رضي الله عنه يقول:

" إني أرى الرجل لا عمل له فيسقط من عيني ".

هناك من يستنبط أن الله عزّ وجل طالبنا بالأسباب، فربنا سبحانه وتعالى كان بقدرته أن يجعل البحر طريقاً يبساً، فماذا قال لسيدنا موسى ؟ قال:

(اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ(63))

(سورة الشعراء)

وفي آية أخرى:

(اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ(60))

(سورة البقرة)

إذاً يجب أن تأخذ أنت بالأسباب، والسيدة مريم، كان الله عزّ وجل في قدرته أن يسقط عليها التمر لكن قال:

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ(25))

(سورة مريم)

إذاً لا بدّ من السبب، لا بدّ من التحرُّك، وعندئذٍ ربنا سبحانه يقدِّم لك كل شيء.

الله سبحانه وتعالى ينزّل علينا أسباب الرزق وهو المطر ونحن علينا أن نعمل:

ربنا عزّ وجل قال:

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(22))

(سورة الذاريات)

بعض المسلمين يفهمون هذه الآية فهماً خاطئاً، يقول: على الله الرزق، معنى كلمة الرزق في هذه الآية تعني المطر فقط، يعتقدون أن الأمطار وحدها تكفي ؟ ألا تحتاج إلى زرع البذور ؟ إلى غرس الأشجار ؟ إلى تسميد التربة ؟ إلى حرث التربة ؟ إلى قطف الثمار ؟ إلى معالجة الآفات التي تعيب الأشجار ؟ فمن يدّعي أن الرزق على الله عزّ وجل أخذاً من هذه الآية:

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(22))

(سورة الذاريات)

هذا فهمٌ مغلوط، معنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى ينزّل عليكم أسباب الرزق وهو المطر، وأنتم عليكم أن تعملوا.

أدلة من الكتاب والسنّة على ضرورة العمل وطلب الرزق:

الدليل:

(وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ رِزْقًا(13))

(سورة غافر)

وقال:

(وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا(48))

(سورة الفرقان)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اطلبوا الرزق في خبايا الأرض))

[رواه أبو يعلى والطبراني والبيهقي بسند ضعيف عن عائشة]

هناك إشارات:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى(6))

(سورة طه)

أيْ أنّ الله عزّ وجل أودع في الأرض طاقات مذهلة، طاقات كامنة، أودع فيها ثروات لا يعلمها إلا الله، فكلّما تقدّم العلم اكتُشِفَ شيءٌ جديد ما كان في الحُسبان، الله عزّ وجل على كل شيءٍ قدير. نبقى في إطار هذه الآية يقول عليه الصلاة والسلام:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلا فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

فهمٌ سقيمٌ خاطئ حينما يَفْهَمُ المسلم أن الحياة بالتوكُّل:

العمل شرف، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ - الطير كيف ترزق، هل تبقى في أعشاشها ؟ قال - تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا))

[سنن ابن ماجة عن عمر]

إذاً هي في غدو، في رواح، وفي حركة، ولا بد من سعي، ولا بد من طَلَب، وكذلك الأخذ بالأسباب، إذاً فهمٌ سقيمٌ خاطئ حينما يَفْهَمُ المسلم أن الحياة بالتوكّل، والحياة بالاستلقاء، والحياة بالتلقي، لا إن الحياةَ بالعمل، وحجمُك عند الله بحجم عملك، والآيات، والأحاديث، والسيَرُ، وآثار أصحاب رسول الله والتابعين والعلماء الأجلاء كلها تؤكِّد أن العمل شرف.

أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزوّدون، ويقولون: نحن المتوكِّلون، فمرة قال لهم سيدنا عمر: **" كذبتم، المتوكل مَن ألقى حَبّةً في الأرض ثم توكّل على الله ".**

حتى إنّه قد نزل فيهم قرآن، وقد نزل فيهم قوله تعالى:

(وَتَزَوّدُوا فَإِنّ خَيْرَ الزّادِ التّقْوَى(197))

(سورة البقرة)

إذا ذهبت إلى الحج فتزوّد، أما أنْ تكون عالةً على الناس، وأن تأكل من طعام الناس، ومِن فتات الناس، فهذا لا يليق بالمسلم.

التوكّل محله القلب والعمل مكانه الجوارح:

هذه الآية:

(وَتَزَوّدُوا(197))

(سورة البقرة)

يؤخذ منها أحكامٌ كثيرة، فالتوكّل معناه أن تأخذ بالأسباب لا أن تأخذ جُهْدَ غيرك ولا أن تكون عالةً على غيرك، عندنا شيء مهم جداً، التوكّل محله القلب، والعمل مكانه الجوارح، فالمسلمون في أيام تأخُرهِم وضعفهم عكسوا الآية، فأصبح توكلهم في الجوارح، وكسبهم في القلب، غلط، التوكل مكانه القلب هو استسلام لله، رضا بحكم الله، بقضائه، لكن الجوارح عليها أن تعمل، الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، سأله أحدهم:

" أريد أن أحج على قدم التوكّل "، فقال: " أخرج وحدك "، قال: " لا، أريد أن أكون مع الناس "، قال: " إذاً أنت متكلٌ على أجربتهم ".

أي على طعامهم وشرابهم، إذا كنت تريد أن تخرج مع الناس فأنت متوكلٌ على أجربتهم لا على الله عزّ وجل، لو أنك توكّلت على الله لسعيت في كسب الرزق، ولأخذت معك زاداً إلى الحج، إذاً كل هذه المعاني مستنبطة من أن هذه الآية أصلٌ في كسب الرزق وطلبه.

الأسواق هي أبغض البلاد إلى الله لأنها تشعر الفقير بحرمانه:

شيءٌ آخر، يقول النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة:

((أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَى اللّهِ مَسَاجِدُهَا وَأَبْغَضُ الْبِلادِ إِلَى اللّهِ أَسْوَاقُهَا))

[صحيح مسلم عن أبي هريرة]

يا ترى ما السبب ؟ لأن السوق فيها بضاعة، بضاعة مُزَيّنَة، معروضة عرضاً شيّقاً، يمر الفقير ويمر

الغني، فقد يمر الفقير وليس في إمكانه أن يشتري هذه البضاعة، يشعر بالحِرمان، يشعر أن الله قد حَرَمَهُ الدنيا، فعرضُ البضائع وتزيينها، وإغراء الناس بشرائها، وبيان ميّزاتها، فهل كل إنسان يملك ثمن هذه البضاعة ؟ فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((وشرها أسواقها))

وهناك شيء آخر، الأسواق تحبب بالدنيا، يروى أن امرأة دخلت مكاناً للبيع فخماً جداً، فقالت: " يا إلهي، طبعاً، ما أكثر الحاجات التي لا يحتاجها الإنسان ".

كلها أشياء كمالية، الأساسية موجودة، معظم الناس الأشياء الأساسية موجودة ؛ من طعامٍ وشرابٍ ومأوى ولباس، ولكن التسابق، والتنافس، والتناحر، ودفع الدين مُقابل الدنيا، والكذب، والنفاق، والتملق، والكفر، والإلحاد من أجل الرفاهية لا من أجل متاعٍ أساسي، أليس الله بكافٍ عبده ؟

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[من سنن الترمذي عن سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ عَنْ أَبِيهِ]

فالأساسيات موجودة، ولكن التنافس البغيض، وبيع الدنيا بالدين من أجل الرفاهية والكماليّات، إذاً أولاً: السلعُ تحبّب الناس بالدنيا وقد تصرفهم عن الآخرة، وقد يعظِّم الإنسان صانعي هذه السِلَع، فيراهم أناساً متفوّقين، فإذا عظمهم مَن هَوِيَ الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً، أو أنها تكون أغلى من دخل الإنسان فيشعر بالحِرمان، أو أن هناك اختلاطاً بالنساء، فهذا يؤدِّي إلى الفسوق والفجور، فالنبي هكذا قال:

((أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا وَأَبْغَضُ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا))

[صحيح مسلم عن أبي هريرة]

هذا فضلاً عن بيوعٍ فاسدة، وأيمانٍ باطلة، وانحرافات سلوكية، ونظرٍ للحرام ؛ هذا كله في الأسواق.

الله عز وجل جعل بعض الناس لبعضهم فتنة:

لذلك الإنسان إذا جاء للمسجد وشعر بسرور وراحة، فهذه علامة طيبة، والمؤمن في المسجد كالسمك في الماء، والمنافق في المسجد كالعصفور في القفص، دائماً متضايق:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا(20))

(سورة الفرقان)

هذه آية دقيقة جداً، الله سبحانه وتعالى جَعَلَ الفقير فتنة للغني، أيحتقره ؟ أيحرمُهُ ؟ فُتِنَ الغني، وجعل الغني فتنة للفقير، أيعظِّمَهُ من دون الله ؟ أيتضعضع أمامه ؟ أيأخذ منه ما ليس له ؟ أيحسده ؟ فالغني

فتنةٌ للفقير، والفقير فتنةٌ للغني، وجعل القوي فتنةً للضعيف، أيستكين هذا الضعيف ؟ أتنهار معنويّاته ؟ أيحسده ؟ وجعل الضعيف فتنةً للقوي أيستطيل عليه ؟ أيبغي عليه ؟ أيحتقِرُهُ ؟ وجعل الصحيح فتنةً للمريض، وجعل المريض فتنةً للصحيح، وجعل العاجز فتنةً للسليم، وجعل السليم فتنةً للعاجز، هذا معنى قوله تعالى:

(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ (20))

(سورة الفرقان)

الحظوظ موزعة في الدنيا توزيع ابتلاء و في الآخرة توزيع جزاء:

وعلى مستوى النساء جعل التي تفوّقت في جمالها فتنةً للتي تَدَنّى َ مستوى جمالها، فالمؤمنة إذا عرفت ربها واستقامت على أمره فهي عنده غالية جداً، وربما أسعدها في الدنيا والآخرة، أتندب حظّها ؟ أتنسى نعمة ربّها عليها ؟ أتغمط نعمة الإيمان ؟ نعمة الهدى ؟ وقد جعل الله سبحانه وتعالى الأخرى فتنةً للأولى، أتستعلي عليها ؟ أتباهيها بجمالها ؟ فهذه الحظوظ الموزعة على ذويها في الدنيا وزّعت توزيع ابتلاء، وسوف توزّع في الآخرة توزيع جزاء:

(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (20))

(سورة الفرقان)

تلتفت أحياناً إلى ذاتك، فترى أن اللهَ جَعَلَكَ صحيح البدن، وترى إنساناً آخر مُبتلى بأمراض كثيرة، أتقول: أنا متعني بصحتي ؟ لا. قل: يا ربي لك الحمد أنت أكرمتني بهذه الصحة، وأرجو الله أن يشفي فلاناً، هذا على مستوى المال، على مستوى الصحة، على مستوى القوة، على مستوى الجاه، أنت عندك بيت تملكه، وفلان ليس له بيت يملكه، فتقول له موبخاً: ألا تشتري بيتاً ماذا جرى لك ؟ فهل شراء البيت بيده ؟ هذا كلام فيه كِبْر، كلام فيه عجرفة، فالله عزّ وجل أكرمك ببيت، والآخر لا يملك بيتاً، أحياناً بعض الناس يؤتيهم اللهُ أشياء بالدنيا فينسَوْا أنه فضلٌ مِن الله، يظن أنه بذكائه، وحنكته، يستعلي بها على الآخرين، فالغني مفتون بالفقير، والفقير مفتون بالغني، والضعيف مفتون بالقوي، والقوي مفتون بالضعيف، والصحيح مفتون بالعليل، والعليل مفتون بالصحيح، والكبير بالصغير، والصغير بالكبير، وصاحب الحسب والنَسَب مفتون بمن ضعف حسبه ونسبه.

الإنسان دائماً ممتحن وعلامة معرفتك بالله صبرك على حكمه:

إن الإنسان إذا نجّاهُ الله عزّ وجل مِنَ الفتنة فعليه أن يحبس نفسه عن كل ما يفتُنهُ، فالغني يحبس نفسه عن البطر والفقير عن الضَجَر، الغني يجب أن يحبس نفسه عن البطر، والفقير يجب أن يحبس نفسه عن الضجر، والفتنة في أدق تعاريفها:

" أن يحسد المبتلى المعافى، وأن يحقر المعافى المبتلى ".

واللهِ أنت دائماً ممتحن، أصابك شيء مزعج ممتحن، لم تصبر، لم تتجمل، لم ترض، أصابتك نعمة فأنت ممتحن، لم تشكر، لم تتواضع، لم تخضع لله عزّ وجل، فأنت على الحالتين ممتحن، في العطاء والمنع، في القوة والضعف، في الغنى والفقر، في الصحة والمرض، في إقبال الدنيا وفي إدبارها.

(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ (20))

(سورة الفرقان)

أتصبرون على حكم الله، لا يصبر إلا من عرف الله عزّ وجل، فعلامة معرفتك بالله صبرك على حكمه، لذلك قال سيدنا علي:

" الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين ".

قال تعالى:

(وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (20))

(سورة الفرقان)

كلما عرفت الله تواضعتَ له ورأيت فضله:

تكلم ما شئت، لكن الله هو البصير يعلم السر وأخفى، فشعورك الداخلي، إعجابك بنفسك، تواضعك لله، اعتزازك بذاتك، استكبارك، كله عند الله معلوم ومكشوف، لذلك جاء في بعض الأحاديث الشريفة: ويلٌ للعالم من الجاهل.

العالم ويلٌ له من الجاهل، يحتقره ؟ فهو أجهل منه، لا يعلمه، فقد عبر عن بخله بأن كتم العلم، وويلٌ للعالم من الجاهل وويلٌ للجاهل من العالم، لا يتعلم منه، يستكبر عليه، يعرض عنه، ويلٌ للمالك من المملوك، ويل للمملوك من المالك، ويلٌ للسلطان من الرعية، ويلٌ للرعية من السلطان، حديث طويل، فكما قال الله عزّ وجل:

(وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ (20))

(سورة الفرقان)

ويلٌ للضعيف من القوي، والقوي من الضعيف، فأنت ممتحن في كل الأحوال، في إقبال الدنيا وفي إدبارها انتبه:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

فكلما عرفت الله تواضعتَ، وكلما عرفت الله رأيت الفضل، وكلما عرفت الله عزوت الفضل لأهل الفضل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (07-13): تفسير الآيات 21 - 31

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-04-28

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة الفُرقان.

الفرق بين المؤمن وغير المؤمن:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا(21))

(سورة الفرقان)

الحقيقة إذا كان هناك من فرقٍ أساسي بين المؤمن وبين غير المؤمن هو أن المؤمن يرجو الله واليوم الآخر، وأن الكافر لا يرجو الله ولا يرجو اليوم الآخر، ما معنى لا يرجو ؟ أي لا يخاف، ما معنى لا يرجو ؟ أي لا يأمُل ولا يخاف ولا يطمع ولا يريد، أيْ أنّ الآخرةَ كلّها خارج الحساب، الدنيا أكبر همِّه ومبلغ علمه:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا(7))

(سورة الروم)

الدين له حقيقة وله شكل، شكله أن تصلِّي، شكله أن تصوم، ولكن حقيقة الدين أن تنتقل اهتماماتك من الدنيا إلى الآخرة، أن تنتقل آمالك من الدنيا إلى الآخرة، أن تنتقل مخاوفك من الدنيا إلى الآخرة، فالمؤمن يطمع أن يكون في مقعد صدقٍ عند مَليكٍ مقتدر، وربّما لا يطمع في الدنيا، يكفيه من الدنيا القليل، يكفيه من الدنيا ما أوصله إلى هدفه، المال عنده وسيلة، المؤمن يريد من الدنيا ما يُعينه على التقرُّب إلى الله عزّ وجل، يجعل من المال وسيلة للتقرُّب إلى الله عزّ وجل، إذا كان قوياً فيجعل قوّته في سبيل مرضاة الله عزّ وجل، إذاً المؤمن يأخذ من الدنيا بقدر ما يعينه على طاعة الله عزّ وجل، بقدر ما يعينه على التقرُّب منه، لذلك فالدنيا عند المؤمن في يديه لا في قلبه، وهي وسيلة وليست غاية، لكنّ رجاءه فيما عند الله، لكنّ رجاءه في مرضاة الله، في القرب من الله، رجاءه في الجنّة وما قرّب إليها من قولٍ أو عمل، يحبُّ الله، ويحب مَن يحبّه، ويحبُّ كل عملٍ يقرّبه إلى حبّه، هذا هو الفرق بين المؤمن وغير المؤمن.

الرجاء متعلِّق بالمعرفة فكلّما عرفت الله رجوته:

ربنا عزّ وجل قال:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا (21))

(سورة الفرقان)

لا يعلِّق أهميّة على هذا اللقاء، لا يفكِّرُ فيه، لا يخاف ذلك الموقف العصيب، لا يرجو أن يكون عند الله رَضِيّاً:

(لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا (21))

(سورة الفرقان)

لماذا لا يرجون ؟ أهُم من بنيةٍ خاصّة ؟ أهم من جِبِلّةٍ خاصّة ؟ لا والله جبلّة البشر واحدة، ما الذي جعلنا نرجو وجعل الكفّار لا يرجون ؟ هو العلم، عَلِمَ أن ما عند الله شيءٌ ثمين، وأن عذابه عظيم، وأن القُرب منه سعادة لذلك رجا ما عنده، فهذا الرجاء ليس اعتباطيّا، وليس الرجاء غير منضبطٍ بقاعدة، الرجاء منضبطٌ بالمعرفة ؛ فإذا عرفت ما عند الله رجوته، وإذا جهلت ما عنده فلا ترجوه.

أنت في حياتك اليوميّة ترجو أناساً ولا ترجو آخرين، هؤلاء الذين ترجوهم تعرف حجمهم الحقيقي، وتعرف مقدار تأثيرهم في حياتك إذاً ترجوهم، لكنّ أناساً في نظرك تافهين لا يقدِّمون ولا يؤخِّرون، أو تجهل قيمتهم، أو تجهل حجمهم لا ترجوهم، فالرجاء متعلِّق بالمعرفة، فكلّما عرفته رجوته، كلّما عرفته خِفْتَ منه، كلّما عرفته طَمِعْتَ فيما عنده، كلّما عرفته سعيت إليه.

من إكرام الله سبحانه وتعالى أنه جعل لنا أبواباً واسعة للخير:

ربنا عزّ وجل جعل الرجاء في القرآن مرتبطاً أشدّ الارتباط بالعمل، قال:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا(110))

(سورة الكهف)

باب الله مفتوح على مصاريعه لكلّ الخلق، فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ، وهذه تجربة توضَع بين يديك، اعمل عملاً خالصاً لوجه الله لا تبتغي به سمعةً، ولا ثناءً، ولا مديحاً، لا تبتغي به أن يُشار إليك بالبنان، اعمل عملاً صالحاً لا تبتغي به إلا وجه الله عزّ وجل، وانظر كيف أن الله يتجلّى عليك، وانظر كيف تقول: أنا أسعد الناس، هذا شيءٌ ملموس:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا(110))

(سورة الكهف)

وما أكثر الأبواب المُفَتَّحة للأعمال الصالحة، ما أكثر الأعمال الصالحة ؛ تبسُّمك في وجه أخيك صدقة، أن تميط الأذى عن الطريق هو لك صدقة، أن تحسن إلى والديك هو لك صدقة، أن تضع اللقمة في فم زوجتك هو لك صدقة، أن تُقدِّم خبرتك، وقتك، علمك، مالك، هو لك صدقة، فأبواب الخير مفتَّحة على مصاريعها، والله سبحانه وتعالى من إكرامه لنا أنه جعل لنا أبواباً واسعة للخير.

جعل فيك الإحساس بالجوع، أنت بهذا الإحساس تأكل فتشكر، وتُطْعِم فترقى، إذا أطعمت الجائع فقد ارتقيت إلى الله عزّ وجل، جعل الإنسان يولد عارياً، فإذا ألبست إنساناً ثياباً فقد تقرّبت إلى الله عزّ وجل، فالذي يؤثِّر في النفس أنّ هذا الذي لا يرجو الله لماذا لا يرجوه ؟ لأنه جهله.

إذا لم تعرف الله بالقواعد المعجزة فلن تعرفه بخرق القواعد:

إذاً ما هو أعدى أعداء الإنسان ؟ إنه الجهل، أعدى أعداء الإنسان أن يجهل الإنسان ربّه، وقديماً قالوا: الجاهل عدوٌ نفسه:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا (21))

(سورة الفرقان)

هؤلاء استكبروا، يريدون أن تأتيهم الملائكة لتقول لهم: هذا رسول الله، مع أن الملائكة لا يستطيع الإنسان أن يراها إلا عند الموت، تُرحِّب به ؛ أو تدفعه إلى مقامه في النار، المَلَك لا يُرى إلا عند الموت، لأن الإنسان إذا جاءه الموت تأتيه الملائكة بصُوَر أحبِّ الناس إليه ؛ بإخوانه، بأحبابه، بأقربائه، بأصدقائه، بمن هو عزيزٌ عليه، يأتي مَلَك الموت في صورة إنسانٍ عزيز عليك يبشِّرك بالجنَّة، عندئذٍ يقول المؤمن: لم أرَ سوءًا قط، لأنه يرى النتيجة فينسى كل متاعب الحياة، وقد تأتي الملائكة على شكل زبانية يسوقون الإنسان إلى القبر وكأنّه حفرةٌ من حفر النيران، فالملائكة لا نراهم في الدنيا، ولن نراهم إلا عند الغرغرة ساعة الاحتضار، هؤلاء الذين لا يرجون لقاءنا يقولون:

(لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ (21))

(سورة الفرقان)

الملائكة لو أُنْزِلت وقالت: هذا رسول الله، أتكتفي بهذه المعجزة ؟ القرآن معجزة، عندما خرجت الناقة من الجبل فهل اكتفى بها قوم صالح ؟ هل آمنوا بعد رؤيتها ؟ لم يؤمنوا بها، لمّا أصبح البحر طريقاً يبساً، هل اكتفى به بنو إسرائيل ؟ لمّا رأوا عجلاً جسداً له خوار قالوا: هذا إلهنا، وقوم إبراهيم لما رأوا النار أصبحت برداً وسلاماً، هل آمنوا ؟ ما آمنوا، فإذا أنت لم تؤمن بالمعجزة الأساسيّة وهي الكون في وضعه الراهن لن تؤمن بخرق قوانينه، هذا الكون هو نفسه معجزة، فإذا لم تفكِّر فيه، ولم تنتقل من الكون إلى المكوِّن، ومن النظام إلى المنظِّم، ومن الصنعة إلى الصانع، ومن الخلق إلى الخالق، ومن

التسيير إلى المُسَيِّر، إذا لم تنتقل بما هو قائمٌ بالشكل الطبيعي فلن تعرف الله بخرق القواعد، إذا لم تعرفه بالقواعد المعجزة فلن تعرفه بخرق القواعد، وهذه حقيقةٌ ثابتة.

القرآن بنظمه وبيانه، بإعجازه وأحكامه معجزة، فآمن به من دون خرقٍ للعادات:

أنت لا تطلب من الله خرق العوائد، لا تتعرّف إلى الناس بأن تقول: يا أخي هذا وليّ، كيف عرفت أنه وليّ ؟ رأيته يمشي على وجه الماء، لا، بل استمع إلى كلامه، إذا كان كلامه صحيحاً مأخوذاً عن كتاب الله، فهو إذاً معه دليل وهذه أكبر كرامة، كرامة العلم أعظم كرامة، لا تبنِ حياتك على خرق القوانين، مُعظم العوام، معظم ضعاف العقول لا ينقادون إلا بخرق القواعد، لا يعتقدون بالأشخاص إلا إذا خُرقت لهم العادات، لكنّ هذا القرآن بنظمه وبيانه، بإعجازه وأحكامه، بحلاله وحرامه، بصياغته، بأخباره هو نفسه معجزة، فآمن به من دون خرقٍ للعادات:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ (21))

(سورة الفرقان)

لولا، هذه حرف تحضيض أو حرف امتناع لوجود:

(أَوْ نَرَى رَبَّنَا (21))

(سورة الفرقان)

ربنا عزّ وجل لا يمكن أن نراه:

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا(143))

(سورة الأعراف)

ربنا عزّ وجل تجلّى على الجبل فجعله دكّاً، فمن أنت حتى تستطيع أن ترى الله عزّ وجل ؟ في الدنيا لا نستطيع أن نرى الله.

رؤية المؤمن لله عز وجل يوم القيامة بنص الأحاديث الصحيحة:

الأحاديث الصحيحة تؤكِّد أن المؤمن يوم القيامة يرى الله، ويرى الله رؤيةً كما تروي بعض الأحاديث تجعله يغيب خمسين ألف عام من نشوة النظرة:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(22)إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(23))

(سورة القيامة)

هذا الذي نرجوه، أن نستطيع أن نرى وجه الله، فهؤلاء الكفّار يريدون أن يروا الملائكة ليخبروهم أن هذا الرجل رسول الله، أو أن يروا الله سبحانه وتعالى رأي العَيْن فيقول لهم: هذا رسولي:

(لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا (21))

(سورة الفرقان)

الكِبْرَ يتناقض مع العبوديّة:

هذه مطالب تعجيزيّة، هذه مطالب القصد منها الاستكبار، والامتناع، والعلو:

(لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ (21))

(سورة الفرقان)

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يَدْخُلُ الْجَنّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرّةٍ مِنْ كِبْرٍ))

[صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود]

لماذا ؟ لأنّ الكِبْرَ يتناقض مع العبوديّة:

((لا يَدْخُلُ الْجَنّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرّةٍ مِنْ كِبْرٍ))

لذلك تَمتحن الإنسان وتعرف ما إذا كان قريباً من الله أو كان بعيداً عنه تعرف ذلك من حيث الكِبْر، فهو إما أن يتطاول كبراً فهو الجاهل، وإما أن يتطامَنْ فهو العالِم، الإمام الشافعي يقول:

" كلّما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي ".

قال تعالى:

(لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ (21))

(سورة الفرقان)

الكفار استكبروا وتجاوزوا الحدّ المعقول وأصروا على كفرهم:

المؤمن يرى نفسه صغيراً ويراه الناس كبيراً، الكافر يرى نفسه كبيراً ويراه الناس صغيراً، والدعاء النبوي الشريف:

((اللهم اجعلني في عيني صغيراً وفي أعين الناس كبيراً))

[رواه البزار عن بريدة بن الحصيب]

هذا هو الدعاء النبوي الشريف:

(لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21))

(سورة الفرقان)

عتوا أيْ استكبروا، وتجاوزوا الحدّ المعقول، وأصرّوا على كفرهم:

(عُتُوًّا كَبِيرًا (21))

(سورة الفرقان)

على من تستكبر ؟ على الذي خلقك من ترابٍ ثمّ من نطفةٍ ثم سوّاك رجلاً ؟ على من بيده كل أجهزتك؟ لو أنه عطّل أحد الأجهزة لأصبحت الحياة جحيماً، على من تستكبر ؟ على من لو أنه جَمّد في عروق دماغك نقطةً من دم لأصبح الإنسان مجنوناً، أو لأصبح مشلولاً، أو لأصبح أعمى، على مَن تستكبر ؟ فأنت إذا استيقظت يوماً ما معافى في جسمك أيْ أنّ آلاف الأجهزة تعمل بانتظام، ولو أنّ أحدها اختلّ اختلالاً طفيفاً لانقلبت الحياة إلى جحيم، على من تستكبر ؟ هل تملك سمعك ؟ هل تملك بصرك ؟ هل تملك عقلك ؟ هل تملك أوردتك، أوْعِيتك، أعصابك، عضلاتك، قوّتك، هل تملك محاكمتك ؟ هل تملك توازنك ؟

لابدّ للمتكبر أن يصيبهُ الله سبحانه وتعالى بمشكلةٍ تكشفُ ضعفه وزَيْفَهُ:

جهاز صغير جداً في الأذن الوسطى ـ جهاز التوازن ـ لو أنه التهب لا تستطيع أن تسير على قدميك، يختل التوازن، سمعتُ أن إنساناً كان مولعاً بالسيْر في الطرُقات العامّة المزدحمة بالنساء ليمتّع نظره بمرأى الحسناوات، أصيب بمرضٍ اسمه ارتخاءٌ في الجفون، هذا الشيء قد لا يخطر على بال، هذا الجفن وهو مرتفع هذا بيدك أمره ؟ لو أن الله عزّ وجل جعله يرتخي ويغلق العين، ولا تستطيع أن ترى إلا إذا رفعت جفنك بيديك فماذا تملك ؟ حركة المستقيم التي بها تفرغ ما في أمعائك بيدِ من ؟ لو أنها تعطّلت لصرت في حالٍ لا يحتمل، تصبح الحياة عبئاً لا يُطاق، لو أن العضلات القابضة للمثانة انحلّت، مَن يحتملك في البيت ؟ مَن يخدمك ؟ كيف تقعُدُ بين الناس ؟ عندئذٍ يحتاج الإنسان إلى فُوَط، على من تستكبر ؟ على الذي خلقك من ترابٍ ثمّ من نطفةٍ ؟ خرجت من عورةٍ ودخلت في عورةٍ ثم خرجت من عورة، من ماءٍ مهين، تستحي بهذا الماء، على من تستكبر ؟ لذلك: طوبى لمن تواضعَ عن رفعةٍ، وأنفق عن غُنيةٍ ".

نِعْمَ العبدُ عبدٌ عرف المبتدى والمنتهى:

(لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (21))

(سورة الفرقان)

والمتكبّر لابدّ أن يظهر على حقيقته، ولابدّ أن يصيبهُ الله سبحانه وتعالى بمشكلةٍ تكشفُ ضعفه، وتكشف زَيْفَهُ.

(يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ (22))

(سورة الفرقان)

الملائكة تُرى عند الموت لتبشِّر المؤمنين بالجنّة أو لتنذر المجرمين بالعذاب:

طبعاً إنّ الكفّار يرون الملائكة ولكن عند الموت، هؤلاء الملائكة لا يبشِّرون الكافرين بل ينذرونهم عذاب يومٍ أليم:

(يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا (22))

(سورة الفرقان)

أيْ يحجزونهم عن أن يتطلّعوا إلى الجنّة وما فيها، أنتم هنا مكانكم، الملائكة تُرى عند الموت، ولكن لتبشِّر المؤمنين بجنّةٍ عرضها السماوات والأرض، أو لتنذر المجرمين عذاب يومٍ أليم، وتسوقهم إلى البرزخ، وما فيه من عذابٍ أليم.

سبحان الله هذه الآية:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

(سورة الفرقان)

هناك أعمال ضخمة بالحياة، يُقال لك: هذا أطول جسر في العالم، وهذا إنجاز حضاري كبير، هذه أعلى بناية في العالم، هذه أكبر مركبة في العالم، هذه أكبر ناقلة نفط في العالم، هناك أبنية مشادة تعد إنجازاً حضارياً كبيراً، وكذلك هناك معامل ضخمة في العالم، وترع حُفِرَت، وجسور أُقيمت، وأراضٍ استصلحت، ناهيك عن السدود التي أُقيمت، هذه كلها أعمال ضخمة، لكن عندما لا يكون هدف الإنسان إرضاء الله عزّ وجل فإن ربنا عزّ وجل قال:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ (23))

(سورة الفرقان)

فالحروب الضخمة التي جرت في العالم وذهب ضحيّتها عشرات الملايين، هؤلاء الذين تربّعوا على عرش النصر، هذا العمل ماذا فعلوا به ؟ فكل عملٍ لا يكون قصده إرضاء الله عزّ وجل، فالله سبحانه قال عنه:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

(سورة الفرقان)

الله رب النوايا والنيّة أساس العمل:

الهباء هي أوراق الأشجار اليابسة، الهباء التُراب الناعم، الهباء ذرات الماء المتطاير، الهباء الحجارة الصغيرة، الهباء ذرّات الـهباب ـ ذرات الفحم ـ شيءٌ تافه لا قيمة له إطلاقاً:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

(سورة الفرقان)

الإنسان أحياناً يعمِّر بيتاً، يعتني به عناية بالغة، يقول لك: أربع سنوات وأنا أكسوه، وربما لا يُتاح له أن يسكنه، إذا خرجَ منه إلى القبر، فماذا استفاد من هذا البيت ؟ هذا:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

(سورة الفرقان)

وبعض الناس أحياناً يعمل عملاً له ضجيج كبير لكن عند الله ليس له وزن، العمل الصالح هو الذي يعمله الإنسان ابتغاء مرضاة الله عزّ وجل وفيه نفعٌ للناس فيه نفع كبير، قال تعالى:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

(سورة الفرقان)

هناك أعمال تلفت النظر، في الدنيا أعمال تُمْتِع، فيها أعمال فنيّة تضحك، تطالعك أعمالٌ مسرحيّة، وأعمال قصصيّة، وأعمال في التأليف، وأعمال في البناء، وأعمال كالمعارض، وجسور معلقة رائعة التصميم، وأشياء كثيرة جداً غيرها، فإذا الإنسان ابتغى من إقامة مُنشأة خدمة المسلمين والتخفيف عنهم فهذا عمل عظيم، وإذا عمل عملاً هدفه نفع البشريّة، ويبتغي وجه الله تعالى فهذا عمل عظيم كذلك، لأن الله رب النوايا، النيّة أساس العمل.

((إِنّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيّاتِ))

[صحيح البخاري عن عمر بن الخطّاب]

كل عملٍ ترضي به الله عزّ وجل وتقصد به وجهه الكريم يمتدُ أثره إلى الآخرة:

الإنسان بشكل عام يتزوّج بنيّة أن يحصن نفسه، وبنيّة أن يهدي زوجته، وأن ينجب ذريّة صالحة، فهذا عمل عظيم لأن أثره يستمر إلى الآخرة، أيّ عملٍ ترضي به الله عزّ وجل، أو تقصد به وجه الله عزّ وجل يمتدُ أثره إلى الآخرة، لكنْ أيُ عمل تستهدف الاستمتاع فيه، المتعة الرخيصة مهما كان فهو هباء، فهناك صالات قِمـار ـ مثلاً ـ يقول لك: الصالة كلّفت أربعين مليوناً، صالة قِمار، هذا العمل يوم القيامة يُسْأل عنه: ماذا فعلت يا عبدي ؟ فيقول: والله أنشأت صالة قمار ليس لها مثيل:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

(سورة الفرقان)

بعض الأعمال أساسها إثارة الشهوات، فهناك معامل ضخمة تصدّر أفلاماً معيّنة تثير شهوات الشباب أحياناً وغرائزهم، وهناك أعمال معيّنة غايتها منكرة كذلك، فما كل عمل يرضى عنه الله عزّ وجل ؛ بل العمل الذي تبتغي به وجه الله أولاً، وتبتغي به نفع المسلمين ثانياً، هذا العمل الذي يمتدُ أثره إلى ما بعد

الموت، هذا العمل الذي يأتي كالجبال، حتى النبي عليه الصلاة والسلام قال: الإنسان حينما يطعم لقمةً في سبيل الله يراها يوم القيامة كجبل أحد.

حينما صعد بعضهم إلى القمر، وكلّفت هذه الرحلة أربعة وعشرين ألف مليون من العملات الصعبة، فهذا عمل وصفه بعضهم بأنه عمل دعائي، ماذا فعلت للبشريّة ؟ هل خفّفت من آلامها ؟ هل بحثت عن دواءٍ للأمراض المستعصية ؟ هل أمّنت سكناً لهؤلاء الناس؟ العمل الصالح هو الذي ينفع الناس ويرضي الله سبحانه.

كل عمل لا يبتغي به صاحبه رضوان الله عزّ وجل فهو عمل ضلالة وسفاهةٍ:

لو فرضنا واحداً عنده أسرة بحاجة لدخلِهِ، فأنفق دخله على زينته الشخصيّة، فهذا العمل لا يرضي الله عزّ وجل:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

(سورة الفرقان)

القصد أن هؤلاء الأجانب الكفّار حينما يقدّمون إنجازاً ضخماً لا يبتغون به نفع البشريّة ؛ بل يبتغون ابتزاز أموالها، ونقل الثروات من هذه الدول الفقيرة إلى الدول الغنيّة، هذه الأعمال ولو بدا أنها إنجاز عظيم، فمثلاً ممكن بمشروع ضخم أن يعطي القمر الصناعي كل محطّات العالم في التلفزيون، وكلها برامج تسيء إلى أخلاق الشباب، فما هذا العمل العظيم ؟ إذا استطعنا أن ننقل كل المحطّات في العالم والنوادي الليلية إلى بيوتنا، ما هذا العمل العظيم ؟ فكل عمل ولو بدا أنه عظيم جداً ما دام هدفه ليس نفعَ المسلمين، وليس يبتغي به صاحبه رضوان الله عزّ وجل فهو عمل ضلالة وسفاهةٍ، ربنا عزّ وجل قال:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23))

(سورة الفرقان)

لا قيمة له، شخص ما مثلاً لو كان معه شيك بمبلغ ضخم وهو معتز فيه، فلمّا قدّمه ليصرفه ظهر أنه مزوّر، فكيف يحس بالإحباط ؟ كان لديه عملة وكانت مزيفة باطلة فمهما كثرت لا قيمة لها، فربنا عزّ وجل يوم القيامة، إزاءً هذا الذي ظنّه الكافر إنجازاً ضخماً:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا (23) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا(24))

(سورة الفرقان)

البطولة أن تكون آخر من يضحك لا أن تكون أول من يضحك:

الحقيقة فإنّ البطولة في هذه الساعة أنّ الغنى والفقر يعرفان حقاً بعد العرض على الله، البطولة أن تكون آخر من يضحك لا أن تكون أول من يضحك، هناك من يحقق شيئاً في الحياة الدنيا فيفرح، هذا الفرح لا قيمة له:

(لا تَفْرَحْ إِنّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ(76)وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا)

(سورة القصص)

فالذي يفرح بالدنيا هذا محدود التفكير، لأنه مَن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عُقبى، قل لي ما الذي يفرحك أقل لك مَن أنت، هل يفرحك المال ؟ إذاً أنت عبد المال، هل يفرحك الطعام والشراب ؟ فأنت عبد البطن، هل تفرحك الثياب الأنيقة ؟ فأنت عبد الخميصة، هل يُفرحك اقتناص الشهوات ؟ إذاً أنت عبد الفرج، هل يفرحك أن تكون قريباً من الله عزّ وجل ؟ فأنت عبد الله، ما الذي يفرحك ؟ وما الذي يحزنك ؟

(أَصْحَابُ الْجَنّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا (24))

(سورة الفرقان)

أيْ استقرّوا في سعادةٍ أبديّة، استقروا في الجنّة:

(وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (24))

(سورة الفرقان)

أي منزلاً، المقيل مكان القيلولة، مكان الراحة.

الملائكة تتنزّل يوم القيامة لتحاسب الناس على أعمالهم فهي موكّلة بحساب الناس:

قال تعالى:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ(54)فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ(55))

(سورة القمر)

وقال:

(وَيَوْمَ تَشَقّقُ السّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (25))

(سورة الفرقان)

من علامات قيام الساعة ومن علامات اليوم الآخر أن السماء تنشق عن غمامٍ، عن سحابٍ لطيف، والملائكة تتنزّل لتحاسب الناس على أعمالهم فهي موكّلة بحساب الناس:

(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرّحْمَنِ (26))

(سورة الفرقان)

بهذه الآية إشارة دقيقة جداً، لو كنت تملك بيتاً أغلى أنواع الملكيّة، ملك حر، معك أوراق رسميّة للملكية، ليس عليه أية مشكلة، ليس معرضاً لِتنظيم، يقع في موقع ممتاز، تحس أن هذا البيت ملكك، لكن هذا ليس ملكاً حقيقياً، لأن الإنسان لابدّ أن يتركه، ربنا عزّ وجل وصف المُلك الحقيقي الذي لا يزول:

(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ (26))

(سورة الفرقان)

الملك الحقيقي هو ما كان ثابتاً مستقراً أما المُلك الذي يزول ليس ملكاً:

إذاً كل أملاك البشر أملاكٌ وهميّة، ما دام هذا القلب ينبض فهذا البيت لك، ما دام هذا القلب ينبض فهذه المركبة لك، ما دام هذا القلب ينبض فهذه المزرعة لك، حسب سجلات الطابو، لكن إذا توقف القلب فليست لك، فالملك الحقيقي هو ما كان ثابتاً مستقرّاً، أما المُلك الذي يزول ليس ملكاً، والنبي عليه الصلاة والسلام سمّى الدنيا عاريةً مستردّة، دار انقطاع، والانقطاع مفاجئ، البناء الذي هو تدريجي في سن العاشرة كذا، وفي السنة الخامسة عشرة كذا، وبالعشرين، بالخامسة والعشرين كذا، وبالثلاثين ملك بيتاً، بالخامسة والثلاثين ملك مركبة، وبالسابعة والثلاثين تزوج، بكذا سنة من عمره اشترى مزرعة، بالسنة الفلانيّة أسّس معملاً، غيّرتَ المفروشات في سنة كذا، الدنيا تتراكم بين منزل، بين أثاث، بين مفروشات، بين معمل، بين سيارة، بين مزرعة، بين متنزّه، أمورك انتظمت، تتراكم، لكن يأتي الموت ليأخذها دفعةً واحدة بثانية واحدة، فهذه المشكلة:

(الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26))

(سورة الفرقان)

يوم عسير، في الدنيا تواجهك أيامٌ عسيرة، إذا كان الإنسان مخالفاً لبعض الأنظمة وضُبط متلبّساً بهذه المخالفة، والعقوبة سنوات طويلة في السجن، وجئت لتُحَاسب أمام القاضي، إذا حاسبك ربّما شعرت بالدوار، فكيف إذا حاسبك الواحد الديّان ؟! حين لا واسطة، ولا سند كفالة، ولا محامٍ بارع له صلة مع القاضي ليدبرك:

(وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26))

(سورة الفرقان)

يا ليتني أثمن ما سيقوله الظالم عما تركه في الدنيا:

ليس من شفيع يشفع لك، ولا مانع يمنعه، ولا مادّة تفسّر تفسيراً آخر لمصلحتك، ولا اجتهاد بمحكمة النقض لمصلحتك:

(وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (26) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ (27))

(سورة الفرقان)

يعضُّ ندماً، يكاد الندم يأكل قلبه:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي (27))

(سورة الفرقان)

يكون الإنسان مسافراً في بلد ثم يعود إلى بلده، قد يقول بعد عودته: يا ليتني اشتريت كذا وكذا، فهذا الذي قال عنه: يا ليتني هو أثمن ما في ذاك البلد، الإنسان كان في الدنيا، ماذا يقول الظالم ؟ يقول: يا ليتني، إذاً يا ليتني أثمن ما سيقوله الظالم عما تركه في الدنيا.

الأحداث والقرآن والكون سُبُل واسعة جداً لمعرفة الله:

أما يوم القيامة:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27))

(سورة الفرقان)

أي السبيل إلى الله، الله عزّ وجل له سُبُل، سبيل الصدقة طريقٌ مفتوحٌ إلى الله، الاستقامة على أمر الله طريق إلى الله، برُّ الوالدين طريق إلى الله، الإنصاف مع الزوجة طريقٌ إلى الله، تربية الأولاد تربيةً حسنة طريقٌ إلى الله، أن تنصح المسلمين في بضائعهم طريقٌ إلى الله عزّ وجل، فالطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، وهناك طريق إلى الله واسع جداً هو أن تتعرّف إليه من خلال الكون، وأن تتعرّف إليه من خلال القرآن، وأن تتعرّف إليه من خلال الأحداث ؛ الأحداث والقرآن والكون سُبُل واسعة جداً لمعرفة الله، لكن في هذه الآية لا بدّ لك من رفيقٍ على هذا الدَرْب، لا بدّ لك من إنسانٍ يقودك إلى الطريق الصحيح، من هنا شُرّعَ أن يلزم الإنسان مجالس العلم، الإنسان وحده قد يضل، وقد يزل، وربما لا يهتدي، وقد يقع في المبالغات، وربما لا يعرف للأشياء حجمها الحقيقي.

تقديم الرسول على السبيل تقديم الأهمّ على المهم:

لذلك:

(يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27))

(سورة الفرقان)

تقديم كلمة " الرسول " على كلمة " السبيل " تقديم الأهم على المهم، فالمدرسة مهمّة لكن الأهمّ منها المُعَلِّم، الجامعة مهمّة لكن الأهمّ منها الأستاذ في الجامعة، الجامع مهم لكن الأهم منه الدعوة إلى الله

فيه، بناؤه شيء والدعوة إلى الله فيه شيءٌ آخر، لذلك من أنواع عمارة المساجد ؛ عمارتها بالبنيان، وعمارتها بالعبادات، وعمارتها بالعلم، فتقديم الرسول على السبيل تقديم الأهمّ على المهم:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى (28))

(سورة الفرقان)

يدعو الكافر بهلاكه:

(لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28))

(سورة الفرقان)

الإنسان لا يخلو من صاحب سيّئ ؛ ينصحه بالمعصية، ينصحه بالبخل، بإمساك ماله، ينصحه بهذه السهرة المُختلطة، ينصحه بهذه النزهة الجماعيّة، ينصحه بهذه الصفقة ولو كان فيها شبهة، يقول لك: لا تدقِق، ينصحه بهذه الزوجة ولو كانت فاجرة، اخترها زوجة لك، ينصحه بهذا البيت ولو كان مُغْتَصَباً، ينصحه بهذا الصديق ولو كان آثماً، فالكافر من شأنه أنه يدلك على الشر:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا(27))

(سورة النساء)

يصبح بين الأزواج والأولاد يوم القيامة عداوة مآل وليست عداوة حال:

قال:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى)

(سورة الفرقان)

يا هلاكي:

(لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28))

(سورة الفرقان)

لذلك من بعض معاني الآية الكريمة:

(إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ(14))

(سورة التغابن)

عداوة مآل وليست عداوة حال، من شأن الزوج أن يحبّ زوجته، ومن شأن الأب أن يحبّ ابنه، لكن لو أن أباً أطاع ابنه وعصى ربّه، لو أن زوجاً أحبّ زوجته وعصى من أجلها ربّه، يرى يوم القيامة أن هذا الولد وهذه الزوجة هما سبب شقائه، وهما سبب حرمانه، لذلك تنشأ عنده عداوةٌ تجاه هذه الزوجة وتجاه هذا الولد، ولذلك يوم القيامة يقول:

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ (29))

(سورة الفرقان)

الذكر هو القرآن الكريم، أضلّني عنه.

احذر عند اختيار أصحابك وإياك أن تختار صاحباً بعيداً عن الله عزّ وجل:

يا أخي لا تدقِق هذا الكتاب ليس لهذا الزمان، غداً حينما تبلُغ الثمانين تتوب إلى الله عزّ وجل، غداً حينما تذهب للحج تُلقي بذنوبك هناك، الآن استغل حياتك، استغل شبابك، أنت عندك أولاد، عندك صغار، عليك أن تأخذ المال من أي طريقٍ كان، هذا صاحب السوء، لذلك قل لي من تصاحب أقل لك من أنت، لا تختر صاحباً بعيداً عن الله عزّ وجل:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا(28))

(سورة الكهف)

لا تطعه، هو متفلت، تائه، أموره كلها خاسرة، وَلَا تُطِعْ:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ(15))

(سورة لقمان)

خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا.

الإنسان بيده الحل الأمثل فهو مخيّر:

قال تعالى:

(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ (29))

(سورة الفرقان)

وهو القرآن:

(بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي (29))

(سورة الفرقان)

يا أخي ربنا عزّ وجل قال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ(30))

(سورة النور)

بينما قرين السوء يقول: لكن يا أخي هذه الآية ليست لهذا الزمان، هذا الزمان صعب، والله صحيح إن هذا الزمان صعب إذاً نمتع أبصارنا بمطاردة النساء:

(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي (29))

(سورة الفرقان)

هذه العلاقة فيها ربا، يقول لك: يا أخي الآن الربا عام معمول به في كل بلد ومكان، هذا بلاء عام، عموم البلوى يعفيك من أسباب تخوفك:

(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي (29))

(سورة الفرقان)

أخي هذه الحالة غير شرعيّة، فيجيبك: ماذا نفعل ما بيدنا حيلة ؟ كلّه كلام ليس له معنى، لا، إنّ بيدك الحل الأمثل، فأنت مخيَّر:

(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29))

(سورة الفرقان)

تخلي الشيطان عن الإنسان عندما يقع:

عندما يقع الإنسان يتخلّى عنه الشيطان:

(إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ(22))

(سورة إبراهيم)

وقال:

(وَقَالَ الرَّسُولُ (30))

(سورة الفرقان)

النبي عليه الصلاة والسلام:

(يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30))

(سورة الفرقان)

تركوه، بعضهم قال: **" هذا قول النبي في الحياة الدنيا حينما رأى معارضة قومه له ".**

وبعضهم قالوا: **" هذا قول النبي في الآخرة ".**

أن تهجر القرآن ليس معنى هذا ألا تقرأه بل له معانٍ أخرى كثيرة:

على كلٍ:

(إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30))

(سورة الفرقان)

أن تهجر القرآن ليس معنى هذا ألا تقرأه، فمن معانيه ألا تقرأه، ومن معانيه أيضاً ألا تحاول فهمه، من معانيه ألاّ تعمل به، ومن معانيه ألا يدخل هذا الكتاب في حياتك اليوميّة، هو داخل عند الموت فقط، عند

التعازي، في أمسيات التعزية يتلى القرآن، ممكن أن يقدِّمه أحدٌ هديّة، تقبله كهديّة ليوضع في مكان بارز في المكتبة، ومن الممكن وضعه في مركبتك في المقدِّمة ليراه الآخرون، ممكن أن تجعل في محلِّك التجاري بعض آياته، لكنك لا تتعاملُ معه تعاملاً حقيقياً، أنت لا تحلُّ حلاله ولا تحرّم حرامه، ولا تأخذ بوعده ولا بوعيده، ولست مصدّقاً ما فيه، فلو أن إنساناً جاءه خطيب لابنته ليس ديّناً إطلاقاً، لكنْ له مال ومكانة، فإنه يزوّجه ابنته، فإن هذا الإنسان لو كان يقرأ كل يوم ختمة فرضاً، أو كل ثلاثة أيام ختمة لما أفاد شيئاً، فهو حينما قرأ قوله تعالى:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ(221))

(سورة البقرة)

فإن لم يصدق كلام الله تعالى، ولا أخذ به، ولا اهتمّ به، ولا عاشه، ولا دخل هذا القرآن في حياته اليوميّة، جعله للتبرُك، بقي القرآن للمناسبات، فهذا معنى الآية:

(اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30))

(سورة الفرقان)

أدلة من الكتاب والسنة على ضرورة العمل بأحكام القرآن وفهم مضمونه:

هجره في تعامله اليومي، في زواجه، في علاقته بزوجته، في علاقته بأولاده، في علاقته بمجتمعه، وعلاقته بجيرانه، في علاقته بآخرته، علاقته بربّه، علاقته بنفسه، ما أخذ به، جعله كتاباً من التراث، قرأه تبرُكاً، واتخذه زينةً، ولكن ما عمل بمضمونه، فإذا رأى شخص بلاغاً على الحائط بمنع التجوُل وفيه: " تحت طائلة إطلاق الرصاص " فانتبه للورق، انتبه للحَرف، للطباعة، انتبه للتوقيع، انتبه للخاتم، انتبه للصياغة، انتبه، لكن ما انتبه للمضمون، ما فهم مضمون البلاغ، أليس قد ضلّ ضلالاً بعيداً، فجاءته رصاصةٌ فأنهته، أنت عليك أن تنتبه للمضمون، لعبارة ممنوع التجوُل، ادخل إلى البيت فوراً هذا أقل شيء عليك فعله.

فأن تهجره، أيْ ألا تعمل بأحكامه، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ربّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه))

[ورد في الأثر]

وقال:

((اقرأ القرآن ما نهاك، فإن لم ينهك فلست تقرؤه))

[الجامع الصغير عن ابن عمر]

وقال:

((مَا آمَنَ بِالْقُرْآنِ مَنِ اسْتَحَلّ مَحَارِمَهُ))

[سنن الترمذي عن صهيب]

هناك قانون عام أن لكل نبيٍّ عدواً من المجرمين:

قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31))

(سورة الفرقان)

يهديك إلى سواء السبيل وينصرك، وكأنّ هناك قانوناً عاماً أن لكل نبيٍّ عدواً من المجرمين، سيدنا موسى في المناجاة قال: **" يا رب لا تبقي لي عدواً "** فقال الله عزّ وجل: **" يا موسى هذه لم تكن لي"،** أي أن هذه ما صارت لله، بمعنى أن هناك أعداءٌ لله كُثُر، فإذا أنت على حق وهناك من يعاديك فهذا شيءٌ طبيعي جداً، إذا كنت:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

إذا كنت على الحقّ المبين وكان لك خصوم مناوئون، معارضون، شامتون، حاسدون لا تهتم بذلك، لأن الله عزّ وجل كفى به هادياً لك إليه ونصيراً لك على خصومك:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31))

(سورة الفرقان)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (08-13): تفسير الآيات 27 - 31

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-05-12

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من سورة الفرقان.

الإنسان الموَفَّقُ في الحياة هو الذي يصل بفكره إلى ما سيكون قبل أن يكون ما يكون:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ (27))

(سورة الفرقان)

أيْ أيها الناس اذكروا ذلك اليوم، والسعيد من وصل إلى الشيء قبل أن يصل إليه، الإنسان الموَفَّقُ في الحياة هو الذي يصل بفكره إلى ما سيكون قبل أن يكون ما يكون، فربنا سبحانه وتعالى يُذَكِّرُنَا بذلك اليوم، وفي هذا اليوم ينتاب المرء حالةٌ من الندم لا تُطاق:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ (27))

(سورة الفرقان)

من هو الظالم ؟ الذي ظلم نفسه أولاً، هذا الذي يدْعُ نفسه جاهلة، يجعل نفسه تنغمس في ملذّات الحياة من دون أن يبصِّرُها بعواقب الأمور، هذا ظالمٌ لنفسه، وهل من ظلمٍ أشد من هذا الظلم ؟

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا(57))

(سورة الكهف)

الندم حالةٌ نفسية من لوازمها أن يَعَضّ النادم على يديه لشدة الخسارة:

هل في بني البشر إنسانٌ أشد ظلماً من ذاك الذي يسمع آيات الله تُتلى عليه ثم يعرض عنها ؟

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا(57))

(سورة الكهف)

فلذلك هذا الذي نسي ربه، ولم يعرّف نفسه بالله عزّ وجل، ولم يبين لها طريق الحَق، ولم يَعْرف أحكام الله في كل شؤون الحياة، هذا الذي آثر الشهوة على العلم، آثر المصلحة على المبدأ، آثر الحاجة على القيمة، هذا الذي آثر المادة على الروح، هذا الذي آثر ما يفنى على ما يبقى، هذا الذي آثر لذّته الآنيّة على سعادته الأبديّة، هذا أشد أنواع الظلم، لا ينصرف ذهنكم إذا تحَدّثنا عن الظلم إلى ظلم الخَلْق فقط، بل إن ظلم النفس أشد أنواع الظلم، فهذا الذي عاش في الحياة مسترخياً من دون أن يفكِّر في عواقب

الأمور، من دون أن يفكر في ساعة الموت، في ساعة الحساب، هذا الذي أعطى نفسه ما تشتهي وتمنّى على الله الأماني، هذا ظالمٌ لنفسه:

(وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(57))

(سورة البقرة)

هذا أشد أنواع الظلم، فهذا الذي ظلم نفسه سيأتي يوم القيامة ويعض على يديه، العرب كانت تقول: فلانٌ عض على أصبُعِهِ ندماً، العض على الأصبع كناية عن الندم، الندم حالةٌ نفسية، من لوازمها أن يَعَضَّ النادم على أصبُعه، ولكن هنا يقول الله عزّ وجل:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ (27))

(سورة الفرقان)

يديه معاً، كلمة على يديه لشدة الخسارة.

الخوف و الندم شعوران ينتابان النفس ويسحقانها:

شعوران ينتابان النفس ويسحقانها، الشعور الأول هو الخوف، والشعور الثاني هو الندم، لذلك ورد في بعض الأحاديث:

((العار يلزم المرءَ يوم القيامة حتى يقول: يا ربي لإرسالك بي إلى النار أهون علي مما ألقى وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

[ورد في الأثر]

عذاب النار حق:

(فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ(10))

(سورة البروج)

ومع ذلك يُضاف إلى عذاب الحريق وإلى عذاب النار الذي يشوي الوجوه، يضاف إلى هذا العذاب النفسي، وطبيعة العذاب النفسي هو الندم، لذلك فالمؤمن حينما يعرف الحقيقة في الوقت المناسب، وهو في قوته، وهو في أوج نشاطه، وهو في شبابه، نعم إذا عرف الحق اتجه نحوه، فإذا تطابقت حركته اليومية مع أهدافه، فهذا أحد أنواع السعادة.

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ (27))

(سورة الفرقان)

الظالم هو الذي ظلم نفسه بإبعادها عن ربها، بإبقائها جاهلة، بإعطائها ما تشتهي لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[مسند أحمد عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

من أراد الجنة و لم يعمل لها فقد أذنب في حقّ نفسه:

هذا الذي يتمنى أن يدخل الجنة ولا يعمل لها، يسأل الله عزّ وجل أن ينجيه من النار وهو يعمل للنار، فهذا ذنبٌ من الذنوب، كما قال الإمام عليٌ كرم الله وجهه:

" طلب الجنة من غير عملٍ ذنبٌ من الذنوب ".

أي أن تقول: أرجو الله أن أدخل الجنة، والعمل لا يتناسب مع الجنة، هذا استهزاءٌ بالله عزّ وجل، أن تخاف من النار، وتعمل العمل الذي يودي إلى النار فهذا استخفافٌ بالنار، لهذا قال أحدهم: قرأت حديثاً أغناني عن علم الأولين والآخرين هذا الحديث يقول:

((اعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها، واتّق النار بقدر صبرك عليها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه))

[ورد في الأثر]

الله سبحانه وتعالى أعطانا العقل، أعطانا هذا الفكر أثمن ما في الكون، هناك مَن يُعَطِّله، هناك من يسيء استخدامه، هناك من يزوّره:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ (27))

(سورة الفرقان)

على يديه مبالغةٌ في وصف الندم، وحالة الندم لا يعرفها إلا من ذاقها، ماذا يقول هذا الظالم الذي ظلم نفسه ؟ الذي أعرض باختياره عن مجالس العلم ؟ الذي أعرض باختياره عن طلب العلم ؟ عن طلب معرفة الله عزّ وجل، أصل الدين معرفته سبحانه، آثر الحياة الدنيا، آثر اللذة، آثر المُتعة، آثر المادة، آثر الشهوة، آثر المصلحة، آثر المال، آثر هذا على مرضاة الله ومعرفته:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27))

(سورة الفرقان)

يا ليتني سرتُ في طريق الحق.

العلم ليس هدفاً بذاته بل هو وسيلة:

في هذه المناسبة الشيء الذي أحب أن ألفت النظر إليه هو أن أناساً فهموا الدين صياماً وصلاةً وحجاً وزكاةً ليس غير، وهناك أناسٌ فهموا الدين دراسة، واطلاعاً، وقراءةً، وتلخيصاً، وتأليفاً وما شاكل ذلك، هذا الجانب جانبٌ فكريٌ في الإسلام، وهناك من فهم الإسلام صلاةً وصياماً وحجاً وزكاةً، هذا جانبٌ

شعائري، والحقيقة كل الحقيقة أن الإسلام يأبى أن يكون فكراً فقط، ويأبى أن يكون شعائر فقط، من فهم الإسلام أنه جانبٌ فكري في الحياة وجعل العلم كل شيء، بل جعل العلم هدفاً ونسي أن العِلم وسيلة، وأن العلم شرطٌ لازمٌ غير كافٍ، ومن فهم الإسلام شعائر تؤدّى بإخلاصٍ أو بغير إخلاص، بمعنى أو من دون معنىً، بإقبالٍ أو من دون إقبال، كلاهما وقع في وهمٍ كبير.

الحقيقة أيها الأخوة أن العلم ليس هدفاً بذاته، فأن تأتي إلى المسجد وأن تستمع إلى تفسير كتاب الله، أن تأتي إلى المسجد وأن تستمع إلى خطبةٍ تُلقى، أن تقتني كتاباً وأن تقرأه، وأن تسعد بقراءته، وأن تحسّ أن فيه أفكاراً لطيفة، وفكراً منظّماً منهجياً، وأن فيه أدلة قوية وتكتفي بهذا، وأنت على ما أنت عليه من مخالفاتٍ، من تقصير، من انحرافات، هذا العلم يصبح سُلّمَاً يهوي بصاحبه إلى الحضيض، الحقيقة أن العلم سُلّمٌ يرقى بك إلى أعلى عليين، وقد يكون هو أيضاً سُلّمَاً يهوي بصاحبه إلى أسفل سافلين، لابدّ من تعريف الحقيقة، العلم وسيلة، والعمل يؤكّد صحة العلم، فالعلم ما عُمِلَ به، فإن لم يعمل به كان الجهل أفضل منه.

فأنا أحذر نفسي وإيّاكم أن نفهم الدين فهماً فكرياً فقط، أن يكون الدين ثقافة، أن يكون كتاباً في مكتبة، أن يكون فكرةً نحفظُها، أن يكون كتاباً نتلوه.

وأحذّر نفسي وإياكم أن نفهم الدين صلاةً وصياماً وحجاً وزكاةً من دون اتصالٍ بالله، ومن دون إقبالٍ عليه.

العلم وحده لا يكفي لابدّ من العلم بالله عزّ وجل وهناك مصادر عديدة لذلك:

الحقيقة كل الحقيقة أن الإنسان بمجرد أن يتعرّف إلى الله عزّ وجل يستقيم على أمره، لأن عملك له علاقةٌ بمعرفتك، العمل صدى للمعرفة، العمل مُنعكَس للمعرفة، فمهما ارتقت معرفتك بالله ظهر هذا على عملك، فهذا الذي لا يعرف الله يعصيه، أما إذا عرفت الله عزّ وجل فلن تعصيه، فليس الإسلام فكراً وثقافة وكتباً، وليس الإسلام صياماً وصلاةً وحجاً وزكاةً ليس غير، الإسلام أن تعرف الله، والإسلام أن تطيعه، فإذا عرفته وعبدته اتصلت به، وإذا اتصلت به قطفت ثماره.

من أجل ألا يكون الكلام استهلاكاً للوقت، من أجل أن يكون الكلام استثماراً للوقت، يجب أن تعرفوا هذه الحقيقة، العلم وحده لا يكفي، لا بدّ من العلم بالله عزّ وجل، ولكي تعرف الله هناك مصادر عديدة، وأول هذه المصادر الكون كما ورد في الأثر: حسبكم الكون معجزة.

فلابدّ من جلسةٍ من يومٍ إلى آخر تتأمّل فيها في خلقك، كما قال الله عزّ وجل:

(فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ(5))

(سورة الطارق)

أمر إلهي، هل تظن أن أوامر الله عزّ وجل تنتهي عند الصيام والصلاة والحج والزكاة، ماذا تفعل وأنت المؤمن بهذه الآية:

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طعَامِهِ(24))

(سورة عبس)

هل نظرت في طعامك ؟ هل نظرت في هذا الماء الذي تشربه ؟ هل نظرت في هذا الخُبز الذي تأكله ؟ هل نظرت في هذه الفواكه ؟ في هذه الخضروات ؟ هل نظرت في هذا الطعام الذي أعدّه الله ؟

(فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ(5))

(سورة الطارق)

هل نظرت في خلقك ؟ كيف كنت ماءً فأصبحت مضغة، فعلقة:

فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر ؟

معرفة الله تحتاج إلى إحكام عقلٍ وإلى إصغاء سمع:

فلان آمن، متى آمن ؟ فلان يحمل دُكتوراه، هناك سبع سنوات استهلكها في الدراسة، الإيمان مرتبة علمية، فلان مؤمن والحمد لله، متى آمن ؟ متى فكّرت ؟ متى تأمّلت ؟ متى بحثت ؟ متى دققت ؟ متى تحققت ؟ ما المصدر الذي اعتمدته لمعرفة الله عزّ وجل ؟ فالإيمان يحتاج إلى وقت، فهذا الذي يَدَعُ عمله ويأتي إلى المسجد هذا يُزَكّي وقته، وللوقت زكاةٌ كما للمال زكاة:

((ومن طلب العلم تكفّل الله له برزقه))

[ورد في الأثر]

والمؤمنون في مساجدهم والله في حوائجهم، أولاً من أجل أن تستقيم على أمر الله لابدّ أن تعرفه، ومعرفة الله تحتاج إلى إحكام عقلٍ وإصغاء سمع، تستمع إلى الحق في بيوت الله وتتأمل في بيتك، فلابدّ من جلسةٍ تتأمل بها مع نفسك، والله سبحانه وتعالى هكذا يقول:

(قُلْ إِنّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى(46))

(سورة سبأ)

إما أن تقبع في بيتك وحدك تتأمل في هذا الحق الذي استمعت إليه، وإما أن تجلس إلى أخيك تتأملان، أنت وهو تتأمّلان في هذا الحق الذي استمعتَ إليه، فأنت حينما تستمع إلى الحق لا ينبغي أن تمر عليه وأنت زاهد فيه، هذه مسؤولية، لئلا يقف الإنسان هذا الموقف النادم، لئلا يعض الظالم على يديه:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتّخَذْتُ مَعَ الرّسُولِ سَبِيلًا (27))

(سورة الفرقان)

هذا الموقف العصيب، هذا الموقف العسير.

إذا دُعيت إلى الله فتفكّرْ في هذه الدعوة:

نحن الآن في بحبوحة، ما دام القلب ينبض فباب التوبة مفتوح، ما دام الإنسان حيّاً يُرزق فالطريق إلى الله سالكة، فلذلك:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ (46))

(سورة سبأ)

أي أنك إذا دُعيت إلى الله فتفكّرْ في هذه الدعوة، إذا دعيت إلى طاعة الله فتفكر في هذه الدعوة، إذا دعيت إلى التزام أمر الله تفكر في هذه الدعوة، تفكّر وحدك أو تفكّر مع أخيك المؤمن:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ(46))

(سورة سبأ)

التزام أمر الله يقيك من الوقوف العصيب يوم القيامة:

لئلا يقف الإنسان هذا الموقف العصيب فيقول:

(يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي(24))

(سورة الفجر)

وقال:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27))

(سورة الفرقان)

فإذا عرفت الله من خلال التأمُّل في الكون، وفي خلق الإنسان، أو في القرآن، أو في الحوادث، ثلاث مصادر، الكونُ أحدها:

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ(101))

(سورة يونس)

وقال:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ(105))

(سورة يوسف)

طلب العلم و التأمل والاستماع عمل يزكيه الله وملائكته:

الكون مصدر، خلقُ الإنسان مصدر، الطعامُ والشراب مصدر، الجبال، والسهول، والوهاد، والصحارى، والمياه، والأنهار، والبحار، والبُحيرات، والأطيار، والأسماك، والكواكب، والمجرّات، هذه

كلها آياتٌ دالةٌ على عظمة الله، تفكّرْ بها، أتمنى عليكم أن تخصصوا جزءاً من وقتكم ولو ربع ساعة في التفكر في خلق السماوات والأرض، الاستماع وحده لا يكفي، الاستماع يكمِّل التفكر، إذا تأمّلت في البيت واستمعت إلى الحق في المسجد تكون قد سرت في طريق تحصيل العلم، وهذا الطريق طريقٌ مُشَرِّف، طريقُ مُقَدّس، ما من عملٍ أعظم عند الله من أن تطلب العلم، ما من عملٍ يزكِّيه الله سبحانه وتعالى والملائكة والناسُ أجمعون كأن تطلب العلم، أن تكون متأمِّلاً في بيتك، وأن تكون مستمعاً في بيتٍ من بيوت الله.

إذا عرفت عن الله شيئاً، عن أسمائه الحسنى، عن صفاته الفُضلى، عن وعده ووعيده، عن أمره ونهيه، عن تشريعه، عن أحكامه، عن الجنة والنار، إذا عرفت هذا كلّه، وجدت نفسك شيئاً فشيئاً تميل إلى تطبيق ما عرفت، فإذا التزمت بما عرفت تكون قد حققت العلم بشكلٍ صحيح، العلم ما عُمِلَ به، فلو تعلم الإنسان ولم يعمل لكان ظالماً لنفسه، والظالم لنفسه يعض على يديه، إذا عمل عملاً عشوائياً من دون علمٍ كان ظالماً لنفسه، والظالم لنفسه يعض على يديه ندماً:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27))

(سورة الفرقان)

أدلة من القرآن على أن الطريق إلى الله عزّ وجل يحتاج إلى رسول:

طريق إلى الله، هناك طريقٌ إلى الله، لكل بلدةٍ طريق، هناك طريقٌ مادي، مدينة حلب لها طريق، حمص لها طريق، درعا لها طريق، بلاد بعيدة لها طريق في الجو، بلاد قريبة لها طريق في البحر، كل بلدةٍ لها طريق، وأن تكون طبيباً فللطب طريق ؛ أن تأخذ الشهادة الثانوية بمجموع متفوّق، وأن تنتسب إلى كلية الطب، وأن تبقى فيها سنواتٍ خمس، تصبح مجازاً في الطب، وبعدها تذهب إلى بلدٍ متقدمٍ في الطب فتحصل منه على درجة الدكتوراه، هذا طريق الطب، أين الطريق إلى الله ؟ لكل شيءٍ طريق، أليس لله طريق ؟ طريق الله عزّ وجل يحتاج إلى رسول، والدليل:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27))

(سورة الفرقان)

أي أن طريق معرفة الله تحتاج إلى مُعَلِّم، هكذا قال الله سبحانه وتعالى، لذلك ربنا عزّ وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ(119))

(سورة التوبة)

كونوا معهم:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28))

(سورة الكهف)

وقال:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ(15))

(سورة لقمان)

من قلّد عالماً لقي الله يوم القيامة سالماً:

هذا الذي استقام على أمر الله رافِقه، صاحبه، اتبع سبيله، قلِّده، من قلّد عالماً لقي الله يوم القيامة سالماً، لا تقلد أهل الفجور، لا تقلد أهل الضلال، لا تقلد الكفار، لا تُقِم معهم علاقة حميمة، أقم هذه العلاقة الحميمة مع أهل الإيمان، فلعل الله سبحانه وتعالى ينفعك بصحبتهم:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28))

(سورة الكهف)

لك صاحب ادْعُهُ إلى الله ورسوله، فإن لم يستجب فدَعه، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ(50))

(سورة القصص)

إما أن يستجيب وإما ألا يستجيب، إن لم يستجب فهو يتبع الهوى بنص القرآن الكريم، بعض العلماء قال:

" إن تقديم الرسول على السبيل أصلٌ في أنه لا طريق إلى الله عزّ وجل إلا عن طريق رجلٍ متفوق في هذا الطريق ".

على الإنسان أن يصاحب إنساناً له خبرات في الطريق إلى الله تعالى ليأخذ أكبر فائدةٍ بأقل جهدٍ:

لو أن التعليم يصلح من دون معلِّم، لانخفضت النفقات إلى العُشر، طُبِعَت الكتب ووزِّعَت، وأجريتْ الامتحانات ليس غير، ولكن لا بدّ في الجامعة من المدرس، ولا بدّ في المدرسة من المُعَلِّم، ولا بدّ في الطريق إلى الله عزّ وجل من إنسان له خبرات، متبحر في العلم، له تجربة مع الله غنيّة، مخلص مثلاً، هذا تأخذ منه الشيء الكثير بجهدٍ يسير، أما الإنسان حينما يحب أن يكتشف كل شيء بنفسه، قد يدفع نفسه ثمناً لاكتشافها، أنت وجدت بساحة معركة كُتَلاً كروية لعلها قنابل، فإذا أردت أن تكشفها بنفسك

ربّما كنت الضحية، أما إذا جئت بخبير ألغام فهذا تستعين بخبرته وتنجو من أخطار هذه الألغام، كذلك حينما يتعلّم الإنسان فإنه يشارك الآخرين في عقولهم وخبرتهم ومعرفتهم بحضور مجالس وبلا مقابل، فلما قال ربنا عزّ وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ(119))

(سورة التوبة)

من أجل أن تأخذ أكبر فائدةٍ بأقل جهدٍ.

(يَا وَيْلَتَى (28))

(سورة الفرقان)

على الإنسان أن يحذر من صاحب السوء لأن أفكاره تثبّط العزيمة:

يدعو هذا الظالم على نفسه بالويل والثبور وعظائم الأمور:

(لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28))

(سورة الفرقان)

كل واحد منا في بيته، من جيرانه، من زملائه، بعمله معرض لصاحبٍ سيّء، يبثُ في روعِهِ أن الدنيا هي كل شيء، وأنك شابٌ في مقتبل الحياة، عليك أن تأخذ نصيبك من المُتَع، وأن العمر طويل وغداً تتوب، وأن الله غفورٌ رحيم، كلام هذا الإنسان كالسُمّ الناقع، ماذا يقول الظالم لنفسه غداً عن صحبة هذا الإنسان:

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28))

(سورة الفرقان)

لقد أهلكه، فليحذر الإنسان من صاحب السوء، أحياناً بحكم عمله يكون له زميلٌ، بحكم سكنه جارٌ، بحكم دراسته طالبٌ زميل، بحكم تجارته شريكٌ، يبثُ في روعه أن اغتنم من الدنيا، والله غفورٌ رحيم، هناك أفكار تثبّط العزيمة، وأن الشقي شقيٌ، والسعيد سعيد، والأمر مبرم، رفعت الأقلام وجفت الصحف، وأن لله في خلقه شؤون، وهذا الترتيب ترتيبه، وعندما ينوّر الله عزّ وجل قلبك تهتدي، والأمر بيد سيدك، والهداية بيده وليست بيدك، هذه كلها معلومات تشلُ الإنسان وتجعله أشَل، تثبّط العزيمة، هذه معلومات غير صحيحة.

الإنسان بحاجة إلى أهل الحق لمعرفة الحقيقة:

ربنا عزّ وجل قال في بعض الآيات على لسان الكافرين يقول:

(لَوْ شَاءَ اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا(148))

(سورة الأنعام)

هذا ترتيبه:

(لَوْ شَاءَ اللّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذّبَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتّبِعُونَ إِلا الظّنّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ(148))

(سورة الأنعام)

هذا ظنٌ كاذب، وهذا أشد أنواع الكَذِب، فأنت محتاج إلى أهل الحق لتعرف الحقيقة، وأن هناك من يقول لك أشياء غير صحيحة، هناك صديقٌ، هناك شريكٌ، هناك أستاذٌ في التعليم العام مثلاً، هناك أبٌ، هناك صديقٌ قريبٌ قد يبثُ في رُوعك أشياء غير صحيحة خلاف القرآن الكريم، فإذا صدقتها فقد أهلكت نفسك وأنت لا تدري.

دلائل من الكتاب والسنة عن من نأخذ ديننا:

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ))

[صحيح مسلم عَنْ مُحَمّدِ بْنِ سيرينَ]

وقال:

((ابن عمر دِينك دينك إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

[كنز العمال عن ابن عمر]

أي:

(وَاتّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيّ(15))

(سورة لقمان)

وقال:

(وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (28))

(سورة الكهف)

وقال:

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28))

(سورة الفرقان)

ماذا تنفع ليت ؟ لكنّ الذي عرف الله عزّ وجل، وسار في طريق الإيمان مع من يحبه الله ورسوله يوم القيامة فهذا من أهل الصلاح والفلاح.

العاقل من يتبع سبيل الله ويهتدي بهديه ويلزم أهل الحق:

أما من صحب قرين السوء فإنه يقول: إنه كان لي قرين:

(قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ(51)يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ(52) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ(53))

(سورة الصافات)

بعد ذلك يقول الله عزّ وجل:

(فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ(55))

(سورة الصافات)

الإنسان العاقل يتبع سبيل الله، يهتدي بهدي الله، يلزم أهل الحق، يتبع سبيل من أناب إلى الله، يأخذ علمه عن الذين استقاموا لا عن الذين مالوا، لا تفرح بالذي يعطيك الرُخَص، افرح بالذي يُشَدد عليك، لكل معصيةٍ فتوى إذا شئت، ما أكثر من يُفتي إرضاءً للناس، أما النبي عليه الصلاة والسلام يقول لك: استفتِ قلبك وإن أفتاك المفتون وأفتوك.

عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الأَسَدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِوَابِصَةَ:

((جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ، قَالَ: قُلْتُ نَعَمْ. قَالَ: فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ فَضَرَبَ بِهَا صَدْرَهُ وَقَالَ اسْتَفْتِ نَفْسَكَ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ ثَلاثًا الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

[سنن الدارمي عن وابصة بن معبد الأسدي]

الشخص الذي تتمنى أن تكونه يجب أن يكون ورعاً ومحباً لله ورسوله:

قال تعالى:

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28))

(سورة الفرقان)

وقد قيل:

((المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل))

[أبو داود عن أبي هريرة]

من هذا الشخص الذي تحبُه وتركن إليه ؟ من هذا الشخص الذي تعظِمَهُ ؟ من هذا الشخص الذي تتمنى أن تكونه ؟ أن تكون مكانه ؟ من هذا الشخص الذي تراه مِلْء السمع والبصر ؟ هذا الشخص قل لي من هو أقل لك من أنت، المؤمن يرى من سبقه بالإيمان ملء السمع والبصر، المؤمن يعظِم الوَرع، يعظم

المحب لله ورسوله، يعظِّم المستقيم على أمر الله، المؤمن يحب أهل الحق، هم ملء سمعه وبصره ؛ أما إذا كنت تعظِّم أهل الدنيا، وأصحاب الأموال، وأصحاب القوة، فهذه علامة خطيرة، قارون حينما خرج على قومه بزينته:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79))

(سورة القصص)

من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ مِن حتفه وهو لا يدري:

اسأل نفسك هذا السؤال: أنت لِمنْ تقول: هنيئاً له ؟ ألصاحب البيت الفخم ؟ أم لصاحب الدخل الكبير ؟ أم لهذا الذي يعرف الله عزّ وجل وعرف آخرته واستقام على أمره ؟ من الذي يشدُّك إليه ؟ من الذي يكون ملء سمعك وبصرك أأهل الحق أم أهل الدنيا ؟ هل تقول مثلما قالوا لقارون:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(79)وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا)

(سورة القصص)

الدنيا زائلة، خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها هماً، ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ مِن حتفه وهو لا يدري:

(يَا وَيْلَتَى (28))

(سورة الفرقان)

شتان يوم القيامة بين من يأخذ كتابه بيمينه ومن يأخذه بشماله:

شتان بين أن تقول يوم القيامة:

(فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ(19))

(سورة الحاقة)

تفضلوا انظروا، طالب جاء إلى البيت وبيده الجلاء كلّ علاماته بدرجة جيد، يكاد يطير من الفرح، الفوز رائع جداً، النجاح مسعد:

(فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ(19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ(20))

(سورة الحاقة)

توقّعت هذا، حينما كنت في الدنيا كنت أتوقع هذا اليوم، أتوقع هذه الساعة، كنت أُعِدُّ للموت عُدّته، أعد للقاء الله العُدّة:

(فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيه(19)إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيه(20)فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ(21)فِي جَنَّةٍ عَالِيَة(22)قُطُوفُهَا دَانِيَة(23)كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ(24)وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه(25)وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه(26)يَا لَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ(27)مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيه(28)هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيه(29)خُذُوهُ فَغُلُّوهُ(30)ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ(31)ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ(32)إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(33))

(سورة الحاقة)

معرفة الله لا تعني الإيمان به لكن المؤمن من استقام على أمر الله:

الإنسان أما عرف الله عزّ وجل ؟ بلى عرف أن له رباً، والشيطان قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ (82))

(سورة ص)

يعني أن الشيطان عرف الله، وأقسم بعزّته، ولكنه عصاه. فالمعرفة لا تعني الإيمان، اسأل الآن ألف مليون مسلم: مَن خلق السماوات والأرض يقولون لك: الله، ليس هذا هو الإيمان:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(33))

(سورة الحاقة)

يجب أن تؤمن بالله سبحانه وأنه هو العظيم، لأنك إذا آمنت بالله العظيم استقمت على أمره، وعرفت ما عنده من عطاء، وما عنده من عذاب فيما لو حدت عن أمره:

(يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ (29))

(سورة الفرقان)

أبعَدَني عن طريق الحق، أبعدني عن سُنَّةِ النبي عليه الصلاة والسلام، الذكر هو النبي، والذكر هو القرآن، أبعدني عن كتاب الله، قال: هذا الكتاب لا يصلح لهذا الزمان.

أدلة على أن القرآن الكريم يصلح لكل زمان ومكان:

كلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه في نظر بعض الناس لا يصلح لهذا الزمان لكن الله يقول:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ(9))

(سورة الإسراء)

قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يحزن قارئ القرآن))

[الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال]

وقال أيضاً:

((من جمع القرآن متّعه الله بعقله حتى يموت))

[الجامع الصغير عن أنس]

وقالَ:

((اقْرَءُوا الْقُرْآنَ وَلا يَغُرّنّكُمْ هَذِهِ الْمَصَاحِفُ الْمُعَلّقَةُ فَإِنّ اللّهَ لا يُعَذِّبُ قَلْبًا وَعَى الْقُرْآنَ))

[سنن الدارمي عن أبي أمامة الباهلي]

يقول لك: هذا الكتاب لا يصلُحُ لهذا الزمان، جعله وراءه ظِهْرِيًّا، هجره، جعله خارج اهتمامه، قرأه في المناسبات، استمع إليه في أيام التعزية، لم يعبأ به، لم يَحْمِلْهُ محمل الجد، لم يقرأ هذا القرآن على أنه كلام الله، وأن وعده واقع ووعيده واقع، قرأه هكذا تبرُكاً به:

(لَقَدْ أَضَلّنِي عَنِ الذّكْرِ (29))

(سورة الفرقان)

ما دمنا أحياء وباب التوبة مفتوح فكل شيء في الدنيا يصحح:

واللهِ إني لأشعر أن هذا الإنسان يوم القيامة الذي يقول هذه الكلمات يتفطّر قلبه دماً:

(لَقَدْ أَضَلّنِي عَنِ الذّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي (29))

(سورة الفرقان)

وها نحن أحياء والحمد لله، والباب مفتوح، باب التوبة مفتوح، باب المعرفة مفتوح، كل شيءٍ في الدنيا يصحح:

((عبدي لو استقبلتني بملء الأرض ذنوباً لاستقبلتك بمثلهن مغفرة ولا أبالي))

[الطبراني عن أبي الدرداء]

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعًا(53))

(سورة الزمر)

ما دام الإنسان فيه قلب ينبض فكل شيء يُحَلّ، الصُلْحَة بلمحة، إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض: أن أيتها الخلائق هنِّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله.

الشيطان يخذل الإنسان في أحرج الأوقات:

قال تعالى:

(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي (29))

(سورة الفرقان)

المفسِّرون يقولون: هذا قول الظالم، أما قوله تعالى:

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29))

(سورة الفرقان)

هذا كلام الله عزّ وجل، وليس كلام هذا الظالم:

(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي (29))

(سورة الفرقان)

الوقف أولى بعد كلمة جاءني، ومن ثمّ يقول الله عزّ وجل معقباً على هذا الاعتراف، على هذا الندم الذي يَدْمَى له القلب، يقول الله عزّ وجل:

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29))

(سورة الفرقان)

خذله في أحرج الأوقات.

ليس للشيطان سلطان على أحد:

قال تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ(22))

(سورة إبراهيم)

أي ضحكت عليكم، مَنَّيْتُكم:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي(22))

(سورة إبراهيم)

مستحيل أن يكون للشيطان على الإنسان سُلطان، مستحيل، هذا لا يكون، إنسان يرتدي أجمل ثياب، وقع في حفرة مياه آسنة سوداء، فتوجَّهَ إلى المخفر ليشتكي على أحد الناس، فقال المحقق: هل دفعك إلى هذه الحفرة ؟ قال له: لا، قال: أمسك يدك ووضعك بها ؟ قال له: لا والله، قال: شهر عليك سلاحاً وأرغمك أن تنزل فيها ؟ قال له: لا والله، بل قال لي: انزل فنزلت، إذاً هذا الإنسان مجنون، وهكذا الشيطان:

(إِنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيّ إِنّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ(22))

(سورة إبراهيم)

قال تعالى:

(وَكَانَ الشّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29))

(سورة الفرقان)

أدلة من القرآن الكريم عن منزلة المؤمن في الجنة يوم القيامة:

أما المؤمنون:

(وَالّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنّكَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(8))

(سورة التحريم)

المؤمنون:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوّأُ مِنْ الْجَنّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ(74))

(سورة الزمر)

وقال:

(هَذَا مَا وَعَدَ الرّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ(52))

(سورة يس)

والله الذي لا إله إلا هو، يغشى على قلب المؤمن ساعة يلقى الله عزّ وجل سعادةٌ لا توصف، لأنّ الذي وُعِدَ به قد تحقق، وأن الذي خافه قد نجّاهُ الله منه، وأن الدين الذي آمن به في الدنيا هو حقيقةٌ، هو كل شيءٍ في الآخرة.

قد تكون في الأرض إنساناً عادياً لكنّك علمٌ في السماء:

لذلك هذا المستقيم على أمر الله، هذا الذي يعرف الله في الدنيا من ملوك الدار الآخرة، ملك ولكن هو من ملوك الدار الآخرة.

النبي عليه الصلاة والسلام دخل عليه أحد أصحابه فهشّ له وبَش وقال: " أهلاً بمن خبّرني جبريل بقدومه "، قال: " يا رسول الله أو مثلي ؟!! " من أنا ؟ قال:

" نعم يا أخي خاملٌ في الأرض علمٌ من السماء ".

وقد تكون أنت في الأرض إنساناً عادياً، لكنّك علمٌ في السماء، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: ابتغوا العزة عند الله.

البطل الموفّق يبحث عن مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، يبحث عن رتبةٍ عند الله، يبحث عن مكانةٍ عليّةٍ عند الله، لأن الله هو كل شيء: عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت.

يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك:

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإذا فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء))

[من مختصر تفسير ابن كثير]

الدين كل شيء وخلاف الدين لا شيء:

أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد، من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، فالدين كل شيء، وخلاف الدين لا شيء، سنواتٌ معدودات تمضي، حينما يرى الإنسان أبواب النار تفتح له يقول: لم أر خيراً قط، ينسى كل شيء.

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (29))

(سورة الفرقان)

لئلا تقع هذه الندامة، لئلا يقف الإنسان هذا الموقف العصيب، لئلا يعض على يديه، لئلا يقطّع يديه، يقطّع أصابعه ندماً، يجب أن يعرف الله في الوقت المناسب، والمعرفة وحدها لا تكفي، العلم ما عُمِلَ به، فإن لم يعمل به كان الجهل أفضل منه، أنت حينما تأتي لهذا المسجد وتستمع إلى تفسير كلام الله، فأنت تضاف إلى مسؤوليّاتك مسؤولية جديدة، هذا علمٌ يعدُّ حجةً على كل من استمع إليه، أما إذا عملت به أصبح حجة لك، إذا استمعت إليه حجة عليك، عملت به أصبح حجة لك.

القرآن يقيّدَ المؤمن عن كثيرٍ من هوى نفسه:

قال تعالى:

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30))

(سورة الفرقان)

هجروه، جعلوه وراء ظهورهم، هناك مَن يقرؤه وقد هجرَه، طبعاً تقرؤه ولا تقيم أحكامه، ولا تحلُّ حلاله، ولا تحرم حرامه، فهذا أحد أنواع هجرانه، تقرؤه وتقيم حلاله وحرامه، ولكن لا تحتكِمُ إليه، لا بدّ من أن تحتكم إليه لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ(36))

(سورة الأحزاب)

تنتهي حرّيتك عند معرفة الله، الإيمان قيدُ الفَتك، أنت حر قبل أن تعرف الله، فإذا عرفت الله، عرفت أن لكل مخلوقٍ ربّاً، أن هذا الإله العظيم سيحاسبك عن كل مخلوقٍ ظلمته، عن كل مخلوقٍ اعتديت عليه، عن كل مخلوقٍ أكلت حقه، لذلك تنتهي حريتك ـ كما يقولون ـ عندما تبدأ حريات الآخرين، أما القول الآخر وهو الأصح: تنتهي حريتك حينما تعرف الله، لأن القرآن قيّدَ المؤمن عن كثيرٍ من هوى نفسه، وحال بينه وبين أن يهلك فيما يهوى، والإيمان قيد الفَتك.

المؤمن هو من يقرأ القرآن ويعمل به ويتدبر أحكامه ويحتكم إليه ويجعله دستوراً له:

قال تعالى:

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30))

(سورة الفرقان)

فإذا تركت قراءته فقد هجرته، إذا قرأته وتركت العمل به فقد هجرته، إذا قرأته وعملت به وتركت الاحتكام إليه فقد هجرته، إذا قرأته وتركت تدبُّرَهُ فقد هجرته، يجب أن تقرأه، ويجب أن تتدبّرَهُ، ويجب أن تعمل به، ويجب أن تحتكم إليه، ويجب أن يكون دستوراً لك، عندئذٍ تنجو من هذا الوصف.

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (30) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31))

(سورة الفرقان)

ربنا عزّ وجل جعل للدعوة خصوماً حتى يميز الصادق لأن الصادق هو من يصمد للنهاية:

شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يكون لأهل الحق انطلاقاً من الأنبياء صلوات الله عليهم وحتى أقل الدُعاة أعداء، شاءت حكمة الله عزّ وجل أن يكون لكل نبيٍ عدواً من المجرمين، ما حكمة ذلك ؟ لو أن طريق الدعوة إلى الله خالية من الخصوم، والمعارضين، وأهل الباطل الذين يكيدون للحق، لو أن طريق الدعوة إلى الله طريقٌ محفوفة بالورود والرياحين، طريقٌ سهلة ممهّدةٌ كلُّها مسرّات، لدعا إلى الله من هَبَّ ودَبَّ، بعضهم صادق، أقلهم هو الصادق وأكثرهم كاذب، ولكن حينما تكون لهذه الدعوة عقباتٌ

كأداء، وخصومٌ أشدّاء، ومخاوف وتبعات لا يصمد فيها إلا الصادقون، فلو مناقصة مثلاً ـ مناقصة بألف مليون ـ لو أن كل إنسان له الحق أن يدخل فيها بطابع مالي من فئة المئة وخمسة وعشرين قرشاً، لقدِّمت طلباتٌ لا تعد ولا تحصى، وكان أكثر هؤلاء الذين يقدِّمون الطلبات لا يملكون مصاريف هذه المُناقصة، لماذا يجعل مبلغٌ ضخمٌ مبلغ تأمين ؟ حتى يدخل الإنسان الجاد فقط هذا مثل، لو كان الاشتراك من دون تأمين، لكان كل إنسان يقول لك: اجرّب حظي ثم يقدم طلباً، قد ترسو عليه المناقصة وهو ليس أهلاً لتنفيذ هذا العمل، ولكن يوضع مبلغٌ كبير كعقبةٍ من يجتازها فهو جادٌ في تأمين هذا الطلب، هذا مثل.

الصعوبات التي يلقاها المؤمن من تقدير عزيزٍ حكيم ليظهر المستقيم ويسقط المنحرف:

خطر الآن في بالي، ربنا عزّ وجل جعل للدعوة خصوماً، أعداءً ألِدّاء، جعلها محفوفةً بالمخاطر، جعلها طريقاً كلُّها أشواك، طريقاً فيها أكمات، فيها حُفَر، فيها مطبّات، من يصمد فيها ؟ الصادقون، لذلك قال الله عزّ وجل:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ(39))

(سورة الأحزاب)

هؤلاء الصادقون:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا(24))

(سورة السجدة)

وقال:

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا(124))

(سورة البقرة)

متى جعله إماماً ؟ بعد أن أتمّ هذا الامتحان الصعب:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي(108))

(سورة يوسف)

وقال:

(قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ(20)اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ(21))

(سورة يس)

فهذه المخاطر، وهذه الصعوبات، وهؤلاء الخصوم، وهؤلاء الأعداء الألدّاء وما يحيكون، هذا كلُّه من تقدير عزيزٍ حكيم، حكمة الله شاءت ذلك ليظهر الصادقون ويسقط الكاذبون، ليظهر المستقيمون ويسقط المنحرفون:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ (31))

(سورة الفرقان)

لابدّ من أن يبتلى الإنسان ليظهر على حقيقته ويرقى إلى الله عز وجل:

الإنسان لا يرقى إلى الله عزّ وجل إذا كانت الأمور كما يحب ويشتهي، وسبيلها سهل جداً، ولكن لا بدّ من أن يبتلى ليظهر على حقيقته:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ(2))

(سورة العنكبوت)

لا بدّ من الابتلاء، لا بدّ من أن يكون الجزاء على قدر الابتلاء، الإمام الشافعي سُئِل: أندعو الله بالتمكين أم بالابتلاء ؟ فقال رضي الله عنه: **" لن تُمَكّن قبل أن تبتلى ".**

النبي عليه الصلاة والسلام ابتلي، ابتلي بالطائف، فقد لاقى من الصعوبات ما لاقى، أُوذي وما أوذي أحدٌ مثل ما أُوذي النبي عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك صبر، حينما قال في الطائف:

((اللهم إني أشكو إليك ضعف قوّتي، وقلّة حيلتي وهواني على الناس، يا ربّ المستضعفين إلى من تكلني، إلى عدوٍ ملّكته أمري، إن لم يكن بك غضبٌ عليّ فلا أبالي، ولك العُتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

هذا ابتلاء:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ(142))

(سورة آل عمران)

هذا كلامٌ من القلب.

الله عزّ وجل سَخّرَ الخصوم والأعداء ليرقى المؤمن بصبره وصدقه:

أيها الأخوة الأكارم، لن تنال ما عند الله ـ وما عند الله شيءٌ كبير ـ لن تنال ما عند الله إلا بالابتلاء، فإذا صبرت فقد نجحت، وإذا قلت: لا أستطيع، لا قِبلَ لي بهذا، فقد رسبت.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31))

(سورة الفرقان)

من السهولة بمكان أن يتمكن الله عزّ وجل من أن يقمع كيد الكفار:

(ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ(4))

(سورة محمد)

من أجل أن ترقى أنت، فالإنسان لا يتأفف بالمصائب، لا يتأفف بالخصوم، لا يتأفف بالأعداء، هؤلاء بتقدير الله عزّ وجل سَخَّرَهُم الله ليرقى المؤمن بصبره وصدقه، أو ليظهر صدق الصادق وكذب الكاذب.

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31))

(سورة الفرقان)

يهديك إليه، وينصرك على خصومك بعد أن يَظْهَر صدقك، وبعد أن يظهر إخلاصك، وبعد أن تظهر تضحياتك، بعدئذٍ ينصرك الله على أعدائك، فالنبي عليه الصلاة والسلام لاقى ما لاقى، الهجرة وحدها ابتلاء، خرج من مكة متجهاً إلى غار ثور، أعد عدةً، وخصوم كثر تحلقوا حوله، وكادوا أن يصلوا إليه، وقال قولته الشهيرة:

((يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين:

الإنسان لا تبدو حقيقة إيمانه وصبره في الرخاء، بل تبدو في الشدة، الإنسان لا يبدو أمره واضحاً في الغنى بل يبدو في الفقر، يبدو في الضعف، قد تبتلى بالضعف فتكون مستضعفاً، وقد تبتلى بالفقر، وقد تبتلى بالخوف، وقد تبتلى بنقصٍ في الأموال والأولاد، من أجل أن تقول كلمة: يا رب لك الحمد أنا راضٍ، عندئذٍ فقط نجحت.

هذا الذي كان يطوف حول الكعبة ويقول: " يا رب هل أنت راضٍ عني ؟ " كان وراءه الإمام الشافعي قال: **" يا هذا هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك "**. قال: " من أنت يرحمك الله ؟ " قال: " أنا محمد بن إدريس "، قال: " كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه ؟ " قال: **" إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله"**.

البطولة أن ترضى في الشدة، أن ترضى مع إدبار الدنيا، الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين، فنحن بالرخاء لا نواجه أيّ امتحان.

هل سمعتم أن أحداً يمتحن مركبة بالنزول، المركبة بلا محرك تسير، ولكن المركبات تُمتحن بالصعود، والإنسان أحياناً تكون حياته طريقاً سهلة، فجأةً تصبح الطريق صاعدةً، جاء الامتحان، أعد له الإيمان، فالبطل بالصعود، البطل بالشدائد، البطل في المكاره، البطل مع الخصوم، البطل مع الضغوط، البطل عند إدبار الدُنيا، أما في الرخاء فكلنا شاكرون لله عزّ وجل، كلنا سعداء، لكن ماذا تقول إذا جاءت الشدة؟ إلا أن الإنسان ليس له أن يطلب الابتلاء، بل سلوا الله العافية، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((لكن عافيتك أوسع لي))

[الطبراني عن عبد الله بن جعفر]

فكان قوله أبلغ قول:

((لكن عافيتك أوسع لي))

قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (31))

(سورة الفرقان)

النبي عليه الصلاة والسلام أُمِرَ أن يتوكل على الله لأنه على الحق المبين:

ربنا عزّ وجل طمأن النبي عليه الصلاة والسلام فقال له:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

هذا للقياس، إذا كان أحدنا على الحق فعليه أن يتوكل على الله، لأن الذي على الباطل لا يستطيع أن يتوكّل على الله، لأن في ذلك وقِاحَةً وسوء أدب، إذا كان الإنسان على الباطل، إذا كان معتدياً، إذا كان منحرفاً، إذا كان مخالفاً، إذا كان عاصياً، لا يستطيع أن يتوكل على الله، أما النبي عليه الصلاة والسلام فقد أُمِرَ أن يتوكل على الله لأنه على الحق المبين:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ(79))

(سورة النمل)

سيدنا هود قال:

(مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (09-13): تفسير الآيات 32 - 44
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 19-05-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة الفرقان.

الكفار طعنوا بنبوة النبي من خلال ادعائهم أن القرآن ليس كلام الله:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33) الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا(34))

(سورة الفرقان)

الكفّار أرادوا أن يطعنوا بنبوّة النبي عليه الصلاة والسلام من خلال تكذيبهم له وادعائهم أن هذا القرآن ليس كلامَ الله، هم يكذّبون أن يكون هذا القرآن كلام الله، فمن افتراءاتهم، أو من مطاعنهم أن هؤلاء الكفّار يرون أن هذا القرآن لو أنه كلام الله لأُنْزِلَ على النبي عليه الصلاة والسلام دفعةً واحدة، مرّةً واحدة بسوَرِهِ، وآياته، وموضوعاته، من أين جاؤوا بهذا الافتراء ؟ من الذي سمح لهم أن يطعنوا هذا المطعن، الحقيقة أنهم توهّموا أن التوراة أُلقيت على سيدنا موسى على شكل ألواح والإنجيل كذلك، فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام رسولاً من عند الله فينبغي أن يُنَزَّلَ عليه القرآن جملة واحدة، وما دام قد أنزل هذا القرآن مُنَجّماً في ثلاثة وعشرين عاماً فهذا من افتراءات النبي عليه الصلاة والسلام وليس كلام الله، هذا مجمل دعوى الكفّار، أو هذه فرية افتراها الكفّار على النبي عليه الصلاة والسلام.

الكافر هو الكافر نموذجٌ متكرّرٌ في كل زمانٍ ومكان:

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى ردّ عليهم فِرْيَتَهُم ومطعنهم فقال:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (32))

(سورة الفرقان)

بالمناسبة هناك قولٌ ثالث هو أن مِلّة الكفر واحدة، أي أن الكافر هو الكافر في كل زمانٍ ومكان، تصرُّفاته، أفكاره، طريقته، طعنه، تشكيكه، نموذجٌ متكرّرٌ في كل زمانٍ ومكان، ربنا سبحانه وتعالى قال:

(كَذَلِكَ (32))

(سورة الفرقان)

لكنّه بَيْن كلمة:

(لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآَنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (32))

(سورة الفرقان)

وبين كلمة:

(كَذَلِكَ (32))

(سورة الفرقان)

هناك وقفٌ جائز، ومعنى الوقف الجائز أي أن المعنى ينتهي عند كلمة واحدة.

هذه الآية أصلٌ في الطريقة التربوية في التعليم:

قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآَنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (32))

(سورة الفرقان)

وقف:

(كَذَلِكَ (32))

(سورة الفرقان)

أي نَزّلناه منجّماً، نزّلناه منجّماً كذلك:

(لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ (32))

(سورة الفرقان)

كيف ؟ الشيء الذي تُعَلِّمُنا إيّاه هذه الآية، هذه الآية أصلٌ في الطريقة التربوية في التعليم، فأنت إذا أردت أن تُعَلِّم علم النحو دفعة واحدة بكل أبوابه، وفروعه، وأقسامه، هذه المعلومات لا تثبت في نفس الطالب، لكن هذا الطالب إذا واجه مشكلةً في كتابة نصٍّ، أو واجه مشكلة في تحريك كلمةٍ، أو واجه مشكلةً في صياغة جملةٍ، كلّما واجه مشكلةً وشعر أنه في أمسّ الحاجة لحلِّ هذه المشكلة جاءته القاعدة النحويّة التي تُبَيِّن له الصواب، إذا جاءت القواعد عَقِبَ مشكلاتٍ وقضايا يعانيها الطالب فإن هذه القواعد تكون ثابتة، هذا على مستوى التعليم.

على مستوى تعليم الحِرْفَة، حينما يأتي معلِّم الحرفة ويعلِّم الطالب القواعد النظريّة في هذه الحرفة، أغلب الظن أن هذه القواعد لا تثبت، ولكن حينما يواجه المُتَعَلِّم مشكلةً، أو قضيّةً، أو أزمةً ولا يدري لها حلاً يأتي معلِّم الحرفة في الوقت المناسب، وهو على أحرّ من الجَمر، طالب العلم الذي تعلِّم هذه الحرفة

على أحرّ من الجمر لتعلّم حلّ هذه المعضلة، أو تذليل هذه المشكلة، يأتي عندئذٍ معلِم الحرفة، ويوضِّح للطالب القاعدة في حلّ هذه المشكلة، وبذلك فإن هذه القاعدة لن تُنْسَى أبداً.

ما دام القرآن لم ينزل دفعة واحدة فهذه هي الحكمة المطلقة وهذا هو الخير المطلق:

كلكم يعْلَم أنّ من خلال تعلُمه، أو من خلال تدريبه، أو من خلال مواجهته للمشكلات إذا جاءت القاعدة، أو جاء الحل، أو جاء القانون، أو جاء التوجيه الصحيح على أثر مشكلةٍ، أو أزمةٍ، أو قضيّةٍ، أو إشكالٍ فإن هذا الحَلّ يثبت في النفس ولا تنساه النفس أبداً.

فالنبي عليه الصلاة والسلام ولله المثل الأعلى هو الذي يعلِمنا كيف نُعَلِم، والنبي عليه الصلاة والسلام سيّد المعلِمين قال:

((وإنما بعثت معلما))

[أخرجه ابن ماجه عن ابن عمرو]

((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

[رواه أحمد والبيهقي عن أبي هريرة]

فكلّما ظهرت مشكلة في مجتمع النبي وأصحابِهِ ومجتمع المؤمنين، وأقلقت المؤمنين لأنهم لا يدرون لها حلاً، وجعلتهم يقلقون ويحارون، يأتي تنزيل الله عزّ وجل، تنزيل القرآن الكريم في الوقت المناسب لتكون هذه الآية شفاءً لما في الصدور.

إذاً أنت إذا أردت أن تُعَلِم فانتهز المُناسبات، علِم من خلال الممارسات، من خلال المشكلات، من خلال المُعضلات، من خلال الأزمات، تأتي القاعدة وكأنها البَلسم الشافي، يأتي القانون وكأنّه الحل السديد، كذلك ربنا سبحانه وتعالى ولله المثل الأعلى شاءت حكمته.

وبالمناسبة فإنّ الإنسان أحياناً يسلك سلوكاً غير حكيم لأنه جاهل، أو لأنه واقعٌ تحت ضغطٍ قوي، أو لأنه واقعٌ تحت إغراءٍ نفسي، الضغط الضاغط، أو الإغراء الجاذب، أو الجهل القاطع يحمله على تَصَرُّفٍ غير حكيم، هذا لا ينطبق على الله عزّ جل، أفعال الله كلُّها حكيمة، الذي شاءه الله وقع، والذي وقع شاءه الله، الذي أراده الله وقع، والذي وقع أراده الله، وإرادة الله عزّ وجل متعلِّقةٌ بالحكمة، والحكمة متعلِّقةٌ بالخير المُطلق، فما دام الشيء قد وقع فقد أراده الله، وما دام الله قد أراده إرادة الله حكيمة قطعاً، وحكمة الله متعلِّقة بالخير المطلق، إذاً ما دام القرآن لم ينزل دفعةً واحدة، ولا جملةً واحدة فهذه هي الحكمة المطلقة، وهذا هو الخير المطلق، وإذا أردت أن تُعَلِم فاسلك هذا السبيل.

لا يعترض على فعل الله إلا أحمق أو جاهل أو غبي:

سمعت أن بعض كليّات الهندسة في بعض البُلدان يبدأ الطالب تعلّم الهندسة في الميدان، ميدان البناء، ومعه مُدَرّبه، فكلّما واجه قضيّةٌ يأتي المدرّب بالقاعدة، إنّ هذه القاعدة لن تُنْسَى أبداً، لذلك في بعض اتجاهات تدريس النحو في التعليم ألا يُعْطَى النحو كدرسٍ مستقل، يُعطى من خلال النَص، فكلّما واجه الطالب مشكلةً في قراءة الكلمة، أو في إعرابها، أو في تحريكها، أو في كتابتها، أو في صياغتها، أو في تصريفها يأتي المدرّس ويعطي الطالب هذه القاعدة.

إذاً هذه الآية أصلٌ في أصول التربية:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (32))

(سورة الفرقان)

علماء العقيدة يقولون: إن القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، نَزَلَ، ونُزّل على قلب النبي عليه الصلاة والسلام مُنَجّمًا في ثلاثة وعشرين عاماً، الفرق بين نَزَلَ ونَزّل كالفرق بين كَسَرَ وكَسّرَ، وقَطَعَ وقطّعَ، قطَعَ الشيء قطَعَهُ مرّةً واحدة، أما قطّعه أي بالغ في تقطيعه قطعاً صغيرة، كَسَرَ الإناء شيء، وكَسّرَهُ شيءٌ آخر، نَزَلَ القرآن جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثمّ تَنَزّلَ على قلب النبي عليه الصلاة والسلام مُنَجّماً في ثلاثة وعشرين عاماً:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (32))

(سورة الفرقان)

فالذي وقع هو الخير المطلق، والحكمة المطلقة، إذاً لا يعترض على فعل الله إلا أحمق، لا يعترض على فعل الله إلا جاهل، لا يعترض على فعل الله إلا غبي، قال عليه الصلاة والسلام:

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[مسند أحمد عن أبي الدرداء]

لأن الأمور تجري بتقدير عزيزٍ عليم حكيمٍ خبير.

الله سبحانه وتعالى حبّاً بنا وتكريماً لنا يعلِّل لنا أفعاله:

الوقف عند كلمة (جملة واحدة):

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً (32))

(سورة الفرقان)

هناك جيم بحرف صغير فوق آخر كلمة واحدة، وتعني بالوقف جائز، الآن ردّ الله عليهم فقال:

(كَذَلِكَ (32))

(سورة الفرقان)

أي كذلك أنزلناه مُنَجّماً، أنزلناه منجّماً كذلك، كلاهما صحيح، ولكن لماذا ؟ ربنا سبحانه وتعالى لا يحتاج وهو الخالق العظيم أن يعلِّل للبشر أفعاله، ولكن من كرمه ولطفه وحبّه لهذا الإنسان قَرَنَ أفعاله بالتعليل، قال تعالى:

(وَأَقِمْ الصّلاةَ لِذِكْرِي(14))

(سورة طه)

قال تعالى:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ(19))

(سورة العلق)

آيات مباركة من القرآن الكريم يعلل الله لنا فيها بعض أفعاله:

قال تعالى:

(إِنّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ(45))

(سورة العنكبوت)

هذا تعليل:

(كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ(183))

(سورة البقرة)

قال تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلّ عَلَيْهِمْ إِنّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(103))

(سورة التوبة)

هذا كلُّه من باب التعليل، والله سبحانه وتعالى حبّاً بنا وتكريماً لنا يعلِّل لنا أفعاله، وها هو ذا ربنا سبحانه وتعالى في هذه الآية يعلِّل أفعاله، قال تعالى:

(كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ (32))

(سورة الفرقان)

هذه اللام لام التعليل.

علينا تعلم اللغة العربية لنفهم كلام الله فهماً دقيقاً لا فهماً ضبابياً:

يجب أن تعرفوا ماذا تعني لام التعليل، فأنا أقول مثلاً: أدرس لأنجح، آكل لأعيش، هذه علّة الطعام أن أعيش ؛ لكي أبقى مستمرّاً في الحياة، أدرس لأنجح، علّة الدراسة النجاح، فإذا قال الله عزّ وجل:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا(12))

(سورة الطلاق)

هذه الآية دقيقة جداً، هذه لام التعليل، أي أن عِلّة خلق السماوات والأرض أن تعلم:

(أَنّ اللَّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا(12))

(سورة الطلاق)

إذا قال الله عزّ وجل:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ(56))

(سورة الذاريات)

أي أن علّة وجودك على هذه الأرض أن تعبده، فإذا تعلّمت اللغة العربية فمن أجل أن تفهم كلام الله فهماً دقيقاً لا فهماً ضبابياً، هناك فهمٌ عريض، فهم ضبابي، فهمٌ غائم، وهناك فهمٌ دقيقٌ دقيق، فسيدنا عمر رضي الله عنه يقول: " تعلّموا العربيّة فإنّها من الدين."

إذا أردت أن تُثبّت حقائق فاجعلها عقب ممارسات وتجارب:

هذه طُرْفَة: شخص أراد أن يُحْرِجَ عالماً فقال له: تزعم أنت أنّ في القرآن كل شيء لقول الله عزّ وجل:

(مَا فَرّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ(38))

(سورة الأنعام)

قال: نعم، فقال ذاك الشخص: فمدُّ القمح، كم من الأوزان يُصنَع منه خبزٌ ؟ فقال العالم: نعم هذه جوابها في كتاب الله، قال السائل: أريد آية ؟ نعم قال العالم: أمهلني نصفَ ساعة لأجيبك، فغاب العالم نصف ساعة ثم عاد، وقال له: مدُّ القمح يصنع من الخبز كذا وكذا بالوزن الدقيق، فقال الشخص السائل: كيف عرفت ذلك، وأين الآية ؟ قال: لقوله تعالى:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ(7))

(سورة الأنبياء)

أنا قد سألت أهل الذكر، يعني أحد عمال المخابز فأجابني، والله تعالى يقول:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ(7))

(سورة الأنبياء)

قال ربنا سبحانه وتعالى:

(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ(38))

(سورة الأنعام)

أنا وقفت هذه الوقفة عند اللام:

(لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ (32))

(سورة الفرقان)

أي إذا أردت أن تُثبّت هذه الحقائق فاجعلها عقب ممارسات، عقب تجارب، عقب مشكلات، عقب مُعضلات، عندئذٍ وَضِّح:

(لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ (32))

(سورة الفرقان)

تنزيل القرآن منجّماً أي هناك تناسق وخطّة وتنظيم ومنهج تسير عليه الآيات:

لكن أيها الأخُ الكريم، لا يذهبنّ بك الظن إلى أن القرآن إذا نزل منجّماً فلا رابط بين آياته، قد تأتي بموضوعاتٍ متباينة مختلفة بحسب الوقائع والأحداث، والظروف والملابسات، فإذا جمعتها في كتاب لم ترَ بينها تناسقاً، ولا موضوعاً مشتركاً، ولا تنظيماً، ولا مقدّمة، ولا عرضاً، ولا خاتمة، هل تظنّ أن الله عزّ وجل إذا نزّل القرآن منجّماً يعني أنه جعله متفرّقاً، وجعله مشتّتاً، مبعثراً، وجعل الآيات ليس بينها رابط ؟ لا، ومع أنه نُزّل منجّماً، ومع أنه نزّل مفرّقاً، ومع أنه نزّل بحسب الوقائع، وبحسب الظروف، وبحسب المناسبات، وبحسب المشكلات، لكن جبريل عليه السلام كان يقول للنبي صلّى الله عليه وسلّم: " ضع هذه الآية في مكان كذا وكذا، وضع هذه الآية في مكان كذا وكذا ".

وترتيب الآيات ترتيبٌ توقيفي، أي أن الله سبحانه وتعالى رَتَّبَ هذه الآيات، لذلك فإن نزول القرآن منجّماً ليس على حساب وحدة الموضوع، ولا على حساب تناسق الآيات، ولا على حساب التنظيم، ولا على حساب سير الآيات وفق خطّةٍ محكمةٍ، إن تنزيل القرآن منجّماً يعني في الوقت نفسه أن هناك تناسقاً، وارتباطاً، وخطّةً، وتنظيماً، ومنهجاً تسير عليه الآيات والدليل:

(كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32))

(سورة الفرقان)

من المعاني السياقيّة للترتيل هنا، كيف تقول: رَتل، من معاني الترتيل في هذه الآية بالذات أن آياته جاءت متناسقة يأخذ بعضها برقاب بعض، وكلّما تَعَمّقت في فهم القرآن رأيت أن السورة تعالج موضوعاً موَحّداً، وهذا الموضوع مطروقٌ من زوايا متعدّدة، وهذا الموضوع فيه مقدّمةٌ، وفيه عرضٌ، وفيه خاتمة، وهذا الموضوع يَطْرُقُ محوراً أساسياً واحداً.

إذا تدبّرت القرآن ووقفت عند آياته متأمِّلاً ترى الترابط في الآيات:

إذاً:

﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32) ﴾

(سورة الفرقان)

لا بدّ أن تجد الإحكام، والترابط، والتسلسُلَ، وأن تأخذ كل آيةٍ برقبة أختها في كتاب الله، ربّما لا يبدو لك إذا قرأت القرآن قراءةً ظاهرة، أو قراءةً سريعة، أو قراءةً غير متأنيّة ربّما لا يبدو لك هذا الترابط، ولكن إذا تدبّرت القرآن ووقفت عند آياته متأمِّلاً يجب أن ترى الترابط في الآيات، وقد توضّح لكم بعض هذا الترابط في سورة النور ؛ كيف أن الله سبحانه وتعالى حدّ الحدود، ووضع البدائل، ونظّم إظهار الزينة، وأمر بغضّ البصر، وجعل الزواج هو الطريق المشروع، هناك تسلسل دقيق جداً، من يقرأ القرآن هكذا كما قال عليه الصلاة والسلام، قال:

((أنتم تقرؤونه هكذا وأما أنا فأَعَقِله))

النبي عليه الصلاة والسلام حينما سألوه مرّةً: " يا رسول الله كيف تحفظ القرآن ؟ " من منّا يستطيع أن يسمع السورة مرة واحدة فيحفظها ؟ قال: " أنتم تقرؤونه هكذا وأما أنا فأعقِله ". حينما أتدبّر الآيات أعقلها وأحفظها، لذلك هذا الحديث أيضاً توجيهٌ تربوي إلى أنّك إذا أردت أن تحفظ فدقِّق في معاني الآيات.

عندما تفهم المعنى الحقيقي للآية تستطيع حفظها بسرعة وبسهولة:

قال تعالى:

﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ (118) ﴾

(سورة المائدة)

أحدهم نسي تتمة الآية، فقال: إنك أنت الغفور الرحيم ولم يرَ بأساً في قولِهِ، لكن التتمة ليست هكذا بل إنها:

﴿ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(118) ﴾

(سورة المائدة)

قد يظن الإنسان أن تتمة هذه الآية: فإنك أنت الغفور الرحيم، ولكنها في القرآن:

﴿ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(118) ﴾

(سورة المائدة)

أي يا رب ما من مخلوقٍ يعفو إلا وقد يُحَاسَب، أما أنت إذا عفوت فلا رادّ لحكمك، ولا مُعَقِب على

عفوك، وأنت عزيزٌ لا ينال جانبك إذا عفوت، ولكن الإنسان مهما علت رتبته إذا عفا قد ينال جانبه، قد يُحاسَب لماذا عفوت عنه ؟ لماذا طويت هذه الضريبة عنه ؟ قد يُحَاسَب، إلا أن الله سبحانه وتعالى:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(118))

(سورة المائدة)

إذا عفوت وإذا غفرت فلا أحد يستطيع أن ينال جانبك، لو أنك فهمت هذا المعنى وكنت تحفظ هذه الآية لا تقل: فإنك أنت الغفور الرحيم، بل قل:

(فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(118))

(سورة المائدة)

هذا هو تعقيل الآيات.

الحكمة من تنزيل القرآن الكريم منجماً:

أحياناً هذه الدعوة التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام لابدّ من أن تواجه الصعوبات، لا بدّ من أن تواجه العَقَبات، لا بدّ من أن تواجه الخصوم، لا بدّ من أن تواجه الكَيْد، فكيف ربنا سبحانه وتعالى سيثبّت قلب النبي ؟ لو أن الله عزّ وجل أنزل هذا القرآن على قلب النبي دفعةً واحدة، جملةً واحدة ؟ ثمّ واجَهَ النبي صعوبة في أُحد، أو صعوبةً في الخندق، أو صعوبةً في فتح مكّة، من سيثبّته ؟ أما إذا نزل هذا القرآن منجّماً فإذا أشرف النبي عليه الصلاة والسلام على معركةٍ من المعارك بشّره الله ببعض الآيات، بأن مكّة سوف تُفتَح عليكم قريباً، فهذه بشارة، وهذا تثبيت.

إذاً من حكمة الله عزّ وجل في تنزيل القرآن بشكلٍ منجّم أن الله عزّ وجل كلّما ظهرت مشكلة، أو صعوبة، أو معارضة، أو صدام مسلّح بين النبي وبين المشركين، كلّما ظهرت أزمةٌ مستعصية يأتي القرآن ليطمئن النبي عليه الصلاة والسلام، وليثبّت قلبه، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33))

(سورة الفرقان)

أحياناً يَدّعي الكفّار شيئاً باطلاً، فيأتي القرآن فيدمغ هذا الباطل ويُلغيه بآيةٍ محكمة:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ(276))

(سورة البقرة)

انتهى الأمر، فكل الفلسفات حول الربا، وكل الدعاوى الباطلة، وكل ما يُزَيّن به هذا العمل، جاءت آيةٌ كريمة فدمغت الباطل وألغته وأزالته.

إذا أخذ الكفار آيةً وفسّروها على هواهم تأتي آيةٌ أخرى فتفسِّر هذه الآية تفسيراً صحيحاً:

إذا جاءك الكفّار بطرحٍ باطلٍ، بعقيدةٍ باطلة، بقصّةٍ باطلة:

(وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا(157)بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ)

(سورة النساء)

هذه دعوى باطلة، جاءت آية محكمة فأبطلتها:

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ (33))

(سورة الفرقان)

معنى " مَثَل " هنا في هذه الآية أي وصفٍ، أي وصفوا السيد المسيح بأنه قُتِل، الله سبحانه وتعالى قال:

(وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ(157))

(سورة النساء)

هذا الوصف الباطل جاءت آيةٌ محكمة فدمغته ودحضته، فإذا جاؤوا بشيءٍ من الحق ولكنّه فُسِّر تفسيراً كيفياً على هواهم، ربنا سبحانه وتعالى يأتي بآيةٍ تفسِّر آية أخرى ويدحض به هذا التفسير الباطل، فهناك تفاعل، كأن هناك معالجة لقضايا، هناك مشكلات تُطْرَح، هناك إجابات، هناك افتراءات، هناك آية تمحق هذا الباطل، هناك تفسير مزيّف لآية، تأتي آيةٌ أخرى فتأتي بتفسيرٍ صحيح:

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33))

(سورة الفرقان)

إذا جاؤوك بالباطل جئناك بالحق، إذا جاؤوك بتفسيرٍ غير صحيح جئناك بالتفسير الصحيح، إذا أخذوا آية وفسّروها على هواهم تأتي آيةٌ أخرى فتفسِّر هذه الآية التفسير الصحيح:

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33))

(سورة الفرقان)

تنزيل القرآن منجماً فيه تثبيت ليس لرسول الله فحسب بل لأصحابه أيضاً:

إذاً هذا القرآن الكريم لحكمةٍ بالغة نزل منجّماً، وتنجيمه يعني أنه أثبتُ في قلب النبي، وإذا ذكر الله عزّ وجل بعض الحكمة من تنزيل هذا القرآن منجّماً فليس معنى ذلك أن هذه الحكمة هي كل الحكمة ؛ بل هي بعضها، إذا نزل هذا القرآن منجّماً ففيه تثبيتٌ لأصحاب رسول الله أيضاً، واجهتهم مشكلة الإفك، كيف ثبّت الله النبي وأصحابه حينما أعلن براءة السيدة عائشة ؟ بالقرآن، إذاً تنزيل هذا القرآن منجّماً أيضاً تثبيتٌ لأصحاب النبي عليهم رضوان الله.

بسبب تنزيل هذا القرآن منجّماً صار هناك ردٌّ لكل افتراءٍ افتراه الكفّار، إن افتروا شيئاً باطلاً جاء القرآن فَرَدّ عليهم، وإن كان الافتراء على شكل تفسير، كأن يقول لك أحدهم: هذه الآية هكذا تفسيرها، مثلاً:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً(130))

(سورة آل عمران)

فتفسير هذه الآية كما يقول بعض أصحاب الأهواء: تنهى عن أن تأكل الربا بنسبٍ عاليةٍ جداً، فإذا أكلته بنسبٍ قليلةٍ فهذا شيءٌ مقبول من نصّ هذه الآية، هذا تفسير لا يرضي الله عزّ وجل، تأتي الآية الثانية:

(وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ(279))

(سورة البقرة)

هذه الآية فسّرت الآية الأولى، لذلك قال الله عزّ وجل في وصف هذا القرآن إنه مثانٍ، ومعنى مثانٍ أن كل آيةٍ تنثني على أختها فتفسِّرها.

الذين يفترون على الله الكذب يستحقون أن يحشروا على وجوههم للمبالغة في إذلالهم:

قال تعالى:

(كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (32) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (33))

(سورة الفرقان)

هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب، هؤلاء الذين يدّعون أن هذا القرآن ليس كلام الله، هؤلاء الذين يزعمون أنه لو كان كلام الله لَنَزَلَ جملة واحدة، هؤلاء:

(يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ (34))

(سورة الفرقان)

قال بعضهم: حينما يمشي الإنسان على وجهه لا يرى أمامه، وهذه صورةٌ مُجَسّدةٌ للضلال، مَن يمشي على وجهه لا يرى أمامه فقد يقع في حفرةٍ، وقد يرتطم بحائطٍ، ومن يمشي على وجهه فهو دليلٌ أنه غارقٌ في أحزانه وآلامه، ومن يمشي على وجهه فذلك مبالغةٌ في إذلاله، فهذا الذي يفتري على الله الكذب ويدّعي أن هذا القرآن ليس من عند الله، لو تنظر إليه يوم القيامة وهو يُحْشَر على وجهه:

(الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (34))

(سورة الفرقان)

شرٌّ مكاناً، فالنبي عليه الصلاة والسلام ما افترى على الله عزّ وجل، إذاً هو في مقعد صدقٍ عند مَلِيكٍ مقتدر، ولكنّهم هم الذين افتروا على الله الكذب فاستحقوا هذا المكان الوضيع، واستحقّوا أن يكونوا في أسفل سافلين.

قصص الأنبياء جاءت تثبيتاً لقلب النبي عليه الصلاة والسلام و مواساة له:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35))

(سورة الفرقان)

فربنا سبحانه وتعالى يبيّن لنا بعض قصص الأنبياء أيضاً، تثبيتاً لقلب النبي عليه الصلاة والسلام، وطمأنةً له، وإيناساً ومواساةً له:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (35) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا(36))

(سورة الفرقان)

أيْ أنّ الله سبحانه وتعالى إذا أراد بقومٍ سوءً فلا مَرَدّ له، ذهب سيدنا موسى وهارون إلى فرعون فكذّبوهما، فأغرقه الله تعالى، فآمن عندئذٍ ولكن جاء هذا الإيمان بعد فوات الأوان، لذلك قال له الله عزّ وجل:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(91) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)

(سورة يونس)

فعلاً نجّاه إلى الشَط ببدنه وكان لمن خلفه آية، وأكثر الروايات الصحيحة تؤكِّد أن الفرعون الذي هو مُسَجّى في بعض الأهرامات هو فرعون موسى، والذي لا يزال محنّطاً حتّى اليوم.

قال تعالى:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً(92))

(سورة يونس)

وقال:

(وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (37))

(سورة الفرقان)

الله سبحانه وتعالى كَرّمَ أمّةَ النبي محمد فحماها ونجّاها من هلاك التدمير والإبادة:

أما نحن أمّة النبي محمد عليه الصلاة والسلام فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ(33))

(سورة الأنفال)

فكأنّ الله سبحانه وتعالى كَرّمَ أمّة النبي محمد عليه الصلاة والسلام فحماها ونجّاها من هلاك التدمير، من هلاك الإبادة:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ(33))

(سورة الأنفال)

بعضهم فَسَّرَ هذه الآية: أنه ما دامت سنَّتك أيها النبي في أمّتك مطبّقة، فالله سبحانه وتعالى لا يعذِّبهم، أو ما دام النبي عليه الصلاة والسلام بين ظهرانيهم إذاً هم معهم فُسْحَةٌ ليهتدوا بهديه، إذاً الله سبحانه وتعالى ما كان له أن يعذِّبهم.

آيات من القرآن الكريم عن أقوام أبادهم الله وأهلكهم لانحرافهم عن منهج الله تعالى:

قال تعالى:

(وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38))

(سورة الفرقان)

هذه قصص الأمم التي كذّبت رسلهم، وكيف أن الله سبحانه وتعالى أهلكهم:

(وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ (38))

(سورة الفرقان)

أصحاب البئر، فهناك روايات كثيرة جداً أَوْجهها أن هؤلاء يقابلون قوم لوط، كيف أن قوم لوط انحرفوا في قضاء شهوتهم، كذلك هؤلاء انحرفوا في الجهة المقابلة في قضاء شهوتهم:

(وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (38) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (39))

(سورة الفرقان)

التتبير هو التقطيع، أي أنهم قُطِّعوا في الأرض وأهلكهم الله عزّ وجل، وكفّار مكّة في رحلتهم إلى الشام كانوا يمرّون على القرية التي أمطرت مطر السوء وهم قوم لوط، وكيف أن الله سبحانه وتعالى أرسل عليهم حجارةً من السماء فجعل قريتهم عاليها سافلها:

(وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا(40))

(سورة الفرقان)

فهم كانوا بعيدين عن أن يتّعظوا، والإنسان العاقل يتّعظ بغيره ؛ بينما الشقي لا يتّعظ إلا بنفسه.

الاستهزاء بالرسول من صفات الكفّار:

يقول الله عزّ وجل:

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41))

(سورة الفرقان)

الاستهزاء بالرسول من صفات الكفّار، فماذا ينتظرون أن يروا في النبي عليه الصلاة والسلام ؟ إنه بشر ؛ له عينان، وله أذنان، وله يدان، ويمشي، ويأكل، وينام، ويجوع، ويغضب، ويتعب، ويسهو، هو بشر:

محمّدٌ بشرٌ وليس كالبشر   بَلْ هو جوهرةٌ والناس كالحجر

* * *

قال تعالى:

(وَإِذَا رَأَوْكَ (41))

(سورة الفرقان)

يا محمّد:

(إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا (41))

(سورة الفرقان)

يستهزؤون، فالإنسان له أن يمرح بما يحل له، ولكن أن يتّخذ آيات الله للسُخرية والمرح ؟ يتخذ النبي عليه الصلاة والسلام للسخرية ؟ هذا هو الكفر بعينه.

من اتخذ آيات الله هزواً و لعباً فقد كفر:

لذلك هناك معتقداتٌ تؤدي بالإنسان إلى الكفر، وهناك أعمالٌ تؤدي بالإنسان إلى الكفر، فلو أنه أمسك المصحف وألقاه بقصد أن يهينه فقد كفر، من استهزأ بالنبي عليه الصلاة والسلام فقد كفر، من سخرَ منه فقد كفر:

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41) إِنْ كَادَ (42))

(سورة الفرقان)

هم كانوا يخشون أن يؤمنوا، لكنّ النبي عليه الصلاة والسلام فيما يزعمون أنه لم يؤثِر فيهم، وبقوا محافظين على عقيدتهم الوثنيّة:

(إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا(42))

(سورة الفرقان)

البطولة أن تكون في الحياة الآخرة من السُعداء:

في الحقيقة أنّ البطولة أنْ تبقى ضاحكاً حتى النهاية، هناك من يضحك قليلاً ليبكي كثيراً، وهناك من

يفرح عاجلاً ليحزن آجلاً، وهناك من يسعد في الدنيا ويشقى إلى الأبد، فالبطولة أن تكون في الحياة الآخرة من السُعداء، لذلك عندما وصف ربنا عزّ وجل في بعض الآيات الكفّار وكيف أنهم يقولون:

(رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ(106)رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ(107)قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ(108)إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ(109)فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ(110))

(سورة المؤمنون)

وقال:

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ(34))

(سورة المطففين)

العبرة بالخواتيم والبطل من يضحك في النهاية:

إذاً البطل من يضحك في النهاية لا من يضحك في البداية:

(إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ(38))

(سورة هود)

وقال:

(إِنْ كَادَ (42))

(سورة الفرقان)

أي كاد النبي:

(لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (42))

(سورة الفرقان)

لذلك:

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ(5)لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ(6)ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ(7)ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ(8))

(سورة التكاثر)

إذا عبد الإنسان شهوته فقد أطاع هواه ولن يتسنّى له أن يؤمن:

هذا الذي يسخر، دقِّقوا في هذه الآية:

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا (41))

(سورة الفرقان)

هؤلاء أنفسهم لماذا لا يؤمنون ؟ ربنا عزّ وجل يقول:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ (43))

(سورة الفرقان)

كيف يؤمن من جعل شهوته الإله الذي يُعْبَد ؟ فإذا عبد الإنسان شهوته فقد أطاع هواه فكيف يتسنّى له أن يؤمن ؟ أنت إما أن يقودك الحق، وإما أن يقودك الهوى، فإذا كنت مقوداً للهوى أنّى لك أن تؤمن ؟ أنّى لك أن تعبد الله عزّ وجل ؟ لا بدّ أن تعبد معبوداً آخر، هناك من يعبد الدرهم والدينار، قال عليه الصلاة والسلام:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ))

[سنن ابن ماجة عن أبي هريرة]

وهناك من يعبد بطنه، ومن يعبد فرجه، ومن يعبد الخميصة، قال عليه الصلاة والسلام:

((' تَعِسَ عبدُ الدِّينار، وعبدُ الدِّرهم، وعَبْدُ الخميصة، إن أعْطِيَ رَضِيَ، وإن لم يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وانْتَكَسَ، وإذا شِيكَ فلا انْتُقِشَ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة]

الإنسان ممتحن في كل حركة وسكنة:

هناك من يعبد الله، فإما أن تكون عبداً لله، وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم، إذاً لا بدّ أن تكون عبداً، فخضوعك هو العبوديّة، فإذا خضعت لهواك، هناك من يقسو على الناس ولكنّه ضعيفٌ أمام امرأة، إذاً هو يعبدها من دون الله، هناك من يتكلّم بالقِيَم ولكنّه يضعف عند الدرهم والدينار، إذاً هو يعبد الدرهم والدينار، فهذا الذي يستهزئ بالنبي عليه الصلاة والسلام أنّى له أن يؤمن ؟ لأنه يعبد هواه:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ (43))

(سورة الفرقان)

فأنت مُمْتَحَن في كل يوم آلاف الامتحانات، تقع أمام مشكلة، إما أن تنتصر لما يأمرك به العقل من الحق، وإما أن تنتصر لما يأمرك به الهوى من الشهوة، قد تقف في موقفٍ صعبٍ، شيءٌ يغري فتهوي، وشيءٌ يرفعك في نظر الله عزّ وجل، فإما أن يسقط الإنسان في حَمْأَةِ المادّة، وإما أن يرقى في سُلّم الرفعة إلى الله عزّ وجل، أنت كل يومٍ ممْتَحَنْ، في كسب المال ممتحن، في إنفاق المال ممتحن، في علاقتك بالمرأة ممتحن، في علاقتك بجيرانك ممتحن، في علاقتك بزوجتك ممتحن، في علاقتك بأمّك ممتحن، أبداً.

أهل الضلال منطقهم تبريري من أجل أن يعيدوا لأنفسهم توازنها مع ذاتها:

أهل الضلال لماذا يكذِّبون الحق ؟ لماذا يكذِّبون الرُسُل ؟ لأنهم اتخذوا آلهتهم أهواءهم، ينطلقون من الشهوة، هؤلاء ما منطقهم ؟ منطقهم تبريري، منطقهم من أجل أن يعيد لهم توازنهم، هم حينما يتّبعون الهوى، وحينما يتّبعون شهواتهم، وحينما يتّخذون من شهواتٍ آلهةً لهم يختلّ توازنهم الداخلي بناءً على فطرتهم السليمة، هذا الاختلال في التوازن يجعلهم يُفلسفون الشهوات والمُباحات، يفلسفون التفلّت من قواعد الشرع فلسفة جديدة من أجل أن يعيدوا لأنفسهم توازنها مع ذواتها، لذلك:

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (41) إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آَلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (42) أَرَأَيْتَ (43))

(سورة الفرقان)

عدة آيات في القرآن الكريم تتحدث عن اتباع أهل الضلال لشهواتهم:

هذا هو نفسه:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ (43))

(سورة الفرقان)

آية أخرى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ(1))

(سورة الماعون)

هو نفسه:

(فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ(2))

(سورة الماعون)

آية ثالثة:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ(50))

(سورة القصص)

الإنسان مركّب من عقل وشهوة فهو إما أن يتبع الحق وإما أن يتبع الهوى:

القضية واضحة تماماً إما أن تتبع الحق وإما أن تتبع الهوى، إما أن تؤثر القِيَم وإما أن تُؤثِر المادّة، إما أن تؤثر المُثُل وإما أن تؤثر الحاجات، إما أن ترقى إلى السماء وإما أن تخلُدَ إلى الأرض، رُكِّب

الإنسان من عقلٍ وشهوة، ورُكِّب الحيوان من شهوةٍ بلا عقلٍ، ورُكِّب المَلَكُ من عقلٍ بلا شهوة، ورُكِّب الإنسان من كليهما، فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان.

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا (43) أَمْ تَحْسَبُ أَنّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44))

(سورة الفرقان)

أنت إذا قلت لإنسان: يا أخي العقرب على ظهرك، ولم ينزعج، لم يضطرب، لم ينتفض، بل التفت نحوك وقال لك كلاماً لطيفاً: أنا شاكرٌ لك على هذه الملاحظة، هل فهم ما قلت له ؟ لا والله، لأنه لو فهم ما قلت له لما كان عنده وقتٌ كي يشكرك، ينتفض كالمذعور، ما دام قد بقي هادئاً والتفت نحوك شاكراً، إذاً أمواج صوتك وصلت إلى طبلة أذنه ولكن لم يدرك ما معنى العقرب، لو عرف ما معنى العقرب لانتفض من تَوّه، إذاً قد تسمع وقد لا تسمع، الصوت قد يصل إليك ولكن قد لا تفهمه، فربنا عزّ وجل يقول:

(أَمْ تَحْسَبُ أَنّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ (44))

(سورة الفرقان)

القرآن عندما يتلى على الكفار لا يسمعونه سماع تدبر وإلا لكانوا أشخاصاً آخرين:

القرآن يُتلى عليهم، هل يسمعونه سماع تدبُّر ؟ لا والله، لأنهم لو سمعوه وتدبَّروه لكانوا أشخاصاً آخرين، لو عقلوه لكانوا في حالٍ غير هذه الحال، لو سمعوا كلام الله يُتلى عليهم لأحلّوا حلاله وحَرّموا حرامه، لو سمعوا كلام الله كما يجب أن يُسْمَع لاستقاموا على أمر الله، قال تعالى:

(أَمْ تَحْسَبُ أَنّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ (44))

(سورة الفرقان)

السؤال دقيق هنا: لماذا يسمعون أو يعقلون ؟ لماذا لم يقل ربنا عزّ وجل يسمعون فقط، أو يعقلون فقط ؟ كأنّ الله عزّ وجل في هذه الآية أشار إلى مصدرين أساسيين من مصادر المعرفة، إما أن تعقل أنت عقلاً ذاتياً، وإما أن تستمع إلى الحقّ جاهزاً، أي إما أن تفكِّر وإما أن تسمع من يفكِّر لك، إما أن تحقِّق وإما أن تسمع من حَقّقَ لك الحق، فإذا حضرت مجلس العلم فقد سمعت، وإذا جلست وفكّرت في خلق السماوات والأرض فقد عقلت، أيْ أنّ هناك باب التأمُّل وباب السماع، قد تأخذ الحق جاهزاً لقمةً سائغةً من فم مَن يُلقيه عليك، وقد تجهد نفسك في البحث عنه، على كلٍ هذا طريق وهذا طريق، قال تعالى:

(أَمْ تَحْسَبُ أَنّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلّا كَالْأَنْعَامِ (44))

(سورة الفرقان)

من لا يسمع أو يعقل كلام الله كالدابة التي لا تعقل ولا تفهم ولا تدرك:

ربنا عزّ وجل قال:

(مثل الذين)

الآن المثل الصارخ في القرآن الكريم فلو جئت بدابّة وحمّلتها كتاب فيزياء، وكتاب كيمياء، وكتاب طب، وكتاب فلك، وكتاب هندسة، وكتاب في اللغة العربية، وكتاب في التفسير، ووضعت هذه الكتب على ظهرها وسرت بها عشر ساعات، ثم أوقفتها وسألتها: ما حجم الكرة الأرضيّة ؟ كم بين الشمس والأرض ؟ الكُتب على ظهر الدابّة، ولكن ربنا عزّ وجل يقول:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا(5))

(سورة الجمعة)

فأنْ تحسب أنّ أكثرهم يسمعون أو يعقلون خطأٌ منك:

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ (44))

(سورة الفرقان)

أي لا يسمعون ولا يعقلون، فالحيوان رَكّب الله عزّ وجل فيه غريزة حب البقاء، يبحث عن طعامه، وعن مأواه، ويخاف من عدوّه، ويركن إلى مكانٍ مريح، أربع منعكسات عند الحيوان، لا يعقل ولا يفهم ولا يدرك:

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ (44))

(سورة الفرقان)

الآن المعنى واضح تماماً.

الحيوان لن يُحاسب كالإنسان لأنه ما حمِل الأمانة ولا كُلِف:

كيف نفسّر قوله تعالى:

(بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44))

(سورة الفرقان)

هل هناك أضلُ من البهيمة ؟ نعم، البهيمة لم تُكلّف، فإذا كانت لا تعي فلا مسؤوليّة عليها، البهيمة لم تحمل الأمانة، فإذا خانت هذه الأمانة فهي في الأساس لم تحملها حتى تخونها، البهيمة رُكِّبت فيها غريزة بحيث لا تلقي بنفسها في المهالك، والإنسان أُعطي حريّة الاختيار، فلو لم يحسن استخدام هذه الحريّة لألقى بنفسه في المهالك، فالقضيّة دقيقة جداً، فإذا طغت شهوة الإنسان على عقله أصبح دون الحيوان، الحيوان ليس مكلّفاً:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا(72))

(سورة الأحزاب)

الإنسان حمل أمانة، الإنسان مكلّف، الإنسان سُخِّرَ له الكون، الإنسان أعطي العقل، الإنسان أعطي الشهوة، الإنسان أعطي حريّة الاختيار، هذه كلها أعطيت له فإذا عطّل عقله اختار شيئاً يهلكه، إنْ لم يعبأ بتسخير الكون له وقع في شقاوةٍ كبرى، لذلك الحيوان لن يُحاسب كالإنسان، الحيوان ما حمل الأمانة، وما كُلِّف:

(بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44))

(سورة الفرقان)

الله سبحانه وتعالى يدعونا إلى أن نستمع إلى الحق ونذكره في مجالسنا:

الحيوان لا يقتحم المخاطر كما يفعل الإنسان، الحيوان يعرف بالبديهة ما ينفعه، الحيوان لم يعاهد ربه في الأزل على أن يطيعه، الحيوان عنده شهوة يمارسها في الطريق التي سمح الله له بها، وانتهى الأمر، قال تعالى:

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ (44))

(سورة الفرقان)

وكأن الله سبحانه وتعالى يدعونا إلى أن نستمع إلى الحق، لذلك:

((مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

[سنن أبي داود عن أبي هريرة]

أما إذا ذكروا الله في مجلسهم:

((لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلا حَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

[صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري]

والله سبحانه وتعالى يقول لسيدنا موسى: **" أتحبُّ أن أكون جليسك ؟"** قال: " كيف هذا يا رب ؟ "، قال: **" أما علمت أنني جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني ؟ ".**

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم إنك إذا ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة]

وقال:

((من أكثر ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[أخرجه الطبراني في الصغير عن أبي هريرة]

الإنسان حمِّل الأمانة وكُلِّف ومُنح حرية الاختيار وعليه أن يتحمل المسؤولية كاملة:

قال تعالى:

(أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44))

(سورة الفرقان)

أضل سبيلاً لأنهم حملوا الأمانة وكُلِفوا، أودع الله فيهم الشهوة ليرقوا بها إلى رب الأرض والسماوات، أودع الله فيهم العقل، منحهم حرية الاختيار، سخّر لهم ما في السماوات والأرض، فإذا خالفوا هذه الأمانة وخالفوا العهد فقد وقعوا في شقاءٍ كبير، أما الحيوان فإنه لم يُكلّف بكل هذا، إذاً هم أضل سبيلاً، فلو فرضنا أنّ إنساناً مقيماً في بلده ولا يدرس شيئاً، وآخر أُرسل بعثة إلى دولة أجنبيّة وهناك أهمل ولم يدرس، فسوف يعود بالخزي والعار، وسوف يتحمّل نفقات الدراسة، وسوف يعود وقد خان الأمانة ؟ إذاً حينما تُكلّف وتقصِّر فلك موقف، وحينما لا تُكلّف فلك موقفٌ آخر، هذا معنى قوله تعالى:

(بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (44))

(سورة الفرقان)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (10-13): تفسير الآيات 45 - 54

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 26-05-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من سورة الفرقان.

الآيات الكونية تبين لنا طريق معرفة الله سبحانه وتعالى:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا(47))

(سورة الفرقان)

حينما تأتي الآيات الكونية، يكون هذا إشارةً إلى أن طريق معرفة الله سبحانه وتعالى التأمُّلَ والنظر في هذه الآيات، فبعد الحديث عن الكفر، وعن النفاق، وكيف أن الإنسان يتخذ إلهه هواه، وكيف أن الشهوة تقوده إلى هلاكه، بَيّنَ الله سبحانه وتعالى الطريق إليه، طريق معرفته، فيقول الله عزّ وجل:

(أَلَمْ (45))

(سورة الفرقان)

هذه الهمزة حرف استفهام، وقد بيّنت لكم من قبل أن الاستفهام في اللغة معناه طلب العلم بمجهول، تقول: كم اشتريت هذا الكتاب ؟ لكن الاستفهام في اللغة العربية قد يخرج عن معناه الأصلي إلى معانٍ كثيرة تزيد عن عشرين معنىً، من هذه المعاني الاستفهام الطلبي، أي:

(أَلَمْ تَرَ (45))

(سورة الفرقان)

أي انظر، أي ره ـ راء، هاء ـ انظر إلى ربك كيف مد الظل، فهذا استفهامٌ طلبي.

الله سبحانه وتعالى يحضنا على أن ننظر ونتأمل ونفكر:

شيءٌ آخر، الله سبحانه وتعالى يحضنا على أن ننظر، وفي آيات أخرى بشكلٍ واضحٍ صريح يقول الله سبحانه وتعالى:

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ(24))

(سورة عبس)

وقال:

(فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ(5))

(سورة الطارق)

وقال أيضاً:

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْض(101))

(سورة يونس)

وهذه الآية:

(أَلَمْ تَرَ (45))

(سورة الفرقان)

أي ره، أي انظر، تأمل، فكر، دقق، لا تجعل الحياة تستهلكك استهلاكاً رخيصاً، لا تجعل حياتك طعاماً وشراباً، قالوا: الحيوان يعيش ليأكل، والإنسان العاقل يأكل ليعيش، أما المؤمن يعيش ليعرف الله عزّ وجل، فبين أن يعيش ليأكل، وبين أن يأكل ليعيش، وبين أن يعيش ليعرف الله سبحانه وتعالى، فرقٌ كبير، فلذلك الإنسان العاقل لا يجعل عمله ؛ مهنته، حرفته، وظيفته، لا يجعل كسب المال يستهلكه استهلاكاً رخيصاً.

القرآن لكل زمانٍ ومكان وفيه دعوة إلى التفكر والتأمل وهذا هو طريق الإيمان:

من معاني قوله تعالى:

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ(22))

(سورة فاطر)

هناك من جعل شهوته قبراً له، هناك من جعله عمله قبراً له، هناك من أصبحت حياته رتيبة لا معنى لها، طعامٌ وشرابٌ وراحةٌ ومتعة ونوم، إذا أصبحت الحياة رتيبة، إذا استهلك الإنسان عمره استهلاكاً رخيصاً، إذا فكّر في وقته، إذا أدرك لحظته من دون أن ينظر إلى ما سيكون فهو إنسانٌ أحمق، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الأَمَانِيَّ))

[سنن الترمذي عن شداد بن أوس]

فهذه دعوةٌ من الله عزّ وجل، الله سبحانه وتعالى يدعونا جميعاً، لأن هذا القرآن لم يكن لزمن النبي عليه الصلاة والسلام، بل هو لكل زمانٍ ومكان، ونحن معنيّون بهذه الآية، انظروا إلى الله عزّ وجل كيف مد الظل، هذا هو المعنى، دعوةٌ إلى التفكر، دعوةٌ إلى التأمل، هذا هو الطريق الموصل إلى الله عزّ وجل، هذا هو طريق الإيمان:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(6))

(سورة الجاثية)

لكن:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ (45))

(سورة الفرقان)

الكون بشكلٍ أو بآخر تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى:

الله سبحانه وتعالى لا نستطيع أن ننظر إليه، ربما وعقيدة أهل السنة والجماعة أن المؤمن يوم القيامة في الجنة ينظر إلى الله عزّ وجل، وبعض الأحاديث الشريفة تؤكِّد أن الإنسان ينظر إلى الله نظرةً يغيب معها خمسين ألف عام من نشوة النظرة، يؤكد هذا قول الله عزّ وجل:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(22)إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(23))

(سورة القيامة)

وأكبر عقابٍ يعاقب به المقصّرون:

(كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ(15))

(سورة المطففين)

وقال:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ (45))

(سورة الفرقان)

إذاً حينما يدعونا الله عزّ وجل أن ننظر إليه في الدنيا، أي يدعونا أن نراه رؤية قلبية، قد تقول: رأيت الله أكبر كل شيءٍ، هل هذه الرؤية بصريةٌ، هل هذه الرؤية بصرية أم قلبية، إنها رؤية قلبية، رأيت العلم نافعاً، ربنا سبحانه وتعالى يدعونا أن ننظر إلى عظمته، إلى قدرته، إلى حكمته، إلى لطفه، إلى أسمائه الحسنى من خلال الكون، لأن الكون بشكلٍ أو بآخر تجسيدٌ لأسماء الله الحسنى.

هناك أدلة كثيرة على قدرة الله ولطفه وحكمته من خلال الكون:

هناك ألف دليل ودليل على قدرة الله من خلال الكون، هناك ألف دليل ودليل على لطف الله من خلال الكون، هناك ألف دليل ودليل على حكمة الله من خلال الكون، إذاً ربنا سبحانه وتعالى يقول: من أجل أن تطيعوني يجب أن تعرفوني.

قد تحدثت في الخطبة اليوم: أن العبادة التي هي علة وجودنا على وجه الأرض بل هي غاية وجودنا، إنما هي طاعة طوعية ممزوجة بمحبةٍ قلبية أساسها معرفةٌ يقينية تفضي إلى سعادةٍ أبدية، هكذا، إذاً من أجل أن نطيع الله طاعةً طوعية، من أجل أن نحبّه محبةً قلبية، من أجل أن تنتهي بنا هذه الطاعة وهذه

المحبة إلى سعادةٍ أبدية يجب أن نعرفه، ولا طريق إلى معرفته إلا أن نتأمّلَ في خلقه، لأن طبيعة الإنسان لا تستطيع أن ترى الله عزّ وجل ولكنها ترى آثاره، ترى آثار قدرته، وآثار حكمته، وآثار رحمته، إذاً ربنا سبحانه وتعالى حينما يدعونا إلى أن ننظر إليه، ننظر إلى أسمائه الحسنى وصفاته الفُضلى من خلال الكون:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلّ (45))

(سورة الفرقان)

وكلمة الظل ولا سيما في الجزيرة العربية توحي بالرحمة، توحي بالنِعمة، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلّ إلا ظِلُّهُ الإمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

امتداد الظل دليل حركة الأرض حول نفسها ودليل كرويتها:

إذاً:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلّ (45))

(سورة الفرقان)

هنا آيةٌ دقيقة جداً دالةٌ على عظمة الله عزّ وجل، هذا الظل، اغرس قضيباً في تربةٍ ما، وراقب ظل هذا القضيب، اغرسه وقت الظهيرة، لا ظل له، تزول الشمس عن كبد السماء يمتد له ظلٌ قصير، وما يزال هذا الظل يمتد ويمتد ويَمتد، إلى أن يصبح مثل طول القضيب، ثم يمتد ويمتد إلى أن يصبح مِثْلَيْه، وحينما يصبح الظل مثليه فهذا وقت العصر، على أرجح الأقوال، ويمتد هذا الظل ويمتد، ما معنى يمتد؟ معنى يمتد أن الشمس تتحرك حركةً ظاهرية، وإذا تعمّقت فإن الأرض هي التي تدور، ويكفي أن يمتد الظل لتعرف أن هذه الأرض التي نحن عليه تسبح في الفضاء، هذا هو الاستنباط، بهذه الطريقة ترى أن السماوات والأرض في قبضة الله عزّ وجل.

كيف يمتد الظل لولا أن الشمس تتحرك ؟ أو لولا أن الأرض تتحرك ؟ لا بدّ من حركة إحداهما، بالعين المجردة نرى الشمس تتحرك، وبدراسة واقع الأرض والشمس والقمر نرى أن الأرض هي التي تتحرك، إذاً امتداد الظل دليل حركة الأرض، هذه واحدة.

شيءٌ آخر، امتداد الظل دليل كروية الأرض، لو أن الأرض مكعبة الشكل لجاء الظل فجأةً واختفى فجأةً، لأن هذا الشكل المكعب له حروف، ضع مكعباً أمام منبعٍ ضوئي وحرك المكعب، يأتي الظل دفعةً واحدة ويختفي دفعةً واحدة، أما أن يمتد الظل رويداً روَيداً فهذا دليل أن الأرض كروية الشكل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ (45))

(سورة الفرقان)

هنا لم يقل الله عزّ وجل: ألم تر إلى الله، ولا ألم تر إلى المسيّر.

أساس نظام النبات الليل والنهار والفصول الأربعة:

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ (45))

(سورة الفرقان)

إن دورة الأرض حول نفسها ينشأ عنها الليل والنهار، ودورة الأرض حول الشمس مع ميل المحور ينشأ عنها الفصول الأربع، ولولا الفصول الأربع، ولولا الليل والنهار لما أكل الإنسان لقمةً من طعامٍ أو شراب، لأن أساس نظام النبات الليل والنهار والفصول الأربع، إذاً من الذي حرّك الأرض حول نفسها؟ أدارها حول نفسها ؟ من حركها حول الشمس بسرعةٍ تزيد عن ثلاثين كيلو متراً في الثانية ؟ نحن في هذا الدرس إذا أمضينا ساعة في شرح هذه الآيات معنى ذلك أن الأرض تسير، هذا شيء بديهي، من أولويات علم الفلك، الأرض تسير ثلاثين كيلو متر في الثانية، ضرب ستين في الدقيقة، ضرب ستين في الساعة، أي مئة وثمانية وثلاثين ألف متر تقطع الأرض ونحن في هذا المسجد، بهذه الساعة بالذات:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ (45))

(سورة الفرقان)

امتداد الظل دليل حركة الأرض حول نفسها، ودليل كرويتها.

الشمس هي دليل وجود الظل ولولاها لما كان الظل:

قال تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا (45))

(سورة الفرقان)

لو شاء الله لجعل الظل ثابتاً، وإذا جعل الظل ثابتاً أي جمّدَ حركة الأرض، وإذا جمد حركة الأرض انتهت الحياة من على سطح الأرض، لأن الشمس إذا واجهت وجه الأرض الأول ارتفعت الحرارة إلى ثلاثمئةٍ وخمسين درجة فوق الصفر، وفي هذه الحرارة تستحيل الحياة، أما الوجه الآخر البارد، فإن الحرارة تنخفض إلى مئتين وخمسين درجة تحت الصفر والحياة أيضاً مستحيلة، إذاً يكفي أن يصبح الظل ساكناً لا يمتد لتنتهي الحياة.

شيءٌ آخر حركة الظل حركةٌ لطيفة، أنت إذا نظرت إلى أشعة الشمس أو إلى ظل الأشياء ترى الظل ثابتاً، فإذا تشاغلت فترةً من الزمن تراه قد انتقل من مكان إلى مكان، كعقارب الساعة تراها واقفةً متحركة، واقفةً إذا نظر إليها، فإذا غبت عنها فترةً زمنية محدودة رأيتها في مكانٍ آخر، وهذا من لطف الله عزّ وجل، إذاً امتداد الظل دليل حركة الأرض حول نفسها، وامتداد الظل دليل كروية الأرض، فلو أنها مكعّبة لظهر الظل فجأةً واختفى فجأةً:

(وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45))

(سورة الفرقان)

لولا الشمس لما كان الظل، الأصل في الفضاء أنه ظلامٌ مستمر، تأتي الشمس لتُلقِيَ بنورها على سطح الأرض، إذاً الشمس دليل وجود الظل، ولولا الشمس لما كان الظل، هذه آيةٌ من آيات الله الدالّة على عظمته.

زيادة سرعة الأرض بلطف شديد وتباطؤها بلطفٍ شديد يجعل الحياة مستمرة عليها:

الإنسان لا ينبغي أن يمر هكذا ؛ أن يرى الشمس والقمر، أن يرى النجوم، أن يرى الأبراج، أن يأتي عليه صيفٌ وشتاءٌ وربيعٌ وخريف، أن تأتي عليه برودةٌ وحرارة، جوٌ رطبٌ وجوٌ جاف، أمطارٌ وثلوج، وهكذا كأن عقله مُعَطّل:

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ(101))

(سورة يونس)

دورة الأرض حول الشمس من آيات الله العظيمة، بل إن حركة الأرض حول الشمس ترسم مداراً إهليلجياً بيضويَ الشكل، وتختلف أبعاد هذا المسار عن مركز هذا الشكل البيضوي، فإذا كانت الأرض في المنطقة القريبة من المركز ربما انجذبت إلى الشمس، ومع انجذاب الأرض إلى الشمس تنتهي الحياة، عندئذٍ تأتي يدُ القدرة والعلم، تأتي يد الحكمة واللطف فتزيد من سرعتها شيئاً فشيئاً، حتى ينشأ من زيادة هذه السرعة قوةٌ نابذةٌ تكافئ القوة الجاذبة، صنع من ؟ يد من ؟ تقدير من ؟ حكمة من ؟ علم من ؟ إنه الله سبحانه وتعالى، هذا لطف الله عزّ وجل لو أن الأرض زادت من سرعتها دفعة واحدة

لتحطّم كل ما عليها، ولو أنها أبطأت دفعة واحدة لارتطم كلٌ ما عليها، لكن الزيادة بلطف شديد، والتباطؤ بلطفٍ شديد يجعل الحياة مستمرة عليها.

تحرك الأرض حول نفسها يجعل الظل متنقلاً من مكان إلى آخر وهذا من نِعَم الله تعالى:

قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45))

(سورة الفرقان)

هذه الشمس إنها دليلٌ على عظمة الله عزّ وجل، تكبر الأرض بمليون وثلاثمئة ألف مرة، تبلغ حرارتها في الداخل عشرين مليون درجة، على السطح ستة آلاف درجة، تنطلق منها ألسنة اللهب بطولٍ يزيد عن نصف مليون كيلو متر، هذه الشمس تتوقد منذ ما يقارب (كما يقدِّر العلماء) من خمسة آلاف مليون عام، ما خَبَتْ، ولا انطفأت، ولا ضعف لهيبها، ولا قلّ ضوءها، الشمس آيةٌ من آيات الله عزّ وجل:

(لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ(37))

(سورة فصِّلت)

طبعاً إذا وضعت قضيباً، غرسته في أرضٍ، رأيت هذا الظل من بعد الزوال يمتد نحو الشرق شيئاً فشيئاً إلى أن يصبح طوله مثل طول العود، ثم مثليه، ثم أربعة أمثاله، ثم تغيب الشمس فينعدم الظل، فإذا أشرقت الشمس من المكان الآخر من الشرق، هذا المكان الذي كان ظلاً ظليلاً، أصبح فيه شمسٌ منيرةٌ وقد تكون محرقة في أيام الصيف، فالذي له بيت له شرفات من جهات مختلفة، هذه الشرفة من الصباح وحتى الظهيرة كلها شمسٌ محرقة، لكن بعد الظهر يأتي الظل الظليل، وهذا من رحمة الله عزّ وجل.

نعمة الليل والنوم من نِعَم الله تعالى علينا أيضاً:

إن تحرك الأرض حول نفسها يجعل الظل متنقلاً من مكان إلى مكان، وهذا من نِعَم الله أيضاً، قال تعالى:

(ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46))

(سورة الفرقان)

الظل يمتد بشكلٍ مُتعاظِم شيئاً فشيئاً وينقبض قبضاً يسيراً، إذاً آية الظل وحدها دليل كروية الأرض، ودليل حركة الأرض حول الشمس، والشمس وحدها أساس الظل، ولولا الشمس لما كان الظل.

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا (47))

(سورة الفرقان)

تصور أن الحياة من دون ليل، كيف ينام الناس ؟ تحدث فوضى، هذا ينام وهذا يعمل، وهذا عاد من عمله ليستريح، وهذا جاره بدأ يعمل في الليل، لولا أن هذا الليل الذي جعله الله سكناً للنفوس، ترتاح فيه النفوس، هذا الجهاز العصبي الذي يجهد طوال النهار يأتي الليل ليكون راحة تامة له.

الإنسان حينما يستيقظ من نومه يُحِسُ أنه نشيطٌ نشاطاً لا حدود له، وهذا بفضل نعمة النوم، والذي ينام بشكلٍ معتدل، هذه نعمةٌ لا يعرفها إلا من فقدها، الأرق شيءٌ لا يحتمل، شيءٌ يدمِّر الأعصاب، يدمِّر الصحة، هو هل عرفته ؟ إنه الله.

لولا الليل والنهار لما عرفنا الأعمار ولا الأوقات ولا الأزمنة ولما انتظمت حياتنا:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا (47))

(سورة الفرقان)

أيْ ساتراً، كل إنسان يأوي إلى بيته، الليل لباس بمعنى أنه يستر.

(وَالنَّوْمَ سُبَاتًا (47))

(سورة الفرقان)

السُبات سكون، تسكن الأعضاء، تسكن الجوارح، تسكن العضلات، تسكن الأعصاب، ينتهي الكلام، الإنسان يخلُدُ إلى الراحة ليستعيد نشاطه، لولا الليل والنهار لما عرفنا أعمارنا:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا(62))

(سورة الفرقان)

وفي آية أخرى:

(وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ(12))

(سورة الإسراء)

فلان عمره ثلاثون عاماً، معنى ذلك لولا أن الأرض تدور حول نفسها لما صار ليل ونهار، الأسبوع سبعة أيام، سبعة دورات أسبوع، ثلاثون دورة شهر، ثلاثمئة وخمس وستون دورة تعد سنة، ثلاثين سنة، لولا الليل والنهار لما عرفنا الأعمار، ولما عرفنا الأوقات، ولا الأزمنة، ولما انتظمت حياتنا، من الذي جعل الشمس في السماء ساعة يدبّ عقرباها إلى قيام الساعة ؟ الشمس ساعة، والقمر تقويم، أصبح الظهر، قرب العصر، غابت الشمس، من دون ساعة، الشمس هي ساعة، الشمس في كبد السماء ساعة، والقمر تقويم، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47))

(سورة الفرقان)

الله عزّ وجل جعل النهار نشوراً و هذا فضل عظيم منه:

الإنسان ينطلق في النهار إلى عمله، هذا إلى مكتبه، وهذا إلى معمله، وهذا إلى حقله، وهذا إلى دُكّانِهِ، وهذا إلى عيادته، وهذا إلى أشغاله، فكل إنسان له عمل ينطلق في النهار إليه، الله عزّ وجل جعل النهار نشوراً، فضياء الشمس كافٍ، هنا فرق بين أن تقود مركبتك في الليل تحس أنك اجتهدت اجتهاداً لا حدود له، وبين أن تقودها في النهار، النهار واضح، الرؤية صحيحة، وبعيدة، ومريحة، ربنا عزّ وجل قال:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47))

(سورة الفرقان)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((سبحان الله، فأين الليل إذا جاء النهار ؟))

[رواه عبد الله بن أحمد عن سعيد بن أبي راشد]

الله تعالى جعل الليل سَكَنَاً ولباساً وجعل النهار معاشاً وهذا من آياته الدالة على عظمته:

تجد ظلاماً دامساً في أماكن موحشة، الإنسان يخاف أن يمشي في الغابة ليلاً، الغابة في الليل موحشة، الكهوف موحشة، بعض الطُرُقات موحشة ولا سيما إذا كانت مظلمة، ولكن إذا طلعت الشمس تغدو الأرض مؤنسة، مريحة، تنطلق إلى الحقول والبساتين، إلى الجبال، قد تركب البحر في النهار فترتاح نفسك، أما إذا ركبته في الليل فقد تخاف، جعل الله الليل سَكَنَاً، جعله سُباتاً، جعله لباساً، وجعل النهار معاشاً، هذه كلها من آيات الله الدالة على عظمته.

يا أيها الإنسان هل فكرت فيها ؟ هل وقفت عندها ؟ هل تأمّلت فيها ؟ ماذا تفعل ؟ قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا (45))

(سورة الفرقان)

تنتهي الحياة:

(ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (45))

(سورة الفرقان)

لولا الشمس لما كان الظل، لولا الشمس لما كانت الحياة، لولا الشمس لما كان تحرُّك الأرض حول نفسها وحول الشمس.

الهواء ينقل الحرارة والبرودة والضوء والصوت:

قال تعالى:

(ثُمّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (46) وَهُوَ الّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللّيْلَ لِبَاسًا وَالنّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُوَ الّذِي أَرْسَلَ الرّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ(48))

(سورة الفرقان)

أولاً الهواء، ما هذا الهواء ؟ إنه سبب انتشار الضوء، في الفضاء الخارجي لا ترى إلا ظلاماً دامساً، أو نجماً مُتَأَلِّقاً، لا يوجد حالة ثالثة، أما في الأرض هناك أشعة الشمس، وهناك ظلامٌ دامس، وهناك حالةٌ ثالثة بين هذا وتلك، حالة الضياء، فالغُرف في النهار مضيئة بلا أشعة شمس، الفضل في هذا يعود إلى الله عزّ وجل، من خلال تسخير الهواء لانتشار الضوء، ذرّات الهواء تصبح مرايا صغيرة تعكس الضوء، فإذاً البيت مضيء وأشعة الشمس ليست فيه، فالهواء ينثر لكم الضوء، والهواء ينقل إليكم الأصوات، فرواد الفضاء بالقمر يتحادثون عن طريق اللاسلكي، ولولا أن الهواء في داخل بذلتهم الفضائية لما أمكنهم الحديث، لكن لو أن الإنسان وقف على سطح القمر من دون بدلة فضائيّة وخاطب أخاه الإنسان لما سمع شيئاً، لو وضع مدفعاً كبيراً على سطح القمر وأطلق قذيفته لا تسمع شيئاً، لكن الهواء في الأرض ينقل لك الصوت، ينقل لك الضوء، ينقل لك الدفء، أنت تدفِّئ هواء الغرفة عندئذٍ تشعر بالدفء يسري في أعضائك، وإذا برد هواء الغرفة تشعر بالبرد يريح أعصابك أحياناً، إذاً الهواء ينقل الحرارة، ينقل البرودة، ينقل الضوء، ينقل الصوت.

من حكمة الله عزّ وجل أنه جعل الهواء مرتبطاً بالأرض:

الهواء جسمٌ لطيف، ولكن هذه الطائرة التي يزيد وزنها عن ثلاثمئة وخمسين طن من الذي يحملها ؟ الهواء، كيف هو ؟ هو جسمٌ لطيفٌ فيما يبدو لك، ولكن الهواء إذا سار دمّر كل شيء، فالأعاصير تجعل المدن دياراً خربة، مدن بأكملها، أبنيةٌ شاهقة، المعامل، المصانع، المنشآت، تصبح كلها أنقاضاً، فالهواء إذا تحرّك حركةً عنيفة دمّرَ كل شيء، سرعة هذه الأعاصير تزيد عن ثمانمئة كيلو متر في الساعة، يكفي أن الله سبحانه وتعالى جعل هذا الغلاف الهوائي مرتبطاً بالأرض، فلو أن الأرض دارت وحدها، وبقي الغلاف الهوائي ثابتاً، لنشأ على الأرض أعاصير تزيد سرعتها عن ألف وستمئة كيلو متر، أي تدمر كل شيء، هذه حكمة الله عزّ وجل على أنه جعل الهواء مرتبطاً بالأرض، فالهواء لو أنه تحرّك حركةً شديدة دمّر كل شيء، لذلك كان النبي إذا رأى رياحاً تعوّذ بالله من شرها وسأل الله خيرها

واستعاذ بالله من شرها، فَرّقَ النبي عليه الصلاة والسلام بين الرياح وبين الريح، الريح الصرصر العاتية:

(بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ(6)سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ(7)فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ(8))

(سورة الحاقة)

نظرية حركة الهواء:

الهواء يتمدد، إذا تمدد تخلخل، وإذا تخلخل ضعف فيه الضغط، قلّ الضغط، والهواء إذا برد تكاثف، وإذا تكاثف ارتفع الضغط، عندئذٍ ينتقل الهواء من أماكن الضغط المنخفض إلى أماكن الضغط المرتفع، هذه هي نظرية حركة الهواء، فهي تنشأ من وجود المناطق الباردة في الشمال قطبية، ووجود مناطق استوائية في الوسط، ووجود سواحل فيها رطوبة عالية، وفيها حرارة، ومن وجود أماكن قاحلة كالبوادي، أو الصحارى، أو القفار، من تباين مناطق الأرض، من تباين الحرارة والبرودة، تبعاً لخطوط الطول والعرض، وبعدها عن سطح البحر، وعن مستوى سطح البحر هذا كله يعين على تشَكّل الرياح، والرياح تسوق السحاب، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا (48))

(سورة الفرقان)

بُشراً أيْ بشارةً:

(بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ (48))

(سورة الفرقان)

هي الماء، ولا يعرف الناس بالضبط ماذا تعني سنوات جفاف السماء، بادية يمكن أن ترعى أغناماً لا حدود لها ولا حصر لها سنة وزيادة إذا كانت الأمطار غزيرة، فإذا جفّت الأمطار امتنع هذا الكلأ عن أن ينبت، وشحّت المراعي، واضطر الناس لبيع خرافهم بثمن بخسٍ أو ذبحها، فالكلأ شيء مهم جداً، والنبات شيء مهم جداً، والآبار شيء مهم جداً، والثلوج، والينابيع، وكلنا يعلم ماذا يعني انحباس المطر من السماء، هذا ينعكس على أسعار المواد الغذائية، وعلى أسعار القمح، وعلى أسعار كل حاجاتنا، إذاً:

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(22))

(سورة الذاريات)

ماء السماء طاهرٌ مُطهّر:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48))

(سورة الفرقان)

ماء السماء طاهرٌ مُطهّر، وهو أعلى درجة من الطهارة، هناك ماءٌ طاهرٌ غير مُطهّر، هناك ماءٌ طاهرٌ مطهر، هناك ماءٌ غير طاهرٍ وبالتالي غير مُطهّر، ماء السماء طاهرٌ مُطهّر:

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48))

(سورة الفرقان)

فتصوروا حياة الإنسان من دون ماء، كيف ينظِّف نفسه ؟ كيف ينظف حاجاته ؟ كيف يغسل ثيابه ؟ هذا الماء الذي وهبه الله للإنسان فيه صفات عالية جداً، من هذه الصفات القدرة على النفوذ، في أدق المسام يسيل الماء، هذه قدرة، لو أنه لزجٌ كالقطر، كيف نستعمله ؟ له نفوذية إلى درجةٍ متناهية، الماء يتبخّر في درجاتٍ دُنيا، لو أنه تبخر في درجات عُليا لأصبحت مصيبة، لو أنك ألقيت الماء في أرض الدار في الشتاء لبقيت إلى فصل الصيف، ففي عشر درجات يتبخر الماء، يغلي بدرجةٍ ثابتة، لا لون له، لا طعم له، لا رائحة له، شفّاف، صافي، فنعمة الماء لا تعدلها نعمة.

الماء الذي وهبه الله للإنسان فيه صفات عالية جداً:

في الوقت نفسه هذا الماء لا ينضغط، لو وضعت متراً مكعباً من الماء في مكبس ووضعت فوقه ثمانمئة طن لا ينضغط أبداً، فإذا تمدد الماء دمّر كل شيء، بل إن تفتيت الصخور الآن يتم عن طريق حفر ثقوب في الصخور وإملائها بالماء، ثم تبريد الماء، عندئذٍ الصخر ينشق، وهناك شيء مهم جداً في الماء ربما لا يصدق الإنسان أن حياتنا مبنيةٌ عليه، الماء إذا بردّته ينكمش شأنه شأن كل عنصر، ينكمش وينكمش إلى درجة (4+) عندئذٍ تنعكس الآية فيتمدد، لو أن الماء ينكمش عند التبريد لانتهت الحياة على وجه الأرض، كلما جمد سطح البحر زادت كثافته فغاص في أعماق البحر، ما هي إلا سنواتٌ عدّة حتى تتجمّد كل المحيطات، ينعدم التبخر، تنعدم الأمطار، لا ينبت النبات، يموت الحيوان، يتبعه الإنسان، لو أن الماء انكمش مع التبريد، من خلق في الماء هذه الصفة ؟

إن التعليل العلمي لانعكاس آية انكماش الماء من انكماش إلى تمدد، هذه لها تفسير مُعَقّد جداً، كيف أن هذا السائل لو أنك بردته ينكمش، طبعاً بدرجات تقاس بأجهزة دقيقة، لكن حينما تصل الدرجة إلى (4+) تنعكس الآية فيتمدد، هذه الظاهرة من صممها ؟ من خلقها ؟ من قننها ؟ من جعلها هكذا ؟ إنها من

عند الحكيم الخبير.

(وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا(49))

(سورة الفرقان)

الماء يحيي بلدةً بإنبات النبات ويسقي الحيوان ويسقي الإنسان:

الله عزّ وجل قال:

(لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا (49))

(سورة الفرقان)

البلد من دون ماء يموت، يموت النبات، فيموت الحيوان، ويموت الإنسان، وفي بعض المشاهد من بلادٍ أصابها الجفاف سبع سنين، الأشجار كلها يابسة، والأنعام كلها ميّتة، هياكل عظمية عليها جلْد، صور بإفريقيا، حينما تجف، حينما يصيب الجفاف أرضاً معينة تصبح الأرض ميّتة، أرضاً ونباتاً وحيوانات، ويتبعها الإنسان إن بقي فيها.

(لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ (49))

(سورة الفرقان)

هذا الماء:

(مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49))

(سورة الفرقان)

بدأ الله عزّ وجل بالنبات، ثم بالحيوان، ثم بالإنسان، لأن حياة الحيوان متوقفة على النبات، وحياة الإنسان متوقفة على الحيوان، فهذا الماء يحيي بلدةً بإنبات النبات، ويسقي الحيوان، ويسقي الإنسان، اللهم اسقنا الغيث.

معنى صرّفناه أي نقلناه من مكان إلى آخر كي يلتفت الإنسان إلى الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ (50))

(سورة الفرقان)

في بعض التفاسير: أن هذا الماء صرّفناه، نقلناه من مكان إلى مكان، في هذا العام هنا أمطار غزيرة وسيول وفيضانات، وهنا جفافٌ ومَحْلٌ وقحْط، هذا الماء صرّفناه أي نقلناه من مكان إلى آخر، كي يلتفت الإنسان إلى الله عزّ وجل، لو أن الله سبحانه وتعالى أغدق على الناس نِعَمَهُ من دون تبديل أو

تغيير، من دون لفت نظر، لانغمس الإنسان في شهوات ولنسي ربه:

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ(27))

(سورة الشورى)

تأتي سنواتٌ مطيرة، وتأتي سنواتٌ جافة، في السنوات الجافة يجب أن نذكر الله عزّ وجل، يجب أن ندعوه، يجب أن نبتهل إليه، فهذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ (50))

(سورة الفرقان)

هذا الماء، ماء السماء.

الهاء في كلمة صرفناه لها معنيان:

1 ـ المعنى الأول أنها تعود على الماء:

قال تعالى:

(صَرَّفْنَاهُ (50))

(سورة الفرقان)

الهاء تعود على الماء (المعنى الأول):

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ (49))

(سورة الفرقان)

جمع ناس:

(كَثِيرًا (49) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ (50))

(سورة الفرقان)

نقلناه من مكان إلى مكان، هذه السحابة، صُرِفتْ عن هذا المكان وهطلت في هذا المكان، بعد عامٍ آخر صرفت عن هذا المكان وهطلت في هذا المكان.

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا (50))

(سورة الفرقان)

لذلك ورد في الأثر:

((اللهم أرنا نعمك بكثرتها لا بزوالها))

الفرق بين المؤمن والكافر في سنوات الرخاء وسنوات الشدة:

ربما نعرف قيمة المطر في سنوات الجفاف، قيمة المطر، علاقتها بتوليد الكهرباء، علاقتها بالمزروعات، علاقتها بالثمار، علاقتها بالمحاصيل، علاقتها بمحصول القمح، بمحصول الشعير، علاقتها بالأسعار، هذا كله نعرفه في سنوات الجفاف، ولكن البطل يجب أن يعرف نعمة الله في سنوات الرخاء، لهذا ورد في الأثر:

((اللهم أرنا نعمك بكثرتها لا بزوالها))

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ (50) ﴾

(سورة الفرقان)

هذا الماء.

﴿ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50) ﴾

(سورة الفرقان)

من شأن الكافر أن الدنيا إذا أقبلت عليه تاه، وتكبّر، واستعلى، فإذا انصرفت عنه يَئِسَ وقَنَط، فهو بين الغرور وبين اليأس، أما المؤمن إذا جاءته الدنيا زادته تواضعاً، وإذا انصرفت عنه زادته التجاءً إلى الله عزّ وجل، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ لَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ وَكَانَ خَيْرًا وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا))

[مسند أحمد عن صهيب]

النبي عليه الصلاة والسلام جاءه جبريل فقال:

((يا محمد أتحب أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً ؟ قال: بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره وأشبع يوماً فأشكره))

[ورد في الأثر]

فهذه من نعمة الله عزّ وجل.

2 ـ المعنى الثاني أنها تعود على القرآن الكريم:

المعنى الثاني أن الله سبحانه وتعالى جعل هذا الضمير:

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ (50) ﴾

(سورة الفرقان)

يعود على القرآن الكريم أي أن هذا القرآن جعلناه بين أيديهم ويسّرنا لهم تلاوته.

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ(17))

(سورة القمر)

قد سَهّلَ الله للناس قراءة هذا القرآن، سخّر له علماء أشداء، جهدوا في نقله، وحفظه، وضبطه، وضبط آياته، وسوَرِهِ.

تقنين الله عزّ وجل هو تقنين تأديب ومعالجة لكن تقنين الإنسان تقنين عجز وضعَف:

قال تعالى:

(صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50))

(سورة الفرقان)

إما أن يعود هذا الضمير في قوله تعالى:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ (50))

(سورة الفرقان)

لأقرب شيءٍ إلى الضمير وهو الماء، أو أن يعود هذا الضمير إلى ما سيتبع وهو قوله تعالى:

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (50))

(سورة الفرقان)

كفوراً بهذا الكتاب، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَجِبَ رَبُّنا تعالى مِنْ قومٍ يُقادونَ إلى الجنّة في السّلاسِلِ))

[رواه البخاري عن أبي هريرة]

أي بالمصائب، بالضيق، ربما كان نقص الماء، نقص المواد، لأن ربنا عزّ وجل إذا قنّن فتقنينه تقنين تأديب، تقنين معالجة، لكن الإنسان إذا قنن تقنينه تقنين عجز وضعَف.

لحكمة أرادها الله سبحانه بعث النبي عليه الصلاة والسلام للناس كافة:

قال تعالى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51))

(سورة الفرقان)

شاءت حكمة الله أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام للناس كافة:

(وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51))

(سورة الفرقان)

أولاً رَفْعَاً لشأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما يجعله الله نبياً لكل الناس، رحمةً للناس.

وشيءٌ آخر ربما تقتضي مصلحة الإنسان أن يكون النبي واحداً في عصرٍ واحد. على كلٍ: ولو شئنا أي أن الله لم يشأ ذلك لحكمةٍ يعلمها، قال تعالى:

(وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (51) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ (52))

(سورة الفرقان)

على من تعود هذه الهاء ؟ العلماء قالوا: على القرآن.

من أبواب الجهاد أن تتسلّح بالقرآن الكريم علماً وعملاً:

قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52))

(سورة الفرقان)

الله سبحانه وتعالى وصف هذا الذي يحفظ القرآن، ويتلو القرآن، ويبيّن معاني القرآن، ويردُّ شُبَهَ المعترضين، ويرد على كيد الكائدين، ويبيّن إعجازه، ونظمه، إعجازه العلمي، إعجازه التشريعي، إعجازه البياني، إعجازه اللغوي، إعجازه الرياضي، هذا الذي يبيّن عظمة القرآن ويرد بهذا البيان على كل معترض، هذا الإنسان كأنه يجاهد به.

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52))

(سورة الفرقان)

إذاً بابٌ كبير من أبواب الجهاد أن تتسلّح بهذا القرآن، قراءةً، تلاوةً، فهماً، حفظاً، تفسيراً، دراية، تدبُراً، تَتَبُعَاً، نشراً، تعليماً:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52))

(سورة الفرقان)

أي أن الكون في كفة، وهذا القرآن في كفة.

أقسم الله بالكون على أن هذا القرآن كريم:

قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(76))

(سورة الواقعة)

أقرب نجم ملتهب إلى الأرض بعده عنّا أربع سنوات ضوئية، وهذا الرقم يعني أنّك لو توجهت إلى هذا النجم القريبُ القَريبُ القريبُ، الذي لا يبعد عنا إلا أربع سنوات ضوئية، وسرت إليه بسرعة السيارة،

لاستغرقت هذه الرحلة ما يقرب من خمسين مليون سنة، إذا كان هذا النجم الذي يبعد عنا أربع سنواتٍ ضوئية يحتاج الإنسان ليصل إليه بسرعة السيارة إلى خمسين مليون سنة، فمتى يصل إلى نجم القطب الذي يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية ؟ أربع سنوات خمسين مليون سنة، أربعة آلاف سنة ؟ متى نصل إلى المرأة المسلسلة التي تبعد عنا مليون سنة ضوئية ؟ متى نصل إلى أحدث مجرة اكتشفت حديثاً التي تبعد عنا ستة عشر ألف بليون سنة ضوئية ؟

(فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ(75)وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ(76)إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ(77))

(سورة الواقعة)

أقسم الله بالكون على أن هذا القرآن كريم، في كتابٍ مكنون لا يمسه إلا المطهرون، قال تعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ(1))

(سورة الأنعام)

وقال:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ(1))

(سورة الكهف)

علينا تعلُّم تلاوة القرآن وفهم آياته وتدبُّر أحكامه وتعليمه للناس وهذا جهادٌ كبير:

إذاً هذا القرآن:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52))

(سورة الفرقان)

لذلك تعلُّم تلاوته، تعلم تجويده، تعلم مخارج حروفه، تعلم أماكن الوَقْف، تعلم كلماته، فهم آياته، تدبُّر أحكامه، استنباط معجزاته، تعليمه للناس، تفسيره، هذا جهادٌ كبير:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52))

(سورة الفرقان)

حينما لا يكون الجهاد الصغير فهذا جهادٌ أيضاً كما قال عليه الصلاة والسلام:

((رجعنا من الجهاد الأصغر ـ وهو الحرب ـ إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى))

[من الجامع الصغير عن جابر]

الإنسان إذا علّم هذا القرآن للناس وأحيا به نفساً واحدة فكأنما أحيا الناس جميعاً:

لا تنسوا أن الإنسان إذا علّم هذا القرآن للناس وأحيا به نفساً واحدة فكأنما أحيا الناس جميعاً:

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا(32))

(سورة المائدة)

إذاً:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52))

(سورة الفرقان)

أي جاهدهم بالقرآن، أتلُ هذا القرآن على مسامعهم، علِّمهم أحكامه، علمهم تفسيراته، علمهم إعجازه، علمهم نظمَه، علمهم بيانه، علمهم فيه كل شيء، وفي القرآن كل شيء.

(وَهُوَ الَّذِي (53))

(سورة الفرقان)

هل عرفتم الله عزّ وجل ؟

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48))

(سورة الفرقان)

مياه كل بحرٍ لها مكوّنات خاصة بها تختلف عن مياه بحر آخر:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا ((53)

(سورة الفرقان)

هذه الآية وقف عندها المفسِّرون وقفاتٍ طويلة، حاروا بها، أين هو هذا البرزخ الذي بين البحرين ؟ هذه الآية تُكَمِّل آية أخرى في سورة الرحمن، وهي قوله تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(19)بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(20)فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(21))

(سورة الرحمن)

بعض علماء البحار صوّروا بعض المضايق من سفن الفضاء، فإذا بين كل بحرين خط، بين البحر الأحمر والبحر الهندي خط، بين البحر الأبيض والبحر الأسود خط، بين البحر الأبيض والمحيط الأطلسي خط، هذا الخط عند اتصال البحرين، هذا الخط متحرك ومَرِن، ما هو هذا الخط ؟ اكتشف أن مياه كل بحرٍ لها مكوّنات، لها كثافة، لها درجة ملوحة، لها درجة حرارة، مياه كل بحرٍ لا تطغى على البحر الآخر، فالبحر الأحمر له ملوحته الخاصة به، وللبحر الأحمر مكوّناته الخاصة به، وللبحر الأحمر كثافته الخاصة به، وللبحر الأحمر حرارته، فإذا انتقلنا إلى المحيط الهندي، له حرارته، وكثافته، وملوحته، ومكوناته، قال تعالى:

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(19)بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(20)فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(21))

(سورة الرحمن)

الحاجز بين البحرين الذي يمنع أن يطغى كل بحرٍ على الآخر من الأدلة على عظمته سبحانه:

شيءٌ لا يصدّق، هذا الحاجز بين البحرين الذي يمنع أن يطغى كل بحرٍ على الآخر، ما طبيعته ؟ لا أحد يدري، لكن سُفن الفضاء صوّرته، هناك فرقٌ في اللون، وهناك خطٌ بينهما، الآية الثانية التي تكمل الآية الأولى.

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (53))

(سورة الفرقان)

بعض الأنهار الكبير كنهر الأمازون الذي تزيد غزارته عن ثلاثمئة ألف متر في الثانية، هذا النهر يسير في عرض المحيط الأطلسي ما يزيد عن ثمانين كيلو متر، وتبقى مياه النهر عذبة، وتبقى مياه البحر مالحة:

(بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ(20))

(سورة الرحمن)

تتمة الحديث عن الأدلة الدالة على عظمة الله:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ (53))

(سورة الفرقان)

حلو المذاق، طيّبُ الطَعم، شديد العذوبة:

(وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (53))

(سورة الفرقان)

لا يُحْتَمَل:

(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا (53))

(سورة الفرقان)

طبعاً هذا ينطبق أيضاً على الينابيع العذبَةِ في مياه البحار، البحرين تشرب من مياه البحر، يركبون القوارب إلى عُرض البحر فيملؤون أوعيتهم من ماءٍ عذبٍ ينبُعُ وسط البحر، هذا ينطبق على الأنهار وهي في عرض البحار، وينطبق على الينابيع الحلوة التي تنبع وسط البحار، وله معنىً ثالث نشرحه بعد قليل.

البرزخ يمنع كل ماء من أن يطغى على الآخر لكن طبيعته غير معروفة حتى الآن:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا (53))

(سورة الفرقان)

البرزخ يمنع كل ماء من أن يطغى على الآخر، فهل يمكنك أن تمرر مياه بقناة، وتمرر مياه أخرى بقناة معترضة بحيث تتعامد مع القناة الأولى، كشارع متعامد مع شارع، اعمل مجريين متعامدين مع بعضهما، وأجرِ في هذا المجرى ماءً مالحاً، وفي هذا المجرى ماءً عذباً، فهل تستطيع أن تصل إلى مياهٍ عذبة بعد أن تعترض المياه المالحة ؟ هذا شيءٌ فوق طاقة البشر، لكن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا (53))

(سورة الفرقان)

البرزخ حاجزٌ لا ندري ما هو حتى الآن، موجود والدليل آثاره، لأن مياه كل بحرٍ لا تطغى على البحر الآخر، أما طبيعته غير معروفةٍ، صوّرته سُفُن الفضاء، بل إن بعض علماء البحار الكبار الذين اكتشفوا هذا الكشف العلمي المتفوق وهو في زهوة انتصاره، وفي نشوة اكتشافه أُنْبِئَ أن في القرآن الكريم هذه الآية، أسلم فوراً، لا يعقل، هذا شيءٌ جديد لا يعرفه أحد، أما الحِجْرُ المحجور هذا شيءٌ آخر، هذا يمنع أسماك المياه العذبة من أن تنتقل إلى المياه المالحة، ويمنع أسماك المياه المالحة من أن تنتقل إلى المياه العذبة.

من تصميم الله للأنهار أنه جعلها تهبط إلى البحر من مكانٍ مرتفع:

قال تعالى:

(وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (53))

(سورة الفرقان)

هذه آيةٌ دالة على عظمة الله، بعض المفسرين قال: لا، هناك معنى آخر: هذه مياه البحر، الله سبحانه وتعالى جعل جميع المياه العذبة التي تصبُّ في البحر جعلها تهبط إليه من مكانٍ مرتفع، فلو أن المياه العذبة سارت إليه بمستوى ماء البحر، وجاء المد والجزر لطغت مياه البحر على كل الأنهار وجعلتها مالحة، من تصميم الله للأنهار أنه جعلها تهبط إلى البحر من مكانٍ مرتفع.

لو أن القمر اقترب من الأرض، الآن القمر يبعد عنا ما يزيد عن ثلاثمئة ألف كيلو متر، أثر المد والجزر واضحٌ في المياه، مياه البحار ترتفع عشرين متراً طولياً في المد وتنخفض عشرين متراً في الجَزر، لو أن القمر اقترب من الأرض إلى نصف هذه المسافة، لارتفعت مياه البحار أكثر من ثمانين

متراً، إذاً معظم المدن الساحلية والمناطق المحيطة بالبحار تنغمر بالمياه المالحة، لو أن مياه الأنهار سارت إلى البحر بمستوى يقارب سطح البحر، وجاء المد أو الجزر لطغت مياه البحار على الأنهار وأفسدت طعمها، لذلك تصميم التضاريس التي من خلالها تنصبُ المياه على البحار هذا تصميم حكيمٍ خبير، بحيث لا تغطى مياه البحار على مياه الأنهار، هذا تفسير آخر، والقرآن حَمّال أوجه بمعاني كلمات الله:

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا(109))

(سورة الكهف)

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (53))

(سورة الفرقان)

الماءٌ المهين هو الماء الذي خلق الله منه البشر:

ألم تعرفه بعد ؟

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا (54))

(سورة الفرقان)

ماء، ماء مَهين، تستحي به لو كان على ثوبك، ماءٌ مهين خلق الله منه بشراً:

(فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا (54))

(سورة الفرقان)

أي ذكراً وأنثى، النَسَب هو الرجل ينسب الابن إليه، والصِهر أي البنت التي تجلب الصهر.

خلق الإنسان آيةٌ أخرى دالة على عظمة الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54))

(سورة الفرقان)

هذه آيةٌ أخرى دالة على عظمة الله عزّ وجل، كيف أن الإنسان الذي خُلِقَ من ماءٍ مهين يصبح أعصاباً، وعضلات، وأوعية، وقلب، ورئتين، وجهاز هضمي، وجهاز تنفُس، وجهاز إفراز، وأعصاب حس، وأعصاب حركة، وعظام منوّعة أنواعاً شديدة، ومفاصل، ودماغ فيه ذاكرة، وفيه تصور، وفيه تخيُّل، وفيه إدراك، وفيه إحساس، هذا الإنسان كيف خلق من ماءٍ مهين ؟ وكيف رُكِّبَ الذكر ذكراً

والأنثى أنثى ؟ تفاوت في البنية، وفي الهيكل، وفي الطباع، وفي التفكير، وفي وسائل التفكير، هذا كله من خلق الله عزّ وجل، إن شاء الله في درسٍ قادم نقف عند هذه الآية وقفةً متأنية.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (11-13): تفسير الآيات 54 - 58
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-06-02

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة الفرقان.

ملخص لما وصلنا إليه في الدرس الماضي:

وصلنا في الدرس الماضي وفي أثناء الحديث عن الآيات الكونيّة التي تتالت بدءاً من قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ (45))

(سورة الفرقان)

ومروراً بقوله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (49) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا(50))

(سورة الفرقان)

إلى أن وصلنا إلى قوله تعالى في الدرس الماضي:

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا (54))

(سورة الفرقان)

هل عرفت الله عزّ وجل ؟

الإعجاز في خلق الإنسان:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ (54))

(سورة الفرقان)

ماء الحياة، هذا الحوين الذي لا يُرى بالعين، يكون في اللقاء الواحد مع عددٍ كبير يزيدُ عن ثلاثمئة مليون حوين، تتنافس جميعاً على تلقيح بويضة المرأة، أما كيف تنطلق هذه الحوينات ؟ وكيف صُمِّمَت بشكلٍ مخروطي وعنقٍ وذنب ؟ وكيف تسبح في الماء لتصل إلى بغيتها البويضة ؟ كم منها يصل إلى البويضة، وكم منها يهلك على الطريق ؟ هذا موضوعٌ بالغ التعقيد.

على كلٍ كيف تختار البويضة أقوى هذه الحوينات ؟ وإذا اختارته كيف تسمح له بالدخول ؟ وكيف يدخل ؟ مادّةٌ نبيلة ـ كما يقول العلماء ـ مُغَشّاةٌ بغشاءٍ رقيق، إذا اختارت البويضة هذا الحوين واصطدم هذا الحوين بالبويضة، فإنّ هذه المادة النبيلة تذيب جدار البويضة ليدخلها الحوين، فإذا دخل إلى البويضة ولقّحها أُغْلِقَ الباب، وأُعْلِنَ لبقيّة الحوينات الثلاثمئة مليون أنه لا فُرصة الآن للدخول، لقد اختارت البويضة أحد هذه الحوينات، بل أقواها.

وكيف يُلقِحُ هذا الحوين تلك البويضة ؟ وكيف يحمل الحوين المورّثات ؟ وقد قدّرها العلماء بخمسة آلاف مليون معلومة في الحوين، وفي البويضة أيضاً خمسة آلاف مليون، كيف أن هذا الحوين وتلك البويضة يتّحدان، ثمّ ينقسمان إلى عشرة آلاف خليّةٍ في أيامٍ معدودة ؟ كيف تنقسم هذه البويضة المُلَقّحة من دون أن يزداد حجمها ؟ لأنه لو زاد حجمها لاستعصى عليها أن تتابع السير إلى الرَحِم.

وكيف هذه المورّثات تحدِّد طول الجنين ؟ ولونه ؟ ونوع شعره ؟ ولون عينيه ؟ وشكل حاجبيه ؟ وشكل خدِّه ؟ وعدد الشعر في جسمه ؟ كيف تحدِّد أعضاءه وبنيتها ؟ كيف تحدِّد طباعه ؟ خمسة آلاف مليون معلومة تتحد مع خمسة آلاف مليون معلومة لتشكِّل هذه العلقة التي تغدو مضغة، فتغدو عظاماً، فتكسى العظام لحماً، ثم يُنْشِئُهُ الله خلقاً آخر.

تشكُّل الجنين في رحم الأم هو من الآياتِ الدالّةِ على خلق الله عزّ وجل:

قال تعالى:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(14))

(سورة المؤمنون)

عملية التلقيح، وعملية نمو هذه البويضة، وكيف تُزْرَع في الرحم، وكيف تنتقل من مرحلةٍ إلى مرحلة إلى أن يولد الجنين طفلاً كامل الخلق ؛ فيه عضلاتٌ، وفيه عظامٌ، وفيه أجهزةٌ، وفيه قلبٌ ورئتان، وفيه معدةٌ وأمعاء، وفيه كليتان، وفيه دماغٌ وأعصاب حسٍ وأعصاب حركةٍ، وفيه جِلدٌ، كيف تعمل أجهزته ؟ كيف ينبض قلبه ؟ كيف يغلق ثقب بوتال الذي بين الأذينين ؟

فلو أتيح لأحدكم أن يقرأ ما يسمّى في علم الطب مُسَلّمات، بديهيات، معلومات أوليّة حول تشكّل الجنين في رحم الأم، لا يملك إلا أن يخشع قلبه، وأن يقشعِّر جلده لما يقرأ أو لما يشاهد من آياتٍ دالّةٍ على خلق الله عزّ وجل:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ(58)أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ(59))

(سورة الواقعة)

قال تعالى:

(قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ(17)مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ(18)مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ(19)ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ(20)ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ(21)ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ(22)كَلا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ(23))

(سورة عبس)

أتحسب أنك جرمٌ صغير وفيكَ انطوى العالَم الأكبرُ

* * *

الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن ننظر في خلقنا حتى نحس بعظمته سبحانه:

قال تعالى:

(وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ(21))

(سورة الذاريات)

قد تقول: أنا لا أذكر كيف كنت جنيناً في بطن أمي، ألا ترى إلى ابنك أمامك ؟ ألا تعلم علم اليقين أن هذا الطفل الذي أمامك كان نقطة ماءٍ، بل كان حويناً واحداً لقّحَ بويضة زوجتك فكان هذا الغلام ؟ يا أيها الأخوة الأكارم، الشقي من غفل عن هذه الحقائق، الشقي من انغمس في عمله، وفي كسب رزقه، وفي متاهات الحياة، وفي القيل والقال، الشقي من استهلك نفسه استهلاكاً رخيصاً، الشقي من غَفَلَ عن الله رب العالمين، من غفل عن صنعته، من غفل عن عظمته، من غفل عن خلقه، الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن ننظر في خلقنا. ألم تعرفه بعدُ ؟

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (47) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ(48))

(سورة الفرقان)

هذه الآية تُظهر عظمة الله عزّ وجل وتُظهر دقة خلقه:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا (54))

(سورة الفرقان)

هذا الجنين يصبح ذكراً أو أنثى:

(فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا (54))

(سورة الفرقان)

النسب كِناية عن الرجل لأن المولود يُنْسَبُ إليه، والصهر كناية عن المرأة لأنها تجلب الأصهار، لأن البنت تجلب الصهر، جعل الله عزّ وجل كلمة النَسَب كناية عن الذكَر، وكلمة الصهر كناية عن الأنثى، هذه آيةٌ كبرى دالّة على عظمته والله سبحانه وتعالى يقول:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(6))

(سورة الجاثية)

فإن لم تؤمن من خلال هذه الآيات فبأي طريقٍ آخر تؤمن ؟ إنّك إذا فكّرت في هذه الآية تواجه عظمة الله عزّ وجل، تواجه دقّة خلقه، لماذا كانت البويضات في المرأة محدودةً ؟ ولماذا كان الإنجاب في الرجل مستمرّاً ؟ لماذا كل هذه الحوينات ثلاثمئة مليون من أجل أن تختار البويضة حويناً واحداً ؟! كيف اجتمعت صفات الأب والأم ؟ كيف تفاعلت مع بعضها بعضاً ؟ كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام في حديثٍ واحد لخّصَ مجموعة من المحاضرات المطوّلة التي أُلقيت حول تحسين النسل.

الله سبحانه وتعالى يذكر في كتابه عناوين لآياتٍ كونية ليتفكر الإنسان بها:

قال عليه الصلاة والسلام:

((اغربوا لا تضووا))

[تلخيص الحبير لابن حجر]

أي لا تضعفوا، كلّما تباعدت في زواجك جاء النسل قوياً، لأن الصفة الأقوى تغلب الصفة الأضعف، فإذا تزوّجت من قريباتك تضافر الضعف فجاء الضعف مركّزاً في الجنين، قال عليه الصلاة والسلام وما ينطق عن الهوى:

((اغربوا لا تضووا))

[تلخيص الحبير لابن حجر]

حتى لو أن الإنسان تزوّج أخته من الرضاعة أغلب الظن يأتي الجنين مشوّهاً ؛ بهشاشةٍ في العظام، أو بعمىً في العينين، أو باختلالٍ في الخلق لأن تشريع الله عزّ وجل تشريعٌ أساسه علم الله وخبرته ورحمته وبيانه.

هذه الآية إذا كان الله سبحانه وتعالى ذكرها في القرآن الكريم فليس معنى ذلك أن نكتفي بها، فكأن الله سبحانه وتعالى يذكر في كتابه عناوين لآياتٍ كونية، أي أيها الإنسان فكّر في هذه الآية، هذه الآية تستدعي أن تبحث عن مكنوناتها، عن أبعادها، عن تفصيلاتها، عن جزئيّاتها، عن ملابساتها، عن أسبابها، عن نتائجها، لا أعتقد أن آيةً دالّة على عظمة الله عزّ وجل أقرب إليكم من خلق أنفسكم.

من أجل أن تواجه عظمة الله عزّ وجل لابدّ من جلسةٍ تأمل وتفكر بينك وبين نفسك:

قال الله عزّ وجل:

(وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ(21))

(سورة الذاريات)

إذا أردت أن تواجه عظمة الله عزّ وجل لا بدّ من جلسةٍ بينك وبين نفسك، لا بدّ من جلسة تأمُّلٍ، لا بدّ من جلسة تفكّر، لا بدّ من خلوةٍ ولو لقليلٍ من الوقت كل يوم:

(فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ(5)خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ(6))

(سورة الطارق)

حينما تُصبح هذه البويضة مضغة فعلقة، حينما تصبح عظماً تُكسى لحماً، حينما تصبح طفلاً، هذا الطفل من منّا يصدّق أن في جمجمته مئةٌ وأربعون مليون خليّة عصبيّة سمراء لم تُعْرَف وظيفتها بعد ؟ أربعة عشر مليون خليّة عصبيّة قشريّة تتمُّ فيها المحاكمة، والتذكّر، والتصوُّر، والإدراك، وإدراك المسموعات والمشمومات والمبصرات، الذاكرة وحدها لو أنك أمضيت العُمر كله في دراستها لانقضى العمر قبل أن تنقضي عجائبها، هذا عن الذاكرة وحدها.

إذا تفكّرت في عظمة خلق الله عرفت الله وقدّرته حقّ قدره فإذا قدرته استقمت على أمره:

العين وحدها التي أودع الله فيها هذه الطبقة القرنية الشفّافة، وكيف تتغذّى هذه الطبقة الشفّافة ؟ إنها علمٌ قائمٌ بذاته، من أودع بعد هذه القرنية ذلك الجسم البلوري المَرِن الذي يزيد احتدابه أو تقلّصه مع بعد الشيء المرئي وقربه ؟ من هذا الذي يقيس المسافة ويضغط الأهداب حتّى تأتي الصورة على الشبكيّة ؟ يدُ من ؟ يدُ الله سبحانه وتعالى.

هذا المخلوق ؛ دماغٌ وأعصابٌ، أعصاب حسّ وحركةٍ، عينٌ تأخذ بمجامع القلوب، العصب البصري يزيد عن أربعمئة ألف عصب، الشبكيّة فيها مئة وثلاثون مليون عُصَيَّة، سبع ملايين مخروط من أجل أن ترى الصورة بوضوح شديد وبألوانها الزاهية، وليس في الأرض آلة تصويرٍ تستطيع أن تعطيكَ ألواناً متفاوتة كما ترى العين، إنها تستطيع أن ترى الفارق بين لونين من أصل ثمانمئة ألف درجة من لونٍ واحد، لو أن اللون الأخضر وحده دُرّجَ إلى ثمانمئة ألف درجة فإن العين البشريّة تفرّق بين درجتين من درجاته.

هذا عن العين، فماذا عن الأذن ؟ وماذا عن الشم ؟ وماذا عن حسّ اللمس، وحس الضغط، وحسّ الحرارة، وحسّ البرودة ؟ كيف ينام الإنسان ؟ وكيف يتقلّب في الليلة الواحدة قريباً من أربعين مرّة ؟

لماذا يتقلّب ؟ لماذا يتقلب يمنةً ويسرة ؟ كيف يضغط الهيكل العظمي وما فوقه من عضلات على قسمهِ السفلي ؟ كيف تضيق الأوعية الدمويّة ؟ كيف أودع الله سبحانه وتعالى في الجسم مراكز للإحساس بالضغط ؟ كيف تخبر هذه المراكز الدماغ بأن انضغاطاً وقع في القسم الفلاني ؟ كيف يأمر الدماغ العضلات وأنت نائم بالتقلّب ؟

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ(18))

(سورة الكهف)

إن هذه الآية دالّةٌ على عظمة الله، لو أن أهل الكهف لم يُقلّبوا لما أمكن أن يبقوا في كهفهم ثلاثمئةٍ وزيادة.

يا أيها الأخوة الأكارم، إذا أردت باباً واسعاً جداً من أبواب معرفة الله فعليك بالتفكّر، التفكّر أرقى عبادة، في بعض الكتب الإسلاميّة يؤكّد بعض المؤلِفين أن عبادة التفكّر تفوق كل عبادة، أنت إذا تفكّرت عرفت الله وقدّرته حقّ قدره، فإذا قدرته حقّ قدره استقمت على أمره.

الحوين هو الذي يحدِّد نوع الجنين وليس البويضة:

أيها الأخوة:

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (54))

(سورة الفرقان)

حديثاً توصّلنا فيه إلى أن الذي يحدِّد نوع الجنين هو الحوين وليس البويضة، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى(45)مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى(46))

(سورة النجم)

ويقول الله عزّ وجل:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (55))

(سورة الفرقان)

كل هذه الآيات الدالّة على عظمته ومع ذلك يعبدون من دون الله !! الذين عبدوا الشمس عبدوها من دون الله، الذين عبدوا القمر عبدوه من دون الله، الذين عبدوا الأصنام عبدوها من دون الله، الذي يعبد هواه هذا يعبده من دون الله، كان الله ولم يكن معه شيء، والكون كلّه من دون الله، فإذا توجّهت بالعبادة إلى أيّةِ جهةٍ غير الله عزّ وجل فهذه عبادةٌ من دون الله، إذاً لا ينبغي أن تعبد إلا الله، قال تعالى:

(مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ(65))

(سورة الأعراف)

وقال:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ(123))

(سورة هود)

العبادة هي غايةٌ في الحب مع غايةٍ في الخضوع:

العبادة كما قلت لكم: طاعةٌ طوعيّة، غايةٌ في الخضوع مع غايةٍ في الحب، لو أن العبادة خَلَت من الحب لما كانت عبادة، لو أن الحب كان موجوداً ولم تكن هناك طاعة لما كانت عبادة، غايةٌ في الحب مع غايةٍ في الخضوع، طاعة طوعيّة ممزوجة بمحبّة قلبيّة أساسها معرفة يقينيّة تفضي إلى سعادةٍ أبديّة، وهي عِلّة وجودنا على وجه الأرض:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ(56))

(سورة الذاريات)

وقال:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (55))

(سورة الفرقان)

هؤلاء الكفّار، هؤلاء التائهون، هؤلاء الشاردون، هؤلاء الغافلون، هؤلاء الجُهَلاء، هؤلاء الذين ما فكّروا في عظمة الكون، هؤلاء الذين لم تستوقفهم هذه الآيات، هؤلاء الذين مَرّوا على هذه الآيات مرور الغافلين، هؤلاء الذين استهلكتهم الحياة، هؤلاء الذين استهلكوا حياتهم استهلاكاً رخيصاً، هؤلاء يعبدون من دون الله.

الله عزّ وجل ما أمرك أن تعبده وحده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كلّه راجعٌ إليه:

الله عزّ وجل ما أمرك أن تعبده وحده إلا بعد أن طمأنك أن الأمر كلّه راجعٌ إليه:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ(123))

(سورة هود)

وقال:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (55))

(سورة الفرقان)

قال عليه الصلاة والسلام:

((تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَار، وَعَبْدُ الدِّرْهَم، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ))

[البخاري عن أبي هريرة]

هذا الذي يجعل حياته كلّها من أجل شيءٍ أرضي ينتهي عند الموت، هذا عبدٌ لهذا الشيء.

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (55))

(سورة الفرقان)

لو أنك آثرت رضا زوجتك على طاعة الله فكأنك عبدتها من دون الله، لو أنك آثرت إرضاء إنسانٍ ما على طاعة الله عزّ وجل فكأنما عبدته من دون الله، لو أنك آثرت شهوتك على طاعة الله عزّ وجل فكأنما عبدت هذه الشهوة من دون الله، قال تعالى:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ (55))

(سورة الفرقان)

فلا توجد إلا حالة واحدة إما أن تعبد الله وإما أن تعبد من دون الله، والذي يستحقُّ العبادة وحدها هو الله عزّ وجل.

عليك أن تعلم علم اليقين أن الأمر كله بيد الله سبحانه:

الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ(21))

(سورة البقرة)

هكذا قال سيدنا إبراهيم:

(قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ(75)أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الأَقْدَمُونَ(76)فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ(77)الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ(78)وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ(79)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(80)وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ(81)وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ(82))

(سورة الشعراء)

اسأل أهل الطب، اسأل علماء الطب: كم من حالة شفاءٍ تمّت بشكلٍ ذاتي لا يستطيع العلم أن يفسّرها ؟ يجب أن تعلم علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يشفيك مما أنت فيه فلا يستطيع أحدٌ أن يقف بينه وبين هذا الشفاء.

الإيمان بالله يبثُّ التفاؤل في النفس والرضا والإشراق:

قال تعالى:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2))

(سورة فاطر)

لذلك هذا الإيمان يبثُّ التفاؤل في النفس، يبثُّ الرضا، يبث الإشراق، لكن البعد عن الإيمان بلا إله يجعل الإنسان يائساً، يجعله متشائماً، يجعله منكمشاً على نفسه، قال تعالى:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ (55))

(سورة الفرقان)

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا(188))

(سورة الأعراف)

إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فلأن لا يملك لكم نفعاً وضراً من باب أولى، إذا كان سيد الخلق وحبيب الحق لا يعلم الغيب ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضُراً، فكيف يتّجه إنسانٌ إلى إنسان ؟

لا تستطيع جهة في الأرض أن تنفعك أو تضرك إلا بإذن الله سبحانه:

قال تعالى:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ (55))

(سورة الفرقان)

أي أيها الإنسان اعبد من ينفعك ويضرُّك، هذا الذي تَلَقّى رسالةً من يزيد بن معاوية، وكان عنده بعض التابعين، وفي هذه الرسالة توجيهٌ لا يرضي الله عزّ وجل، فهذا الوالي سأل هذا التابعي، قال: " ماذا أفعل ؟" أجابه بكلمة ـ يجب أن تُكْتَب بماء الذهب ـ قال له: " إن الله عزّ وجل يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله ". أي أنك إن أطعت هذا الإنسان وعصيت الرحمن، الرحمن من قدرته أن يمنعك منه، وليس في قدرة هذا الإنسان أن يمنعك من الرحمن:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ (55))

(سورة الفرقان)

إذاً من الصفات التي يجب أن تتوافر في من تعبده أن يملك بشكلٍ يقيني أن ينفعك وأن يضرّك، تحقّق تجد أن جهةً في الأرض لا تستطيع أن تنفعك ولا أن تضرّك إلا أن يأذن الله عزّ وجل، وهذا مأخوذٌ من قوله تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

أطع أمرنا نرفع لأجلك حُجْبَنَا فإنا منحنا بالرضا من أحبّنا

ولُذ بحمانـا واحتمِ بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

* * *

على الإنسان أن يدرك أن حاجته عند الله وحده:

أي: إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟

((ابن آدم اطلبني تجدني فإذا وجدتني وجدت كل شيء وإن فتُّك فاتك كل شيء وأنا أحبُّ إليك من كل شيء))

[ورد في الأثر]

قال تعالى:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55))

(سورة الفرقان)

أنت إذا دخلت إلى دائرة وبيدك معاملة، وأنت في أمَسّ الحاجة أن يوقِعها لك من يعدُّ توقيعه موافقةً لك، فتوجّهت إلى مستخدمٍ لا يملك لك هذا التوقيع ؛ رجوته، وتذلّلت له، واستحلفته أن يوقِعها لك، وليس من صلاحيّته أن يوقِعها لك، ألا يُعَدُّ من يفعل هذا غبيّاً ؟ فأنت إذا توجهّت إلى إنسانٍ كائناً من كان ورجوته أن يعطيك شيئاً، أو أن يمنع عنك شيئاً، أو أن يحميك من شيء وهو لا يملك لك أي شيء فهذا هو الغباء بعينه.

لذلك أحد الخلفاء دخل إلى المسجد الحرام وسأل عن أحد العلماء الكبار وكان اسمه أبا حازم، فقال: " يا أبا حازم سَلني حاجتك ؟ " فقال: " والله إني أستحي أن أسأل غير الله في بيت الله "، فلمّا التقى به خارج الحَرَم، قال: " يا أبا حازم سلني حاجتك "، قال: " والله ما سألتها من يملكها أفأسألها من لا يملكها؟! "، فلمّا ألحّ عليه، قال: " نعم أنقذني من النار "، قال: " هذا لا أملكه "، قال: " إذاً ليس لي عندك حاجة ".

أنت حاجتك عند الله، بيد الله صحّتك، بيد الله عيناك، شبكيّة العين، الجسم البلوري، ماء العين، بيد الله سمعك، بيد الله دماغُك، شرايين الدماغ بيد الله، لو أن أحدها انفجر في الدماغ لفقد الإنسان عقله، أو ذاكرته، أو سمعه، أو بصره، أو قوّته فأصبح مشلولاً، هذه الأوعية الشعرية الدقيقة لو أن نقطة دمٍ تجمّدت فيها لأصبحت حياة الإنسان جحيماً، كليتاك بيد من ؟ ماذا تفعل إذا قيل: لقد توقّفت هاتان الكليتان عن العمل ؟ وهذا المرض ليس له دواء حتى الآن، ماذا تفعل ؟ بيد مَن كليتاك ؟ بيد من دسّامات القلب ؟ بيد من هذه الأوعية ومرونتها ؟ بيد من التوازن الذي تتمتّع به ؟ كل الأمر بيد الله ؛

صحّتك، وأعضاؤك، وأجهزتك، وعقلك، وسمعتك، وزوجتك، وأولادك، ورزقُكَ، ومن هم دونك، ومن هم فوقك، ومن تخاف منهم، ومن لا تخاف منهم كلُّهم بيد الله.

الكافر من صفاته الثابتة أنه يَصُدُّ عن سبيل الله ويعينُ الشيطان على إضلال الخلق:

قال سيدنا هود:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمّ لا تُنْظِرُونِ(55)إِنِّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(56))

(سورة هود)

وقال:

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ (55))

(سورة الفرقان)

وكأن الله سبحانه وتعالى يقول: ومع هذا كله تعبدون من دون الله ؟! تتوجّهون بالعبادة إلى غير الله ؟ أيعقل هذا ؟

(مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55))

(سورة الفرقان)

أي كان الكافر يعين الشيطان على إبعاد الناس عن الله عزّ وجل، أي أن الكافر من صفاته الثابتة في كتاب الله أنه يَصُدُّ عن سبيل الله، أنه يعينُ الشيطان على إضلال الخلق، يعين الشيطان على الإفساد بين الناس، يعين الشيطان على الإيقاع بينهم.

إما أن يستجيب الإنسان لله تعالى عن طريق النبي وإما أن يتولى الله مباشرةً المعالجة:

قال تعالى:

(وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا (55) وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلّا مُبَشّرًا وَنَذِيرًا (56))

(سورة الفرقان)

هذه مهمّة النبي عليه الصلاة والسلام، لا يملك لنا ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ولكن يدعونا إلى الله، ويبشِّرنا إن أطعناه، وينذرنا إن عصيناه، هذا كل ما يملكه النبي عليه الصلاة والسلام:

(إِنّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ(7))

(سورة الرعد)

لكن هذا الإنسان إذا دُعِيَ إلى الله عزّ وجل ولم يستجب، ربنا عزّ وجل عندئذٍ يداويه، يقول الله عزّ وجل:

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا(11))

(سورة المدثر)

إما أن تستجيب لله عزّ وجل عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام، وإما أن يتولى الله مباشرةً المعالجة، أي يا محمد إن لم يستجب دعه لي، أنا أداويه.

إذا دُعيت إلى الله فقف وتأمل وخذ هذه الدعوة أخذاً جدياً:

الإنسان أيها الأخوة الأكارم إذا دعي إلى الله ورسوله، إذا دعي إلى طاعته، إذا دعي إلى التعرُّف إليه، إذا دعي إلى محبته، إذا دعي إلى الأعمال الصالحة، إذا دعي ليعلم من هو ؟ وأين كان ؟ وإلى أين المصير ؟ إذا دعي إلى حقيقة الدنيا، وأن أساسها العمل الصالح، لقول الله عزّ وجل:

(وَالْعَصْرِ(1)إِنّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ(2)إِلا الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقّ وَتَوَاصَوْا بِالصّبْرِ(3))

(سورة العصر)

إذا دعي إلى هذا ينبغي أن يقف مَلِيّاً، ينبغي أن لا يستهين بهذه الدعوة، ينبغي أن لا يمر عليها كما يمر الغافلون:

(قُلْ إِنّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمّ تَتَفَكّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنّةٍ (46))

(سورة سبأ)

إذا دُعيت إلى الله فتأمل وقف، خذ هذه الدعوة أخذاً جدياً، تأمل من أنت ؟ أين كنت ؟ إلى أين المصير؟ اسأل هذا السؤال وهو سؤالٌ مخيف: هل بقي بقدر ما مضى ؟ هذا الذي مضى كيف مضى ؟ مضى كأنه لمح البصر، فهذا الذي بقي سيمضي كما مضى الذي مضى، إذاً الدنيا ساعة اجعلها طاعة، النفس طماعة عوّدها القناعة.

ليس في الإسلام حِرمان أبداً والشهوات إذا سارت في طريقها الصحيح أثمرت سعادةً:

أيها الأخوة الأكارم، كلمة أقولها لكم: ليس في الإسلام حِرمان أبداً، إذا عرفت الله عزّ وجل، واستقمت على أمره، ليس معنى هذا أنك محروم، كل شيءٍ أودعه الله فيك جعل له طريقاً نظيفاً، صحيحاً، منظماً، فهذا الوقود السائل في المركبة الذي ينطوي على قوة انفجار، البنزين، هذا الوقود لو وضع في مستودعه الصحيح، وسار في أنابيبه الصحيحة إلى غرفة الاحتراق، لأعطى حركةً نافعة لك، نقلتك هذه المركبة من مكانٍ إلى مكان، أما إذا خَرَجَ عن خَط سيره وأصاب جسم المركبة وأصابته شرارة حرق المركبة كلها، وكذلك الشهوات إذا سارت في طريقها الصحيح أثمرت سعادةً.

شهوة النساء هذه خطط الله لها أن تفضي بك إلى زواجٍ صحيح، إلى زوجةٍ تحبها وتحبك، تفي لها بالعهد وتفي هي لك بالعهد، إذا كان البيت الذي هو أساس المجتمع سعيداً سعد المجتمع كله، وهذا تخطيط ربِّ العالمين، أما إذا حاد الإنسان عن الطريق الصحيح، واعتدى على أعراض الآخرين، وترك هذه الفتاة في قارعة الطريق تنهشها الذئاب فقد خرب المجتمع، أساس المجتمع دعم الأسرة، فكل شيءٍ أودعه الله في الإنسان جعل الله له طريقاً صحيحاً، نظيفاً، مسعداً.

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56))

(سورة الفرقان)

أي أنت تُبَلِّغ وتُبَشِّر وتُنْذِر وتنتهي مهمتك، ليس عليك أن تهديهم إلا أن يختاروا همُ الهُدى، ولست مسؤولاً عنهم، وما أنت عليهم بحفيظ.

البطولة أن تأتي الله طائعاً لا أن تأتيه مُكرهاً:

قال تعالى:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ(56))

(سورة القصص)

وقال أيضاً:

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ(272))

(سورة البقرة)

لكن إذا لم يستجب الإنسان لهذه الدعوة، دعوة السماء لهذا الإنسان، ربما تولى الله عزّ وجل دفعه إلى أن يستجيب، ولكن البطولة أن تستجيب بالحسنى، البطولة أن تأتي الله طائعاً لا أن تأتيه مُكرهاً:

((عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل))

[رواه أحمد وأبو داود عن أبي هريرة]

البطولة أن تتصدق وأنت صحيحٌ شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر، البطولة أن تأتي الله عزّ وجل وأنت شاب في ريعان الشباب، أن تأتيه وأنت قوي، أن تأتيه وأنت غني، أن تأتيه وأنت ذو شأن، لا أن تأتيه بعد فوات الأوان، لا أن تأتيه في خريف العمر، لا أن تأتيه وقد اشتعل الرأس شيباً وانحنى الظهر.

((عبدي كبرت سنك، وانحنى ظهرك، وضعف بصرك، وشاب شعرك فاستحي مني فأنا أستحي منك))

[ورد في الأثر]

إلى متى أنت باللـذات مشـغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول؟

* * *

إلى متى ؟!! قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (56))

(سورة الفرقان)

الله تعالى سَخّرَ هؤلاء الذين يدعون إلى الله عزّ وجل وجعل الأجر والثواب عنده:

أيها الأخوة، آيةٌ دقيقةٌ كل الدقة:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (57))

(سورة الفرقان)

لو أن الله عزّ وجل قال: قل ما أسألكم عليه أجراً، أي أن هذه الدعوة إلى الله خالصة، لا أسأل عليها أجراً هكذا يقول النبي، الله سبحانه وتعالى يأمره أن يقول هذا، قل: يا محمد.

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (57))

(سورة الفرقان)

هذه (مِن) لاستغراق كل أنواع الأجر، أي لا أجر مادي، ولا معنوي، ولا كبير، ولا عاجل، ولا آجل، أي أجر، لا معنوي، ولا مادي، ولا قريب، ولا بعيد، ولا مُعَجّل، ولا مؤَجّل، ولا أي شيء من هذا القبيل ؟

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (57))

(سورة الفرقان)

لذلك لا تستطيع أن تذهب إلى طبيب إلا وفي جيبك المال، ولا تستطيع أن تذهب إلى محام إلا وفي جيبك أجرة الأتعاب، لكنك تستطيع أن تدخل بيت الله لتعرف كتاب الله من دون أن تدفع شيئاً، ومن دون أن تُكَلّفَ بشيء، ومن دون أن تفعل شيئاً، فالله سبحانه وتعالى سَخّرَ هؤلاء الذين يدعون إلى الله عزّ وجل وجعل الأجر عنده والثواب، لذلك إذا عملت صالحاً فلا تفسِد هذا العمل بطلب الأجر.

الدعاة الصادقون لا يسألون الناس أي أجرٍ كان:

كنت أضرب مثلاً: لو أن ملكاً قال لأستاذ: عَلِّم ابني بعض الدروس وأنا أكرمك، ما معنى أنا أكرمك وهو ملك ؟ العطاء على قدَر المُعطي، فإذا سوّلت لهذا المُعَلِّمِ أن يأخذ من هذا الابن مبلغاً من المال فهذا أجره، أليس من يفعل هذا غَفَلَ عما عند هذا الملك من وعدٍ كبير ؟ أنت إذا خدمت العباد والله سبحانه وتعالى يقول:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً(245))

(سورة البقرة)

أنت إذا خدمت أخاك فقد أقرضت الله عزّ وجل، أنت إذا دللته على خير فقد أقرضت الله عزّ وجل، أنت إذا أعنته على حاجته، أنت إذا أطعمته، أنت إذا سَقيته، أنت إذا كسوته، أنت إذا عُدّته، قال الله في الحديث القدسي:

((مرضت فلم تعدني يا عبدي، قال: كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟! قال: مرض عبدي فلان فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده))

[أخرجه مسلم عَنْ أبي هُرَيْرَةَ]

هذه الآية دقيقة جداً:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (57))

(سورة الفرقان)

والدعاة الصادقون كذلك، لا يسألون الناس أي أجرٍ كان ؛ لا كثير ولا قليل، لا قريب ولا بعيد، لا مادي ولا معنوي، لا شكر ولا شيء من هذا القبيل.

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (57))

(سورة الفرقان)

أجر النبي عليه الصلاة والسلام الذي يتقاضاه من أصحابه أن يسيروا إلى الله سيراً حثيثاً:

الله عزّ وجل يقول:

(قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي(108))

(سورة يوسف)

إذا كنت متبعاً للنبي عليه الصلاة والسلام فلا ينبغي أن تأخذ أجراً، قال تعالى:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ (57))

(سورة الفرقان)

معناها في أجر لأن إلا أداة استثناء إلا، ما هو الأجر:

(إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (57))

(سورة الفرقان)

معنى دقيق جداً غاية في الدقة، أي أن أجر النبي عليه الصلاة والسلام الذي يتقاضاه من أصحابه أن يسيروا إلى الله سيراً حثيثاً، هذا أجره، إذا عرفتم الله وأطعتموه وسعدتم به فهذا أعظم أجرٍ تقدمونه لمن يعلمكم، فهذه الفسيلة إذا اعتنى به صاحبها، سقاها، سمّدها، قلّمها، فإذا نمت هذه الفسيلة وأثمرت فهذا هو أجره، فأنت إذا علّمت إنساناً لو أنه لم يسلم عليك، لكنه لو طبق هذا العلم وانتفع به فقد نلت منه أعظم الأجر، لأن كل أعماله في صحيفتك.

الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق:

هذه آية دقيقة جداً:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (57))

(سورة الفرقان)

أنت مخير:

(إِلَّا مَنْ شَاءَ (57))

(سورة الفرقان)

من أراد أن يتخذ إلى ربه سبيلاً، والطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، تعلمُ العلم طريق، تعليم العِلم طريق، خدمة الناس طريق، الاستقامة على أمر الله طريق، برُّ الوالدين طريق، الإحسان إلى الجيران طريق، إتقان العمل طريق، أن تكون عند المسؤولية التي أنت فيها طريق، أن تكون نافعاً للناس طريق، أن تأمر بالمعروف طريق، أن تنهى عن المُنكر طريق، أن تحضر مجالس العلم طريق، أن تُعين على إحقاق الحق طريق.

(إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (57))

(سورة الفرقان)

هذا هو أجر النبي، فقد يقول الأب لابنه على سبيل التقريب: مكافأتك لي يا بني أن تكون إنساناً عظيماً، مكافأتك لي أن تنجح في امتحاناتك الصعبة، مكافأتك لي أن تكون إنساناً أخلاقياً، الأب ماذا يريد ؟ لا تَقِرُّ عينه إلا إذا رأى ابنه شخصيةً مرموقة.

أن يتجه الإنسان إلى الله تعالى ويستقيم على أمره بهذا يكافئ الذي عَلَّمَهُ أعظم مكافأة:

قال تعالى:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (57))

(سورة الفرقان)

يكفي أن يتجه الإنسان إلى الله عزّ وجل بإخلاصٍ وصدقٍ، وأن يستقيم على أمر الله، وأن يعمل صالحاً، ليكون قد كافأ الذي عَلَّمَهُ أعظم مكافأة، فلو أودعت في مصرف للخير مبلغاً من المال، كل هذا المبلغ يسجّل نظيره في حساب من دلّك على هذا العمل، هكذا عند الله عزّ وجل، فإذا دللت على خير، فكل عملٍ يعمله من دللته على خير فهو في صحيفتك، فهذا هو أعظم أجر، هذا معنى. هناك معنى آخر للآية:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا (57))

(سورة الفرقان)

إلا إذا أعنت أهل الحق على مهمتهم، إنسان قدم خدمة لبيت من بيوت الله، هذا الذي يريده النبي لأصحابه، إلا إذا كنت لبنةٍ في بناء الحق، إلا إذا ساهمت في خدمة الخلق، أي إلا إذا أعنت أهل الحق على أداء مهمتهم:

(قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (57))

(سورة الفرقان)

عندئذٍ نسأله أجراً لوجه الله عزّ وجل، وهذا الأجر أن يكون عضواً نافعاً في المجتمع، أن يكون إنساناً معطاءً، أن يكون مضحياً.

التوكل على هذا الحي الذي يموت مغامرةٌ ومقامرة فلذلك توكّل على الحي الذي لا يموت:

قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ (58))

(سورة الفرقان)

الوكالة التي يحوزها الإنسان لا يستطيع أن يستعملها إلا إذا جاء من دوائر النفوس بوثيقةٍ تثبت أن الموكِّل لا يزال على قيد الحياة، فإذا مات الموكِّل ضاعت الوكالة، لذلك أنت أيها المؤمن توكّل على الحي الذي لا يموت، أحياناً إنسان يضع كل ثقته بإنسان، يموت هذا الإنسان فجأةً ضاعت كل آماله:

اجعل لربِّك كل عزك يستقر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

***

أي أنك إذا توكلت على إنسان حي فهو ميت، بمعنى أنه سيموت، ولا تدري متى سيموت ؟ فالتوكل على هذا الحي الذي يموت مغامرةٌ ومقامرة، فلذلك توكّل على الحي الذي لا يموت، فهو الحي الذي لا يموت، لأن ربنا عزّ وجل يقول للميت حينما يوضع الإنسان في قبره عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ (58))

(سورة الفرقان)

على الإنسان أن ينزه الله ويمجده لأنه هو كل شيء:

التوكل على جهة أخرى مغامرة، بل مقامرة، بل خسارة، بل غباء، بل حُمق قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ (58))

(سورة الفرقان)

توكل على من بيده كل شيء، توكل على من بيده ملكوت السماوات والأرض، توَكّل على الذي يسمعك، توكل على الذي ينفعك، توكل على الذي يستجيب لك قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ (58))

(سورة الفرقان)

أي نَزّهْهُ ومجّده، هل فكرت في خلق السماوات والأرض ؟ هل عرفت لُطفه ؟ هل عرفت قوته ؟ هل عرفت غناه ؟ هل عرفت علمه ؟ هل عرفت قدرته ؟ هل عرفت عطفه ؟ هل عرفت أنه هو المعطي والمانع، هو الخافض والرافع، هو المعز والمذل ؟ هل عرفت أنه هو النافع والضار ؟ هل عرفت أنه هو القابض والباسط ؟ هل عرفته أنه هو كل شيء ؟

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلُ وكل نعيمٍ لا محـالـة زائـلُ

* * *

الخبير بالذنوب هو الله عزّ وجل إذاً ليس من شأن الإنسان أن يُقيّم أخاه الإنسان:

قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58))

(سورة الفرقان)

أنت أيها الإنسان لست الخبير بالذنوب، الخبير بالذنوب هو الله عزّ وجل، إذاً ليس من شأن الإنسان أن يُقيّم أخاه الإنسان، هذا من شأن الواحد الديّان، مقامُكَ كعبدٍ لا يسمح لك أن تقيّم أحداً، لأن الله سبحانه وتعالى رب النوايا، وهو الذي يعلم السر وأخفى، يعلم ما تخفي الصدور، يعلم خائنة الأعين، لذلك:

(وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58))

(سورة الفرقان)

إذا قلت: هذا سَيّئ، وهذا إلى النار، وهذا كافر، هذا ليس من شأنك ؛ هذا من شأن الله عزّ وجل، لا تمدح ولا تذُم، من أنت ؟ أنت عبدٌ ضعيف، محدود المعلومات، لذلك ربنا عزّ وجل قال:

(فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى(32))

(سورة النجم)

لا تقول: أنا، من أنت ؟ قالها إبليس فأهلكه الله، لا تقل: أنا، قل: الله أعلم، أرجو الله أن يرحمني. تابعيٌ جليل التقى مع أربعين صحابياً قال: " ما رأيت واحداً إلا وهو يظن أنه منافق "، أرجو أن أكون صادقاً،

أرجو أن أكون مخلصاً. شخص قال: " أنا مخلص "، فقال: "يا هذا إخلاصك يحتاج إلى إخلاص "، لا تقل: أنا مخلص، قل: أرجو الله أن أكون مخلصاً، لا تزكوا أنفسكم هذه واحدة.

لا تزكِ نفسك ولا تزك على الله أحداً فهذا تجاوزٌ لمقام العبودية:

لا تزكِ على الله أحداً قل: الله أعلم، سيّدنا الصديق وله ما تعلمون من الفضل، قال عنه النبي الكريم:

((ما طلعت شمس على نبي أفضل من أبي بكر))

[ورد في الأثر]

لما ولى عمر، قال: **" فإن بَدّلَ وغيّرَ فلا علم لي بالغيب "**، هذا أدب مع الله عزّ وجل، فلان جَيّد، من أنت ؟ هذا تطاول على الله عزّ وجل، لا تزكوا أنفسكم، ولا تزكوا على الله أحداً، قل: والله أعلم، قال: **" يا رب أقول لقد وليت عليهم أرحمهم فإن بدل وغيّر فلا علم لي بالغيب "، أنت أعلم.**

هذه الآية دقيقة، لا تزكِ نفسك، ولا تزك على الله أحداً ولا تحكم على أحدٍ بشيء، من أنت ؟ أنت عبدٌ لله، أن تزكي نفسك، أو أن تزكي غيرك، أو أن توزّع التُهَمَ على الناس، هذا فاسق، هذا فاجر، هذا ليس من شأنك، هذا من شأن الله عزّ وجل، هذا تجاوزٌ لمقام العبودية.

(وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58))

(سورة الفرقان)

لذلك كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الذنب شؤمٌ على غير صاحبه، إن تكلّم به فقد اغتابه، وإن عَيّرَهُ ابتلي به، وإن رضي به فقد شاركه في الإثم))

[كنز العمال عن أنس]

أخوكم وقع في ذنب، قل: يا ربي اغفر له وارحمه ونجّني من هذا الذنب، هذا الموقف الأديب، هذا موقف العبد الصادق.

(وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (58) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا (59))

(سورة الفرقان)

معنى (الذي خلق السموات والأرض) في هذه الآية أي الذي خلق الكون:

كلمة:

(الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا (59))

(سورة الفرقان)

تعني الكون، أي الذي خلق الكون:

(السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتّةِ أيّامٍ (59))

(سورة الفرقان)

أولاً كلمة يوم نفهمها نحن فهماً محدوداً، أرضنا تدور حول نفسها، دورةً في كل أربع وعشرين ساعة، إذاً كلمة يوم نفهمها نحن هذه الدورة، أما عندما ربنا عزّ وجل يقول:

(خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتّةِ أيّامٍ (59))

(سورة الفرقان)

ليس معنى هذا كما يقول اليهود في تلمودهم: إن الله خلق الدنيا في ستة أيام واستراح يوم السبت، لأنه تعب قال تعالى:

(وَمَا مَسّنَا مِنْ لُغُوبٍ (38))

(سورة ق)

قولهم استراح يوم السبت هذا معنى فاسد، اليوم الذي عناه الله بهذه الآية لا يعلمه إلا الله.

للآية التالية عدة تفسيرات:

قال تعالى:

(وَإِنّ يَوْمًا عِنْدَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ(47))

(سورة الحج)

بعض التفسيرات لهذه الآية: أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام هكذا على ظاهرها، وبعض التفسيرات: أن السماوات والأرض مرّت بأدوار، اليوم هو الدورة، يقول لك: العصر المَطير، عصر النباتات العملاقة، عصور الأمطار الغزيرة، عصور تَجَمُّد القشرة الأرضية، أي أن الأرض نفسها مرت بأدوار عبر آلاف السنين، عبر ملايين السنين، حتى أصبحت صالحة لحياتنا، حتى أصبحت هذه القشرة مفتتة، أصبحت تربة زراعية، وأصبح النبات مستقراً، وأصبحت القارات في أماكنها، وزّعت القارات والجُزُر والصحارى والجبال والمحيطات والأنهار، من أجل أن تكون هذه الأرض مستقراً للإنسان مرت بمراحل طويلة جداً عبر آلاف السنين، عبر ملايين السنين، لعل الله سبحانه وتعالى يريدُ من كلمة ستة أيام تلك المراحل الطويلة التي أعدت الأرض فيها لتكون مستقراً لهذا الإنسان، وبعضهم يقول: لعل هذه الأيام السِت هي الصيف والشتاء والربيع والخريف والليل والنهار، وعلى هذه الأدوار الست تقوم الحياة، فالقرآن حَمّال أوجه، والقرآن لا يُحَدُّ بمعنىً واحد.

الله خلق الأرض والسماوات وبَثّ فيهما الحياة وخلق فسوى وهذا هو المعنى:

هذه الآية:

(الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتّةِ أَيّامٍ (59))

(سورة الفرقان)

ستة أيامٍ لا كأيامنا، وهذا اليوم لا يعلمه إلا الله، أو ستة مراحل مرّت بها السماوات والأرض حتى أصبحت على ما هي عليه الآن صالحةً للحياة، أو الأيام هي الربيع والخريف والشتاء والصيف والليل والنهار، والله أعلم، قال تعالى:

(الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتّةِ أَيّامٍ ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ(59))

(سورة الفرقان)

الاستواء معلوم والكيف مجهول، كيف استوى على العرش ؟ الله أعلم، ولكن خلق الأرض والسماوات وبَثّ فيهما الحياة، خلق فسوى، خلق وبث الحياة، فهذا هو المعنى.

كلمة الرحمن هي اسم الله الأعظم:

على كلٍ:

(الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتّةِ أَيّامٍ ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ (59))

(سورة الفرقان)

هل تعرف من هو ؟ إنه الرحمن، ولعل هذا الاسم هو اسم الله الأعظم، لأن لطفه رحمة، وقوّته رحمة، وعدله رحمة، منعه رحمة وعطاؤه رحمة، رفعه رحمة وخفضه رحمة، إعزازه رحمة وإذلاله رحمة، بسطه رحمة وقبضه رحمة، تقريبه رحمة وإبعاده رحمة، إذا أبعد الإنسان عن شيءٍ فهو رحمة، قد يكون العطاء عين المَنع، وقد يكون المنع عين العطاء.

الرحمن، كلمة الرحمن وهي اسم الله الجامع تفسر كل أفعاله، بل تفسّر كل أسمائه، بل تفسر كل صفاته، بل تفسر الآية الكريمة:

(إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ(119))

(سورة هود)

أي أن الله سبحانه وتعالى خلقنا ليرحمنا، خلقنا ليسعدنا، وأيُّ كلامٍ آخر لا تلتفت إليه، كقول الناس: سبحان الله، الله خلقنا ليعذبنا، هذا كلام شيطاني، الله جلّ وعلا عن ذلك، بل خلقك ليسعدك، ليرحمك، ولكن إذا حِدّتَ عن الطريق لا بُدّ من التأديب، هذا كل ما في الأمر.

أدلة من القرآن الكريم على رحمة الله بعباده وتأديبه لهم عند تقصيرهم:

قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (21))

(سورة السجدة)

وقال:

(وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ(30))

(سورة الشورى)

وقال:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147))

(سورة النساء)

وقال:

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا(59))

(سورة الكهف)

وقال:

(ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ(17))

(سورة سبأ)

قال:

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا(49))

(سورة الكهف)

وقال:

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ(70))

(سورة التوبة)

كل خير تقوم به في الدنيا مهما كان صغيراً تراه يوم القيامة عظيماً:

قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7))

(سورة الزلزلة)

لو أنقذت نملة من الموت لرأيت هذا العمل يوم القيامة عظيماً:

((دخلت امرأةٌ النار في هرة حبستها))

[مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

وقال:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه(7)وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه(8))

(سورة الزلزلة)

قال:

(الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ (59))

(سورة الفرقان)

كل شيءٍ وقع أراده الله وهو مَحْضُ الخير:

هل عرفته من هو ؟ إنه الرحمن، خلقه رحمة، تسييره رحمة، تربيته رحمة، عطاؤه رحمة، ومنعه رحمة، قال تعالى:

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ(26))

(سورة آل عمران)

كلّه خير، كل شيءٍ وقع أراده الله، وإرادة الله متعلقةٌ بالحكمة المطلقة، وحكمته متعلقةٌ بالخير المطلق، كل شيءٍ وقع أراده الله وهو مَحْضُ الخير.

(الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (59))

(سورة الفرقان)

اسأل عنه، اسأل عنه أهل الذِكر، تَعَلَّمَ عنه كل شيء، احضر مجالس العلم كي تعرف من هو الله سبحانه وتعالى.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (12-13): تفسير الآيات 60 - 72
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-06-09

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة الفرقان.

ربّما ليس في القرآن الكريم آيةٌ أشدّ وصفاً لجحود الكفار واستكبارهم كهذه الآية:

وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60))

(سورة الفرقان)

ربّما ليس في القرآن الكريم آيةٌ أشدّ وصفاً لجحود الكفار، واستهانتهم، واستكبارهم كهذه الآية:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ (60))

(سورة الفرقان)

للكفّار:

(اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ (60))

(سورة الفرقان)

اخضعوا له، استجيبوا له، صلّوا، طبّقوا أمره، هذه المفردات كلُّها مما تعنيه كلمة اسجدوا.

ليس الكفر أن تنكر وجود الله عزّ وجل ولكن الكفر أن تُعرض عنه ولا تعبأ بأمره:

قال تعالى:

(قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ (60))

(سورة الفرقان)

لم يقولوا: ومن الرحمن ؟ لأنهم لو قالوا: من الرحمن إنهم بهذا ينكرون الذّات، أما حينما قالوا: وما الرحمن ؟ إنهم يُنكرون الصفات، هم يقرّون بوجوده ولكن وما الرحمن حتى نسجد له ؟ لذلك ليس الكفر أن تنكر وجود الله عزّ وجل ؛ ولكن الكفر أن تُعرض عنه، ولكن الكفر أن لا تقيم لأوامره قيمةً، ألا تعبأ بأمره ولا بنهيه، ولا بوعده ولا بوعيده، ولا بشرعه ولا بقرآنه، الكفر أن تعرض، أن تدير ظهرك لأوامر الله عزّ وجل، قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ (60))

(سورة الفرقان)

فرعون قال هذا الكلام، قال:

(وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ(23))

(سورة الشعراء)

حينما تسأل بحرف (ما) فإنّك تنكر الصفات لكنّك إذا استفهمت بـ (من) فإنّك تنكر الذات:

حينما تسأل بحرف (ما) فإنّك تنكر الصفات، هو استفهامٌ إنكاري، إنّك تنكر الصفات، لكنّك إذا استفهمت بـ (من) فلعلّك تنكر الذات:

(أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا (60))

(سورة الفرقان)

أنسجُدُ هذا إصرارٌ على الاستكبار، حينما جاءت كلمة أنسجد مرّةً ثانية إن هذا إصرارٌ على الاستكبار، واستكبارٌ ثالث:

(أَنَسْجُدُ (60))

(سورة الفرقان)

لم يقولوا: أنسجد لله:

(أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا (60))

(سورة الفرقان)

كأنّهم يترفّعون عن ذكر اسم الله عزّ وجل:

(أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60))

(سورة الفرقان)

إنّ دعوتهم إلى السجود زادتهم نفوراً، هذه صورةٌ صارخة، صورةٌ من صور الكفر والجحود، وكأن الله سبحانه وتعالى يسلِّي نبيّه الكريم، أن يا محمّد لا تجزع إذا كذّبوك، لا تجزع إذا جحدوا نعمتك، إنهم بالله يجحدون، إنهم يكذِّبون الله عزّ وجل، إنهم يستكبرون على الله.

الاستكبار و الاستنكاف عن عبادة الله:

قال تعالى:

(لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ(172))

(سورة النساء)

هناك من يستنكف عن عبادته، وهناك من يستكبر، قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ(206))

(سورة البقرة)

نعوذ بالله أن نكون من المستكبرين:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60))

(سورة الفرقان)

هذه السماء وما فيها من مجرّات وهذه البروج تنطق بعظمة الله:

ربنا سبحانه وتعالى يبيّن عظمته، يبيّن جلاله فيقول:

(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا (61))

(سورة الفرقان)

أي أن هذه السماء وما فيها من مجرّات تنطق بعظمة الله، وما الرحمن ؟

(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا (61))

(سورة الفرقان)

هذه البروج التي نراها كل حينٍ في أثناء دورة الأرض حول الشمس، إنها تنطق بعظمة الله، تنطق بوحدانيّته، تنطق بجلاله، تنطق بقدرته، تنطق بحكمته، قال تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61))

(سورة الفرقان)

كلّكم يعلم أن الأرض في دورتها حول الشمس تستغرق هذه الدورة ثلاثمئةٍ وخمسة وستين يوماً وربع اليوم، أربعة أرباع تكون السنة كبيسة، تكون الأيام في شهر شباط تسعة وعشرين، في دورة الأرض حول الشمس كلّما انتقلت الأرض من مكانٍ إلى مكان واجهت مجموعة من النجوم اسمها البُرْج، وجمع البُرج أبراج، وربنا سبحانه وتعالى في آياتٍ أخرى يقول:

(وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ(1))

(سورة البروج)

هذه البروج كما يسمّيها بعضهم: برج العقرب، وبرج الجدي وما إلى ذلك، هذه البروج مجموعاتٌ ضخمةٌ من النجوم تتراءى لأهل الأرض مع كل شهرٍ من شهور السنة، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى الذي خلق السماوات والأرض إنها كلّها تنطق بحمده، تنطق بعظمته، تنطق بجلاله، تنطق بحكمته، تنطق بقدرته، فما قول هؤلاء: وما الرحمن ؟ أي ما ضرّ السحاب نبح الكلاب وما ضرّ البحر أن رمى فيه طفلٌ بحجر.

من آيات الله عزّ وجل أنه جعل الليل والنهار يتعاقبان لنعلم عدد السنين والحساب:

قال تعالى:

(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61))

(سورة الفرقان)

هذه الشمس ـ والحديث عن الشمس يطول ـ إنها كوكبٌ مُلتهب، حرارتها عشرون مليون درجة في مركزها، ألسنة اللهب تزيد عن نصف مليون كيلو متر، تبعد عنّا مئة وستة وخمسين مليون كيلو متر ومع ذلك تقول: كدت أحترق من أشعّة الشمس، هذه الأشعّة تبعد عنا مئةً وستةً وخمسين مليون كيلو متر، يقطعها الضوء في ثماني دقائق، ولو أن الأرض ألقِيَت في الشمس لتبخّرت في ثانيةٍ واحدة، فكيف ببعض بروج السماء وهو برج العقرب الذي فيه نجمٌ يتّسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما ؟!

(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا (61) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً(62))

(سورة الفرقان)

أي أن الليل يَخْلُفُ النهار، والنهار يَخْلُفُ الليل، أولاً لنعلمَ العدد والحساب، ثانياً من فاتته الطاعة في الليل أدركها في النهار، من فاتته في النهار أدركها في الليل، وربّما جعل الليل والنهار مختلفين، هذا يطول وهذا يقصر، وتنعكس الآية في فصلٍ آخر، هذا أيضاً آية من آيات الله عزّ وجل، جعل الليل والنهار يتعاقبان، ومن خلال تعاقبهما نعرف عدد السنين والحساب، وجعل الليل والنهار آيتين نذكر بها عظمة الله عزّ وجل، وإذا فاتتنا العبادة في الليل أدركناها في النهار، وإذا فاتتنا في النهار أدركناها في الليل.

الحدُّ الأدنى في الشكر أن تذكر نعمة الله عليك والحدُّ الأعلى أن تقابل هذه النعمة بعملٍ طيّب:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً (62))

(سورة الفرقان)

أولاً يخلف بعضهما بعضاً، ثانياً مختلفين في الطول والقِصَر، ثالثاً مختلفين في الضياءِ والظلام، رابعاً إنهما آيتان دالّتان على عظمة الله عزّ وجل، لولا أن محور الأرض مائلٌ لما اختلف طول الليل والنهار، لو أن محور الأرض عموديٌّ على مستوي الدوران لتساوى الليل والنهار قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ (62))

(سورة الفرقان)

أن يذكر الله عزّ وجل. قال: **" يا رب كيف أشكرك ؟ "**

((إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم إنك إذا ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة]

فالحدُّ الأدنى في الشكر أن تذكر نعمة الله عليك، والحدُّ الأعلى أن تقابل هذه النعمة بعملٍ طيّب، لقوله تعالى:

(اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(13))

(سورة سبأ)

التذكر إما أن يكون في الوقت المناسب وإما أن يكون بعد فوات الأوان:

قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62))

(سورة الفرقان)

لكن لا بدّ من التذكّر، ولكن إما أن يكون هذا التذكّر في الوقت المناسب، وإما أن يكون بعد فوات الأوان، أعتى الكفّار عند الموت يذكر، وعند الموت يتوب، الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ (18))

(سورة النساء)

لذلك:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ(152))

(سورة البقرة)

وقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا(41)وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا(42))

(سورة الأحزاب)

وقال:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (62))

(سورة الفرقان)

عباد الرحمن نَسَبَهُمُ الله إلى اسمه الكريم وهذا أعظم تشريف لهم:

هؤلاء الذين يقولون: وما الرحمن ؟

(أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (60))

(سورة الفرقان)

ماذا يقابلهم ؟ يقابلهم عباد الرحمن، هؤلاء العباد الذين نَسَبَهُمُ الله إلى اسمه الكريم، وهل من تشريفٍ أعظم من هذا التشريف أن تُنْسَب إلى ذات الله عزّ وجل، قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ (63))

(سورة الفرقان)

هذا تشريفٌ عظيم أن يكون الإنسان عبداً للرحمن، فهل هو عبدٌ حقّاً ؟ ما صفات هؤلاء العباد، عباد الرحمن ؟ الحقيقة هذه الصفات لماذا جاءت ؟ جاءت هذه الصفات لتكون مقياساً لنا، يجب أن تعنيك هذه الصفات، يجب أن تسأل نفسك هذا السؤال: هل تنطبق هذه الصفات على صفاتي ؟ هل صفاتي مطابقةٌ لهذه الصفات ؟ إن كانت كذلك فأبشر فأنت من عباد الرحمن، وإن لم تكن كذلك فاجعل هذه الصفات هدفاً لك.

كما قلت في درسٍ سابق: هذا الذي تستهلكه الحياة يعيش لحظته، يعيش ليأكل، يعيش ليكسب المال من دون أن يفكِّر في مبدئه وفي منتهاه، هذا إنسانٌ تافه يعيش على هامش الحياة، لكن الله سبحانه وتعالى الآن يصف لكم عباد الرحمن، فالسؤال الكبير: هل أنت من عباد الرحمن ؟ أو هل هذه الصفات كلُّها منطبقة عليك ؟ وإذا كان هناك اختلاف فهل هو اختلافٌ كبير أم اختلافٌ قليل ؟ هل هو اختلافٌ في عدد الصفات أم في الدرجة ؟ هل الاختلاف في النوع أم في الدرجة ؟ وإن لم تكن هذه الصفات أو لم يكن بعضها اجعلها هدفاً من أهدافِك، من هم عباد الرحمن ؟ ونرجو الله أن نكون من هؤلاء.

حركة الإنسان على وجه الأرض عبّر عنها الله سبحانه وتعالى بكلمة (يمشون):

قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

الحقيقة بعض المفسِّرين يقول: ليس القصدُ من هذه الكلمة أنه يمشي على وجه الأرض، كلُّنا نمشي، نحيا، المشي هنا بمعنى أنه يعيش على وجه الأرض، يتحرّك، يذهب إلى عمله، يعود إلى بيته، ينطلق إلى نُزُهَاته، ينطلق إلى لقاء، إلى سهرة، إلى اجتماع، إلى لهو، إلى لعب، إلى دعوة إلى الله، إلى تَعَلُّم العِلم، هذه الحركة حركة الإنسان على وجه الأرض، ينطلق بدافع من شهواته، بدافع من أهدافه، بدافع من مبادئه، بدافعٍ من قيمه، من حاجاته، من نزواته، حركة الإنسان على وجه الأرض، سعيه لكسب الرزق، سعيه لكسب العِلم، سعيه لكسب اللذّة، حركة الإنسان على وجه الأرض عبِّر عنها الله سبحانه وتعالى بكلمة (يمشون) قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

المعنى الأول: أي هم يتمهّلون في كل شيء، لا تأخذهم الأشياء بظواهِرها، هُم يتأمّلون، يتفكّرون، يبحثون، يُقلِّبون الأمر على وجوهه ؛ هذا الموقف هل يرضي الله عزّ وجل أم لا يرضيه ؟ إذا نشب خلافٌ بين أمِّك وزوجتك ماذا تفعل ؟ لا يندفعون بدافعٍ من غرائزهم، بدافعٍ من نزواتهم، لا يتّخذون مواقف مرتجلة، إنهم يمشون على الأرض هَوْنَاً، إذا شربوا كأس الماء لا يشربونه كالبهائم، يشربونه ويفكِّرون في هذا الماء العذب الفرات الذي وفّره الله للإنسان، اللهمّ أرنا نعمكَ بكثرتها لا بزوالها، ربّما عرفنا في هذا العام قيمة الماء.

المعنى الأول لهذه الآية أي يتمهّلون في كل شيء ولا تأخذهم الأشياء بظواهِرها:

هؤلاء:

(يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

قبل أن يعقدوا عقد زواجهم على امرأة يتريّثون هل هذه المرأة صالحة ؟ هل تنطبق عليها الصفات التي أمر بها النبي عليه الصلاة والسلام ؟ هل آثرت في هذه المرأة دينها أم دنياها ؟ هل آثرت جمالها أم مالها أم نسبها أم دينها ؟

(يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

قبل أن يعقدون صفقةً، هل هذه البضاعة ترضي الله عزّ وجل أم أنّ هذه البضاعة محرّمة ؟ هل طريقة هذا التعامل في شرائها أو بيعها مما يرضي الله عزّ وجل ؟ قبل أن يضعوا سعراً لهذه السلعة، هل هذا السعر يرحم المسلمين أم لا يرحمهم ؟

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

عندهم تريُّث، تأمُّل، تفكُّر، وقوف عند كتاب الله، يسألون: ما هذا الحكم ؟ ما حكم هذه الصفقة هل هي مباحة هل فيها كراهة ؟ نوع هذه الكراهة تحريميّة أم تنزيهيّة ؟ ما نوع هذه الكراهة ؟ هل هذا الشيء مُحَرّم، هل هو مباح، هل هو حلال ؟ فما الذي يهلك الناس ؟ أنهم يندفعون نحو شهواتهم من دون تَبَصُّر، تلوح لهم الدنيا فيندفعون نحوها بحقّ أو بغير حق، من طريقٍ مشروع أو من طريقٍ غير مشروع، بطريقةٍ ترضي الله أو لا ترضي الله، هان الله عليهم فهانوا على الله.

عباد الرحمن أيضاً يفكرون قبل أي حركة فهم لهم منهاج:

كلمة هوناً رائعة جداً، يفكِّر قبل أن يتحرّك، قبل أن يذهب إلى البلد الفلاني يفكِّر ما مصير بناتي وأولادي إذا كبروا هناك ؟ هل بإمكاني أن أمنع ابنتي من أن تسبح على البحر بلباس السباحة ؟ ماذا يحدث لي لو رأيت مع ابنتي شاباً صديقاً لها إذا أقمت في بلاد الكُفر ؟ يفكِّر قبل أن يندفع إلى السَفَر، وإلى أن يقيم في هذه البلاد يفكِّر في مستقبل بناته، في مستقبل أولاده:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

قبل أن يُرسل ابنه إلى بلاد الغرب، ما احتمال أن يفسد دينه ؟ ما احتمال أن يعود إلى بلده وهو يُنكر دينه ؟ هناك احتمالات، فقبل أي حركة ؛ حركة لكسب المال، حركة لقضاء متعة، حركة لعمل معيّن، قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

هم لهم منهاج، هذه الآلة قبل أن تشغِّلها بجهلٍ اقرأ التعليمات، هناك تعليماتٌ من الصانع، وأنت آلة، قبل أن تندفع إلى شيءٍ ما اقرأ التعليمات، كان سيدنا عمر رضي الله عن عمر وقّافاً عند كتاب الله، قبل أن أشتري هذا المحل التجاري هل موقعه مناسب ؟ قبل أن أشتري هذا البيت هل هو في منطقةٍ يكثر فيها الفساد ؟ هل أخاف على بناتي وعلى أولادي من هذه المنطقة ؟ أم أنتقي لهم حيّاً آخر ؟

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

التسرُّع والعَجَلَة يُهلك الناس لكن المؤمن يفكِّر ويقف ويتأمّل:

ما الذي يُهلك الناس ؟ التسرُّع، العَجَلَة، الاندفاع نحو كسب المال، الاندفاع نحو قضاء اللذّة، الاندفاع نحو المَجد الفارغ، الاندفاع نحو العلو في الأرض، قبل أن تقبل هذه الوظيفة هل تعرف أنك محاسبٌ محاسبةً دقيقةً من قِبَل الله عزّ وجل عن كل موقفٍ تقفه، وعن كل أمرٍ تأمره، وعن كل نهيٍ تنهاه ؟

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

المؤمن يفكِّر، يقف، يتأمّل، يُمَحِّص، يدقِّق، يُقَلِّب الأمر على وجوهه كلّها، قبل أن تختار هذه الفتاة لابنك هل هي فتاةٌ مؤمنة تعينه على أمر دينه أم أنها طائشة ؟ تسأل ابنك: ما الذي أعجبك في هذه

الفتاة؟ أعجبك غنى أهلها ؟ أعجبك جمالها ؟ قبل أن تفكِّر في إعطاء ابنتك لشاب، ما الذي أعجبك في هذا الشاب ؟ هل نفّذت أمر الله عزّ وجل:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ(221))

(سورة البقرة)

أكثر الناس يندفعون من دون تبصُّر فإذا هم يقعون في شرّ أعمالهم، قبل أن توافق على أن يدخل هذا الخطيب على ابنتك من دون عقد قِران، هل فكّرت باحتمال أن يجلس معها جلساتٍ طويلة ثمّ يغيب عن الأنظار ؟ وماذا تفعل بعدئذٍ إذا كان الأمر قد وقع ؟ قبل أن تقول: أنا مع الناس، لم أشأ أن أكن جِلْفَاً أو غليظاً وافقت، قبل أن توافق هل أدركت العواقب ؟

على المؤمن أن يفكِّر في كل كلمةٍ ينطق بها وأن يكون وقّافاً عند كتاب الله:

الشرع دقيق، هذا الشرع الإلهي يدور مع الناس في كل حياتهم ؛ في حياتهم المنزليّة، في علاقاتهم مع زوجاتهم، في علاقاتهم مع أولادهم، في علاقاتهم مع الناس، مع الجيران، مع من هم فوقهم، مع من هم دونهم، قبل أن تقف، قبل أن تنطق بكلمة، هل هذه الكلمة فيها خير ؟ هل في هذه الكلمة غيبة ؟ هل في هذه الكلمة نميمة ؟ هل في هذه الكلمة بهتان ؟ هل في هذه الكلمة إفك ؟ هل في هذه الكلمة سُخرية ؟ هل في هذه الكلمة كِبْر ؟ هل في هذه الكلمة تجبُّر واستعلاء ؟ هل في هذه الكلمة إفساد ذاتُ البين ؟ هل في هذه الكلمة تنغيصُ عيش هذه المرأة ؟ قبل أن تقول لأختك وقد زرتها في العيد: ماذا قدّمَ لكِ زوجكِ ؟ هل فكّرت في هذه الكلمة ؟ لو أن زوجها لم يقدِّم لها شيئاً لقد جرحتها، لقد جعلتها تنظر إلى زوجها نظرةً غاضبة، قبل أن تنطق، أحياناً نظرةٌ تسبِّب مشكلة، فلذلك:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

في الكلمات ؛ فكِّر في كل كلمةٍ تنطق بها، فكِّر في كل نظرةٍ، فكِّر في كل سماعٍ، فكِّر في كل لقاءٍ، فكر في كل نزهةٍ، فكر في كل سهرةٍ، في كل صفقةٍ، في كل حركةٍ، في كل سكنةٍ، كن وقّافاً عند كتاب الله كما هي صفة سيدنا عمر، رضي الله عن عمر.

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

عباد الرحمن وقتهم ثمين ويتمنّون أن ينجوا بوقتهم وأنفسهم من السفيه والجاهل:

شيءٌ آخر: هؤلاء عباد الرحمن وقتهم ثمين، بل إن الوقت أثمن شيءٍ يملكونه، الوقت أثمن شيءٍ

يملكونه، لذلك عباد الرحمن ليسوا مستعدين لينفقوا أوقاتهم الثمينة في القيل والقال، في كلامٍ فارغ، في موضوعٍ سخيف، في مناقشةٍ باطِلة، في محاورةٍ غير هادفة، هم أرقى من ذلك، وقتهم أغلى من ذلك، هدفهم في الحياة أسمى من ذلك، لذلك:

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63))

(سورة الفرقان)

ليس من التسليم ؛ بل من السلامة، أي أنهم يتمنّون أن ينجوا بوقتهم وأنفسهم من هؤلاء، فهذا الذي يهبط إلى مستوى السفيه يناقشه ويحاوره، ويأخذ ويعطي، ويتكلّم ويناقش هذا التصرف ليس من صفات عباد الرحمن:

((إن الله يحبُّ معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيّها))

[الجامع الصغير عن سهل بن سعد]

وقتك ثمين فحافظ عليه، لا تنطق إلا بالحكمة، قال عليه الصلاة والسلام:

((أمرني ربي بتسع ؛ خشية الله في السرّ والعلانيّة، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً))

[أخرجه القرطبي عن أبي هريرة]

وأنت راكب في مركبةٍ عامّة فكِّر، فكِّر في شيءٍ يعينك على معرفة الله عزّ وجل، فكر في أعضائك، فكر في أجهزتك، فكر فيما تراه حولك من آياتٍ دالّةٍ على عظمة الله:

((أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً))

[أخرجه القرطبي عن أبي هريرة]

هناك صفاتٍ تجرحُ عدالة الإنسان وأثمن شيءٍ يملكه الإنسان هو عدالته:

لا تنطق بالباطل.

((مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

[من سنن أبي داود عن أبي هريرة]

لا تجلس في مجلسٍ فيه حديث عن النساء، لأنه كما تعلمون إن هناك صفاتٍ تجرحُ عدالة الإنسان، وأثمن شيءٍ تملكه أنت عدالتك، ما الذي يجرح العدالة ؟ أن تجلس مجلساً يتحدّث فيه عن النساء، هذا المجلس يجرح عدالتك، أن تتنزّه في الطرقات هذا أيضاً يجرح العدالة، أن تصاحب الأراذل هذا أيضاً يجرح العدالة، صحبة الأراذل، التنزُه في الطرقات، الحديث عن النساء، التطفيفٌ ولو بتمرة، أن تأكل لقمة من حرام، تطفيفٌ بتمرة، من علا صياحُهُ في البيت هذا أيضاً يجرح العدالة، من أطلق لفرسه

العِنان هذا أيضاً يجرح العدالة، من قاد برذوناً في الطريق، أي حيواناً مخيفاً، هذا أيضاً يجرح العدالة، من بال في الطريق، من أكل في الطريق، عَدّ العلماءُ ثلاثاً وثلاثين موقفاً لو فعلها الإنسان جُرِحَت عدالته، لذلك قبل أن تأكل في الطريق هذا يجرح العدالة، قبل أن تمشي في هذا الطريق، هذا الطريق لا يليق بك أن تمشي فيه إلا لأمرٍ قاهر، يجب أن تأخذه عرضاً لا طولاً:

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) ﴾

(سورة الفرقان)

ليس من التسليم ؛ بل من النجاة، يحفظون وقتهم، يحفظون شعورهم، يحفظون فكرهم من هذا:

((مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

[من سنن أبي داود عن أبي هريرة]

وفي حديثٍ آخر:

((لا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عَزّ وَجَلّ إِلا حَفّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

[صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري]

عباد الرحمن في النهار لهم هدفٌ كبير يبحثون عن وسيلةٍ لتحقيق هذا الهدف:

قال تعالى:

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) ﴾

(سورة الفرقان)

هم في النهار لهم هدفٌ كبير يبحثون عن وسيلةٍ لتحقيق هذا الهدف، وفي النهار أيضاً معرضون عن الجاهلين، من هو الجاهل ؟ الجاهل هو الذي جَهِلَ ربّه، وجَهِلَ نفسه، وجهل أصله، وجهل منتهاه، وجهل شرع الله عزّ وجل، وجهل لماذا هو على وجه الأرض، وجهل طبيعة العمل الصالح، جهل كتاب الله، هذا جاهل:

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7) ﴾

(سورة الروم)

والجاهل أيضاً السفيه، إما الجاهل من الجَهْل، وإما الجاهل من الجَهَالة، الذي يسفُه في كلامه، يُسِفّه في تصرفاته، ينحط إلى مستوى لا يليق به هذا أيضاً جاهل، قال تعالى:

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) ﴾

(سورة الفرقان)

فقد ورد اصرم الفاسق، اصرم السفيه.

السفيه ترفّع عنه، ليس هذا كِبْراً ولكن قصماً له وحسماً لشرّه، ترفّع عنه، لا تهبط إلى مستواه.

ليل عباد الرحمن وخاصة ليالي الشتاء للقيام والعبادة:

هذا في النهار أما في الليل ماذا يفعلون ؟ ولاسيما في ليالي الشتاء، حيث الليل كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الشِّتَاءُ رَبِيعُ الْمُؤْمِنِ))

[مسند أحمد عن أبي سعيد]

طال ليله فقامه، وقصر نهاره فصامه، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64))

(سورة الفرقان)

حيث الناس يقبعون وراء أجهزة اللهو، وحيث الناس يقرؤون القصص غير اللائقة، وحيث يجلسون نساءً ورجالاً يتبادلون ألوان الحديث المُمْتِع وغير الممتع، هم:

(يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64))

(سورة الفرقان)

هم يجلسون كما قال الله عزّ وجل لسيدنا موسى:

" يا موسى أتُحبُّ أن أكون جليسك ؟ " قال: " كيف ذلك يا رب ؟ "

وقد وُصف الصحابة الكرام عليهم رضوان الله بأنهم فرسانٌ في النهار، رهبانٌ في الليل.

المؤمن لا يطمئن إلا إذا توفاه الله على الإيمان وختم الله له عمله الطيّب بالإحسان:

الليل ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ(1))

(سورة القدر)

لأن في الليل مجال الإقبال على الله والتقرُّب منه، والتهجُّد له، وذكره في الليل حيث الناس نيام:

(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64))

(سورة الفرقان)

ومع أنهم مستقيمون على أمر الله، ومع أنهم على الصراط المستقيم، ومع أنهم ملتزمون، ومع أنهم طائعون يخافون الله عزّ وجل، وكلّما زاد علمك زاد خوفك، كلّما زادت معرفتك زاد شعورك بالتقصير، لذلك الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول: **" كلّما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي "**. فهؤلاء كما قال

بعض التابعين: **" التقيت مع أربعين صحابيّاً ما منهم واحدٌ إلا ويظنُّ أنه منافق "**، لعِظَم حقّ الله عليك، لعظم المهمّة التي أنت بصددها، لذلك تشعر أن هناك مسؤوليّة كبيرة، لعلّ في العمل خللاً، لعلّ في النيّة خللاً، لعلّ في الهدف خللاً، لعلّ هناك تقصيراً، لعلّ هناك تعطيلاً، لذلك قلب المؤمن في خوف.

يُروى أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، قال على فراش الموت: **" كلا بعد كلا بعد "** وخاف تلامذته أن تكون هذه الكلمات بشارةً ليست مُرضية، بعد أن مات رآه بعض تلامذته، فقال: " يا سيدي ما فعل الله بك ؟ ولماذا قلت: كلا بعدُ كلا بعدُ ؟ "، قال: **" يا ولدي جاءني الشيطان قبل أن أموت فقال: قد نجوت، فقلت: كلا بعدُ "**. المؤمن لا يطمئن إلا في حالةٍ واحدة وهي إذا توفّاه الله على الإيمان وختم الله له عمله الطيّب بالإحسان لذلك:

((إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله قبل موته، فسأله رجل من القوم: ما استعمله ؟ قال: يهديه الله عز وجل إلى العمل الصالح قبل موته ثم يقبضه على ذلك))

[أخرجه أحمد عن عمر الجمعي]

ربنا عزّ وجل إكراماً للمؤمن، إذا كان هذا المؤمن حريصاً على طاعة الله يقبضه في أحلى ساعاته، في ساعات إقباله، في عمله الصالح، في صلاته، في قيامه، في ركوعه، في سجوده، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ (65))

(سورة الفرقان)

الإنسان كلّما ارتقت معرفته ازداد تواضعه وازداد خوفه وحذره:

لا تجد الكِبر إلا في الضعفاء، أو في البعيدين، سيدنا يوسف وهو قمّة في العفاف، وهو مَضْرِبُ المثل ماذا قال ؟ قال:

(رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ إلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ(33))

(سورة يوسف)

سيدنا إبراهيم ماذا قال ؟ قال:

(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ(35))

(سورة إبراهيم)

معنى ذلك أن الإنسان كلّما ارتقت معرفته ازداد تواضعه، وكلّما ارتقت معرفته ازداد خوفه، وكلّما ارتقت معرفته ازداد قلقه وازداد حذره، لهذا جاء في بعض الأحاديث الصحيحة:**" أن المؤمن يرى ذنبه كأنه جبلٌ جاثمٌ على صدره، بينما المنافق يرى ذنبه كأنه ذبابة حطّت عليه فطارت "**

يقول لك: ماذا فعلت ؟ ما الذي حدث ؟

ما يزيد الذنب عِظماً عند الله عزّ وجل أن تستصغره وما يقلّل شأنه عند الله أن تستعظمه:

من يستهن بذنبه فهو من علامات النِفاق لذلك الإمام الغزالي عقد في الإحياء بحثاً لطيفاً قال: **" ما الذي يجعل الذنوب الصغيرة كبيرةً ؟ "**.

من هذه الشروط أنه كلّما استصغر العبد ذنبه كَبُر عند الله، وكلّما استعظم العبد ذنبه صغُرَ عند الله، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((لا صغيرة من الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار))

[مسند الشهاب عن ابن عباس]

كلّما أظهره للناس ازداد هذا الذنب عند الله عظماً، وكلّما أخفاه هذا دليل الحياء، من هنا قال بعضهم: **" إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا "**، فهذا الذي يعصي الله جهاراً ولا يبالي هذا فاجر، وهذا ذنبه مضاعف، وهذا لا غيبة له، فقد ورد في الأثر:

((اذكروا الفاجر بما فيه يحذره الناس))

أما الذي يفعل الذنب وهو مُتَكَتِّم، لا يحبُّ أن يُرى في هذه المخالفة فيه خير، هذا عَرّف بعضهم المسلم بأنه يغلب عليه الصلاح والتستُّر، فإذا أظهر ذنبه فقد جاهر بالمعصية، فمما يزيد الذنب عِظماً عند الله عزّ وجل أن تستصغره، ومما يقلِل شأنه عند الله عزّ وجل أن تستعظمه، مما يعظِم الذنب عند الله أن تجهر به، مما يُعَظِم الذنب عند الله أن تصرّ عليه.

الإنسان إذا عرف الله معرفةً جيّدة ازداد خوفه وازدادت خشيته:

هؤلاء مع أنهم مستقيمون، مع أنهم مؤمنون، مع أنهم خائفون، مع أنهم وجلون، مع أنهم وقّافون عند كتاب الله قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65))

(سورة الفرقان)

سيدنا عمر عندما قال: " ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيماً ". كان بهذا يعني ما يقول، كان عمر رضي الله عنه يقول: **"ليتني ألقي الله لا لي ولا علي "**. الإنسان إذا عرف الله معرفةً جيّدة يزداد خوفه، وتزداد خشيته ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ))

[البخاري عَنْ أَنَس بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ]

لعِظَم معرفته بالله عزّ وجل، قال:

((لو تعلمون ما أعلم ما أكلتم طعاماً عن شهوةٍ، ولا شربتم شراباً عن شهوةٍ))

[من الجامع الصغير عن العرباض]

((لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً))

[من الجامع الصغير عن العرباض]

قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ))

[سنن الترمذي عَنْ أبي ذرّ]

كلمة غراماً تعني عذاباً مستمراً وأخطر صفةٍ في عذاب النار أنه مستمر:

نسأل الله العلم:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65))

(سورة الفرقان)

معنى غراماً قال بعضهم: هذه من الغريم، الغريم صاحب الدين يلازم المَدين. وقال بعضهم: الغَرام هو المُلازمة، فكلمة غراماً تعني عذاب مستمر، الإنسان أحياناً تُكسَر رجله فلا يُبالي، لكن إذا قيل: لا بدّ من أن تُقطَع هذه الرجل فإنه ينهار، لماذا ؟ هناك فرقٌ كبير بين كسر الرجل وبين قطعها ؟ الكسر طارئ تُجَبَّر فتعود كما كانت، لكن القطع دائم، الشيء المستمر مخيف جداً، هناك أمراض كثيرة قد يشفى منها الإنسان، أما المرض المستمر هذا مرض مُخيف، المستمر ينتهي عند الموت، ولكن هذا العذاب إلى أبد الآبدين، فأخطر صفةٍ في عذاب النار أنه مستمر:

(وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَّارِ(167))

(سورة البقرة)

أدلة من القرآن الكريم على استمرارية عذاب جهنم:

قال تعالى:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ(77))

(سورة الزخرف)

وقال:

(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65))

(سورة الفرقان)

أي أنه مستمر، عذابٌ ملازمٌ لأصحابه لا ينفّك عنهم:

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ(56))

(سورة النساء)

وقال:

(إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66))

(سورة الفرقان)

وقال:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ(61))

(سورة القصص)

الذي يجعل النفقة معصية أن تنفقها في الباطل والذي يجعلها طاعة أن تنفقها في الحق:

قال تعالى:

(إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66))

(سورة الفرقان)

أين الاستقرار ؟ كيف يستقرُّ الإنسان وهو في النار ؟ وكيف تكون له مُقاماً ؟ إذاً هؤلاء في النهار مفكِّرون، وقافون عند كتاب الله، يتأمّلون، وعن الجهلة معرضون، وفي الليل يصلون ويسجدون، ويخافون ويحذرون، أما إذا أنفقوا، وإنفاق المال أوسع نشاطٍ في الإنسان، فما من إنسان على وجه الأرض إلا وهو ينفق ليأكل، ينفق لينام، ينفق ليسكن، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67))

(سورة الفرقان)

بعضهم قال: الفضيلة وسطٌ بين طرفين، هذه الآية فسّرها العلماء تفسيراتٍ كثيرة، قال العلماء: **" إذا أنفقت في طاعة الله ألوف الألوف فأنت لست بمسرف، وإذا أنفقت في معصية الله دِرهماً واحداً فهذا إسراف، وإذا أنفقت في طاعة الله فهذه النفقة القِوام، الصحيحة، "** هذا وجه، أي أن الذي يجعل النفقة صحيحة أن تكون في طاعة الله وَفْقَ الشرع، والذي يجعلها معصية أن تنفقها في الباطل، والذي يجعلها طاعة أن تنفقها بالحق.

الله سبحانه وتعالى في ثماني آياتٍ حصراً في كتاب الله وصف المُترفين بأنّهم كافرون:

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا (67))

(سورة الفرقان)

في طعامهم، وفي شرابهم، وفي سُكناهم، وفي حياتهم النفقة المعتدلة، لأن الله سبحانه وتعالى في ثماني آياتٍ حصراً في كتاب الله وصف المُترفين بأنّهم كافرون، لماذا ؟ لأنه جعل الدنيا كُلّ همِّه، لأنه جعل النعيم فيها كل شيءٍ في حياته، لأنه نقل اهتماماته من الآخرة إلى الدنيا، وهو بعمله لم يبال بالآخرة، طبعاً لا إسراف في الخير، ولا خير في الإسراف، في طاعة الله، في الإنفاق في سبيل الله ليس هناك سقف، ولكن فيما يتعلّق في النفقات التي تنفقها من أجل أن تعيش هذه النفقات يجب أن تكون معتدلة:

(وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا(29))

(سورة الإسراء)

في الإنفاق، النبي الكريم نهى عن نوعين من الألبسة، نهى عن ألبسةٍ مشهورة ونهى عن أَلْبَسَةٍ مهجورة، أي أن الثياب البالية التي تذري بصاحبها هذه مهجورة، والثياب الغالية جداً التي تجعل الناس يرمقونك بأبصارهم إعجاباً هذه أيضاً غير مشكورة، الاعتدال، لباس مقبول لطيف أنيق فيه ذوق، من دون إسراف، من دون مَخْيَلَة، هذا في اللباس، وفي الطعام، وفي السُكنى، وفي كل النشاطات، لأنه إذا عرفت ما عند الله من ثواب هذا المال الذي تنفقه بطراً ورئاء الناس لو أنفقته في سبيل الله لارتقى بك إلى أعلى عليين، أنت في دار تكليف لا في دار تشريف، أنت في دار عمل لا دار جزاء، لو أنك في دار الجزاء لأُبيحَ لك أن تنفق ما تشاء، ولكن في دار عمل كل شيءٍ محاسبٌ عليه.

الدرهم إذا أنفقته في طاعة الله ارتقى بك إلى الجنّة:

قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَا أَبْلاهُ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ وَضَعَهُ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ))

[سنن الدارمي عن معاذ بن جبل]

وقال أيضاً:

((ليس منّا من وسّع الله عليه ثمّ قتّر على عياله))

[الجامع الصغير عن جبير بن مطعم]

أن تضع اللقمة في فم زوجتك هي لك صدقة لكن باعتدال، عندما أوصانا النبي الكريم بالجار قال:

((وإذا اشتريت فاكهة فأهد له منها فإن لم تفعل فأدخلها سرّاً، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها))

[ابن رجب في جامع العلوم والحكم]

يعني بالإنفاق، هناك من ينفق المال ويطعم الناس ويفتخر بهذا الإطعام، هذه دعوةٌ لا ترضي الله عزّ وجل، ولكنّك إذا أطعمت إنساناً تبتغي بهذا الإطعام أن تشبعه، أو أن تكسب قلبه فهذا إطعامٌ مشروع.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا (67))

(سورة الفرقان)

لأن هذا الدرهم إذا أنفقته في طاعة الله ارتقى بك إلى الجنّة، وإذا أنفقته في معصية الله كان حجاباً بينك وبين الجنّة، فأنت محاسب عن هذا المال، فهذا الذي ينفق أموالاً طائلة، وهناك أناسٌ يتمنّون أن يأكلوا شيئاً من اللحم، هذا الإنفاق والتبذير والإسراف يقابله جوعٌ شديد، كأن الله سبحانه وتعالى يحاسبك، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به))

[رواه الطبراني عن أنس بن مالك]

ما آمن.

اثنان لا تقربهما الإشراك بالله والإضرار بالناس:

المُلَخّص هو أن هذا المال الفائض الذي تنفقه تبذيراً وإسرافاً، لو أنفقته في طاعة الله لارتقى بك إلى أعلى عليين، ولكان زاداً لك إلى الجنّة، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ (68))

(سورة الفرقان)

أعظم شيءٍ يقع فيه الإنسان الشرك بالله، لهذا قال الله عزّ وجل:

(إِنّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ(48))

(سورة النساء)

اثنان لا تقربهما الإشراك بالله والإضرار بالناس، أعظم ذنبٍ بعد الشرك أن تقتل نفساً بغير حق، أعظم شيءٍ بعد القتل أن تزني، لأن الزنا قتل، ولكنه قتل معنوي، لأن الله عزّ وجل يقول:

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ(191))

(سورة البقرة)

التوحيد كفكرة سهل أما أن تعيش التوحيد فهذا شيءٌ يحتاج إلى جهد كبير:

لو أن الفتاة قُتِلَت وهي بريئة لدخلت الجنّة، لكنّها إذا زلّت قدمها وغَوَت واستمرأت هذا العمل وأمضت به حياتها دخلت إلى النار، فقتل النفس بآلةٍ حادّة لا يقلُّ عن قتلها بإفسادها، كلاهما قتل، لذلك في سورة الإسراء جاء الزنا بين قتلين لأنه قتل، الإنسان له كرامة، له عِفّة، له شرف، له وجهة إلى الله عزّ وجل، إذا زلّت قدمه هبط عن هذا المستوى إلى مستوى الحيوان فانقطع عن ربه، فهؤلاء عباد الرحمن:

(لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ (68))

(سورة الفرقان)

موحِّدون، والتوحيد أيها الأخوة كفكرة سهل ؛ أما أن تعيش التوحيد هذا شيءٌ يحتاج إلى جهد كبير، أن لا ترى مع الله أحداً هذه الرؤية تحتاج إلى أعمال، وإلى مجاهدة، وإلى تفكُّر، وإلى بحث، وإلى ملازمة، وإلى صدق، أما أن تسمع أنه لا إله إلا الله، فسماع الفكرة سهل، ربنا عزّ وجل قال:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ(19))

(سورة محمد)

لم يقل: فاسمع، لم يقل: فقُم، بل قال: فَاعْلَمْ، فالعلم يقتضي البحث، فإذا رأيت أنه لا إله إلا الله، وأنه ليس مع الله أحد، هذا هو التوحيد، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، والتوحيد نهاية العِلم، فنهاية النهاية أن لا ترى مع الله أحداً، فإذا رأيت زيداً أو عبيداً، وفلاناً أو علاناً، وفلان بيده الأمر الفُلاني، فلان بيده أن ينفع، فلان بيده أن يضُر، هذا هو الشرك.

أما عباد الرحمن:

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ (68))

(سورة الفرقان)

نفي الزنا عن المؤمنين أبلغ من نهيهم عن الزنا:

هناك أشخاص كلّما رأوا حشرة داسوها بأقدامهم، من دون تحقّق، من دون تَبَصُّر، هذه تُقْتَل، هذه لا تُقْتَل، هذه يجوز قتلها هذه لا يجوز، هكذا، من دون وعي ؟ المؤمن وقّاف عند شرع الله، يسأل: هل يجوز قتل هذه الحشرة أم لا يجوز ؟ قال تعالى:

(وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ (68))

(سورة الفرقان)

هذه (لا) نافية، ونفي الزنا عن المؤمنين أبلغ من نهيهم عن الزنا، إذا نهيت إنساناً عن الزنا فكأن الزنا داخلٌ في حساباته، إذا نهيت موظّفاً عن التأخُّر فكأن التأخُّر من عادته، أو كأن التأخُّر محتمل أو ممكن،

لكنّك إذا نفيت عنه الشيء هذا أبلغ من النهي عنه، ففرقٌ بين النهي وبين النفي، ربنا عزّ وجل يقول:

(وَلَا يَزْنُونَ (68))

(سورة الفرقان)

وإن زنا وإن سرق في بعض الأحاديث الشريفة هذه في الماضي، فالله سبحانه وتعالى يتوب عن المؤمن وإن كان له ماضٍ لا يرضاه، أما أن نتصور مؤمناً يزني هذا مستحيل، يستحيل بحقّ المؤمن ذلك، فهذه الآية تؤكِّد هذا المعنى، الله سبحانه وتعالى ينفي عنهم الزنا:

(وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68))

(سورة الفرقان)

يلقى الإثم، يلقى البعد، يلقى الحرمان، يلقى اللعنة من الله عزّ وجل، قال تعالى:

(يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69))

(سورة الفرقان)

أحياناً غفلة يسيرة عن الحق تسوق الإنسان إلى النار:

المعصية تنتهي بالهَوان، ربما كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ثلاثًا ألا إنّ عَمَلَ النّار سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[مسند أحمد عن ابن عبّاس]

إذا الإنسان أعطى نفسه ما تشتهي، استرخى، أطلق للسانه العِنان، أطلق لعينيه العنان نظر بهما إلى الحرام، تكلّم بما يعنيه وما لا يعنيه، بما يجوز وما لا يجوز، بما هو حق وبما هو باطل:

((إنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ثلاثًا ألا إنّ عَمَلَ النّار سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[مسند أحمد عن ابن عبّاس]

غفلة يسيرة تسوق الإنسان إلى النار.

((دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النّارَ فِي هِرّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ))

[صحيح البخاري عن أبي هريرة]

هرّة حبستها:

((إنّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ: هِيَ فِي النّارِ))

[مسند أحمد عن أبي هريرة]

((إنّ عَمَلَ الْجَنّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ، إنّ عَمَلَ النّار سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

[أحمد عن ابن عباس]

الله سبحانه وتعالى كلّما أعطانا صورةً من صور العذاب بيّن سبيل النجاة:

الأمور بخواتيمها، طبعاً ربّما رأيت الفاجر مُرتاحاً، غير مقيّد، غير ملتزم، يفعل ما يشاء، يلتقي مع من يشاء، يذهب إلى أي مكانٍ يشاء، يجلس مع النساء من دون تحفُّظ، من دون اهتمام، يطلق بصره، يطلق لسانه، يستمع إلى ما يشاء، هذه الحريّة هي تَفَلّت وليست حريّة، ولكن الثمن باهظ، أما هذا الذي خاف الله، حفظ رأسه وما وعى، أي أنه حفظ جوارحه هذا ينتهي به المقام إلى جنّةٍ عرضها السماوات والأرض، ينتهي به المُقام إلى سعادةٍ في الدنيا والآخرة:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69))

(سورة الفرقان)

لكن الله سبحانه وتعالى كلّما أوعد الكفّار فتح لهم طريق التوبة، كلّما أعطانا صورةً من صور العذاب بيّن سبيل النجاة، قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا (70))

(سورة الفرقان)

التوبة هي إقلاعٌ وإصلاحٌ وعزمٌ وندمٌ وعلمٌ:

هذا الذي يقول: الله غفورٌ رحيم، هو ينسى أن هناك آيات دقيقة ثم إن ربك للذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات إن ربك من بعدها لغفورٌ رحيم، قال تعالى:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(49)وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ(50))

(سورة الحجر)

ربنا عزّ وجل يقول:

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا (70))

(سورة الفرقان)

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((الندم توبة))

[رواه الطبراني عن أبي هريرة]

العلماء يقولون: **" التوبة لا بدّ فيها من علمٍ، وحالٍ، وعمل "**، لا بدّ من علمٍ أوجب الشعور بالذنب، وإذا شعرت أنك مذنب نشأت عندك حالةٌ تسمّى حالة الندم، حالة الندم هذه تفضي إلى التوبة، إلى العمل، العمل له ثلاث أنواع: عمل متعلِّق بالماضي وهذا إصلاحٌ لما بدر منك في الماضي، وإقلاعٌ عن الذنب في الحاضر، وعزيمةٌ في المستقبل ألا تقع في هذا الذنب، هذه هي التوبة ؛ علمٌ وحال وعمل،

العلم يجب أن تقف عند حدود الله، يجب أن تعلم الحلال من الحرام وإلا لا تتوب، إذا أذنبت لا تكون التوبة إلا بعد العلم، والتوبة حال، هذا الحال ثمرة من ثمار العِلم، والحال سبب للعمل، العمل في الماضي يُصلح، وفي الحاضر يقلع، وفي المستقبل يعزم، إقلاعٌ وإصلاحٌ وعزمٌ وندمٌ وعلمٌ هذا معنى التوبة، والنبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه عن ربّه، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

[ذكره السيوطي في الجامع الصغير عن أنس]

لإنسان قبل التوبة متفلِّت لكن بعد التوبة صار وقّافاً عند كتاب الله:

إذا تاب العبد توبةً نصوحاً أنسى الله حافظيه وجوارحه وبقاع الأرض كلّها خطاياه وذنوبه.

قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ(53))

(سورة الزمر)

وقال:

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(70))

(سورة الفرقان)

هذه الآية تفسيرها سهل جداً، المؤمن قبل التوبة كيف يعامل الناس ؟ بالقسوة، بالظلم، بالبذاءة، بالاستعلاء، بأكل المال الحرام، كيف يعاملهم بعد التوبة ؟ بالاستقامة، بالرحمة، بالحلم، مثلاً زوجة كان زوجها ضالاً فاهتدى، بعد أن اهتدى أصبح يعرف حقّها وأصبح في غاية الأدب واللطف، قالت له مرّةً: أتذكر يوم كنت تغضب مني تلحقني بحطبةٍ تأخذها من الكانون ؟ هذا كان قبل التوبة، وبعد التوبة أصبح يعرف حقّها، أبداً في كل المصالح، الإنسان قبل التوبة متفلِّت، يريد المال من أي طريقٍ مشروع أو غير مشروع ؛ لكن بعد التوبة صار وقّافاً عند كتاب الله.

الإيمان والعمل الصالح هما التوبة النصوح:

هناك أمثلة كثيرة ؛ في العلاقات الزوجيّة، في علاقات العمل، في المِهَن، في الحِرَف، في الصناعة، في التجارة، في طلب العِلم، في النُزُهات، في الرحلات، في اللقاءات، في الحفلات، هناك سلوك قبل التوبة وسلوك بعد التوبة، لذلك هؤلاء التائبون أناسٌ آخرون، أنت إذا عرفت إنساناً قبل التوبة وبعدها تقول له: أنت إنسانٌ آخر، فلان الفلاني بعد التوبة غير فلان الفلاني قبل التوبة، هذا معنى قوله تعالى:

(فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ (70))

(سورة الفرقان)

كان زوجاً قاسياً أرعناً، يستخدم سلطته الزوجية استخداماً تعسُّفياً، بعد الإيمان صار زوجاً رحيماً، مثالياً، مُنصفاً في علاقاته مع أبنائه، كان أباً يؤثر نفسه على أولاده، بعد أن عرف الله صار يؤثر أولاده على نفسه، في أي علاقة، حتَّى في الحرفة كان غشّاشاً فأصبح نصوحاً، كان يكسب مالاً حراماً فأصبح كسبه حلالاً، كان يزيد في السعر لكل إنسان يجهل هذه البضاعة فأصبح مُنصفاً، أصبحت سيّئاته حسنات، أعماله السيئة التي كان يقترفها قبل الإيمان أصبحت أعمالاً صالحة:

(وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71))

(سورة الفرقان)

فالتوبة إلى الله وحده، والإيمان والعمل الصالح هما التوبة النصوح.

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ: للآية معنيان:

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

1 ـ المعنى الأول أي لا يشهدون شهادة الزور:

أي أنهم لا يشهدون شهادة الزور، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ قُلْنَا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ: أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ لا يَسْكُتُ))

[صحيح البخاري عن أبي بكرة عن أبيه]

هذا معنى.

2 ـ المعنى الثاني أي لا يحضرون مجلساً لا يرضي الله عزّ وجل:

المعنى الآخر: يشهدون الزور جلسة فيها باطل، حفلة فيها باطل، حفلة فيها معصية هذه زور، هذه كذب، هذه تُفضي إلى غضب الله عزّ وجل، لا يشهدون الزور، الزور هو الباطل، يشهدون الحق، مجلس علم يحضره ؛ لكن حفلة مختلطة لا يحضرها بل يغيب عنها، سُئل الإمام الجنيد: من ولي الله ؟

قال: **" الولي كل الولي ليس الولي الذي يمشي على وجه الماء، ولا الذي يطير في الهواء، ولكن الولي كل الولي الذي تجده عند الحلال والحرام ".**

أي أن يراك الله حيث أمرك وأن يفتقدك حيث نهاك، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ (72))

(سورة الفرقان)

اللغو كل ما سوى الله، الباطل.

الكريم هو من يحافظ على طهارته ونقاوته وعفافه:

قال تعالى:

(مَرُّوا كِرَامًا (72))

(سورة الفرقان)

الكريم يمر وينجو، لا يقع، مرّ كريماً أي حافظ على طهارته ونقاوته وعفافه، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

أي لا يشهدون شهادة الزور، وشيءٌ آخر لا يحضرون مجلساً لا يرضي الله عزّ وجل:

(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآَيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا(73))

(سورة الفرقان)

إن شاء الله تعالى في درسٍ قادم نتابع هذه الآيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الفرقان 025 - الدرس (13-13): تفسير الآية 63 - الأخيرة
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 16-06-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر والأخير من سورة الفرقان.

الإنسان إما أن يكون عبداً للرحمن وإما أن يكون عبداً للشيطان وشتان بين الاثنين:

نظراً لأهمية الآيات الأخيرة التي تنتهي بها سورة الفرقان والتي تتحدث عن عباد الرحمن نبدأ شرح هذه الآيات من أولها، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63))

(سورة الفرقان)

الإنسان إما أن يكون عبداً للرحمن، وإما أن يكون عبداً للشيطان، وقد وَرَدَ في القرآن الكريم أن الناس الكفار هم عبدة الطاغوت، فشتانَ بين أن يكون الإنسان عبداً للرحمن وبين أن يكون عبداً للشيطان، لو أنك درست أفكار هؤلاء وهؤلاء ونظرت إلى سلوكهم، لرأيت عبد الرحمن عبداً مُنيباً، عبداً طاهر القلب، عبداً مستقيم اللسان، عبداً طاهر الجوارح، عبداً صادقاً، عبداً أميناً، عبداً متواضعاً، عبداً يحبُّ الخير، يؤثر الناس على نفسه، إن كل صفات الخير يجب أن تكون في عباد الرحمن، وإن صفات الكِبْر والبُعد والجفوة والغلظة والأنانية والقسوة والظلم هي من صفات عباد الشيطان:

((َالنَّاسُ رَجُلَانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ))

[سنن الترمذي عن ابن عمر]

لا يستحق الإنسان أن يكون عبداً للرحمن إلا إذا انصاع لأوامر الرحمن:

الله سبحانه وتعالى في بعض الآيات يقول:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى(9)عَبْدًا إِذَا صَلَّى(10))

(سورة العلق)

فهذا الذين ينهى العباد عن الصلاة، هذا الذي ينهى عن الصلاة أرأيت إليه ؟ أنظرت إلى قلبه وما فيه من حقدٍ ؟ أنظرت إلى لسانه وما فيه من فُحْشٍ ؟ أنظرت إلى تفكيره وما فيه من سُقْمٍ ؟ أنظرت إلى أعضائه وما فيها من تطاولٍ ؟ أنظرت إليه ؟ سلوك المؤمن يكفيه دليلاً على أنه على الحق المبين، وسلوك الكافر المُنحرف وما فيه من عدوانٍ وانحرافٍ وتجاوزٍ يكفيه دليلاً على أنه منقطعٌ عن الله عزّ

وجل، فالله سبحانه وتعالى حينما شَرّفَ المؤمنين ونسبهم إلى ذاته فقال:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ (63))

(سورة الفرقان)

هذه النسبة تشريفٌ للإنسان فينبغي أن يرتقى إلى مستواها.

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

الحقيقة لا يستحق الإنسان أن يكون عبداً للرحمن إلا إذا انصاع بقلبه وعقله وحواسه وجوارحه، بعمله ونشاطاته، بلهوه وجده، بإقامته وسفره، بعزوبيّته وزواجه، بغناه وفقره، لا يستحق الإنسان أن يكون عبداً للرحمن إلا إذا انصاع لأوامر الرحمن، أن تكون عبداً للرحمن وأنت مقيمٌ على معصيته ؟ هذا من رابع المُستحيلات، أن تكون عبداً للرحمن ولك منهجٌ في الحياة ليس كمنهج الله عزّ وجل، هذا مستحيل، فكلمة عبد الرحمن أي انصاع طواعية والمحبة تملأ قلبه إلى كل أوامره ونواهيه، لذلك قال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام:

((طوبى لمن وسعته السُنَّة ولم تستهوه البدعة))

[الجامع الصغير]

هؤلاء هم عباد الرحمن.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لـعمري في المقال بـديع

لو كـان حبك صادقاً لأطعته إن الـمحب لمن يحب يطيـعُ

* * *

العبودية لله عزّ وجل والطاعة التامة له وأكمل مقامٍ للإنسان هو مقام العبودية:

قبل أن تقول: أنا من عباد الرحمن، وأنا عبدٌ للرحمن يجب أن تعلم أن العبودية تعني الطاعة التامة، وفي الإسلام منهجٌ تفصيلي لكل حركات الإنسان وسكناته، فمعنى العبودية لله عزّ وجل الطاعة التامة لله عزّ وجل.

في الحياة الإنسان أكمل مقامٍ يكون فيه هو مقام العبودية، هناك مقام الألوهية، وهناك مقام العبودية، فما دمت من بني البشر، ما دُمت مخلوقاً لله عزّ وجل فأكمل موقفٍ تقفه أن تكون عبداً لله، هذا الذي يقول: أنا، تجاوز مقام العبودية، هذا الذي يقول: فعلت وينسب الفعل إلى ذاته، تجاوز مقام العبودية، وهذا الذي يقول: عندي، تجاوز مقام العبودية، هذا الذي يقول: لي، تجاوز مقام العبودية، هذا الذي يرى لنفسه وجوداً مع الله عزّ وجل تجاوز مقام العبودية، هذا الذي يريد أن يحاسب الله على أفعاله تجاوز مقام

العبودية، مقام العبودية أن تكون طائعاً مستسلماً، راضياً لقسمة الله عزّ وجل، هذا الذي يعترض لحكم الله تجاوز مقام العبودية، هذا الذي لا يوقن أن كل أفعال الله رحمة تجاوز مقام العبودية، فالعبودية لله عزّ وجل تعني الاستسلام القلبي، واستسلام الجوارح والحواس، واستسلام الحركات والسكنات، واستسلام كل النشاطات إلى شرع الله وإلى أمره، لذلك لقبٌ كبير ومقامٌ عظيم ولكي تبلغه يجب أن تكون عبداً للرحمن.

يروى أن النبي عليه الصلاة والسلام وهو في سدرة المنتهى، سأل الله عزّ وجل أن يكون عبده، أي أن يكون في مستوى العبودية لله، وكلما عبدت الله عزّ وجل زادك الله رفعةً، وكلما عبدت غيره زادك الله ضعَةً، إما أن تكون عبداً لله، وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم.

إذا كنت عبداً لله فخير سيّدك لك وإذا كنت عبداً لغيره فخيرُك لسيدك:

العبودية لله تعني أن كل خير السيد لعبده ؛ بينما عبودية الإنسان تعني أن كل خير العبد لسيده، شتان بين أن تعبد الله وأن تعبد سواه، إذا عبدت الله فكل ما عند الله من خيرٍ هو لك ؛ من خيرٍ مادي وخيرٍ معنوي، من رفعةٍ، من طمأنينةٍ، من استقرارٍ، من حبورٍ، من سعادةٍ، إذا كنت عبداً لله فخير سيّدك لك، وإذا كنت عبداً لغيره فخيرُك لسيدك، هذه بعض المعاني التي تؤخذ من قول الله عزّ وجل:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ (63))

(سورة الفرقان)

إذا كنت عبداً للرحمن حقاً فَتِهْ بهذه العبودية، سبحانك إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، أتكون عبداً لله ويذلك الله عزّ وجل هذا مستحيل.

اجعل لربك كل عزك يستقر ويــثـبـت

فإذا اعـتـززت بمـن يموت فإن عزك ميت

* * *

يمشون على الأرض أي حركتهم ونشاطهم وتفاعلهم وهم على وجه الأرض:

قلت لكم في الدرس الماضي:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ (63))

(سورة الفرقان)

معنى يمشون على الأرض يمضون حياتهم على الأرض، في شبابهم، في رجولتهم، في كهولتهم، في شيخوختهم، إنهم يمشون على الأرض في عملهم، في راحتهم، في لهوهم، في جِدِّهِم، في إقامتهم، في

سفرهم، يمشون على الأرض أي أن حركتهم على وجه الأرض، نشاطهم على وجه الأرض، تفاعلهم وهم على وجه الأرض هذا معنى كلمة:

(يَمْشُونَ (63))

(سورة الفرقان)

وقال:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا(69))

(سورة النمل)

هوناً لا تعني أنه يمشي ببطء وإنما يمشي مشية من يرى أن الله يراقبه:

قال:

(يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

لهذه الكلمة معانٍ عِدّة، المعنى الأول: أنه يمشي مشية متواضعة على سجيته، وعلى طبيعته، من دون كِبْرٍ، ولا استعلاءٍ، ولا ميل عَطِفٍ، ولا شموخ أنفٍ، ولا تصعير خدٍ، مشية المؤمن مشية رائعة، مشيةٌ متواضعة، وصِفَ النبي عليه الصلاة والسلام في مشيته فقيل: إذا زال زالَ تَقَلُّعَاً، أي رفع رجله عن الأرض بقوة، إذا زالَ زال تقلعاً ويخطو تَكَفُّؤاً، أي يمشي بهدفٍ كبير، ويخطو تكفؤاً ويمشي هوناً في سكينةٍ ووقار، سريع المِشية، واسع الخطوة، إذا مشى فكأنما ينحطُ من صبب، من مرتفع، مشيةٌ جادة، كان عليه الصلاة والسلام إذا سار لم يلتفت، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه تقول عنه السيدة عائشة: **" ما رأيت أزهد منه كان إذا سار أسرع ".**

إذاً معنى هوناً لا تعني أنه يمشي ببطء، أي أنه يمشي مشية طبيعية، لا تكلف فيها، لا كبر فيها، لا تصعير خد، لا إمالة عطف، لا شموخ أنف، يمشي مشية متواضعة، يمشي مشية العباد لا مشية الآلهة، يمشي مشية من يرى أن الله يراقبه، هناك أناسٌ يُؤَلِّهون أنفسهم، هذا العبد المؤمن يمشي مشيةً متواضعة.

الهَوْن بالمعنى الثاني يعني أنهم يمشون باتجاه هدفٍ كبير:

شيءٌ آخر قال بعض العلماء: " يمشون هوناً أي في سكينةٍ ووقار، وفي حلمٍ وتواضع، وفي اقتصادٍ وتؤدَة، وفي حسن سَمْت، هذه المعاني كلها مستفادة من قول الله عزّ وجل:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

شيءٌ آخر الهَوْن بالمعنى الثاني هم يمشون باتجاه هدفٍ كبير، فدائماً يتفحّصون كل شيء، هل هذا الشيء في خدمة هذا الهدف أما أنه يعيقهم عن هدفهم ؟ إذا كنت متجهاً إلى بلد، وفي هذا البلد خيرٌ كبير، وأنت معلق أهميةً كبرى على وصولك لهذا البلد في الوقت المعيّن، فأي فرع في الطريق إذا دخلت فيه قد يحولُ بينك وبين الوصول في الوقت المناسب، وأي مركبةٍ أسرع من مركبتك قد تستقلها لتبلغ الهدف في وقتٍ مبكر، إنك إن فعلت هذا، هذا الذي يقصد هدفاً معيناً يتفحّص كل الوسائل إما أن تكون هذه الوسيلة إيجابيةً في نقله إلى هدفه وإما أن تكون سلبيةً، إما أن تزيده هذه الوسيلة قُرباً وإما أن تزيده بعداً، لذلك هو يقف، يفكّر، يتأمّل، يتفحّص، في كل حركاته، هل هذه الزوجة إذا خطبها وتزوجها تعينه على أمر دينه أم تبعده عن ربّه ؟ يأخذ قراره بالموافقة أو الرفض بناءً على علاقة الزوجة بوجهته إلى الله عزّ وجل.

البطولة أن تعرف ما ينفعك في النهاية:

هل هذه الحرفة تُسرع به الخُطا إلى الله أم أنها تبعده عن الله ؟ يتخذ قراراً بقبول هذه الحرفة أو رفضها في ضوء علاقتها بهدفه، هل هذا السفر إلى هذا البلد يزيده قرباً من الله أم بعداً عنه ؟ يتخذ قراره بالموافقة أو الرفض بناءً على علاقة هذا السفر بقربه من الله، هل السُكْنَى في هذا المنزل تعينه على بلوغه هدفه أم ربما بحسب الجو الموبوء المحيط به تبعده هذه السكنى عن الله عزّ وجل ؟ هل إذا حضر هذا الاحتفال يزيده قرباً من الله عزّ وجل أم بعداً عنه ؟ هوناً، يفكر، لا يندفع اندفاعاً أعمى، لا يندفع إلى ما يتراءى له أنه خير، يتفحص الخير بشكلٍ دقيق.

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

متبصرون، متأمِّلون، مدققون، محققون، هناك أشياء تَلْمَع ولكنها خطرة، وهناك أشياء لا تلمع ولكنها مفيدة، فعبد الرحمن لا يؤخذ بالوميض، يؤخذ بالحقيقة، فكم من شيءٍ يستهوي الناس هو عند الله دمارٌ لصاحبه، وكم من شيءٍ ينفِّر الناس هو عند الله خيرٌ لصاحبه، فالبطولة أن تعرف ما ينفعك في النهاية، حينما يشرف الإنسان على الموت، وحينما يأتيه ملك الموت، وحينما ينتقل من دار الغرور إلى دار الخلود عندئذٍ يعلم المؤمنون كيف أن طاعتهم لربهم وبعدهم عن شهوات الدنيا نفعتهم أيّما نفع.

معان متعددة لكلمة (هوناً):

بعض المفسرين قال: " يمشون على الأرض هوناً أي لا يفسدون في الأرض "، فمن أفسد في الأرض فهو لا يمشي هوناً، تسرّع، أفسد علاقات الناس بعضها ببعض، أفسد أخلاق الناس بكتابٍ ألّفَهُ، أفسد عقائد الناس بفكرٍ روّجَهُ، أفسد شعور الشباب بقصةٍ ماجنةٍ ألّفها، هؤلاء الذين يفسدون في أقوالهم، وفي أعمالهم، وفي كتاباتهم، وفي حركاتهم، هؤلاء لا يمشون على الأرض هوناً.

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا (63))

(سورة الفرقان)

بعضهم قال: **" هم الذي لا يمشون في إفسادٍ ومعصية، لا يعصي الله ولا يفسد العلاقات "**، هذا معنى هوناً، ابن عباسٍ رضي الله عنهما يقول: **" يمشون هوناً أي بالطاعة والمعروف والتواضع "، علماء آخرون فسروا هذه الآية يمشون هوناً: أي إن جَهِلَ عليهم جاهلٌ لا يجهلون "**، لا يستفزهم جاهل، لا يسمحون لإنسانٍ جاهل أن يستفزّهم، هم كالجبال رسوخاً، بعضهم قال: " يشمون هوناً أي لا يتكبرون "، هذه المعاني المتفرقة، يجمعها معنىً واحد وهو: أن علمهم بالله، وخوفهم منه، ومعرفتهم بأحكامه، وخشيتهم من عذابه وعقابه كل هذه المعاني مجتمعة تدفعهم لأن يكونوا كما وصفهم الله عزّ وجل يمشون على الأرض هوناً.

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63))

(سورة الفرقان)

قبل أن يقول: لن أحضر هذا الدرس، يجب أن يوازن الأرباح والخسائر، من أجل أن يجامل صديقاً ضَيَّعَ مجلس عِلم، ضيع درساً هو حلقةٌ في سلسلة، قبل أن يوافق على هذا المشروع الذي يُبْعِدُهُ عن مجالس العِلم يفكر تفكيراً سديداً أن حياته في طلب العلم، وأن سعادته أن يكون مع أهل الحق، فكيف يؤثر أن يغادر هذا المكان الطاهر، مكاناً جعل الله فيه الحق إلى مكانٍ كله فسقٌ ومعصية، قبل أن تغريك المغريات في السفر، قبل أن تسمع أن مئات الألوف تجمعها في عامٍ واحد في هذا البلد، امش هوناً، فكر في مصير المال إذا ضيّعت دينك.

الجهل أن تجهل ما عند الله من ثواب وعقاب وأن تجهل حقيقة الدنيا:

قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63))

(سورة الفرقان)

الجاهلون الذي لا يعرفون الله، قد يحصِّل الإنسان علم الدنيا، وهو عند الله جاهل، فالجهل أن تجهل ما عند الله من ثواب، وأن تجهل ما عنده من عقاب، وأن تجهل ما في أوامر الدين من حكمة، وأن تجهل حقيقة الدنيا، وأن تجهل أين كنت وإلى أين المصير ؟ وأن تجهل لماذا خلقت ؟ هذا هو الجهل، فلو حَصّلَ الإنسان أعلى شهادة ولم يكن بالمستوى المطلوب فهو جاهل، لذلك ربنا سبحانه وتعالى حينما وصف الكفار قال:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنْ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ(7))

(سورة الروم)

وقال:

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63))

(سورة الفرقان)

وقتهم ثمين، ليس عندهم وقتٌ يضيّعونه مع الجهلة، مع السُفهاء، والسلام هنا ليس من التسليم بل من السلامة، أي ينجون من جهل الجهلاء، ومن سَفَه السفهاء، ومن حُمق الحمقى، ومن ضلال الضالين، ومن خزعبلات المنجمين، يبتعدون عن هذه المجتمعات الموبوءة، عن أهل الفساد، عن أهل الجهل، عن أهل الانحراف، لا يلوّثون نفوسهم بمصاحبتهم.

الله سبحانه وتعالى جَلّت حكمته لا يجمع على عبده خوفين وأمنين:

قال تعالى:

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63))

(سورة الفرقان)

هذا الوقار وهذه الحكمة، وهذا التبصُّر الذي أنعم الله به عليهم بسبب عباداتهم التي يؤدّونها في الليل، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64))

(سورة الفرقان)

أي يصلون، يصلون صلاة الليل، وفي صلاة الليل الخير الكثير:

(إِنّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا(6))

(سورة المزمل)

وقال:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65))

(سورة الفرقان)

من علامة المؤمن أنه يخاف من الله عزّ وجل، هذا الذي يطمئن سوف يخاف، والذي يخاف سيطمئن، والله سبحانه وتعالى جَلّت حكمته لا يجمع على عبده خوفين وأمنين، إن أَمِنَهُ في الدنيا أخافه يوم القيامة، وإن خافه في الدنيا أمّنَهُ يوم القيامة، فمن علامات المؤمن أنه قلقٌ دوماً قلقاً مقدساً، يقلق على مكانته عند الله، هل هو كما ينبغي ؟ هل في عمله خلل ؟ هل في واجباته تقصير ؟ هل في نيّته شائبة، هل يرجو الدنيا وهو لا يدري ؟ يخافون، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((رأس الحكمة مخافة الله))

[من مختصر تفسير ابن كثير عن ابن عباس]

كل عذاب الدنيا ينتهي إلى أمدٍ معين لكن عذاب جهنم عذابٌ أبديٌّ سرمدي:

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ (65))

(سورة الفرقان)

سيدنا علي رضي الله عنه يقول مخاطباً ابنه الحسن: **" يا بُني ما خيرٌ بعده النار بخيْر، وما شرٌّ بعده الجنة بشر، وكل نعيمٍ دون الجنة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية".**

(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65))

(سورة الفرقان)

أي كان عذاباً ملازماً، العذاب في الدنيا يمضي، هذا المرض له آلامٌ تنتهي بعد أسبوع، وهذه الحُمّى فيها حرارة مرتفعة تنتهي بعد يومين، وهذه العملية الجراحية فيها تخديرٌ وبعد التخدير آلامٌ لعشرين ساعةٍ تقريباً، فكل عذاب الدنيا ينتهي إلى أمدٍ معين، لكن عذاب جهنم عذابٌ أبديٌّ سرمدي:

(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66))

(سورة الفرقان)

أسوأ مكانٍ يقيم فيه الإنسان أن يكون من أهل النار، وأسوأ مكانٍ يقيم فيه الإنسان وأسوأ مكانٍ يستقر به هو أن يكون من أهل النار، ما شرٌّ بعد الجنة بشر، وما خيرٌ بعد النار بخير، وكل نعيمٍ دون الجنة محقور، وكل بلاءٍ دون النار عافية.

المعاني المتعددة لكلمتي (إسراف) و (تقتير):

قال تعالى:

(إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا (67))

(سورة الفرقان)

ورد في هذه الآية تفسيراتٌ كثيرة، قال بعض العلماء: " من أنفق في غير طاعة الله درهماً واحداً فهو إسراف، ومن أمسك درهمه عن طاعة الله فهو تقتير "، إذا أنفقت درهماً واحداً في غير طاعة الله فهو إسراف، وإذا أمسكت الإنفاق عن طاعة الله فهو تقتير، أما الإنفاق الذي وصفه الله عزّ وجل بأنه قوام أن تنفق في طاعة الله ولا إسراف في الخير، إن كان لا خير في الإسراف فلا إسراف في الخير، هذا المعنى الأول.

بعضهم قال: **" من أنفق مئة ألف درهمٍ في حقٍ فليس مسرفاً، ومن أنفق درهماً واحداً في غير حقٍ فقد أسرف، ومن منع من حقٍ فقد قتّر "**، هذا هو المعنى الثاني لمعنى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67))

(سورة الفرقان)

بعضهم قال: **" النفقة في معصية الله أمرٌ مُحَظور في الشريعة قليله وكثيره، ولكن الآية تنصرف إلى المُباحات "**، أي في شراء الطعام، في شراء اللباس، في تزيين البَيت، في فرش البيت، في هذه المُباحات التي أُبيحت للمؤمنين، المؤمنون إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا، في شراء الطعام أو في شراء اللباس أو في شراء الحاجات، بينَ بين، بين الحِرمان وبين البذخ، هذا ما قاله بعض العلماء: **" إن هذه الآية تنصرف إلى المباحات وحدها، لأن إنفاق المال في معصية الله محرمٌ شرعاً، قليله وكثيره، جليله وحقيره "**، ولكن الآية تنصرف إلى المباحات فقط.

إذا أنفقت نفقةً على حساب أصحاب الحقوق فهذا إسراف وإذا قصّرْتَ عنهم فهذا تقتير:

بعضهم قال:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا (67))

(سورة الفرقان)

أن لا يفرط في الإنفاق فيضيّع أصحاب الحقوق، امرأتك لها عليك حق، أولادك لهم عليك حق، فإذا أنفقت مسرفاً في وجهٍ آخر على حساب أصحاب الحقوق فهذا إسراف، وإذا قَصّرْتَ في إعطاء من لهم حقٌ عليك فهذا تقتير، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله))

[الجامع الصغير عن جبير بن مطعم]

فهناك أصحاب الحقوق، زوجتك لها عليك حق، أولادك لهم عليك حق، والدُك ووالدتك لهما عليك حق، إخوتك لهم عليك حق، أخواتك لهم عليك حق، جيرانك لهم عليك حق، فإذا أنفقت نفقة على حساب أصحاب الحقوق فهذا إسراف، وإذا قصّرْتَ عن أصحاب الحقوق فهذا تقتير،والموقف الأكمل أن تكون

بين الإسراف والتقتير، بعضهم قال:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا (67))

(سورة الفرقان)

هذه الآية تطبق على كل واحدٍ من الناس بحسب حاله، فكل إنسان له مستوى في الدخل، وله مستوى في كسب المال، وله مستوى في الإنفاق، وله مستوى في المَعيشة، فبحسب حاله، وعياله، وخفة ظهره، وصبره، وجلده على الكسب، وصبره في الدين، هذه العوامل يجب أن تجتمع، هناك من إذا قتَّر الله عليه لا يصبر، فهذا إذا أنفق كل ماله نقول له: قف إنك إن أنفقت مالك كله ربما اختل توازنك في الإيمان، ربما كفرت بالله، فالنبي عليه الصلاة والسلام لم يأخذ إلا من سيدنا الصديق مالّه كله، قال:

" يا أبا بكر ماذا أبقيت لنفسك ؟ " قال: " الله ورسوله ".

عوامل خاصة تتحكم في مقدار الإسراف والتقتير:

يجب أن تعرف مدى باعِكَ في الدين، أنت بأي مستوى ؟ هل إذا أنفقت كل مالك وأصبت بفقرٍ شديد هل تصبر أم لا تصبر ؟ إن كنت لا تصبر فلا ينبغي أن تنفق مالك كله، من كان في دينه رقّة أو ضعف لا ينبغي له أن يتهوّر في إنفاق المال، هذه واحدة، فبحسب صبره في الدين، وبحسب صبره في النواحي الأخرى، هناك من له طريقة خاصة في الحياة لا يستطيع أن يغيّرَهَا، يحب أن يكون بيته كذا وكذا، ودخله كذا وكذا، وطعامه كذا وكذا، إلى هذا المستوى، فهذا أيضاً له طريقة في الإنفاق، هذا عامل ثانٍ، العامل الثالث الدخل، الدخل له علاقة بالإسراف وبالتقتير، والعامل الرابع طبيعة عياله، وطبيعة مجتمعه، إذاً هناك عوامل خاصة تتحكم في مقدار الإسراف والتقتير.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67))

(سورة الفرقان)

أحد العلماء يقول: " ألا يُجيع ولا يُعري، ما هي النفقة المعتدلة ؟ ألا يجيع من لهم عليه حق ولا يعريهم من الكسوة، ولا ينفق نفقةً يقول الناس عنه لقد أسرف " فإذا أقمت احتفالاً وبذلت فيه مئات الألوف، وأنت بهذا المال تستطيع أن تؤوي عشرات الشباب في منازل، إن هذه النفقة يقول عنها الناس: إنها إسراف، ربما لو قيست إلى مستواك ليست إسرافاً، ولكن لو قيست إلى الحِسّ العام هذا إسراف، فإبراهيم النخعي العالم الجليل يقول: **" القوام أن لا تجيع ولا تعري، وألا تنفق نفقة يقول الناس عنها إنها إسراف "**، هذا معنى قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67))

(سورة الفرقان)

مقياسٌ آخر من مقاييس التقتير والإسراف:

بعضهم يقول:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا (67))

(سورة الفرقان)

أي لا يلبسون الثياب للتجَمُّل، ولا يأكلون الطعام للذّة، بل يلبسون الثياب لتستر عوراتهم وتقيهم الحرّ والقر، ويأكلون الطعام ليدفعوا عنهم ألم الجوع وليتقووا به على طاعة الله عزّ وجل، هذا مقياسٌ آخر من مقاييس قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67))

(سورة الفرقان)

عبد المَلك بن مروان سأل سيدنا عمر بن عبد العزيز حينما زوّجه ابنته فاطمة، قال: " يا عمر ما نفقتك؟ " ما مستوى دخلك ؟ كيف ستنفق على ابنتي ؟ ما نفقتك ؟ فقال عمر رضي الله عنه: " حسنةٌ بين سيّئتين " السيئة الأولى لم يسرفوا، والسيئة الثانية لم يقتروا.

(وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67))

(سورة الفرقان)

كانت إجابته مستوحاةً من هذه الآية الكريمة، سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: " كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهي شيئاً إلا اشتراه وأكله "، لمجرد أن تشتهي هذا الطعام تشتريه وتأكله، هكذا قال سيدنا عمر، وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((إِنّ مِنَ السّرَفِ أَنْ تَأْكُلَ كُلّ مَا اشْتَهَيْتَ))

[سنن الدارمي عن أنس بن مالك]

القوام هو العَدْلُ وأن تبلغ بالنفقة الهدف وأن تكون مالكاً لحالك:

يجب أن تأكل كلما جُعْتَ لا كل ما اشتهيت، نحن قومٌ لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع، ليس المعنى أنه مهما أكلنا لا نشبع.

أحد العلماء يقول: **"لا تكن ممن يجعلون كل رزقهم في بطونهم وعلى ظهورهم"** أي كل دخله طعام ولباس، أما الجنة وما تحتاج من إنفاق المال، إطعام الفقراء والمساكين، رعاية الأيتام والأرامل، الصدقات الجارية، هذه الأبواب الواسعة من الخير لا مادة لها في ميزانيّتهم، ميزانيتهم الطعام والشراب والكساء، يجعلون كل رزقهم في بطونهم وعلى ظهورهم.

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67))

(سورة الفرقان)

ما القوام ؟ القوام قال بعضهم: العَدْلُ، وبعضهم قال: القوام ما بلّغَكَ المقيل، سيدنا أبو عبيدة الجراح كان قائداً للجيوش الإسلامية في بلاد الشام، دخلوا عليه فرأوا في غرفته قدر ماءٍ مُغَطّى برغيف خبزٍ وهو جالسٌ على جلدٍ وسيفه معلقٌ على الحائط، فقالوا: " ما هذا ؟ " قال: **" ألا يبلغنا المقيل ؟ هو للدنيا وعلى الدنيا كثير ".**

القوام لابدّ من أن تأكل، لابدّ أن ترتدي ثياباً تستر عورتك، وأن تكون أنيقةً نظيفة، لا بدّ أن تنام على سرير، هذه الأشياء التي لا بد منها، هذا هو القوام، فقد يكون هناك بساطٌ، أو هناك أثاثٌ يحقق الهدف بخمسة آلاف، وهناك أثاثٌ آخر يجعلك تتيه على الناس إذا دخلوا إلى بيتك، هذا ثمنه خمسمئة ألف، فالذي يحقق الهدف من دون مَخْيَلَةٍ، من دون كِبْر، من دون أن تتيه على الناس، من دون أن تطلعهم على ما في بيتك فإذا هم صغار، طبعاً الغني المؤمن إنسانٌ فاضل، إنسان كريم، إنسان متواضع، لكن إذا دخلت على غنيٍ كافر لشعرت بالحرمان لأنه يتكبر عليك يقول سيدنا عمر:

" من دخل على الأغنياء خرج من عندهم وهو على الله ساخط ".

المقصود بالأغنياء ـ بهذا القول لسيدنا عمر ـ الأغنياء من غير المؤمنين، لكن الغني المؤمن متواضع يعرف قيمة النعمة، سخيٌّ، من حوله يحبونه لسخائه، القوام هو العَدْلُ، وأن تبلغ بالنفقة الهدف، وأن تكون مالكاً لحالك في بعض التفاسير.

صفات التحلية وصفات التخلية كما وردت في القرآن:

ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (67))

(سورة الفرقان)

قال: هذه الصفات كلها صفات التحلية، عباد الرحمن اقتبسوا هذه الصفات الكاملة من الرحمن، وأما صفات التخلية، هذه صفات التحلية، أما صفات التخلية:

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا(68))

(سورة الفرقان)

التوبة من لوازمها الإيمان والعمل الصالح:

روى الإمام مسلم في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ قَالَ أَنْ تَدْعُوَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ قَالَ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ قَالَ ثُمَّ أَيٌّ قَالَ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقَهَا (وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ))

[صحيح مسلم عن عبد الله]

(أَثَامًا)

هنا العقاب، أي يلقى عقاباً في الدنيا، وأما في الآخرة:

(يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (69))

(سورة الفرقان)

أي ذليلاً:

(إِلَّا (70))

(سورة الفرقان)

فتح باب الرحمة، فُتِحَ باب التوبة، قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا (70))

(سورة الفرقان)

إذاً التوبة من لوازمها الإيمان والعمل الصالح.

أوجه ما في هذه الآية تبديل السيئات حسنات في الدنيا:

قال تعالى:

(فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70))

(سورة الفرقان)

أوجه ما في هذه الآية تبديل السيئات حسنات في الدنيا، فخذ إنساناً وهو جاهل قبل أن يؤمن، قبل أن يعرف الله عزّ وجل، هذا الإنسان منحرف في أخلاقه، نظرته إلى النساء، لسانه في الغيبة والنميمة وقول الزور والبهتان والإفك والاستهزاء والفُحش والكذب، يده تبطش، عينه تزني، أذنه تزني، هذا الإنسان يأكل مال الناس بالباطل، يستعلي عليهم، هذه كلُّها سيّئات، هو نفسه لو أنه عرف الله عزّ وجل وتاب إليه توبةً نصوح، واستقام على أمره، يصبح متواضعاً، يصبح عفيفاً، يصبح وقّافاً عند كتاب الله،

يجعل دخله حلالاً، يضبط لسانه، كان يقسو على زوجته فأصبح رحيماً بها، كان يقسو على زبائنه فأصبح رحيماً بهم، كان يستعلي على من هو دونه، فأصبح يتواضع له، إذاً كل موقف سيئ في الجاهلية، بعد أن عرف الله واستقام على أمره وتاب توبة نصوحاً، أصبح هذا الموقف حسنة بعد الإيمان.

أما من يتوهم أن السيئات تنقلب إلى حسنات وأن الإنسان يوم القيامة يقول: يا ليتني أكثرت من السيئات لأنها أصبحت حسنات، هذا المعنى لا يستقيم، لكنه في الدنيا حينما يتوب إلى الله عزّ وجل توبة نصوحاً يبدل الله سيئاته حسنات، أي يهذب مشاعره، ويسمو قلبه، تسمو نفسه، تسمو أعضاؤه، يستقيم لسانه، تستقيم جوارحه، يطهر قلبه، يصبح عفيفاً، متجملاً، صبوراً، حليماً، متواضعاً، كل سيئاته من كبر، من استعلاء، من فحش، من بذاءة، من غيبة، من نميمة، من أكل مال بالحرام، كل هذه السيئات تنقلب إلى حسنات.

(فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (70))

(سورة الفرقان)

لن تكون توبتك صحيحةً ولا مقبولةً إلا إذا تبدّل عملك من عملٍ سيّئ إلى عملٍ صالح:

لكن الآية الثانية وقف عندها العلماء في حيرة:

(وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71))

(سورة الفرقان)

هذه متاباً مصدر، أي يتوب توبةً، والمصدر يأتي لتأكيد فعله، وكلّم الله موسى تكليماً، أكلت أكلاً، نجحت نجاحاً، فربنا عزّ وجل يؤكد أنه:

(وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71))

(سورة الفرقان)

أي لن تكون توبتك صحيحةً ولا نصوحاً ولا مقبولةً إلا إذا تبدّل عملك من عملٍ سيّئ إلى عملٍ صالح، لو ادّعيت أنك تائب هذه التوبة لا قيمة لها، علامة التوبة الصحيحة أن هناك تبدُّلاً جذرياً يطرأ على عملك، كان الناس يكرهونك فأصبحوا يحبونك، كانت أقوالك غير سديدة أصبحت سديدة، كان الكذب يفشو في حديثك فأصبح الصدق مكان الكذب، فإياك أن تظن أن توبتك نصوح، أو أن التوبة مقبولة، أو أن التوبة صحيحة ما لم يطرأ تبدلٌ جذريٌ على عملك، قال تعالى:

(وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71))

(سورة الفرقان)

هذه هي التوبة الصحيحة المقبولة، هذا هو المعنى.

الزور هو الباطل الذي يزخرف ويزيّن ليبدو أنه حق:

قال تعالى:

(وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (71) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72))

(سورة الفرقان)

تعريف الزور الباطل الذي زُوّرَ وزُخْرِف، كنظريةٍ باطلة لا أصل لها من الصحة، تشرح، وتفلسف، ويمهّد لها، ويضرب عليها شواهد إلى أن تبدو للناس الجهلة وكأنها صحيحة، فهذا هو الزور، الزور الباطل الذي يزخرف ويزيّن ليبدو أنه حق.

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

كل مجلسٍ فيه دعوةٌ باطلة لا يشهدونها، كل مجتمعٍ يزعم بأنه مجتمع راقٍ ؛ فيه اختلاطٌ، فيه مرونةٌ، فيه لباقة، هذا باطلٌ مزور، باطلٌ أُلبِسَ لباس الحق، هذا الباطل المؤمنون الصادقون لا يشهدونه، أحياناً دعوةٌ باطلة ينبغي أن لا تحضرها، أحياناً سلوكٌ باطل ينبغي أن لا تكون فيه، مجتمعٌ منحرف ينبغي أن لا تجالسهم، مقصفٌ فيه معاصٍ كثيرة ينبغي أن لا تكون فيه، هذا زور تحت اسم الحضارة والرفاه والتقدم، تحت اسم أن هذا اللقاء لقاء ودي ولقاء بريء بين الجنسين، هذا باطل مزور ينبغي أن لا تشهده.

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ: آية لها عدة معان:

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

كلمة بريء، وكلمة مَرِن، وكلمة واقعي، وكلمة متفتّح، هذه كلمات كلها كلمات تغطي الباطل بألفاظ مقبولة، فكل لقاءٍ، وكل حفلةٍ، وكل مجلسٍ، وكل نزهةٍ أساسها باطل غُطِّيَ هذا الباطل، قد يقول لك: سهرة مختلطة، لأن الإنسان بلغ من الرقي لا ينظر إلى زوجة صديقه إلا ببراءة، هذا باطلٌ مزوّر، لأن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان هذه الشهوة، فإذا انصرفت إلى غير الزوجة فهذا سلوك عدواني وباطل، فبعض المفسرين قالوا:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

أي مجلس فيه معصية، حفلة فيها مخالفة للشرع، ندوة أساسها باطل، مجموعة علماء يتباحثون في نظرية داروين، هذه نظرية كلها باطلة لأنها تنسف الدين من أساسه، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

لا على مستوى فكري، ولا على مستوى اجتماعي، ولا على مستوى فني، فن رفيع قائم على معصية، كيف يكون رفيعاً وهو يقوم على معصية ؟

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

هذا بعض معاني هذه الآية.

بعض معانيها الأخرى: الزور عند بعض المفسرين أعياد المشركين، كحفلات رأس الميلاد، المحلات كلها محجوزة، والعشاء فخم، وموسيقى راقصة، وهناك عري، ورقص، وأشياء كلها حرام، مسلم وتحجز لنفسك مكاناً في هذه الحفلة ؟!

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

إذا كنت في مجلس يُعَظَّمُ فيه إنسان من دون الله فهذا مجلس لا ينبغي أن تجلس فيه:

أعياد المشركين هكذا جاء في بعض التفاسير، تعظيم الأنداد، أي إذا كنت في مجلس يُعَظَّمُ فيه إنسان من دون الله فهذا لا ينبغي أن تجلس فيه، شيءٌ آخر الغناء:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

بعض العلماء قالوا: الغناء، لأنه يصرف الإنسان عن الله عزّ وجل، وقد يغريه بالمعصية، حفلة فيها لَعِب قمار:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

هذه من الزور أيضاً، حفلةٌ فيها جاهلية، هذه زور، فأي لقاءٍ، أي مجلسٍ، أية نزهةٍ، أي اختلاطٍ أساسه الباطل، أو أساسه الكذب، أو أساسه الانحراف، المؤمنون مبرّؤون عن حضور هذه المجالس، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ (72))

(سورة الفرقان)

بمعنى يحضرون.

المؤمن لا يشهد إلا بما رأى وإذا مرّ على حديث فيه غيبة مرّ كريماً:

المعنى الثاني لا يشهدون بمعنى يدلوا بشهادتهم، أي أنهم أيضاً لا يشهدون إلا بما رأوا، على مثل الشمس فاشهد وإلا فدع، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ألا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ قُلْنَا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ فَقَالَ أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ لا يَسْكُتُ))

[صحيح البخاري عن عبد الرحمن بن أبي بكر عن أبيه]

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72))

(سورة الفرقان)

اللغو ما سوى الله، اللغو الباطل، اللغو الدنيا، اللغو المعصية، حديث فيه غيبة مروا كراماً، لا يستمعون، لا يصغون، لا يدلون، لا يضيفون على هذه المعلومات معلومات جديدة، قال تعالى:

(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72))

(سورة الفرقان)

معنى كراماً تقول: حجرٌ كريم صافٍ، يحافظون على صفائهم، على طهرهم، على ذاتهم الراقية، يحافظون على استقامتهم، يحافظون على صلتهم بالله، يحافظون على علاقتهم به.

اللغو هو كل سقطٍ من قول أو عمل شائن أو منحط كالغناء واللهو وسفه المشركين:

قال تعالى:

(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72))

(سورة الفرقان)

سيدنا عمر كان يجلِدُ شاهد الزور أربعين جلدة، ويلطِّخ وجهه، ويحلق رأسه، ويُطاف به في الأسواق، وقال أكثر أهل العلم: **" شاهد الزور لا تقبل له شهادةٌ أبداً "**، اللغو عند بعض المفسرين: كل سقطٍ من قول أو عمل، عمل شائن، عمل قذر منحط، والغناء من اللغو، واللهو من اللغو، وسفه المشركين من اللغو، مسابقة ملكات الجمال مثلاً هذه من اللغو.

(وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (72))

(سورة الفرقان)

مُزاح المشركين من اللغو، ذكر النساء في الأحاديث من اللغو، المعاصي كلها من اللغو، كراماً أي معرضين منكرين لا يرضونه، ولا يمالئون عليه، ولا يجالسون أهله.

(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73))

(سورة الفرقان)

هذا القرآن يقرؤونه، يتفهمونه، يتدبرون آياته، يعقلونها، يقفون عند حدوده، يأتمرون بأمره، ينتهون عما نهى عنه، يصدِّقون وعده، يصدقون وعيده، شيء خطير، كلام الله رب العالمين، كلام خالق الكون، دستور الإنسان، منهجه، كيف يقرؤه هكذا ؟!

الزوجة الطائعة والأولاد الأبرار من النعم التي تعين على أمر الدنيا والدين:

قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73))

(سورة الفرقان)

بعضهم يقول: **" إذا تلوا كتاب الله في الصلاة لا يركعون ويسجدون وكأنهم ما قرؤوا شيئاً، يجعلون ركوعهم وسجودهم متعلقاً بهذه الآيات التي قرؤوها ".**

(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ (73))

(سورة الفرقان)

وهم في الصلاة:

(لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (73) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا(74))

(سورة الفرقان)

أي يا ربِّ هب لنا زوجات وأولاداً طائعين لك، يعينوننا على أمر الدنيا والدين، هذا التعبير الدقيق، هَبْ لنا زوجة طائعة وأولاداً أبراراً يطيعونك ويعينونا على أمر الدنيا والدين، النبي عليه الصلاة والسلام دعا لأحد أصحابه فقال:

((اللهم أكثر ولده وماله وبارك له فيه))

على الإنسان الطموح أن يكون داعية لله عز وجل في مقدمة الركب لا في مؤخرته:

الإنسان إذا بورك له في ولده وماله قرّت عينه، فالإنسان الذي أكرمه الله بزوجةٍ صالحة تقرُّ عينه، بمعنى لا ينظر إلى سواها، يراها منتهى آماله، أما إذا كانت شرسة، أو إذا كان في دينها رقّة فإنك

تتشوّق إلى زوجةٍ صالحة مؤمنة، فلذلك من الدعاء القرآني أن تقول:

(رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ (74))

(سورة الفرقان)

لذلك من سعادة المرء في الدنيا أن تكون زوجته صالحة، وأولاده أبراراً، وأن يكون رزقه في بلده، وأن يكون منزله واسعاً ومركبه وطيئاً.

الزوجة الصالحة هي الدنيا، الدنيا كلها متاع وخير متاعها المرأة الصالحة، بمعنى أنها مطيعة لله عزّ وجل، مطيعة لله، تأتمر بأمرك، تحفظ نفسها، تحفظ لك مالك، تصون بها بصرك عن محارم الله.

(هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74))

(سورة الفرقان)

هذا هو الطموح، كن داعية إلى الله عزّ وجل، كن إماماً للمتقين، كن قدوةً حسنة، كن مثلاً أعلى، كن آمراً بالمعروف، لا تكن في مؤخرة الركب كن في مقدمة الركب.

حتى تكون من عباد الرحمن لابدّ من أن تصبر ولابدّ من أن تُجاهد نفسك وهواك:

قال تعالى:

(وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74))

(سورة الفرقان)

((رَأَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ عَلَى طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ثَوْبًا مَصْبُوغًا وَهُوَ مُحْرِمٌ فَقَالَ عُمَرُ: مَا هَذَا الثَّوْبُ الْمَصْبُوغُ يَا طَلْحَةُ ؟ فَقَالَ طَلْحَةُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا هُوَ مَدَرٌ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّكُمْ أَيُّهَا الرَّهْطُ أَئِمَّةٌ يَقْتَدِي بِكُمُ النَّاسُ فَلَوْ أَنَّ رَجُلا جَاهِلا رَأَى هَذَا الثَّوْبَ لَقَالَ إِنَّ طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ كَانَ يَلْبَسُ الثِّيَابَ الْمُصَبَّغَةَ فِي الإِحْرَامِ فَلا تَلْبَسُوا أَيُّهَا الرَّهْطُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الثِّيَابِ الْمُصَبَّغَةِ))

[موطأ الإمام مالك وعن نافع مولى عمر بن الخطاب]

فإذا كنت أباً كن قدوةً صالحة لأولادك، إذا كنت معلم كن قدوةً صالحة لتلاميذك، إذا كنت في متجر، أو إذا كنت في معمل كن قدوةً صالحة لمن معك.

(وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74) أُولَئِكَ (75))

(سورة الفرقان)

أي عباد الرحمن:

(يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا (75))

(سورة الفرقان)

الغرفة المكان المرتفع، أي المرتبة العالية في الجنة، أي أن هؤلاء عباد الرحمن لهم أعلى المراتب بما صبروا، من أجل أن تكون من عباد الرحمن فلا بدّ من أن تصبر، لا بدّ من أن تُجاهد نفسك وهواك، والدليل هذه الآية.

أعظم تحيةٍ في الجنة أن يحييك الله سبحانه وتعالى:

يلقون من قبل الله عزّ وجل، وهل من تحيةٍ أعظم من أن يحييك الله سبحانه وتعالى:

(وَيُلَقَّوْنَ (75))

(سورة الفرقان)

في الجنة:

(فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (75) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (76))

(سورة الفرقان)

أما جهنم:

(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (66))

(سورة الفرقان)

آخر آية:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ (77))

(سورة الفرقان)

الله سبحانه وتعالى خلقنا ليسعدنا لذلك يدعونا لجنته ولرحمته سبحانه:

قال تعالى:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

[صحيح مسلم عن أبي ذر]

قال تعالى:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ (77))

(سورة الفرقان)

لولا أنه خلقكم ليسعدكم، لولا أنه يدعوكم لرحمته، لجنته، لولا هذه الدعوة، لو أن الناس كلهم كفروا ماذا يعني الله ذلك منهم:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ (77))

(سورة الفرقان)

بهذه الدعوة:

(فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (77))

(سورة الفرقان)

سوف يكون عذاب النار لهؤلاء المكذِّبين ضرورياً ولازماً لهم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (01-20): تفسير الآيات 1 - 9
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 23-06-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

سبب تسميتها سورة الشعراء:

أيها الإخوة المؤمنون، مع سورة جديدة من سور القرآن الكريم، إنها سورة الشعراء، وسميت سورةَ الشعراء لأن الله سبحانه وتعالى تحدث في مقطعها الأخير عن الشعراء.

أهم محاور السورة التوحيدُ:

وحقيقة هذه السورة تدور حول عدة محاور، أهم هذه المحاور التوحيد، ففي هذه السورة قوله تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

أحد أهم أسباب الشقاء الإنساني هو الشرك، ومحور الإيمان باليوم الآخر، ومحور تكذيب الكفار لهذه الرسالة، ومحور العواقب الوخيمة التي تنزل بالكفار حينما يكذبون رسالات الله، هذه بعض المحاور التي تحوم حولها هذه السورة، ومع الدرس الأول من سورة الشعراء.

بسم الله الرحمن الرحيم

(طسم)

الحروف المتقطعة ومعانيها:

ثمة سُور كثيرة تبدأ بحروف شبيهة بهذه الحروف، ألم، ألر، ق، كهيعص، هذه الحروف التي تفتتح بها بعض السور المفسرون لهم في تفسيرها مذاهب شتى، بعض المفسرين يقول: الله أعلم بمرادها، بعضهم يقول: إن القرآن الكريم صِيغَ من هذه الحروف، وهذه الحروف مبذولة لكل عربي، كما أن الإنسان خلق من طين والطين مبذول.

إذاً جعل الطين إنساناً، وجعل هذه الحروف قرآناً، إنها لمعجزة، المعنى الأول أن الله أعلم بمرادها، والمعنى الثاني أن سور القرآن الكريم نُظمت من هذه الحروف التي بين أيديكم، ومع ذلك يقول الله عز وجل:

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)

(سورة الإسراء)

نموذج هذه الحروف، بعض المفسرين يقول: إن هذه الحروف أوائل لأسماء الله تعالى، وبعضهم يقول: إن هذه الحروف أوائل لأسماء القرآن الكريم، بعضهم يقول: إن هذه الحروف أوائل لأسماء النبي عليه الصلاة والسلام، فالطاء تشير إلى أنه طاهر من كل ذنب وعيب، والسين إلى قدسيته، وأنه مصدر سلامة للبشر، والميم تشير إلى أنه محمود عند نفسه، وعند الله عز وجل، ومحمود عند الخلق، وبعضهم يقول: إن هذه الحروف اسم علم لهذه السورة، على كل كما قال الإمام علي كرم الله وجهه: **القرآن حمّال أوجه.**

لكن الذي يلفت النظر حينما تأتي في الأعم الأغلب يتبعها كاف الخطاب، تلك يا محمد، فكاف الخطاب التي تأتي بعدها ترجح أنها أوائل أسماء النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا قلنا الطاء ترمز إلى اسم من أسمائه، وهو أنه طاهر، والسين إلى أنه سليم من كل ذنب، أو إلى أنه مقدس، والميم إلى أنه محمود، ربما كانت هذه الحروف أوائل أسماء النبي عليه الصلاة والسلام، لأن أغلب السور المفتتحة بهذه الحروف يأتي بعدها الخطاب موجهاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام.

فإن شئت أن تقول: الله أعلم بمراده فقد أصبت، لأن بعض المفسرين هكذا قال، وإن شئت أن تقول: إن القرآن الكريم من جنس هذه الحروف، ومع ذلك تحدى بني البشر أن يستطيعوا أن يأتوا بآية واحدة أو بسورة واحدة أيضاً صحيح، وإن قلت: هذه الحروف أسماء الله تعالى فهي وجهة نظر مقبولة، وإن قلت: هذه الحروف أوائل أسماء النبي عليه الصلاة والسلام فهي أيضا وجهة نظر مقبولة، وإن قلت: إنها أوائل أسماء القرآن الكريم أيضاً صحيح، وبعضهم يقول الطاء إشارة إلى طوبى في الجنة،

(طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ)

(سورة الرعد)

والسين إشارة إلى سدرة المنتهى، والميم إشارة إلى محمد صلى الله عليه وسلم، على كل هناك ثلاث سور تبدأ بـ (طسم)اسمها الطواسيم، وهناك سبعة سور تبدأ بـ (حم)اسمها الحواميم.

هذا بعض ما جاء في التفاسير حول تفسير هذه الحروف.

(طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2))

القرآن الكريم واضح الإعجاز:

هذا الكتاب الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام عن ربه كتاب مبين، منهج مفصل، إعجازه واضح في نظمه، إعجازه واضح في مضمونه، إعجازه واضح في تشريعه، إعجازه واضح في الإشارات العلمية التي أشار إليها، إعجازه واضح في التوجيهات التربوية، في أخباره الغيبية.

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِين)

ويا أهل الكتاب إن جاء في كتبكم السابقة أنه لا بدّ أن يظهر نبي في آخر الزمان، ومعه كتاب من عند الله فتلك آيات الكتاب المبين، هذه هي الآيات، وهذا هو الكتاب.

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِين)

والمبين من أبان، وأبان بمعنى أظهر، البين البعد، فلأن القرآن آياته ظاهرة فهو مبين..

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِين)

هذه الآيات آيات الكتاب الذي أنزله الله عليك، يا طاهر القلب، يا سليماً من كل عيب، يا محموداً عند الخلق.

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

حرص الأنبياء على هداية أقوامهم:

باخع نفسك بمعنى مهلك نفسك، ما سبب أنه كاد يهلك عليه الصلاة والسلام ؟ لأن قومه لم يؤمنوا، ما الدافع الذي جعله يشقي نفسه،

(طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2))

(سورة طه)

تلك الآية مشابهة لهذه الآية، يا طاهراً من الذنوب، ويا هادياً إلى علام الغيوب، كما جاء في تفسير الرازي:

(طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2))

شقاء الأنبياء شقاء مقدس، آلام علوية بسبب رحمتهم بخلق الله، إذا أردنا أن نطبق هذه الآية علينا، يعني ما حجم رحمتنا ؟ هل إذا اهتدى الإنسان إلى الله عز وجل حلت مشكلاته فقط ؟ والناس لو أنهم تائهون، لو أنهم شاردون، لو أنهم ضالون ولو أنهم معذبون، أيرضيك أن تكون أنت سعيداً ؟ أيرضيك أن تكون مهتدياً والناس في ضلال ؟ أيرضيك أن تكون سعيداً والناس في شقاء ؟ أيرضيك أن تكون موصولاً بالله والناس في ضياع ؟

حرص المؤمن على هداية الناس:

كلما نمت الرحمة في قلب المؤمن اتسعت دائرة اهتمامه، فالذي تعنيه نفسه فقط هذا في مستوى أدنى، والذي تعنيه أسرته هذا في مستوى أرقى، والذي تعنيه أقاربه هذا في مستوى أرقى، وكلما ارتقى قلب المؤمن وكلما سمت نفسه، وكلما تجلى الله عليه بالرحمة اتسعت دائرة اهتماماته.

فالنبي عليه الصلاة والسلام بنص هذه الآية الكريمة كاد يهلك نفسه بشدة حرصه على قومه، فهذه مقياس لنا، الإنسان طبعاً له أولاد وزوجة وأقارب وإخوة وأخوات، له جيران، له زملاء في العمل، له أشخاص ينتمون إليه، له جيران يحيطون به، أبناء أمته، أبناء وطنه، الإنسانية جمعاء، هل يرضيه أن يكون وحده مهتدياً ؟ هل يرضيه أن يكون وحده سعيداً؟ هل يرضيه أن يكون وحده موصولاً ؟ إذا كان يرضيك ذلك ولا يعنيك أمر الناس فأنت في المستوى الأدنى الذي لا يُرضي الله عز وجل.

النبي عليه الصلاة والسلام نبي الرحمة، حينما وصل إلى الطائف وهاجمه أهلها هجوماً شديداً كذّبوه، واستهزؤوا به، وجاءه جبريل الأمين، وقال يا محمد: **أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين**، فقال:

((اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون))

فالإنسان المؤمن يستطيع أن يقيم موازنة بينه وبين هذه الحال، قد تقول أنا لست نبياً، لكن النبي عليه الصلاة والسلام يقول لك:

((إنّ اللّهَ أمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ))

(صحيح مسلم)

فكيف رحمتك بزوجك، قد تكون لك زوجة، تعجبك، وتؤدي لك واجبك أداءً تاماً، ولكنها لا تصلي، أيرضيك ذلك ؟ أترضى أن تعيش مع امرأة ترضيك وهي شقية ؟

قد يكون لك إخوة لا يصلّون، أو ليسوا ديّنين، أترضى أنت أن تكون سعيداً بربك موصولاً به، لك مجالس العلم و، أخواتك وإخوانك الذين هم من أبيك وأمك تائهون شاردون، أترتاح لهذا ؟

هذه الآية دقيقة جداً، يجب أن نخرج بها من ذواتنا، إذا أردت أن تسعد فأسِعد الآخرين، الإنسان أن يبقى نشاطه منصبّا على مصالحه، على كسب رزقه، على تأمين حاجاته، على تأمين حاجاته المادية من دون أن يرقى إلى مستوى آخر وهو أن يسعى لهداية الخلق،

((يا علي لأن يهدي الله بك قلب رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها))

((لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم))

((لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما طلعت عليه الشمس))

(أبو داود عن سهل بن سعد بلفظ: خير لك من حمر النعم)

فهذه الآية يجب أن تدفعنا للخروج من ذواتنا، إلى أن ننطلق إلى خدمة الخلق، لأن الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعيالهم، هذه الآية يجب أن تجعل من النبي عليه الصلاة والسلام قدوة لنا، أسوة لنا، أيرضيك أن تكون سعيداً في قوم أشقياء ؟ أيرضيك أن تكون في بحبوحة في قوم محرومين ؟ ورد في الأثر:

((والله ما آمن، والله ما آمن، والله ما آمن، من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائع وهو يعلم))

(الطبراني عن أنس)

أنت في بحبوحة، والناس في ضيق، أنت في بيت واسع، والناس يتمنون غرفة واحدة، ألا تتألم، النبي عليه الصلاة والسلام كاد أن يهلك نفسه لشدة رحمته بالخلق، فأين أنا من هذه الصفة ؟ اسأل نفسك هذا السؤال: أين أنا منها ؟ ولو على شكل مصغر فحرصك على هداية زوجك هذا نوع من الاقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام، حرصك على هداية ابنك هذا نوع من الاقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام، حرصك على هداية أمك وأبيك إن كانوا في ضلال، حرصك على هداية إخوتك وأخواتك وأصهارك وأبناء عمك وأبناء خالك وجيرانك وزملائك ومَن حولك.

فلذلك هذه الآية يجب أن تدفعنا للعمل الصالح، يجب أن تدفعنا إلى هداية الخلق، إلى نقلهم من الضياع إلى اللقاء، من الشقاء إلى السعادة، من الضلال إلى الهدى، وهذا يحتاج إلى جهد كبير، إلى جهد في كسب قلوبهم، وفتح صدورهم، إلى خدمتهم بادئ ذي بدء، إلى تقديم المعونة لهم، إلى حلّ مشكلاتهم، تمهيداً لأن تلقي عليهم الحق كما عرفك الله إياه، وهذه شهادة من قبل الحق بسيد الخلق.

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

أتلفت نفسك يا محمد، أشقيت نفسك يا محمد، بعض هذا الاهتمام، بعض هذا الحزن، بعض هذا الألم:

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (97) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (98) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ(99))

(سورة الحجر)

شهادة الله على حرص النبي عليه الصلاة والسلام على هداية قومه:

شيء آخر، هذه الآية فيها شهادة من قبل الحق بسيد الخلق، إذاً هو حريص كما قال الله عز وجل:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة)

لذلك قالوا عنه صلى الله عليه وسلم: **إنه أرحم الخلق بالخلق.**

سؤال: هل يخفق قلبك إذا رأيت شقاءً إنسانياً ؟ هل يخفق قلبك بالرحمة إذا رأيت حيواناً معذباً ؟ هل يخفق قلبك بالشفقة إن رأيت مريضاً يتألم ؟ إن رأيت مشرداً ؟ إن رأيت تائهاً ؟ إن رأيت جائعاً ؟ إن رأيت عرياناً ؟ أم تقول: مالي وله، الله كافي العباد، أم تندفع إلى خدمته، تندفع إلى إطعامه، تندفع إلى تلبية حاجته.

هذه الآية دقيقة جداً ربنا عز وجل جعله قدوة لنا، وأمرنا أن نقتدي به وأن نجعله لنا مثلاً أعلى.

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

كأن الله سبحانه وتعالى يسلّي نبيه فيقول: يا محمد ليس عليك هداهم، بعض هذا الحزن، بعض هذا الشقاء، بعض هذا الإهلاك، إن إيمانهم ليس عليك، وليس إيمانهم منوطاً بك، وليس إيمانهم متعلقاً بك، إنك مبلغ ليس غير، إنك مبشّر ليس غير، إنك نذير ليس غير، ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء، لست عليهم بوكيل، لست عليهم بحفيظ.

(فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23))

(سورة الغاشية)

الإنسان يحاسب نفسه، يقول: هذا النبي قدوة لنا، هل يرضيني أن أكون أنا مهتدِيًا وأخي الشقيق غارق في الضلال ؟ لا أكلمه، ولا يعنيني أمره، لا أسأله، لا أزوره، لا أسعى لهدايته، لا أتقرب إليه، ولا آخذ بيده، كما يقول معظم الناس، هذه الكلمة تصدر عن قلب قاس، هذه الكلمة تصدر عن إنسان يحب ذاته فقط، مادام قد اهتدى انتهى الأمر، النبي عليه الصلاة والسلام بدأت متاعبه حينما عرف ربه، حينما عرف ما عنده من خير كيف قومه في ضلال، كيف قومه في عمى، كيف قومه في بعد عن الله عز وجل، هو ذاق طعم القرب وطعم السعادة، هو في هذه الحالة وقومه تائهون.. وقومه ضالون، هل تبكي على الناس ؟ هل يؤلمك ضلالهم ؟ هل يشقيك بعدهم عن الله عز وجل ؟ هل تتمنى أن تنفق من مالك كل شيء نظير أن يهتدوا ؟ هل تبذل الدنيا من أجل الدين ؟ إذا ثبت لك أن هذا الإنسان إذا خدمته اقترب من الله عز وجل هل تبذل هذه الخدمة سخية في سبيل الله أم تضن بها؟

(لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

والله هذه الآية عظيمة، هي شهادة ومثل أعلى، وهي قدوة، وهي مقياس، وهي دافع يدفعنا إلى خدمة الخلق، تدفعنا إلى هدايتهم، تدفعنا إلى أن نعتني بهم، يدفعنا إلى أن نرحمهم، تدفعنا إلى أن نتألم لألمهم، أحياناً الإنسان يكون في بحبوحة قد يشقى الناس من حوله لا يهتم، ألست مؤمناً ! من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، الناس في ضيق شديد وأنت تقول: لا عليّ شيء، ليس هذا هو المنطق الصحيح.

(أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ)

(سورة يس 47)

قضية الإيمان هي بيد الله وحده:

الله جل وعلا يطمئن النبي عليه الصلاة والسلام أن قضية الإيمان هذه ليست عليك، لو شئت يا محمد لجعلتهم مهتدين قسراً، يعني بإمكان رئيس الجامعة أن ينجح جميع الطلاب بعمل بسيط جداً، وهو أن يوزع على الطلاب أوراق الإجابة مطبوع عليها الإجابة كاملة، ويكلفهم أن يكتبوا أسماءهم وأرقامهم، ويعطي علامة تامة لكل الطلاب، وبذلك ينجح كل الطلاب، ولكن هذا النجاح لا قيمة له لا عند الطلاب، ولا عند الناس، ولا عند الجامعة، نجاح مزور، أساسه الكذب، فالله سبحانه وتعالى في آيات كثيرة يقول:

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الأَرْض كُلُّهُمْ جَمِيعًا)

(سورة يونس 99)

(لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا)

(سورة الرعد 31)

ولكنه لا أقول: لم يشأ، ولكن شاءت مشيئته أن يكون الإنسان ذا مشيئة حرة، شاءت مشيئة الله أن يكون الإنسان حراً في اختياره، فلو ألزم لفقد الإنسان هويته، لألغي التكليف، ألغي الاختيار، ألغيت الأمانة، ألغي الثواب، ألغي العقاب، ألغيت الجنة والنار، ألغيت الكتب المنزلة، ألغيت الرسالات، انتهى كل شيء، الإنسان مخير، طبعاً مخير في دائرة محدودة، ومسير في دائرة أخرى، لكن الإنسان أن يبقى في الضلال، ويقول: هكذا شاء الله، هذا كذب وزور.

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام)

إذاً هذه دعوة كاذبة أن تقول: الله قدّر عليّ ذلك، سيدنا عمر كما قلت لكم كثيراً جاءه رجل شارب للخمر، فقال رضي الله عنه: **أقيموا عليه الحدّ**، فقال: والله يا أمير المؤمنين إنّ الله قدّر عليّ ذلك، فقال عمر رضي الله عنه: **أقيموا عليه الحدّ مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله**، وقال: **يا هذا إن قضاء الله لم يخرجك من الاختيار إلى الاضطرار.**

أنت مختار، مجرد الأمر والنهي يعني أنك مختار، لو ألزمناك أن تسير في طريق عرضه ستون سنتيمترًا بعرض كتفيك، وقلنا لك: خذ، فاليمين هذا أمر ليس له معنى، لا يكون للأمر معنى إلا إذا كنت في خيار، إلا إذا كان الطريق عريضاً بإمكانك أن تأخذ اليمين، أو تأخذ اليسار، لمجرد أن الله أمرك فأنت مخير، لمجرد أن الله نهاك فأنت مخير، ولمجرد أم المجرم يندم يوم القيامة على فعل الذنوب فهو

مخير، لو كان مجبراً على أن يفعل الذنب ما ندم المذنبون يوم القيامة، وقالوا هذا حظنا الله أجبرنا على ذلك.

(قُلْ فَلِلّهِ الْحُجّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ)

(سورة الأنعام)

(إِنْ نَشَأْ نُنَزّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السّمَاءِ آيَةً فَظَلّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)

الإيمان ليس قسريًا:

لو أن الناس كلهم أصيبوا بمرض واحد، وهو الشلل فرضاً، فإذا آمنوا بالله ذهب عنهم هذا المرض، إذاً يؤمنون جميعاً، وهذا إيمان قسري، أحياناً إنسان مع إنسان، واحد يكون قويًا، والآخر ضعيف، فيملي عليه أفكاره، فيعتنقها خوفاً من بطشه، هل هذا الاعتناق إيمان ؟ لا، إطلاقاً، هذا ترديد، لأنه يخاف بطشه، إذاً يقول ما يقول، هذا إيمان بدافع القسر والقهر، فربنا سبحانه وتعالى لو جعل الإيمان قسريًا، لو أجبر على الإيمان.. لو أن الإيمان الذي أساسه القوة يجدي، وينفع، ويسعد لفعله الله عز وجل، ولكنه لا يجدي، ولا ينفع، ولا يسعد.

فهذه الحقيقة الصارخة تفسر في ضوئها كل الآيات التي تقول:

(لَوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النّاسَ جَمِيعًا)

(سورة الرعد 31)

لا نقول: لم يشأ، ولكن مشيئته شاءت أن يكون الإنسان ذا مشيئة حرة، لأن هذه المشيئة الحرة تثمن عمله، لا يكون لعمله قيمة إلا إذا كان ذا مشيئة حرة، إن لم يكن ذا مشيئة كسبية فعمله لا قيمة له، لا يسعد به ولا يشقى به، لا يرقى به في الجنة ولا يهوي به في النار.

(إِنْ نَشَأْ نُنَزّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السّمَاءِ آيَةً فَظَلّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)

هذا الهدى القسري.

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ)

طريقة المشركين في مقابلة دعوة الأنبياء: الإعراض

يعني كلما جاءهم ذِكر أعرضوا عنه، والإعراض هو التكذيب، هنا معنى دقيق جداً ؛ هو أن الإنسان إذا أعرض عن الشيء فهو تكذيب حقيقي، لو فرضنا أنك أعرضت عن هذا المتكلم، وبقيت صامتاً لم تكذبه، ولم تجرحه، ولم تبين أنك غير معتقد به، فإعراضك عنه هو أحد أنواع التكذيب، بل هو أخطر

أنواع التكذيب، لأنك إذا ذكرت أنك غير معتقد به كان هناك مجال للمناقشة والحوار، أما إعراضك عنه فهو دليل التكذيب العملي.

فالإنسان ربما لا يقول: ليس هناك آخرة، أو لا يجرؤ إنسان في العالم الإسلامي على أن ينكر الآخرة، ولكن ألا يعمل الإنسان للآخرة فهذا تكذيب لها، أن يكون عمله للدنيا فقط، هذا تكذيب بالآخرة.. تكذيب عملي، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ)

الله اختار، لم يقل: من الله، ولا: من الغني، ولا من: القوي، بل قال:

(مِنَ الرَّحْمَنِ)

لأن هذا القرآن الكريم الذي جاءنا من الله عز وجل رحمة بنا أنزله على النبي عليه الصلاة والسلام، هذا التشريع الحكيم رحمة بنا، هذا النبي العظيم رحمة بنا، هذا الكتاب المبين رحمة بنا، إذاً:

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ)

معنى ذكر: أي يذكرهم بفطرتهم، الله سبحانه وتعالى جبلهم جبلة عالية، فطر الإنسان على معرفة الله، جعل هذه النفس البشرية لا ترتاح إلا إذا آمنت، لا يذهب عنها قلقها إلا إذا اتصلت بالله عز وجل، لا تسعد إلا إذا اصطلحت معه، لا تطمئن إلا إذا أطاعته، لا تحس بالنشوة إلا إذا أحست بقربه، هكذا النفس، لذلك لو أن إنسانًا أتيحت له الدنيا من كل أطرافها، ولم يعرف الله عز وجل فهو في شقاء، قد يستغرب الإنسان أن الغني الذي في غنًى لا يتصور أن يكون هذا أشقى الناس إذا كان بعيداً عن الله، لذلك:

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ)

كلمة ذكر: أنا أذكرك بشيء تعرفه، قد ألقي عليك شيئاً جديداً، وقد أذكرك بموعد جرى بيننا، تقول ذكرته ذكرته، فكلمة تذكير تعني أن الإنسان مفطور على حب الله عز وجل، وعلى الفطرة السليمة، يأتي التذكير معنى ذلك أن الفطرة السليمة التي فطرنا الله عليها هي فطرة تندفع إلى معرفة الله وطاعته، وإلى الاتصال به، قد تأتي الشهوات والهموم والأحزان والنواحي المادية فتطمس هذه الفطرة، ويأتي القرآن الكريم ليذكرنا بفطرتنا.

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ)

وهذا من أشدّ أنواع العجب ؛ أن تدعو الإنسان إلى حياته:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال 24)

أنت تدعى إلى أن تكون حياً لأن الضلال موت، والبعد عن الله موت، والذي يرتكب المعاصي هو ميت،

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)

(سورة الأنعام 122)

إذاً حينما الإنسان يدعى إلى الله عز وجل يُدعى ليحيا بعد أن كان ميتاً، يدعى ليستيقظ، كيف يعرض ؟ كيف لا يستجيب ؟ كيف يتلكأ ؟ كيف لا يفكر ؟ لم لا يفكر ؟ لم لا يحقق ؟ لم لا يتأمل ؟

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ)

الإعراض أخ الكذب.. أخ التكذيب، بل هو أخطر أنواع التكذيب، لقد زُرت طبيباً كتب لك وصفة، شكرته عليها، ونقدته أتعابه، وصافحته، وكنت في منتهى الأدب معه، لمجرد أنك لا تشتري هذه الوصفة فقد كذبت علمه، عدم شرائك لهذا الدواء طبعاً إذا كان موجوداً فأنت تكذب علمه، هذا تكذيب خطير، لذلك ربنا عز وجل لما قال:

(إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ)

إعراضك عن الحق، يعني إعراضك عن القرآن، إعراضك عن مجالس العلم، إعراضك عن بيان الحق، هذا نوع خطير من أنواع التكذيب.

(فَقَدْ كَذَّبُوا)

من نتائج الإعراض التكذيب:

داموا أعرضوا فقد كذبوا.

(إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (6))

الاستهزاء مآله الخسران:

أحياناً إذا كان جماعة راكبين في طائرة.. طائرة نقل جنود.. يوجد للسقوط قوانين، فإذا الإنسان عرف القوانين استخدم المظلة، ما هي المظلة ؟ هي تأدّب مع قوانين السقوط، حينما تنتشر المظلة لها طبعاً قماش كتيم لا ينقل الهواء، هذا القماش يجمع الهواء تحته فينشأ مقاومة لهذا الوزن فهذا المظلي ينزل إلى الأرض سالماً، فهذا الذي يستهزئ بقوانين السقوط.. يستهزئ بقوانين الهواء.. يستهزئ بقوانين الجاذبية، يحتقرها، ولا يبالي بها، ويلقي بنفسه من دون مظلة بعد دقائق أو خمس دقائق تتضح النتيجة:

(فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

طبعاً الذي تأدب مع قوانين السقوط، واستخدم المظلة نزل سالماً، والذي احتقرها، وكذبها، وألقى بنفسه من دون مظلة ينزل مكسراً، فالقضية قضية وقت فقط، عندما يعصي الإنسانُ اللهَ عز وجل، ويخالف شرعه، ويرتكب المحرمات، فهي قضية وقت فقط، لا بدّ أن يدفع الثمن، إما من سعادته الزوجية إذا أطلق بصره في الحرام، حيث يقول الله عز وجل له:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

وهو ينظر، ويقول: ماذا أفعل بعيوني، الطريق هكذا، ونحن في زمن صعب، فساد، والقضية الإيمان في القلب، إن الله جميل يحب الجمال، هذا استهزاء بهذه الآية، طبعاً سيدفع ثمن هذه المعصية شقاءً عائلياً أو زوجياً.

حينما يتعامل الإنسان خلاف الشرع في البيع والشراء سوف يدفع الثمن غالياً، فربنا عز وجل قال:

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

أيّ مخالفة للشرع ؛ إنْ في العبادات، أو في الآداب، أو في المعاملات، أو في المحرمات، أو في الحقوق والواجبات، أي مخالفة من هذا القبيل لا بدّ أن يدفع المخالف ثمنها باهظاً، ولكن بعد حين، فلذلك العاقل هو الذي يرى النتيجة قبل المقدمة، أما هذا الذي ينطلق من دون وعي ولا تريث ولا تبصر ولا تأمل هذا يخبط خبط عشواء.

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

ربنا عز وجل قال في آيات أخرى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

انظر إلى المرابي انتهى به المصير، من أكل مالاً حراماً انظر إلى مصيره، لا بدّ أن يتلفه الله عز وجل بعد أن يتلف ماله، انظر إلى من يخالف الشرع في علاقته الزوجية كيف يصبح أشقى الأزواج، انظر إلى من يخالف الشرع في علاقاته الاجتماعية كيف أن الله يفضحه في عقر داره، انظر:

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

فلذلك هذا قرآن، هذا كلام خالق الأكوان، هذا حق لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، هذا قطعي الثبوت، آياته في معظمها قطعية الدلالة، هذا قانون، هذا الكتاب فيه علاقات ثابتة لا تتبدل، ولا تتغير، ولا تعدل، ولا يزاد عليها، ولا يحذف منها، فإذا تعاملت مع كتاب الله فالأمر خطير جداً، تتعامل مع تعليمات الخالق، تعليمات الصانع، أنا هكذا أقول: هذه التوجيهات القرآنية تعليمات الصانع، فعندما يشتري الإنسان آلة غالية الثمن فهو حريص على سلامتها، وعلى مردودها العالي، هذا الحرص يدفعه إلى تنفيذ تعليمات الصانع مئة بالمئة.

فالقرآن الكريم من تعليمات الصانع، فأنت حينما لا تعبأ بأحكام الشرع إنك لا تعبأ بتوجيهات الصانع فالنتيجة حتماً خطيرة، العلاقة الآن دقيقة جداً.

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

آيات تدل على عظمة الله:

أي أليس أمامهم آيات دالة على عظمة الله، قبل أن نخوض في تفصيلات هذه الآية، هناك آيات تدل على أن الله عظيم وأنه يجب أن تعبده، ويجب أن تطيعه، ويجب ألاّ تكذب كتابه، فكأن الكون هو الدليل على الله عز وجل، إن كنت في حيرة، إن كنت في ضلال، إن كنت في شك، إن كنت في تردد، دونك الكون، هذا هو المعجزة، لو تأملت في خلق السماوات والأرض لعرفت ربك، وإذا عرفته عبدته، وإذا عبدته سعدت بقربه وانتهى الأمر.

ظاهرة النبات والأشجار:

أولم يروا ظاهرة النبات ظاهرة صارخة واضحة جلية كالشمس، هذه الأشجار أشجار للزينة، أشجار للظل هذه تزرع، وهي دائمة الخضرة، كأنها مظلة أوراقها صغيرة تتراقص مع الرياح، شيء جميل هذه الشجرة خلقت خصيصاً كي تستظل بها.

هناك أشجار من أجل أن تزين الجبال مثل الصنوبريات، أشجار صممت في بنيتها، وفي شكلها، وفي أوراقها، وفي ديمومة خضرتها من أجل أن تكون غابات، هذا تصميم الخالق.

هناك أشجار صممت من أجل أن تأكل من ثمارها، أنواع الأشجار المثمرة.

هناك أشجار صممت من أجل أن تستفيد من خشبها، هذا خشب زان لصنع الأثاث، هذا خشب كندي لصنع النوافذ، لم كان له هذه الخاصة ؟ لئلا يتأثر هذا الخشب بالماء، والمطر والهواء، والشمس، على العوارض الجوية يبقى محافظاً على استقامته، وعلى خصائصه، إذاً هذه الأشجار صممت خصيصاً لصنع النوافذ، وهذه الأشجار صممت خصيصاً لتكون أخشابها مرنة متينة لتلقي الصدمات، فالحداد يضع خشب التوت تحت سندانه، فإذا هوى بمطرقته على الحديد إن طبيعة هذا الخشب فيه ألياف متينة ومرنة تمتص هذه الصدمات.

هناك نباتات ذات أشواك، سماها علماء النبات نباتات حدودية.

هناك نباتات تعطيك الليف كي تتنظف به، هناك نباتات تعطيك السواك، هناك نباتات تعطيك الخلّة من أجل تنظيف الأسنان، ومن أجل معالجة بعض أمراض الكلية، هناك نباتات تتغذى من سوقها، هناك

نباتات تتغذى من أوراقها، هناك نباتات تتغذى من أزهارها، هناك نباتات تتغذى من ثمارها، هناك نباتات تتغذى من جذورها، البصليات كلها، هناك نباتات تُخزّن (القمح، والشعير، والحمص، والعدس)، محاصيل تنضج في وقت واحد، أما الفواكه فتنضج تباعاً، ولها برنامج زمني.

ظاهرة النبات وحدها والله الذي لا إله إلا هو لو فكر الإنسان فيها ملياً لأخذه العجب العجاب، كأن الله يقول: كيف تكذبون، وأمامكم هذه الظاهرة.

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

نظام الذكورة والأنوثة في الكون:

من جعل هذا النظام نظام التذكير والتأنيث في النباتات، في النبات الواحد أعضاء مذكرة وأعضاء مؤنثة، أو أشجار مذكرة كما هو في التين، وأشجار مؤنثة، وكما في الصنوبريات أشجار مذكرة وأشجار مؤنثة، أو أعضاء التذكير والتأنيث في النبات الواحد، من جعل هذا التزاوج فأعطاك هذه الفاكهة، انظر إلى التفاحة، وإلى حجمها المناسب، وشكلها الجميل، ورائحتها العطرة، وقوامها الذي يتناسب مع أسنانك، وطعمها الطيب، وغذاؤها، وسكرها، وفيتاميناتها، كلها مجتمعة في هذه الفاكهة، اللون، والشكل، والقوام، والطعم، والفائدة.

كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا دخل بيت الخلاء وخرج منه يقول:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى فيّ قوته وأذهب عني أذاه))

(الجامع الصغير عن ابن عمر بسند ضعيف)

فهذا الطعام فيه قوة، وفيه لذة، وفيه أذى، الأذى أذهب الله عنا الأذى بعد قضاء الحاجة، والقوة تحس بعد الطعام والشراب أنك قوي، فهذه قوة الغذاء، والطعم، فهناك من يأخذ مواد عن طريق الأوردة والشرايين، وهناك من يأكل ما لذّ وطاب من الأطعمة، إذاً في الطعام لذة وقوة وأذى، فالأذى أذهبه الله عنك، والقوة بقيت في جسمك، والطعم الطيب أذاقك الله إياه.

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

هذه الآية تكفيهم، فإذا لم يَجُل فكرُ الإنسانِ في هذه الآيات البينة فالطريق إلى الله غير سالك، لأن:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

(سورة الجاثية)

نحن في الدنيا لا نستطيع أن نرى الله عز وجل، لكن نستطيع أن نرى آثاره، الكون كله من آثاره، فإذا وقفنا عند الأثر عرفنا المؤثر، نظرنا إلى الكون عرفنا المكّوِن، نظرنا إلى النظام عرفنا المنظم، نظرنا

إلى الصنعة عرفنا الصانع، نظرنا إلى الخلق عرفنا الخالق، تعرف الصانع، والخالق، والمنظم، والمكوِّن، والمحكم من حكمته، والقدير من قدرته، والغني من غناه.

فيا أيها الإخوة الأكارم... باب واسع من أبواب معرفة الله عز وجل، وهو التأمل في خلق السماوات والأرض.

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

آية بين أيدينا تحت سمعنا وبصرنا، ظاهرة النبات فقط، نباتات زاحفة مثل البطيخ، نباتات متسلقة كالخيار والبندورة، نباتات عملاقة، نباتات على شكل أشجار، نباتات أرضية كالفريز، نباتات تحت الأرض كالكمأة، نباتات غالية، نباتات رخيصة، نباتات من أجل أن نأخذ منها الألوان، نباتات من أجل أن نأخذ منها الأدوية، الأدوية من النبات والألوان من النبات وبعض حاجاتنا من النبات، حتى هناك نباتات نصنع منها سبحاتنا، المسابح، هناك نباتات نستفيد منها كأواني لوضع الطعام كأنها نحاس، نباتات للحدود بين البساتين شوكيات كلها، نباتات معمِّرة، نباتات سريعة، النخلة تعيش ما يزيد على ستة آلاف عام، هناك نخيل من عهد الفراعنة ويعطي كل عام، هناك نباتات تعطينا الزيت، وهي الزيتون.

التفكر في الآيات آية آية، واللهِ حينما يأكل الإنسان يفكر، هذا كرز، وهذا تفاح، وهذا مشمش، وهذا إجاص، هذه خضار، هذه فواكه، هذه بقول، هذه محاصيل، هذه حبوب.

المؤمن يأكل ويفكر، ولكن الكافر يأكل كما تأكل الأنعام، والنار مثوىً لهم، الدواب تأكل، ولكن تأكل وكفى، أما المؤمن فيأكل ويفكر، وما جعل الله هذه النباتات إلا من أجل أن نفكِّر، بل إن هناك الأزهار التي هي مئات، بل ألوف الأنواع، الأبصال وحدها مئات الألوف، كل زهرة لها لون، ولها طبع خاص، هذه تحتاج إلى الشمس، وهذه إلى تيار الهواء، وهذه إلى الظل، وهذه إلى ماء غزير، وهذه إلى قليل، هذه تحتاج إلى منطقة مرتفعة وباردة، وهذه إلى دافئة، هذا نبات استوائي، كل نبات له طبيعة، أليس ظاهرة النبات آية دالة على عظمة الله عز وجل، فربنا عز وجل بعد أن ذكر تكذيب المكذبين قال:

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

لو رأينا هذه الآية لعرفنا الله عز وجل، وإذا عرفناه لا بدّ أن نعبده، ويستحيل أن نكذب، يعني كأن الطريق إلى الله عز وجل هو التفكر في خلق السماوات والأرض، هذه بداية الطريق.

كفر الإنسان بالآيات مع قوة وضوحها وعظمتها:

الذي يؤلم في هذا أن الآيات صارخة وواضحة.

(وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات)

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة يونس 101)

ومع ذلك وما كان أكثرهم مؤمنين.

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ(106))

(سورة المؤمنون)

آيات القرآن، أو آيات الأكوان، هذه تتلى قراءةً، وتلك تتلى تذكيراً،

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (104) أَلَمْ تَكُنْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (105) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ(106))

غلبت علينا شهواتنا، استعجلنا، واتبعنا الشيء العاجل.

(وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (106) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (107) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (108))

هذه النتيجة.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9))

من عاند الحق قصمه الله:

عزيز لا ينال جانبه، ورحيم لمن تاب، فهذه دعوة الله عز وجل، من عاند الحق قصمه الله عز وجل، من ركب رأسه أذله الله في العالمين، من أراد أن يحارب الله ورسوله بات في خسران مبين، من أراد أن يطفئ نور الله فلا بدّ أن ينهزم، لأن الله عز وجل يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)

(سورة الأنفال)

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

عزيز لا ينال جانبه، رحيم بخلقه، الحقيقة هذه السورة فيها ست قصص، وكل قصة تنتهي بهذه الآية:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (8) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (9))

ماذا قال الله عز وجل:

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(6))

إن شاء الله في الدرس القادم نتطرق إلى قصة سيدنا موسى مع فرعون، وكيف أن فرعون كذب سيدنا موسى، ثم كيف أن الله أهلكه، فجاءت الحوادث تؤكد دعوة سيدنا موسى، وتشير إلى تكذيب فرعون للنبي موسى، وكيف أنه دفع الثمن باهظاً، وهكذا قوم سيدنا إبراهيم، وقوم سيدنا موسى، وقوم سيدنا لوط، نبيًا بنبي، وقومًا بقوم.

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ (13) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآَيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (15) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17))

قصة سيدنا موسى مع فرعون، في الملخص في آخر القصة:

(فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (63) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآَخَرِينَ (64) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآَخَرِينَ (66) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (68) وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69))

إلى:

(وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآَخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101) فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104))

هذه الآيات تأتي بعد كل قصة، سبع قصص في هذه السورة تؤكد هذه الآية:

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

يجب على الإنسان أن يتعظ، كل قوم كفروا، وكذبوا أهلكهم الله عز وجل، وكل إنسان إلى آخر الدوران إذا كذب بالحق لا بدّ أن يهلك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (02-20): تفسير الآيات 10 - 21
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 30-06-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

إعادة وتذكير:

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثاني من سورة الشعراء، في الدرس الماضي بينت لكم بفضل الله عز وجل في قوله تعالى:

(وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (5) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ(6))

أن القصص التي يقصها ربنا علينا في هذه السورة كلها تؤكد هذه الآية:

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

العاقل هو الذي يستجيب لربه قبل أن يأتيه نبأ ما كان به مكذباً، فإما أن تستجيب في الوقت المناسب، وإما أن يأتيك نبأ ما كنت مكذباً به بعد فوات الأوان، عندئذ لا تلوي على شيء، ولات حين مناص.

القصة الأولى، والثانية، والثالثة، والرابعة، والخامسة كلها تؤكد:

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

العاقل من يرى نتائج الشيء قبل أن تقع، فإذا رآها بعد وقوعها ما قيمة هذه الرؤية ؟

التذكير نوعان: تذكير بالفكرة وتذكير بالقصة:

شيء آخر، التذكير إما أن يكون بالفكرة، وإما أن يكون بالقصة، والتذكير بالقصة أبلغ، لأن الإنسان من طبيعته أنه ينجذب إلى أحداث إنسانية، فربنا سبحانه وتعالى عبر بالفكرة فقال:

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

والآن يعبر عن هذه الفكرة مرة ثانية بالقصة، القصة كما قال الله عز وجل:

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود 120)

أحياناً يتثبت الإنسان من قصة وقعت، لأن القصة في حقيقتها حقيقة مع البرهان عليها، فالبرهان على هذه الآية هو هذه القصة، البرهان على قوله تعالى:

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

البرهان على هذه الآية هي هذه القصة، والتي تليها، فالعاقل هو الذي يعرف النتائج قبل وقوعها، لأنك إذا عرفت النتيجة قبل وقوعها تلافيت وقوعها، لكن الذي يعرف النتيجة بعد وقوعها لم يبق شيء في حياته يستفيد من هذا الدرس، كما حلّ الأمر بفرعون، حيث آمن بعد فوات الأوان، ربنا سبحانه وتعالى قال له:

(أالآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنْ الْمُفْسِدِينَ)

(سورة يونس)

المبادرة إلى الإيمان والعمل الصالح:

يا أيها الإخوة المؤمنون... الآن الآنَ، وليس بعد غدٍ، وليس بعد مضي سنوات طويلة، وليس في خريف العمر،

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ)

(سورة الحديد 16)

آمن بالله وأنت شاب، آمن بالله وأنت صحيح، آمن بالله وأنت قوي، آمن بالله وأنت غني، آمن بالله وفي العمر فسحة، آمن بالله في مقتبل الحياة من أجل أن يكرمك الله في خريف العمر، الآيات والقصص كلها من أجل أن تعرف النتيجة قبل وقوعها.

(فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

إن قيل لك: هذه المعاملة حرام فاستجب، واطلب الدليل من كتاب الله أو من سنة رسوله، واستجب، فإن لم تفعل جاءتك النتيجة المزعجة، جاءتك النتيجة المؤلمة، دفعت الثمن باهظاً، هذا القرآن حينما نتلوه ليس لإملاء الوقت، ولا للمتعة، ولا لأخذ المعلومات، ولا للاطلاع، إنه كتاب مصيري، يتحدد مصيرنا في ضوء فهمه، وفي ضوء معرفة مراميه البعيدة ومغازيه الجليلة، فربنا عز وجل يقول:

(وَكُلا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ)

(سورة هود 120)

حينما يقرأ الإنسان القصة يقرأ الحقيقة مع البرهان عليها، يعني قد نقول نحن: لا تفعل كذا وكذا فيأتي كذا وكذا، هذه فكرة، أما حينما نروي لك قصة إنسان خالف هذه التعليمات فدفع الثمن باهظاً هذه أبلغ، لأن الحقيقة التي تروى مجردة من القصة قد تصدقها أو لا تصدقها، لكن إذا سمعت القصة فكأن القصة وأحداثها برهان على هذه الفكرة النظرية.

الحكمة من تكرار القصص في القرآن:

شيء آخر، قد يسأل سائل: لماذا تكرار بعض القصص في القرآن الكريم ؟ سؤال: لماذا ربنا سبحانه وتعالى يعيد علينا القول ؟ قصة سيدنا موسى وردت في القرآن الكريم سبع عشرة مرة، الجواب الأول أن الرحمة تقتضي تكرار التذكير، يعني أنت **(ولله المثل الأعلى)** تنبه ابنك، وتحذره، وتأمره بالخير مرات كثيرة، لكن خصمك حينما يبلغك الدعوة يتمنى لو ألا يبلغك إلا مرة واحدة، ويتمنى من أعماق قلبه أن تبلغها دون أن تعرف مضمونها، فلعلك تتخلف عن حضور الجلسة فيأخذ خصمك حكماً غيابياً، فالتبليغ مرة واحدة لا ينطوي على رحمة، ولكن تكرار التبليغ والذكر هذا أساسه رحمة الله سبحانه وتعالى بالإنسان.

شيء آخر، وهذه فكرة مهمة جداً: القصة مجموعة حلقات، فربنا سبحانه وتعالى في كل مرة يعيد علينا القصة يبرز جانباً من جوانبها المتعلق بالسياق العام وبالسورة، لأوضح لكم ذلك بمثال، إذا تحدثنا عن قصة إنسان تزوج، قصة مطولة، واستشهدنا بهذه القصة مرات عديدة، في مرة استشهدنا بهذه القصة على أن طول فترة الخطبة هذا يعكر العلاقة بين الزوجين، وفي مرة ثانية ذكرنا هذه القصة، ولكننا سلطنا الضوء على حلقة أخرى، على أن نجاح الزواج ببيت مستقل، هي قصة طويلة، وفي المرة الثالثة ذكرنا هذه القصة، وأخذنا منها حلقة جديدة لنؤكد بها حقيقة جديدة.

فالذي يقرأ القرآن من غير وعي، من دون تدبر يتوهم أن هذه القصص تتكرر هكذا بلا سبب، مع أن تدبر كتاب الله عز وجل ينبئنا أن كل قصة لهذا النبي الكريم وردت في القرآن الكريم إنما وردت من زاوية جديدة، وإنما سلط الضوء على أحداث فريدة في هذه القصة.

إذاً التكرار أولاً بدافع الرحمة، وثانياً التكرار في ظاهره تكرار، وفي حقيقته تناول هذه القصة من زوايا متعددة، قد تنظر إلى جبل قاسيون من طريق درعا فله صورة، وقد تنظر إليه من طريق بيروت له شكل آخر، وقد تنظر إليه من طريق حمص، وله شكل ثالث، وقد تنظر إليه من طريق التل، وله شكل رابع، إن تكاتف هذه الزوايا يعطيك صورة مجسدة لهذا الجبل، فهذه الزوايا المختلفة ليست متناقضة، إنما هي متفانية، هذا كلام رب العالمين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

في هذه السورة سورة الشعراء وردت هذه القصة بشكل خاص، فالله سبحانه وتعالى يقول، وكأنه يطمئن النبي عليه الصلاة والسلام من أن العاقبة للمتقين، وأن لباطل جولة ثم يضمحل، يقول الله سبحانه وتعالى مخاطباً النبي عليه الصلاة والسلام:

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

قصة موسى مع فرعون:

مَن هم القومُ الظالمون ؟ قوم فرعون، الظالمون من معانيها أنهم ظلموا أنفسهم، أي إنسان ما عرف الله عز وجل، أو ما عرف نفسه بالله، ما حملها على طاعته، ما حملها على التقرب إليه، ما عرفها بحقيقة الدنيا فهو ظالم لنفسه مبين، وليس من ظلمٍ أشد، ولا أعظم، ولا أكبر من أن تبقي نفسك جاهلة تائهة شاردة ضالة لا تعرف حقيقة الحياة، أشد أنواع الظلم أن تظلم نفسك، أن تضيع عليها السعادة الأبدية، أن تجعلها تأتي يوم القيامة صفر اليدين، هذا أشد أنواع الظلم، أشد أنواع الظلم أن تعدّ العدة للحياة الدنيا فقط، فإذا جاء الموت كان كالصاعقة، هذا أشد أنواع الظلم، أشد أنواع الظلم أن تظن أن الله سبحانه وتعالى خلقنا عبثاً، أشد أنواع الظلم أن تظن أن الإنسان يترك سدى بلا حساب، أشد أنواع الظلم أن تعيش لحظتك، أن تقتنص اللذة من أي طريق وبأي ثمن، أشد أنواع الظلم أن تكون في عمى عن هذه الحقائق، قال:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

(سورة هود)

أشد أنواع الظلم أن تكون بعيداً عن حقائق القرآن الكريم، ألا تعرف لماذا أنت على هذه الأرض ؟ لماذا أنت في الدنيا، تعمل، وتعمل، وتعمل، لذلك ورد في الأثر القدسي:

((خلقت السماوات والأرض ولم أعي بخلقهن، أفيعييني رغيف أسوقه إليك كل حين ؟ وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً))

(ورد في الأثر)

أشد أنواع الظلم أن تمشي في طريق مسدود، أشد أنواع الظلم أن تمشي في طريق ينتهي إلى الهاوية، هذا ظلم.

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى)

ما ظلمت أنت أحداً، بل ظلمت نفسك، ولأن تظلم نفسك أشد عليك من أن تظلم الناس جميعاً، ضيعت على نفسك الجنة، ضيعت عليها أن ترى رب العالمين يوم القيامة،

(كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

(سورة المطففين)

هذا ظلم، وهل مِن ظلم أعظم مِن هذا الظلم ؟

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ)

أمرُ الله لموسى بالذهاب إلى فرعون:

قوم فرعون ظلموا أنفسهم، وظلموا أتباعهم، ذبحوا أبناء بني إسرائيل، واستحيوا نسائهم، ولكن هناك علاقة بين أن تظلم نفسك، وأن تظلم الآخرين، فمن ظلم نفسه يكون من نتائج هذا الظلم أن تظلم الآخرين، لأنه في عمى، يريد الدنيا بأي ثمن، يحب أن يأخذ ما، له وما ليس له، أن يأخذ ماله، ومال غيره، أن يستمتع بما هو مباح له وما هو غير مباح له، هذا هو الظلم، فمن لوازم ظلمك لنفسك ظلم الآخرين، عناك علاقة جدلية بين ظلم النفس وظلم الآخرين، فمن ظلم الآخرين فقد ظلم نفسه، ومن ظلم نفسه فقد ظلم الآخرين، هذه علاقة مستمرة.

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11))

أَلاَ يَتَّقُونَ

المعنى الأول: عجَبُ الله من قوم فرعون:

شيء عجيب، عَجَب عُجاب، الإنسان ألا يتقي، ألا يفكر، يفعل هذا الفعل وهو يعلم أنه معصية ألا يخاف الله رب العالمين الذي بيده كل شيء، بيده قلبه، بيده عيناه، بيده أذناه، بيده لسانه، بيده أعضاؤه، بيده شرايينه، بيده كليتاه، بيده عقله، بيده أهله وأولاده، بيده دخله، بيده صنعته، بيده من حوله، بيده من هم أقوى منه، بيده من هم أضعف منه.

(أَلَا يَتَّقُونَ)

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

*** * ***

الإنسان كيف لا يفكر، سيدنا النبي اللهم صلِّ عليه حينما أسلم سيدنا خالد رضي الله عنه قال عليه الصلاة والسلام:

((عجبت لك يا خالد أرى لك فكراً))

(ورد في الأثر)

يعني من لوازم العقل أن تؤمن بالله عز وجل، أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، من لوازم العقل أن تؤمن بالله، من لوازم التفكير أن تعرفه، من لوازم التفكير أن تستقيم على أمره.

(أَلَا يَتَّقُونَ)

الإنسان الذي يعمل عمل السوء باختياره، ويعرف النتيجة، ويراها أمامه في الآخرين، وهو لا يعي، أهذا إنسان ! أهذا مفكر ! أهذا إنسان عاقل ! كأن الله يعجب:

(أَلَا يَتَّقُونَ)

المعنى الثاني: عجب النبي عليه الصلاة والسلام:

أو أن النبي عليه الصلاة والسلام يعجب: ألا يتقون يا رب، كل هذا الوضوح.. وكل هذا الهدى، وهم يركبون رؤوسهم، يعبدون صنماً لا يضرهم ولا ينفعهم، يصدقون أن فرعون إله!!

(وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ (11) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12))

حقيقة خوف موسى عليه السلام من تكذيب قومه:

الحقيقة هناك من يفهم هذه الآية فهماً على خلاف ما أراده الله عز وجل، إن سيدنا موسى من أولي العزم، ولا يعقل نبي عظيم من أولي العزم أن يتنصل من هذه المهمة، أو أن يتهرّب منها، لا، لكنه يعلن ضعفه كي يستدر عطف الله عز وجل فيمده بالقوة، هو لا يتنصل، ولا يعتذر، ولا ينهزم، بل يقول:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)

يعني أن مُدّني يا رب بقوة من عندك، مُدّني بحجة من عندك، مُدّني بقلب ثابت، هو يعلن ضعفه، لذلك الإنسان إذا دعا ربه من لوازم الدعاء أن يعلن ضعفه، اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي وعلمي، والتجأت إلى حولك وقوتك وعلمك، اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا أقل من ذلك، إذا أردت أن تدعو الله عز وجل فتبرأ من حولك وقوتك، تبرأ من تدبيرك، تبرأ من ذكائك، تبرأ من حكمتك، تبرأ من خبرتك، تبرأ من معطياتك.

(قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (12) وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي)

وَلاَ يَنْطَلِقُ لِسَانِي

سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كان في لسانه حبسة، مرض يصيب النطق، هذا المرض أسبابه نفسية، يعني الإنسان أحياناً يتضايق فينحبس لسانه، هناك علاقة بين الضيق النفسي وهذه الحبسة، ربنا عز وجل قال في سور أخرى:

(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28))

فسيدنا موسى لم يكن فصيحاً في الدرجة العليا، ربما كان سيدنا هارون أفصح منه، مَن الأرقى عند الله عز وجل ؟ سيدنا موسى، إذاً هذا التفاصح، وهذا النطق، وهذا البيان وحده لا يكفي، سيدنا موسى هو النبي المرسل، وهو من أولي العزم، وفي لسانه عقدة، وفي نطقه حبسة، لا يقدم لا الطول ولا الطلاقة في الكلام، ولا وسامة الوجه، هذه أشياء لا تقدم ولا تؤخر، قد تسمع بأكبر جراح قلب في العالم لا تفكر أبداً بشكله، بل تفكر بخبرته، بيديه السحريتين، وبعلمه الكبير، قد يقال لك: هذا أكبر طبيب في العالم في جراحة القلب المفتوح، هل تفاجأ أنه قصير القامة، هل تزدريه إذا كان أسمر اللون، هل تزدريه إذا كان في رأسه قلة من الشعر ؟ هذه أشياء لا تقدم ولا تؤخر.

فهذا النبي الكريم عرف ربه وأحبه، واندفع إلى الدعوة إليه، أكان في لسانه حبسة أم لم يكن هذا شيء ثانوي لا يقدم ولا يؤخر، ومع ذلك قال: ويضيق صدري، وأخاف أن يكذبوني، فإذا كذبوني يا رب ضاقت نفسي، فأثّر هذا الضيق على لساني، فزاده تلعثماً، وازداد انحباساً.

(وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي)

هو لا يتهرب من هذه المهمة، لا ينسحب منها، لا يتنصل منها، ولكن يحتاط لها.

(وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ)

استعانة موسى بهارون:

هذا احتياط، لا إلى الداعي بل إلى الدعوة، لأن الدعوة عنده أعظم من الداعي، لو أنني أصابني العي، لو أنني انحبس لساني، لو أن عقدة ألجمت لساني يا رب، أرسل إلى هارون هو أفصح مني، فإذا تلعثمت، أي ارتبكت يأتي هارون فيبين لفرعون الحق الذي ندبتنا إليه يا رب العالمين.

(وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ)

شيء آخر، قال يا رب:

(وَلَهُمْ عَلَيّ ذَنْبٌ)

اعتذار موسى بالذنب الذي أصابه بقتل القبطي:

أنا لي عندهم سابقة، في قصة أخرى حينما لقي سيدنا موسى في الطريق قبطياً من حاشية فرعون وإسرائيلياً من بني قومه يتخاصمان، فوكزه موسى فقضى عليه، فولى هارباً، فهو عندهم قاتل، فقال:

(وَلَهُمْ عَلَيّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون)

ومرة ثانية سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام لا يتنصل، ولا ينسحب، ولا ينهزم، ولكن يحتاط، لا يحتاط لنفسه، ولكن يحتاط للدعوة، يقول: يا رب إذا قتلوني يكون أخي مكاني يتابع الدعوة، هل بعد هذا الحرص من حرص ! هل بعد هذا الحرص على نشر الدعوة حرص، إن تلعثمت يجيء هارون فيجيب عني، وإن قتلت يا رب يأتي هارون يتابع الدعوة من بعدي.

(وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون)

ربنا عز وجل برحمته الواسعة وحكمته طمأنه فقال:

(قَالَ كَلَّا)

طمأنة الله موسى:

لم يقل: لا، لأن (لا) غير (كلا)، (لا) تفيد النفي لا يفعله، لن يفعلوا ذلك هذه **(لا)**، قال: كلا، يعني هو ينفي له أن يقع ذلك ويردعه من أن يفكر في ذلك، قال تعالى:

(قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه)

يعني باللغة الدارجة: أين أنا ؟ رب العالمين، وفرعون قلبه بيده سبحانه، نفسه بيده، كن فيكون وزل فيزول، أين أنا ؟

(قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ)

معية الله سبحانه:

إذا كان الله معك فمن عليك وإذا كان عليك فمن معك، أبيات لصحاب هذا المقام:

كن مع الله تر الله معك   واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه   ثم من يعطي إذا ما منعك

***

هذا هو الإيمان.

(وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ)

(سورة الحج 18)

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر)

إذا أعطى الله أعطى، وإذا مَنعَ منعَ، لو أن الأمة اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو أن الأمة اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، هذا هو الإيمان، لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، هذا هو الإيمان، لا رافع إلا الله ولا خافض إلا الله، لا معطي إلا الله، ولا مانع إلا الله، لا معز إلا الله، ولا مذل إلا الله، لا قابض إلا الله، ولا باسط إلا الله، لا أحد غير الله.

(وَلَهُمْ عَلَيّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (14) قَالَ كَلّا)

لا تقل هذا يا موسى، أين أنا ؟، أنت رسولي، يعني كل آية موجهة للنبي عليه الصلاة والسلام فللمؤمن منها نصيب، أحياناً يقول المؤمن: أخاف من أن يحدث لي حادث، أنت مؤمن وأنت على الله غالٍ، والدليل:

(وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللّهِ وَأَحِبّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمّنْ خَلَقَ)

(سورة المائدة)

استنبط الإمام الشافعي أن الله لا يعذب أحبابه، أهكذا ظنك بالله عز وجل، النبي عليه الصلاة والسلام أُعطي دواء ذات الجنب فغضب صلى الله عليه وسلم وقال: ذاك مرض ما كان الله ليصيبني به، حياتك غالية على الله عز وجل، وسعادتك الزوجية غالية على الله عز وجل، وسلامتك غالية، وراحتك النفسية غالية، لك معاملة خاصة، أنت ولي لله، أنت في ظل الله ورعايته، لا يتخلى الله عنك، إذا كانت هذه لسيدنا موسى فلكل مؤمن منها نصيب، أين أنا يا موسى ؟ أنا معك، إذا كان الله معك فمن عليك، يجب أن تكون للمؤمن معنويات عالية، أحياناً مؤمن يخاف خطراً جاثماً بسبب تافه، أهكذا يفعل الله معك، لا، ادعُ الله أن يهبك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

هذه اللقطة من السيرة: هذا مرض ما كان الله ليصيبني به، أنت بشكل مصغر جداً أنت مؤمن، يعني الله سيهديهم، ويصلح بالهم، لا بدّ أن يصلح لك بالك، لا بدّ أن يطمئنك، لا بدّ أن يتجلى عليك، لا بدّ أن يريحك، لا بدّ أن يسعدك، لأنك عبده، يا داود: لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم لتقطعت أوصالهم من حبي، يا داود: هذه إرادتي في المعرضين فكيف إرادتي في المقبلين.

هذا الذي استقام على أمر الله، وقرأ كتاب الله، تحرى الحق في كسب المال وفي إنفاقه، عاكس نفسه، غض بصره عن محارم الله، خدم عباد الله، استمع إلى الحق، سعى برجليه ليحضر مجلس علم، أهكذا تظن بالله عز وجل، أنت لست على الله هيناً، هذا الذي هان الله عليه يهون على الله، لكن الله ليس عليه بهين، الله عندك عظيم، وإذا كان الله عندك عظيماً فأنت عنده مكرّم، الناس رجلان بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، فإذا كان الله عندك عظيماً فأنت عنده لست بهينٍ، اللهم احفظنا مما تحفظ

به عبادك الصالحين، أحياناً الإنسان تصيبه مصيبة كبيرة بسبب تافه، فالله عز وجل يحفظك، يحفظك من كل مكروه.

هذه الآية دقيقة:

(قالَ كَلّا فَاذْهَبا بِآَيَاتِنَا إِنّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ)

أنا معكم إله خالق السماوات والأرض، كن فيكون زل فيزول، يقول لك أنا معك، المؤمن الحق عندما ربنا عز وجل يقول:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(سورة النحل)

المؤمن يصدق هذا،

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدّنْيَا ثُمّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

ليس في كتاب الله من بشريات المؤمنين تصدقها، وتطمئن بها، وتشعر أنك أسعد الناس.

(فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

منهجية في الدعوة إلى الله:

قال شخص لخليفة من خلفاء بني أمية: سأعظك، وسأغلظ عليك، فقال له هذا الخليفة ولمَ: الغلظة يا أخي ؟ إن الله أرسل من هو خير منك إلى من هو شر مني، أرسل موسى إلى فرعون، ومع ذلك:

(فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً)

من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف.

فرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى، والذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

فرعون الذي قتّل أبناء بني إسرائيل، وذبحهم، واستحيى نساءهم، الله سبحانه وتعالى أرسل له موسى كي يؤمن، يعني لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم جئتني تائباً غفرتها ولا أبالي.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعًا إِنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ)

(سورة الزمر)

(فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

هدف الدعاة في الدعوة واحد:

فقولا: يا موسى ويا هارون، إنّا: (بالمثنى)رسول: بالمفرد، هذه لقطة ثانية، يعني الهدف واحد، ينبغي أن يكون الدعاة لهم هدف واحد، يجب ألا يختلفوا، يجب ألا يجرح بعضهم بعضاً، ما دام هذا الداعية يدعو إلى الله ورسوله وفق هذا الكتاب، وهذا الداعية يدعو إلى الله ورسوله وفق هذا الكتاب فلِمَ الخلاف ! ولِمَ المنافسة ! فقولا إنّا رسول: الهدف واحد، لذلك قول الصوفيين في أورادهم: إلهي أنت مقصودي، ورضاك هو مطلوبي، إذا قال كل داعية إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي لا بدّ أن يأتلفوا جميعاً، لا بدّ أن يلتقوا جميعاً، لا بدّ أن ينصر بعضهم بعضاً، لا بدّ أن يوقر بعضهم بعضاً، أما هذا التنافس، وهذه الخصومات وهذا التجريح لا يليق بالدعاة إطلاقاً.

(فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

إذا عزّ أخوك فكن أنت معه، كن تحت جناحه، كن في خدمته، لم المنافسة، يعني يجب أن يكون الهدف واحداً.

(فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (16) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (17))

يبدو أن دعوة سيدنا موسى كانت إلى قومه بني إسرائيل، لذلك ليس فرعون مقصوداً بهذه الدعوة بقدر ما هم مقصودون، أي بنو إسرائيل.

(أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)

محاولة موسى إخراج قومه من مأزق فرعون:

لا تذبح أبناءهم، لا تستحي نسائهم، أرسلهم معنا كي يعبدوا الله، بنو إسرائيل لهم أنبياء قبل سيدنا موسى، جاءهم سيدنا يوسف بالبينات، جاءهم إسرائيل، يعقوب، هؤلاء أنبياء بني إسرائيل، لكن امتداد الزمن جعلهم ينحرفون، جعل هذه الشعلة تخمد في نفوسهم، جعلهم يعصون ينحرفون يبتعدون يقصرون، أصبحت دينهم طقوساً، أصبح أعمالاً لا معنى لها، لذلك استحقوا أن يؤدبهم الله على يد فرعون، الظالم سوط الله ينتقم به، ثم ينتقم منه، فلما جاء سيدنا موسى لفرعون قال:

(أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)

نظر فرعون إلى سيدنا موسى، من هذا الذي يكلمني هذا الكلام ؟ فرعون الذي قال:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

فرعون الذي قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى)

حجج فرعون في ردّ دعوة موسى عليه السلام:

1 – تربية ونشأة موسى في بيت فرعون:

أتي شخص اسمه موسى كان من قبل ربيباً في قصر فرعون أي خادماً، وقد فعل فعلة نكراء، قتل قبطياً من حاشية فرعون، وولى هارباً، قال: أنت تقول لي أرسل معي بني إسرائيل، ألم نربك فينا وليداً ! ألم تكن طفلاً صغيراً عندنا ! ألم تأكل من هذا القصر ! ألم نرعك صغيراً !

(قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ)

2 – مكث موسى مع قومه في مصر سنين:

حتى صرت يافعاً وشاباً، ونسيت ما فعلت يا موسى، وفعلت فعلتك التي فعلت، هذا التنكير للتعظيم، يقول لك ذاك المرض، قل اسمه، هذا للتعظيم، لأنه شيء عظيم جداً، نسيت فلان ماذا فعل ؟ ماذا فعل الذي فعله، هذا إبهام هدفه التعظيم.

(وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

3– قتل موسى للقبطي:

كيف قتلت هذا القبطي ؟ الإله الذي بعثك إليّ هل يسمح لك أن تقتل هذا القبطي ؟ هكذا ظن فرعون أنه أجاب سيدنا موسى إجابة حاسمة، أنت كنت فينا ربيباً وليداً، ربيناك في هذا القصر، أطعمناك في هذا القصر، اعتنينا بك حتى صرت شاباً، فعلت فعلتك، ووليت هارباً، أنت تقول: أن أرسل معي بني إسرائيل ؟! موقف عصيب، بشكل نظري سهل، لكن تصوروا أن سيدنا موسى شخص مضطهد ـ طبعاً بنو إسرائيل مضطهدون في عهد فرعون ـ وقد تربى عندهم، وقتل منهم قبطياً، ويأتي ليدعو فرعون ليؤمن بالله رب العالمين، وليرسل معه بني إسرائيل، موقف عصيب جداً، فلا يعرف الشوق إلا من يكابده، ولا الصبابة إلا من يعانيها، سيدنا موسى قال:

(قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)

ردّ موسى على مزاعم فرعون:

بعض علماء التفسير قالوا: هذا استفهام من غير أداة استفهام، لكن السياق يفرض أن يكون استفهاماً، لأن النبي معصوم في رأي جمهور العلماء قبل الرسالة وبعدها، والدليل لما قص قصته على سيدنا شعيب قال:

(قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنْ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

لو كان سيدنا موسى ارتكب خطأ في هذا العمل ما قال له سيدنا شعيب: لا تخف نجوت من القوم الظالمين، هو ماذا فعل ؟ رأى عدواناً من شخص قوي على شخص مستضعف، فوقف مع الحق، فوكزه فقضى عليه.

قال: نعم فعلتها، ولكن أنا لست ضالاً بهذا العمل، أنا وقفت مع الحق، كان بإمكان ألا أتدخل، وأطلب السلامة لنفسي، طبعاً لو أنت شاهدت إنساناً قوياً يضرب إنساناً ضعيفاً، طبعاً الموقف المريح أن تتابع المسير في الطريق، أن تقول: لا علاقة لي بهذا، يقول الإنسان: فخار يكسر بعضه، لكنك أن تقف مع الحق وتعرض نفسك للخطر.. لخطر الموت، قال:

(قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)

ما فعلت إلا ما يمليه عليّ الحق، يعني أراد أن يناقش فرعون بهذا الموقف.

(فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ)

الخوف من جِبلّة البشر جميعا:

الإنسان يخاف، والنبي يخاف، يقول الله عز وجل:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيّ)

(سورة الكهف 110)

أنا بشر، وسيدنا موسى بشر.

(فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

امتنان موسى برسالة الله له:

أنا لست رسولاً فريداً في الأرض، أنا رسول من هؤلاء الرسل جميعاً، حينما خفتكم توجهت إلى مدين عشت مع نبي عظيم، هو سيدنا شعيب، ووهب لي ربي في هذه المرحلة حكماً، وجعلني نبياً، وأرسلني

إليكم، بعدئذٍ تقول لي: ألم نربك فينا وليداً. طبعاً فرعون استعلى عليه فقابله استعلاءً باستعلاء، وتهكماً بتهكم، قال:

(وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

استعباد فرعون لبني إسرائيل:

أنا لماذا رُبيت في قصرك، لأنك تذبح بني إسرائيل، لو أنك لا تذبحهم ما تربيت في قصرك، خافت عليّ أمي فقذفتني بالتابوت، والتابوت جاء إلى شاطئ قصرك، ما كان لك أن تربيني لو كنت عادلاً، لو لم تقتل أبناء بني إسرائيل لم أكن في قصرك.

(وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

جعلتهم عبيداً عندك، أخذت جهدهم بلا ثمن، وقتلت أبنائهم، واستحييت نسائهم، وتلك نعمة تمنها عليّ أيضاً أن عبدت بني إسرائيل، طبعاً موقف عصيب، موقف متين وجواب محكم.

(وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (22) قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23))

إنكار فرعون لوجود رب سواه:

هو لا ينفي وجوده، ولكن ينفي قدرته، هذه نفي الشأن، تقول: مَن فلان ؟ يعني لا قيمة له.

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

أنا الإله، هذا قول فرعون، كلمة وما رب العالمين ؟ سيدنا موسى فاجأه فقال:

(قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

الله رب السماوات والأرض:

رب الكون، من أنت أمامه، إذا كانت المجرة تبعد عنّا ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، وإذا كان أقرب نجم ملتهب بُعده عنّا أربع سنوات ضوئية، يعني نحتاج إلى أن نصل إليه بالسيارة إلى خمسين مليون سنة، أربع سنوات ضوئية تقابل خمسين مليون سنة بالسيارة، والأربعة آلاف سنة ضوئية، والمليون سنة ضوئية، والستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، وما رب العالمين ؟

أحياناً الإنسان يسب الدين أو يسب الإله، هذا صفر أو تحت الصفر لا يعرف عن الله شيئاً، أتعرف من تسب ؟ خالق السماوات والأرض.

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

وكأن هذا سباب.

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

معنى الربّ:

ما معنى رب ؟ يعني المربي والممد، إذا كنت تربي طفلك، واحتاج إلى دواء، ولا تملك ثمن الدواء أنت لست مربياً، معلومات جيدة، ولكن الإمكانيات لا توجد، كلمة رب تعني الحكمة في الرعاية مع القدرة في الإمداد.

(قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

من أمد الشمس بهذا النور وهذا اللهب، من حرك الأجرام السماوية، من حرك الرياح، من أنزل الأمطار، من أنبت النبات، من أطعم الطيور في السماء، من أطعم الأسماك في البحار، من أعطى هذه الشجرة ما تحتاج من مواد معدنية وأشباه معدنية، من يمد كل مخلوق بما يحتاج، من هو الحي القيوم قيام الأشياء به.

(قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وتقول: وما رب العالمين، أحياناً تجد نملة من يطعمها ؟

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

(سورة هود)

الدابة: أحياناً يوجد غزلان يعيشون في قمم الجبال، وفي قمم الجبال بعض الينابيع، وليس هناك من تفسير لينبوع ماء في قمم الجبال إلا أن يكون خزانه في جبل أعلى منه، يعني في جبل أعلى منه بعيد جداً هناك اتصال أنابيب موصولة من هذا الجبل العالي إلى الجبل الأدنى، هذا الوعل يحتاج أن يشرب، إذاً يخلق له ينبوع ماء في قمة الجبل.

وهذه السمكة التي تعيش في خليج ميريانة في المحيط الهادي حيث العمق يزيد على اثني عشر ألف متر، أعمق مكان في البحار، سمك هلامي من يأتيها بالطعام والشراب.

(وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

الطيور، الأسماك، الوحوش، الحيوانات الأهلية، الدود، البكتريا، الفيروس، الكائنات الدقيقة، من يطعمها ؟ الله سبحانه وتعالى، لها أجهزة، تجد النملة لها قلب ولها بصر الدليل ضع يدك أمامها تقف معناها أنها لها بصر، تجد الحيوان له قلب، وله رئتان، وله أجهزة هضم، وغدد صماء، الحيوان ليس له قيمة عندك، بعوضة تعمل لها بيدك هكذا ماذا حصل، هذه البعوضة لها ثلاث قلوب، وعندها جهاز تخدير، وعندها جهاز تحليل، وعندها جهاز تمييع للدم، لها محاجم إذا كان السطح أملس، ولها مخالب،

يرف جناجها أربعة آلاف رفة في الثانية إلى مستوى الطنين.

(إنّ اللّهَ لا يَسْتَحْيِي أنْ يَضْرِبَ مَثَلا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا)

(سورة البقرة 26)

(وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

من رب العالمين ؟ هذه البعوضة لو أن علماء الأرض اجتمعوا على أن يخلقوا ذبابة لا يستطيعون، تحداهم ربهم في أحقر مخلوق، ذبابة لا يستطيعون.

(وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

يعني يمدّ كل هذه المخلوقات، من يمد الشمس بالحرارة، من يمد الأرض بالحركة، الجبال بالشموخ، البحار بالماء، كل إنسان فيه خمسون نوع خمسون نسيج خمسون عضو خمسون غدة، هذا البنكرياس يحتاج إلى أنسولين ضعف إفراز الأنسولين حدث مرض السكر، خمسون ظاهرة لأن البنكرياس ضعف إفراز الأنسولين فيه، والأنسولين من أجل إحراق السكر في حرارة عادية.

(وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24))

فرعون استغرب، يعني دهش.

(قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ)

استغراب فرعون من كلام موسى عليه السلام:

يريد أن يعزز مكانته، يريد أن يستنجد بمن حوله، يحتاج إلى إعادة اعتبار.

(قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ)

كأنه يستهزئ، ما هذا الكلام هناك رب للعالمين، أيوجد غيري إله، كأنه يقول هكذا لأتباعه، هل تعرفون إلهاً غيري، هذا يدعي أن هناك إله خلق السماوات والأرض، فعندئذ فاجأه سيدنا موسى قال:

(قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوّلِينَ)

إثبات موسى لربوبية الله ونفيها عن فرعون:

يعني أنت لست إله يا فرعون، أنت ربيب والله هو الرب، أنت لست رباً، الله هو ربك، ربكم ورب آبائكم الأولين، الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، كان الله، ولم يكن معه شيء، هو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، هو القديم الأزلي الأبدي، يعني ربكم ورب آبائكم الأولين.

حينما تضعف حجة الإنسان، وحينما يقع في حيص بيص كما يقولون، وحينما يسقط في يده يلجأ

للسباب، أثناء المناقشة الذي يسب الثاني، أولاً هو الضعيف، القضية إقناع، وحجة، ودليل، قال لك: أنت لا تفهم، انتهى النقاش، معنى ذلك أن أحد الأطراف سلّم، عندما يلجأ الإنسان للسباب معناها انتهى، ومعناها ضعف، معناها فقد الحجة، معناها أسقط في يده، فقال فرعون:

(قَالَ إِنّ رَسُولَكُمُ الّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)

اتهام فرعون لموسى بالجنون:

رد على هذه الحقائق، رد على هذه البراهين، هذا كلام لا معنى له، فلذلك أصعب شيء في النقاش لست فاهماً رد عليه، إذا قلت له كذلك فأنت ضعيف لقد سقطت في الامتحان، لقد خسرت هذه الجولة، إما أن تقدم له الدليل، وإما أن تسكت، أما أن تقول له: إنك مجنون، هذا ليس نقاشاً، هنا فرعون وقع في الإحباط قال:

(قَالَ إِنّ رَسُولَكُمُ الّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)

هذا مجنون، والنبي عليه الصلاة والسلام رأى في الطريق مجنوناً فقال لأصحابه: **من هذا ؟** (اسمه تجاهل العارف) فقالوا: هذا مجنون، فقال:

((لا، هذا مبتلى، المجنون من عصى الله، أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، المجنون من عصى الله عز وجل))

وتعلمون النمرود حينما ناقشه سيدنا إبراهيم فقال: **فإن ربي الذي يحي ويميت**، فقال: أنا أحيي وأميت، توهم النمرود أنه إذا عفا عن إنسان من حقه أن يقتل فقد أحياه، وإذا أمر بقتل إنسان فقد أماته فقال: أنا أحيي وأميت، فسيدنا إبراهيم علمنا النقاش الصحيح، ما تابعه في هذا الموضوع لأن فهمه كان سقيماً، جاءه بحجة أخرى فقال له:

(قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنّ اللّهَ يَأْتِي بِالشّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ)

(سورة البقرة)

سيدنا موسى قال:

(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

الإنسان يجتمع فيقرر مثلاً إغلاق شيء، يقرر فتح شيء، يسمح، ويمنع، يعزل يعين، يعطي يمنع، الآن لو اجتمعت الدول كلها لاتخاذ قرار أن تطلع الشمس من مغربها صبيحة يوم كذا كلام فارغ، الإله هو الذي يفعل هذا، جميع بني البشر ليس في قدرتهم أن يفعلوا ذلك، فسيدنا موسى قال له:

(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

دعوة إلى إعمال العقل:

يعني يجب أن تعقلوا، إنما الدين هو العقل، من لا عقل له لا دين له، من لا دين له لا عقل له، تبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتاً، إن الرجلين ليستوي عملهما، وبرهما، وصومهما، وصلاتهما، ويختلفان في العقل كالذرة جنبُ أحد، وما قسم الله لعباده نصيباً أوفر من العقل واليقين.

(إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

لو أنكم تعقلون لكنتم عرفتم الله رب العالمين، عرفتم رب المشرق والمغرب، عرفتم ربكم ورب آبائكم الأولين، عرفتم رب السماوات والأرض إن كنتم تعقلون، أي اعقلوا.

(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

عندئذ فقد فرعون صبره فقال:

(قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)

مرحلة التهديد والضغط والوعيد:

فرعون قوي، لكن كل قوة تحتاج إلى فلسفة تساندها، فسيدنا موسى يخاطبه أمام ملأ منه، عندئذ لما بلغ بفرعون هذا المبلغ وانتقل من المناقشة إلى التهديد، وانتقل من الحوار إلى الوعيد، عندئذ قال سيدنا موسى:

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ)

قال موسى: لو أن معي على ما أقول حجة قاطعة ما تقول ؟ هنا لو قال فرعون لا أستمع إليها يفقد قيمته أمام من حوله، يعني وضعه في زاوية ضيقة.

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ)

اقتراح موسى على فرعون حجة مادية:

لو جئتك بشيء قطعي، دليل، حجة قاطعة، بمعجزة تثبت أني رسول من عند الله رب العالمين، عندئذ قال:

(قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

طبعاً اضطر مرغماً أن يعطيه مهلة كي يدلي بحجته التي تثبت أنه نبي مرسل من عند الله رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (03-20): تفسير الآيات 23 - 68
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-08-04

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

في القرآن الكريم قواعد نظرية، وفيه تطبيقات عملية، القواعد النظرية كثيرة جداً، والقصص تطبيقات عملية للقواعد النظرية، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة هود)

والله الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في القرآن إلا هذه الآية لكفت:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

تدور الأيام، يسعد أناس، ويهبط آخرون، الأحوال لا تستقر إلا على هذه القاعدة:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

وقد يكون الخصمان المتصارعان لا تناسب بين قوتيهما، فرعون ورجل مستضعف من بني إسرائيل ومع ذلك:

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)

(سورة القصص 8)

لذلك إذا كنت مع الله فأنت الرابح دائماً، والنهاية لك، والعاقبة لك، والسعادة لك، والتوفيق لك، وأن تظهر على خصومك لك، وإذا كنت مع غير الله مهما علا شأن الإنسان فلا بدّ أن يدمر، لأنه اعتز بغير الله، لذلك ورد في الأثر القدسي:

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السماوات والأرض إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه))

(ورد في الأثر)

من كان مع الله لم يخف من شيء:

فيا أيها الأخ الكريم... اعتصم بالله، توكل على الله، قل له في مناجاتك له: يا رب ليس لي إلا أنت،

ليس لي أحد، لكنك إذا كنت معي فلا أحد يستطيع أن ينالني بسوء، إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فإن أقرب الناس يتخلى عنك، لو أن الأمة اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو أن الأمة اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف،

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا)

(سورة فاطر)

علاقتك كلها مع الله، علاقتك جملة وتفصيلاً، يعني أجهزتك لو أن الكلية توقفت عن العمل لابدّ من ثلاثين ساعة غسيل، وستين كيس سيروم، مبلغ ضخم كل أسبوع مرتين، تصبح الحياة جحيماً، بيد من هذه الكلية ؟ بيد الله عز وجل، صمام القلب بيد الله، الأوردة مرونتها تصلبها المواد المتعلقة بجدرانها من الكولسترول بيد الله عز وجل، الدماغ نمو عشوائي في الدماغ تصبح حياة الإنسان جحيماً، فالإنسان مفتقر إلى الله في مليون مليون جزء في جسمه، وأهله وأولاده، لو جاءه ابن معتوه يجعل هذه الأسرة في جحيم مستمر، لو أن ابنه فيه عاهة دائمة، لو أن مرضاً عضالاً أصاب أهله، الإنسان تحت ألطاف الله عز وجل، فإذا قال: أنا، يكون جاهلاً، يا رب ليس لي إلا أنت هذا فضلك وكرمك.

هذه القصة تبين لو أنك أقوى أقوياء الأرض، وأراد الله أن يسلبك هذه القوة لسلبها منك، وأنت لا تدري، لو كنت أغنى أغنياء الأرض، وأراد الله أن يفقرك لا بدّ من أن تفتقر.

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

(سورة الرعد)

لذلك هذه القصة لو أنها وقعت، وانتهت، لكنها درس لا ينقضي، ملخص هذا الدرس:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(سورة هود)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ إذا كنت معتصماً بالله، إذا كنت مستقيماً على أمره، إذا كنت تسعى لرضاه، إذا كنت تقيم أمر الله عند الحلال والحرام، إذا كنت تعظم أمر الله عز وجل، إذا كان الله عظيماً في نظرك، أما إذا هان الله عليك هنت عليه، إذا هان أمره عليك هانت معصيته عليه، وهان غضبه عليك، وهان سخطه عليك، وهان إبعاده لك عليك، عندئذ تهون عليه، وعندها يعيش الإنسان حياة لا يحسد عليها أبداً.

فيا أيها الإخوة الأكارم... القصة معروفة فيها تفصيلات دقيقة، لكن أتمنى عليكم أن تقفوا عند كل دقيقة من دقائقها، عند كل جزئية من جزئياتها، عند كل موقف، كن مع الله ولا تبالي.

كن مع الله تر الله معك　　واترك الكل و حاذر طمعك

و إذا أعطاك من يمنعه　　ثم من يعطي إذا مـا منعك

*** * ***

مواجهة موسى لفرعون بحقيقة ربوبية الله:

فرعون حينما قال له سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال:

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

لم يقل: ومَن رب العالمين، هو لا ينكر وجوده، ولكن ينكر شأنه، وقال فرعون في آيات أخرى:

(أَنَا رَبُّكُمْ الأَعْلَى)

(سورة النازعات)

هو يدعي أنه رب قومه، رب مصر، فلما قال له: رب العالمين، قال:

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

فقال سيدنا موسى: رب السماوات والأرض، يعني أقرب نجم ملتهب لو أردت أن تصل إليه بسيارة لاحتجت إلى ما يقارب خمسين مليون سنة، أقرب نجم يبعد عنا أربع سنوات ضوئية، تحتاج إلى أن تصل إليه ما يقارب خمسين مليون سنة، وأنت تقود هذه السيارة، لو عشت مئة سنة، يعني الإنسان وابنه وابن ابنه، إلى خمسين مليون سنة تقسيم مئة، خمسة وأربعة أصفار يعني خمسين ألف جيل، من أجل أن تصل إلى أقرب نجم ملتهب إلى الأرض، وما رب العالمين، نجم القطب أربع سنوات ضوئية، والمرأة المسلسلة مليون سنة ضوئية، وأحدث مجرة اكتشفت ستة عشر ألف سنة ضوئية، قال:

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

الله رب الكون جميعاً:

وهذا الذي عرفه العلماء عن الكون شيء محدود جداً، وكلما عرفوا شيئاً تبدى لهم أشياء، لذلك الإمام الشافعي يقول: كلما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي.

أحد كبار العلماء يقول: لم تبتل بعد أقدامنا ببحر المعرفة، وكلما تعمق الإنسان رأى جهله، ورأى ضآلة علمه، لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا)

(سورة الإسراء)

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة 255)

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

هذه الشمس الملتهبة حرارتها في مركزها عشرون مليون درجة، في السطح ستة آلاف درجة، قبل أسبوعين الحرارة تسع وأربعون درجة، الناس قالت: حر لا يطاق، ستة آلاف درجة على السطح، ألسنة اللهب طولها نصف مليون كيلو متر، الألسنة فقط، حول الأرض كلها أربعون ألف كيلو متر، خمسمائة ألف كيلو متر طول لسان اللهب، محيط الأرض أربعون ألف كيلو متر، أيْ اثنا عشر مثل من محيط الأرض طول لسان اللهب من الشمس، ولو أن الأرض ألقيت في الشمس لتبخرت في ثانية واحدة.

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وهذا نجم العقرب، برج العقرب، قلب العقرب الذي يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر.

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

اعرف الله أولاً، تفكر في خلق السماوات والأرض عندئذ تعرف أن كلمة الله تجعلك تخر له ساجداً، تفكر في خلق السماوات والأرض، مليون مليون مجرة هذه أحدث أرقام، وفي كل مجرة مليون مليون نجم، يعني لو أن غرفة في الشتاء أردت أن تكنسها، وقد دخلت إليها أشعة الشمس لرأيت في سماء الغرفة ذرات عالقة، ما الأرض بالنسبة إلى جزء من الكون إلا كذرة عالقة في سماء هذه الغرفة، والأرض نفسها، يمكن سوريا على الكرة الأرضية لا يتسع حجمها لكلمة (DMASCUS)، لا تكفي، لو أحبوا أن يضعوا العاصمة، واسمها بالإنكليزي لا يتسع حجم سوريا كلها على كرة أرضية لاسم العاصمة.

في بلاد آسيا وإفريقيا وأمريكا وأوربا وأقيانوسيا والقطبين وكل هذه اليابسة، خمس البحر، والبحر أربعة أخماس.

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (23) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (24) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ (25))

إنكار فرعون ربوبية الله:

لأن فرعون يطرح على الناس أنه إله، وأنه ربهم، وأنه إلههم، فإذا قال سيدنا موسى: إنّ هناك إلها عظيمًا، رب السماوات والأرض، هو لا يحب أن يقبل ذلك، يريد أن ينكر ذلك، فقال ما هذا الكلام، وفي آية أخرى قال:

(وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

(سورة القصص 38)

ما رب العالمين ؟ فقال سيدنا موسى:

(قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آَبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)

رَبُّكُمْ وربُّ آبَائِكُمُ الأوّلِين

ليس فقط رب السماء، بل وربك أنت أيها الملك، ربكم أنتم يا قوم فرعون، يعني هو رب السماوات والأرض أوجدها، وأمدها، وسيرها، وربكم أنتم، لأن الله عز وجل يقول:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

(سورة الزخرف)

هو فعلاً رب السماوات والأرض، رب هذه المجرات، رب هذه الكازارات، رب هذه المذنبات، رب هذه النجوم الملتهبة، رب هذه الكواكب المنطفئة، رب هذه السيارات التي تسير حول بعضها بعضاً، رب هذا الفراغ الكبير، رب هذه المواقع الشاسعة.

(قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آَبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)

ما وسع فرعون بعد أن سمع هذا الكلام الذي يلغي دوره، يلغي ربوبيته المزعومة، يلغي ألوهيته، ما وسع فرعون إلا أن يقول:

(قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)

اتهام فرعون موسى بالجنون:

ولكن المجنون كما قال عليه الصلاة والسلام من عصى الله، حينما رأى مجنوناً سأل أصحابه سؤال العارف من هذا؟ قالوا: مجنون، فقال: لا.. هذا مبتلى، المجنون من عصى الله، فهذا الذي يمشي في طريق مسدود هو مجنون، هذا الذي يمشي في طريق ينتهي إلى هاوية مجنون، لكن الذي يمشي في طريق سالك إلى جنة عرضها السماوات والأرض هو عاقل، لذلك والله الذي لا إله إلا هو أقلُّ مؤمن على وجه الأرض يعدُّ أذكى من أكبر شخصية كافرة، لأن الكافر حياته عريضة، لكن هذا الطريق العريض ينتهي بهاوية سحيقة، بينما المؤمن لو أن الطريق التي هو بها ضيقة لكنها نافذة إلى جنات ربه، لذلك:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

(قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)

عندئذ قال سيدنا موسى:

(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا)

الله ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما:

هذه الشمس من حركها ؟

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنْ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنْ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة البقرة)

أقوى أقوياء الأرض لو اتخذ قراراً بأن تطلع الشمس من مغربها هل يستطيع ! لو اجتمعت دول الأرض على أن تصمم أن تشرق الشمس من مغربها مستحيل، الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الشمس، وخلق القمر، وخلق الأرض وحركهما.

(قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

العقل هو القوة الإدراكية:

يعني اعقلوا، هذا العقل، هذه الجوهرة الثمينة لا ينبغي أن تبقى شاردة، لا ينبغي أن تعطل، هذه القوة العقلية الإدراكية لا ينبغي أن تعطل، مع الأسف الإنسان يوظف فكره وعقله في كسب المال فقط، أو في الاحتيال، أو في الإيقاع بين الناس، ولا يسخر الإنسان عقله لمعرفة ربه، والعقل أساساً حينما خلق الله السماوات والأرض قال:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن)

أعطاك ميزاناً، أعطاك هذا الميزان من أجل أن تعرف ربك فعطلت هذا الميزان، أو استخدمته في أغراض أخرى.

(إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

تعرفون أن الله سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب، وتعرفون أن الله سبحانه وتعالى ربكم ورب آبائكم الأولين، تعلمون أن الله سبحانه وتعالى رب السماوات والأرض.

يبدو أن فرعون أُسقط في يده، وأقيمت عليه الحجة، ولم يدر ماذا يفعل، عندئذ استنجد بقوته، الإنسان حينما يضعف في المنطق.. في المحاورة.. في المناقشة إما أن يستخدم قوته إن كان قوياً، أو أن يستخدم لسانه في السباب إن كان ضعيفاً، إذا حصل نقاش حادّ بين اثنين حينما ينهزم أحدهما، فهذا المهزوم إن كان ضعيفاً يستخدم لسانه البذيء، وإن كان قوياً يستخدم قوته، ويبدو أن فرعون حينما انهزم أمام سيدنا موسى في المناقشة والحجة قال:

(قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)

ردُّ فرعون بسلاح التهديد والوعيد:

هل هذا رد علمي على هذه الطروحات ؟هذا رد لا علاقة بها، هذا الرد لا يتناسب مع هذا الحوار، هو يؤكد له أن الله هو رب السماوات والأرض، أعندك دليل ينفي ذلك، هو يؤكد أن الله ربكم ورب آبائكم الأولين، أعندك يا فرعون دليل ينقض ذلك ؟! هو يؤكد أن الله سبحانه وتعالى رب المشرق والمغرب، أعندك يا فرعون دليل ينقض ذلك ؟! جاءه فقال:

(قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ)

ما علاقة هذا الكلام بهذا الحوار ؟ إنه استنجد بقوته، عندئذ سيدنا موسى قال له قولاً أحرجه، على أن الإنسان القوي لا بدّ أن يستعين مع قوته بفكرة، أو نظرية، أو بمبدأ، أو بعقيدة، لأن القوة وحدها لا تكفي، الإنسان يحتاج إلى قوة، وإلى فكر، أو إلى عقيدة، أو إلى مبدأ يغطي هذه القوة، فقال له موسى:

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ)

موسى يقترح على فرعون دليلا ماديا قاطعا بصدق رسالته:

لو أنني جئت بدليل قاطع على ما أقول، أنا أقول لك: إني رسول من رب العالمين، أنا أزعم أني رسول، فما قولك يا فرعون لو أتيتك بالدليل القطعي ؟ طبعاً لو كان النقاش بين فرعون وسيدنا موسى وحده لانتهى الأمر، ولكن النقاش بين ملأ، لذلك وقع فرعون كما يقولون في حيص بيص، بما أنه في عرض قطعي.

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ)

أو لو جئتك بدليل قطعي على أني رسول، أولو جئتك بدليل قطعي على أني صادق فيما أقول، أو على أن الله هو رب العالمين، ولست أنت.

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31))

وضعه في زاوية ضيقة في الحوار، وأحرجه، وجعله أمام من حوله، أمام الملأ في موقف حرج، فاضطر فرعون أن يقول:

(قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ)

فرعون يتحدى موسى عليه السلام:

الآيات الكونية لا حصر لها ولا عدّ:

سيدنا موسى ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، والحقيقة أن هناك آلافَ الآيات الكونية الدالة على عظمة الله، حينما تلد الأنثى غلاماً صغيراً أليست هذه آية عظيمة، لكن سبحان الله الأشياء التي تتكرر يألفها الناس، أيها الزوج ألا تعلم أن هذا الطفل الصغير كان نطفة من ماء مهين، حوين منوي واحد لقح بويضة أصبح هناك غلام فيه دماغ، فيه مئة وأربعون مليار خلية سمراء، أربعة عشر مليار خلية قشرية في الدماغ، في الجمجمة مفاصل منكسرة لتلقي الصدمات، ونخاع شوكي، و عمود فقري، وقلب له أربعة تجاويف، دسامات، رئتان، ومعدة، وأمعاء، كبد، وصفراء، وبنكرياس، وغدد صماء، وكليتان، وكظران، وعظام، وفيه معامل كريات دم حمراء، وعضلات، ومواد شحمية، وجلد، فهذا الغلام الصغير الذي يبكي يبحث عن ثدي أمه، فيشرب الحليب، ويتحول هذا الحليب إلى لحم وعظم، ينمو وزنه أليست هذه آية دالة على عظمة الله ! ولكن الناس ألفوها، وهذه المشكلة.

شروق الشمس أليس آية ؟ أن تلقي في الأرض بذرة، فإذا هي نباتٌ يعطيك من الخضراوات والثمار ما لذّ وطاب، هذه الفواكه الطيبة سكرية الطعم، ذات اللون الجميل، والرائحة الطيبة، والقوام المعتدل، والغذاء، والفيتامينات و، و، و، هذه من التراب يد من صنعتها ؟ أليست هذه آية ؟!

هذا الحليب الذي تشربه، هذه البقرة كيف تحول الدم إلى حليب، أربعمئة حجم من الدم تحتاج البقرة كي تصنع لتر حليب منه، أربعمئة حجم من الدم تجول حول الغدد الثديية من أجل تصنيع لتر حليب واحد، هذا المعمل الذي تحت سمعنا وبصرنا، أليس آية قاطعة دالة على عظمة الله ؟! من جعل هذا الحليب متناسباً مع بنية الجسم ؟ مواد سكرية، ومواد دهنية، ومواد شحمية، ستة عشر معدنًا، ثمان فيتامينات، مواد بروتينية، من جعل هذا ! هذا الحليب الغذاء الكامل، يعني البقرة نفسها تعرف ذلك، هل البقرة تعرف احتياجات الجسم ؟ وهل هذا الحليب لابن البقرة أم للإنسان ؟ للإنسان، لأن عجلها ربما لا يحتاج لأكثر من كيلوين، لكن هذه الكمية الكبيرة أربعين إلى خمسين، والآن هناك بقر يحلب ستين كيلوًا في اليوم، من أجل ابنها العجل ؟ هذه البيضة، آيات كثيرة، ولكن سبحان الله صار ذلك شيئاً مألوفاً، الأشجار، القمح، الأسماك، الرياح، الأمطار، البحار، ملايين مَلايين ملايين الآيات الدالة على عظمة

الله، ولكن الإنسان أحياناً هذا كله مألوف عنده، لعدم التفكر، للانهماك في الدنيا يصبح شيئاً مألوفاً، قال:

(قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (30) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (31) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32))

معجزة تحوّل العصا إلى ثعبان وخروج اليد من الجيب بيضاء:

إنّ تحولَ العصا إلى ثعبان شيء فوق طاقة البشر، شيء لا يستطيعه البشر، هذه هي المعجزة، وخرق للعادات على يد نبي أو رسول، لأن هناك تحديًا، هناك من يكذبه، فلا بدّ أن يأتي بشيء لا يستطيعه البشر مجتمعين، إذاً كأن الله سبحانه وتعالى يقول لهؤلاء: إن هذا الإنسان رسولي، والدليل هذه المعجزة، فألقى عصاه، ليست هي كالثعبان، لو كان ساحراً إذا هي كالثعبان، فخيل لهم من سحرهم أنها تسعى، هذا تخييل، السحر شيء، والمعجزة شيء آخر، من أتى كاهناً فقد كفر، من أتى ساحراً فقد كفر، من أتى ساحراً فلم يصدقه لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، ولا دعاء أربعين ليلة.

إذا كان الإنسان في نزهة، وأراد أن يتسلى بالودع أو نجمة، فهذا شيء مخالف للقرآن، إنك إن صدقت الكاهن كفرت بمحمد، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ)

(سورة النمل 65)

فالذي يقول لك: سوف تفعل كذا وكذا، هذا غيب، والذي يأتي الساحر لا ليصدقه، بل ليتسلى، اجعل التسلية في شيء آخر، من أتى ساحراً فلم يصدقه لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، ولا دعاء أربعين ليلة.

(فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (32) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (33))

كلمة (فإذا) هذه إذا الفجائية، يعني لم تكن حية، ولكنه قد سكنها، أو جمدها، ثم حركها، لا، كانت عصا، ألقى عصاه فإذا هي فجأة ثعبان كبير مبين واضح كالشمس، ونزع يده من تحت إبطه فإذا هي بيضاء للناظرين، يد تتألق كالمصباح، فرعون قال:

(قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)

اتهام فرعون موسى بالسحر بعد رؤيته المعجزة:

طبعاً فوجئ فرعون، ودهش، وصعق، فعلاً إنه شيء فوق طاقة البشر، عصا بيده، فإذا هي ثعبان مبين، وتصبح يده مصباحاً متألقاً، فإذا هي بيضاء للناظرين.

(قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ)

من كلمة **(عليم)**يتضح أن فرعون هالته هذه المعجزة، لكنه يكابد، ولا يرضى أن يعترف أنه رسول، يقول: إن هذا لسحار، ولكنه عليم من مستوى رفيع.

(يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ)

انظروا إلى الانهيار المفاجئ.

(فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

مشاورة فرعون قومه في شأن موسى

متى كان فرعون بهذه الأخلاق ؟ متى كان فرعون يخاطب قومه الذي قال لهم: أنا ربكم الأعلى، متى يقول لهم: ماذا تأمرون، في القصة انهيار مفاجئ، لأنه فقَدَ الحجة، وسيدنا موسى لما ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، وحين نزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين أعطى معجزتين لا يستطيع بنو البشر مجتمعين أن يفعلوها، وأن يأتوا بهاتين المعجزتين، عندئذ أسقط في يد فرعون، أما هذا الهبوط المفاجئ في الموقف من قوله: أنا ربكم الأعلى، ومن قوله: ما علمت لكم من إله غيري إلى قوله:

(يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

ماذا نفعل ؟ فقال الملأ من حوله:

(قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

إجماع فرعون وقومه على مواجهة موسى بالسحر:

يعني أخِّرْه قليلاً، هذا سحر، هم ركبوا رؤوسهم، وقالوا: هذا سحر، ونحن عندنا سحرة، فنجمع السحرة في أرجاء البلاد ليقفوا في وجهه، وليثبتوا أنهم أعلم منه في السحر.

(قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (36) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحّارٍ عَلِيمٍ (37))

سحّار صيغة مبالغة على وزن فعّال، إنّ هذا لساحر عليم، كلمة ساحر اسم فاعل، لكن سحّار صيغة مبالغة لاسم الفاعل، يعني يأتوك بكل سحّار عليم، أعلم مِن هذا الذي يدعي أنه رسول.

طبعاً هنا قفزة في القصة، أرسل فرعون رجاله وجنوده في أرجاء البلاد، وفي مختلف الأقاليم والأصقاع، وجمع كل ساحر عليم، بل كل سحّار عليم.

(فَجُمِعَ السّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)

تحديد موعد التحدي:

فكان هناك لقاء مع فرعون.

(وَقِيلَ لِلنّاس هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ)

المشكلة أنه توقع أن هؤلاء السحرة الذين سيجمعهم سينتصرون على سيدنا موسى، إذاً لا بدّ أن يكون هذا الانتصار أمام جمع غفير من الناس، وما كان يدري أن هذا الجمع الغفير الذي سيشهد هزيمة السحرة لن يكون إلى جانبه عندما يتأكدوا أن هذا نبي.. وأن هذا الإنسان نبي ورسول من رب العالمين.

(وَقِيلَ لِلنّاس هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (39) لَعَلّنَا نَتّبِعُ السّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (40))

يعني غلب على ظن فرعون وملأه أن هؤلاء السحرة الذين جمعهم فرعون سيحبطون سحر سيدنا موسى على حدّ زعمهم، وينتصر باطلهم على الحق.

أجر غلبة موسى: طلب

(فَلَمّا جَاءَ السّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)

السحرة من فرعون

يعني هذا ما ثمنه ؟ هؤلاء السحرة الآن أجراء منتفعون، هؤلاء السحرة أناس يعملون لا لمبدأ ولا لقضية، إنما يعملون ليقبضوا ثمناً باهظاً لسحرهم.

(فَلَمّا جَاءَ السّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)

يعني كم تدفع لنا يا فرعون ؟ ما هي الأشياء المغرية التي تغرينا بها حتى نفعل ؟

(قَالَ نَعَمْ وَإِنّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرّبِينَ)

تشجيع فرعون السحرة بتقريبهم إليه حال الفوز:

أنتم إذا انتصرتم على موسى سوف أعطيكم عطاءاً جزيلاً، وسوف أجعلكم في قصري، أي مستشارين، طبعاً القصة فيها قفزات فنية، أي هذان السطران يردان شهرين أو ثلاثة بين إرسال الجنود والأتباع، وجمع السحرة، وجمع السحرة مع فرعون، ودعوة الناس إلى هذا اللقاء الحافل، ومساومة السحرة مع فرعون، هذه كلها في كلمات قليلة.

(فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (41) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (42) قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا)

بدء التحدي والمواجهة الميدانية وثقة موسى بالفوز:

واثق من نفسه، واثق أنه نبي، وأن هذا الذي سيفعله ليس سحراً، ولا خديعة، ولا تخيلاً، ولا تخييلاً، إنما هو حق من الله تعالى.

(قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ)

في بعض التفاسير: أن هؤلاء السحرة جعلوا في حبالهم التي طلوها بما يشبه الأفعى أو الثعبان جعلوا الزئبق، وجعلوا هذه العصي والحبال فوق أرض حارة، فلما تمدد الزئبق حرك الحبال فبدت كأنها تسعى.

(فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ)

قال أحدهم:

اجعل لربك كل عـزك يـستـقـر، ويثبت

فـإذا اعتـززت بـمن يموت فإن عزك ميت

***

سيدنا موسى واثق من نفسه.

(فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ)

هنا نقطة مهمة جداً: لو أن هذا النبي الكريم ألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين، كما تخيلوا أن العصي والحبال تتحرك، يدعون أنهم توهموا أن هذه العصا بفعل السحر تتحرك، ولكن الله شاءت حكمته أن عصا سيدنا موسى التي أصبحت ثعباناً مبيناً أكلت كل حبالهم وعصيهم، لأنها لو كانت قضية تخيل أو سحر لبقي ثعبان سيدنا موسى الذي كان عصا قبل قليل، وبقيت الحبال والعصي، يعني هذا يتحرك، وهذا يتحرك.

(فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ)

ابتلاع ثعبان موسى لكل ألاعيب السحرة:

تلقف بمعنى تبتلع، يعني أسرع طريقة في التهام الطعام تلقف، يعني كل حبل بلقمة واحدة.

(فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

السحرة يعلمون أنهم سحرة، وأنهم ما فعلوا إلا بعض الخدائع، بعض أنواع الخديعة البصرية، أما هذا ثعبان حقيقي، وهذا الثعبان أكل كل حبالهم وعصيهم، فعندئذ:

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ)

سجود سحرة فرعون إيمانا بالله وإقرارا بالهزيمة:

الصلحة بلمحة، تحولوا في لمح البصر من عملاء إلى فرعون.. من أجراء إلى مؤمنين مصدقين.

(فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (46) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47))

هذا ليس من فعل البشر، عصاه تصبح ثعباناً، وتأكل كل الحبال والعصي، هذا من فعل الله خالق الكون.

(قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (47) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (48))

عندئذ كاد فرعون يتميز غيظاً.

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ)

تهديد فرعون السحرة بأبشع أنواع القتل:

فقال لهم: آمنتم له، الدقة في اللغة لم يقل آمنتم به، بل آمنتم له، يعني أنتم آمنتم، أي انحزتم إلى جانبه انحيازًا هكذا، لمصلحة، لاتفاق سري لا أعلمه، آمنتم له.

لو فرضنا إنساناً دجالاً، شخصًا ما آمن له حتى يوهم الناس أنه على حق، أحيانا بعض الذين يلعبون ليبتزوا أموال الناس يكون حولهم أناس من طرفهم، يعطونهم المال الوفير على أثر ألعاب، فالمتفرج يصدق ذلك، فهذا يؤمن له، ولم يؤمن به، أن تؤمن لإنسان أن تنحاز له لمصلحة ما، ففرعون ما صدق أن هؤلاء السحرة آمنوا به، بل آمنوا له، آمنتم به أي صدقتموه، أما آمنتم له أي جاملتموه.

(قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ)

ما استأذنتموني في الإيمان.

(إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ)

يعني أنتم سحرة، وهو ساحر، لكنه ساحر كبير.

(فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

بدأ التهديد.

(لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ)

يعني أقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى.

(وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

هذا الموقف المدهش، أن هؤلاء السحرة الذين كانوا قبل قليل أجراء عند فرعون جاؤوا ليأخذوا ماله، وجاؤوا ليأخذوا على عملهم أجراً وفيراً، آمنوا إيماناً عظيماً وكان إيمانهم حملهم على أمر خطير.

(قَالُوا لَا ضَيْرَ)

صبر السحرة على أذى فرعون وحسن ظنهم بالله:

يعني افعل ما بدا لك، افعل ما تشاء، اقطع أيدينا وأرجلنا من خلاف، صلبنا في جذوع النخل، آمنا برب العالمين، لذلك من عرف الله زهد فيما سواه.

(قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)

نحن آمنا، وسننقلب إلى الله، أي نرجع إليه، نتوجه نحوه، نتوب إليه، نقبل عليه، نسعد بقربه، افعل أنت ما شئت أن تفعل، والحقيقة لا شيء إلا الله، يعني لا إله إلا الله هذه الحقيقة، لا رافع، ولا خافض، ولا معز، ولا مذل، ولا معطي، ولا مانع إلا الله.

(إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا)

يعني لنا خطايا كثيرة، فلعلنا بهذه التوبة نطمع أن يخفر لنا ربنا خطايانا.

(إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ)

فكانوا هم السابقين في إيمانهم بالله عز وجل.

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ)

تخطيط فرعون لقتل موسى وأتباعه:

يبدو أن الله سبحانه وتعالى علم أن فرعون بلغ من الغيظ الدرجة القصوى، ولا بدّ أن يبيدهم عن آخرهم، فأوحى الله إلى سيدنا موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون.

(فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

هنا يوجد تناقض في كلام فرعون، أرسل ليحشر كل جنوده.

(فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54))

إذا كان هؤلاء شرذمة قليلين هل تحتاج أنت إلى أن تحشر كل الجنود، فثمة شيء معلن، هو يريد أن يقلل من شأنهم، لكن في الحقيقة يخافهم.

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (53) إِنّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) فَأَخْرَجْنَاهُمْ ﴾

هنا جاءت اللحظة الحاسمة، فمِن أربعين أو خمسين سنة فرعون يقول أنا: ربكم الأعلى، الآن جاء الحساب.

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) ﴾

مرحلة الانتقام من فرعون وقومه ونصر موسى ومن معه:

عندما خرج سيدنا موسى مع قومه من مصر باتجاه الشرق، باتجاه البحر الأحمر جمع فرعون جنده وقواته، واتبعهم ليقتلهم، وقال:

﴿ إِنّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (54) وَإِنّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (55) وَإِنّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (56) ﴾

على كلٍّ الله سبحانه وتعالى استدرج فرعون بهذه الطريقة، فلما أوحى ربنا إلى سيدنا موسى أن أسرِ بعبادي إنكم متبعون استدرج فرعون وجنوده.

﴿ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ (57) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (58) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ(59)﴾

قال العلماء: إما أن بني إسرائيل عادوا إلى ما كان عليه فرعون من جنات، وعيون، وكنوز، ومقام كريم، أو أنهم عادوا إلى مثل هذه النعم بعد أن نصرهم الله عز وجل، كلا الرأيين صحيح.

﴿ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (59) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60) ﴾

اتباع فرعون مع جنوده آثار موسى وأتباعه إلى شاطئ البحر:

تبع فرعون موسى، فالمشكلة الآن أن سيدنا موسى وقومه متجهون باتجاه الشرق، الشرق فيه البحر الأحمر، وفرعون وما فرعون، وقوته، ومن حشرهم ليكونوا معه وراء سيدنا موسى وقومه، قوم سيدنا موسى إيمانهم متفاوت، إنسان يرى أنه في الطريق إلى البحر ليس معه سفينة، ولا قارب، ولا عدة، ووراءه فرعون بكل قوته فالموت محقق، العدو من ورائكم والبحر من أمامكم.

﴿ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (60) فَلَمّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾

لما رأى فرعون وقومه، ومن حشرهم سيدنا موسى وقومه، وكانوا على وشك أن يلحقوا بهم والبحر من أمامهم فلا بدّ أن يقبض عليهم، ولا بدّ أن يبيدهم عن آخرهم.

﴿ فَلَمّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

صبر موسى وحسن ظنه بالله:

بالمنطق هذا البحر، وهذا فرعون، ونحن ضعاف، وهو أقوى منا، سيدنا موسى قال:

(قَالَ كَلَّا)

مستحيل، فإنّ الله وعدني بالنجاة، أحياناً يعد الله عز وجل المؤمن بشيء، وقد تأتي الأحداث على خلاف هذا الوعد، فيقع المؤمن بسوء الظن، وهذا ذنب كبير، لما وعد ربنا عز وجل المؤمن بحياة طيبة، لو أنه بدا لك أن هناك حياة غير طيبة فهذا امتحان لك، سيدنا النبي اللهم صل عليه في معركة الخندق جاءته قريش بجيشها وأبطالها ومعظم القبائل العربية، عشرة آلاف مقاتل جاؤوا ليبيدوا المسلمين عن آخرهم، واليهود نقضوا عهدهم مع النبي، وبدا الأمر أن الإسلام كله مع نبيه العظيم ومع أصحابه الكرام لا يعيشون إلا سويعات، قضية زمن، حتى قال أحدهم: أيعدنا صاحبكم، ولم يقل رسول الله أن تفتح علينا بلاد كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، أين الوعد ؟ قال:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا)

(سورة الأحزاب)

وهذا الامتحان لا بدّ منه لكل مؤمن، فقد يبدو للمؤمن أحياناً أن الله تخلى عنه، ليسمع ماذا يقول، هل هو حسن الظن بالله، هل إيمانه بالله أقوى من هذا الحدث، أم أن هذا الحدث سحقه، فربنا عز وجل لا يصطفي المؤمن قبل أن يمتحنه، الإمام الشافعي سئل: رفع الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال: لن تمكن قبل أن تبتلى، لا بدّ أن يبتلى المؤمن ليمتحن الله صدق إيمانه، ليمتحن الله عز وجل محبته الحقيقة لربه، ليمتحن صبره، ليمتحن توكله، فالصحابة الكرام امتحنوا:

(هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (11) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (12))

وهذا الامتحان أعيد كذلك.

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (61) قَالَ كَلَّا)

لم يقل: لا، لأن **(كلا)**أداة ردع، أي لا تقل ذلك.

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

وإذا كان الله معك فمن عليك ؟

(فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)

معجزة انفلاق البحر ونجاة موسى إغراق فرعون وقومه:

أصبح البحر الأحمر طرقاً عريضة راسخة يابسة.

(وَأَزْلَفْنَا ثَمّ الْآَخَرِينَ)

سيدنا موسى دخل مع قومه، فرعون انتظر، ودهش، إلى أن خرج سيدنا موسى وقومه من الطرف الآخر، فتبعهم فرعون.

(وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (65) ثُمّ أَغْرَقْنَا الْآَخَرِينَ (66))

العاقبة لمن ؟ للمتقين، إذا كان الله معك فمن عليك، هذه قصة تتكرر، كن مع الله ولا تبال.

(إِنّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً)

آية كبيرة جداً، آية دالة على عظمة الله، آية دالة على أن الله وحده ولا أحد سواه.

(إِنّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (67) وَإِنّ رَبّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرّحِيمُ (68))

قصة موسى من التطبيقات العملية في القرآن:

القرآن فيه قواعد نظرية، وفيه تطبيقات عملية، وهذه القصة من التطبيقات العملية التي تؤكد القواعد النظرية، وهي قصة تعني كل مؤمن، لأن المؤمن في الحياة يحتاج إلى ركن ركين يلوذ به، ويلجأ إليه، وينصره على خصومه، فكن مع الله تلقَ كل راحة، وكل توفيق، وكل نصر، وكل تفوق، وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قصة سيدنا إبراهيم مع أبيه آزر ومع قومه.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (04-20): تفسير الآيات 69 - 81
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-08-11

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع من سورة الشعراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ)

قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه:

أي أيها النبي اتلُ على قومك نبأ إبراهيم، نبأ إبراهيم، أي قصة، أو خبر سيدنا إبراهيم، يبدو أن القصة الأولى في تفصيلاتها، وفي دروسها، ومواعظها كانت موجهة إلى بني إسرائيل، لكن كفار قريش يزعمون أنهم على دين إبراهيم، وأن إبراهيم هو الذي بنى الكعبة، فالله سبحانه وتعالى أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يتلو على هؤلاء المشركين قصة سيدنا إبراهيم، وكيف كان موحداً، وكيف كان يعبد الله وحده، وكيف كسر الأصنام.

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ)

يقاس على ذلك أن المؤمن أحياناً يرى، أو يستمع، أو يشاهد قصة بليغة تجسد آية قرآنية، قصة ذات موعظة بليغة، قصة ذات مدلول كبير، قصة تنير لنا الطريق، لو أن المؤمن قرأ قصة، أو شاهد أحداث قصة، وتأثر بها تأثراً كبيراً فقياساً على ذلك ينقل هذه القصة إلى من يثق بدينه، لمن يتوسم فيه الصلاح، لمن يتعظ لمن يفكر، لمن يتأمل، الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ)

ودائماً الحقائق التي تستقى من القصة أبعد تأثيراً من الحقائق المجردة، الاستنباطات التي تستنبطها من رواية قصة أبلغ من الحقائق التي تعرض مباشرة من دون حدث، ومن دون شخصية، ومن دون حركة مؤثرة في النفس.

ما قصة سيدنا إبراهيم ؟ واتل عليهم يا محمد، أي اقصص عليهم خبر إبراهيم، أبي الأنبياء، من أولي العزم، هو الذي بنى هذا البيت.

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ)

(سورة البقرة 127)

هل يرضيه أن يرى أصناماً حول هذا البيت ؟ هل يرضيه أن تعبد من دون الله حجارةً لا تنفع، ولا تضر ؟

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ)

طبعاً إنّ القصة في الأصل موجهة إلى قوم النبي عليه الصلاة والسلام، أو إلى مشركي قريش، ولكن القرآن الكريم موجه أيضاً إلى كل مؤمن إلى يوم القيامة.

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ)

إنكار إبراهيم عليه السلام على قومه عبادة الأصنام:

انظر.. قف متأملاً، هذا الذي يعيش مع أهله دون أن يفكر، ودون أن يتأمل تستهلكه الحياة، يستيقظ، يعمل، ينام، يأكل، يسهر، يسمر، ثم ينام، ويأكل، ويشرب، أين الفكر الذي أودعه الله فيه ؟ لِمَ لمْ تقف موقف المتأمل ؟ لِمَ لمْ تسأل نفسك أهي على حق أم على باطل ؟ هم مصيبون أم مخطئون ؟ هذا الذي يقول: إني وجدت هكذا، أهلي هكذا، بيئتي هكذا، مجتمعي هكذا، ظروفي هكذا، هذا ليس مهتدياً، بل يجب أن تقف موقف المتأمل، يجب أن تقف موقف الفاحص، لو كان في البيت اختلاط أو في البيت معاصٍ، لو كان هناك مخالفات تقول: ماذا أفعل هكذا أهلي، سيدنا إبراهيم سأل قومه:

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ)

ما الذي تعبدونه ؟ رأى أصناماً تُعبد من دون الله، لا تنطق، ولا تسمع، ولا تستجيب، ولا تنفع، ولا تضر، فلم يعجبه ذلك، لم ير ذلك متوافقاً مع المنطق، ولا مع العقل، ولا مع الواقع، ولا مع عظمة الكون، هذا الذي خلق السماوات والأرض أيُعبد حجر من دونه !

الإنسان يجب من حين لآخر أن يقف وقفات تأملية، هل عملي صحيح ؟ هل كسبي لمالي صحيح ؟ هل إنفاقي لهذا المال صحيح ؟ هل علاقاتي الاجتماعية وفق ما يرضي الله ؟ لا تكن ممن تستهلكه الدنيا، تستهلكه الدنيا فجأة يصحو على قرع ملك الموت، هذه ساعة عصيبة.

(فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ)

(سورة الطور)

حينما يلاقي الإنسان هذه الساعة ينتقل من كل شيء إلى لا شيء، فالإنسان العاقل قبل أن تأتي هذه الساعة يُعِدُّ لها العدة.

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70))

يبدو أن الإنسان في فطرته لا ترتاح نفسه إلا إذا عبد الله وحده، فإذا ضلّ يعبد سواه، يعبد شمساً أو قمراً، مما قرأت في هذه الأيام أن أحداثاً دانية في جنوب شرق آسيا، أو غيرها أنّ قومًا يعبدون القمر،

فلما وطئت قدم الإنسان أرض القمر انقسموا أقساماً ثلاثة: قسم نفى هذا الحدث، وقسم وجد له تبريراً، أن القمر سمح أن يطأ الإنسان عليه، وقسم آخر كفر بهذا الإله، إن الإنسان في فطرته مفطور على أن يعبد خالق الكون، فإما أن يعبد الله عز وجل، وفي هذا انسجام مع فطرته، وإما أن يعبد من دونه أشياء لا تنفع ولا تضر، أليس هناك قوم عبدوا البقر ؟ قد تقف البقرة في عرض الطريق فتقطع الطريق، أهذا دين ! أليس هناك قوم عبدوا الشمس ؟ أليس هناك قوم عبدوا صنماً اسمه بوذا ؟ أليس هناك قوم عبدوا الميكادو، كما يزعم أهل اليابان، إذاً:

(إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ)

هذا استفهام الإنكار، ما هذه الأصنام التي تعبدونها ؟ ما الذي تعبدونه من دون الله ؟

(قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً)

جواب قوم إبراهيم: نَعْبُدُ أَصْنَامًا

هذه المصيبة، لم يقولوا نعبد آلهة، قالوا نعبد أصناماً يعني نعرفها أصناماً، نعرفها أحجاراً، نعرفها أشياء لا تنفع ولا تضر.

(قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ)

نعبدها بشكل مستمر، معنى نظل أي نعبدها على الدوام، وكأنهم عطلوا تفكيرهم، وكأنهم مسخوا عقولهم، وكأنهم أناس لا يعرفون شيئاً ولا يهتدون.

(قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ)

هنا جاء السؤال الدقيق:

(قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

من صفات الإله المعبود الحقيقي السمع:

يعني من صفات الإله الذي ينبغي أن تعبده أن يسمعك، لأنك ضعيف في الأصل، إن الإنسان خُلق هلوعاً، بُنْيتُك الخَلْقية أساسها الضعف، وحينما خلقك الله ضعيفاً فهذا لمصلحة إيمانك، لأنك إذا كنت قوياً استغنيت بقوتك، واستغناؤك بقوتك يعني أن تشقى بالبعد عن الله عز وجل، تشقى باستغنائك، تستغني بقوتك فتشقى باستغنائك، لكن الله سبحانه وتعالى خلقك ضعيفاً كي تفتقر بضعفك إلى الله فتسعد بافتقارك، لو أن الله عز وجل خلقك قوياً لاستغنيت بقوتك عن الله فشقيت باستغنائك.

(إنّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسّهُ الشّرّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

(قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72))

تعبد الله أم ماذا ؟ لأنك عبد ضعيف، أنت معرّض للهم والحزن، معرض لمرض عضال، معرض لأزمة مالية، معرض لشبح مصيبة جاثم على صدرك، معرّض لما لا يُعد ويحصى من المشكلات، فالمؤمن له ركن ركين يلجأ إليه، المؤمن يشعر أن قوة كبيرة ترعاه، أنه بعين الله، أن الله يحفظه، فلذلك:

(قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72))

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الدعاء مخ العبادة))

(الترمذي عن أنس)

يعني أنك عبد فقير، وأن الله غني قدير، وهو يسمعك دائماً في كل مكان، الإنسان أحياناً يكون له شخص ذو أهمية في المجتمع، لكن لا يستطيع في بعض المواقف الحرجة أن يصل إليه، اتَّصَل به في الهاتف فقيل له: مسافر، هذا الذي عقدت عليه الآمال مسافر، هذا الذي تقول: أنا فلان حينما أطلب منه شيئاً يلبيني فوراً.. هو مسافر، هذا الذي عبدته من دون الله مسافر، أو قد يكون مريضاً، أو يكون خارج المنزل، أو قد يكون نُحِّيَ من عمله الذي أنت عقدت عليه الآمال.

فربنا عز وجل من لوازم الإله الذي يجب أن تعبده أن يسمعك في أي وقت، في خلوتك وفي جلوتك، في حِلّك في ترحالك، وأنت مسافر، وأنت مقيم، وأنت صحيح، وأنت مريض، وأنت قوي، وأنت ضعيف.

(قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

لذلك يقول الله عز وجل:

(قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

فائدة مسلكية: سؤال الله ودعاءه:

هل دعوت الله عز وجل ؟ هل سألته الجنة، وما قرب إليها من قول أو عمل ؟ هل استعذت به من النار، وما قرب إليها من قول أو عمل؟ هل سألته أن يكفيك بحلاله عن حرامه، وبطاعته عن معصيته، وبفضله عن من سواه ؟ هل سألته العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة ؟ هل سألته

أن تحبه، وأن تحب من يحبه ؟ هل سألته عملاً صالحاً يقربك إليه ؟ هل سألته تفكيراً سديداً، ولساناً صادقاً، وقلباً ذاكراً، وجسداً على البلاء صابراً ؟ هل سألته عصمة في الدين ؟ هل سألته صلاح الدين والدنيا ؟ ماذا تفعل ؟ النبي عليه الصلاة والسلام كان يدعو دبر كل صلاة، وكان إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الله يحب الملحين في الدعاء))

(الجامع الصغير عن عائشة بسند فيه مقال)

((وإن الله يحب من عبده أن يسأله شسع نعله إذا انقطع))

(الترمذي عن أنس)

و:

((الدعاء مخ العبادة))

(الترمذي عن أنس)

لكن قال الله عز وجل:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطرّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ)

(سورة النمل 62)

أنت إذا كنت مضطراً تدعو الله بقلب متأجج، تدعو الله بدعاء حار، تشعر كأن كل خلية تدعو الله عز وجل، اجعل دعاءك دعاء المضطر، اجعل طلبك من الله طلباً ثميناً، اسأله كل شيء، اسأله خير الدنيا والآخرة، اسأله الحفظ، اسأله كل ما تطمح إليه، لذلك الله عز وجل يحب من عبده أن يسأله.

(قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

هذه الأصنام التي تدعونها لا تسمعكم إذ تدعون.

(أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)

الأصنام لا تنفع ولا تضر:

الحقيقة: لا يسمعونكم إذ تدعون، لا ينفعونكم أو يضرون فقط، لكن هنا صفات الله سبحانه وتعالى الذي ينبغي أن تعبده له أسماء حسنى كثيرة، وله صفات فضلى كثيرة، لماذا اكتفى ربنا سبحانه وتعالى بقوله: يسمع عباده إذا دعوه، وأنه يملك نفعهم وضرهم ؟

الحقيقة أن أول صفة من صفات الإله الذي ينبغي أن تعبده أن يكون هناك اتصال بينك وبينه، ما دام الاتصال مقطوعاً فهذا ليس إلهًا، سيدنا إبراهيم لما رأى كوكباً قال: هذا ربي، فلما أفل وانقطع الاتصال قال: لا أحب الآفلين، لا يعقل أن يكون هذا رباً ما دام قد أفل، إذاً ينبغي أن يكون هناك اتصال دائم بينك وبيت الخالق، وينبغي أن يكون الخالق قديراً على كل شيء، على أن ينفعك، أو على أن يعاقبك، إذا

أيقنت أن الله يسمعك، وأن الله يراك، وأن الله قادر على أن ينفذ فيك حكمه نفعاً كان أم ضراً، إذا أيقنت ذلك حق اليقين تستقيم على أمره حق الاستقامة، هذا شيء ثابت، أنت في علاقاتك مع بني البشر إذا كان ثمة من هو أعلى منك، وكان مطلعاً على أعمالك بطريقة أو أخرى، وكان يفعل ما يقول بإمكانه أن يعطيك شيئاً ثميناً، وبإمكانه أن يسلبك شيئاً ثميناً، تجد نفسك بشكل أو بأخر منساقاً إلى طاعته، أما إذا كان الاتصال مقطوعاً أمره شديد، وعقابه كبير، لكن لا يراك فإنك تعصيه، يراك، ولكنه أضعف منك فإنك تعصيه، لكن متى تطيعه قطعاً ؟ إذا رأيته يعلم ورأيتَه يقدر، لذلك:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق)

إذا أيقنت بعلمه وبقدرته استقمت على أمره، إذا نظرت فهو ينظر إليك، إذا أكلت مالاً حراماً ربما يُتلف مالك، إذا تطاولت ربما أهانك، إذا أخذت ما ليس لك ربما أخذ ما ليس لك، لهذا قال عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث المروية عنه:

((ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يغفر الله أكثر))

(الجامع الصغير عن البراء)

(قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

من صفات الإله الحق السمع والنفع والضر:

من صفات الإله الضرورية أنه يسمعك إذا دعوته.

(أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)

لماذا تعبد الله ؟ لأن روحك بيده، حياتك بيده، أعضائك بيده، نقطة دم في مكان من الدماغ تسبب شللاً تاماً، بمكان آخر تسبب عمى، بمكان آخر فقدان ذاكرة، بمكان رابع فقدان عقل، نقطة دم لا يزيد حجمها عن رأس الدبوس لو تخثرت في بعض شرايين المخ لأصيب الإنسان بعاهة خطيرة تقلب حياته جحيماً، والمعدة بيده، والأمعاء بيده، والكبد بيده قد ينمو هذا الكبد نمواً سرطانياً، قد ينمو أي مكان في جسمك نمواً سرطانياً تنتهي الحياة، فحياة الإنسان بيد الله عز وجل، من بيده صمامات القلب ؟ من بيده الشريان التاجي في القلب ؟ من بيده حركاتك وسكناتك ؟ من بيده سمعك وبصرك ؟ من بيده سلامة عقلك ؟ من بيده سلامة أعضائك ؟ الله عز وجل ينفع ويضر، قد يحفظك فتعيش حياة آمنة مطمئنة طويلة مديدة بسعادة ورفاه ورضًى وسرور وتوكل، وقد تعيش حياة كلها متاعب.

فالإله يسمع، ويعلم، وينفع، ويضر، فما لك من طاعته بدّ، وما لك من محبته بدّ، وما لك من الإقبال عليه بدّ، فأته طائعاً قبل أن تأتيه خاضعاً، ائته طائعاً قبل أن تأتيه بالسلاسل، إذا جئته طائعاً من دون سلاسل فهذا موقف نبيل وشريف، هذا موقف حر.

(قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)

الاحتجاج بالبيئة وتقاليد الآباء:

هكذا البيئة، انظر إلى صرعات العصر الحديث، بيئة تفاعل الإنسان مع البيئة، مرحباً بالبيئة إذا كانت نقية من كل معصية، أما بيئة كلها معاصٍ تفاعل مع البيئة، الواقع هذا فكره واقعي، الواقع يجب أن يكون وفق الشرع، فإذا كان خلاف الشرع فلا قيمة لهذا الواقع، كلمات البيئة، والواقع، والمعطيات، والظروف المحيطة بالإنسان هذه كلها فيها الحق، وفيها الباطل، فيها الخير، وفيها الشر، يجب أن تقبل منها ما هو خير، وما هو صحيح، ما هو مشروع، ما هو متوافق مع كتاب الله، أما عادات أساسها المعاصي، أساسها الاختلاط، أساسها أكل مال الناس بالباطل، أساسها تجاوز حدود الآخرين، هذه معاصٍ، تقول عادات تقاليد بيئة معطيات ظروف كل هذا كلام فارغ، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، يعني هكذا التقاليد أن الشاب يظهر أمام النساء هذه تقاليد بالية، تقاليد فاسقة، تقاليد ليست من الحق في شيء.

فلذلك التقليد ليس إله، والعادات، والأعراف، والواقع، والبيئة، والظروف، أخي نحن ظرفنا هكذا، ليس عندنا حجاب، هكذا تربينا، ما معنى هكذا تربينا ؟ ليس لها معنى، يوجد إله خلقك يقول لك: افعل، ولا تفعل، يجب أن تفعل ما أمرك أن تفعله، وألاّ تفعل ما أمرك أن لا تفعله.

(قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)

فكل واحد يقول: أنا بيئتي هكذا، هكذا تربينا، هكذا يفعل أبي، يُدعون جميعاً رجالاً ونساءً يوم العيد على مائدة واحدة هذا خلاف السنة، خلاف القرآن، الاختلاط أصبح كثيراً، هكذا يفعل أبي، هكذا الجيران، هكذا الحي، هكذا أسرتنا، هكذا بيئتنا، هكذا الواقع، هكذا الظروف، هذه الظروف، والبيئة، والمعطيات، وما إلى ذلك من هذه الأصنام التي عبدها الناس من دون الله، هم يعبدون المظاهر، فهو سمعته عند الناس أغلى عليه من سمعته عند الله، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين.

عدم عذر الإنسان بما وجد عليه الآباء:

أردت من هذه الآية أن الإنسان ليس معذوراً إذا قال: التقاليد هكذا، هكذا بيئتي، هكذا نشأتُ، هكذا علمنا أبونا رحمه الله، نعم رحمه الله، وأدخله الجنة، ولكن هل علّمك وفق الشرع ؟ إذا كان كذلك ليس هناك مانع، إما إذا كان خلاف ذلك، لو أن أباك له محل تجاري، والتعامل على أساس ربوي، فأنت ماذا تفعل ؟ هكذا علمني، هل أبوك إله ؟ لا.. أبوك عبد لله، يخطئ، ويصيب، فإذا أصاب فمرحباً بهذا الصواب، أما إذا أخطأ فيجب ألا تبقى على خطئه.

(قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آَبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75))

هذه الأصنام.

(أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77))

عداوة إبراهيم لعبادة الأصنام:

هذه العداوة قد يسميها بعض العلماء عداوة المآل، يعني لو كانت لك قضية بمكان معين، وإنسان أوهمك أن بيده حل هذه المشكلة، وابتز من مالك الشيء الكثير، ثم اكتشفت فجأة أنه ضعيف لا يستطيع أن يحرك ساكناً، بعد هذه المدة الطويلة، وهو يبتزّ مالك، وهو يقول لك: أنا أفعل كذا، وكذا، وبإمكاني أن أفعل كذا وكذا، وفلان مفتاحه عندي، وفلان لا يعصي لي أمر، ونمْ مطمئنًا، وادفع هذا المبلغ، ثم اكتشفت فجأة أن هذا الذي ابتز مالك ليس بإمكانه أن يفعل شيئاً، ألا ينشأ عداوة منك تجاهه ؟ طبعاً.

فهؤلاء الذين عبدوا الأصنام، وظنوها أنها تحفظهم، وأنها تنجيهم، وأنها تنقذهم، حينما اكتشفوا عند الموت أنها لا تنفع ولا تضر، وأنهم أخطؤوا خطأً كبيراً بعبادتها عندئذ ينشأ في نفوسهم عداوة لا حدود لها تجاه هذه الأصنام التي عبدوها من دون الله.

والآن لو أن إنساناً دلّك على عمل لا يرضي الله عز وجل، ووافقته على هذا العمل، وجاءك العلاج الإلهي، ألا تشعر بعداوة بالغة تجاهه ؟ بلى، لو أن إنساناً دلّك على معصية، أو دلك على خرق حدود الله، أو دلك على عمل يسخط الله، أو دلّك على ظلم الآخرين، أو شجعك على أن تخشى الناس، أو حملك على أن تأخذ مالاً ليس لك، لو أن إنساناً دفعك إلى هذا ثم دفعت الثمن باهظاً جاء العلاج الإلهي ألا تشعر أنه عدو لك ؟ عندئذ تعاديه أشد العداء، هكذا.

(قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ(77))

معنى قوله: إلاّ رَبّ العَالَمِينَ:

بعض المفسرين قال: إلا من يعبد رب العالمين، هذا القول، وهذا التفسير خطأ، لأنه لا يتناسب مع تتمة الآية:

(الّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين)

والأوجه أن تقول: إلا رب العالمين، وإلا من يعبد رب العالمين، أنت تحب الله رب العالمين الذي أسبغ عليك نعمة الوجود.

(هَلْ أَتَى عَلَى الإنسَانِ حِينٌ مِنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

(سورة الإنسان)

والذي أسبغ عليك نعمة العقل، وأسبغ عليك نعمة البيان:

(الرّحْمَنُ (1) عَلّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

وسخر لك ما في الكون جميعاً لك، وهبك نعمة العقل، وهبك نعمة البيان، أرسل لك الأنبياء، وأنزل عليهم الكتاب من أجلك، إذاً ينبغي أن تحبه، لأنه أنعم عليك بنعمة الوجود، ونعمة الإمداد، ونعمة الإرشاد.

(فَإِنّهُمْ عَدُوّ لِي إِلّا رَبّ الْعَالَمِينَ)

وصف إبراهيم لرب العالمين:

من رب العالمين ؟

(الّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين)

هذه هو، تقول مثلاً: فلان أحضر طعاماً، هذا كلام لا ينفي عن الآخرين أنهم لم يحضروا طعاماً، وجدت أمامك طعاماً كثيراً، من جاء بهذا الطعام ؟ يقول لك: فلان أحضر طعاماً، هذا الكلام يعني أنه أحضر طعاماً، وربما فلان آخر أحضر طعاماً أيضاً، ولكن إذا قلت: الذي أحضر الطعام هو فلان، هذه صيغة قصر.

(الّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين)

من لوازم الربوبية الخَلق والهداية:

أي أن الهداية لا تكون إلا من الله، لو قرأت مذهباً وضعيّاً، لو قرأت كتاباً لفيلسوف كبير، لو اطّلعت على نظرية معينة من صنع البشر هذا كله ضلال في ضلال، لأن الذي خلقك هو وحده الذي يهديك، إن الله هو الصانع، كمثل آلة معقدة جداً ليس في الأرض كلها جهة واحدة مخولة أن تعطيك تعليمات التشغيل والصيانة إلا الجهة الصانعة، وأنت تفعل كذلك عندك آلة معقدة لك جيران، لك جار موظف وجار صانع، وجار عنده محل تجاري، تبحث عن التعليمات المطبوعة التي جاءت مع هذه الآلة ولا تسأل أحد من هؤلاء لأنهم لا يعرفون، الجهة المخولة بإصدار تعليمات التشغيل، والصيانة هي الجهة الصانعة.

(الّذِي خَلَقنِي فَهُوَ يَهْدِين)

فإما أن تكون مهتدياً من قِبل الخالق، وإلا فأنت في ضلال مبين قولاً واحداً، قولهم الإنسان أصله قرد هذا ضلال، وقولهم الإنسان كل شيء في حياته الجنس هذا ضلال، المادة كل شيء في حياة الإنسان الماديين هذا ضلال، اللذة كل شيء في حياة الإنسان الشاذ هذا ضلال، هذا كله أرضيّ، الفكر الذي ينكر وجود الخالق ضلال.

(الّذِي خَلَقنِي فَهُوَ يَهْدِين)

إما أن تهتدي بالهدى الذي أنزله الله على أنبيائه فأنت مهتدٍ، وإلا فأنت ضال، الذي خلقني هو وحده يهديني، هذه العبارة فيها قصر في البلاغة، الذي جاء بهذا الطعام هو فلان، كلمة هو فلان أي وحده.

(الّذِي خَلَقنِي فَهُوَ يَهْدِين)

لذلك كتاب في علم النفس مثلاً يقول: إن الشاب لما يكون في حياته الاجتماعية مع شابة تتهذب مشاعره وترق، يتهذب كلامه، هذا ضلال، لأنه خلاف القرآن، لا يوجد كتاب خلاف القرآن فيه حق إلا أن يكون مستقى من القرآن، فأصبح حقاً، كتاب أخذ أفكاره من كتاب الله، كتاب جاء بالدليل من القرآن فهو حق، أيّ كتاب جاء بأفكار مدعومة من القرآن والسنة فهو صحيح، وهو حق، أما كتاب آخر جاء بأفكار بحث علمي أن قليل من الخمر تنعش القلب، كلام فارغ، لأنه خلاف القرآن الكريم، هذا الكتاب الذي من عند الله، قولهم: هذا النبيذ يبعث في الجسم الحرارة، فهو ضروري في الشتاء، هذا كلام فارغ، لأنه خلاف القرآن، مما أسكر كثيرُه فملء اليد منه حرام، وانتهى الأمر، أنت عندك مقياس، وعندك منهج، وعندك دستور، عندك قاعدة هذا الخالق العظيم هذا الكون خلقه، وهذا القرآن كلامه، وكلامه مطابق لخلقه، هذه التعليمات لهذه الآلة، الصانع واحد الذي صنع هذه الآلة أصدر هذه التعليمات، إذاً هذه التعليمات تضمن سلامة الآلة وأداء مردودها أعلى أداء.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

يعني هدى من كتاب يبتعد عن الدين، يبتعد عن القرآن، يبتعد عن أمر الله عز وجل ضلال في ضلال، لكن يكون الباطل أحيانا في زخرف، له بريق مصطنع، الإنسان قد يؤخذ بظاهره، ولكن إذا طبقته على المدى البعيد تكتشف الخلل الخطير في داخله.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79))

من لوازم الربوبية: الرزق

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ(23))

(سورة الذاريات)

لكن هناك سؤال دقيق: لماذا قدم الله الهدى على الإطعام والسقي ؟ لأن الهدى أخطر في حياتك من الطعام والشراب.

(الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4))

(سورة الرحمن)

كيف قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان ؟ لأن المنهج مقدم على الحياة، والهدى مقدم على الإطعام والسقي.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79))

هو يطعمني، أنت إذا اشتريت فاكهة فإياك أن تتوهم أن هذا المال ثمن الفاكهة، هذا المال ثمن خدمة الفاكهة، ثمن خدمتها فقط، لو أن الله عز وجل لم يخلق هذه الفاكهة ولا هذا القمح ولا هذه الخضار.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)

(سورة الملك)

الله عز وجل، إذا امتنعت السماء عن أن تنزل المطر بأمر الله عز وجل فكل هذه الأشجار المثمرة تصبح حطباً، وهذا رأيناه بأم أعيننا في إفريقيا، مساحات شاسعة يبست، الغابات، يبست الأشجار، ماتت الأبقار والأغنام، وهجر الناس الأرض، وهاموا على وجوههم، وصاروا يقفون وراء بعضهم بعضاً ينتظرون قطرات الماء تأتيهم من جهات بعيدة.

(وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ)

العام الماضي الله عز وجل تفضل علينا بأمطار غزيرة، فكان كيس القمح إذا بذر يعطي سبعين كيساً، السنة اثنين أو ثلاثة أو أربعة، هو الرزاق، المحصول يكثر، ويكثر فتحار كيف تستخدمه، وكيف تخزنه، وماذا تفعل به، ويقل، ويقل حتى لا تدري ماذا تفعل به.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79))

إذا جلس الإنسان إلى مائدة، وأكل يقول: هذه مائدة الله عز وجل، لو أنه أعطاك هذا التفكير في خبرة تعمل بمصلحة أو بمهنة، لو أن هذا الفكر تعطل أخذ إلى المصحة أين الرزق ؟ تعطل الرزق، إذا معك مال فهذا من فضل الله عز وجل، يعني مكنك من عمل يدر عليك مالاً، خلل في الصحة يتعطل العمل، فلذلك الله عز وجل هو الرزاق الذي مكنك من كسب الرزق، هو الرزاق الذي خلق الرزق، وهو الرزاق الذي ساقه إليك مكنك من طلبه وخلقه وساقه إليك، هو الرزاق. فإياك أن تقول:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص 78)

الرزق رزق الله

لا، هذا رزق الله عز وجل، فإذا أكلت، أو شربت فاشكر المولى عز وجل على أنه خلق هذا الطعام، وعلى أنه جعلك سليماً معافى بإمكانك أن تأكل هذا الطعام، وعلى أنه يسر لك عملاً يدر عليك مالاً تشتري به هذا الطعام، كم مرة: خلق هذا الطعام، أعطاك صحة سليمة بإمكانها أن تأكل هذا الطعام، يسر لك عملاً يدر عليك مالاً تشتري به هذا الطعام، لذلك قل الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي أطعمنا، وسقانا، وإليه النشور.

النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا خرج من الخلاء قال:

((الحمد الله الذي أذاقني لذته، وأبقى فيّ قوته، وأذهب عني أذاه))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

يعني الطعام، أذاقني لذته، السيروم ليس فيه لذة، حقن في الوريد اثني عشر ساعة، وتنتهي، لكن بوجود صحتك فإنك تأكل تفاحة، أو بطيخًا، أو خضر، أو فواكه، أذاقني لذته، وأبقى فيّ قوته، وأذهب عني أذاه، مسالك البول جارية، لو أنها انسدت لاحتاج إلى عمليات، وبحصة، وكلية تعطلت شيء صعب، أذاقني لذته، وأبقى فيّ قوته، وأذهب عني أذاه.

(وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ)

كلمة هو يعني إياك أنّ تتوهم أن مالك وحده يكفي لأن تأكل وتشرب، أو أن قوتك وحدها تكفي قوتك العضلية، أو أن خبرتك في هذا الموضوع، أو أنك متقن لهذه الحرفة، أو أن لك باعاً طويلاً في هذا المجال، فتقول: أنا تاجر عريق، صناعي كبير، طبيب لامع، محامٍ لامع، إياك أن تظن أن خبراتك ومعلوماتك وذكاءك ومالك هذا كله جعلك تأكل هذا الطعام، هذا الطعام من فضل الله سبحانه وتعالى، هو خلقه، ومكنك من أكله، وألهمك عملاً كسبت منه مالاً فدفعت ثمن هذا الطعام، أما قارون فقال:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ)

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

من لوازم الربوبية: الشافي هو الله:

أحياناً يمرض الإنسان، فيزور الطبيب، يصف له الدواء يشفى، ينسى أن الله عز وجل هو الذي شفاه، يتوجه بكل طاقته إلى بالشكر طبيب، الطبيب يشكر إذا خدمك لكن لا تنسَ فضل الله عز وجل.

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

إن الطبيب لـه علـم يدل بـه   إذا كان للناس في الآجال تأخير

أما إذا ما انتهت أيام رحـلته   حـار الطبيب وخانته العقاقير

* * *

غلطة صغيرة من الطبيب تودي بحياة المريض، يعطيه دواءً، وما سأله سؤالا صار معه صدمة فتوقف قلبه فمات، واسأل أي طبيب تريد، هناك ما يسمى عند الأطباء الشفاء الذاتي، يعني الله عز وجل أحياناً مع أن الأطباء حكموا على هذا المرض بأنه عضال، وأنه لا شفاء له، وأن هذا المريض لن يعيش إلا أسبوعين، فإذا هو يعيش عشرين عاماً بعد قولهم، وإذا هذا الذي قال: لن يعيش إلا أسبوعين مات بعد خمس سنين، وبقي المريض يعيش بعد ذلك خمس عشرة سنة.

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

لذلك اليأس كفر.

(إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

مهما كان المرض عضالا.

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

مهما كانت المصيبة مؤلمة فإنّ الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، إذا أعطى أدهش.

هذه الآية تبث الأمل في النفس، مهما كانت القضية ليس لها حلّ، وأحياناً ربنا عز وجل من لوازم العلاج النفسي يلهم الطبيب أنه ليس هناك دواء هذه قضية معصية لا تتعب نفسك، وطن نفسك عليها طوال حياتك، إذا بهذا الطبيب رأى شيئاً أدهشه.

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

تقول لي: الطبيب قال: هذه علة دائمة، وهذه ليس لها دواء، هذا علمه، ذلك مبلغه من العلم، ولو علم العلم الكامل والشامل لقال لك: معلوماتي التي درستها تقول: كذا، وعند الله ما ليس عندي، الطبيب هكذا يقول، أنا الذي أعرفه هذا المرض لا شفاء منه، ولكن الله عز وجل قادر أن يشفيك منه، فتوجه إلى الله بالدعاء، هذا الطبيب المؤمن هكذا يقول، أما إذا جزم هذا الطبيب فهو لا يعرف ما عند الله.

(وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)

لأن الناس قد يتوهمون الهدى من غير الله جاءت هو تؤكد، وقد يتوهمون الرزق من غير الله فجاءت هو تؤكد، وقد يتوهمون الشفاء من الأطباء فجاءت هو لتؤكد، ولكن الناس قاطبة مؤمنهم، وكافرهم يعتقدون أن الذي يحي، ويميت هو الله، لذلك:

(وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)

الإحياء والإماتة من صفات الله:

ما الموت ؟ الموت هو أن يريد الله أن يموت هذا العبد، لكن مهما تكن العلل كبيرة، والموت لم يَحن بعدُ فهو في فسحة الحياة، لذلك لا خوض غمار الحرب يقرّب الأجل، ولا أي شيء آخر يقرب الأجل، ينهي الأجلَ اللهُ سبحانه وتعالى، هذا المعنى يبث في النفس الشجاعة، الإنسان له أجل محدود لا يتقدم ولا يتأخر.

(وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82))

من معاني الموت:

الخطيئة هنا لها معنىً دقيق، في بعض التفسيرات الإشارية لهاتين الآيتين الأخيرتين أن بعض المفسرين يقول: إذا مرضت بمخالفته شفاني الله برحمته، وإذا مرضت بمقاساة الخلق شفاني الله بمشاهدة الحق، وإذا مات العبد بالمعاصي أحياه الله بالطاعات، وإذا مات بالخوف أحياه الله بالرجاء، وإذا مات بالطمع أحياه الله بالقناعة، وإذا مات بالعدل أحياه الله بالفضل، وإذا مات بالجهل أحياه الله بالعلم، وإذا مات بالفراق أحياه الله بالتلاقي.

المعنى الأول:

الحقيقي الموت هو الموت، وهو انفصال الجسد عن الروح، يعني نهاية الحياة الدنيا، هذا هو المعنى الحقيقي الأول.

المعنى الثاني:

من معاني الموت: الذي يعصي ربه كأنه ميت، والخائف كأنه ميت، الخائف بسبب الشرك كأنه ميت، والطامع في الدنيا ميت القلب، والبعد عن الله موت، والجهل موت، والعلم حياة، واللقاء مع الله حياة، وفضل الله حياة، والقناعة والرجاء والطاعة حياة.

في الدرس القادم إن شاء الله ننتقل إلى قوله تعالى:

(وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

إن شاء الله نفصل فيها في الدرس القادم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (05-20): تفسير الآيات 82 - 89
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 18-08-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الشعراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (69) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (70) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (71) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (72) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (73) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (74) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (76) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81))

إلى هنا وصلنا في تفسير الآيات.

(وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

معنى الخطيئة المنسوبة إلى الأنبياء وعلاقتها بالعصمة:

كلمة (خطيئة) حينما تنسب إلى سيدنا إبراهيم، أو حينما ينسبها إبراهيم إلى نفسه عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، هذا يقودنا إلى موضوع دقيق هو عصمة الأنبياء، الله سبحانه وتعالى اصطفى من خلقه رسلاً ليبلغوا دعوته للناس، وهؤلاء الرسل أمرنا ربنا باتباعهم في كل حركاتهم وسكناتهم، فهل يعقل أن يقع خطأ من رسول ؟ هل يعقل أن يرتكب النبي أو الرسول معصية أو ذنباً، أو أن يقع في كبيرة، أهذا معقول ! ما الذي يحدث ؟

كيف يأمرنا ربنا سبحانه وتعالى أن نطيع أنبيائه ورسله وهم غير معصومين ؟ كأن الله يأمرنا أن نتبع المعصية أو الخطأ وهذا مستحيل، أو أن نلغي أمر الله لنا باتباعهم، أيضاً هذا مستحيل، لذلك علماء العقيدة، وما عليه جمهور العلماء أن الأنبياء من صفاتهم الأساسية العصمة، أي أنهم معصومون من أن يقعوا في كل أنواع المعصية، والخطأ، والمخالفة، والإثم في معتقداتهم، وفي أقوالهم، وفي أفعالهم، وأخلاقهم.

قضية عصمة الأنبياء شيء مقطوع بها، لو لم يكن الأنبياء معصومين لاختل ميزان الشريعة، لأن الله سبحانه وتعالى يأمرنا فيقول:

(وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر 7)

لمّا أمرنا الله عز وجل أن نأخذ كل ما أمرنا به النبي فإذا كان يصح أن يقع النبي في خطأ، أو في معصية، أو في إثم، أو في مخالفة، سواء في معتقده، أو في أقواله، أو في أفعاله، أو في أخلاقه لو أن هذا ممكن لاختل ميزان الشريعة، نقول: يا رب كيف تأمرنا أن نتبعه، وها هو يخطئ ؟ أنلغي أمرك، أم نتبع خطأه ؟ كل هذا لم يكن، الأنبياء معصومون، ومعنى معصوم هذه اسم مفعول من عصم، ومعنى عصم أي منع، قال:

(سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلا مَنْ رَحِمَ)

(سورة هود 43)

(وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ)

(سورة يوسف32)

أي امتنع، فالله سبحانه وتعالى حدثنا عن أنبيائه الكرام جملة لا تفصيلاً، فقال:

(أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ)

(سورة الأنعام90)

أي أنت أيها المؤمن مطالب أن تقتدي بهدي الأنبياء جميعاً، ونحن المسلمين مطالبين بأن نقتدي بهدي نبينا عليه الصلاة والسلام، آية أخرى يقول الله عز وجل:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(سورة الأحزاب21)

إذاً هو أسوة حسنة، هو قدوة صالحة، وهو مثل أعلى، إذاً يستحيل الخطأ على الأنبياء لأنهم قدوة، بل لأن الله جعلهم قدوة فإذا جعلهم الله قدوة، ووقع منهم الخطأ ماذا نفعل ؟ أنقتدي بخطئهم هذا مستحيل ؟ أنلغي أمر الله بالاقتداء بهم هذا مستحيل ؟ يقودنا إلى أن نعتقد اعتقاداً جازماً بعصمة الأنبياء جميعاً والمرسلين.

معنى النبي، ومعنى الرسول ذلك الإنسان الذي لا ينقطع عن الله لحظة، فإذا كنت تحمل ضوءًا كشافاً ترى به كل شيء هل يعقل أن تقع في خطأ ! هل يعقل أن تهبط في حفرة ! مستحيل، الاعتقاد بعصمة الأنبياء جزء من العقيدة الإسلامية الصحيحة.

ولكن اليهود يعتقدون خلاف ذلك، يعتقدون أن سيدنا لوط شرب الخمر، وزنى بابنتيه، ويعتقدون أن نبياً آخر زنى بزوجة ابنه، ويعتقدون أن سيدنا إبراهيم ارتدّ بعد الإيمان، وعبد الأصنام، يعتقدون اعتقادات ما أنزل الله بها من سلطان، ولو أن عندكم وقتاً كافياً، واطلعتم على ما في كتبهم المقدسة التي كتبوا فيها من عند أنفسهم لرأيتم العجب العجاب، نحن نعتقد أن الأنبياء جميعهم معصومون، وكذلك الرسل، وعصمتهم من لوازمهم، صفة أساسية من صفاتهم، ألا وهي العصمة.

شيء آخر، أحد الأئمة وهو الإمام القرطبي صاحب التفسير الجامع لأحكام القرآن يقول: العصمة إذا نسبت إلى النبي تعني امتناعه من أن يقع في كل المعاصي صغيرها وكبيرها، ولا تنسوا أن هذه المعاصي سماها النبي عليه الصلاة والسلام القاذورات، يعني كيف أن الإنسان أحياناً يشمئز من رائحة الجيفة، الجيفة حيوان مات في البرية، ومضى على موته بضعة أيام بعد أن ينتفع، وتفوح منه رائحة لا يستطيع الإنسان أن يواجهها هذه الرائحة التي لا تحتمل لو أن للمعاصي روائح، لو أن للخيانة رائحة، لو أن للكذب رائحة، لو أن للغدر رائحة لوجدنا أن رائحة هذه المعاصي تزيد عن رائحة الجيف، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ أَصَابَ مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ شَيْئًا فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللَّهِ فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِي لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللَّهِ))

(موطأ مالك)

القاذورات المعاصي، الزنى قاذورة، عمل قذر فيه خيانة لهذه المرأة التي هي أختك في الإنسانية، إن أردتها فتزوجها، أما أن تقضي وطرك منها، وتتركها بعد أن سقطت فهذا عمل قذر، الزنى عمل قذر، والسرقة، والخيانة، والكذب، والبهتان، والغيبة، والنميمة، والإفك، والاستعلاء، والأثرة، كل هذه الصفات سماها النبي عليه الصلاة والسلام القاذورات.

لكن شيء آخر، يرجح العلماء أن تكون عصمة الأنبياء بعد النبوة بإجماعهم، وقبلها لماذا ؟ لأن الله عز وجل يقول لسيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام:

(وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي)

(سورة طه)

معنى ذلك أن الإنسان إذا جاءته رسالة من عند الله، ويعلم من هذا المرسل أن له ماضياً سيئاً، أنه له جاهلية، فإن هذا الماضي يستمر أثره إلى ما بعد الرسالة، لذلك لا يمكن أن تكون عصمة الأنبياء بعد الرسالة فقط، إنها عصمة قبل النبوة وبعد النبوة ضماناً لمكانة النبي في أمته وفي هؤلاء الذين يدعوهم إلى الله، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان صغيراً كان إذا دعي إلى اللهو يقول عليه الصلاة والسلام: لم أخلق لهذا.

شيء آخر، وهو عن الأنبياء، الأنبياء معصومون، لكن الأولياء محفوظون، الله سبحانه وتعالى يحفظهم، كيف يحفظهم ؟ لو أن ولياً من أولياء الله عز وجل وقع في خطأ طفيف عالجه ربنا عز وجل، وألهمه الصواب، يشدد عليه في العتاب، مباشرة يترك هذا الخطأ، فهذا اسمه في علم العقيدة حفظ، الأنبياء معصومون عن الخطأ، والأولياء محفوظون، فهذا الذي عرف الله عز وجل لا يمكن أن يقع في كبيرة، ولا يمنع من أن يقع في شيء طفيف عن غير قصد، ومع ذلك الله سبحانه وتعالى يلفت نظره،

يضيق عليه، يعاتبه، يمنع عنه التجليات، يرسل له شيئاً يذكره، على كلٍ فالولي محفوظ والنبي معصوم وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة الحديد)

هذا هو الحفظ، معناه أن المؤمن معه مصباح كشاف يرى به طريق الحق من طريق الشر من طريق الباطل، يرى به الخير من الشر، الحق من الباطل، ما يصح، وما لا يصح، ما يجوز، وما لا يجوز، هذا النور الذي يقذفه الله في قلبه يكشف له متاهات الطريق، هذا هو الحفظ الذي وعد الله به أوليائه، ولكن الأنبياء لأنهم قدوة، ولأن النبي مقامه مقام التشريع، فأفعاله، وأقواله، وسكوته إقرار، حركاته، سكناته، أخلاقه، معاملاته كلها تشريع، لذلك لا يعقل أن يقع منه صلى الله عليه وسلم أي خطأ أو خلل، هذه العقيدة الصحيحة، وقد أخذت من آيات كريمة كثيرة أما إذا مرّ بنا آيات أخرى فيها شيء يشبه أنهم أخطؤوا، أو وقعوا في ذنب فهذا له موضوع أخر.

الموضوع الآخر أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا رأى فضل ربه عليه، وعظيم امتنانه عليه، ورأى أن عمله قد يستقل، إذا استقل النبي عمله أمام فضل ربه يشعر بالذنب، هذا شعور بالذنب من طرف واحد من طرف النبي عليه الصلاة والسلام، يعني في ميزان الشريعة النبي عليه الصلاة والسلام لا ذنب له، سيدنا إبراهيم في ميزان الشريعة لا خطيئة له، ولكن في ميزان الفضل فهو كمثل إنسان أعطاك بيتاً، وزوجك ابنته، وجعلك شريكاً له في العمل، فكنت في مرتبة دنيا في المجتمع، فإذا أنت إنسان ذو دخل كبير، ولك كرامة، ولك مكانة اجتماعية، كل هذا حصّلته من هذا الذي منحك العطاء، مهما قدمت له من تكريم تشعر في أعماقك أنك مقصر في حقه، هذا الشعور من طرف واحد هو الشعور بالذنب الذي قال الله عنه:

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)

(سورة الفتح: 2)

شعور العبد أمام الرب شعور التقصير، هل عرف النبي عليه الصلاة والسلام ربه المعرفة الكاملة ؟ الجواب لا، لأن الله لا يعرفه إلا الله، لذلك:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا)

(سورة الإسراء)

هل عرف النبي عليه الصلاة والسلام فضل ربه عليه بالتمام والكمال ؟ لا.

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء)

شعوره أن معرفته ليست المعرفة المطلقة، وأن شكره ليس الشكر المطلق، وأن استجابته ليست هي الاستجابة المطلقة، هذا الشعور من طرف واحد من طرف النبي عليه الصلاة والسلام هو الشعور بالذنب الذي ذكر في الآية الكريمة، هذا معنى من معاني الذنب أو الخطيئة إذا عزيت للنبي عليه الصلاة والسلام أو لسيدنا إبراهيم.

سيدنا إبراهيم أكرمه الله عز وجل أعظم تكريم فجعله أب الأنبياء، جعله أمّة، كرمه تكريماً لا حصر له، شعور هذا النبي الكريم وهذا الرسول العظيم بأنه لم يوف ربه حقه، هذا الشعور يمكن أن يفسر معنى الخطيئة، في ميزان الشرع لم يرتكب النبي ذنباً، ولم يرتكب سيدنا إبراهيم خطيئة، ولكن في ميزان الفضل ربما كان شعور النبي عليه الصلاة والسلام أو شعور سيدنا إبراهيم بأنه شعور صحي، شعور يعبر عن وفائهم لربهم، وعن شكرهم له، وعن عبوديتهم التامة، إذا قست مقام العبودية إلى مقام الألوهية لا بدّ أن ترى أن هناك بوناً شاسعاً بين المقامين، لذلك هذا الذي عبر الله عز جل عنه:

(وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

تفسير الخطيئة بقوله: بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا

أما ما يدّعيه بعضهم أنّ هذا حينما قال: بل فعله كبيركم، هذا ليس كذباً هذا أسلوب تربوي في لفت نظرهم إلى عقيدتهم الفاسدة، حينما كسر سيدنا إبراهيم الأصنام ثم قال لقومه:

(بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ)

ليس هذا كذباً، إنما هو أسلوب تربوي صارخ في لفت النظر إلى الله عز وجل.

تفسير الخطيئة بقوله: إِنِّي سَقِيمٌ

وكما تذكر بعض الروايات حينما قال:

(إِنِّي سَقِيمٌ)

ليس معنى هذا أنه مريض في جسمه، ولكن سئم منهم، وشعر أنهم معرضون عن الله عز وجل، فإعراضهم عن الله أورثه ألماً نفسياً، هذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام:

(إِنِّي سَقِيمٌ)

فليس هذا كذباً، بل هو احتجاج، وحينما قال لما رأى القمر بازغاً:

(هَذَا رَبِّي)

هذا ليس اعتقادًا، بل هو احتجاج، يعني هو يدل قومه بطريق منطقي رائع كيف أن هذا النجم لا يعقل أن يكون إله، لأنه يغيب.

(فَلَمّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفِلِينَ)

لأن قومه يعبدون الشمس والقمر من دون الله، قال تعالى:

(فَلَمّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنّ مِنْ الْقَوْمِ الضّالّينَ)

(سورة الأنعام)

حينما قال:

(هَذَا رَبِّي)

ليس هذا اعتقادًا، إنما هو احتجاج، إذاً قوله: هذا ربي للشمس والقمر وللنجم، أو قوله:

(بَلْ َفَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا)

هذا ليس من باب الكذب ولا الاعتقاد.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنّ قَلْبِي)

(سورة البقرة260)

لم يقل إبراهيم عليه السلام لربه: هل أنت قادر على إحياء الموتى ؟ لو قال هذا السؤال لكان معنا الحق، ولكن قال: كيف تحيي الموتى، هو يسأل عن الكيفية، يريد أن يعرف سرّ الخلق، ليس هذا نقص في عقيدته، يعني كل من يقول: كيف تحي الموتى، إني سقيم، بل فعله كبيرهم هذا، هذه الأقوال لا ترقى إلى مستوى الخطيئة، بعض أقواله احتجاج، وبعضها أسلوب تربوي، وكل قول من أقواله يعبر عن حكمة بالغة في مخاطبته للمشركين.

على كل الخطيئة إذا نسبت إلى النبي أو إلى رسول معناها هي في ميزان الفضل لا في ميزان الشرع، أما في ميزان الشرع فلم يرتكب النبي عليه الصلاة والسلام، ولا أي نبي خطيئة ولا ذنباً، ولكن في ميزان الفضل ربما شعر النبي وهو الذي يفيض وفاءً لربه، يفيض حباً له ربما شعر أنه لم يقدم لربه ما ينبغي أن يقدم له، هذا الشعور بالتقصير دائماً هو الذي يستغفر من وهذا يقع بين الناس، شعور الإنسان المحسن إليه أمام المحسن دائماً شعور بالتقصير، يا أخي لم نوف إليك فضلك، نحن مقصرون معك، هذا كلامٌ قد لا يكون له تأثير، ولكن الفضل غمرهم عندئذ لا يستطيع أن يفي بهذا الفضل، هذا معنى قول الله عز وجل:

(وَالّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (82) رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بالصّالِحِينَ(83))

معنى الحُكْم ومقتضياته:

الحُكم كما قال بعض العلماء: القدرة على الفهم، وهذا شيء رائع أن يهبك الله حكماً أي فهماً وهو قدرة على فهم النص، قدرة على فهم سرّ التشريع، قدرة على فهم الحكمة، قدرة على فهم ما وراء النص، قدرة على فهم المغزى، هذا من فضل الله على الإنسان، سيدنا يوسف من فضل الله عليه أن علمه تأويل الأحاديث، فبعض العلماء يقول أن الحكم هو الفهم.

(رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً)

أحياناً الإنسان يقرأ آية آلاف المرات، ولا ينتبه إلى ما تنطوي عليه من معانٍ عظيمة، أحياناً يستمع إلى تفسرها يؤخذ بها يقول: كيف لم أفهمها حينما قرأتها ؟ الله عز وجل يؤتي بعض المؤمنين ميزة في قدرتهم على فهم القرآن، كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه: إلا أن يؤتى فهماً في كتاب الله، وكما دعا النبي عليه الصلاة والسلام لابن عمه العباس فقال:

((اللهم علمه التأويل))

(البخاري)

فهذه قدرة يختص بها الإنسان أحياناً لتفضل الله عليه في فهم النص فهماً عميقاً، فلذلك الله عز وجل حينما دعا سيدنا إبراهيم فقال:

(رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصّالِحِينَ)

بعضهم قال: الحكم هنا أي هب لي معرفة بك، وبحدودك، وبأحكامك.

من صفات الأنبياء: التواضع:

(وَأَلْحِقْنِي بِالصّالِحِينَ)

هذا من تواضعه، هو أبو الأنبياء وقال:

(وَأَلْحِقْنِي بِالصّالِحِينَ)

من علامة الإنسان الصالح أنه متواضع، وهذه صفة كريمة في سيدنا إبراهيم، ألحقني بهم يا رب، اجعلني مع الصالحين، أدخلنا في عبادك الصالحين، اجعلنا من المساكين، اجعلنا من عبادك الصالحين، من عبادك المؤمنين، لم يقل: رب هب لي حكماً، وأنا أول الصالحين.. لا، بل قال:

(وَأَلْحِقْنِي بِالصّالِحِينَ)

(وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)

معنى: لِسَانَ صِدْقٍ:

اللسان هنا أي الثناء الحسن، فمِن نعم الله على الإنسان أن يثني الناس عليه بالخير، أن يثني الناس عليه لا في حضرته، بل في غيبته، لأنهم إذا أثنوا في حضرته فهذا الثناء ربما يشك فيه، إما طمعاً في نواله، أو خوفاً من عقابه، الناس أحياناً يثنون على بعضهم طمعاً فيما عندهم، أو خوفاً من بطشهم، ولكن الثناء الرفيع هو الثناء يكون في غيبتك.

(رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (83) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84))

لسان الصدق هو الثناء الحسن، وبعضهم قال: لسان الصدق في الآخرين اجتماع الأمم عليه، ألم يقل الله عز وجل:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

(سورة النحل)

أنت واحد، لكن لو دعوت إلى الله عزوجل... لو أحسنت إلى الخلق للهجت الألسن بفضلك والثناء عليك، لأن الإنسان عبد الإحسان، يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، هل أنت في قلوب الناس ؟ هل أنت في مشاعرهم ؟ هل العيون منعقدة عليك ؟ هل القلوب تميل إليك ؟ إذا كنت محسناً متواضعاً معطاءً طبعاً هذا يحدث، فلذلك سيدنا إبراهيم عليه وعلى سيدنا أفضل الصلاة والسلام تمنى أن يكون أمة، وكان كذلك، لا تكن واحداً، لا تأت ربك فرداً، إذا كنت خيراً معطاءً محسناً كل هؤلاء الذين أحسنت إليهم يحبونك، ويدعون لك، وتلهج ألسنتهم بالثناء عليك، لذلك هذا معنى قوله تعالى:

(وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)

بعض العلماء قال: لسان الصدق في الآخرين الثناء الحسن، وخلود المكانة، فهناك أشخاص يعملون أعمالاً عظيمة في حياتهم، والناس يثنون عليهم، ولكن تتبدل الأوضاع، فيأتي من يجعلهم مجرمين، وهناك من يخرجهم من قبورهم، الثناء الحسن والمكانة الثابتة الدائمة، هذا مما تعنيه هذه الآية، فإذا تولى اللهُ الإنسانَ بإكرامه فليس في الأرض جهة تستطيع أن تنال منه.

اذهبوا إلى قبر النبي الشريف انظروا ماذا ترك من أثر، هذا الذي كتب كتاباً سماه المئة الأوائل، والذي قرأ تاريخ عظماء الشعوب على مرّ القرون واختار من هؤلاء العظماء مئة، ولمقاييس دقيقة جعل النبي عليه الصلاة والسلام على رأس المئة، لماذا ؟ لأن له تأثيراً يمتد إلى أزمان طويلة، ورأى له تأثيراً يمتد إلى مساحات شاسعة، ورأى له تأثيراً يمتد إلى أعمق الأعماق، فجعل مقياسه في اختيار العظماء قوة التأثير، واتساع رقعة التأثير، وامتداد أمد التأثير، فكان النبي عليه الصلاة والسلام في مقدمة هؤلاء

العظماء.

(وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)

بعض العلماء قال: هذه الآية تشير إلى أن سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام دعا ربه أن يخرج من أمته من يدعو إلى الله عز وجل، فكان النبي عليه الصلاة والسلام دعوة أبيه إبراهيم، وبشارة أخيه عيسى .

سيدنا عيسى بشر قومه بنبي يأتي من بعده اسمه أحمد، وسيدنا إبراهيم من خلال هذه الآية واجعلي ـ أي من ذريتي ـ لسان صدق في الآخرين، إذاً هو النبي عليه الصلاة والسلام دعوة النبي.

وبعضهم قال: لسان الصدق في الآخرين الذكر الحسن، ونحن في كل صلواتنا كمسلمين، ألف مليون مسلم في اليوم خمس مرات يقولون في صلاتهم: اللهم صلِّ على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم، وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، هذه دعوة سيدنا إبراهيم.

العلماء استنبطوا من هذه الآية أنه يجوز للرجل أن يسأل ربه أن يهبه عملاً صالحاً يكون سبباً في ذكر الناس له الذكر الحسن، هذه طبيعة النفس، يعني إذا كنت محسناً، وأثنى الناس عليك هذا شيء يثلج صدرك، بين أن يقول الناس عنه إنه لئيم، إنه شحيح، إنه منحرف الأخلاق، إن بيته مضطرب، إن أخلاق زوجته مشكوك بها، وبين أن يقول الناس عنك: إنك رجل صالح، مستقيم، ورع، عندك متواضع، لطيف، عفو، كريم، هذا معنى قول النبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لذلك لا بأس كما قال علماء الفقه استنباطاً من هذه الآية لا بأس من الرجل أن يطلب من ربه عملاً صالحاً يكون سبباً في ثناء الناس عليه إذا قصد بهذا العمل وجه الله، إذا قصد السمعة فهذا منزلق خطير، والدليل على هذا المعنى أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه: 39)

كيف يلقي الله على عبده المحبة ؟ يجعل الناس يحبونه، فلان محبوب، الناس يحبونه، هذه هي قوله ألقيت عليك محبة مني، فإذا كان الإنسان أكرمه الله بهذه المحبة لا ينبغي أن ينظر أنه بفضل ذكائه واستقامته وحرصه على سمعته أحبه الناس، لا والله هذا ثوب ألبسه الله إياه، ولو شاء خلعه عنه فابتعد الناس عنه، وأبوا أن يسلموا عليه، لذلك إذا أحبك الناس فاسجد لله شاكراً، لأن هذا فضل من الله عز وجل أسبغه عليك.

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

على كل الآية الثانية:

(إِنّ الّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرّحْمَانُ وُدًا)

(سورة مريم)

معنى: سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرّحْمَانُ وُدًا

هذه الآية لها معنيان:

المعنى الأول:

سيجعل بين ذاته العلية وبين المؤمنين وداً، وهل كرامة أعظم عند الله أن تكون المودة بينك وبين الله.

المعنى الثاني:

وهو أقرب إلى الواقع، إن الذين أمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً مع الخلق، الناس يحبونهم لتواضعهم، وإحسانهم، وإنصافهم، وحبهم للخير، ورأفتهم، ورحمتهم، ولطفهم، وعفوهم عن الناس يحبونهم، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له))

(مسلم)

هذا الذكر الحسن من فضل الله عز وجل.

(وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنّةِ النّعِيمِ (85))

سؤال إبراهيم ربه الجنة:

سيدنا إبراهيم يسأل الله الجنة، موضوع الخطبة اليوم كان عن الجنة، هذا الذي يقول لك: لا ينبغي أن تسأل الجنة، ولا أن تستعيذ من النار، يعني ينبغي أن تكون عبادتك منزهة عن سؤال الجنة، عن الخوف من الله، أو الطمع في الجنة، آيات كثيرة لا حصر لها، وهذا أبو الأنبياء إبراهيم يدعو ربه أن يدخله الجنة، والجنة لا كما يظن بعض الناس من أنها طعام، وشراب، وحور عين، ليس غير، فيها طعام، وفيها شراب، وفيها فاكهة، وفيها أنهار من لبن، ومن عسل، ومن كل شيء ذكره الله في القرآن، وفيها فوق ذلك نظرة إلى وجه الله الكريم.

لذلك الجنة هي النعيم المطلق، فإذا سألت الله الجنة إنك إن فعلت هذا لا تسأله الطعام، والشراب،

والحور العين فقط، تسأله القرب منه، تسأله أن تنظر إلى وجهه الكريم، وأعظم عذاب يعذّب به أهل النار، وهم يحترقون فيها، هو أنهم عن ربهم يومئذ محجوبون، عذاب الحريق وعذاب الحجاب، عذاب فقدان نعيم الطعام والشراب، ونعيم القرب، لذلك:

(وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86))

وآخر لا علاقة له بهدفه هذه حالة صعبة جداً، فإذا ضل الإنسان الطريق، ومشى مئات الكيلو مترات خطأً، وعليه أن يعود منها كلها، إنه يتألم، ويندم أشد الندم، لذلك عندنا ضلال مبين، وعندنا ضلال بعيد، وكل أنواع الضلال يعني نهاية الشقاء أن تكون ضالاً، لذلك قال الله تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (104))

(سورة الكهف)

ما سعادة الإنسان في الدنيا ؟

السعادة أحياناً من تعاريفها: أن تأتي حركتك اليومية مطابقة للهدف الذي خلقت من أجله، نضرب على ذلك مثلاً بالطالب إذا طالع الدرس، وفهمه، ما دام هو طالب، وفي عام دراسي، وعنده امتحان، وهو يعلق آمالاً عظيمة على هذا الامتحان، ساعات الدراسة ترتاح فيها نفسه، لأنه في الطريق الصحيح، لأن حركته هذه تطابق هدفه في هذا العام، وهو النجاح، فإذا ضيع يومين أو ثلاثة في نزهة ممتعة مع أن النزهة ممتعة، ومع أنه جلس مع رفاقه، وأكل ما لذّ، وطاب، ومتع نظره بالمناظر الجميلة، لكن حزناً عميقاً في، قلبه لأنه ضيع أياماً ثلاثة، لأن هذه النزهة مع أنها بريئة جاءت مخالفة للهدف الذي رسمه لنفسه، لذلك في ساعات الدرس والمذاكرة، في ساعات الجدّ والنشاط هناك راحة لا يعرفها إلا من ذاقها، هي راحة الإنجاز، وفي ساعة تضييع الأوقات هناك شعور عميق بالخيبة والإحباط والخسران. الآن الإنسان ما سعادته في الدنيا ؟ إذا كان في الطريق الذي يوصل إلى الله، إذا كان في الطريق الذي يرضى الله عنه، إذا كان يعمل عملاً يبتغي به وجه الله، إذا كان يعبد الله في كل شيء، إذا كان يخضع لله عز وجل في كل حركاته وسكناته، إنه في هذه الحالة يشعر بالارتياح الشديد، أما إذا خرج عن الخط الذي رسمه الله له يشعر بالضيق، لذلك عبارات الناس متضايق، عندي كآبة، عندي انقباض، الانقباض، والضيق، والكآبة، والقلق، والضجر، واختلال التوازن هذه كلها أسبابها أن حركته اليومية ليست مطابقة لهدفه.

لو أنه جلس في سهرة أو في نزهة يعصي الله فيها مع رفاق السوء، هذه المتعة الظاهرة لا تغني عن قلقه العميق، لذلك هذا الإنسان لا ترتاح نفسه إلا إذا عرف ربه، واستقام على أمره، من هنا قالوا: إن

دين الإسلام هو دين الفطرة، يعني يتوافق مع الفطرة، كلما كنت على الطريق الصحيح انعكس هذا اطمئناناً وشعوراً سليماً يغلف أحاسيسك.

(وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ)

عدم الركون إلى البيئة الفاسدة:

هل من الضروري إذا كان الأب ضالاً أن يكون أولاده كذلك ؟ الله سبحانه وتعالى يقول لهذا الإنسان لِمَ لِمْ تفكر ؟ هذا إبراهيم عليه السلام قدوة لنا جميعاً، إن الإنسان إذا لم يفكر ضيع مستقبله في الدنيا والآخرة، الله عز وجل أعطانا هذا الفكر، أعطانا هذا العقل، نصب لنا الأدلة في الكون، فيجب أن نعمل عقولنا وأذهاننا في معرفة الله، يجب ألاّ نبالي بمعطيات البيئة، إذا نشأ إنسان في بيئة فاسدة فليس من الضروري أن ينطبع منها، إخوة كرام كثر نشؤوا في بيئة فاسدة، فلا الأب يرعى الدين، ولا الأم كذلك، الأخ ليس منضبطاً، بيت ليس فيه أي شعور ديني، ومع ذلك أعمل هذا الشاب فكره فعرف ربه، وكان إبراهيم عليه السلام قدوة له.

(وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

عندنا عذاب الخزي، الإنسان أحياناً يتألم، يلمّ به مرض عضال فيؤلمه أشد الألم، هذا شيء مؤلم، ولكن الخزي ألم آخر، أن تكون أمام الناس وينادى على هذا الشخص أنه سارق، مرة كنت في مكان وإنسان أمسك بتلابيب إنسان، واتهمه بالسرقة، يعني لا لون له، الإنسان أمام مجموعة من الناس إذا اتّهم بالسرقة، أو اتهم بعمل منافٍ للحشمة، إذا اتهم بعمل شنيع قذر فهناك عذابان ؛ العذاب المادي حينما يتلقى الصفعات، وعذاب الخزي والعار.

مرة قرأت في مجلة أن امرأةً تعمل في الفن سئلت: ما شعورك وأنت على خشبة المسرح ؟ فقالت: شعور الخزي والعار، وهذا شعور كل أنثى وهي تعرض مفاتنها على الناس، تكلمت الصدق والحق شعور الخزي والعار، هذا شعور الخزي والعار لا يحتمل، ألآم السرطان تحتمل أحياناً، إذا وجد مؤمن واثق من رحمة الله، ومن عدالته، وجاءه هذا المرض يتألم، ويقول: يا رب لك الحمد، آلام لا تحتمل، لكن مع الإيمان تحتمل، لكن آلام الخزي والعار فعلاً لا تحتمل، لذلك إذا كان الإنسان يحب ذاته.. إذا كان يحب نفسه فعليه أن يستقيم على أمر الله، لئلا يقف هذا الموقف الذي فيه خزي وعار.

لو نظرتم إلى إحدى الصحف حينما يلقى القبض على أحد المجرمين، وحينما يصورون ترى أن عيني المجرم في الأرض لا يستطيع أن ينظر إلى المصور لماذا ؟ لأنه في حالة الخزي والعار، هذا الذي

يعتدي على أموال الناس وعلى أعراضهم، أو هذا الذي يسرق أموال الناس، ويلقى القبض عليه، ويساق إلى المحاكمة، إنه في وضع من أوضاع الخزي والعار، لكن هذا كله ينتهي عند الموت، لو حكم عليه بالإعدام، وأعدم انتهى الخزي والعار بعد شنقه، ولكن الخزي والعار يلازم الإنسان في جهنم إلى الأبد.

(وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ)

الدعاء بعدم الخزي يوم القيامة:

إذا كان سيدنا إبراهيم عليه نبينا أفضل الصلاة والسلام يسأل الله ألا يكون في هذا الخزي والعار فكيف بنا نحن لا نسأل !

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ)

يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ

يقول ربنا عز وجل في آيات أخرى:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة الكهف: 46)

المال الكثير بلا أولاد فيه غصة، أولاد كثر بلا مال فيه شقاء، لكن مال وبنون، أولاد حول الإنسان يرتدون أجمل الثياب تتورد خدودهم من الطعام الجيد، يسكنون في بيت فسيح، وغرف واسعة، هذه الغرفة للذكور وهذه للإناث، وهذا للطعام، وهذا للجلوس، وهذا للضيوف، المال والبنون، مال بلا بنون، أو بنون بلا مال شيء صعب.

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

أحياناً يكون للإنسان دخل كبير جداً، هذا الدخل يجعله في غنى عن أن يسأل الناس، يجعله في طمأنينة أحياناً، وقد يكون له أولاد نجب يقول: هذا الابن طبيب، وهذا الثاني مهندس، وهذا أخذ بورد، وهذا أخذ FRS من بريطانيا، وهذا معه أكريجيه من فرنسا، وهذا أصبح معاون وزير، ترى الأب يكاد يخرج من جلده حينما يتحدث عن أولاده، هكذا جعل الله عز وجل الحياة،

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

لكن الله يقول:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ)

هذه الأموال الطائلة التي حصلها في حياته لا تنفعه.

(مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (30) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (31) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (32))

(سورة الحاقة)

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

ما هو القلب السليم ؟

ما هو القلب السليم ؟ يقول عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

(صحيح البخاري)

الآن إذا صح القلب صحت الجوارح، وصح العمل، وصحت الوجهة، وإذا انحرف القلب انحرف العمل، وانحرفت الجوارح، وانحرفت الوجهة، لذلك المناط هو القلب، عبدي طهرت منظر الخلق سنين، زينت دارك، حسنت لباسك، حسنت مركبتك، هذا كله منظر الخلق، أفلا طهرت منظري ساعة، فالقلب السليم هو القلب الذي طهر من الشك والشرك، هناك آخرة ؟ الله أعلم، إذا لم يوجد اليوم الآخرة فإن تعبنا ذهب سُدى، ولكن بوجود اليوم الآخر ينال الإنسان جزاءه، هذا شاك ليس هذا هو الإيمان.

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

(سورة الحجرات 15)

المعنى الأول:

لذلك القلب الذي سلم من الشك والشرك هو القلب السليم.

المعنى الثاني:

القلب السليم هو قلب المؤمن لماذا ؟ لأن الله عز وجل وصف قلوب المنافقين بأنها فيها مرض:

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا)

(سورة البقرة 10)

وصف الشحيح بأنه مريض قال:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة التغابن)

فالشحيح مريض نفسياً، والمتكبر مريض نفسياً، والمشرك مريض نفسياً، والشاكّ برحمة الله وعلمه وقدرته وأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى مريض نفسياً، المشرك مريض نفسياً، المغرور مريض نفسياً، الظالم مريض نفسياً، لذلك القلب السليم هو قلب المؤمن، وقلب المنافق والكافر مريض نفسياً.

المعنى الثالث:

وقال بعض العلماء القلب السليم القلب الخالي من البدعة، المطمئن بالسنة، يعني من هوي الكَفَرَة، هوي مخترعاتهم حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً، فالقلب المتعلق بالبدع والأشياء التي لا ترضي الله عز وجل هذا قلب مريض، والقلب المطمئن إلى شرع الله، وإلى السنة هذا قلب سليم، هذا معنى ثالث من معاني القلب السليم.

المعنى الرابع المتعلق بالسياق:

القلب السليم هو القلب الذي سلم من آفات المال والولد، المال له آفات، وهي السرف، والتيه، والكبر، والبخل، والمبالغة في الإنفاق، والتبذير، هذه آفات المال، آفات الولد أن يبتغي به الدنيا فقط، ولا يلتفت إلى دينه، بل إلى دنياه، فالقلب السليم هو الذي سلم من آفات المال والولد.

والسليم في اللغة هو اللديغ، في اللغة العربية الصحراء تسمى مفازة تفاؤلاً بالفوز منها، الصحراء الملتهمة تسمى مفازة، والملدوغ يسمى سليماً تفاؤلاً له بالسلامة، والقلب السليم بهذا المعنى هو القلب الملدوغ الخائف من الله، المتحرق شوقاً إلى الله، من لم تكن له بداية محرقة لم تكن له نهاية مشرقة، فالقلب السليم بهذا المعنى هو القلب اللديغ، لديغ شوقاً إلى الله أو خوفاً من الله.

وأجمل هذه المعاني للقلب السليم: القلب المُخلِص والمخلص، المخلِص لله، والخالص من كل شائبة، والقلب السليم بمعنى آخر هو القلب الذي سلم من الأوصاف الذميمة، وتحلى بالصفات الجميلة، كل قلب سلم من الأوصاف الذميمة وتحلى بالصفات الكريمة فهو قلب سليم.

والقلب السليم أن تعلم أن الله حق، وأن الساعة حق، وأن الله يبعث من في القبور، يعني كل التركيب النفسي مبني على أن الله حق، وأن الساعة حق هذا قلب سليم.

والقلب السليم الخالي من كل ذنب، السليم من كل عيب لا خبرة له بأمور الدنيا، يعني بعيد عن الدنيا مستغرق في الآخرة، هذا قلب سليم، هناك أشخاص بالعكس، في الدنيا له خبرات لا حدود لها، يعرف كيف تقتنص الفرص، يعرف كيف تؤكل الكتف، يعرف كيف يستفيد من الفرص.

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن الريح عادتها السكون

و إن درت شياهك فاحتلبها فما تدري الفطيم لمن يكون

***

هذا الخبير بأمور الدنيا، الجاهل بأمور الآخرة، هذا قلبه ليس سليماً، السليم بالعكس، لذلك ورد في الجامع الصغير:

((دخلت الجنة فإذا أكثر أهلها البله))

(الجامع الصغير عن جابر بسند فيه ضعف)

البله لا كما تفهمونها بادئ ذي بدء، الأبله هو البعيد عن معاصي الله، نظراته بريئة، وهناك إنسان ينظر يقول: هذه يمكن أن تقبل، يعني خبيث النفس، الأبله البعيد عن المعاصي، من معاني الأبله المطبوع على الخير الغافل عن الشر، والأبله في اللغة من غلب عليه حسن الظن بالناس، وطيب القلب، قلبه طيب، وحسن الظن بالله، والآن يسمونه أجدب، من كان طيب القلب، وحسن الظن بالناس، من طبع على الخير، وغفل عن الشر، من ابتعد عن معاصي الله.

أو المعنى الدقيق أنّ الإنسان ترك مبلغاً كبيراً خوفاً من الله يسميه الناس أبله، وهو في الحقيقة في منتهى الذكاء، بل إنه أبله في نظر البله.

سيدنا يوسف حينما قال:

(مَعَاذَ اللّهِ)

هو في نظر الزناة أبله أليس كذلك، دعته امرأة ذات حسن ومكان فلِمَ قال لها:

(مَعَاذَ اللّهِ)

فهذا النبي الكريم في نظر الزناة أبله، وكذلك الإنسان العفيف عن مال الناس في نظر المنحرفين أبله، فالأبله هو المطبوع على الخير البعيد عن الشر، أو الأبله هو البعيد عن معاصي الله، أو من غلبت عليهم سلامة الصدور، وحسن الظن بالناس، لذلك ورد في الجامع الصغير كما قلت قبل قليل:

((دخلت الجنة فإذا أكثر أهلها البله))

(الجامع الصغير عن جابر بسند فيه ضعف)

هؤلاء الذين حافظوا على فطرتهم السليمة، على نقائهم، على طهارتهم، على ذاتيتهم، لم يرتكبوا المعاصي، لم يخادعوا الناس، ولكن أكمل موقف يتمثل بقول سيدنا عمر رضي الله عنه قال: **<< لست بالخب، ولا الخب يخدعني >>**، أيْ لست من الخبث حيث أَخْدَع، ولست من الغباء حيث أُخْدَع، لا أَخْدَع ولا أُخْدَع، لست بالخب ولا الخب يخدعني، هذا أكمل موقف يقفه الإنسان المؤمن.

قد تجد إنساناً ضيق الأفق، محدوداً، لكنه طيب القلب، هذا لا يعجبك، وقد تجد إنساناً آخر ذكياً، يتوقد ذكاءً وخبثاً، وهذا لا يعجبك، ما الذي يعجبك ؟ هذا الذي يجمع بين الذكاء والكياسة، وبين الطيب والسلامة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((المؤمن كيس فطن حذر))

[القضاعي بسند موضوع]

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

وفي الدرس القادم إن شاء الله نتابع قصة سيدنا إبراهيم.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (06-20): تفسير الآيات 90 - 102
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 25-08-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من سورة الشعراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ)

تقريب الجنة للمتقين:

ربنا سبحانه وتعالى في أثناء الحديث عن قصة سيدنا إبراهيم بعد أن قال على لسان هذا النبي الكريم:

(وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (84) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (85) وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (86) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (87) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90))

أي قربت فقربوا منها.

(وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ)

ظهور جهنم للغاوين:

برزت أيْ ظهرت.

ومما يزيد السعادة سعادة أهل الجنة أن يكونوا على وشك الدخول فيها، وما يزيد ألم أهل النار أن يكونوا على وشك الدخول فيها، فأزلفت أي قربت، والإمام علي كرم الله وجهه يقول: كل متوقع آت، وكل آت قريب.

يدخل الصيف وينتهي، يدخل الشتاء وينتهي، يدخل العام وينتهي، تدخل المرحلة المعينة خمس سنوات، وتنتهي، وليسأل أحدنا نفسه هذا السؤال: كيف مضت هذه السنون من عمري ؟ كيف مضت هذه الأربعون، أو هذه الثلاثون، أو هذه العشرون، أو هذه الخمسون ؟ وليسأل نفسه سؤالاً آخر: هل بقي بقدر ما مضى ؟ فإذا كان الذي مضى قد مضى فالذي بقي سيمضي، فكلمة كل متوقع آت وكل آت قريب يعني الزمن حينما يمضي ليس في صالح الإنسان، لكنه في صالح المؤمن، مجرد مضي الزمن ليس في صالح الإنسان، كلما تحرك عقرب الثواني ثانية واحدة نقص العمر، كلما مضت ساعة، كلما

مضت ليلة، كلما مضى يوم، كلما مضى شهر... هكذا، لكن:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر)

الوقت، إما أن يستهلك وإما أن يستثمر، كالمال تماماً المال قد تنفقه فتستهلكه تشتري طعاماً وشراباً، وتصرف، وتنفق ثمن ألبسة، وحاجات، وألعاب انتهى، هذا مال مستهلك، لكن المال قد يستثمر في مشروع يدر أرباحاً طائلة، فإذا دفعت المال في مشروع استثماري فإنك بهذه الطريقة لا تستهلكه، وإنما تستثمره، والوقت أثمن من المال، فإما أن تستهلكه، وإما أن تستثمره، فمن تعرف إلى الله وأخلص له، وجهد في طاعته، وبذل من أجله الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، وفي كل حركة وسكنة نوى أن يتقرب إلى الله عز وجل، إما بالتفكر، وإما بالتدبر، وإما بالاعتبار، من جعل حياته كلها في حله وترحاله، في عمله، وفي بيته، في ليله، وفي نهاره ذاكراً لله عز وجل، إنه بهذا يستثمر الوقت، ولا يستهلكه.

لأن الذي ورد في بعض الأحاديث أن ملك الموت ينبئ من حضرته الوفاة أنه يا فلان قد بقي من عمرك ساعة، فيبدي هذا العبد من الألم والحسرة ما لا يوصف، ويقول يا ملك الموت من شدة حسرته على مضي حياته لو أن له الدنيا بحذافيرها لتخلّى عنها نظير أن يضم إليه في هذه الساعة المتبقية ساعة أخرى، فلعله يعتذر، لعله يستغفر، لعله يتوب، لعله يعمل صالحاً، طبعاً ملك الموت يقول فنيت الساعات لا ساعة، لذلك كل يوم يخاطب ابن آدم ويقول: **يا ابن آدم ؛ أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني فإني لا أعود.**

الفائدة من هذه الآية:

الفائدة من هذه الآية أن الوقت أثمن شيء تملكه، لأنك أنت كلك وقت، أنت وقت، مجموعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منك، فأنت بين أمرين ؛ إما أن تستهلك الوقت، وإما أن تستثمره، إن استهلكته جئت يوم القيامة صفر اليدين وبدأت الحسرات والندم والألم.

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ(100))

(سورة المؤمنون)

وإما أن تستثمره فتسكن نفسك، تستريح نفسك، ينشأ عندك حالة اسمها التوازن، تتوازن، تشعر بالاستقرار والطمأنينة، تشعر أنك وفق الطريق الصحيح، تشعر أن حركتك اليومية مطابقة لهدفك،

تشعر أن هذا الذي تفعله خلقت من أجله، هذا الذي يعرف الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

(مشكاة المصابيح عن أبي هريرة)

صمتي فكراً أفكر، نطقي ذكراً، نظري عبرة، والمؤمن في علاقاته مع الناس كلها يبتغي وجه الله حتى لو جلس مع أهله، حتى لو داعب أبنائه، حتى لو أخذهم نزهة إنما يفعل هذا ابتغاء مرضاة الله، حتى عمله الذي يكسب منه رزقه يعد في ميزان الحساب يوم القيامة عبادة بمجموعة شروط تحدثنا عنها من قبل.

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91))

خمسة أيام في حياة الإنسان:

1 - يوم مفقود:

دائما ضع في ذهنك أن هناك خمسة أيام في حياتك، يوم مفقود، هذا اليوم المفقود لا تبحث عنه إطلاقاً، ولا تفكر فيه، ولا تذكره لأن ذكره لا يقدم ولا يؤخر، يوم مفقود ما مضى فات.

2 – يوم مشهود:

وهو أخطر أيام حياتك، في هذا اليوم يمكن أن تتوب، في هذا اليوم يمكن أن تعمل صالحاً، في هذا اليوم يمكن أن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، في هذا اليوم يمكن أن تحضر مجلس علم، في هذا اليوم يمكن أن تتقرب إلى الله، هذا اليوم المشهود أخطر أيام حياتك، بل إن الأيام اللاحقة إنما تتعلق بهذا اليوم، يوم مفقود، ويوم مشهود، ويوم مولود ساعة المنية، لا بدّ من ساعة يوضع الإنسان في قبره، كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت،

الليل مهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر.

***

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

فـإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدهـا محمول

***

ملك الموت تخطانا إلى غيرنا، فلان رحمة الله عليه، توفي والله شاب، كلما تنقلت من مكان إلى مكان تطالع هذه النعايا، يجب أن تعلم علم اليقين أنه لا بدّ من يوم يطالع فيه الناس نعي بعضهم بعضاً، اعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا.

3 - يوم موعود:

واليوم الموعود يوم القيامة، يوم الدين، يوم الحساب، يوم الجزاء، يوم الفصل، يوم تفنيد الأعمال، يوم الدينونة، يوم الطامة، هذا اليوم الذي يتحقق فيه اسم الله الحق، هذا الاسم يتحقق بشكل كامل يوم القيامة، لأن الحياة الدنيا دار ابتلاء، بينما الحياة الآخرة دار جزاء.

كل إنسان له مادة يمتحن بها مع ربه، فالغي مادة امتحانه الغنى، هذا اسمه في الجامعة مقرر، الغني عنده مقرر الغنى، والفقير يمتحن بالفقر، والقوي بالقوة، والضعيف بالضعف، والصحيح بالصحة، والسقيم بالمرض وما شاكل ذلك، فإذا رسب الغني، ونجح الفقير انعكست الآية، إذا نجح الضعيف، ورسب القوي.

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (2) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3))

(سورة الواقعة)

القوي صار ضعيفاً والضعيف صار قوياً،

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111))

(سورة المؤمنون)

4 - يوم ممدود:

واليوم الممدود إما في جنة يدوم نعيمها، أو في نار لا ينفد عذابها، يعني أخطر شيء موضوع الزمن، الأيام تمضي، الإنسان لو ترك الدين لو أدار ظهره لكتاب الله، لو جعل القرآن وراء ظهره، ذلك أنه لم يبال بحرامه ولا بحلاله، يريد الدنيا وزينتها، يريد المال، يريد الوجاهة، يريد النعيم، المتع الرخيصة، يأتي قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ))

لو أنك تركت الدين، لو تركت الإيمان باليوم الآخر، لو هان الله عليك ماذا ينتظر الإنسان ؟ قال عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوْ الدَّجَّالَ، فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ ؟ أَوْ السَّاعَةَ، فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(سنن الترمذي 2228)

5 - يوم مورود:

فأنت بين خمسة أيام: يوم مفقود، ويوم مشهود، ويوم مورود، ويوم موعود، ويوم ممدود، وأنت بين أن تستهلك الوقت، أو تستثمره، والآية توضح هذه الحقيقة:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

الوقت يستهلكه إلا المؤمن فإنه يستثمره.

(إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

(وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (90) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91))

هذا الذي غوى يعني خرج عن طريق الحق، ربنا سبحانه وتعالى رسم منهجاً، أنزل كتاباً، وضع دستوراً، وضع قواعد، سنّ سنناً، هذه من عند الصانع، والصانع هو الجهة الوحيدة التي يحق لها أن تصدر تعليمات افعل ولا تفعل، لأنها أخبر جهة بصنعتها، والدليل قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(سورة البقرة 21)

لا يصح أن تعبد غير الخالق، لأنك إذا عبدت غير الخالق خسرت خسارة لا حدود لها، لأن هذه الجهة التي تعبدها من دون الله لا تملك لك نفعاً ولا ضراً.

(وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92))

أين شركاؤكم اليوم ؟

لا بدّ أن تعبد، فإما أن تعبد الله، وإما أن تعبد غيره، العبادة هي الطاعة والمحبة، غاية الطاعة مع غاية المحبة، غاية الطاعة لأن الله هو وحده الذي يجب أن تعبده، وغاية المحبة، لأنك كإنسان مفطور على حب ذاتك، وحب سلامتك، وحب استمرار وجودك، وحب كمال وجودك، وجودك واستمراره وكماله لا يتحقق إلا بالله عز وجل، إذاً الذي منحك الوجود ومنحك السلامة، ومنحك كمال الوجود، ومنحك الاستمرار هو الله سبحانه وتعالى، إذاً ينبغي أن تحبه قبل كل شيء، فالعبادة طاعة تامة ومحبة تامة، ومن خضع لله ولم يحبه ما عبده، ومن أحبه ولم يطعه ما عبده.

(أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ)

لا يليق بالإنسان، ولا ينبغي له أن يعبد غير الله عز وجل.

(مِنْ دُونِ اللّهِ)

الله عز وجل خالق الكون ومن دونه المخلوقات، هل يوازى الخالق بالمخلوق ؟

(أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أفَلا تَذَكّرُونَ)

(سورة النحل)

هل هناك نسبة تجمع بينهما، أيوازى خالق الكون مع مخلوق ضعيف ؟ لئيم أحياناً، أتوازى الذات الكاملة مع ذات طارئة ؟

(أفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أفَلا تَذَكّرُونَ)

(وَقِيلَ لَهُمْ أيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللّهِ)

لذلك أندم الناس من باع آخرته بدنيا غيره.

(هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أوْ يَنْتَصِرُونَ)

عجز المعبودات عن نصرة عابديها:

لا يستطيعون نصركم، لأنهم في الأصل لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم، فما قولك بهذا الذي يعبده الكافر من دون الله، لا يستطيع نصره ولا أن ينتصر هو، لذلك الشيطان لما قضي الأمر يقول:

(وَقَالَ الشّيْطَانُ لَمّا قُضِيَ الأمْرُ إنّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلا أنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أنْفُسَكُمْ مَا أنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أنْتُمْ بِمُصْرِخِيّ إنّي كَفَرْتُ بِمَا أشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إنّ الظّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ ألِيمٌ)

(سورة إبراهيم)

(أيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أوْ يَنْتَصِرُونَ (93) فَكُبْكِبُوا)

إلقاء المعبودات من دون الله مع عابديها في جهنم:

كلمات القرآن معبّرة، كبكب هذا فعل ثنائي مضعف مثل زلزل، قلقل، زعزع، عسعس، دمدم، هذه الأفعال فيها معنى التكرار، يعني الكافر حينما يدخل النار لا يدخلها بمراسم استقبال، كما لو وضعت مئة شخص في شاحنة، ونزل بعد أن انقلب صندوق الشاحنة.

كُبكبوا فيها يعني يندفعون إلى النار بعضهم فوق بعض من دون ترتيب، من دون عناية، من دون اهتمام.

أحياناً البضاعة التي لا قيمة لها لا تنقل من الشاحنة إلى الأرض واحدة وَاحدة، بل يقلب هذا الصندوق،

فتأتي فوق بعضها بعضاً كالركام، فكلمة كبكبوا، أي دفعوا إلى النار بلا عناية ولا اهتمام، هذا الذي يليق بهم.

(فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95))

خطورة الشيطان:

الحقيقة أنّ الإنسان أحياناً لا يعرف خطورة الشيطان، ربنا عز وجل حينما خلق آدم لو أن الله سبحانه وتعالى زوّده بمنهج نظري، أو بدستور نظري لكان في الأمر مشكلة، ولكن الله عز وجل حينما خلق آدم زوده بدستور عملي، يعني كيف أن آدم عليه السلام كان في الجنة، وكيف أن إبليس وسوس له، وكيف أكل من الشجرة، وكيف عصى ربه في الظاهر، وكيف أنه هبط من الجنة، هذا درس عملي لسيدنا آدم ولذريته من بعده:

(إِنّ الشّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوّ فَاتّخِذُوهُ عَدُوًّا)

(سورة فاطر)

إن الله عز وجل أمرنا أن نتخذه عدواً، يقول ربنا عز وجل في سورة يس:

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشّيْطَانَ إِنّهُ لَكُمْ عَدُوّ مُبِينٌ (60) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (61) وَلَقَدْ أَضَلّ مِنْكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (62))

مزالق الشيطان:

1 – إبعاد الإنسان عن الدين:

الشيطان ماذا يفعل ؟ الشيطان عنده مجموعة مزالق، يبدأ بالأسهل، أكبر عقبة بين الإنسان وبين معرفة الله، أو بين الإنسان وبين النجاة هي عقبة الكفر، يقول لك هذا الدين تصورات الضعفاء في العصور السابقة، هذا الدين تعبير عن الضعف البشري، هذا الدين من صنع محمد، هو إنسان ذكي جداً وعبقري، التركيز على عبقريته لا على نبوته من أجل أن تكفر بالدين، ومن أجل أن تكفر باليوم الأخر، ومن أجل أن تكفر بأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، فهذه إذا استطاع الشيطان أن يوسوس للإنسان أن هذا الدين لا صحة له، ولا قيمة له، ولا جدوى منه، إنه يفرق ولا يوحد، إنه تعبير عن ضعف الإنسان أمام قوى الطبيعة، هذا الدين يصلح لوقت كان العلم فيه متخلفاً، هذه شبكة الشيطان، فإذا ألقاها على الإنسان فرأى الدين شيئاً بعيداً عن الواقع، جعل الإنسان الدين وراء ظهره، وانطلق في الدنيا من أجل تحقيق

ذاته، وإشباع رغباته، وشهواته بأي ثمن، وبأي طريق، إذا فعل الإنسان هذا فقد اصطاده الشيطان من العقبة الأولى.

هناك أشخاص لهم اطلاعاتهم، ولهم ثقافتهم، لهم قراءاتهم، لهم تربيتهم، لهم بيئتهم يرفضون هذه المقولة، الدين حق، هذا دين الله، وهذا كتاب الله، وهناك دليل قطعي على أن هذا القرآن كلام الله.

2 - مزلق البدعة في العقيدة والعبادة وخطورته:

إذاً الشيطان لا يستطيع أن يصل إلى الإنسان من خلال هذه الشبهة، يأتيه من شبهة ثانية ؛ شبهة البدعة في الاعتقاد والعبادة، يعتقد أن أمة محمد مرحومة لا يوجد تكليف، يعني الله عز وجل لن يحاسب أمة محمد، لأنها أمة اصطفاها الله عز وجل، تراه يفعل ما يشاء، أو أن النبي عليه الصلاة والسلام بتفكير ساذج ضعيف سوف يسجد لله عز وجل، الحديث صحيح، ولكن له تفسير دقيق جداً، لأن شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام لا ينالها إلا من مات غير مشرك، والذي لا يشرك لا يعصي الله عز وجل، أما هذا الذي يفعل ما يشاء على أمل أن النبي عليه الصلاة والسلام يشفع له هذه بدعة في العقيدة، هي الذي يتمناها الشيطان، يتمنى أن تعتقد مجموعة عقائد فاسدة، لأن العقيدة الفاسدة من لوازمها السلوك المنحرف، فإذا لم يستطع الشيطان أن يصل إلى الإنسان من خلال الكفر أن يكفر بالدين، وأن يكفر باليوم الآخر، وأن يكفر بأسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى، من أن يكفر بالكتب السماوية، والأنبياء، والمرسلين، إذا لم يتمكن الشيطان أن يقنع الإنسان بهذه الضلالات الفكرية يقنعه ببدع في الاعتقاد.

(وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى)

(سورة البقرة 111)

هذه بدعة من بدع الاعتقاد أملاها الشيطان على أهل الكتاب.

(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً)

(سورة البقرة 80)

هذه بدعة ابتدعها أهل الكتاب بوحي من الشيطان، فلو دخلت حتى في الأديان الأخرى ترى أن هناك بدعاً في الاعتقاد لا حدود لها لماذا ؟ حينما يعجز الشيطان عن أن يلقي الضلال والكفر في الإنسان يهبط درجة، ينتقل إلى إلقاء البدع في الاعتقاد، الإنسان مجبور على أعماله كلها، تقول: لِمَ لا تصلي، يقول: ترتيب سيدك، حتى الله يأذن، هذه بدعة في الاعتقاد، بدعة خطيرة، أصبحت مشلولاً، لو أن الله أجبر عباده على الطاعة لبطل الثواب، ولو أجبرهم على المعصية لبطل العقاب، ولو تركهم هملاً لكان عجزاً في القدرة، يعني إذا اعتقد أن الإنسان كريشة في مهب الريح.

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال إيّاك إيّاكَ أن تبتلّ بالـماء

* * *

الجبر هو الاعتقاد بأن الإنسان مجبور على كل أعماله، وليس مخيراً إطلاقاً هذه بدعة تشل الإنسان، تشل حركته يقعد، ينتظر أن يحدث شيء خارق للعادة.

إذاً الشيطان إما أن يلقي الضلالة الكبرى، وهي الكفر، وإما أن يلقي ابتداعاً في العقيدة.. انحراف في العقيدة، على مستوى الأنبياء مثلاً يقول تعالى في حق يوسف:

(وَلَقَدْ هَمّتْ بِهِ وَهَمّ بهَا)

نبي عظيم هم بها، أنا شاب وليس نبي، هذه بدعة في الاعتقاد يعتقد أن الأنبياء ليسوا معصومين هذه بدعة خطيرة جداً، هذه تغطي انحراف الناس، يعتقد أن في القرآن تكراراً وتناقضاً، يعتقد أن هذه الآية ليست لهذا الزمان، هذه كلها بدع في الاعتقاد يجب أن نحاربها، ويجب أن نتحرز منها.

أو بدع في العبادة، قد يصبح الدين في النهاية زمراً وطبلاً ورقصاً، هذا الدين، بهذه الطريقة فتح أصحاب النبي العالم ؟! بهذه الطريقة عم الإسلام الخافقين ! مستحيل.

إذاً حينما يعجز الشيطان عن أن يلقي الكفر والبهتان في الإنسان ينتقل إلى بدع في الاعتقاد وبدع في العبادة، يصبح الدين مثلاً كرامات، أو منامات فقط، أو يصبح الدين خرقاً للعادات، يعني الولاية كلها في أن يخترق سهم في البطن هذه الولاية كلها، أو مثلاً حركات، وسكنات، ورقص، واهتزاز، وإغماء، وأصوات، ومزامير، وطبول، هذا هو الدين ! هذه بدع في العبادة وبدع في الاعتقاد.

فإذا كان هذا الإنسان منّور الذهن، والشيطان ما استطاع أن يصل إليه بهذه البدع هناك الكبائر، يقول بعضهم لا يضر مع التوحيد سيئة، مادام هو موحّد ويقول لا إله إلا الله، يعني سبحان الله ! أيعقل أن يأتي إنسان أمضى حياته كلها في المعاصي، والبهتان، والانحراف، والكذب، والانغماس في الشهوات يكفي أن يقول لا إله إلا الله هكذا وينتهي كل شيء، هكذا الدين !

هذا الذي أمضى حياته كلها في طاعة الله، وفي عبادته، وفي الصبر على ما أمر الله، وفي بذل الغالي والرخيص والنفس والنفيس، يأتي إنسان منغمس في شهواته إلى قمة رأسه يكفي أن يقول أشهد أن لا إله إلا الله هكذا بهذه البساطة، هذه بدعة أيضاً، فلذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((من قال لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قالوا: وما حقها، قال: أن تحجزه عن محارم الله))

هذه بحقها، لا إله إلا الله حصني من دخلها أمن من عذابي، إذاً هذا الذي يفعل الكبائر ويقول: أنا مسلم، أنا أعلن الشهادتين، هذه أيضاً فرية من تضليل الشيطان، فالكبيرة كبيرة، وصاحب الكبيرة أمره خطير، السرقة، والكذب، والزنى، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف، وإيقاع الأذى بالناس، وترك الصلاة

هذه كلها كبائر، فمن فعل الكبائر يجب أن ينتظر من الله الشيء الوبيل، أو أن يتوب إلى الله عز وجل، يكفي أن تقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وينتهي الأمر هذه من ضلالات الشيطان.

3 – الصغائر باب من أبواب الشيطان:

أحياناً الشيطان لا يستطيع أن يوسوس لهذا الإنسان الكفر والبهتان، ولا البدعة في الاعتقاد، والعبادة، ولا أن يحمله على الكبائر، يرضى الشيطان أن تقع في الصغائر، وأن تدوم عليها، وأن تستمر عليها، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لا صغيرة مع الإصرار))

مادام الإنسان مقيمًا على صغيرة، وهو مرتاح لها، ويظن أنه لا يحاسب عليها، هذه أيضاً من العقبات الكئود التي تقف بينك وبين الله عز وجل، الصغائر قال عليه الصلاة والسلام:

((إِيّاكُمْ وَمُحَقّرَاتِ الذّنُوبِ فإنّهُنّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرّجُلِ حَتّى يُهْلِكْنَهُ))

(مسند أحمد 3627)

عودٌ وراء عود وراء عود أصبحوا حزمة، وأصبح هناك نار عظيمة، فالمصافحة، أكل لقمة من حرام، نظرة، سبحان الخالق ! بعدما ينظر إلى امرأة جميلة، هذه كلها صغائر، هذه إذا اجتمعت على الإنسان تهلكه، وإذا أصرّ عليها تصبح كبائر، يعني الصغيرة انحراف بالمقود سنتمترًا واحدًا، سميت صغيرة لأن تلافيها سهل جداً، لكن لو أن هذا الانحراف استمر وآخرته بالوادي، كان الطريق طريقاً مستقيماً على يمينه واد سحيق، وحرف المقود سنتمترًا واحدًا، هي صغيرة لأن بإمكانك أن تعيد المقود إلى ما كان عليه، أما لو أنك أصررت على هذا الانحراف هذه الصغيرة لا بدّ أن تلتقي مع الكبيرة في التدهور، لذلك لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار.

الشيطان أحياناً يعجز عن إيقاع الإنسان في الكفر، ويعجز عن إيقاعه في فساد العقيدة، ويعجز عن إيقاعه في بدع العبادة، ويعجز في الكبائر وقد يعجز عن إيقاعه في الصغائر.

4 - مزلق المباحات:

بقي مزلقان خطيران، مزلق المباحات، الطعام والشراب مباح، الاعتناء بالبيت مباح، التنقل من مكان إلى مكان ضمن المباحات، إذا صرف الإنسان وقته في المباحات فوت عليه الطاعات، وهذا مزلق خطير من مزالق الشيطان ؛ أن تنصرف إلى المباحات، إلى الشيء الذي سمح الله به تجعله أكبر همك، تجعله مبلغ علمك، تجعله كل شيء في حياتك، هذه المباحات إذا توسع الإنسان فيها، واهتم بها، وجعلها

مبلغ علمه، ومنتهى آماله هذه المباحات تفوّت عليه الشيء الكثير.

إذا أحب الإنسان أن ينام، والنوم مباح، وكنت في مكان بإمكانك أن تأخذ الجواهر الثمينة، بدلاً أن تأخذ الجواهر نِمْتَ نوماً عميقاً، أنت لا زنيت، ولا فعلت شيئاً، أما هذا النوم في مكان يسمح لك أن تأخذ الجواهر الثمينة فهذا النوم فيه خسارة كبيرة.

5 - مزلق الدفع إلى الطاعات المرجوحة:

فإذا عجز الشيطان عن أن يحمل هذا الإنسان على أن يجعل هذه المباحات كل همه ومبلغ علمه، بقي هناك مزلق قبل الأخير، هذا المزلق يدفعه إلى الطاعات المرجوحة، هناك طاعة راجحة، وهناك طاعة مرجوحة، يعني يفضل عليها طاعة أخرى، يعني كل حياته يمضيها في طاعة جزئية جداً جداً، ويضيع عليه الشيء الكثير.

العبادات درجات وأنواع، هناك عبادة أرقى من عبادة، وعمل أرقى من عمل، وطاعة أرقى من طاعة، طلب العلم أرقى شيء، هناك من يكتفي من الدين بشيء محدود جداً، فهذا أيضاً عقبة بينك وبين النجاة في هذه الدنيا.

صار مجمل ما ذكراه الكفر، والبدعة في الاعتقاد، والبدعة في العبادة، والكبائر، والصغائر، والمباحات، والأعمال المرجوحة أي الأعمال التي هناك أعمال أفضل منها، هذه كلها من فعل الشيطان، ولآتينهم عن أيمانهم، وأنت في طريق الإيمان هناك ألف وألف مدخل للشيطان.

6 – عقبة الامتحان:

فإذا نجوت من كل هذه العقبات فهناك عقبة أخيرة هذه العقبة لا بدّ منها، عقبة الامتحان، لأن الله عز وجل يحب أن يرى من يحبه لذاته، ومن يحبه لما عنده، ومع أنك مستقيم على أمر الله، ومع أنك خاضع له، ومع أنك محب له قد تأتي الأمور على خلاف ما تشتهي ماذا تقول ؟ هل تجعل النبي عليه الصلاة والسلام قدوة لك، النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا جاءت الأمور كما يشتهي يقول: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا جاءت الأمور على خلاف ما يتمنى كان يقول الحمد لله على كل حال.

وأنت في استقامتك التامة، وأنت في ورعك، وأنت في محبتك لله، وأنت في اندفاعك إلى الله قد تأتي الأمور على خلاف ما تريد ماذا تفعل ؟ أنت متّبع للدين مشارطة، أنا مستقيم فيجب أن تكون الأمور كلها كما أريد هذا شرط، الله عز وجل لا يشارط، ولا يجرب، أنت عبد، ومع أنك تسير كما أمر الله اختار لك هكذا ماذا تقول ؟ الحمد لله رب العالمين.

هناك من الصحابة تحملوا من الشدائد ما تحملوا، النبي عليه الصلاة والسلام قال: أوذيت وما أوذي أحد مثلي، ماذا فعل النبي حتى يستحق هذا الأذى.

هذه عقبة لا بدّ منها، لم ينج منها الأنبياء لماذا ؟ الله امتحنهم، في الطائف ذهب إليها ماشياً تلقاه أهلها بالكفر، والصدّ، والعدوان، والاستهزاء، والسخرية، والأذى، ألجؤوه إلى حائط فوقف النبي عليه الصلاة والسلام يقول: إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى.

أريد من الإخوة الكرام أن يوطن كل واحد منكم نفسه حتى لا يفاجأ، الله يحب أن يمتحنك أحياناً، يحب أن يمتحن صبرك، يمتحن عبوديتك، يمتحن محبتك له، مادام الأمور ميسرة صحة طيبة دخل كبير، سرور بسط أولاد زوجة كل شيء مرتب الحمد لله، الله يريد أن يراك في المصيبة ماذا تفعل ؟ (تبرير) المؤمن يقول: الحمد لله رب العالمين، يهبط على قلب المؤمن من السعادة إذا جاءه شيء يكرهه عندما يقول: الحمد لله رب العالمين، يا رب أنا عبدك وابن عبدك ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدلٌ في قضاؤك، يا رب لك الحمد على كل شيء.

هذه عقبة لا بدّ منها، ولا ينجو منها مؤمن، الأنبياء تحملوا هذه الشدائد، الإنسان أحياناً، وهو في قمة تألقه يفتقر ماذا يفعل ؟ يسرق ؟ لا يسرق، يأكل مالاً حراماً لا والله، يضغط على نفسه، ويضغط، ويضغط، ولا يأكل درهماً حراماً، هذا امتحان، هذه مصائب الامتحان والابتلاء، أحياناً يمرض الإنسان أو زوجته أو ابنه، تنشأ مشكلة ربنا عز وجل يحب أن يرى موقفك منها، ينظر ماذا تفعل، ماذا تقول، القضية دقيقة جداً.

فالشيطان هذا الذي ساقنا لهذا المعنى كلمة:

(فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (94) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ (95))

كيف يغوي الشيطان الإنسان ؟ بهذه الطرائق، يغويه من خلال هذه المسارب، وهذه، المزالق، وهذه الشبهات، وهذه البدع، وهذه الترّهات، وهذه الوساوس، فمن نجا منها فقد نجح نجاحاً كبيراً.

(قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (96) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97))

الخصومات يوم القيامة:

الضلال واضح كالشمس.

(إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

تنشأ خصومات يوم القيامة بين الذين عبدوا من دون الله وبين الذين عبدوهم، لأن الذين عبدوهم من دون الله كانوا في ضلال مبين، وأما الذين عبدوا من دون الله كانوا أيضاً مضلّين، هناك خصومات.

(تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ(99))

هؤلاء الذين وسوسوا لنا ودفعونا، هؤلاء الذين قادونا إلى هذا الكفر، أو قادونا إلى هذا الانحراف، هؤلاء كبراؤنا، هؤلاء الذين كنا نرمقهم بالعيون، كنا نظنهم على حق فإذا هم على باطل.

(وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (99) فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (100) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (101))

لا شفيع للمجرمين ولا صديق حميم يوم القيامة:

في الآخرة لا يوجد شفيع، ولا يوجد صديق حميم، لكن لماذا جمع الله الشافعين، وأفرد الصديق الحميم؟ قال بعض العلماء، وأظنه القرطبي: إن الشافعين لكثرتهم، والصديق الحميم لندرته، هناك من يشفع لك كثيراً، ولكن الصديق الحميم قلّما تجده.

(فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

كل هذه الدروس من أجل ألا يقف الإنسان هذا الموقف، نحن في بحبوحة، القلب ينبض إذاً يوجد حياة، يوجد أمل، يوجد توبة في إصلاح، يوجد إنفاق، يوجد اعتذار، يوجد تحلل من الحقوق التي عليك، كل شيء يصحّح في الدنيا، أما إذا ختم العمل، وانتهى الأجل انتهى كل شيء، يعني هذا الكلام من أجل ألا يقع، يذكره الله عز وجل من أجل ألا يقع.

(فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (102) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (103) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (104))

إن شاء الله تعالى في الدرس القادم ننتقل إلى قصة نوح عليه السلام.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (07-20): تفسير الآيات 105 - 122
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-09-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من سورة الشعراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(107))

قصة نوح عليه السلام مع قومه:

ربنا سبحانه وتعالى يبين في هذه السورة ؛ سورة الشعراء قصة أخرى من قصص الأنبياء، إنها قصة سيدنا نوح مع قومه، فهؤلاء القوم كذبوا نوحاً، فلماذا قال الله عز وجل:

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحِ الْمُرْسَلِينَ)

لماذا جاءت الرسالة مجموعة جمعاً ؟ استنبط علماء التفسير من جمع المرسلين، أن الذي يكذب رسولاً واحداً يكذب كل المرسلين، لأن رسالات الأنبياء كلها واحدة، من مشكاة واحدة، من ينبوع واحد، من مصدر واحد، لها مبادئ واحدة، وثابتة، يؤكد هذا قول الله عز وجل في أكثر من موضع في كتاب الله.

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء: 25)

رسالات الأنبياء كلها واحدة، فحواها أن توحّد الله وأن تعبده، التوحيد نهاية العلم، والتقوى نهاية العمل.

(لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)

(سورة البقرة: 136)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة: 183)

هكذا ينبغي أن يكون، الدين كله واحد، مصدره واحد، مؤداه واحد، مبادئه واحدة، أما الذي طرأ على بعض الكتب التي أنزلت قبل القرآن من تحريف، ومن تغير، هذا الذي أبعدها الله عن كتابنا الكريم.

من تمام العقيدة الإيمان بجميع الرسل:

شيءٌ آخر، هو أن الله سبحانه وتعالى جعل من تمام عقيدتك وإيمانك أن تؤمن بجميع الرسل الذين من

قبل النبي عليه الصلاة والسلام من تمام العقيدة أن تؤمن برسالة سيدنا عيسى، وبرسالة سيدنا موسى وبصحف إبراهيم، وبكل الأنبياء والمرسلين، فالذي يكذب رسولاً واحداً إنما يكذب كل المرسلين، هذا الذي استنبطه العلماء من قول الله عز وجل:

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (105) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (106) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ(107))

معنى الأخوّة في الآية:

هنا بعضهم قال: إنّ الإخوة أخوّة نسب، وبعضهم قال: أخوّة في المشابهة، ربنا عز وجل قال:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة إبراهيم: 4)

هذا الرسول إنسان، من لحم ودم، له مشاعر، له عواطف له تفكير، لكن الله عز وجل أنعم، عليه ووهبه النبوة، واصطفاه على العالمين، لكنه هو في الأصل هو إنسان، يشعر بما تشعر، يؤلمه ما يؤلمك، يفرحه ما يفرحك، من هنا كانت بطولته، لو أن الله سبحانه وتعالى أرسل ملكاً إلى الناس لاحتج الناس فقالوا: هذا ملك يا أخي، هذا لا يحس بإحساسنا، هذا ليس عنده شهوة كالتي عندنا، هذا لا يحتاج إلى الطعام والشراب، لكن الله سبحانه وتعالى لحكمة بالغة جعل الأنبياء من البشر، وجعل المرسلين من البشر، وجعلهم ينطقون بلسان قومهم، وجعلهم من جلدة قومهم، لو أنه إنسان غريب جاء قوماً فدعاهم إلى الله عز وجل لشكّوا فيه، وتوجسوا منه خيفة، لكنه منهم، من بلدتهم، من بيئتهم، من قومهم، عاش عاداتهم، وتقاليدهم عاش محيطهم، عاش معطيات حياتهم، هذا معنى قول الله عز وجل

(قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

إما أنها أخّوة نسب، وإما إنها أخّوة في المشابهة يعني هو واحد منهم.

(قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

تذكير نوح قومه بعذاب الله:

يعني ألا تتقون عذاب الله بطاعته ؟ وإن شاء الله تعالى في درس قادم سأفصل في التقوى بعض التفصيل، ولكن بشكل موجز، الله سبحانه وتعالى ذو عقاب أليم، ذو عذاب شديد، كيف تتقي عذابه ؟ كيف تتقي عقابه ؟ كيف تتقي بلاءه ؟ كيف تتقي المصائب ؟ تتقيها بطاعة الله عز وجل لا ملجأ منه إلا

إليه، بطاعته تتقي ما عنده من عذاب، والتقوى تكون بأن تستنير بنوره.

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة النور: 35)

الله سبحانه وتعالى خلق الكون، ونوّره بالكتب، نوره بالأنبياء، نوره بالمرسلين، نحن نشق الطريق ونضع اللافتات، هنا منعطف خطر، وهنا منزلق خطر، وهنا تقاطع خطر، وهنا جسر، وهنا فرع وهذا الطريق إلى هنا، وهذا إلى هناك، هذه اللوحات إنما هي إرشاد لسالكي هذا الطريق، هذا تشبيه، والله سبحانه وتعالى خلق الكون ونوره بالعلم، والعلم نور، الكتاب نور، إذاً التقوى كيف تتقي الحفر كيف تتقي الوحوش ؟ كيف تتقي الحشرات المؤذية ؟ كيف تتقي المياه الوسخة ؟ لا بد من مصباح شديد، بهذا المصباح الشديد، ترى الخير خيراً، والشر شراً، ترى الخير فتأخذه، وترى الشر فتبتعد عنه.

(إِنّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

الأمانة من صفات الأنبياء والمرسلين:

هذه الكلمة لها وقع لطيف، كلمة لها معانٍ كثيرة، النبي عليه الصلاة والسلام قبل البعثة كان يلقب بالأمين، في القرآن الكريم كلمات لها معانٍ كثيرة، فمن السذاجة أن تظن كلمة في القرآن معنى واحد، مثلاً ربنا سبحانه وتعالى قال:

(إِنّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنّبِيّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا)

(سورة النساء: 163)

وقال الله عز وجل:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنّا رَادّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

(سورة القصص: 7)

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النّحْلِ أَنْ اتّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشّجَرِ وَمِمّا يَعْرِشُونَ)

(سورة النحل: 68)

فهل الوحي إلى النحلة كالوحي إلى أم موسى ؟! كالوحي إلى النبي عليه الصلاة والسلام، طبعاً كلمة الإيماء لها معانٍ متعددة في القرآن الكريم، فمن ضيق الأفق ومن السذاجة أن تظن أن لكلمة واحدة في كتاب الله معنى واحداً، وكلمة أمين هنا ذات مدلولات واسعة جداً، وما من مفاهيم ومدلولات نحن كمسلمين أحوج إليها منا.قال الله سبحانه وتعالى:

(إِنّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

والأمانة من صفات الأنبياء الثابتة، الأنبياء لهم صفات ثابتة، بل هي سمات عميقة الصدق، والأمانة، والفطانة، والعصمة، فالأمانة أحد صفات الأنبياء الثابتة، كلمة أمين، لو عرضتها على إنسان لفهم منها شيئاً معيّناً، إذا أودعت عند هذا الإنسان شيئاً، ثم طالبته به يؤديه إليك بالوقت المناسب، وبالحالة الجيدة، هذا مفهوم الأمانة عند بعض الناس، ولكنك كإنسانٍ على وجه الأرض أنت قد حمّلت الأمانة فما الذي يميز الإنسان عن الحيوان ؟ ما الذي يميز الإنسان عن الملك ؟ لماذا سخر الله للإنسان السماوات والأرض بنص القرآن الكريم ؟

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

(سورة الجاثية: 13)

لماذا ؟ هذا الكون الذي لا يعلم نهايته إلا الله، لا يعلم ما فيه من مجرات إلا الله، إذا كان التقدير الأولي مليون مَليون مجرة، إذا كان التقدير الأولي لما في المجرة من كواكب مليون مَليون، إذا كان بعض النجوم يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما، إذا كان بين أرضنا وبين بعض المجرات ما يزيد على ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، هذا الكون كله مسخر للإنسان، لماذا ؟ لمَ لم يسخر للقرود هذا الكون لمَ لم يسخر للملائكة ؟ لمَ هذا الكون كله بسمائه ومجراته، وأفلاكه وأرضه، وما فيه جميعاً، مسخر لهذا الإنسان ؟ لأنه حمل الأمانة.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب: 72)

من مفهوم الأمانة: نفسك التي بين جنبيك:

أيها الإنسان نفسك أودعها الله أمانة عندك، فإما أن تزكيها، وإما أن تدسيها.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس: 9 - 10)

نفسك أمانة بين يديك، إما أن تعرفها بالله عز وجل، وإما أن تبقيها جاهلة، إما أن تحملها على طاعة الله، وإما أن تدلها على معصيته، إما أن تجعلها تتعلق بالجنة وما فيها، وإما أن تجعلها تتعلق بالدنيا وما فيها، إما أن تجعلها صادقة، أمينة، مخلصة، عفيفة، صابرة منصفة، تقية، نقية، طاهرة، وإما أن تجعلها لئيمة، خسيسة، دنيئة حقيرة، دميمة، بخيلة، شحيحة، أنانية.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(سورة الشمس: 9 - 10)

أخطر مفهوم الأمانة أنك حمّلت الأمانة فكنت إنساناً لولا أنك حملت الأمانة فحملتها وقبلت حملها ـ في حين أن السماوات والأرض أشفقن منها ـ لما كنت إنساناً،

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

***

إنك قد حملت الأمانة، ونفسك أمانة، ولكن من أجل أن تهذب هذه النفس، ومن أجل أن تعرفها بربها، ومن أجل أن تحملها على طاعته، ومن أجل أن تجعلها تقبل عليه، من أجل أن تجعلها طاهرة من أجل أن تصبغها بصبغة الله عز وجل، أعطاك الله عز وجل مقومات الأمانة.

أنا قد أكلف إنساناً بمهمة كبيرة، أعطيه من الصلاحيات والمبالغ، والآليات ما يعينه على أداء هذه المهمة، صحيح أن الإنسان قبل حمل الأمانة بنص قول الله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب: 72)

لكن الله سبحانه وتعالى في الوقت نفسه أعطى هذا الإنسان مقومات هذه الأمانة.

مقومات الأمانة:

1 – الكون:

أولى هذه المقومات: خلق الكون وسخره له، ليكون هذا الكون مظهراً لأسمائه الحسنى وصفاته الفضلى، أتحب أن تعرف الله عز وجل ؟ هذا الكون بين يديك.

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

(سورة الذاريات: 20)

أتحب أن تعرف الله عز وجل ؟ انظر إلى طعامك، انظر إلى شرابك، انظر إلى الجبال، انظر إلى السماوات والأرض، انظر إلى البحار، انظر إلى ابنك الذي كان نقطة من ماء مهين، انظر إلى النباتات بأنواعها، انظر إلى كل شيء تر الله وراءه، تر الله من خلاله، تر الله قبله، تر الله بعده، فمن مقومات الأمانة ما دام الهدف الكبير أن تزكي هذه النفس، والتزكية تكون بتعريفها بربها أولاً، وحملها على طاعته ثانياً، وإقبالها عليه ثالثاً، عندها تزكو، من أجل هذا الهدف العظيم، خلق الله الكون، وسخره للإنسان، وما قيمة هذا الكون لولا أن الله سبحانه وتعالى أودع فينا هذا العقل، وميزنا فيه عن بقية خلقه، لذلك جميع الكائنات أودع الله فيها غريزة، الغرائز فيها آليات معقدة جداً، ولكنها لا تنمو، هذا الطائر

يطير بآلية معقدة، ولكنه لا يعرف غيرها، أودع الله الغرائز، وهي أعمال معقدة يقوم بها الحيوان من دون تعليم سابق، ولا كسب ولا فهم، إنما هذه الغرائز تؤدي وظيفته في الحياة، ولكن الله سبحانه وتعالى أكرم الإنسان بالعقل، أو بالفكر، فالفكر ينمو، انظر إلى المسكن كيف بدأ الإنسان، وكيف انتهى مسكنه، انظر إلى كل هذا المنجزات التي أنجزها الإنسان بفكره وعقله.

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

(سورة الرحمن: 7)

ما قيمة الكون من دون عقل ! وما قيمة العقل من دون كون ! إنك بالعقل تعرف الله عز وجل، من خلال الكون، ولكن لئلا يضل هذا العقل، لئلا يختل، لئلا يطغى، لئلا يتجاوز، الله سبحانه وتعالى أنزل الكتاب، فجعل الكتاب ميزاناً على الميزان، عقلك ميزان، وإذا اختل هذا الميزان فهناك ميزان يضبطه، ألا وهو الشرع.

الكون أحد مقومات حمل الأمانة، والعقل أحد هذه المقومات.

2 – الشرع:

والشرع أحد هذه المقومات.

كيف ترقى إلى الله ؟ لا بد من شهوة يودعها الله فيك، من أجل أن تدفعك إلى الله إيجاباً أو سلباً، أودع في الإنسان حب المرأة، فإذا غض بصره عن محارم الله ارتقى عند الله، وإذا فعل ما أباح الله له ارتقى عند الله، في المرة الأولى ارتقى صابراً، وفي المرة الثانية ارتقى شاكراً، حب المال، وحب النساء، وحب العلو في الأرض، وأية شهوة أودعها الله في الإنسان يرقى بها مرتين، مرة إذا تركتها لله.

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ الْهَوَى)

(سورة النازعات: 40)

ومرة ترقى بها إذا فعلت ما أمرك الله بها.

العقل والشهوة والشرع وحرية الإرادة:

إذاً هذا الكون، وهذا العقل، وهذه الشهوة، وهذا الشرع ومنحك حرية الإرادة، لتكون أعمالك ثمينة، ذات قيمة، إنك تفعل هذا مختاراً، هذا حرية الاختيار، مع الشهوة، مع العقل، مع الشرع، مع الكون، هذه بعض مقومات حمل الأمانة، فإذا زكيت نفسك، يعني إذا فكرت في الكون فعرفت الله، ودرست الشرع فعبدته من خلاله بالكون تعرفه، وبالشرع تعبده، فكرت بالكون فعرفت الله.

(إنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ (191))

(سورة آل عمران: 190 - 191)

بالكون تعرفه، فإذا أردت أن تعبده فبالشرع الذي أنزله الله على النبي عليه الصلاة والسلام تعبده، فكرت فيه فعرفته، درست الشرع فعبدته، أصبحت الآن في طاعته، إذاً أصبح الطريق إليه سالكاً، أقبلت عليه، فتجلى عليك، فسعدت بقربه، المقومات جاهزة، الكون، والعقل والشرع، والشهوة، والحرية، والإرادة، هذا كله من مقومات حمل الأمانة، فإذا قرأت بالقرآن الكريم قوله:

(إِنّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)

(سورة الأحزاب: 72)

فهذه اسمها أمانة التكليف.

أمانة التبليغ:

وإذا وقفت أمام النبي عليه الصلاة والسلام في زيارتك له تقول أشهد أنك أديت الأمانة، هذا معنى آخر؛ أمانة التبليغ، قبل أن ينتقل النبي عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى قال كلمتين قال: جلال ربي الرفيع قد بلغت، يعني يا رب لقد بلغت الأمانة، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام كان أميناً على رسالة الله عز وجل، ما زاد عليها، ما أنقص منها، ما كتم منها، فلما أصحابه قالوا: إن الشمس قد كسفت لموت إبراهيم، ماذا فعل النبي ؟ هذه لمصلحته، هذه القصة، وهذا الفهم يرفع من شأن النبي أمام الناس، ماذا فعل النبي الكريم ؟ جمع أصحابه وقام فيهم خطيباً، وقال:

((أيها الناس، إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان لموت أحَدٍ ولا لحياته))

(البخاري)

لا علاقة لهذا بموت إبراهيم، فقوله هذا أمانة، لأنه لو سكت لكان هذا دجلاً، هي أمانة، فهذه أمانة التبليغ، قال تعالى:

(وَلَوْ تَقَوّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ)

(سورة الحاقة: 44)

لو تكلم كلمة من عنده، لو تكلم كلمة لصالحه، لو تكلم كلمة ليس قانعاً بها، لو تكلم كلمة ليكسب بها منفعة.

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (46) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ(47))

(سورة الحاقة 44 - 47)

(إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا)

(سورة الإسراء: 75)

أمانة التبليغ، هي أمانة أخرى، فالأنبياء أمناء الله في خلقه لا ينطقون بكلمة إلا وفق الحق، أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام قال له: يا رسول الله إنك تغضب، فهل أكتب عليك في ساعة الغضب والرضى، فما كان من النبي عليه الصلاة والسلام إلا أن أمسك بفمه وقال: والذي بعثني بالحق هذا اللسان لا ينطق إلا بالحق، في الغضب والرضى، أكتب. يؤكد هذا قول الله عز وجل:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4))

(سورة النجم: 3 - 4)

لذلك قال علماء الأصول الوحي نوعان، وحي متلو، وهو هذا القرآن، ووحي غير متلو، وهو كلام النبي عليه الصلاة والسلام، هذه أمانة التبليغ.

الأمانة الأولى: أمانة التكليف:

أما العلماء فقد ألقى الله على عاتقهم أمانة كبرى، وهي أمانة التبيان الشرع مقنن، وانتهى الأمر، ما على العالم إلا أن يبين للناس ما نقله عن النبي عليه الصلاة والسلام، لذلك ربنا عز وجل وصف الدعاة إلى الله فقال:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)

(سورة الأحزاب: 39)

(يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ)

ليس من عندهم شيء، ولا كلمة، ولا حرف،

((ابن عمر، دينك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

(علل بن أبي حاتم)

قال سيدنا أبو بكر إنما: **<< أنا متبع قول، ولست بمبتدع >>.**

((من كان يعبد محمداً فإن محمد قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت))

(البخاري)

لا يستطيع العالِم أن يتكلم من عنده ولا كلمة ولا حرف، إلا أن يأخذ عن كتاب الله، ووفق ما ينبغي أن يفهمه من كتاب الله، وإلا أن يأخذ عن رسول الله، هذه أمانة أخرى، أمانة التبيان.

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ)

(سورة آل عمران: 187)

الله سبحانه وتعالى قال عنهم:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)

(سورة الأحزاب: 39)

هؤلاء العلماء الذين يدعون إلى الله عز وجل من صفاتهم الأساسية، وهذه الصفة مترابطة معهم ترابطاً وجودياً، فإذا ألغيت ألغي وجودهم، أنهم يخشون الله وحده، ولا يخشون أحد إلا الله، فلو أنهم خافوا من غير الله، لسكتوا عن الحق، وتكلموا بالباطل، فإذا سكتوا عن الحق، وتكلموا بالباطل فماذا بقي من تبليغ رسالات الله ؟ فهناك أمانة التكليف، أي إنسان حملها:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

(الشمس: 9-10)

نفسك أمانة بين يديك، وأكبر خسارة أن تخسر نفسك،

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

(سورة الزمر: 15)

خسر نفسه، وضعها الله بين يديه أمانة فخسرها.

الشيء الثاني أمانة التبليغ: وهي الأمانة التي ألقاها الله على عاتق الأنبياء والمرسلين.

والأمانة الثالثة: أمانة التبيان، وهي التي ألقاها الله على عاتق كل داعية إلى يوم القيامة، فإذا سكت عن شيء إرضاء لزيد، أو عبيد فقد خان الأمانة، إذا تكلم شيئاً ليس قانعاً به، لجلب مصلحة له، فقد خان الأمانة، إذا تكلم بما لا يعلم فقد خان الأمانة، إذا أفتى بما لا يعلم فقد خان الأمانة، إذا لم يتعمق بالعلم، وأبقى أتباعه في جهل فقد خان الأمانة، هي أمانة التبيان، لذلك إما أن يرقى الإنسان إذا دعا إلى الله إلى أعلى عليين، وإما أن يهبط إلى أسفل سافلين ـ إذا لم يدعُ ـ هذه أمانة ثالثة.

أمانة الولاية:

هناك أمانة الولاية: سيدنا عمر بن عبد العزيز، دخلت عليه فاطمة بنت عبد الملك رأته يبكي، وهو يصلي، فقالت له: ما لك تبكي ؟ قال: دعيني وشأني، فلما ألحت عليه، قال يا فلانة: **إني وليت أمر هذه الأمة، فنظرت في اليتيم، والفقير، والأرملة، والمسكين، وذي العيال الكثير، والرزق القليل، وابن السبيل، والمقطوع، والأسير، (فكّر في آلاف الأشخاص) فعلمت أن الله سيحاسبني عنهم جميعاً، فلذلك أبكي والله لو تعثرت بغلة في العراق لخشيت أن يحاسبني الله عنها، لمَ لم تصلح لها الطريق يا عمر ؟** هذه أمانة الولاية.

سيدنا عمر لما قال لعبد الله بن عوف: انطلق بنا يا عبد الرحمن نحرس هذه القافلة، قافلة من التجار جاءت المدينة، وأقامت في المصلى، سيدنا عمر سمع طفلاً يبكي فانطلق إلى أمه، وقال: **يا أمة الله اتقي الله، وأحسني إلى صبيك،** ثم رجع إلى مكانه، فإذا به يبكي ثانية، ثم قام إليها وقال: **يا أمة الله اتقي الله، وأحسني إلى صبيك،** فلما بكى المرة الثالثة قال: **يا أمة السوء، مالي أرى صبيك لا يقر له قرار هذه الليلة،** قالت: **يا عبد الله ـ لا تعرفه ـ لقد أضجرتني هذه الليلة دعني وشأني، إنني أحمله على الفطام فيأبى،** قال: **ولمَ تحملينه على الفطام ؟** قالت: **لأن عمر لا يفرض لنا العطاء إلا بعد الفطام،** (يعني التعويض العائلي) فما كان من عمر إلا أن صاح، والألم يعتصر قلبه، **ويحك يا بن الخطاب، كم قتلت من أطفال المسلمين، ثم نادى في الناس،** أرسل منادياً ينادي، ألاّ تعجلوا على صبيانكم، إن العطاء سيفرض لكم حين الولادة، ووقف ليصلي الفجر، فإذا أصحابه لا يسمعون قراءته من شدة بكائه، هذه أمانة الولاية، كان يقول: **ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيمًا، لو أنزل الله أنه معذبٌ واحداً من خلقه لظننت أنه أنا،** هكذا كان يقول عمر رَضِيِ اللّه عَنْه، كان عمر يقول: **أود أن أذهب من الدنيا لا لي ولا عليّ، هذه أمانة الولاية، وأنت أيها الأخ المؤمن.**

ستحاسب عنهم واحداً وَاحداً، هل أديت لهم حقهم ؟

أمانة التولية:

هناك أمانة أخرى هي أمانة التولية، سيدنا عمر عيّن والياً، وقال له اذهب إلى عملك، واعلم أنك مصروف رأس سنتك، وأنك تصير إلى أربع خلال، فاختر لنفسك، إن وجدناك أميناً، ضعيفاً، استبدلناك بضعفك، وسلمتك من معرتنا أمانتك، وإن وجدناك خائناً قوياً استهنا بقوة، وأوجعنا ظهرك وأحسنا أدبك، وإن جمعت الجرمين الضعف والخيانة، جمعنا عليك المضرتين، وإن وجدناك قوياً أميناً زدناك في عملك، ورفعنا لك ذكرك، وأوطأنا لك عقبك.

ومرة عين والياً، قال له: **ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟** قال: أقطع يده، قال إذاً: **إن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عار، أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه** ـ انظر إلى هذه الأمانة ـ لنسد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفر لهم حرفتهم، فإذا وفينا لهم ذلك، تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً، التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية، هذه أمانة التولية.

لذلك هناك حديث شريف يقول عليه الصلاة والسلام:

((من استعمل رجلاً على عصابة - أي على جماعة - وفيهم من هو أرضى لله منه، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين))

(ورد في الأثر)

حينما تولي، ولو على مستوى معلم بالمدرسة إذا عين عريفاً على هؤلاء الطلاب يجب أن ينتقيه من ذوي الأخلاق الحسنة، لو انتقاه لقرابته، أو لسبب آخر، أو لأن هذا الطالب يقدم له بعض الهدايا، لو عينه عريفاً على هؤلاء الطلاب فقد خان الله ورسوله والمؤمنين، وعلى هذا فقس، لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا، قَالَ: إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ))

(أخرجه البخاري)

هذه أمانة التولية.

أمانة الواجب:

أما الأمانة الخطيرة فهي أمانة الواجب المعلم مؤتمن على هؤلاء الطلاب، هل أعطاهم علماً صحيحاً ؟ هل ضيع الوقت عليهم ؟ هل أمضى الوقت من غير فائدة ؟ هل أعد دروسه إعداداً جيداً ؟ الطلاب أمانة في عنق المعلم، والمرضى أمانة في عنق الطبيب، والموكل أمانة في عنق المحامي، هل نصحه بأن هذه الدعوى خاسرة وقال: ويا أخ الطريق مسدود، واذهب، وأعطه حقه، ودع هذا الطريق ! أم قال له المحامي لا، سوف تنتصر عليه، أنا عندي خبرة في هذا الموضوع هات دفعة أولى، يجعله يقف، ويسأل، وينتظر عدة سنوات، وأخيراً يخسر الدعوى، إن هذا الموكل أمانة في عنق المحامي، وأي شيء أي مصلحة أية حرفة، التاجر تأخذ ثمن هذه البضاعة، هل أعطيته بضاعة مقابل هذا الثمن ؟ أم هي دون هذا الثمن، لماذا أوهمته أن هذه البضاعة أجنبية ؟ لماذا أوهمته أن هذه البضاعة لا مثيل لها ؟ إن هذا الشاري أمانة في عنق البائع، لذلك الواجب التاجر، والصانع، والموظف والعامل، صاحب المصلحة، صنعة، هل نصحت له في هذه الصنعة ؟ إن إتقان العمل جزء من الدين، إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه، لماذا لم تتقن هذا العمل ؟ لذلك أي تقصير في العمل، أي مضاعفات له

تسجل على صاحب التقصير، خيانة، هذه أمانة أداء الواجب، شيء كثير يتعلق بالأمانة، يقول عليه الصلاة والسلام مخاطباً رجلاً، سأله أن يستعمله على ولاية. عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: قُلْتُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلا تَسْتَعْمِلُنِي ؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا))

(أخرجه مسلم)

هذه بعض النصوص المتعلقة بالأمانة، هذا الحديث رواه الإمام البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا، قَالَ: إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ))

(أخرجه البخاري)

إذا سلمت إنساناً عملاً، ليس أهلاً له، ليس لديه خبرة غير مستقيم، سلمت له هذا العمل، عندئذٍ فقد خنت الله ورسوله والمؤمنين، حديث آخر عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ))

(أخرجه البخاري)

أمانة العلاقات الأسرية:

شيء آخر العلاقات الأسرية، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّهم عَنْهمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ، وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أَبِيهِ رَاعٍ، وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

(أخرجه البخاري)

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إذا قعدت المرأة على بيت أولادها فهي معي في الجنة))

(ورد في الأثر)

إذا استقرت المرأة في البيت، أما إذا أمضت وقتها كله خارج البيت، والأطفال ضاعوا، وشردوا، هذه امرأة لا يحبها الله ورسوله، فإذا قبعت في بيتها ترعى أولادها، فقد أدت ما عليها من أمانة تجاه الله عز وجل.

أمانة المجالس:

هناك أمانة المجالس: إنسان تكلم لك بحديث والتفت التفاته يعني هذا الحديث يجب أن يبقى بينك وبينه، لأن المجالس بالأمانة، إلا أن هناك حالات ثلاث لا تجب أن تراعى فيها الأمانة، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمَجَالِسُ بِالأَمَانَةِ، إلا ثَلاثَةَ مَجَالِسَ، سَفْكُ دَمٍ حَرَامٍ، أَوْ فَرْجٌ حَرَامٌ، أو اقْتِطَاعُ مَالٍ بِغَيْرِ حَقّ))

(أخرجه أبي داود)

فلو كنت في مجلس، اتفق الحاضرون على أن يفعلوا فعلاً مشينًا فهذا المجلس ليس بالأمانة، اتفق الحاضرون على أن يسفكوا دماً، هذا المجلس ليس بالأمانة، اتفق الحاضرون على أن يقتطعوا مالاً حراماً، هذا المجلس ليس بالأمانة، إذا إنسان حدثك حديثًا فهو أمانة، لا ينبغي أن يقول لك: هذا الحديث اجعله بيني وبينك، لا ! يكفي أن يتلفت يمنة أو يسرة، وهو يلقي عليك الحديث، تلفته يمنة ويسرة يعني أن هذا الحديث أمانة، وانتهى الأمر.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ))

(أخرجه الترمذي)

فالأمين سمي أميناً من مصدر الأمن، يعني الناس يطمئنون إليك، يرتاحون لك، لا يقلقون، أنت مؤتمن على أموالهم، وعلى أعراضهم، وعلى دمائهم، وعلى كل شيء يخافونه، فالمؤمن والأمين من اشتقاق واحد، هو أمين على أموال الناس، معنى أمين على أموال الناس، أحياناً يأخذ إنسان مبلغاً، ويكتب على نفسه هذا المبلغ، فإذا أنكر هذا المبلغ فهناك إيصال، وهناك دعوى، وهناك حجز على أمواله، التعريف الدقيق للأمانة، أن تؤدي ما عليك من دون أن تكون مداناً أمام الناس.

إنسان أودع عندك مبلغاً من المال ومات، وليس معه وصل، وأولاده لا يعلمون إطلاقاً، فلو سكت على هذا المال لا أحد في الأرض يطالبك، ومع ذلك ذهبت إلى الورثة وقلت لهم، إن أباكم قد أودع عندي هذا المبلغ، فكلوه هنيئا مريئا، أن تؤدي ما عليك من دون إلزام، ومن دون مسئولية، ومن دون إدانة، ومن دون مطالبة، فأنت أمين، أما إذا أديت ما عليك، وهناك سند يحجز على أموالك، هذه علاقة تجارية

الأمين أن تعفَ عن أموال الناس، وعن أعراضهم، وعن كل شيء بحوزتك لهم من دون أن تكون مداناً عند الناس، هذا معنى دقيق، لذلك الأمين يخشى الله وحده، ولا يخشى سواه، يؤدي ما عليه.

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ: مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلا قَالَ:

((لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

(أخرجه أحمد)

لا إيمان، ينفي النبي عليه الصلاة والسلام عن الرجل الإيمان كله إذا كان ليس مؤتمناً،

((لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ، وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مِنْ عَلامَاتِ الْمُنَافِقِ ثَلاثَةٌ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ))

(أخرجه مسلم)

يقول عليه الصلاة والسلام:

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته))

(ورد في الأثر)

الحقيقة أن الأمانة تشمل الأموال، تشمل الأعراض، تشمل الممتلكات، تشمل الحقوق الأدبية، مقالةٌ ليست لك، مجلة قديمة بيضتها، وقدمتها لمجلة لتنشر باسمك، هذه خيانة، أخذت فكرت من كتاب، وعزوتها إلى نفسك، أشر في الحاشية أن هذه الفكرة من الكتاب الفلاني، المؤلف فلان، هناك الأمانة العلمية، هي أيضاً أمانة، فالغش خيانة، لأن التصريح عن البضاعة مخالف للواقع، الغش يدخل في الخيانة، عكس الأمانة، التطفيف خيانة، عكس الأمانة، إذا أعطيته وزناً أقل من الوزن المتفق عليه، هذه خيانة، الغلو، أيام تلاقي بالسحارة ثلثها ورق، ثلثها حشيش، وأخذ على الوزن الكامل، فوق نوع وتحت نوع، والثلث حشيش، والسحارة بالماء وضعت، وزنها ستة كيلو حسبت 2 كيلو فقط، هذه دخلت بالخيانة، الغلول، أخذ الأموال العامة، إبلاغ الرسالات، النصيحة، الأمر بالمعروف النهي عن المنكر، إعطاء الحقوق لأصحابها، العدل، أداء الودائع، هذا كله من الأمانة، لذلك الذي جعلنا نخرج عن كلمة أمانة، نخرج عن سياق الآيات إلى موضوع الأمانة قول الله عز وجل:

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (107) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (108) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(109))

وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ:

لم يقل الله عز وجل: وما أسألكم عليه أجراً، بل قال: من أجر، يعني مهما قلّ هذا الأجر، مهما كان طفيفاً فلا أسألكم عليه، أشد أنواع النفي، من لاستغراق أدق الجزئيات:

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ)

حتى بعض الأجر، حتى الأجر المعنوي:

(إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (110) قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (111))

يبدو أن وجهاء قومه لا يستسيغون أن يجلسوا مع عامة الناس ومع الفقراء والمساكين.

(الْأَرْذَلُونَ)

هنا هم الفقراء.

(قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (112) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (113))

صبر الأنبياء على من اتبعوهم من الفقراء:

يعني أنا ما شأني وشأنهم، أنا علاقتي معهم علاقة الهدى، أما إن كانوا فقراء، أو كانوا أغنياء، إن كانوا وجهاء، أو كانوا مغمورين، هذا ليس من شأني أن أحاسبهم عليه.

(وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ)

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ))

(أخرجه الترمذي)

هذا الذي تظنه فقيرا، ليس له شأن قد يكون له شأن عند الله لا ترقى إليه النفوس الكبيرة.

(إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (115) قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116))

جواب قوم نوح بالتهديد ودعاء نوح ربه بالنصر:

يعني نقتلك.

(قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (116) قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (117) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118))

يعني احكم بيننا يا رب، وانصرني عليهم.

(فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (119) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (120) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (121) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (122))

كل قوم كذبوا نبيهم، واستخفوا بدعوته أهلكهم الله سبحانه وتعالى عن آخرهم.

وفي درس قادم إن شاء الله تعالى ننتقل إلى قصة أخرى، ولكن قصة قصيرة متعلقة بالأمانة غابت عن ذهني. أبو لبابة صحابي جليل طلب أن يوفده النبي إلى بني قريظة ليستشيروه فيما هم صانعوا، بعد أن خان بنو قريظة رسول الله، يبدو أنه تكلم معهم، ولكن أشار إليهم إشارة تنبئ بما سيفعل النبي معهم، هذه الإشارة هكذا قال، يبدو أنه شعر أنه خان الله ورسوله، وعاد إلى المسجد، وربط نفسه بسارية المسجد، فكانت تأتيه زوجه فتفكه ليصلي، ويأكل، ثم يعود إلى وثاقه، إلى أن تاب الله عليه بعد تسعة أيام، وأنزل الله فيه قرآنا فقال الله عز وجل:

(وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة: 102)

فلما نزلت هذه الآية أبى إلا أن يفك النبي عليه الصلاة والسلام وثاقه، لما فك وثاقه، عاهد الله عز وجل على أن ينزل عن ماله كله في سبيل الله، لكن النبي عليه الصلاة والسلام، أمره أن يوزع الثلث فقط فهو أشار إشارة فقط، هذه الإشارة فيها خيانة عظمى.

سيدنا ابن رواحه حينما كان قائداً في مؤتة، وجاء دوره في المعركة تردد ثلاثين ثانية، قال:

يا نفس إلا تـقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صلـيت

إن تفعل فعلهما رضيتِ وإن تولـيت فـقد شـقيتِ

فقاتل حتى قتل، فلما كلم النبي أصحابه قال أخذ الراية أخوكم زيد فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية أخوكم جعفر فقاتل بها حتى قتل، وإن لأرى مقامه في الجنة، ثم سكت عليه الصلاة والسلام، فلما سكت قلق أصحابه على أخيهم عبد الله بن رواحه فقالوا يا رسول ما فعل عبد الله ؟ قال: ثم أخذها عبد الله فقاتل بها حتى قتل، وإن لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه، تردد في بذل روحه، **(ثلاثين ثانية)**إنها لأمانة، فأنت أمانة عند الله، ونفسك أمانة بين يديك، وأبناؤك أمانة، وزوجتك أمانة، وعملك أمانة، وهذه الأمانة ربما شملت الدين كله، وربما شملت الحياة كلها، وربما شملت نشاطك كله، كل شيء تفعله، سوف تحاسب عليه، هل أديت ما عليك هل عففت عن ما ليس لك؟ هل أديت واجبك تماماً ؟ هل عرفت نفسك بالله ؟ وأخطر أنواع الأمانة أمانة التكليف.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10))

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (08-20): تفسير الآيات 123 - 135
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-09-08

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الدرس الثامن من سورة الشعراء، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (131) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (132) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (133) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (134) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (135))

كثرة ورود الأمر بالتقوى في سورة الشعراء:

معنى التقوى:

الحقيقة أن الأمر الإلهي بالتقوى ورد في هذه القصة مرات عدة، ولو نظرنا إلى القرآن الكريم، وما فيه من كلمات التقوى ومشتقاتها: اتقى، وقى، يقي، ق، اتقى، يتقي، اتقوا، كلمة التقوى ومشتقاتها وردت في القرآن الكريم أكثر من ثلاثمئة مرة، إذاً شيءٌ يجب أن نفهمه فهماً دقيقاً، التقوى من فعل وقى، وفعل وقى من الوقاية إذاً هناك خطر، تقول اتق المرض، اتق الجرثوم، اتق الحفرة، اتق النار، اتق الانزلاق، اتق هذا الخطر، فكلمة وقى تعني أن هناك خطراً كبيراً يتهدد الإنسان، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

(سورة الطور: 18)

وقاهم، إذاً عذاب الجحيم شيءٌ خطير، يجب أن نتقيه.

(وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ)

(سورة غافر: 9)

السيئات يجب أن تتقى، وعذاب الجحيم يجب أن يُتقى، وربما كانت السيئات طريقاً لعذاب الجحيم، هذا الفعل المضارع، الفعل الأمر.

(وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

(سورة البقرة: 201)

إذاً هناك وقى، ويقي، وق، والله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

(سورة التحريم: 6)

وللمبني للمجهول:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ)

(سورة التغابن: 16)

إذاً هذا الأمر الإلهي الذي ورد ما يزيد عن ثلاثمئة مرة في القرآن الكريم يجب أن نقف عنده.

إن إمبراطور اليابان هذا الذي بنى النهضة الحديثة أرسل طلاباً سبعة إلى ديار الغرب ليتعلموا، يبدو أن الإمبراطور علق على تعلمهم آمالاً ضخمة، علق على تعلمهم آمالاً عريضة، فإذا عادوا إلى بلادهم، وقد خبروا ما في الحضارة الغربية، ربما ساهموا بشكل فعال وإيجابي في النهوض ببلادهم، يبدو أن هؤلاء الطلاب حينما ذهبوا إلى ديار الغرب، دهشوا بالحضارة، ودهشوا بالرفاه والرخاء، وربما انصرفوا إلى شيء آخر غير الدراسة، فلما أخفقوا في دراستهم وعادوا إلى بلادهم، أمر الإمبراطور بإعدامهم، إعداماً تاماً، وأرسل سبعة آخرين مكانهم، هؤلاء السبعة الآخرون في كل حركة وسكنه، وهم في ديار الغرب، يتذكرون ما حل بأسلافهم، فكأنهم يقولون: اتقوا الموت، ادرس كي تتقي الموت، تعلم كي تتقي الإعدام، ذاكر كي تتقي إنهاء الحياة، لا تضيع الوقت، اتق الإمبراطور، اتق عقابه الأليم.

التقوى تعني الحذر المستمر:

كلمة (اتق) في معنى الحذر المستمر، الطائرة مثلاً لها ميزات كبيرة جداً، ولكن الغلط في تصميمها يودي بحياة الركاب، لذلك الوقاية من السقوط يقتضي مضاعفة الاحتياطات، كل جهاز تتوقف عليه سلامة الطائرة، هناك جهازان يعملان في وقت واحد، يعني أي شيءٍ يمكن أن يصيبه العطب، هناك جهاز آخر بديل له، لأن السقوط سقوط مدمر.

الذي أريد أن أنقله إليكم، هو أن الإنسان، أي إنسان، لأنه إنسان أمامه خطر كبير، كيف أن هذا الطالب الذي أوفده ملكه إلى بلاد الغرب ليدرس ويتعلم، ويسهم في بناء أمته ودولته، هذا الطالب لو عاد إلى بلده، وقد أحرز العلم الصحيح لكان في قمة المجتمع، ربما أحد مواطنين اليابان الذين لم يتح لهم، أو لم يطمحوا إلى أن يدرسوا دراسة علية، كان في أمنٍ، وفي طمأنينة، أما هذا الذي طمح ليكون قمة في مجتمعه، ليكون عنصراً فعالاً، وبذلت حكومته من أجله الغالي والرخيص، هذا إذا فرط في مهمته، وضيع أمانته، فسوف يلقى عذاباً شديداً، أردت من هذا المثل والله سبحانه وتعالى يضرب في كتابه

الأمثال، أردت من هذا المثل أن هذا الطالب في كل لحظة، في كل ثانية، في كل حركة، في كل سكنه، في كل موقف، يذكر الذي حل بزملائه السابقين، فربما تنادوا فيما بينهم، يا فلان اتق الإعدام، يا فلان اتق الإمبراطور، يا فلان اتق المصير المحتوم، يا فلان اتق العقاب الأليم، يا فلان، يا فلان، كلمة (اتق) فيها خطر، خطر خطير خطر جاثم.

الآن: رُكِّب الملك من عقل بلا شهوة، المَلَك ليس فيه شهوة، المَلَك ما عنده أمانة حملها، ليس أمامه خطر المعصية، والحيوان ركب من شهوة بلا عقل، لم يكلف، لا يحاسب، ليس مخيراً، ولكن الإنسان ركب من كليهما، لذلك الإنسان ليس أمامه حل وسط، إما أن يكون في أعلى عليين، وإما أن يكون في أسفل سافلين، إما أن يكون فوق الملائكة، وإما أن يكون دون الحيوان، إما أن يسعد سعادة لا يسعدها أحد في العالمين، وإما أن يشقى شقاء لا يشقاه أحد في العالمين، إما أن يكون في قمة المخلوقات، وإما أن يكون في الحضيض.

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

(سورة البينة: 6 - 7)

إذاً لأنك إنسان، ما دمت من بني البشر، فأنت أمام الخطر لذلك جاءت الآيات الكثيرة، أن أيها الإنسان اتق الله، يعني اتق عقاب الله، فيما لو لم تحمل الأمانة، اتق عقاب الله بطاعة الله، كيف يتقي هذا الطالب حكم الإعدام في بلاده إذا عاد ؟ بالدراسة، كيف يتقي خطر الإمبراطور ؟ بطاعته، يعني أنت أمام خطر، لأنك حملت الأمانة يعني الأمانة، كما قال الفقهاء، الغرم بالغرم، الإنسان مؤهل ليكون أسعد المخلوقات، والكون كله سخر من أجله، لو أنه تقاعس، أو خان الأمانة لكان أشقى المخلوقات، يعني أنت إنسان ليس أمامك حل وسط فو الذي نفسه محمد بيده ما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، ونحن الآن في وقت عصيب، نحن في الدنيا، وهذه الدنيا دار ابتلاء، دار امتحان، كل شيءٍ يحل ما دمت حياً ترزق، باب التوبة مفتوح، باب العلم مفتوح، باب العمل الصالح مفتوح، باب إصلاح الماضي مفتوح باب تبرئة الذمة من المخلوقات مفتوح، باب التحلل من المعاصي المتعلقة بحق الآدميين مفتوح.

فيا أيها الإخوة الأكارم، نحن في خطر، خطر أن نقع في شر أعمالنا، خطر أن نعصي الله، نحن في خطر أن نغفل عن اليوم الآخر نحن في خطر أن نغفل عن يوم الحساب، فلذلك وردت كلمة اتقوا الله في القرآن الكريم أكثر من ثلاثمئة مرة. مثلاً الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى)

(سورة البقرة: 189)

العلماء قالوا: التقوى نهاية العمل، هناك أعمال في الدنيا لا تعد ولا تحصى، أعمال لكسب الرزق، أعمال ترفيهية، أعمال تجميلية، أعمال تزينية، أعمال علمية، أعمال لإحياء التراث الماضي، أعمال لا

جدوى منها، أعمال لها جدوى، الإنسان يتحرك في الحياة، يستيقظ منذ الصباح، يبحث عن عمل، إما عمل مشروع، أو غير مشروع، عمل جاد، أو غير جاد، عمل هادف أو غير هادف، عمل سامٍ أو عمل منحط، عمل نظيف، أو عمل قذر.

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى(4))

(سورة الليل: 1 - 4)

أعلى درجة في العمل، أن تتقي الله، أنت جئت إلى الدنيا من أجل أن تطيعه، ومن أجل أن تكون الطاعة ثمناً لسعادة أبدية لا توصف لذلك:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر: 1 - 3)

فكلمة (اتق) تعني أنك تسير بسرعة، أودع الله فيك الشهوات هذه الشهوات أودعها الله فيك لترقى إلى رب الأرض والسماوات، لو أنك تحب المرأة لا تدخل الجنة، لأن هذه الشهوة بها تخالف نفسك.

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى)

(سورة النازعات: 40)

لولا أن الله زرع في نفسك الهوى، كيف تدفع ثمن الجنة، الله سبحانه وتعالى أعطاك ثمن الجنة، أعطاك هذه الشهوات، إما أن ترقى بها إلى الله صابراً، وإما أن ترقى بها إلى الله شاكراً.

صور تطبيقية للتقوى:

فيا أيها الإنسان اتق الله في شهوتك، يعني اتق السقوط، اتق أن تنفذ هذه الشهوة بطريقة نهى الله عنها، اتق أن تمارس هذه الشهوة بطريقة محرمة، أودعها الله فيك، ولكن الله جل جلاله جعل لكل شهوة أودعها في الإنسان قناة نظيفة لتصريفها، ليس في الإسلام حرمان، أودع فيك حب النساء، وشرع لك الزواج، الزواج عمل نظيف، زوجة وأولاد، بيت إسلامي، تسعد بها، وتسعد بك، وتسعد بأولادك ويسعدون بك، وهناك الزنى، طريق آخر لإرواء هذه الشهوة، فنقول نحن **اتق الله في شهوتك**، يعني اسلك في شهوتك الطريقة التي رسمها الله لك، هذه الشهوة كأنها بنزين، كأنها وقود سائل، خطر، إذا وضعت في مستودعاتها النظامية، وإذا سارت في الأنابيب المحكمة، من المستودع إلى مقدمة السيارة، وإذا انتقلت من هذا الأنبوب إلى جهاز التنظيم، ومن جهاز التنظيم إلى جهاز الاحتراق، فانفجرت في غرفة الاحتراق، حينما انفجرت دفعت المكابس، ودفع هذه المكابس ولد حركة دائرية، نقلت بها نفسك وأهلك وأولادك من جهة إلى جهة، أو نقلت بضاعتك، الانفجار لأنه في مكانه الصحيح، لأنه في

الطريق الصحيح، هذا الوقود الخطر، هذا الوقود المتفجر، لأنه في المكان الصحيح، وفي الطريق الصحيح، وفي الأسلوب الصحيح، ولد حركة ولو أن هذا الوقود السائل ألقي على السيارة، وجاءته شراره، لأحرق السيارة، فالشهوة إما أن تكون قوة محركة، وإما أن تكون قوة مدمرة.

فيا أيها الإنسان اتق الله في شهوتك، فانظر إلى هذه الشهوة التي أودعها الله فيك كيف سمح لك أن تنفذها ؟ كيف سمح لك أن ترويها من خلال الزواج، الإنسان يحب المال، اتق الله في المال يعني يجب أن تكسبه بطريقة يرضاها الله عز وجل، من طريق مشروع، من طريق المعاوضة، بالبيع والشراء، لا من طريق الربا لا من طريق الاحتكار، لا من طريق الاستغلال، لا من طريق الكذب لا من طريق التدليس، من طريق العمل المشروع.

أيها الإنسان اتق الله في كسب المال، أيْ اتق عذاب الله إذا كسبت المال بطريقة غير مشروعة، ويا أيها الإنسان اتق الله في إنفاق المال، يعني اتق عذاب الله فيما لو أنفقت المال بطريقة غير مشروعة هي معنى اتق، اتق شهوة المرأة، وشهوة المال، وشهوة العلوّ في الأرض، هذه شهوة مدمرة، اتق الله فيها، اجعل علوك في الأرض من طريق العلم والعمل والخلق، لا من طريق التعدي والجناية والتسلط، اجعل علوك في الأرض علواً عفوياً، كن محسناً، يحبك الناس، يرفعوك، ولا تجعل علوك في الأرض عن طريق الغصب والقهر والعدوان، فكلمة اتق الله يعني ابحث عن الطريق المشروعة التي رسمها الله عز وجل لإرواء هذه الشهوات، التي بها ترقى إلى رب الأرض والسماوات.

اتق الله في المرأة واليتيم، فهذه الزوجة التي ملكك الله إياها اتق الله بها، يعني عاملها كما أمر الله.

(وَعَاشِرُوهُنّ بِالْمَعْرُوفِ)

(سورة النساء: 19)

واصبر عليها، لا تكن ظالماً لها، لا تكلفها ما لا تطيق، لا تحمل عليها، لا تكرهها، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ، أَوْ قَالَ: غَيْرَهُ))

[أخرجه مسلم]

اتق الله في زوجتك، عاملها كما يريد الله عز وجل أن تعامل، عاملها بالإحسان، أكرموا النساء فوا الله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً، لا أن أكون لئيماً غالباً، هذا معنى اتق الله، فهذه الشهوات التي أودعها الله بك يجب أن تؤمن، وأن تتيقن من أنه ما أودعها فيك إلا لترقى إليه، لو أنك لا تحب المال، كيف تتقرب إلى ذي العزة والجلال ؟ كيف ؟ أما إذا كنت تحب المال، وأنفقت هذا المبلغ لوجه، الله ولم يدرِ به أحد، لا تعلم شمالك ما أنفقت يمينك، أعطيت هذا المال على حبه، أطعمت الطعام على حبه، قدمت المال على حبه لا تبتغي

ثناءً ولا شكوراً، إذاً أنت اتقيت الله في المال.

كلمة (تقوى)رائعة جداً، المال معناه خطر المال، المال قنبلة، إذا أحسنت استخدامها، كنت خبيراً بها، قتلت بها عدوك في الحرب أما إذا كنت جاهلاً بها قتلت بها نفسك، فاتق الله في هذه القنبلة، يعني تعلم كيف تستخدم، مثلاً، فكلمة اتق الله ؛ أي تعلم الطريقة التي رسمها الله لهذا النشاط، لهذا الموقف، هذه واحدة.

هذا الكون الذي خلق الله عز وجل، هل اتقيت الله فيه ؟ لماذا خلقه ؟ لماذا خلق السماوات والأرض ؟ لماذا خلق هذه المجرات ؟ لماذا خلق هذه المذنبات ؟ لماذا خلق هذه الأجرام ؟ لماذا خلق هذه المسافات؟ التي لا يعلمها إلا الله، من أجل أن تعرفه، فإذا لم تفكر في الكون فقد عطلت الحكمة من خلقه، وكان الإنسان الذي لا يفكر في مستوى الحيوان، يأكل، ويشرب، يعيش ليأكل، فالكون يحتاج إلى تفكر، إذا فكرت بالكون، وعرفت رب الكون، فقد اتقيت الله بالكون.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(2))

(سورة الحج: 1 - 2)

شيءٌ آخر، إذاً الكون مسخر من أجل الإنسان، مسخر كما قلنا من قبل تسخير تعريفٍ، وتسخير تكريم، إذاً لا بد أن أؤمن بالله من خلال الكون، فإذا عطلت فكري عن النظر في خلق السماوات والأرض ربما كان هذا ندامة وبيلة، وخسارة فادحة يوم القيامة، فاتق الله في الكون، يعني أمرك أن تفكر في الكون، فكر به فاتق الله في الكون.

هذه الحرية التي منحها الله لنا، حرية الإرادة، هذه إما أن تستخدم بالعدوان على الناس، وإما أن تستخدم بالعمل الصالح، فإذا أحسنت استخدام هذه الحرية التي منحك الله إياها، والتي كرمك بها على المخلوقات كلها، فقد اتقيت الله في هذه الحرية، الإيمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن، أنت مقيد، مقيد بالشرع، فإذا كنت مخيراً وإذا كنت ذا إرادة حرة، هذا ينبغي أن يكون مقيداً بالشرع، من أجل أن تثمن أعمالك وترقى بها إلى أعلى عليين، كيف يثمن العمل ؟ إذا كان صاحبه مختاراً فإذا ألغي الاختيار، ألغي الثواب، وألغي العقاب، وألغي التكليف، فحينما تكون مختاراً يجب أن تحسن الاختيار وبهذا تتقي الله، بعض الآيات التي تتحدث عن التقوى، الآيات كثير جداً.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

(سورة الأنفال: 29)

حُكْم الله في هذا الموضوع معروف، أنت مأمور أن تغض بصرك، هذا حكم الله، فإن غضضت بصرك يجعل الله لك فرقاناً كيف ؟ كيف العلاقة بين غض البصر مثلا، وبين الفرقان الذي وعد الله به

المؤمن، إنك إن غضضت بصرك عن محارم الله، وكنت عبداً لله في هذا الأمر، وأطعته تشعر أنك من الله قريب، هذا القرب الإلهي يورثك نوراً يلقى في قلبك، ثمن طاعة الله عز وجل نورٌ يقذفه الله في القلب، وهذا النور الذي يقذفه في قلبك تكشف به الحقائق تكشف به الخير من الشر، تكشف به الحق من الباطل، تكشف به ما يصح، وما لا يصح، وحينما أطعت الله عز وجل كان ثمن هذه الطاعة أن ألقى الله في قلبك نوراً، أسعدك هذا النور، وجعل قلبك مبصراً، لأن الله عز وجل يقول:

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

(سورة الحج: 46)

(إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

أيْ إن تتقوا عذابه بطاعته يعني أدق معنى للتقوى، تتقي عذابه بطاعته.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

أيْ اتقوا عذاب ربكم، لأنه عذاب بالعدل، وبالحق.

(اتَّقُوا رَبَّكُمْ)

أي اتقوا عذاب ربكم عن طريق اتباع منهجه، لا ملجأ من الله إلا إليه.

ثمة أم رحيمة، ولكنها شديدة في الوقت نفسه، فابنها لا يتقي غضبها وعقابها إلا بطاعتها، وهذا معنى حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إلا إِلَيْكَ))

(أخرجه البخاري)

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة: 21)

العبادة طريق النجاة:

(اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

يعني لا تتقون عذاب النار، لا تتقون عذاب الخزي والعار، لا تتقون السيئات في الدنيا، لا تتقون المصائب، لا تتقون سخط الله، إلا بطاعته، فيا أيها الناس:

(اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

فالعبادة طريق التقوى، والتقوى هي النجاة، والتقوى من الوقاية.

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة: 179)

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)

في العقاب، في العقاب حياة للنفس:

أولا: إذا عاقبنا المذنب ردعنا بقية الناس عن الوقوع في هذا الذنب فكأنهم في حياة، إذاً إذا عاقبتم المذنب فهذا وقاية للمجتمع،

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

وقال سبحانه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

(سورة البقرة: 183)

إذا صامت جوارحكم عن المعاصي، وصمتم عن الطعام والشراب، تقربنا إلى الله عز وجل، لعل هذا العمل يكسبكم هذا الإقبال على عز وجل، وفي هذا الإقبال تحصل النجاة من عذابه، هذا معنى قوله تعالى:

(لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

وقال عزوجل:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

(سورة الطلاق: 2)

من يتق الله في تجارته، يجعل الله له مخرجاً من الأزمات التي تطحن التجار أحياناً، هؤلاء الذين يخالفون أوامر الشرع في البيع والشراء، وفي العلاقة بالناس، هؤلاء يقعون في شر أعمالهم، لكن الذي يتقي الله في تجارته يجعل الله مخرجاً من كل ضيق في عمله.

والذي يتقي الله في زواجه فيختار المرأة الصالحة، لا الحسناء في المنبت السوء، يختار المرأة الصالحة، ولو كانت أقل حسن من امرأة أخرى في منبت سوء، هذا الذي اتقى الله في زواجه، سيقيه الله من الحالات المدمرة التي تلاحق الأزواج غير المؤمنين الذين أرادوا من الزواج المتعة فقط، ولم يعبؤوا بشرع الله، ولا بحلاله، ولا بحرامه.

إذا:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا)

فالتقوى أن تتقي عذاب الله بطاعته، والطاعة درجات، هذا الذي ترك الكبائر هي درجة هذا الذي لا يسرق، ولا يزني، ولا يشرب الخمر، هذه درجة، هناك إنسان يترك الكبائر والصغائر، هناك إنسان يترك الكبائر والصغائر والخواطر، هناك إنسان يتقي الكبائر والصغائر والخواطر وما سوى الله فالتقوى درجات والدليل قول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران: 102)

كلما ارتفع مستواك في الإيمان، يرتفع مستواك في التقوى، والتقوى هي طاعة الله في حركاتك وسكناتك، في تحركاتك، في نزهاتك، في أوقات لهوك، في عملك، كلما ارتفع مستوى المؤمن دقت الجزئيات التي يتقي الله فيها، لذلك قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين، ربما كانت هذه عند زيد حسنة، وعند عبيد سيئة، الأوامر لها مستويات.

كيف يطيع الإنسان ربّه ؟

شيء آخر متعلق بالتقوى، وهو الشيء المهم جداً، كيف يطيع الإنسان ربه ؟ هذا كلام دقيق، وسؤال خطير، لماذا زيد يطيع وعبيد لا يطيع ؟ قد يجتمع رجلان في مجلس، ويتلى على أسماعهم أمر الله، يتلى أمر الله في موضوع ما، لماذا يطيع فلان ولا يطيع فلان ؟

الجواب: إنك لن تطيع إلا إذا عرفت من هو الآمر، أنت في الخدمة الإلزامية، ومقدم على عيد، وتطمح بإجازة، لتمضي العيد بين أهلك جاءتك ورقة مكتوب عليها: لا تغادر الثكنة، ابقَ في الثكنة، التوقيع صديقك فلان، لا تعبأ بهذا الأمر، لو أن الموقع فلان متقدم عليك في الدورة، وله سلطة صار الأمر مهماً، كلما ارتفع مستوى الآمر عظم عندك الأمر، فإذا رأيت ورقة كتب عليها لا تغادر الثكنة، التوقيع قائد الوحدة، وتعلم علم اليقين أن في المغادرة سجن وتأخير في إنهاء الدورة ... إلخ، عندئذ تنفذ الأمر، إنك لن تنفذ الأمر إلا إذا عرفت من هو الآمر، وما حجم هذا الآمر، وما عنده من عقاب وما عنده من ثواب، إذا عرفت بالضبط من الآمر، وما حجمه وما رتبته، وما العقاب الذي بإمكانه أن يوقعه بك، وما الثواب الذي بإمكانه أن ينقله إليك، عندئذ تطيعه، لذلك لماذا لا يطيع الناس ربهم ؟ لأنهم لا يعرفونه، والله لو عرفوك يا رب لأطاعوك، لكنهم ما عرفوك يا رب، ما عرفوا ماذا يعني مخالفة أمرك، ما عرفوا ماذا تعني طاعتك تعني طاعتك سعادة الدنيا والآخرة، تعني طاعتك التوفيق في كل شيء تعني طاعتك، يا رب أن يسعد هذا الإنسان بها، سعادة لا توصف يعني يجب أن تقول، إذا كنت مطيعاً لله حقاً، واللهِ ليس في الأرض من هو أسعد مني، في أي ظرف، في أي مكان، في أي زمان، لأن الخير كله في طاعة الله، والشر كله في معصيته، ولو رأيت إنساناً واحداً يعصي الله وهو سعيد ـ حقيقة لا شكلاً ـ فهذه الآية ليست من كتاب الله، وحاش لله،

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه: 124)

و:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: 97)

إذاً: الشيء المهم أنك لن تطيع الله إلا إذا عرفته، ولن تطيعه أيضاً إلا إذا عرفت أمره، إذاً من أجل أن تطيعه، من أجل أن تتقي الله أي أن تتقي عقابه بطاعته، يجب أن تعرفه أولاً، ويجب أن تعرف أمره ثانياً، ربما تعرفه إذا فكرت في خلق السماوات والأرض، أو تعلمت من أولي العلم عنه الشيء الكثير، إما أن تفكر، وإما أن تستمع، إما أن تدرس، وإما أن تتأمل، لا بد من أن تلقي السمع، ولا بد أن تعقل.

(إنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

(سورة ق: 37)

فلذلك أيها الإخوة الأكارم... موضوع معرفة الله شيء مصيري، ما لنا خيار فيه، يعني فلان يحمل دكتوراه مثلا، متى أخذها؟ أخذها، وهو نائم، أخذها بالتمني، أخذها بالطموح، أما أخذها بالكد والعمل، أخذها في سنوات سبع، هذا سؤال خطير، أنت مؤمن يقول لك: نعم والحمد لله، تقول له متى آمنت ؟ أي وقت خصصته كي تؤمن، متى عرفت الله ؟ كم كتابًا قرأت ؟ كم مجلس علم حضرت ؟ كم عالمًا التقيت؟ متى عرفت الله عز وجل ؟ لا يمكن أن تأخذ شهادة من أهل الأرض إلا بجهد جهيد، وبعرق شديد، وبوقت مديد، أما أن تعرف الله بلا جهد، وبلا وقت وبلا تعب، وبلا نصب، وبلا جلوس على ركبتيك في المساجد، وبلا قراءة طويلة، وبلا سؤال عريض، لا تعرف الله، إذا لم تكن تعرفه فلا تطيعه، لا تعبأ بأمره، يقول لك حط بالخرج، لا تدقق، من هون ليوم الله يفرجها الله، مثل الناس يا أخي أنا، حط رأسك بين الروس، وقول يا قطاع الروس، هذا كلام العوام هذا، كلام الجهل، كلام فاضح، أنت الآن في الحياة الدنيا، أمامك موت، وهذا الموت شيء مخيف من كل شيءٍ إلى لا شيء.

" كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذي العزة والجبروت "، " الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر"، " العمر مهما طال فلا بد من نزول القبر ".

واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا، وسيتخطى غيرنا إلينا، فلنتخذ حذرنا.

قلت مرة: هذا الطالب الذي أحرز الدرجة الأولى على القطر في الثانوية العامة، لماذا أحرز هذه الدرجة ؟ لأن الامتحان، وصورة الامتحان، وشبح الامتحان، ووقت الامتحان، وخطورة الامتحان، وما وبعد الامتحان، ما غادر ذهنه ولا دقيقة، طوال العام الدراسي كلما هم أن يضيع وقتاً تذكر الامتحان، كلما هم أن يمضي وقتاً مع أصدقائه تذكر الامتحان، كلما همّ أن يقرأ قصة لا قيمة لها تذكر الامتحان، كلما هم أن يخرج من البيت تذكر الامتحان، والذي ينجو من الموت هو الذي يفكر في الموت، لذلك عَن ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ:

((كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُ قَالَ: أَحْسَنُهُ خُلُقًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ، قَالَ: أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا أُولَئِكَ الأَكْيَاسُ))

(أخرجه ابن ماجة)

لكن هذا الذي يعد العدة للقاء الله عز وجل سوف يكون الموت في حقه عرساً، الإنسان له عرس في الدنيا، يقول لك شهر عسل، قد يكون شهر بصل، هذا العرس تأتي بعده المتاعب، ولكن عرس المؤمن لا تعب بعده إطلاقاً، غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبة، لا كرب على أبيك بعد الموت، لا يوجد كرب أبداً، " **اتقوا الله** " يعني اتق عذابه بطاعته، اتق النار بالهروب من أسبابها، اتق الله بطاعته، لا ملجأ منه إلا إليه.

من طرق معرفة الله:

1 - التفكر في الكون:

شيءٌ آخر، الآن لابد من أن تعرفه، لابد أن تفكر في الكون من أجل أن تعرف من هو الله عز وجل، من هذا الذي يأمرك أن تغض بصرك عن محارمه، من هذا الذي ينهاك، هو الله رب العالمين، مجرات، سماوات، أرضين، شمس، قمر، خلق دقيق خلق عظيم، خلق مبدع، خلق متناه في العظمة، هذا الذي خلقك يأمرك، وهذا خلقك ينهاك، لذلك لا تنظر إلى صغر الذنب، ولكن انظر على من اجترأت.

2 – معرفة أمر الله:

المرحلة الثانية: لابد من أن تعرف أمره، بالبيع والشراء، اسأل: هذه الطريقة بالبيع صحيحة أم غلط ؟ يقرها الشرع أم لا يقرها ؟ ترضي الله أم لا ترضي الله ؟ هذه الطريقة في الشراء، وهذه الطريقة في البيع، وهذه الطريقة في التعامل، في بيعك وشرائك، في وظيفتك، في عملك في صنعتك، بدكانك، في وظيفتك، في معملك، وراء مكتبك، مع أهلك، مع أولادك، ما حكم الله، طرق الباب جاءت امرأة أنظر إليها أم لا أنظر، أدخلها أم لا أدخلها، ما حكم الله في هذا الأمر، يجب أن تعرف الحلال والحرام، في كل مناحي الحياة، لذلك طلب الفقه كما قال عليه الصلاة والسلام:

((حتم واجب على كل مسلم))

عرفت الله يجب أن تعرف أمره، لابد من معرفته أولاً، ولابد من معرفة أمره ثانياً، من أجل أن تطيعه، فتتقي عذابه، من أجل أن تكون من المتقين، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة المائدة: 112)

من علامة إيمانكم طاعتكم لله عز وجل، فهذا الذي لا يطيع الله لا يعرفه أبداً، ليس مؤمناً به، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((كفى بالمرء علماً أن يخشى الله))

(ورد في الأثر)

خشيتك لله علامة معرفتك له، ولا يمكن أن أصدق أن إنساناً يعصي الله قصداً، ويقول: أنا أعرفه.

تعصي الإله وأنت تظهر حبه   ذاك لعمري في المقال بديـع

لـو كان حبك صادقا لأطعته   إن المـحب لمـن يحب يطيع

* * *

إذاً:

(اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة المائدة: 112)

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة المائدة: 96)

المصير عنده، وجودك في الدنيا مؤقت، أنت ضيف، والدليل اقرأ النعايا كلها، كتب عليها وسيشيع إلى مثواه الأخير،البيت مثوى موقت، لا يعرف الواحد يبقى فيه أم ينتقل إلى غيره، يموت فيه أم بغيره أن يغسل بالبيت لا يعرف ؟ بالحمام بالمطبخ، هذا البيت موقت والمثوى الأخير هو القبر، إذاً ماذا يوجد في القبر ؟ يقول ربنا:

((عبدي رجعوا، وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت))

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة المائدة: 96)

المصير عنده، تذهب إلى أمريكا، تذهب إلى اليابان، تذهب إلى أفريقيا، تصعد إلى القمر، تغوص بالبحر، إليه تحشر، بالنهاية لعنده أينما ذهبت.

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

(الطبراني في الأوسط عن سهل بن سعد بسند حسن)

(وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

(سورة الحجرات: 10)

ملخص الدرس:

كملخص دقيق للدرس: أن كلمة التقوى ومشتقاتها وردت في القرآن كم قلت قبل قليل أكثر من ثلاثمئة مرة، وكلمة التقوى توحي أن هناك خطراً خطيراً، يتهدد الإنسان، لأن الإنسان حمل الأمانة، وهو معد ليكون أكرم المخلوقات وأسعدها، لكن إذا خالف الأمانة ولم يحملها حق حملها، وخانها، سوف يكون أشقى المخلوقات، من هنا جاءت كلمة التقوى، اتق عذاب الله بطاعته، التقوى تعني أن تطيع الله، لذلك قالوا نهاية العمل التقوى، نهاية العلم التوحيد، ونهاية العمل التقوى.

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب: 71)

ليكن همك الأول أن تطيع الله في كل شيء، في علاقاتك الشخصية، في علاقاتك التجارية، في علاقاتك مع من هم فوقك، مع من هم دونك، في كل شأن من شؤون حياتك، إذا أطعت الله فقد اتقيته، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتّقِينَ)

(سورة التوبة: 4)

إذا أردت أن يحبك الله عز وجل فثمن محبة الله أن تكون تقياً، والآية الثانية:

(أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجّار)

(سورة ص: 28)

هل يُعقل، وهل تقبل على الله عز وجل، أن يعامل المتقي كالفاجر ؟ هذا الذي يتقي غضب الله، يتقي سخطه، يتقي معصيته يتقي عذابه، كإنسان فاجر، لا يبالي، إذاً كلمة التقوى حيث ما وردت قد ترد في حق الناس عامة، والدليل:

(يَا أَيُّهَا النّاسُ اتّقُوا رَبّكُمْ إِنّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

وقد ترد في حق المؤمنين:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللّهَ)

وقد ترد في حق المؤمنين في درجات متفاوتة:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللّهَ حَقّ تُقَاتِهِ)

وأيضاً:

(وَجَاهِدُوا فِي اللّهِ حَقّ جِهَادِ)

(سورة الحج: 78)

ارفع مستوى الطاعة إلى أعلى درجة، وربنا سبحانه وتعالى يطمئن المتقين بأنهم سوف ينجون من عذاب الله بقوله تعالى:

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة الزمر: 61)

فإذاً كلمة **(تقوى)**معناها أن هناك خطراً، بالدنيا والآخرة، إتلاف المال، دليل أن صاحبه لم يتق الله، لم يتق الله في كسبه فأتلف الله له ماله، الشقي في بيته، هذا ما اتقى الله في زواجه فصار في بيته شقياً، إن لكل سيئة عقاباً، ملخص الملخص ما من مشكلة على وجه الأرض في المجتمع البشري إلا بسبب خروج عن منهج الله عز وجل، وما من خروج عن منهج الله إلا بسبب الجهل والله سبحانه وتعالى خلق الكون، ونوره بالقرآن:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة النور: 35)

هناك إشارات، وتوضيح، أنت خلقت لكذا وكذا إن فعلت هذا نجوت، إن فعلت هذا هلكت، طاعة الله في كذا وكذا، ومعصيته في كذا وكذا، فربنا عز وجل أعطاك هذا الكتاب هذا الكتاب منهج دقيق، أفعل ولا تفعل، فهو لنشرة تعليمات، تعليمات الصانع هذا الدفتر، أنت من صنعك ؟ الله عز وجل:

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل: 88)

أنت صنعك الله عز وجل، وهذا الكتاب تعليمات الصانع، فإذا أطعت الله في تعليماته، نجوت من عذابه، تكون متقياً، وإذا خالفته في تعليماته وقعت في شر عملك، وإذا كنت تحب نفسك وذاتك، إذا كنت تحب وجودك، وتحب استمرار وجودك، وتحب سلامة وجودك وتحب كمال وجودك، فاتق الله، أي اتق عذابه بطاعته.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (09-20): تفسير الآيات 123 - 140
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-09-15

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة هود عليه السلام:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من سورة الشعراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قصة سيدنا هود، يقول الله عز وجل:

(كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (124) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (125) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (126) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (127) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (130))

ربنا سبحانه وتعالى يصف أهل الكفر بأن المتعة في الدنيا واقتناص اللذة فيها هي الهدف الأول، وأن علاقة أهل الدنيا علاقة المعرضين عن الله عز وجل بخصومهم، علاقة البطش والتدمير، فهو بين أن يكون غارقاً في لذاته، وبين أن يكون بطاشاً لأعدائه.

(أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ

المصانع كما قال عنها العلماء هي الحصون، وقال بعض العلماء هي البيوت، وقال بعضهم الآخر: المصانع ؛ هي مستودعات المياه الضخمة، على كلٍ أهل الدنيا يعملون للدنيا وكأن الموت شيءٌ لا علاقة لهم به.

المعاصي قوطع الصلة بالله تعالى:

المشكلة أن الذي يقطع الإنسان عن الله عز وجل هي المعاصي والذنوب، والمعاصي والذنوب، لها بحث طويل، ما الذي جعل هذا الإنسان يؤثر الدنيا على الآخرة ؟ هو أنه لم يذق طعم القرب، المعاصي التي تلبس بها، جعلت بينه وبين الله حجاباً، المعاصي كما قيل بريد الكفر، المعاصي حجاب بينك وبين الخالق، المعاصي تجعل صاحبها في ظلمات بعضها فوق بعض، فالحديث عن المعاصي حديث دقيق

يعني من السذاجة أن تظن أن المعاصي كلها من نوع واحد، المعاصي متفاوتة، والعصاة متفاوتون، إذا فهمت فهماً دقيقاً ماذا تعني المعصية وما درجات المعصية، وما حالات العصاة، وقفت موقفاً معتدلا، وموقفاً علمياً، لأن كل إنسانٍ إذا وجدته قد ارتكب معصية فكفرته فقد وقعت في حرج كبير، ما الذي تقع به ؟ أن ترى أن الناس كلهم كفار، وأن الناس كلهم بعيدون عن طريق الحق، وأنه لا جدوى منهم، بهذا تبتعد عنهم ابتعاد الزاهد والمتكبر، لكنك إذا عرفت أن للمعاصي أنواعاً منوعة، هناك درجات للمعصية، وهناك درجات للعصاة، هذا البحث نقف عنده قليلاً فلعل الله سبحانه وتعالى ينفعنا به.

قبل كل شيء، حينما يفتح إنسان محلاً تجارياً، أو محلاً لإصلاح السيارات، وحينما يعتقد أن كل عطبٍ يصيب السيارة هو بسبب نقص في الوقود، فقط، ليس عنده إلا تفسير واحد، فإذا جاءه صاحب سيارة يشكو له أنها توقفت، يقول له من قلة الوقود، هذا تفسير واحد لتوقف السيارة، أما أحياناً يكون المستودع قد عبئ كاملاً إلى القمة، ومع ذلك تقف السيارة، إذاً هناك أسباب كثيرة لتوقف السيارة، لا يمكن أن نفسر كل أنواع التوقف تفسيراً واحداً، أو بصفة واحدة، فهذا الموضوع دقيقٌ جداً، وينبغي أن نقف عنده قليلاً.

الإنسان لأنه إذا رأى معصية، فشعر أنه فوق هذا المستوى، يعني عير أخاه بها، ربما عافى الله سبحانه وتعالى أخاه وابتلاه، انظر كلام سيدنا يوسف ماذا قال:

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(سورة يوسف: 33)

حتى إن موقف المؤمن من إنسان عاصٍ يكون متوازياً، هناك موقف فيه تكبر، وهناك موقف فيه أدب، فلذلك العلماء قسموا العصاة، أو قسموا حالات العصاة أمام المعاصي إلى أنواع كثيرة.

أنواع العصاة أمام المعاصي:

1 ـ العصاة الجهّال:

أول نوع من العصاة هؤلاء هم الجهال ينطلقون إلى المعاصي كما ينطلق الجائع إلى الطعام، لا يفرقون بين طعام حلال، أو طعام حرام، طعام طيب، وطعام سيئ، طعام يجوز أكله، طعام لا يجوز أكله، إنسان جائع ينطلق إلى طعامه، من دون أي اعتبارٍ آخر، قال العلماء هؤلاء هم الجهال، وهؤلاء يشبهون في انطلاقهم إلى الشهوات، وإلى المعاصي، الحيوانات، الحيوان ركب من شهوة فقط، فحيثما

وجدت بغيته من طعام، أو شراب، أو لذة انطلق إليها وكفى، فالذي ينطق إلى المعصية من دون توقف، من دون تبصر، من دون سؤال من دون تأمل، من دون أن يسأل نفسه، هل هذه معصية، ما نوع هذه المعصية ؟ هل ترضي الله ؟ هل يرضي الله أن أعصيه، أو لا يرضيه، هذا الذي لا يعبأ، ولا يفكر في خالقه، ولا في نوع عمله، ولا في مؤدى معصيته، هذا إنسان مستواه في مستوى البهيمة.

بالمناسبة هناك موضوع دقيق جداً، الإنسان ما الذي يحركه ؟ أنت تتحرك نحو أشياء ترغب بها أو تحبها، ما الذي يجعلك تتحرك نحوها هو شيء واحد، هو أنك تملك تصوراً في ذهنك حول هذا الشيء إذا تصورت أن أخذ هذا المال بشكل غير مشروع، يعد ذكاءً، ويعد مكسباً، ويعد غنيمةً، ويعد مردوداً كبيراً بجهد قليل، إذا تصورت هذا فعلت هذه المعصية، هذا التصور الفاسد، فالإنسان دائما، الذي يدفعه إلى السرقة، أو يدفعه إلى أكل المال الحرام، أو إلى كسب أموال بالباطل، أو إلى أكل أموال الناس بالباطل، سوء تصوره للمال، المال له طريق مشروع نأخذه، وهناك طريق غير مشروع، إذاً الموضوع هو أن الذي يجعلك تتحرك حركة صحيحة، صحة التصور، والذي يجعلك تتحرك تحركاً مغلوطاً خطيراً، هو سوء التصور، أضرب على هذا مثلاً.

يوجد في السيارة مصباح أحمر اللون، إذا تألق معنى ذلك أن الزيت في المحرك قد قل عن المستوى الضروري، يجب أن تقف فوراً، وأن تضيف الزيت إلى المحرك، إذا تصورت أن هذا المصباح عندما يتألق، إنما يتألق من أجل أن يسليك في الطريق، هذا التصور ينتهي بك إلى إتلاف محرك السيارة، الذي يملك تصوراً صحيحاً لسبب تألق هذا المصباح الأحمر هو الذي يصون محركه، والذي لا يملك هذا التصور الصحيح هو الذي يتلفه.

إذاً ما الذي يجعلك تنطلق نحو الأهداف الصحيحة، وفق الوسائل الصحيحة ؟ هو أن تملك تصورات علمية ما هو العلم ؟ العلم ؛ علاقة ثابتة بين شيئين، مقطوع بصحتها، عليها دليل تطابق الواقع، أي شيء خالف الواقع يسميه العلماء الجهل، الجهل ما خالف الواقع، فإذاً كل تصورتك من أجل ألا تكون موصوفة بالجهل يجب أن تكون واقعية بكسب المال، بإنفاق المال، بالنظر في الطريق، في علاقتك مع الجار، أحياناً تكون علاقتك معه أنت أقوى منه، فتشعر أن قوتك تدعوك لتأخذ ما ليس لك، وأن هذا من قبيل المكان العلية في الحي، أنت إنسان قوي، وها قد أخذت شيئاً ليس لك، هذا التصور المغلوط يدفعك إلى المعصية، والمعصية تستوجب المعاقبة، إذاً الذي يدفعك، ويحركك نحو العمل الصحيح التصور الصحيح، في كسب المال، في إنفاق المال في علاقاتك بالنساء، علاقاتك بالجيران، علاقاتك بالزبائن، علاقاتك بكل إنسان، فالجهل تصور مخالف للواقع.

الحقيقة العلمية التي هي علاقة بين شيئين يجب أن تكون قطعية، فإن لم تكن قطعية فهذا هو الشك، والشك خمسون بخمسين، والوهم ثلاثون بسبعين، والظن سبعون بثلاثين، يعني أنت إذا لست متأكداً،

الحقيقة لما الإنسان يكون متردداً، في قبول فكرة هذا التردد يمنعه من أن يأخذ بها، يجب أن تكون تصوراتك للأشياء أولاً: مطابقة للواقع ثانياً: مقطوع بصحتها، ثالثاً: توافق المنطق، رابعاً: عليها دليل. إذا أردت أن تجعل كل تفكيرك ومعارفك، ومعتقداتك، وقيمك من هذا النوع، فإن هذا الموقف العلمي يقودك شيئاً فشيئاً إلى التصرف الصحيح، ومن هنا فسر العلماء قوله تعالى:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر: 28)

لو أنك اطلعت على ما في الجراثيم من أمراض خطيرة، واطلعت على طرق العدوى، إذا اطلعت على هذه المعلومات اطلاعاً صحيحاً، فإن هذا يدفعك إلى أن تنظف الأشياء تنظيفاً تاماً، وأن تعقمها، فالسلوك الصحيح أساسه معتقد صحيح، الآن في عندنا قاعدة، العقيدة الصحيحة لا بد أن تثمر عملاً صحيحاً، والعقيدة الزائغة لا بد أن تثمر عمل منحرفاً، فهناك علاقة ترابطية بين صحة المعتقد، وبين صحة العمل، هذه علاقة ترابطية، أي خلل في العقيدة، ينتج عنه خلل في السلوك، أي خلل في السلوك أساسه خلل في العقيدة:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2))

(سورة الماعون: 1 - 2)

هو نفسه،

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: 50)

العصاة من الدرجة الأولى، هؤلاء مشهدهم للمعصية مشهد الشهوة الحيوانية، هؤلاء ينطلقون إلى المعاصي من دون قيد أو شرط من دون توقف، من دون تريث، من دون تأمل، من دون مراجعة، من دون معاتبة، من دون محاسبة، هؤلاء هم أخطر نوع من العصاة لا يزال الله عز وجل يمدهم حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، من هنا تأتي بعض المصائب، مصائب قصمٍ، يعني هذا أعماله كلها سيئة يعيش ليقتنص الملذات، يعيش ليأكل، يعيش ليستمتع، بشكل صحيح أو غير صحيح، مقبول أو غير مقبول، من شيء مشروع أو غير مشروع، هذه الدرجة الأولى.

2 – الطبيعيّون:

الدرجة الثانية من العصاة: هؤلاء بعدوا عن الدين، ورأوا أن الإنسان له طبيعة خاصة، إن فعل هذا، فهو يفعل هذا تلبية لحاجاته النفسية، إنه بحاجة إلى المرأة، فإذا غازل امرأةً مثلاً فهذا ميل طبيعي، وحالة صحية، هؤلاء الذين يبحثون عن قواعد النفس البشرية بعيداً عن أوامر الدين، بعيداً عن نواهيه،

ربما ينصحون بعض المرضى باتخاذ صديقات، بعض علماء النفس، بعض أطباء النفس ينصحون بعض مرضاهم باتخاذ صديقات، هذا في مفهوماتهم، وفي تصوراتهم فهم بعيدون عن أوامر الدين، وعن نواهيه، إنما ينطلقون من أن هذا الإنسان كائن يعيش ليأكل، ويعيش ليستمتع، فهذا شيء طبيعيٌ من طبيعته، ولا شيء عليه، هؤلاء الذين غفلوا عن حقيقة الدين، وعن حقيقة الحياة، وعن جوهر الدين، هؤلاء ينطلقون إلى اقتناص الملذات بدافع من أنها شيء طبيعي لابد منه يحقق توازناً في الحياة النفسية، هذا نوع آخر من العصاة، نمط غربي، يعني ليس عنده قيود، كل شيء مباح، مادام هو ناجح بعمله، ودخله كبير، وتجارته رائجة، معمله نشيط، إنتاجه جيد، صادق في أقواله، انتهى الأمر، أما ارتكب هذه المعصية، أو تلك، هذا النموذج الغربي، نموذج يؤمن بالمادة، يؤمن بالإنجاز، أما علاقته بالآخرة، علاقته بالموت، علاقته بالله عز وجل فهي علاقة سيئة جداً، أو تكاد هذه العلاقة أن تكون معدومة.

مرة التقى رجلٌ بإنسان غربي قال له أنا لا يعنيني إلا ثلاثة أشياء، منزل أكبر، وسيارة أكبر، وزوجة أجمل، هذا كل مطالبه بالحياة، هؤلاء الطبيعيون، الصنف الأول الحيوانيون، حيوان أمام قطعة لحم، لا يخطر بباله أن هذه القطعة له أم ليست له، يأكلها، أم لا يأكلها، هذا خارج اهتمامه كلياً، النمط الثاني: الطبيعيون، يعصون وكأن المعصية جزء متمم لكيان الإنسان.

3 – الجبريُّون:

وهناك من يعصي ويعتقد اعتقاداً خطيراً جداً أن الله أجبره على هذه المعصية، أخي كله مكتوب، كاسات معدودة بأماكن محدودة، لا تعترض تنطرد، هكذا قدر الله عليه.

هي عقيدة خطيرة جداً، أن الله عز وجل أجبر عباده على المعصية فهو يعصي وكأنه لم يفعل شيئاً، هكذا قدر الله علي، يقول لك: يعصي، وهو مكلف بالطاعة، مكلف بأن ينتهي عن هذه المعصية بنص القرآن الكريم، والسنة النبوية، وعلماء بلغوه، وسمع خطبًا، وحضر مجالس علم، وعرف كل شيء، ويقول لك بعد هذا: إن الله قدر عليه هذه المعصية، هذا كلام مرفوض، هذه عقيدة أهل الجبر، أهل الجبر، أو الجبريون، يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى أجبر عباده على المعصية، وأن الإنسان شأنه مع القدر كشأن ريشة في مهب الريح، و كل ما ارتكب معصية يعزوها إلى الله عز وجل، وبأن الله قدرها عليه، وهو لم يفعل أكثر من أن نفذ أمر الله في هذه المعصية.

عصى الله، ونفذ حكمه، لذلك لمَ جاءه سيدنا عمر رجل شارب خمر سأله لما شربت الخمر ؟ قال: يا أمير المؤمنين إن الله قدر عليّ ذلك، فقال رَضِيِ اللّه عَنْه: **أقيموا عليه الحد مرتين، مرةً لأنه شرب الخمر، ومرةً لأنه افترى على الله**، وقال: **ويحك يا هذا إن قضاء الله لن يخرجك من الاختيار إلى**

الاضطرار، الصنف الأول الحيوانيون، بهيمة، والإنسان بلا علم، وبلا معرفة بالله عز وجل شأنه كشأن البهيمة، ولو أردتم مني دليلاً فهذا هو الدليل:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)

(سورة الجمعة: 5)

(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)

(سورة الأعراف: 176)

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا)

(سورة الفرقان: 44)

(كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ)

(سورة المنافقون: 4)

هذا أول مستوى، مشهد الإنسان الحيواني، الذي لا يعنيه إلا قضاء شهوته، من أي طريق، بأي أسلوب، من أي جهة، يريد المال والمتعة بأي طريق، الثاني: إنسان مثقف، يرى أن المعصية شيء طبيعي جداً، شيء من كيان الإنسان، هذه حاجة الله أودعها بالإنسان، يفعل الموبقات، وكأنه ما فعل شيئاً، هو الأصل أن يكون إنتاجه جيد، وكلامه صادق بمعاملة، هذا نوع من المعاصي هؤلاء ينكرون الأديان كلها، ولكن آمنوا بشيء معين من بعض القيم.

أما الصنف الثالث فهو صنف يرتكب المعصية ويعتقد أن الله أجبر عباده على هذه المعصية، لذلك قال الإمام الحسن رَضِي اللَّه عَنْه: **من حمل ذنبه على الله فقد فجر**، يعني هناك ذنبان، ألم يقل سيدنا عمر أقيموا عليه الحد مرتين، مرة لأنه شرب الخمر، ومرة لأنه افترى على الله، لا يكفي أنه فعل هذه المعصية، بل عزا هذه المعصية إلى الله عز وجل، ما من عقيدة أخطر في الحياة من أن ترتكب المعصية وأن تظن أن هذه المعصية إنما أجبرك الله عليها، والرد القاطع بآية محكمة:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام: 148)

فمن تكلم بهذا الكلام فهو بنص القرآن مشرك، حُدّ مرتين:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ)

(سورة الأنعام: 148)

والعلماء قالوا: بمجرد أنك تؤمر وتنهى، فأنت مخير، إذا قلت لإنسان: سر على اليمين معنى ذلك أن الطريق يحتمل يمينًا ويسارًا، وأنت مخير، مجرد الأمر أي أنت مخير.

ودليل آخر: ما من إنسان يوم القيامة كما حدثنا ربنا سبحانه وتعالى إلا ويعترف بذنبه وبخطئه، فلو كان مجبوراً على المعصية لما ندم، ولما استرجع، ولما عوتب، ولما قال:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

(سورة الفجر: 24)

على كلٍ، هذا الحديث تحدثنا فيه كثيراً، وعولج في دروس كثيرة جداً، عقيدة أهل الجبر أنهم يعصون الله عز وجل لأن الله قدر عليهم هذه المعاصي، مع أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

(سورة الأعراف: 28)

أيعقل أن يأمرك الله بشيء، وينهاك عن شيء، ثم يجبرك على أن تفعل هذا الذي نهاك عنه، ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياكَ إياك أن تبتل بالماء.

4 – القدريُّون:

وصنف آخر من العصاة: هؤلاء يعزون المعصية إلى فعلهم هم، هذا الذي يؤمن أنه خلق فعله، وأن الله لا علاقة له بالمعصية، وأنه قد يقع في الكون شيء لم يشأه الله عز وجل هذه أيضاً عقيدةٌ قدرية وهي عقيدةٌ غير صحيحة، هذا الذي يعتقد أن الله خلق فعله، يعني هو الذي أجبره على المعصية، هؤلاء الجبريون، وهؤلاء الذين يعتقدون أنهم خلقوا أفعالهم، وأن الله لا شأن له بهم، هؤلاء هم القدريون، على كلٍ هؤلاء الأصناف الأربعة، من العصاة منحرفون في عقيدتهم، منحرفون في سلوكهم.

موقف أهل الإيمان الصحيح من المعصية:

الرأي الأول: كل شيء وقع أراده الله، وأن كل شيء أراده الله وقع:

لكن أهل الإيمان ما رأيهم في المعصية ؟ رأي أهل الإيمان في المعصية أن كل شيء وقع أراده الله، وأن كل شيء أراده الله وقع، و أن إرادة الله متعلقة بالحكمة، والحكمة متعلقة بالخير المطلق، فهذا الذي وقع أراده الله، لحكمة بالغة، قد نعرفها، وربما لا نعرفها، لا نقول نحن: إن الله أجبر عباده على هذه المعصية، إذا كان أجبرهم لما يحاسبهم، وما ذنبهم، كما لا نقول: إن هؤلاء العصاة خلقوا أفعالهم، وكأنهم مستقلون عن الله عز وجل، وكأن شيئاً يقع في الكون من مشيئة الله، هذه عقيدة زائغة، وتلك عقيدة زائغة، ولكن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن كل شيء وقع أراده الله، لأنه لا يقع شيء بملكه إلا

إذا أراده الله، وأن كل شيء أراده الله أن يقع يجب أن يقع، لأن الكون ملكه والدليل:

(لَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ)

(سورة البقرة: 255)

لا يقع شيء إلا بإذن الله، ومشيئة الله، وإرادة الله، وعلم الله وقضاء الله وقدره، لكن هذا الشيء لماذا وقع ؟ هنا السؤال، مادام وقع فقد أراده الله، مادام الله قد أراد شيئاً فلابد أن يقع، لماذا وقع ؟ نقول الإنسان أحياناً قد يريد شيئاً بدافع من قوة قاهرة، وقد يريد شيئاً بدافع من إغراء شديد، وقد يفعل شيئاً لأنه جاهل، لكن الأشياء الثلاثة لا تليق بالله عز وجل، إرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير المطلق، والدليل:

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

(سورة آل عمران: 26)

يجب أن تعتقد أن هذا الذي وقع خير، لكن هناك خير مطلق، وخير نسبي، حينما يصاب الإنسان بالزائدة الدودية الخير له أن ينقل إلى المستشفى، وأن يوضع في غرفة العمليات، وأن يخدر، وأن يشق بطنه، وأن يخرج الدم، ويأتي الجراح ويستأصل هذه الزائدة، هذا خير في حق هذا المريض، لذلك كل شيء يقع يعتقده أهل السنة والجماعة أنه خير، خير في حق من وقع في حقهم، وهذا يؤكد قول الإمام الغزالي رَضِيِ اللَّه عَنْه: **" ليس في الإمكان أبدع مما كان "**، أي ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني، هذا الموقف المعتدل، موقف أهل السنة والجماعة، موقف أهل الحق، كل شيء وقع أراده الله، كل شيء أراده الله وقع، إرادته متعلقة بالحكمة البالغة، حكمته البالغة متعلقة بالخير المطلق، أنت كمؤمن قد تكشف الحكمة، وقد لا تكشفها، إن كشفتها فقد كشفتها، وإن لم تكشفها اعتقد اعتقاداً جازماً أن هذا الذي وقع هو في مصلحة هذا العبد، لأن الله سبحانه وتعالى لا يقضي لعباده إلا بالخير لكن العبد المريض الخير في حقه الحمية، والعبد الذي فيه مرض عضال الخير في حقه استئصال هذا العضو المتورم، والخير النسبي بحسب الحالات المرضية.

الرأي الثاني: لا حول عن معصية الله إلا به سبحانه:

هناك نظرة أخرى للمعصية، نظرة أهل التوحيد، أهل التوحيد يقولون: إن القرآن كله جمع في الفاتحة، وإن الفاتحة كلها جمعت إياك نعبد وإياك نستعين، يعني يا رب لا حول عن معصيتك إلا بك، ولا قوة على طاعتك إلا بك، فهذا الذي يقول: أنا مستقيم، هذا وقع في الشرك وهو لا يدري، ماذا تفعل لو أن

الله ضعف مقاومتك، ماذا تفعل لو جعل الله مقاومتك للذنوب هشة، تنهار، هذا يؤكده سيدنا يوسف:

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

(يوسف: 33)

أهل التوحيد يرون أن لا حول عن معصيته إلا به، ولا قوة على طاعته إلا به، وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام: لا حول ولا قوة إلا بالله، أهل التوحيد إذا أطاعوا يرون أن هذه الطاعة بتوفيق الله، وبكرم الله، وبحفظ الله، وإذا خالفوا يروا أن هذه المخالفة محض عدالة الله ومحض مخالفتهم هم بسببهم، لذلك إياك نعبد وإياك نستعين، أحياناً يغفل عن إياك نستعين فتزل قدمه.

لقد أخبرنا ربنا سبحانه وتعالى عن أن النبي المكرم سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، ماذا قال ؟ قال:

(وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)

(سورة إبراهيم: 35)

هناك افتقار لله عز وجل، هذا رأي أهل التوحيد في الذنوب.

الرأي الثالث: الإنسان بين التوفيق والخذلان:

هناك رأي آخر في الذنوب أن الإنسان بين حالتين، بين حالة التوفيق، وحالة الخذلان، فإذا وكلك إلى نفسك خذلك، وإذا عاملك بما هو في حقك خير فقد وفقك، فأنت بين أن تتكل على الله، فيوفقك، وبين أن تتكل على نفسك فيخذلك، جرب وقل: أنا، قل كلمة أنا فقط، أنا بهذه القضية خبير، تجد نفسك غلطت غلطة كبيرة، أنا لا أفعل هذه المعصية تزل قدمك وتفعلها، إذا قلت: أنا، وظننت أنك قوي الإرادة ذو شخصية قوية، تعرف الحق من الباطل، إذا اعتمدت على ذاتك، إذا اعتمدت على علمك، إذا اعتمدت على قوة إرادتك، إذا اعتمدت على حزمك، حينما تعتمد على ذاتك وقعت في الشرك وأنت لا تدري، لذلك يكون التأديب أن يكلك إلى نفسك فتقع المعصية، فالمعصية تقع ممن اتكل على نفسه في طاعة ربه، فإذا به يكتشف فجأةً أن هذه المقاومة قد تلاشت، وأن هذه الاستقامة التامة قد تبعثرت، لماذا ؟ لأنك اعتمدت على نفسك، واتكلت عليها فوكلك الله إليها، فضعفت مقاومتك وأصبحت هشة، فحينما يقع الإنسان في مثل هذه الحالة عليه أن يعود إلى ربه، وأن يستعين به، وأن يتذلل له، لئلا يقع في شرك من نوع خفي، وهو الاعتماد على الذات، يقول لك نعتمد على ذاتنا، من أنت ؟ أنت عبد صغير، لا تقوى على شيء.

الطالب في الامتحان قد يعتمد على قدرته الفائقة في هذه المادة فإذا هو في هذه المادة يأخذ علاماتٍ متدنية، وفي المواد التي يخاف منها، ويتكل على الله فيها يتفوق فيها، أصحاب المصالح، أصحاب

المهن العالية، الأطباء، المحامون، المهندسون، المدرسون، إذا قال: أنا وكله الله إلى نفسه، إذا قال يا ربي إني تبرأت من حولي وقوتي والتجأت إلى حولك وقوتك يا ذا القوة المتين، الطبيب قبل أن يشخص المرض عليه أن يستعين بالله، المدرس قبل أن يلقي الدرس، المحامي قبل أن يلقي المذكرة، أصحاب المهن، أصحاب الحرف، في المجال التعليمي، وفي المجال الصناعي، إذا قلت: أنا فقد اتكلت على نفسك، عندئذٍ يكلك الله إلى نفسك فتظهر الأخطاء، والمعاصي، والمخالفات.

الكون مظهر لأسماء الله الحسنى:

شيء آخر، أن هذا الكون مظهر لأسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى، مظهر، من أسمائه الله سبحانه وتعالى له ذات، وله أسماء حسنى، وله صفات فضلى، وله أفعال، وله مفاعيل، الزلزال مفعول فعله الله سبحانه وتعالى، هناك انسجام بين ذاته، وبين أسمائه، وبين صفاته، وبين أفعاله، وبين مفعولاته، فالله عز وجل رحمن رحيم، إذاً يجب أن تكون أفعاله فيها رحمة، المؤمن يعتقد أن كل أفعال الله فيها أسماؤه كلها، من هنا فسر بعض المفسرين أن الله إذا تحدث عن ذاته أفرد، وإذا تحدث عن أفعاله استخدم ضمير الجمع:

(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ)

(سورة الحجر: 23)

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

(سورة طه: 14)

قد يكون الحديث عن ذات الله فالحديث بضمير المفرد، وقد يكون الحديث عن أفعال الله فالحديث بضمير الجمع، لأن ضمير الجمع يعني أن كل أسماء الله الحسنى، وصفاته الفضلى في هذا الفعل، وهكذا يجب أن تعتقد، لذلك إذا تصورت أن الله سبحانه وتعالى لا ينزل على عباده قرآناً، ولا يبعث رسولاً، فأنت عطلت أسماء الرحمة فيه، أسماء الرحمة، والعدل، والإنصاف، واللطف، والحرص على إسعاد عباده هذا كله أنت عطلته، لذلك من عطل الأمر، والنهي، والثواب، والعقاب فقد عطل بعضاً من أسماء الله الحسنى، إذا قال لك شخص: يا أخي و الله لا يوجد عدالة في الحياة، وذكر لك قصصاً لا حصر لها من الظلم هذا ماذا فعل ؟ هذا عطل اسم الحق، فلذلك الإنسان أثناء حديثه وتفكيره، وتصوره، وقراءته، وكتابته، ينبغي أن يكون منسجماً مع عقيدته، من أسماء الله أنه رحيم، من أسماء الله أنه عظيم، أنه قدير أنه غني، أنه سميع، أنه مجيب، أنه الحق، ولابد للحق أن يظهر الحق، ولابد للحق أن يحق الحق، لذلك ماذا قال الله عز وجل ؟

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام: 91)

إذا قلت: إن الله:

(مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ)

فأنت ما عرفت الله،

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

(سورة الزمر: 67)

إذا نفيت اليوم الآخر، ونفيت يوم الجزاء، ويوم الدينونة، ويوم الحساب، ويوم الفصل، أنت تنفي إحقاق الحق، وإذا نفيت إحقاق الحق نفيت اسم الحق عن الله عز وجل، إذاً لابد أن تؤمن بأسماء الله كلها الحسنى، وصفاته الفضلى كلها، وأن الله عز وجل لا يدع عباده من دون أمر ونهي، ولا من دون ثواب وعقاب، إذا قلت أنت، وأنت لا تدري.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية: 21)

إذا قلت: فلان غارق بالمعاصي، والله يعطيه، وفلان مستقيم على أمر الله، والله حرمه، يتكلم بهذا يقول سبحان الله !! هذا تسبيح ليس في مكانه الصحيح، الله عز وجل في آيات كثيرة يقول:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

وقال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص: 61)

بعض المعاصي تزيد في إيمان المؤمن !!!

الحقيقة أن هناك رأيًا دقيقًا، لكنه يحتاج إلى دقة في الفهم، هو أن بعض المعاصي تزيد إيمان المؤمن، كيف ؟ سمع مؤمن أن الله عز وجل يقول:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل: 97)

وسمع أيضاً أنه:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

(سورة طه: 124)

لو أن إنساناً مثلاً زلت قدمه، وارتكب معصية، فشعر بالحجاب، ومع الحجاب الضيق الشديد، ومع الضيق الشديد المعيشة الضنك، عندئذٍ يزداد إيماناً بمصداقية هذا الكتاب، أحياناً في قضية يكون له منها موقف متردد، فيأتي الذنب أحياناً ليؤكد له أن هذا كلام الله، وأن كل خروج عن كلام الله يستوجب الشقاء في الدنيا والآخرة، أحيانا إنسان يغلط، يفعل شيئاً يأتي الرد من الله سريعاً هذا الرد يجعل إيمانه بهذه الآية يصل إلى أعمق أعماق نفسه، هذا نوع أيضاً من أنواع الذنوب، لذلك قيل أن أهل الدنيا في جحيم قبل الجحيم، وإن أهل الإيمان في نعيم قبل النعيم، ولما ربنا عز وجل قال، وحدث عن الجنة وقال: **"عرفها لهم "**، بعضهم قال: ذاقوا شيئاً من طعمها في الدنيا، وبعضهم قال: عرفها لهم أي جعلها معطرة لهم، وبعضهم قال عرفها لهم بمعنى أنهم يعرفونها، على كلٍ عرفها لهم، المؤمن في الدنيا يذوق من طعم القرب كما يذوق من طعم البعد، لذلك تأتي مشاعر البعد إثر بعض المخالفات لتعمق إيمانه بأن هذا الكلام هو كلام رب العالمين، لذلك قال ابن عباس رَضِيَ اللَّه عَنْه: **<< إن للحسنة تألقاً في الوجه، ونوراً في القلب، وقوة في البدن، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القبر، والقلب، وضيقاً في الرزق، ووهناً في البدن، وبغضاً في قلوب الخلق >>**، فالإنسان من أذواقه يعرف أنه مسيء، ويعرف أن هذا كلام الله عز وجل، أحياناً إذا زلت قدم الإنسان يتعمق إيمانه بآية كان متردداً في قبولها.

الأصل رحمة المذنبين وعدم الاستعلاء عليهم:

شيءٌ آخر، أحياناً قبل أن يذنب الإنسان، أو ينظر إلى العصاة كأنهم مِن سقطِ المتاع، وكأنهم لا شأن لهم عند الله سبحانه وتعالى، أما إذا زلت قدمه مرةً، وإذا وقع غلب على أمره، فزلت قدمه عندئذٍ يرحم المذنبين، هذا المذنب يجب أن ترحمه، يجب ألاّ تستعلي عليه، يجب أن تأخذ بيده، فهناك استقامة يعني تورث كبراً واستعلاءً، وتجبراً على عباد الله عز وجل، فربنا عز وجل يعالج الإنسان، تزل قدمه أحياناً، فينكسر لله عز وجل ويعرف أن هناك مذنبين متألمين جداً من ذنوبهم، ويحتاجون إلى أن تأخذ بيدهم، هذا معنى دقيق جداً.

علاقة المعصية بالذل والانكسار:

شيء آخر، الذنب كما قال ابن عطاء الله السكندري: رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً الإنسان إذا كان له أخطاء، ثم تاب منها، هذه الأخطاء تورثه تواضعاً لله عزوجل

، وتورثه رحمة بالمخطئين، قبل التوبة:

(كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا)

(سورة النساء: 94)

كما كنت مقصراً، ومسيئاً، والله سبحانه وتعالى صبر عليك، وحلم عليك، حتى حملك على التوبة، فصرت مستقيماً، ارحم هؤلاء المقصرين، لا تيأس منهم، لا تعرض عنهم، لا تستعلي عليهم، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((الذنب شؤم على غير صاحبه، إن ذكره فقد اغتابه، وإن عيره به ابتلاه الله به، وإن رضي به فقد شاركه في الإثم))

(الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف)

حالات المسلم مع المذنب: التعيير والتكبر والغيبة

أنت أمام إنسان مذنب لك معه ثلاث حالات مرضية، إن قلت في نفسك: لماذا يذنب ؟ هذه دناءة، فقد عيرته، إذاً تستحق أن تبتلى بهذا الذنب من قِبل الله عز وجل، هذا موقف متعجرف، موقف فيه تجبر فيه تكبر، من عيره ابتلي به، ومن ذكره فقد اغتابه، وأينما جلس فلان فعل كذا، أي أنك فضحته، فهذه غيبة، وإن قلت: والله نعم ما فعل، هذه الكلمة فقط، تكون شاركته في الإثم، ماذا ينبغي أن تقول ؟ يجب أن يكون لك موقف واحد، أن تقول: أرجو الله أن يتوب عليه، وأن يعافيني من هذا الذنب، هذا موقف العبودية، لذلك الإنسان أحياناً لا يرحم المذنب يتجبر عليه، أغلب الظن أن الله عز وجل يضعف مقاومته وتزل قدمه ويقترف الذنب نفسه، فالإنسان إذا كان مستقيم يكون متواضعاً مع استقامته حتى الله عز وجل يحفظ له نعمة الاستقامة، وينطلق من قوله تعالى إياك نعبد، وإياك نستعين، هذا معنى الرحمة.

إذا رأيت إنساناً مقصراً، مرتكباً بعض المعاصي، لا تستعلِ عليه، خذ بيده لعل الله عز وجل يجعل توبته على يديك، إذا استعليت عليه، واحتقرت عمله، وازوررت عنه، واشمأززت منه، وتكبرت عليه، هذا يزداد عنك بعداً.

سيدنا عمر بلغه أن أحد من يعرفه وصل إلى الشام، وبدأ يعاقر الخمر، ماذا فعل سيدنا عمر ؟ كتب له كتاباً أحمد الله إليك، غافر الذنب، قابل التوبة، شديد العقاب، ذي الطول، كلام رقيق، عرفه برحمة الله، وبأنه يقبل التوبة عن عباده، فهذا الإنسان العاصي الذي يعاقر الخمر، ما زال يقرأ كتاب سيدنا عمر حتى بكى وتاب، فلما بلغ ما حصل لهذا المذنب قال هكذا افعلوا بأخيكم، إذا رأيت أخاك واقعاً بمعصية لا تكن عوناً للشيطان عليه، كن عوناً له على الشيطان، استره وخذ بيده، وعاونه، ولو كان واقعاً بمعصية عاونه فلعله يميل إليك هي موقف الرحمة، إذا الإنسان لم يرحم المقصرين يوشك أن تزل قدمه

مثلهم، إذا لم يرحمهم، واستعلى عليهم واحتقرهم يوشك أن تزل قدمه مثلهم، إذا كنت في هذا الحال، انتقلت إلى حال آخر هو حال العجز والضعف، هذا حال صحي، لذلك قال: من عرف نفسه عرف ربه، من عرف ضعفه، عرف ربه القوي، من عرف فقره عرف ربه الغني، من عرف جهله عرف ربه العليم، فكلما ازددت في نفسك معرفة ازددت معرفة بالله عز وجل، هذا معنى المعنى الآخر من عرف نفسه عرف الآيات الدالة على عظمته الله في نفسه عرف ربه كيف الله عز وجل خلق الجنين، كيف تلقحت البويضة ؟ كيف تمت الانقسامات، كيف كانت نطفة، ثم علقه، ثم مضغة، ثم عظام، ثم لحم.

(ثُمّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ)

(سورة المؤمنين: 14)

معاني: مَن عرف نفسَه عرف ربّه:

من عرف نفسه عرف ربه لها ثلاثة معان.

المعنى الأول:

عرفت ضعفك، عرفت قوة ربك، عرفت فقرك عرفت غنى ربك، عرفت جهلك عرفت علم ربك.

المعنى الثاني:

إذا عرفت طريقة تخليق الإنسان، آيات الله في خلق الإنسان عرفت الله عز وجل.

المعنى الثالث:

أنت قبل أن تقول أنا أعرف الله، هل عرفت نفسك ؟ هذا معنى النفي، ومعنى الأولوية، ومعنى الضد. على كلٍ مرتبة العجز، والضعف مرتبة صحية في علم التوحيد بقي مرحلة الذل والانكسار، بعض العارفين قال: طرقت أبواب الله كلها فوجدت ازدحاماً على كل أبوابه، باب العمل الصالح، باب الدعوة إلى الله، باب تصنيف الكتب النافعة، هذه الأبواب عليها ازدحام شديد إلا باباً لا يوجد عليه ازدحام، باب الذل والانكسار، لذلك قال الله عز وجل في الحديث القدسي أنا مع المنكسرة قلوبهم، الحزانى في كنف الله إن الله يحب كل قلب حزين، الحزانى معرضون للرحمة، هذا باب الذل والانكسار أسرع الأبواب إلى الله، ليس فيه ازدحام، ليس فيه طوابير كثير أسرع باب إلى الله وهو من أخف هذه الأبواب، باب الذل والانكسار، أي هو باب العبودية، والعبودية كما تعلمون غاية الخلق يعني اللهم اجعلني عبدك، قال

النبي الكريم هذه الكلمة وهو في سدرة المنتهى فكلما علا مقامك ازداد تحققك بعبودية الله عز وجل، هذا الموضوع عن الذنوب، يعني القسم الحيواني، والقسم الطبيعي، وأهل الجبر، وأهل القدرية، هؤلاء يفهمون الذنوب فهماً منحرفاً، ثم تأتي مراحل أخرى يعني أهل التوحيد، أهل التوفيق والخذلان، أهل الحكمة أهل الرحمة هذا كله من معانٍ دقيقة جداً المتعلقة بالذنب، على كلٍ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام في حديث شهير ولكن الناس يفهمونه فهماً مغلوطاً حديث خطير في معناه الظاهري.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

(أخرجه مسلم)

معناه الظاهري أسرع إلى الذنب، أما المعنى الحقيقي فيعني لو لم تكونوا على درجة عالية من الحساسية، والإرهاف، تحسون بذنوبكم لذهب الله بكم، يعني هنا الإحساس بالذنب، الذي لا يحس بذنبه إنسان ميت، هناك إنسان يغتاب، ثم يذهب، وينام طوال الليل مرتاحاً، يأكل مالاً حرام، يؤذي الناس، مرتاح لم يفعل شيئاً، هذا ميت هذا، قال الله عز وجل:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل: 21)

ميت، أما هذا الذي يغتاب أخاه فلا ينام الليل، هذا الذي ينظر إلى امرأة نظرة أزيد من النظرة الأولى، يشعر بانقطاعه عن الله عز وجل هذه علامة صحية، هذا في خير، لو لم تذنبوا، أي لو لم تحسوا بذنوبكم لذهب الله بكم، وأتى بقوم يذنبون، يعني إذا غلط يشعر أنه في خطأ كبير، أحدنا إذا كان عنده ابن، وارتكب غلط، وحينما ارتكب هذا الغلط على وجهه حمرة، وشعر بالخجل، وأطرق بصره إلى الأرض، واستحيا أن ينظر إلى أبيه، هذا الأب يضربه ؟ ليس معقولاً أن يضربه، هذا شعر بذنبه، هناك ابن يتكلم كلمة قاسية، أو نابية ويقول لأبيه: ماذا قلت ؟ هذا يحتاج إلى ضرب، لو لم تذنبوا، أي لو لم تحسوا بذنوبكم لذهب الله بكم وأتى بقوم يذنبون، بمعنى يحسون بذنوبهم.

ملخّص الدرس: مَن هو المؤمن ؟

ملخص الدرس: هذا الذي تسره حسنته، وتسوؤه سيئته، فهو مؤمن ورب الكعبة، عَن ابْنِ عُمَرَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّه عَنْه خَطَبَ النَّاسَ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ:

((قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ مَقَامِي فِيكُمْ فَقَالَ: مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَهُوَ مُؤْمِنٌ))

(أخرجه أحمد)

أنت مؤمن إذا غلطت غلطة، وشعرت بانقطاع، لذلك كان لأحد العارفين شاب مؤمن عنده، سمع منه أن لكل سيئة عقاباً، ارتكب معصية، فشعر بالجفوة، فبعد أيام كان ينتظر العقاب من الله عز وجل على حسب كلام شيخه، مضى أسبوع، وأسبوعان، ولم يحدث معه شي، جسمه صحيح، ففي الصلاة ناجى ربه قال: يا رب، عصيتك، ولم تعاقبني، قال: فوقع في قلبه أن عبدي قد عاقبتك، ولم تدر، ألم أحرمك لذة مناجاتي، يعني لا تكفي هذه ؟ إذا ارتكب الإنسان مخالفة فانقطع عن الله عز وجل جمعة أو جمعتين، الصلاة شكلية، انقباض، ضيق، ألا يكفيك هذا العقاب ؟ من عنده حساسية بالغة كل غلطة يرتكبها يحس بانقطاع عن الله عز وجل، هذه علامة صحية، والمؤمن مذنب تواب، كلما زلّت قدمه يعود إلى الله عز وجل.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

(سورة الزمر: 53)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (10-20): تفسير الآيات 141 - 159 ، قصة سيدنا صالح مع قوم ثمود ـ درجات الطائعين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 22-09-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون مع الدرس العاشر من سورة الشعراء.

أيها الإخوة الأكارم، في الدرس الماضي تحدثنا عن أنواع منوعة من المذنبين، ومن لوازم هذا الموضوع الحديث عن أنواع منوعة من الطائعين، فكما أننا تناولنا في الدرس الماضي دركات العصاة، في هذا الدرس موضوع آخر متعلق بدرجات الطائعين.

أنواع الطائعين:

قبل كل شيء يقول عليه الصلاة والسلام:

((رأس الدين الورع، وركعتان من وَرِع خير من ألف ركعة من مُخَلِّط، ومن لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله))

(ورد في الأثر)

من صفات المؤمن العدالة والضبط:

وفي هذا الموضوع شيء آخر، هو أنّ من صفات المؤمن العدل والضبط، أو العدل والضبط. الضبط: صفة عقلية، والعدالة: صفة نفسية، هناك أشياء إذا فعلها الإنسان سقطت عدالته، قال عليه الصلاة والسلام:

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته وحُرِمَتْ غيبته))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

من عامل الناس فلم يظلمهم، فمن ظلم الناس سقطت عدالته، وحدثهم فلم يكذبهم، مَن كذّب الناسَ سقطت عدالته، ووعدهم فلم يخلفهم ؛ مَن أخلف الناسَ وعدَه سقطت عدالته، من فعل هذا، أيْ من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته.

الفرق بين سقوط العدالة وجرح العدالة:

لكن بعض العلماء يفرق بين سقوط العدالة، وبين جرح العدالة سقوط العدالة شيء، وجرح العدالة شيء آخر، فمن أكل لقمة من حرام فقد جرحت عدالته، تطفيفٌ بتمرة، إذا رجح الميزان رجحت كفة البضاعة، عن الحد المطلوب بمقدار تمرة، فقد جُرحت عدالة المؤمن. وكذلك مَن تنزه في الطريق، وفي الطريق كاسيات عاريات، مائلات مميلات فقد جُرحت عدالته، مَن صحب الأراذل فقد جرحت عدالته، من أطلق لفرسه العنان فقد جُرحت عدالته، من قاد برذوناً، يعني حيواناً مخيفاً، أخاف به الأطفال فقد جُرحت عدالته، مَن مشى حافياً فقد جُرحت عدالته، من أكل في الطريق فقد جرحت عدالته، من كان حديثه عن النساء جرحت عدالته، يعني فلان عدالته مجروحة كإناءٍ مشعور، أما الذي عدالته ساقطة، فهو كالإناء المكسور، الفرق بين سقوط العدالة، وبين جرحها كالفرق بين الإناء المكسور، وبين الإناء المشعور، مَن علا صياحه في البيت حتى سمعه مَن في الطريق فقد جُرحت عدالته.

إذاً هناك سقوط العدالة، وهناك جرح العدالة، والنبي عليه الصلاة والسلام كما قلت قبل قليل قال:

((رأس الدين الورع))

(الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال)

و:

((ركعتان من وَرَع خير من ألف ركعة من مُخَلِّط))

(الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال)

و:

((من لم يكن له وَرَع يصده عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيء من عمله))

(ورد في الأثر)

أقسام الورع أربع درجات:

إنّ بعضَ العلماء الأجلّاء قسّم الورع إلى أربع درجات:

(الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال)

الدرجة الأولى: هي ورع العدول:

يعني أنّ هؤلاء لا يفعلون شيئاً حرمه الشرع، أو لا يفعلون شيئا حرمته فتاوى الفقهاء، يا سيدي كسب هذا المال حرام أم حلال ؟ يقول لك المفتي، أوْ مَن تستفتيه: حرام، فترك الحرام يجعلك في مستوى ورع العدول، فيما يتعلق في كسب المال وإنفاق المال والعلاقات الاجتماعية، ومعاملة الزوجة، ومعاملة

الأولاد في أيّ علاقة لك مع الآخرين، هناك موقف يعد في الشرع حلالاً، وموقف آخر يعد حراماً، فمن ترك المحرمات، أو من ترك ما أفتى به الفقهاء على أنه حرام فقد كان في مرتبة سماها بعض العلماء مرتبة ورع العدول، أما الذي يخترق هذه الحرمات يقع في الفسق حتماً وتسقط عدالته، ويثبت عصيانه، وربما انتهى إلى النار مصيره، مَن خرق هذه الحرمات، من خرق أوامر الشرع، من تجاوز الحد المعقول من خرج عن دائرة القبول، هذا تسقط عدالته، ويثبت فسقه وعصيانه وقد يقوده عمله، إن لم يتب منه إلى النار، طبعاً الحد الأدنى من الاستقامة أن تكون في هذا المستوى، الحد الأدنى من التدين، من الورع، من طاعة الله عز وجل أن تكون في هذا المستوى، لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب: 36)

أنت مخير، ولكنك إذا عرفت حكم الله عز وجل في أمر ما ينتهي اختيارك ؛ هذا حكم الله انتهى الأمر، وتنتهي حريتك كما يقولون عندما تبدأ حرية الآخرين، هناك تعديل لهذا القول ؛ تنتهي حريتك حينما تعرف حكم الله عز وجل، هذا حرام حَرّمه خالق الكون، هذه تعليمات الصانع، يا أخي أنت لماذا تغض بصرك عن محارم الله، فتقول: أنا أنفذ تعليمات الصانع، لماذا تمتنع عن هذه الأرباح الفاحشة بطريق غير مشروع، مع أن أحداً لا يراقبك ؟ أنا أنفذ تعليمات الصانع.

ورع العدول هو الحد الأدنى، ومن نزل عن هذا الحد كان خارج الإسلام، لأن المسلم هو الذي انقاد إلى أوامر الله كلها طواعية، وهذا المعنى المقبول للعبودية لله عز وجل، غاية الخضوع لله عز وجل مع غاية المحبة، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((ما آمن بالقرآن مَن استحل محارمه))

(سورة الأحزاب: 36)

(ورب تال للقرآن والقرآن يلعنه)

(سورة الأحزاب: 36)

لكن كما أن المعاصي درجات، والعصاة أنواع، كذلك الطاعات درجات، والطائعون أنواع منوعة.

المرتبة الثانية: ورع الصالحين:

ورع الصالحين مرتبة أعلى من مرتبة ورَع العدالة، فالصالح يمتنع عما يتطرق إليه احتمال التحريم يعني يدع الشبهات، فَعَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((الْحَلالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاس، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ، اسْتَبْرَأَ

لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلا وَإِنّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

(أخرجه البخاري)

قد يقال لك: هناك رأيٌ ضعيفٌ يجيز لك أن تفعل ذلك، أمّا رأي جمهور العلماء فلا يجيز لك أن تفعل ذلك، وقد تعثر على فتوى في كتاب تجيز أن تأكل هذا المال، لكن ما هم عليه أهل السنة والجماعة يمتنعون عن السماح بأكل هذا المال، إذاً هناك شبه، يعني ما دام هناك شبهة، ما دام هناك وجه من أوجه الحرام، ما دام هناك دليل ظني، ما دام هناك قضية خلافية فيها أخذ وفيها رد، فالصالح يدعُ الشبهات.

((الْحَلالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النّاس، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلا وَإِنّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

إذا أردت الفتوى فقد تجد لكل مخالفة فتوى، قد تجد لكل معصية تغطية، أما إذا أردت التقوى، فلتأخُذْ بالأحوط، تدع الشبهة وتبقى في البيّنة، مَن ترك ما اشتبه عليه كان لما استبان أترك، ومن وقع فيما اشتبه عليه كان لما استبان أوقع، يعني دائما الشيطان إذا استطاع أن يقنعك أن تأخذ بشبهة جرك بعدها إلى شيءٍ واضح، جرك إلى معصية صريحة، وإذا بقيت متمسكاً بترك الشبهات، كانت هذه الشبهات التي تركتها هامشَ أمانٍ بينك وبين الحرام، لذلك:

((الْحَلالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النّاس، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلا وَإِنّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ))

في العلاقات المالية، في الاجتماعية، في كل مشكلة، في كل موقف الحلال بيّن، والحرام بيّن، أما المشتبهات إن كنت صالحا تدعها لله تدعها وترتاح، تدعها وتنام نوماً هانئاً، تدعها وتستريح، تدعها ويطمئن قلبك، الإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس، ما دام هناك قلق، ما دام هناك تساؤل، ما دام هناك حرج، فالأمر فيه شبهة، وترك الشبهات من صفات الصالحين، يعني أحياناً يقول لك شخصٌ: أنا تزوجت زواجاً شرعياً، بإيجابٍ وقبولٍ وشاهدين، وانتهى الأمر، ثم طلقت بعد مدة محدودة طلاقاً شرعياً، لا عليك، افعل مثلي، ولكن أترضى لابنتك أن تتزوج زواجاً مؤقتاً، الصيغة صحيحة، لم يكن التوقيت مشروطاً، إيجاب، وقبول، ومهر، وشاهدا عدل، فالزواج صحيح، لكن أنت

تنوي أن تطلق بعد حين، أيضاً الطلاق شرعي، فظاهر الإجراءات كله صحيح، لكن أنت لم تنو التأبيد في هذا الزواج، نويت التوقيت، ولو أن هناك من يقول هذا يجوز، مثلاً مذهب ابن حنبل يجوّز ذلك، هذه شبهة، إذاً دع هذه الشبهة لما استبان لك، هناك أشياء، هناك من يدعمها بفتوى، وهناك من يجد لها في بعض الكتب سماحاً، أو إجازة الصالح يدع الشبهات، ويبقى في البيّنات، يعني كما يقول بعض العلماء ليس كل شبهة يجب اجتنابها، ولكن كل شبهة يستحب اجتنابها إذا كنت صالحاً.

المرتبة الثالثة: ورع المتقين:

أرقى من هاتين المرتبتين، هي ورع المتقين: التقي يمتنع عن الحرام أصلاً، وعن الشبهات أصلاً، ويمتنع عن بعض الحلال مخافة أن يصل به إلى الحرام، هذا الذي عناه النبي عليه الصلاة والسلام، فعَنْ عَطِيّة السّعْدِيّ، وَكَانَ مِنْ أصْحَابِ النّبِيّ صلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ قالَ: قالَ رَسُولُ اللّهِ صلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((لا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتّقِينَ حَتّى يَدَعَ مَا لا بَأسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ الْبَأسُ))

(أخرجه الترمذي)

فالانغماس في المباحات قد يجر إلى بعض المعاصي، وقد يجر إلى ترك مجالس العلم، الانغماس في الشيء الذي أحله الله عز وجل، والمبالغة به، قد يجر إلى حب الدنيا، وإلى الطمأنينة لها، فالتقيُّ لا يدع الحرام فقط كالعدل، ولا يدع الشبهة فقط كالصالح، ولكن يدع الحرام، ويدع الشبهة، ويدع المباحة، ليس كل المباح، يدع بعض المباح مخافة أن يصل به هذا المباح إلى محرم، لذلك صحّ عَنْ مُعَاذِ بْن جَبَلٍ، أنّ رَسُولَ اللّهِ صلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ، لَمّا بَعَثَ بِهِ إلَى اليَمَن قالَ:

((إيّاكَ وَالتّنَعّمَ فَإنّ عِبَادَ اللّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعّمِينَ))

(أخرجه أحمد)

إذا جعلت النعيم همّك الأول، المباح، المشروع، إذا تفننت في أنواع الطعام والشراب، إذا تفننت في أنواع المتع المباحة، فهذه المتع المباحة، قد تجرك إلى الدنيا، قد تجعلك تخلد إلى الأرض قد ترغبك في الدنيا، قد تبعدك عن مجالس العلم، قد تبعدك عن طلب العلم قد تبعدك عن الهمة العالية في العمل الصالح، قد تحملك على أن تجمع المال من أجل أن تنفقه في هذه المباحات، قد تحملك على الجُبن، قد تحملك على الخَوف، قد تبعدك عن خطر تتوهمه من أجل أن تبقى في دنياك كما تريد، هذه المباحات قد تجر الإنسان شيئاً فشيئاً إلى بعض الشبهات والشبهات تجر إلى المحرمات وهكذا.

فالتقي أحياناً يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يَبْلُغُ الْعَبْدُ أنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتّقِينَ حَتّى يَدَعَ مَا لا بَأسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ الْبَأسُ))

(أخرجه الترمذي)

يدعم هذا القول وهذه المرتبة قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِيّاكَ وَالتَّنَعُّمَ، فَإِنّ عِبَادَ اللّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ))

(أخرجه أحمد)

قد تتنعم، وقد تسعد، وقد تسر في بيتك، وقد يبارك الله لك في مالك، وقد تتنزه، وهذا كله يأتي إكراماً من الله عز وجل، أمّا أن يكون مقصوداً لذاته، وأن تسعى من أجله، فهذا يتناقض مع رسالة المؤمن في الحياة، لا تنسَ قول النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان يُدعى إلى اللهو يقول: لم أخلق لهذا. يقول سيدنا عمر رَضِي اللَّه عَنْه: **<< كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام >>**، أما الآن فالإنسان يكفي أن يتعلق بفتوى لإنسان، أيّ إنسان، ويقول: أنا أعمل بفتواه، والعهدة عليه وبذمته، وبرقبته، لكن لتعلمْ أن اللهَ عز وجل أمرك بالتمحيص، وأمرك بالتدقيق، والله سبحانه وتعالى قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

(سورة آل عمران: **102**)

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر: **19**)

النبي عليه الصلاة والسلام وهو أعظم المخلوقات قدراً عند الله عز وجل قال:

((يا فاطمةُ بنتَ محمد، يا عباس عم رسول الله أنقذا نفسيكما من النار، أنا لا أغني عنكما من الله شيئاً))

(الترمذي عن عائشة)

((لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم، مَن يبطّئ به عمله لم يسرع به نسبه))

(ورد في الأثر)

فهذا الإنسان الذي يتعلق بفتوى، يتعلق برأي العالم، ويأخذ في بعض الشبهات، هذا إنسان ربما انتقل شيئاً فشيئاً إلى المحرمات، لا تنسَ أن بعض المباحات تقودك إلى بعض الشبهات، وأن بعض الشبهات تقودك إلى بعض المحرمات، وإذا وقع الإنسان في الحرام انقطع عن الواحد الديان، فإذا انقطع عن الله عز وجل أصبح في ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، الله سبحانه وتعالى يخرج المؤمنين من الظلمات إلى النور، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلى الظلمات.

الدرجة الرابعة: ورع الصِّدِّيقين:

الصّدّيق، طبعاً يدع الحرام، ويدع الشبهات، ويدع بعض المباحات، ويدع ما سوى الله قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ(3))

(سورة المؤمنون: **1 - 3**)

اللغو يعني كل ما سوى الله، لأن الإنسان يعيش حياة محدودة، هذه الحياة المحدودة هي إعداد لحياة أبدية، فأية دقيقة تذهب سدى يحاسب عنها الإنسان يوم القيامة، لذلك فالمؤمن لا يندم إلا على شيء واحد ؛ يندم على ساعة مرّت لم يذكر الله فيها، وربنا عز وجل قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)

(سورة الأحزاب: 41)

المؤمن كل وقته، وكل جهده، وكل طاقته لربه، وهذا الذي سأل بعض شيوخه، قال له: كم الزكاة يا سيدي ؟ قال له، عندنا أم عندكم ؟ قال: ما عندنا وما عندكم ؟ قال الشيخ: عندكم اثنان ونصف بالمئة، أما عندنا فالعبد وماله لسيده، فما عند السابقين السّابقين فالمال وصاحبه لله، وما عند أصحاب اليمين فالزكاة مبلغ قدّر شرعاً،

(فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91))

(سورة الواقعة: 88 - 91)

إنّ أصحاب اليمين ناجون، ولكنّ المقربين..

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55))

(سورة القمر: 54 - 55)

يجب على الإنسان أن يطلب أعلى درجة بالجنة، أخي أنا أريد وراء باب الجنة فقط، لمَ وراء الباب فقط ؟ كُنْ بصدرها، المؤمن طموح، حتى في طلبه الجنة طموح، فعليه أن يطلب الجنة في أعلى مراتبها، لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

(سورة آل عمران: 102)

(وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ)

(سورة الحج: 78)

والباب مفتوح على مصراعيه، وكل شيء لا علاقة له بالآخرة فلن تستفيد منه شيئاً،

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا)

(سورة الكهف: 46)

في حياتك شيئان: شيءٌ يفنى، وشيءٌ يبقى، فكل عمل متعلق بشيء يبقى فهو منتهى الذكاء، ومنتهى التوفيق، ومنتهى العقل، وكل جهد تبذله من أجل شيء يفنى فهو خسارة في خسارة، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2))

(سورة العصر: 1 - 2)

حياتهُ بضعة أيام، الأيام تمضي، الإنسان مُستَهلك، حينما يستهلك الوقت يستهلك هو، هو وقت ؛ لأن الإنسانَ، كُلما مضى يوم، مضى جزء من عمره، وعمره مجموعة أيام، إذاً مضى بضع منه فمرور الوقت فيه خسارة للإنسان، إلا إذا آمن وعمل صالحا وتواصى بالحق وتواصى بالصبر،

(وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3))

(سورة العصر: 1 - 3)

فهذا الصدّيق يدع الحرام، ويدع الشبهات، ويدع المباح الذي يؤدي إلى شبهة، ويدع فوق هذا كل ما ليس له علاقة بالله عز وجل، والشيء الذي لا يوصله إلى الله والدار الآخرة خارج اهتمامه.

هذه بعض المراتب، أما مراتب الورع أن يعد الإنسان نفسه مسلماً، وهو غارق بالمعاصي، فهذا شيءٌ يحتاج إلى جهد كبير، وإلى توبة نصوح حتى يرقى في سلم أهل الإيمان.

عودة إلى القصة التي تركناها، والتي وصلنا إليها في الدرس الماضي، وهي قول الله عز وجل:

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (142) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(145))

قصة سيدنا صالح عليه السلام:

هذه الآيات تتكرر في كل قصة بالضبط

(كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (141) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ)

فهو من قومهم، من أبناء جنسهم، من بني جلدتهم، منهم، من بلدتهم:

وتحدثنا بالتفصيل في درس ماض عن التقوى:

(إِنِّي لَكُمْ رَسولٌ أَمِينٌ)

قال عليه الصلاة والسلام:

((العلماء سُرُجُ الدنيا ومصابيح الآخرة، والعلماء أمناء الله على خلقه))

(الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال)

هناك أمانة التبليغ ألقاها الله على كاهل الأنبياء، وهناك أمانة التبيين ألقاها الله على العلماء:

(إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (143) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (144) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(145))

من صفات المؤمن تقديم الخدمات الدعوية من غير أجر:

من صفات المؤمن أنه يعطي، ويقدم خدماته للناس من دون أن ينتظر منهم أجراً، قال تعالى:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21))

(سورة يس: 20 - 21)

القضية أنا أشبهها بمثل رجل ميسور الحال قال لك: عَلِّم ابني درساً، وخذ على كل درس مليون ليرة، فَرَضاً، أما إذا تقاضيت أي أجرٍ فلن أعطيك شيئاً، فهل يعقل أن تقبل بمائة ليرة تأخذها من الابن على هذا الدرس، وتضيع مليون ليرة ؟! فهذا الذي يفعل شيئاً من أجْل الله عز وجل فإن له عند الله ثواباً كبيراً، أما إذا تقاضى على عمله أجراً، أو طمع في الأجرة، أو طلب مكافأة، فقد أسقط ثوابه، وأحبط عمله.

(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ)

واللهِ هذه آية دقيقة جداً، يا قوم:

(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ)

أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَهُنَا آمِنِينَ

الأيامَ تمضي، اليوم استيقظت بحالة طيبة، وصحة جيدة، يا تُرى أكلَّ يوم هكذا ؟ إلى ما شاء الله، أما أن هناك حداً تنتهي هذه الحياة عنده. الآن أهل الدنيا، يحسبون لكل شيء حساباً إلا الموت، يعدون لكل شيء عدة إلا الموت، قال تعالى:

(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ)

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا وَبَادِرُوا بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا))

[أخرجه ابن ماجة]

فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا، ماذا ينتظر ؟ تمضي سنة، وثانية وثالثة، وربيع، وخريف، وصيف، وشتاء، بالصيفِ نلبس الخفيف ونذهب إلى المتنزهات، وبالشتاء نُركِّب المدافئ، ونأكل الحلويات، ونلبس الملابس الشتوية، يعني هناك صيف، شتاء، ربيع، خريف، كذلك من صف لصف، من معهد لمعهد، من جامعة لجامعة، من صفقة لصفقة، من وظيفة لوظيفة، وإلى متى ؟ يا تُرى إلى ما شاء الله ؟ لا ! هناك حَدّ ونهاية، بادروا بالأعمال الصالحة فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا، يعني إن لم يكن له وجهة

إلى الله عز وجل، إن ألقى بهذا الدين جانباً، إن جعل القرآن وراء ظهره، إن قال: إن هذا الدين خرافة، إنه مجموعة غَيْبيّات، إنه تعبير عن حالة الضعف التي يعانيها الإنسان القديم. هذا الذي يستَخِفّ بالدين ويقول لك الدين كذا وكذا، ماذا ينتظر من الدنيا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدّجّالَ، فَشَرٌ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السّاعَةَ فَالسّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

[أخرجه الترمذي]

قد يأتي الفقر فجأة، الذي أعطاك هذا المال قادر على أن يأخذ منك في لمح البصر،

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا))

هناك نوع من الغنى يحمل صاحبه على الفجور والعياذ بالله، فهذا الغنى بلاء من الله عز وجل. لي عليكم فريضة ولكم عليّ رزق، لي عليك فريضة ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك، فلأسلطنّ عليك الدنيا، تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك، ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد، أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد.

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا))

هناك أمراض وبيلة تفسد على الإنسان حياته، تجعل حياته جحيماً لا يطاق.

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوِ الدّجّالَ، فَشَرٌ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السّاعَةَ فَالسّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

هناك أمراض وبيلة تفسد على الإنسان حياته، تجعل حياته جحيماً لا يطاق، هذا الذي لا يريد الدين، يحب الدنيا فقط، ينطلق إليها بكل طاقته، لا يرى إلا الدنيا، هي مبلغ علمه، منتهى أمله، منتهى علمه ؛ الكلام تملّقاً لهؤلاء، ماذا ينتظر أحدكم من الدنيا ؟

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا))

ما مات، تقدّم في السن حتى ضعف عقله، وانحنى ظهره، وضاق أفقه، وأصبح على هامش الحياة، وأصبح عِبْئاً على أهله، يتمنى أقرب الناس إليه الموت، أصبحت حياته لا تطاق، أما المؤمن الصادق عاش ستة وتسعين سنة سمعه مرهف، وبصره حاد، وأسنانه في فمه، وقامته منتصبة، قال له أحدهم: يا سيدي ما هذه الصحة ؟ قال يا بني حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً، من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

(سورة الجاثية: 21)

مستحيل هذا الكلام:

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

هذا المؤمن الذي استقام على أمر الله، الذي غض بصره عن محارم الله، الذي ضبط لسانه، الذي ضبط حواسه، هذا الذي أنفق ماله، هذا الذي جلس في المساجد ليتعلم كتاب الله، فهل يعاملُ كما يعامل الفاسق الفاجر، المنحرف، الذي يأكل المال من حلال أو من حرام، هكذا ظنكم برب العالمين ؟

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

حياته، زواجه، عمله، وظيفته، تجارته، هذا كهذا ؟ سواء ؟ أليس للمؤمن ميزات أبداً ؟ هذا ظن الذين كفروا.

(الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ)

(سورة الفتح: 6)

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إلا فقْرًا مُنْسِيًا، أوْ غِنًى مُطْغِيًا، أوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أوْ هَرَمًا مُفْنِدًا))

يَخْرِف، لكن من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، هذه ضمانة يا أيها الإخوة، واللهِ التقيت مع أناس بالتسعين، أو بالسابعة والتسعين، ولهم ذاكرة طيبة، ولهم شخصية قوية، بفضل القرآن الكريم، لذلك اقرؤوا القرآن، تعلموا القرآن، طبقوا القرآن، فهو ضمانة لمستقبلكم، ضمانة لخريف العمر،

((أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أو الدّجّالَ، فَشَرٌّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أو السّاعَةَ فَالسّاعَةُ أدْهَى وَأمَرُّ))

هنا قال سيدنا صالح:

(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ)

وبعده فهذه البيوت الفخمة في المدينة، أو في المصايف، هل أصحابها هُم هم من مائة عام ؟ لا ! اختلفت الأمور، إما أن الورثة أخذوا هذه البيوت، أو أن البيوت بيعت إلى أشخاص آخرين وكذلك، المحلات التجارية الضخمة في الأسواق المهمة أصحابها قبل مائة عام هُم هم ؟ لا ! اختلفوا:

(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ)

يعني في كل فترة يحدث تبدل، أصحاب البيوت، أصحاب الحوانيت في المدينة، أصحاب البيوت الجميلة في المصايف، أصحاب المركبات الفخمة يتبدل الحال من إنسان إلى إنسان:

(أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ)

(فِي جَنّاتٍ وَعُيُونٍ (147) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (148))

زخرفة الدنيا وغرورها كسراب بقيعةٍ:

يعني طلعُها طيّب..

(وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ (149) فَاتّقُوا اللّهَ وَأَطِيعُونِ (150))

(طَلْعُهَا هَضِيمٌ)

أي لطيف، أو تعني الرطب اللين، أو الرطب النحيل، أو الذي ليس فيه نوى، أو الناضج، أو المكتنز، هذا كله من معاني "

(طَلْعُهَا هَضِيمٌ)

بمعنى نشِطين، أو بمعنى حاذقين بنحتها، أو بمعنى متجبرين أو بمعنى أشرين بطرين، أو بمعنى معجبين، أو بمعنى أقوياء، أو بمعنى فرحين، هذه معاني كلمة:

(فَاتّقُوا اللّهَ وَأَطِيعُونِ (150) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ (151) الّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (152))

الذين أسرفوا على أنفسهم بالمعصية، وقال بعض العلماء: هم الذين عقروا الناقة، فاستحق قومهم الهلاك بعقرها:

(الّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)

قال تعالى:

(قَالُوا إِنّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحّرِينَ)

اتهام المنحرفين للمستقيمين بالسحر والجنون:

يعني أنت لأنك خرجت عن دين قومك فقد ضاع عقلك، فأنت مسحور، أو في معنى آخر، المسحرين، أي الذين يأكلون، يعني أنت تأكل مثلنا الطعام، ما الذي جعلك تفضلنا به، إما أنه اختلّ عقلك، وإما أنك بشر مثلنا، هذا معنى المسحرين.

(قَالُوا إِنّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحّرِينَ (153) مَا أَنْتَ إِلّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ(154))

مرحلة تحدي ثمود لنبيهم صالح عليه السلام:

الآن بدأ التحدي، إن كنت نبيا صادقا فأتِ بآية، طبعاً من صفات المعجزة أنها تأتي بعد التحدي،

وهؤلاء قوم سيدنا صالح تحدوه، وجعلوا بينهم وبينه حداً فاصلاً، إما أن تأتي بآية، وإما إنك كاذب.

(قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)

معجزة ناقة صالح:

قالوا: إن كنت نبياً صادقاً فأخرج لنا من هذا الجبل ناقة تشرب من هذا الماء، فقال النبي الكريم سيدنا صالح، طبعاً بأمر الله عز وجل وبقدرته، هذه ناقة الله:

(لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)

هي تشرب الماء يوماً، وأنتم تشربون يوماً.

(وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ (156) فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (157))

(فَعَقَرُوهَا)

الواو واو الجمع، الذي عقرها واحد، ولأنهم أقروا عقرها، وأقروا فعلته، فقد شاركوه في الإثم، فربنا عز وجل قال:

(فَعَقَرُوهَا)

مع أن الذي عقرها واحد إشارة إلى أن الذي يرضى عن فعل مجرم فهو مثله في الإثم، والذنب شؤم على غير صاحبه، من رضي به شاركه في الإثم، ومَن شمت به فقد وقع فيه، ومن ذكره فقد اغتابه:

(فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ)

العبرة في القصة الموعظة: إياك أعني واسمعي يا جارة:

حينما بدت ملامح العذاب.

(فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (158) وَإِنّ رَبّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرّحِيمُ (159))

هذه كلها قصص تحمل الموعظة للآخرين، وهذه القصص تقع في كل يوم، يعني هذا الذي يقع في الأرض من زلازل، ومن كوارث عامة، هناك من يفسرها تفسيرات علمية له ولا يعتبر، وهناك تفسيرات إلهيه له توحي بالموعظة والعبرة، فربنا عز وجل:

(وَمَا كَانَ رَبّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)

(سورة هود: 117)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (11-20): تفسير الآيات 160 - 175 ، قصة سيدنا لوط مع قومه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 29-09-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الحادي عشر من سورة الشعراء في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (160) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ (161) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (162) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (163) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ(164))

هذه الآيات تتكرر في مقدمة كل قصة، وفي دروس سابقة شرحت كلمة (التقوى)، وشرحت كلمة(رسول أمين) بالتفصيل، واليوم ننتقل إلى مضمون القصة.

(وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (164) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (166))

قصة لوط عليه السلام مع قومه:

كل شيء مخلوق خير مطلق ولكن الخطأ في سوء الاستخدام:

إنّ كل شيءٍ خلقه ربنا سبحانه وتعالى خيرٌ مطلق، ولكن حينما يسيء الإنسان استخدام الشيء يقع في مشكلة كبيرة.

ونضرب على هذا مثلاً: المعمل الذي صنع السيارة، صنعها كي تحقق الراحة للإنسان، صُنعت كي تنتقل بالإنسان من مكان إلى مكان، فإذا أساء السائق استخدام السيارة، إذا أهمل صيانتها، إذا غفل في أثناء قيادتها تدهورت به، فهذا التدهور شر، ولكن هذا الشر ليس مخلوقاً إنما نتج عن سوء استخدام المركبة، أو عن تقصير في تنفيذ تعليمات الشركة الصانعة.

لذلك هؤلاء القوم، قوم لوط، لماذا أهلكهم الله عز وجل ؟ لأنهم عبّروا عن شهوتهم بطريقة غير صحيحة، بطريقة شاذة، بطريقة لم يرض الله سبحانه وتعالى عنها، الله سبحانه وتعالى خلق الزوجين الذكر والأنثى، وخلق المرأة بطريقة تكمل الرجل، وخلق الرجل بطريقة يكمل المرأة، فإذا ما حصل

انحراف، أو شذوذ، فهذا شر مستطير، ليس ناتجاً عن خطأ في خَلق الإنسان، لا ! بل ناتج عن جهله، وعن تفريغ شهوته بطريقة غير مشروعة، فالدينُ جاء ليبين للإنسان طريقة استعمال كل شيء، طريقة التعامل مع كل شيء، طريقة الاستفادة من كل شيء.

وإليكم مثلاً تقريبياً: لو وضعنا السكر في الطعام، في الطبخ، فهذا الطعام لا يأكل، مع أن الطبخ ثمين جداً، والسكر ثمين، وإذا وضعنا الملح في الشاي، فالشاي لا يُشرب، إذا وضعنا مسحوق التنظيف مع الطعام فالطعام لا يُأكل، فحينما نسيء استخدام هذه المواد، نقع في شر مستطير، والشر لا وجود له في الأصل، الكون خيرٌ مطلق، ولكن الشر ناتج عن جهلٍ في استعمال الأشياء، عن جهلٍ في التعامل مع الأشياء، عن جهلٍ في طريقة استخدام الأشياء، هذا هو الشر.

هؤلاء قوم لوط خالفوا سنة الله في خلقه، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (7))

(سورة المؤمنون: 1 - 7)

اقترفوا عدواناً صارخاً، هذه الشهوة التي أودعها الله في الإنسان جعل لها قناةً نظيفة تجري فيها، وبشكل أعم، ما من شهوة أوْدَعها الله في الإنسان إلا وخلق لها طريقة نظيفة مثالية يقرها المجتمع، ويقرها الله عز وجل لتفريغ هذه الشهوة، والحديث اليوم عن شهوة الجنس، فهؤلاء الذين خرجوا عن الطريق الصحيح، الذين خرجوا عن الأسلوب الصحيح وقعوا في العدوان، لأن هذه المرأة حينما خُلقت، خُلقت لتشكل مع الرجل أسرة نافعة، يعني السعادة. كل السعادة حينما يحقق الإنسان سنة رسول الله صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ في الزواج، فهذه زوجةٌ طاهرةٌ، وفيةٌ صادقة، ثمرة هذه العلاقة أولادٌ، يعرفون أمهم وأباهم، ينشؤون في بيت إسلامي، فيه التوجيه، فيه العلم، فيه الأخلاق، هذا هو التخطيط الإلهي.

قلت لكم سابقاً: إن امرأة تعمل في المسارح سئلت، ما شعورك وأنت على خشبة المسرح، قالت وهي صادقة: شعور الخزي والعار، وهذا شعور كل أنثى تعرض مفاتنها على الجمهور، إن الحب يجب أن يبقى بين الزوجين، وفي غرفٍ مُغلقة، هذه هي الفطرة.

حينما أودع الله في الإنسان شهوة المرأة جعل لها نظاماً دَقيقاً دقيقاً، والقرآن الكريم طافح بالآيات التي تنظم علاقة الرجل بالمرأة نظام الأسرة، نظام الخِطبة، نظام العَقد، نظام الشهود، نظام الإرضاع نظام الطلاق، هذه كلها ضافية في القرآن الكريم، أحكام كثيرة ضافية وافية تنظم علاقة الرجل بالمرأة، أما حينما يسلك الإنسان لتفريغ شهوته طريقًا لم يخلق له، طريقا شاذاً، فقد وقع في شرٍ خطير، لأن الإنسان حينما ينحرف، أو حينما يعتدي فإنما يجرفه تيار الأهواء، والانحرافُ والاعتداءُ هما شيءٌ واحد لأنه:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة القصص: 50)

الانحراف يسبب شعور بالكآبة، لأن الله سبحانه وتعالى فطر الإنسان فطرةً عالية، قال تعالى:

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

(سورة الروم: 30)

فإذا فعل الإنسان شيئاً يُرضي الله عز وجل، ويدعم الخير في المجتمع، ويسبب سعادة الآخرين، إذا فعل الإنسان هذا الشيء شعر بسعادة وطمأنينة، واستقرت نفسه، فإذا أفسد أخته في الإنسانية، أو إذا اعتدى على أعراض الناس، فقد حطمهم، وحطم نفسه، لذلك فربنا سبحانه وتعالى، جعل قوم لوط جرّاء هذه المعصية الكبيرة والشنيعة عبرةً للناس:

إنكار لوط عليه السلام على قومه مخالفتهم للفطرة:

(أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (165) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ(166))

أنتم معتدون، لأن الله سبحانه وتعالى جعل لهذه العلاقة مكاناً نظيفاً، ويثمر طفلاً يعين أبويه حينما يكبران، لكن الطريق الشاذ، طريق قذر، وطريق يسبب تحطيماً لنفسية الصغير، ويبعث شعوراً بالذنب لدى الكبير، إن هذا كله يفتت المجتمع.

(قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ)

تهديد قوم لوط نبيّهم بالإخراج من الديار:

يعني نحن مصرون على إتيان هذه الفِعلة:

(لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ)

عن تنبيهنا وتوجيهنا، ولومنا سوف نخرجك من أرضنا

(قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ)

فما كان من سيدنا لوط إلا أن قال:

(قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ)

الأصل البراءة من المعصية وبغضها وإنكارها:

أنا أبغض عملكم، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((مَن شهد معصية فأنكرها، كان كمن غاب عنها، ومن غاب عن معصية فرضي بها، كان كمن شهدها))

(ورد في الأثر)

إنّ من واجب المؤمن إذا رأى معصية أن ينكرها، حتى ينجو من عذاب الله، ما معنى قول الله عز وجل:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

(سورة الأنفال: 25)

فإذا وقعت المعاصي من أناسٍ، وسكت الباقون، لم ينكروا لا بقلوبهم، ولا بألسنتهم، ولم يغيروا هذا المنكر بأيديهم، فقد عم هؤلاء جميعا بلاء الله عز وجل، لأن سكوتك عن إنكار المنكر، دليل أنك رضيت به، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((الذنب شؤم على غير صاحبه، إن ذكره فقد اغتابه، وإن رضي به شاركه في الإثم، وإن عَيّره ابتلي به))

(الجامع الصغير عن أنس)

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً)

فإذا فُعِلَت المعصية، إذا فُعلتْ المنكرات، وسكتَ المسلمون، ولم يُنكروا هذا لا بقلوبهم، ولا بألسنتهم، ولا بأيديهم، فقد عمهم بلاء الله عز وجل، ومن هنا، السكوت عن الحق ذنب كبير.

(قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (167) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (168))

إنكار المنكر: قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ القالِين

اللهم إن هذا منكرٌ لا أرضى به.

مَن استطاع أن يزيل المُنكر بيده لم يَقبل الله منه أن ينكره بلسانه، ومن استطاع أن ينكرَ المنكر بلسانه، لا يقبل الله منه أن ينكره بقلبه، لا ! كل حالة لها حكم، إذا كان بإمكانك أن تزيل هذا المنكر فيجب عليك إزالته بالطريقة المناسبة، فابنتُك في البيت مثلاً، لك عليها سلطة، فإذا خرجت بطريقة غير إسلامية، وقلتَ: اللهم إن هذا منكر، ولا أرضى به، لا ! فهذا ليس منك مقبولا، لأنه بإمكانك أن تنكره، وأن تزيله بيديك، لكن متى يقبل إنكار اللسان ؟ إذا تعذر تغيير المنكر باليد، متى يقبل إنكار القلب ؟ إذا تعذر إنكار اللسان.

(قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمّا يَعْمَلُونَ (169) فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ(170))

قال ربنا عز وجل:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

(سورة الأنعام: 164)

إذا كنتَ في مجتمع فاسق، أوْ كنتَ في مجتمع فاسد، واستقمتَ على أمر الله استقامة تامة، فالله سبحانه وتعالى جعل لك معاملة خاصة، لك طريقة خاصة عند الله عز وجل تنجو بها من عقاب الآثمين، فاذكر هذه الآية في نفسك:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الرعد: 11)

أطع أمرنا نرفع لأجلك حبنا فإنا منحنا الرضى مَن أحبنا

و لُذْ بحمانا واحتمِ بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

*** * ***

إذاً ربنا عز وجل حدثنا عن سيدنا يونس حينما وقع في اليم والتقمه الحوت قال:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء: 87 - 88)

القانون المطّرد: وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ

انتهت قصة سيدنا يونس، وجاء التعقيب الذي جعل هذه القصة قانوناً شاملاً:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

في كل زمان وفي كل مكان، في كل ظرف، في كل عصر في كل مصر، من أي جنس.

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟

(قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ (168) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمّا يَعْمَلُونَ (169) فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ(170))

سنة الله في أنبيائه: النصر والتمكين:

الحقيقة هذا استهتار بأوامر الله عز وجل، قوم لوط استخفوا بأوامر الله، لم يقيموا لها وزناً، لم يعبؤوا بها، لم يعطوها ما تستحق من التعظيم، إذاً فماذا على المؤمن أن يفعل ؟ هذا سؤال دقيق، فحينما نقرأ هذه القصة فنحن المقصودون منها، يعني هؤلاء دمرهم الله عز وجل وانتهى ذكرهم، وأصبحوا قصة، وأصبحت هذه القصة قرآناً، معنى ذلك أنها درس بليغ لكلِ إنسان حتى نهاية الدوران، فما الحكمة ؟ ما الموعظة ؟ ما الدرس البليغ الذي يمكن أن نستنبطه من هذه القصة ؟ هؤلاء قوم لوط استخفوا بأوامر الله، خالفوا سنة رسولهم خالفوا أمر ربهم، خالفوا القانون الذي وضعه الله للإنسان، خالفوا التخطيط الإلهي للأسرة، خالفوا القناة التي سمح الله بها لإفراغ الشهوة، خالفوا نظام الكون، خالفوا تعليمات الصانع، خالفوا تعليمات المربي، خالفوا أمر ربهم، فأهلكهم الله عز وجل، فماذا ينبغي على المؤمن أن يفعلَهُ ؟ المؤمن عليه أن يعظم حرمات الله، الدرس الذي يمكن أن يستنبط من هذه القصة، أن على المؤمن أن يعظم حرمات الله، قوم لوط استخفوا بحرمات الله، تجاوزوا الحدود، خرقوا القوانين، خالفوا التخطيط الإلهي، خالفوا التصميم، خالفوا تعليمات الصانع فذاقوا وبال أمرهم، أما المؤمن فعليه أن يعظم حرمات الله.

وجوب اجتناب حرمات الله ومواطن غضبه:

استمعوا أيها الإخوة الكرام إلى هذه الآية الكريمة:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

(سورة الحج: 30)

العلماء قالوا: ما معنى تعظيم حرمات الله ؟ أو بالأصل ما هي حرمات الله ؟ قال العلماء: حرمات الله ما أغضبه، أيْ الشيء الذي إذا فعلناه أغضب الله عز وجل، الطلاق مثلا، إذا طلق الرجل امرأته من غير شبهة، من غير سبب، يهتز له عرش الرحمان، لأنه يُغضبُ الله عز وجل، فاحذر من فعل شيءٍ يُغْضِبُ رب السماوات والأرض، وإذا غضب الله على إنسان، فقد انتهى هذا الإنسان إلى البوار والخُسران ز

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ)

(سورة محمد: 28)

وإذا كان قوم لوط خاطئين، وإذا كانوا منحرفين، فاسدين معتدين، قد تجاوزوا الحدود، فما موقف المؤمن إذاً ؟ موقف المؤمن تعظيم حرمات الله، حرمات الله مغاضِبُه، أي الأشياء التي إذا فعلناها

غضب الله علينا، و حرمات الله ما نهى الله عنه، ما معنى تعظيمها ؟ ترك ملابستها، لكن المؤمن لا يدع المعصية فقط، بل يجعل بينه وبين المعصية هامشَ أمان، يعني نهراً عميقاً، له شاطئ زَلِق، فالحكمة تقتضي أن أدع بيني وبين النهر مسافة كبيرة، نسميها هامش الأمان، لذلك فربنا عز وجل قال:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

(سورة البقرة: 187)

هناك حدود لله عز وجل، إذا اقتربت منها جذبتك إليها، كيف أن بعض التيارات الكهربائية، بعض الأسلاك الكهربائية التي يجري فيها تيار يزيد على آلاف الفولطات، إن هذا التيار يشكل حوله ساحة مغناطيسية، حيث إن الإنسان إذا اقترب منه جذبه التيار وأحرقه، لذلك يجعلون مسافة واسعة حول أسلاك الكهرباء ذات التوتر العالي، هذه المسافة هي هامش أمان، وأنت أيها المسلم لابد أن تضع بينك وبين حرمات الله ؛ أي مغاضِبَه، هامش أمان، والزنا يُغضب الله عز وجل، الله عز وجل قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى)

(سورة الإسراء: 32)

أن تصاحب زانياً، أن تسهر سهرة مختلطة، أن تذهب إلى أماكن مشبوهة، أن تتجول في طرقات فيها نساء كاسيات عاريات، أن تقرأ أدباً رخيصاً، هذا كله اقتحام لهامش الأمان، هذه منطقة خطرة ربما جذبتك إلى الزنا، لذلك ما حَرُمَ فعله حَرُمَ الاستماع إليه، وحرُم النظر إليه، وحرُم الحديثُ عنه، ما حَرُم فعله هذه قاعدة أصولية، ما حرم فعله حرم استماعه، ما حرم فعله حرم النظر إليه، ما حرم فعله حرم الحديث فيه، هذا هامش الأمان،

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

لذلك الإنسان الشريف ليس هو الذي إذا واجه الزنا لا يزني، لكنه الذي يبتعد عن أسباب الزنا، فكل صديق سوء، كل رفيق سوء، كل أدب رخيص، كل عمل فني رخيص، كل سهرة مشبوهة، كل نزهة مختلطة، هذا كله من أبواب الزنا.

بعضهم قال: حرمات الله، ما وَجَب القيام به وحَرُم التفريط فيه. وبعضهم قال: حرمات الله ما وجب حفظه واحترامه، ربنا عز وجل قال:

تعظيم حدود الله وأوامره: وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ

(وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

أدقُّ تفسير لهذه الآية هو الدرس البليغ الذي يمكن أن يستنبط من هذه القصة، **" الحرمة: التحرُّج عن المخالفات "**، أجَل التحرج، هذا التحرج كلمة على وزن تفعُّل، وزن تفعل له معنيان لطيفان، فلان تأثم،

يعني تأثم على وزن تفعل، بمعنى خرج من الإثم، تأثّم، تحوّب خرج من الحوب، فلان تولّج دخل في الشيء، فلان تمنّى دخل في الأمنية، لذلك وزن تفعل في معنى الدخول أو الخروج، فإذا قلنا: فلان تأثّم أي ابتعد عن هذا الشيء مخافة أن يقع في الإثم به، فما هو تعظيم حرمات الله ؟ التحرج عن المخالفات والمجاسرات، التحرج، والتحرج: الخروج من الحرج يعني منطقة ضيقة، مشبوهة، مخيفة، زلقة ذات أبعاد خطيرة.

(وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ)

يبتعد عن كل شبهة، لذلك فعَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((الْحَلالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاس، فَمَنِ اتَّقى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ ؛ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلا وَإِنّ لِكُلّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إنّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

(أخرجه البخاري)

أول شيء: ومَن يعظم حرمات الله، هناك شخص يرى أن أمر الله عز وجل شيء عظيم، بينما إنسان آخر يستخف بهذا الأمر، وكما أقول دائماً: هان أمر الله عليهم فهانوا على الله، فالإنسان أحياناً يهون الله عليه، يهون أمره عليه، لا يبالي، أكان كسبه من حلال أم من حرام، لا يبالي أصلّى أما لم يُصلِّ، لا يبالي أصدق أم كذب، لا يبالي أخان أم اخلص، لا يبالي أفعلَ ما يرضي الله أم فعلَ ما يسخطه، يعني هان الله عليه، كيف يهون الله على إنسان ؟ يعني أن تهون أوامره عليه ؛ فإذا هان الله عليك هُنْتَ على الله، وحينما ترى المسلمين بأعداد كثيرة يزيدون على ألف مليون، وليست كلمتهم هي العليا، فالتفسير سهل جداً: هان الله عليهم فهانوا على الله.

قال الله تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا)

(سورة النور: 55)

القضية إمّا أن تكون على مستوى جماعي، أو على مستوى فردي، فإذا أردت أن تعرف مقامك عند الله فانظر ما لله عندك، إذا أردت أن تعرف ما لك عند الله فانظر ما لله عندك، هل أمْره عظيم عندك ؟ لذلك قالوا: مِن تعظيم الأمر والنهي، أن تطيع الله عز وجل لا خوفاً من عقوبته، ولا طمعاً في ثوابه، ولا مراءاة لخلقه. هذا الذي يعظم أمر الله ونهيه، ويطيع الله عز وجل، لا طمعاً في ثوابه، ولا خوفاً من

عقوبته، ولا مراءاةً لخلقه، بل لأنّ الله عز وجل يستحق العبادة، جاء في الأثر:

((لو لم أخلق جنة ولا ناراً أمَا كنت أهلاً لأنْ أعبد ؟))

فأن تعبد الله من دون طمع بما عنده في الجنة، ومن دون فزع لما ينتظر العاصي من عذاب، ومن دون أن ترائي أحداً من خلق الله، إذا فعلت هذا فأنت ممن تعظم أمر الله ونهيه، أما إذا أردت بأمر الله منفعتك الدنيوية، أو خفت من عقاب أليم، أو أردت أن يمدح الناس استقامتك، فهذا التعظيم لأوامر الله تشوبه شائبة كبيرة.

الزلفى والمآب والزيادة:

شيء آخر، يقول ربنا سبحانه وتعالى عن أحد الأنبياء:

(وَإِنّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

(سورة ص: 25)

ما الفرق بين الزُلفى وبين حسن المآب ؟

(وَإِنّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

قال العلماء: حسن المآب الجنة، لكنّ الزلفى القرب.

كأنْ يدعوك ملِك إلى طعام نفيس، تدخل قصره، وتأكل من طعامه، وليس بينك وبينه مودة، لكنّ الملك أحياناً قد يدعوك إلى طعام نفيس، ويبتسم في وجهك، يصافحك، يرحب بك، يجلسك إلى جنبه فهذه زلفى بمعنى التقريب، يعني ؛ أرقى شيء في الدين أن تتقرب من الله عز وجل.

(وَإِنّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى)

يعني القرب.

(وَحُسْنَ مَآبٍ)

فإذا نزّهتَ طاعتك عن أن تكون مشوبة بطمع، أو خوف، أو مراءاة كافأك الله بالزلفى، والزلفى التقريب، لذلك:

فلو شاهدَتْ عيناك مِن حسـننا الذي رأوه لمـا وليت عنا لغيرنا

*** * ***

هذه الزُلفى، وأمّا حسن المآب فيعني الجنة.

وإليك آية ثانية:

(لِلّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

(سورة يونس: 26)

الزيادة: القرب من الله عز وجل، وفي بعض التفاسير النظر إلى وجه الله الكريم.

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

الزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم، فكلما ارتفع إخلاصك، ارتفعت مكافأتك، إذا عظمت أمر الله عز وجل نلتَ كل هذا، نحن نتحدث عن تعظيم أمر الله، لأنّ قوم لوط استهانوا بأمر الله، استخفوا به، خرقوا الحدود، مَن خرق الحدود، كما قال ابن عطاء الله السكندري فهو من الحضرة مطرود، فماذا يقابل هذا؟ يقابل هذا أن تعظم حرمات الله، وتعظيمُ حرمات الله أن يكون أمره ونهيه في منأى عن الطمع، أو عن الخوف، أو عن المراءاة، إذا فعلت ذلك.

(وَإِنّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ)

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

وهذه آية ثالثة:

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيّبَةً فِي جَنّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)

(سورة التوبة: 72)

وكذلك:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55))

(سورة القمر: 54 - 55)

القرب من الله عز وجل له ثمن واضح جداً، يقول سبحانه:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

(سورة الكهف: 110)

إنّ باب الله مفتوح، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ، لا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللّهِ لأَبَرّهُ))

(أخرجه الترمذي)

باب الله مفتوح، وثمن الدخول العمل الصالح، والعمل الصالح يرفعك:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: 132)

لذلك هناك من يريد الله ويريد ما عنده، وهناك من لا يريد الله، ولا يريد ما عنده، وهناك من يريد ما عند الله، فحسب؛ كبعض التجار، فهذا الذي يتاجر بالاستقامة، نعم يتاجر بها، فالاستقامة عنده من أجل أن يرزقه الله رزقاً كثيراً، يعني أنك تجدُ كلّ استقامته معلولة بعلل فهي ليست خالصة لوجه الله عز وجل.

من تعظيم أمرِ اللهِ تعظيمُ آياتِه:

شيءٌ آخر، من تعظيم أمر الله، تعظيم آياته

مثلاً: سئل الإمام مالك رَضِيِ اللَّه عَنْه هذا السؤال: **" ما معنى الرحمن على العرش استوى "** ؟ فلما سُئِل كيف استوى ؟ أطرق مالك مليّاً، وتصبب عرقا، ثم قال: **الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة**، هذا كلام دقيق جداً، إن ربنا عز وجل كيف يعلم ؟ كيف هو حي ؟ ما معنى أنه قادر ؟ ما معنى أنه مريد ؟ كيف ؟ وكما جاء في الحديث:

((إذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربكم إلى السماء الدنيا))

(أبو داود عن أبي هريرة)

فكيف ينزل، وكيف يغضب الله عز وجل ؟ كيف يرضى ؟ كيف يرحم ؟ كيف يضحك ؟

((عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل))

(البخاري عن أبي هريرة)

فكلمة العجب، وكلمة الضحك، وكلمة الرضى، وكلمة الغضب وكلمة العلم، والإرادة، والسمع، والبصر كلها صفات نفوّض الأمر فيها إلى الله سبحانه، ونؤمن بها على ظاهرها.

(إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه: 46)

كل هذه الكلمات التي وصف ربنا بها نفسه، يجب أن تقف منها موقف الإمام مالك، الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، فإذا أردت أن تسأل كيف يعلم الله عز وجل ؟ كيف يرى ؟ كيف يسمع ؟ هذا السؤال يؤدّي بك إلى ذات الله، والبحث في ذات الله خطر جداً، النبي عليه الصلاة والسلام نهانا عن أن نخوض في ذات الله، قال عليه الصلاة والسلام:

((تفكروا في المخلوقات، ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا))

(الجامع الصغير عن ابن عباس بسند ضعيف)

فمن لوازم العبودية، هناك موضوعات خارج الخط الأحمر، هذه محظورٌ على العبد أن يخوض فيها، لأن الخوض فيها مزلة قدم، وهلاك محقق، لذلك من تعظيم كلام الله أن تقف عند الأوصاف التي وصف بها نفسه مِن دون تعطيل، أو من دون تجسيم، أوضح لكم ذلك: العصمةُ النافعة في هذا الموضوع أن تصف الله عز وجل بما وصف نفسه قال:

(إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

كيف ؟ لا أعرف، لكنه يسمع ويرى.

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: 10)

هكذا قال الله عز وجل، كيف ؟ لا أعلم، فيجب أن تثبت أسماء الله وصفاته من دون تشبيه، ويجب أن تنفي عن الله عز وجل كل ما يُشبه مخلوقاته، يجب أن تثبت من دون تشبيه، ويجب أن تنفي من دون تعطيل، ويجب أن تقول ليس كمثله شيء، هذه صفة الموحد لذلك أهل السنة والجماعة لا يشبهون، ولا يعطلون، لا يجسدون، ولا يعطلون الآية لا نعطلها، لما قال ربنا عز وجل:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

فهذه لا تعطّلها، لكن أيضاً لا نشبه الله عز وجل بمخلوقاته، أهل السنة والجماعة لا يشبهون ولا يعطلون، هذا الموقف المعتدل، كل ما وصف الله به نفسه تؤمن به كما جاء في القرآن، وكما جاء في سنة النبي العدنان، من دون زيادة ولا نقصان، أكرر هذا هو الموقف المعتدل، هذا من تعظيم أمر الله.

أول تعظيم: أن يكون خالصاً من الطمع، والخوف، والمراءاة.

ثاني تعظيم: ألاّ تجسد، وألاّ تعطل، وأن تؤمن بما وصف الله نفسه، وبما وصف النبي به ربه جل وعلا، من دون زيادة ولا نقصان، أنت إنسان لا يمكن أن تحيط بالواحد الديان مستحيل، إذاً قف في حدود الأدب، وكن في حد النص.

من تعظيم حرمات الله الأدبُ مع الله:

شيء آخر، يتعلق بالأدب مع الله عز وجل، من تعظيم حرمات الله، قوم لوط استخفوا بأوامر الله، وخرقوا الحدود، فأهلكهم الله عز وجل، قال العلماء: إذا استقام الإنسانُ على أمر الله، وعمل صالحاً ارتقت نفسه في سلم المعرفة، فإذا اتصل بالله عز وجل شعر بالسرور، وتجلى الله عليه باسم الباسط، يعني تلاقيه مسروراً، لكنْ هنا مزلقٌ خطير، ما هو هذا المزلق ؟ المزلق الخطير أن يكون مع الانبساط جرأة، جرأة تخرجك عن عبوديتك، فإذا الإنسان سُرّ، كأنْ صلى قيام الليل، وتجلى الله على قلبه، فبكى بكاءً شديداً، وذابت نفسه محبة لله، فلا ينبغي أن يقوده هذا الانبساط إلى الجرأة على الله عز وجل، ومِن أخطار الانبساط الجرأة، أحياناً تقرّبُ إنساناً وتكرمه فيتطاول عليك، فيتكلّم كلمة زائدة يتجاوز بها حده، أمّا ؛ كلما أنت قرّبته ازداد معك أدباً، فهي أعلى درجة في العبودية لله عز وجل، فالإنسان بحالات التقريب الإلهي لا ينبغي أن يتكلم كلمة نابية مع خلق الله، ولا ينبغي أن يحتقر خلق الله، ولا ينبغي له أن يَدِلّ على الله بعمله، لا ينبغي أن يتيه على الناس باستقامته، بإقباله، بصلاته، بحفظه لكتاب الله، بأعماله الصالحة الكبيرة التي مَنّ الله بها عليه، فمِن تمام الأدب مع الله، أن الله عز وجل إذا تجلى عليك باسم الباسط، يعني إذا كنت في حالة الانبساط لا ينبغي أن يقودك الانبساط إلى سوء الأدب مع الله عز وجل، يعني هناك أشخاصٌ ينجذبون، يقول أحدهم: سبحاني، هي كلمة فيها سوء أدب مع الله، ما أعظم شأني،

يعني بساعة الإقبال الشديد، وبساعة الغيبوبة غاب عن الوعي، فقال: سبحاني، ما أعظم شأني، هذا الانبساط قاده إلى الجرأة، ومن تعظيم حرمات الله أن السرور بالاتصال بالله عز وجل قد يحملك على الشعور بالأمن، أمنٌ معه راحة ومعه كسل، يعني عَمِلَ أعمالاً صالحة، اتصل بالله اتصالاً شديداً، فاسترخى، وشعر بالأمن، هكذا بدا لهُ.

لذلك قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قبل أن يموت كلمات شَكّ تلامذته في أحواله، قبل أن يموت، وفي ساعة الاحتضار كان يقول: **" كلا بعدُ، كلا بعدُ، كلا بعدُ، قالوا: ما هذا ؟! كأنهم خافوا على إيمانه، ثم توفاه الله عز وجل، رآه أحد تلامذته في المنام، قال: يا سيدي ماذا فعل الله بك ؟ وما قولك: كلاً بعدُ ؟ فقال: جاءني الشيطان، وقال لي: لقد دخلت الجنة، فقلت كلا بعدُ حتى يُخْتَم عملي "**، فالمؤمن لا يأمن الشيطان أبداً ما دامت روحه تصحبه، هناك شخص ما مثلاً يعمل أعمالاً صالحة، يلازم مجالس العلم، فيكتفي، ويقول: أنا ضمنت الجنة، مَن قال لك ذلك ؟ يجب ألا تأمن، لا تأمن إلا إذا دخلت الجنة، ما دمت في الدنيا، فأنت في دار ابتلاء، ما دمت في الدنيا فهناك أخطار، مادمت في الدنيا هناك مزالق، لذلك عن النَّوّاس بْنِ سَمْعَانَ الْكِلابِيّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((مَا مِنْ قَلْبٍ إِلا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَزَاغَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: يَا مُثَبِّتَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ قَالَ وَالْمِيزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَرْفَعُ أَقْوَامًا وَيَخْفِضُ آخَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))

(أخرجه ابن ماجة)

من تعظيم حرمات الله عزوُ الفضل إليه سبحانه:

الشيء الأخير، من تمام الأدب مع الله عز وجل أنك إذا أكرمك الله بعمل طيب، إذا أكرمك بحال طيب، إذا أكرمك بقلب سليم إذا أكرمك بتجلٍّ كبير، إذا أكرمك بإقبال شديد، فلا ينبغي أن تعزو هذا إليك وتدّعي: أنا أخي جهودي الكبيرة الجبارة في هذه السنوات الماضية قادتني إلى هذا الحال الطيب، لا، بل هذا من فضل الله عليك:

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

(سورة النساء: 113)

وقال سبحانه:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا)

(سورة النور: 21)

لذلك من سوء الأدب مع الله أنك في ساعات الإقبال تنسى أن هذا من فضل الله عليك، تعزوه إلى قدرتك، إلى استقامتك، إلى بطولتك، هذا من سوء الأدب مع الله.

الذي ساقنا إلى هذا المَوْضِع هو: لماذا قوم لوط عصوا ربهم ؟ لأنهم استخفّوا بالله عز وجل، استخفّوا بأمره، استهزؤوا بقوانينه، لم يعبؤوا بوعده ولا وعيده، ففعلوا خلاف ما أُمِروا ؛ وخرجوا عن مقتضى حال بني البشر، وأساؤوا، وتجاوزوا الحدود، واعتدوا فأهلكهم الله عز وجل، أمّا المؤمن فالحالة الصحيحة عنده أنه يعظم حرمات الله.

(وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ)

أول تعظيم: أن تكون طاعتك خالصة عن الطمع، والخوف والمراءاة.

وثاني تعظيمٍ: أن تقف مَعَ آيات الكتاب الكريم عند الحدود التي قالها الله عز وجل، من دون تجسيد ولا تعطيل.

وثالث تعظيم: ألاّ يقودك الانبساط إلى الجرأة، وألا يقودك السرور إلى الأمن، وألا يقودك الشهود إلى أن تعزو هذا إليك.

(رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمّا يَعْمَلُونَ (169) فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ(171))

مَن والى قومًا فهو منهم:

أمّا امرأته فقد والتْ قومها، أحبّتْ قومها، شيء خطير، قال عليه الصلاة والسلام:

((من أحب الكفرة حشر معهم، ولا ينفعه عمله شيئاً))

بعض الناس إذا رأى إنساناً منحرفاً أحبّه وأخلص له، وأقام بينه وبينه علاقة حميمة، فهذا دليل المجانسة، لأنه مَنْ جانَس جالس، ومن جالس جانس، فمَن هَوِيَ قوماً حشر معهم، مَن هوِيَ الكفرة حشر معهم ولا ينفعه عمله شيئاً.

فهذه امرأة لوط خانتْ زوجها خيانة الدعوةِ، ومالت إلى قومها المنحرفين، فاستحقت الهلاك.

(إِلّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ (171) ثُمّ دَمّرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173))

عاقبة أمر قوم لوط: ثُمّ دَمّرْنَا الآخَرينَ

يقول المفسرون: إن الله سبحانه وتعالى خسف بهم الأرض، وأمطر عليهم حجارة من السماء، وأئمة الفقه استنبطوا من هذه الآية أن عقوبة مَن يفعل فعلة قوم لوط أن يُلْقى من شاهقٍ، أو أن يضرب بالحجارة حتى يموت، والنتائج الطبيعية لهذا العمل مرض الإيدز، ذلك الشبح المخيف الذي يهدد أمن البشرية الآن، يعني أنّ في المجتمعات الغربية، وفي أمريكيا، وفي أوروبا، وفي أفريقيا، إصاباتٍ في أعداد مخيفة، وحتى الآن ليس هناك دواء ناجع، وهذه عقوبة عاجلة.

وفي بعض الأحاديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ:

((أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ، لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا))

(أخرجه ابن ماجة)

وكلكم يقرأ، ويسمع، ويطالع عن هذا المرض الخطير، مرض نقص المناعة، وربنا سبحانه وتعالى جعل هذا المرض الخطير عقاباً عاجلاً لهؤلاء المنحرفين، والإحصائيات الدقيقة، أنه تسعين بالمائة من حالات هذا المرض بسبب فعل قوم لوط، تسعين بالمائة قسم قليل بسبب تعاطي المخدرات، ومعاقرة الخمر والزنا، لكن هذه المعاصي الكبيرة في مقدمتها فعل قوم لوط، ومصيرُ هذا مرض خطيرٌ خطير، يعني شبح مخيف، تئنّ تحت وطأته نفوس الملايين من الذين ألقوا أوامر الله عُرْضَ الطريق.

(ثُمّ دَمّرْنَا الْآَخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (173) إِنّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (174) وَإِنّ رَبّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرّحِيمُ (175))

هذا كلام الله عز وجل، فأيُّ انحرافٍ في علاقة الرجل بالمرأة، أو بغيرها فمصيرُه هذا المصير الحالك المُهلك.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (12-20): تفسير الآيات 176 - 191 ، قصة سيدنا شعيب

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 06-10-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثاني عشر من سورة الشعراء، لا زلنا في هذه السورة وفي القصص التي أوردها الله فيها، ونحن اليوم مع قصة سيدنا شعيب، وهي آخر قصة في سورة الشعراء ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ)

قصة سيدنا شعيب مع أصحاب الأيكة:

الأيكة ؛ الشجرة الملتفة، يبدو أن هؤلاء القوم كانوا في أرضٍ خصبةٍ، وفيها أشجارٌ كثيفة، لكن المفسرين يقولون، إن سيدنا شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، أُرسل إلى قومين اثنين، أرسل إلى قومه، أهل مدين، وأرسل إلى أصحاب الأيكة، والدليل أن الله سبحانه وتعالى حينما حدثنا عن أهل مدين فقال:

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)

(سورة الأعراف: 85)

بينما هنا يقول الله عز وجل:

(كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177))

حينما حدثنا عن أهل مدين قال:

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا)

إذاً أهل مدين قوم سيدنا شعيب، بينما أصحاب الأيكة قوم آخرون أرسله الله إليهم، والأيكة هي الشجرة الملتفة، أما الأيك فجمع أيكة، يعني الغابة، ويبدو أن هؤلاء يعيشون في بحبوحة، وفي ظلٍ ظليل، وماء فرات، وحياة رخيّة، لكنهم كفروا بالله عز وجل، فأهلكهم الله عز وجل كما أهلك الأقوام السابقة.

(قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (180))

تكرار الأمر بالتقوى لأهميتها:

هذه الآيات تتكرر مع كل قصة بالتمام والكمال، الآن الخطاب الخاص لأصحاب الأيكة:

(أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182))

الأمر باستيفاء الوزن وعدم بخض الناس أشياءهم:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا وَزَنْتُمْ فَأَرْجِحُوا))

[أخرجه ابن ماجة]

فأن تزن بالقسطاس المستقيم هذا من لوازم الإيمان، وَالله سبحانه وتعالى يقول في سورة أخرى:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

(سورة المطففين: 1)

الويل هو الهلاك، والشقاء لمن يبخس الناس أشياءهم، وإذا ذكر الله الوزن، فالمقصود أيضاً أشياء أخرى، يعني إذا أنت أقنعت البائع أن بضاعته سيئة، ولم يستطع أن يبيعها لرداءتها، وأنه تورط في شرائها، فانهارت معنوياته، و باعك إياها بثمن بخس، هذا من قبيل أنك بخست الناس أشياءهم، وأنت إذا كلفت أن تقيم داراً، أو تقيّم مركبة، أو تقيم أرضاً، فإذا كان لك مصلحة في أن يهبط السعر، ولا تعطي الرقم الصحيح، فأنت ممن ينطبق عليه قوله تعالى:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

فهذا التطفيف يكون في الكيل، والمساحة، والعدد، والتخمين، حتى يدخل فيها تقييم الرجال، يجب ألا يخرجك رضاك عن الحق، وكذلك ألا يخرجك غضبك عن الحق، فيبدو أن هؤلاء أصحاب الأيكة كانوا يبخسون الناس أشياءهم.

الآن جرب أن تبيع حاجةً فتعرضها على الناس، فإنهم يعطونك أقل الأسعار، فإذا أردت أن تشتري هذه الحاجات، يطلب منك أعلى الأسعار، ما معنى ذلك ؟ أن الذي عرض عليك سعر الشراء بخسك قيمتها، ومما تعلمون أن الذي يطفف بتمرة واحدة تجرح عدالته، وليس المقصود الوزن فقط، الوزن، و الكيل، والمساحة والعدد، الذي يقيس القماش، إذا قاسه مشترياً يرخى القماش ليشكل خطاً منحنياً فإذا قاسه بائعاً شد القماش، هذا يفرق بالثوب الواحد نصف متر، أو متراً، فهذا ممن يبخس الناس أشياءهم أو من المطففين.

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

إذا بعت سلعة غالية، تضع لها العبوة من ورق، أو من كرتون بنفس الثمن، بينما السلف الصالح يضعون في الكفة الثانية ورقة تماثل ورقة العبوة، لئلا يكون ثمن الورق بثمن الشاي، أو البن، فهذا كله من قبيل

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

(قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (177) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (178) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (179) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (180) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ)

بيع المضطر: الذي يشتري بثمن بخس من إنسان مضطرٍ ليبيع هذه السلعة، فقد بخس الناس أشياءهم، وأكل مالاً حراماً، مثلاً شخص ابنه في المستشفى، وهو مضطر أن يبيع هذه الخزانة فيأخذها المشتري منه بربع ثمنها، هذا من قبيل أنه بخس الناس أشياءهم.

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

النهي عن الفساد والإفساد:

الإفساد كلمة واسعة جداً، من صفات المنافقين أنهم مفسدون، يفسدون العقائد، ويفسدون الأخلاق، والعلاقات، الأخلاق تفسد، والعلاقات تفسد، والعقائد تفسد، وهذا كله من عمل المنافقين، والكافرين.

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (11) أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (12))

(سورة البقرة: 11 - 12)

(وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (184) قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ (185))

متى يعصي الإنسان ربه ؟

الحقيقة، سألت نفسي سؤالاً، وأنا أقرأ هذه الآيات، متى يعصي ؟ لمّا لم يستقم هؤلاء على أمر الله ؟ لمّا بخسوا الناس أشياءهم لما طفقوا في الميزان، لما باعوا بيعاً حراماً، لما لم ينضبطوا، في عندنا سؤال كبير، هذا سؤال دائم، الآن ترى أنّ القرآن بين أيدي الناس، والخطب الرنانة ملْءَ أسماعهم، والأشرطة يسمعونها في البيت، وفي السيارة، والحق محيط بهم من كل جانب، والسؤال الخطير، لماذا يعصي الإنسان ربه ؟ بينما يستمع إلى الحق بشكل مستمر، الجواب: أن الإنسان يعصي ربه إذا لم يتيقن من أن الله عالم ومن أن الله قادر، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق: 12)

ربنا عز وجل اختار من أسمائه الحسنى الكثيرة، ومن صفاته الفضلى الكثيرة، اختار اسمين، العليم، والقدير، يعني أنك لن تطيع جهة، إذا لم توقن أن علمها بالمخالفة يطولك، وإنك لن تطيع جهة إذا لم توقن أن قدرتها تطولك، دعوا هذا البحث المهم، وتعالوا إلى الواقع، إنسان يصدر أمراً متى ينفذ بحذافيره، ومتى لا ينفذ، إذا كان الذي أصدر هذا الأمر قوياً، ويعني ما يقول، ويفعل ما يقول، وأنت موقن بذلك فلن توصيه، ولكنك تعصيه في حالة واحدة، إذا كان علمه بالمخالفة ناقصاً أنت في مكان ناءٍ، وقانون وتنظيم السير شديد جداً، لكن ما في المكان شرطة، مادام علم الذي أصدر هذا القانون لا يطولك فإنك تعصيه، وإذا كان يطولك علمه فإنك لا ولن تعصيه.

الإنسان يعصي في حالتين، إذا كان علم الآمر لا يطوله، أو إذا كانت قدرته لا تطوله، أما إذا تيقنت أن علمه يطولك، وأن قدرته تطولك، بشكل طبيعي أكيد حتمي قطعي، تطبق الأمر، لذلك إذا علمت من قدرة الله ما علمت، أنك في قبضته، وأن كل شيء في حياتك بأمره، مبدئياً صحتك، أجهزتك، عقلك، أعصابك، أوردتك، قلبك، رئتاك الجهاز الهضمي، الكليتان، العضلات، العظام، كل خلية في جسمك إنما هي بأمره، وأهلك، وأولادك، ومن فوقك، ومن تحتك، وما حولك، والجراثيم، والعصيات، والفيروسات، كلها بأمره، وكلها جنوده، إذا علمت أن قدرته تطولك، وأن علمه يطولك فلا ولن تعصيه، يقول سبحانه:

(يَعْلَمُ السِّرّ وَأَخْفَى)

(سورة طه: 7)

يعلم الذي أسررت، والذي أعلنت، يعلم خواطرك، يعلم مشاعرك، يعلم طموحاتك، يعلم نواياك، إذا تحققت من علمه، وتحققت من قدرته، فالنتيجة الحتمية، الطبيعية، القطعية، أنك تستقيم على أمره، وأي إنسان لا يستقيم على أمر الله ففي يقينه بعلم الله خلل أو يقينه بقدرة الله خلل، أما لو تحقق من علم الله، ومن قدرته، التحقق الكافي، واليقين الكافي لرأى نفسه بشكل لا شعوري قد استقام على أمر الله.

مثل آخر: ما الذي يحكم حركة الإنسان اليومية ؟ لماذا فلان يسرق ؟ لماذا فلان يطلق بصره بالحرام ؟ لماذا فلان يغض بصره عن محارم الله ؟ لماذا قال سيدنا يوسف:

(قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنّهُ رَبّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

(سورة يوسف: 23)

الاعتقاد الفاسد والتصور الخاطئ سبب المعصية:

ولماذا آلاف الآلاف من الناس إذا سمحت لهم فرصة كفرصة سيدنا يوسف يرونها مغنماً، لماذا هذا أقدم، وهذا أحجم ؟ لماذا هذا أكل مالاً حراماً، وهذا قال: معاذ الله، أموت جوعاً، ولا أقبض هذا المبلغ لماذا ؟ يعني سؤال آخر، ما الذي يحكم تصرفات الإنسان ؟ ما الذي يسيره؟ ما الذي يوجهه ؟ إنها تصوراته، فالسارق يتصور أن السرقة مغنم، وأنها جهد يسير، ودخل كبير، ولم يقبض عليه، فالذي يدفعك نحو هذا العمل، أو يحملك على أن تحجم عنه تصورات، هذه التصورات تعد تقليداً إذا افتقرت إلى الدليل، فالسارق مثلاً يقول: أخي هكذا الناس يفعلون، نحن مع الناس، هذا كلام عامة، مادام عملك ينطلق من فكرك وأنت تفتقر إلى الدليل، فهذا الموقف فيه تقليد أعمى.

ولا تنسوا أيها الإخوة، أنه لا يقبل التقليد في العقيدة، لو قبل التقليد في العقيدة، لكان كل الضالين وجدوا آباءهم على هذا الضلال فاتبعوهم، ولهم العذر عند الله عز وجل لكن ربنا عز وجل ما قبل من هؤلاء الناس أن يقولوا إنهم وجدوا آباءهم هكذا ففعلوا مثلهم، فالتقليد في العقيدة مرفوض، كل الرفض، وأشد الرفض، إذاً الذي يحكم هذه التصرفات، وهذه الحركة، وهذا الإقدام، هذا الإحجام، هذا الوصل، هذا الفصل، هذا العطاء، هذا المنع، هذا الغضب، هذا الرضا، هذه المسايرة، هذا الانسجام، هذا الاشمئزاز هذا التقزز، الذي يحكم كلماتك، مواقفك، مشاعرك، تصرفاتك سلوكك هو التصورات، فإذا خلت تصوراتك من الدليل فهو التقليد الأعمى، و التقليد لا يليق بالمؤمن، والتقليد مرفوض في عالم العقيدة.

الآن إذا افتقرت هذه التصورات إلى القطعية، يعني أنت لست متأكداً، أنت في شك، فهذا يسمى شك، أو وهم، أو ظن، سبعين بالمائة ظن، ثلاثين بالمائة وهم، خمسين بالمائة شك، فأنت بين الشك والوهم، والظن، ولا يقبل في العقيدة لا شك، ولا وهم، ولا ظن، لأنه ما دام لديك ظن، فيجوز حسب رأيك أنك لا تحاسب، فقول: أعصي إذاً، مادام هناك وهم أو شك، أو ظن، أنك لن تحاسب، أو أن الذي أمرك لا يراك، أو أنه إذا رآك فلن يعاقبك، مادام دخل الشك، والوهم، والظن، فهذا التصور لن يحملك على طاعة الله عز وجل، إذاً يجب أن تنتفي من أفكارك، وعقيدتك، التقاليد العمياء، والتقليد يعني الفكرة التي لا دليل عليها، و يجب أن تكون عقيدتك التي تسيرك قطعية، فإذا لم تكن مقطوعاً بصحتها كانت شكاً، أو وهماً، أو ظناً، فإن الشك والوهم والظن، لن يحملك على طاعة الله عز وجل وهذا تحليل علمي، لماذا الناس يستمعون إلى الخطب، والجوامع مليئة، يقول أحده لك: هذا الجامع فيه خمسة آلاف، هذا ثمانية آلاف، هذا عشرون ألفاً، غصّ المسجد، والمعاصي على قدم وساق، والكلام واضح وكلام الخطيب واضح، والآيات واضحة، والأحاديث واضح والأحكام واضحة، ومع ذلك هناك من يعصي،

إذاً إنّ في عقيدته أو في تصوراته، أو في أفكاره، تقليداً بلا دليل، أو في عدم قطع يعني في شك، أو وهم، أو ظن.

مرتبة العلم واليقين حاجز عن المعصية:

أما إذا كانت أفكارك، وتصوراتك، لا علاقة لها بالواقع، أو لم تطابق الواقع فهي عين الجهل، وقد كان سبب الخلاف الزوجي ذات مرة أن امرأة ألقت ماء مع ملح في طريق الزوج، هذا جهل وحمق، وهو زوج سيئ، أحمق في تصوراته فيعزى هذا الشقاء الزوجي إلى شيء لا علاقة له بالشقاء الزوجي، فكل شيء لا يطابق الواقع يعد جهلاً، فيجب أن تنفي من عقيدتك كل جهلٍ، أي كل فكرة لا تطابق الواقع ويجب أن تنفي كل تقليد، أو فكرة ليس عليها دليل، ويجب أن تنفي كل ظن، أو شك، أو وهم، إذا نفيت الشك والظن والوهم، ونفيت التقليد، ونفيت الجهل، فأنت إذاً مع العلم.

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

(سورة فاطر 28)

إذا كانت أفكارك تنطلق من علاقة ثابتةٍ، مقطوع بصحتها يؤكدها الواقع، توافق المنطق، عليها دليل، إذا كانت أفكارك كلها هكذا فأنت إذاً في طريق الإيمان، وأنت في اتجاه الحق، وأنت مع الحق وأنت محفوف برعاية الله عز وجل، فالقضية قضية علم، أخطر عدو للإنسان هو الجهل، هذا الجواب مثل قوم شعيب، قوم ثمود، قوم عاد، لماذا فعلوا ما فعلوا ؟ لماذا عصوا ؟ ليس لديهم يقين أن الله سبحانه وتعالى يعلم سرهم ونجواهم، ولا يقين عندهم أن الله سيحاسبهم على أفعالهم حساباً عسيراً، فأنت لو ارتقت معرفتك إلى درجة اليقين، أن علم الله يطولك أينما كنت، وأن قدرته تطولك أينما كنت، تجد نفسك بشكل عفويٍ طبيعيٍ مستقيماً على أمر الله من دون تردد، فهذا هو السر، لذلك العلماء أفردوا أبواباً طويلة في كتب التصوف لليقين، مرتبة اليقين عبر عنها النبي عليه الصلاة والسلام بالإحسان.

عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِحْسَانُ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ))

[أخرجه البخاري]

لذلك قال العلماء: اليقين من الإيمان كالروح من الجسد، اليقين من الإيمان، يعني هذا الذي يأكل مالاً حراماً، لابد من أن يتلف ماله وإذا كان لابد من أن يتلف المال الحرام، إذاً لا تأكل هذا المال إطلاقاً، وما الذي يجعل المؤمن يستقيم على أمر الله ؟ يقينه أن هذه معصية، وأن لكل معصية عقاباً ولماذا يفعل الخيرات ؟ لأن الله عز وجل سيثيبه على أفعاله كل خير.

علاقة الحقائق بالقلب:

موضوع اليقين موضوع دقيق جداً، اليقين أن تستقر الحقائق في قلبك، و أن تنتقل من فكرك إلى قلبك، لقول الله عز وجل:

(لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا)

(سورة الحج: 46)

قال العلماء: علاقة الحقائق بالنسبة إلى القلب كالعلاقة اليقينية بين القلب والحقائق، كعلاقة المرئي بالعين، كيف أني أرى أن هذا مصحف وأني متيقن من أن هذا مصحف مئة في المئة، كذلك المؤمن إذا بلغ درجة متقدمة في الإيمان تنتقل هذه الحقائق من أفكار إلى أشياء يراها من هنا العلماء قسموا بين علم اليقين، وبين عين اليقين، وبين حق اليقين.

(كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6)(

(سورة التكاثر: 5 -6)

نحن عندنا يقين حسي، هذا ماء، أمسكت هذه الكأس بيدي، وأحسست بأعصابي، تذوقته بأعصاب الذوق، هذا يقين حسي، هذا الإنسان وغير الإنسان مشتركان فيه، اليقين الحسي، الإنسان أرقى من ذلك، الإنسان أودع الله فيه هذا الفكر، أو ذلك العقل، بالفكر أو بالعقل ينتقل إلى يقين استدلالي، أنا موقن بشكل قطعي، ومئة بالمئة أن في أسلاك الكهرباء كهرباء، والدليل، الآثار، هذه المصابيح المتألقة فيقيني أن التيار الكهربائي يصل إلى هذا المسجد يقينٌ قطعي لأنني أرى الأثر، الأثر يدل على المؤثر، والخلق يدل على الخالق، والنظام يدل على المنظم، والتسيير يدل على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، ألا تدلان على الحكيم الخبير، فاليقين الحسي يقين سهل هو أن ترى بعينك، تسمع بأذنك، تحس بأعصابك، ولكن اليقين الاستدلالي هو يقين أيضاً، فالإنسان أحياناً بحسب المهنة والحرفة عنده أدلة مقطوع بها.

فمثلاً: لو أنّ أنبوب الوقود السائل مقطوع هذه المركبة لن تسير طبعاً لن تسير يقيناً، لأن المحرك يحتاج إلى وقود، والوقود مقطوع عن المحرك، فلن تسير، اليقين الحسي سهل، اليقين الاستدلالي أن ترى الله من خلال خلقه، أن ترى المؤثر من الأثر، أن ترى الخالق من الخلق، أن ترى المنظم من النظام، وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد، هذا اسمه علم اليقين، علم قطعي الثبوت، علم يقيني استدلال يقيني، من خلال هذا العلم نتعرف إلى الله عز وجل، لذلك ربنا عز وجل قال:

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة آل عمران: 190-191)

سؤال ثانٍ: النبي عليه الصلاة والسلام جاءه سيدنا الصديق مع سيدنا حنظلة، قال له الصديق: **عندما نكون معك في المجلس نشعر أننا نحن وأنت في الجنة كهاتين** ـ وجمع بين السبابة والوسطى ـ وقال سيدنا حنظلة: **فإذا عافسنا الأهل ننسى**، يعني أن الإنسان في ساعة الدرس مسرور جداً، فإن يذهبْ إلى البيت فهذه الحقائق تغيب عنه ويعود ليعيش دنياه، فقد ضعف اليقين، أما إذا بلغ مرتبة اليقين، هذه الحقائق تبقى أمامه ماثلة انتقلت من عقله إلى قلبه، وأصبح يعيشها، وشتان بين من يفهم فكرة و بين من يعيشها، نأتي بمثل، ربنا عز وجل لما قال:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

(سورة الأحزاب: 71)

اليقين والصبر والسماحة:

الآية واضحة لا تحتاج إلى تفسير، لكن أنت كمؤمن إذا كنت مؤمناً مستقيماً على أمر الله عز وجل، ولك صديق منحرف، ضال فاجر، فاسق، لا يبالي من أين يكسب المال، وله ثروة طائلة، ويعيش حياة فيها رخاء وبحبوحة، فإذا شعرت بالحرمان أمام هذا الصديق المترف، إذا شعرت أن الله قد حرمك، وقد أعطاه فأنت لم تدرك معنى هذه الآية الكريمة:

(وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)

فهمُها سهل، ولكن أن تعيشها شيء آخر، أن تفهمها شيء سهل، أما أن تعيشها شيء آخر، لذلك إذا استقرت هذه الحقيقة في القلب، تصبح يقيناً وإذا بقيت في الذهن كفكرة فهذه الفكرة تغيب وتحضر، ففي ساعات الغضب، أو ساعات الشدة تغيب عنك هذه الفكرة، ترى أنك محروم، وأن هذا الفاسق الفاجر هو سعيد في حياته، وأن الله قد حرمك وأعطاه لكن في ساعات التذكر، تشعر أنك مؤمن، فإذا انتقلت هذه الفكرة من عقلك إلى قلبك أصبحت تعيشها، وإذا عشت هذه الفكرة هذا شيء ثمين جداً في حياتنا، العلماء قالوا: إذا تزوج الصبر باليقين ولد الإمامة في الدين، والدليل:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

(سورة السجدة: 24)

الصبر واليقين عنصران أساسيان في الإمامة في الدين، يعني إذا أردت أن تكون للمتقين إماماً، فعليك بالصبر، وعليك باليقين، وإن النبي عليه الصلاة والسلام جمع الإيمان كله في الصبر، قال:

((الإيمان هو الصبر والسماحة))

(سلسلة الأحاديث الصحيحة)

وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام:

((أفضلُ الإيمانِ الصبر والسماحة))

(سلسلة الأحاديث الصحيحة)

فإما أن الله أمرك بالبذل، أو نهاك عن أشياء، فإذا انتهيت عما نهاك عنه فهذا هو الصبر، وإذا بذلت ما أمرت به فهذه هي السماحة، فالدين كله صبر وسماحة.

من صفات الكافرين يوم القيامة، أنهم ليسوا بمستيقنين، قالوا:

(وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ)

(سورة الجاثية: 32)

عدم اليقين هو الذي جعلهم يعصون خالقهم، نحن الآن مشكلتنا مشكلة اليقين، أما الأفكار سهلة، فكل واحد منا حضر واستمع خطباً دينية ومحاضراتٍ، وقرأ كتباً، وعنده أفكار جيدة جداً، لكنها لم ترقَ إلى مرتبة اليقين، فإذا ارتقت إلى مرتبة اليقين انقلبت إلى فعل حقيقي، ترجمت الأفكار إلى أعمال، وهذه مشكلة المشكلات في العالم الإسلامي، أفكار كثيرة، تعاطف مع الدين شديد، لكن من غير التزام، لأن اليقين ضعيف، اليقين بأن علم الله لا يطوله، أو أن قدرته لا تطوله، أو أن الحساب غير يقيني.

لا إرضاء للناس بسخط الله:

يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا ترض أحداً بسخط الله))

(ورد في الأثر)

عَنْ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ الْوَرْدِ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَالَ:

((كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِي اللَّه عَنْهَا أَنِ اكْتُبِي إِلَيّ كِتَابًا تُوصِينِي فِيهِ وَلا تُكْثِرِي عَلَيّ، فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ رَضِي اللَّه عَنْهَا إِلَى مُعَاوِيَةَ، سَلامٌ عَلَيْكَ أَمّا بَعْدُ: فَإِنّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ: مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النّاسِ وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النّاسِ وَالسّلامُ عَلَيْكَ))

[أخرجه الترمذي]

إذا أرضيت إنساناً بسخط الله، معنى ذلك أن هذا الإنسان أكثر وجوداً بحياتك من الله عز وجل، لأنك أرضيته، وعصيت الله عز وجل، وهذا من علامات ضعف اليقين، كما قال النبي الكريم، إنه من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، هذا الإنسان وجوده صارخ أمامك، وعده مخيف، وعده محبب، وعيده مخيف، أمرك بشيء فيه مخالفة للشرع، فأنت انصعت إلى أمره، فأين الله عز وجل ؟.

قال له بعني هذه الشاة، وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قال له: قل لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب، قال: ليست لي، قال: خذ ثمنها قال: والله إني بأشد الحاجة إلى ثمنها، فقال هذا الأعرابي أو هذا البدوي: **ولو**

قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله ؟ لا حل لها، أنت تقدر أن تلعب على الناس كلهم، لكن على الله لا يمكنك ذلك، فأين الله ؟ هذه الكلمة، لو قالها الإنسان مستيقناً لحلت كل مشكلاته.

ملخص أسباب المعصية:

أنا أريد بهذا الدرس أن أوضح أنّ سبب المعاصي والمخالفات والتقصيرات هو عدمُ اليقين بعلم الله، أو بقدرته أو بمحاسبته، إنه من ضعف اليقين، كما قال سيد الأنبياء والمرسلين:

((لا ترضِ الناس بسخط الله))

(ورد في الأثر)

هل هم أغلى عندك من الله عز وجل ؟ استحييت أن تظهر بمظهر التخلف، صافحتك امرأة، فخجلت وصافحتها، وكأن الله عز وجل أمْره أخفُّ عندك من نظرة هذه المرأة لك، إنه من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على فضل الله، فالفضل فضله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره إليك حرص حريص ولا يرده عنك كراهية كاره، لا حرص حريص ولا كراهية كاره، وإن الله تعالى جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، و جعل الهم والحزن في الشك والسخط.

درسنا اليوم اليقين، ولابدّ أن تعمل جرداً لكل معلوماتك يجب أن تنقلها من مرتبة التصديق، إلى مرتبة اليقين، إذا نقلتها إلى مرتبة اليقين انقلبت إلى عمل قطعي، لو أخذت هذا المال حراماً، لابد من أن يتلف المال ويتلف صاحبه، كفكرة مخيفة موقتاً.

لي قريب كان يدخن بشكل كبير، إلا أن الأمر انتهى به إلى مرض خبيث في رئتيه، على فراش الموت قال: والله إذا شفاني الله عز وجل لها عندي حساب عسير ـ يعني هذه السيجارة ـ لكن الموت جاء في وقت كان يظنه بعيداً، كان يسمع قبل أن يموت أنها تعمل سرطان بالرئة، فيقول: كله كلام بكلام، ويقول لك: مبالغات، أما حينما أصيب بهذا المرض انتقل إلى مرتبة اليقين، فعقد العزم الأكيد على ترك التدخين، لكن متى ؟ بعد أن تيقن، لكن هذا اليقين لم ينفعه، جاءه بعد فوات الأوان.

معرفة الحقيقة بعد فوات الأوان:

أخطر شيء بالحياة أن تعرف الحقيقة بعد فوات الأوان، ما من إنسان على وجه الأرض إلا و سيعرف الحقيقة، ولكن بعد فوات الأوان

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

(سورة ق: 22)

وقال سبحانه:

(قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(91))

(سورة يونس: 90)

مادام القلب ينبض، وفي الأجل فسحة فهذا هو الوقت المناسب للاستقامة على أمر الله، ولعقد الصلح مع الله، وللتوبة النصوح، أما إذا تمهل الإنسان، وسوف، وقال غداً أو بعد غدٍ، فقد يأتيه الموت في وقت يفاجئه، في وقت ليس مستعداً فيه للقاء الله عز وجل.

من علامات اليقين:

1 ـ قلّة مخالطة الناس:

قال العلماء: من علامات اليقين قلّة مخالطة الناس، يعني علاقته كلها مع الله عز وجل، بعض الناس علاقاته الاجتماعية بلغت إلى درجة النفاق، وفيها أكل مال حرام وفيها اختلاط، فهذا يقينه بالله ضعيف، فمن علامة اليقين قلة الاختلاط بالناس، يعني أيّ لقاءٍ فيه شبهة وفيه معصية، يعني هناك خلل، وممالأة للباطل، يتكلم بغير حقٍ مثلاً، فيه غيبة، نميمة، ومجالس اختلاط، في كذا وكذا، فيقينه أن الله عز وجل، ليس إلا الله.

ألا كل شيئا ما خلا الله باطل وكـل نعيم لا محالة زائـل

***

2 – ترك المدح:

من علامات اليقين ترك المدح لهم في العطية، بل تمدحهم بحسب أمر النبي، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ))

[أخرجه البخاري]

لكن أن ترى لهم فضلاً عليك، الفضل لله عز وجل، من علامات اليقين أن الله هو صاحب الفضل، وأن تذمهم عند المنع، هذا من ضعف اليقين، أما إذا تنزهت عن ذمهم عند المنع، فقد عرفت أن هذا الشيء ليس لك، قال تعالى:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر: 2)

ما جاء في الآية من معنى فهذا هو اليقين، ومن علامات اليقين، النظر إلى الله في كل شيء، كل قصة، كل مشهد، وراءه يدٌ رحيمة، يد حكيمة، يد عادلة إذا رأيت الله في كل شيء فأنت من الموقنين، أما إذا انغمست في حديث طويل، تقول: زيد قال، وعبيد قال، فلان تدخّل، وفلان توسط وفلان منع، وأين الله، من علامات اليقين أن ترى الله في كل شيء، أن ترى أنه ما من ناطق، ولا ساكت، ولا متصرف، إلا والله عز وجل هو الذي دفعه، أو، ألهمه أو منعه، أو كبّله.

يقول بعضهم: الطيب والله شفى لي ابني، هذا من ضعف اليقين، قل الله عز وجل تفضل علي بشفاء ابني على يد هذا الطبيب، هذا كلام صحيح، أما أن تقول الطبيب شفى لي ابني، وفلان أنقذني، هذا كله من ضعف اليقين، فأنت لا ترى الله بل ترى زيداً أو عبيداً، أنت مع الناس ولست مع الله عز وجل، لكن كلما ارتقى مستوى الإيمان فلن ترى إلا الله فهو المانع، وهو المعطي، وهو القابض، وهو الباسط، هو المعز، هو المذل، هو المعطي، هو كل شيء.

كذلك الرجوع إليه في كل أمر، والاستعانة به على كل حال، هذا كله من علامات اليقين.

هؤلاء القوم، قوم سيدنا شعيب:

(أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (181) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (182))

لما يغش الإنسان، أو يبخس الناس أشياءهم، يظن نفسه ذكياً، يعني تمكن أن يجلب لنفسه النفع، لو تيقن أن الله عز وجل بالمرصاد، وأن هذا المال سيتلفه، وأن سيحاسبه عليه، وأنه سيكيل له الصاع صاعين، ما فعل ذلك، إذاً لن تجد إنساناً يعصي ربه إلا وهو جاهل، وأكبر عدو للإنسان الجهل.

الفرق بين علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين:

العلماء فرقوا بين علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين.

علم اليقين: أن يقول لك إنسان صادق أنا عندي عسل تقول له صدقت، وأنت عندي صادق فهذا علم اليقين، فإذا زرته في البيت، وأراك العسل فهذا عين اليقين، فإذا أكلته فهذا حق اليقين، إن صدقته وهو الصادق هذا علم اليقين، فإن رأيته فهو عين اليقين، فإن أكلته وذقته فهو حق اليقين والإنسان يبدأ بعلم اليقين، يوقن بالجنة والنار، فإذا شارفهما فقد انتقل إلى عين اليقين، فإذا دخل الجنة فقد صار في حق اليقين.

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ)

(سورة الزمر: 74)

هناك قول منسوب إلى بعض العلماء، وهو منسوب خطأ إلى سيدنا علي، يقول: **<< لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً>>**، فهو متيقن مما في القرآن الكريم، قبل كشف الغطاء، كيقينه بعد كشف الغطاء، إذاً هذه أعلى مرتبة في اليقين، بل إن أحد العلماء يقول: الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين، متيقن برحمته، متيقن بعلمه، متيقن بحكمته، متيقن بعدالته، أصابك ما أصابه، يا رب لك الحمد، هذا أمرك، وهذا فعلك، وهذه حكمتك، وهذا عدلك، وهذا لطفك، هكذا المؤمن.

عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَ الْمُؤْمِنِ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، لَيْسَ ذَلِكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، وَكَانَ خَيْرًا، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ وَكَانَ خَيْرًا))

[أخرجه أحمد]

ينتقل المؤمن حالةٍ في اليقين عجيبة، لا أحد إلا الله عز وجل، كل هؤلاء الناس بيد الله، الأمور كلها بيده، هذا الذي وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، كل شيء وقع أراده الله، وإرادة الله عز وجل إرادة متعلقة بالحكمة البالغة، وحكمته البالغة متعلقة بالخير المطلق، والأمور عندما تأتيك برداً وسلاماً، أنت عبد لله مستسلم، وهو الحكيم، لكن لما يقصِّر الإنسان في عمله، أو يقصر في الاحتياطات، والأخذ بالأسباب، وإذا وقع تقصير وصار الأمر مؤلماً، هذا الشيء المؤلم ما عاد كما يظن، بل هو عقاب، وهذا جزاء التقصير، أنت متى تقول هذا أمر الله، وهذه حكمته، وهذه عدالته، حينما تأخذ بالأسباب، وبعدها تدع الأمر لله عز وجل.

درجات اليقين:

قال بعضهم: اليقين ثلاث درجات، تصديق الخبر من الصادق، والمشاهدة، والاستدلال، جاءك الخبر صدقته، جاءك الدليل العقلي زادك هذا يقيناً، رأيته، يعني أنت قلت: رأيت دخاناً، فقلت: لا دخان بلا نار، هذا استدلال، ذهبت إلى خلف الجدار فإذا النار تراها بعينك، هذا صار عين اليقين.

(وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (183) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ(184))

الجبلّة:

الجبلّة ؛ الخلق، يعني المخلوقات التي جاءت من قديم، فالله هو الخالق لكم ولأسلافكم.

(قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ)

عادة الكفار رميُ الأنبياء بالسحر والجنون:

أنت إنسان مثلنا، تأكل وتشرب، المسَحّر هنا يأكل ويشرب، طبعاً النبي رسول إنسان بشر، فعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَرْضَى كَمَا يَرْضَى الْبَشَرُ وَأَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ))

[قطعة من حديث أخرجه مسلم]

صلى الظهر مرة ركعتين صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ ناسيًا، فعَنْ أَبِي سُفْيَانَ مَوْلَى ابْنِ أَبِي أَحْمَدَ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ:

((صَلّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ صَلاةَ الْعَصْرِ فَسَلّمَ فِي رَكْعَتَيْنِ، فَقَامَ ذُو الْيَدَيْنِ فَقَالَ: أَقُصِرَتِ الصّلاةُ يَا رَسُولَ اللّهِ أَمْ نَسِيتَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ: كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، فَقَالَ: قَدْ كَانَ بَعْضُ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللّهِ، فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَى النّاسِ فَقَالَ: أَصَدَقَ ذُو الْيَدَيْنِ ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، فَأَتَمّ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَا بَقِيَ مِنَ الصّلاةِ، ثُمّ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، وَهُوَ جَالِسٌ بَعْدَ التّسْلِيمِ))

[أخرجه النسائي]

(قَالُوا إِنّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحّرِينَ (185) وَمَا أَنْتَ إِلّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (186) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ (187))

استعجال الكفار العذاب أكبرُ أنواع التحدي:

هذا أشد أنواع التكذيب والتحدي، أين العذاب، أنت يا شعيب تقول: إن ربك يعذبنا، هات العذاب، هذا أعلى درجة من التحدي والتكذيب.

(فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ (187) قَالَ رَبّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) فَكَذّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظّلّةِ إِنّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189))

(فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ)

إنّ أشد أنواع التكذيب أن تطالب باستهزاء وعيد خصمك:

(فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفاً مِنَ السّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادِقِينَ (187) قَالَ رَبّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (188) فَكَذّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظّلّةِ إِنّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (189))

ما هو عذاب يوم الظُلة ؟

تذهب كتب التفسير مذاهب شتى في تفسير

(عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ)

بعضهم قال: أصابهم حر شديد، فانتقلوا إلى البساتين، وفي البساتين أمطر عليهم الله صواعق من السماء، وأحرقتهم.

وبعضهم قالوا: جاءتهم سحابة استظلوا بظلها في أيام حر شديد، السحابة نفسها، بعد أن تجمعوا تحتها أيضاً أحرقتهم، على كلٍ يكفينا قول الله عز وجل:

(إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

يعني:

(فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (11))

(سورة الدخان: 10 - 11)

وقال سبحانه:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (1) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ(2))

(سورة الحج: 1 - 2)

المؤمن آمِن من عذاب الله:

لكن حال المؤمن يلخصه قول ربنا عز وجل قال:

(وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة الزمر: 61)

وربنا عز وجل لما قال عن سيدنا يونس:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ(88))

(سورة الأنبياء: 87 - 88)

المؤمن وعده الله عز وجل بالنجاة، إذا أصاب الناس مكروه شديد يوم عظيم، عذاب عظيم، ضائقة عظيمة، وعد الله المؤمن بالنجاة، وهذا وعد محقق.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (190) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (191) وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ(192))

هذه الآيات إن شاء الله تعالى أتركها للدرس القادم، ولكن هناك آيات كونية تقع في العالم،هذه الزلازل، الفيضانات، هذا الخسف أحياناً،هذه البراكين حينما تفور، هذه الأمراض الوبيلة، مرض الإيدز، هذه كلها آيات مستمرة، يعني أنّ الله عز وجل جعل في هذا القرآن آيات، وجعل آيات كونية نراها كل يوم بأعيننا:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا)

(سورة الطلاق: 8)

وقال عزوجل:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)

(سورة النحل: 112)

جيرانا.

(فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل: 112)

هي أيضاً آيات.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (13-20): تفسير الآيات 192 - 194

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 13-10-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

إعادة وتذكير:

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثالث عشر من سورة الشُّعراء، في الدرس الماضي أنْهَيْنا سابع قِصّة من قصص سورة الشُعراء، وقبل أن تردَ هذه القِصص تِباعًا بدأ ربّنا سبحانه وتعالى السورة بقوله الكريم:

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

[سورة الشعراء]

وبعد أن انتَهَتْ هذه القصص، قال الله عز وجل:

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الشعراء]

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِين

الشيء يكتَسِبُ قيمتهُ من نِسْبَتِهِ فإذا رأيْتَ كِتابًا مؤلِّفُهُ فلان، فقيمة الكتاب مِن قيمة فلان، كلّما ارْتَفَعَ المقام العِلمي، وكلّما تألّق اسم المؤلِّف، كلّما كان الكتاب أعظم قيمةً، فما قولك بِكِتابٍ أُضيف إلى خالق الكون ؟ فضل كلام الله على كلام عباده كَفضْل الله على عباده، فأنت أحيانًا تشتري الكتاب لِسَبب واحد، هو أنّ فلانًا مؤلِّفهُ، فكيف إذ كنتَ أمام كتاب من عند خالق السماوات والأرض ؟ قال تعالى:

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الشعراء]

فائدة القصص السبع الوارد في سورة الشعراء:

1 - المكذب مصيره الهلاك:

هذه القصص السَّبع ؛ ماذا أفادَتْنا ؟ أفادتْنا أنّ كلّ مَن يكفر، وكلّ من يكذِّب، وإن كل من يتحدّى الخالق

مصيرهُ الهلاك والدّمار، بِشَكل أو بآخر ما الذي أهْلَكَ المُكَذّبين ؟ جَهلُهم بالله عز وجل، وهذا الذي أقوله كلّ يوم.

2 – الجهل أعدى أعداء الإنسان:

إنّ أعدى أعداء الإنسان هو الجهل، لأنّ فِطرة الإنسان فطرة مركوز فيها حب الخير، مركوز فيها الإيمان بالله، مركوز فيها الانضباط على أمره، مركوز فيها التوكّل عليه، فحينما يؤمن الإنسان بالله عز وجل تَهدأ نفسُه، وتطْمئنّ وتستقر وتسْعَد، وترْضى، فالفِطرة تُعينك على الإيمان بالله، وعقلك يُعينك على الإيمان بالله عز وجل، والكون يُعينك على الإيمان بالله، والكتاب يُعينك على الإيمان بالله عز وجل، والأبواب التي فتحها الله عز وجل تُعينُكَ على التّقرّب إليه، ما الذي يحول بينك وبين أن تكون سعيدًا في الدنيا والآخرة ؟ إنّه الجهْل، لذلك سأرْوي لكم بعض أقوال العلماء فيما يتعلّق بالعِلم.

3 العلم أساس الإيمان:

يقول أحد العلماء: العِلم إنْ لم يصْحب السالك من أوّل قدَمٍ يضَعُهُ في الطريق إلى آخر قدَمٍ ينتهي إليه، فسُلوكُهُ على غير الطريق ! وهو مَقطوع عليه طريق الوُصول إلى الله عز وجل، ومَسْدود عليه سبيل الهُدَى، فالشيء الوحيد الذي اعْتَمَدَهُ القرآن الكريم كَقيمة يتفاضل بها العِباد ؛ وهو العِلم، قال تعالى:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ)

[سورة الزمر]

الشيء الوحيد الذي أمرنا الله أنْ نزْداد منه هو العِلم، قال تعالى:

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

[سورة طه]

إذا أردْت الدنيا فَعَلَيك بالعِلم، وإذا أردْت الآخرة فَعَلَيك بالعلم، وإذا أردْتهما معًا فعليك بالعِلْم، والعِلم لا يُعْطيك بعضهُ إلا إذا أعْطَيْتَهُ كلك، فإذا أعْطَيْتَهُ بعضك لم يُعطِكَ شيئًا، ويظلّ المرء عالمًا ما طلب العِلم، فإذا ظنّ أنّه قد عَلِمَ فقد جَهِلَ ! لا ينْهَ عن العِلم كما قال بعض العلماء إلا قُطّاعُ الطُرق، ونُوّابُ إبليس !! هذا الذي ينْهاك عن أنْ تفْهَمَ القرآن، وعن أن تفْهَمَ سنّة النبي العدنان، هذا الذي يصْرِفُكَ عن طلب عِلْم لا خير فيه ؛ لا ينْهَ عن العِلم إلا قُطّاعُ الطُرق ونُوّابُ إبليس.

4 – كل الطرق مسدودة على الخَلق إلا طريق النبي عليه الصلاة والسلام:

يقول الإمام الجُنَيْد ـ رحمه الله تعالى ـ وكان من كِبار العلماء: **" الطُرق كلُها مَسْدودة على الخلق إلا من اقْتَفى أثر النبي عليه الصلاة والسلام ".**

فالطريق التي رسمها النبي عليه الصلاة والسلام هي الوحيدة السالكة إلى الله تعالى، فمن اقتفى أثر النبي فَطَريقُه سالكة إلى الله عز وجل، ومن اقتفى أثر أيّ إنسانٍ آخر لا علاقة له بالنبي عليه الصلاة والسلام فطَريقُهُ مَسْدودة ونحن نُعَبّرُ أحيانًا عن إخْفاق إنسانٍ، وعن إحباط عمله، وعن ضَعْف تَفكيره، وعن خَيْبة أمله فنقول: إنّه يَمشي في طريق مَسدود، إذا أردْتَ أن تمشي في طريق سالكة، وإلى سعادة الدنيا والآخرة فاسْلُكَ سبيل النبي عليه الصلاة والسلام ؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى جعَلَهُ قدْوةً حسنة، وجعله أسوةً صالحة، ومثَلاً أعلى.

وقال عالمٌ آخر: **" عِلْمُنا مُقيّد بالكتاب والسنّة "**، ومنضبط، وفيه مقاييس صحيحة، ففي العالم الإسلامي ملايين مَلايين المَقُولات من قصص وأفكار وعقائد ؛ كُلُّ هذه المقولات يجب أن تُقاسَ بمِقْياس الكتاب والسنّة وإلا فهي غير صحيحة، وهذا مِقْياس دقيق، يقول لك قائل: كذا وكذا فقُلْ له أين الدليل ؟ هل هناك دليل على قولك من الكتاب والسُنة ؟ إن كان كذلك فعلى العَيْن والرّأس، وإن كان هذا الكلام من عندك ويفْتقر إلى الدليل فلا شأن لي به، ولا أُقيمهُ من أرضه، عِلمُنا مُقيّد بالكتاب والسنّة.

5 - لابد للمواقف والأعمال من ميزان:

عالمٌ آخر يقول: من لم يَزِن أفعاله انزلق، ولحقه الهوان، لماذا وَقَفْت هذا الموقف ؟ ولماذا أعْطَيتَ ؟ ولماذا تبسّمْتَ ؟ ولماذا منعْت ؟ ولماذا غضبْت ؟ ولماذا رضيت ؟ ولماذا وصَلْت ؟ ولماذا قطَعتَ ؟ الإنسان يقف مواقف كثيرة ؛ منها مواقف الرّضا، ومواقف الغضب، مواقف العَفْو، ومواقف الثّأر، ومواقف الاسْتِسْلام، مواقف العَطاء، ومواقف المَنْع، مواقف المديح، ومواقف الهجاء، هذه المواقف الكلاميّة والفِعْليّة والقلبيّة ؛ هذه المواقف يجب أن تزنَها بميزان، من لم يَزِن أفْعالَهُ وأحواله يتردّى ؛ لماذا أنا خائف ؟ مع أنّ الأمر بيَدِ الله، إذًا في أحوالي خلل، ولماذا أنا يائس ؟ مع أنّ الله سبحانه وتعالى بيَدِهُ كلّ شيء، إذاً هذه الحال التي أعاني منها فيها خلل، مَنْ لمْ يَزِن أفعاله وأحواله في كلّ وقتٍ بالكتاب والسنّة فلا يُعَدُّ في ديوان الرّجال، فالرّجُل هو الذي يزِنُ أفعاله، ويزن أقواله، ويَزِنُ أحواله في ضَوء الكتاب والسنّة، فإن جاءَتْ موافقةً لأوامر الله، فهو على حق، وإلا فليسَ اسمه في ديوان الرّجال.

ويقول عالمٌ آخر: **" من عمِلَ عملاً من بلا اتّباع سنّة فباطِلٌ عمله "**، أن تقول: فلان قال كذا، من

فلان ؟ هل فلانٌ معصوم ؟ هو غير معْصوم إن كنتَ ناقِلاً فالصِّحَّة، وإن كنتَ مدّعِيًا فالدليل ! ! هذا الذي لا يقتفي أثر النبي عليه الصلاة والسلام فهو في باطلٍ، وفي ضلال مبين.

6 ـ حسنُ الأدب والهيبة مع الله تعالى وبالاتباع لرسول الله:

ويقول بعض العلماء: **" الصُّحْبة مع الله عز وجل بحُسْن الأدَب، ودوام الهَيْبة والمراقبة "**، فأنت مع الله بحُسْن الأدب، ودوام الهَيبة والمراقبة، وأنت مع رسول الله باتِّباع سنَّتِهِ، وأنت مع الأولياء بالاحْتِرام والخِدْمة، وأنت مع الأهل بحُسْن الخُلق، وأنت مع إخوتِكَ في الله بدَوامِ البِشْر ما لم يكن إثماً، وأنت مع الجُهّال بالدُّعاء لهم، وأنت مع النّفْس بالمُخالفة، وأنت مع الشّيْطان بالعَدواة، وخالف النّفس والشيطان واعْصِهِما !

ويقول عالمٌ آخر: **" مَنْ رأيْتُموهُ يدّعِي مع الله عز وجل حالة تُخْرِجُه عن حدّ العِلْم الشّرْعي فلا تقربوا منه "**، الله عز وجل جَعَلَ بين أيدينا ميزانًا دقيقًا، لو تجاهلنا هذا الميزان وأهْمَلْناه، وعطّلناه، لضاعَ الإسلام، يجب أن يبْقى الإسلام كما بدأ، وضمان بقائِهِ أن يمْشِيَ المسلمُ على خطٍّ صحيح، وعلى منهَج قويم وعلى مِقْياسٍ دقيق، والمِقياس الدقيق هو الكتاب والسنّة، وكلّ باطنٍ يُخالف ظاهر الكتاب والسنّة فهو باطل.

وابن عطاء الله السّكّنْدري يقول: **" من ألْزَمَ نفْسهُ آداب السنّة نوّر الله قلبهُ بِنُور المعرفة"**، ولا مقام أشْرف من مقام متابعة الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام ؛ في حِلِه وترْحاله، وفي زواجه، وفي غضَبِهِ ورضاه، وفي رحمته وتواضعه وكرَمِهِ، في إقباله على الناس وفي محبّتِهم له، وفي حَضَرِه، وفي شَجاعَتِهِ، ولا مقامَ لِبَني البشر أشْرف من مقام مُتابعة الحبيب عليه الصلاة والسلام ؛ في أوامِرِهِ ونواهِيه وأفعاله وأخلاقه وأقواله وإقراره.

7 ـ معرفة طريق الحق وسلوك جادتها:

من علِمَ طريق الحق سَهُل عليه سُلوكهُ، فالطريق إلى الله طريق مُسْعِدَة، ولكن أوّل شيءٍ فيها أن تعرف معالِمَها، كيف تمشي فيها وأنت لا تعرفها ؟ لابد أن تعرف أنّ هذا العمل يوصِلُ إلى الله، وأنّ معرفة كلام الله تعالى توصِلُ إليه، وأنّ قِراءة سيرة النبي عليه الصلاة والسلام تَجعلُكَ أمام المَثَل الأعلى الذي ينْبغي أن تقْتَدِيَ به، وأنّ إنْفاق المال يُقَرّب إلى الله تعالى، وأنّ غضّ البصر عن محارِمِ الله يُؤدّي إلى رضاء الله عز وجل، فلا يمكن أن تسْلُكَ الطريق قبل أن تعرفهُ، لذلك معرفة الطريق إلى الله فرْضُ عَين على كلّ إنسان، كيف تمشي في الطريق وأنت لا تعرفه، يجب أن تعرف الطريق إلى الله،

من علِمَ طريق الحق سَهُل عليه سُلوكهُ:

((وصدَقة السّرّ تُطفِئُ غضَبَ الربّ))

(الجامع الصغير عن أبي سعيد بسند صحيح)

((وباكِروا في الصّدَقة فإنّ البلاء لا يتخطّاها))

(الجامع الصغير عن أنس بسند ضعيف)

وفي الحديث:

((اتّق الله حيثما كنت، وأتْبِع السيّئة الحسنة تمْحُها، وخالق الناس بخُلق حسن))

(الترمذي عن أبي ذر)

فإذا عرفْتَ كيف تُعالجُ نفسَك ؟ وكيف تُقبِلُ على ربّك ؟ وكيف تتلافى أخطاءَكَ ؟ وكيف تتُوبُ من ذنْبك ؟ كيف يرْضى الله عنك ؟ وكيف لا يرْضى ؟ هذا شيءٌ مهمّ جدًّا ؛ هو فرْضٌ عَيْن، وشيءٌ خطير ومصيريّ في حياة الإنسان: مَنْ علِمَ طريق الحق سَهُل عليه السُلوك فيه، ولا دليل على الطريق إلى الله إلا متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلّم في أحواله وأقواله وأفعاله.

8 - ضوابط حال الإنسان:

الآن هذه الأحوال التي يُحِسُّها الإنسان، التي يشْعر بها، يجب أن يكون لها ضابط، وإلا قد تودي بصَاحِبها إلى الهلاك، فيقول أحد العلماء: أفضَلُ الأحوال ما قارنَهُ العِلم، فالحال من دون العِلم كالمُحَرّك من دون مِقْوَد ! فهذه المرْكَبة مصيرها إلى الهلاك، فلا بدّ أن يكون التَوْجيهُ صحيحًا حتَى نسْتفيد من دَفع الحال، الحال يدفع، والعِلم يُوَجِّه، فإذا كان الدافِعُ قويًّا، والتَوجيه مُخِلاً، أوْدى بصاحِبه إلى الهَلاك، إذا كان التوجيه صائباً، وليس هناك دافِع، بَقِيَ الإنسان في أرضِه، فلا بدّ من دافِع، ولا بدّ مُوَجِّه، العِلْم هو المُوَجِّه، والحال هو الدافع.

ويقول بعض العلماء: كلّ حالٍ لا يكون عن نتيجة عِلْمٍ فإنّ ضَرَرَهُ على صاحِبه أكثرُ مِن نَفْعِهِ، فالحال الذي لا يكون نتيجة معرفةٍ بالله، ونتيجة اسْتِقامة على أمره، فالحال نتيجة طبيعيّة لما بُذِلَ في سبيل الله تعالى، فإذا لم يكن الحال نتيجة طبيعيّة وتاجًا تُتَوّج به الأعمال الصالحة، والانضِباط التامّ فإنّ هذا الحال خَطِرٌ على صاحِبه.

والعِلم الحقيقيّ ما قام به الدليل، والعِلْم النافِع ما جاء به النبي الكريم صلى الله عليه وسلّم، وعِلْمٌ من دون دليل لا قيمة له، وهذا هَذَيان وتخْريف، فإلقاء الكلام على عواهِنِه، وهو كلام غير مسؤول، وكلامٌ لا ينفعُ، ولا يُجْدي، عِلْمٌ من دون دليل، وما كلّ عِلْمٍ بنافِعٍ، والعِلْم النافِع ما جاءنا عن النبي عليه الصلاة والسلام، والعلم ما قام عليه الدليل، والعِلْم النافِع ما جاءنا عن النبي عليه الصلاة والسلام.

ويقول بعضهم: العِلم خير من الحال، فالحال فُقاعَة صابون تأتي وتذهب ولا ضابطَ لها، ولكنّ العِلْم حِصْنٌ حصين.

يا بنيّ: قال الإمام علي كرّم الله وجْهه: **<< العِلْم خير من المال، لأنّ العلم يحْرُسك، وأنت تحرُسُ المال، والمال تنْقصُه النّفقة، والعِلم يزْكو على الإنفاق، يا كُمَيل: ماتَ خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقِيَ الدّهر، أعْيانهم مفقودة، وأمْثالهم في القلوب موجودة >>.**

فالعِلْم خير من الحال، والعلم حاكم، والحال محْكومٌ عليه، والعِلم قائِد، والحال مَقود، العلم هادٍ، والحال تابِع، والعلم آمر وناهٍ، والحال منقِدٌ قابل، الحال سيْف إن لم يصْحَبْهُ العِلم فهُوَ مِخراقٌ في يد لاعِب، فالحال من دون عِلم خطير جدًّا، ومِخْراقٌ في يد لاعِب، فهؤلاء الذين لا يعْتدُون بالعِلم، ولا يتأثّرون به، ولا يُقيمون له وزْنًا ؛ هؤلاء خطيرون في أقوالهم وأفعالهم، والحال مرْكب لا يُجارى، ومركب سريع، فإن لم يصْحَبْهُ عِلمٌ ألقى صاحبَهُ في المهالك.

والحال كالمال يُؤتاهُ البرّ والفاجر، فإن لم يصْحَبْهُ نور العِلم كان وبالاً على صاحبه، ما أريد مِن كلّ هذه الأقوال إلا أن أُرسّخَ فِكرةً أساسيّة: أنّ أعْدى أعداء الإنسان هو الجَهل، الذي يُردي الإنسان، ويهْلِكُهُ، ويُشْقيه هو جهلهُ، لذا طلب العِلم فريضة على كلّ مسلِم أيْ على كلّ شَخصٍ مسْلمٍ ذكرًا كان أو أنثى، وعلى كلّ من اتّصَف بالإسلام ذُكورًا وإناثًا.

نَفْعُ الحال لا يتَعَدّى صاحِبَهُ، النبي عليه الصلاة والسلام رأى إنسانًا يُصَلّي في النّهار، فسأله عليه الصلاة والسلام: **من يُطْعِمُكَ** ؟ قال: أخي، قال:

((أخوك أعبد منك !))

لأنّ الحال ينفعُ صاحبَهُ فقط، لكنّه جاءهُ رجل يشْكو شريكَهُ فقال عليه الصلاة والسلام:

((لعلّكَ تُرْزَقُ به !))

لأنّ شريكهُ كان في طلب العِلم، فالذي يطلب العِلم يطلبُه لِمَجْموع البشر، بين أن تنتفِعَ وحدَك وبين أن تُصبحَ أمّة، وبين أن تكون فرْدًا وحيدًا بعِبادتك، وبين أن تُصبحَ أمّة بعِلْمِكَ، لذلك طلب العِلْم فريضة على كلّ مسلم، فَنَفْعُ الحال لا يتعدّى صاحبهُ، ونفْعُ العِلم كالغَيْث يقَعُ على التِّلال والوهاد، يقَعُ على الآكام وبطون الأوْدِيَة، وعلى منابت الشّجر، يُغيث كلّ شيء، العِلم هادٍ، والحال الصحيح مهْتدًى به، وهو تَرِكَة الأنبياء، وإنّ الأنبياء لم يُوَرِثوا دِرْهمًا ولا دينارًا، ولكن ورّثُوا هذا العِلْم، فمن أخذ منه بنَصيب فقد أخذ بحَظٍ وافر، واللهُ عز وجل أعطى الملك لِمَن لا يحِبّه وأعطى المال لِمَن لا يحِبّه، قال تعالى:

(إنّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنْ الْكُنُوزِ مَا إنّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إنّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

[سورة القصص]

ولكنّ الذي يُحِبُّهُ ماذا أعطاهُ ؟ أعطاه الحكمة والعلم، قال تعالى:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

[سورة القصص]

9 - العلم أعظم الضوابط لحال الإنسان:

العلم حياة القلوب، نور البصائر، وشفاء الصُّدور، ورياض العقول، ولذّة الأرواح، وأُنْس المسْتَوْحِشِين، ودليل المُتَحَيّرين، وهو الميزان الذي توزَنُ به الأقوال والأعمال والأفعال، وهو الحاكم المفرّق بين الشكّ واليقين، والغيّ والرّشاد، والهدى والضّلال، به يُعْرف الله عز وجل، وبهِ يُعْبَد، وبهُ يُذكر، ويُحمَدُ، ويُمجّد، كلّ هذا بالعِلم، لذلك حُضور مَجلسُ عِلم حَتْمٌ واجب على كلّ مُسلِم، لا أحد يتعلّم من دون مجلسِ عِلم ؟ لا بدّ مِن مَوْرِدٍ لك، لا بدّ من وقتٍ تُخَصّصه لِطَلب العِلم، برَبّكم هل في الأرض كلّها إنسان أصبحَ يحْمِلُ دكتوراه من دون أن يذْهب إلى الجامعة ؟ ومن دون أن يفْتَحَ كِتابًا ؟ ومن دون أن يقرأ ؟ ومن دون أن يقتَطِعَ من وقْتِهِ الثّمين ما يطلب به العلم ؟ هذا الذي يتمنّى أن ينال كلّ شيءٍ من دون شيء لا ينال شيئًا ! هذا إنسان حالم، وإنسانٌ تائِه وإنسان ليس ذكِيًّا، وكلّ شيء له ثَمَن، وكلّ درجة لها جُهْد، بِالعلم اهتَدى إلى الله السالكون، وبالعلم وصَلَ إليه الواصِلون، بالعِلم دخَل عليه القاصِدون، بالعلم تُعْرف الشرائِع والأحكام، بالعِلم يتميَز الحلال من الحرام، وبالعِلم توصَل الأرحام، العلم إمام، والعمل مأموم، وهو قائِد والعمل تابع، وهو الصاحب في الغربة، كما قال عليه الصلاة والسلام والمحدّث في الخَلْوة والأنيس في الوحشة، والكاشف عن الشّبهة، وهو الغِنَى الذي لا فقْر بعده، ولا غنى دونه. فهؤلاء الأقوام قوم عادٍ وثمود، وأصحاب الأيْكة، هؤلاء دمّرهم الله عز وجل بجَهلهم، مُذاكرة العِلم تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبُهُ قُرْبة إلى الله عز وجل، وبذْلُهُ صدَقَة، ومُدارسته تعْدِل الصّيام والقِيام، والحاجة إليه أعظم من الحاجة إلى الطّعام والشّراب.

الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى قال: **" الناس إلى العِلم أحْوَجُ منهم إلى الطّعام والشّراب، لأنّ الرّجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرّةً أو مرّتين، وحاجتُه إلى العِلم بعَدد أنْفاسِهِ "**.

والإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول: **" طلب العِلم أفضلُ من صلاة النافلة "**.

والإمام مالك كان عنده رجل اسمه ابن وهب فقال ابن وهب: كنتُ بين يدي مالك فوضَعْتُ ألواحي، وقُمْتُ أُصَلّي، فقال الإمام مالك: **" ما الذي قُمْتَ إليه ؟ إنّ الذي قمت إليه ليس بأفضل من الذي قمتَ عنه ! "** هذا كلام الإمام مالك.

والله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم استدلّ بأهل العِلم على أجلّ مَشْهود ؛ ألا وهو وحدانِيّتُهُ، قال تعالى:

(شَهِدَ اللّهُ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة آل عمران]

الله سبحانه وتعالى لا يسْتَشْهِدُ إلا بِشُهودٍ عُدول، وهذه شهادة من الله عز وجل لأولي العلم على أنّهم عُدول، ولأنّ شهادتهم قرَنَها مع شهادته، ومع شهادة ملائكته، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((يحمل هذا العلم من كل خَلَفٍ عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وتأويل المفسدين))

أنت بين مُغالٍ وبين مُبْطِل، قال تعالى:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللّهِ إِلا الْحَقّ)

[سورة النِساء]

وحَسْبُ من يطلب العِلم شرفًا أنّ النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((وَإِنّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا، وَرّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍ وَافِرٍ))

[رواه أبو داود]

كلّ هذه الأقوال، وهذه الآيات وهذه الأحاديث من أجْل أن يكون طلب العلم شُغْلكم الشاغل، والشيء الأوّل في حياتكم، لأنّ أساس المصائب والنّكبات، والشّقاء هو الجهل، والعالِم كما قال عليه الصلاة والسلام يسْتغفر له من في السماوات والأرض حتى الحيتان في البحر، وحتّى النّمل في الجحر، وإنّ الله وملائكته يُصَلّون على مُعَلِمي الناس الخير، وحسْبُ النبي عليه الصلاة والسلام أنّه قد أُمِرَ مِن قِبَل ربّ العِزّة أنْ يزداد عِلْمًا، قال تعالى:

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا)

[سورة طه]

فهذه الأقوال والأحاديث والآيات أردْتُ من خلالها أنّ هؤلاء الأقوام الذين دُمِّروا وصُعِقُوا، وأهْلكهم الله عز وجل، إنّما أهْلكوا بِسَبب تكذيبهم، وما تكذيبهم إلا بِسَبب جَهلهم، وما جهلهم إلا أكبر أعدائهم. أمّا الآياتُ الكريمة التي ختمَ الله بها هذه السورة الكريمة، فهي تبدأ من قول ربّنا سبحانه وتعالى في آخر سورة الشّعراء:

(وَإِنّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الشعراء]

وَإِنَّه لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِينَ

فالتنزيل إذاً هو هذا القرآن، وهذا الدستور، وهذا المنهج، وهذه القواعد التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، قال تعالى:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة]

وقال تعالى:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)

[سورة طه]

قال تعالى:

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الشعراء]

عندنا في اللّغة الإنزال، وعندنا التّنزيل، الإنزال يعني أنّ الشيء الذي نزَلَ، نزَلَ دُفْعةً واحدة، وأما التّنزيل فيعني أنّ الشيء الذي نَزَلَ نزَلَ بالتَدْريج، قال تعالى:

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الشعراء]

نزل هذا القرآن بحَسب الوقائِع، وبحَسب المناسبات والظُّروف والحِكَم البالغة، فجاء تحريم الخمر بالتَّدريج، وجاءتْ الأحكام الشّرعِيّة عَقِبَ الآيات الكَوْنِيَة، حِكْمةٌ ما بعدها حِكمة، ورحمة ما بعدها رحمة، قال تعالى:

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة الشعراء)

ثمّ يقول تعالى:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ)

(سورة الشعراء)

جبريل الروح الأمين:

الرُّوح الأمين هو ملك الوحي سيّدنا جبريل، لماذا اخْتار الله من بين صِفاته كلّها أنّه أمين، لأنّ هذا تشْريع الله عز وجل، ولو أنّ جبريل زاد أو أنْقصَ، أو بدّل، أو غيّر، أو حرّف بدافِع النِسْيان، أو بدافِع العَمْد، أو بِدافِعِ الخطأ، صار التَّشْويه في الشّرْع، لذلك أخصّ صِفات سيّدنا جبريل أنْ يكون أميناً، حتَّى سُمِيَ أمينَ وحي السّماءِ، فهذا الذي نزل على النبي عليه الصلاة والسلام هوَ هو مِن دون زيادة، ومن

دون نقصان، ولا زَيْف، ولا تعديل، أو تبْديل، لا بدافِعٍ بريء، ولا عن نِسْيانٍ، ولا عن خطأٍ، قال تعالى:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ)

(سورة الشعراء)

لماذا نزل القرآن ؟

ولكنّ الشيء الذي يَلفتُ النَظر لماذا نزل ؟ مع أنّ الله تعالى في كلّ مكان ؟
ربّنا سبحانه وتعالى وصَفَ نفْسهُ بأنّه العليّ العظيم علو مكانة، والكبير المُتعال، ووصف نفسه بأنّه رفيع الدّرجات، وبأنه القاهر فوق عِباده، فكُلّ شيءٍ يخرجُ من عنده إلى موطن الخلق والتّقدير لا بدّ أن ينزل، الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

(سورة الأعراف)

وقال تعالى:

(وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)

(سورة الزمر)

وقال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

[سورة الحديد]

قال تعالى:

(مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

[سورة البقرة]

قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

[سورة الحجر]

لأنّه عليّ عظيم، ولأنه رفيع الدّرجات، ولأنّه قاهِرٌ فوق عِباده، ولأنَه الكبير المُتعال، فكُلّ شيء انتقل من عند الله إلى الخلق والتّقدير لا بد أن ينزل اسْتِنادًا إلى هذه الآية، وهذا هو معنى قول الله عز وجل:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ)

[سورة الشعراء]

ثمَ يقول تعالى:

(عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ)

[سورة الشعراء]

معاني قلب النبي العدنان الذي نزل عليه القرآن:

وأما نُزول هذا القرآن العظيم على قلب النبي عليه الصلاة والسلام، ففي هذا معانٍ كثيرة:

1 - قلب الإدراك:

من هذه المعاني: أنّ القلب المقصود في هذه الآية هو قلْب الإدراك والشّعور، فليس المقصود المِضخّة العضليّة التي تضخّ الدّم إلى أطراف الجِسم، فإن المضخة قلب الجسد، ولكن المقصود بهذا القلب قلبُ النّفس، فالله سبحانه وتعالى يقول كما في الأثر:

((عبدي طهّرت منظر الخلق سِنين أفلا طهّرْتَ منظري ساعة ؟))

فالقلب هو الإدراك والشّعور، موطن الإدراك والشّعور في النَفس، والدليل قوله تعالى:

(لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ)

(سورة الأعراف)

والدليل قوله تعالى:

(فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

(سورة الزمر)

2 - القلب له المكان الأول في الإنسان:

هناك كلمة عن القلب لا بد أن أُسْمِعَكم إيّاها ؛ القلب في الإنسان له المكان الأوّل، وعليه المعوّل في كل الأمور، ولا عجَب فهو القائد، والجوارح جُنود له وخَدَم، وهو الآمر الناهي، والأعضاء أتباع له وحشَم، وحسْبُكَ فيه قول الله تعالى:

(إنّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)

(سورة ق)

3 - القلب حقيقة الإنسان:

والقلب حقيقة الإنسان، ومن عجيب أمر الله تعالى فيه أنّه جعَلَ بَقاء قلب الجسد وصِحّته وانتِظام عمله حياةَ الجسد ونشاطه، وجَعَل بِطَهارة قلب النّفس وسلامته، حياةَ الروح وازْدِهارها، والقلب هو الجانب المُدْرِكُ من الإنسان، وهو المخاطب، وهو المُطالب، وهو المُعاتَب، وهو محلّ العِلم والتّقْوى، والإخلاص والذّكْرى والحبّ والبغْض، والوساوس والخَطَرات، وهو موضِعُ الإيمان والكُفْر والإنابة والإصرار والطمأنينة والاضْطراب، والقلب هو العالِم بالله، والمتقرّب إلى الله، وهو المقبول عند الله إذا سَلِم من غير الله، وهو المحجوب عن الله إذا استغرق بغير الله، وهو الذي يسعد بالقُرب من الله، ويشْقى بالبُعد عنه القلب منظر الرب، ولا يُفلحُ الإنسان ولا يفوز إلا إذا زكّاه، ولا يخيب ولا يشْقى إلا إذا دنّسهُ ودسّاه، لذلك سيّدنا عمر رضي الله عنه كان يقول: **" تعاهَد قلبَك "**، والله سبحانه وتعالى يقول:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلّا مَنْ أَتَى اللّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89))

[سورة الشعراء]

قال تعالى:

(نَزَلَ بِهِ الرّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيّ مُبِينٍ(195))

[سورة الشعراء]

الصحابة الكرام كانوا حول النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا نزل الوحي لا يرَونَ شيئًا، النبي عليه الصلاة والسلام لم يتلق الوحي عن طريق الحواس، فالإنزال تمّ مباشرة على قلبه صلى الله عليه وسلم، لو أنّ النبي عليه الصلاة والسلام تلقّى الوحي عن طريق السمع والبصر لسَمِع سيّدنا جبريلَ أصحابُه الذين هم حوله، أو لرأوْهُ، ولكنّ هذا الإنزال تمّ على القلب مباشرةً، قال تعالى:

(نَزَلَ بِهِ الرّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيّ مُبِينٍ(195))

[سورة الشعراء]

4 - القلب هو الجانب الملائكي:

قال بعض العلماء: القلب هو الجانب الملائكي في النبي عليه الصلاة والسلام، يتلقّى به الحق، واللِّسان هو الجانب البشري من النبي وهو الذي يُلقي به الحق، يتلقّى بقلبه، ويُلْقي بلِسانه، وبعضهم قال: نزل به الروح الأمين على قلبك، أي لأنّه طاهر ومُقدّس نزل على قلبه صلى الله عليه وسلّم، لذلك سيّدنا جبريل

جاء وصْفُهُ بِكَلِمَتَين ؛ مرّةً روح القدس، ومرّةً الروح الأمين، وفي كِلا المعنيَيْن الأمانة والقُدْسِيّة، وهما الأداء والانْضِباط والحفظ الثّبات.

5 – القلبُ أعجَب خَلْق الله:

كلمة عن القلب أنهي بها الدَرس، لعلّك إن فتّشْتَ عن أعْجَب ما خلق الله تعالى في السماء والأرض، لم تَجِد أعْجَب، ولا أرْوَعَ، ولا أدَقّ، ولا أجْمَلَ من قلب الإنسان، تصلحُ أوتارهُ فيَفيضُ رحمةً، وشفقةً، وحُبّا، وحنانًا ومعانٍ لِطافًا، وشُعورًا رقيقًا، حتّى يتجاوزَ في سُمُوّه الملائكة المُقرّبين وتفْسُدُ أوتارهُ، فيَنْضَحَ قسْوَةً، ولؤْمًا، وسوءً حتّى يهْوي إلى أسفل السافلين، حوى على دِقّتِهِ كُنْه العالم، فما أدقّهُ، وما أجلّه، وما أصغرهُ وأعظمه، يكبرُ القلب ولا نرى كِبره، فيتضاءلُ أمامه كلّ كبير، ويصْغر ولا نرى صغَره فيتعاظم عليه كلّ حقير ! اتّحَدَ شَكل القلب واخْتلفَتْ معانيه، فقلبٌ كالجَوهر الكريم صفا لونُه، وراق ماؤُه، وقلبٌ كالصّخر قويّ متين، ينفَعُ ولا يلْمعُ، وقلبُ هواء خفّ وزْنهُ وحال لونه، يموت القلب، لِمَ قال ربّنا عز وجل:

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

[سورة فاطر]

فالكفار قلوبهم ميّتة، يموت القلب ثمّ يحيا، ويحيا ثمّ يموت، ويرْتَفِعُ إلى الأوْج، ويهبط إلى الحضيض، وبينما هو يُسامي النُّجوم رفْعة، إذا هو يلامس القاع ضِعَة.

وجوب سَعَة صدر الداعي إلى الله:

يا أيّها الإخوة الأكارم، إنّ أعظم بُنات العالم قد امْتازوا بِكِبَرِ القلب، فالذي يدْعو إلى الله يجب أن يكون قلبهُ كبيرًا، يتّسِعُ لكل شيء، يتّسعُ لأخطاء الناس وتجاوُزهم، وتطاوُلهم، لأنّ الله سبحانه وتعالى شرّفَهُ بهذه الدّعْوَة، ومن كان قلبهُ صغيرًا لا يتّسِعُ إلى الخلق فهذا ليس أهلاً أن يدْعو إلى الحق، فالأنبياء العِظام تميّزوا بِكبر قلوبهم، لذلك لِتَبقَ هذه الآية تَرِنُّ في أسماعِكم، قال تعالى:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ)

(سورة الشعراء)

هذا القرآن الكريم كما أراده الله هو بين أيدينا، لأنَ الذي نقلهُ نقله بأمانة لا حدود لها، سمّاهُ الله الأمين، ونزل به الروح الأمين على القلب مباشرةً، فلا سمْعَ ولا بصَرَ، قال تعالى:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ(195))

[سورة الشعراء]

وإن شاء الله تعالى في الدرس القادم نتحدّث عن الإنذار الذي هو صفة النبي عليه الصلاة والسلام، ونتحدّث عن هذا اللِّسان العربيّ المبين الذي شرّفنا الله به، فهناك أُمَمٌ كثيرة تغبطُنا على هذه اللغة التي نتكلّم بها إنَها لغة القرآن، لذلك قال سيدنا عمر رضي الله عنه:

((تعلّموا العربيّة فإنّها من الدِّين))

(ورد في الأثر)

إنّ جزْءًا من دينِكَ أن تتعلّم اللغة العربيّة، لأنّك بها تفْهم كلامه، وإذا فَهِمْت كلامه صَلُح عملُك، وإذا صلحَ عملك سَعِدْت في الدنيا والآخرة، ولذلك يكون تعلّم اللغة العربيّة شرطًا أساسيًا لتعلّم كتاب الله بل هو شرطٌ أساسي.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (14-20): تفسير الآيات 194 - 202
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 20-10-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الرابع عشر من سورة الشّعراء، في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ(194))

(سورة الشعراء)

من صفات النبي عليه الصلاة والسلام الإنذارُ:

كلمة (مُنذِرين) جَمْعٌ مفردها منذر، والمنذر اسم فاعل مِن أنْذَرَ، وأنْذَرَ من الإنذار، والإنذار يعني أنّ هناك خطرًا كامنًا، أين الخطر ؟ عند الموت، وحينما يقوم الناس لربّ العالمين، الخطر يوم الدِّين، والخطر يوم الدَّيْنونة، ويوم الجزاء، ويوم الفصْل، والناسُ نِيامٌ كما قال عليه الصلاة والسلام إذا ماتوا انتبَهُوا، والإنسان أحيانًا يهيمُ على وجههِ، ويسير وتقودُهُ شهوته ويقوده هواه، وتقودُهُ نزواتُه، فجأةً يدفَعُ الثَّمَن باهِظًا، والنبي عليه الصلاة والسلام كما وصفَ نفسهُ بأنَّه رحمةٌ مُهْداة، أنت حينما ترى شاخِصَةَ على الطريق تُحَذِّرُك مِن مُنْحَدَرٍ خَطِرٍ، ألَيْسَت هذه الشاخصة رحمةٌ بك، أنت حينما ترى تحْذيرًا كُتِبَ بالعربيّة على عمود الكهرباء ذي التَّوَتُّر العالي، ألا ترى في هذا التَّحْذير رحمةٌ لك ؟ أنت حينما ترى لوحةً كُتِب عليها حقل ألغام، أليْسَ في هذه اللَّوْحة تَحذيرٌ لك من هذا الخطر المُميت، فكَلِمة إنذار تعني أنّ هناك خطرًا كامنًا في المستقبل وما جاء النبي عليه الصلاة والسلام إلا لِيُحذِر، ويُنْذِر الأمّة مِن مغبّة هذا اليوم، قال تعالى:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (10))

(سورة المدثر)

والعاقل هو الذي يأخذ الحيطة قبل أن يقَعَ في موقفٍ لا يستطيعُ أن يفْعل فيه شيئًا، أُعَبِّر عن هذا المعنى بكَلمة: بعد فوات الأوان، فالعاقل هو الذي يحتاط للأمور قبل وُقوعها، والأقلّ من هذا عقلاً هو الذي يحتاط للأمور مع وُقوعها والعاجز هو الذي لا يحتاط للأمور لا قبل وُقوعها، ولا بعد وُقوعها، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

(رواه أحمد)

لذلك أفْرَدَ ربّنا سبحانه وتعالى في هذه الآية صِفَة النبي عليه الصلاة والسلام بأنّه من المنذرين، وما رسالات الله عز وجل إلى عباده إلا نوعٌ من الإنذار، قال تعالى:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

(سورة البقرة)

وقال تعالى:

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)

(سورة طه)

لأنّك مِن بني البشر، ولأنّك إنسانٌ حُمِّلْتَ الأمانة، وأمانتك نفسُكَ التي بين جَنْبيْك ؛ هذه الأمانة إما أن ترقى بها إلى أعلى عِلِيِّين، وإما أن يهْوي بها بعض الناس إلى أسفل السافلين، ما دام هناك أمانة فهذا يعني أنّ هناك مسؤوليّة، وما دام هناك حريّة فهناك مسؤوليّة، وما دام هناك تَكليف فهناك مسؤوليّة، وما دام هناك ابتِلاء فهناك مسؤوليّة، وما دام هناك أمر ونهي فهناك مسؤوليّة، فالمسؤوليّة مِن لوازم الأمر والنّهي، ومن لوازم التّكليف، ومن لوازم الابتِلاء، ومن لوازم الأمانة، والمسؤوليّة شيءٌ خطير جدًّا ؛ لماذا ؟ لأنّ الإنسان بعد أن يموت لا يستطيعُ أن يعود! قال تعالى:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

(سورة المؤمنون)

في بعض الآيات وُصِفَ النبي عليه الصلاة والسلام بأنّه بشير ونذير، ولكن لأنّ الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أفردَ صِفة النبي بأنّه نذير فالإنذار مِن ضِمْنِهِ التّبشير، الإنذار إن فعلْتَ كذا وكذا نَجَوْتَ، وإن لم تفْعَل هلكْتَ، والإنذار أوْسَعُ مِن التّبشير، قال تعالى:

(لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195))

(سورة الشعراء)

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ

كلمة عربيّ نِسْبةٌ إلى كلمة عرب، وكلمة عرب اسم مأخوذ مِن كلمة عَبَرَ، ومعنى عَبَرَ انْتَقَلَ، وفي اللّغة العربيّة أفعال يُمْكن أن تُبدّل بعض حروفها، ويبقى المعنى هُو هو، كأن تقول: جَبَذَ وجذَبَ، أمْعَنَ وأنعمَ، وعربَ وعبَرَ، فاللّغة العربيّة تنقل لك المعنى مِن نفس قائلها إلى أُذن السامع، وربّنا سبحانه وتعالى لأنّه اخْتار هذه اللغة العربيّة لغة لِكلامه فهو شرفٌ عظيم، قال تعالى:

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

(سورة الشعراء)

وقال تعالى:

(إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

(سورة الزخرف)

الله عز وجل في آيتين وصَفَ كلامه بأنّه عربيّ، لذلك لا بدّ أن تنطويَ هذه اللّغة على خصائص تَجعلها من أرقى اللّغات الإنسانيّة، فهذه اللّغة العربية التي حبانا الله بها لغة لها خصائص كثيرة، طبعًا هذا الذي يتكلّم العربيّة، هذه نِعْمة لا يعرفها إلا مَنْ فقَدَها، لِسانُكَ عربيّ، وكلام ربّ العالمين باللّغة العربيّة، تعلُّمُ العربيّة يحتاج إلى جهد كبير، ولكنّ هذا الجهْد على أهل العربيّة يسير، ومن هنا قال سيدنا عمر رضي الله عنه: **<< تَعَلّموا العربيّة فإنّها من الدِّين >>**، أيْ جزءٌ من دينك أن تُتْقن العربيّة، لأنّ في إتقان اللّغة العربيّة قُدرةً على فهْم كلام الله عز وجل، وإذا فهِمْتَ كلامه ففيه الحلال والحرام، وفيه الوعْد والوعيد، وفيه التّبشير والتّحذير، وفيه الحُكْم والقصّة والآية.

سَعَةَ اللغة العربية في التعبير والإيضاح:

شيءٌ مُهمّ في هذه اللّغة التي حبانا الله بها أنّ هذه اللّغة فيها طاقة على التّعبير واسِعَة، عبّرَ عنها علماء فقه اللّغة: " اتِّساع العربيّة في التّعبير "، وقد ذكرتُ هذا المثل في درس سابق، حينما كنتُ أُفسِّر سورة يوسف. فالإنسان قد ينظر إلى الشيء، ومع هذا النّظر خَوْف، أنت في هذا لا تقول: نَظَرَ، ولكن تقول شَخَصَ، فشَخَصَ نظرٌ مع الخوف، وقد تنظر إلى الشيء وأنت تحب هذا الشيء، فالنّظر مع المحبّة لا يُقال له نظَر، يُقال حدّجَ، وقد قيل: " حدِّث القوم ما حدّجوك بأبصارهم "، والنّظر إلى الشيء مع الاسْتِمْتاع به، لا يُقال له نَظَر، ولكن يُقال له رنا، رنَوْتُ إلى الشيء، أي أدَمْتُ النّظَر إليه مع الاستِمتاع به، فصار عندنا نظرَ، وشخّص، وحدّج، ورنا، والنَظر إلى الشيء مع الدَهْشة يُقال له حَمْلقَ، أي نَظَرَ بحِمْلاق العَين، والنّظر إلى الشيء في ضَوءٍ خافت يُقال له: بَحْلقَ، اتّسَعَتْ حدقة العَين، وإذا نَظَرْتَ إلى الشيء، ثمّ اختفى هذا الشيء: لا تقول نظرْتُ إليه بل تقول: لاح هذا الشيء، لاحَ نَجْمٌ في الأفق، ولاحَتْ طائرة بين الغيوم، وإذا نظرْتَ إلى الشيء، وتذكّرْت أنّ الله سبحانه وتعالى أمركَ أن تغضّ عنه البصر، لا تقول: لاحَ لي، ولكن تقول: لَمَحْتُ، لَمَحَ إذا نظرْتَ، ثمّ أعْرضْتَ، ولاحَ إذا ظَهَرَ الشيء ثمّ اختفى، وإذا نظرْتَ إلى الشيء ويداك عليه تتفحَصُهُ يُقال: اسْتَشَفّ، وإذا نظرْتَ إلى الشيء، وأنت تتطاول لِتَرى أبعادهُ يُقال: اسْتَشْرفَ، وإذا نظرْتَ إلى الشيء مع احْتِقارهِ يُقال: نظر إليه شَزَرًا، وإذا نظرْتَ إلى الشيء مع المسؤوليّة يُقال: شاهَدَ، ومنه الشاهد، وإذا كانت رؤيتُكَ لَيْسَتْ بصَرِيّة، بل هي قلبيّة يُقال: رأى، فشَتّان بين رأى، وبين شاهَدَ، وبين نظرَ شزَرًا وبين لمَحَ، وبين لاحَ، وبين شَخصَ، وبين حدّج، وبين اسْتَشفّ، وبين استشرف، فَمِن أولى صفات لغتنا العربيّة بِفَضل الله عز وجل أنّها

تمتَلِكُ قدرةً واسعة على التَّعبير، هذا عبَّرَ عنه بعض العلماء: **" اتِّساع العربيّة في التعبير ".** فَبَدَلَ أن تستخْدم كلمتين للتَّعبير عن معنى دقيق تستخدم كلمةً واحدة، لأنّ لكلّ حالة من هذه الحالات كلمة تُوافقها تمام الموافقة، وربنا عز وجل قال:

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

(سورة الشعراء)

اللغة العربية حروف لها معانٍ:

صفة أخرى ؛ أنّ في هذه اللّغة العربيّة حُروفٌ لها معانٍ، لو أخذت حرفاً من حروف هذه اللّغة تشعر أنّ هذا الحرف يوحِي لك ببعض المعاني، فَحَرفُ السِّين في أيّ كلمة يوحي إلى السامع أنّ الشيء فيه شيءٌ فيه أثرٌ نفسي داخِلِي، الحسّ والنّفس والأنس واللّمس والهمْس، فأية كلمة فيها حرف السِّين تشعر أنّ لهذه الكلمة معنى أساسه نفسي، همسَ في أذنه وأسرّ له، وأحسّ وأنِسَ، فالحرف وحده في هذه اللّغة التي حبانا الله بها له دلالته.

وحرف الغين مثلاً، هذا الحرف يعني الغَيْبوبة، غابَ وغرقَ، وغيبة، وحرف الراء ففيه معانٍ التّكرار مرّ، وجرّ، وكرّ بعضهم قال: إنّ كلمة غَرقَ ؛ حينما غاب هذا الشّخْص عن الأنظار وُضِعَتْ الغَين، وحينما تتالى سُقوطهُ وُضِعَتْ الراء، وحينما ارْتَطَمَ بالقاع وُضِعَتْ القاف، وفي حرف القاف تعبير عن الاصْطِدام، والصّوت طَرَقَ لصَقَ، إذًا الصِفة الأساسية الثانية في هذه اللّغة العربيّة التي اختارها الله لكَلامه أنّ هناك معاني متعلقة بِحُروفها وحدها.

من خصائص اللغة العربية: الاشتقاق:

شيء آخر، وهو أنّ الاشتقاق في اللّغة العربيّة شيءٌ لا يُصدّق، معنى الاشتقاق أنّ هناك أوزان، وزْن فاعِل على من قام بالفِعل، وهذا الوزن له صِيَغ مبالغة، وزن فاعول أي فاروق، وفعيل ككريم، ومِفعال كمِفضال، وفِعِلَ كَحَذِر، وهناك صِيَغ لِمُباغلة اسم الفاعل، وهذه كلّها قوالب يمكن أن يوضع فيها أيّ فِعل، وهناك أوزان وهناك بُنَى ـ جمع بنية ـ هذه الأوزان، وتلك البُنَى في اللغة العربية تستطيعُ بها أن تتَّسِعَ في إحداث المفردات اللازمة فهناك اسم الفاعل وهناك صِيَغُ مبالغة اسم الفاعل، وهناك الصِّفة المشبّهة باسم الفاعل، وهناك اسم المفعول، وهناك اسم المكان، وهناك اسم الزّمان، وهناك اسم الآلة، وهناك اسم التّفضيل، وهذه كلّها قوالب يمكن أن يوضَع فيها كلّ فِعَل ؛ كَتَبَ في الماضي يكتبُ في المضارع، واكْتُب في الأمر، وكاتب اسم فاعل، ومكتوب اسم مفعول، ومكتب اسم مكان، وآلة كاتبة

اسم آلة، وعرف يعرف اعرف وعارف ومعروف وتعريف وعرّاف هناك المصادر والأفعال الماضية والمضارعة والأمر، والمشتقات، وأسماء الفاعلين وأسماء المفعولين، واسم المكان والزمان من اسم التفضيل واسم الآلة، وهناك الأفعال والأسماء وأسماء الأفعال، إذاً ففي اللّغة العربيّة اشتقاقات.

مثال عن أهمية الاشتقاق وفائدته: كسب واكتسب:

لذلك قال ربّنا سبحانه وتعالى:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة)

فرْق كبير بين كسِبَ واكتَسَبَ، والعلماء قالوا أيّة زيادةٍ في المَبْنى دليل زيادةٍ في المعنى، فلماذا ربّنا قال: لها ما كسبَت ؟ ولماذا قال:

(وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

الكسب شيء، والاكتِساب شيءٌ آخر، الكَسْب أن تأخذ شيئًا عن بحث أو عن غير بحثٍ، وبعد تخطيط أو من دون تخطيط، وبصُعوبة أو من غير صُعوبة، كَسَبْتُ دِرْهَمًا، أما اكْتسَبَ أيْ جَعَلْتَ الكسْب مِهْنَةً لك، أي هناك جُهود جبّارة بُذِلَت حتى اكْتسَبْتَ هذا المال لأنّ الزّيادة في المَبنى دليل الزّيادة في المعنى، لذلك أيٌّ عمَلٍ صالح يُسَجّل لك:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ)

ولكنّ العمل السيّئ لا يُكْتبُ عليك إلا إذا أصْرَرْت عليه، ولم تتُبْ منه، وبالغْت فيه، وأعدْتَهُ مرّاتٍ كثيرة، ومن هنا هذه رحمة الله في خَلْقِهِ، قال تعالى:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)

(سورة البقرة)

من خصائص اللغة العربية: أسلوب الحصر والقصر:

هناك في اللُّغَة أشياء دقيقة جدًّا، لمّا قال ربّنا سبحانه وتعالى:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود)

مِن أجل أن تعْلَمَ أنّ هذه اللّغة دقيقة، وأنّ هذا الكلام كلام ربّ العالمين، هل هناك احْتِمالات أخرى لِصِياغَة هذا المعنى ؟

الاحْتِمال الأوّل:

أن قال: **" وما الدّواب إلا على الله رزقها ! "** هذا احتِمال، طيّب لو قلتُ هذا فماذا يفترق هذا القول عن قول الله عز وجل:

(وَمَا مِنْ دَابّةٍ)

الدّواب معرفة، وكلمة (الدّواب) ما دُمْتَ قد عرّفْتَها فالمَقصود دوابّك، أو دوابّ أهْلِكَ، أو دوابّ منطقتك، أما إذا نكّرْتَها، فهذا تنكير الشّمول أيْ أيّةُ دابّة في الأرض، فحينما جاءَت كلمة **(دابّة)**نَكِرة معنى ذلك أنّ هذا التّنكير يُفيد الشّمول ؛ الدّواب الأهليّة والوحْشِيَة، والصّغيرة والكبيرة، الطائرة وغير الطائرة، والنافعة والضارّة، هذه كلّها على الله رزقها.

الاحتمال الثاني:

الآن سوف نُغَيّر العِبارة: وما دابّة إلا على الله رزقها، حَذَفنا كلمة مِن ! فماذا تعني كلمة مِن ؟ لو دَخَلَ الأستاذ على الطّلاب وقال: ما طالبٌ إلا وسأعْطيهِ مُكافأةً في هذا الأسبوع، وأمامه خمسة وثلاثون طالبًا، إلا أنّ خمسة منهم كانوا غائِبين، فهو هنا يقصِد هؤلاء الطلاب، أما إذا أضاف كلمة مِنْ، فهذه لاسْتِغراق أفراد النّوع واحِدًا وَاحِدًا، وشمَلَ الطلاب الحاضرين والغائبين، فلمّا ربّنا قال: **" وما مِن دابّة"** صار معنى الكلام أنّه أيّة دابّة واحدةً وَاحدةً على الله رزقها، هنا اسْتفدنا من كلمة **"دابة "** لأنّها نكرة، واسْتفدنا من كلمة **" مِنْ "** لاستغراق أفراد النوع، ولكن لو ألْغَينا الاستثناء والنّفي وقلنا: الدواب على الله رزقها، فماذا يعني النّفي والاستثناء ؟

إذا قلنا مثلاً: شَوقي شاعِر ؛ معنى ذلك أنَه شاعر، وقد يكون كاتِبًا، وقد يكون تاجِرًا، وقد يكون موظّفًا، أما إذا قلت: ما شَوقي إلا شاعرٌ، فأنت قصَرْتَ شَوقي على الشّعر، وإذا قلتَ ما شاعرٌ إلا شَوقي: قصَرْتَ الشّعر على شوقي، وهذا توضيح، قال تعالى:

(وَمَا مِنْ دَابّةٍ فِي الأَرْضِ إلا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود)

لو قال الله: الدواب يرزقها الله ! لا يعني هذا أنَ الله فقط الذي يرزق، فقد يرزقها الله وقد يرزقها غير الله عز وجل ! ففي سورة الفاتحة لو تقول: نعبد إيّاك يا ربّ ! هذه غير قوله تعالى:

(إيّاكَ نَعْبُدُ)

(الفاتحة: 5)

الفرْق كبير بينهما إذا قلتَ: نعبدُ إيَاك، أيْ نعبُدك يا ربّ، وقد نعبُد غيرك، أما:

(إيّاكَ نَعْبُدُ)

فحينما قدّمنا المفعول به على الفِعل أصبْحَ المعنى معنى قصر ؛ لا نعبُد إلا إيّاك، فلذلك لو ربّنا عز وجل قال: الدواب على الله رزقها ! معنى ذلك أن الدّواب على الله رزقها وعلى غيرِهِ، أما لما قال:

(وَمَا مِنْ دَابّةٍ فِي الأَرْضِ إلا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا)

(سورة هود)

هذا هو القصر، وهذا فيه معنى الشّمول، ومعنى الاستغراق، ومعنى القصر، ولازلنا في الآية نفسها، لو ربنا عز وجل قال: وما من دابّة إلا الله يرزقها، ألْغَينا على: يرزقها أو لا يرزقها لا يوجد إلزام، أما كلمة على تُفيد الإلزام ؛ أيْ أنّ الله سبحانه وتعالى ألْزَمَ نفسَهُ برزْق العِباد، لي عليك فريضة ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أُخالفك في رزقك، أنظر إلى القرآن الكريم:

(وَمَا مِنْ دَابّةٍ فِي الأَرْضِ إلا عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا)

(سورة هود)

فتعلّم اللّغة العربيّة مهمٌ جدًا في فهم القرآن، وأيُّ تَغيير أو تَبْديل، كما أنك لو ألْغَيتَ التّنكير وجَعَلت بدله التّعريف، لو ألغيت النَفي أو الاستثناء لاختلف المعنى اختلافًا بيّنًا، لذلك هذا القرآن لا يَعْرِفُ نَظْمَهُ وإعجازَهُ البياني إلا مَن عَرَفَ هذه اللّغَة، وهذه اللّغة اخْتِصاص، لذلك نكرر مرّة ثانيَة: تَعَلّموا العربيّة فإنّها مِن الدّين، وهي لُغَة كتاب الله عز وجل.

من خصائص اللغة العربية مادة الكلمة:

والشيء الآخر أن لدينا في اللغة العربية بحث آخر غير بحث الاشتقاق، وهو انتماء الكلمات إلى مجموعات أُسَريّة، ويقال لها بدل كلمة الأُسرة: المادة ؛ الأسرة لها جدّ، وهو المصدر، الكتابة، والجد له أبناء، الفِعل الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل، وصِيَغُ مبالغة اسم الفاعل، واسم الآلة واسم المفعول، واسم المكان واسم الزمان، والصفة المشبّهة، هؤلاء كلهم أولاده، نِظام اللّغة العربية نِظام أُسَر، ونُسمّيها الأسرة باللّغة العربيّة: المادّة، افْتَح المعجم في مادّة عَلِمَ: تجد فيها مصادر وأفعال وأسماء.

من خصائص اللغة العربية: النحتُ:

وعندنا باللغة العربية شيء اسمُهُ النَّحْت، إنسان قال: سبحان الله، بدَلَ أن تقول: قال فلان سبحان الله، تقول: سَبْحَلَ فلان، وإن قال: لا حول ولا قوّة إلا بالله تقول: حَوْقَلَ، وإن قال الله أكبر، تقول: كبَّرَ، وإن قال: لا إله إلا الله، تقول: هلّلَ، وإن قال: أدام الله عِزّكَ: دَمْعَزَ ممكن أي أن تأخذ كلمة مِن مجموع كلمات، وهذا اسمهُ أيضًا النَّحْت.

من خصائص اللغة العربية: ظاهرة تغير المعنى بتغيّر الحركات:

وفي اللّغة العربيّة ظاهرة الحركات، فكلمة قَدِمَ أيْ حضَرَ، أما قَدُمَ فمعناها أصبَحَ قديمًا، وكلمة برّ تعني اليابسة، وأما كلمة بُرّ فهي القمح، وكلمة برّ تعني الإحسان، كلمة خَلْق تعني البُنْيَة، وكلمة خُلُق تعني الأخلاق، والخَلِق الشيء المهترئ، وشتان بين المَنْصِبَ، والمَنْصَب، فبحركة ينتقل المعنى مئة وثمانين درجة، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام لمّا جاءه الأعرابي وقال له: يا رسول الله عِظني وأوْجِز، قال:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (8))

فقال: كُفيت، فقال عليه الصلاة والسلام:

((فقُهَ الرجل))

(ورد في الأثر)

شتّان بين فَقِهَ وبين فَقُهَ، إذا قال: فَقِهَ أيْ عرَفَ الحُكْم، أما فَقُهَ أيْ أصْبَحَ فقيهًا الفِعْل الثلاثي مضموم العَيْن له معنى الاتّخاذ، حَسُن وكَرُمَ أيْ أصبح كريمًا، أما فقِهَ فتعني عرف ها الحُكم.

من خصائص اللغة العربية: الإعراب:

وعندنا في اللغة العربية بحث الإعراب أيضاً، فإذا قلت مثلاً في الوصية: فلان له عليّ ألف درهم ونصفُهُ، يا ترى ألف وخمسمئة درهم، أم ألف ونصف درهم ؟ بِحَسب إعراب هذا الضّمير فإن أعدْتَهُ على الألف فالوصيّة ألف وخمسمئة درهم، وإن أعدْتَهُ على الدِّرهم فالوَصيِّة ألف ونصف درهم ! إذًا دِقّة العربيّة متناهِيَة في هذا المجال، مُتَعَهّد قدّم مشروعاً، وخُصِمَ له من هذا المشروع خمسمئة ألف ليرة لأنّ مواصفاته أقلّ مِمّا يجب فأقام دعْوى، واحْتَكَم الطّرفان لِمَجمع اللّغة العربيّة، وهو يقول في المواصفات سأُقدِّم المواد مِن أجْود الأنواع، فَمِنْ هذه تعني التّبعيض، ولا تعني أنّه يُقدِّم أجْوَدَ الأنواع ! فَمِن معاني كلمة " **مِن** " كَسِبَ الدّعْوَى !!! اللّغة شيء دقيق جدًا حينما تفهم كلام الله بهذه الدِّقة، قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

(سورة النور)

فلولا (مِنْ)لَهَلَكْنا جميعًا، ولصار المعنى غض البصر عن الزّوجات والأمهات والأخوات والبنات كلهنّ !! أما مَن تعني غضّ البصر عن بعض النِّساء أيْ الأجنبيّات أما أمّك وابنتك وأختك وعمّتك وزوجتك فلا حرجَ عليك. أما فليحفظوا فروجهم، فأيّ خلل هناك فهو معصيَة، لماذا جاء غضّ البصر قبل حِفظ الفرج ؟ لأنّ غضّ البصر طريق إلى حفظ الفرْج، لو وقفْتَ عند كلمات القرآن كَلمةً كلمةً، وحركةً حركةً، تقديمًا أو تأخيرًا وإيجازًا أو تفصيلاً، تعريفًا أو تنكيرًا لأدركتَ الكثير، قال تعالى:

(يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ)

(سورة الشورى)

قدّم الإناث تَكريمًا لهنّ، وأخّر الذُّكور، ولكنه عرّف الذّكور، فالإناث جاءتْ سابقة، ولكنّها منكّرة، والذكور جاءَت معرّفة، ولكنّها متأخِّرة، مِن هذا القبيل هناك آلافُ آلاف القضايا اللُّغَويّة في القرآن حَيث يعْجز الإنسان أن يخْطُرَ في باله أنّ هذا الكلام ليس كلام الله، كلّما تعمّقْتَ في اللُّغَة وجدْت هذا الكلام لا يمكن لِبَشر أن يأتي بمِثلهِ، طبعًا هذا من الإعجاز اللّغوي.

من خصائص اللغة العربية: الإحكام العددي:

أما الإحكام الذي في القرآن فهذا باب واسع لا يعلمهُ إلا الله، مَن يُصَدِّق أنّ كلمة البَرّ جاءَت في القرآن ثلاث عشْرة مرّة حصرًا ؟ وكلمة البحر جاءت ثلاثًا وثلاثين مرّة ؟ افْتَح المعجم المفهْرس، فإذا جمَعْت البرّ إلى البحر أصبْح الرّقم سِتًا وأربعين، فإذا وضَعت الثلاث عشرة صورة، والسِتَّة والأربعين مخرجًا، رأيْتَ نِسْبَة البرّ إلى الأرض ! نِسبة عدد كلمات البرّ إلى البحر كَنِسبة البرّ إلى البحر بالضّبْط والتمام !! مَن يُصدِّق ذلك ؟

لو أحْصَيْت كلمة اليوم في القرآن الكريم لوَجَدْت كلمة اليوم وردت ثلاثمئة وخمساً وسِتّين مرّة بالضّبط! ولو أحصيْت كلمة الشّهر لوجَدتها ورَدَت اثنتي عشرة مرّة بالتمام والكمال.

وكلمات الجنَة تُساوي كلمات النار، وكلمات الدنيا تُساوي كلمات الآخرة وكلمات الملائكة تُساوي كلمات الشياطين، وهناك بُحوث في إحكام القرآن الحِسابي لا يعلمها إلا الله وكذا في إعجازه العِلمي، وفي إعجازِهِ البياني، وفي إعجازه اللّغوي فكلّما ازْددْتَ، كلّما ازْددتَ عقلاً وفهْمًا لها.

فبالحِساب عرفْت كيف أنّ هذا القرآن كلام الله عز وجل، وكيف أنّ الله تعالى يقول:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39))

(سورة الحاقة)

وقوله تعالى:

(فلا أقسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

(سورة الواقعة)

كيف أنّ الله تعالى يقول:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ)

(سورة الأنعام)

وقوله تعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف)

أيْ كأنّ الكتاب يُعادل السماوات والأرض، هذا خلقُهُ، وهذا منهجهُ وكلامه وهذه أفعاله، ولا بدّ أن تتوافقَ أفعاله مع أقواله، مع منهجه، مع خلقِهِ.

من خصائص اللغة العربية: الأوزانُ:

وعندنا الأوزان كذلك، فمثلاً وزن فَعَل شيء، ووزْنُ فاعَلَ شيء آخر ؛ فهذا فيه المشاركة كقاتَلَ وخادع وقاوَمَ وناضَل وراسَلَ؛ كلّها تفيد معنى المشاركة، وتقول كسّرَ، قال تعالى:

(وَغَلَّقَتْ الأَبْوَاب)

(سورة يوسف)

مبالغة ؛ قطّعْتُ اللّحم: شيء، وقطَعَ اللّحم: شيءٌ آخر، وزْنُ فَعّلَ غير وزْن فَعَلَ، وغير فاعَلَ، وغير استَفْعَلَ، وزْنُ الثُّنائي المضعّف، قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)

(سورة التكوير)

عَسْعَسَ، وقَلْقَلَ، وجَرْجَرَ، تشعر أنّ هذا الوزن له معنى التتالي، أي أنّ الحديث عن الأوزان لا ينتهي، وعن الإعراب لا ينتهي، وعن الأفعال، وعن الاشتقاق الصغير، والاشتقاق الكبير، وعن النّحت، وعن مناسبة الحروف ومَعانيها، وعن اتِّساع العربيّة في التّعبير، قال ربنا عز وجل:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ(195))

(سورة الشعراء)

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ

كُتِبَتْ هذه الآية على لوحة، وعُلِّقتْ في مَجمع اللّغة العربيّة بدمشق:

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

(سورة الشعراء)

واضحِ البيَان، ويكفي هذه اللغة فخْرًا أنّ الله سبحانه وتعالى اختارها لِكَلامه، ويكفي الأمّة العربيّة فخْرًا أنّ الله اختارها لِرسالة نبيّه الكريم، ويكفي هذه البلاد فخْرًا أنّ الله تعالى اختارها متنزَلاً لِوَحْيِهِ العظيم.

قال تعالى:

(وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ)

(سورة الشعراء)

معنى قوله تعالى: وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ

المعنى الأول:

وإنّ هذا القرآن مذكور في كتب الأنبياء السابقة.

المعنى الثاني:

وبعضهم قال: الهاء تعود على النبي عليه الصلاة والسلام.

فإما أنّ القرآن مَذْكور في الكتب السماويّة السابقة، وإما أنَ اسم النبي عليه الصلاة والسلام مذكور في الكتب السابقة.

قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

(سورة الشعراء)

دعوة إلى تدبر القرآن الكريم:

يقول الله سبحانه وتعالى:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ)

(سورة البقرة)

لأنّ اسم النبي عليه الصلاة والسلام وردَ في الكتب السابقة:

(وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)

(سورة الصف)

ففي الكتب المقدَسة اسم النبي عليه الصلاة والسلام، وهذا بَحثٌ يَطُول، قال تعالى:

(أوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إسْرَائِيلَ)

(سورة الشعراء)

أليس هذا كله دليلاً لهم أنّه من عند الله ؟!

كيف لو نزل القرآن على الأعجمي ؟ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ

أما الآية التالية فإنها تُعالِج أخْطَر موضوع في اللّغة، قال تعالى:

(وَلَوْ نَزّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ)

(سورة الشعراء)

لو أنّ هذا القرآن الكريم نزل على إنسان أعْجمي ؛ غير عربي، ونزل بلُغَة الأعاجم، وجاء هذا الأعجمي ومعه هذا القرآن باللّغة الأعْجَمِيَّة، وتلاهُ على مسامِعِ العرب الفصحاء، قال الله عز وجل:

(مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

إذا وقفَ إنسانٌ فيهم العربي، وتكلّم بالتُّرْكِيَّة أو الفارسية فلن يفهموا شيئًا ! أو باللّغة اليابانيّة أو الصّينِيّة، فلن يفهموا شيئًا إطلاقًا، يقول ربّنا عز وجل:

(وَلَوْ نَزّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ)

(سورة الشعراء)

لو قرأ هذا الأعجمي القرآن باللّغة الأعجَمِيَّة عليهم، قال الله عز وجل:

(مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

هذا شيءٌ واضِحٌ وبديهي.

أما الشيء الدقيق فقوله تعالى:

(كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

(سورة الشعراء)

معنى قوله تعالى: كَذَلِكَ سلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ المُجْرِمِينَ

ما معنى هذا الكلام ؟ أيْ أن هذا القرآن إذا سَمِعهُ إنسانٌ بعيد عن الله عز وجل فلن يفْهمُ منه شيئًا، وهناك آياتٌ تؤكِّد ذلك، قال تعالى:

(وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى)

(فصلت: 44)

آية ثانية:

(وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إلا خَسَارًا)

(سورة الإسراء)

ما معنى ذلك ؟ معنى ذلك أنَ الإنسان إذا لم يُرِدْ معرفة الله عز وجل فهذا الكلام لا يؤثِّرُ فيه، إن لم يطلب الحقيقة فلن يتأثر بها مهما سَمِعها. فلو أنّ شخصًا دخل غرفةً يريد شيئًا، يريد كتاباً أو مفاتيح، وأعْطيته أنت رسالة ! فلم يقرأها، وإن قرأتَها أمامه فلن يسْمعها، هو بعيدٌ عنها، وهو في عالم آخر، وفي اهْتِمام آخر، وفي جوّ آخر، وفي هموم أخرى، ولذلك مَن جَعَلَ همومه همًّا واحدًا كفاهُ الله الهموم كلّها ! والإنسان يفْهم إذا تطابق همّهُ مع هذا الشيء المسْموع.

أحيانًا طالبٌ في صفّ من صفوف الجامعة له كِتاب مُقرّر، فهو يشْغَلُ همَّهُ كلّه، ولو قرأتَ عليه كتاباً آخر فلن يفْهمُ منه شيئًا، كأنّ الله عز وجل يقول: مع أنّ هذا الكتاب بلِسانٍ عربيٍّ مُبين، ومع أنّ هذا الكتاب فيه الإعجاز العِلمي، وفيه الإعْجاز البلاغي، والإعجاز اللُّغَوي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز التاريخي، والإعجاز الحِسابي، ومع أنّ هذا القرآن فيه الخبر الصادق، والموعظة والقصص.. إلخ، فلو قرأهُ هذا الإنسان وهو لا يريد أن يعرف الحقيقة لما استطاع أن يفْهَمَ منه شيئًا، ولا يؤثِّرُ فيه، قال تعالى:

(وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (198) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (199) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200))

(سورة الشعراء)

إذاً فالقرآن يحتاج إلى لغة عربيّة لِفَهمه، وإلى اسْتِقامة عند قارئه، فلا بدّ من أن تكون مستقيمًا وطالبًا للحقيقة، وأن تكون مُتْقِنًا لهذه اللّغة حتى تفْهمَ كلام الله تعالى، فلو كان هناك انْحِراف بالسُّلوك، والآيات التي تُغطِّي انْحِرافه لا يقبلها، وهو إن لم يكن مستقيمًا يُصْبِحْ قلبهُ مغلّقًا ربّنا عز وجل قال:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ)

(سورة البقرة)

وقال تعالى:

(وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمْ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلا مَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة البقرة)

فالكُفْر يُغَلِّف القلب، فلذلك فإنّ هذا القرآن يحتاج إلى صفاءٍ وإلى اسْتِقامةٍ.

أريد أن تكون هذه الآية واضحة في أذهانكم، ومعنى هذه الآية أنّ الإنسان ما لم يبْتَغ الهدى، وما لم يبْحث عن الحقيقة، وما لم يطلب معرفة الله فإنّه لن يسمعَ شيئًا، نفسُهُ في واد، والحق في واد آخر. فنفسُهُ مشْغولةٌ بهُمومها، وشَهواتها، ونزواتِها، والحقّ في جِهَةٍ أخرى، ما لم يطلب الإنسان الحقيقة، وما

لم يبحث عنها، وما لم يرْغب في الوُصول إليها فإنّ الطريق أمامه مَسْدودة، فالرّغبة الداخلية هي الشّرْط الأوّل، لذلك فالعالِم مهمّتُهُ أن يوجِدَ هذه الرّغْبة قبل أن يُعْطِيَ هذه الحقيقة، لو أعْطَيْتَ الحقيقة والمسْتَمِعُ لا يرْغب فيها، ما أفادتْهُ شيئًا يجب أن تجعلَه يبحث عنها، فإذا ملّكْتهُ إيّاها تملّكها، وهذا هو معنى الآية، ولكن معنى الآية الثانية، وهي قوله تعالى:

(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

(سورة الشعراء)

من العقل والذكاء التعاملُ مع الخطر قبل وقوعه:

المشكلة أنّ الحيوان يتعامل مع المحسوسات، أما الإنسان فإنّ الله تعالى أعطاه عقلاً وفِكْراً، وبهذا الفِكر يستطيع أن يرى الخَطَر قبل وُقوعِهِ، ويسوقون مثلاً، لذلك قِصّة مشْهورةً ذكرتها مرات عديدة، مفادها أنّ سمكاتٍ ثلاث في غدير، مرّ به صيادان، وتواعدَا أن يرْجِعا، وشِباكُهما معهما ليَصيدا هذا السّمَك، فَسَمِعَت السمكات قولهما، أما أكْيَسُهنّ فإنّها ارْتابَتْ وتخوّفَتْ وقالتْ: العاقل يحْتاطُ للأمور قبل وُقوعها، ولم تعْرُج على شيءٍ حتى خرجت إلى مكانٍ يتّصل بالغدير، ونَجَتْ.

وأما الكيّسة فَبَقِيَتْ في مكانها حتى عاد الصّيادان، فذَهَبَتْ لِتَخرجَ من حيث خرجَت رفيقتها، فإذا بالمكان قد سُدّ، فقالتْ فرّطْتُ، وهذه عاقبة التّفريط، فالأقلّ ذكاء عند الخطر يتحرّك، والأكثر ذكاءً قبل الخطر، ثمّ إنّها - أيْ الكيّسة - تماوَتَتْ فطفَتْ على وجْه الماء فأخذها الصّيادُ، ووضَعَها على الأرض بين النهر والغدير، فوَثَبَتْ في النّهر ونجتْ، وأما العاجزة فلم تزلْ في إدبارٍ وإقبال حتّى صيدَتْ.

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

(رواه أحمد)

البهائم والعاجزون والأغبياء متى يفهمون ؟ عند الغرق، قال تعالى:

(قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنْ الْمُسْلِمِينَ)

(سورة يونس)

عند الغرق، وعند المصيبة، وعند تلف المال لمن يتعامل بالرّبا، وعندما يتلفُ ماله يقول: والله، هذا صحيح !! الربا حرام، حينما يكتشف خيانة زوجتِهِ له يقول: والله عدم الاختلاط صحيح وحق !! لا يؤمن إلا بعد أن يدْفَعَ الثّمَن باهِظًا، وقد يكون الثّمَن أحيانًا حياته، لذلك قال الله بحَقّ هؤلاء:

(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

(سورة الشعراء)

هذا هو الإنسان الشهواني، وضعيف التفكير، وهذا هو الإنسان الغبيّ لا يتعامل مع الواقع إلا بعد أن دفْع الثَّمَن، فيأتيهم بغْتةً وهم لا يشعرون، وأما العاقل فالله تعالى أعطاه عقلاً، قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ َاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

(سورة الأنعام)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (15-20): تفسير الآيات 201 - 214
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 27-10-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس عشر من سورة الشّعراء، وقد وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

(سورة الشعراء)

العاقل لا يدفع ثمن تعلمه الحقائق باهضًا:

مِن شأن الإنسان الذي كرّمه الله عز وجل بالعَقل ألاّ يدْفَعَ الثّمَن غالِيًا للحقائق التي يتعلّمها، فهل من الضروري أن ينفجر البيت حتى توقِنَ أنّ الغاز مادّة خَطِرة، أم من الضروري أن تأخذ الاحتياطات والتعليمات من دون أن تدفعَ ثمن هذا الدرس باهظاً، حياتنا فيها شروط مُعقّدَة جداً، والله سبحانه وتعالى كرّم الإنسان بالعقل، وبالعقل يستطيع أن يكتشف الخطر قبل وُقوعهِ، إذاً كان هناك فرق بين البهيمة والإنسان !! البهيمة لا تكتشف الخطر إلا عند وُقوعه، ولكنّ الإنسان بما أكرمه الله به مِن عَقلٍ يستطيعُ أن يكتشف الخطر قبل وُقوعِهِ، فالعاقل هو الذي يحتاط للأمور قبل وُقوعها، والله سبحانه وتعالى ذكر أنّ هؤلاء الكفار لا يؤمنون به حتى يرَوا العذاب الأليم، هل من الضروري من أجل أن تكتشف أنّ الربا يمحقه الله أن يُدَمّر المال ؟ إذا دُمِّر المال كلّه، وكُشِفَ لك في النّهاية أنّ الربا يُدمِّر المال، فهذا الدرس دَفَعْتَ ثمَنَهُ باهظًا، ولكنّ الله سبحانه وتعالى بما أنْعَمَ عليك من نعمة العقل، مكّنك أن تكتشف بعقلك أنّ الآية الكريمة قَطْعِيّة الثبوت، وأنّ معناها قَطعِيّ واضِح وأنّ هذا كلام الله عز وجل، وأنّ الله سبحانه وتعالى إذا قال فعَلَ.

فلذلك إذا حكّم الإنسانُ عقلهُ، وقرأ كتابهُ، وتَعَرّف إلى القوانين القَطْعِيّة والثابتة، عندها بدَلَ أن يدْفَع ثمن المعرفة باهظًا يدْفَعُ الثّمَن قليلاً، هل من الضروري أن تكتشف أنّ الاختِلاط حرام أن يُضَحِي الإنسان بزَوْجَتِهِ، طبعاً لا، ولذلك هذا جزاء من يعطِّل فكره، ومن يُجَمِّدُ عقْلَهُ، وجزاء الذي لا يؤْمِن بالقرآن حتّى يرى العذاب الأليم، فنحن المؤمنين إن شاء الله تعالى ينبغي أن نتعرّف إلى الخطر قبل وُقوعِهِ، ومن خِلال كتاب الله عز وجل، قال تعالى:

(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (202))

(سورة الشعراء)

عذاب الله بغتة في ساعة غفلة

هذه ساعة الغَفلة، أحيانًا يظنّ الإنسان أنّ الأمور تجري هكذا، وإلى ما لا نهاية، وهذا خطأً كبير، ووهم كبير، فالله سبحانه وتعالى يُرْخي الحبل، ويمهل إلى أن يظنّ الإنسان أنّه لا حِساب، وأنّه لا مسؤوليّة، وأنّه يفعَلُ ما يشاء، وأنّ الحق للقويّ، وأنّ السماوات والأرض صدفة وجدت، وعندئذٍ يأتي عِقاب الله عز وجل بغْتة فيَعْرف أنّ في السماء إلهًا لا يغْفَلُ عن كلّ منْحَرِف، لذلك كما قال تعالى:

(لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (202))

(سورة الشعراء)

عندئذٍ يأتي العذاب بغْتة، قد يكون العذاب مرضاً عُضالاً، وقد يكون فقْد حُريّة، وقد يكون دماراً، وقد يكون هَواناً وإهانة، الإنسان حينما تأتيه المصائب عندئذٍ يرْجو ربّهُ أن يؤخِّر له هذا العذاب، قال تعالى:

(رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ)

(سورة الدخان)

ثمّ يقول تعالى:

(فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ)

(سورة الشعراء)

استعجال العذاب استهزاء:

لكنّ هؤلاء الكفار لِشِدّة كفرهم ولشدة جُحودهم، ولبُعْدِهم عن ربّهم وجهلهم بأسماء الله الحسنى يسْتعْجِلون بالعذاب اسْتِهزاءً، فيأتيهم الجواب، وسيّدنا عمر بن عبد العزيز كان إذا قام أو قعد، وإذا دخلَ مجلس الخِلافة، وقبل أن يحكم بين الناس يتلو هذه الآية:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

(سورة الشعراء)

الاستدراج مِن سنة الله في الكافرين:

وأحيانًا يقع الإنسان في شبهة، ما هذه الشبْهة ؟ قد يرى أهل الدنيا يتمتّعون بصِحّة جيّدة، وبأموال طائلة، وبِبُيوت فارهة، وبِمَركبات يقول: ما هذه المُفارقة ؟ المؤمنون مُعَذّبون وضِعاف ومستضْعفون وهؤلاء الكفار المنافقون الجاحدون والملحدون غارقون في النعيم والعِزّ، وهم ذوو الجاه، ويتمتّعون بكلّ ما لذّ وطاب، أقول هذا مِن حكمة الله عز وجل، والجواب أيضاً في قوله تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

(سورة الأنعام)

هل من آية في القرآن الكريم أوْسعُ من هذه الآية ؟ أبواب كلّ شيء ! كلّ شيء له باب، أبواب المال، وأبواب الملذّات، وأبواب الجاه، قال تعالى:

(فَلَمّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

(سورة الأنعام)

متاع الدنيا غرور قليل:

قال تعالى:

(لا يَغُرّنّكَ تَقَلُّبُ الّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ)

(سورة آل عمران)

فالمؤمن العاقل لا يمكن أن يتمنّى أن يكون في وضْعٍ من الدُنيا ممتازٍ على حِساب دينه، وما من إنسانٍ فيه ذرّة من إيمان يرضى، أو يتمنّى أن يكون مكان هذا الإنسان الغارق في ملذّاته، ويكون مكانه في جهله بالله، وفي جحوده، الآية الكريمة:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

(سورة الشعراء)

الإنسان يعيش سنواتٍ معدودة، خمسين ستّين، وقد يمتدّ عمره إلى مئة سنة أو يزيد، ثم يدركه الموت، وكان في حياته كلها صحيحاً ذا عافية وقوة، وفرعون شاهد على ذلك، قال تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

(سورة الشعراء)

فقد عاش عمرًا مديدًا من دون مرض، ولا ألمٍ، ولا فقر، ولا همّ، ولا حزن، قال تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

(سورة الشعراء)

ثم يدركه أجله، ويكون عمله حسرات عليه.

وربنا عز وجل قال:

(لَا يَغُرّنّكَ تَقَلُّبُ الّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمّ مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197))

(سورة آل عمران: 197)

وفي آية أخرى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء)

خالق الكون يقول لك: قليل، ألسْتَ مُصَدِّقًا له ؟!

آية ثالثة: قال سبحانه وتعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ)

(سورة القصص: 60)

أن تملك أكبر شركة في العالم هذا شيء، ولكنه متاع قليل إذ ينتهي بانتهاء العمر، وتحتلّ أرقى مكانة في المجتمع شيء، وأن تملك أكبر رصيد في العالم ؛ شيء كذلك، قال تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلا تَعْقِلُونَ)

(سورة القصص: 60)

قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص: 61)

وأنت أيها المؤمن قد وعدك خالق السماوات والأرض وعَدَاً حسناً، كما وعدَكَ بالسّعادة، ووعدكَ بالرّضْوان ووعدك بالقُرب، ووعدك أن ترى وجهه الكريم قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ)

(سورة القصص)

فهل يستوي أهل الكفر وأهل الإيمان ؟ فالكافر والمؤمن كلاهما يلقى جزاء ما قدّمت يداه، قال تعالى:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء)

وقال تعالى:

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ)

(سورة التوبة)

قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

(سورة القصص)

خُذْ من المال ما شئت، وخُذْ من الجاه ما شئت، وخُذْ من القوّة ما شئت وخُذ من الوسامة ما شئت، لكنّ المصير إلى النار، قال تعالى:

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ*لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)

(سورة آل عمران)

لمّا خرج قارون بزينته، قال تعالى:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

(سورة القصص)

بالتّعبير الفصيح هنيًا له ! أحيانًا يرى الإنسان متاع الدنيا فيسيل له لعابهُ، والنبي الكريم علّمنا إذا رأيْنا بيتًا فخْمًا، أو مركبة فارهة، وشيئًا من متاع الدنيا كان يقول: اللهمّ لا عَيْش إلا عَيْشُ الآخرة ! قال تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء)

وقال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ الْمُحْضَرِينَ)

(سورة القصص)

لذلك هؤلاء أهل الدنيا الذين أعرضوا عن الله عز وجل قد يُعطيهم الله الدنيا بحذافيرها، ولكن ينطبق عليهم قول الله تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206))

(سورة الشعراء)

ثم جاء الموتُ !!!

الأيام تسير هكذا وادعة هنيئة في نظر أحدهم، أفكلّ يوم يستيقظ صحيح الجسم إلى ما شاء الله ؟! تخطّى الخمسين، وتخطّى السبعين، لكن لابدّ مِن يومٍ يشْكو ألمًا في أحد أعضائِه وهذا الألم يتفاقم إلى أن يودِي بحَياته، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا ؟ أَوْ غِنًى مُطْغِيًا ؟ أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا ؟ أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا ؟ أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا ؟ أَوِ الدَّجَّالَ ؟ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةَ ؟ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(رواه الترمذي)

قال تعالى:

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)

(سورة النساء)

والإنسان بِضْعة أيام، كلّما انقضى يوم انقضى بِضْعٌ منه..

إلى متى أنت باللّـذات مَشْـغـول   وأنت عن كلّ ما قدّمْت مسؤول

*** * ***

قال تعالى:

(ثُمّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ)

(سورة الشعراء)

البطل مَن يعد العدّة لساعة الفراق:

البطل هو الذي يُعِدّ العُدّة لِساعة فِراق الدُنيا، والبَطَل هو الذي يُعِدّ العُدّة لِنُزول القبر، والبطل هو الذي يُعِدّ جوابًا لِكُلّ شيء لله عز وجل، لماذا فعلت كذا ؟ يا ربّ، فعلتُ هذا مِن أجلك، ولماذا أعْطَيْتَ فلاناً ؟ ولماذا منَعْتَ فلانًا ؟ ولماذا غَضِبْتَ ؟ ولماذا ابْتَسَمْتَ ؟ ولماذا مَنَعْت ؟ ولماذا وَصَلْت ؟ ولماذا قطَعْت ؟ هذا هو السّعيد، الذي يُعِدّ العدّة لِخَالِقِهِ، كما قال تعالى:

(يَوْمَ يَقُومُ النّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

(سورة المطففين)

ورد في الأثر أنّ رَسُولُ اللّهِ صلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ قال:

((تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلا، فسألت السيّدة عائشة رضي الله عنها النبي عليه الصلاة والسلام قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ، الرّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ؟! فَقَالَ: الأمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمّهُمْ ذَاكَ))

(رواه البخاري)

عراةً ومن دون طهور، وقد سألْتُهُ مرّةً أيَعرفُ بعضنا بعضًا يوم القيامة ؟ قال: نعم، إلا في ثلاثة مواضِع عند الصِّراط، وعند الميزان، وإذا الصّحف نشِرَت ! في هذه اللّحظة لو وقعَتْ عَين الأم على ابنها، أو عَيْنُ الابن على أمِّه لا يعرفها، ولا تعرفهُ، وفي ما سوى هذه المواقف قد يعرف الابن أمّه، وقد تعرف الأمّ ابنها، تقول له يا ولدي: لقد كان صدري لك سِقاءً، وحِجْري وِطاءً، وبطني وِعاءً فهل مِن حسنةٍ منك تجود بها عليّ ؟ فيقول الابن: ليْتني أستطيعُ ذلك يا أُمّاه، إنّني أشْكو مِمّا أنت منه تشْكين ! لذلك قال تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتّعُونَ (207))

(سورة الشعراء)

لا ينفعك في الآخرة إلا عملك الصالح:

ماذا ينْفَعُكَ مالكَ حينما تُغادر الدنيا ؟ وماذا تنفعُكَ اللّذات التي أمْضَيْت بها السّنين الطّويلة ؟ وماذا ينْفعُكَ أصحابك ؟

وماذا ينفعُكَ أهلك ؟ وماذا ينفعُك من حولك ؟ قال تعالى:

(مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

(سورة الشعراء)

لذلك أحد الصالحين اشْترى قبرًا، وكان يجْلسُ فيه كلّ خميس، ويتْلو فيه قوله تعالى:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (99) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (100))

(سورة المؤمنون)

قال تعالى:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207))

(سورة الشعراء)

((لو أنّ الدنيا تعدِلُ عند الله جناحَ بعُوضة ما سقى الكافر منها شرْبَةَ ماء))

(الترمذي)

فلْينْظر ناظرٌ بعَقْلِهِ أنّ الله أكْرمَ محمّدًا أم أهانهُ حين زوى عنه الدُّنيا، فإن قال: أهانه فقد كذب، وإن قال: أكرمَهُ فلقد أهان غيره حين أعطاه الدنيا ! فهي لا شأن لها عند الله ؛ تافِهَةٌ، قال تعالى:

(وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ)

(سورة الشعراء)

مِن عدل ورحمةِ الله بعباده الإنذارُ قبل الإهلاك:

لا بدّ من أنْ يسْبِقَ الإهلاك إنذارًا، وهذا من رحمة الله عز وجل، قال تعالى:

(ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ)

(سورة الشعراء)

الله سبحانه وتعالى لا يظلم الناس مثقال حبّة من خردل، يُروَى أنّ سيّدنا عمر جاءهُ رجل قد سرق، فقال له: يا أمير المؤمنين، هذه أوّل مرّة قال: **كذبْت ! هذه المرّة الثانية ؛ إنّ الله لا يفضح مِن أوّل مرّة فالله سبحانه وتعالى يحذّر**، حينما يُصرّ الإنسان على خطئِهِ عندئذٍ يأخذه الله عز وجل بذنْبِهِ، وبعض الشّعراء قال:

نـهارك يا مغْرور سَهْوٌ وغفلــةٌ ولـيـلـكَ نـومٌ والرّدى لازمُ
فلا أنت في الأيقاظ يقْظان حازم ولا أنت في النُّوام نـاج وسالمُ
تُسَرُّ بما يفنى وتفرح بالمُنــى كما سُرّ بـالـلّـذات حــالِمُ
وتسعى لما سوف تكْرهُ غِبّــهُ كذلك في الدنيا تعيش البهائمُ

***

هذا الذي يعيش لِوَقته ولذّتِهِ، ولا يعي على خير، ولا يرى ما سيكون ولا يُعْنى بالمستقبل، ولا يُعنى بساعة اللِّقاء، فهذا إنسان عطّلَ تفكيرهُ، وهذا مثلهُ كمثل البهيمة.

قال تعالى:

(وَمَا تَنَزّلَتْ بِهِ الشّيَاطِينُ)

(سورة الشعراء)

لا حظ للشيطان في نزول القرآن:

هذا القرآن الكريم ما تنزّلت به الشياطين، إنّه لقَول رسول كريم، قال تعالى:

(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194))

(سورة الشعراء)

قال تعالى:

(وَمَا تَنَزّلَتْ بِهِ الشّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211))

(سورة الشعراء)

قال تعالى:

(إِنّهُمْ عَنِ السّمْعِ لَمَعْزُولُونَ)

(سورة الشعراء)

هذا الشيطان إذا أراد أن يسترق السّمع يأتيه شِهاب ثاقب فَيُحْرِقُهُ.

قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذّبِينَ)

(سورة الشعراء)

هذه الآية مركز الثِّقل في هذا الدرس، إنّها تدور حول الشّرْك.

خطورة الشرك بجميع أنواعه:

أوّلاً: العلماء اتّفقوا على أنّ الشِّرك نوعان ؛ شِرْك جليّ، وشِرْك خفي، شرْك ظاهر وشرك باطن، شرْك كبير وشرك صغير، ما هو الشِّرْك الجليّ ؟ والكبير ؟ والظاهر ؟ الشِّرك الجليّ أنْ تدّعِي جِهةً ؛ جمادًا أو حيوانًا أو إنسانًا أو كائنًا أياً كان أن تدّعيهِ إلهًا وتُسَوّيهِ برَبِّ العالمين، والله سبحانه وتعالى يقول:

(تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (97) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (98))

(سورة الشعراء)

معنى: إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ:

كيف التَّسْوِيَة ؟ أغلب الظنّ أنّ هذا الذي يعبد صنمًا من دون الله لا يُصدّق نفسهُ أنّ هذا الصَّنَم يُسيّر السماوات والأرض، ولكن كيفَ يُسَوّي هذا الإنسان تلك الآلهة التي ادّعاها من دون الله، إنّ التَّسْوِيَة كما قال بعض العلماء في المحبّة والتّعظيم والعبادة، إذا أحْبَبْتَ هذه الجهة ولْتَكُن إنسانًا، إذا أحْبَبْتَها وعظّمْتها وأطعتها فقد سوّيْتَهَا بِرَبِّ العالمين، لأنّ الجهة الوحيدة التي لا ينبغي أن يكون هذا لِسواها، والتي ينبغي أن تُعظّم، وتُحَبّ، وأن تُطاع هي الله سبحانه وتعالى، فأيُّ مخلوقٍ يتّجِه إلى ما سوى الله تعظيمًا ومحبّة وطاعةً فقد أشْرَكَ شِرْكًا كبيرًا، من علامات المُشْرك أنّكَ إذا تكلّمْتَ عن إلهِهِ المزعوم استْشاط غضبًا، وأنّكَ إذا دَغْدَغْتَ أفكارهُ ومشاعِرَهُ بالثّناء عليه انتشى طربًا، وهذا من علامات المشرك، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا)

(سورة النساء)

لكنّ العلماء حمَلُوا هذه الآية على معنًى مُضْمر وهو: إن لم يتوبوا ! والحقيقة أصْلُ الشِّرْك اعتِقادُ المُشْرك أنّ هذا الذي يعْبُدُه من دون الله يستطيع أن ينقذهُ عند المِحَن !! ويستطيع أن يشْفعَ له !! وهذا هو أصل الشِّرك، أنهم يعتقدون أنّ زَيْدًا أو عُبَيْدًا، أو أنّ هذا الصّنَم أو أنّ هذا النَّوْء، أو أنّ هذا الحيوان بإمكانه أن يُبارك حياتهم، أو ينقذّهُم من المهالك، وكذلك فهم يعتقدون بهذه الأصنام أنّها تشفعُ لهم وتنجيهم من عذابٍ مُحَقّق، وهذا هو أصْل الشِّرْك، ومنه اعتقادُ الشّفاعة، فماذا يقول الله عز وجل عن الشّفاعة ؟ قال الله عز وجل:

(مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ)

(سورة البقرة)

إذاً ليس في الكون جهة تستطيع أن تنقذكَ، أو أن تشْفَعَ لك، أو أن ترقى بك إلا الله عز وجل، فكلّ من يعتقِد أنّ جهةً من دون الله تستطيعُ أن تُنْجيك، أو أن ترفعَكَ فهذا شِرْك.

الآية الثانية:

(وَلا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ)

(سورة الأنبياء)

وسبحان الله ! فإنّ القرآن ثلاث آيات مترابطة، الآية الأولى:

(مَنْ ذَا الّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلا بِإذْنِهِ)

(سورة البقرة)

متى يأذن ؟ عندما يَرْضى عن عمل الإنسان، وعن قوله، ومتى يرضى عن عمله وعن قوله ؟إذا كان مُوَحِّدًا لله تعالى طائعًا له، سلسلة نُعيدها ثانية كلُّ ما سِوى الله لا يستطيعُ أن يشفع لك عند الله، إلا إذا أذِنَ الله،ومتى يأذن الله عز وجل ؟ إذا رضي عنك، وإذا رضي عن عملك وعن قولك، ومتى يرضى عن قولك وعن عملك ؟ إذا كنتَ موحّدًا وطائعًا، لذا قال تعالى:

(أفَمَنْ حَقّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أفَأنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النّارِ)

(سورة الزمر)

مفهوم الشفاعة:

الشيء الآخر: شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام، وهذه لا علاقة لها بهذا الموضوع، لأنّ النبي عليه الصلاة والسلام سئل: يا رسول الله، من أسعد الناس ؟ ـ دقِّقوا في هذا الحديث، لأنّ مفهوم الشفاعة مفهوم في أصله صحيح، ولكن أصاب هذا المفهوم تشْويهٌ وتزوير وتعطيل إلى الدرجة التي أصبحَت الشفاعة تُسبّب للإنسان كسلاً وقُعودًا وتساهلاً في طاعة الله عز وجل ـ هذا الذي يعتقدُ خطأً، ويعتقِدُ متوهِّمًا أنّ النبي عليه الصلاة والسلام لن يدخل الجنّة حتى يُدْخِلَ أُمّتَهُ قبله ؛ على معاصيهم وعلى انْحِرافاتهم وعلى أغلاطهم وعلى شرْكهم وعلى عُدْوانهم، فهو إنسانٌ واقعٌ في وهْمٍ كَبير كبير ؛ لأنّ النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((يا فاطمة بنت محمّد، يا عباس عمّ رسول الله، أنْقذا نفْسَيكما من النار، فأنا لا أغني عنكما من الله شيئًا !))

(الترمذي)

((من يُبطِئُ به عمله لم يُسْرع به نسبه، لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم))

ولأنّ النبي عليه الصلاة والسلام نظر إلى بعضٍ من أُمّتِهِ يوم القيامة، فعَنْ عَبْدِ اللّهِ بْن عَمْرِو بْن العَاص أنّ النّبيّ صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ تَلا قوْلَ اللّهِ عَزّ وَجَلّ فِي إبْرَاهِيمَ:

(رَبِّ ِنّهُنّ أضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإنّهُ مِنِّي)

الآيَة، وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السّلام:

(إنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ:

((اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي، وَبَكَى، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ: مَا يُبْكِيكَ ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللَّهُ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلا نَسُوؤُكَ))

(رواه مسلم)

والله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم يقول:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ)

(سورة الزمر)

هذه آية أصْلٌ في نَفْي المفهوم الساذج والسَّخيف والمحدود في الشفاعة، ولكنّ شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام حقّ، فمن يسْتَحِقها ؟ يسْتحِقّها مَن نجا مِن الشِّرْك، جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ: لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لا يَسْأَلُنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ))

(رواه البخاري)

خالصًا بها، أيْ حَجَزَتْهُ عن محارم الله تعالى، كما في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي، وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ))

(رواه مسلم)

إذاً فالشّفاعة لها معنى صحيح، وورَدَت فيها أحاديث صحيحة إلا أنّ العامّة والجهلة فهموها فهْمًا مُزَوّرًا عطّلوا بها العدالة الإلهيّة، وعطّلوا بها سَعْي الإنسان لِمَرضاة ربّه، إذا مات الإنسان غير مشركٍ، وإذا كان موحِّدًا، ومخلصًا في توحيده استحقّ شفاعة النبي عليه الصلاة والسلام وربّنا سبحانه وتعالى بيّن لِهَؤُلاء الذين اتّخذوا أنْدادًا من دون الله يحِبّونهم كَحُبّ الله، ولهؤلاء الذين عبدوا جِهاتٍ كَعِبادة الله، جِهاتٍ لا تنفعهم ولا تضرّهم، قال الله عز وجل:

(مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

(سورة العنكبوت)

عَن ابْنِ عَبّاسٍ قالَ:

((كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَوْمًا فقالَ: يَا غُلامُ، إنّي أعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذا سَأَلْتَ فاسْأَلِ اللّهَ، وَإذَا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ باللّهِ، وَاعْلَمْ أنّ الأمّةَ لو اجْتَمَعَتْ عَلَى أنْ يَنْفَعُوكَ بشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ لكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأقْلامُ، وَجَفّتِ الصّحُفُ))

(رواه الترمذي عن ابن عباس)

والآية الكريمة:

(مَا يَفْتَحْ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

(سورة فاطر)

هذا هو الشِّرْك الجليّ، وهذا الشّرْك الكبير، وهذا الشِرْك المهْلِك، وهذا الشِرْك الذي يتناقض مع العِبادة، ويتناقض مع الدِّين، فما هو الشِّرْك الخفيّ الذي يقع من معظم الناس ؟!!

الشرك الخفي صُوَرُه وآثاره السيئة:

الشِّرْك الخفيّ تُؤكِده آيةٌ كريمة وهي قوله تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

1 - عدم التوحيد في الأفعال:

آمن بالله تعالى خالقًا، وآمن بالله مربّيًا، وآمن بالله مُسَيِّرًا، ولكنّه لم يُوَحِّد ربَّهُ في الأفعال، قال: فلان أزْعجني، وفلان أغضبني، وفلان أعطاني، وفلان حرمني، إذا لمْ يُوَحِّد في الأفعال، ويراها كلّها من الله عز وجل فقد وقعَ في نوْعٍ من الشِّرْك الخفيّ.

2 - الرياء اليسير:

ما الشِّرك الخفيّ ؟ العلماء قالوا: الرِّياء اليسير، تقول: هذا من أجل زَيْد، وهذا من أجل عُبَيْد، وأنت تقول هذا الكلام، وأنت لسْتَ قانعًا به من أجل فلان، وتغضَبُ غضبًا متصنّعًا من أجل علاّن، وأنت متظاهر بذلك، لكنك لسْتَ غاضِباً مِن أجْلِهِ، فالرِّياء اليسير نوعٌ من أنواع الشِّرْك الخفيّ.

3 - التصنُّع للخَلق:

التَّصنّع للخَلْق، كأن تُصَلّي صلاةً مُتْقَنَة أمام الناس، وقد تكون غير ذلك فيما بينك وبين نفسك، وهذا من الشِّرْك الخفي، أنْ تُظْهر الورع إذا كنت تحت أنظار الناس، فإذا خَلَوْتَ تساهلْتَ في هذا الأمر، فالتَّصنُّع للخَلْق نوعٌ مِن أنواع الشِّرْك الخفيّ.

4 – الحلف بغير الله:

ومَنْ حلفَ بِغَير الله فقد وقعَ بالشِّرْك الخفيّ، كأن يحلِفَ بأمِّه أو أبيه أو أولاده، وبأعزّ ما يمْلك، لذا مَن كان حالفًا فلْيَحْلف بالله تعالى، لكنّ الله عز وجل يقول:

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

(سورة المائدة)

أما أن تحلف بغير الله فهذا نوعٌ من أنواع الشِّرْك الخفيّ.

5 - ربط مشيئة الله مع مشيئة العبد:

إذا قلتَ: ما شاء الله وشئت، ما أراد الله وأردت، فهذا شِرْك لأنّ رجلاً جاء النبي عليه الصلاة والسلام فقال له: ما شاء الله وشئت، فغضب النبي أشد الغضب وقال:

((أجعلتني لله ندًا ؟ قل: ما شاء الله وحده))

(الأدب المفرد للبخاري عن ابن عباس بسند صحيح)

فكلمة: **(ما شاء الله وشئت)**نوعٌ من أنواع الشِّرْك الخفيّ.

6 - نسبة البلاء إلى العبد:

وكلمة هذا من الله ومنك ؛ هذا البلاء منك !! تعتقدُ اعْتِقادًا جازمًا أنّ هذا البلاء جاءك من فلان بالذات فهذا شِرْكٌ خفيّ، أين الله ؟ كيف سمح له أن يفعَلَ هذا ؟ وكيف سمَحَ له أن يطولك بكَلماته أو أفعاله ؟ إذا اعتقدْتَ أنّ فلانًا أو عِلاّنا بإمكانه أن يصيبَكَ بشَيء فهذا شرْك خفيّ.

7 – التوكل على العبد:

وإذا قلت: أنا بالله وبك فهذا شِرْكٌ خفيّ، وإذا قلتَ: ليس لي إلا الله وأنت، فهذا شِرْك خفيّ، قال تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

(سورة يوسف)

إذا قلتَ: أنا متوكِّلٌ على الله وعليك، قال الله عز وجل في الحديث القدسي:

((أنَا أغْنَى الشّرَكاءِ عن الشّرِك))

(ابن ماجه عن أبي هريرة)

8 – لولا كذا ...:

وإذا قلتَ: لولا أنت لم يكن كذا وكذا !! لولا هذا الطبيب لمات الابن ! ولولا المحامي لخَسِرنا الدّعْوَى، ولضاعَ البيت، ولولا فلان لكُنتُ في حالةٍ صعبة، إذا عَزَوْتَ النّفْع أو الضرّر إلى إنسان فهذا شِرْكٌ خفيّ، وإذا قال شخصٌ لفلان: أنا تائبٌ إليك، فهذا شِرْك، المبالغة في تعظيم غير الله تعالى شِرْك خفيّ ز

9 - التوبة لغير الله:

وأن تعتقد أنّ هذا الإنسان تنتهي عنده آمالك وهو يرْفَعُك أو يخْفضك فهذا شِرْك، وقعَ أسيرٌ في عهْد النبي عليه الصلاة والسلام بيد المسلمين فقيل له: تُبْ، فقال هذا الأسير: اللهمّ إنِّي أتوب إليك ولا أتوب لِمُحمّد !

فعَن الأسْوَدِ بْن سَرِيعٍ أنّ النّبيّ صلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ أُتِيَ بِأسِيرٍ فَقَالَ: اللّهُمّ إنّي أتُوبُ إلَيْكَ، وَلا أتُوبُ إلَى مُحَمّدٍ، فَقَالَ النّبيُّ صلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ:

((عَرَفَ الْحَقّ لأهْلِهِ))

(رواه أحمد)

لا يُتاب إلا لله عز وجل.

10 - النذر لغير الله:

ومَنْ نذر لغير الله فقد وقعَ في الشِّرك الخفيّ لأنّ النّذر يجب أن يكون لله وحده، هناك آيات كثيرة، قال تعالى:

(يُوفُونَ بِالنّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرّهُ مُسْتَطِيرًا)

(سورة الإنسان)

النّذْر لله، ومن نذَرَ لغير الله فقد أشْرَكَ.

ومن توكّل على غير الله، ومن اعْتَمَدَ على غير الله، ومن أرْضى غير الله، ومن أراد غير الله، ومن توجّه لغير الله ؛ هذا كلّه شرْك خفيّ ونرْجو الله سبحانه وتعالى أن ننْجُوَ منه جميعًا.

11 – التذلل لغير الله:

كذلك التّذلّل لغير الله شرك، والخضوع ؛ شرْك، وأن تبتغي مرضاة زَيْد ؛ شِرْك.

12 – حمدُ غير الله على ما أعطاك:

وأن تحمَدَ الناس على ما أعطاك الله ؛ شرْك، وأن تذمّهم على ما منَعَكَ الله ؛ شرْك، قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنه من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسَخط الله، وأن تذمّهم على ما لم يعْطِكَ الله))

13 – طلب الحوائج من ا لموتى:

ومن هذا القبيل طلبُ الحوائج من الموتى، إنسان ماتَ، والإنسان إذا مات انْقَطَعَ عمله، فإذا وقفت على شُبّاك وليّ، وأمْسَكْتَ بالنافذة، وهززْتها بِعُنْف، وقلت: يا فلان، فهذا شرْك خفيّ، ماذا يفعل لك هذا الوليّ القابعُ في قبره ؟ والدليل أنّ النبي عليه الصلاة والسلام قال الله في حقّه:

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِي السُّوءُ)

(سورة الأعراف)

إذا كانت هذه حال النبي عليه الصلاة والسلام، فما بالك بغيره من الناس، وهناك آية ثانية:

(قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعًا إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ)

(سورة يونس)

قال العلماء: إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يملكُ لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فلأنْ يعجز عن أن يمْلِكَ للناس النَفع والضرّ فهذا من باب أولى، وإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول: لا أعلم الغيب، فأيّ مخلوقٍ يدّعي ذلك فهو كاذِب، أيّ مخلوق يدّعي أنّه يملك الضرّ والنّفع فهو كاذب، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوِ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ))

(رواه الدرامي)

هذا كلّه من الشّرك الخفيّ.

14 - الاعتماد الخالص على الأسباب:

وقد بقي في الشِّرْك الخفيّ موضوع قصير، وهو أنّ بعض العلماء ومنهم الشّيخ الأكبر محيي الدين بن العربي في كتابه الوصايا يقول: " **الشّرْك الخفيّ أن تعتمِدَ على الأسباب** "، فالمال سبب، فالذي معه المال والوفير ومعتمدٌ عليه، وواثق من كثرته، ويعلم أنّ المال يحل كلّ مشكلة، هذا الذي يعتمد على الأسباب وقعَ في الشِّرْك الخفيّ وهو لا يدري فلان قويّ البُنيَة، وقد اعْتَمَدَ على بنْيتِهِ، وقد اعتنى بصِحّته وظنّ أنّ عمرهُ مديد وقعَ في الشِّرْك الخفيّ، أو اعْتَمَد على جاههِ واعتمدَ على مَنْ حوله، وعلى جماعته، حينما تعتمد على الأسباب قد وقعْت في الشِّرْك الخفيّ فما معنى قوله تعالى:

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

العلاقة بين المعصية ونتائجها:

الحقيقة هناك معنى دقيق جدًا، فهناك علاقة بين المعصيَة وبين نتائجِها، وإنّ هذه العلاقة علاقة عِلْمِيّة، أيْ: علاقةُ سبب بِنَتيجة، وإن علاقة المعصيَة بنتائِجها، هي علاقة عِلْمِيّة، إذ هي علاقة سبب بِنَتيجة، فما معنى قوله عز وجل:

(فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

(سورة الشعراء)

مَن اعتمد على ماله فقد وقعَ في شرْكٍ خفيّ، لماذا يُعَذّب ؟ في حال وُجود المال، يخاف أن يفْقِدَهُ، فَتَوَقُّعُ المصيبةِ مصيبةٌ أكبر منها، في حال وُجوده في هذا المنصب الرفيع يخاف أن يفْقِدَهُ، فخَوفُ فقْدِ هذا المنصب هو عذابٌ مستمرّ ؛ لأنّك من خَوْف الفقْر في فقْر، ومن خوْف المرض في مرض، وتوقّع المصيبة مصيبة أكبر منها، فالإنسان الذي أشْرك بالله فاعْتَمَدَ على بعض الأسباب يُعذّب لأنّه قد يتوهّم فقْدها في حال وُجودها، وإذا فُقِدَتْ منه فعْلاً يُعَذّب بِفَقْدها، فأنت في حال وُجودها تتوهّم زوالها فَتَعَذّب، وفي حال زوالها فتُعَذّب بفقدها، أما إذا اعْتَمَدت على الله عز وجل، قال تعالى:

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

(سورة القصص)

مَنْ اعْتَمَدَ على ماله ذلّ، ومن اعتمَدَ على نسبه اخْتَلّ، ومن اعْتَمَدَ على الله لا ذلّ ولا اخْتَلّ، لذلك:

اجْعَل لـربّك كلّ عزّك يستقرّ ويثبـــتُ

فإذا اعْتَزَزْتَ بمَن يموت فإنّ عزّك ميّـــتُ

* * *

جوهر القرآن التوحيد:

لو تتبّعْتَ القرآن الكريم في أكثر آياته، تجد أنّ جوهر القرآن هو التَّوحيد، قال تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُون (55) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

هذا هو التوحيد، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

الدِّين كلّه توحيدٌ وطاعة، وتوحيدٌ وعبادة، أما الشِّرْك يُسَبِّب الحِقْد والشِّرْك يُسَبِّب النِّفاق، والشِّرْك يُسَبِّب المعْصِيَة، والشِّرْك يُسَبِّب الحُزْن والألم، والقهْر، أما إذا وحّدْتَ الله عز وجل فقد أُزيحَتْ عنك جبال من الهموم، لذلك أعراض الشِّرْك كثيرة جداً، وكلها أعراض لمرضٍ واحد، ألا وهو الشِّرْك، والشِّرك عِلاجه التوحيد، والتوحيد عِلاجه التَفكّر في خلق السماوات والأرض، ومعرفة كتاب الله عز وجل. وفي الدرس القادم إن شاء الله تعالى نُتابع قوله تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنّي بَرِيءٌ مِمّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحِيمِ (217) الّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلّبَكَ فِي السّاجِدِينَ (219) إِنّهُ هُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ (220))

(سورة الشعراء)

الفرق بين اتخاذِ الأسباب والاعتمادِ على الأسباب:

بقي تعقيب صغير، ويتلخّص في الفرق بين الأخذ بالأسباب، والاعتماد على الأسباب، لا يعني أن عليك أن تُعطِّل الأسباب، فَلَكَ أن تأخذ بالأسباب، ولك أن تأخذ من كلّ شيءٍ سببًا، ولك أن تعالج ابنك عند الطبيب، فهذا لا يتعارض مع التوحيد، واعلم أنّ التوحيد أن تأخذ بالأسباب، والشِّرْك أن تعتَمِد على الأسباب، وفرْق كبير بين أن تأخذ بها وبين أن تعتمد عليها، فإنّ الأخذ بالأسباب دين.

عن ابن عباس قال: **<< كانوا يحجون ولا يتزودون، قال أبو مسعود: كان أهل اليمن أو ناس من أهل اليمن، يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون**، فأنزل الله عزوجل:

(وَتَزَوّدُوا فَإِنّ خَيْرَ الزّادِ التّقْوَى)

الآية.

(أبو داود بسند صحيح)

ولِمُجَرّد أن تعتمد على الأسباب فقد أشْركت، لماذا ؟ لأنّ الله سبحانه وتعالى خلقَ الكون وَفْقَ نِظام دقيق، وهذا النِّظام لن يُخْرق من أجلك، فإذا أراد الإنسان أن يُقيم مشروعًا توفّرت له أسباب النجاح، ومكان المشروع له قيمة، وحجم رأس المال له قيمة، طُرُق التّعامل لها قيمة ونوع البضاعة لها قيمة، إن لم تأخذ بالأسباب سُبِقت، وحينما تخلّف المسلمون عن ركْب بقِيّة الأمم فإنّما تخلّفوا بسبب فهْمِهم السّقيم للتّوكل فالتوكّل محلّهُ القلب، والأسباب محلّها الجوارح.

كأنّني أريد أن أقول لكم: إيّاكم أن تفهموا من التّوحيد ترْك الأخذ بالأسباب، التوحيد أن تأخذ بالأسباب، ولكنَ الشّرك أن تعتمد عليها، وتنسى الله عز وجل، والقصص التي لا تُعدُّ ولا تُحصى مفادُها أنّ الإنسان لِمُجرّد أن يعتمد على ماله أو على قوّتِهِ، أو على صِحّته أو على أهله، أو على مَنْ حوله، أو على جماعته عندئذٍ يؤدّبه الله عز وجل، وإليكم هذه القصّة الخِتامِيّة:

أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام هم أشْرفُ البشر بعد الأنبياء باعوا أنفسهم لله عز وجل، وفَدَوْا نبيّهم بأرواحهم، واتّبعُوه في ساعة العُسْرة، ومع ذلك خاضوا معه بدْراً وأحداً والخندق، وهاجروا، وتركوا أموالهم وأولادهم، وأطاعوا ربّهم، وحينما قالوا والنبي معهم في حنين: لن نُغْلبَ مِن قِلّة، واعْتَمَدوا على عددهم وعلى قوّتهم بعد فتْح مكّة كما قال تعالى:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

(سورة التوبة)

لما أعجبتهم قوته، وركنوا إليها تفرّقوا بَدَدا، هذا ملخّص الملخّص، فإذا كان أصحاب النبي صلوات الله عليه ورضي الله عنهم قد عالجهم الله من الشّرْك الخفيّ، فَمَن نحن حتى لا نعالج ؟!! فبِمُجَرّد أن تقول: أنا وقعْتَ في الشّرْك، وقعت في المطبّ، ولكن قل: الله، وهذا من فضل ربّي، لقد أعانني ربّي، وألهمني، وساعدني، ولقد نوّرني، فلذلك الطبيب الماهر قبل أن يُعالج المريض يقول: اللهمّ إنّي تبرّأتُ من حولي، وقوّتي، وعلمي، والتَجَأتُ إلى حولك، وقوّتك يا ذا القوّة المتين، وهكذا المعلِم والمحامي والتاجر، وأيّ إنسان في أيّ عمل، وأنت كذلك عليك أن تعْلن براءتك من حولك وقوّتك وعلمك، وقل: يا ربّ، ليس لي إلا أنت، وهذا هو التوحيد، وما دُمْت معه فهو معك، فإذا قلتَ أنا وانْفَصَلت عنه، واسْتَغْنَيْت عن الله واتّكلت على نفْسِك أوْكَلك الله إيّاها، وهذا شيء مهمّ ودقيق في عالم الإيمان ؛ والتّوْحيد، وإنّ الذي يتناقض معه هو الشّرك، نعوذ بالله من الشّرْك الخفيّ والجليّ.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (16-20): تفسير الآيات 214 - 216
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-11-03

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السادس عشر من سورة الشُّعراء، في الدرس الماضي وصلنا إلى قوله تعالى:

(أفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ (207) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (208) ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (209) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (212) فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215))

(سورة الشعراء)

الأقربون أولى بالمعروف:

النبي عليه الصلاة والسلام أُمِرَ في هذه الآيات أن يُنْذِرَ عشيرته الأقربين، والأقربون أولى بالمعروف، الأقربون إليك أولى بتَوجيهك، الأقربون أولى بعِنايتك، الأقربون نسبًا، والأقربون مكانًا، والأقربون في العمل، المؤمن يبدأ بِمَن حوله، يبدأ بأهله وأولاده، ويبدأ بإخوته، وأخواته، ويبدأ بعَشيرته، ويبدأ بأبناء حَيِّه، وبِزُملائِهِ بالعمل ويبدأ بجيرانِهِ، هكذا كان توجيه الله تعالى لِنَبيّه صلى الله عليه وسلّم، قال تعالى:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

(سورة الشعراء)

وهناك أُناسٌ يَدَعون بلدهم، ويبحثون عن عملٍ صالح في مكان آخر، لكنّ بلدهم أَوْلَى بهم، وهذا هو الأصل، وأقرباؤُهم أولى بهم، وعشيرتهم أولى بهم، البلد الذي احْتَضنهم أولى بهم، قال تعالى:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

(سورة الشعراء)

ما مِن علاقة أَوْقَعُ في النّفس من علاقة الإيمان بين الأقارب، فإذا كان إخوانك وأخواتك مؤمنين، وكان أولادك على الطريق الصحيح فهذه سعادة ما بعدها سعادة، وهذا يُستنبط من قوله تعالى:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

(سورة الشعراء)

ثم الآية التي تليها:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

أمْرُ اللهِ نبيّه عليه الصلاة والسلام بخفض الجناح والتواضع:

باديَ ذي بدْء، هذا تَوْجيه من الله سبحانه وتعالى للنبي عليه الصلاة والسلام في الطريقة التي ينبغي أن يُعامِلَ بها أصحابهُ، هذا توجيه، أو تربيَةٌ، أو تأديب، حينما سئل النبي عليه الصلاة والسلام عن الأدب الرفيع الذي يتحلّى به فما زاد أنْ قال:

((أدّبني ربّي فأحسن تأديبي))

(الجامع الصغير عن ابن مسعود بسند ضعيف)

وهذه الآية مِن تأديب الله سبحانه وتعالى واخْفض جناحك لِمَن اتَّبَعَك من المؤمنين.

معنى خفض الجناح:

خفْض الجناح كِناية، والكناية هي التَّعبير عن الشيء ببَعْض لوازمِه، إذا أردْت أن تُعَبِّر عن كرم الإنسان قد تستخْدمُ أسلوبًا غير مباشر، فالكريم من لوازمهِ أنّ بابه لا يُغْلَق، دائمًا الضُّيوف يدخلون منه، فإذا عبَّرْتَ عن الكرم بطريقةٍ مباشرة تقول: فلان كريم، هذا الأسلوب اسمُهُ الأسلوب المباشر، أما إذا أردْتَ أن تعبِّرَ عن كرم هذا الإنسان بطريقةٍ غير مباشرة تسْتخدم الكناية، وتقول: فلان بابهُ لا يُغْلَقُ، أي هو كريم، وإذا أردْتَ أن تُعَبر أنَّ هذا الإنسان قد نَدِمَ، وقلتَ فلان نَدِم، فأنت اسْخدمْت الأسلوب المباشر، أما إذا أردْت أن تستخدم الكناية تقول: فلان عضّ على أصبعه ! قال تعالى:

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ)

(سورة الفرقان)

هذا كناية عن النَّدَم الشديد، وخفضُ الجناح كِناية عن التواضع، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، وَلا يَبْغِي بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ))

(رواه ابن ماجة)

والله سبحانه وتعالى يُوَجِّه النبي عليه الصلاة والسلام، أو يؤدِّبُهُ أو يُرَبِّيه كي يكون متواضِعًا مع أصحابه، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

فوائد خفض الجناح:

يبْدو أنّ خفض الجناح يؤلّف القلوب، وخفْض الجناح يُعين على المحبّة، والمحبّة أساس في الدّعوة إلى الله.

أحدُ المُعلِّمين القدامى الذين جاؤوا في العصور الساحِقة، في التاريخ القديم وهو أفلاطون استَدعى وليّا من أولياء تلاميذه، وقال له: خُذْ ابنَكَ عنّي، فإنّه لا يُحِبُّني !

التّعليم أساسه المحبّة، والتّعليم بالقهْر وبالإلزام لا يُجدي، كما قال أحد العلماء: **" يا بني، نحن إلى أدبك أحْرص منّا إلى عِلْمك"!** فهذا الأدَب، وذاك العطف، وذاك التواضع من المعلِّم يجعل قلوب المتعلِّمين تميل إليه، لذلك قال ربنا عز وجل:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

(سورة آل عمران)

وقبلها يقول عزّ وجل:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين)

(سورة آل عمران: 159)

هذه الرحمة التي اسْتكنّتْ في قلبك كان من آثارها هذا اللين ؛ لينُ الجانب قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

(سورة آل عمران)

من صفا الداعية المسلم خفضُ الجناح:

نحن أمام آية من آيات تربيَة الله سبحانه وتعالى للنبي عليه الصلاة والسلام، يجبُ علينا أن نأخَذ بها نحن، وعلى كلّ من دعا إلى الله، وتصدّى إلى هِداية الناس، وكلّ مَن نصّبَ نفسهُ إمامًا أو داعِيَة، لا بدّ من أن يتخلّق بأخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، وإلا تأتي دعوته جَوفاء لا جَدوى منها. قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ)

(سورة الشعراء)

خفْضُ الجناح كِناية عن التواضع، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

هذه الآية وردَتْ في صيغةٍ أخرى في مكان آخر من هذا الكتاب الكريم:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

قاطبة، أيْ أنت أيّها الأخ إذا دَعَوْت إلى الله فلا ينبغي أن تزدري مؤمنًا ليس من جماعتك، هذا ضيقُ أفُق، وهذه نظرةٌ ضيّقة، وهذه تُثير مشاعر العِداء، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

هذه مطلقة، ولو لم يتّبعوك، والمؤمن الصادق لا يغمط الناس حقّهم والمؤمن الصادق يعرف لكلّ ذي حقّ حقّه، والمؤمن الصادق ليس ضيّق الأفق، ولا محدود النّظرة، وليس يَعنيه إلا مَن حولهُ، لا، ثم لا، والله للجميع، وفوق الجميع، وبابهُ مفتوح للجميع، ورحمته لكلّ الناس، وهذا الذي جاء النبي عليه الصلاة والسلام وقال:

((اللهمّ ارْحمني ومحمّدًا، ولا ترحم معنا أحدًا، فقال عليه الصلاة والسلام: لقد حجّرْتَ واسعًا))

(الترمذي عن أبي هريرة)

رحمة الله واسعة ! فالفرْق بين الآيتين، الآية الأولى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

والآية الثانية:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الحجر)

في عهْد النبي عليه الصلاة والسلام كان بعض المؤمنين في مكّة كانوا عَيْن النبي عليه الصلاة والسلام، وكان إيمانهم في قلوبهم، والنبي يعرف ذلك، لذلك هؤلاء الذين آمنوا بِقُلوبهم، واقْتَضَتْ المصْلَحة ألا يظْهروا مَشْمولون بهذه الآية:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الحجر)

سواء كان إيمانه ظاهرًا أم غير ظاهر، وسواء كان معك أو ليس معك، المؤمن الصادق لا يغمط الناس حقّهم، ولا يزْدري الناس إن لم يكونوا من جماعته، وهذه نظْرةٌ ضيّقة محدودة لا تصلح إطلاقًا، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الحجر)

صور من تواضع النبي عليه الصلاة والسلام:

الشيء الآخر، ومما يؤكد تمسك النبي عليه الصلاة والسلام بهذا الأدب العظيم، ومِمّا يؤكّد اسْتجابته لهذا التّوجيه الكريم، ومِمّا يؤكّد حِرْصه على التمسك بهذا التّأديب مِن قِبَل الله عز وجل، كان عليه الصلاة والسلام إذا اجْتَمَع بأصْحابه كأنّه كأحدهم، والدليل: إذا دخل عليهم رجل يُريدهُ، والنبي عليه الصلاة والسلام معهم، ولا يعرفهُ فيقول: أيّكم محمّد ؟! ماذا نستنبط من هذا ؟ أنّه كان عليه الصلاة والسلام إذا جلس مع أصحابه فهو كأحدهم تمامًا، وإذا سار مع أصحابه كان كأحدهم أيْضًا، وقد كان عليه الصلاة والسلام لا يعطي لِنَفسه امْتِيازًا أبدًا، والقصّة المشهورة حينما كان النبي مع أصحابه الكرام قال:

((وأنا عليّ جمع الحطب))

(ورد في الأثر)

هذا هو خُلُق النبي عليه الصلاة والسلام، والقصّة التي تعرفونها كذلك، وأتلوها على مسامعكم دائمًا يوم بدر

((... وأنا وعلي وأبو لبابة على راحلة....))

(شرح السنة عن ابن مسعود)

قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

إذا أردت أن يُحِبّك الناس فتواضَعْ لهم، وإذا أردْت أن تكون طريقهم إلى الله فاخْفِض جناحك لهم، وهذا وصْفٌ، وفي هذه الآية جاء توجيهٌ يُسَمِّيه علماء التفسير تربية الله تعالى للنبي عليه الصلاة والسلام، وقد يأتي وصْفٌ، وقد تكون هذه التربيَة تعليمًا لنا، فكلّ من دعا إلى الله عز وجل لا بدّ من أن يتواضع للمدعو، إذا أردْت أن تدعو صديقك الذي في العمل إلى الله فاخْفِض جناحك له، واجْلِس معه، ولا تسْتعلِ عليه، ولا تقل له: أنا أعلم، وأنت لا تعلم، فهذا يُنَفِّر قلبهُ منك، دع الحديث عن نفسك كليًّا، حدِّثْهُ عن الله عز وجل، وعن رسول الله واكْتَفِ بهذا، ودع نفْسَكَ في الظّل، بعيدًا عن الأضواء حتى يُحِبّك الناس. النبي عليه الصلاة والسلام تَطبيقًا لهذا التّوْجيه الإلهيّ العظيم كان يخْصفُ نعْلَهُ بيده، ويخيطُ ثوْبهُ، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم، بل كان يكْنسُ بيتهُ، ويحلبُ شاته، ويخْدم نفسهُ، إذا كانت الزّوجة نائمة فاخْدِمْ نفْسَكَ، وكان يقول عليه الصلاة والسلام:

((إنّما أنا عبْد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد))

(الجامع الصغير عن عائشة بسند صحيح)

وفي معظم وقتِهِ كما وصفه العلماء كان في مهْنة أهله، أيْ في خدمة أهله، فإذا حضَرَت الصّلاة خرج إلى الصلاة، وكانت الأمَةَ أي الجارية الصغيرة تأخذ بيَدِهِ فتنطلقُ به حيث تشاء، وهذا من تواضعه صلى الله عليه وسلّم، وكان عليه الصلاة والسلام تَطْبيقًا لهذا التوجيه الإلهي يمرّ بالصِّبْيان فيُسَلِّم عليهم، ولو لم يعرف أسماءهم، يقول: السلام عليكم يا صِبْيان.

ومن هذا التّوجيه الكريم كان إذا أكَلَ لعَقَ أصابعه الثلاث، وهذا مِن السنّة، ومن تَوجيه الله الكريم أنّ النبي عليه الصلاة والسلام ما رُئِيَ مادًّا رجْلَيْه قطّ، سيّد الخلق، وحبيب الحقّ، وما عابَ طعامًا قطّ، من تواضعه صلى الله عليه وسلم، ولم يكن ينتَقِمُ لِنَفْسِهِ قطّ، إنّما يغضَب إذا انْتُهِكَت حُرْمةٌ من حرمات الله تعالى، وكان عليه الصلاة والسلام يأكل مع الخادم ويُجالس المِسكين، ويمْشي مع الأرملة والمسكين، وكان يبدأ من لَقِيَهُ بالسّلام، ويُجيبُ دَعْوَةَ من دعاه، ولو إلى أيْسَر شيء، قال مرّةً:

((لو دُعيتُ إلى ذِراع أو كراع لأجَبْتُ، ولو أهْدِيَ إليّ ذِراعٌ أو كُراعٌ لأجَبْتُ))

(الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند صحيح)

هذه أخلاقه صلى الله عليه وسلّم، وكان يعود المريض، ويشْهد الجنازة، ويركب الدابة، طبعاً ففي وقته أن ترْكب حِصانًا غاليَ الثّمَن شيءٌ يدْعو إلى الشّعور بالتّفَوّق، أما أن تركب دابّة قميئة فهذا شيء لا يفعلهُ إلا أواسط الناس، كان عليه الصلاة والسلام يركبُ دابّة مِمّا يرْكبهُ عامّة الناس.

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلّم أنّ امرأة كانت تخدمُ المسجد، ولا يعرفها أحد، بل لا أحدٌ يعرف أحدٌ اسمها، وكانت تخدم المسجد، ولما تُوُفِّيَتْ بدا لأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ورأوا أنّها أقلّ شأنًا من أن يذْكروا للنبي أنّها ماتَتْ ! ماتَتْ ودَفَنوها، فلمّا سأل عنها النبي عليه الصلاة والسلام، وأجابوه أنّها ماتَتْ، ودُفِنَتْ تألّمَ ألمًا شديدًا، وقال:

((هلاّ آذنتموني ؟!))

(متفق عليه)

فتوجّه إلى قبرها، واسْتغفر لها.

هذه أخلاقه، وإذا كنت من المؤمنين الصادقين فهذه أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

وبعض علماء السيرة جمعوا بعض شمائله في نصّ متّصل، من المناسب أن أقرأهُ لكم في مناسبة هذه الآية، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

من شمائله عليه الصلاة والسلام:

فقد كان عليه الصلاة والسلام جمّ التواضع، وافر الأدب، يبدأ الناس بالسّلام، وينصرفُ بكُلِه إلى مُحدِّثِهِ صغيرًا كان أم كبيرًا، أحيانا يحدِّثك ابنك مرّةً، ومرّتين، وثالثة، ثمّ تقول له: ماذا قلتَ لي ؟ النبي عليه الصلاة والسلام مِن أدبهِ الرّفيع أنّه ينْصرفُ بكلّه إلى محدّثه، صغيرًا كان أم كبيرًا، ويكون آخر من يسْحب يدهُ إذا صافحَ، وإذا تصدّق وضعَ الصّدَقة بيَدِهِ في يد المسكين، لا يلقيها له إلقاءً، وهذا من تواضعه صلى الله عليه وسلّم، وإذا جلس جلسَ حيث ينتهي به المجلس، ولم يُرَ مادًا رِجْليْه قطّ، ولم يكن يأنفُ من أي عمل لِقَضاء حاجاته، من حمَلَ حاجته بيَدِهِ برئ من الكِبْر، أو حاجة صاحبٍ أو جار، وكان يذهب إلى السوق، ويحملُ بضاعته ويقول: أنا أولى بحَمْلها، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

وكان يُجيب دعْوة الحرّ والعبْد والمِسكين، وكان يقْبلُ عُذْر المعْتذر، وكان يرْفو ثوْبهُ، ويخصف نعلهُ، ويخدم نفسهُ، ويَعْقِلُ بعيره، ويكنسُ داره وكان في مهنة أهله، وكان يأكل مع الخادم، ويقضي حاجة الضّعيف والبائس، وكان يمشي هَوْنًا خافض الطّرف، متواصل الأحزان دائمَ الفِكرة، ولا ينطق إلا لِحاجة، طويل السُكون، إذا تكلّم تكلّم بجَوامع الكلِم، وكان دَمِثًا أي لطيفًا، ليس بالجافِ ولا المُهين يُعظِّمُ النِّعَم وإن دقتْ، فلو أنّه شرب كأس ماء قال: الحمد لله رب العالمين الذي جعل هذا الماء مسْتساغًا، وجعل طريقه سالكًا، لا يذمّ من هذه النِّعَم شيئًا فهناك من يكشّر حينما يأكل، وكأنّه قد اشْمأزّ منها، ولا تُغْضِبُهُ الدنيا، ولا ما كان منها، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غضّ بصرهُ، وكان يؤلِفُ ولا يُفَرّق، يقرّب ولا يُبَعِد، يُكَرّم كريم كلّ قوم، ويولّيه عليهم، ويتفقّد أصحابه، ويسأل الناس عمّا في الناس، كيف حالكم ؟ كيف أعمالكم ؟ كيف أهلكم ؟ هل أنتم مرْتاحون ؟ يسأل الناس عما في الناس، يُحَسِّنُ الحسَنَ ويُصَوّبُهُ، ويُقبحُ القبيح ويوهِّنُهُ، لا يُقصِّر عن حقّ ولا يُجاوِزُهُ، ولا يحْسب جليسهُ أنّ أحدًا أكرم عليه منه، من سأل حاجةً لم يردّه إلا بها، أو ما يسرّه من القول، وكان دائِمَ البِشْر، سَهل الخُلُق، ليّن الجانب، ليْس بفظ ولا غليظ، ولا صخّاب ولا فحّاش، ولا عيّابٍ ولا مزّاحٍ، يتغافل عمّا لا يشتهي، ولا يُخَيّبُ فيه مؤمّلاً، وكان لا يذمّ أحدًا ولا يُعَيّرُهُ، ولا يطلبُ عَوْرتَه، ولا يتكلّم إلا فيما يُرْجى ثوابُهُ، يضْحك مِمّا يضحك منه أصحابه، ويتعجّب مِمّا يتعجّبون، ويصبر على الغريب وعلى جَفْوَته في مسألته، ومنطقِهِ، ولا يقْطعُ على أحدٍ حديثاً حتى يجوزهُ، والحديث عن شمائلِهِ صلى الله عليه وسلّم لا تتّسِع له المجلّدات، فإذا شخص قرأ كتاب الجامع الصغير يجد في آخره أكثر من مئة حديث عن شمائله صلى الله عليه وسلم وكان جلّ ضَحِكِه التّبسّم، وكان كذا

وكذا، وكان يأكل كذا وكذا، وكان إذا دخل بيْتهُ لفّ ثوْبهُ، وهذه شمائلهُ صلى الله عليه وسلّم إذا اطّلعَ الإنسان عليها ينبغي أن يجعلها طريقًا له في حياته.

الآن الشيء الذي يعْنينا هو أنَ الله سبحانه وتعالى وجَهَ النبي عليه الصلاة والسلام، أو أدّبَهُ أو ربّاه بهذه الآية: قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

هل في القرآن الكريم آياتٌ توجيهية أخرى للنبي عليه الصلاة والسلام ؟

والخلاصة أن علينا أن نحسن الاقتداء به عليه الصلاة والسلام، وهناك سؤال يفرض تنفسه هو: هل في القرآن الكريم آياتٌ أخرى تؤدِّب النبي عليه الصلاة والسلام ؟ وتكون هذه الآيات أيضًا منهجًا لنا في معاملة الناس ؟ الحقيقة في القرآن الكريم ما يزيد على سبْع عشرة آية تخْتصّ بتَأديب النبي عليه الصلاة والسلام من هذه الآيات، قوله تعالى:

(وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ)

(سورة التوبة)

أيْ يستمِعُ إلى الناس، ويُصْدِرُ أحكامهُ ارْتجالاً من دون بحْثٍ أو تدقيق، ويستمع إلى كلام الآخرين، ويتصرّف من دون دِرايةٍ، هكذا يتّهمُهُ أعداؤُهُ، والله سبحانه وتعالى علّمه أن يُجيبهم عن هذا النّقْد الجارح إجابةً لطيفة هادئة، قال تعالى:

(وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُل أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ)

(سورة التوبة)

أنا أسْتَمِعُ لِقَضاياكم ولمُشكلاتكم، ولا أتّخِذُ قرارًا من دون تحقيق أو بحْثٍ أو تبصّر، والله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

(سورة الحجرات)

حتى النّقْد الجارح، وحتى النّقْد القاسي، إذا نُقِد به النبي عليه الصلاة والسلام علّمهُ الله سبحانه وتعالى أن يُجيب عليه إجابة هادئة لطيفة لا تجْريح فيها، قال تعالى:

(وَيَقُولُون هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ)

(سورة التوبة)

أستمع لكم لأنْفعَكُم، وأسْتَمِعُ لآخُذَ بيَدِكم، ولا أُبادِرُ إلى عمل من دون تدقيق أو بحثٍ أو دراسة أو متابعةٍ.

شيءٌ آخر، الله سبحانه وتعالى وجّهَ النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(وَأَنْ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة المائدة)

هذا موقف دقيق، فأحيانًا تتمنّى أن تتساهل مع زيْدٍ من الناس، لعلّه يأتي إلى المسجد، ولعلّه يصبحُ من إخوانك لعله يستقيم، إذا تساهلت معه في الباطل، وإذا أفْتَيْتَ له فتيا لا ترضي الله، وترضيهِ هو، فهذا لا يصحّ في الدّعوة إلى الله عز وجل:

(وَأَنْ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ)

(سورة المائدة)

أي لا تتّبع أهواءهم رجاء أن يؤمنوا، قال تعالى:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت)

من صفات الدَعوة إلى الله أن تردّ على الإساءة بالإحْسان، فأنت فوق مستوى الانتقام، وأنت فوق أن تردّ على السيّئة بسَيّئة مثلها، ولأنّك مثلٌ أعلى للناس، قال تعالى:

(ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ)

(سورة فصلت)

من توْجيه الله عزّ وجل للنبي عليه الصلاة والسلام:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(سورة فصلت)

هذا توجيه للنبي وتعليم لنا، فالله سبحانه سميع لاسْتِعاذتك، ولكن كلمة عليم تعني أنّ الاستعاذة باللِّسان لا تكفي، الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم لا تكفي باللسان أبدًا، لا بدّ أن تكون في القلب أيضًا، لابدّ أن تتَّجِه النَفس كلّها لِرَبّها ملتجِئَةً إليه حتى تُقْبَلَ استعاذتها، لذا نسمعُ قِصَصًا كثيرة عن أناس يحسّون كوابيس في الليل، أو تعاوُنٍ بين الإنس والجنّ فأقول له:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(سورة فصلت)

فيجيبني: اسْتَعَذْت، ولم يحدث شيء ! وإليك الجواب ؛ لم يحدث شيء لأنّك اسْتَعَذْت بِلِسانك فقط، ولكن يجب أن تتّجه النّفس بِكُلِّيَتها، وبِكُلّ مشاعرها، وبكلّ طاقاتها إلى الله عز وجل مستعيذةً به، حتى يحْمِيَكَ الله من نزْغ الشيطان، قال تعالى:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(سورة فصلت)

إنه سميع عليم لما في قلبك.

تَوْجيهٌ آخر من الله عز وجل للنبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(فاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ)

(سورة الحجر)

ما هو الصّفْحُ الجميل ؟ هو الصّفْح الذي لا غضب فيه، ولا تدمّر، ولا كِبْر.

فهذه توجيهات الله تعالى للنبي عليه الصلاة والسلام، إنَّها توجيهات وتعليم لنا في الدرجة الأولى، وتوجيه آخر من هذه التوجيهات، وهذه التوجيهات كلّها على شاكلة:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الشعراء)

قال تعالى:

(وَلا تَمُدّنّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

يعني لا تَطْمع بما عند الناس، أو لا تتمنّ ما أعطى الله بعض الناس من متاع أهل الدنيا، وهذا شأن من دعا إلى الله عز وجل، قال تعالى:

(وَلا تَمُدّنّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

سيّدنا عمر دخل على النبي عليه الصلاة والسلام وقد استلقى على الحصير، وقد أثّر الحصير على خدِّه الشريف، فقال سيدنا عمر: **رسول الله ينام على الحصير، وكِسْرى ملك الفرس ينام على الحرير ؟!**

فقال عليه الصلاة والسلام:

((أَوَ في شكٍّ أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عُجِّلَت لهم طيّباتهم في حياتهم الدنيا، وإنّما هي نبوّة وليس ملكًا !))

قال تعالى:

(وَلا تَمُدّنّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(سورة طه)

قال تعالى:

(وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ)

(سورة المدثر)

وهذا توْجيهٌ آخر، أيْ لا تستكثر الناس بعَطائك، ولا تُعَلِّق أمَلاً على أنّ هذا العطاء يجعل الناس يلتفتوا إليك ويُحِبُّوك، أعْطِهِم لله دون أن تنتظر منهم ولاءً ولا إقبالاً ولا التِفاتًا، ولا تمْنُن تسْتَكْثر بمَنِّكَ هذا

الناس حولك قال تعالى:

(وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7))

(سورة المدثر)

ولْيَكُن صبْرُك لله عز وجل، لا لِجِهة أخرى، قال تعالى:

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلا بِاللّهِ)

(سورة النحل)

قال تعالى:

(خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ)

(سورة الأعراف)

وهذا توجيه آخر من توجيهات الله عزّ وجل للنبي عليه الصلاة والسلام، وهذا الذي يدْعو إلى الله لا بدّ أن يتَّسِمَ بالعَدل، والصّفْح لأنّ الصِّفَة التي تُخالف هذه الصِّفة لا تليق بمَن دعا إلى الله سبحانه وتعالى. توجيهٌ آخر، وما أكثر التَّوجيهات، قال تعالى:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

(سورة آل عمران)

النبي عليه الصلاة والسلام شاوَرَ أصحابه قُبَيل معركة بدر، وشاورَهم قُبيل معركة أحد، وشاورهم قبل معركة الخندق، وكان يُشاورُهم مُشاورَةً حقيقيّة، لأنّ الله سبحانه وتعالى أمرهُ أن يُشاورَهم، ومن اسْتَشار الرّجال اسْتعار عُقولهم، وشيءٌ آخر من توجيهات الله عز وجل، كما في قوله تعالى:

(إِنّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النّبِيّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقّ)

(سورة الأحزاب)

كان حياؤُه صلى الله عليه وسلّم يغْلب عليه، وكان يسْتحي أن يُواجِهَ أحدا بما يكْره، وكان يستحي أن يُنبهَ أحدًا إلى عملٍ يؤذي النبي، يحْتَمِلُ الأذى، ويخشى أن يُكَلِّمَهُ كلمةً تؤذيه، قال تعالى:

(إِنّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النّبِيّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنْ الْحَقّ)

(سورة الأحزاب)

الله عز وجل تولّى عنه تنبيه أصحابه ببَعض ما كان يؤذيه فيسْتحي من أصحابه، فهذه الآيات التي وجّه بها النبي عليه الصلاة والسلام أنْ شاورْهم في الأمر، وتحدَث عن حيائِه وعن أمْرِهِ، وعن الإعراض عن الجاهلين، وأمرهُ أن يصبر لله عز وجل، وأن لا يمدنّ عينيه، وأمره أنْ يصْفح الصّفْح الجميل، وأمرهُ أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم لسانًا وقلبًا، وأمرهُ أن يدْفعَ بالتي هي أحْسن، وأمره ألا يحْزنَ عليهم، وأن يترفّعَ عن عطاياهم، وأن يحكم بينهم بما أنزل الله، ولا يتّبع أهواءهم، هذه التوجيهات يجب أن يأخذ بها كلّ إنسان إذا أراد أن يُحدِّث الناس عن الله عز وجل، ويدعو إليه، وعلى كُلٍّ ذكرْتُ هذه التوجيهات اسْتدراكًا للتوجيه الذي ورد في هذه الآية:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220))

(سورة الشعراء)

وفي الدرس القادم إن شاء الله سيكون مركز الثِّقل في هذه الآيات بحْث التَّوَكّل، ومتى يكون صحيحًا ؟ ومتى يكون التوكل تواكلاً ؟ ومتى يُذمّ الإنسان على تواكله ؟ ومتى يُمْدح على توكله ؟ بحثٌ دقيقٌ إن شاء الله نجعلهُ موضوع الدرس القادمِ، وهو حول الآية الكريمة:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

(سورة الشعراء)

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (17-20): تفسير الأية 217
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-11-10

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس السابع عشر من سورة الشُّعراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (213) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (214) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (215) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (216) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220))

(سورة الشعراء)

حقيقة التوكل:

أيّها الإخوة الأكارم، وعدْتكم في الدرس الماضي أن يكون الموضوع في هذا الدرس حول التَّوَكّل، لِوُرود هذه الآية الكريمة التي فيها أمْرٌ من الله عز وجل للنبي عليه الصلاة والسلام، والله سبحانه وتعالى أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين، فأيّ أمْرٍ مُوجَّه إلى النبي عليه الصلاة والسلام هو في الوقت نفسِهِ مُوَجَّه إلى كلّ مؤمن، فأنت أيها المؤمن أمام نصّ قَطْعِيّ الثُّبوت، قَطْعِيّ الدلالة، يأْمُرُكَ بالتَّوَكّل، فما هو التوكّل ؟

الله سبحانه وتعالى تحدَّث في القرآن الكريم عن التوكّل في آياتٍ كثيرة، من أبْرز هذه الآيات، قوله تعالى:

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة آل عمران)

إن الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين:

هذه آية صريحة، المؤمنون يجب أن يتوكّلوا على الله، إذاً فهِمْنا من قول الله عز وجل في سورة الشعراء:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

(سورة الشعراء)

على أنّها موجّهةً إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وأيُّ أمْرٍ يقتضي الوجوب موجّه إلى النبي عليه الصلاة والسلام هو بالتَّبَعِيَّة مُوَجّه إلى المؤمنين، ففي هذه الآية نصّ صريح يؤكِّد على كلّ مؤمن أن يتوكّل على الله، والإيمان كما يعرّفُه بعض العلماء: إقْرار باللِّسان، وعمل بالأركان، واعتقاد بالجنان، فهناك جانب داخلي، وجانب كلامي، وجانب سلوكي، ويبْدو أنّ الناس قد يُعلّقون أهَمِيَّة كبرى على الجانب السُّلوكي، وقد يُغْفِلون على ما يجب أن يكون في نفْس المؤمن من أحوال، من لوازم المؤمن أنّه متوكّل، والتوكّل سعادة، ومن لوازم المؤمن أنّه مستَسْلِم، وأنه راضٍ أنه مُفَوّض، فلذلك إن لم نعْرف دقائق هذه المشاعر، وكيف تتم تنميتها ؟ وكيف السبيل إليها، فنحن لا تتوافر فينا صفة الإيمان، الإيمان مجموعة من الحقائق التي يجب أن تعتقد بها، ومجموعة من الأحوال التي يجب أن تشعر بها، ومجموعة من الأقوال التي يجب أن تنطق بها، ومجموعة من الأعمال التي يجب أن تفعلها، فالتَّوَكّل حالة نفْسِيَّة تُلازم المؤمن، فما التوكّل ؟ قبل كلّ شيء نحن إما بالتَّبَعِيَّة لقول الله عز وجل:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

(سورة الشعراء)

أو بالأصالة مأمورون بالتَّوكّل، قال تعالى:

(وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ)

(سورة آل عمران)

هذه اللام لام الأمر، إذا اقْترنَتْ بالفِعْل المضارع تجعله في المعنى فِعْل أمر فالفِعل اُكْتُب فِعْل أمر، والفعل كتَبَ فعل ماضٍ، وهناك مضارع يكْتب، لو جاءَت لام الأمر مع الفعل المضارع يُصبحُ هذا الفعل في المعنى فعلَ أمر، قال تعالى:

(وَلْيُمْلِلْ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ)

(سورة البقرة)

فحيثما اقْترنتْ لام الأمر بالفعل المضارع جعلتْهُ في المعنى فعل أمر، وحيثما اقْترنَتْ لم بالفِعل المضارع جعلتْه في المعنى فعلاً ماضيًا ؛ لم يجْتهد لم ينْجح، وحيثما اقْترنَتْ لن بالفعل المضارع جعلتْهُ للمستقبل، بل إنّ التَّوَكّل شرْط لازمٌ غير كافٍ للإيمان، والدليل قول الله عز

(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة المائدة)

فإن لم تتوكّلوا فلسْتُم بِمُؤمنين.

الناس مع التوكل قسمان:

إنّ التوكّل يفْرز الناس قِسمَين:

قسْم مؤمنٍ إيمانًا حقيقيّا، وقِسْم آخر إيمانهُ شَكلي لا يُقدّم ولا يؤخّر، فالذي لا يتوكّل على الله ليْسَ مؤمنًا به، ولا يعرفهُ أساسًا، من علامة أنّك تعرف الله، وأنّك مؤمن به أن تتوكّل على الله، قال تعالى:

(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة المائدة)

فإن لم تتوكّلوا فلن تكونوا مؤمنين، هناك علاقة ترابطيّة بين الإيمان والتّوكل، إذا توكّلت فأنت مؤمن، وإذا آمنْتَ فأنت متوكِل.

مقاييس التوكل كما جاءت في القرآن والسنة:

النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الأحاديث يُعطينا مقاييس كقوله صلى الله عليه وسلّم:

((برئ من الشحّ من أدى زكاة ماله))

(الجامع الصغير عن خالد بن زيد بن حارثة بسند فيه ضعف)

هذا مقياس دقيق.

((وبرئ من الكِبْر من حَمَلَ حاجتهُ بيَدِهِ))

(الجامع الصغير عن أبي أمامة بلفظ سنده ضعيف: من حمل سلعته فقد برئ من الكبر)

و:

((من أكثر من ذِكر الله فقد برئ من النِّفاق))

(الجامع الصغير عن أبي هريرة بسند ضعيف)

وهذا مِقياس، قال تعالى:

(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة المائدة)

إن كنتَ مؤمنًا فلا بد أن تتوكّل على الله، وما أكْثر الهموم، وما أكثر أشْباه المصائب، وما أكثر المُقْلِقات في الحياة الدنيا، والله سبحانه وتعالى هكذا جَعَلَ الدُنيا ؛ مَشْحونة بالمُقْلِقات وبالمَخاوِف، ومن أجل أن تلتجئ إليه، فما هذه المشكلات ؟ وما تلك المخاوف ؟ وما هذه الأشباح إلا من أجل أن تنْدفِعَ إلى بابه، وأن تقف على بابه، وأن تُمَرّغ جبْهتك في أعْتابه، وهذه حِكمة المصائب، من أجل أن تندفِعَ إلى الله عز وجل إذًا قال تعالى:

(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

(سورة المائدة)

إن كنتَ مؤمنًا فتَوَكَّل على الله، وإن كنت متوكِّلاً على الله فأنت مؤمن، هناك علاقة ترابطِيَّةٌ بين الإيمان والتَّوَكّل.

شيءٌ آخر، قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(سورة الطلاق)

أي: يَكْفيه، أحيانًا تُوَكِل أخًا لِحَلِّ قضيَّة، وقد تُفاجأ أنّ هذا الأخ الذي وكّلْتَهُ بهذه القضيَّة ليس في المستوى المَطلوب، بل دون المستوى المطلوب، فخَسِرت هذه القضية، وقد تضَعُ ثِقَتَكَ بإنسانٍ فإذا هذا الإنسان ليْسَ في المستوى المطلوب لا إخلاصًا ولا علمًا ولا قُدْرةً، وقد ينقُصه الإخلاص لك فيُهْمِلُ هذا التَّكليف، وقد يكون مخْلِصًا لك، ولكن ينْقصُه العِلم الغزير، فيُخْفِقُ مَسْعاه، وقد يكون مخْلِصًا لك، ويتمتَّعُ بعِلْمٍ غزير، ولكنّ قدْرتهُ محدودة على حلّ هذه المشكلة، لكنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(سورة الطلاق)

رحمة النبي عليه الصلاة والسلام بالخَلْق:

إنّ الله سبحانه وتعالى خَلَقَ العِباد لِيَرْحمهم، فهو الذي يُحِبُّهم، وهو الذي خلقهم لِيُسْعِدَهم، وما رحمة العباد فيما بينهم إلا جزءٌ يسيرٌ يسير من رحمة المولى القدير، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران)

أيْ برَحمةٍ جُزْئِيَّة، وهذا تنكير التَّقليل، وهو أرحمُ بنا من أنفسنا، وأرْحمُ بالابن مِن أمِّه، قال تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة التوبة: 128)

كلّ هذه الرَحمة التي يمتلئ بها قلبُ النبي عليه الصلاة والسلام جزْءٌ يسير يَسير من رحمة الله عز وجل، والدليل قول الله عز وجل:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف)

هذه الألف واللام تُفيد الاسْتغراق، أيْ الرحمة كلّها عند الله عز وجل، إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام وهو في الطائف، وقد وصَلَها مَشيًا على قدَمَيْه هو وغلامهُ زَيْد، وقد ردّ أهلها عليه ردًّا قبيحًا، وردًّا غليظًا وردًّا مُجافيًا، وكذَّبوهُ وسَخِروا منه، وأغْرَوا به صِبْيانهم، وألجؤوه إلى حائط، وجاءهُ جبريل عليه السلام وقال: يا محمّد، أمرني ربي أن أكون طوْع إرادتك، لو شئْتَ لأطْبقْتُ عليهم الأخْشبَيْن !

يعني الجبلين قال: لا يا أخي اللهمّ اهْدِ قومي فإنّهم لا يعلمون ماذا فعَل النبي عليه الصلاة والسلام ؟ الواحدُ مِن الناس إذا مَسَسْتَهُ بِسُوء يتمنّى أنْ يُمَزّقَكَ إربًا إربًا، إنْ مسَسْتَ مكانتَهُ، وإن مسسْتَ سُمْعتَهُ، وإن مسسْتَ ماله وحاجاته، فالنبي عليه الصلاة والسلام جاء ليَهْديهم فكان الأذى والصد ردّهم قال: **يا محمّد أمرني ربّ أن أكون طوْع إرادتك، لو شئْتَ لأطْبقْتُ عليهم الأخْشبَيْن !** يعني الجبلين قال:

((لا يا أخي اللهمّ اهْدِ قومي فإنّهم لا يعلمون لعلّ الله يُخْرج من أصلابهم من يُوَحِّدُه))

هذه رحمة الله، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران)

أما الله سبحانه وتعالى:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الكهف)

الرّحمة كلّها عنده، إذًا كما قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(سورة الطلاق)

يُحِبُّنا ورحيمٌ بنا، وعلمهُ لا حدود له، أحيانًا تُعطي آلةً لإنسانٍ تتوهّم أنّ فيه العِلم الكافي لإصلاحها، فإذا هو يُفسدها، ويُخَيّب ظنّك فأنت توكّلت عليه فأفْسَدَ لك الآلة، إذًا عِلمهُ ليس في المستوى المطلوب، عِلْمُ الله عز وجل محيط، وبكلّ شيءٍ عليم، وأحيانًا تضعُ هذه الحاجة عن زَيْد، وزيْدٌ يُحِبّك ومخْلصٌ لك، وزيْدٌ علْمهُ غزير، ولكنّ قدْرتَهُ محدودة، يقول لك: هذه ليْسَت في طاقتي، وتحتاج إلى توقيعِ من فلان، وفلان لا يُوَقّعُها، حاولْتُ معه فرَفَضَ، توسلت له فأبى.

أما ربّنا عز وجل فكل شيء بين أصبعيه، والقلوب بين أصبُعَيه كما قال عليه الصلاة والسلام، كُنْ فيَكُون وزل فيَزُول، إذًا محبّتُهُ وعِلمُهُ وقُدْرتُهُ، قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(سورة الطلاق)

لذلك قالوا: إذا أردْتَ أن تكون أقوى الناس فَتَوَكّلْ على الله، لو كنْتَ مُجَنّدًا في ثكنة، وكان لك رفيق عِرّيف، وهو يستطيع أن يتغاضى عنك إذا غبْتَ، وتنتهي هنا مسؤوليّته، ولكنّ هناك قضايا تحتاج أكثر من عِرّيف، لك ملازم رفيقك، هذا رتبتُهُ أوْسَع ولكن محدودة، فما قولك إذا كان قائدُ الجيش مِن طرفك؟ أيُّ شيءٍ يعْسُر عليه في تطبيق الأنظمة النافذة ؟ كلّما كان الذي توكّلت عليه عظيمًا كلّما أوْرَثَكَ أمْنًا واطْمِئْنانًا، كلّما رفعْتَ المسْتوى توسّعت في الراحة، فلِذلك:

(وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

(سورة الطلاق)

هناك آية أخرى تُفيد المعنى نفسه، قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا)

(سورة النساء)

يكفيك أنّ الله عز وجل إذا توكّلت عليه لا يُخَيب ظنّكَ، لذلك يقول الله عز وجل في الحديث القدسي:

((أنا عند ظنِّي عبدي بي فليظن بي ما شاء))

(الترمذي وابن ماجه)

ولا تقل: هذا الشيء صعب، قال تعالى:

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

(سورة الشعراء)

الأشياء التي تبْدو لك مستحيلة هي مسْتحيلة بحُكم العادة، ولكنّها على الله ليْسَت مسْتحيلة، وسَلْ الأطِبّاء عن الحالات التي تمّ في الشِّفاء بعد أن كان الشِّفاء ميْؤوسًا منه ؟ يقولون لك: هناك آلاف الحالات شفيت شفاءً ذاتياً، فيا أيّها الأطِبّاء، ماذا تُسمُّون شفاء هذه الحالات ؟ قالوا: الشِّفاء الذاتي، مرضٌ مَيْؤوسٌ منه، ومع ذلك إذا تدخَلَتْ قدرة الله عز وجل أصْبح السقيم صحيحًا، والفقير غنِيًّا، والطريد آمِنًا، ولكن إيّاك أن تتوكّل على الله عز وجل في الباطل ! يا محمّد، هكذا قال بعض من حَوْل النبي، **مثِّلْ بهم يتصدون قتلى المعارك من الكفار، هؤلاء كُفّار قريش الذين أخْرجوك، وعذّبوا أصْحابك، وقاتلُوك، وكادوا لك، وشَتَمُوك، واتّهَمُوك بالسِّحر والجنون، والشِّعْر، هؤلاء قد قتلْتهم ببَدْر مثِّلْ بهم** فقال عليه الصلاة والسلام:

((لا أُمثِّلُ بهم فيمَثِّل الله بي، ولو كنتُ نبيًّا !!!))

هذه النّقطة أتمنّى أن تقفوا عندها، يعني أن تتوكّل على الله لِتُؤْذيَ الناس ولِتَنال شيئًا ليس لك ؛ هذا شيءٌ مستحيل، إذا كان بعض البشر يُحابون أتباعهم على الباطل، فهذا ليس من صفات الله عز وجل،

((لو أنّ فاطمة بنتُ محمّد سرقتْ لقطعْتُ يدها))

(البخاري عن عائشة)

((يا فاطمة بنت محمّد، يا عبّاس عمّ رسول الله، أنْقِذا نفْسَيْكُما من النار فأنا لا أغني عنكما من الله شيئًا))

(الترمذي)

((من بطّأ به عمله لم يسرع به نسبُه))

(الترمذي، أبو داود، ابن ماجه)

((لا يأتيني الناس بأعمالهم، وتأتوني بأنسابكم))

(ورد في الأثر)

لا محاباة في الدِّين.

((لا فضْلَ لِعَربيّ على أعجميّ إلا بالتّقْوى))

(البيهقي عن جابر)

((الناس كلّهم بنو آدم، وآدم من تراب))

(الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة)

((الخَلْقُ كلّهم عِيال الله، وأحبُّهم إلى الله أنفعهم لِعِياله))

(البخاري عن عائشة)

الله سبحانه وتعالى لا يُحابي أحدًا.

قال سيدنا عمر رضي الله: **<< يا سعْدُ، لا يغرنّك أنّهُ قد قيل: خال رسول الله >> !** لا يوجد صحابي قال له النبي صلى الله عليه وسلّم:

((فِداك أبي وأمِي))

إلا سيّدنا سعْد، قال له:

((ارْمِ سَعْدُ، فداك أبي وأمّي))

(الترمذي وابن ماجه عن علي)

وكان إذا دَخَلَ سعْدُ، يقول: هذا خالي أروني خالاً مثل خالي، هل بعد هذه المحبّة محبّة ؟ هل بعد هذا الإيثار إيثار ؟ وهل بعد هذا التّكريم تكريم، ومع ذلك سيّدنا عمر الذي عرف الله عز وجل قال: يا سعْدُ، لا يغرنّك أنّهُ قد قيل خال رسول الله ! لا تغترّ، فالخلق كلّهم عند الله سَوَاسِيّة، وليس بعينه بينهم قرابة إلا طاعتهم له، وهذه المعاني تبثّ الطمأنينة في النّفس، يقول لك: أنا مَنْسوب !! قال عليه الصلاة والسلام:

((أنا جدّ كلّ تقيّ ولو كان عبْدًا حبشِيًّا...))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

و:

((سلْمان مِنّا آل البيت))

(الجامع الصغير عن عمرو بن عوف)

قال تعالى:

(تَبّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (5))

(سورة المسد)

فأبو لهب عمّ رسول الله **!! << ويا سعْدُ، لا يغرنّك أنّهُ قد قيل: خال رسول الله ! فالخلْق كلّهم عند الله سَوَاسِيّة، وليس بينهم قرابة إلا طاعتهم له >>.**

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ

إذاً هذا الكلام كله تمهيد لهذه الآية:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِين)

(سورة النمل)

إذا كنتَ على الحقّ فتوكّل على الله، وإن كنتَ على خِلاف الحق، فإن توكّلتَ أو لم تتوكّل فلن يكون الله معك، قال تعالى:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

(سورة المائدة)

معِيّة الله مَشْروطة، لا توجد هناك مَعِيَة مطلقة، إن فعَلْتُم كذا وكذا فلكم كذا وإلا فلا !! قال تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِين)

(سورة النمل)

فيا أيّها الإخوة الأكارم اِجْتَهَدوا أن تكونوا على الحقّ المبين، في بيعِكَ وشِرائِك، من دون غِشّ أو تدْليس، ومن دون غَدْر ولا اسْتِغلال جهْل الشاري، غبْن المسترسل ربا وحرام ! وفي علاقتك بزَوْجَتِك لا تكن ظالمًا، إذا كنتَ على الحقّ المبين فتوكّل على الله، وفي أيّ حركاتك وفي أيّ نشاط، وفي أيّ تحرّك، كُنْ على الحقّ، ولا تخْشَ في الله لوْمة لائم، قال تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِين)

(سورة النمل)

و أحيانًا يكون للإنسان صاحب وثيق الصِّلَة به، وهذا الصاحب له شأن كبير في المجتمع، هذا الصاحب يُدْخل على قلبهِ الطمأنينة، يقول لك: أنا فلان صاحبي ولا يهمني إذاً أحداً ! فإذا مات هذا الإنسان ؛ ماذا تفعل ؟ ربّنا عز وجل قال:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ)

(سورة الفرقان)

هؤلاء يموتون، قد يموت قبل أن يُعْطيكَ ما وعَدَك به، وقد تُعَلِّقُ على صُحْبَتِهِ آمالاً عريضة، فيموت بحادِث، أين آمالك ؟ ضاعَت مع هذا الحادث ! قد تُعَلِّقُ عليه أحلامًا فتقول: وعدني بهذا المنصِب، ووعدني بهذه الأرض، ووعدني بِمُوافقته على سفري، فإذا ماتَ فجأةً أين هذه الوعود ؟ لكن كما قال الشاعر:

اِجْعَل لِربك كلّ عِزّ يستقرّ ويثبت فإذا   اعْتَزَزْتَ بِمَن يموت فإنَ عِزّك ميّتُ

***

لذلك قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ)

(سورة الفرقان)

الآية الأخيرة في التوكّل:

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

(سورة آل عمران)

معنى ذلك أنَ كلّ عملٍ في الأرض لا ينجح إلا بِشَرْطَين ؛ أن تأخذ بالأسباب التي رسمها الله عز وجل، وأن تتوكّل على الله عزو جل الذي يحدث أنّ هناك من يأخذ بالأسباب بِكُلّ طاقاته، ولكنّه لا يتوكّل فَيُخْفِق، وهناك من يتوكّل ولا يأخذ بالأسباب فيُخْفِق، إذّا الأخْذ بالأسباب والتّوكّل كلاهما شرط لازمٌ غير كافٍ، خُذْ بالأسباب وتوكّل على الله، لذلك قال تعالى:

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

هذا الطبيب، المحامي، المهندس، المُدرّس، البائع، التاجر، الصانع، قبل أن تقول خطّطْت، وقرّرْت، ودرستُ السوق والأسعار والمواد ؛ قُلْ: اللهمّ لا سَهْل إلا ما جعلتهُ سهلاً، وأنت تجعل الحزن إذا شئْت سهلاً، واللهمّ إنّي تبرّأتُ من حولي وقوّتي، والتجأتُ إلى حولِك وقوّتك يا ذا القوّة المتين، قبل أن تقول: أنا، أعْلِنْ افتقارك إلى الله عز وجل حتى تسْتحِقّ المعونة ؛ لأنّه من اتَّكَلَ على نفْسِهِ أوْكلَهُ الله إيّاها، ومن شُؤْمِ العَبْد أن يعْتدّ بِنَفْسِهِ فيَكِلُهُ الله إليها قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (19) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (20) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (21) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (22))

(سورة المعارج)

لأنّهم متوَكِّلون.

صور عملية لحقيقة التوكّلِ والأخذِ بالأسباب:

النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح يقول:

((لو أنّكم توكّلتم على الله حق توكّله لرزقتم كما يرزق الطير، تغدو خماصا، وتروح بطانا))

(الترمذي وابن ماجه عن عمر بن الخطاب)

هناك توكّل هوائي، وتوكّل فارغ، وتوكّل شكلي، وهناك تواكل، وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة...))

(أخرجه الحاكم)

ومعنى راحَ في الحديث السابق عاد إلى بيْتِهِ، على خِلاف اسْتِعمال العامّة لهذه الكلمة، فلو طرقَ الإنسان بابك، وقال ابنك للطارق: راح بابا !! وكنت أنت داخل البيت، فابْنُكَ صادِق، لأنّ راحَ بِمَعنى عاد إلى البيت وغداً ذهب إلى عمله، ولكنّهُ كاذِبٌ شرْعًا لأنَ السائل فَهِمَ أنّه ليس في البيت، فهو صادقٌ لغةً، وكاذِبٌ شرْعًا ! لو أنّكم توكّلتم على الله حق التوكّل...." خِماصًا أي جائعة، بطنها فارغ، وتعود بطانًا أيْ ممْتَلِئَة، فهل يُفْهم من هذا أنّ الطّيْر بَقِيَتْ في أعْشاشِها وجاءها الرّزْق ؟ قلّما من ينتبه لهذا الحديث، عامّة الناس يظنون أنّه يأتيها رزقها رغَدًا، طيّب هذه الطّيْر تركَت عشّها، وطارَتْ تبْحثُ عن رِزْقها، إذاً التَّوَكّل يُرافقهُ السّعي، والسيّدة مريَم، أليس الله سبحانه وتعالى قد تكفّلَ برزْقها ؟ ولكن ما قال لها: كُلِي، ولكنه لن يقل لها كما في قوله تعالى:

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا)

(سورة مريم)

يحتاج الأمر إلى حركة وهزّة، فالسيّدة مريم أُمِرَتْ أنْ تهزّ جِذْع النَّخْلة وهذه الطّيْر تغْدو خِماصًا، أخرج من بيتك، واسأل، وابْحَث، ولكن أن تقْبعَ في بيتك، وتتمنَى أن يأتيك رزقك، فهذا سوء أدبٍ مع الله عز وجل، والنبي عليه الصلاة والسلام مِن أدْعِيَتِهِ الشّريفة يقول:

((اللّهمّ إنّي أسْألك التّوفيق مِن محابّك من الأعمال، وحُسْن الظنّ بك، وصدق التوكّل عليك..))

يعني هناك توكّل كاذب، وتوكّل صادق، فإذا قلتَ توكّلتُ على الله، وأعمالك كلّها معْقودة على زَيْد أو عُبَيْد، هذا توكّل كاذب، وتوكّلتُ على الله، وأنت متوكِّل على فلان ؛ هذا توكّل كاذب، النبي عليه الصلاة والسلام يدعو ربه ويقول:

((اللّهمّ إنّي أسْألك التّوفيق مِن محابّك من الأعمال، وحُسْن الظنّ بك وصدق التوكّل عليك))

روى الإمام البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه عن ابن عباس: أنّ الآية

(حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ)

قالها إبراهيم فنجَاه من النار، وقالها محمّد حينما قال له الناس:

(إنّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ)

كان من الممكن لسيدنا إبراهيم أن ينْجُوَ من القبْض عليه، وكان من الممكن ألا يُفكِّر قومه بإحراقه بالنار، وكان من الممكن أن تسقط أمطار غزيرة تُطفئ النار، مكّنَ الله قوْم إبراهيم من القبْض عليه ومكّنهم مِن جمْع الحطب وإشعال النّيران، ومكّنهم أنْ يضعوه بطَريقةٍ تجعله في وسط النار، كلّ هذا من أجل أن تكون هذه القِصّة شيئًا صارخًا جدًّا جدًّا على مدى الأجيال، فإذا الإنسان أُضرِمَت له النّيران بِشَكل مُخيف وأُلْقِيَ فيها فهذا موتُهُ مُحَقّق، لكنّ النار عند أهْل السنّة والجماعة لا تُحْرقُ بذاتها، ولا تُحْرقُ إلا إذا سمَحَ الله لها أن تُحْرق، لذلك علماء التّوحيد يُلخِّصون هذه العقيدة بِكَلمتين: عندها لا بها،

فالنار تُحْرق عند مشيئة الله لا بقُوّة مودَعةٍ فيها، والدّواء لا يشْفي إلا عند مشيئة الله لا بقُوّة مودَعةٍ فيه، وهذه الخلايا لا تنْمو نُمُوًّا عَشْوائيًّا إلا بمَشيئة الله لا بقُوَة مودعةٍ فيها، وهذا الدّسام يضيقُ بمَشيئة الله لا بقُوَة مودعةٍ فيه يجب أن تعْتَقِد أنّ كلّ شيءٍ لا يقعُ إلا بمَشيئة الله، يقولون عندها لا بها، لذلك جاءهُ جبريل، وقال له: ألكَ حاجة ؟ قال: منك ؟ قال: لا، من الله عز وجل، قال: **" علمه بحالي يُغني عن سؤالي ! "** قال: حسبنا الله ونعم التوكل فنجّاهُ الله من النار، وإنسانٌ يُقْذَفُ في الماء فيلْتَقِمُهُ الحوت **!** والله هذا شيءٌ مستحيل، قد يركب الإنسان مركبةً، ويكون احتمال في تدهورها بحدود كبيرة، وفي أثناء تدهْوُر هذه المركبة بنحو ذلك الإنسان الذي يركبها، علماً بأن احتمال نجاته كان ضئيلاً، ولو أنّ واحدًا ركِبَ طائرةً، واحْتَرَقَتْ في السماء ومقعده في مكان انْشِطارها مقعدُه فنَزَلَ هذا الراكب من ارْتِفاع ثلاثة أربعين ألف قدم، فالأمل بالنّجاة صِفْر **!!** لكنه نزل بغابات سويسْرا بالشّتاء، ولكن سماكة الثلج على أغْصان الصّنوبر خمسة أمتار، فهذه الأغصان مع الأمتار الخمسة امتصّت الصّدْمة فنَزَلَ واقِعًا على قدَميْه **!** أما إذا وقعَ الإنسان في الماء، والْتَقَمَهُ الحوت، وكان في ظلمات ثلاث ؛ في ظلْمة البحر، وظلمة الليل، وظلْمة بطْن الحوت، فكم الأمل **؟!** صفْر، ربّنا عز وجل قال:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ)

(سورة الأنبياء)

قانون: وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ

القصّة انْتَهتْ واتضح مصير يونس، وبدأ التّعليق الذي قلَبَها إلى قانون، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

فكلّما واجَهَك أمرٌ تذكّر سيّدنا يونس وتوكل على الله واستسلم لله مثله، وهو في بطن الحوت في ظلْمة بطْنِهِ، وفي ظلْمة الليل، وفي ظلمة البحر، ولم يجعلها الله تعالى خاصّة به، وقال:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

(سورة الأنبياء)

فكان قانونًا إلهياً لكل مؤمن. وكلّما ألمّ بك أمْر لن يكون أمرك أصْعب من سيدنا إبراهيم الذي ألقيَ في النار، قال تعالى:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

(سورة الأنبياء)

لولا كلمة سلامًا لمات من البرْد، فالتَّوَكُّل يدفع في النَّفْس الطمأنينة ويبثّ الراحة والرّضا، ويبثّ فيك أنّ الله يُحِبُّك، وأنّك بِعَيْنِهِ، قال تعالى:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ)

(سورة الطور)

وقالها النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه حينما قيل لهم:

(إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ)

أحيانًا يقولون لك: احْذَر ! فإنّي قرأتُ شيئًا بِعَيني ضِدّك، ولكنك تسلك سبل الحق، فقُل له: حسبنا الله، ونِعم الوكيل، الله عز وجل بيَدِهِ كُلّ شيء، خُصومك بيَدِهِ، وحُسّادُك بيدِهِ، وأعداؤُك بيَدِهِ، وأنفاسهم بيَدِهِ، وقلوبهم بيَدِهِ، وحركاتهم وسكناتهم بيَدِهِ وإلهاماتهم بيَدِهِ، وقُدراتهم بيَدِهِ، قال تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود)

أنت علاقتك ليس مع الدّواب المربوطة، ولكن بِمَن هو ماسكها بيَدِهِ! فإذا قرّبها من أحد أخافه بها، كالكلب العقور المخيف، قال تعالى:

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

(سورة هود)

علاقتك مع من بيَدِهِ زمام هذه الوُحوش، ربّنا عز وجل قال:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5))

(سورة الفلق**)**

هناك أشخاص يُحِبُّون إيقاع الأذى، وهناك وُحوش فِعْلِيّة في الصّحراء، وهناك حشرات مُخيفة، وهناك ثعبان وأفعى وعقرب، وهناك إنسان كالعقرب يُحبّ أن يوقِعَ فيك الأذى:

أَطِعْ أمْرَنا نرْفَعْ لأجلِكَ حُجْبَنا فإنَ منَحْنا بالرّضا من أحبّنا

ولُذْ بحِمانا واحْتَمِ بِجَنابِنــا لِنَحْميك مِمّا فيه أشرار خلقنا

* * *

فهؤلاء الأشرار لهم دَوْر كبير جدًا، وهو أنّهم يُقَرِّبوك من الله عز وجل، وكلّما خوَفُوك تُقَرّب من الله عز وجل أكثر، فهم لهم دَوْر إيجابي في مسارك لأن الإنسان المؤمن إذا خاف الْتَجَأَ إلى الله عز وجل. النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللّهمّ لك أسْلَمْتَ وبك آمنت، وعليك توكّلت وإليك أنبْتُ، وبك خاصَمْتُ...))

(أبو داود عن ابن عباس)

ولخّص هذا كلّه بِدُعاءٍ فقال عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ بكَ وإليك))

(أبو داود عن علي)

أي أنا بك، عِلمي بك وقُدْرتي بك وحِلمي بك، ورزقي بك، وأنت الهدف الأكبر

والنبي عليه الصلاة والسلام علّمنا هذا الدّعاء ؛ قال:

((من خرج من بيته فقال: بسم الله، توكّلت على الله، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، يُقال له: هُديتَ ووُقيتَ وكُفيتَ))

(الترغيب والترهيب عن أبي هريرة)

الإنسان يخرج من البيت صباحًا، يا ترى يرجع من دون مشكلة ؟ قد تأتي مشكلة كبيرة بالنّهار، يذهب ماله كلّه، وقد يتعرض لحادث ما فيفقد بعض الأعضاء، وهناك مشكلاتٌ لا تعَدّ ولا تُحْصى، فإذا خرج الإنسان من بيته وقال: توكّلت على الله ولا حول ولا قوّة إلا بالله يُقال له: هُديتَ، ووُقيتَ، وكُفيتَ، حتى إنّ بعض العلماء قال: إنّ التوكّل هو نصف الدِّين ! من أين لك بهذا ؟ قال لأنّ الله عزّ وجل يقول:

(إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ)

(سورة الفاتحة)

القرآن كلّه جُمِعَ في الفاتحة، والفاتحة كلّها جُمِعَتْ في هذه الآية، إياك نعبد وإياك نستعين، فأحدهما الطاعة، والثانية التّوكّل، ونصف الدِّين هو التّوكّل.

التوكّل عامّ:

بل إنَ بعض العلماء يقول: التوكل عامّ، فما مِن إنسان إلا ويتوكّل، ولكن هناك إنسان يتوكّل على الله لِيَستقيم على أمْرِهِ، ويتوكّل عليه لِيصلْح حاله مع ربّه، ومنهم من يتوكّل على الله من أجل الرّزْق ؛ يا فتّاح، يا عليم، يا رزّاق، يا كريم، والتاجر يتوكّل على الله، فلعلّ الله سبحانه وتعالى يَجْبُر عنه هذه البضاعة، والمُزارع يتوكّل على الله فلعلّ الله عز وجل يُنْبتُ له الزّرْع والزّيْتون فيجني هذه الثمار فيعيش طوال العام، والصانع يدعو لعلّ الله عزّ وجل يُوفِّقهُ إلى هذه الصِّناعة، والمعمل يحتاج إلى مواد أوّليّة، وله إنتاج، وعمّال، وأجور، ويحكي لك همومًا لا تنتهي، فكلّ إنسان له عند الله تعالى هُموم.

وهناك من يتوكّل على الله في أمْر آخرته، يا ربّ اِهْدِني، واهْدِ بي يا ربّ أصْلِح حالي معك، ويا ربّ ألْهمني السداد والرّشاد، وألْزمني سبيل الاستقامة، هناك من يتوكّل على الله لِصَلاح أمْر آخرتِهِ، قال: هذا أعلى أنواع التّوكّل وأسماها وأقْدَسها، وهناك من يتوكّل على الله من أجل دُنياه، اللهمّ أصْلِح لنا ديننا الذي هو عِصْمة أمرنا، ودنيانا التي فيها معاشنا يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم، فهذا يحتاج إلى زوجة

صالحة يأمرها فتُطيعُه، وينظر إليها فتَسُرُّه، ويغيبُ عنها فتَحْفظهُ، وهذا يحتاج إلى بيت مُشْمس، مساحته مئة وعشرون متراً، ولكن هناك من يتوكّل على الله في المعاصي، أحيانًا يتلبّس بِمَعْصِيَة فإذا كُشِف فالوَيْل له والثُّبور، ويقول: يا ربّ !! فالتَوكّل عام، ولكن هنيئًا لمن كان توكّله في ما يُرْضيه، في الدّرجة الأولى لِمَن كان توكّله لأمر الآخرة، وفي الدرجة الثانية لمَن كان توكّله في الدنيا في المباحات المَشروعة، وأحدهم قال لشيخه ـ فاسمع للحوار بينهما ـ أريد أن أعْصِيَ الله، فقال له شيخه: خمسُ أشياء إن فعلتها لا تضرّك معْصيَة، فقال له: ما هي ؟ قال: إذا أردْتَ أن تعصي الله عز وجل فلا تسْكُن أرضَهُ، فقال: وأين أسْكُن إذًا ؟! فقال له: أتسْكُن أرْضَهُ وتعْصيهِ ! وتشرب الماء الذي هو من خلْق الله عز وجل، فقال: هاتِ الثانِيَة ؟ قال له: إذا أردْت أن تعْصيه فلا تأكل رزْقهُ ! فقال: ماذا آكلُ إذًا ؟! قال: أتسْكن أرضهُ وتأكل رزقه وتعْصيه ؟!! فقال: هات الثالثة ؟ فقال: إذا أردْت أن تعْصيهِ فاعْصِهِ في مكانٍ لا يراك فيه ! فقال: إن الله بأيّ مكانٍ هو معنا، فقال: أتسْكن أرضهُ وتأكل رزقه وتعْصيه وهو يراك ؟! لذلك سيّدنا بلال يقول: لا تنظر إلى صِغَر الذّنب ولكن انْظر على مَن اجْتَرَأْتَ !

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه هذا لعمري في المقال بديعُ
لـو كان حُبُّك صادقًا لأطعْتهُ إنّ المُحِبّ لِمَن يُحِبّ يُطيعُ

* * *

أقوال العلماء في التوكل:

والأئمّة الكِبار لهم أقوال في التَّوَكّل، لا مانِعَ من أن نسْمعها، فالإمام أحمد بن حنبل يقول: **" التّوكّل عمل القلب، وليس من عمل اللّسان، وليس من عمل الجوارح "**، يا ربّ توكّلتُ عليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك التوكّل بالقلب، فاللِّسان لا يُقدِم ولا يؤخِّر، قد تنطق بِلِسانك بصِيَغ التَّوكّل، وأنت غير متوكِّل على الله، القلب في أعماقِهِ يجب أن يكون مطمئنًا إلى الله عز وجل راضِيًا بِحُكمه، وليس التَّوكّل كما يقول الإمام أحمد من عمل اللّسان وليس من عمل الجوارح، فالأعضاء يجب أن تسْعى بالأسباب، أما التوكّل محلّه القلب، ولكن من تخلف المؤمنين صار التَّوكّل في الجوارح، والشِّرْك في القلب، ترَكُوا الأخْذ بالأسباب، ثمّ يقولون: توكّلنا ! لا فأنت ما توكّلت، فالتَّوَكّل محلّه القلب أما الجوارح يجب أن تأخذ بالأسباب.

بعضهم قال: التَّوكّل عِلم القلب بِكِفاية الربّ للعبد، قال تعالى:

(أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ)

(سورة الزمر)

هو الذي يكْفيك، وبعضهم قال: التَّوَكّل سُكون القلب فالاضْطراب والقلق والخَوف يشعران بعدم التوكل، فلان يوافق أو لا يُوافق، ماذا سأفعل لا ينام الليل !! ليس هذا هو المتوكِل، فالمتوكّل ساكن القلب، وعليه ترْك الاختيار والاسْتِرسال في مجاري الأقدار، نعم أنت مُخَيَر، ولكنّ المتوكِل يُسَلِم اخْتِيارهُ إلى الله، أنا مختار، واخْتَرْتُ يا ربّ أن تختار لي أنت ما تريد في شؤون الزّواج، وفي شؤون العمل اللهمّ خر لي واختر لي.

من تعريفات التوكل:

التَوكّل في تعريفاته الدّقيقة **" الرّضا بالمقدور "**، فهذا الذي لم يرْضَ بِفِعْل الله عز وجل ليس مُتَوَكِلاً، فهناك توكّل كاذِب.

قال بعض العلماء: تتوكّلُ على الله وأنت تكبُ عليه ! قال: وكيف ؟ قال: من توكّل على الله رَضِيَ بما يفْعلُ الله، مِن علامات التَّوَكّل أن ترْضى عن الله، قال أحد الأشخاص، وهو في طوافه حول الكعبة: يا ربّ، هل أنت راضٍ عنّي، فكان وراءهُ الإمام الشافعي، فقال له الإمام الشافعي: **وهل أنت راضٍ عن الله حتى يرْضى عنك** ؟ قال: سبحان الله، ومن أنت يرحمك الله ؟ قال: **أنا محمّد بن إدريس !** قال: كيف أرْضى عنه وأنا أتمنَى رِضاه ؟ فقال له: **يا هذا، إذا كان سرورك بالنِّقْمة كَسُرُورِكَ بالنّعْمة فقد رضيت عن الله تعالى، وإذا رضيتَ عن الله رَضِيَ الله عنك فهل ترى أنّ يد الله حكيمة عليمة عادلة، وهذا الأمر مِن فِعْل الله، واصْبِر لِحُكم ربّك.**

متى يكون الرّجل متوكِلاً ؟ قيل: إذا رضي بالله وكيلاً، مِن معاني التَّوَكّل الثِقة بالله، كأنّك تُبْرِزُ عَجزك أمام الله عز وجل، والله عز وجل إذا توكّلتَ عليه فهُوَ حسْبُك، والطّمأنينة إليه، والسُّكون إليه. ذو النُّون المِصري يقول: التَّوكّل ترْك التَّدبير، والانْخِلاع من الحَول والقوّة، أيْ تَرْك التَّدبير النَفسي، أنت تسْعى، أما أن تعتمد على حَوْلِكَ وقوّتك فأنت لسْتَ متوكِلاً، وبعضهم قال: التَّوكّل هو التّعلق بالله في كلّ حال، في الرّضا وفي الغضب، وفي البحبوحة وفي الضّيِق، وفي الصِّحة، وفي المرض، وفي الخوف، والطمأنينة، وفي إقبال الدنيا وفي إدبارها، وفي العلوّ والانخِفاض، وفي كلّ شيء، وبعضهم قال: التَّوكّل نفيُ الشُكوك والتَّفويض إلى ملك الملوك، ومن توكّل على الله ولو كاد له من في السماوات والأرض فإن الله سبحانه وتعالى يُنَجّيه، ويجعل له من بين ذلك مَخْرجًا، أما من توكّل على زيد أو عُبَيد جعل الله الأرض هَويًا تحت قدَمَيْه، وقطّع أسباب السماء بين يديه.

إن شاء الله في الدرس القادم نُتابعُ موضوع التَّوكّل، ونصل إلى موضوع العزيز الرحيم، ماذا يعني اسم العزيز ؟ لِقَول الله عز وجل:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

(سورة الشعراء)

الحديث القدسي الذي كرتُهُ قبل قليل:

((ما من مخلوقٍ يعْتصِمُ بي من دون خلقي أعرفُ ذلك مِن نِيّتِه، فتكيدُهُ أهل السماوات والأرض إلا جعلْتُ له من بين ذلك مخرجًا، وما من مخلوقٍ يعْتصِمُ بمَخلوقٍ دوني أعرفُ ذلك من نيّتِهِ إلا جعلتُ الأرض هَوِيًّا تحت قدَمَيْه، وقطّع أسباب السماء بين يديه))

ملخّص الدرس:

ملخّص الدرس ؛ إذا أردْتَ أن تكون أقوى الناس فتوكّلْ على الله، وإذا أردْت أن تكون أغنى الناس فَكُن بما في يدي الله أوْثَقُ منك بما في يديك، وإذا أردْت أن تكون أكرم الناس فاتّقِ الله.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (18-20): تفسير الأية 217
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 17-11-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن عشر من سورة الشُّعراء، في الدرس الماضي وقفنا عند قوله تعالى:

(وَتَوَكّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحِيمِ)

(سورة الشعراء)

تذكير بما سبق:

وبيَّنْتُ لكم بِفَضل الله تعالى بعض المعاني التي تنضوَي تحت مفهوم التَّوكّل، وكيف أنّ الله سبحانه وتعالى أمر عباده المؤمنين بالتّوكّل، وأنّ من لوازم الإيمان التَّوكّل، فمن توكّل فَتَوَكّلهُ علامةٌ قاطعة على أنّه مؤمن، وأيُّ مؤمن يجب أن يتوكّل على الله، إن توكّلْتَ فأنت مؤمن، وإن آمنْتَ فيجب أن تتوكّل، ولكن هذا الموضوع يحتاج إلى مزيد من الدّرس والبحث.

التوكل حالٌ قلبيّ لا عبارات مردّدة:

الحقيقة أن التَّوَكّل حالٌ قلبي ؛ أن تقول شيئًا بِلِسانِك هذا لا يُقدِّم ولا يؤخِّر، وحينما أصبحَ الإسلام عِباراتٍ تُرَدَدُ في الأفواه، رأيْتُم كيف أن حال المسلمين ظلّ على ما هو عليه من التردي والتخلف ! ربّنا سبحانه وتعالى:

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُمْ فِي الأرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكّنَنّ لَهُمْ دِينَهُمُ الّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)

(سورة النور)

هذه وُعودٌ قَطْعِيَّة مِن قِبَل الله عز وجل، قال تعالى:

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ)

(سورة التوبة)

قال تعالى:

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثًا)

(سورة النساء)

إلا أنّ الأمر هو أن الفريق الآخر وهُم المؤمنون أخَلّوا بما عليهم، فكان الله سبحانه وتعالى في حِلٍّ من وُعوده الثّلاثة، إذًا حينما أصبَحَ الإسلام كلامًا، وألفاظًا، وحركاتٍ، وسكناتٍ، وفُرّغ من مضمونه العلمي والأخلاقي عندئِذٍ أصْبحت كلمة المسلمين ليْسَت هي العليا، ولو أنّنا كُنّا مع الله لكان الله معنا.

معية الله نوعان عامة وخاصة:

ثمة شَيْءٌ دقيق جدًا هو أنَ مَعِيَّة الله عز وجل كما تعلمون مَعِيَتان ؛ مَعِيَّة عامّة، ومَعِيَّة خاصّة، ربّنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

(سورة الحديد)

هذه مَعِيَّة عامّة ؛ يعني هو مع كُلِ مَخلوق، ومع كلّ كائِن، ومع كلّ حيوانٍ ومع كل نبات، ومع كلّ إنسان، ومع كلّ كوكبٍ ومع كل ذرّة قال تعالى:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا)

(سورة الأنعام)

آيةٌ بِنَصِّ القرآن الكريم، ولكنّ المَطلوب ليْسَتْ المعِيّة العامّة هذه، ولكنّ المطلوب تِلْك المَعِيَّة الخاصّة، قال تعالى:

(وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ)

(سورة المائدة)

العلماء قالوا: مَعِيَّة الله الخاصّة حِفْظُهُ وتأييدُه ونَصرُهُ، إلا أنّ مَعِيّة الله الخاصّة لها ثمن، ثمنها أن تستقيم على أمره، وأن تستجيب له، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ)

(سورة الأنفال)

إذًا الشيء الذي أُحِبّ أن أقوله قبل متابعة الحديث عن التّوكّل أنّ الإيمان ليس شَكْلاً، وليس كلامًا، وليس حركاتٍ وليس مظاهر، إنّما هو شيءٌ آخر، قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس الإيمان بالتّمَني ولا بالتّحلّي...))

(الجامع الصغير عن أنس بسند فيه مقال)

ما من مخلوق على وجْه الأرض إلا ويتمنّى أن يكون مؤمنًا، ويتمنّى أن يكون صدِيقًا، ولكن ليس الإيمان بالتّمَني ولا بالتّحلي ؛ لا أن ترتدي ثِيابًا إسلامِيّة، ولا أن ترتاد المساجد، وأنت مُعطّر مهفْهَف، ثمّ تعود إلى بيْتِك، وتتحدث نقداً للخطيب والخطبة، وأنت في واد والإسلام في واد، ليس الإيمان بالتّمَني

ولا بالتَّحلي، ولكن ما وقر في القلب، وأقرّ به اللِسان، وصدّقهُ العمل، معنى ذلك أن الإنسان إذا خلا قلبهُ من التَّوَكّل فهو يعتمِدُ على زيْد أو عُبَيد، ويعتمد على ماله، أو صِحّته، أو على فلان، أو عِلاّن، أو على هذه الجِهة القويّة، أو على هذه المكانة، أقول: إذا خلا قلبهُ من التَوكّل، ومن الرّضا ومن الصّبْر، ومن التَسْليم، ومن التَفْويض، فماذا بَقِيَ من إيمانه ؟! بَقِيَ هَيْكلٌ بلا مَضْمون، لذلك حينما نتحدّث بالتَّفْصيل عن معاني التَّوَكّل فهذا مِن صُلب الإيمان، والحديث عن التَّوَكّل له وظيفتان ؛ أوّلاً أن تعرفَ من هو المتوكّل عليه وما صفاته ؟ وثانيًا لِيَكون هذا البحث مِقياسًا لك وهدفًا لك، مِقياسًا تقيس به نفْسَكَ، وهدفًا تجْعلُهُ نُصْبَ عَيْنَيك، وهذا ما نقْصِدُ بالتَوَكّل، ربّنا عز وجل يقول:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

(سورة الشعراء)

عقْربَ التَّوَكّل يُتابعُ عقْربَ التَوحيد:

الآن هناك نقطة دقيقة، إذا صحَ أن نُشَبّه أنَ للتّوحيد عدّاداً له عقْرب، وإلى جانبه عدّاد آخر للتَوَكّل وله عقرب، يجب أن تعلمَ عِلْم يقين أنّ عقْربَ التَّوَكّل يُتابعُ عقْربَ التَوحيد، وإذا ارْتَفَعَت إبْرةُ التَّوحيد ترتفِعُ معها إبْرةُ التَّوَكّل، وكلّما علا توحيدك علا توكّلك، وإذا انْخفض التَّوحيد انْخفضَ التَوَكّل ! لأنّ هذه فِطرتُك، لأنّك لن تتوكّل على ضعيف، لن تتوكّل إلا على قويّ، ولن تتوكّل على جِهةٍ لسْتَ متأكِدًا أنَ الأمر بيَدِها، متى تتوكّل على إنسان ؟ إذا أيْقنتَ أنّهُ قويّ وأنّ الأمر بيَدِهِ، عندئذٍ تطرُقُ بابه وتتوسّلُ إليه، وتُلقي عليه بِكُلّ ثِقْلِك أما إذا كنتَ مُتَرَدّدًا أو مرتابًا في قدرته على حلّ هذه المشكلة، أو مرتابًا في ولائِهِ لك، أو في عِلْمِهِ، أو في صلاحِيّتِهِ، فأنت لن تتوكّل عليه، لأنّه من السّذاجة أن تظنّ أنّك إذا قلتَ: يا ربّ توكّلتُ عليك، فهل توكّلت ؟! لا. والله، أنت ما فعلتَ شيئًا، لأنَ التَّوَكّل ليس كلامًا تقولهُ بلِسانِك إنّهُ حالٌ قلبي، إذا قلتَ توكّلتُ عليك، فقد تكون في الحقيقة معْتَمِدًا على زيد، أو عُبَيد، أو فلان، أو عِلاّن، وأنّك واضِعٌ كلّ ثقتك فيهما، إذاً أنت لسْتَ متوكِلاً البتّة، ولو أعْلَنْتَ بلِسانك أنّك توكّلت على الله ألف مرّةٍ ومرّة ! الكلام اللّفظي لا قيمة له إطلاقًا، ولا يُقدِم، ولا يؤخِر، وإذا بَقِيَ الإسلام ألفاظًا تُردّد، وأعمالاً تُقام، ومظاهر تُبْتغى فاقرأ على الأمّة السّلام فالإسلام مضمون فِكري، ومضمون عقدي ومضمون أخلاقي، فإذا كان كذلك فهذا هو الإسلام.

من شروط التوكل معرفة الله:

اليوم نتحدَث عن التَّوَكّل، الشيء الأوّل ؛ لن تتوكّلَ على الله إلا إذا عرفتهُ، أحيانًا يُصاب الإنسان بمَرض عُضال يظنّ أو يعتقد أنّ الله سبحانه وتعالى لا يستطيعُ أن يشْفِيَهُ من هذا المرض، ثلاثون طبيبًا قالوا: ليس لِهذا المرض دواء، وبلغ الدرجة الخامسة، ولا يمكن أن تُحلّ هذه المشكلة، إذا كنتَ معْتقِدًا أنّ الله لا يستطيع أن يشْفِيَكَ من هذا المرض العُضال الذي أجْمعَ الأطِبَاء على أنّه لا شِفاء له، فكيف تتوكّل عليه ؟ هنا المشكلة ! أنك لن تتوكّل على الله إلا إذا عرفْته، يجب أن تعرفهُ خالقًا يجب أن تعرفهُ مُربّيًا، يجب أن تعرفهُ مُسيّرًا، يجب أن تعرفهُ قدرتهُ كُنْ فيكون، وزلْ فيَزُول، لا توجد كلمة ثانية، آلاف الحالات من الأمراض التي أجمع الأطِبّاء على استحالة برء صاحبها، ومع ذلك شُفيَتْ شِفاءً تامًّا فصَعِقَ الأطِبَاء، وقالوا هذه حالة جديدة لا نعرفها: سمّوْها الشِّفاء الذاتي ؛ إنَه شفاء الله عز وجل، هناك حالات صِحِّيّة مُسْتعصِيَة، كيف تتوكّل عليه، وأنت لا تعلمُ أنّهُ بِقُدْرته أن يشْفيك، إنّ الحديث عن التَّوَكّل هو حديث لا جَدْوى منه ما دامَتْ معرفة الإنسان قاصرة، ما دامَتْ معرفة الإنسان بالله محدودة، وما دامَتْ معرفتُهُ بالله لم تبْلُغ حدّ التَّوحيد، فالتَّوكّل تشوبهُ شوائبُ كثيرة، والعلماء قالوا: لا بدّ من التَّوَكّل على الله حقّ التَّوَكل من أن تعرفهُ، وهنا السُّؤال الدقيق: هاتوا لي طالبًا نالَ شهادةً عليا من دون أن يبْذِلَ من أجلها لا وقتهُ ولا جهده ولا ماله ! هذا من سابع المسْتحيلات، إذاً يجب أن تعرف الله، والسؤال الخطير؛ متى يجب أن تعرفه ؟ ووقْتُكَ كُله من أجل الدنيا، تقول لأحدهم: احضَر هذا الدَرْس فيقول لك: ليس عندي وقت ! عندي سهرة، أو على محاسبة أو موازنة !! إذا امْتصّ عملكَ وقتك كلّه فأنت أكبر خاسِر نضْرِبُ على هذا مثلاً، لو أنَ طالبًا ذهب إلى بلدٍ أجنبي لِيَدْرس، وقد أرسل هذا الطالب بحيث لو نال هذه الشهادة فلهُ في بلدهِ أعلى منصب، وميزة، فذهبَ للدِّراسة، وهو مضْطرّ لِيَعمل ويدْرس، فإذا كان يكفيه ألف فرنك فرضًا، وهناك عمل بساعَتين، وأجرة هذا العمل ألف فرنك، ووجدَ عملاً ثلاث ساعات بألف وخمسمئة فطَمِعَ في المبلغ، ووجد عملاً آخر لمدة أربع ساعات بألفين ! إلى أن بلغ العشرة آلاف فرضًا في اليوم، فإذا امْتصّ عملهُ كلّ وقته، وضيّعَ دِراستَهُ، ونَسِيَ مهمّتهُ، ونسِيَ البعثة والدِّراسة ونسي آماله العريضة فهل هذا العمل الذي درّ عليه مبلغًا كبيرًا في مصلحته ؟ لا لم يكن في مصلحته ! أنا أقول لكم: أيّ عملٍ مهما علا شأنهُ، ومهما كثُرَ دخْلُهُ، ومهما رفعَ صاحِبَهُ إذا امْتصّ وقْتَكَ كلّهُ فأنت أكبر خاسِر، إنّك مخلوقٌ في هذه الدُنيا من أجل أن تعرف الله سبحانه وتعالى، لأنّك إذا عرفْتهُ صحّ عملك، وإذا عرفْتهُ عبدْتَهُ، وإذا عبدْتهُ سَعِدْتَ بِقُرْبِهِ في الدنيا والآخرة، لا يصحّ العمل إلا بالمعرفة، وهذه نقطة مهمّة جدًا، العمل أساس التَّصوّر، وأيّ عمل صالح أو طالح، حقير أو خطير، مُجدٍ أو غير مجدٍ، سيّئ أو جيّد، العمل أساسه التَّصَوّر هذا الذي يسرق لماذا يسرق؟ لأنّهُ يتصوّر أنّ السرقة عملٌ

يعود عليه بالنَّفْع، دَخْلٌ كبير، وجُهْد قليل، وهذا الذي يكذب لماذا يكذب ؟ وهذا الذي يزني لماذا يزْني ؟ وهذا الذي يأكل الرّبا لِمَ يأكل الربا ؟ ما من إنسان يعمل عملاً إلا وقبل هذا العمل تَصَوّر لهذا العمل انطلق منه.

صحةُ العمل مِن صحة التصور:

إذًا إذا صحّ تصوّرك صحّ عملك، وإذا فسد تصوّرك فسدَ عملك، إذا اعْتَقَد إنسانٌ أنّ هذا الضوء الأحمر في ساعة السيارة إذاً تألّق فمعنى ذلك أنّه يُسَلِّيك في الطريق ! وهو ضوء الزَيت، هذا التَّصَوُر يجعل هذه السيارة تقف وتدفعُ من أجل إصلاحها عشرات الألوف، أما إذا تصوَّرْتَ أنّ هذا الضّوْء إذا تألّق معنى ذلك أنَ الزّيْت قد انتهى، وإذا خطر لك أنّ الزّيْت ولو يكفي لِمِتر واحدٍ ففي سيرك خطر كبير ولابدّ أن تقف فجأةً، أنا أقول لكم هذا الكلام من أجل أن نعتقِدَ جميعاً أنّ صِحّة المعرفة أساسها صحّة التّصوُّر، وصِحّة التّصوّر أساسها معرفة منهج الله عز وجل، لأنّ الجهة الوحيدة في الكون التي يمكن أن تعْطِيَك الحقيقة الصافِيَة، قال تعالى:

(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

(سورة فاطر)

ليس في الكون إلا الله القادر على أن ينبئك بالحقيقة الصحيحة القَطْعِيَة في ثبوتِها ودلالتها، إذًا المشكلة يجب أن تعرف الله حتى تسْتقيم على أمره، وحتى تتقرّب إليه، وحتى ترْجو ما عنده، وحتى تخاف عذابهُ، يجب أن تعرف الله من أجل أن تتوكّل عليه، وتُفَوّض له الأمر، وتستسْلِمَ له، ومن أجل أن تُحِبَّهُ ومن أجل أن ترضى بقضائِه وقدرِه، ومن أجل أن ترضى عن أفعاله، إذاً حجرُ الزاوية وركن الأركان، وأساس البنيان أن تعرف الواحد الدّيان وهذا يحتاج إلى وقت، وإلى جُهد وإلى مال، قد تضْطرّ إلى أن تركبَ سيارة لِتَحضر هذا الدرس، وقد تضطرّ أن تنفق من مالك في سبيل الله وقد تضطرّ أن تشتري كتاباً، وقد تضطرّ أن تعمل صالحًا بمالك، فإذا ظَنَنْتَ أنّكَ تعرف الله وأنت في راحتك التامّة وأنت في عملك، وأنت تعمل لِمَصلحتك، ولأجل بيْتِك، إذا أردْتَ ذلك فهذا من رابع المستحيلات، تلك أوَل نقطة في هذا الدّرس؛ لن تستطيع أن تتوكّل على الله إلا إذا عرفْتَهُ أما إذا عرفْتهُ، وتوكّلت عليه فأنت أقوى الناس، وأغناهم، وأكرمهم، وتشعر بِمَشاعر لو اطّلَعَ عليها المُلوك، والله الذي لا إله إلا هو لقاتلوك عليها بالسّيف، ويُلقي الله في قلبك من الأمْن، والطُمأنينة والرضا، والشُعور بالراحة، والشُعور بالفوز، والفلاح، والنّجاح ما لو وُزّعَ على أهل بلْدةٍ لكفاهم، قال تعالى:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

لكن بشرْط أن تعرف من هو الله ؟ وأن فلاحك في هذا الأمر عائدٌ له ؟ وبيَدِهِ الأمر كله ؟ إذا رأيْتَ أنّ الأمر كلّه إليه، ليس لك من الأمر شيء، قال الله عزوجل:

(لَيْسَ لَكَ مِنْ الأمْرِ شَيْءٌ أوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ)

(سورة آل عمران)

هذا الذي أتمنّى عليكم أن يكون واضحًا في أذْهانكم ؛ التَّوَكّل على الله إذا شبّهْناه بِعَدّاد له إبرة، وإلى جانِبِهِ عدّاد آخر هو عداد التوحيد له إبره أيضاً، فعدّاد التَّوحيد، وعدّاد التَّوَكّل إنّ إبرتاهما تتحرّكان معًا، فكلّما ارْتَفَعَ مُسْتوى توحيدك ارْتَفَعَ مستوى توكّلك، ولن تتوكّل إلا على الله الواحد الأحد ؛ في أمر الصِّحة، وفي أمر العمل، وفي أمر الزّواج، وفي أمر الخصومات، وفي أمر الأعداء والأصدقاء، وفي أمر كسْب المال وفي أمر إنفاقه، في أيّ شيءٍ، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي، والتوحيد هو مُلَخّص الأديان كلّها، قال الله عزّ وجل:

(وَمَا أرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إلا نُوحِي إلَيْهِ أنَّهُ لا إلَهَ إلا أنَا فَاعْبُدُونِ)

(سورة الأنبياء)

كيف لنا بمعرفة الله عز وجل ؟ الصَنْعة تدلّ على الصانع، والخلقُ يدلّ على الخالق والأقدام تدلّ على المسير، والماء يدلّ على الغدير، والبعْرة تدلّ على البعير، أفسَماءٌ ذات أبراج، وأرض ذات فِجاج ألا تدلاّن على العليم الخبير ؟!

مِن إعجاز الله في خلق الإنسان:

1 - حاسة الشمّ:

تحدّثْتُ اليوم في خطبة الجمعة عن الشمّ، فمن مِنّا يصدّق أنّ في كلّ شقٍّ من شِقّي الأنف مئة مليون خليّة شَمِيّة، مئتا مليون خلية شمْيّة في الأنف، ويخرج من هذه الخلايا الشميّة عدد كبير جدًّا من الخيوط العصبية خمسون مليون خيط عصبي، بِخَمسين مليون خيط عصبي، ثمّ تقلّ هذه إلى خمسين ألف، فالعصب الشمِّي ضمنه مئة ألف عصب، والشيء الذي يَلْفِتُ النَّظَر أنَ الشمّ شخصي، بينما السّمع والبصر موضوعي، فإذا وضعنا لوحةً كُتِبَتْ عليها آية، لو رآها الناس جميعًا لقرؤوا الآية نفسها، ولو حدثَ صوْتٌ لسَمِعَهُ الناس بِشَكل واحِد، ولكن لكلّ إنسانٍ بُنْيةٌ خاصّة في شمِّهِ، هذا يُحِبّ هذه الرائحة، وهذا لا يُحِبّها، وهذا يحبّ هذه الأكلة لِنَكْهتها، وهذا لا يحبّها بهذه النَكهة، فالشمّ شيءٌ عجيب.

2 - الكريات الحمراء:

وقبل أسابيع حدّثتكم عن الكريات الحمراء، الكُرَيّة الحمراء سبعة ميكرونات، أي سبعة أجزاء من الألف من الميليمتر، عددها خمسة وثلاثون مليون مليون، وفي كلّ ميليمتر مكعَّب خمسة ملايين، وتعيش الكُريَة مئة وعشرين يوماً، وتقطع مئة وسِتِّين ألف رحلة، وتمرّ بأوْعِيَة تتناهى في الدِّقة والضِّيق إلى حجْم الكريّة الحمراء، فهناك أوْعِيَة دموية لا تسمح إلا بمُرور كُرَيّة كُرَيّة، وسعة هذا الوعاء سبْعة ميكرون، وهناك أوعيَة أضيَق من سبعة ميكرون، هذه الكريّة تنضغِط، وتتطاوَل وتمشي في هذا الوريد، صُنْعُ مَن ؟ ويدُ مَنْ صنَعَتْ ؟ فالحديث عن الشمّ وعن السّمع لا ينتهي.

3 – حاسة الأذن:

وكذلك الأذن الوُسطى فيها جهاز بالغ التّعقيد يُضَعِّف الصّوت القويّ، ويُكَبّر الصوت الضعيف، وأنت لا تدري، قد يأتي الصّوت ضعيفًا فهذا الجهاز يُكَبّر الصّوت، وقد يأتي فيُضَعِّفهُ.

4 – حاسة العين:

وكذا الحديث عن العين لا ينتهي عَمَلِيّة المطابقة في العين تُبيّنُ لِكُلّ ذي لبّ عظمة الله عز وجل.

5 – الكبد والمعدة والقلب:

أما الكبد فله خمسة آلاف وظيفة، ناهيك عن المعدة والأمعاء، والقلب هذا الذي يضخّ في اليوم ثمانية آلاف لتر !! ثمانية أمتار مكعّبة، كلّ متر مكعّب خمسة براميل !! ما هذا ؟

6 – العضلات:

والعضلات أنواع ثلاثة ؛ عضلات إراديّة مخطّطة وعضلات لا إرادية ملساء، ونوعٌ ثالث مُعقّد جدّا هو عضلة القلب ؛ يعمل بلا كلل، ولا ملل، ولا راحة ولا مراجعة، لا يغفل ولا يسْهو، منذ أن يكون الإنسان في بطْن أمِّه جنينًا، وإلى أن يحين حينُهُ.

هذا خلق الله:

إذا فكّرْتَ في جِسمك، وإذا فكّرْت إلى ما حولك ؛ في هذا الطّعام، وفي هذه الأزهار، وفي هذه الطيور، وفي هذه الثِّمار وفي هذه الخضراوات، وفي هذه المحاصيل، وفي هذه الجِبال، وفي هذه التِّلال، وفي هذه الوِدْيان، في هذه المعادن، في أشباه المعادن، فيما هو جميل، فيما هو قاسٍ وفيما هو متين، فيما هو كثير، فيما هو قليل، في هذه العصافير اللّطيفة، في هذه الأسماك الرائِعَة ؛ أسماك للزّينة، وأسماك للطّعام شيءٌ لا يُصدّق، لذلك يجب أن تعرف الله تعالى قبل أن تتوكّل عليه ويجب أن تعرف من هو الله، لأنَ على حجْم معرفتك تتوكّل عليه.

من لوازم التوكل معرفةُ قدرةِ الله وكفايته وقيوميته:

شيءٌ آخر ينقلنا إلى أنك مطالب أن تعرفَ قدْرتَهُ، وكِفايتَهُ، وقيُّومَتَهُ، قال تعالى:

(اللّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة)

قيام كلّ شيءٍ بالله تعالى، فهذه الطاولة لولا أنّ الله سبحانه وتعالى أقامها لما قامَتْ، فلا جبل، ولا أرض، ولا سماء ولا كوكب، ولا شمس، قال تعالى:

(اللّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

(سورة البقرة)

هو قيُّوم السماوات والأرض، وكلّ شيءٍ قائمٌ به، كُنْ فيكون وزُلْ فيزول، فإذا كان الله قيُّوم السماوات والأرض فلماذا لا تتوكّل عليه ؟ يجب أن تعرف قُدرتهُ وكفايتَهُ، وقيُّوميتهُ، وانتِهاء الأمور إلى عِلْمه، فأحيانًا تتمنّى على فلان أن يعلمَ هذا الموضوع، ولكن لا يعْلمُه، وأنت لا تُحِبّ أن تُعْلِمَهُ إيّاه، ولكن يجب أن تعلَمَ أنّ الله يعْلم كلّ شيء، إذًا قبل التّوكّل تكون المعرفة، والمعرفة لها أبواب كثيرة، يمكن أن تعرف عظمة الله عز وجل من خلقهِ، ويمكن أن تعرف عظمة الله من شرْعِهِ؛ خلقُهُ وشرْعُهُ يُنْبئنِكَ بعظمته، فإذا عرفْتَ عظمته عندئذٍ تعُدّ للمليون قبل أن تعْصيه لأنّك تفقدُ كلّ شيء إذا عصيته تفْقِدُ هذا الحِفْظ وهذه المَعِيّة، وهذه الرّعاية، وهذا التّأييد وهذا النّصْر وهذا التّجَلِي وهذا الإقبال، كلّ هذا تفقدُهُ فجأةً لذلك لأنْ يُقطّعَ جسدُ المؤمن إربًا إربًا أهْوَنُ عليه من أن يعصي الله عز وجل، المنافق يعْصي الله بِيُسْرٍ وسُهولة، وبسُرْعة، يبْدو ذنب المنافق كالذُّبابة، وذَنْبُ المؤمن كالجبل جاثمٌ على صدْره، الله سبحانه وتعالى يقول:

(أَلا بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُ الْقُلُوبُ)

(سورة الرعد)

وهناك آية أخرى تُحَيّر، وهذه الآية تؤكِد أنك إذا ذَكَرْتَ الله تعالى وَجِلَ واضطراب قلبُكَ، طبْعًا اضْطِراب القلب إذا ذَكَرْتَهُ يعني أن تنظر إلى الآخرة، وما فيها من أهوال، وما فيها من نعيم مُقيم، فهل نَجَوْتُ من النار ؟ وهل أنا مؤهّل للجنّة، وإذا ذكرْتَ الله اطْمأنّ قلبك للدنيا لأنّ الله عز وجل لم يجْعل الدنيا عقبة بينك وبين الله تعالى، قال الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

[سورة النساء]

وقال تعالى:

(إِنّ الّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ الّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت]

معرفة الله بالتفكر في خَلقه وكلامه وأفعاله:

إذاً هذا حديث يطول، ويمكنك أن تعرف الله من التفكر في خلقه، فالتّفَكّر إذًا عِبادة كالصّلاة، لماذا أنت تُصلّي ؟ لأنّها فرْض، ولأنّ الله تعالى أمَرَ بها أمْرًا مقطوعًا به، فالفرض هو الأمر القطعيّ الثبوت وقطعيّ الدلالة، طيّب كم آية هناك في التّفَكّر ؟ إذًا تفكّرك في خلق السماوات والأرض من أجل أن ترى عظمة الله، ومن أجل أن تزداد معرفتك بالله، هذا فرْض آخر، بل إنّ بعض العلماء جعل التّفَكّر فريضة من أجَلّ فرائِض الدّين إذا درسْتَ شريعة الله عز وجل فإنّك تعرفُه أيضًا، ولكنّك تعرفُه من جهة أخرى، لأنّ هذا الكتاب كلامه، وهذا الكون خلقهُ، وهذه الأفعال أفعاله، فَيُمكن أن تعرفهُ من خلال خلقه قال تعالى:

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (190) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ)

(سورة آل عمران)

ويمكن أن تعرفهُ من كلامه ومن شريعته، لأنّ هذا القرآن كون ناطق، ويمكن أن تعرفهُ من نبيه عليه الصلاة والسلام، لأنّ القرآن خُلقهُ ؛ تعْرفُه بالأسوة، وتعرفه بالخَلق، وتعرفُهُ بِكَلامه وشرْعِهِ ويمكن أن تعرفهُ بأفعاله في الدنيا، قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذّبِينَ)

(سورة الأنعام)

إذًا من أجل أن يكون التّوَكّل صحيحًا لا بدّ أن تعرف الله عز وجل إعْرفْهُ وتوكّل عليه.

التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب:

الشيء الثاني: أجْمَعَ العلماء أنّ التّوكّل لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب أبداً، ومن قال لك: إنّ التَّوَكّل يتناقض مع الأخذ بالأسباب فهذا جاهل، وما سبَب تأخير المسلمين وغلبة أعدائهم عليهم إلا هذا الوَهْم الباطل الذي روّجَهُ إبليس، التوكّل لا يتناقض مع الأخذ بالأسباب، فالله عز وجل حينما خلق الكون صمّمَهُ وفْق قوانين، فإذا احْترمْتَ هذه القوانين وعملت بها، فهذا جزء من إيمانك بالله، فإذا احْتقرْتها ولم تُبال بها وجمَدْتها، ولم تأخذ بها فهذا جهل منك بالله، إنّ بعض العلماء يقولون: لا يصحّ التَّوَكّل إلا بالأخذ بالأسباب، فالطالب الذي يقول: أنا أخذْت بالأسباب وأنا مؤمن، وأنا أخدم هذا الجامع، وسوف يُنَجّحُني الله ! هذا كلام فارغ، وتاجر يختارُ بضاعة سيّئة من دون جهد، ولا يهتم بسِعرها ثمّ يقول: أنا أتوكّل على الله ! الله تعالى أمرك أن تبْحث وأن تختار البضاعة الجيدة، والسِّعْر المناسب، فأيّ عمل تهْملُ فيه الأسباب فأنت لسْتَ متوكِلاً على الله أبدًا، قال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا)

(سورة الكهف)

من موجبات التوكل الأخذ بالأسباب:

أجْمَعَ العلماء على أنّ التوكّل لا يتناقض مع الأخذ بالأسباب، كما أنّهم أجمعوا على أنّه من موجبات التّوكّل الأخذ بالأسباب، الصانعُ في مصنْعِهِ والتاجر في متجرهِ، والزارعُ في مزرعته، والموظّف وراء طاولتِه، والمُعلِّم في قاعة تدْريسه، والطبيب في حِرْفَتِهِ، والمهندس في مكتبه ؛ هؤلاء جميعا يجب أن يدْرُسوا الأسباب التي وضَعها الله عز وجل وأن يأخذوا بها، وأريد أن أُوضّح لكم هذه الحقيقة: السُّقوط له قانون، عرفه العلماء، ودرسه الطلاب في الثانويات والجامعات ؛ هذا القانون قائِم، ونافِذ إنْ أعْجَبَكَ أو لم يُعْجِبْك، وإن آمنْتَ به، أو كفَرْتَ، وإن أرْضاك أو أغْضَبَكَ، وإن انْتَبَهْتَ إليه أو غفلْتَ عنه، وإن اعْتَرَفْتَ به، أو لم تعترف، فلو أنّكَ واقف في طائرة، وكُلِّفْت أن تسقط منها لِمُهمّة فإذا آمنْتَ بقانون السُّقوط تستخدمُ المِظلّة، لأنّ المِظلّة مَبنِيّة على أساس قانون السُّقوط ؛ وزْنُ هذا المِظلِي واتساع رقعة المِظلّة، ونوع قِماشها المُحكم الذي لا ينفذ منه الهواء والأربطة المحكمة، فهذه المِظلّة مَبنِيّة على أساس قانون السُّقوط فإذا قلت: أنا لا أعْترف بها القانون ! لم يُقْنِعني، وما قيمة هذا القانون ؟ دَعْوهُ جانبًا !! نقول له: تفضّل وانْزِلْ، اسْتهزئ بهذا القانون وانزل من الطائرة من دون مِظلّة وسوف ترى ما سيَكُون! قوانين الله عز وجل هكذا ؛ قائمة وموجودة ونافذة، عرفْتَ أم لم تعْرف، رضيتَ أم لم ترْض، أعْجَبَكَ أم لم يُعْجِبْك، في كلّ الأحوال، إما أن تأخذ بها فتَنْجو، وإما أن تُهْمِلها فتَهْلكَ، وهذا مُلَخّصُ مُلَخّص

المُلَخَّص ! يعني إذا أردْتُم أن تضغطوا هذا الدّرس كلّه في كلمات إنّ لله عز وجل في كونه وفي خلقه سُنَن، إما أن تأخذ بها فَتَنْجو، وإما أن تُهْمِلَها فتَهْلِكَ.

إنك إذا أهْمَلْتَ هذه السُّنَن، فلو بكَيْتَ، ورَجَوْتَ، ودَعَوْتَ، ورفعْتَ صوتك بالدُّعاء كلّ هذا كلامٌ فارغ، أعمال لا جدْوى منها، وحركات زائدة عن الحدّ المعقول، هذا الذي أتمنّى عليكم أن يكون واضِحًا بين أيديكم، العلماء قالوا: إنّ مِن موجبات التَّوَكّل الأخذ بالأسباب، وهذا الكلام للطّلاب والمُدرّسين والمهندسين والأطِبَاء، وللمحامين وأصحاب الحرف، والصُّناع والمزارعِين، والموظفين، ولكلّ إنسان، فإهْمال العمل وعدم الأخذ بالأسباب محبط، تُقدِم عملاً ناقِصًا من دون دِراية، ويقول: دع الأمور لِسَيّدك!! هذا كلام زعْبرة ! وليس له أيّ معنى إطلاقًا.

إنّ مِن موجبات التَّوَكّل الأخذ بالأسباب، وما تخلّف المسلمون إلا بهذا المفهوم المغلوط، لأنّهم جعلوا التَّوَكّل في الجوارح، ولم يجْعلوه في القلب، التَّوَكّل حال نفسي مكانه القلب، وأما الجوارح فيجب أن تعمل، فإذا أهْملت العمل أي توكّلتَ بجَوارحك ! فليسَتْ الجوارح مكان التَّوَكّل بل القلب، فالله عز وجل جعَلَ إنْجاب الأولاد يتمّ عن طريق الزّواج، وجَعَلَ الشّبَع يتمّ بتَناول الطّعام، وجعَلَ الوُصول إلى بلد يحتاج إلى رُكوب وسيلة كالدابة، كلّ شيء له سبب، أنت أيُّها الإنسان مَقْهور بالعِلّة الغائيّة، لا تستطيعَ أن تأكل شيئًا إلا إذا زرعْتَهُ، لكنّ الله وحْده وهو خالق الكون أعمالهُ مُنَزّهة عن العِلّة الغائِيّة، فالله تعالى يقول للشيء: كُنْ فيَكُون، أما أنت فلا بدّ أن تزْرع هذه الفاكهة حتَى تأكلها، وهذا درْسٌ بليغٌ يوضع بين أيديكم.

على من التَّوَكّل ؟ لنا عَوْدة لهذا الموضوع في الدرس القادم، قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

معاني اسم العزيز:

الآن دخلنا في اسم العزيز، من هو العزيز ؟

المعنى الأوّل:

إن القرآن الكريم فيه آيات كثيرة جدًّا طافحة بهذا الاسم الكريم، قال تعالى:

(إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

وقال تعالى:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

فالعزيز مأخوذ مِن عزّ يَعِزُّ بكَسْر عَيْن الفِعْل، وهو بمَعنى نَدَرَ، أيْ لا مثيل له، ولا نظير، فالله عزيز لأنَّه لا مِثْل له، ولا شبيه، وكلّ ما خطَرَ ببَالِكَ فالله خِلَاف ذلك، الله سبحانه وتعالى لا يُشْبهُ شيئًا من خلقه، فلا مِثْل له، ولا نِدَ له، ولا إله معه.

المعنى الثاني:

وعندنا فِعْلٌ آخر، هو عَزّ يَعُزُّ، بمَعنى غَلَبَ يغْلب، و ثمة مثلٌ عربي شهير يقول: مَن عزّ بزّ، أي من انْتَصَرَ وغلبَ له الحقّ أن يأخذ الغنائم والآية الكريمة:

(وَعَزّنِي فِي الْخِطَابِ)

أي غلبني في الخِطاب، إذاً عَزّ يَعُزُّ يعني غلبَ يغلب، فالعزيز يعني أنّهُ لا مِثْل له، ولا شبيه له من عزّ يعِزّ، ويعني أنَه القاهر فوق عباده من عزّ يعُزُّ.

المعنى الثالث:

وعندنا فِعْلٌ ثالث، هو عَزّ يَعَزُّ، بمَعنى اشتدّ وقوي، والدليل قوله تعالى:

(أرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ اثْنَيْنِ فَكَذّبُوهُمَا فَعَزّزْنَا بِثَالِثٍ)

(ص: 14)

بقي علينا ؛ لماذا قال الله عز وجل:

(وَتَوَكّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحِيمِ)

الله سبحانه وتعالى له تِسْعةٌ وتسعون اسْمًا، لماذا اخْتار من بين أسمائِهِ كُلِها اسم العزيز، وقال لك:

(وَتَوَكّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحِيمِ)

أُعِيدُ عليكم مرّةً ثانية: عندنا في اللّغة ثلاثة أفعال: عزَ يَعِزُّ، وعزّ يعُزُّ، وعزّ يَعَزُّ، **فالأوّل:** بمعنى ندر ينْدر، شيء عزيز أي نادر وقليل، **والثاني:** بمعنى غَلَبَ يغلب، **والثالث:** بمَعنى اشْتَدّ، وقويَ، نقول: تعزيز بمَعنى مُعاونة، ومُساعدة، وتأكيد وتدعيم، فالله سبحانه وتعالى عزيز من عزّ يَعَزّ، وعزيز مِن عزّ يَعُزُّ أي يغلبُ ويقهر، وعزيز مِن عزّ يعَزّ أي اشْتَدّ، وقويَ، الآن الاسم الأوّل للتّنْزيه، عزَ يعِزُ أي لا مثيل له ولا نظير، وليس كمثله شيء، والاسم الثاني والثالث من صِفات الذات الذي يغلبُ، والذي يقهر، قال تعالى:

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ)

(الأنعام: 18)

وهو القويّ المتين. المعنى الثاني والثالث من أسماء الذات.

المعنى الرابع:

وهناك معنى رابع العزيز مُعِزّ، كأن تقول: هذا جرحٌ أليم بِمَعنى مُؤْلِم، وزن فعيل بمعنى مُفْعِل، العزيز بمعنى المُعِزّ، هذا من أسماء أفعاله، فأوّل الاسم تنْزيهي، واسمين من أسماء الذات، واسم من أسماء الأفعال، هو عزيز ليس كمثله شيء، وعزيز يغلب ويقهر من سِواه، وعزيز قويّ وعزيز يُعِزّ، وهذه معاني العزيز.

رأي الإمام الغزالي في معنى العزيز:

لكنّ الإمام الغزالي له تحليل رائع جدّا لهذا الاسم، يقول: **العزيز الشيء الذي يقلّ وُجود مثله، وتشتدّ الحاجة إليه ويصْعب الوُصول إليه، فإذا اخْتلّ أحد هذه الشروط لا يسمّى هذا الشيء عزيزًا**، إذا قلّ وُجود مثله، واشْتدّت الحاجة إليه، ولكن سَهُل الوُصول إليه فليس عزيزًا، إذا قلّ وُجود مِثله، وصَعُب الوُصول إليه، ولكن لم نكن بِحاجة إليه، فهذا ليس عزيزًا، ولو أنَّهُ صعُب الوُصول إليه، واشْتدَت إليه الحاجة، ولكنّه كثير، فليس عزيزًا، فلا يُسمّى الشيءُ عزيزًا إلا إذا قلّ وُجود مثله، واشْتدّت الحاجة إليه، وصعُب الوصول إليه، أيْ لا يُنال جانبهُ، هذه صفات الأشياء إذا سمّيناها عزيزة أما إذا أردنا أن نفهم اسم الله العزيز، يَقِلّ وُجود مثله حتى لا يوجد إلا هو لا إله إلا الله، وتشْتدّ الحاجة إليه، وكلّ شيءٍ بيَدِهِ، ويصْعبُ الوُصول إليه فلا يستطيع أحدًا أن ينال منه، والأمور كلها إليه، وليس في مقدور أحد من خلقه أن ينال منه، وليس كمثله شيء، متفرّد في ذاته وصفاته وأسمائه وفي أفعاله.

كمالُ نُدْرة وُجودِهِ أنَّه واحِد، وليس كمثله شيء، وكمال الصِفة الثانية شِدّة الحاجة إليه، وجميع المنافع عائدة إليه، وكمال أن يصْعب الوُصول إليه أنَه يصل إلى خلقه، ولا أحد من خلقه يصل إليه، بمعنى أنَّه ينالهُ ولذلك قال بعضهم: العزيز هو الذي لا يُدْركُهُ طالبوه، ولا يعْجزهُ هاربوه، وهذا الاسم العزيز، واحِدٌ ليس كمثله شيء، كلّ الحاجات إليه، وكلّ المنافع بيَدِهِ، ولا يستطيعُ أحدٌ من خلقِهِ أن ينال منه، وعلى العزيز توكّل، وليس كمثله شيء، ولا شيء يصل إليه.

هل أدْركتم معي لماذا قال الله عز وجل:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

لماذا انتقى الله عز وجل من أسمائِهِ كلّها اسم العزيز ؟ لأنّ غيره لا شيء، ولا شيء سِواه، وغير الله وهم، وخيال وصورة، أما الحقيقة هو الله عز وجل، وغيره ليس بيدِهِ شيء، وغيرهُ مقهور، أما الله عز وجل لا شيء قبله، ولا شيء بعده، ولا شيء مثله، ولا شيء نظيره، والمنافعُ كلّها إليه، ولا أحد ينال منه، لا يُدركُهُ طالبوه، ولا يُعْجزهُ هاربُوه، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((من جلس إلى غنيّ فتضَعْضع له من أجل ماله ذهب ثلثا دينه !))

(الترغيب والترهيب عن أبي الدرداء بسند ضعيف)

لكن هناك آية دقيقة جدًا يقول الله عز وجل:

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

(المنافقون: 8)

إذا اعْتَزَزْتَ بالعزيز فأنت عزيز، الله عز وجل يُعطيك شيئًا من هذا الاسم، يرفعُ مكانتك، يمْنَع الناس من أن ينالوا جانبك وتشْتدُ الحاجة إليك، يجعل الخير بيَدَيْك، إذا أحبّ الله عبْدًا جَعَلَ حوائج الناس إليه، إذا أقْبَلْتَ على العزيز مُنِحْت شيئًا من هذا الاسم العظيم، والدليل قول الله عز وجل:

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

فوائد اسم العزيز المسلكية:

تتميّز، وتشْتدُ الحاجة إليه، ويجعل الله حوائج الناس عندك، ويحْميكَ مِن خُصومك، ولا ينالكَ أحد، وإذا اعتَزَزْتَ بالعزيز فأنت عزيز، والدعاء المشهور: سبحانك إنَّه لا يعزّ من عاديت، ولا يذلّ من واليْتَ فالذي تُواليهِ يا ربّ يزْدادُ عِزّا، والذي تُعادِيه يزْدادُ ذُلاً، كُنْ مع العزيز تَكُن عزيزًا، وكُن مع الذليل تَكن ذليلاً، الله عز وجل قال:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

(المائدة: 54)

ولا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه، وابْتَغوا الحوائج بعِزّة الأنفس، فإنّ الأمور تجري بالمقادير، وشرف المؤمن قِيامُهُ بالليل، وعِزُّه استِغْناؤُهُ عن الناس، واحْتَجّ إلى الرجل تكن أجيرهُ، وتكن أسيرَهُ واسْتَغْنِ عنه تكن نظيرهُ، وأحْسِن إليه تكن أميرهُ، لذلك فالله عز وجل جعَلَ فضلهُ مبذولاً لِكُلّ الخلق، قال تعالى:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(لنساء: 32)

قل لمن بات لي حاسدًا   أتدري على من أسأتَ الأدب ؟

أسأتَ على الله في فِعلِهِ   إذْ لمْ ترْضَ لـي مـا وهَـبَ

ملِكُ الملوك إذا وَهَـب   قُـم فاسْـألنّ عن السّـبب

الله يعطي ما يشـاء   فـقِـفْ علـى حــدّ الأدب

كما أنّ الله ربّ فلان فهو ربك، وكما أنّ فلانًا عبدُهُ فأنت كذلك عبْدُه فالعزيز اسم دقيق جدّا، وأتمنّى عليكم أن تزيدوا هذا الاسم بحثًا ودرْسًا لعلّ الله عز وجل ينفعَكم بهذا الاسم العظيم، وإلى درس آخر.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (19-20): تفسير الآيات 217 – 220

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 24-11-1989

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع عشر من سورة الشُعراء، في الدرس الماضي تمّ بِفَضل الله عز وجل شرْحُ طرفٍ من معاني التّوكّل التي ورد الحديث عنها في قوله تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

الشطر الأول للتّوكّل: العِلْم:

ويا أيها الإخوة الأكارم، التّوكّل عند بعض العلماء عِلمٌ وحال وعمل، فالتَّوكُّل لا يكون ولا يَصِحّ إلا إذا عرفتَ الله سبحانه وتعالى، وقد يسأل سائل كيف أتعرّفُ على الله تعالى ؟ قبل كلّ شيء، لا بدّ من اقْتِطاع وقتٍ من أوقاتك الثّمينة للتَعَرّف إلى الله عز وجل، أما أن تمتصّ الحياةُ الدنيا كلّ وقْتِك فإنّك لن تستطيع التَّعَرّف إلى الله عز وجل، فلا بدّ من تخصيص وقت لِمَعرفة الله، كيف تعرف الله عز وجل ؟ إنَ التَّوكّل مرتبطٌ بمَعرفة الله، وإنّك لن تتوكّل إلا على القويّ، ولن تتوكّل إلا على الغنيّ، لن تتوكّل إلا على القدير، لن تتوكّل إلا على الحكيم، لن تتوكّل إلا على الرحيم، لن تتوكّل إلا على العزيز، إذًا: معرفة الله أوّلاً ثمّ التوكّل عليه ثانيًا.

أبواب معرفة الله: آياته القرآنية والتكوينية وأفعاله:

1 - الكتب المقروء:

هناك أبواب ثلاثة لِمَعرفة الله، الله سبحانه وتعالى خَلَقَ الخلْق، وجعلهم مَظْهرًا لأسمائِه الحسنى وصفاته الفضلى، والله سبحانه وتعالى أنْزَلَ هذا الكتاب، وهذا الكِتاب لو قرأْتَهُ، ولو تلَوْتَهُ حقّ تِلاوتِهِ، وتدبّرْتَهُ حقّ تَدَبُّرِهِ، لعَرَفْتَ عظمة الله عز وجل من خلال هذا الكتاب.

2 – أفعال الله:

وشيءٌ آخر، وهو ما يجْري في الأرض من أفعال، هذه أفعال الله، والكون خلقهُ، وهذا كلامه، وهذه أفعاله، وخلقهُ يدلّ عليه، وكلامه يدلّ عليه، وأفعاله تدلّ عليه، فإذا شئْت أن تعرف الله عز وجل فحَسْبُكَ

الكون، وإلا شئْتَ أن تعرف الله عز وجل فحَسْبُك هذا الكتاب، وإذا شئْتَ أن تعرف الله عز وجل فَسِرْ في الأرض، وانْظُر كيف كان عاقبة المكَذِّبين، هذه أبواب معرفة الله عز وجل، قد يقول قائلٌ معرفة أمره لا يكفي، هناك خَلقٌ وهناك أمْر، وهناك ربّ عظيم، فهناك عِلمٌ بأمر الله، وهناك عِلمٌ بخَلقه، وهناك عِلمٌ به، فالعِلم بخَلقِهِ كما يحْدثُ في شتَّى بِقاع الأرض، بَحْثٌ ودرْسٌ واكْتِشاف واخْتِراع ؛ هذا كلّه معْتَمِدٌ على معرفة القوانين الدقيقة التي تنْظِمُ علاقة الأشياء المادّيّة بعضها ببعض، هذا عِلم خلق الله.

3 - الآيات التكوينية:

فالظّواهر الفيزيائيّة، والظّواهر الكيميائيّة، والظواهر الاجتماعيّة والاقتِصاديّة والفَلَكِيّة، والظواهر الماديّة، الرّياضيات والفيزياء، والكيمياء والتاريخ والجغرافيا، علم النّفس وعِلم الاجتماع، هذه كلّها عِلومٌ من خلق الله، وقد تَفَوّقتْ بعض البلدان في هذا المِضْمار تفوُّقًا كبيرًا فهذا علم بخَلق الله، أما أنّ الإنسان إذا اسْتغرق في هذا العلم وبقِيَ محصورًا به، ونَسِيَ خالقه ومُربّيه، هذا العلم لا ينفعُهُ شيئًا، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ إنّي أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن عَيْنٍ لا تَدْمع، ومن أذن لا تسمع، وأعوذ بك من هؤلاء الأربع))

(الترمذي عن عبد الله بن عمرو)

فالعِلْم بخَلق الله مُتَعَلِق بالدنيا إذا أردْت به الدنيا، ويتعلّق بالآخرة إذا أردْتَ به الآخرة، فإذا درسْتَ الفلكَ لِتَكْتشف العظمة الكامنة في خلق السماوات والأرض، فهذا العِلْم المتعلِّق بِخَلْق الله يوصِلُ إلى الله عز وجل، وإذا درسْتَ تشْريح الإنسان وأجهزته وأعضاءه، وبُنْيَتَهُ، وعلم وظائفه من أجل أن تبْحث عن عملٍ تقْتاتُ برِزْقه، فهذا عِلمٌ أوْصَلَكَ إلى الدنيا، أما إذا اتّخَذْت من هذا العِلْم سبيلاً إلى الله عز وجل كي تعرف عظمة خلقِه، ورَوْعَة صنْعته، وإتقان خلقه، فهذا العِلم ؛ عِلم التشريح وعِلم وظائف الأعضاء يوصِلُك إلى الله عز وجل، فأيّ شيءٍ خلقه الله عز وجل، إما أن ترْقى به إلى الله، وإما أن تهْوي به إلى الدنيا، أو تنال به رضى الله وسعادة الدنيا، وأنت حرّ، وأنت مُخَيَّر، حتى العلوم المتعلِقة بِخَلْق الله، إنّك إذا تأمّلْت في قوانينها، ودرسْت خواص الأشياء، وخصائص المادّة، فإنّ هذه العلوم تكشف له عن جانبٍ كبير من عظمة الله عز وجل، فهذا عِلْم خلْق الله.

أما العِلم بأمر الله تعالى، هذا القرآن الكريم، وهذه السنّة المطهَرة، إذا تلَوْت القرآن حقّ تِلاوته، وتدبّرْت آياته حقّ تدبّره تكشف لك هذه الآيات عن جانبٍ عظيم من جوانب أسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى، وإذا تأمّلت في الخلق، وتأمّلت في الحركة التي تجري بينهم، وتأمّلت في تصرّف الله عز وجل

فيما يتعلّق بشؤونهم، إنّك إذا تأمّلت في هذا أيضًا تعرّفت إلى الله عز وجل، فهذه المصادر الثلاثة ؛ خلقُهُ: الكون، وكلامه: القرآن، وأفعاله: الحوادث كلها تدل عليه سبحانه، فَخَلْقُهُ يدلّ عليه، وكلامه يدلّ عليه، وأفعاله تدلّ عليه.

لكل إنسان مرتبة في معرفة الله:

ولكلّ إنسان في الأرض مرتبة في معرفة الله، فكلما ازْدَدْتَ تفكّرًا في آيات الله، وتتبُّعاً لأفعاله، وتدبّرًا في كلامه كلّما ارْتَفَعَت مرتبتُك عند الله عز وجل، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا بورك لي في يوم لم أزْدَدْ فيه من الله عِلْمًا))

(سلسلة الأحاديث الضعيفة)

العلم هي قيمة الترجيح بين الخَلق:

وكما قلتُ من قبل: القيمة الوحيدة التي اعْتَمَدَها القرآن الكريم كَقيمة وحيدة للتَّرجيح بين خلقِهِ هي العِلم، فإذا أردْت الدنيا فَعَلَيك بالعِلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معًا فعليك بالعِلم، ويظلّ المرء عالمًا ما طلب العِلم، فإذا ظنّ أنّهُ قد عَلِم فقد جَهِلَ، والعِلم لا يُعطيك بعضهُ إلا إذا أعْطَيْتَه كلك، فإذا أعْطَيْتَهُ بعضك لم يعْطِكَ شيئًا.

إذاً لقد أردتُ من هذا الكلام أن أقول لكم: إنّ التَّوَكّل لا يكون، ولا يصحّ إلا إذا عرفت الله عز وجل، تتوكّلُ على مَن ؟ على العزيز الرحيم وعلى الخَلّاق العليم، وعلى مَن بيَدِهِ كلّ شيء، وعلى القويّ، وعلى القادر، وعلى الغني، والسميع، وعلى البصير، إذاً فلا بدّ من معرفة الله عز وجل، وقد قيل: أصل الدِّين معرفة الله، والذي جاء النبيّ عليه الصلاة والسلام وقال له: **" جِئْتُكَ لِتُعَلِمني من غرائب العِلم ! "** فقال عليه الصلاة والسلام:

((فماذا صَنَعْت في أصل العلم ؟ هل عرفت الربّ ؟))

(ورد في الأثر)

هناك في الدِّين شيءٌ ليس ظاهرًا ظُهورًا صارخًا، كالبناء الشامخ، بناءٌ مؤلّف من طوابق عديدة، إنّ في هذا البناء شيئًا أساسيًّا خطيرًا جدًا، هو الأساس فالأساس تحت الأرض، والذي يبْدو لك هذه الطّوابق، ولو لم يكن هناك أساس مكين لانْهار البناء، لذلك فالإنسان إن لم يعرف الله حقّ المعرفة فشَهْوَةٌ صغيرة تُفْسِدُ أخلاقه، وتحت تأثير أيّ ضغط قليل يخرج عن اسْتِقامته، فهو مُعَرّض لإغراءٍ أو لِضَغْطٍ، فالإغراء جاذب، والضّغط مانِع، فحياة الإنسان مَشْحونة بالضُغوط والمُغْريات، فما لم يكن هناك إيمان كبير بالله عز وجل أساسه البحث والتّدقيق والمعرفة والتّفَكّر والتّأمّل والدّرس، ما لم يكن

هناك إيمان قويّ فإنّ الإنسان ينْهار لِضَغْط يسير، أو لإغراءٍ قليل ! وعندها يفْقد إيمانه، وقد وصف عليه الصلاة والسلام إيمان الناس في آخر الزمان فقال:

((يصبح الرجل مؤمنا، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا))

(الترمذي وأبو داود عن أبي هريرة)

السور المكية دعوة إلى التفكر والتأمل:

لماذا ؟ لأنَه ما عرف الله عز وجل، والمشكلة التي يُعانيها المسلمون تتلخَّص في عدم معرفتهم بربهم، إنّ النبي عليه الصلاة والسلام حينما جاء بالإسلام أمضى مع أصحابِهِ ثلاث عشْرة سنةً في مكَة يدْعوهم إلى معرفة الله عز وجل، وإذا شئْتم فاقْرؤوا السُوَر المكيَّة، تقرؤون ماذا ؟ قال تعالى:

(وَالشّمْسِ وَضُحَاهَا)

(سورة الشمس)

وقال تعالى:

(وَاللّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا)

(سورة الشمس)

وقال تعالى:

(وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4))

(سورة الفجر)

إذا قرأتم السُوَر المَكِيَّة فلا تجدون فيها إلا الآيات الكونيِّة، وتكاد السُوَر المَكِيَّة تقريبًا تتحدَث عن شيئين؛ عن الإيمان بالله من خلال آياته الكونية، وعن اليوم الآخر، وهذا هو أساس الإيمان، فإذا عَلّمْتَ الناس الأحكام الشّرْعِيّة قبل أن يعْرفوا المُشَرّع، وعلّمْتهم الأمر قبل أن يعرفوا الآمر، علّمْتهم أحكام الدِّين قبل أن يعرفوا خالق الكون، عندئذٍ لا يستقيمون على أمر الله، آيةٌ كريمة مِن أدقّ الآيات التي ورَدَت في أواخر سورة الطّلاق، يقول الله عز وجل:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنْ الأَرْض مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الأمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا)

(سورة الطلاق: من آية " 12 ")

أيْ أنّ خلْق السماوات والأرض من أجل أن تعلم، وعِلّة خلق السماوات والأرض أن تعلم، قال تعالى:

(لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا)

(سورة الطلاق)

يجب أن تعرف اسم العليم، واسم القدير، ويجب أن تعرف أنّ علمه يطولك، وأنّ قدرته تَطُولك، من أجل أن تستقيم على أمره، فإذا بقيَ الإسلام في حَيز التفكير، وفي حيّز الثّقافة لا يقطف الإنسان ثماره، وإذا بقي الإنسان في حيز العواطف لا يقطف الإنسان ثماره، لن يقطف الإنسان ثمار الدِين فيَسْعَدَ به في الدنيا والآخرة إلا إذا أحاط به من كلّ جوانبِهِ ؛ فهذا خلقُهُ، وهذا القرآن كلامه، وتلك الحوادث أفعاله ومن خلال القرآن تعرف الله، ومن خلال الكون تعرف الله، ومن خلال الحوادث تعرف الله، تعرف الله إذا تأمّلْت، وتعرف الله إذا قرأت، وتعرف الله إذا اسْتَمَعْتَ، لك أن تُفَكِّر ولك أن تقرأ، ولك أن تسْتَمِع، وهذه كلها طرقٌ موصِلَةٌ إلى الله عز وجل، لذلك من أجل أن تكون أقوى الناس، ومن أجل أن يصِحّ تَوَكّلك لا بدّ من أن تعرف ربّك، يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنّ الصِّدق يهدي إلى البرّ...))

(الترمذي، أبو داود، ابن ماجه عن ابن مسعود)

إذا صدَقْت في معرفة الله فإنّ الله سبحانه وتعالى يهْديك إليه، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

(سورة العنكبوت)

فبِمُجَرّد أن تنعقِد إرادة ورغْبة صادِقة مُصَمِمة على أن تعرف الله عز وجل، فإن ربّنا سبحانه وتعالى يُريك آياته الكَوْنِيّة، ويُلْهِمُكَ أن تفكِر بها، ويُسْمِعُكَ الحقّ من أهل الحقّ، ويجْمعك مع أهل الحقّ في مكانِ حقّ وهو المسجد.

إذًا في التّوكّل أشياء ثلاثة، وهذا مُلخّص الدَرسين السابقين ؛ في التّوَكّل عِلم، وفي التّوكّل حال وفي التّوكل عمل، فالعلم هو أن تعرف الله، وهذا أساس الدّين،

((ابن آدم اطلبني تَجِدني، فإذا وَجَدْتني وجَدْت كلّ شيء، وإن فِتُّك فاتَكَ كلّ شيء، وأنا أحَبُّ إليك من كلّ شيء))

(ورد في الأثر)

أصْلُ الدِّين معرفة الله تعالى، فالتَّفَكُّر عِبادة من أرقى العبادات، بل إنّها لا تَقِلُّ خطورة عن الصّوْم والصّلاة، والآيات التي تحضّ على التّفكر لا تُعدّ ولا تُحْصى، اِقرأ القرآن قال تعالى:

(قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

(سورة يونس)

قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرْ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ)

(سورة عبس)

قال تعالى:

(فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمّ خُلِقَ)

(سورة الطارق)

هذه كلّها آياتٌ تحثّكم على التّفكّر في خلق السماوات والأرض، واعلم جيداً أنّك لن تتوكّل على الله إلا إذا عرفته، هذا جانب من جوانب الموضوع.

الشطر الثاني للتوكل: الحال:

الجانب الآخر أنّ التَوكّل حال، كيف ؟ الجواب: لو أن أحدنا له قضيّة فيها خُصومة، ووكّلَ مُحامِيًا بارعًا قوِيًّا، ومُتَفَهمًا للقوانين، وضليعًا في حِرْفَتِهِ، طليقًا في لسانه، وله مكانة كبرى في القصْر العدلي، إذا وكّلْت هذا المحامي فإنّك تشْعر بشيءٍ من الطّمأنينة ؛ فكيف إذا كان الذي يتولّى عنك كلّ شيء هو خالق السماوات والأرض، الله سبحانه وتعالى يقول:

(إنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنْ الّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج: من آية " 38 ")

نعم يُدافعُ عنك الله، ويتولّى أمْرك، و:

(اللّهُ وَلِيُّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنْ الظّلُمَاتِ إِلَى النّورِ وَالّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنْ النّورِ إِلَى الظّلُمَاتِ)

(سورة البقرة: من آية " 257 ")

إذا كان الله معك فمَن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ ما من مخلوق يعتصِمُ بي من دون خلقي أعرف ذلك مِن نيّته فتكيدهُ أهل السماوات والأرض إلا جَعَلتُ له من بين ذلك مَخْرجًا، وما من مخلوقٍ يعتصم بِمَخلوقٍ دوني أعرف ذلك مِن نِيّته إلا جعلتُ الأرض هَوِيًّا تحت قدَمَيه، وقطّعْتُ أسباب السماء بين يديه ! حالة المتوكِل هي حالة التّسليم، وحالة الرّضا، وحالة الطمأنينة وحالة السكينة والتّفويض، هذه كلّها ثِمار يانعة للتَوَكّل، شتّان بين إنسانٍ مقْهورٍ خائفٍ قلق ومضطربٍ يشعر بالقهْر والذلّ، والخنوع، والِخَوفٍ يأكل نفسه، وبين إنسانٍ آخر يشْعر بالأمن والعافية والسلامة والرّضا والتّسليم ؛ الفرْق كبير، ولذلك ربّنا عز وجل لما قال:

(أَمْ حَسِبَ الّذِينَ اجْتَرَحُوا السّيّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ)

(سورة الجاثية: من آية " 21 ")

من رابع المستحيلات، بل من سابع المستحيلات، بل من كل المستحيلات أن تكون حياة المؤمن النّفْسيّة كَحَياة الكافر النّفْسِيّة ؛ هذه نفْسٌ قلقة مضْطربةٌ يائسة ومقْهورة وخانعة وذليلة، وهذه نفْسٌ مطمئنة وآمنة، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (81) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (82))

(سورة الأنعام)

فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ

ما قولك بهذه الآية ؟ لو أنّ الله عز وجل قال: أولئك الأمن لهم، لكان المعنى لهم ولغيرهم، أما حينما قدَم الله عز وجل لهم أي الأمن لا يحسّ به أحدٌ سِواهم، والأمْنُ لهم وحْدهم فقط، لا يشْعر بالأمن إلا المؤمن، ولا يشعر بالطمأنينة إلا المؤمن، ولا يشعر بالسّكينة إلا المؤمن، هذه من ثمار التَّوكّل، وبِشَكل بسيط جدًّا أنت جنديّ مثلاً وصاحب أعلى رتبة في هذا الجيش يحِبُّك حبًّا جمًّا، ويحْرِصُ عليك حِرْصًا بالغًا، فعندئذٍ لا تخاف شيئًا، وهذا حال سيّدنا هود، حينما قال كما قال تعالى:

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (56))

(سورة هود)

إذا عرفْتَهُ توكّلت عليه، وإذا توكّلت عليه شعرْت بالأمْن والطُمأنينة.

الشطر الثالث للتوكل: العمل:

والشَطْرُ الثالث في التَوَكّل هو العمل، ربّنا عز وجل خَلَقَ الكون وخلقهُ وفْق سُنَن دقيقة، وأيْضًا أشار في كتابه إلى سنن أخرى في التعامل مع عباده، فَمِن لوازم العبوديّة لله عز وجل أن تتأدّب مع هذه السُّنَن، الله سبحانه وتعالى جعل لكل شيءٍ سببًا، وجعل لكلّ هدفٍ طريقًا، وجعل لكلّ غايةٍ وسيلةً، وجعل لكلّ شيءٍ خِطةً، فأنت حينما تكون عبْدًا لله عز وجل حقّا تأخذ بهذه الأسباب، وتأخذ بهذه الوسائل، وتحترم هذه السُّنن وتُطَبّقها، لذلك كما قال العلماء: لا يتناقض التَّوَكّل مع الأخذ بالأسباب بل إنّ الأصحّ مِن هذا أنّ الأخْذ بالأسباب من لوازم التَّوَكّل، ما من طريقٍ يرفعُ المسلمين، ويجعلهم قادةً في الأرض إلا أن يأخذوا بهذا المعنى ؛ التَوَكّل محلّهُ القلب، والجوارح محلّها السّعي، فإذا نقلْتَ التَّوكّل من القلب إلى الجوارح فقد قعدْت عن الأخذ بالأسباب، وأكلَ قلبَك الخوف، وهذا ما يقعُ عند الناس، هناك كسلٌ، وهناك التِباس بين التَّوَكّل وبين القعود، أو بين التَّوكل والتَّواكل ! فالذي يجب أن نعلمَهُ عِلْم يقين أنّ التَّوكل عِلمٌ وحال وعمل، كالتوبة تماماً، علم من أجل أن تعرف الله، وحالٌ وهو الشّعور بالأمْن والطمأنينة، والسّكينة وهذا من ثِمار التَّوكّل والأخذ بالأسباب في كلّ حقل من حقول الحياة ؛ في عملك، وفي الطريق إلى الله.

فهذا الذي يقول: نحن عبيد إحسان، ولسْنا عبيد امتحان ! هذا الذي يرْجو الجنَة من دون عمل، وهذا الذي لا يُقدِم شيئًا للمجتمع، يكتفي أن يقول: سبحان الله، وربّ اغْفر لي ذنوبي ! نقول له: ماذا قدّمْت ؟ وماذا فعلْت ؟ ولماذا أنت في الدنيا ؟ الإنسان بلا عمل لا قيمة له، وقيمة المرء ما يُحْسِنُهُ، بل إنّ العمل الصالح هو الذي يُحدِّد مكانتك عند الله عز وجل والدليل قوله تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمّا عَمِلُوا)

(سورة الأنعام: من آية " 132 ")

فحينما قال الله عز وجل:

(وَتَوَكّل)

فقد أمرَكَ بالتّوَكّل، وكلّ أمر في القرآن يقتضي الوجوب، ولكنّ الله عز وجل كما قلتُ في الدرس الماضي: اخْتار من بين أسمائِهِ الحسنى كلّها اثْنَين، لم يقُلْ لك: وتوكّلْ على القويّ، بل قال:

(وَتَوَكّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحِيمِ)

(سورة الشعراء)

وقد بيّنْتُ لكم في الدرس الماضي أنّ العزيز كما شرحَ هذا الاسم الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله: **أن العزيز هو الشيء الذي ينْدُر وُجوده وتشْتَدّ الحاجة إليه، ويصْعب الوُصول إليه**، وكمال هذه الصِّفات الثلاث الشيء الذي يندر وُجوده حتى لا يكون غيره ؛ لا إله إلا الله، وتشْتَدّ الحاجة إليه حتى تكون جميعُ المنافع بيَدِهِ، المنافع كلّها بين يديه، ويصعب الوُصول إليه، ولا يستطيعُ مخلوقٌ أن ينالَ جانبهُ ! فإذا كان الله سبحانه وتعالى أحدٌ صمَد، وفرْد لا إله إلا الله، ولا مثيل له، وليس كمثله شيء، وينْدر وُجود مثله، بل لا إله إلا الله، وتشْتدُ الحاجة إليه، جميعُ المنافع المادّية والمعْنَويَة، والحقيرة والجليلة، والدُّنيَوِيّة والأخْرَوِيّة بيَدِهِ، وتشْتدّ الحاجة إليه، ويصْعُب الوُصول إليه، إذا كان الله كذلك فلمَ لا نتوكّل عليه ؟ ربّنا عز وجل يقول:

(وَتَوَكّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحِيمِ)

معنى الرحيم:

كلمة(الرحيم)، يُعَذِّب من يشاء، ويرحم من يشاء، فالرّحيم هو الذي يسوق الخير للناس.

صور الرحمة وآثارها:

إذا كنتَ في برْدٍ شديد ودخلْت غرفةً دافئةً شعرْتَ بالدِّفْء يسْري في عُروقِك، فالدِّفْءُ رحمة، وإذا كنت في حرّ شديد، ودخلْتَ غرْفةً مُكَيَّفةً، وشعرْت بالبرودة تسْري في أوْصالك فالبرودة رحمة، وإذا

كنت في جوعٍ شديد، وأكلتَ طعاماً شهياً، وشبعْتَ، وسَكَنَتْ جوارحُك بهذا الطّعام، فهذا الطّعام رحمة، وإذا كنتَ في عطشٍ شديد يكاد الإنسان يأكل الثرى من هذا العطش، وشرب ماءً فراتاً عذْبًا باردًا وشعر بالريّ فهذا الريّ رحمة.

وإذا كان الإنسان وحيدًا لا أسرة له، وأكْرمَهُ الله بزَوجة صالحة سكَنَ إليها ؛ فهذه الزوجة رحمة، وإذا وهبَهُ الله طِفْلاً صغيرًا كان قرّة عينٍ له، فهذا الطِّفل رحمة، إذا رزقهُ عملاً مُريحًا يدر عليه رزقًا معقولاً يكفي حاجاته من دون أن يُنافق، ومن دون أن يبذل ماء وجهه فهذا الرّزق رحمة، فأيّ شيءٍ تسْعَدُ به في الدنيا هو من رحمة الله عز وجل، ومن رحمة الله بك في الدنيا، وأمّا رحمة الله في الآخرة، أن يأتي ملكُ الموت بشَكل أحبّ الناس إلى الإنسان، ثم إذا انتَقَلَ من دار الدنيا إلى الدار الآخرة من دون خوفٍ ولا وجل، ومن دون اضْطراب، فهذه النَقلة رحمة، وإذا اتّسَعَ القبر فصار فسيحاً وروضةً من رياض الجنَة، فهذا القبر رحمة، وإلا قطَع الإنسان الصّراط المستقيم سريعًا من دون وجل ولا خوف أو عُسْرٍ فهذا رحمة، فأيّ شيءٍ يُسْعِدُك هو رحمة.

إذاً فالرَحيم هو الذي يُعطي، والذي يُسْعِد، والذي يرْحم، والذي يُخَفِّفُ المتاعب، والذي يُزيل المصائب، والذي يُبْعِدُ الخوف والقلق، إن صفة العزيز تنتزعُ إعْجابهُ، وصفة الرحيم تنتزعُ محبة قلبك، إنَك تُعَظِم الله بالقدْر الذي تُحِبُّه، الإنسان في الدنيا أحيانًا يُحِبُّ مخلوقًا ولا يُعْجَبُ به، أو يُعْجَبُ بمَخلوقٍ ولا يُحِبُه، قد تلتقي بمُدرّسٍ ذكيّ جدًا، مُطّلِع خبير وضليع في اخْتِصاصه، يتّقد ذكاءً ولكنّه قاسٍ في المعاملة ؛ إنّك تُعْجَبُ به ولكنك تُحِبُّه، وقد تلتقي بإنسان لطيفٍ وديعٍ لكنّه في مجال اطّلاعه على العلوم مُقصِّر كثيرًا فأنت تُحِبُّه ولا تُعْجَبُ به، ولكنَ الله تعالى حينما حدّثنا عن ذاته العظيمة قال تعالى:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ)

(سورة الرحمن)

أنت تُجِلُّه وتكرم به، فالإجلال ينتزعُ إعجابك، والإكرام ينتزعُ محبّتك فتُجِلُّهُ وتُحِبُّه، لذلك ربنا عز وجل من أسمائه الحسنى، وصفاته الفضلى اخْتار هذين الاسْمَين ؛ العزيز الرحيم..

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

العزيز الفرْد الصّمَد، الذي لا مثيل له، والحوائج كلّها إليه، وبيَدِهِ كلّ شيء ولا يستطيعُ أحدٌ أن يصل إليه، هذا الشّرح لهذا الاسم ينْتزعُ كلّ إعجابك، وكلّ تقديرك، ولكنَ الرّحيم ينْتزعُ كلّ محبّتِك، يرْحمك وأنت جنين في رحم أمّك، ويرحمك بأن خلق لك أمًّا وأبًا، قال تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه: من آية " 39 ")

أنظر إلى الأمّهات والآباء ؛ حياتهم كلّها، ووقتهم كله، وتِجارتهم وسَعيُهم، وهواجسهم وخواطرهم،

وهمومهم من أجل أولادهم. كيف رحِمَ الله عبيده ؟ بهذه الطريقة ؛ جعلَ الأمّ والأب رمْز حنان الله عز وجل ورحمته، لذلك قوله تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

(سورة طه: من آية " 39 ")

أيْ ألْقيتُ في قلب الأمّ وقلب الأب هذه المحبّة، محبّة الله تَجَسّدَتْ على شكل محبّة الأم والأب، إذًا كما قال تعالى:

(وَتَوَكّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحِيمِ)

اسمٌ يشدّ إعْجابَكَ، واسْمٌ يشدّ محبّتَك، وهذا الإله العظيم العزيز الرحيم تَوَكّل عليه..

فـوّض إلينا الأمر في كلّ ما يكن فما القُـرْب والإبْعاد إلا بأمرنـا

ولا تعترضنا في الأمور فــكلّ من أردناه اجْـتـبَيْناهُ حتى أحبّنا

يُنادى له في الكون أنّا نُحِبُــه فيسْمَعُ مَن في الكون أمْرَ مُحِبّنا

أطِـعْ أمْرنا نرفع مِـن أجلـك حُجْبنا فإنّا منَحْنا بالرّضا مَن أحبّنا

ولُـذْ بحمـانا واحْتَمِ بجنـابنــا لِنَحمـيك مِمّا فيه أشـرار خلقنا

قال تعالى:

(وَتَوَكّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحِيمِ)

ملخص التوكل:

إذًا التّوَكّل عِلمٌ، وحال، وأخْذٌ بالأسباب، وهذا هو الملخّص، والصحابة الكرام وصلوا إلى ما وصلُوا إليه بِسَبب حُسْن توكّلهم على الله عز وجل، والمسلمون الذين جاؤوا بعد قُرون عِدّة وانحدروا إلى ما وصلوا إليه من التَخَلّف بِسَبب تواكلهم على الله لا توكّلِهم.

معنى: الّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ

العزيز الرحيم يراك حين تقوم، أنت في بيتك تقوم إلى عملك فيراك، وتقوم إلى صلاتك فيراك، تقوم إلى شيءٍ مُباح فيراك، وتقوم إلى صلاة الليل فيراك، تقوم إلى خِدمة إنسان فيراك، وتقوم إلى عملٍ لا يرضى عنه فيراك، تقوم إلى عملٍ يُؤْذي بعض العباد فيراك، قال تعالى:

(الّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ)

(سورة الشعراء)

إذا خَصّصْناها بالنبي عليه الصلاة والسلام، النبي عليه الصلاة والسلام يقوم حصْرًا لِخِدمة الخَلق،

وللاتِّصال بالحقّ، وإذا وسَّعْناها فأيٌّ قِيامٍ يراك الله به، إذًا لا ينبغي أن تتوكّل على الذي لا يراك لأنّك عندما تشْتَدُّ الحاجة إليه لا يراك، غائبٌ عنك، أمّا ربّنا سبحانه وتعالى مادام يراك حينما تقوم فهو معك إذًا، فَتَوَكّلْ على مَن هو معك دائمًا، قال تعالى:

(الّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ)

لذلك اُعْبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك، وفي الدُعاء النبوي الشريف: اللهمّ اجْعَلنا نخشاك حتى كأنّا نراك، وأسْعِدْنا بِلُقْياك، قال تعالى:

(الّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ)

وبعضهم قال: هذه متعلِّقة بالصّلاة فقط حينما تقوم، والأولى أن تُوَسّع.

ثمّ يقول تعالى:

(وَتَقَلّبَكَ فِي السّاجِدِينَ)

(سورة الشعراء)

وَتَقَلّبَكَ فِي السّاجدين

التّقلّب هو التّنَقل من حال إلى حال، والساجدون له لهم مراتب كثيرة، فأنت لك عند الله تعالى حَجم، والله سبحانه وتعالى يعْرِفُهُ حقّ المعرفة، هناك إنسان قد يغْمطُك حقك، قد يرفعُك إلى مستوى أنت لسْتَ فيه، أو قد يغضّ من شأنك وهو لا يعلمُ مِقدار حجْمك، قال تعالى:

(وَكَفَى برَبّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا)

(سورة الإسراء)

أما الذي يرى تقلّبك في الساجدين، يرى مقامك الحقيقيّ، ويرى الدّرجة التي أنت فيها هو الله عز وجل، فإذا اطمأنّ الإنسان إلى أنّ الله يعرف مقامه عنده، فما بالهُ يتألّم إذا أنكرَ الناس حقّه، وما باله يفْرح إذا رفعهُ الناس فوق المكان الذي هو فيه، لو معك كيلو غرام معدن، توهَم الناس أنّه ذهب ! فأثنَوا عليك، وعلى هذه الثّرْوَة وهو من التَنَك !!! من هو الخاسر ؟ أنت، ولو أنّ هذا المعدن ذهب وأوهَمْتهم خلاف ذلك ؛ كذلك أنت الخاسر ! إذا ظنّه الناس معدناً نفيساً، وهو معدن خسيس، من الخاسر؟ أنت، فهذه الآية:

(وَتَوَكّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرّحِيمِ (217) الّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلّبَكَ فِي السّاجِدِينَ(219))

هناك عارفون بالله، بعض الفِرَق الإسلاميّة رفعتْهم فجَعَلتْهم في القِمّة، وبعضهم جعلوه في الحضيض، فبعضهم قال: الشيخ الأكْفَر، وبعضهم قال: الشيخ الأكبر ! يا تُرى تقْييم هؤلاء، أو تَقييم هؤلاء هل يرفعُ من رتبته أو يخْفضها ؟ كلّ إنسانٍ له عند الله تعالى مقام لا يزيد ولا ينقص، فإذا اطْمَأننْت أنّ مقامك عند

الله مَبْنِيّ على أساس دقيق جدًا؛ فهذا مِمّا يُريحُ قلبَكَ.

قال تعالى:

(وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220))

قال الله عز وجل:

(إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

(سورة طه)

أهل السنَة والجماعة لا يُعَطِّلون الصفات:

وكما قلتُ من قبل: إنّ الله يسمع ويرى، وإذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربكم إلى السماء الدنيا، ويد الله فوق أيديهم، فهذه الآيات أهل السنَة والجماعة لا يُعَطِّلونها، ولا يُجَسِّمون هذه الكلمات بحيث يصبح الله سبحانه وتعالى مُشابهًا لِخَلقِهِ، عقيدة أهل السنّة والجماعة لا نُجَسِّد ولا نُعطِّل، وقول الإمام مالك هو أجْمَل قَولٍ في هذا الموضوع ؛ فقد قال: **" الاسْتِواء معلوم، والكَيْف مجهول، والإيمان به واجب، والسُّؤال عنه بدعة " !** وانتهى الأمر، هذا شيء فوق مستوى عقولنا، فالله تعالى إذا تكلّمت يسمعُك، وإذا سكتّ يعلم ما في قلبك، والإنسان إن تكلّمْت سمِع، وإن سكتّ جَهِلَ ! أما الله تعالى إن تكلّمْت سمِعَك، وإن لُذْتَ بالصَّمْت علم الحقيقة، وعلم ما في قلبك، لذلك أن تقول شيئًا أو لا تقولهُ سيّان، وهذا ينقلنا إلى قوله تعالى:

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ)

(سورة البقرة: من آية " 284 ")

الله سميع عليم:

إن أبْدَيتهُ أو أخْفَيْتَهُ فهو سيّان عند الله تعالى، لأنّ نفسكَ مَكشوفةٌ أمام الله عز وجل كالصَّفحة البيضاء. سميعٌ لِقولك عليم بحالك، سَميعٌ لِدُعائِك، عليم بخفايا نفسِك، سميعٌ لِتَوَسُّلاتك، عليم بنَواياك، فالذي يخفى على الناس يعلمُه الله، والذي تُبْديهِ يسْمَعُهُ، لذلك فأعلى درجة من درجات الإيمان أن تشْعر أنّ الله معك قال تعالى:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

(سورة الحديد: من آية " 4 ")

وأن تشعر أنّ الله عليك رقيب، قال تعالى:

(إِنّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

وأن تشعر أنّ الله بالمرصاد، إذا شعرْت أنَ الله بالمرصاد، وأنّه رقيب عليك، وأنَه معك أيْنما كنت، عندئذٍ لا بدّ أن تسْتحي منه، ابن آدم استحي منِّي فأنا أسْتحي منك، وهذا الحال عبِّر عنه الصُّوفيُّون بالمُراقبة، لو أنّ إنسانًا راقبَ إنسانًا، هذا الإنسان ينضبط، لو شعر المؤمن أنّ الله تعالى يُراقبُهُ في خَلْوَتِهِ، وفي جَلْوَتِهِ وفي جِدِّهِ وفي هَزْلِهِ، ومع أهله ومع الناس، وفي حضره، وفي سفرهِ ومع إخوانِهِ، ومنْفَرِدًا، هذا الشُّعور لابد أن يستمر ليرقى صاحبه، لذلك قالوا: من علامات الإخلاص أن يسْتوي عملك في السرّ والعَلَن، وأن تستوي السريرة والجريرة، والباطن والظاهر، وهذا من علامات الإخلاص، أن تُصلِّي صلاةً منفردًا كما صليتها مُجْتَمِعًا، قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (217) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (218) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (219) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (220))

قال تعالى:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224))

أعداء النبي عليه الصلاة والسلام، وصناديد الكفْر في مكّة كانوا يتّهمون النبي عليه الصلاة والسلام بأنّ هذه الرّسالة افتراء، وهذا الوحي إن هو إلا رُؤى رآها، أو أمْلاها عليه الشياطين، فالله سبحانه وتعالى دافَعَ عنه، قال تعالى:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222))

الأفّاك هو الذي يختلق الكذب، والأثيم هو المنْحَرِف، قال تعالى:

(يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)

بقي علينا إن شاء الله هذه الآيات الأخيرة، قال تعالى:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ(227))

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يُمَكِّننا من تفسير هذه الآيات، وسيكون الدّرْس القادمُ الدرسَ الأخير من سورة الشعراء بمشيئة الله، وننتقل بعدها إلى سورة النّمل.

والحمد لله رب العالمين

التفسير المطول - سورة الشعراء 026 - الدرس (20-20): تفسير الأية 221
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1989-12-01

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس العشرين من سورة الشُّعراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى قوله تعالى:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (223) وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ(227))

(سورة الشعراء)

تنزيل القرآن خالص من عند الله:

أيها الإخوة الأكارم، هذه الآية استئناف، الجُمَل تكون ابْتِدائِيَّة واسْتِئْنافِيّة، فهذه الآية اسْتِئْنافٌ ساقهُ الله سبحانه وتعالى لِيُبَيِّن اسْتِحالة تنزّل الشياطين على رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وفي آيات سابقة قال الله عز وجل:

(وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (210) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (211))

(سورة الشعراء)

أي إنّ هذا القرآن لم تتنزَل به الشياطين، وفي هذه الآية:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ)

(سورة الشعراء)

مقامُ النبوّة مقامٌ منزّه عن الكذب والإفك، بينما الشياطين من صِفاتهم الثابتة أنّهم أفّاكون آثِمون، فالأفاك هو الذي يقلِبُ الحق باطلاً، والباطل حقّا الأفاك هو الذي يكذب، الأفاك هو الذي يوقِعُ بين الناس العداوَة والبغضاء، الأفاك هو الذي يُزَوِّرُ الحقائق، الأفاك هو الذي يقول ما لا يعْلم ويماري فيما يَعلِم، قال تعالى:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222))

(سورة الشعراء)

مقام النبوّة منزّه عن الكذب:

كأنّ الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة يُبَيّن مقام النبوّة ؛ إنّه مقامٌ منزّه عن الكذب، وبالمناسبة فإنّ الكذب يتناقض مع الإيمان، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلالِ كُلِّهَا إِلا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

(رواه أحمد)

في بعض أقواله صلى الله عليه وسلّم:

((المؤمن لا يكذب !))

لِمُجَرّد أن يكون الكذب داخلاً في حياتك بشكلٍ أو بآخر فالنبي عليه الصلاة والسلام نفى عنك الإيمان:

((المؤمن لا يكذب !))

فالمؤمن قد يُقصّر، وقد تَزِلّ قدمه، وقد يفعل شيئًا ويندم عليه، ولكنَّه لا يكذب، لذلك فمقام النبوّة مقامٌ عظيم منزّه عن الكذب، وعن الإثم، فالكذب هو انْحِرافٌ قولي، والإثم انْحِراف سُلوكي والنبي عليه الصلاة والسلام يقول في بعض أحاديثه الشريفة:

((لا يستقيم إيمان عبْد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه))

(أحمد عن أنس)

لذلك فالذي يقول: التِّجارة شطارة ! هذه مبنيّة على الكذب، وبين أصحاب المِهَن هناك من يقول لك: لا بدّ من الكذب، هذا كلامٌ مرفوض، المؤمن لا يكذب ورزقهُ على الله، ومن ترَكَ شيئًا مخافة الله عز وجل عوّضَهُ الله خيرًا منه، إذا كان الرّزْق لا يأتي إلا بالكذب فلا كان هذا الرّزق، والله هو الغنيّ، فأنْ تقول: إنّ الكذب ضرورة فهذا كلام الشّيطان، فالله سبحانه وتعالى يُبَيّن في هذه الآية أنّ من يدّعِي أنّ الشياطين تتنزّل على النبي عليه الصلاة والسلام هذه دَعْوة باطلة ؛ لماذا ؟ لأنّ الشياطين لا يتنزّلون إلا على كل أفّاك أثيم، ومقام النبوة مقام عظيم مُنَزّه عن هذا الوصْف.

لا تنزل الشياطين إلا على مَن له قابلية:

هناك نقطة مهمّة جدًا لا بدّ أن نقف عندها، يقول الإمام القاشاني: **تنْزِلُ الشياطين على مَن عنده استِعداد لِقَبُولها**، فمن الذي عنده اسْتِعداد لِقَبول الشياطين ؟ مَن كان على شاكلتهم من الخُبْث، والكَيْد، والمكر، والفساد، والخِيانة، وسائر الرذائل، وهذا القَوْل ينقلنا إلى حقيقة مفادُها: أنّ أحدًا لا يستطيعُ أن يُضِلّ أحدًا، والشيطان يضِلّ من كان على شاكلته، ومن كان عنده استِعداد لِتَقَبُّل أفكاره، ولِتَقبّل وساوسِه وانْحِرافاته، والإنسان له جبِلّة، وهذه الجبِلّة فطرها الله سبحانه وتعالى فِطْرةً نَقِيّة، وصفْحة بيْضاء، فإذا

دنَّسَها الإنسان بانْحِرافاته ومعاصيه وشهواته وجاء الشيْطان لِيُوَسْوِسَ لهذا الإنسان البعيد المنقطع ؛ فإنَّ هذا الإنسان يستجيب للشيْطان، الشيطان لا يستطيعُ أن يؤثِّر إلا لِمَن كان عنده اسْتِعداد لِقَبوله، قال تعالى:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222))

(سورة الشعراء)

مُنحرفٌ في أقواله، منْحرفٌ في أعماله، والإثم فِعْل المعاصي، والموبقات، واتِّباع الشّهوات، والمَيْلُ نحو الغرائز والأفعال القبيحة، فالأفّاك الأثيم هو الذي تنزّل عليه الشّياطين.

من صفات المؤمن: عدم سماعه أقوال الشياطين:

شيء آخر، هو أنّ المؤمن لا يمكن أن يُصْغي إلى قول الشياطين، لا يمكن أن يُصغي إلى وساوسهم، لا يمكن أن يستجيب لهم، هذه حقيقة فهذا الذي يقول لك: لا أستطيع، وهكذا فَعَلَ بيَّ الجن، وهكذا دخلوا فيّ، هذا كلّه كلام باطل، لا يقبلُ وساوس الشياطين، ولا إيحاءات الجنّ، ولا يقْبَلُ تعاوُنَهُ مع الجنّ إلا إذا كان على شاكلتهم، وهذه حقيقة واقعة في الحياة اليوميّة، الإنسان السيّئ يُفْسِدُ مَن كان مثلهُ سيّئًا، أوْ من كان يمْلِكُ اسْتِعدادًا للفساد، وعندهُ رغْبةٌ في الفساد يأتي المُفْسِد فيُفْسِدُهُ، أما الذي سَمَتْ نفسُهُ، وارْتَقَتْ روحُه، واستقام على أمر ربّه واقبل عليه، وشعَرَ بالطهارة والعفاف، وشعَرَ بالقُرْب من الله عز وجل ؛ مِثْل هذا الإنسان لا يستطيعُ شيطان الإنس ولا شيطان الجنّ أن يُفْسِدَهُ، فلذلك على الإنسان ألاّ يقول كلّما زلّتْ قدَمَهُ: لعن الله الشيطان ويحمل الشيطان تبعة أعماله، بل عليه أن ينظر في حقيقة تصرفاته وأنها من فعل يده واكتساب نفسه ! إنّ الشيطان نفسه يوم القيامة يقول، كما في قوله تعالى:

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

(سورة إبراهيم)

هذا كلام ربّ العالمين، ما كان لي عليكم من سلطان فالشيطان إذاً لا يستطيع أن يُفْسِدَ إلا من كان عنده اسْتعداد للفساد، وإلا من كانت عنده رغبة الفساد، وإلا من كان على شاكلة الشيطان من الخبث والانحراف، والكَيْد، والخِيانة، والكذب والفجور، قال تعالى:

(اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)

(سورة آل عمران)

كسبوا السيّئات، فجاء الشيطان فأزلّ أقدامهم، فلذلك إذا زلّتْ قدمُ الإنسان يجب أن يعلم عِلْم يقين أنّه

وحده يتحمّل المسؤوليّة كاملة، ولا ينبغي له أن يُحَمّلِها أحداً، ولا أن يُحَمّلَ بعضها للشيطان.

قال تعالى:

(هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (221) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (222))

(سورة الشعراء)

المؤمن ليس أفّاكًا، ولا يكذب، وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا شَعَرَ أنّ أحدًا من أهل بيْتِهِ قد كذَبَ يغضبُ غضبًا شديدًا، ويُقاطِعُه إلى أن يتوب، إذًا لمّا كان مقامُ النبوّة مُنَزّهًا عن الإفك والإثم والكذب والفجور حُقّ لِكُلّ مؤمن أن ينْفِيَ عن النبي عليه الصلاة والسلام أن يكون للشياطين أو لبعضهم دَوْرٌ في إنزال هذا القرآن، أو في الوُصول إلى النبي العدنان عليه الصلاة والسلام.

قال تعالى:

(يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)

(سورة الشعراء)

يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ

النبي عليه الصلاة والسلام سألهُ ناسٌ عن الكُهّان، فقال صلى الله عليه وسلّم:

((إنّهم ليْسُوا بشَيء))

(الأدب المفرد عن عائشة بسند صحيح)

الحديث طويل، ولكن لو اكْتَفَينا بهذا الكلام لكفى ـ فكلّ ما يقوله الناس من أعمال الجنّ، ومن مكرهم، ومن أفعالهم ومن تآمرهم على الإنس، وبِعِلْمِهم بما سيَكُون أي علمهم الغيب، كما قال سيّد الخلق:

((إنّهم ليْسُوا بشَيء ! فقالوا: يا رسول الله: إنّهم يُحَدِّثون بالشّيء يكون))

وكثير من الإخوة الأكارم يسْمعون مِن أقاربهم، مِمّن حوْلهم، وممّن يلوذ بهم، أنَ فلانًا تنبّأ بكذا، وكان كذا، فما تفسير هذا ؟! أجيب كما أجاب النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنّهم ليْسُوا بشَيء))

أمر الله بالاستعاذة من شر الشياطين والسحرة

ولكن الله سبحانه وتعالى أرشدنا في القرآن الكريم في آياتٍ كثيرة إلى أن نسْتعيذ به، قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5))

(سورة الفلق)

ودلّنا أن نستعيذ مرّةً ثانية، قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (1) مَلِكِ النَّاسِ (2) إِلَهِ النَّاسِ (3) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (4) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (5) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6))

(سورة الناس)

والله سبحانه وتعالى وصف المتّقين فقال:

(إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ)

(سورة الأعراف)

وفي آية رابعة يقول الله عز وجل:

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنْ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(سورة فصلت)

أما أجمل ما في هذه الآية الأخيرة ؛ إنَه هو السَّميع العليم، فقد يقول لك قائل: أنا اسْتَعَذْتُ بالله، والشيْطان لم يبْرحني، فكيف تُفسِّر هذه الظاهرة ؟ إنّه هو السميع العليم ؛ سميعٌ لاسْتِعاذتك باللِّسان، ويعلم ما إذا كان قلبك حقيقةً قد اسْتعاذ بالله، أم أنّك اكْتَفَيْت بالاسْتِعاذة بِلِسانِك، يعني إذا كانت الاستعاذة باللِّسان هذه لا تكفي، ولا تفعل شيئًا، ولا تستطيعُ هذه الاستعاذة باللِّسان أن تدفعَ الشيطان، لذلك قال تعالى:

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

(سورة فصلت)

فإذا ألَمَّ بالإنسان وسواس، أو ألمّتْ به مشكلة، أو لاحَتْ له شبهة، أو جاءَتْهُ خواطر لا ترْضي فإنّها من الشّيطان إذاً فلْيَسْتَعِذ بالله، ولكن فلْيَسْتِعذ بِقَلبِهِ قبل لسانه وأن يتوجّه إلى الله بِكُلِّيتِهِ، أن يلْتجأ إليه، وأن يحْتمي بحِماه حتى ينقذهُ الله سبحانه وتعالى من هذه المِحْنة، فالنبي عليه الصلاة والسلام: فإنّهم يُحَدِّثون بالشيء يكون ! فقال عليه الصلاة والسلام:

((تلك الكلمة من الحق يخطفها الجِنّي، فيُقرْقِرُه في أذن وليّه، كَقرْقَرَة الدّجاج فيَخْلِطون معها أكثر من مئة كِذْبة))

(الأدب المفرد عن عائشة بسند صحيح)

حينما تنزل أوامر الله سبحانه وتعالى إلى الملإ الأعلى هناك من الشياطين من يستمعون، فإذا الْتَقَطَ أحدهم كلمة ألقاها في أذن الكاهن، ونسج على مِنوالها مئة كذبة، كما قال عليه الصلاة والسلام: كذبَ المُنَجّمون ولو صدَقوا، ومن أتى كاهنًا فصدّقهُ فقد كفر بما أُنزل على محمّد، ومن أتى ساحرًا فصدقة لم تُقبل له صلاة أربعين صباحًا. قال تعالى:

(يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)

(سورة الشعراء)

تفسير: (يُلْقُونَ السّمْعَ)

المعنى الأول:

من تفسيرات هذه الآية أنّ هؤلاء الشياطين يسترقون السّمع، ويُلقُون السّمع إلى الملائكة ليأخذوا بعض أمر الله للبشر، فَيَبُثُّون في أذن الكُهّان لِيكذبوا عليه مئة كذْبة.

المعنى الآخر:

أنَ المنحرف يُلقي سمْعهُ، والأفّاك يُلقي سَمْعهُ إلى الكذب لذلك في نِظام المحاكمات يُقال: لا تُسْمعُ هذه الدّعوة، القاضي يرفض سماعها في الأصل، إذا كانت لم تستَوْفِ شُروطها الإجْرائيّة ومضمونها الصحيح، دَعْوى غير مَسْموعة، والمؤمن كذلك إذا كان في عالم القُدُس، وكان مع الله سبحانه وتعالى، وكان في طهارته وعِفّتِهِ لا يُلقي السّمْع للشياطين، ولا لِوَساوِسِهم، قال تعالى:

(وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ)

(سورة الشعراء)

من صفات غالبِ الشعراء الكذبُ:

هؤلاء يكْذبون، والكذب كما تعرفون هو قلبُ الحقائق وتزويرها، وهناك من يقول: إنّ النبي عليه الصلاة والسلام شاعر، وفي آيات كثيرة أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذه التُّهمة التي اتُّهمَ بها النبي عليه الصلاة والسلام من أنّه كاهن، ومن أنّه شاعر، في بعض الآيات الكريمة يقول الله عز وجل:

(إِنّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (40) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ (41) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكّرُونَ (42) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (43))

(سورة الحاقة)

لا هو بِقَول شاعر، ولا هو بِقَول كاهن، بل هو قول رسول كريم، تنزيل من ربّ العالمين، هذا هو الحق، فهناك من ادّعى، ومن زعمَ من كُفّار قريش أنّ النبي عليه الصلاة والسلام شاعر، فكان هذا الردّ، وإذا زعمت أنّه شاعر، فالشّعراء يتّبعُهم الغاوون، الشُعراء لَيْسُوا كذلك.

صور من كذب ومبالغات الشعراء:

من هو الشاعر ؟ هذا الذي يتكلّم كلامًا وفق هواه فقد يمدحُ مديحًا كاذبًا، وقد يهْجو هِجاءً ظالمًا، وقد يصِفُ حالة ساقطة، وقد يُبالغ، كما جاء على لسان بعض من الشُعراء:

ولو أنّ النّســاء كمن فقدْنا لَفُضّلَت النِّساء على الرّجال

* * *

أراد شاعِرٌ أن يتقرّبَ إلى المعتصِم، فلما تُوُفِّيَت أمّ المعْتَصِم، مَدَحَ أُمَهُ بقصيدةٍ مَطْلعها:

ولو أنّ النّســـاء كمن فقدْنا لَفُضِّلَت النِّساء على الرّجال

* * *

من أجل هذه المرأة التي لا يعرف التاريخ عنها شيئًا !! وهذا كذب هذه مبالغة، ومبالغة كبيرة، وبعض الشُعراء يمدح مديحا كاذبا، مديحا يخلو من كل حقيقة، يسبغ على ممدوحه صفات البطولة، والكرم، والشجاعة، والتّقوى، وهو ليس كذلك، إذًا هذا المديح الكاذب فيه معْصِيَة، لأنّ الله سبحانه وتعالى يغضب إذا مُدِحَ الفاسق فَمِن أجل مكاسب رخيصة، من أجل نوال محدود وعطاء قلّ أو كثر، كان هذا الشاعر يُصْبغُ على ممدوحهِ صِفاتٍ كلها ملفقة متكلّفة، لذلك فربّنا عز وجل قال عن هذا النبي الكريم:

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ)

(يس: 69)

لأنَ من شأن الشعراء أن يكذبوا، هناك لقَطَاتٌ كثيرة من أقوال الشعراء ينحدر فيها الشاعر، ويسف إسفافاً:

أيّ عظيمٍ أتّقي وأيّ مكانٍ أرتقي

و كلّ ما خلق الله وما لم يخلق

محتقر في نظري كشَعْرةٍ من مرْفقي

* * *

هذا قول المُتَنَبّي ! ما قيمة هذا الشِّعر ؟ هذا الكون العظيم الذي تحار به العُقول قال عنه المُتَنَبّي إنَّه محْتقرٌ في نظرهِ، فهل يُعْقَلُ أن يكون النبيّ شاعرًا، هذا المتنبّي الذي قال مرّة:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسْمَعَت كلماتي من بهِ صمَمُ

أنام ملء جُفوني عن شواردها ويسهر الخلْق جرّاه ويخْتصِمُ

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

بكل فارس مِغْوار شجاع لا يهاب المنايا، كان في طريقه من بغداد إلى حلب أو من البصرة إلى حلب، فخرج عليه كمين فولّى هاربًا ! فقال له غلامه: ألم تقل:

الخيل والليل والبيداء تعرفنـي والسيف والرمح والقرطاس والقلم

* * *

فقال: قتلتني قاتلك الله، وعاد وقاتل حتى قُتِل، إذًا هناك مبالغات شيءٌ غير صحيح، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام أعظمُ بكثير وأسْمى بكثير، من أن يكون شاعرًا، قال تعالى:

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ)

(سورة يس)

إنّه رسول الله، الشاعر ينطلقُ من خيال، وقد يبتعد عن الواقع الإسلام دينُ الفِطرة، لذلك هناك تناقض بين ما هم عليه الشُعراء، وبين قواعد الدّين، فليس من قواعِدِ الدّين أن تكذب في المديح، وليس من قواعِدِ الدّين أن تَهْجُوَ هِجاءً مقذعًا، ولا هِجاءً مُراً، وليس من قواعد الدّين أن تُثير الغرائز بشِعْر رخيص، وهذا كلّه من صفات الشعراء، والنبي عليه الصلاة والسلام فهو فوق ذلك، ومن المبالغات إلى غزل إلى هِجاء إلى وصْف كلّه ما أراده الله سبحانه وتعالى، ولكنّ الحقيقة التي أحبُ أن أقرّرَها في هذا الدّرس ؛ هو أنّ الإسلام لم يُهاجِم الشِّعْر لذاته، ولكن هاجَمَهُ لِمَضمونه، لأنّ مضمونه يتنافى مع قواعد الدّين فكلّ شاعر سخّر شِعرهُ للهجاء الباطل، وللمديح الكاذب، ولإثارة الغرائز، وللتّحليق في عالم الخيال، مُبْتَعِدًا عن الواقع فهذا الشاعر ينطبق عليه قول الله عز وجل: والشعراء يتّبعهم الغاوون.

حكم الشعر في الإسلام: كلام حَسَنُهُ حسَن، وقبيحُهُ قبيح:

إلا أنّ الشِّعْر كما يقول العلماء: كلام حَسَنُهُ حسَن، وقبيحُهُ قبيح، وهذا حُكمٌ فقهي في الشِّعر، نوّهَ به النبي عليه الصلاة والسّلام، فعن عَبْدِ اللَّهِ بْن عُمَرَ رَضِيِ اللَّه عَنْهمَا أَنَّهُ قَدِمَ رَجُلان مِنَ الْمَشْرِق فَخَطَبَا فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيَانِهِمَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، أَوْ إِنّ بَعْضَ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ))

(رواه البخاري)

(مِن)هذه للتّبعيض، فبعض الشّعر فيه حِكمة، وبعض البيان في سِحر ما كلّ البيان ساحر، وما كلّ شعر حكيم.

في صحيح البخاري أن النبي عليه الصلاة والسلام تمثّل قول لبيد، فقال:

((أصدق كلمة قالها لبيد: ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطل))

ولكنّه عليه الصلاة والسلام ما أتمّ البيت، لأنّ في تمام البيت مخالفة للحقيقة، فالبيت أصله:

ألا كلّ شيءٍ ما خلا الله باطل وكـل نعيم لا محالـة زائل

***

فنعيم أهل الجنّة لا يزول، وهذا الكلام في الشطر الثاني غير صحيح.

شيءٌ آخر، الإسلام لم يُهاجم الشِّعر لذاته بل هاجمهُ لِمَضْمونه، لأنّ الشِّعر كلامٌ حسَنُهُ حسَنَ، وقبيحُهُ قبيح، لو أنّ الشاعر اسْتَخْدم شِعرهُ في الحديث عن الله عز وجل، أو عن هذا الكون العظيم، أو عن النبي الكريم، أو أثار الهمَم للأعمال الطّيِّبَة، فهذا الشِّعر حسَن، بعض الشعراء يقول:

أُنظر لِتِلك الشّجــرة ذات الغُصون النّضرة

كيف نَمَتْ مِن حبّـةٍ ؟ وكيف صارَتْ شَجَرة

فابْحَثْ وقل مــن ذا الذي يُخرجُ منها الثمرة ؟

و انْظر إلى الشمـس جذوتها مُسْتَعِـــرة

فيها ضِيــــاء وبها حرارة منتشـرة

من ذا الذي أوْجَـدَها في الجوّ مثل الشّـرَرَة

و انْظر إلى الليــل فمن أوْجَدَ فيه القمــر

و زانـهُ بأنْجُــمٍ كالدُّرر المنتشــرة

و انْظر إلى الغــيم فمن أنزل منه مطـرًا ؟

فصيّرَ الأرض بـــه بعد اصْفِرارٍ خَـضِرة

ذاك هو الله الـذي أَنْعُمُهُ مُنْهَمِــــرة

ذو حِكمةٍ بالغــة وقدرةٍ مقـــــتدرة !

***

فالشِّعر ليس حرامًا لِذاته، ولكنّ المديح الكاذب والهجاء الرّخيص والغزل وإثارة الغرائز ؛ هذا الذي هاجمه الإسلام، فإذا كان الشاعر في هذا المسْتوى حيث استمعنا لوصف الشجرة فأنْعِم به من شاعر، والقرآن الكريم استثنى فقال:

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا)

(سورة الشعراء)

استثناء الشعراء المؤمنين من شر الغواية:

لأنّك إن أردْتَ أن تُحْدِثَ موقفًا انفعالياً في الناس، فإنك تستخدمُ الشِّعر، فهو يُحَرّك المشاعر، ويُحَرّك العواطف والبلاغة والقدرة التّعبيريّة شيءٌ ثمين إذا وُظِف للحق فأنْعِم به، وأكرم، لذلك الشِّعر كلامٌ

حسنُهُ حسَن وقبيحُهُ قبيح، ولا ينبغي أن نُطْلقَ عليه حُكْمًا جائرًا وعامًّا، ولكنّ هؤلاء الذين زعَمُوا أنّ النبي عليه الصلاة والسلام شاعر، قال تعالى:

(وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ)

وليس مقام النُّبوّة يقترب منه مقام الشّعر، ففي الشِّعر الكذب والهجاء، وخيالات وبُعْدٌ عن الواقِع، كافور الإخشيدي مدحَهُ المُتَنَبّي بقصيدة، جعل من هذا الإنسان أحد أصحاب رسول الله ! فلمّا غضِبَ عليه، ولم يُوَلِّه العِراق قال:

لا تشْتَرِ العَبد إلا والعصا معه   إنّ العبيد لأنجـاس مناكيدُ !

* * *

وقال:

وفي كلّ أرضٍ وطِئْتُها أمم   تُرعى بعَبْد كأنّهم غَنَم

يسْتَخشِنُ الخزّ حين يلْبسُهُ   وكان يُبْرى بظُفره القلَمُ

* * *

هذا هو الشِّعر، رفعُه إلى مستوى عال جدًا، فلمّا أحْبط مسْعاه ويئسَ منه جعَلَهُ في أسفل سافلين، أما النبي عليه الصلاة والسلام فقد نهانا عن أن يحمِلَكَ الغضب على أن تُبالغ، أو أن يحمِلَكَ الرضا على أن تُبالغ يجب أن تقف عند الواقع عند ما هو كائن، فكلّ زيادة وكلّ مبالغةٍ ليست من شأن المؤمن.

حال الشّعراء مُنافيَةٌ لِحال رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فالنبي عليه الصلاة والسلام في مراتب عليا من الطّهر ومن العفاف، من الصِّدق ومن المروءة، ومن الواقِعِيّة، أما هؤلاء الشُعراء فإنهم يمْدحون ويهْجون ويتغزّلون ويُحَلِّقون بالخيال، ويبتعدون عن الواقع، فليس من يقول: إنّ النبي شاعر هو مُحِقّ بل هو مبطِل، قال تعالى:

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ)

(سورة الشعراء)

هل هؤلاء الصّحابة في مستوى أن يكونوا أتباع شاعر ؟ لا والله! قال تعالى:

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (224) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225))

(سورة الشعراء)

تفسير: أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ

لم يقل الله عز وجل: في كلّ طريق يهيمون، قال: في كلّ واد ! يعني هناك متاهات، واد فيه مغاوِر، وفيه مسارب، وفيه اتِّجاهات متناقضة وفي حَيرة، والفِعْل هامَ تقول: هامَ على وجْهه سارَ بلا هُدَى،

ومن دون بصيرة، ولا هدف، فالشّعراء في كلّ وادٍ يهيمون، يميل مع مصلحته أينما مالت، حتى إنّ شاعرًا في العصر العباسي مدَحَ وهجا اثنَي عشر خليفةً، يمْدحُهُ ثمّ إذا جاء خلفُهُ هجاه، فكُل هذا زورٌ وكذب وبهتان، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ)

(سورة الشعراء)

فهذا الذي مَدَحَ رسول الله صلى الله عليه وسلّم بقصيدة رائعة، له أبيات أخرى:

رمضان ولّى هاتِها يا ساقي مشْتاقةً تسْعى إلى مُشتاق

يقصِدُ بها الخمر ! فهو إذا أراد النبي مدحه، وإذا أراد الخمر مدحها أهَذا مسلِم ؟ وهل هذا منضبطٌ ويؤخَذُ عنه ؟ إن أموره لا ضابط يضبطها، وتسترسل من دون حدود، هي فوضى ! لذلك ربّنا سبحانه وتعالى قال:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ)

(سورة الشعراء)

في كلّ واد تخوضون، تارةً يُتَّهَمُ بعض الشعراء بالزّندقة، وتارةً يُقال عنه إنّه مؤمن، وتارةً يؤمن بالآخرة، تارةً يرفض الآخرة، هناك اضطراب فِكري، واضطراب عقدي، واضطراب سُلوكي، فهل يمكن أن نأخذ شيئاً عن هؤلاء ؟ وإذا كان عندهم شيء يؤخذ، فهو المَقْدُرة اللّغويّة والشِعريّة ليس غير، أما أن يكون الحقّ معهم فهذا أبْعدُ شيءٍ عن الواقع، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226))

(سورة الشعراء)

وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ

سيّدنا عمر رضي الله عنه استعْمَلَ واليًا على البصرة اسمهُ النعمان بن عَدِيّ وكان هذا الوالي يقول الشِعر، قال قصيدة وقال في خِتامها:

لعلّ أمير المؤمنين يسووُه تنادمنا بالجَوْثق المتهدّم

فبَلَغَ سيّدنا عمر هذه القصيدة، فقال: إي والله، إنّه لَيَسُوؤني ذلك، ومن لَقِيَهُ فلْيُخْبرْهُ أني عَزَلْتُه، وكتَبَ إليه:

بسم الله الرحمن الرحيم

(حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ(3))

(سورة غافر)

أما بعد فقد بلغني قولك: وايْمُ الله إنَّهُ لَيَسُوؤُني ذلك، وإنّي قد عَزَلْتُك ! فسيّدنا عمر كان حريصًا حِرْصًا بالغًا على أن يكون هذا العامل الذي يسْتَعْملهُ على مِصْرٍ، أو على قُطْرٍ من أقطار بلاد المسلمين في المستوى الراقي الذي لا تشوبُهُ شائبة.

موقف بعض شعراء الصحابة بعد نزول هذه الآية:

شيءٌ آخر مُتَعَلِّق بهذا الموضوع ؛ هو أنّ بعض أصحاب النبي عليهم رضوان الله، ومنهم سيدنا حسّان بن ثابت، ومنهم سيّدنا عبد الله بن رواحة، ومنهم كعب بن مالك كانوا شعراء، فحينما نزَلَ قوله تعالى:

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ)

(سورة الشعراء)

أتَوْا النبي عليه الصلاة والسلام وهم يبْكون فقالوا: **يا رسول الله، إنّ الله سبحانه وتعالى حينما أنزل هذه الآية يعْلَمُ أنا شُعراء، ونحن قد هَلَكْنا** فقال عليه الصلاة والسلام مُتَلَطِّفًا:

((إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأنتم هؤلاء !))

وهذا الاسْتِثناء مهمّ جدًا، فالإنسان الآن إذا كان يمْلكُ قُدْرةً لُغَوِيّة، وشِعْرِيّة، ووظَفَها في الحق، فهذا عمل طيّب، والآن بالمقاييس الملتزمة بالشِعر، يَعُدُّون الشِّعْر الملْتَزم من أرقى أنواع الشِّعْر، إن هذا الشِّعر الذي يُنافحُ عن قضيِّة، الذي يلْتَزمُ مبدأ، ويُسَخِّرُ لِخِدمة أحداث عظمى، هذا شِعر مُلْتَزِم، فسيّدنا حسّان بن ثابت، وكذا سيدنا عبد الله ابن رواحة وكعب بن مالك كان شِعرهم مُوَظَّفًا في خِدمة الحق، فالنبي عليه الصلاة والسلام اسْتَثْناهم انطلاقاً من قوله تعالى:

(إلّا الّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الّذِينَ ظَلَمُوا أيّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

(سورة الشعراء)

المؤمن يُجاهد بسَيفه ولسانه:

وقد أُثِرَ عن النبي عليه الصلاة والسلام أنَّهُ قال لِحَسّان بن ثابت هاجِهم وجبريل معك، يعني أنه أذن له في هجاء الكفار ! وكان ديوان حسّان رضي الله عنه كله في مَدْح النبي عليه الصلاة والسلام، وفي الردّ على خُصومه، وفي حديث آخر رواه الإمام أحمد في مسنده عن كعب بن مالك أنّه سأل النبي عليه الصلاة والسلام عن هذه الآية فقال:

((إنّ المؤمن يُجاهد بسَيفه ولسانه، والذي نفسي بيده لكأنّما ترمونهم به نضح النبل))

(البغوي في شرح السنة عن كعب بن مالك بسند صحيح)

أيْ هذه القصائد التي ينظمها أصحاب رسول الله في الردّ على أعداء الإسلام كأنّها نِبال تُصيبهم، وهذا بعض ما جاء في السنّة المطهّرة عن شعراء الإسلام الذي نافحوا بِشِعرهم عن هذا الدِّين العظيم.
قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226))

(سورة الشعراء)

من صفات غالب الشعراء: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ

هذا شيءٌ خطير، يقولون ما لا يفعلون ! هم في واد وأفعالهم في واد قال تعالى:

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

(سورة الشعراء)

من صفات الشعراء المؤمنين: لا يلهيهم الشعر عن ذكر الله:

أجْمَلُ ما في هذه الآية أنّ الشِّعر لم يُلْهِهم عن ذِكْر الله تعالى ؛ وهذا معنى، والمعنى الثاني أنَّهم ذكروا الله كثيرًا في شِعرهم، فشِعْرُهم كله طافِح بالحديث عن آيات الله الكونيّة، وعن رحمته وعن عظمته، وعن قدرته، وعن نبيّه صلى الله عليه وسلّم، فإذا لم يشْغل الشّعر الشاعر المؤمن عن ذِكر الله، أو أنَّه كان شعره ذكراً كثيرًا، فهذا من صفات الشاعر المؤمن. قال تعالى:

(وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا)

[سورة الشعراء]

الأمرُ بالردِّ على شعراء الأعداء:

وهذا هو الردّ على الشُّعراء الذين ناصَبُوا النبي العِداء، وكان حسّان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم يرُدُّون على خصوم الإسلام، فإذا كان الشِّعْر ردًا على خُصوم الدِّين، أو ذِكراً لآيات الله أو لأسمائه الحسنى، أو مَدْحاً للنبي الكريم، فهذا من حسنات الشعراء المؤمنين، قال تعالى:

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا)

(سورة الشعراء)

هذه مُطلقةٌ، يعني أيُّ ظالم، قال تعالى:

(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

(سورة الشعراء)

وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ

هذه لأيِّ ظالم، وبعضهم قال: سيعلمُ الذين ظالمو من هؤلاء الشعراء، ظلَمُوا الناس بهجائهم، وظلموا بمَديحهم الكاذب، وبنفاقهم، وثرْثرتهم، وإثارة الغرائز، قال تعالى:

(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

(سورة الشعراء)

سيّدنا الصِّدِيق رضي الله عنه حينما عَهِدَ بالخِلافة إلى عمر بن الخطاب كتَبَ هذه الوصيّة فقال: **بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما وصّى به أبو بكر بن أبي قِحافة عند خُروجِهِ من الدُّنيا، حين يُؤْمن الكافر، وينتهي الفاجر، ويصْدق الكاذب، إنّي استَخْلَفْتُ عليكم عمر بن الخطّاب فإن يَعْدِل فذلك ظنّي به، ورجائي، وإن يَجُر ويُبدِّل فلا عِلْم لي بالغيب**، وهي وَصِيَّةٌ رائعة جدًّا، ومات وكان هذا الذي أوصى به أبو بكر بن أبي قِحافة عند خروجه من الدنيا.. إذاً:

هذا على قول الله تعالى:

(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

(سورة الشعراء)

وكان سيّدنا عمر يقول: **تعلّموا العربيّة فإنّها من الدِّين**، إذا أردْتَ أن تدْعُوَ إلى الله عز وجل واسْتَخْدمْتَ اللّغة السليمة، والعبارة الأدبيّة القويّة، والنبي عليه الصلاة والسلام ففي ذلك أداء الرسالة الحق والخير قال:

((إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا، أَوْ إِنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ))

(رواه البخاري)

فإذا وُظِّفَتْ اللغة كما وظّفها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم في الحق فهنيئًا لمن فعله، وإذا امتلكَ أحد ناصيَةَ البيان كَهَؤُلاء الشُّعراء المنحرفين الذين يكذبون ويأفكون ويتَّهمون ويجورون ويظلمون فالويل له ثم الويل، لقوله تعالى:

(وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

(سورة الشعراء)

والحمد لله رب العالمين

الفهرس